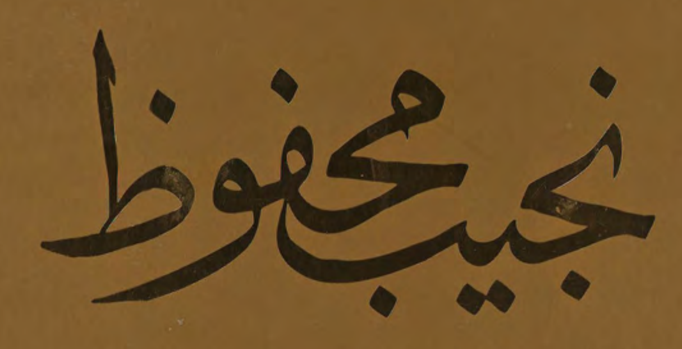


الأعمال الكاملة





دار الشروق

الغلاف والتصميم

للفنان حلمى التونى

طبعة دار الشروق الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

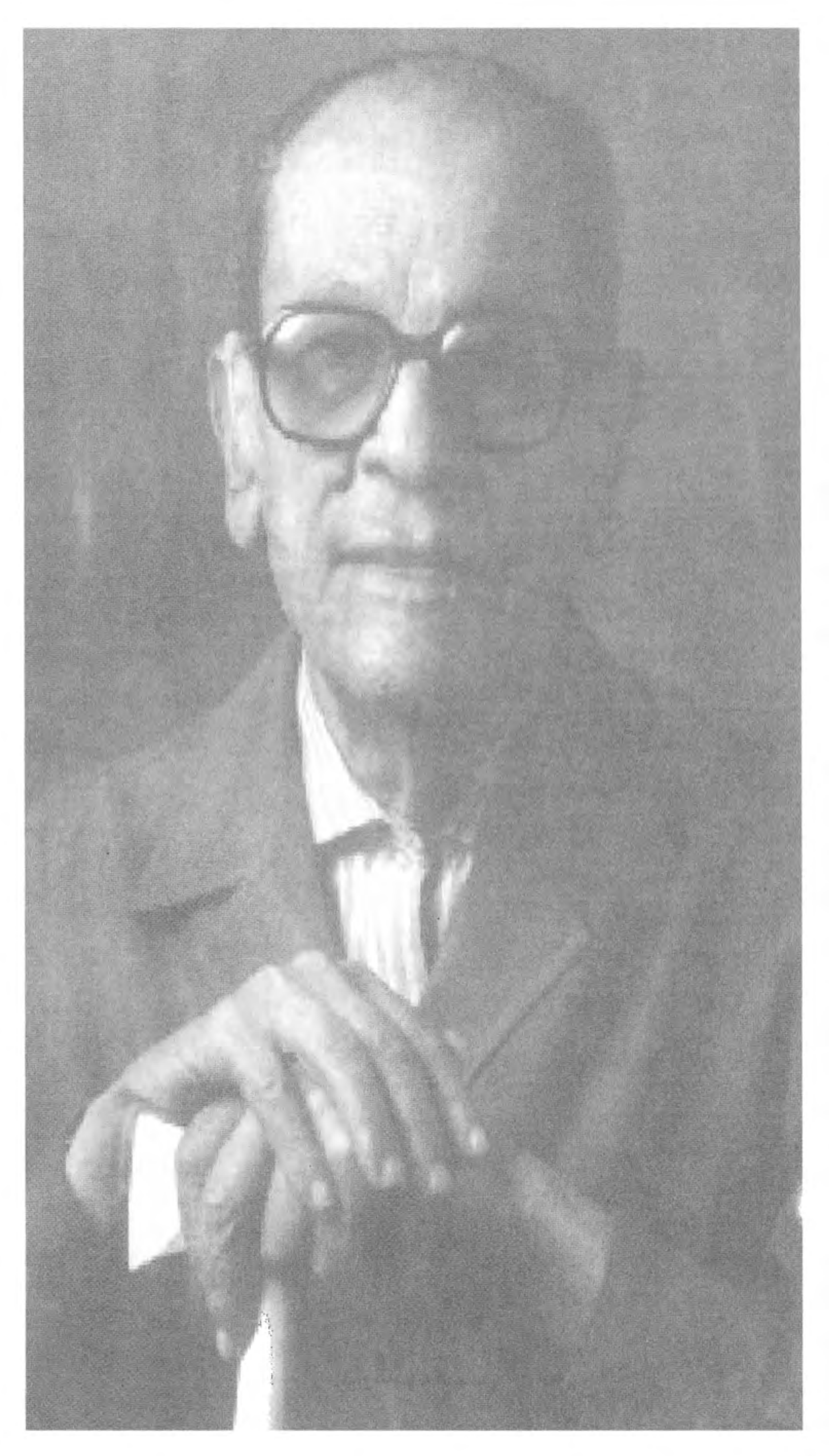
www.shorouk.com

الأعمال الكاملة

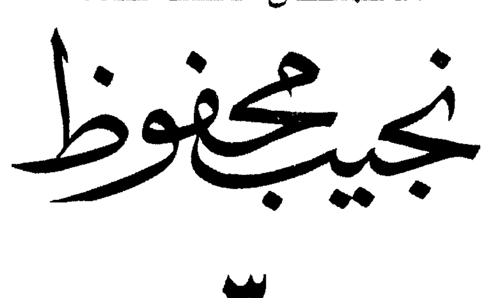
نجيب محفوظ

٣

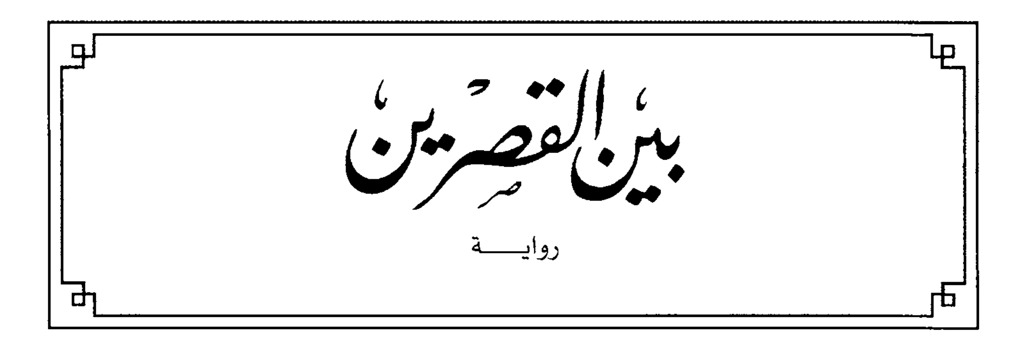
دار الشروق



الأعمال الكاملة



٣



١

عند منتصف الليل استيقظت، كما اعتادت أن تستيقظ فى هذا الوقت من كل ليلة بلا استعانة من منبِّه أو غيره ولكن بإيحاء من الرغبة التى تبيت عليها فتواظب على إيقاظها فى دقة وأمانة. وظلت لحظات على شك من استيقاظها فاختلطت عليها رؤى الأحلام وهمسات الإحساس، حتى بادرها القلق الذى يلم بها قبل أن تفتح جفنيها من خشية أن يكون النوم خانها فهزت رأسها هزة خفيفة فتحت عينيها على ظلام الحجرة الدامس. لم يكن ثمة علامة تستدل بها على الوقت، فالطريق تحت حجرتها لا ينام حتى مطلع الفجر، والأصوات المتقطعة هى التى تترامى إليها أول الليل من سمَّار المقاهى وأصحاب الحوانيت هى التى تترامى عند منتصفه وإلى ما قبيل الفجر، فلا دليل تطمئن إليه إلا إحساسها الباطن - كأنه عقرب ساعة واع - وما يشمل البيت من صمت ينم عن أن بعلها لم يطرق بابه بعد ولم تضرب طرف عصاه على درجات سلَّمه.

هى العادة التى توقظها فى هذه الساعة، عادة قديمة صاحبت شبابها منذ مطلعه ولا تزال تستأثر بكهولتها، تلقنتها فيما تلقنت من آداب الحياة الزوجية، أن تستيقظ فى منتصف الليل لتنتظر بعلها حين عودته من سهرته فتقوم على خدمته حتى ينام. وجلست فى الفراش بلا تردد لتتغلب على إغراء النوم الدافىء وبَسْملَت ثم انزلقت من تحت الغطاء إلى أرض الحجرة، ومضت تتلمس الطريق على هدى عمود السرير وضلفة الشباك حتى بلغت الباب ففتحته، فانساب إلى الداخل شعاع خافت ينبعث من مصباح قائم على الكونصول فى الصالة، فدلفت منه وحملته وعادت به إلى الحجرة وهو يعكس على السقف من فوهة زجاجته دائرة مهتزة من الضوء الشاحب تحف به حاشية من الظلال، ثم وضعته على خوان قائم بإزاء الكنبة. وأضاء المصباح الحجرة فبدت برقعتها المربعة الواسعة وجدرانها العالية وسقفها بعمده الأفقية المتوازية، إلا أنها لاحت كريمة الأثاث ببساطها الشيرازى وفراشها الكبير ذى العمد النحاسية الأربعة والصوان الضخم والكنبة الطويلة المغطَّاة بسجاد صغير المقطع مختلف النقوش والألوان. واتجهت المرأة إلى

المرآة وألقت على صورتها نظرة فرأت منديل رأسها البنى منكمشًا متراجعًا وقد تشعثت خصلات من شعرها الكستنائى فوق الجبين، فمدت أصابعها إلى عقدته فحلّتها وسوّته على شعرها وعقدت طرفيه فى أناة وعناية، ومسحت براحتيها على صفحتى وجهها كأنما لتزيل عنه ما علق به من آثار النوم. كانت فى الأربعين متوسطة القامة، تبدو كالنحيفة ولكن جسمها بض ممتلئ فى حدوده الضيقة لطيف التنسيق والتبويب. أما وجهها فمائل إلى الطول مرتفع الجبين دقيق القسمات، ذو عينين صغيرتين جميلتين تلوح فيها نظرة عسلية حالمة، وأنف صغير دقيق يتسع قليلا عند فتحتيه، وفم رقيق الشفتين ينحدر تحتهما ذقن مدبب، وبشرة قمحية صافية تلوح عند موضع الوجنة منها شامة سوادها عميق نقى. وقد بدت وهى تتلفع بخمارها كالمتعجلة. واتجهت صوب باب المشربية ففتحته ودخلت، ثم وقفت فى قفصها المغلق تردد وجهها يمنة ويسرة ملقية نظراتها من الثقوب المستديرة الدقيقة التى تملأ أضلافها المغلقة إلى الطريق.

كانت المشربية تقع أمام سبيل بين القصرين، ويلتقى تحتها شارعا النحاسين الذى ينحدر إلى الجنوب وبين القصرين الذى يصعد إلى الشمال، فبدا الطريق إلى يسارها ضيقًا ملتويًا متلفعا بظلمة تكثف فى أعاليه حيث تطل نوافذ البيوت النائمة، وتخف فى أسافله مما يلقى إليه من أضواء مصابيح عربات اليد وكلوبّات المقاهى وبعض الحوانيت التى تواصل السهر حتى مطلع الفجر، وإلى يمينها التف الطريق بالظلام حيث يخلو من المقاهى، وحيث توجد المتاجر الكبيرة التى تغلق أبوابها مبكرا، فلا يلفت النظر به إلا مآذن قلاوون وبرقوق لاحت كأطياف من المرَدَة ساهرة تحت ضوء النجوم الزاهرة. منظر ألفتْه منها العينان ربع قرن من الزمان ولكنها لم تسأمه، ولعلها لم تدر ما السأم طوال حياتها على رتابتها، وعلى العكس وجدت فيه أنيسا لوحشتها وأليفا لوحدتها عهداً طويلا عاشته وكأنه لا أنيس ولا أليف لها.

كان ذلك قبل أن يأتى الأبناء إلى هذا الوجود، فلم يكن يحوى هذا البيت الكبير - بفنائه الترّب وبئره العميقة وطابقيه وحجراته الواسعة العالية الأسقف - سواها، أكثر النهار والليل. وكانت حين زواجها فتاة صغيرة دون الرابعة عشرة من عمرها، فسرعان ما وجدت نفسها، عقب وفاة حماتها وسيدها الكبير ربة للبيت الكبير، تعاونها على أمره امرأة عجوز تغادرها عند جثوم الليل لتنام فى حجرة الفرن بالفناء تاركة إياها وحيدة فى دنيا الليل الحافلة بالأرواح والأشباح، تغفو ساعة وتأرق أخرى حتى يعود الزوج العتيد من سهرة طويلة.

ولكى يطمئن قلبها اعتادت أن تطوف بالحجرات مصطحبة خادمتها مادة يدها بالمصباح أمامها فتلقى فى أركانها نظرات متفحصة خائفة ثم تغلقها بإحكام، واحدة بعد أخرى، مبتدئة بالطابق الأول مثنية بالطابق الأعلى، وهى تتلو ما تحفظ من سور القرآن

دفعًا للشياطين، ثم تنتهى إلى حجرتها فتغلق بابها وتندس فى الفراش ولسانها لا يمسك عن التلاوة حتى يغلبها النوم، ولشد ما كانت تخاف الليل فى عهدها الأول بهذا البيت، فلم يغب عنها ـ هى التى عرفت عن عالم الجن أضعاف ما تعرفه عن عالم الإنس إنها لا تعيش وحدها فى البيت الكبير، وأن الشياطين لا يمكن أن تضل طويلا عن هذه الحجرات القديمة الواسعة الخالية، ولعلها آوت إليها قبل أن تحمل هى إلى البيت، بل قبل أن ترى نور الدنيا، فكم دبَّ إلى أذنيها همساتهم! وكم استيقظت على لفحات من أنفاسهم، وما من مغيث إلا أن تتلو الفاتحة والصمدية أو أن تهرع إلى المشربية فتمد بصرها الزائغ من ثقوبها إلى أنوار العربات والمقاهى وترهف السمع لالتقاط ضحكة أو سعلة تسترد بها أنفاسها.

ثم جاء الأبناء تباعا ولكنهم كانوا أول عهدهم بالدنيا لحما طريا لا يبدد خوفا ولا يطمئن جانبًا، وعلى العكس ضاعف من خوفها بما أثار فى نفسها المتهافتة من إشفاق عليهم وجزع أن يمسهم سوء، فكانت تحويهم بذراعيها وتغمرهم بأنفاس العطف وتحيطهم فى اليقظة والمنام بدرع من السوَر والأحجبة والرقا والتعاويذ، أما الطمأنينة الحقة فلم تكن لتذوقها حتى يعود الغائب من سهرته. ولم يكن غريبا وهى منفردة بطفلها تنومه وتلاطفه، أن تضمه إلى صدرها فجأة ثم تتصنت فى وجل وانزعاج ثم يعلو صوتها هاتفة وكأنها تخاطب شخصًا حاضراً: «ابعد عنا، ليس هذا مقامك، نحن قوم مسلمون موحدون» ثم تتلو الصمدية فى عجلة ولهوجة. وعندما طالت بها معاشرة الأرواح بتقدم الزمن تخففت من مخاوفها كثيراً واطمأنت لدرجة إلى دعاباتهم التى لم تجر عليها سوءاً قط فكانت إذا ترامى إليها حس طائف منهم قالت فى نبرات لا تخلو من دالة: «ألا تحترم عباد الرحمن! الله بيننا وبينك فاذهب عنا مكرما». ولكنها لم تكن تعرف الطمأنينة الحقة حتى يعود الغائب، أجل كان مجرد وجوده بالبيت ـ صاحيًا أو نائما ـ كفيلاً ببث السلام فى نفسها، فتحت الأبواب أم أغلقت، اشتعل المصباح أم خمد. وقد خطر لها مرة، فى العام الأول من معاشرته، أن تعلن نوعًا من الاعتراض المؤدب على سهره المتواصل فما كان منه إلا أن أمسك بأذنيها وقال لها بصوته الجهورى فى لهجة حازمة: «أنا رجل، الآمر الناهى، لا أقبل على سلوكى أية ملاحظة، وما عليك إلا الطاعة، فحاذرى أن تدفعينى إلى تأديبك»، فتعلَّمت من هذا الدرس وغيره مما لحق به أنها تطيق كل شىء ـ حتى معاشرة العفاريت ـ إلا أن يحمِّر لها عين الغضب، فعليها الطاعة بلا قيد ولا شرط، وقد أطاعت، وتفانت فى الطاعة حتى كرهت أن تلومه على سهره ولو فى سرِّها، ووقر فى نفسها أن الرجولة الحقّة والاستبداد والسهر إلى ما بعد منتصف الليل صفات متلازمة لجوهر واحد، ثم انقلبت مع الأيام تباهى بما يصدر عنه سواء ما يسرها أو يحزنها، وظلت على جميع الأحوال الزوجة المحبِّة المطيعة المستسلمة، ولم تأسف يومًا

على ما ارتضت لنفسها من السلامة والتسليم، وإنها لتستعيد ذكريات حياتها فى أى وقت تشاء فلا يطالعها إلا الخير والغبطة، على حين تلوح لها المخاوف والأحزان كالأشباح الخاوية فلا تستحق إلا ابتسامة رثاء. ألم تعاشر هذا الزوج بعلاَّته ربع قرن من الزمان فجنت من معاشرته أبناءهم قرة عينيها وبيتًا مترعًا بالخير والبركة وحياة ناضجة سعيدة.. بلى، أما مخالطة العفاريت فقد مرت كما تمر كل ليلة بسلام وما امتدت يد أحدهم إليها أو إلى أحد من أبنائها بسوء اللهم إلا ما هو بالمزاح والمداعبات أشبه، فلا وجه للشكوى، ولكن الحمد لله الذى بكلامه اطمأن قلبها وبرحمته استقامت حياتها.

حتى ساعة الانتظار هذه، على ما تقطع عليها من لذيذ المنام وما تستأديها من خدمة كانت خليقة بأن تنتهى بزوال النهار، أحبتها من أعماق قلبها، فضلا عن أنها استحالت جزءًا لا يتجزأ من حياتها، ومازجت الكثير من ذكرياتها، فإنها كانت ولم تزل الرمز الحى لحدبها على بعلها وتفانيها فى إسعاده. وإشعاره ليلة بعد أخرى بهذا التفانى وذاك الحدب. لهذا امتلأت ارتياحا وهى واقفة فى المشربية، وراحت تنقل بصرها خلال ثقوبها مرة إلى سبيل بين القصرين ومرة إلى منعطف الخرنفش وأخرى إلى بوابة حمام السلطان ورابعة إلى المآذن، أو تسرحه بين البيوت المتكأكئة على جانبى الطريق فى غير تناسق كأنها طابور من الجند فى وقفة راحة تخفف فيها من قسوة النظام. وابتسمت للمنظر الذى تحبه. هذا الطريق الذى تنام الطرق والحوارى والأزقة ويبقى ساهرا حتى مطلع الفجر، فكم سلى أرقها وآنس وحشتها وبدَّد مخاوفها لا يغير الليل منه إلا أن يغشى ما يحيط به من أحياء بالصمت العميق فيهيئ لأصواته جوًا تعلو فيه وتوضح كأنه الظلال التى تملأ أركان اللوحة فتضفى على الصورة عمقًا وجلاء، لهذا ترن الضحكة فيه فكأنها تنطلق فى حجرتها، ويسمع الكلام العادى فتميزه كلمة كلمة، ويمتد السعال ويخشوشن فيترامى لها منه حتى خاتمته التى تشبه الأنين، ويرتفع صوت النادل وهو ينادى: «تعميرة نادية» كهتاف المؤذن فتقول لنفسها فى سرور: «لله هؤلاء الناس.. حتى هذه الساعة يطلبون مزيدًا من التعميرة»، ثم تذكر بهم زوجها الغائب فتقول: «ترى أين يكون سيدى الآن؟.. وماذا يفعل؟.. فلتصحبه السلامة فى الحل والترحال». أجل قيل لها مرة إن رجلا كالسيد أحمد عبد الجواد فى يساره وقوته وجماله ـ مع سهره المتواصل ـ لا يمكن أن تخلو حياته من نساء. يومها تسممت بالغيرة وركبها حزن شديد، ولما لم تواتها شجاعتها على مشافهته بما قيل أفضت بحزنها إلى أمها، فجعلت الأم تسكن من خاطرها بما وسعها من حلو الكلام، ثم قالت لها: «لقد تزوجك بعد أن طلّق زوجته الأولى، وكان بوسعه أن يستردَّها لو شاء، أو أن يتزوج ثانية وثالثة ورابعة، وقد كان أبوه مزواجًا، فاحمدى ربنا على أنه أبقاك زوجة وحيدة». ولو أن حديث أمها لم يُجْد مع حزنها وقت اشتداده إلا أنها مع الأيام سلَّمت بما فيه من حق ووجاهة، فليكن ما قيل لها حقًا فلعله من صفات

الرجولة كالسهر والاستبداد، وشر على أى حال خير من شرور كثيرة، وليس من الهيِّن أن تسمح لوسواس بأن يفسد عليها حياتها الطيبة المليئة بالهناء والرغد، ثم لعل ما قيل بعد هذا كله أن يكون وهمًا أو كذبًا. ووجدت أن موقفها من الغيرة، شأنها حيال المتاعب التى تعترض سبيل حياتها، لا يعدو التسليم بها كقضاء نافذ لا تملك حياله شيئًا، فلم تهتد إلى وسيلة فى مقاومتها إلا أن تنادى الصبر وتستعدى مناعتها الشخصية، ملاذها الأوحد فى مغالبة ما تكره، فانقلبت الغيرة وأسبابها، كطباع زوجها الأخرى وكمعاشرة العفاريت، مما تحتمل.

جعلت تنظر إلى الطريق وتنصت إلى السمَّار حتى ترامى إليها وقع سنابك جواد فعطفت رأسها صوب النحاسين فرأت «حنطورًا» يقترب وئيدًا ومصباحاه يسطعان فى الظلام، فتنهدت فى ارتياح وغمغمت «أخيرًا . .». ها هو «حنطور» أحد أصدقائه يوصله بعد السهرة إلى باب البيت الكبير ثم يمضى كالعادة إلى الخرنفش حاملاً صاحبه ونفرًا من الأصدقاء الذين يقطنون هذا الحى، ووقف «الحنطور» أمام البيت، وارتفع صوت زوجها وهو يقول فى نبرات ضاحكة:

ـ أستودعكم الله . .

وكانت تنصت إلى صوت زوجها وهو يودع أصحابه بشغف ودهشة، ولولا أنها تسمعه كل ليلة فى مثل هذه الساعة لأنكرته، فما عهدت منه ـ هى وأبناؤها ـ إلا الحزم والوقار والتزمت، فمن أين له بهذه النبرات الطروبة الضحوكة التى تسيل بشاشة ورقَّة؟! وكأن صاحب «الحنطور» أراد أن يمازحه فقال له:

ـ أما سمعت ماذا قال الجواد لنفسه بعد نزولك من العربة؟ قال إنه من المؤسف أن أوصل هذا الرجل كل ليلة إلى بيته وهو لا يستحق أن يركب إلا حمارًا.

وانفجر الرجال بالعربة ضاحكين فانتظر السيد حتى عادوا إلى السكون ثم قال يجيبه:

ـ أما سمعت بماذا أجابته نفسه؟ . . قالت إذا لم توصله أنت فسيركب البك صاحبنا.

وضجَّ الرجال ضاحكين مرة أخرى. ثم قال صاحب العربة:

ـ فلنؤجل الباقى إلى سهرة الغد.

وتحركت العربة إلى شارع بين القصرين واتجه السيد نحو الباب فغادرت المرأة المشربية إلى الحجرة، وتناولت المصباح ومضت إلى الصالة، ومنها إلى الدهليز الخارجى حتى وقفت فى رأس السلم، وترامت إليها صفقة الباب الخارجى وهو يغلق، وانزلاق المزلاج، وتخيلته وهو يقطع الفناء بقامته المديدة مستردًا هيبته ووقاره، خالعًا مزاحه الذى لولا استراق السمع لظنَّته من مستحيل المستحيلات، ثم سمعت وقع طرف عصاه على درجات السلم فمدت يدها بالمصباح من فوق الدرابزين لتنير له سبيله.

٢

وانتهى الرجل إلى موقفها فراحت تتقدمه رافعة المصباح ، فتبعها وهو يتمتم :

ـ مساء الخير يا أمينة .

فقالت بصوت خفيض ينم عن الأدب والخضوع :

ـ مساء الخير يا سيدى .

وفى ثوان احتوتهما الحجرة ، فاتجهت أمينة إلى الخوان لتضع المصباح عليه ، فى حين علق السيد عصاه بحافة شباك السرير وخلع الطربوش ووضعه على الوسادة التى تتوسط الكنبة ، ثم اقتربت المرأة منه لتنزع عنه ملابسه ، وبدا فى وقفته طويل القامة عريض المنكبين ضخم الجسم ذا كرش كبيرة مكتنزة اشتملت عليها جميعًا جبَّة وقفطان فى أناقة وبحبحة دلَّتا على رفاهية ذوق وسخاء ، ولم يكن شعره الأسود المنبسط من مفرقه على صفحتى رأسه فى عناية بالغة ، وخاتمه ذو الفص الماسى الكبير ، وساعته الذهبية ، إلا لتؤكد رفاهة ذوقه وسخاءه . أما وجهه فمستطيل الهيئة مكتنز الأديم قوى التعبير واضح الملامح ، يدل فى جملته على بروز الشخصية والجمال بعينيه الزرقاوين الواسعتين ، وأنفه الكبير الأشم المتناسق على كبره مع بسطة الوجه ، وفمه الواسع بشفتيه الممتلئتين ، وشاربه الفاحم الغليظ المفتول طرفاه بدقة لا مزيد عليها . ولما تدانت المرأة منه بسط ذراعيه فخلعت الجبَّة عنه وأطبقتها بعناية ثم وضعتها على الكنبة ، وعادت إليه ففكَّت حزام القفطان ونزعته وجعلت تدرجه بالعناية نفسها لتضعه فوق الجبة ، على حين تناول السيد جلبابه فارتداه ثم طاقيته البيضاء فلبسها ، وتمطى وهو يتثاءب وجلس على الكنبة ومد ساقيه مسنداً قذاله إلى الحائط . وانتهت المرأة من ترتيب ملابسه فقعدت عند قدميه الممدودتين وراحت تخلع حذاءه وجوربيه ، ولما كشف قدمه اليمنى بدا أول عيب فى هذا الجسم الهائل الجميل فى خنصره الذى تآكل من توالى الكشط بالموسى فى موضع كاللو مزمن . وغادرت أمينة الحجرة فغابت دقائق ثم عادت بطست وإبريق ، فوضعت الطست عند قدمى الرجل ووقفت والإبريق فى يدها على أهبة الاستعداد ، فاستوى السيد فى جلسته ومد لها يديه فصبت له الماء فغسل وجهه ومسح على رأسه وتمضمض طويلا ، ثم تناول المنشفة من فوق مسند الكنبة ومضى يجفف رأسه ووجهه ويديه بينما حملت المرأة الطست وذهبت به إلى الحمام . كانت هذه الخدمة آخر ما تؤدى من خدمات فى البيت الكبير ، وقد واظبت عليها ربع قرن من الزمان بهمة لا يعتريها الكلال ، بل فى سرور

وانشراح، وبنفس الحماس الذى يستفزها إلى النهوض بواجبات البيت الأخرى من قبيل مطلع الشمس حتى مغيبها، فاستحقت من أجله أن يطلق عليها جاراتها اسم «النحلة» لدأبها ونشاطها المتواصلين.

وعادت إلى الحجرة فأغلقت الباب وسحبت من تحت السرير شلتة فوضعتها أمام الكنبة وتربعت عليها إذ لم تكن ترى لنفسها الحق فى أن تجلس إلى جانبه تأدبا. ومضى الوقت وهى ملازمة الصمت حتى يدعوها إلى الكلام فتتكلم، وتراخى ظهر السيد إلى مسند الكنبة، وبدا عقب سهرته الطويلة متعبًا فثقل جفناه اللذان جرى فى أطرافهما احمرار طارىء من أثر الشرب، وجعل يزفر أنفاسًا ثقيلة مخمورة. ومع أنه كان يعاقر الخمر كل ليلة، إلى إفراط فى الشرب حتى السكر، إلا أنه لم يكن ليقرر العودة إلى بيته حتى تزايله سورة الخمر ويستعيد سيطرته على نفسه حرصا منه على وقاره والمظهر الذى يحب أن يبدو به فى بيته. وكانت زوجه الشخص الوحيد من آل بيته الذى يلقاه فى أعقاب سهرته، ولكنها لم تلمس من آثار الشرب إلا رائحته، ولم تلاحظ على سلوكه شذوذًا مريبًا، إلا ما كان يبدو منه أول عهده بزواجها وقد تناسته، وعلى العكس من المنتظر جنت من مصاحبتها له فى هذه الساعة إقبالا منه فى الحديث وتبسطًا فى فنونه قل أن تظفر بمثله فى أوقات إفاقته الكاملة. وإنها لتذكر كم ارتعبت يوم أدركت أنه يعود من سهرته ثملاً، واستدعت الخمر إلى ذهنها ما يقترن بها من وحشية وجنون ومخالفة الدين وهى الأفظع، فتقززت نفسها وركبها الذعر وعانت لدى عودته كلما عاد آلاما لا قبل لها بها. وبمضى الأيام والليالى ثبت لها أنه حين عودته من سهرته يكون ألطف منه فى جميع الأوقات، فيخفف من صرامته، وترق ملاحظته، ويسترسل فى الحديث، فاستأنست إليه واطمأنت وإن لم تنس أن تضرع إلى الله أن يغفر له معصيته ويتوب عليه. ولكم تمنت لو يتطبع بنفس اللين النسبى وهو صاح منتبه، وكم عجبت لهذه المعصية التى ترقق حواشيه، وتحيرت طويلا بين ما تجد نحوها من كراهية دينية موروثة وبين ما تجنى منها من راحة وسلام، ولكنها دفنت أفكارها فى أعماق نفسها، ودارتها مداراة من لا يطيق أن يعترف بها ولو فيما بينه وبين نفسه. أما السيد فكان أحرص ما يكون على وقاره وحزمه، وما يصدر عنه من لطف فخلسة يصدر، وربما جرت على شفتيه ابتسامة عريضة - فى جلسته هذه - لذكرى طافت به من ذكريات سهرته السعيدة فسرعان ما ينتبه إلى نفسه، ويطبق شفتيه، ويسترق إلى زوجه نظرة فيجدها كعادتها بين يديه خافضة العينين، فيطمئن ويعود إلى ذكرياته. والحق أن سهرته لم تكن تنتهى بعودته إلى بيته، ولكنها تواصل حياتها فى ذكرياته، وفى قلبه الذى يجذبها إليه بقوة نهم إلى مسرات الحياة لا يروى، وكأنه لا يزال يرى مجلس الأنس تزينه النخبة المختارة من أصدقائه وأصفيائه، ويتوسطه بدر من البدور التى تطلع فى سماء حياته حينًا من بعد حين، وما برحت تطن

فى أذنيه الدعابات واللطائف والنكات التى تجود قريحته بدورها إذا هزَّه السكر والطرب، وهذه المُلح خاصة يراجعها فى عناية واهتمام ينضحان بالعجب والزهو، ويتذكر أثرها فى النفوس وما لاقت من نجاح وابتهاج جعلاه الحبيب الأول لكل نفس، ولا عجب فإنه كثيرا ما يشعر بأن الدور الذى يلعبه فى سهرته من الخطورة كأنه أمل الحياة المنشودة، وكأن حياته العملية بجملتها ضرورة يؤديها فى سبيل الفوز بساعات مترعة بالشراب والضحك والغناء والعشق يقضيها بين صحبه وخلصائه، وبين هذا وذاك تسجع فى باطنه أنغام حلوة لطيفة مما تردد فى المجلس السعيد فذهب معها وجاء وهتف وراءها من أعماق قلبه: «آه. . الله أكبر»، هذا الغناء الذى يحبه كما يحب الشراب والضحك والصحاب والبدور، فلا يطيق أن يخلو منه مجلسه، ولا يأبه للشقة البعيدة يقطعها إلى أطراف القاهرة ليسمع الحامولى أو عثمان أو المنيلاوى حيثما تكون مغانيهم، حتى آوت أنغامهم إلى نفسه السخية كما تأوى البلابل إلى شجرة مورقة، فاكتسب دراية بالنغم والمذاهب وتوِّج حجَّة فى السمع والطرب، وكان يحب الغناء بروحه وجسمه، أما روحه فتطرب وتغمرها الأريحية، وأما جسمه فتهتاج حواسه وترقص أطرافه خاصة الرأس واليدان، ولهذا احتفظت نفسه لبعض المقاطع الغنائية بذكريات روحية وجسدية لا تنسى، مثل: «وليه بقى تلاويعك وهجرك» أو «ياما بكره نعرف. . وبعده نشوف» أو «اسمع بقى وتعالى لما أقول لك» وكان حسبه أن تهفو إليه نغمة من هذه النغمات معانقة حواشيها من الذكريات كى تهيج موطن السكر من نفسه فيهز رأسه طربًا وترف على شفتيه ابتسامة أشواق ويفرقع بأصابعه وقد يشدو مترنمًا إذا كان إلى نفسه خاليًا، ومع هذا فلم يكن الغناء هوى منفرداً يجذبه لذاته فحسب، ولكنه كان زهرة فى طاقة يحلو بها وتحلو به ومرحبًا بين الصديق الصافى والحبيب الوفى والشراب المعتق والملحة العذبة، أما أن يصفو له وحده - كما يتلقى فى البيوت عن الفونوغراف - فهو جميل حبيب بلا شك، ولكنه غاب عن جوِّه وبيئته وملابساته، وهيهات أن يقنع به القلب، إنه يتوق إلى أن يفصل بين النغمة والنغمة بنكتة تهتز لها النفوس، وأن يسابق الترديد بالنهل من كأس مترعة، ويرى أثر التطريب فى وجه الصديق وعين الحبيب، ثم يتعاونون جميعًا على التهليل والتكبير. بيد أن السهرة لم يقتصر أثرها على بعث الذكريات، فمن مزاياها أيضًا أنها تهيئه فى أعقابها لأسلوب طيب من الحياة هو الذى تتلهف عليه زوجه المطيعة المستسلمة حين تجد نفسها بين يدى رجل حلو المعشر يتبسط معها فى الحديث ويفضى إليها بما فى طويته على نحو يشعرها ولو إلى حين بأنها ليست جارية فحسب ولكنها شريكة حياته أيضًا. وهكذا راح يحدثها عن شئون البيت فأنبأها بأنه أوصى بعض التجار من معارفه على شراء خزين البيت من السمن والقمح والجبن، وجعل يحمل على ارتفاع الأسعار واختفاء المواد الضرورية بسبب هذه الحرب التى تطحن العالم منذ ثلاثة أعوام،

وكعادته كلما ذكر الحرب اندفع يلعن الجنود الأستراليين الذين ينتشرون فى المدينة كالجراد ويعيثون فى الأرض الفساد. والحق أنه كان يحنق على الاستراليين لسبب خاص به وهو أنهم بجبروتهم حالوا بينه وبين مجالى اللهو والطرب فى الأزبكية فارتد عنها مغلوبًا على أمره ـ إلا فى القليل النادر من مختلس الفرص ـ لأنه لم يكن يسعه أن يعرض نفسه للجنود الذين يسلبون الناس متاعهم جهاراً ويتسلون بصب ألوان الاعتداء والإهانة عليهم بغير رادع. ثم مضى يسأل عن حال «الأولاد» كما يدعوهم بلا تفرقة بين كبيرهم الكاتب بمدرسة النحاسين وصغيرهم التلميذ بمدرسة خليل أغا ثم تساءل بلهجة ذات معنى :

ـ وكمال؟! إياك وأن تتسترى على شيطنته!

فذكرت المرأة ابنها الصغير الذى تتستر عليه. حقًا فيما لا خطر له من اللعب البرىء، وإن كان السيد لا يعترف ببراءة أى لون من ألوان اللعب واللهو، وقالت بصوتها الخاشع :

ـ إنه يلتزم أوامر أبيه.

وصمت السيد قليلا فبدا كالشارد، وعاد يقطف من ذكريات ليلته السعيدة، ثم تراجع مؤشر ذاكرته إلى ما سبق سهرته من أحداث يومه فذكر فجأة أنه كان يومًا حافلا، ولما كان فى حال لا يستحب معها كتمان شىء مما يطفو على سطح الوعى فقد قال وكأنه يخاطب نفسه :

ـ يا له من رجل كريم الأمير كمال الدين حسين! أما علمت بما فعل؟ . . أبى أن يعتلى عرش أبيه المتوفى فى ظل الإنجليز.

ومع أن المرأة علمت بوفاة السلطان حسين كامل أمس إلا أنها كانت تسمع اسم ابنه لأول مرة، ولم تجد ما تقول ولكنها ـ مدفوعة بعواطف الإجلال للمتكلم ـ كانت تخاف ألا تعلق على كل كلمة يقولها بما يرضيه فقالت :

ـ رحم الله السلطان وأكرم ابنه.

فاستطرد السيد قائلا :

ـ وقبل العرش الأمير أحمد فؤاد أو السلطان أحمد فؤاد كما سيدعى من الآن فصاعدا، وقد تم الاحتفال بتوليته اليوم فانتقل فى موكبه من قصر البستان إلى سراى عابدين . . وسبحان من له الدوام.

وأصغت أمينة إليه باهتمام وسرور، اهتمام يستثيره فى نفسها أى نبأ يجىء من العالم الخارجى الذى تكاد لا تعرف عنه شيئا، وسرور يبعثه ما تجد فى حديث بعلها معها عن هذه الشئون الخطيرة من لفتة عطف تزدهيها، إلى ما فى الحديث نفسه من ثقافة يلذ لها أن تعيدها على مسمع من أبنائها وخاصة فتاتيها اللتين تجهلان مثلها العالم الخارجى جهلا

تاما، ولم تجد لتجزيه عن كريم عطفه خيرا من أن تردد على مسمعيه دعاء تعلم مقدمًا بمقدار ارتياحه إليه كما ترتاح إليه هى من أعماقها فقالت:

ـ ربنا قادر على أن يعيد إلينا أفندينا عباس.

فهز الرجل رأسه وتمتم قائلا:

ـ متى؟ . . متى؟ . . علم هذا عند ربى . . ما نقرأ فى الجرائد إلا عن انتصارات الإنجليز، فهل ينتصرون حقا أو ينتصر الألمان والترك فى النهاية؟ اللهم استجب.

وأغمض الرجل عينيه إعياء، وتثاءب، ثم تمطى وهو يقول:

ـ أخرجى المصباح إلى الصالة.

ونهضت المرأة قائمة وذهبت إلى الخوان فتناولت المصباح ومضت إلى الباب، وقبل أن تجوز العتبة سمعت السيد وهو يتجشأ فتمتمت:

ـ صحة وعافية . .

٣

وفى هدوء الصباح الباكر، وذيول الفجر لا تزال ناشبة فى أسهم الضياء، تعالى صوت العجين من حجرة الفرن بالفناء فى ضربات متتابعة كدوى الطبل، وكانت أمينة قد غادرت الفراش قبل هذا بنحو نصف ساعة. فتوضأت وصلّت ثم نزلت إلى حجرة الفرن فأيقظت أم حنفى ـ امرأة فى الأربعين خدمت وهى صبية بالبيت وفارقته للزواج ثم عادت إليه بعد طلاق ـ وبينما نهضت الخادم لتعجن عكفت أمينة على إعداد الفطور. وكان للبيت فناء متسع، فى أقصاه إلى اليمين بئر سدت فوهتها بعارض خشبى مذ دبت أقدام الصغار على الأرض وما تبع هذا من إدخال مواسير المياه، وفى أقصى اليسار على كثب من مدخل الحريم حجرتان كبيرتان أقيمت الفرن فى إحداهما واستعملت بالتالى مطبخًا، وأعدت الأخرى مخزنا. وكان لحجرة الفرن على عزلتها علاقة بقلبها لا تهن، فلو حسب الزمن الذى قضته بين جدرانها لكان عمرا، إلى ما تتزين به الحجرة من مباهج المواسم عند حلولها حين تتطلع إليها القلوب الهاشة لأفراح الحياة، وتتحلب الأفواه لألوان الطعام الشهية التى تقدمها موسمًا بعد موسم كخشاف رمضان وقطائفه، وكعك عيد الفطر وفطائره، وخروف عيد الأضحى الذى يسمن ويدلل ثم يذبح على مشهد من الأبناء فلا يعدم دمعة رثاء وسط بهجة شاملة، هنالك تبدو عين الفرن المقوسة يلوح فى

أعماقها وهج النار كجذوة السرور المشتعلة فى السرائر وكأنها زينة العيد وبشائره. وإذا كانت أمينة تشعر بأنها فى أعلى البيت سيدة بالنيابة وممثلة لسلطان لا تملك منه شيئا، فهى فى هذا المكان ملكة لا شريك لها فى ملكها، فهذه الفرن تموت وتحيا بأمرها، وهذا الوقود من فحم وحطب فى الركن الأيمن يتوقف مصيره على كلمة منها، والكانون الذى يحتل الركن المقابل تحت رفوف الحلل والأطباق والصينية النحاسية ينام أو يزغرد بألسنة اللهب بإشارة منها. وهى هنا الأم والزوجة والأستاذة والفنانة التى يترقب الجميع والثقة ملء قلوبهم ما تقدم يداها، وآية ذلك أنها لا تفوز بإطراء سيدها إذا تفضل بإطرائها إلا عن لون من الطعام أحكمت صنعه وطهيه، وأم حنفى كانت اليد اليمنى فى هذه المملكة الصغيرة، سواء تصدت للإدارة والعمل أم تخلَّت عن مكانها لإحدى فتاتيها لتتمرس بفنها تحت إشرافها، وهى امرأة بدينة فى غير تنسيق ولا تفصيل، نما لحمها نموا سخيا فراعى فى نموه السمنة فحسب وأهمل اعتبارات الجمال، بيد أنها رضيت عنه كل الرضا لأنها كانت تعد السمنة فى ذاتها الجمال كل الجمال، ولا عجب فقد كان كل عمل لها فى البيت يكاد يعد ثانويا بالقياس إلى واجبها الأول وهو تسمين الأسرة ـ أو بالأحرى إناثها ـ بما تعد لهن من «بلابيع» سحرية هى رقية الجمال وسره المكنون، ومع أن أثر البلابيع لم يكن ناجعا دائمًا إلا أنه برهن على جدارته فى أكثر من مرة فاستحق ما يناط به من آمال وأحلام. فليس عجيبًا بعد هذا أن تسمن أم حنفى، على أن سمنتها لم تقلل من نشاطها، فما أن أيقظتها سيدتها حتى نهضت بنفس متفتحة للعمل، وخفَّت إلى «ماجور» العجين. وتعالى صوت العجين الذى يؤدى وظيفة جرس المنبه فى هذا البيت، فترامى إلى الأبناء فى الدور الأول، ثم تصاعد إلى الأب فى الدور الأعلى، منذرًا الجميع بأن وقت الاستيقاظ قد أزف. وتقلب السيد أحمد عبد الجواد على جنبيه ثم فتح عينيه، وسرعان ما قطب حانقا على الصوت الذى أزعج منامه، ولكنه كظم حنقه لأنه كان يعلم أنه يجب أن يستيقظ، وتلقى أول إحساس يتلقاه عادة عقب استيقاظه وهو ثقل الرأس فقاومه بقوة إرادته وجلس فى فراشه وإن كانت تغلبه الرغبة فى معاودة النوم. ولم تكن لياليه الصاخبة لتنسيه واجب النهار. فهو يستيقظ فى هذه الساعة الباكرة مهما تأخر به وقت النوم حتى يتسنى له الذهاب إلى متجره قبيل الثامنة، ثم له فى القيلولة فسحة من وقت يعتاض بها عما فاته من نوم، ويستعيد نشاطه للسهرة الجديدة. لهذا كان وقت استيقاظه أسوأ أوقات يومه جميعا، يغادر الفراش مترنحا من الإعياء والدوار، ويستقبل حياة عاطلة من حلو الذكريات ولطيف المشاعر وكأنها تستحيل دقًا فى الدماغ والجفون.

وتوالت دقات العجين على رءوس النائمين بالدور الأول فاستيقظ فهمى، وكان استيقاظه يسيرا على رغم سهره عاكفًا على كتب القانون، فإذا استيقظ فأول إحساس يبادره صورة وجه مستدير تتوسط صفحته العاجية عينان سوداوان فيهمس باطنه قائلا:

«مريم»، ولو أذعن لسلطان الإغراء للبث تحت الغطاء طويلا، خاليا إلى الخيال الزائر الذى جاء يصحبه بألطف الهوى، فيرنو إليه ما دعاه الشوق ويبادله الحديث ويبوح له بأسرار وأسرار، ويتدانى إليه بجسارة لا تتأتى فى غير هذا الرقاد الدافىء فى مطلع الصباح، ولكنه كعادته أجَّل نجواه إلى صباح الجمعة وجلس فى فراشه، ثم مد بصره إلى أخيه النائم فى الفراش الذى يليه وهتف:

ـ ياسين.. ياسين.. اصح.

انقطع شخير الشاب، ونفخ فيما يشبه الضيق وتمتم من أنفه:

ـ صاح.. استيقظت قبلك.

فانتظر فهمى مبتسمًا حتى عاود الآخر شخيره فصاح به:

ـ اصــح..

فتقلب ياسين فى فراشه متذمرا فانحسر الغطاء عن جانب من جسمه الذى يضاهى جسم والده ضخامة وبدانة، ثم فتح عينين محمرتين تلوح فيهما نظرة غائبة ارتسمت فوقها تقطيبة تنطق بالتذمر: «أف.. كيف طلع الصباح بهذه السرعة!.. لماذا لا ننام حتى نشبع.. النظام.. دائمًا النظام.. كأننا عساكر»، ونهض معتمدا على يديه وركبتيه وهو يحرك رأسه لينفض عنه النعاس فلاحت منه التفاتة إلى الفراش الثالث حيث يغط كمال فى نومه الذى لن ينتزعه منه أحد قبل نصف ساعة فغبطه عليه «يا له من غلام سعيد!». ولما أفاق قليلا تربع على الفراش وأسند رأسه إلى يديه، ورغب فى معابثة الخواطر اللذيذة التى تحلو بها أحلام اليقظة ولكنه كان يستيقظ ـ كأبيه ـ على حال من ثقل الرأس تتعطل معها الأحلام، ولاحت لمخيلته زنوبة العوادة فلم تترك فى حساسيته أثرا مما تترك فى صحوه وإن افترت شفتاه عن ابتسامة.

وفى الحجرة المجاورة كانت خديجة قد غادرت الفراش دون حاجة إلى منبه العجين. كانت أشبه الأسرة بأمها فى نشاطها ويقظتها، أما عائشة فتستيقظ عادة على الحركة التى كانت تنبعث فى السرير من نهوض شقيقتها وانزلاقها إلى أرض الحجرة فى عنف متعمد يجر وراءه جدلا وملاحاة انقلبا مع التكرار نوعا من الدعابة الفظة، فإذا استيقظت وفزعت من النقار لم تنهض، ولكنها تستسلم لحلم طويل من أحلام اليقظة السعيدة قبل أن تغادر فراشها.

ثم دبت الحياة فشملت الدور الأول كله، فتحت النوافذ وتدفق النور إلى الداخل وعلى أثره هفا الهواء حاملا صلصلة عجلات سوارس وأصوات العمال ونداء بائع البليلة، وتواصلت الحركة ما بين غرفتى النوم والحمام وبدا ياسين فى جلبابه الفضفاض بلحمه المتكتل، وفهمى بطوله الفارع وقدِّه النحيف وكان ـ فيما عدا نحافته ـ صورة من

أبيه. وهبطت الفتاتان إلى الفناء لتلحقا بأمهما فى حجرة الفرن، وكان فى صورتيهما اختلاف قلَّ أن يوجد مثله فى الأسرة الواحدة، خديجة سمراء وفى قسمات وجهها تنافِر ملحوظ، وعائشة شقراء تشع هالة من حسن ورواء.

ومع أن السيد أحمد كان فى الدور الأعلى بمفرده إلا أن أمينة لم تدعه فى حاجة إلى إنسان. وجد على الخوان طبق فنجان مملوءاً حلبة ليغير ريقه عليها، وذهب إلى الحمام فتطاير إلى أنفه عرف البخور الطيب، وألفى على الكرسى ثيابًا نظيفة مرتبة فى عناية، فاستحم بالماء البارد كعادته كل صباح ـ عادة لا ينقطع عنها صيفًا أو شتاء ـ ثم عاد إلى حجرته مستجدا حيوية ونشاطا، ثم جاء بسجادة الصلاة ـ وكانت مطوية على مسند الكنبة ـ فبسطها وأدى فريضة الصبح، صلى بوجه خاشع، وهو غير الوجه البسام المشرق الذى يلقى به أصحابه، وغير الوجه الحازم الصارم الذى يواجه به آل بيته، هذا وجه خافض الجناح تقطر التقوى والحب والرجاء من قسماته المتراخية التى ألانها التزلف والتودد والاستغفار. لم يكن يصلى صلاة آلية قوامها التلاوة والقيام والسجود، ولكن صلاة عاطفة وشعور وإحساس يؤديها بنفس الحماس الذى ينفضه على ألوان الحياة التى يتقلب فيها جميعا، كما يعمل فيتفانى فى عمله، ويصادق فيفرط فى مودته، ويعشق فيذوب فى عشقه، ويسكر فيغرق فى سكره. مخلصًا صادقًا فى كل حال، هكذا كانت الفريضة حجة روحية يطوف فيها برحاب المولى، حتى إذا انفتل من صلاته تربع وبسط راحتيه وراح يدعو الله أن يكلأه برعايته ويغفر له ويبارك فى ذريته وتجارته.

وفرغت الأم من تجهيز الفطور فتركت للفتاتين إعداد الصينية وطلعت إلى حجرة الإخوة حيث وجدت كمالا ما زال يغط فى نومه، فأقبلت عليه باسمة وحطَّت راحتها على جبينه وتلت الفاتحة، وجعلت تناديه وتهزه برفق حتى فتح عينيه، ولم تدعه حتى فارق الفراش. ودخل فهمى الحجرة فلما رآها ابتسم إليها وحياها تحية الصباح فردت عليه قائلة ونظرة الحب تترقرق فى عينيها:

ـ صباح النور يا نور العين.

وبنفس الرقة صبحت على ياسين «ابن» زوجها فرد عليها بمودة خليقة بالمرأة التى تنزل من نفسه منزلة الأم الجديرة بهذا الاسم. ولما عادت خديجة من حجرة الفرن تلقاها فهمى وياسين ـ وياسين خاصة ـ بما يغمرانها به عادة من دعابة. وكانت مثار دعابة سواء بصورتها المتنافرة أو بلسانها الحاد رغم ما لها من نفوذ على الأخوين بما تتعهد من شئونهما بمهارة فائقة يندر أن تجود بمثلها عائشة التى تلوح وسط الأسرة كالرمز الجميل رواء وجاذبية وعدم فائدة. وبادرها ياسين قائلا:

ـ كنا نتحدث عنك يا خديجة، وكنا نقول إنه لو كان النساء جميعًا على شاكلتك لارتاح الرجال من متاعب القلوب.

فقالت على البداهة :

ـ ولو كان الرجال على شاكلتك لارتاحوا جميعا من متاعب الرءوس . . عند ذلك هتفت الأم قائلة :

ـ أعد الفطور يا سادة .

٤

كانت حجرة الطعام بالدور الأعلى حيث توجد حجرة نوم الوالدين ، وكان بنفس الدور غير هاتين الحجرتين أخرى للجلوس وأربع خالية إلا من بعض أدوات اللعب التى يلهو بها كمال فى أوقات فراغه . وكان السماط قد أعد وصفت حوله الشلت ، ثم جاء السيد فتصدره متربعا ، ودخل الإخوة الثلاثة تباعا فجلس ياسين إلى يمين أبيه ، وفهمى إلى يساره ، وكمال قبالته . جلس الإخوة فى أدب وخشوع ، خافضى الرءوس كأنهم فى صلاة جامعة ، يستوى فى هذا كاتب مدرسة النحاسين وطالب مدرسة الحقوق وتلميذ خليل أغا . فلم يكن أحد منهم ليجترىء على التحديق فى وجه أبيه . وأكثر من هذا كانوا يتجنبون فى محضره تبادل النظر أن يغلب أحدهم الابتسام لسبب أو لآخر فيعرض نفسه لزجرة مخيفة لا قبل له بها . ولم يكن يجمعهم بأبيهم إلا مجلس الفطور لأنهم يعودون إلى البيت عصرا بعد أن يكون السيد قد غادره إلى دكانه عقب تناول الغداء والقيلولة ، ثم لا يعود إليه إلا بعد منتصف الليل ، وكانت الجلسة على قصر مدتها شديدة الوطأة على نفوسهم بما يلتزمون فيها من أدب عسكرى إلى ما يركبهم من رهبة تضاعف من حساسيتهم وتجعلهم عرضة للهفوات بطول تفكيرهم فى تحاميها ، فضلا عن أن الفطور نفسه يتم فى جو يفسد عليهم تذوقه واستلذاذه ، ولم يكن غريبا أن يقطع السيد الفترة القصيرة التى تسبق مجىء الأم بصينية الطعام فى تفحص أبنائه بعين ناقدة حتى إذا عثر على خلل ولو تافه فى هيئة أحدهم أو بقعة فى ثوبه انهال عليه نهرا وتأنيبا ، وربما سأل كمال بغلظة : «غسلت يديك؟» فإذا أجابه بالإيجاب قال له آمرا : «أرنيهما» فيبسط الغلام كفيه وهو يزدرد ريقه فرقا ، وبدلاً من أن يشجعه على نظافته يقول له مهددا : «إذا نسيت مرة أن تغسلهما قبل الأكل قطعتهما وأرحتك منهما» . أو يسأل فهمى قائلا : «أيذاكر ابن الكلب دروسه أم لا؟» . ويعرف فهمى بالبداهة من يعنى لأن «ابن الكلب» عند السيد كناية عن كمال فيجيب بأنه يحفظ دروسه جيدا . والحق أن شطارة الغلام ـ التى استوجب عليها حنق أبيه ـ لم تقعد به عند الجد والاجتهاد كما يدل عليهما نجاحه وتفوقه ، ولكن السيد كان يطالب أبناءه بالطاعة العمياء الأمر الذى لا يطيقه غلام اللعب أحب إليه

من الطعام، ولهذا يعلق على إجابة فهمى قائلا بامتعاض: «الأدب مفضل على العلم»، ثم يلتفت إلى كمال ويستطرد بحدة: «سامع يابن الكلب!».

وجاءت الأم حاملة صينية الطعام الكبيرة فوضعتها فوق السماط وتقهقرت إلى جدار الحجرة على كثب من خوان وضعت عليه «قلة»، ووقفت متأهبة لتلبية أية إشارة. وكان يتوسط الصينية النحاسية اللامعة طبق كبير بيضاوى امتلأ بالمدمس المقلى بالسمن والبيض، وفى أحد طرفيها تراكمت الأرغفة الساخنة، وفى الطرف الآخر صفَّت أطباق صغيرة بالجبن، والليمون والفلفل المخللين، والشطة والملح والفلفل الأسود، فهاجت بطون الإخوة بشهوة الطعام، ولكنهم حافظوا على جمودهم متجاهلين المنظر البهيج الذى أنزل عليهم كأنه لم يحرك فيهم ساكنا، حتى مد السيد يده إلى رغيف فتناوله ثم شطره وهو يتمتم: «كلوا»، فامتدت الأيدى إلى الأرغفة فى ترتيب يتبع السن، ياسين ففهمى ثم كمال وأقبلوا على الطعام ملتزمين أدبهم وحياءهم. ومع أن السيد كان يلتهم طعامه فى وفرة وعجلة وكأن فكيه شطرا آلة قاطعة تعمل فى سرعة وبلا توقف، ومع أنه كان يجمع فى لقمة كبيرة واحدة من شتى الألوان المقدمة ـ الفول والبيض والجبن والفلفل والليمون المخلل ـ ثم يأخذ فى طحنها بقوة وسرعة وأصابعه تعد اللقمة التالية، إلا أنهم كانوا يأكلون متمهلين فى أناة بالرغم مما يحملهم تمهلهم من صبر لا يتفق وطبيعتهم الحامية، فلم يكن ليغيب عن أحدهم ما قد يتعرض له من ملاحظة شديدة أو نظرة قاسية إذا تهاون أو ضعف فنسى نفسه وغفل بالتالى عما يأخذها به من التأنى والأدب. وكان كمال أشدهم تبرما لأنه كان أعظمهم تخوفا من أبيه، وإذا كان أكثر ما يتعرض له أحد أخويه نهرة أو زجرة فأقل ما يتعرض له هو ركلة أو لكمة، فلذلك كان يتناول طعامه فى حذر وضيق. مسترقا النظر بين آونة وأخرى إلى المتبقى من الطعام الذى يتناقص سريعا، وكلما تناقص اشتد قلقه، وانتظر فى جزع أن يصدر عن أبيه ما يدل على فراغه من طعامه فيخلو له الجو ليملأ بطنه. وعلى رغم سرعة أبيه فى الالتهام وضخامة لقمته وتشبعها بشتى الأصناف كان يعلم بالتجربة أن ما يتهدد الطعام ـ وما يتهدده هو بالتالى ـ من ناحية أخويه أشد وأنكى، لأن السيد كان سريع الأكل سريع الشبع، أما أخواه فكانا يبدءان المعركة حقًا عقب جلاء السيد عن السفرة، ثم لا يتخليان عنها حتى تخلو الأطباق من كل شىء يؤكل، ولهذا فما كاد السيد ينهض قائمًا ويفارق الحجرة حتى شمر عن ساعديه وهجم على الطبق كالمجنون مستغلا يديه الاثنتين، يدًا للطبق الكبير، ويدًا للأطباق الصغيرة، بيد أن اجتهاده بدا قليل الجدوى فيما انبعث من نشاط الأخوين فلجأ إلى الحيلة التى يستغيث بها كلما هدد سلامته مهدد فى مثل هذه الحال، وهى أن يعطس فى الطبق عامدًا متعمدًا، وعطس، فتراجع الأخوان، ونظرا إليه حانقين، ثم غادرا المائدة وهما غارقين فى الضحك، فتحقق له حلم الصباح وهو أن يجد نفسه وحيدا فى الميدان.

وعاد السيد إلى حجرته بعد أن غسل يديه فلحقت به أمينة وبيدها قدح مزجت به

ثلاث بيضات نيئات بقليل من اللبن وقدمته له فتجرعه ثم جلس ليحسو قهوة الصبح، وهذا القدح الدسم خاتمة فطوره، وهو «وصفة» من وصفات يداوم عليها بعد الوجبات أو فيما بينها - كزيت السمك، والجوز واللوز والبندق المسكَّرة - رعاية لصحة بدنه الضخم، وتعويضًا له عما تستهلكه منه الأهواء، إلى اقتصاره على اللحوم بأنواعها والأغذية المشهورة بدسمها حتى ليعد الأكلة الخفيفة بل والعادية «لعبا» و«تضييع وقت» لا يجملان بمثله. وقد وصف له الحشيش كفاتح للشهية - إلى فوائده الأخرى - فجرَّبه ولكنه لم يألفه وانصرف عنه غير آسف وقد ساء به ظنه لما يورث من ذهول وقور مشبع بالهدوء ميَّال للصمت مشعر بالانفراد ولو بين الصفوة من الأصدقاء، فنفر من أعراضه تلك التى تتجافى مع سجيته المولعة بصبوات المرح ونشوات الهياج ولذات الاندماج فى النفوس ووثبات المزاح والقهقهة، ولكيلا يفقد مزاياه الضرورية لفحول العشاق اعتاض عنه بنوع نفيس من المنزول اشتهر به محمد العجمى بائع الكسكسى عند مطلع الصالحية بالصاغة، وكان يعده خاصة لصفوة زبائنه من التجار والأعيان، ولم يكن السيد من مدمنى المنزول ولكنه كان يلم به بين حين وآخر كلما استقبل هوى جديدا خاصة إذا كانت المعشوقة امرأة خبيرة بالرجال وأحوالهم. فرغ السيد من حسو قهوته ثم نهض إلى المرآة وراح يرتدى ملابسه التى قدمتها إليه أمينة قطعة قطعة، وألقى على صورة هندامه نظرة متفحصة، ومشط شعره الأسود المرسل على صفحتى رأسه، ثم سوى شاربه وفتله، وتفرس فى هيئة وجهه ثم عطفه رويدا إلى اليمين ليرى جانبه الأيسر، ثم إلى اليسار ليرى جانبه الأيمن، حتى إذا ارتاح إلى منظره مد يده إلى زوجه فناولته زجاجة الكولونيا التى عبأها له عم حسنين الحلاق فغسل يديه ووجهه ونضح صدر قفطانه ومنديله، ثم وضع الطربوش على رأسه وأخذ عصاه وغادر الحجرة ناشرا بين يديه ومن خلفه عرفا طيبا. ذلك العرف المقطر من شتى الأزهار يعرفه أهل البيت جميعا، وإذا تنشقه أحدهم تمثل لعينيه السيد بوجهه الوقور الحازم، فينبعث فى قلبه - مع الحب - الإجلال والخوف. إلا أن انتشاره فى هذه الساعة من الصباح كان إيذانا بذهاب السيد، فالنفوس تتلقاه بارتياح غير منكور على براءته، كارتياح الأسير إلى صليل السلاسل وهى تنفك عن يديه وقدميه، ويعلم كلٌّ بأنه سيسترد حريته عما قليل فى الكلام والضحك والغناء والحركة دون ثمة خطر. كان ياسين وفهمى قد فرغا من ارتداء ملابسهما، أما كمال فقد هرع إلى الحجرة عقب خروج أبيه مباشرة ليشبع رغبته فى محاكاة حركاته التى يختلس النظر إليها من زيق الباب الموارب، فوقف أمام المرآة ينظر إلى صورته بإمعان وارتياح ثم قال مخاطبا أمه بلهجة آمرة وهو يغلظ نبرات صوته «زجاجة الكولونيا يا أمينة»، وكان يعلم أنها لا تلبى هذا النداء ولكنه جعل يمسح على وجهه وجاكيتته وبنطلونه القصير بيديه كأنه يبلها بالكولونيا، ومع أن أمه كانت تغالب الضحك إلا أنه ثابر على التظاهر بالجد والصرامة، وراح يستعرض وجهه

فى المرآة من جانبه الأيمن إلى الأيسر، ثم مضى يسوى شاربه الوهمى ويفتل طرفيه، ثم تحول عن المرآة وتجشأ، ونظر صوب أمه، ولما لم يجد منها إلا الضحك قال لها محتجا: «لماذا لا تقولين لى صحة وعافية؟». فغمغمت المرأة ضاحكة: «صحة وعافية يا سيدى»، هنالك غادر الحجرة مقلدا مشية أبيه محركا يمناه كأنه يتوكأ على عصاه.

وبادرت الأم والفتاتان إلى المشربية ووقفن وراء شباكها المطل على النحاسين ليرين من ثقوبه رجال الأسرة فى الطريق، وبدا السيد وهو يسير فى تؤدة ووقار يحف به الجلال والجمال رافعا يديه بالتحية بين حين وآخر وقد وقف له عم حسنين الحلاق والحاج درويش بائع الفول والفولى اللبان وبيومى الشربتلى، فأتبعنه أعينا مترعة بالحب والزهو، وتلاه فهمى فى مشيته المتعجلة، ثم ياسين فى جسم الثور وأناقة الطاووس، وأخيرا ظهر كمال فلم يكد يخطو خطوتين حتى استدار ورفع بصره إلى الشباك الذى يعلم أن أمه وشقيقتيه مستخفيات وراءه، وابتسم، ثم واصل سيره متأبطا حقيبة كتبه منقبا فى الأرض عن زلطة يركلها.

كانت هذه الساعة من أسعد أوقات الأم، بيد أن إشفاقها من شر الأعين على رجالها لم يقف عند حد، فلم تكن تمسك عن تلاوة: «ومن شر حاسد إذا حسد» حتى يغيبوا عن عينيها.

٥

وغادرت الأم المشربية، وتبعتها خديجة، على حين تلكأت عائشة حتى خلا لها الجو فانتقلت إلى جانب المشربية المطل على بين القصرين ومدت بصرها من ثقوب الشباك فى اهتمام ولهفة. بدا من لمعة عينيها وعضها على شفتيها أنها تنتظر. ولم يطل بها الانتظار فقد مرق من عطفة الخرنفش ضابط بوليس شاب ومضى مقبلا متمهلا فى طريقه إلى قسم الجمالية، عند ذلك غادرت الفتاة المشربية فى عجلة إلى حجرة الاستقبال، واتجهت إلى نافذتها الجانبية وأدارت أكرتها ففرجت مصراعيها عن زيق ووقفت وراءه وقلبها يبعث ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معًا، ولما اقترب الضابط من البيت رفع عينيه فى حذر دون أن يرفع رأسه - فلم يكن أحد يرفع رأسه فى مصر وقتذاك - فأضاءت أساريره بنور ابتسامة متوارية انعكست على وجه الفتاة إشراقة موردة بالحياء فتنهدت.. ثم أغلقت النافذة وهى تشد عليها بعصبية - كأنها تخفى آثار جريمة دامية - وتراجعت عنها مغمضة العينين من شدة الانفعال، فأسلمت نفسها إلى مقعد وأسندت رأسها إلى يدها وساحت فى جو مشاعرها اللانهائى. لم تكن سعادة خالصة، ولم يكن خوفًا خالصا،

كان قلبها موزعا بين هذا وتلك فهما يتجاذبانه بلا رحمة، إذا استنامت إلى نشوة الفرح وسحره قرعت قلبها مطرقة الخوف محذرة متوعدة فلا تدرى أيجمل بها أن تقلع عن مغامرتها أم تتمادى فى مطاوعة قلبها. كلا الحب والخوف شديد، ولبثت فى تهويمها كثيراً أو قليلا، فاستكنت هواتف الخوف والتأنيب، ومضت تنعم بسكرة الحلم فى ظل سلام، وذكرت - كما يلذ لها أن تذكر دائما - كيف كان تنفض الستارة المسدلة على النافذة يومًا فلاحت منها نظرة إلى الطريق من النافذة التى فتحت نصف فتحة لطرد الغبار فوقعت عليه وهو يتطلع إلى وجهها فى دهشة مقرونة بالإعجاب، فتراجعت فيما يشبه الذعر، ولكنه لم يذهب قبل أن يترك فى مخيلتها أثرًا باقيًا من منظر نجمته الذهبية وشريطه الأحمر، منظر يخلب اللب ويسرق الخيال، فظل يتخايل لعينيها طويلا، وفى نفس الساعة من اليوم التالى - والأيام التالية - راحت تقف وراء الخصاص دون أن يراها، ولمست فى فرحة ظافرة كيف يتطلع بعينيه إلى النافذة المغلقة باهتمام وتشوق، ثم كيف أخذ يستبين شبحها وراء الخصاص فتشع أساريره ضياء البهجة، وقلبها المشبوب - الذى يتمطى مستيقظًا لأول مرة - ينتظر هذه اللحظة فى لهفة ويذوقها فى سعادة ويودعها فيما يشبه الحلم، حتى دار الشهر دورته وعاد يوم التنفيض مرة أخرى فانبرت إلى الستارة تنفضها وراء النافذة الموارية متعمدة - هذه المرة - أن ترى، وهكذا يومًا بعد يوم، وشهراً بعد شهر، حتى غلب التعطش للمزيد من الحب الخوف الجاثم فخطت خطوة - جنونية - وفرجت مصراعى النافذة ووقفت وراءها وقلبها يبعث ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معًا، كأنها تعلن حبها له، بل كانت كمن يقذف بنفسه من علو ساحق ليتقى نارا مستعرة تحيط به.

* * *

استكنت عواطف الخوف والتأنيب ومضت تنعم بسكره الحلم فى ظل سلام، ثم أفاقت من حلمها، وصممت على أن تتحامى الخوف الذى ينغص عليها صفوها فجعلت تقول لنفسها استدرارا للطمأنينة: «لم تزلزل الأرض ومر كل شىء بسلام، لم يرنى أحد ولن يرانى أحد، ثم إنى لم أقترف إثما!» ونهضت قائمة، ولكى توهم نفسها بخلو البال ترنمت - وهى تغادر الحجرة - بصوت عذب: «يا ابو الشريط الأحمر يا للى أسرتنى ارحم ذلى»، ورددتها مرة ومرة حتى جاءها صوت أختها خديجة من حجرة الطعام وهى تزعق فى تهكم:

- يا ست منيرة يا مهدية، تفضلى، أعدت لك خادمتك السفرة.

وأثابها صوت أختها إلى نفسها تمامًا فيما يشبه الرجَّة فهوت من عالم المثال إلى عالم الواقع مرتعبة بعض الشىء لسبب غير ظاهر - ما دام كل شىء قد مر بسلام كما قالت

لنفسها ـ ولكن اعتراض صوت أختها ـ بالذات ـ لغنائها وخواطرها أرعبها، ربما لأن خديجة كانت تقف منها موقف المنتقد، بيد أنها طاردت هذا القلق الطارئ وأجابتها بضحكة مقتضبة، ثم جرت إلى حجرة الطعام فوجدت السماط معدًا حقًا وأمها مقبلة بالصينية، وقالت لها خديجة بحدة حال دخولها:

ـ تتلكئين بعيداً حتى أعد كل شيء وحدى.. كفاية لنا الغناء..

ومع أنها كانت تتلطف معها فى الحديث تفاديا من حدة لسانها إلا أن إصرار الأخرى على قرصها بلسانها كلما سنحت فرصة جعلها تتعلق أحيانًا بإغاظتها فقالت مصطنعة الجد:

ـ ألم نتفق على تقسيم العمل بيننا فى البيت؟ فعليك هذا الواجب وعلىّ الغناء.

فنظرت خديجة إلى أمها وقالت متهكمة وهى تعنى الأخرى:

ـ يمكن ناوية تكون عالمة!

ولم تغضب عائشة، وبالعكس قالت باهتمام مصطنع أيضًا:

ـ وماله!.. أنا صوتى كالكروان.

ومع أن قولها السابق لم يستثر غيظها لأنه كان بين الدعابة إلا أن كلامها الأخير استثاره لأنه كان واضح الحق، ولأنها تنفس عليها جمال صوتها فيما تنفس عليها من مزايا فقالت فى تهجم:

ـ اسمعى يا ست هانم.. هذا بيت رجل شريف لا يعيب بناته أن تكون أصواتهن كصوت الحمير ولكن يعيبهن أن يكن كالصورة لا فائدة منهن ولا نفع.

ـ لو كان صوتك جميلا كصوتى ما قلت هذا!

ـ طبعًا!.. كنت تغنين وأرد عليك، تقولين يا بو الشريط الاحمر يا للى.. فأقول لك أسرتنى ارحم ذلى، ونترك للست «مشيرة إلى أمها» الكنس والمسح والطبخ.

وكانت الأم ـ التى ألفَت هذا النقار ـ قد اتخذت مجلسها فقالت برجاء:

ـ أمسكا بالله واجلسا لنأكل فطورنا بسلام.

وأقبلتا على السماط وجلستا وخديجة تقول:

ـ أنت يا نينة لا تصلحين لتربية أحد..

فتمتمت الأم فى هدوء:

ـ سامحك الله، سأترك لك أمر التربية على ألا تنسى نفسك.. «ثم مدت يدها إلى الطبق».. بسم الله الرحمن الرحيم..

كانت خديجة فى العشرين من عمرها، فهى كبرى إخوتها فيما عدا ياسين ـ أخاها من

الأب ـ الذى ناهز عامه الواحد والعشرين، وكانت قوية ممتلئة ـ والفضل لأم حنفى ـ مع ميل إلى القصر، أما وجهها فقد قبس من قسمات الوالدين على نهج لم يراع فيه الانسجام، ورثت عن أمها عينيها الصغيرتين الجميلتين، وعن أبيها أنفه العظيم، أو صورة مصغرة منه ولكن ليس إلى القدر الذى يغتفر له، ومهما يكن من شأن هذا الأنف فى وجه الأب الذى يناسبه ويكسبه جلالا ملحوظًا فقد لعب فى وجه الفتاة دورا مختلفًا.

أما عائشة فكانت فى السادسة عشرة من ربيعها، صورة من بديع الحسن، رشيقة القد والقوام ـ وإن عد هذا فى محيط أسرتها من العيوب المتروك علاجها لأم حنفى ـ ووجه بدرىّ تزينه بشرة بيضاء مشربة بحمرة، وعينان زرقاوان أحسنت اختيارهما من الأب مع أنف الأم الصغير، إلى شعر ذهبى دللها به قانون الوراثة فخصَّها به وحدها من ميراث جدتها لأبيها. وطبيعى أن تدرك خديجة ما يقوم بينها وبين شقيقتها من فوارق، ولم تكن براعتها الفائقة فى التدبير المنزلى والتطريز ولا نشاطها الدائب الذى لا يكل ولا يمل بمغنيين عنها شيئا، فوجدت على الغالب نحوها غيرة لم تراع إخفاءها مما حمل الفتاة الحسناء على البرم بها فى كثير من الأحايين. ولكن من سوء الحظ أن هذه الغيرة الطبيعية لم تترك رواسب سوداء فى النفس، وكفاها أن تروَّح عن حدتها بسخرية اللسان وسلاطته، وأكثر من هذا أن كانت الفتاة رغم مشكلتها الطبيعية أمًّا بالفطرة عامرة القلب بالحنوّ نحو الأسرة التى لا تعفى أفرادها من مرارة تهكمها، فلم تكن غيرتها إلا نوبات تطول أو تقصر ولكنها لم تنحرف بسجيتها إلى الحقد أو البغضاء، بيد أن دأبها على السخرية ـ الذى اقتصر فى الأسرة على الدعابة ـ خلق منها فيما وراء ذلك من الجيران والمعارف عيَّابة من الدرجة الأولى، لا تقع عيناها من الناس إلا على مناقصهم كعقرب البوصلة المنجذب إلى القطب أبدا، وإذا توارت المناقص تمحلت فى الكشف عنها وتكبيرها، ثم راحت تطلق على ضحاياها أوصافا تناسب عيوبهم كادت تغلب عليهم فى محيط أسرتها، فهذه حرم المرحوم شوكت أقدم صديقة لوالديها تدعوها «المدفع الرشاش» لتناثر ريقها أثناء الحديث، وهذه الست أم مريم جارتهم بالبيت الملاصق لبيتهم تسميها «الله يا أسيادى» لاستعارتها بعض الأدوات المنزلية من بيتهم بين حين وآخر، كما تدعو شيخ كتَّاب بين القصرين «شر ما خلق» لترديده هذه الآية ضمن سورتها كثيرا بحكم وظيفته مع قبح وجهه، وبائع الفول «الأقرع» لصلعه، واللبَّان «الأعور» لضعف بصره، إلى تسميات مخففة بعض الشىء خصَّت بها أسرتها، فأمها «المؤذن» لتبكيرها فى الاستيقاظ، وفهمى «عمود السرير» لنحافته، وعائشة «البوصة» للسبب نفسه، وياسين «بمبة كشَّر» لسمنته وأناقته. ولم تكن سلاطة لسانها من وحى السخرية فحسب، فالحق أنها لم تخل من قسوة على من عدا أهلها من الخلق وهكذا اتسم نقدها للناس بالعنف، وتجافى عن التسامح والعفو، كما غلب عليها عدم الاكتراث للأحزان التى تلم بالناس

يوما بعد يوم، وتبدت هذه الغلظة فى البيت فى معاملة أم حنفى معاملة لا تلقاها من أحد سواها، بل فى معاملة الحيوان الأليف كالقطط التى تحظى من عائشة بإعزاز يفوق الوصف. وكانت معاملتها لأم حنفى مثار خلاف بينها وبين أمها، فالأم تعامل الخدم كما تعامل أهل بيتها سواء بسواء، وكان ظنها بالناس أنهم ملائكة فلم تدر كيف تسيء الظن بأحد، على حين دأبت خديجة على سوء الظن بالمرأة تمشيا مع طبيعتها التى تسيء الظن بالناس جميعا، ولم تخف تخوفها من بياتها غير بعيد من غرفة الخزين فقالت لأمها: «من أين تجيئها هذه السمنة المفرطة؟! .. من الوصفات التى تصنعها؟! كلنا نتعاطى وصفاتها فلا نسمن سمنتها، ولكنه السمن والعسل اللذان تطفح منهما بغير حساب ونحن نيام».

لكن الأم دافعت عن أم حنفى ما وسعها الدفاع، ولما ضاقت بإلحاح ابنتها قالت: «فلتأكل ما تشاء، الخير كثير، وبطنها له حد لا يتعداه فلن نجوع على أى حال». ولم يعجبها قولها وراحت تفحص صفائح السمن وبلاليص العسل كل صباح وأم حنفى ترى هذا باسمة لأنها كانت تحب الأسرة كلها إكراما لستها الطيبة. وعلى النقيض من هذا كان حنان الفتاة حيال أهلها جميعا فلم يكن يهدأ لها بال إذا أصابت أحدهم وعكة، ولما مرض كمال بالحصبة أبت إلا أن تشاركه فراشه، حتى عائشة نفسها لم تكن تطيق أن يلم بها أهون سوء، فلم يكن مثل قلبها لا فى بروده ولا فى رحمته.

وباتخاذها مجلسها من السماط تناست ما نشب بينها وبين عائشة من نقار وأقبلت على الفول والبيض بشهية كانت مضرب الأمثال فى الأسرة. وكان للطعام بينهن - إلى فائدته الغذائية - غاية جمالية عليا بصفته الدعامة الطبيعية للسمنة، فكن يتناولنه فى تؤدة واهتمام، ويبالغن فى سحقه وطحنه، فإذا شبعن لم يمسكن ولكن يستزدن منه حتى يمتلئن، على تفاوت لطاقاتهن، فكانت الأم أسرعهن إلى الانتهاء، تليها عائشة، ثم تنفرد خديجة ببقايا المائدة فلا تتخلى عنها إلا وهى أطباق مغسولة. ولم تكن نحافة عائشة لتتناسب مع اجتهادها فى الأكل فضلا عن عصيانها لسحر البلابيع، مما دعا خديجة للسخرية منها والقول بأن المكر السيئ هو الذى يجعلها تربة غير صالحة للبذور الطيبة التى تلقى فيها، كما كان يطيب لها أن تعلل نحافتها بضعف دينها فتقول لها: «كلنا نصوم رمضان إلا أنت، تتظاهرين بالصوم، وتندسين فى حجرة الخزين كالفأرة وتملئين بطنك بالجوز واللوز والبندق، ثم تفطرين معنا بنهم يحسدك عليه الصائمون ولكن الله لا يبارك لك». وكانت ساعة الفطور من الأوقات النادرة التى يختلين فيها إلى أنفسهن، فكانت أخلق الأوقات بالمكاشفة ونفض السرائر خاصة فى الأمور التى يدعو إلى كتمانها عادة الحياء البالغ الذى تتسم به مجالس الأسرة الحاوية للجنسين، وكان لدى خديجة ما تقوله رغم إنهماكها فى الأكل فقالت بصوت هادئ يختلف كل الاختلاف عن الصوت الذى كانت تزعق به منذ حين قصير:

- نينة . . حلمت حلما غريبا . .

فقالت الأم قبل أن تزدرد لقمتها مبالغة فى إكرام ابنتها المخيفة :

- خير يا بنتى إن شاء الله .

فقالت خديجة باهتمام مضاعف :

- رأيت كأنى أمشى على سور سطح ، ربما كان سطح بيتنا أو غيره ، وإذ بشخص مجهول يدفعنى فأهوى صارخة .

وأمسكت أمينة عن تناول طعامها فى اهتمام جدى فلازمت الفتاة الصمت قليلا لتستأثر بأكبر قدر من الاهتمام حتى تمتمت الأم :

- اللهم اجعله خيرا .

وقالت عائشة وهى تغالب ابتسامة :

- لم أكن أنا الشخص المجهول الذى دفعك . . أليس كذلك؟

وخافت خديجة أن يفسد الجو بالمزاح فصاحت بها :

- إنه حلم وليس لعبا فكفى عن هذرك «ثم مخاطبة أمها» . . هويت صارخة ولكنى لم أرتطم بالأرض كما توقعت بل وقعت على جواد ، حملنى وطار .

وتنهدت أمينة فى ارتياح كأنما أدركت ما وراء الحلم واطمأنت إليه ، وعادت إلى طعامها مبتسمة ، ثم قالت :

- من يدرى يا خديجة؟ . . لعله العريس!

لم يكن يباح الكلام عن «العريس» إلا فى هذه الجلسة ، وفى إيجاز بالإشارة أشبه ، ووجب قلب الفتاة الذى لم يكربه شىء كما أكربه أمر الزواج ، وكانت على إيمان بالحلم وتأويله بحيث وجدت لكلام أمها سرورا عميقا ، بيد أنها أرادت أن تدارى حياءها بالسخرية كعادتها - ولو من نفسها - فقالت :

- أتظنين الجواد عريسا؟ . . لن يكون عريسى إلا حمارا .

فضحكت عائشة حتى تطاير نثار الطعام من فيها ، ثم خافت أن تسىء خديجة فهم ضحكتها فقالت :

- لشد ما تظلمين نفسك يا خديجة! . . ما فيك من شىء يعاب .

فحدجتها خديجة بنظرة تنم عن الحذر والشك على حين راحت الأم تقول :

- أنت فتاة نادرة المثال ، من يضارعك فى مهارتك أو نشاطك؟ . . وروحك الخفيفة ووجهك اللطيف؟ ماذا تريدين أكثر من هذا؟

فمست الفتاة بسبابتها أرنبة أنفها وتساءلت ضاحكة :

ـ ألا يسد هذا طريق الأزواج؟!

فقالت الأم مبتسمة:

ـ كلام فارغ.. ما زلت صغيرة يا بنية.

وتضايقت لذكر الصغر لأنها لم تكن تعد نفسها صغيرة بالقياس إلى سن الزواج، وخاطبت أمها قائلة:

ـ لقد تزوجت يا نينة وأنت دون الرابعة عشرة.

فقالت الأم التى لم تكن فى الحق دون ابنتها قلقا:

ـ لا يتقدم أمر أو يتأخر إلا بإذن الله..

وقالت عائشة فى صدق:

ـ ربنا يفرحنا بك قريبًا يا خديجة.

فلحظتها خديجة بريبة وذكرت كيف طلبت إحدى جاراتهم يدها لابنها فرفض الأب أن تزوج الصغرى قبل الكبرى، وتساءلت:

ـ أتودين حقًا أن أتزوج أم تتمنين أن يخلو لك السبيل فتتزوجى؟!

فقالت عائشة ضاحكة:

ـ الاثنين معا..

٦

ولما فرغن من الفطور قالت الأم:

ـ عليك يا عائشة الغسيل اليوم، على خديجة تنظيف البيت، ثم تلحقان بى فى حجرة الفرن.

كانت أمينة توزع بينهما العمل عقب الفطور مباشرة، ومع أنهما يرضيان بحكمها، وترضى به عائشة بلا مناقشة، إلا أن خديجة تكلف بتوجيه الملاحظات على سبيل الاستعلاء أو على سبيل المشاكسة، فلهذا قالت:

ـ أنزل لك عن التنظيف إذا كنت تستثقلين الغسيل، أما التمحك بالغسيل للبقاء فى الحمام حتى ينتهى العمل فى المطبخ فعذر مرفوض مقدما.

وتجاهلت الفتاة ملحوظتها ومضت إلى الحمام وهى تدندن فقالت خديجة متهكمة:

ـ يا بختك بالحمام يرن فيه الصوت كما يرن فى نفير الفونوغراف فغنى وسمعى الجيران.

وغادرت الأم الحجرة إلى الدهليز ثم إلى السلم ورقته إلى السطح لتجول فوقه جولتها الصباحية قبل أن تنزل إلى حجرة الفرن. لم يكن التشاحن بين الفتاتين بالجديد عليها بعد أن انقلب مع الأيام عادة مألوفة فى غير الأوقات التى يوجد فيها الأب فى البيت، أو التى يطيب فيها السمر بين أفراد الأسرة، وجعلت تعالجه بالرجاء والدعابة والرقة البالغة، وهى السياسة الوحيدة التى تنتهجها إزاء أبنائها لأنها صادرة عن طبع لا يطيق سواها، أما ما تقتضيه التربية أحيانا من الحزم فشىء لم تعرفه، ربما تمنته دون أن تقدر عليه. وربما حاولت تجربته فغلبها التأثر والضعف، وكأنها لا تحتمل أن يقوم بينها وبين أبنائها غير أسباب المودة والحب، تاركة للأب - أو لشخصيته التى تسيطر من بعيد - تقويم المعوج وإلزام كل حدوده. لهذا لم يضعف النقار السخيف من إعجابها بفتاتيها ورضائها عنهما، حتى عائشة المولعة لحد الهوس بالغناء والوقوف أمام المرآة، لم تكن دون خديجة مهارة وتدبيرا بالرغم من تكاسلها. وكان هذا حريا بأن يمد لها فى أوقات الراحة لولا ما طبعت عليه من وسوسة بالداء أشبه، فهى تأبى إلا أن تشرف على كل صغيرة وكبيرة بالبيت، وإذا فرغت الفتاتان من عملهما نشطت هى بالمكنسة فى يد والمنفضة فى يد وراحت تتفقد الحجرات والصالات والدهاليز، متفحصة الأركان والجدران والستائر وسائر العفش عسى أن تزيل نقطة غبار منسية، واجدة لذة وارتياحا كأنما تزيل قذى من عينيها، ومن وسوستها تلك أنها كانت تفحص الثياب المعدة للغسيل قبل غسلها، فإذا عثرت على قطعة منها قد خرقت قذارتها المألوف لم تترك صاحبها دون أن تتلطف فى تنبيهه إلى واجبه، من كمال الذى يناهز العاشرة إلى ياسين الذى كان ذا ذوقين متناقضين فى العناية بنفسه يتجليان فى تأنقه المفرط فى مظهره من البدلة والطربوش والقميص ورباط الرقبة والحذاء. وإهماله المعيب لثيابه الداخلية. ومن الطبيعى ألا تغفل هذه العناية الشاملة السطح وسكانه من الحمام والدجاج، بل كانت ساعة السطح حافلة بالحب والسرور فيها من أغراض العمل ما فيها، إلى ما تجده من فرحة اللهو والمرح. ولا عجب فالسطح هو الدنيا الجديدة التى لم يكن للبيت الكبير بها عهد قبل انضمامها إليه، خلقته بروحها خلقًا جديدًا على حين ظل البيت محافظا على الهيئة التى شيد عليها منذ عهد سحيق. هذه الأقفاص المثبتة فى بعض جدرانه العالية يهدل عليها الحمام من وضعها، وهذه الأكواخ الخشبية يقوقىء الدجاج فى مسارحها من تركيبها، وكم يملكها الفرح وهى ترمى الحب أو تضع على الأرض آنية السقيا فيستبق إليها الدجاج وراء ديكها، وتنهال مناقيرها على الحب فى سرعة وانتظام كإبر آلة الخياطة، مخلفة فى الأرض التربة بعد حين ثغرات دقيقات كآثار الرذاذ. وكم ينشرح صدرها إذ تنظر فتراها رانية إليها بأعين دقيقة صافية، مستطلعة متسائلة، ناقة مقوقئة، فى مودة متبادلة ينز لها قلبها الحنون. أحبت الدجاج والحمام كما تحب مخلوقات الله جميعا، فهى تناغيها مناغاة رقيقة تحسب أنها

تفهمها وتتأثر لها، ذلك أن خيالها يخلع الحياة الشاعرة العاقلة على الحيوان، وأحيانا الجماد نفسه. وعندها بمنزلة اليقين أن هذه الكائنات تسبِّح بحمد ربها وتتصل بعالم الروح بأسباب، فعالمها بأرضه وسمائه، حيوانه ونباته، عالم حى عاقل. ثم لا تقتصر مزاياه على نغمة الحياة فيكملها بالعبادة. لم يكن غريبا بعد هذا أن تكثر معاتيقها من الديوك والدجاج معتلة بسبب أو بآخر، هذا لأنها معمرة وتلك لأنها بياضة وهذا لأنها تستيقظ على صياحه، ولعلها لو تركت وشأنها ما ارتضت أن تعمل سكينها فى رقابها، وإذا دعتها الظروف إلى الذبح تخيرت الدجاج أو الحمام فيما يشبه الضيق، ثم تسقيها وتترحم عليها وتبسمل وتستغفر، وتذبحها وعزاؤها أنها تستمتع بحق منحه الله المنَّان وأوسع به على عباده. أما أعجب ما فى السطح فكان نصفه الجنوبى المشرف على النحاسين حيث غرست يداها فى الأعوام الخالية حديقة فريدة لا نظير لها فى أسطح الحى كله التى تغطى عادة بطبقة من قاذورات الدواجن، بدأت أول ما بدأت بعدد قليل من أصص القرنفل والورد، وراحت تستكثر منها عاما بعد عام حتى نضدت صفوفا بحذاء أجنحة السور ونمت نموا بهيجا، وخطر لخيالها أن تقيم فوق حديقتها سقيفة، فاستدعت نجاراً فأقامها، ثم غرست شجرتى ياسمين ولبلاب ثم أنشبت سيقانها فى السقيفة وحول قوائمها، فاستطالت وانتشرت حتى استحال المكان بستانا معروشا ذا سماء خضراء ينبثق منها الياسمين ويتضوع فى أرجائها عرف طيب ساحر. هذا السطح بسكانه من الدجاج والحمام، وبستانه المعروش، هو دنياها الجميلة المحبوبة، وملهاها الأثير فى هذا العالم الكبير الذى لا تعرف عنه شيئا، وكشأنها فى مثل هذه الساعة مضت تتعهده برعايتها فكنسته، وسقت زرعه، وأطعمت الدجاج والحمام، ثم تملَّت طويلا المنظر المحيط بها بثغر باسم وعينين حالمتين، ثم ذهبت إلى نهاية البستان ووقفت وراء السيقان الملتفة المتشابكة تمد بصرها من ثغراتها إلى ما يليها من فضاء لا تحده حدود.

كم تروعها المآذن التى تنطلق انطلاقا ذا إيحاء عميق، تارة عن قرب حتى لترى مصابيحها وهلالها فى وضوح كمآذن قلاوون وبرقوق، وتارة عن بعد غير بعيد فتبدو لها جملة بلا تفصيل كمآذن الحسين والغورى والأزهر، وثالثة من أفق سحيق فتتراءى أطيافا كمآذن القلعة والرفاعى، وتقلب وجهها فيها بولاء وافتنان، وحب وإيمان، وشكر ورجاء، وتحلق روحها فوق ذراها أقرب ما تكون إلى السماء، ثم تستقر منها العينان على مئذنة الحسين، أحبها ـ لحب صاحبها ـ إلى نفسها، فتنفض نظرتها حنانا وأشواقا، مشوبة بحزن يطوف بها كلما ذكرت حرمانها من زيارة ابن بنت رسول الله وهى على مسير دقائق من مثواه. وتنهدت نهدة مسموعة، استردتها من استغراقها فثابت إلى نفسها وراحت تتسلى بالنظر إلى الأسطح والطرقات فلم تزايلها الأشواق، ثم استدبرت السور وقد فاض بها التطلع إلى المجهول، المجهول بالنسبة إلى الناس جميعا وهو عالم الغيب،

والمجهول بالقياس إليها وحدها وهو القاهرة. بل الأحياء المتاخمة التى تترامى إليها أصواتها. ترى ما هذه الدنيا التى لم تر منها إلا المآذن والأسطح القريبة؟! ربع قرن من الزمان خلا وهى حبيسة هذا البيت لا تفارقه إلا مرات متباعدة لزيارة أمها بالخرنفش. وعند كل زيارة يصطحبها السيد فى حنطور لأنه لا يحتمل أن تقع عين على حرمه سواء وحدها أو بصحبته، لم تكن ساخطة ولا متذمرة، إنها أبعد ما تكون عن هذا. بيد أنها ما تكاد تنفذ ببصرها من ثغرات الياسمين واللبلاب إلى الفضاء والمآذن والأسطح حتى تعلو شفتيها الرقيقتين ابتسامة حنان وأحلام. ترى أين تقع مدرسة الحقوق حيث يجلس فهمى فى هذه اللحظة؟.. وأين مدرسة خليل أغا التى يؤكد كمال أنها على مسير دقيقة من الحسين؟.. وقبل أن تغادر السطح بسطت كفيها ودعت ربها قائلة: «اللهم أسألك الرعاية لسيدى وأبنائى، وأمى ويس، والناس جميعا مسلمين ونصارى، حتى الإنجليز يا ربى وأن تخرجهم من ديارنا إكراما لفهمى الذى لا يحبهم».

٧

عندما بلغ السيد أحمد عبد الجواد دكانه الذى يقع أمام جامع برقوق بالنحاسين كان جميل الحمزاوى وكيله قد فتحه وهيأه للعمل، فحياه السيد تحية رقيقة وهو يبتسم ابتسامة وضيئة واتجه إلى مكتبه. وكان الحمزاوى فى الخمسين من عمره، أنفق منها ثلاثين عاما فى هذا الدكان، وكيلا لمنشئه الحاج عبد الجواد ثم وكيلا للسيد بعد وفاة أبيه، وظل على الوفاء للسيد بداع من العمل والحب معا، فهو يجلُّه ويحبه كما يجله ويحبه جميع من يتصل به بسبب من أسباب العمل أو الصداقة. والحق لم يكن السيد مرهوبا مخوفا إلا بين أهله، أما بين سائر الناس من أصدقاء ومعارف وعملاء فهو شخص آخر، له حظه الموفور من المهابة والاحترام، ولكنه شخصية محبوبة قبل كل شىء، ومحبوبة لظرفها قبل أى من سجاياها الحميدة الكثيرة، فلا الناس يعرفون السيد الذى يقيم فى بيته، ولا أهل البيت يعرفون السيد الذى يعيش بين الناس. وكان دكانه متوسط الحجم، مكدسة رفوفه وجنباته بجوالات البن والأرز والنُّقل والصابون، وعند ركنه الأيسر فى قبالة المدخل يقوم مكتب السيد بدفاتره وأوراقه وتليفونه، وإلى اليمين من مجلسه تقوم الخزانة الخضراء داخل الجدار يوحى منظرها بالصلابة ويذكر لونها بالأوراق المالية. وفى منتصف الجدار فوق المكتب على إطار من الأبنوس نقشت بداخله البسملة مموهة بالذهب. ولم تكن عجلة الدكان تدور قبل الضحى. فجعل السيد يراجع حسابات اليوم السابق بمثابرة ورثها عن أبيه وحافظ عليها بحيويته الموفورة، على حين وقف الحمزاوى عند المدخل شابكا

ذراعيه على صدره مواصلا تلاوة ما تيسر من الآيات فى صوت باطنى غير مسموع دلت عليه حركة شفتيه المستمرة، ووسوسة خافتة تند من آن لآن عن أحرف السين والصاد، ولم يتوقف عن تلاوته حتى جاء شيخ ضرير رتَّبه السيد كل صباح. وكان السيد يرفع رأسه من الدفتر فى فترات متباعدة فيستمع إلى التلاوة أو يمد بصره إلى الطريق حيث لا ينقطع تيار المارة وعربات اليد والكارو، وسوارس التى تكاد تترنح من كبرها وثقلها، والباعة المغنُّون وهم يترنمون بطقاطيق الطماطم والملوخية والبامية كلٌّ على مذهبه، ولم تكن الضوضاء لتحول بينه وبين تركيز ذهنه بعد ما اعتادها وألفها أكثر من ثلاثين عاما فاستنام إليها حتى ليزعجه سكوتها. ثم جاء زبون فشغل الحمزاوى به، وأقبل نفر من أصحاب السيد وجيرانه من التجار ممن يحبون أن يقضوا معه وقتا طيبا ولو لزمن وجيز يتبادلون فيه التحية ويغيِّرون ريقهم ـ على حد تعبيرهم ـ على دعابة من دعاباته أو نكتة من نكته، الأمر الذى جعله يفاخر بنفسه كمحدث فائق البراعة، لا يخلو حديثه من لمعات غير مقطوعة الصلة بالثقافة العامة التى اكتسبها، لا من التعليم حيث توقف فيه دون الابتدائية، ولكن من قراءة الصحف ومصادقة نخبة من الأعيان والموظفين والمحامين الذين أهله لمخالطتهم ـ مخالطة الند للند ـ حضور بديهته ولطفه وظرفه ومنزلته كتاجر موفور الرزق، فاستجد لنفسه عقلية غير العقلية التجارية المحدودة ضاعف من اعتزازه بها ما حباه أولئك الممتازون من حب واحترام وتكريم، ولما قال له أحدهم مرة فى صدق وإخلاص: «لو أتيح لك يا سيد أحمد أن تدرس القانون لكنت محاميا مفوها نادر المثال»، نفخ قوله فى خيلائه الذى يحسن مداراته بظرفه وتواضعه وحلو معاشرته. ولم يطل بأحد من الوافدين الجلوس فذهبوا تباعا، وتزايدت حركة العمل بالدكان، ثم فجأة دخل رجل مهرولا كأنما دفعته يد قوية، ووقف فى منتصف الدكان وهو يضيق عينيه الضيقتين ليحد بصره، وسددهما صوب مكتب السيد، ومع أنه لم يكن يفصله عنه أكثر من ثلاثة أمتار إلا أنه أجهده فى معاينته بلا طائل ثم هتف متسائلا:

ـ السيد أحمد عبد الجواد موجود؟

فقال السيد باسما:

ـ أهلا وسهلا بالشيخ متولى عبد الصمد، تفضل، حلَّت البركة..

وعطف الرجل رأسه فصادف اقتراب الحمزاوى منه ليسلم عليه ولكنه لم ينتبه ليده الممدودة وعطس على غير انتظار فتراجع الحمزاوى وهو يخرج منديله وقد التقت فى صفحة وجهه ابتسامة وتقطيبة، واندفع الشيخ إلى المكتب وهو يتمتم «الحمد لله رب العالمين»، ثم رفع طرف عباءته ومسح به على وجهه، وجلس على الكرسى الذى قدمه السيد له، وبدا الشيخ فى صحة يحسد عليها على سنه التى جاوزت الخامسة والسبعين،

ولولا عيناه الكليلتان الملتهبتا الأشفار، وفوه المندثر، ما وجد ما يشكوه، وكان يتلفع بعباءة بالية ناصلة وإن أمكنه أن يستبدل بها خيراً منها بما يجود به المحسنون، ولكنه استمسك بها لأنه ـ فيما يقول ـ رأى الحسين فى منامه وهو يباركه فبث فيها خيراً لا يبلى، وكان إلى كراماته فى قراءة الغيب والدعوات الشافية وعمل الأحجبة معروفا بالصراحة والظرف، وبه متسع للدعابة والمزاح مما زاد من قدره عند السيد خاصة، ومع أنه كان من سكان الحى إلا أنه لم يثقل على أحد من مريديه بالزيارات، وربما توالت الأشهر وهو غائب لا يعلم له مكان، فإذا ألم بزيارة بعد انقطاع لاقى ترحابا وأشواقا وهدايا. وقد أشار السيد إلى وكيله ليعد للشيخ الهدية المعتادة من الأرز والبن والصابون، ثم قال للشيخ مرحبا:

ـ أوحشتنا يا شيخ متولى.. منذ عاشوراء لم نستمتع برؤيتك.

فقال الرجل ببساطة وبغير مبالاة:

ـ أغيب كما يحلو لى، وأحضر كما يحلو لى، ولا أسأل عن السبب.

فابتسم السيد الذى ألف أسلوبه وتمتم قائلا:

ـ إذا غبت أنت فإن بركتك لا تغيب..

فلم يبد على الشيخ أنه تأثر لإطرائه، وعلى العكس حرك رأسه حركة تدل على نفاد الصبر وقال بخشونة:

ـ ألم أنبه عليك أكثر من مرة بألا تفاتحنى بالحديث، وأن تلزم الصمت حتى أتكلم أنا؟!

فقال السيد وبه رغبة فى التحكك به:

ـ معذرة يا شيخ عبد الصمد، لئن كنت نسيت تنبيهك فعذرى أنى أنسيته لطول غيابك.

فضرب الشيخ كفًا بكف وهتف:

ـ عذر أقبح من ذنب.. (ثم منذرا بسبابته) إذا تماديت فى مخالفتى امتنعت عن قبول هديتك!

فأطبق السيد شفتيه باسطا راحتيه استسلاما حاملا نفسه على الصمت هذه المرة، فتريث الشيخ متولى ليتأكد من دخوله طاعته، وتنحنح ثم قال:

ـ أبدأ بالصلاة على سيد الخلق الحبيب.

فقال السيد من الأعماق:

ـ عليه الصلاة والسلام.

ـ وأثنى على أبيك بما هو أهله، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته، كأنِّى به متخذا مجلسك هذا، لا فارق بين الأب وابنه إلا أن الراحل حافظ على العمامة واستبدلت بها هذا الطربوش.

فتمتم السيد مبتسما :

ـ فليغفر الله لنا . .

فتثاءب الشيخ حتى دمعت عيناه ثم استطرد قائلا :

ـ وأدعو الله أن يمن على أبنائك بالفلاح والتقوى، ياسين وخديجة وفهمى وعائشة وكمال وأمهم آمين.

ووقع نطق الشيخ باسمى خديجة وعائشة من أذنى السيد موقعا غريبا على الرغم من كونه هو الذى أفضى إليه باسميهما منذ عهد طويل ليكتب لهما حجابين، وليست أول مرة ينطق الشيخ باسميهما، ولا آخر مرة، ولكن لم يكن يتردد اسم واحدة من حريمه بعيداً عن الحجرات ـ ولو على لسان الشيخ متولى ـ حتى يقع من نفسه موقعا غريبا ينكره ولو إلى حين. بيد أنه غمغم قائلا :

ـ آمين يارب العالمين . .

فتنهد الشيخ قائلا :

ـ ثم أسأل الله المنان أن يعيد إلينا أفندينا عباس مؤيداً بجيش من جيوش الخليفة لا يعرف له أول من آخر . .

ـ نسأله وليس شىء عليه بكثير . .

فعلا صوت الشيخ وهو يقول غاضبا :

ـ وأن يمنى الإنجليز وأعوانهم بهزيمة منكرة فلا تقوم لهم بعدها قائمة.

ـ ربنا يأخذهم جميعا . .

فحرك الشيخ رأسه فى أسى وقال بحسرة :

ـ كنت بالأمس سائرا فى الموسكى فاعترض سبيلى جندیان أستراليان وطالبانى بما معى فما كان منى إلا أن نفضت لهما جيوبى وأخرجت الشىء الوحيد الذى كان معى وهو كوز ذرة فتناوله أحدهما وركله كالكرة وخطف الآخر عمامتى وحلَّ الشال ومزقه ورمى به فى وجهى.

وتابعه السيد وهو يغالب ابتسامة تراوده فما لبث أن داراها بالمبالغة فى إظهار استيائه صائحا فى استنكار :

ـ قاتلهم الله وأهلكهم . .

فأتم الرجل حديثه قائلا :

ـ رفعت يدى إلى السماء وصحت : يا جبار مزق أمتهم كما مزقوا شال عمامتى . .

ـ دعوة مستجابة بإذن الله . .

ومال الشيخ إلى الوراء وأغمض عينيه ليستريح قليلا ، ولبث على حاله والسيد يتفرس فى وجهه مبتسما ، ثم فتح عينيه وخاطب السيد بصوت هادئ ونبرات تنذر بموضوع جديد ، قائلا :

ـ يا لك من رجل شهم جميل المروءة يا أحمد يابن عبد الجواد!

فابتسم السيد فى رضى وقال بصوت خفيض :

ـ أستغفر الله يا شيخ عبد الصمد .

فبادره الشيخ قائلا :

ـ لا تتعجل ، إن مثلى لا يلقى الثناء إلا تمهيدا لقول الحق ، على سبيل التشجيع يابن عبد الجواد .

فلاح الاهتمام والحذر فى عينى السيد وتمتم قائلا :

ـ ربنا يطلف بنا .

فأشار إليه بسبابته العجراء وتساءل فيما يشبه الوعيد :

ـ ماذا تقول ، وأنت المؤمن الورع ، فى ولعك بالنساء؟

كان السيد معتادا لصراحته فلم ينزعج لانقضاضه ، وضحك ضحكة مقتضبة ثم قال :

ـ ما على من ذاك ، ألا يحدث رسول الله ﷺ عن حبه للطيب والنساء؟

فقطب الشيخ ومط بوزه محتجا على منطق السيد الذى لم يعجبه وقال :

ـ الحلال غير الحرام يابن عبد الجواد ، والزواج غير الجرى وراء الفاجرات . .

فمد السيد بصره للا شيء وقال بلهجة جدية :

ـ ما ارتضت نفسى يوما أن تعتدى على عرض أو كرامة قط ، والحمد لله على ذلك .

فضرب الشيخ ركبتيه بيديه وقال بغرابة واستنكار :

ـ عذر ضعيف لا ينتحله إلا ضعيف ، والفسق لعنة ولو يكن بفاجرة ، كان أبوك رحمه الله مولعا بالنساء فتزوج عشرين مرة فلماذا لا تنتهج سبيله وتتنكب طريق المعاصى؟ !

فضحك السيد ضحكة عالية وقال :

ـ أأنت ولى من أولياء الله أم مأذون شرعى؟ ! كان أبى شبه عقيم فأكثر من التزوج ، وبالرغم من أنه لم ينجب سواى إلا أن عقاره تبدد بينى وبين زوجات أربع مات عنهن ، إلى ما ضاع على النفقات الشرعية فى حياته ، أما أنا فأب لثلاثة ذكور

وأنثيين، وما يجوز لى أن أنزلق إلى الإكثار من الزوجات فأبدد ما يسر الله علينا من رزق، ولا تنس يا شيخ متولى أن غوانى اليوم هن جوارى الأمس واللاتى أحلهن الله بالبيع والشراء، والله من قبل ومن بعد غفور رحيم.

فتأوه الشيخ وقال وهو يهز نصفه الأعلى يمنة ويسرة:

ـ ما أبرعكم يا بنى آدم فى تحسين الشر، والله يا بن عبد الجواد لولا حبى لك ما باليت أن تحدثنى وأنت قاعد على فاجرة..

فبسط السيد راحتيه وقال باسما:

ـ اللهم استجب..

فنفخ الشيخ متبرما وهتف قائلا:

ـ لولا مزاحك لكنت أكمل الناس.

ـ الكمال لله وحده.

فالتفت إليه وهو يشير بيده كأنه يقول «فلندع هذا جانبا» ثم ساءله بلهجة المحقق الذى ضيق عليه الخناق:

ـ والخمر؟.. ماذا تقول فيها؟!

وسرعان ما فترت روح السيد ولاح فى عينيه الضيق ولزم الصمت مليا، وآنس الشيخ من صمته تسليما فصاح بظفر:

ـ أليست حراما لا يقارفه من يحرص على طاعة الله ومحبته؟

فبادره السيد قائلا فى حماس من يدفع بلاء محققا:

ـ لشد ما أحرص على طاعة الله ومحبته!

ـ باللسان أم بالعمل؟

ومع أن الجواب كان حاضرا إلا أنه تمهل متفكرا قبل أن ينطق به. لم يكن من عادته أن يشغل نفسه بالتفكير الذاتى أو التأمل الباطنى. شأنه فى ذلك شأن الذين لا يكادون يخلون إلى أنفسهم، ففكره لا يعمل حتى يبعثه إلى العمل شىء خارجى، رجل أو امرأة أو سبب من أسباب حياته العملية، وقد استسلم لتيار حياته الزاخر مستغرقا فيه بكليته، فلم ير من نفسه إلا صورتها المنعكسة على سطح التيار ثم لم يتراخ توثبه للحياة مع تقدم العمر لأنه بلغ الخامسة والأربعين ولم يزل يتمتع بحيوية فياضة مشبوبة لا يتأثر بها إلا الشاب اليافع، لذلك جمعت حياته شتى المتناقضات التى تراوح بين العبادة والفساد، وحازت جميعا رضاه على تناقضها دون أن يدعم هذا التناقض بسند من فلسفة ذاتية أو تدبير مما يصطنع الناس من ألوان الرياء، ولكنه كان يصدر فى سلوكه عن طبيعته الخاصة

بقلب طيب وسريرة نقية وإخلاص فى كل ما يفعل، فلم تعصف بصدره عواصف الحيرة، وبات قرير العين. وكان إيمانه عميقا. أجل كان إيمانا موروثا لا دخل للاجتهاد فيه، بيد أن رقة مشاعره ولطافة وجدانه وإخلاصه أضفت عليه إحساسا رهيفا ساميا نأى به عن أن يكون تقليداً أعمى، أو طقوسا مبعثها الرغبة أو الرهبة فحسب، وبالجملة كان أبرز ما يتميز به إيمانه بالحب الخصب النقى. بهذا الإيمان الخصب النقى أقبل يؤدى فرائض الله جميعا، من صلاة وصيام وزكاة فى حب ويسر وسرور، إلى سريرة صافية وقلب عامر بحب الناس ونفس تسخو بالمروءة والنجدة جعلت منه صديقا عزيزاً يستبق القوم إلى الرى من منهله العذب، وبتلك الحيوية الفياضة المشبوبة فتح صدره لمسرات الحياة ولذائذها، يهش للمأكل الفاخر، ويطرب للشراب المعتق، ويهيم بالوجه القسيم، فينهل منها جميعا فى فرح وبهجة وولع، غير مثقل الضمير بإحساس خطيئة أو وسواس قلق، فهو يمارس حقا منحته إياه الحياة، وكأنما لا تعارض بين حق الحياة على قلبه وحق الله على ضميره، فلم يشعر فى ساعة من حياته بأنه بعيد عن الله أو عرضة لنقمته، وآخاه فى السلام. أكان شخصين منفصلين فى شخصية واحدة؟!.. أم كان فى اعتقاده فى السماحة الإلهية بحيث لا يصدق أنها تحرم هاتيك المسرات حقا، وحتى فى حال تحريمها فهى حرية بأن تعفو عن المذنبين ما لم يؤذوا أحداً؟! الأرجح أنه كان يتلقى الحياة بقلبه وإحساسه دون ثمة تفكير أو تأمل، وجد بنفسه غرائز قوية، يطمح بعضها لله فراضها بالعبادة، ويتحفز بعضها الآخر للذات فأرواها باللهو، وخلطها بنفسه جميعا آمنا مطمئنا دون أن يشق على نفسه بالتوفيق بينها. لم يكن يضطر إلى تبريرها بفكره إلا تحت ضغط انتقاد كالذى جابهه الشيخ متولى عبد الصمد، وفى هذه الحال يجد نفسه أضيق بالتفكير منه بالتهمة نفسها، لا لأنه يهون عليه أن يكون متهما أمام الله ولكن، لأنه لا يصدق أبدا أنه متهم، أو أن الله يغضبه حقا أن يلهو لهوا لا يصيب أحدا بأذى، أما التفكير فكان يتبعه من ناحية ويكشف عن تفاهة علمه بدينه من ناحية أخرى، لذلك تجهم للسؤال الذى ألقاه الرجل عليه متحديا وهو «باللسان أم بالعمل» وأجابه بلهجة لا يخفى فيها الضيق:

- باللسان والعمل معا، بالصلاة والصيام والزكاة، بذكر الله قائما وقاعدا، وما علىَّ بعد ذلك إذا روحت عن نفسى بشىء من اللهو الذى لا يؤذى أحدا أو يغفل فريضة، وهل حرم محرم إلا لهذا أو ذاك؟

فرفع الشيخ حاجبيه وأغمض عينيه معلنا عن عدم اقتناعه ثم تمتم:

- يا له من دفاع فى سبيل الباطل!

وتحول السيد فجأة من الضيق إلى المرح كعادته فقال بأريحية:

ـ الله غفور رحيم يا شيخ عبد الصمد، إنى لا أتصوره عز وجل غاضبا أو متجهما أبدا، حتى انتقامه رحمة خافية، وإنى أقدم بين يديه الحب والطاعة والبر، والحسنة بعشر أمثالها .

ـ أما فى حساب الحسنات فأنت رابح .

فأشار السيد جميل الحمزاوى ليأتى بهدية الشيخ وهو يقول مسرورا :

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل .

وجاءه الوكيل باللفة فأخذها السيد وقدمها إلى الشيخ وهو يقول ضاحكا :

ـ فى صحتك . .

فتناولها الشيخ وهو يقول :

ـ رزقك الله رزقا واسعا وغفر لك . .

فغمغم السيد «آمين» ثم سأله باسما :

ـ ألم تكن يوما من أهل ذلك يا سيدنا الشيخ؟ !

فضحك الشيخ قائلا :

ـ سامحك الله، أنت رجل كريم طيب القلب، وبهذه المناسبة أحذركم من التمادى فى الكرم فإنه لا يتفق وما يطالب به التاجر من القصد .

فتساءل السيد دهشًا :

ـ أتغرينى باسترداد الهدية؟

فنهض الرجل وهو يقول :

ـ هديتى لا تجاوز القصد فابدأ بغيرها يابن عبد الجواد والسلام عليكم ورحمة الله . .

وغادر الشيخ الدكان مهرولا وغاب عن الأنظار . ولبث السيد مفكرا، ومضى يدير فى نفسه ما ثار من جدل بينه وبين الشيخ ثم بسط راحتيه فى ضراعة وتمتم «اللهم اغفر لى ما تقدم وما تأخر من ذنب، اللهم إنك أنت الغفور الرحيم» .

٨

عند العصر غادر كمال مدرسة خليل أغا يضطرب فى تيار زاخر من التلاميذ الذين يسدون الطريق بزحمتهم ثم يأخذون فى التفرق، بعضهم إلى الدرّاسة، وبعضهم إلى السكة الجديدة، وآخرون إلى طريق الحسين، على حين تتحلق جماعات منهم الباعة

المتجولين الذين يعترضون تياراتهم عند رءوس الطرقات المتفرقة عن المدرسة بما تحمل سلالهم من اللب والفول السودانى والدوم والحلوى، وإلى هذا فلا يخلو الطريق فى هذه الساعة من معارك تنشب هنا وهناك بين تلاميذ اضطروا إلى كتمان خلافاتهم فى أثناء النهار تفاديا من العقوبات المدرسية. وكانت المرات التى سيق فيها إلى الاشتباك فى معركة نادرة جدا، ولعلها لم تعد المرتين طوال العامين اللذين قضاهما فى المدرسة، لا لندرة خلافاته التى لم تكن نادرة فى الواقع، ولا لكراهية للعراك فقد أورثه اضطراره إلى تجنبه أسفا عميقا، ولكن لتقدم الكثرة الغالبة من التلاميذ عليه فى السن مما جعله هو وقلة من أترابه غرباء فى المدرسة يتعثرون فى بنطلوناتهم القصيرة بين تلاميذ طعنوا فيما بعد الخامسة عشرة وكثير منهم ناهزوا العشرين، فشقوا طريقهم فى صلف وكبرياء وقد طرت شواربهم. من هؤلاء من كان يتعرض له فى فناء المدرسة بلا سبب فيخطف الكتاب من يده ويقذفه بعيداً كالكرة، أو من يسلبه قطعة من الحلوى فيدسها فى فمه بغير استئذان مواصلا ما كان فيه من حديث، فلم تكن الرغبة فى العراك لتنقصه ولكنه كظمها تقديراً للعواقب، وما لباها حتى دعاه إليها أحد أقرانه الصغار، فوجد الهجوم عليه متنفسا لعواطفه الثائرة المكبوتة واسترداده لثقته بقوته ونفسه. وليس العراك، أو العجز عنه، بأسوأ ما لاقى من وقاحة المعتدين، فإلى هذا ما كان يترامى إلى أذنيه، سواء كان المقصود به أم غيره، من الشتائم والسباب، منه ما فطن لمعناه فحذره، ومنه ما جهله فردده فى البيت بحسن نية فأثار به عاصفة من الثورة والفزع اتصلت أنباؤها فى صورة شكوى لضابط المدرسة الذى كان صديقا لأبيه، ولكن سوء الحظ وحده هو الذى قضى بأن يكون أحد غريميه فى المعركتين الوحيدتين اللتين خاضهما من أسرة فتوات معروفة بالدراسة، فلما كان عصر اليوم التالى للمعركة وجد الغلام فى انتظاره عند باب المدرسة عصابة من الشبان مدججين بالعصى فى هالة من شر مستطير، ولما أشار إليه غريمه ليدل عليه تنبه لحركته وأدرك ما يتربص به من خطر فتراجع هاربا إلى المدرسة وهو يستغيث بالضابط، وعبثا حاول الرجل أن يصرف العصابة عن مقصدها، وأغلظوا له القول حتى اضطر إلى استدعاء شرطى ليوصل الغلام إلى داره، وزار الضابط السيد فى دكانه وأنبأه بما يتهدد ابنه من شر ناصحا إياه بمعالجة الأمر بالحلم والكياسة، ولجأ السيد إلى بعض معارفه من تجار الدراسة فمضوا إلى بيت الفتوات مستشفعين له، وهنالك استعان السيد بما عرف عنه من سماحة نفس ورقة شمائل حتى ألان عريكتهم فأصدروا عن الغلام عفوهم بل وتعهدوا بحمايته كأحد أبنائهم، ولم ينته اليوم حتى بعث السيد بمن يحمل إليهم نفحة من هداياه، ونجا كمال من عصى الفتوات ولكنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار، لأن عصا أبيه فعلت بقدميه ما لم تكن لتفعله عشرات العصى.

غادر الغلام المدرسة، ومع أنه كان لرنين الجرس المؤذن بانتهاء اليوم الدراسى فرحة فى

نفسه لا تعادلها فرحة فى تلك الأيام إلا أن نسائم الحرية التى نشقها خارج بوابة المدرسة بصدر رحب لم تمح أصداء الدرس الأخير الحبيب - درس الديانة - من قلبه . وقد قرأ عليهم الشيخ ذلك اليوم سورة «قل أوحى إلىَّ أنه استمع نفر من الجن» ، وشرحها لهم ، فتركز فيه بوعيه ، ورفع أصبعه أكثر من مرة سائلا عما أغلق عليه ، ولما كان الأستاذ يعطف عليه لإقباله على الاستماع لدرسه باهتمام بارز ، إلى حفظه للسور حفظًا جيدًا ، فقد أوسع صدره لأسئلته بحال يندر أن يحظى بها أحد التلاميذ ، وراح الشيخ يحدثه عن الجن وطوائفهم ، وعن المسلمين منهم خاصة الذين سيظفرون بالجنة فى النهاية أسوة بإخوانهم من البشر ، وحفظ الغلام عن ظهر قلب كل كلمة نطق بها ، ولم يزل يديرها فى نفسه حتى هذه اللحظة التى يعبر فيها الطريق قاصدا دكان البسبوسة على الجانب الآخر ، فإلى شغفه بالديانة كان يعلم أنه لا يتلقاها لنفسه فحسب ، وأن عليه أن يعيد ما وعى منها فى البيت على أمه - كما اعتاد أن يفعل مذ كان فى الكتّاب - فيلقى إليها بمعلوماته وتستعيد هى على ضوئها ما عندها من معلومات عرفتها عن أبيها الذى كان شيخا أزهريا ، ويتذاكران معارفهما طويلا ثم يحفظها الجديد من السور التى لم يسبق لها حفظها . وانتهى إلى دكان البسبوسة فمد يده الصغيرة بالملاليم التى احتفظ بها منذ الصباح ، ثم تناول القطعة فى ارتياح شامل لا يشعر به إلا فى مثل هذا الموقف اللذيذ ، مما جعله يحلم كثيرا بأن يكون يوما صاحب دكان حلوى ليأكلها لا ليبيعها ، ثم واصل سيره فى شارع الحسين وهو يقضم منها مسرورا مترنما . نسى وقتذاك أنه كان سجينا النهار كله ، وأنه كان محروما من الحركة فضلا عن اللعب والمرح ، وأنه كان عرضة فى أية لحظة لعصا المدرس المسلطة على الرءوس ، بيد أنه رغم هذا كله لم يكره المدرسة كراهية مطلقة لأنه كان يظفر بين جدرانها بأسباب من التقدير والتشجيع - بسبب تفوقه الذى يرجع كثير من الفضل فيه إلى شقيقه فهمى - لا يحظى بعشر معشارها عند أبيه . ومر فى طريقه بدكان ماتوسيان لبيع السجائر فوقف كعادته كل يوم فى مثل هذه الساعة تحت لافتتها يصعد عينيه الصغيرتين إلى الإعلان الملون الذى يصور امرأة مضطجعة على ديوان وبين شفتيها القرمزيتين سيجارة يتطاير منها دخان متعرج ، معتمدة بساعدها على حافة نافذة يلوح وراء ستارتها المنحسرة منظر يجمع بين حقل نخيل ومجرى من مجريات النيل ، وكان يدعوها فيما بينه وبين نفسه «أبلة عائشة» لما بين الاثنتين من شبه يتمثل فى الشعر الذهبى والعينين الزرقاوين ، ومع أنه كان يناهز العاشرة إلا أن إعجابه بصاحبة الصورة فاق كل تقدير ، فكم تخيلها متمتعة بالحياة فى أبهج مناظرها ، وكم تخيل نفسه وهو يقاسمها حياتها الرغيدة بين حجرة ناعمة ، ومنظر ريفى متاح لها - لهما - أرضه ونخيله وماؤه وسماؤه ، يسبح فى الوادى الأخضر أو يعبر النهر فى قارب بدا فى نهاية الصورة كالطيف ، أو يهز النخيل فيساقط عليه الرطب ، أو يجلس بين يدى الحسناء طامح الطرف إلى عينيها

الحالمتين. على أنه لم يكن جميلا كأخويه، ولعله كان أشبه الأسرة بأخته خديجة، فمثلها قد جمع فى وجهه بين عينى أمه الصغيرتين وأنف أبيه الضخم ولكن بكامل هيئته لا مهذبا بعض التهذيب كما ورثته خديجة، إلى رأس كبير يبرز عند الجبهة بروزا واضحا جعل عينيه تبدوان غائرتين أكثر مما هما فى الواقع، وكان من سوء الحظ أن نبّه إلى غرابة صورته بحال مثيرة للسخرية حين دعاه أحد الرفاق بأبى «رأسين» فأهاج غضبه وأورطه فى إحدى المعركتين اللتين خاضهما، ولم يسكن خاطره الانتقام فشكا فى البيت حزنه إلى أمه التى تكدرت لكدره وراحت تعزيه مؤكدة له أن كبر الرأس من كبر العقل، وأن النبى عليه السلام كان كبير الرأس، وأنه ليس وراء التشابه بين الرسول وبينه من مطمع لطامع. ولما انتزع نفسه من صورة المدخنة واصل سيره رانيا هذه المرة إلى جامع الحسين الذى قضت نشأته بأن يكون لقلبه مثار أخيلة وعواطف لا تنضب. ومع أن المكانة التى نزلها الحسين من نفسه ـ تبعا لمنزلته من نفس أمه خاصة والأسرة عامة كانت وليدة قرابته من النبى إلا أن معرفته للنبى وسيرته لم تكن شفيعا إلى معرفته بالحسين وسيرته، وما تهفو نفسه دائمًا إليه من استعادة هذه السيرة والتزود منها بأنبل القصص وأعمق الإيمان. حتى لقد وجدت منه على مر القرون مستمعا مشغوفا ومحبا مؤمنا وأسيفا بكَّاء، فلم يهون من بلواه إلا ما قيل من أن رأس الشهيد بعد فصله عن جسده الطاهر لم يرض من الأرض مسكنا إلا فى مصر فجاء طاهرا مسبحا ثم ثوى حيث يقوم ضريحه. وكم وقف حيال الضريح حالما مفكرا، يود لو ينفذ ببصره إلى الأعماق ليطلع على الوجه الجميل الذى أكدت له أمه أنه قاوم غيرَ الدهر بسره الإلهى فاحتفظ بنضارته ورونقه حيث يضىء ظلمة المثوى بنور غرته، ولما لَم يجد إلى تحقيق أمنيته سبيلا قنع بمناجاته فى وقفات طويلة، مفصحا عن حبه، شاكيا إليه متاعبه الناشئة من تصوراته عن العفاريت وخوفه من تهديد أبيه مستنجداً به على الامتحانات التى تلاحقه كل ثلاثة أشهر، ثم خاتما مناجاته عادة بالتوسل إليه أن يكرمه بالزيارة فى منامه. ومع أن عادة مروره بالجامع صباحا ومساء خففت بعض الشىء من شدة تأثره به إلا أنه لم تكن تقع عليه عيناه حتى يقرأ له الفاتحة ولو تكرر ذلك منه مرات فى اليوم الواحد، أجل لم تستطع العادة أن تقتلع من صدره بهجة الأحلام، فلم يزل لمنظر الجدران السامقة تجاوبها مع قلبه، ولم يزل لمئذنته العالية نداء ما أسرع أن تلبيه نفسه. قطع طريق الحسين وهو يقرأ الفاتحة ثم انعطف إلى خان جعفر، ومنها اتجه إلى بيت القاضى، ولكنه بدلا من أن يمضى إلى البيت مخترقا النحاسين عبَر الميدان إلى درب قرمز على وحشته وإثارته لمخاوفه ليتفادى من المرور بدكان أبيه. كان يرتعد فرقا من أبيه ولا يتصور أنه يخاف العفريت لو طلع له أكثر منه إذا زعق به غاضبا، وضاعف من كربه أنه لم يقتنع يومًا بالأوامر الصارمة التى يلاحقه بها للحيلولة بينه وبين ما تصبو إليه نفسه من اللعب والمرح، فلو أنه أذعن لمشيئته مخلصًا لقضى وقت فراغه كله متربعًا مكتوف

اليدين لذلك لم يسعه أن يطيع تلك المشيئة الجبارة العاتية واختلس اللهو من وراء ظهره كلما حلا له، فى البيت أو فى الطريق، وظل الرجل على جهل بأمره إلا أن يبلغه شيء بوشاية من أهل البيت إذا ضاقوا بغلوه وإفراطه، من ذلك أنه جاء يومًا بسلم وارتقاه إلى عرش اللبلاب والياسمين فوق السطوح، ورأته أمه وهو على تلك الحال بين السماء والأرض فصرخت فزعة حتى أجبرته على النزول، ثم غلب إشفاقها من مغبة لعبة خطيرة كتلك على خوفها عليه من شدة أبيه فصرحت للسيد بما كان منه، وسرعان ما دعا به وأمره أن يمد قدميه وانهال عليهما بعصاه غير مبال بصراخه الذى ملأ البيت، وغادر الغلام الحجرة وهو يظلع ليجد إخوته فى الصالة وهم يغالبون ضحكهم إلا خديجة التى حملته بين يديها هامسة فى أذنه «تستاهل . . كيف تعلو اللبلاب وتناطح السماء! أحسبت نفسك زبلن؟!». على أنه فيما عدا الألعاب الخطرة كانت أمه تتستر عليه وتبيح له ما يشاء من اللعب البريء. ولشد ما يعجب كلما ذكر كيف كان هذا الأب نفسه ظريفًا لطيفًا معه على عهد طفولته القريبة، وكيف كان يتسلى بمداعبته وكيف كان ينفحه من آن لآخر بألوان شتى من الحلوى، وكيف هوّن عليه يوم الختان - على - فظاعته - فملأ حجره بالشيكولاتة والملبس وشمله بعطفه ورعايته، ثم ما أسرع أن تغير كل شيء فتبدل عطفه صرامة، ومناغاته زعقا، ومداعباته ضربًا، حتى الختان نفسه اتخذه أداة لإرهابه حتى اختلط عليه الأمر ردحا من الزمن فظن أنه من الممكن حقًا أن يلحقوا ما تبقى له بما ذهب! وليس الخوف وحده الذى شعر به نحو أبيه فإجلاله له لم يكن دون خوفه منه، كان يعجب بمظهره العظيم القوى، ومهابته التى تعنو لها الهام، وأناقة ملبسه، وما يعتقده فيه من قدرة على كل شيء، ولعل حديث الأم عن سيدها هو الذى هوّله عنده فلم يتصور أنه يوجد فى الدنيا رجل يضارعه فى قوته أو إجلاله أو ثروته. أما عن الحب فقد كان كل من فى البيت يحب الرجل لحد العبادة فانسرب حبه إلى قلبه الصغير بإيحاء البيئة، بيد أنه ظل جوهرة مكنونة فى حُقّ مغلق من الخوف والرعب. مضى يقترب من قبو درب قرمز المظلم الذى تتخذه العفاريت مسرحًا لألعابها الليلية، والذى آثره لنفسه طريقا عن المرور بدكان أبيه، وعندما دخل فى جوفه راح يقرأ «قل هو الله أحد» بصوت مرتفع رن فى الظلمة تحت السقف المنحنى، وسبقته عيناه إلى فوهة القبو البعيدة حيث يشع نور الطريق، ثم حث خطاه وهو يردد السورة لطرد من تحدثه نفسه بالظهور من العفاريت، فالعفاريت لا سبيل لها على من يدرع بآيات الله، أما أبوه فلن يدرأ غضبه عنه إذا ثار أن يتلو كتاب الله كله. وخرج من القبو إلى الشطر الآخر من الدرب، وعند نهايته طالعه سبيل بين القصرين ومدخل حمام السلطان، ثم لاحت لعينيه مشربيات بيته بلونها الأخضر القاتم، والباب الكبير بمطرقته البرنزية فافتر ثغره عن ابتسامة فرح لما يدخره له هذا المكان من أفانين المرح، فعما قليل يهرع الغلمان إليه من جميع البيوت المجاورة إلى

فنائه الواسع الذى يحوى عدة حجرات تتوسطها الفرن فيكون لعب ولهو وبطاطة . وفى تلك اللحظة رأى سوارس وهى تقطع الطريق على مهل متجهة إلى بين القصرين فوثب قلبه وشاع فيه سرور ماكر ، وما لبس أن دس حقيبة كتبه تحت إبطه الأيسر وجرى وراءها حتى أدركها ثم وثب إلى سلمها الخلفى ، ولكن الكمسارى لم يتركه فى سروره طويلا فجاءه يطالبه بثمن التذكرة وهو يرمقه بنظرة تنم عن ريبة وتحد فقال له متوددا : إنه سيغادرها حالما تقف لأنه لا يسعه النزول وهى سائرة ، فتحول الرجل عنه إلى السائق وهتف به أن يوقف العربة وهو يزمجر غاضبا فانتهز الغلام فرصة تحوله عنه وشب على أمشاط قدميه وصفعه ثم وثب إلى الأرض وانطلق هاربا وشتائم الكمسارى تلاحقه أشد من الأحجار المطينة ! . . لم تكن خطة مدبرة ، ولا هى من مختار شطارته ، ولكنه رأى غلاما يفعلها فى الصباح فراقت له ، ثم وجدها سانحة لإعادتها بنفسه ففعل .

٩

واجتمعت الأسرة ـ ما عدا الأب ـ قبيل المغيب فيما يعرف بينها بمجلس القهوة . وكانت الصالة بالدور الأول مكانه المختار حيث تحيط بها حجرات نوم الإخوة والاستقبال ورابعة صغيرة أعدت للدرس وقد فرشت الصالة بالحصر الملونة وقامت فى أركانها الكنبات ذوات المساند والوسائد . وتدلى من سقفها فانوس كبير يشعله مصباح غازى فى مثل حجمه . وكانت الأم تجلس على كنبة وسيطة وبين يديها مدفأة كبيرة دفنت كنجة القهوة حتى النصف فى جمرتها التى يعلوها الرماد ، وإلى يمينها خوان وضعت عليه صينية صفراء صفت عليها الفناجين ، يجلس الأبناء حيالها سواء من يؤذن له باحتساء القهوة معها كياسين وفهمى ومن لا يؤذن له بحكم التقاليد والآداب فيقنع بالسمر كالشقيقتين وكمال . تلك ساعة محببة إلى النفوس يستأنسون فيها إلى رابطتهم العائلية ، وينعمون بلذة السمر ، وينضوون جميعًا تحت جناح الأمومة فى حب صاف ومودة شاملة . وبدت فى جلساتهم راحة الفراغ وتحرره فكانوا بين متربع ومضطجع ، وبينما جعلت خديجة وعائشة تستحثان الشاربين على الفراغ من شربهم لتقرأ لهم الطالع فى فناجينهم راح ياسين يتحدث حينًا ويقرأ فى قصة اليتيمتين من مجموعة مسامرات الشعب حينا آخر . كان من عادة الشاب أن يهب بعض فراغه لمطالعة القصص والأشعار ـ لا لإحساسه بنقص تعليمه فالابتدائية وقتذاك لم تكن مطلبًا صغيراً ـ ولكن غرامًا بالتسلية وولعا بالشعر والأساليب الجزلة . وقد بدا بجسمه المكتنز فى جلبابه الفضفاض كقربة هائلة إلا أن مظهره لم يتعارض ـ بحكم الزمن ـ مع قسامة فى وجهه الأسمر الممتلئ بعينيه

السوداوين الجذابتين وحاجبيه المقرونين وشفتيه الشهوانيتين، ونم بجملته - رغم حداثة سنه الذى لا يجاوز الواحدة والعشرين - على رجولة مفعمة بالفحولة. ولبد كمال لصقه ليلتقط ما يرمى إليه بين آونة وأخرى من نوادر القصص وهو لا يكف عن الاستزادة منها غير مكترث لما يحدثه إلحاحه على أخيه من الضيق كى يشبع أشواقًا تشتعل بخياله فى مثل هذه الساعة من كل يوم، ولكن ما أسرع أن يشغل عنه ياسين بالحديث أو بالاستغراق فى المطالعة متفضلا عليه بين حين وآخر - كلما اشتد إلحاحه بكلمات مقتضبة إن وجد بها الجواب على بعض أسئلته فما أحرى أن تستثير أسئلة جديدة لا جواب لها عنده، ثم لا يفتأ يرمق أخاه وهو آخذ فى المطالعة التى تبيح له مفتاح العالم السحرى بعين الحسد والحزن، فكم حز فى نفسه عجزه عن قراءة القصة بنفسه، وكم أحزنه أن يجدها بين يديه بحيث يقلبها كيف شاء دون أن يسعه حل رموزها فالولوج منها إلى دنيا الرؤى والأحلام، فقد وجد فى هذا الجانب من ياسين مثاراً لخياله هيأ له من ألوان المسرة ما هيأ، وهيج من أسباب الظمأ وعذابه ما هيج، وكثيراً ما كان يرفع عينيه إلى أخيه ويسأله فى لهفة: «وماذا حدث بعد ذلك؟» فينفخ الشاب قائلا: «لا تضيق عليّ بأسئلتك ولا تتعجل حظك فإن لم أقص عليك اليوم فغداً»، ولم يكن يحزنه شيء كاستنظاره للغد حتى اقترنت لفظة الغد فى ذهنه بالحسرة، ولم يكن نادراً أن يتحول إلى أمه بعد تفرق المجلس وبه أمل أن تقص عليه ما «حدث بعد ذلك»، ولكن المرأة كانت تجهل قصة اليتيمتين وغيرها مما يقرأ ياسين إلا أنها يعز عليها أن ترده خائبًا فتروى له ما تحفظ من حكايات اللصوص والعفاريت فيروغ خياله إليها رويداً ظافراً بزاد من العزاء. فى مجلس القهوة ذاك لم يكن عجيبًا أن يشعر بأنه ضائع مهمل بين أهله، لا يكاد يلتفت إليه أحد، وأنهم مشغولون عنه بأحاديثهم التى لا تنتهى. فلم يتورع عن الاختلاق فى سبيل الاستئثار باهتمامهم ولو إلى حين، ولذلك رمى بنفسه فى مجرى الحديث معترضًا تياره بجرأة وقال بلهجة حادة فجائية كانطلاق القذيفة كأنما تذكر أمرا خطيراً بغتة:

- يا له من منظر لا ينسى الذى رأيته اليوم وأنا عائد! . . رأيت غلاما يثب إلى سلم سوارس ثم صفع الكمسارى وركض بأكبر سرعة فما كان من الرجل إلا أن عدا وراءه حتى أدركه ثم ركله فى بطنه بكل قوته.

وقلب عينيه فى الوجوه ليرى أثر حديثه فلم يجد ثمة اهتمام ولمس إعراضا عن خبره المثير وتصميما على مواصلة الحديث، بل رأى يد عائشة تمتد إلى ذقن أمه وتحولها عنه بعد أن همت بالإصغاء إليه، ولمح إلى هذا ابتسامة هازئة ترتسم على شفتى ياسين الذى لم يرفع رأسه عن الكتاب، فركبه العناد وقال بصوت مرتفع:

- وسقط الغلام يتلوى وازدحم حوله الناس فإذا به قد فارق الحياة . .

وأبعدت الأم الفنجان عن فمها وهتفت :

ـ يا ولداه! . . أتقول إنه مات؟!

وسر باهتمامها وركز قوته فيها كما يركز المهاجم اليائس قوته فى نقطة ضعيفة من سور منيع فقال :

ـ أجل مات ، ورأيت بعينى دمه وهو يسيل بغزارة . .

وحدجه فهمى بنظرة ساخرة كأنها تقول له «إنى أذكر لك أكثر من قصة من هذا النوع» ، وقال متسائلا فى تهكم :

ـ قلت إن الكمسارى ركله فى بطنه؟ . . فمن أين سال الدم؟!

وانطفأت شعلة الظفر التى تلألأت فى عينيه مذ جذب أمه إليه ، وحل محلها سهوم الارتباك والحنق ، ولكن أسعفه الخيال فاستردت نظرة عينيه حيويتها وقال :

ـ لما ركله فى بطنه سقط على وجهه فشج رأسه!

وهنا قال ياسين دون أن يرفع عينيه عن اليتيمتين :

ـ أو أن الدم سال من فيه ، فالدم قد يسيل من الفم دون حاجة إلى جرح ظاهرى ، هنالك أكثر من تفسير لخبرك المكذوب ـ كالعادة ـ فلا تخف .

واحتج كمال على تكذيب أخيه وراح يحلف بأغلظ الايمان على صدقه ولكن احتجاجه ضاع فى ضجة من الضحك جمعت الغليظ والرفيع من حناجر الرجال والنساء فى هارمونى واحدة ، وتحركت طبيعة خديجة الساخرة فقالت :

ـ ما أكثر ضحاياك ، لو صدقت فيما تروى من أخبار لما أبقيت على أحد من أهل النحاسين حيًا . . ماذا تقول لربنا لو حاسبك على أخبارك هذه؟!

ووجد فى خديجة مهاجمًا يقدر عليه ، وكعادته كلما ارتطم بسخريتها راح يعرض بأنفها قائلا :

ـ أقول له إن الحق على منخور أختى!

فقالت الفتاة وهى تضحك :

ـ من بعض ما عندكم . . ألسنا فى البلوى سواء!

وهنا قال ياسين مرة أخرى :

ـ صدقت يا أختاه :

وتحولت إليه متحفزة للانقضاض فبادرها قائلا :

ـ هل أغضبتك! . . لماذا! . . ليس إلا أننى جاهرت بالموافقة على رأيك .

فقالت له حانقة :

ـ اذكر عيوبك قبل أن تعرض بعيوب الناس .

فرفع عينيه متظاهراً بالحيرة ثم تمتم :

ـ والله إن أكبر عيب ليهون إلى جانب هذا الأنف .

وتظاهر فهمى بالاستنكار ثم تساءل فى نبرات وشت بانضمامه إلى المهاجمين :

ـ ماذا قلت يا أخى ، أهو أنف أم جريمة؟

ولما كان فهمى لا يشترك فى مثل هذا النضال إلا نادراً فقد رحب ياسين بقوله فى حماس وقال :

ـ هى الاثنان معًا ، فكر فى المسئولية الجنائية التى سيتحملها من يقدم هذه العروس إلى عريسها المنكود .

وقهقه كمال ضاحكًا بصوت كالصفير المتقطع ولم ترتح الأم إلى وقوع ابنتها بين كثرة من المهاجمين فأرادت أن ترجع الحديث إلى أصله وقالت بهدوء :

ـ خرج بكم الكلام الفارغ عن موضوع الحديث ، كان حديثًا عن السيد كمال أصَدق فى أخباره أم لم يصدق ، ولكن أظن أنه لا داعى إلى الشك فى صدقه بعد أن حلف . . أجل كمال لا يحلف كذبًا أبدًا .

وباخ سرور الغلام الانتقامى لتوه ، ومع أن أخوته واصلوا المزاح حينًا آخر إلا أنه انقطع عنهم بروحه ، متبادلا مع أمه نظرات ذات معنى ، ثم خاليًا بنفسه متفكراً فى قلق وكدر . كان يدرك خطورة الحلف الكاذب فيما يثير من سخط الله وأوليائه ، ويعز عليه جداً أن يحلف كذبًا بالحسين خاصة لولعه به ، ولكنه كثيراً ما وجد نفسه فى مأزق حرج ـ كما وجد اليوم ـ لا مخرج منه فى نظره إلا بالحلف الكاذب ، فينساق وهو لا يدرى إلى التورط فيه . بيد أنه لم يكن ينجو ، خاصة إذا ذكر بجريرته ، من الهم والقلق ، ويود لو يقتلع الماضى السيئ من جذوره ، وأن يبدأ صفحة جديدة نظيفة ، وذكر الحسين ، وموقفه عند أصل مئذنته حيث تتراءى وكأن هامتها تتصل بالسماء ، وسأله فى ضراعة أن يعفو عن زلته وهو يشعر بغضاضة من اجترأ على حبيب بإساءة لا تغتفر . وغرق فى توسلاته مليًا ثم أخذ يفيق إلى ما حوله ويفتح أذنيه إلى ما يدور من حديث فيه المعاد وفيه الجديد ، وقليل منه ما يسترعى انتباهه ، ولكنه لا يكاد يخلو من ترديد ذكريات منتزعة من ماضى الأسرة البعيد أو القريب ، وأنباء مما يجرى عن مسرات الجيران وأحزانهم ، ومواقف حرجة للأخوين أمام أبيهما الجبار ، تنبرى خديجة إلى استعادة وصفها وتحليلها على سبيل الفكاهة أو الشماتة ، ومن هذه وتلك نمت للغلام معرفة تبلورت فى مخيلته على صورة غريبة تأثر تكوينها غاية التأثر بما تجاذب طرفيه من روح خديجة التهجمية وروح أمه السمحة العفوة . . وانتبه أخيراً إلى فهمى وهو يقول مخاطبًا ياسين :

- إن هجوم هندنبرج الأخير شديد الخطورة ولا يبعد أن يكون الهجوم الفاصل فى هذه الحرب .

وكان ياسين يعطف على آمال أخيه ولكن فى هدوء متسم بقلة الاكتراث ، تمنى مثله أن ينتصر الألمان وبالتالى الترك وأن تسترد الخلافة سابق عزتها ، وأن يعود عباس ومحمد فريد إلى الوطن ولكن أمنية من هذه الأمانى لم تكن لتشغل قلبه فى غير أوقات الحديث عنها ، وقد قال وهو يهز رأسه :

- مضى أربع سنوات ونحن نردد هذا الكلام .

فقال فهمى برجاء وإشفاق :

- لكل حرب نهاية ، ولابد أن تنتهى هذه الحرب ، ولا أظن الألمان ينهزمون!

- هذا ما ندعو الله أن يتحقق ، ولكن ماذا يكون رأيك لو وجدنا الألمان كما يصفهم الإنجليز ؟ !

ولما كانت المعارضة تشعل حدته فقد علا صوته وهو يقول :

- المهم أن نتخلص من كابوس الإنجليز ، وأن تعود الخلافة إلى سابق عظمتها فنجد طريقنا ممهداً .

وتدخلت خديجة فى الحديث متسائلة :

- ولماذا تحبون الألمان وهم الذين أرسلوا زبلن ليلقى قنابله علينا؟ !

وراح فهمى يؤكد - كعادته - أن الألمان قصدوا الإنجليز بقنابلهم لا المصريين ، فانتقل الحديث إلى مناطيد زبلن وما يقال عن ضخامتها وسرعتها وخطورتها ، حتى استوى ياسين فى جلسته ونهض إلى حجرته ليرتدى ملابسه تمهيداً لمغادرة البيت إلى سهرته المعتادة ، وعاد بعد فترة وجيزة وقد تهيأ وأخذ زينته ، فتراءى أنيق الملبس ، جميل المظهر ، وبدا بجسمه الضخم وفحولته الناضجة وشاربه النابت أكبر من سنه كثيراً ، ثم حياهم وانصرف وشيعه كمال بنظرة تنم عما يغبطه عليه من التمتع بحريته فى انطلاق ساحر ، فلم يغب عنه أن أخاه لم يعد يحاسب - منذ تعيينه كاتباً بمدرسة النحاسين - على ذهابه وإيابه ، وأنه يسهر كما يشاء ويعود حين يشاء ، ما أجمل هذا وأسعده ، وكم يكون إنسانا سعيداً لو ذهب وجاء كما يحب ، ومد سهرته إلى حيث يشاء ، وقصر القراءة - حين تتم له أداتها - على الروايات والأشعار ، ثم سأل أمه فجأة :

- أيمكننى إذا وظفت أن أسهر فى الخارج كياسين؟

وابتسمت الأم قائلة :

- ليس السهر فى الخارج بالغاية التى يصح أن تحلم بها من الآن!

فصاح محتجا:

ـ ولكن أبى يسهر، وياسين يسهر كذلك.

فرفعت الأم حاجبيها ارتباكا وتمتمت:

ـ شد حيلك أولا حتى تصير رجلا ثم موظفا، ووقتها يفرجها ربنا!

ولكن كمال بدا متعجلا فتساءل:

ـ ولماذا لا أتوظف بالابتدائية بعد ثلاثة أعوام؟

وصاحت خديجة فى سخرية:

ـ تتوظف دون الرابعة عشرة!.. وماذا تصنع إذا بلت على نفسك فى الوظيفة؟!

وقبل أن يعلن ثورته على أخته قال له فهمى بازدراء:

ـ يا لك من حمار.. لماذا لا تفكر فى دخول الحقوق مثلى؟.. إن ظروف ياسين القاهرة هى التى جعلته يأخذ الابتدائية فى العشرين من عمره، ولولاها لأتم تعليمه.. ألا تدرى كيف تتمنى يا كسول!

١٠

عندما صعد فهمى وكمال إلى سطح البيت كانت الشمس على وشك الاختفاء، فلاحت قرصًا أبيض مسالما تولت عنه حيويته وبردت حرارته وانطفأ توهجه، وقد بدا بستان السطح المسقوف باللبلاب والياسمين فى ظلمة وانية، ولكن الشاب والغلام مضيا إلى شطر السطح الآخر حيث لا يحجب فلول النور حجاب، ثم مالا إلى السور الملاصق لسور السطح المجاور، سطح الجيران. وكان فهمى يرقى بكمال إلى هذا الوضع كل مغيب بحجة مراجعة دروسه فى الهواء الطلق على الرغم من أن جو نوفمبر أخذ يميل إلى البرودة فى هذه الساعة من اليوم، وأوقف الغلام بحيث جعل ظهره إلى السور، ووقف هو لقاءه بحيث أمكنه أن يمد بصره إلى سطح الجيران الملاصق دون تلفت كلما بدا له. وهناك بين حبال الغسيل لاحت فتاة ـ شابة فى العشرين أو نحو ذلك ـ وقد انهمكت فى جمع قطع الثياب الجافة وتكديسها فى سلة كبيرة. ومع أن كمال راح يتكلم بصوت مرتفع كعادته إلا أنها واصلت عملها وكأنها لم تنتبه إلى مجيء الطارئين. أمل كان يجيء به دواما فى مثل هذه الساعة لعله يفوز منها بنظرة إذا اتفق ودعاها إلى السطح بعض شأنها، ولم يكن تحقيقه يسيرا كما دل تورد وجهه الناطق بفرط سروره، وخفقان قلبه المتتابع ببهجة مفاجئة، فجعل ينصت إلى أخيه الصغير بعقل تائه وعينين أقلقهما استراق

النظر، وهى تتراءى تارة وتحتجب أخرى، أو يبدو بعضها ويغيب بعضها، كيفما اتفق موقفها من الثياب والملاءات المنشورة. . كانت فتاة متوسطة القامة صافية البشرة مع ميل إلى البياض، سوداء العينين، تنطق مقلتاها بنظرة تفيض حياة وخفة وحرارة، إلا أن جمالها وعاطفته المتوثبة وإحساسه بالظفر لرؤيتها لم تستطع أن تمحو القلق الذى يدب وراء قلبه - وانيا حين حضورها ثم قويا إذا خلا إلى نفسه - لجرأتها على التعرض لعينيه كأنه ليس بالرجل الذى ينبغى أن تتوارى فتاة مثلها عن عينيه، أو كأنها فتاة لا تبالى التعرض للرجال، وطالما ساءل نفسه ما بالها لا تفزع مولية كخديجة أو عائشة لو وجدت إحداهما نفسها فى مثل موقفها! أى روح عجيب يشذ بها عن التقاليد المرعية والآداب المقدسة! وألا يكون أهدأ جانبا لو بدا منها ذاك الاحتشام المفتقد ولو على حساب سروره الذى يفوق الوصف برؤيتها؟! . . بيد أنه دأب على انتحال الأعذار لها من قدم الجوار ووحدة النشأة، وربما الوداد أيضاً. ثم لا يفتأ وراء نفسه يحاورها ويجادلها حتى تشجع وترضى. ولما لم يكن جريئا كجرأتها فقد جعل يختلس من الأسطح المجاورة النظر ليطمئن إلى خلوها من الرقيب لأنه لم يكن مما يغض الطرف عنه أن يجرح شاب فى الثامنة عشرة حرمة الجيران، وخاصة من كان منهم فى طيبة جارهم السيد محمد رضوان ولهذا أقلقه دائماً شعوره بخطورة فعلته، وخوفه من أن يترامى نبؤها إلى أبيه فتكون الطامة. ولكن استهانة الحب بالمخاوف عجب قديم فلم يقدر شىء منها على إفساد نشوته أو انتزاعه من حلم ساعته، فمضى يراقبها وهى تبدو أو تختفى حتى خلا ما بينه وبينها وباتت تواجهه ويداها الصغيرتان ترتفعان وتنخفضان وأصابعها تنقبض وتنبسط على مهل وتؤدة كأنها تتعمد إطالة عملها. وحدس قلبه ذاك التعمد وهو بين الشك والتمنى ولكنه لم يقتصد فى الانطلاق مع فرحته إلى أبعد الآفاق حتى استحال باطنه رقصاً وأنغاماً، ومع أنها لم ترفع عينيها إليه قط إلا أن هيئتها وتورد وجنتيها وتحاميها النظر إليه نمت جميعاً عن شدة إحساسها بوجوده أو انعكاس وجوده على إحساسها. وبدت فى هدوئها وصمتها موفورة الرزانة كأنها ليست هى هى التى تشيع الفرحة والبهجة فى بيته إذا زارت شقيقتيه، أو ليست هى هى التى يعلو صوتها فى جنبات الدار وترن ضحكاتها، هنالك يقبع وراء باب حجرته وكتابه فى يده استعداداً للتظاهر بالاستذكار إذا طرقه طارق، ويروح يستقبل بوعيه المركز أنغامها الناطقة والضاحكة بعد استخلاصها من أصوات الآخرين الملابسة لها التى لا يكاد يشعر بها كأنما وعيه مغناطيس يجذب إليه الصلب وحده من بين أخلاط شتى، وربما لحظ بعضا منها وهو يعبر الصالة، وربما التقت عيناهما فى لمحة خاطفة ولكنها كافية لإسكاره وإذهاله كأنه تلقى بها رسالة خطيرة دار رأسه بخطورتها، وملأ بنظراته المسترقة من وجهها عينيه وروحه، على الرغم من أنها كانت مسترقة خاطفة إلا أنها مستأثرة بروحه وإحساسه فكانت شديدة النفاذ والقوة التى

تأتى النـظرة منها بما لا يستطيعه النظر الطويل والسبر العميق، كأنها انبثاق البرق الذى يتوهج لحظة قصيرة فتضىء شرارته الرحاب وتخطف الأبصار، وثمل قلبه بسرور مسكر عجيب ولكنه لم يخل - كحاله أبدا - من ظل أسى يتبعه كما تتبع رياح الخَمَسين مشرق الربيع، لأنه لم يكن يكف عن التفكير فى الأربعة الأعوام التى يتم تعليمه فيها، والتى لا يدرى كم من يد قد تمتد فى أثنائها إلى الثمرة الناضجة لتقطفها. ولو كان جو البيت غير هذا الجو الخانق الذى تشد على عنقه قبضة أبيه الحديدية لأمكنه أن يلتمس إلى سلام قلبه أقصر السبل، ولكنه خاف دائمًا أن ينفس عن آماله فيعرضها لزجرة من أبيه قاسية تطيرها وتبددها، وتساءل وهو يمد بصره فوق رأس أخيه ترى أى أفكار تدور برأسها؟ ألا يشغله حقًا إلا . . ما تجمع من قطع الملابس؟ . . ألم تشعر بعد بما يجذبه إلى موقفه هذا مساء بعد مساء؟ . . وكيف يلقى قلبها هذه الخطى الجريئة من ناحيته؟ . . وتخيل نفسه متخطيًا سور السطوح إلى مكانها فى الظلام، وتخيلها على أطوار شتى تارة تنتظره على ميعاد، وتارة تباغت بمقدمه حتى تهم بالفرار، ثم تصور ما يكون بعد ذلك وما يند عنه من بوح وشكوى وعتاب، ثم ما قد يستتبعه هذا أو ذاك من عناق وقبل، بيد أنها كانت محض تخيلات وأوهام، وكان أدرى الناس - بما جبل عليه من دين وآداب - ببطلانها ومحالها. وبدا الموقف صامتا إلا أنه كان صمتًا مكهربًا يكاد ينطق بغير لسان، وحتى كمال لاحت فى عينيه الصغيرتين نظرة حائرة كأنه يسائل نفسه عن معنى هذا الجد الغريب الذى يثير استطلاعه على غير جدوى، ثم نفد صبره فرفع صوته قائلا:

- لقد حفظت الكلمات، ألا تسمعها لى؟

وأفاق فهمى على صوته فتناول الكراسة منه ومضى يسأله عن معانى الكلمات والآخر يجيب حتى وقعت عيناه على كلمة عزيزة وجد بينها وبين ما كان فيه سببًا وأى سبب فرفع صوته عمداً وهو يسأله عن معناها قائلا:

- قلب؟

وأجاب الغلام وتهجى الآخر يتلمس أثر موقع الكلمة من وجهها، ثم رفع صوته مرة أخرى متسائلا:

- حب؟

وارتبك كمال قليلا ثم قال بصوت يدل على الاعتراض:

- ليست هذه الكلمة فى الكراسة.

قال فهمى باسما:

- ولكنى ذكرتها لك مرارا، وكان يجب أن تحفظها!

وقطب الغلام كأنه يشد قوس حاجبيه لاصطياد الكلمة الهاربة ولكن أخاه لم ينتظر نتيجة محاولته وواصل امتحانه بنفس الصوت المرتفع قائلا :

ـ زواج . .

وخيل إليه عند ذاك أنه لمح على شفتيها شبه ابتسامة فتوالت ضربات قلبه فى سرعة وحرارة، وملأه شعور بالظفر لأنه أمكنه أخيرًا أن ينقل إليها شحنة من الكهرباء التى تستعر فى صدره، بيد أنه تساءل لماذا يا ترى لم تفصح عن تأثرها إلا عند هذه الكلمة، ألأنها استنكرت سابقتها أم أن الأخيرة كانت أول ما وعت أذناها؟! . . وما يدرى إلا وكمال يقول محتجا بعد أن أعياه التذكر :

ـ هذه الكلمات صعبة جدًا . .

وآمن قلبه بقولة أخيه البريئة، وذكر على ضوئها حاله ففترت فورة سروره أو كادت. وهم بالكلام ولكنه رآها انحنت على السلة ثم حملتها واتجهت نحو السور الملاصق لسطح بيته ووضعتها عليه وراحت تضغط الغسيل براحتيها، قريبة من موقعه لا يفصلها عنه إلا ذراعان، ولو شاءت لاختارت موضعًا آخر من السور ولكن كأنها تعمدت أن تتصدى له وجها لوجه، فبدت فى هجومها جريئة لحد أخافه وأربكه، وإن عاود قلبه الخفقان السريع الحار حتى شعر بأن الحياة تبيح له من كنوزها لونًا جديدًا لم يدره، لطيفا بهيجا مفعمًا حيوية وأفراحا. ولكن وقفتها القريبة لم تطل فما لبثت أن رفعت السلة بين يديها واستدارت مولية صوب باب السطح حتى مرقت منه وغابت عن ناظريه. وجعل ينظر إلى الباب مليا دون مبالاة بأخيه الذى عاود التشكى من صعوبة الكلمة ثم شعر برغبة فى الانفراد لتملى ما استجد من تجارب الهوى فقلب عينيه فى الفضاء فى تظاهر بالدهشة كأنما يتنبه إلى الظلمة الزاحفة فى الأفق لأول مرة، وتمتم قائلا :

ـ آن لنا أن نعود .

١١

وكان كمال يستذكر دروسه فى الصالة، تاركا حجرة الاستذكار لفهمى وحده، ليكون غير بعيد عن مجلس أمه وأختيه : وكان ذلك المجلس امتداداً لمجلس القهوة إلا أنه يقتصر على النسوة وحديثهن الخاص الذى يجدن فيه على تفاهته متعة لا تدانيها متعة، وقد جلسن كعادتهن متلاصقات كأنهن جسم واحد ذو رءوس ثلاثة فى حين تربع كمال على كنبة أخرى قبالتهم فاتحا كتابه فى حجره يقرأ فيه حينًا، ويغمض عينيه ليحفظ

عن ظهر قلب حينًا آخر، ويتسلى بين هذا وذاك بالنظر إليهن والإصغاء لحديثهن، ولم يكن فهمي يوافق على استذكاره لدروسه بعيداً عن مراقبته إلا على كره ولكن تفوق الغلام فى المدرسة شفع له اختيار المكان الذى يحب أن يستذكر فيه. والحق كان اجتهاده فضيلته الوحيدة التى تحمد له، ولولا شقاوته لاستحق عليها تشجيع أبيه نفسه، ولكنه على اجتهاده وتفوقه كانت تلم به ساعات ملل فيضيق بالعمل والنظام حتى ليغبط أمه وأختيه على خلو بالهن وما يحظين به من راحة وسلام، وربما تمنى فيما بينه وبين نفسه لو كان حظ الذكور فى هذه الدنيا كحظ النساء. إلا أنها كانت ساعات عابرة فلم تستطع أن تنسيه ما يتمتع به من مزايا دعته فى أحايين كثيرة إلى التطاول عليهن بالفخر والمباهاة لداع ولغير ما داع فلم يكن من النادر أن يسألهن وفى صوته رنة من التحدى «من منكن تعرف عاصمة الكاب؟» أو «ما معنى شاب بالإنجليزية؟». فيجد من عائشة صمتًا لطيفًا على حين تقر له خديجة بجهلها ثم تعرض به قائلة: «ليس لهذه الطلاسم إلا من كان له رأس كرأسك!». أما أمه فتقول له فى إيمان ساذج: «لو علمتنى هذه الأشياء كما تعلمنى الديانة لما قصرت فيها دونك». ذلك أن أمه على استكانتها ورقتها ـ كانت شديدة الاعتزاز بثقافتها الشعبية المتوارثة عن أجيال متعاقبة منذ القدم، ولم تكن تظن أنها بحاجة إلى مزيد من العلم أو أنه استجد من العلم ما يستحق أن يضاف إلى ما لديها من معارف دينية وتاريخية وطبية، وضاعف من إيمانها بها أنها تلقته عن أبيها أو فى بيته الذى نشأت فيه، وكان الأب شيخًا من العلماء الذين فضلهم الله ـ لحفظهم القرآن ـ على العالمين. فلم يكن معقولا أن تعدل بعلمه علمًا ولو لم تجهر برأيها إيثاراً للسلامة، ولهذا كثيراً ما أساءت الظن ببعض ما يقال للأبناء فى المدارس ووجدت ثمة حيرة شديدة سواء فى تفسيره أو فى السماح بتلقينه للناشئين، بيد أنها لم تعثر باختلاف يذكر بين ما يقال للغلام فى المدرسة عن أمور الدين وبين ما لديها منها، ولما كان الدرس المدرسى لا يكاد يتسع إلا لقراءة السور وتفسيرها وتبين المبادئ الدينية الأولية فقد وجدت متسعا لقص ما عندها من أساطير لا تنفصل فى اعتقادها عن حقيقة الدين وجوهره بل لعلها رأت فيها دائمًا حقيقة الدين وجوهره، وجلها معجزات وكرامات عن النبى والصحابة والأولياء، وتعاويذ شتى للوقاية من العفاريت والزواحف والأمراض فصدقها الغلام وآمن بها، لأنها صادرة عن أمه من ناحية، ولأنها جديدة فى موضوعها فلم تتعارض مع معارفه الدينية المدرسية من ناحية أخرى، وفضلا عن هذا وذاك فلم تكن عقلية مدرس الديانة كما تتكشف فى تبسطه فى الحديث أحيانًا ـ لتختلف عن عقلية أمه كثيراً أو قليلا، ثم أنه شغف بالأساطير شغفا لم يظفر بمثله فى الدروس الجافة فكان درس أمه من أسعد ساعات اليوم وأحفلها بالمتعة والخيال. أما فيما عدا الدين فلم يكن النزاع نادرا إذا تهيأت أسبابه، من ذلك أنهما اختلفا مرة عن الأرض وهل هى تدور حول نفسها فى الفضاء أو تنهض على رأس ثور،

ولما وجدت من الغلام إصراراً تراجعت متظاهرة بالتسليم، ولكنها تسللت إلى حجرة فهمى وسألته عن حقيقة الثور الذى يحمل الأرض وهل ما زال على عهده يحملها. ورأى الشاب أن يترفق بها ويجيبها باللغة التى تحبها فقال لها إن الأرض مرفوعة بقدرة الله وحكمته. وعادت المرأة قانعة بهذا الجواب الذى سرها وإن لم يمح من مخيلتها ذاك الثور الكبير. على أن كمال لم يؤثر هذا المجلس لاستذكاره رغبة منه فى الفخر بعلمه أو حبا فى النزاع الفكرى، كان فى الحق يحب بكل قلبه ألا يفارقهن ولو فى وقت عمله، وكان يجد لمرآهن سرورا لا يعادله سرور، فهذه الأم يحبها أكثر من أى شىء فى الدنيا ولا يحتمل تصور الوجود بدونها لحظة واحدة، وهذه خديجة وهى تلعب فى حياته دور أم أخرى رغم سلاطة لسانها ووخز مزاحها، وهذه عائشة التى وإن لم تتحمس يوما لخدمة إنسان إلا أنها أحبته حبا عظيما فبادلها حبا بحب حتى كان لا يشرب جرعة الماء من القلة إلا إذا دعاها للشرب قبله ليضع شفتيه موضع شفتيها المبتل بريقها. ومضت الجلسة كما تمضى كل ليلة حتى قاربت الساعة الثامنة فقامت الفتاتان وودعتا أمهما وذهبتا إلى حجرة نومهما، وعند ذلك عجل الغلام بقراءة درسه حتى فرغ منه ثم تناول كتاب الديانة وانتقل إلى جانب أمه على الكنبة المقابلة له وهو يقول لها بصوت ينم عن الإغراء:

ـ استمعنا اليوم إلى تفسير سورة عظيمة ستعجبك جداً.

فاستوت المرأة فى جلستها وهى تقول باحترام وإجلال:

ـ كلام ربنا عظيم كله..

وسره اهتمامها وهزه شعور بالغبطة والعزة لا يجده إلا حين هذا الدرس الأخير من اليوم. أجل كان يجد فى هذا الدرس الدينى أكثر من سبب للسعادة، فإنه يقوم فى أثناء نصفه على الأقل بدور المدرس، ويحاول ما استطاع أن يستعيد ما يعلق بذاكرته من هيئة مدرسه وحركاته وما يتمثله فيه من إحساس بالاستعلاء والقوة، وإنه يستمتع فى نصفه الآخر بما تلقيه عليه أمه من ذكريات وأساطير، وأنه يستأثر وحده فى شطريه بأمه دون شريك. ونظر كمال فى الكتاب فيما يشبه الإدلال ثم قرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم. قل أوحى إلىَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا. يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا..». حتى أتم السورة ولاح فى عينى الأم التردد والحيرة، إذ كانت تحذره من التفوه باسمى العفريت والجن درءاً لشرور تذكر بعضها على سبيل التخويف وتمسك عن البعض إشفاقا ومبالغة فى الحيطة، فلم تدر كيف تتصرف وهو يتلو أحد الاسمين الخطيرين فى سورة شريفة، بل لم تدر كيف تحول بينه وبين حفظها أو ماذا تفعل لو دعاها كالمعتاد إلى حفظها معه. وقرأ الغلام فى وجهها هذه الحيرة فداخله سرور ماكر، وجعل يبدأ ويعيد ضاغطا على مخارج الاسم الخطير وهو يلحظ حيرتها متوقعا أن

تفصح أخيراً عن إشفاقها فى لون من ألوان الاعتذار، ولكنها على شديد حيرتها لاذت بالصمت فمضى يعيد عليها التفسير كما سمعه حتى قال :

ـ ها أنت ترين أن من الجن من استمع إلى القرآن وآمن به، فلعل سكان بيتنا من هؤلاء الجن المسلمين وإلا ما أبقوا علينا طوال هذا العمر .

فقالت المرأة فى شىء من الضيق :

ـ لعلهم . . ولكن من الجائز أن يكون بينهم غيرهم، فيحسن بنا ألا نردد أسماءهم !

ـ لا خوف من ترديد الاسم . . هكذا قال مدرسنا .

فحدجته المرأة بنظرة عتاب وقالت :

ـ المدرس لا يعرف كل شىء !

ـ وإن كان الاسم ضمن آية شريفة؟

وشعرت حيل تساؤله بقهر ولكنها لم تجد بدا من أن تقول :

ـ كلام ربنا بركة كله .

واقتنع كمال بهذا القدر ثم واصل حديثه عن التفسير قائلا :

ـ ويقول شيخنا أيضا إن أجسامهم من نار !

وبلغ بها القلق غايته فاستعاذت بالله وبسملت عدة مرات، أما كمال فاستطرد قائلا :

ـ وسألت الشيخ هل يدخل المسلمون منهم الجنة فقال نعم فسألته مرة أخرى كيف يدخلونها بأجسام من نار، فأجابنى بحدة قائلا إن الله قادر على كل شىء .

فرنا إليها باهتمام ثم تساءل :

ـ وإذا التقينا بهم فى الجنة ألا تحرقنا نارهم؟ !

فابتسمت المرأة وقالت فى ثقة وإيمان :

ـ ليس فيها أذى أو خوف .

وسرح الغلام بعينيه حالما وإذا به يسأل مغيرا مجرى الحديث فجأة :

ـ أنرى الله فى الآخرة بأعيننا؟

قالت المرأة بنفس الثقة والإيمان :

ـ هذا حق لا ريب فيه .

فلاحت فى نظرته الحالمة أشواق كما تلوح فى الغلس بتأثير الضياء، وساءل نفسه متى يرى الله، وفى أى صورة يتبدى، وإذا به يسأل أمه مغيراً مجرى الحديث فجأة مرة أخرى :

ـ أيخاف أبى الله؟!

فتولتها الدهشة وقالت فى إنكار:

ـ يا له من سؤال غريب!.. أبوك رجل مؤمن يا بنى، والمؤمن يخاف ربه.

فهز رأسه فى حيرة وقال بصوت خفيض:

ـ لا أتصور أن أبى يخاف شيئًا.

فهتفت المرأة فى عتاب:

ـ سامحك الله.. سامحك الله..

واعتذر عن قوله بابتسامة رقيقة، ثم دعاها إلى حفظ السورة الجديدة، وراحا يتلوانها آية آية ويعيدان. ولما استفرغا جهدهما نهض الغلام ليذهب إلى حجرة النوم فتبعته حتى اندس فى فراشه الصغير، ثم وضعت راحتها على جبينه وتلت آية الكرسى، وانحنت فوقه وطبعت قبلة على خده فأحاط عنقها بذراعه ورد بقبلة طويلة صادرة من أعماق قلبه الصغير. وكانت تلقى دائمًا صعوبة فى التخلص منه عند توديعه مساء لأنه كان يبذل كل حيلته ليستبقيها إلى جانبه أطول مدة ممكنة إن لم يفز باستبقائها حتى يغيب فى نومه وهو بين ذراعيها، ولم يجد وسيلة لبلوغ غايته خيرًا من أن يطلب إليها أن تتلو على رأسه ـ إذا ختمت آية الكرسى ـ سورة ثانية ثم ثالثة، حتى إذا آنس منها ابتسامة اعتذار توسل إليها معتلا بخوفه من وحدته فى الحجرة أو بما يتراءى له به من أحلام مزعجة لا تدفعها إلا تلاوة طويلة للسطور الشريفة، وربما تمادى فى تشبثه بها إلى حد تصنع المرض، غير واجد فى تحايله هذا جورا، بل رآه عن يقين ممارسة منقوصة لحق من حقوقه المقدسة التى هضمت أفظع هضم يوم فصل عن أمه ظلمًا وعدوانا وجىء به إلى هذا الفراش المفرد بحجرة أخويه. كم يذكر مع الحسرة عهدًا غير بعيد من ماضيه حين مضجعهما كان واحدًا، وحين ينام متوسدًا ذراعها وهى تسكب فى أذنه بصوتها الرقيق قصص الأنبياء والأولياء، وحين النوم يغشاه قبل رجوع أبيه من سهرته، وينحسر عنه بعد نهوض الرجل إلى الحمام، فلم يكن يرى مع أمه ثالثًا، وكانت الدنيا له بلا شريك. ثم بقضاء أعمى لم يدر له حكمة فرقوا بينهما، وتطلع إليها ليرى أثر نفيه فى نفسها فما عجب إلا بتشجيعها الموحى بموافقتها وتهنئتها له قائلة: «الآن صرت رجلا فمن حقك أن يفرد لك فراش خاص»، من قال إنه يسره أن يكون رجلا أو أنه يطمح إلى أن يفرد له فراش خاص؟! ومع أنه بلل أول وسادة خاصة له بدمعه، ومع أنه أنذر أمه بأنه لن يعفو عنها مدى الحياة، إلا أنه لم يجرؤ على التسلل إلى مضجعه القديم لأنه كان يعلم أن وراء تلك الحركة الجائرة الغادرة تجثم إرادة أبيه التى لا ترد، ولشد ما حزن حتى رسبت عكارة الحزن فى أحلامه، ولشد ما حنق على أمه ـ لا لأنه لم يسعه أن يحنق على أبيه فحسب ـ ولكن لأنها كانت

آخر من يتصور أن يخيب عنده الأمل، بيد أنها عرفت كيف تسترضيه وترده إلى الصفاء رويداً ودأبت على ألا تفارقه بادىء الأمر حتى يوافيه النوم، وجعلت تقول له: «لم نفترق كما تزعم، ألست ترانا معًا؟ وسنبقى دائمًا معًا، لن يفرق بيننا إلا النوم الذى كان يفرق بيننا ونحن فى فراش واحد». والآن لم تعد تطفو على شعوره حسرة مما تخلف عن تلك الذكرى، واستنام إلى حياته الجديدة، بيد أنه لم يكن يدعها تذهب حتى يستنفد الحيل لاستبقائها إلى جانبه أطول مدة ممكنة، وقد قبض على راحتها فى حرص شديد كما يقبض الطفل على لعبته بين أطفال يتخاطفونها. وراحت هى تتلو الآيات على رأسه حتى غافله الكرى، فودعته بابتسامة رقيقة وغادرت الحجرة واتجهت إلى الحجرة التالية ففتحت بابها فى خفة ونظرت صوب فراش لاح شبحه فى جانبها الأيمن وتساءلت فى رقة: «نمتما؟» فجاءها صوت خديجة وهى تقول:

- كيف يتأتى لى النوم وشخير ست عائشة يملأ على الحجرة؟!

ثم سُمع صوت عائشة وهى تقول فى نبرات ناعسة:

- ما سمع أحد لى شخيراً قط، ولكنها لا تدعنى أنام بثرثرتها المتواصلة.

فقالت الأم فى عتاب:

- أين وصيتى لكما بأن تكفا عن هذركما وقت النوم؟

وردت الباب وسارت إلى حجرة الاستذكار فطرقت بابها بخفة ثم فتحته وأدخلت رأسها وهى تقول باسمة:

- أفى حاجة إلى خدمة يا سيدى الصغير؟

فرفع فهمى رأسه عن الكتاب وشكرها مشرق الوجه بابتسامة لطيفة، فردت الباب وابتعدت عنه وهى تدعو لفتاها بالفلاح وطول العمر، ثم عبرت الصالة إلى الدهليز الخارجى وارتقت السلم إلى الدور الأعلى حيث توجد حجرة نوم السيد وصوتها يسبقها تاليا الآيات.

١٢

لما غادر ياسين البيت كان يدرى بطبيعة الحال وجهته التى يقصد مساء بعد مساء ولكنه بدا - كعادته دائمًا إذا مشى فى الطريق - وكأنه لا وجهة له. كان شأنه إذا سار أن يسير متمهلا فى هوادة ورفق، مختالا فى عجب وزهو، كأنه لا يغفل لحظة واحدة عن أنه

صاحب هذا الجسم العظيم وهذا الوجه الفائض حيوية وفحولة، وهذه الملابس الأنيقة الآخذة حظها ـ وأكثر ـ من العناية، إلى منشة عاجية لا تفارق يده صيفًا أو شتاء، وطربوش طويل مائل يمنة حتى يكاد يمس حاجبه، ومن عادته أيضا إذا سار أنه كان يرفع عينيه ـ دون رأسه ـ مستطلعًا ما وراء النوافذ لعل وعسى، فلم يكن يقطع طريقًا حتى يشعر فى نهايته بما يشبه الدوار من كثرة تحريك عينيه، إذ كان ولعه بالتهام النسوة اللاتى يصادفنه داء لا شفاء منه، فهو يتفحصهن مقبلات ويتبع عينيه أردافهن مدبرات، ويظل فى قلقه كثور هائج حتى ينسى نفسه فلا يعود يتدبر مداراة مقاصده، الأمر الذى تنبه له مع الزمن عم حسنين الحلاق والحاج درويش بائع الفول والفولى اللبان وبيومى الشربتلى وأبو سريع صاحب المقلى وغيرهم فمنهم من حمله محمل الدعابة ومنهم من أخذه مأخذ الانتقاد لولا أن الجيرة ومنزلة السيد أحمد عبد الجواد شفعتا له بالإغفاء والتسامح. كانت حيويته من العنف بحيث ملكت عليه فراغه كله، فلم تدع له وقتًا يستريح فيه من استفزازها، وشعر دائمًا بألسنتها تلهب حواسه ووجدانه، وكأنها عفريت يركبه ويوجهه حيث يشاء، بيد أنه عفريت لم يخفه أو يضيق به، ولم يود الخلاص منه، بل لعله رام منه المزيد. ولكن سرعان ما توارى عفريته واستحال ملاكًا لطيفًا حين اقترب الشاب من دكان أبيه، هناك أغضى طرفه واستقامت مشيته، وتحلى بأدب وحياء، وحث خطاه لا يلوى على شىء، ولما مر بباب الدكان التفت إلى داخله فرأى خلقًا كثيرين ولكنه التقى بعينى أبيه وهو جالس وراء مكتبه فانحنى فى إجلال رافعًا يده إلى رأسه فى أدب، فرد الرجل تحيته مبتسمًا، ثم استأنف مسيره مسرورًا بهذه الابتسامة كأنما حظى بنعمة نادرة المثال. والحق أن عنف أبيه المعهود، ولو أنه اعتوره تغير ملموس منذ أن انخرط الفتى فى سلك موظفى الدولة إلا أنه لم يزل فى نظره نوعًا من العنف الملطف بالكياسة، فلم يزايل الموظف خوفه القديم الذى ملأ قلبه وهو تلميذ، ولم يفارقه شعوره بأنه ابن وأن الآخر الأب، وما فتىء يتضاءل بمحضره على ضخامته كأنما يستحيل عصفورة يرعشها وقع الحصاة، وما أن ابتعد عن دكان أبيه وصار بمنجى من عينيه حتى استرد خيلاءه وعادت عيناه إلى الذبذبة غير مفرقة بين الهوانم وبائعات الدوم أو البرتقال، إذ كان العفريت الذى يركبه مولعا بالنساء كافة، متواضعا يستوى عنده الرفيع والوضيع منهن، فبائعات الدوم والبرتقال ـ على سبيل المثال ـ وإن شابهن الأرض التى يقتعدنها لونًا وقذارة لا يخلين أحيانًا من ميزة حُسن، كثديين ناهدين أو عينين مكحولتين. وماذا يروم غير هذا؟!.. ثم اتجه صوب الصاغة ومنها إلى الغورية، ومال إلى قهوة سى على، على ناصية الصنادقية، وكانت شبه دكان متوسطة الحجم يفتح بابها على الصنادقية وتطل بكوة ذات قضبان على الغورية وقد اصطف بأركانها الأرائك. واتخذ مجلسه على أريكة تحت الكوة ـ مجلسه المختار منذ أسابيع ـ وطلب الشاى. جلس بحيث يوجه بصره فى يسر ودون إثارة ظن إلى

الكوة، ومنها يصعده كلما يشاء إلى نافذة صغيرة فى بيت على الجانب الآخر للطريق، لعلها كانت الوحيدة بين النوافذ المغلقة التى لم يعن بإحكام إغلاق خصاصها، ولا عجب فقد كانت تابعة لمسكن زبيدة «العالمة» ولم تكن «العالمة» مطمحه فدون هذا مراحل من المجون عليه أن يجتازها فى صبر وأناة، ولكنه راح يرصد ظهور زنوبة العوادة ربيبة «العالمة» ونجمة تختها اللامعة. وكانت فترة توظفه بالحكومة عهداً حافلا بالذكريات جاءه بعد طول تقشف إجبارى عاناه محاذراً فى ظل أبيه الرهيب، فانطلق من ثمة كالشلال ينحدر فى مهاوى الأزبكية على ما لاقى من مضايقات الجنود الذين قذفتهم عجلة الحرب إلى القاهرة، ثم ظهر فى الميدان الاستراليون فاضطر إلى التخلى عن مغانى العبث فراراً من وحشيتهم وضاقت به السبل فمضى يتقلب فى أزقة حيه كالمجنون وأقصى ما يطمع فيه من لذة بائعة برتقال أو غجرية ممن يقرأن الطالع، حتى رأى يوماً زنوبة فتبعها مذهولا إلى موطنها، ثم تعرض لها مرة بعد مرة ولا يكاد يظفر منها بما يبل صدره. كانت امرأة وكل امرأة عنده رغيبة، بيد أنها كانت إلى هذا ذات حسن فهوسته، وليس الحب لديه إلا تلك الشهوة العمياء أو هذه الشهوة المبصرة وهى أسمى ما عرف من ألوانه، وجعل يمد بصره خلال القضبان إلى النافذة الخالية فى جزع وقلق أنسياه نفسه فحسا الشاى دون أن ينتبه إلى سخونته إلا وهو يزدرده وراح ينفخ متألما، ثم أعاد القدح إلى الصينية الصفراء مسترقا النظر إلى السمار الذين أزعجته أصواتهم المرتفعة كأنما هى المسئولة عن لسعته أو أنها السبب فى عدم ظهور زنوبة بالنافذة. . «ترى أين الملعونة؟ . . أتتعمد الاختفاء! . . من المحقق أنها تعلم بوجودى هنا. . ولعلها رأتنى قادمًا. . فإذا اصطنعت التدلل إلى النهاية ألحقت هذا اليوم بأيامى المحرقة». وعاود استراق النظر إلى الجلوس ليرى هل يلاحظه أحد منهم ولكنه وجدهم جميعًا منهمكين فى أحاديثهم التى لا تنتهى، فداخله ارتياح وأرجع بصره إلى الهدف المرموق، بيد أنه اعترضت تيار أفكاره ذكريات عن متاعب اليوم التى صادفته فى المدرسة إذ شك الناظر فى أمانة متعهد اللحوم فقام بتحقيق اشترك هو فيه بوصفه كاتب المدرسة، ثم بدا منه شىء من التراخى فى عمله حمل الناظر على نهره مما نغص عليه صفوه بقية اليوم وجعله يفكر فى أن يشكو الناظر إلى أبيه - وهما صديقان قديمان - لولا خوفه أن يجد أباه أشد عليه من الناظر. . «اطرح عنك هذه الأفكار السخيفة. . انتهينا من المدرسة والناظر عليهما اللعنة. . حسبى الآن ما ألاقى من القارحة بنت القارحة التى تبخل علينا بنظرة». وإذا بأحلام عارية تنثال على خياله، أحلام كثيراً ما تمثل على مسرح أوهامه وهو يرنو إلى امرأة أو يستعيد ذكراها، تخلقها عاطفة هوجاء تنزع عن الأجساد أغطيتها وتجلوها عارية كما خلقها الله غير مستثنية جسده هو، ثم تمضى فى فنون من العبث لا عاصم لها، ولكنه ما كاد يستنيم إلى هذه الأحلام حتى انتبه على صوت حوذى وهو يصيح على حماره «يس» فرمى ببصره ناحية الصوت فرأى عربة كارو

تقف أمام بيت العالمة. وتساءل ترى أجاءت العربة لتحمل أفراد التخت إلى فرح من الأفراح؟ ونادى صبى القهوة ودفع إليه الحساب متأهبًا لمغادرة المكان فى أية لحظة إذا دعا داع. ومضت فترة انتظار وترقب ثم فتح باب البيت وبرزت امرأة من نسوة التخت وهى تجر رجلا أعمى مرتديًا جلبابًا ومعطفا وعوينات سوداء ومتأبطا القانون، وصعدت المرأة إلى العربة وتناولت القانون ثم أخذت بيد الأعمى، وأعانه الحوذى من ناحية أخرى حتى لحق بالمرأة وجلسا متجاورين فى مقدمة العربة، وتبعتهما على الأثر امرأة ثانية تحمل دفا، ثم ثالثة متأبطة صرة، وقد تبدين فى ملاءاتهن اللف سافرات، كاسيات ـ بدلاً من البراقع ـ بأقنعة من زواق فاقع الألوان جعلهن بعرائس المولد أشبه. ثم ما هذا؟.. رأى ببصر شيق وقلب خافق العود وهو يبرز من الباب فى جرابه الأحمر.. وأخيراً بدت زنوبة وقد انحسر طرف ملاءتها عند أعلى الرأس عن منديل قرمزى ذى أهداب منمنمة، لمعت تحته عينان سوداوان ضاحكتان تنفث نظراتها لعبًا وشيطنة. واقتربت من العربة ومدت يدها بالعود فتناولته امرأة، ثم رفعت قدمًا إلى أعلى العجلة فاشرأب ياسين بعنقه وهو يزدرد ريقه فلمح ثنية الجورب معقودة فوق الركبة على أديم بدا منه صفاء عذب خلال أهداب فستان برتقالى.. «آه لو تغوص بى الأريكة فى الأرض متراً.. رباه.. إن وجهها أسمر ولكن لحمها المكنون أبيض.. أو شديد الميل للبياض.. فكيف يكون الورك!.. وكيف يكون البطن!.. البطن يا هوه..». وثبتت زنوبة راحتيها على سطح العربة وتحاملت عليهما حتى حطت ركبتيها على حافة العربة ثم مضت تتحرك رويدًا على أربع.. «يا لطيف.. آه لو كنت على باب البيت.. أو حتى فى دكان محمد الطرابيشى.. انظر إلى ابن الكلب كيف يحملق فى الطابية بعينيه.. ما أجدر أن يسمى نفسه منذ اليوم محمد الفاتح.. يا لطيف.. يا منقذ». وأخذ ظهرها يستقيم حتى نهضت واقفة على سطح العربة، وفتحت الملاءة وقبضت على طرفيها وجعلت تهزها بيديها هزات متتابعات كأنها طائر يخفق بجناحيه، ثم لفتها حول جسمها لفة محكمة وشت بدقائق تقاطيعه وتفاصيله وأبرزت ـ خاصة ـ عجيزة مدملجة رقراقة، ثم جلست عند مؤخرة العربة فتكور ردفها تحت الضغط متبلور ذات اليمين وذات اليسار فنعم الوسادة.. ونهض ياسين وغادر القهوة فوجد العربة قد تحركت فتبعها متمهلا وهو يلهث ويصر على أسنانه من شدة الانفعال. وراحت العربة تسير سيرتها المتمهلة المتمايلة والنسوة على سطحها يتأرجحن معها يمنة ويسرة فركز الشاب عينيه فى وسادة العوادة، يذهب معها ويجىء حتى خالها بعد حين ترقص. وكانت الظلمة قد بدأت تغشى الطريق الضيق وأخذت كثرة من الدكاكين تغلق أبوابها، إلى أن غالبية المارة كانت من جمهور العاملين العائدين إلى بيوتهم منهوكى القوى فوجد ياسين بين الظلمة والجمهور المتعب متسعًا لإنعام النظر والأحلام فى أمن ودعة.. «اللهم لا تجعل لهذا الطريق من نهاية، ولا لهذه الحركة

الراقصة من ختام . . يا لها من عجيزة سلطانية جمعت بين العجرفة واللطف يكاد البائس مثلى يحس بطراوتها وشدتها معًا بالنظر المجرد . . وهذا المفرق العجيب الذى يشطرها تكاد تنطق الملاءة عنده . . وما خفى كان أعظم . . إنى أدرك الآن لماذا يصلى بعض الناس ركعتين قبل أن يبنى بعروسه . . أليست هذه قبة؟ . . بلى وتحت القبة شيخ . . وإنى لمجذوب من مجاذيب هذا الشيخ . . يا هوه . . يا عدوى» . وتنحنح والعربة تقترب من بوابة المتولى فالتفتت زنوبة وراءها ورأته . ثم خيل إليه ، وهى تعيد رأسها ، أنه لمح على شفتيها بشير ابتسامة فدق قلبه فى عنف وسرت فى وجدانه سكرة سرور ملتهب ، ومرقت العربة من بوابة المتولى ثم مالت إلى اليسار ، وهناك اضطر الشاب إلى التوقف عن متابعتها لأنه رأى عن كثب معالم زينات وأنوار وجمهورا مهللا فتراجع قليلا وبصره لا يفارق العوادة ، وجعل يراقبها بنهم وهى تنزل على الأرض ، وهى ترمى ناحيته بنظرة عابثة ، ثم وهى تتجه إلى بيت العروس حتى واراها الباب فى ضجة من الزغاريد . وتنهد تنهدة حامية ، ولفته حيرة حانقة فبدا قلقًا كأنه لا يدرى أى وجهة يقصد . . «لعنة الله على الاستراليين! . . أين أنت يا أزبكية لأبثك همى وأشجانى وأتزود منك بشىء من الصبر» . ثم دار على عقبيه وهو يتمتم «إلى العزاء الباقى . . إلى كستاكى» ، وما كاد ينطق باسم البدال اليونانى حتى تندى رأسه حنينًا إلى حميا الشراب . . كانت المرأة والخمر فى حياته متلازمتين متكاملتين ، ففى مجلس المرأة عاقر الخمر لأول مرة ، ثم صارت بحكم العادة من مقومات لذته وبواعثها ، بيد أنه لم يتح لهما - المرأة والخمر - أن يتلازما دائمًا ، وخلت ليال كثيرات من النساء ، فلم يجد بدا من أن يخفف لوعته بالشراب ، ولكرور الأيام واستحكام العادة بات وكأنه المولع بالخمر لذاتها . وعاد من نفس الطريق الذى جاء منه ، وقصد بدالة كستاكى عند رأس السكة الجديدة - حانوت كبير ظاهره بدالة وباطنه حانة يفصل بينهما باب صغير - ووقف عند مدخلها مختلطا بالزبائن ريثما يتفحص الطريق أن يكون أباه هنا أو هناك ، ثم اتجه صوب الباب الصغير الداخلى ولكن ما كاد يتقدم خطوة حتى لمح فى طريقه رجلا واقفًا أمام الميزان والخواجة كوستاكى نفسه يزن له لفة كبيرة ، فانجذب رأسه إليه بلا إرادة ، وسرعان ما اكفهر وجهه وسرت فى بدنه رجفة قاسية تقبض لها قلبه خوفًا واشمئزازًا . لم يكن فى مظهر الرجل ما يسبغ هذه العواطف العدائية . كان فى الحلقة السادسة ، مرتديا جلبابا فضفاضا وعمامة ، وقد ابيض شاربه وعلاه الكبر والوداعة ، إلا أن ياسين واصل سيره مضطربا كأنما يفر قبل أن تطلع عليه عينا الرجل ، ودفع باب الحانة بشىء من القوة ثم دخل تكاد تميد به الأرض .

١٣

ارتمى على أول مقعد صادفه غير بعيد من الباب وقد بدا خائر القوى ساهما، ثم دعا النادل وطلب دورق كونياك بنبرات نمت على نفاد صبره. وكانت الحانة بالحجرة أشبه، تدلى من سقفها فانوس كبير، وصفت بجنباتها موائد خشبية وكراسى خيزران جلس إليها نفر من أهل البلد والعمال والأفندية، وتوسط المكان تحت الفانوس مباشرة مجموعة من أصص القرنفل. من عجيب أنه لم ينس الرجل، وأنه عرفه من النظرة الأولى، متى رآه آخر مرة؟.. لا يستطيع أن يجزم، ولكن من المحقق أنه لم تقع عليه عيناه فى مدى اثنتى عشرة سنة إلا مرتين إحداهما التى زلزلته الآن. وقد تغير الرجل ما فى ذلك من شك فغدا شيخًا هادئًا وقورا!.. ألا سحق الله المصادفة العمياء التى ألقت به فى سبيله. والتوت شفتاه تقززا وامتعاضا وشعر بمرارة الهوان تجرى فى ريقه. يا له من هوان مذل ما يكاد يفيق من دواره القديم بالعناء والعناد كالتى ترده إليه ذكرى من الذكريات المعتمة أو مصادفة لعينة كالتى حدثت اليوم فينقلب ذليلا منكسرا.. ضائعا. وعلى رغمه حملقت عيناه فى الماضى البغيض، بقوة الهياج المثار فى رأسه وقلبه، فانشق الظلام عن أشباح شائهة طالما ناوشته كرموز للعذاب والكراهية، فميز من بينها دكان فاكهة يقوم على رأس عطفة قصر الشوق، وطالعته صورة غامضة المعالم. هى صورته وهو صبى، فرآه وهو يحث خطواته المتقاربة إلى ذلك الدكان حيث استقبله ذلك الرجل ثم حمله قرطاسا مليئا بالبرتقال والتفاح فتناوله مسرورا وعاد به إلى المرأة التى بعثته وانتظرت، إلى أمه دون غيرها وا أسفاه!.. وانعكست الذكرى على جبينه عبوسة حنق وضيق، ثم استعادت مخيلته صورة الرجل فتساءل جزعا أكان يعرفه لو وقعت عليه عيناه؟.. أكان يذكر فيه الصبى الصغير الذى عرفه قديمًا ابنا لتلك المرأة؟.. وقرصته قشعريرة فزع فتخاذل جسمه البادن الفارع وتضاءل فى حسه حتى استحال لا شىء. وجىء عند ذاك بالدورق والقدح فصب ونهل فى نهم وعصبية متعجلا حظ الشاربين من الانتعاش والنسيان. ولكن فجأة تراءى له من أعماق الماضى وجه أمه فلم يتمالك من أن يبصق. أيهما يلعن: الحظ الذى جعلها أمه أم جمالها الذى شغف كثيرين حبًا وأحاطه بالكوارث؟!.. والحق أنه لم يكن بوسعه أن يغير أمرا مما قدر عليه، ولم يكن بوسعه إلا أن يذعن للقضاء الذى هرس عزة نفسه، أفليس من الظلم أن يكفر بعد ذلك عن حكم القضاء كأنه هو الجانى الأثيم؟!.. ولم يدر لم استحق اللعنة، فالأطفال الذين استقبلوا الدنيا فى حضانة أمهات مطلقات

مثله غير قليلين، وعلى خلاف أكثرهم وجد من أمه حنانا غير مشوب وحبًا لا يعرف الحدود وتدليلا سابغًا لا تشكمه رقابة أب فتمتع بطفولة سعيدة قوامها الحب واللين والدماثة. ولا تزال ذاكرته تحتفظ بالكثير من ذكريات البيت القديم بقصر الشوق، كسطحه الذى يشرف على أسطح لا عداد لها ويرى مآذن وقبابا من نواحيه الأربع، ومشربيته التى تطل على الجمالية حيث تمر ليلة بعد أخرى مواكب الزفاف تضيئها الشموع ويكتنفها الفتوات فينجلى أكثرها عن معارك تشتجر فيها النبابيت وتسيل الدماء. فى ذاك البيت أحب أمه حبًا لا مزيد عليه وفيه شاعت فى قلبه الريبة الغامضة، وفيه رمى إلى صدره بالبذور الأولى لنفور غريب - نفور ابن من أمه - التى قدر لها أن تنمو وتستفحل حتى انقلبت مع الزمن كراهية كالداء العضال، وكثيرًا ما قال لنفسه أنه ربما كان فى وسع الإرادة القوية أن تتيح لنا أكثر من مستقبل واحد ولكننا لن يكون لنا - مهما أوتينا من إرادة - إلا ماض واحد لا مفر منه ولا مهرب. والآن يتساءل - كما تساءل من قبل كثيرًا - متى فطن إلى أن أمه لم تكن الشخص الوحيد فى حياته؟! . . بعيد جدًا أن يعرف هذا على وجه اليقين، وما يذكر إلا أنه فى فترة ما من طفولته وعت حواسه شخصًا جديدًا كان يطرأ على البيت من حين لآخر، ولعله - ياسين - كان يتطلع إليه بغرابة وشىء من الخوف، ولعل الآخر بذل ما فى وسعه لإيناسه وإرضائه، إنه يحملق فى الماضى على استكراه ونفور شديدين، ولكنه وجد المقاومة لا تجدى، كأنما ذاك الماضى دمل يود لو يتجاهله على حين لا تمسك يده عن جسه من آن لآخر. ثم إن هناك أمورًا لا يمكن أن تنسى . . ففى مكان ما ووقت بين النور والظلمة وتحت أعلى نافذة أو باب مطعم بمثلثات من الزجاج الأزرق والأحمر . . فى ذاك المكان كان يذكر أنه اطلع فجأة - فى ظروف فرضها النسيان - على ذلك الشخص الطارىء وهو كأنه يفترس أمه، فما تمالك أن صرخ من أعماق قلبه وولول باكيًا حتى أقبلت المرأة عليه فى اضطراب باد وراحت تطيب خاطره وتسكن ثائره. وانقطعت من شدة الامتعاض عند ذاك سلسلة خواطره فقلب عينيه فيما حوله واجما، ثم صب من الدورق فى القدح وشرب، وقد لمح وهو يعيد القدح إلى موضعه نقطة من سائل منداحة فوق طرف جاكتته فظنها خمرًا وأخرج منديله وأنشأ يدلكها، ثم خطر له خاطر فتفحص ظاهر القدح فرأى قطرات من الماء عالقة بأسفله فرجح عنده أن ما سقط على سترته ماء لا خمر واسترد طمأنينته . . ولكن أى طمأنينة خادعة! لقد رجعت عيناه إلى مرآة الماضى البغيض. لا يذكر متى وقعت الواقعة السالفة، ولا كم كان عمره حين وقوعها، ولكنه يذكر بلا ريب أن الشخص المفترس لم ينقطع عن البيت القديم، وأنه كثيرا ما تودد إليه بما لذ وطاب من ألوان الفاكهة، ثم كان يراه بعد ذلك فى دكان الفاكهة عند رأس العطفة إذا استصحبته أمه معها فى مشوار، وبسذاجة الأطفال كان يلفت نظرها إليه فكانت تجذبه فى عنف بعيدًا عنه وتمنعه من الإيماء

إليه حتى تعلم أن يتجاهله وهو فى صحبتها بالطريق، وازداد الشخص فى نظره إبهامًا وغموضًا، ثم حذرته من أن يعود إلى ذكره أمام خال عجوز كان وقتذاك على قيد الحياة ويزورهم من حين لآخر فاتبع تحذيرها وما يزداد إلا حيرة. ولم يقنع الحظ منه بذاك القدر فكانت أمه ـ إذا غاب الرجل عن البيت أيامًا ـ يكون مبعوثًا إليه ليدعوه إلى أن يحضر «الليلة»! وكان الرجل يستقبله بلطف ويملأ قرطاسا من التفاح والموز، ويحمله موافقته أو اعتذاره كيفما اتفق، ثم بلغ به الحال أنه إذا اشتاق إلى لذيذ الفاكهة استأذن أمه فى أن يذهب إلى الرجل ليدعوه «الليلة»، ذكر هذا وجبينه يندى خزيًا ثم نفخ فى قهر، ثم صب وجرع، ورويدًا انبعثت الحميا فى دمه، وبدأت تلعب دورها الساحر فى معاونته على حمل متاعبه.. «قلت ألف مرة أنه يجب أن أدع الماضى مدفونًا فى قبره.. لا فائدة.. لا أم لى وحسبى امرأة أبى الرقيقة الطيبة.. كل شيء طيب ما عدا ذكرى قديمة بيدى أن أميتها.. ترى لمَ أجارى إلحافها على فأبعثها من قبرها حينًا بعد حين!.. لمَ؟!.. سوء الطالع وحده الذى رمى بالرجل فى طريقى اليوم ولكن مصيره أن يموت يومًا.. أود أن يموت كثيرون.. لم يكن الرجل الوحيد.. بيد أن خياله الثائر واصل إسراءه فى ظلمات الماضى رغم مقاومته النظرية ولكن على حال أخف توترًا، أجل لم يعد فى تلك القصة بالذات من بقية طويلة، ولعلها ـ هذه البقية ـ تمتاز بما يضيئها من نور نسبى بعد عبور طور الطفولة المعتم. كان هذا فى السنوات القلائل التى سبقت انتقاله إلى حضانة أبيه، وقد وجدت أمه الشجاعة لتصارحه بأن ذاك «الفكهانى» يتردد عليها طلبًا ليدها، وأنها مترددة فى قبوله، وأنها غالبا سترفض إكرامًا له!.. ترى أصدق ما قيل له؟.. هيهات أن يستوثق من تفاصيل ذكرياته، ولكنه كان بلا ريب يشرئب للإدراك والفهم، ويعانى نوعا من الريبة الغامضة التى تتكشف للقلب دون العقل، ويكابد ألوانًا من القلق أطار عن هامته حمامة السلام، فتهيأت فى نفسه تربة لتلقى بذرة النفور التى صارت مع الأيام إلى ما صارت إليه. ثم انتقل فى التاسعة من عمره إلى حضانة أبيه الذى لم يكن رآه إلا مرات معدودة تحاميا للاحتكاك بأمه. انتقل إليه غلامًا على الفطرة لم يتلقن من مبادىء العلم كلمة واحدة، ومضى يكفر عن سيئات التدليل الذى غلّته به أمه فتلقى العلم بنفس كارهة وإرادة خائرة، ولولا شدة السيد وطيبة جو البيت الجديد ما دفع إلى النجاح فى الابتدائية بعد أن نيف على التاسعة عشرة من عمره. وبنمو عمره وإدراكه حقائق الأشياء، استعرض حياته الماضية فى بيت أمه وقلبها على وجوهها، ملقيًا عليها من خبرته الجديدة أنوارًا فاضحة فتكشفت له الحقائق ببشاعتها ومرارتها، وكلما تقدم فى الحياة خطوة بدا له الماضى سلاحًا مسمومًا منغرسًا فى صميم نفسه وكرامته، وقد دأب أبوه بادىء الأمر على أن يسأله عن حياته فى بيت أمه ولكنه على حداثة سنه، تحاشى نبش الذكريات المحزنة وغلب كبرياءه الجريح على الرغبة فى استشارة اهتمام أبيه وحب الثرثرة الذى يستهوى

أمثاله من الغلمان، ولزم الصمت حتى ترامى إليه نبأ غريب عن زواج أمه من تاجر فحم بالمبيضة فبكى الغلام طويلا، واشتد ضغط السخط على صدره حتى فضفض فانطلق يحدث أباه عن «الفكهانى» الذى زعمت يومًا أنها رفضت الزواج منه إكرامًا له! . . وانقطعت صلته بها من ذاك العهد ـ منذ إحدى عشرة سنة ـ فلم يعد يدرى عنها شيئًا إلا ما ينقله إليه أبوه من حين لآخر كطلاقها من الفحام بعد انقضاء عامين على زواجها منه، ثم زواجها من باشجويش فى العام التالى لطلاقها، ثم طلاقها مرة أخرى بعد حوالى عامين إلخ . . إلخ . . وفى فترة قطيعتها الطويلة سعت المرأة كثيرًا إلى رؤيته، فكانت ترسل إلى أبيه من يستأذنه فى السماح له بالذهاب إليها، ولكن ياسين صد عن دعوتها بإباء ونفور شديدين رغم نصح أبيه له بالتسامح والعفو. والحق أنه وجد عليها موجدة حامية نابعة من صميم قلب جريح، فأغلق دونها باب العفو والغفران وأقام وراءه متاريس حنق وكراهية مؤمنًا إلى هذا بأنه لم يظلمها ولكن أنزلها بحيث أنزلتها فعالها . . «امرأة. أجل ما هى إلا امرأة . . وكل امرأة لعنة قذرة . . لا تدرى امرأة ما العفه إلا حين تنتفى أسباب الزنا . . حتى امرأة أبى الطيبة، الله وحده يعلم ماذا كان يمكن أن تكون لولا أبى!». وقطع عليه أفكاره صوت رجل علا قائلا: «الخمر كلها فوائد، ومن يقل غير هذا أقطع رأسه . . الحشيش والمنزول والأفيون كثيرة الضرر . . أما الخمر فكلها فوائد». فتساءل صاحبه «وما فوائدها؟»، فقال الرجل مستنكرًا «وما فوائدها! ما أعجب سؤالك! . . كلها فوائد كما قلت . . وأنت تعلم هذا وتؤمن به». فقال صاحبه «ولكن الحشيش والأفيون والمنزول مفيدة كذلك فيجب أن تعلم هذا وتؤمن به . . الناس جميعًا يقولون هذا فهل تخالف الإجماع؟!»، وتريث الرجل قليلا ثم قال: «كلها مفيدة إذن، الكل، الخمر والحشيش والأفيون والمنزول وما يستجد!». فعاد صاحبه يقول بلهجة تنم عن ظفر «ولكن الخمر حرام!»، فقال الرجل محتدا: «وهل ضاقت السبل! زك . . حج . . أطعم المساكين . . أبواب التكفير واسعة والحسنة بعشر أمثالها».

وابتسم ياسين فى شىء من الارتياح، أجل أمكنه أخيرًا أن يبتسم فى شىء من الارتياح: «لتذهب إلى الجحيم، ولتأخذ الماضى معها . . لست عن شىء مسئولا . . كل إنسان ملوث فى هذه الحياة ومن يزح الستار ير عجبًا . . شىء واحد يهمنى جدًا هو عقارها. دكان الحمزاوى وربع الغورية والبيت القديم بقصر الشوق . . وإنى أعد أمام الله إذا ورثته كاملا يومًا أن أترحم عليها بلا أسف . . آه . . زنوبة . . كدت أنساك وما أنسانيك إلا الشيطان. امرأة عذبتنى وامرأة آنس عندها العزاء . . آه يا زنوبة ما علمت قبل اليوم أن باطنك بهذا اللون الرائق . . أف ينبغى أن أمحو الفكر من رأسى . . الحق أن أمى كالضرس الثائر، لا يسكن حتى ينخلع».

١٤

جلس السيد أحمد عبد الجواد وراء مكتبه بالدكان تعبث أنامل يسراه بشاربه الأنيق كشأنه كلما جرفه تيار خواطره، ويرنو إلى لا شيء بوجه تنم معالمه عن ارتياح ورضى. إنه يرضيه بلا ريب أن يشعر بما يكنه له الناس من حب ومودة، ولو عرض له من حبهم دليل كل يوم لأوجد له كل يوم سروراً مشرقًا لا يبليه التكرار، وقد أتاه اليوم دليل جديد بسبب اضطراره إلى التخلف ليلة الأمس عن شهود حفلة أنس دعاه إليها أحد الأصدقاء، فما استقر به مجلسه بالدكان هذا الصباح حتى وافاه الداعى وبعض الإخوان من المدعوين وأوسعوه عتابًا لتخلفه وحملوه تبعة ما ضاع عليهم من بهجة وطرب، ثم قالوا ـ فيما قالوا ـ إنهم لم يضحكوا من قلوبهم كما تعودوا أن يضحكوا معه، ولم يجدوا للشراب لذته التى يجدون فى منادمته، وأن مجلسهم خلا ـ على حد تعبيرهم ـ من روحه. وها هو يستعيد أقوالهم فى سرور وزهو لطفا كثيراً مما لاقى من حدة الملام من ناحيتهم وحرارة الاعتذار من ناحيته، بيد أنه لم يخل من تأنيب ضمير حريص بطبعه على إرضاء الخلان، بدّار إلى النهل من موارد الصداقة والمودة فى إخلاص وإيثار، فكاد يكدر صفوه لولا ما أشاعت ثورة الأحباب الناطقة بحبهم فى نفسه من أريحية الرضا والعجب، أجل طالما كان الحب الذى يجذبه إلى الناس ويجذبهم إليه معينًا لقلبه يغدق عليه ما يشاء من فرح بهيج وزهو برىء وكأنه خلق للصداقة قبل كل شىء. وثمة آية أخرى على هذا الحب ـ والأصدق أن يقال إنه حب من نوع آخر ـ تجلت له ضحى اليوم حين ألمت به أم على الخاطبة وقالت له بعد حديث دارت فيه حول غرضها ما شاء لها الدوران: «ألا تعلم أن ست نفوسة أرملة الحاج على الدسوقى تملك سبعة دكاكين فى المغربلين؟». وابتسم السيد، وفطن بالغريزة إلى ما تومئ إليه المرأة وحدثه قلبه بأنها ليست خاطبة فحسب هذه المرة ولكنها رسول موصى بالكتمان، ألم يخيل إليه فى أكثر من مناسبة أن الست نفوسة تكاد تعلن عن ودها أثناء ترددها على دكانه لابتياع حوائجها؟ . . بيد أنه أراد استدراج المرأة ولو على سبيل التفكه فقال باهتمام ظاهرى: «عليك باختيار زوج صالح لها، فما أعز المطلوب»، وظنت أم على أنها بلغت الغاية فقالت: «قد اخترتك من دون الرجال. فما قولك؟»، وضحك السيد ضحكة مجلجلة وشت بسروره وثقته بنفسه ولكنه قال بلهجة قاطعة: «لقد تزوجت مرتين، أخفقت فى الأولى ووفقنى الله فى الأخرى، ولن أبطر بنعمة الله». والحق أنه طالما تغلب على مغريات الزواج على كثرة ما تهيأ له من فرص

مواتية، بقوة إرادة لا تنثنى، وكأنه لم ينس مثل أبيه الذى انزلق إلى زيجات متلاحقة بلا وعى، بددت ثروته وجرت عليه المتاعب، ولم تبق له هو - عقبه الوحيد - إلا على شىء من المال لا يغنى، ثم إنه من ربحه ودخله فى بسطة من العيش هيأت لأسرته هناء ورغداً وأتاحت له ما يشاء للإنفاق فى مسراته وملاهيه فكيف يقدم على ما يخل بهذا الوضع البديع المتناسق الذى يكفل له الكرامة والحرية؟! . أجل لم يجمع السيد ثروة، لا لقصور فى وسائلها عن تجميعها ولكن لما طبع عليه من جود جعل إنفاقها والاستمتاع بآثارها المعنى الوحيد لها الذى يؤمن به، إلى إيمان عميق بالله وفضائله ملأ نفسه طمأنينة وثقة وآمنه من الخوف الذى يساور كثيرين عن أرزاقهم ومستقبلهم. على أن صده عن مغريات الزواج لم يمنعه من السرور والزهو كلما رامته فرصة طيبة، وبالتالى لم يستطع أن يتناسى أن سيدة جميلة كالست نفوسة توده بعلاً لها. وغلبت هذه الذكرى على خواطره فراح يراقب وكيله والزبائن بعينين غائبتين وأسارير حالمة باسمة، وذكر - باسماً أيضاً - ما قال له صاحب من صحبه صباح اليوم وهو يعابثه معرضاً بأناقته وتعطره: «حسبك. حسبك يا عجوز! . .» عجوز؟! . . إنه فى الخامسة والأربعين حقاً، ولكن ما قول العاذل فى هذه القوة العارمة والصحة الدافقة والشعر السبط اللامع السواد! لم يهن إحساسه بالشباب ولا تراخى، وكأن فتوته ما تزداد مع الأيام إلا قوة، إلى أن مزاياه لم تكن لتغيب عنه، بل كان على تواضعه وسماحة نفسه شديد الشعور بها، منطوياً فى أعماقه على زهو وعجب. يحب الثناء حباً جماً، وكأنه بتواضعه ولطفه يستزيد منه ويحث الرفاق بمكر حسن عليه، ولكن مع أن ثقته بنفسه بلغت حد الاعتقاد بأنه خير الرجال قوة وبهاء وظرفاً وكياسة إلا أنه لم يثقل أبداً على أحد من الناس، لأن تواضعه كان طبعاً وسجية كذلك، ولأنه نبع من فطرة تسيل بشاشة وإخلاصاً وحباً. والحق أنه كان ينزع بفطرته إلى أن يحب كما يحب، ولا يمسك عن نشدان المزيد من الحب، فاتجهت طبيعته بوحى من غريزته الظامئة للحب إلى الإخلاص والوفاء والصفاء والتواضع، تلك السجايا التى تجذب الحب والرضا كما تجذب الزهور الفراش، ومن هنا استوى أن يقال إن تواضعه كياسة أو طبيعة والأصح أن يقال إنه طبيعة تستمد كياستها من وحى الغريزة لا تدبير الإرادة فتجلت طبعاً بسيطاً لا تكلف فيه ولا تعمل، ولذلك كان السكوت عن فضائله ومواراة مزاياه بل والتندر بعيوبه وهناته التماساً للعطف والحب أحب إليه من نشرها والمباهاة بها اللذين يجران عادة إلى الاستفزاز والحسد، وهى كياسة سديدة دفعت المحبين إلى التنويه بما يغضى عنه حكمة وحياء، وأذاعت سجاياه على نحو لم يكن ليقدر عليه بنفسه دون التضحية بأجمل جوانب شخصيته، وبما يحظى من جاذبية وحب لا تشوبهما شائبة.

وبهذا الوحى الغريزى نفسه استهدى حتى فى جانب حياته الماجن، فى مجالس أنسه وطربه، فلم يتخل فيها - مهما لعب الشراب برأسه - عن لباقته وكياسته، ولو شاء بما أوتى

من خفة الروح وحضور البديهة وحلاوة الفكاهة وحدة السخرية، لاكتسح السمار بلا عناء، ولكنه كان يدير مجلس الأنس بمهارة وأريحية تفسح المجال لكل سامر، ويشجع أهل الدعابة وإن خالفهم التوفيق بضحكاته المجلجلة، إلى حرصه الشديد على ألا يخلف مزاحه فى نفس جرحًا، فإن اضطره الموقف إلى الحملة على قرين داوى عواقب حملته بتشجيعه والتودد إليه ولو بالسخرية من نفسه. فلا ينفض المجلس إلا وقد حظى كل سامر من أطايب ذكرياته بما يشرح الصدر ويستأثر الفؤاد. على أن كياسته الفطرية أو فطرته الكيِّسة، لم تقتصر آثارها الطيبة على حياته الضاحكة فحسب، ولكنها امتدت إلى جوانب هامة من حياته الاجتماعية، فأعلنت عن نفسها أروع إعلان فى كرمه المأثور - سواء ما يتجلى منه فى الولائم التى يدعو إليها من حين لآخر فى البيت الكبير أو فى الهبات التى ينفح بها المحتاجين ممن يتصلون بعمله أو بشخصه - وفى شهامته ومروءته ونجدته التى فرضت له على أصدقائه ومعارفه نوعًا من الوصاية المشربة بالحب والوفاء يفيئون إليها إذا دعت الضرورة إلى المشورة أو الشفاعة أو الخدمة فيما يعرض لهم من هموم العمل والمال أو شئون المسائل الشخصية والعائلية كالخطبة والزواج والطلاق. أجل ارتضى لنفسه وظائف يؤديها بلا أجر - غير الحب - فكان سمسارًا ومأذونًا ومحكمًا، ثم وجد دائمًا فى أدائها - على مشقته - حياة مليئة بالبهجة والغبطة. مثل هذا الرجل الذى تجود نفسه بفضائل اجتماعية كثيرة ثم يطويها كأن فى نشرها أذى وأى أذى، مثل هذا الرجل يكون خليقًا - إذا خلا إلى خواطره وانقشع عنه الحياء الذى يتولاه حيال الناس - بأن يتملى مزاياه طويلا ويستسلم لزهوه وعجبه. لذلك راح يستعيد عتاب أصدقائه المحبين ودعوة أم على الخاطبة بلذة وسرور وانشراح تعانقت فى قلبه عن نشوة خالصة حتى تطفلت على خلوته لذعة أسف فمضى يحدث نفسه.. «نفوسة هانم سيدة ذات مزايا لا يستهان بها.. يتمناها كثيرون ولكنها رغبت فىَّ أنا.. بيد أننى لن أتزوج، هذا أمر مفروغ منه، وليست هى بالمرأة التى تقبل أن تعاشر رجلا بغير زواج.. هذا وأنا وهذه هى فكيف يمكن أن نلتقى!.. ولو صادفتنى فى غير هذه الأيام التى سد فيها الاستراليون علينا المنافذ لهان الأمر ولكنها تصدت لنا ونحن فى حاجة إليها فوا أسفاه».

وقطع عليه أفكاره وقوف حانطور أمام مدخل الدكان فمد بصره مستطلعًا فرأى العربة وهى تميل ناحية الدكان تحت ضغط امرأة هائلة مضت تغادرها فى بطء شديد على قدر ما تسمح به طيات لحمها وشحمها وقد سبقتها إلى الأرض جارية سوداء فمدت لها يدها لتعتمد عليها فى أثناء نزولها. وكالمحمل وقفت مليًا وهى تتنهد كأنها تستجم من عناء النزول، وكالمحمل راحت تتمايل وتتخطر إلى ناحية الدكان بينما علا صوت الجارية فى لهجة شبه خطابية لتعلن عن مولاتها:

- وسع يا جدع انت وهو للست زبيدة ملكة العوالم.

وندت عن الست زبيدة ضحكة مسجوعة وقالت تخاطب الجارية بلهجة تنم عن زجر كاذب :

ـ الله يسامحك يا جلجل . . ملكة العوالم مرة واحدة ! . . هلا عرفت فضيلة التواضع !

وهرع إليها جميل الحمزاوى مفتر الثغر عن ابتسامة عريضة وهو يقول :

ـ أهلا وسهلا ، كان حقا علينا أن نفرش الأرض بالرمل .

ونهض السيد وهو يتفحصها بنظرة تنم عن دهشة وتفكير ثم قال متمما تحية وكيله :

ـ بل بالحناء والورد ولكن ما حيلتنا والحظ يقبل إذا أقبل غير مسبوق ببشير ؟

ورأى السيد وكيله وهو يتجه إلى كرسى ليأتى به فسبقه إليه بخطوة واسعة بدت كالوثبة فتنحى الرجل جانبا وهو يدارى ابتسامة ، وقدم السيد لها الكرسى بنفسه وهو يومئ براحته مرحبا كأنه يقول لها : «تفضلى» بيد أن راحته انبسطت ـ ربما بلا شعور منه ـ لآخر طاقته وانفرج ما بين أصابعه حتى صارت يده كالمروحة ، ولعله تأثر فى بسطها بما تركه فى خياله منظر العجيزة الهائلة التى ستملأ مقعد الكرسى وتفيض على جوانبه حتما . وشكرته المرأة بابتسامة من وجهها الذى أسفر حسنه بغير حجاب ، وجلست وهى تشع بزواقها وحليها نوراً ، ثم التفتت إلى جاريتها وخاطبتها قائلة وهى تعنى بالخطاب غيرها :

ـ ألم أقل لك يا جلجل أنه ليس ثمة ما يدعونا للتخبط هنا وهناك لابتياع حوائجنا وعندنا هذا الدكان الفاخر ؟

فأمَّنت الجارية على قول سيدتها قائلة :

ـ صدقت كعادتك يا سلطانة ، لماذا نذهب بعيداً وعندنا السيد الكريم أحمد عبد الجواد !

فتراجع رأس الست كأنما هالها ما صرحت به جلجل وألقت عليها نظرة استنكار ثم رددت عينيها بين السيد والجارية لتشهده على استنكارها وقالت وهى تدارى ابتسامة :

ـ واخجلتاه ! . . حدثتك عن الدكان يا جلجل لا عن السيد أحمد !

وشعر فؤاد السيد الذكى بالجو الودى الذى ينفثه حديث المرأة فاندمج فيه بغريزته المتوثبة وتمتم باسما :

ـ الدكان والسيد أحمد شىء واحد يا سلطانة .

فرفعت حاجبيها فى دلال وقالت بعناد لطيف :

ـ ولكننا نريد الدكان لا السيد أحمد .

وبدا أن السيد أحمد لم يكن الشخص الوحيد الذى شعر بالجو الطيب الذى خلقته السلطانة ، فهذا جميل الحمزاوى يراوح بين مساومة الزبائن واستراق النظر إلى ما تيسر

من جسم العالمة، وهؤلاء الزبائن جعلوا يجيلون أبصارهم بين البضائع لتمر فى الذهاب والإياب بالست، بل بدا أن الزيارة المباركة قد لفتت بعض الأنظار فى الطريق فرأى السيد أن يقترب من السلطانة وأن يولى الباب والقوم ظهره العريض ليحول بينها وبين تطفل المتطفلين، بيد أن هذا لم ينسه ما كان فيه من أسباب الحديث فقال يصل منه ما انقطع :

ـ قضى الله جلت حكمته أن يكون الجماد أحيانًا أسعد من الإنسان .

فقالت بلهجة ذات معنى :

ـ أراك تغالى . لن يكون الجماد أسعد حظا من الإنسان، ولكنه كثيرا ما يكون أجلّ فائدة .

فثقبها السيد بعينيه الزرقاوين متظاهراً بالدهشة :

ـ أجل فائدة! . . (ثم مشيراً إلى الأرض) . . هذا الدكان!

فوهبته ضحكة قصيرة عذبة ولكنها قالت بلهجة لا تخلو من خشونة مدبرة :

ـ أريد سكراً وبنًا وأرزًا فهل يغنى الإنسان فيها عن الدكان شيئا! . . (وبنبرات اختلط فيها عدم الاكتراث بالدلال) . . ثم إن الرجال أكثر من الهم على القلب .

وكان السيد قد تفتحت له من الطمع أبواب ، وشعر بأنه مقبل على شىء أجل خطراً من البيع والشراء، فقال محتجا :

ـ ليست كل الرجال سواء يا سلطانة، فمن قال لك إن الإنسان لا يغنى عن الأرز والسكر والبن شيئا؟! . . الإنسان حقا من تجدين فيه الغذاء والحلاوة والكيف!

فساءلته ضاحكة :

ـ إنسان أم مطبخ هذا؟

فقال السيد بلهجة تدل على الظفر :

ـ لو نظرت من قريب لوجدت تشابها عجيبا بين الرجل والمطبخ . . كلاهما حياة للبطون!

وغضت المرأة بصرها مليا، وانتظر السيد أن ترفعه إليه موسوما بابتسامتها المشرقة، ولكنها واجهته بنظرة رزينة فأحس لتوه أنها غيرت «السياسة» أو لعلها لم ترتح كل الارتياح لانزلاقها فعدلت عنه ثم سمعها تقول فى هدوء :

ـ أفادك الله! . . ولكن حسبنا اليوم الأرز والبن والسكر .

وتحول السيد عنها متظاهراً بالجد ودعا إليه وكيله ثم وصاه بصوت مرتفع بطلبات الست فأوحى مظهره بأنه قرر أيضا العدول عن «التودد» والعودة إلى «العمل»، ولكنها لم تكن إلا مناورة استعاد على أثرها ابتسامته الهجومية وتمتم مخاطبا السلطانة :

ـ الدكان وصاحبه تحت أمرك!

وكان للمناورة أثرها فقالت المرأة فى دعابة :

ـ أريد الدكان وتأبى إلا أن تجود بنفسك!

ـ نفسى بلا ريب خير من دكانى، أو خير ما فى دكانى .

فأشرق وجهها بابتسامة ماكرة وهى تقول :

ـ هذا يخالف ما سمعناه عن جودة بضاعتك!

فقهقه السيد قائلا :

ـ ما حاجتك إلى السكر وفى لسانك هذه الحلاوة كلها؟!

وأعقب هذه المعركة الكلامية فترة سكون بدا فيها كلاهما راضيا عن نفسه، ثم فتحت العالمة حقيبتها وأخرجت مرآة صغيرة ذات مقبض فضى وراحت تنظر فى صورتها فمضى السيد إلى مكتبه ووقف مستنداً إلى حافته وهو يتفرس فى وجهها باهتمام. والحق لقد حدثه قلبه حين وقعت عليها عيناه بأنها جادت بالزيارة لأمور غير الشراء والبيع، ثم جاء حديثها باستجاباته الحارة مؤكدا لظنه، فلم يعد أمامه إلا أن يقرر من الآن هل يوصلها بتاريخه أو يودعها الوداع الأخير. ولم يكن رآها لأول مرة، فقد رآها مرات فى أفراح بعض الأصدقاء، وعرف عن الرواة أن السيد خليل البنان اتخذها خليلة دهراً حتى انفصلا منذ عهد غير بعيد، ولعل هذا ما جعلها تستبضع من دكان جديد! . . وهى موفورة الحسن وإن لم تعد منزلتها كعالمة المرتبة الثانية بين العوالم، بيد أن المرأة تهمه أكثر من العالمة، وإنها لشهية لطيفة وبها من طيات اللحم والدهن ما يدفئ المقرور فى زمهرير الشتاء الذى غدا على الأبواب، واعترض أفكاره مجيء الحمزاوى حاملا ثلاث لفات، فتناولتها الجارية، ودسَّت الست يدها فى الحقيبة لتخرج النقود فيما بدا، ولكن السيد أشار إليها محذراً وهو يقول :

ـ يا له من عيب!

وتظاهرت المرأة بالدهشة وقالت :

ـ أى عيب يا سى السيد! . . ليس فى الحق عيب .

ـ هذه زيارة ميمونة يحق علينا أن نحييها بما هى أهله من الإكرام، وهيهات أن نوفيها حقها .

وكانت قد نهضت وهو يتكلم فلم تبد مقاومة جدية لكرمه ولكنها قالت :

ـ ولكن كرمك هذا سيجعلنى أتردد مرة ومرتين قبل أن أقصدك مرة أخرى .

فقهقه السيد قائلا :

ـ لا تخافى، إنى أكرم الزبون فى المرة الأولى ثم أعوض خسارتى فى المرات اللاحقة ولو بالسرقة!.. هذا شعارنا نحن التجار!

فابتسمت الست، ومدت له يدها قائلة:

ـ الكريم مثلك يُسرق ولا يَسرق.. أشكرك يا سيد أحمد.

فقال من كل قلبه:

ـ العفو يا سلطانة.

ووقف ينظر إليها وهى تتبختر صوب الباب حتى صعدت إلى العربة واتخذت مجلسها، وجلست جلجل على المقعد الصغير قبالتها، وتحركت العربة بحملها النفيس، ثم غابت عن ناظريه، هنالك قال الحمزاوى وهو يقلب صفحة من دفتر الحساب:

ـ كيف يمكن أن يسدد هذا الحساب؟!

فألقى السيد على وكيله نظرة باسمة وقال:

ـ اكتب مكان الأرقام «بضائع أتلفها الهوى».

ثم غمغم وهو يمضى إلى مكتبه «الله جميل يحب الجمال».

١٥

وحين المساء أغلق السيد الدكان وغادره تحف به المهابة ويتضوع منه عرف طيب ثم مضى صوب الصاغة، ومنها إلى الغورية حتى قهوة سى على فلحظ فى مروره بها بيت العالمة وما يكتنفه فرأى الدكاكين التى تمتد على جانبيه لا تزال مفتوحة وتيار السابلة فى تدفقه، فواصل السير إلى بيت أحد الأصدقاء حيث قضى ساعة ثم استأذن عائداً إلى الغورية وقد غشيتها ظلمة فانقلبت كالمقفرة، وجعل يقترب من البيت آمنا مطمئنا، ثم طرق الباب وانتظر وهو يدقق النظر فيما حوله ولم يكن ثمة نور إلا ما ترامى من كوة قهوة سى على، ومصباح غازى على عربة يد عند منعطف السكة الجديدة. وفتح الباب وبدا شبح خادم صغيرة فبادرها متسائلا بصوت قوى غير متردد ليوحى بما يود من الصدق والثقة:

ـ الست زبيدة موجودة؟

فرفعت إليه الخادم رأسها وسألته بدورها فى تحفظ أملته عليها ظروف وظيفتها:

ـ من أنت يا سيدى؟

فقال بصوته القوى :

ـ شخص يروم الاتفاق معها على إحياء ليلة .

وغابت الخادم دقائق ثم عادت وهى تقول : «تفضل» ، وأوسعت له فدخل ورقى وراءها فى سلم متقارب الدرجات انتهى به إلى دهليز ثم فتحت له بابا فى مواجهته انتقل منه إلى حجرة مظلمة فظل واقفا على كثب من المدخل وهو ينصت إلى أقدام الخادم وهى تجرى ، ثم وهى تعود حاملة مصباحا ، وتتبعها بعينيه وهى تضعه على خوان وتجىء بكرسى إلى وسط الحجرة وتقف عليه لتشعل المصباح الكبير المدلى من السقف ثم تعيد الكرسى إلى موضعه وتحمل المصباح الصغير وتغادر الحجرة قائلة فى أدب : «تفضل بالجلوس يا سيدى» . واتجه السيد إلى كنبة فى صدر الحجرة وجلس فى ثقة وهدوء دلا على اعتياد هذا الموقف وأمثاله ، وطمأنينة إلى الخروج منه بما يرضى ويطيب ، ثم خلع الطربوش وحطه على نمرقة تتوسط الكنبة ومد ساقيه فى ارتياح . رأى حجرة متوسطة الحجم نضدت بجنباتها الكنبات والمقاعد وفرشت أرضها بسجادة فارسية وقام حيال كل كنبة من كنباتها الثلاث الكبرى خوان مطعم بالصدف ، وقد أسدلت الستائر على نافذتيها وبابها فحبست فى جوها شذا بخور سر به متسليا بالنظر إلى فراشه راحت ترف على المصباح فى نشاط عصبى ، وانتظر بعض وقت جاءت فى أثنائه الخادم بالقهوة ، حتى ترامى إلى أذنيه وقع شبشب منغوم ذى دقات مدغدغة فتنبهت أعصابه وحدق إلى الباب الذى سرعان ما امتلأ فراغه بالجسم المفصل الهائل وقد لف لفة شهوانية فى فستان أزرق ، وما كادت عينا المرأة تقعان عليه حتى توقفت دهشة وهتفت :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم . . أنت !

فجرى بصره على جسمها فى عجلة ونهم كما يجرى الفأر على جوال أرز ليجد لنفسه منفذا ، وقال بإعجاب :

ـ باسم الله ما شاء الله !

فواصلت تقدمها بعد التوقف وهى تقول فى خوف مصطنع :

ـ عينك ! . . أعوذ بالله !

فنهض السيد مستقبلا يدها الممدودة بترحاب وتشمم شذا البخور بأنفه العظيم وقال :

ـ أتخافين الحسد وعندك هذا البخور ؟ !

فاستخلصت يدها من يده وتراجعت إلى كنبة جانبية وجلست وهى تقول :

ـ بخورى خير وبركة ، إنه أخلاط من أنواع شتى بعضها عربى وبعضها هندى أؤلف بينها بنفسى ، فهو جدير بأن يخلص الجسد من ألف عفريت وعفريت .

فعاود السيد الجلوس قائلا وهو يلوح بيديه فى يأس :

ـ إلا جسدى ! . . بجسدى عفاريت من نوع آخر لا يجدى معها البخور ، الأمر أجل وأخطر .

فضربت المرأة صدرا ناهضًا كالقربة وهتفت :

ـ ولكنى أحيى حفلات أفراح لا حفلات زار !

فقال السيد برجاء :

ـ سنرى إن كان لدائى عندكم شفاء !

وساد الصمت قليلا فجعلت السلطانة تنظر إليه فيما يشبه التفكير وكأنما تستخبره عن سر حضوره وهل جاء حقا للاتفاق على إحياء ليلة كما قال للخادم؟ . . وغلبتها الرغبة فى الاستطلاع فسألته :

ـ فرح أم ختان؟

فقال السيد باسما :

ـ لك ما تشائين !

ـ عندك مختون أم عروس؟

ـ عندى كل شىء .

فأنذرته بنظرة كأنما تقول له «كم أنت متعب !» ثم تمتمت فى تهكم :

ـ نحن فى خدمتك على أى حال .

فرفع السيد يديه إلى قمة رأسه فى هيئة تنم عن الشكر وقال بوقار يناقض نواياه :

ـ عظم الله قدرك . . بيد أننى ما زلت مصرًا على أن أترك لك الاختيار !

فتنهدت بغيظ بالدعابة أشبه وقالت :

ـ إنى أفضل أفراح العرايس بطبيعة الحال !

ـ ولكنى رجل متزوج ولا حاجة بى إلى زفة من جديد !

فصاحت به :

ـ يا لك من رجل مهذار . . إذن ليكن ختانا .

ـ ليكن . .

وتساءلت وهى تحاذر :

ـ وليدك؟

فقال ببساطة وهو يفتل شاربه :

ـ أنــا ! . .

فأطلقت السلطانة ضحكة مائعة وقررت العدول عن التفكير فى مسألة إحياء الليلة التى خمنت خبيئتها وهتفت به :

ـ يا لك من رجل قارح ، لو طالتك يدى لقصمت ظهرك .

فنهض السيد وأقبل عليها قائلا :

ـ لا أحرمتك رغبة قط .

وجلس جانبها فهمت بضربه ولكنها ترددت ثم أمسكت ، فسألها بقــلق :

ـ لماذا لم تتكرمى بضربى؟

فهزت رأسها وقالت ساخرة :

ـ أخاف أن أنقض وضوئى .

فتساءل فى لهفة :

ـ أأطمع فى أن نصلى معا؟ !

واستغفر الله فى سره عقب النطق بدعابته مباشرة لأن هذره وإن كان لا يقف به فى سكرة المجون عند حد إلا أن قلبه لم يكن ليطمئن ويواصل ابتهاجه حتى يستغفر فى باطنه صادقا مما يعبث به لسانه مازحا . أما المرأة فتساءلت فى دلال ساخر :

ـ أتعنى ، يا صاحب الفضيلة ، الصلاة التى هى خير من النوم؟

ـ بل الصلاة التى هى والنوم سواء .

ولم تتمالك إلا أن تقول ضاحكة :

ـ يا لك من رجل مظهره الوقار والتقوى وباطنه الخلاعة والفجور ، الآن صدَّقت حقًا ما قيل لى عنك .

واستوى السيد فى جلسته فى اهتمام وتساءل :

ـ وماذا قيل؟ ! . . اللهم اكفنا شر القيل والقال . .

ـ قالوا لى إنك زير نساء وعبد شراب .

فتنهد بصوت مسموع يذيع به ارتياحه وقال :

ـ حسبته ذما والعياذ بالله . .

ـ ألم أقل لك إنك رجل قارح فاجر؟ !

ـ هى الشهادة لى بأنى حزت القبول إن شاء الله .

فرفعت المرأة رأسها فى غطرسة وقالت:

ـ بعدك! . . لست كمن عرفت من النساء. . إن زبيدة معروفة ولا فخر بعزة النفس ودقة الاختيار.

فبسط السيد راحتيه على صدره ونظر إليها فى تحد مشرب باللطف وقال بطمأنينة:

ـ عند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

ـ من أين لك بهذه الثقة وأنت لم تختن بعد بشهادتك؟

فقهقه السيد طويلا حتى قال:

ـ لا تصدقى يا ختونة. . وإن كنت فى شك.

ولكمته فى منكبه قبل أن يتم جملته فأمسك ثم أغرقا فى الضحك معا، وسر بمشاركتها إياه فى ضحكه، وحدس وراء ذاك ـ بعد ما جرى بينهما من تلميح وتصريح ـ لونا من الجهر بالرضا ثبتته فى وعيه بسمة دلال سالت بطرفها المكحول، وراح يفكر فى أن يحيى هذا الدلال بتحية تليق به لولا أن قالت له محذرة:

ـ لا تحملنى على مضاعفة سوء الظن بك.

فأعاده قولها إلى تذكر ما رددته عن القيل والقال، وسألها باهتمام:

ـ من الذى حدثك عنى؟

فقالت باقتضاب وهى تلحظه بنظرة اتهام:

ـ جليلة. . !

وفجأة الاسم كأنه عاذل يطرق مجلسهما فابتسم ابتسامة دلت على حرجه. جليلة، تلك العالمة المشهورة التى عشقها دهراً حتى فصل بينهما الشبع ثم عاشا وما زالا على مودة متبادلة على البعد، بيد أنه كخبير بالنساء لم ير بدا من أن يقول فى لهجة صادقة:

ـ لعنة الله على وجهها وصوتها معًا! . . (ثم متهربا) . . دعينا من هذا كله ولنتكلم فى الجد.

فتساءلت متهكمة:

ـ ألا تستحق جليلة كلمة أرق وألطف؟ . . أم هذا شأنك عند ذكر من قطعتهن من النساء؟!

وداخل السيد شىء من الحرج إلا أنه ذاب فى موجة الزهو الجنسى التى أثارها فى نفسه حديث عشيقة جديدة عن عشيقة ولّت، وأخذ مليا بنشوة ظفر حلوة ثم قال بلباقة معهودة:

ـ لا يسعنى وأنا بمحضر من هذا البهاء أن أغادره إلى ذكريات طويت ونسيت .

وبالرغم من أن السلطانة حافظت على نظرتها التهكمية إلا أنها استجابت للثناء كما بدا فى رفع حاجبيها ومداراتها لابتسامة خفيفة اندست إلى شفتيها ، ولكنها خاطبته بازدراء قائلة :

ـ لسان تاجر يسخو بالحلاوة حتى ينال غرضه .

ـ لنا الجنة نحن التجار بما يظلمنا الناس .

وهزت كتفيها استهانة ثم سألت فى اهتمام غير خاف :

ـ متى رافقتها؟

فلوح السيد بذراعه كأنه يقول «ما أبعده من زمن!» ثم تمتم :

ـ منذ أزمان وأزمان!

فضحكت فى تهكم وقالت بنبرات تنم عن التشفى :

ـ فى أيام الشباب الذى مضى!

فرنا السيد إليها معاتبا ثم قال :

ـ بودى أن أمص من لسانك الأذى .

ولكنها واصلت حديثها بنفس اللهجة قائلة :

ـ أخذتك لحما وتركتك عظاما .

فأومأ إليها محذراً وقال :

ـ إنى من صلب رجال يتزوجون فى الستين .

ـ بدافع العشق أم بدافع الخرف؟!

فقهقه السيد قائلا :

ـ يا ولية اتقى الله ودعينا نتكلم فى الجد .

ـ الجد؟! . . أتعنى إحياء الليلة التى جئت تتفق عليها؟

ـ أعنى إحياء العمر كله .

ـ كله أم نصفه؟!

ـ ربنا يقدرنا على ما فيه الخير .

ـ ربنا يقدرنا على الطيب .

واستغفر الله فى سره مقدما ثم تساءل :

- نقرأ الفاتحة؟

ولكنها نهضت بغتة متجاهلة دعوته وهتفت متظاهرة بالجزع :

- رباه . . سرقنى الوقت ولدى الليلة عمل هام .

ونهض السيد بدوره، ومد يده فتناول يدها ثم بسط راحتها المخضبة بالحناء، ورنا إليها بشوق وافتنان، وأصر على احتفاظه بها رغم جذبها إياها مرة ومرتين، حتى قرصته فى أصبعه ورفعت يده إلى شاربه مهددة :

- دعنى أو تخرج من بيتى بفردة شارب واحدة .

ورأى ساعدها قريبا من فيه فزهد فى النقاش وقرب منه شفتيه رويداً حتى غاصتا فى لحمه الطرى فتطاير منه إلى أنفه رائحة قرنفلية ذات طعم حلو، ثم تنهد مغمغما :

- إلى الغد؟!

فتخلصت من يده مقاومة من ناحيته هذه المرة، وحدقت إليه طويلا ثم ابتسمت وتمتمت :

عصفورى يا أمه عصفورى لألعب وأورى له أمـــورى

وجعلت تردد «عصفورى يا أمه» مرات وهى تودعه، وغادر السيد الحجرة وهو يردد مطلع الأغنية بصوت منخفض ملؤه الوقار والرزانة كأنما يستخبر الألفاظ عما وراءها من معان .

١٦

كان ما يطلق عليه بهو الحفلات ببيت العالمة زبيدة يتوسط الدار كالصالة، أو كأن الصالة بالفعل استجدت لها أغراض أخرى . ولعل أهم أغراضه أنها كانت تقوم فيه - هى وجوقتها - بالتجارب الغنائية وحفظ الأغانى الجديدة، وقد اختارته لبعده عن الطريق العام بما يفصل بينهما من حجرات النوم والاستقبال . وجعله اتساعه - إلى هذا - صالحا لإحياء الحفلات الخاصة التى تتراوح عادة بين الزار والغناء، والتى تدعو إليها الخاصة من أصدقائها ومعارفهم المقربين . ولم يكن الباعث على هذه الحفلات أريحية كرم فحسب - إن كان ثمة كرم على الإطلاق فإنه غالبا ما ينهض بأعبائها الأصدقاء أنفسهم - ولكنها رمت من ورائها إلى الإكثار من الأصدقاء الممتازين الخليقين بأن يدعوها لإحياء الحفلات أو يقوموا لها بالدعاية النافعة فى الأوساط التى يتقلبون فيها، ومن بينهم - إلى هذا كله - تنتقى الخليل بعد الخليل . وجاء دور السيد أحمد عبد الجواد ليشرف البهو السعيد

محاطًا بالخاصة من معارفه . والحق أنه تبدى على نشاط جم عقب المقابلة الجريئة التى تمت بينه وبين زبيدة فى بيتها فسرعان ما حمل رسله كريم الهدايا من النقل والحلوى والهدايا . إلى مدفأة أوصى على صنعها ونقشها وطليها بالفضة لتكون - جميعًا - عربونًا للمودة المقبلة . ففى لقائه هذا دعته السلطانة ، تاركة له الخيار فى دعوة من يشاء من أصدقائه ، إلى حفلة تعارف تكريما للحب الجديد - ولشد ما كان البهو موسوما بطابع بلدى جذاب بكنباته المتلاصقة المزركشة الناعمة الموحية بالنفاسة والخلاعة ، الممتدة على الجانبين حتى الصدر حيث يقوم ديوان الست تكتنفه الشلت والوسائد المعدة للجوقة ، أما أرضه المستطيلة فمفروشة بسجاد متعدد الألوان والشكول ، وعلى كونصول يتوسط الجناح الأيمن - كالشامة رواء وصفاء - أقيدت الشموع منغرسة فى الفنايير ، غير مصباح ضخم يتدلى من قمة منور يتوسط سقف الحجرة ذى منافذ على سطح الدار تفتح فى الليالى الدافئة وتغلق بأضلاف زجاجية فى ليالى البرد .

جلست زبيدة متربعة على الديوان وإلى يمينها زنوبة العوادة ربيبتها ، وإلى يسارها عبده عازف القانون الضرير ، واستوت النسوة جلوسا عن يمين وشمال ما بين ممسكة بالدف أو ماسحة على الدربكة أو عابثة بالصنج . وآثرت السلطانة السيد أحمد بأول مجلس فى الجناح الأيمن ، واتخذ الباقون من صحبه مجالسهم بلا كلفة كأنهم أصحاب الدار ، ولا عجب فلم يكن الجو بالجديد عليهم ، ولا السلطانة بالتى يرونها لأول مرة ، وقدَّم السيد أحمد أصحابه إلى العالمة مبتدئا بالسيد على بائع الدقيق فضحكت زبيدة قائلة :

- ليس السيد على بالغريب فقد أحييت فرح كريمته فى العام الماضى .

ثم ثنى بالسيد الفار تاجر النحاس ، ولما رماه أحدهم بأنه من رواد بمبة كشر بادر الرجل قائلا :

- وجئت تائبا يا ست .

وتتابع التعارف حتى تم ، ثم جاءت الجارية جلجل بأقداح الشراب ودارت على المدعوين ، ومضت النفوس تستشعر حيوية مشبعة بالأريحية والمرح ، وبدا السيد عريس الحفلة بلا منازع ، بهذا دعاه الأصدقاء ، وبهذا شعر فى أعماقه ، وقد وجد لذلك بادىء الأمر لونا من الارتباك قل أن يلم به ، فداراه بالإسراف فى الضحك والمرح ، حتى إذا أخذ فى الشراب زايله بلا عناء ، فاستعاد طمأنينته واندمج فى الطرب بكل قلبه . وجعل كلما لج به الشوق - والأشواق فى مغانى الطرب تثار - يمد بصره إلى سلطانة المجلس بنهم فيتلكأ ناظره عند طيات جسمها المكتنز ، فطاب قلبا بما أفاء عليه الحظ من نعمة ، وهنأ نفسه على ما يترقبها من لذيذ المسرات ، هذه الليلة والليالى الأخريات : «عند الامتحان

يكرم المرء أو يهان»، هذا التصريح الذى تحديتها به، يجب أن أكون عند كلمتى، أية امرأة هى يا ترى، وأى مدى مداها، سأعرف الحقيقة فى الساعة المناسبة ثم ألبس لكل حال لبوسها، لكى تضمن الانتصار على غريم ينبغى أن تفترض فيه الغاية من المناعة والبأس. لن أحيد عن شعارى القديم وهو أن أجعل من لذتى أنا مطلبا ثانويا ومن لذتها هى الهدف والنهاية، وبذلك تتحقق لذتى على أكمل وجه». ومع أن السيد لم يخبر من ألوان الحب - على وفرة مغامراته - إلا الحب العضوى وحب اللحم والدم، إلا أنه تدرج فى اعتناقه إلى أرق صورة وأنقاها، فلم يكن حيوانا بحتا ولكنه إلى حيوانيته وهب لطافة إحساس ورهافة شعور وولع مغلغل بالغناء والطرب، فسما بالشهوة إلى أسمى ما يمكن أن تسمو إليه فى مجالها العضوى. بهذه البواعث العضوية وحدها تزوج أول مرة ثم ثانى مرة، أجل أثرت عاطفته الزوجية - بكرور الأيام - بعناصر جديدة هادئة من المودة والألفة ولكنها ظلت فى جوهرها جسدية شهوانية، ولما كانت عاطفة من هذا النوع - خاصة إذا أوتيت قوة متجددة وحيوية دافقة - لا يمكن أن تستنيم إلى لون واحد فقد انطلق فى مذاهب العشق والهوى كالثور الهائج، كلما دعته صبوة استجاب لها فى نشوة وحماس. لم ير فى أية امرأة إلا جسداً، ولكنه لم يكن يحنى هامته لهذا الجسد حتى يجده خليقا حقا بأن يرى ويلمس ويشم ويذاق ويسمع، شهوة نعم ولكنها ليست وحشية ولا عمياء، بل هذبتها صنعة، ووجَّهها فن فاتخذت لها من الطرب والفكاهة والبشاشة جواً وإطاراً. فلم يكن أشبه بشهوته من جسمه، فهو مثلها فى الضخامة والقوة اللتين توحيان بالقسوة والوحشية ولكنه - مثلها أيضا - فيما ينطوى عليه فى أعماقه من لطف ورقة ومودة على ما يتسربل به أحيانًا - متعمداً من الصرامة والشدة. ولذلك فلم يتركز خياله النشيط - وهو يلتهم السلطانة بنظراته، فى المضاجعة ونحوها ولكنه تاه - إلى هذا - فى أفانين من أحلام اللهو واللعب والغناء والسمر. وأحست زبيدة بحرارة عينيه فقالت تخاطبه وهى تقلب عينيها فى وجوه المدعوين بعجب ودلال:

- حسبك يا عريس، هلا استحييت حيال رفاقك!

فقال السيد متعجبا:

- وما انتفاعى بالحياء حيال قنطار من اللحم والدهن!

فأطلقت العالمة ضحكة رنانة وتساءلت فى غاية من الانبساط:

- كيف ترون صاحبكم؟

فقالوا فى نفس واحد:

- معـذور!!

وهنا حرك عازف القانون الضرير رأسه يمنة ويسرة وقد تدلت شفته السفلى وتمتم:

ـ قد أعذر من أنذر .

ومع أن حكمته لاقت ترحيبا إلا أن الست التفتت نحوه كالغاضبة ولكزته فى صدره هاتفة :

ـ اسكت أنت وسد فاك الذى يبلع المحيط .

وتلقى الضرير الضربة ضاحكا ثم فتح فاه كأنما ليتكلم ولكنه أغلقه مرة أخرى مؤثراً السلامة فوجهت المرأة رأسها صوب السيد وقالت بلهجة تنم عن الوعيد :

ـ هذا جزاء من يجاوز حده .

فقال السيد متظاهراً بالانزعاج :

ـ ولكننى جئت لأتعلم قلة الأدب .

فدقت المرأة صدرها بيدها وصاحت :

ـ يا خبر ! . . أسمعتم قوله؟ !

فقال أكثر من واحد منهم فى وقت واحد :

ـ إنه خير ما سمعنا حتى الآن .

وأضاف إلى هذا أحد الرفقاء قائلا :

ـ بل عليك بضربه إذا جاوز حدود قلة الأدب .

وقال آخر مؤمنا على قوله :

ـ الزمى طاعته ما قل أدبه .

فتساءلت المرأة وهى ترفع حاجبيها لتعلن عن دهشة لا أثر لها فى نفسها :

ـ لحد هذا تحبون قلة الأدب !

فتنهد السيد قائلا :

ـ ربنا يديمها علينا .

فما كان من العالمة إلا أن تناولت الدف وهى تقول :

ـ سأسمعكم شيئا أفضل .

ونقرت عليه فيما يشبه العبث ، ولكن علا النقر فى حومة اللغو كالنذير حتى أسكته ، وداعب الآذان متودداً فبدل القوم حالا بعد حال ، تحفز أفراد الجوقة للعمل ، وفرغ السادة الكئوس ثم مدوا رءوسهم نحو السلطانة وساد المكان صمت يكاد ينطق من شدة التهيؤ للطرب . وأومأت العالمة إلى الجوقة فانطلقت تعزف بَشرف عثمان بك ، وراحت الرءوس تذهب مع الأنغام وتجىء ، وسلم السيد نفسه لرنين القانون الذى جعل يلذع قلبه

فيشعل فيه أصداء الأنغام المختلفة من عهد طويل حافل بليالى الطرب كأنها ذرات نفط تساقط على جمر مكنون، أجل كان القانون أحب آلات الطرب إلى نفسه ـ لا لمهارة العقاد وحدها ـ ولكن لسر مستلهم من طبيعة أوتاره، ومع أنه كان يعلم أنه يستمع إلى العقاد أو سى عبده إلا أن قلبه العاشق دارى بعشقه ما قصر دونه الفن. وما أن فرغت الجوقة من عزف البشْرف حتى انطلقت العالمة تنشد «والذى أسكر من عذب اللما» فلحقت بها الجوقة فى حماس، وكان أجمل ما يطرب فيها صوتان متجاوبان، أحدهما غليظ عريض للعازف الضرير والآخر رقيق يندى بالطفولة لزنوبة العوادة، فجاش صدر السيد بالانفعال فابتدر الكأس الذى بين يديه فأفرغه فى جوفه واندفع يشارك فى إنشاد التوشيح وقد وشت نبرات صوته ـ عند مطلع الغناء ـ بشَرق فى حلقه لاندفاعه إلى الإنشاد قبل أن يتم بلع ريقه، وما لبث أن تشجع بقية الرفاقَ فحذوا حذوه وسرعان ما انقلب البهو جوقة تنشد عن صوت واحد. ولما ختم التوشيح تهيأت روح السيد ـ بحكم العادة ـ لاستماع التقاسيم والليالى ولكن العالمة ذيلت الختام بضحكة من ضحكاتها الرنانة معلنة عن سرورها وعجبها، ومضت تهنىء أفراد الجوقة المستجدين مداعبة وتسألهم عن الدور الذى يودون سماعه، وانزعج السيد فى باطنه ومرت به لحظة كدر امتحن فيها ولعه بالغناء امتحانا قاسيا لم يفطن إليه كثيرون ممن حوله، ولكنه أدرك فى اللحظة التالية أن زبيدة ليست كفئا لتقاسيم الليالى شأن جميع العوالم بما فيهن «بمبة كشر» نفسها، فتمنى لو تختار المرأة طقطوقة خفيفة مما تغنى للسيدات فى الأفراح، مفضلا هذا عن محاولة غناء دور من أدوار الفحول ستعجز حتمًا عن إجادة ترجيعه، وصمم على أن يتفادى من المتاعب التى تخافها أذنه بأن يقترح أغنية خفيفة تناسب حنجرة الست فقال:

ـ ما رأيكم فى عصفورى يا امه؟

وحدجها بنظرة ذات معنى كأنما ليثير فى نفسها إيحاء هذه الطقطوقة التى توجت بها حوار تعارفهما فى حجرة الاستقبال منذ أيام قلائل، ولكن جاء صوت من أقصى البهو يصيح ساخرًا:

ـ الأولى أن تطلبها من أمك!

وسرعان ما ضاع الاقتراح فيما تفجر من قهقهات أفسدت على السيد خطته، وقبل أن يكرر المحاولة طلب نفر «يا مسلمين يا أهل الله» وطلب آخرون «سلامتك يا قلبى» ولكن زبيدة التى تحاشت أن ترضى فئة على حساب أخرى أعلنت أنها ستغنيهم «على روحى أنا الجانى» فاستقبلت بترحاب حار. ولم يجد السيد بدا من توطين النفس على الانبساط مستعينًا بالشراب، وبأحلام ليلته الواعدة، فتألق ثغره بابتسامة وضيئة أدرك بها ركب النشاوى بلا كدر، بل وجد عطفا على رغبة المرأة فى محاكاة الفحول إرضاء لمستمعيها

الراسخين فى السماع وإن لم يخل حالها من غرور تألفه الغوانى . وفيما تتهيأ الجوقة للغناء نهض أحد الرفاق وهتف بحماس :

ـ دعوا الدف للسيد أحمد فهو به خبير !

فهزت زبيدة رأسها عجبا وتساءلت :

ـ حقــا ؟ !

فحرك السيد أصابعه فى سرعة ورشاقة كأنما يعرض عليها مثالا من صنعته فقالت زبيدة باسمة :

ـ فيم العجب وأنت تلميذ جليلة !

وضحك السادة فى غير ما تحفظ ، وتواصل الضحك حتى علا صوت السيد الفار وهو يسأل السلطانة قائلا :

ـ وماذا تنوين أن تعلميه أنت؟

فقالت بلهجة ذات معنى :

ـ سأعلمه القانون . . ألا يروقك هذا؟

فقال السيد باستعطاف :

ـ علمينى الهنك إن شئت .

وحث كثيرون السيد على الانضمام إلى التخت وأخذ الدف فما كان منه إلا أن نهض وخلع الجبة فبدا بطوله وعرضه فى القفطان الكمونى كجواد يقف مستوفزا على رجليه الخلفيتين ، ثم شمر عن ساعديه ومضى إلى الديوان ليتخذ مجلسه إلى جانب الست ، ولكى تفسح له قامت نصف قومة متزحزحة إلى اليسار فانحسر الفستان الأحمر عن ساق لحيمة مرتوية بيضاء مشربة بلون وردى من أثر الحف والنتف محلى أسفلها بخلخال ذهبى أعيا ضمها ذراعيه ، ورأى بعضهم ذاك المنظر صاح بصوت كالرعد :

ـ تحيــا الخــلافة !

وكان السيد يغمز ثديى المرأة بعينيه فهتف وراءه :

ـ قل يحيا الصدر الأعظم .

فصاحت العالمة محذرة :

ـ خفضوا أصواتكم أو يبيتنا الإنجليز فى السجن .

فهتف السيد الذى لعبت الخمر برأسه :

ـ أذهب معك مؤبدًا مع الشغل .

وعلا أكثر من صوت يقول :

ـ لا عاش من يترككما تذهبان وحدكما .

وأرادت المرأة أن تحسم النزاع الذى أثاره منظر ساقها فمدت يدها بالدف إلى السيد وهى تقول :

ـ أرنى شطارتك .

وتناول السيد الدف ، ومسح عليه براحته مبتسما ، وبدأت أصابعه تنقر عليه فى مهارة على حين انطلقت آلات الطرب عازفة ، ثم غنت زبيدة وهى ترنو إلى الأعين المحدقة إليها :

على روحى أنا الجانى وخلِّى فى الهوى رمانى

ووجد السيد نفسه فى موقف عجيب ، تهفو إليه أنفاس السلطانة بين اللفتة واللفتة فتلتقى بإشعاعات الخمر المتطايرة من يافوخه بين الحسوة والحسوة ، فما أسرع أن غابت عن وعيه أصداء الحامولى وعثمان والمنيلاوى ، وعاش فى لحظته الراهنة قانعًا سعيداً ، ثم سرى إليه من نبرات صوتها ما حرك أوتار قلبه فاستعر نشاطه ولعب بالدف لعبا لا يدانيه المحترفون ، وما بلغت المرأة فى الغناء قولها «أمانة يا رايح يمُّه تبوس لى الحلو من فمُّه» ، حتى كان من النشوة فى سكرة عاتية ملهمة مدغدغة محرقة ، ولحق به الرفاق أو سبقوه إذ بلغت الخمر بالضرب نهايته ونثرت الشهوات نثرا فتركتهم كأدواح راقصة فى حومة عاصفة هوجاء .

ورويداً رويداً شارف الدور الختام وراحت زبيدة تختمه مرددة نفس المطلع الذى افتتحت به وهو «على روحى أنا الجانى» ولكن بروح يوحى بالدعة والتذكير والوداع والنهاية ، وغابت الأنغام كما تغيب طيارة بحبيب وراء الأفق . ومع أن الختام قوبل بعاصفة من التهليل والتصفيق إلا أنه سرعان ما ساد القاعة صمت دل على همود أنفس أعياها الجهد والانفعال ، ومضت فترة لم يسمع فيها إلا سعلة أو نحنحة أو حكة عود ثقاب أو كلمة لا تستحق المراجعة ، وقال لسان الحال للمدعوين «تفضلوا بسلام» فلاحت من بعضهم نظرات إلى قطع الثياب التى تخففوا منها فى فورة الطرب فوضعوها وراءهم على مساند ، ولكن البعض الآخر ممن تعلقت نفوسهم بحلاوة السهر أبوا أن يغادروها حتى يرشفوا آخر قطرة متاحة من الرحيق ، فصاح أحدهم :

ـ لا نبرح حتى نزف السلطانة إلى السيد أحمد .

وقوبل الاقتراح بترحاب وتأييد ، على حين أغرق السيد والعالمة فى الضحك غير مصدقين ، وما يدريان إلا ونفر من الصحاب يحيطون بهما وينهضونهما ثم يشيرون إلى الجوقة لتشرع فى النشيد السعيد .

وقفا جنبا لجنب، هى كالمحمل وهو كالجمل، عملاقين ملطفين بالحسن، ثم تأبطت فى دلال ذراعه وأشارت إلى المحدقين بهما ليفسحوا الطريق. ونقرت الدفافة على الدف فانطلقت الجوقة وكثرة من المدعوين يرددون نشيد الزفة «انظر بعينك يا جميل» ومضى العروسان فى خطو وئيد يتبختران طربًا وسكرًا فلم تتمالك زنوبة مع هذا المنظر إلا أن تمسك عن اللعب بأوتار العود ريثما تطلق زغرودة مجلجلة طويلة النفس لو تجسدت لبدت لسانا متعرجا من لهب يشق الفضاء كالشهاب. وتسابق الأصدقاء يزجون التهانى تباعا:

ـ بالرفاء والبنين.

ـ ذرية صالحة من الراقصات والمغنيات.

وصاح به أحدهم محذرًا:

ـ لا تؤجل عمل اليوم إلى غد.

ولم تزل الجوقة تواصل الإنشاد، والأصدقاء يلوحون بأيديهم مودعين، حتى توارى السيد والمرأة وراء الباب المفضى إلى داخل الدار.

١٧

كان السيد أحمد جالسا إلى مكتبه بالدكان حين دخل ياسين على غير انتظار، ولم تكن زيارة غير منتظرة فحسب، ولكنها كانت قبل كل شىء غير مألوفة، إذ لم يكن من الطبيعى أن يزور الفتى أباه فى دكانه على حين يتحاشاه على قدر استطاعته فى بيته، وإلى هذا بدا شارد اللب ساهم النظرة.. وأقبل على أبيه مكتفيا برفع يده إلى رأسه بطريقة آلية دون أن يلتزم ما يلتزم عادة بمحضره من أدب بالغ وخضوع كأنما نسى نفسه، ثم قال بلهجة نمت عن شديد تأثره:

ـ السلام عليكم يا أبى، جئت لأحدثك فى أمر هام.

ورفع السيد إليه عينيه متسائلا وقد ساوره قلق استعان على إخفائه بقوة إرادته ثم قال بهدوء:

ـ خير إن شاء الله!

وجاء جميل الحمزاوى بكرسى وهو يرحب بمقدمه فأمره والده بالجلوس فقرب الشاب الكرسى من مكان أبيه وجلس، وبدا لحظات كالمتردد، ثم زفر ثائرًا بتردده وقال بنبرات متهدجة وفى اقتضاب مؤثر:

ـ المسألة أن أمى شارعة فى الزواج!

ومع أن السيد توقع خبراً سيئا إلا أن خياله لم يجنح فى جولته التشاؤمية إلى تلك الناحية التى أودعها ركنًا مهجوراً من ماضيه، لذلك لقيت منه المفاجأة صيداً غافلا، وسرعان ما قطب كما يقطب كلما عرض له عارض من ذكريات زوجه الأولى، وتولاه لذلك ضيق، ثم انزعاج لما يمس ابنه مباشرة فى صميم كرامته، وكشأن السائلين الذين يلقون السؤال لا ليعرفوا جديداً ولكن ليلتمسوا منفذاً للنجاة من الواقع وهم يائسون، أو ليهيئوا لأنفسهم مهلة للتروى وتمالك الأعصاب، وسأله:

ـ ومن أدراك بهذا؟

ـ قريبها الشيخ حمدى، زارنى اليوم بمدرسة النحاسين وألقى علىّ الخبر مؤكداً بأنه سيتم فى ظرف شهر.

الخبر حق لا ريب فيه، وما هو بالأول من نوعه، فى حياتها، ولن يكون الأخير إذا اتخذ الماضى مقياسًا للمستقبل، ولكن أى ذنب جناه هذا الشاب ليلقى هذا الجزاء الصارم المتجدد الأذى؟!.. ووجد الرجل نحو ابنه رثاء وعطفا، وعز عليه أن يقف من آلامه موقف العجز وهو الذى يقصده الناس فى الملمات، وتساءل فيما بينه وبين نفسه ماذا تكون حاله لو كان هو المبتلى بهذه الأم!.. فانقبض صدره وتضاعف رثاؤه وعطفه نحو ابنه، ثم شعر برغبة تدفعه إلى السؤال عن ذلك الزوج المنتظر، ولكنه لم يستسلم لها، إما لأنه أشفق من أن تزيد جرح ابنه عمقا واتساعا وإما لأنه أنكرها على نفسه لما آنس بها من حب استطلاع ـ لا يليق بالمأساة الراهنة موجَّه إلى المرأة التى كانت زوجا له، بيد أن ياسين قال منفعلا من تلقاء نفسه وكأنه يجيب خاطرته:

ـ وممن تتزوج!.. من شخص يدعى يعقوب زينهم صاحب مخبز فى الدراسة.. فى الثلاثين من عمره!

واشتد انفعاله وتهدج صوته وهو ينطق العبارة الأخيرة كأنما يلفظ شظية، فانتقل إحساسه إلى أبيه تقززا واشمئزازا، وجعل يردد فى سره: فى الثلاثين من عمره.. يا له من عمل فاضح.. إنه فسق فى ثياب زواج.. غضب الرجل لغضب ابنه، وغضب لحساب نفسه هو كما اعتاد أن يغضب كلما ترامى إليه نبأ من مباذلها كأنما يتجدد شعوره بتبعته فى اعتبارها يوما زوجة له، أو كأنما يعز عليه ـ ولو بعد كرور ذاك الزمن الطويل ـ أنها أفلتت من تأديبه والإذعان لسنته!.. وإنه ليذكر أيام معاشرته لها ـ على قصرها ـ كما يذكر الإنسان حمى هاضته، وربما كان مغاليا فى تصوره، ولكن رجلا فى مثل اعتداده بنفسه جدير بأن يرى فى مجرد الرغبة عن الإذعان لمشيئته جريمة لا تغتفر وهزيمة قتالة. ثم إنها كانت ـ ولعلها لا تزال ـ جميلة مترعة أنوثة وجاذبية فنعم بمعاشرتها أشهرا حتى بدا

منها شىء من المقاومة لإرادته التى نزع إلى فرضها على المتصلين به من آله، ولم تر بأسا فى الاستمتاع بالحرية ولو بالقدر الذى يتيح لها زيارة أبيها من آن لآن، فغضب السيد وحاول منعها بالزجر أولا ثم بالضرب المبرح أخيراً، فما كان من المرأة المدللة إلا أن فرَّت إلى والديها! وأعمى الغضب الرجل المتعجرف فظن أن خير سبيل إلى تأديبها وإرجاع عقلها إلى رأسها هو أن يطلقها إلى حين - إلى حين طبعا لأنه شديد التعلق بها - فطلقها، وتظاهر بإهمالها أياما وأسابيع وهو ينتظر آملا أن يجيئه وسيط خير من آلها، فلما لم يطرق بابه أحد داس كبرياءه وبعث هو بمن يجس النبض تمهيداً للصلح فعاد الرسول يقول إنهم يرحبون به على شرط ألا يسجنها أو يضربها! . . ولكنه كان ينتظر موافقته بلا قيد ولا شرط فثار غضبه ثورة عاتية وأقسم فيما بينه وبين نفسه ألا يضمهما رباط إلى الأبد. هكذا ذهب كلاهما إلى حال سبيله، وهكذا قضى على ياسين أن يولد بعيداً عن أبيه وأن يلقى من حياته فى بيت أمه ما لقى من ضروب المذلة والألم.

ومع أن المرأة تزوجت أكثر من مرة، ومع أن الزواج كان - فى نظر ابنها - أشرف سقطاتها، إلا أن هذا الزواج الجديد المتوقع بدا أفظع من سوابقه وأمعن فى الإيلام، لأن المرأة استوت على الأربعين من ناحية، ولأن ياسين اكتمل شابا مدركا بوسعه إذا شاء أن يدفع عن كرامته الإساءة والهوان من ناحية أخرى، فقد جاوز إذن موقفه القديم الذى ألزمه إياه حداثة سنه حين كان يتلقى الأنباء المثيرة عن أمه بالدهش والانزعاج والبكاء إلى موقف جديد بدا فيه أمام نفسه رجلا مسئولا، لا يصح له أن يلقى الإساءة مكتوف اليدين. دارت هذه الخواطر بذهن السيد، وقدر خطورتها بقلق، ولكنه صمم على التهوين من شأنها ما وسعته الحيلة ابتعاداً بابنه الأكبر عن المتاعب، فهز كتفيه العريضين متظاهراً بالاستهانة وقال:

- ألم نتعاهد على اعتبارها كشىء لم يكن؟!

فقال ياسين فى حزن وقنوط:

- ولكنها شىء كائن يا أبى! . . ومهما يكن من أمر تعاهدنا فلن تزال أمى إلى ما شاء الله، سواء فى نظرى أم فى نظر الناس جميعا. . لا مفر ولا خلاص.

ونفخ الشاب من الأعماق، ورنا إلى أبيه بعينيه السوداوين الجميلتين - اللتين ورثهما عنها - فى استغاثة صارخة وكأنه يقول له: «إنك أبى الجبار القادر فمد لى يدك»، فبلغ التأثر بالسيد غايته ولكنه واصل تظاهره بالهدوء المقرون بالاستهانة قائلا:

- لا أنكر عليك تألمك ولكنى أنكر عليك أن تغالى فيه، كذلك يطيب لى أن أعذرك على غضبك ولكن قليلا من العقل حرىّ بأن يردك بلا عناء، سائل نفسك فى هدوء ماذا عليك من زواجها؟ . . امرأة تتزوج، كما تتزوج النساء كل يوم وكل ساعة،

وليست هى بالتى تحاسب على مثل هذا الزواج لما سلف من سلوكها، بل لعلها خليقة بأن تشكر عليه، وكما قلت لك مرارا لن يرتاح لك بال حتى تسقطها من حسابك كأنها لم تكن، فافعل بالله وأرح نفسك، وتعز ـ مهما يكن من أمر القيل والقال ـ بأن الزواج علاقة مشروعة . . شريفة .

قال السيد هذا بلسانه فحسب ـ إذ كان يناقض كل المناقضة ما طبع عليه من غيرة متطرفة فيما يتصل بالآداب المطلقة للأسرة ـ ولكنه قال بحرارة كالصدق، منشؤها ما مارسه من لباقة أهلته لأن يكون الحكم الحكيم ووسيط الخير الذى لا يعجزه فض نزاع بين الناس، ومع أن كلامه لم يضع هباء ـ حيث أنه من المستحيل أن يضيع كلام للسيد هباء حيال أحد من أبنائه ـ إلا أن غضب الفتى كان أعمق من أن يتبخر بنفخة واحدة فوقع منه موقع قدح بارد من إبريق بالماء المغلى، وما لبث أن خاطب أباه قائلا :

ـ هو علاقة مشروعة حقا يا أبى ولكنها تبدو أحيانا أبعد ما تكون عن الشرع، إنى أسائل نفسى عما يدفع هذا الرجل إلى الزواج منها؟!

وبالرغم من خطورة الحال قال السيد لنفسه فى شىء من السخرية «أولى بك أن تسأل عما يدفعها هى!» . وقبل أن يحاور ابنه واصل ياسين حديثه قائلا :

ـ إنه الطمع . . ولا شىء غيره!

ـ أو لعلها رغبة صادقة فى الزواج منها .

ولكن الشاب هاج ثائره وهتف فى حنق وألم معا :

ـ بل الطمع وحده .

وبالرغم من خطورة الموقف لم تخف على السيد حدة اللهجة التى خاطبه بها ابنه، بل لم يخل الرجل من ضيق إلى تقديره لحاله وحزنه أن يعود إلى توكيد قوله السابق، فلما لم يفعل استطرد قائلا فى هدوء نسبى :

ـ إن ما يدفعه إلى الزواج من امرأة تكبره بعشرة أعوام هو الطمع فى مالها وعقارها .

وجد السيد فى تحول النقاش إلى هذه النقطة فائدة لم تغب عن ألمعيته، فهو ينزع الفتى من تركيز تفكيره فى أمور أشد حساسية وأبعث للألم وبحسبه أن يصرفه عن النظر فيما يدفع أمه إلى الزواج إلى ما يدفع الرجل، وإلى هذا كله لم يخف عليه ما فى رأى ابنه من وجاهة فيما يتعلق بالزواج فسرعان ما اقتنع به وشاركه مخاوفه فيه . أجل إن هنية ـ أم ياسين ـ غنية لدرجة لا بأس بها، وقد سلمت لها ثروتها من العقار على ما خاضت من تجارب الزواج والهوى، بيد أنها كانت فيما مضى شابة حسناء ذات سحر وسلطان، يخاف منها ولا يخاف عليها، أما الآن فبعيد عن الاحتمال أن تملك نفسها ـ فضلا عن

أنفس الآخرين ـ ما ملكت، وإذن فثروتها خليقة بأن تتبدد فى معركة الغرام التى لم تعد من رماتها، وإنه لحرام وأى حرام أن يخرج ياسين من جحيم هذه المأساة جريح الكرامة وصفر اليدين، وقال السيد يخاطب ابنه وكأنه يحاور نفسه ويستلهمها الرأى :

ـ أراك على حق يا بنى فيما تقول، إن امرأة فى سنها صيد يسير خليق بأن يغرى الطماعين من البشر، فما عسى أن نفعل؟ . . أنتلمس سبيلا إلى ذاك الرجل لنحمله على العدول عن مغامراته؟! . . إن الحملة عليه بالوعيد والتهديد سلوك لا ترتضيه آدابنا وما عرفنا به بين الناس، كذلك التوسل إليه بالرجاء والاقتناع مهانة لا تهضمها كرامتنا . . فلم يبق أمامنا إلا المرأة نفسها! . . ولست أجهل ما حفرت بينك وبينها من قطيعة كانت بها ـ ولا تزال ـ خليقة، بل الحق أنى لا أرتاح إلى أن تصل ما انقطع بينك وبينها لو لا ما استجد من أعذار قهرية، فللضرورة أحكام، ومهما يشق عليك الرجوع فهو رجوع إلى أمك، ومن يدرى فلعل ظهورك المفاجىء فى أفقها يردها إلى شىء من الصواب .

وبدا ياسين أمام أبيه، كالوسيط أمام المنوم المغناطيسى فى اللحظات التى تسبق ما يوحى به إليه، ذاهلا صامتا، فوشى حاله بنفاذ تأثير الرجل إلى نفسه، أو لعله دل على أنه لم يفاجأ بهذا الاقتراح، وأنه يحتمل أن يكون مما دار بنفسه قبل مجيئه، بيد أنه تمتم قائلا :

ـ أليس ثمة حل أوفق؟

فقال السيد بقوة ووضوح :

ـ أراه أوفق الحلول .

فقال ياسين وكأنه يحادث نفسه :

ـ كيف أرجع إليها؟! . . كيف أزج بنفسى فى ماض فررت منه وليس أحب إلى من أن يبتر من حياتى بترا! . . لا أم لى . . لا أم لى .

ولكن بالرغم من ظاهر قوله شعر السيد بأنه وفق إلى جذبه إلى رأيه فقال بلباقة :

ـ هذا حق، ولكن لا أظن أن ظهورك أمامها فجأة بعد ذاك الغياب الطويل يمضى بلا أثر، لعلها إذا رأتك بين يديها شابا ناضجا أن تتحرك أمومتها فتجفل مما عساه يسىء إلى كرامتك وتعدل عن سيرتها . . من يدرى؟!

فطامن ياسين رأسه غارقا فى أفكاره، غير مبال بما دل عليه من ضيق ويأس، كان يرتعد خوفًا من وقوع الفضيحة، ولعل هذا كان أفظع ما يكربه ولكن خوفه على ضياع الثروة التى ينتظر أن يرثها يوما لم يكن دون ذلك، وما عسى أن يفعل؟! . . مهما يقلب

أوجه الرأى فلن يجد حلا أوفق مما ارتأى أبوه، بل إن صدور الرأى عن أبيه ألبسه فى نظره ـ على تقلقل حاله ـ وجاهة وأعفاه هو من هموم كثيرة. ليكن.. هكذا قال فى نفسه، ثم قال مخاطبا أباه:

ـ كما ترى يا أبى.

١٨

لما بلغت به قدماه طريق الجمالية انقبض صدره حتى شعر بأنه يختنق. لقد غاب عنه أحد عشر عاما. أحد عشر عاما تصرمت فلم ينازعه القلب إليه مرة واحدة، أو ترف عليه ذكرى من ذكرياته إلا فى هالة قاتمة مقبضة نسج وشيها من مادة الكابوس، والحق أنه لم يكن غادره ولكن واتته فرصة ففر منه فرارًا، ثم ولاه ظهره غاضبا يائسا، ثم تجنبه بكل قوة فلم يعرفه بعد ذلك كغاية فى نفسه أو معبرا إلى سواه من الأحياء بيد أنه هو الحى كما عهده فى طفولته وصباه، لم يتغير منه شىء، مازال ضيقا تكاد تسده عربة يد إذا اعترضت سبيله، وها هى بيوته تكاد تتماس مشربياتها، ودكاكينه الصغيرة فى تلاصقها وزحمتها والطنين الصادر عنها كخلايا النحل، وأرضه التربة بفجواتها المفعمة وحلاً، وغلمانه الذين يغشون جوانبه ويطبعون على أديمه آثار أقدامهم الحافية، وسابلته الذين لا ينقطع لهم تيار، ومقلى عم حسن ومطعم عم سليمان، كل أولئك باق كما عهده فتكاد ترف على شفتيه ابتسامة حنان يريد ثغر طفولته أن يفتر عنها لولا مرارة الماضى وسقم الحاضر.

وتراءت لعينيه عطفة قصر الشوق فخفق قلبه بقوة حتى كاد يصم أذنيه، ثم لاحت على رأس منعطفها الأيمن سلال البرتقال والتفاح منضدة على الطوار أمام دكان الفاكهة فعض شفتيه وغض طرفه فى خزى. الماضى ملطخ بالعار، مدفون الرأس فى الطين من الخجل، دائم الجأر بالشكوى من الخزى والألم، ولكنه كله فى كفة وهذا الدكان فى كفة وحده، بل إنه يرجح به، إذ أنه رمزه الحى الباقى على الزمن. جمعت فى صاحبه وسلاله وفاكهته وموقعه وذكرياته الخزى متبجحًا والألم ناطقا بالهزيمة مولولة، وإذا كان الماضى أحداثا وذكريات هى بطبعها عرضة للتخلخل أو النسيان فهذا الدكان يقوم شاهدًا مجسمًا يكشف مخلخله ويفضح منسيه. وكان كلما تقدم من المنعطف خطوة تقهقر عن الحاضر خطوات طاويا الزمن على رغم إرادته وكأنه يرى فى الدكان «غلاما» يرفع رأسه إلى صاحبها ويقول: «نينة تطلب منك أن تحضر الليلة»، أو كأنه يراه وهو عائد بقرطاس الفاكهة ضاحك الأسارير، أو وهو يلفت نظر أمه فى الطريق إلى الرجل فتجذبه من

ذراعه بعيداً أن يلفت إليهما الأنظار، أو وهو ينشج باكيا أمام منظر الافتراس الوحشى الذى يخلقه خلقًا جديداً ـ كلما ورد على ذهنه ـ على ضوء تجاربه الراهنة فينقلب البشاعة نفسها، طفقت الصور الملتهبة تطارده وهو يجد فى الفرار منها، ولكنه ما إن يتملص من قبضة إحداها حتى يقع فى قبضة الأخرى، مطاردة عنيفة وحشية أثارت فى أعماقه بركان الحنق والحقد فواصل السير إلى غايته وهو على أسوأ حال «كيف أمرق إلى العطفة وعلى رأسها هذا الدكان. . وهذا الرجل. . أتراه بموقفه القديم منه؟ . . لن ألتفت نحوه، أى قوة ماكرة تغرينى بالنظر، أيعرفنى إذا التقت عينانا؟! . . إذا بدا منه أنه عرفنى قتلته. ولكن كيف له أن يعرفنى؟ . . لا هو ولا أحد من الحى، أحد عشر عاما، تركته غلامًا وأعود إليه ثوراً. ذا قرنين! . . ثم لا تواتينا القوة على إبادة الحشرات السامة التى لا تنفك تلدغنا؟»

ومال إلى العطفة مسرعا بعض الشىء، متخيلا القوم وهم يستطلعونه بأنظارهم متسائلين «أين ومتى رأينا هذا الوجه!»، ورقى فى الطريق المتصاعد فى غير استواء، جامعا عزمه على نفض الغبار الخانق عن وجهه ورأسه ولو إلى حين، وتشجيعا لعزمه فر بنفسه بعيداً وراح يتأمل ما حوله ويحدث نفسه قائلا: «لا تضق بالطريق المتعب فكم كنت تفرح به صغيراً وأنت تتزحلق على منحدره فوق لوح من الخشب!». بيد أنه عاد يقول حين تراءى له جدار البيت: «إلى أين أسير؟! . . إلى أمى! . . يا للعجب. لا أصدق، كيف ألقاها وكيف تلقانى! . . وددت لو». ومال يمينا إلى عطفة مسدودة ثم اتجه إلى أول باب فى جانبها الأيسر. هو البيت القديم بلا أدنى شك، قطع الطريق إليه كما كان يقطعه وهو صغير، بلا تردد أو تساؤل وكأنه ما تركه إلا أمس القريب، ولكنه اقتحم بابه هذه المرة باضطراب غير معهود، ورقى فى الدرج بخطوات ثقيلة بطيئة. وبالرغم من قلقه وجد نفسه يتفحصه باهتمام مطابقا بينه وبين صورته المحفوظة فى خياله فألفاه أضيق قليلا مما فى ذاكرته وقد تآكلت بعض جوانبه وتهدمت أجزاء صغيرة من أطراف درجاته المطلة على بئر السلم، وسرعان ما حجبت الذكريات الحاضر كله. ومر وهو على تلك الحال بالدورين المأجورين حتى انتهى إلى الدور الأخير، ووقف لحظات يتصنت وصدره يعلو وينخفض، ثم هز منكبيه كالمستهين ونقر على الباب، وبعد دقيقة أو نحوها فتح الباب عن وجه خادم متوسطة العمر ما إن تبينت فيه رجلا غريبا حتى توارت وراء الباب وهى تسأله فى أدب عما يريد. وثارت أعصابه فجأة وبلا داع معقول لما بدا من الخادم من جهل بشخصه فدخل بأقدام ثابتة واتجه نحو حجرة الاستقبال وهو يقول بلهجة آمرة:

ـ قولى لستك ياسين هنا.

«ترى ماذا تظن الخادم بى؟». والتفت وراءها فوجدها مسرعة إلى الداخل، إما لأن

لهجته الآمرة غلبتها على أمرها، وإما . . وعض على شفتيه وهو يمرق إلى داخل الحجرة. إنها حجرة الضيوف كما قدر بلا وعى فى لهوجته وحدته ولكن ذاكرته كانت تعرف أركان البيت بلا دليل، ولو وجد فى ظرف غير الظرف لطاف مسترجعا ذكرياته من الحمام الذى كان يحمل إليه وهو يبكى إلى المشربية التى كان ينظر من وراء ثقوبها إلى موكب الزفة مساء وراء مساء. ترى أأثاث الحجرة الراهن هو أثاث الماضى البعيد؟

إنه لا يذكر من الأثاث القديم إلا مرآة طويلة ثبتت فى حوض مذهب تنبثق من ثغرات فى سطحه ورود صناعية مختلفة الألوان، وتركز فى زاويتيه المتباعدتين فنايير تتدلى من أعناقها أهلة بلورية طالما ولع بالعبث بها والنظر خلالها إلى المكان فيلوح فى حلل غريبة يذكر إغراءها وإن غاب عنه منظرها، ولكن لا داعى للتساؤل، فأثاث اليوم غير أثاث الأمس، لا لجدته فحسب، ولكن لأن حجرة امرأة مزواج خليقة بأن تتغير أو تتجدد، كما تغير أبوه، وتاجر الفحم، والباشجويش. وركبه توتر وضيق فأدرك أنه لم يطرق باب البيت القديم فحسب ولكنه نكأ جرحا متورما وغاص فى قيحه. ولم يطل انتظاره، ولعله جاء أقصر مما يتصور، إذ ابتدر أذنيه وقع أقدام متتابعة متدافعة، وصوت يتردد محاوراً نفسه بكلام علا جرسه ولم يستبن ألفاظه، ثم أحس بها ـ وهو لم يزل مولى الباب ظهره ـ وضلفة الباب المغلقة تطقطق تحت صدمة منكبها، ثم جاءه هتافها وهى تقول بأنفاس مبهورة:

ـ ياسين! . . ابنى! . . كيف أصدق عينى؟! . . ربى . . صار رجلا! .

وتدافع الدم إلى وجهه المكتنز، واستدار نحوها فى ارتباك وهو لا يدرى كيف يلقاها ولا كيف يكون اللقاء، ولكن المرأة أعفته من تدبير أمره فهرعت إليه واحتوته بذراعيها وضمته إليها بشدة وعصبية وراحت تقبل صدره ـ وهو غاية ما وسع شفتاها أن تبلغاه من جسمه المنتصب ـ ثم اختنقت نبراتها واغرورقت عيناها فدفنت وجهها فى صدره مستسلمة مليا ريثما تسترد أنفاسها. لم يكن حتى تلك اللحظة قد أتى حركة أو نطق بكلمة، ومع أنه شعر شعوراً عميقا أليما بأن جموده أشد من أن يحتمل إلا أنه لم يبدر منه ما ينم عن حياة: أى حياة، فلازم جموده وخرسه، بيد أنه كان متأثرا غاية التأثر وإن لم يتضح له نوع التأثر بادئ الأمر بحال يطمئن إليها، ولكنه على حرارة استقبالها، لم يجد رغبة للارتماء فى حضنها أو تقبيلها، لعله لم يستطع أن ينزع الذكريات المحزنة الناشبة فى نفسه كمرض مزمن يرافقه منذ الصبا، ومع إنه وجه إرادته بعزم وتصميم إلى اخلاء المسرح من الماضى فى اللحظة الراهنة ليملك فكره وحكمته، إلا أن الماضى المطرود انعكس على صفحة قلبه ظلالا قاتمة كذبابة نشت عن الفم بعد أن خلفت وراءها جرثومة تسرى، فأدرك فى ذاك الموقف الرهيب أكثر مما أدرك فى ماضيه كله. الحقيقة المحزنة التى

طالما أدمت فؤاده وهى أن أمه قد اقتلعت من صدره. ورفعت المرأة رأسها إليه وهى تدعوه إلى تقريب وجهه فلم يستطع الإباء وأدنى وجهه منها فقبلته فى خديه وجبينه، التقت أثناء العناق عيناهما فلثم جبينها تأثراً بارتباكه وحيائه لا لعاطفة أخرى، ثم سمعها تغمغم:

ـ قالت لى ياسين هنا، قلت ياسين! من يكون هذا؟! ولكن من يكون غيره؟ ليس لى إلا ياسين واحد، ذاك الذى حرم بيتى على نفسه وحرم نفسه على، فماذا حدث؟ وكيف استجيب الدعاء آخر الدهر؟! وجئت عدواً كالمجنونة لا أصدق أذنى، وها أنت، أنت دون غيرك والحمد لله، تركتنى غلاما وعدت إلى رجلا، كم قتلنى الشوق إليك وأنت لا تحس لى وجوداً.

وأخذته من ذراعه إلى الكنبة فمضى معها وهو يسائل نفسه متى تنحسر هذه الموجة الطاغية من الاستقبال الحار حتى يتبين الطريق إلى هدفه، وجعل يسترق إليها النظر فى استطلاع مقرون بالدهشة والقلق؟.. كأنها لم تتغير إلا أن يكون جسمها قد زاد امتلاء ولكنه لا يزال محافظا على حسن تقطيعه، أما الوجه القمحى المستدير والعينان السوداوان المكحولتان فعلى سابق عهدهما تقريبا من القسامة البارعة. ولم يرتح إلى ما رآه على صفحة الوجه والعنق من زواق كأنه كان ينتظر أن تغير أعوام القطيعة من دأبها القديم على العناية بنفسها وولعها بالتبرج لداع ولغير ما داع أى حتى فى تلك الأوقات التى تخلو فيها إلى نفسها. وجلسا جنبا إلى جنب وهى تحدق إلى وجهه بحنان تارة وتقيس طوله وعرضه بعينين معجبتين تارة أخرى ثم تمتمت بصوت متهدج:

ـ آه يا ربى لا أكاد أصدق عينى، أنا فى حلم، هذا ياسين!.. أى عمر ذهب هباء، كم دعوتك ورجوتك، وبعثت إليك الرسول تلو الرسول، ماذا أقول؟.. دعنى أسألك كيف قسا قلبك علىّ لهذا الحد؟.. كيف أعرضت عن دعواتى الحارة؟.. كيف تصاممت عن نداء قلبى المكروب؟.. كيف.. كيف؟.. كيف نسيت أن لك أمّا منزوية هنا؟

ووقف انتباهه عند الجملة الأخيرة فوجدها غريبة تدعو إلى السخرية والرثاء معا، وكأنها أفلتت منها فى ذهول الانفعال، أجل يوجد شىء، وأشياء، تذكره صباح مساء بأن له أمّا، ولكن أى شىء وأى أشياء؟!

ورفع إليها عينيه فى حيرة دون أن ينبس فالتقت عيناهما لحظة، وابتدرته المرأة قائلة:

ـ لماذا لا تتكلم؟

فخرج ياسين من حيرته بتنهدة مسموعة ثم قال وكأنه لم يجد بدا مما قال:

ـ ذكرتك كثيراً، ولكن آلامى كانت أفظع من أن تطاق.

وقبل أن يتم كلامه كان النور الذى ينبعث من نظرتها قد خمد، واحتلت الحدقتين غمامة خيبة وفتور ساقتها رياح تهب من جوف الماضى الأسيف، فلم تعد تطيق التحديق فى عينيه وخفضت جفنيها وهى تقول بلهجة حزينة:

ـ ظننتك برئت من أحزان الماضى، وإنها علم الله لا تستحق بعض ما أوليتها من غضب حملك على هجرى أحد عشر عاما.

وعجب لعتابها عجبا أحنقه، واستنكره استنكاراً ذر على غضبه المكتوم فلفلا فانفعل انفعالا لوا القصد الذى جاء من أجله لثار بركانه، أتعنى المرأة حقا ما تقول؟.. أهان عليها ما فعلت لهذا الحد؟ أم تظن به الجهل بما كان؟!.. بيد أنه ضبط أعصابه بقوة إرادته التى لم تغفل عن هدفها وقال:

ـ تقولين إنها لا تستحق غضبى؟.. أراها تستحق الغضب كل الغضب وأكثر.

فتركت ظهرها يسقط على مسند الكنبة كشىء تهدم، ورمته بنظرة بين العتاب والاستعطاف قائلة:

ـ ما وجه العيب فى أن تتزوج امرأة بعد طلاقها؟

فشعر بنيران الغضب تتأجج فى عروقه وإن لم تبد منها آثار إلا فى انطباق شفتيه ثم التصاقهما، لا زالت تتكلم ببساطة كأنها مقتنعة على يقين ببراءتها!.. وتتساءل عن وجه العيب فى أن تتزوج «امرأة» بعد طلاقها، حسن، لا عيب فى أن تتزوج «امرأة» بعد طلاقها، أما أن تكون المرأة أمه فهذا شىء آخر، شىء آخر جداً، وأى زواج الذى تعنيه؟!.. إنه زواج وطلاق ثم زواج وطلاق؟.. هناك ما هو أدهى وأمر، ذلك «الفكهانى»!.. أيذكرها به؟.. أيصفعها بما فى نفسه من مر ذكرياته؟ أيصارحها بأنه لم يعد جاهلا كما تظن؟ وأرغمته حدة الذكريات على الخروج عن اعتداله هذه المرة فقال بامتعاض شديد:

ـ زواج وطلاق، زواج وطلاق، هذه أمور شائنة لم تكن لتليق بك، ولشد ما مزقت نياط قلبى بلا رحمة.

فشبكت ذراعيها على صدرها فى استسلام اليائس وقالت بإشفاق حزين:

ـ إنه سوء الحظ ولا شىء غيره، إنى سيئة الحظ، هذا كل ما هنالك.

فبادرها قائلا، وقد تقلصت أساريره وانتفخ لغده فلفظ الكلمات كأنما يلفظ مستخبثا تعافه النفس:

ـ لا تحاولى أن تبرئى ساحتك فما يزيدنى هذا إلا ألما على ألم، من الخير أن نسدل على آلامنا ستارا يخفيها ما دمنا لا نستطيع أن نمحوها من الوجود محوا.

ولاذت بالصمت على كره والقلب يشفق إشفاقا شديداً من هائج الذكريات على طيب اللقاء وما بعثه فى نفسها من آمال، وجعلت تلحظه بقلق كأنما تستخبره عما يطوى عليه صدره، فلما ثقل عليها صمته قالت متشكية:

- لا تلج فى تعذيبى وأنت وحيدى.

ووقع الكلام من نفسه موقعا غريبا كأنما يكشف له لأول مرة، بيد أنه وجد فيه باعثًا جديداً للهياج والتوتر، إنه ابنها حقا، وأنها أمه الوحيدة كذلك، ولكن كم رجلا!.. وأشاح عنها بوجهه ليخفى ما ارتسم على صفحته من آى التقزز والغضب ثم أغمض عينيه فراراً من ذكريات مناظر بشعة، عند ذاك سمعها تقول برقة وتوسل:

- دعنى أعتقد بأن سعادتى الراهنة حقيقة لا وهم، أجل حقيقة لا وهم، وبأنك جئتنى منفضًا عن قلبك أحزان الماضى كله إلى الأبد.

فنظر إليها نظرة طويلة مركزة وشت بخطورة أفكاره إلى حين، ولم يكن شىء فى تلك اللحظة يستطيع أن يعدل به عن النفاذ إلى غرضه ولو بتأجيله، فقال بصوت يدل على أن ألفاظه التى يتفوه بها أقل بكثير من المعانى التى يوحى بها:

- هذا يتوقف عليك أنت، فإن شئت كان لك ما تحبين.

فتجلت فى عينى المرأة نظرة قلق نمت عما تعانى من إيحاء الخوف وقالت:

- إنى أرغب فى مودتك من أعماق قلبى، وطالما تمنيتها، وكم سعيت إليها فرددتنى بلا رحمة.

ولكنه كان مشغولا عن كلامها الحار بما يضطرب فى ذهنه فقال:

- بيدك ما تتمنين، بيدك أنت وحدك، إذا جعلت من الحكمة رائدك.

فتساءلت المرأة فى انزعاج:

- ماذا تعنى؟

فأحنقه تجاهلها وقال بتذمر:

- مضمون كلامى واضح، هو أن تعدلى عما لو صح ما بلغنى عنه لكان فيه الضربة القاضية علىّ!

فاتسعت عيناها وتجهم وجهها فى يأس غير خاف، وتمتمت وهى لا تدرى:

- ماذا تعنى؟

بيد أنه ظن أنها تصر على التجاهل فقال بغيظ:

- أعنى أن تلغى مشروع الزواج الجديد، وألا تسمحى لنفسك بمعاودة التفكير فى شىء من هذا القبيل، لم أعد طفلا، وليس بصبرى متسع لطعنة جديدة.

أطرقت فى حزن بالغ، ولازمت الإطراق كأنما أخذتها سنة من النوم، ثم رفعت رأسها فى بطء فلاح الحزن فى وجهها أعمق مما قدر، ثم قالت بصوت ضعيف وكأنها تخاطب نفسها :

ـ إذن جئت من أجل هذا؟!

ودون تفكير فيما يقول قال :

ـ نعـم!

فوقع جوابه كطلقة نارية فإذا بكل شىء حوله يتغير ويتبدل سريعا، ويكفهر الجو. وقد استرجع فيما بعد ـ وهو خال إلى نفسه ـ ما دار من حديث بينه وبين أمه فى هذه المقابلة فأقر أقواله جميعا حتى بلغ هذا الجواب الأخير فتردد حياله لا يدرى أأخطأ أم أصاب، وظل على تردده طويلا. أما المرأة فقد غمغمت وهى تنظر فيما أمامها :

ـ لشد ما أتمنى أن أكذب أذنى.

وأدرك أنه تعجل بعد فوات الفرصة، وسخط على نفسه حانقا، ثم صب سخطه على ما حوله. فاندفع قائلا بلا وعى مداريا خطأه بما هو أمعن فى الخطأ :

ـ إنك تفعلين ما تشائين دون تقدير للعواقب، وكنت أنا دائما الضحية التى تتلقى الإساءة بلا ذنب جنته، وقد ظننت العمر رادُّك إلى شىء من العقل فما أعجب إلا لقائل يقول إنك شارعة فى الزواج من جديد!.. يا لها من فضيحة تتجدد كل بضعة أعوام كأن لا نهاية لها.

من شدة اليأس راحت تصغى إليه فيما يشبه اللامبالاة، ثم قالت بأسى :

ـ أنت ضحية، وأنا ضحية، كلانا ضحية لما يوسوس به إليك أبوك وتلك المرأة التى تعيش فى كنفها!

وعجب لهذا الانحراف فى مجرى الحديث الذى بدا له مضحكا، بيد أنه لم يضحك، ولعله ازداد غضبا وهو يقول :

ـ ما دخل أبى وزوجه فى هذا الشأن!.. لا تتملصى من فعالك بإلقاء التهم فى وجوه الأبرياء.

فهتفت بصوت يشبه الرنين :

ـ ما رأيت ابنا أقسى منك!.. أهذا خطابك لى بعد فراق أحد عشر عاما!

فلوح بيده فى احتجاج غاضب وقال بحدة وسخط :

ـ الأم الخاطئة خليقة بأن تلد ابنا قاسيا.

ـ لست خاطئة . . لست خاطئة . . ولكنك قاس غليظ القلب كأبيك .

فنفخ فى ملل وصاح بها :

ـ رجعنا إلى أبى ! . . حسبنا ما نحن فيه . . اتقى الله وتراجعى عن الفضيحة الجديدة . . أريد أن أمنع هذه الفضيحة بأى ثمن .

ومن شدة اليأس والحزن خرج صوتها متلفعا بالبرودة وهى تقول :

ـ وماذا يهمك منها؟

فصاح فى دهش :

ـ كيف لا تهمنى فضيحة أمى؟ !

فقالت فى حزن مشوب بما تيسر من التهكم :

ـ أنت فى الحق لا تعدنى أما لك .

ـ ماذا تعنين؟

فغمغمت فى يأس متجاهلة تساؤله :

ـ ما دمت قد خلعتنى من نفسك فيجدر بك أن تدعنى وشأنى .

فهتف غاضبا :

ـ حسبى ما كان ، لن أسمح لك بتلويث سمعتى من جديد .

فقالت وهى تزدرد ريقها :

ـ لا شىء هنالك مما يلوث السمعة ، والله شهيد .

فسألها مستنكرًا :

ـ أتصرين على هذا الزواج؟ !

فصمتت مليا ، مطرقة محزونة غارقة فى اليأس ، ثم ندت عنها تنهدة عميقة ، ثم قالت بصوت لا يكاد يسمع :

ـ قضى الأمر ، وكتب العقد ، ولم يعد بوسعى منعه !

فانتفض ياسين قائما وقد تصلب جسمه البدين وعلت وجهه صفرة وركز بصره فى رأسها المطرق وهو يغلى غضبا ، ثم صاح بها بصوت كالزئير :

ـ يا لك من امرأة . . مجرمة !

فغمغمت بصوت مغموس يدل على الاستسلام المطلق :

ـ سامحك الله .

عند ذاك خطر له أن يلطمها بما يعرف ـ مما تظن أنه يجهله ـ من ماضى سيرتها، بحديث «الفكهانى» الأسود، قذيفة يصبها على رأسها بغتة فتنثره إربا ويثأر بها أفظع الثأر، وتوهج فى عينيه بريق مخيف تطاير من تحت جبهة عابسة مكفهرة تجمعت فى أخاديدها نذر الشر والوعيد، وفغر فاه ليطلق قذيفته، ولكن لسانه لم يتحرك، التصق بسقف حلقه كأنما جذبه إليه مخه الذى لم يعمه العناء عن البلاء، ومرت اللحظة الرهيبة فى سرعة الزلزال الخاطف الذى يشعر فيه الإنسان بأنفاس الموت تتردد على وجهه لحظات ثم يعود كل شىء إلى مستقره، وزفر وهو كظيم، وتراجع غير آسف وجبينه يسح عرقًا باردًا. وقد ذكر موقفه هذا ـ فيما بعد ـ فيما ذكر من مواقف هذه المقابلة الغريبة فارتاح لتراجعه كل الارتياح وإن عجب له أشد العجب، وكان أعجب ما عجبه شعوره بأنه إنما تراجع رحمة بنفسه لا رحمة بها وكأنه تستر على كرامته لا على كرامتها وإن لم يكن ثمة ما يجهله من الأمر!

وأفرغ غضبه فى كفيه فجعل يضرب واحدة على الأخرى ويقول:

ـ مجرمة! . . فضيحة مجسمة! . . كم سأضحك من غبائى كلما أذكر أننى أملت خيراً من هذه الزيارة! . . (ثم بلهجة تهكمية) . . إنى أعجب كيف طمعت بعد هذا فى مودتى؟!

فجاءه صوتها وهو يقول فى انكسار وحسرة:

ـ منتنى نفسى أن نعيش على مودة رغم كل شىء! . . وبعثت زيارتك المفاجئة فى قلبى آمالا حارة خيل إلىَّ معها أنى أستطيع أن أهبك اسمى ما فى قلبى من حب . . بلا كدر.

وابتعد عنها متقهقراً كأنما يفر من لين كلامها الذى لم يعد شىء يورّث غضبه مثلما يؤرثه. وشعر حانقا يائسا بأنه لم تعد ثمة فائدة من بقائه فى هذا الجو الكريه فقال وهو يستدير ليأخذ سمته إلى الخارج:

ـ وددت لو أستطيع قتلك . .

فغضت بصرها وقالت فى حزن بالغ:

ـ لو فعلت لأرحتنى من حياتى . .

وبلغ به الضيق النهاية فألقى عليها نظرة أخيرة مظلمة بالمقت ثم غادر المكان وأرض الحجرة ترتج تحت وقع قدميه. وعندما انتهى إلى الطريق، وأخذ يثوب إلى نفسه، ذكر لأول مرة أنه نسى حديث العقار والمال فلم يطرقه بكلمة واحدة، أنسيه كأنما لم يكن هو الباعث الأول لهذه الزيارة!

١٩

فتحت الست أمينة الباب وأدخلت رأسها وهى تقول برقتها المعهودة :

ـ أفى حاجة إلى خدمة يا سيدى الصغير؟

فجاءها صوت فهمى قائلا :

ـ تعالى يا نينة ، خمس دقائق فقط .

فدخلت المرأة مسرورة بتلبية الدعوة فرأته واقفا أمام مكتبه يلوح فى وجهه الجد والاهتمام فأخذها من يدها إلى كنبة غير بعيدة من الباب وأجلسها ثم جلس إلى جانبها وهو يتساءل :

ـ ناموا جميعا؟

وأدركت المرأة أنها لم تدع لتقديم خدمة عابرة وإلا ما كان هذا الاهتمام وهذه الخلوة فانتقل الاهتمام بسرعة إلى نفسها المطواعة للإيحاء وقالت تجيبه :

ـ ذهبت خديجة وعائشة إلى حجرتهما فى ميعاد كل ليلة ، أما كمال فقد تركته الآن فى فراشه .

كان فهمى يترقب هذه اللحظة منذ آوى إلى حجرة المذاكرة عند أول المساء فلم يستطع كعادته تركيز انتباهه فى الكتاب الذى بين يديه ، وجعل يتابع ، بين آونة وأخرى ، أحاديث أمه وشقيقتيه فى جزع لا يدرى متى ينتهين ، ثم إلى أمه وكمال وهما يحفظان معًا جملة من سورة عم . حتى ساد الصمت ثم جاءت أمه لتحييه تحية المساء فدعاها إليه وقد تناهى به توتر الانتظار . ومع أن أمه بدت كالحمامة الوديعة ، ومع أنه لم يشعر حيالها قط بتحفظ أو خوف ، إلا أنه وجد عسراً فى التعبير عما يريد الإفصاح عنه ، فعلاه ارتباك الحياء ، ومضت فترة صمت ليست بالقصيرة قبل أن يقول مختلج الجفنين :

ـ دعوتك يا نينة فى أمر يهمنى جداً .

واشتد الاهتمام بالمرأة حتى تمثله قلبها الرقيق خوفا أو شبيها بالخوف وقالت :

ـ إنى مصغية إليك يا بنى . .

فتنفس تنفسا عميقا ليخفف عن أعصابه وقال :

ـ ما رأيك فيما لو . . أعنى أليس من الممكن أن . .

وتوقف متردداً ، ثم غير لهجته قائلا برقة وتردد وارتباك :

ـ ليس لى من أفضى إليه بدخيلة نفسى إلا أنت . .

ـ طبعا طبعا يا بنى .

فقال متشجعا عما قبل :

ـ ما رأيك إذا اقترحت عليك أن تخطبى لى مريم بنت جارنا السيد محمد رضوان؟

وتلقت أمينة كلماته بدهشة أولا ، فأجابته أول ما أجابت بابتسامة تدل على الحيرة أكثر من الفرح ثم انقشع الخوف الذى قبض صدرها حينا وهى تترقب إفصاحه عما يريد ، ثم اتسعت ابتسامتها وأشرقت معلنة عن سرور صاف ، وترددت لحظات لا تدرى ماذا تقول ، ثم اندفعت قائلة :

ـ أهذه رغبتك حقا؟ . . سأقول لك رأيى صراحة . . إن يوما أمضى فيه لأخطب لك بنت الحلال لهو أسعد أيام حياتى .

فتورد وجه الشاب وقال بامتنان :

ـ شكرًا لك يا أماه . .

ورنت إليه ببسمة لطيفة وقالت برجاء :

ـ يا له من يوم سعيد ، لقد تعبت كثيرًا وصبرت كثيرًا ، وليس بالكثير على الله أن يجزينى على تعبى وصبرى بمثل هذا اليوم المرجى ، بل بأيام مثله كثيرة ليقر عينى بك ، وبأختيك خديجة وعائشة . .

وغابت عيناها فى رؤى الأحلام السعيدة التى بدا لها ما أيقظها فجأة فتراجع رأسها فى قلق كقطة أقبل نحوها كلب ، وتمتمت فى إشفاق :

ـ ولكن . . أبوك؟!

وابتسم فهمى ممتعضا وقال :

ـ من أجل هذا دعوتك للمشاورة . .

ففكرت المرأة قليلا ثم قالت وكأنها تخاطب نفسها :

ـ لا أدرى ماذا يكون موقفه من هذا الرجاء؟ . . أبوك شخص غريب ، غير الناس جميعا ، وقد يرى جريمة فيما يراه الغير شيئا عاديا .

فقطب فهمى قائلا :

ـ ليس فى الأمر ما يدعو إلى الغضب أو الاعتراض .

ـ هـذا رأيى !

ـ وغنىّ عن البيان أن الزواج سيؤجل حتى أتم دراستى وأجد لنفسى عمـلا .

ـ طبعا . . طبعا . .

ـ فيم يكون الاعتراض إذن؟!

فنظرت إليه نظرة كأنما تقول له: «ومن ذا يحاسب أباك إذا أراد أن ينبذ المنطق جانبا؟». هى التى لم تعرف حياله إلا الطاعة العمياء أصاب أم أخطأ، عدل أم ظلم، بيد أنها قالت:

ـ أرجو أن يبارك رجاءك بالقبول.

فقال الشاب بحماس:

ـ لقد تزوج أبى وهو فى سنى هذه. ولست أقصد شيئا من هذا، ولكنى سأنتظر حتى يكون الزواج طبيعيا لا اعتراض عليه من أى ناحية.

ـ ربنا يحقق رجاءنا.

وسكنا إلى الصمت مليا وهما يتبادلان النظرات. مجتمعين فى فكرة واحدة وهما عن بداهة يدريان إذ كان كلاهما يفهم صاحبه خير فهم، ويقرأ ما يدور بخاطره فى غير ما عسر. ثم قال فهمى مفصحا عما يشغلهما معا:

ـ بقى أن نفكر فيمن يفاتحه بالموضوع!

وابتسمت المرأة ابتسامة أفقدها التفكير والقلق روحها، وأدركت أن ابنها الأريب يذكرها بالواجب الذى لا يستطيع أن يؤديه أحد سواها بالأسرة، ولم تعترض على هذا لأنه لا سبيل غيره، إلا أنها قبلته على كره كما تقبل أمورًا كثيرة وهى تسأل الله حسن العاقبة، وقالت برقة وعطف:

ـ ومن غيرى يفاتحه؟.. ربنا معنا.

ـ إنى آسف.. لو كان بوسعى أن أفاتحه لفعلت.

ـ سأحدثه، وسيوافق بإذن الله. مريم فتاة جميلة، مؤدبة، من أسرة كريمة.

وسكتت لحظة ثم استدركت متسائلة كأنما خطر لها الخاطر لأول مرة:

ـ ولكن أليست هى فى مثل سنك أو تزيد؟!

فقال الفتى جزعا:

ـ لا يهمنى هذا بتاتا!

فقالت مبتسمة:

ـ على بركة الله، ربنا معنا، «ثم وهى تنهض» أدعك الآن لعناية المولى، وإلى الغد..

ومالت نحوه وقبلته ثم غادرت الحجرة وأغلقت الباب وراءها. لكن كم أدهشها أن ترى كمال جالسا على الكنبة مكبا على كراسة بين يديه فهتفت به:

ـ ما الذى عاد بك إلى هنا؟

فنهض الغلام مبتسما فى ارتباك وقال :

ـ تذكرت أنى نسيت كراسة الإنجليزى فعدت لآخذها ثم بدا لى أن استعيد الكلمات مرة أخيرة .

وذهبت معه مرة أخرى إلى حجرة النوم ولم تتركه حتى تمدد تحت الغطاء، ولكنه لم ينم . وكان النوم أعجز من أن يغلب اليقظة الماكرة التى تنبعث فى شعوره، فلم يلبث أن وثب من السرير ومضى إلى سمعه وقع أقدام أمه وهى ترقى السلم إلى الدور الأعلى، ثم فتح الباب وجرى إلى حجرة شقيقتيه ودفع بابها ودخل دون أن يغلقه ليوسع للمصباح المعلق بالصالة منفذاً يضيء منه جانبا من الظلمة الغاشية فى الداخل، وهرع إلى الفراش وهو يهمس «أبلة خديجة!»، فجلست الفتاة فى الفراش دهشة فوثب إلى جانبها وهو يلهث من الانفعال، وكأنه لم يقنع بمستمعة واحدة ليستودعها السر الذى أطار النوم من عينيه فمد يده إلى جسم عائشة وهزه، ولكن الفتاة كانت قد تنبهت إلى القادم وأزاحت عنها الغطاء ثم رفعت رأسها بين الاستطلاع والاحتجاج متسائلة :

ـ ماذا جاء بك الآن؟

لم يأبه للهجة الاحتجاج لأنه كان على يقين من أن كلمة واحدة يشير بها إلى سرِّه خليقة بأن تقلبهما رأسا على عقب، وقفز لهذا قلبه بهجة وسروراً، ثم قال هامسًا كأنه يحاذر أن يسمعه رابع :

ـ عندى سر غريب .

فسألته خديجة :

ـ أى سر هذا؟! . . هات ما عندك وأرنا شطارتك . .

ولم يعد باستطاعته الكتمان فقال :

ـ أخى فهمى يريد أن يخطب مريم . .

عند ذاك جلست عائشة فى الفراش بدورها فى حركة آلية سريعة كأنما التصريح رشة ماء بارد ألقيت فى وجه وسنان، وتقاربت الأشباح الثلاثة فى شكل هرمى كما بدا على الضوء الخافت النافذ إلى الحجرة والمنعكس على أرضها فيما يلى الباب المفتوح على هيئة متوازى الأضلاع مذبذب الأطراف تبعا لذبذبة ذبالة المصباح الذى تعرض ـ بترك الباب مفتوحا ـ إلى تيار وإن نسم من خصاص النافذة إلى الصالة فى لطف همسات تذيع سراً، ثم تساءلت خديجة فى اهتمام :

ـ كيف عرفت هذا؟

ـ تركت فراشى لأحضر كراسة الإنجليزى، وعند باب أخى جاءنى صوته وهو يتكلم فلبدت فى الكنبة . .

ثم أعاد على مسمعيهما ما تسرب إليه من وراء الباب الموارب وهما ينصتان إليه فى اهتمام مَلك عليهما الأنفاس حتى فرغ من حديثه ، وهنا تساءلت عائشة كأن بها حاجة إلى المزيد من الاقتناع :

- أتصدقين هذا؟

فقالت خديجة بصوت كأنه ينبعث من تليفون بمدينة بعيدة :

- أتتصورين أن يخترع هذا «مشيرة إلى كمال» حكاية طويلة عريضة كهذه؟

- لك حق «ثم ضاحكة لتخفف من حدة اهتمامها» اختلاق موت غلام فى الطريق شيء ، أما هذه الحكاية فشيء آخر .

فتساءلت خديجة دون أن تلقى بالا إلى احتجاج كمال الذى اعترض على التعريض به :

- كيف وقع هذا يا ترى؟!

فضحكت عائشة قائلة :

- ألم أقل لك مرة أنى أشك فى أن اللبلاب هو الذى يدعو فهمى إلى السطح كل يوم؟!

- إنه اللبلاب الآخر الذى التف حول ساقه هو .

فترنمت عائشة بصوت خفيض :

- لا ملام عليك يا عيونى فى حبه .

فنهرتها خديجة قائلة :

- هس . . ليس هذا وقت الغناء . . مريم فى العشرين وفهمى فى الثامنة عشرة . . كيف توافق نينة على هذا؟!

- نينة؟! . . نينة حمامة وديعة لا تدرى كيف تقول لا ، ولكن صبرا ، أليس من الحق أو أقول إن مريم جميلة وطيبة؟! . . ثم إن بيتنا هو البيت الوحيد فى الحى الذى لم يعرف الأفراح بعد .

كانت خديجة - كعائشة - تحب مريم ، ولكن الحب لم يستطع أبدا أن يخفى عن عينيها مواضع الانتقاد فى المحبوب أيّا كان شأنه ، فلم يكن يعجزها - عند الضرورة - الوقوف عند مواضع الانتقاد فحسب ، ولما كانت سيرة الزواج تثير مخاوفها الكامنة ، وغيرتها ، فقد انقلبت على صديقتها دون مشقة ، وأبى قلبها أن يقبلها زوجة لأخيها ، ومضت تقول :

- مجنونة أنت؟! . . مريم جميلة ولكنها دون فهمى بمراحل بعيدة . . فهمى يا حمارة طالب بالعالى ، وسيكون قاضيا يوما ما ، فهل تتصورين مريم زوجا لقاضى كبير

المقام؟! . . إنها مثلنا على أكثر تقدير، بل هى دوننا فى أكثر من ناحية ولن تتزوج إحدانا بقاض!

وتساءلت عائشة فى نفسها: «من قال القاضى أحسن من الضابط!»، ثم سألتها محتجة:

- لم لا؟!

فواصلت الأخرى حديثها دون اهتمام باعتراضها:

- يستطيع فهمى أن يتزوج بفتاة أجمل من مريم مائة مرة، وفى نفس الوقت تكون متعلمة وغنية وبنت بك أو حتى بنت باشا، فلماذا يتسرع بخطبة مريم؟! . . ما هى إلا أمية طويلة اللسان، أنت لا تعرفينها كما أعرفها.

وأدركت عائشة أن مريم انقلبت فى نظر خديجة إلى جملة من العيوب والنقائص، بيد أنها لم تتمالك نفسها - حيال وصفها بطول اللسان تلك الصفة التى لخديجة منها أكبر نصيب - من أن تبتسم مستترة بالظلمة، وتحاشت إثارتها فقالت بتسليم:

- لندع الأمر لله . .

فقالت خديجة بثقة وإيمان:

- الأمر لله فى السماء ولأبى فى الأرض وسوف نرى ماذا يكون رأيه غدا . . «ثم موجهة الخطاب إلى كمال» . . آن لك أن تعود إلى سريرك بسلام.

عاد كمال إلى حجرته وهو يقول لنفسه «لم يبق إلا ياسين، وسأخبره غدا».

٢٠

جلست خديجة وعائشة القرفصاء متواجهتين لصق الضلفة المغلقة من باب حجرة الوالدين بالدور الأعلى وهما تكتمان أنفاسهما فى حذر وتمدان آذانهما إلى الداخل فى اهتمام وتلقف. كان الوقت قبيل العصر بقليل، وكان السيد قد نهض من قيلولته فتوضأ وجلس كعادته يحتسى القهوة منتظرا الأذان ليصلى قبل عودته إلى الدكان، فتوقعت الأختان أن تفاتح الأم أباهما فى الأمر الاذى أنبأهما عنه كمال، إذ لم يكن أنسب لذلك الغرض من هذا الوقت. وتناهى إليهما من الداخل صوت أبيهما الجهورى وهو يتحدث عن أمور البيت العادية فأنصتتا فى جزع وترقب وهما تتبادلان النظر متسائلتين حتى سمعتا أخيرا الأم وهى تقول فى أدب بالغ ولهجة خاشعة:

- سيدى، إذا أذنت لى حدثتك عن شأن رجانى فهمى أن أبلغك إياه.

عند ذاك أومأت عائشة بذقنها إلى الداخل كأنها تقول «هذا هو الحديث» على حين راحت خديجة تتخيل حال أمها وهى تتهيأ للكلام الخطير فرقّ قلبها لها وعضت على شفتها فى إشفاق شديد، ثم جاءهما صوت السيد وهو يتساءل:

ـ ماذا يريد؟

وساد الصمت قليلا، أو طويلا بالقياس إلى اللتين تسترقان السمع، ثم قالت المرأة برقة:

ـ فهمى يا سيدى شاب طيب، حاز رضاك بجده وتفوقه وأدبه، حماه الله من شر الأعين، ولعله بلّغنى رجاءه إدلالا بمنزلته عند والده.

فقال الأب بلهجة تخيلتاه معها راضيا:

ـ ماذا يريد؟ . . تكلمى.

ومال رأساهما نحو الباب وكل منهما تحملق فى الأخرى ولا تكاد تراها فجاءهما الصوت المتهافت وهو يقول:

ـ سيدى يعرف جارنا الطيب السيد محمد رضوان . . ؟

ـ طبعا . .

ـ رجل فاضل مثل سيدى وأسرة كريمة وجيران ولا كل الجيران.

ـ نعم . .

واستطردت بعد تردد:

ـ فهمى يسأل يا سيدى هل يجيز له والده أن . . يخطب مريم كريمة جارنا الطيب لتبقى على ذمته حتى يصير أهلا للزواج؟

وهنا علا صوت السيد وقد غلظت نبراته بالغضب والاستنكار:

ـ يخطب؟! . . ماذا تقولين يا ولية؟ . . هذا الغلام! . . ما شاء الله . . أعيدى على سمعى ما قلت . .

فقالت الأم بصوت متهدج وقد تخيلتها خديجة وهى تنكمش فى ذعر:

ـ ليس إلا أنه يتساءل، مجرد تساؤل يا سيدى والأمر لك . .

فقال الصوت المتفجر بالغضب:

ـ لا عهد لى ولا له بهذا التدلل المائع، ولا أدرى ما الذى أتلف تلميذا حتى يتمادى فى مطالبه إلى هذا الحد؟ . . ولكن أمّا مثلك خليقة بأن تفسد أبناءها، فلو كنت أمّا كما ينبغى لما جسر على مفاتحتك بمثل هذا الهذر الوقح.

ركب الفتاتين خوف ووجوم خالطهما فى قلب خديجة ارتياح، ثم سمعا صوت الأم المستخذى وهى تقول:

ـ لا تجشم نفسك مشقة الغضب يا سيدى، كل شىء يهون إلا غضبك، ما قصدت من ناحيتى إساءة قط، ولا تخيلها ابنى وهو يحملنى رغبته ببراءة، ولكنه رجانى بحسن نية فرأيت أن أعرض الأمر عليك، وما دام هذا هو رأيك فسأبلغه إياه، وسيذعن له بكل خضوع كما يذعن لأمرك دائما.

ـ سيذعن أراد أم لم يرد، ولكنى أريد أن أقول لك إنك أم ضعيفة لا يرجى منها خير.

ـ إنى أتعهدهم بما توصى به.

ـ خبرينى عما دعاه إلى التفكير فى هذا الرجاء؟

وأرهفت الفتاتان السمع فى اهتمام وانزعاج وقد فاجأهما هذا السؤال الذى لم يتوقعاه، ولكنهما لم تسمعا لأمهما جوابا وتصورتاها وهى ترمش فى ارتباك وخوف فعطف قلباهما فى إشفاق شديد:

ـ ماذا أخرسك؟ . . خبرينى هل رآها؟

ـ كلا يا سيدى، إن ابنى لا يرفع عينيه إلى جارة ولا إلى غيرها.

ـ كيف رغب فى خطبتها دون أن يراها؟ . . ما كنت أحسب أن لى أبناء يسترقون النظر إلى حرمات الجيران!

ـ معاذ الله يا سيدى معاذ الله . . إن ابنى إذا سار فى الطريق لا يلتفت يمنة ولا يسرة، وهو فى البيت لا يكاد يغادر حجرته إلا لضرورة.

ـ ما الذى دعاه إلى طلابها إذن؟

ـ لعله يا سيدى سمع شقيقتيه وهما تتحدثان عنها.

وسرت فى بدن الفتاتين رعدة شديدة ففغرتا ثغريهما فى فزع وهما تنصتان.

ـ ومتى كانت شقيقتاه خاطبتين! . . يا سبحان الله أينبغى أن أهجر دكانى وعملى وأقبع فى البيت لأضبطه وأدفع عنه الفساد!

فهتفت الأم فى نبرات باكية:

ـ بيتك أشرف البيوت، بالله يا سيدى إلا ما هونت عليك الغضب، انتهى الأمر وكأن ما كان لم يكن.

فصاح الرجل بصوت ملؤه الوعيد:

ـ قولى له أن يتأدب ويستحى ويلزم حدوده، وأن من الخير أن يتفرغ لدروسه.

وسمعت الفتاتان حركة فى الداخل فقامتا فى حذر وابتعدتا عن الباب على أطراف أصابعهما.

رأت الست أمينة أن تغادر الحجرة كشأنها إذا ند عنها عفوا ما يثير غضبه فلا تعود إليها بعد ذلك إلا إذا دعاها، إذ علَّمتها التجربة أن مكثها بين يديه حال الغضب ثم سعيها إلى تسكينه برقيق الكلام لا يزيد النار إلا استعارا. ووجد السيد نفسه وحيدا فزايلته آثار الغضب المحسوسة التى تثور عادة فى عينيه وبشرة وجهه وحركات يديه وكلامه، ولكن بقى الغضب فى أعماق صدره كالعكارة فى قعر القدر.

من المحقق أنه كان يغضب فى البيت لأتفه الأسباب لا اتباعا لخطته الموضوعة فى سياسة بيته فحسب، ولكن مدفوعا كذلك بحدة طبعه التى لا تشكمها بين آلة فرملة الكياسة التى يتقن استعمالها خارج البيت، وربما ترويحا عما يعانى بين الناس كثيرا من ضبط النفس والتسامح واللطف ومراعاة الخاطر واكتساب القلوب بأى ثمن، وليس بالنادر أن يتضح له أنه استسلم للغضب فى غير موجب ولكنه حتى فى تلك الحال لا يندم على ما فرط منه لاعتقاده بأن غضبته للتافه من الأمر عسية بأن تمنع وقوع الخطير منه مما يستحق الغضب عن جدارة، بيد أنه لم يعد ما بلغه عن فهمى ذلك اليوم هفوة تافهة بل رأى فيها نزوة قبيحة لا يجوز أن تعتلج فى نفس تلميذ من آل بيته، وما كان يتصور أن تتسرب «العواطف» إلى بنيان البيت الذى يحرص على أن يشب فى جو من النقاء الصارم والطهارة المنقشعة، ثم جاءت صلاة العصر فرصة طيبة لرياضة النفس خرج منها أهدأ قلبا وأروح بالا، فوسعه أن يتربع على سجادة الصلاة ويبسط راحتيه ويسأل الله أن يبارك له فى ذريته وماله، وأن يدعو خاصة لفخر أبنائه بالهدى والرشاد والتوفيق. فلما أن غادر البيت كان تجهمه مظاهرة يراد بها التخويف لا أكثر. وفى الدكان التقى ببعض الأصدقاء فقص عليهم «نادرة اليوم» لا كفاجعة لأنه يكره أن يلقى أحدا بالفاجعات، ولكن كدعابة سخيفة، فعلَّقوا عليها بما حلا لهم من المزاح، فلم يلبث أن شاركهم مزاحهم، فغادروه وهو يقهقه فى غير تحفظ. بدت له «النادرة» فى الدكان على غير ما بدت فى حجرته بالبيت. وأمكنه أن يضحك منها، بل وإن يعطف عليها، حتى قال لنفسه أخيرا باسمًا راضياً «من شابه أباه فما ظلم».

٢١

حين مرق كمال من باب البيت كان المساء يزحف فى خطوات حاسمة غاشيا الطرقات والأزقة والمآذن والقباب، ولعله لم يعدل بسروره بهذه الخرجة المفاجئة التى قل أنت تتاح له فى مثل ذاك الوقت المتأخر إلا زهوه بالرسالة الشفوية التى حمله إياها فهمى، فلم يغب عنه أنه عهد بها إليه وحده دون غيره، فى جو من السرية والتكتم الأمر الذى أضفى عليها

ـ وعليه بالتالى ـ أهمية خاصة أحسها قلبه الصغير ورقص لها طربا وفخارا . وتساءل فى عجب عما زلزل فهمى حتى ركبته حال من القلق والحزن بدا فى لباسها القاتم شخصا غريبا لم يره ولم يسمعه من قبل ، هو مثال وحده ، إن أباه يثور كالبركان لأتفه الأسباب ، وإن ياسين على حلاوة حديثه قابل للالتهاب ، حتى خديجة وعائشة لا تخلوان من نوبات عفرتة ، هو مثال وحده ، ضحكه ابتسام وغضبه تقطيب ، وهدوءه عميق على صدق عواطفه وأصالة حماسه ، فلم يذكر أنه رآه على الحال التى رآه عليها اليوم . لن ينسى كيف خلا إليه فى حجرة المذاكرة ، بصر زائغ وصوت متهدج ، ولا كيف خاطبه لأول مرة فى حياته بلهجة توسل حارة عجب لها أشد العجب حتى استوجب حفظ الرسالة التى حملها أن تكرر عليه مرات ومرات . وقد أدرك من فحوى الرسالة نفسها أن للأمر صلة وثيقة بالحديث الغريب الذى استرق السمع إليه من وراء الباب ، والذى نقله إلى شقيقتيه فأثار بينهما جدلا ونزاعا ، وبالجملة أنه يتعلق بمريم ، تلك الفتاة التى كثيراً ما تعابثه ويعابثها ، ويأنس إليها حينا ويضجر منها حينا آخر ، دون أن يعرف لها هذه الخطورة التى أحاطت بهدوء أخيه وسلامته ، مريم؟! . . لماذا استطاعت دون سائر البشر أن تفعل هذا كله بأخيه العزيز الرائع!! ، ووجد فى الجو غموضا ، كذاك الغموض الذى يكتنف حياة الأرواح والأشباح ، والذى طالما استثار حب استطلاعه وخوفه ، فتوثب قلبه للنفاذ إلى مكنون سره فى تطلع وحيرة ولكن حيرته لم تصرفه عن تسميع الرسالة لنفسه كما سمعها لأخيه من قبل حتى يضمن ألا يضيع منه حرف واحد من مضمونها ، فمر تحت بيت آل رضوان وهو يستعيدها ، ثم مال إلى أول عطفة تليه حيث يوجد باب البيت ، لم يكن البيت بالغريب عنه ، فطالما تسلل إلى فنائه الصغير حيث تنزوى فى ركن منه عربة يد مندثرة العجلات كان يركبها مستعينا بخياله على إصلاح عجلاتها وتحريكها حيث شاء ، وطالما تردد بين حجراته بغير استئذان فقوبل بالترحيب والمداعبة من ربة البيت وابنتها اللتين يعدهما «على حداثة سنه» صديقتين قديمتين ، فكان يألف البيت بحجراته الثلاث التى تتوسطها صالة صغيرة وضعت بها ماكينة خياطة وراء النافذة التى تطل على حمام السلطان مباشرة كما يألف بيته بحجراته الواسعة وبصالته الكبيرة حيث يجتمع مجلس القهوة مساء بعد مساء . وإلى هذا خلفت بعض متعلقات البيت أثرا فى نفسه استجابت له عهدا طويلا من صباه ، كعش يمامة فى أعلى المشربية المتصلة بحجرة مريم الذى تبدو حافته فوق ركن المشربية الملتصق بالجدار كقطع من محيط دائرة يشتبك حوله القش والريش ويلوح منه أحيانا ذيل اليمامة الأم أو منقارها كيفما اتفق وضعها فيتطلع إليه تتنازعه رغبتان ، إحداهما ـ وهى المنبعثة من نفسه ـ تدعوه إلى العبث به واختطاف الصغار ، والأخرى ـ وهى المكتسبة عن أمه ـ توقفه عند حد التطلع والعطف والمشاركة الخيالية فى حياة اليمامة وأسرتها ، وكصورة للسفيرة عزيزة معلقة بحجرة مريم أيضا زاهية

الألوان رقراقة البشرة وسيمة القسمات فاقت بجمالها الحسناء التى تطالعه صورتها عصر كل يوم بدكان ماتوسيان فكان يديم النظر إليها متسائلا عن «حكايتها» فتقص عليه مريم من أنبائها ما تعلم وما لا تعلم بزلاقة لسان تستهويه وتستأثره، لم يكن البيت بالغريب عليه إذن، فشق سبيله إلى الصالة دون أن يشعر به أحد، وألقى على أولى الحجرات نظرة عابرة فلمح السيد محمد رضوان راقدا فى فراشه كما اعتاد أن يراه منذ سنوات. كان يعلم أن الشيخ مريض، وقد سمع عنه كثيرا أنه مشلول، حتى سأل أمه مرة عن معنى الشلل.. فجزعت وراحت تستعيذ بالله من شر الاسم الذى نطق به فانكمش متراجعا، ومنذ ذاك اليوم والسيد يستثير رثاءه واستطلاعه المقرون بالخوف. ثم مر بالحجرة التالية فرأى أم مريم واقفة أمام المرآة وبيدها ما يشبه العجين تمطه فوق خدها وعنقها وتجذبه جذبات سريعة متتابعة ثم تتحسس موضعه من بشرتها بأناملها لتعرف مسه وتطمئن إلى نعومته. ومع أنها كانت فوق الأربعين إلا أنها كانت بارعة الحسن كابنتها، شغوفة بالضحك والدعابة، فما تلقاه حتى تقبل عليه فى مرح فتقبله ثم تسأله فيما يشبه نفاد الصبر «متى تبلغ رشدك لأتزوجك؟» فيعلوه الحياء والارتباك وإن استلذ مداعباتها وود الإكثار منها. وكم أثارت فضوله هذه العملية التى تعكف عليها من حين لآخر أمام المرآة، وقد سأل أمه عنها مرة فنهرته ـ والنهر أقصى ما تمارس من ضروب التأديب ـ مؤنبة إياه على سؤاله عما لا يعنيه، بيد أن أم مريم أكبر سماحة ورقة فلما لحظته مرة يرمقها بدهشة أوقفته على مقعد أمامها ولزقت بأنامله ما حسبه أول الأمر عجينة وبسطت له صفحة وجهها وقالت ضاحكة «اشتغل وأرنى شطارتك» فمضى يقلد حركاتها حتى أثبت لها شطارته بخفة غبطته عليها، ولكنه لم يقنع بلذة التجربة فسألها «لماذا تفعلين هذا؟» فقهقهت «هلا انتظرت عشرة أعوام أخرى حتى تعرف بنفسك؟!، ولكن لا داعى للانتظار أليست البشرة الناعمة أحسن من الخشنة؟.. هذه هى؟». وقد مر ببابها بخفة حتى لا يشعرها بنفسه لأن رسالته كانت أخطر من أن تسمح له بمقابلة أحد إلا مريم وحدها. التى وجدها فى الحجرة الأخيرة متربعة على فراشها تقزقز لبًا وبين يديها طبق فنجان قد امتلأ بالقشر فلما رأته قالت بدهشة:

ـ كمال!.. «كادت تسأله عما جاء به فى هذه الساعة ولكنها عدلت عما همت به أن تخيفه أو تخجله».. شرفت البيت.. تعال اجلس إلى جانبى.

فمد لها يده بالسلام. ثم فك أزرار حذائه ذى الرقبة الطويلة وخلعه، ووثب إلى الفراش فى جلباب مقلم وطاقية زرقاء منمنمة بخطوط حمراء. وضحكت مريم ضحكاتها الرقيقة ودست فى يده شوية لب وهى تقول:

ـ قزقز يا عصفور وحرك أسنانك اللؤلؤية.. أتذكر يوم عضضت معصمى وأنا أدغدغك.. هكذا.

ومدت يدها صوب إبطه ولكنه ـ بحركة عكسية ـ شبك ذراعيه على صدره ليحمى إبطيه، وندت عنه ضحكة عصبية كما لو كانت أناملها دغدغته بالفعل، ثم هتف بها :

ـ فى عرضك يا أبلة مريم .

فأمسكت عنه وهى تتعجب من خوفه قائلة :

ـ لماذا يقشعر بدنك من الدغدغة؟! . . انظر كيف لا أبالى بها .

وراحت تدغدغ نفسها باستهانة وهى ترميه بنظرة ازدراء فلم يملك أن قال لها متحديا :

ـ دعينى أدغدغك أنا وسنرى!

فما كان منها إلا أن رفعت ذراعيها فوق رأسها فغرس أصابعه تحت إبطيها وراح يدغدغهما بما وسعه من خفة وسرعة، مثبتا عينيه فى عينيها السوداوين الجميلتين ليتلقف أول بادرة تضعضع عنها، حتى اضطر أن يسترد يديه متنهداً فى يأس وخجل فشيعته بضحكة رقيقة ساخرة وقالت :

ـ أرأيت أيها الرجل الصغير العاجز! . . لا تزعم أنك رجل بعد اليوم «ثم بلهجة من تذكر أمرا هاما بغتة» . . يا داهيتى! . . نسيت أن تقبلنى! . . ألم أنبه عليك مراراً بأن تكون تحية لقائنا قبلة؟!

وأدنت وجهها منه فمد شفتيه ولثم خدها، ثم رأى فتاتا من اللب المتسرب من زاوية فيه قد التصق بخدها فأزاله بأنامله فى حياء، أما مريم فتناولت ذقنه بأنامل يمناها وقبلت شفتيه مرة ومرة، ثم سألته فيما يشبه الإعجاب :

ـ كيف استطعت أن تفلت من بين أيديهم فى هذه الساعة؟! لعل تيزة تبحث عنك الآن فى كل حجرات البيت .

آه لقد استنام إلى الحديث واللعب حتى أوشك أن ينسى الرسالة التى جاء من أجلها، ولكن تساؤلها ذكره بمهمته فرنا إليها بعين أخرى . العين التى تود أن تنقب فى ذاتها عن السر الذى زلزل أخاه الرزين الطيب . إلا أن تشوفه تهافت حيال شعوره بأنه يحمل أنباء غير سارة، فقال بوجوم :

ـ فهمى الذى أرسلنى .

ارتسمت فى عينيها نظرة جديدة تفيض جدا، وتفرست فى وجهه باهتمام لترى ما وراءه فشعر بأن الجو قد تغير كأنما انتقل من فصل إلى فصل، ثم سمعها تسأل بصوت خافت :

ـ لمـــه؟!

فقال لها بصراحة دلت على أنه لـم يقدر خطورة الأنباء التى يحـملها رغم شعوره الفطرى بخطورتها :

ـ قال لى بلغها تحياتى وقل لها إنه استأذن والده فى خطبتها ولكنه لم يوافق على أن يعلن خطبته وهو تلميذ، وطلب إليه أن ينتظر حتى يتم دراسته.

كانت تحدق إلى وجهه باهتمام شديد فلما بلغ السكوت خفضت عينيها دون أن تنبس بكلمة، فغشيت الجلسة صمتة واجمة ضاق بها قلبه الصغير، وتلهف على كشفها مهما كلَّفه الأمر فقال:

ـ إنه يؤكد لك أن الرفض جاء على رغمه وأنه يتعجل السنين حتى يحقق ما يتمنى.

ولما لم يجد لكلامه أثرا فى إخراجها من غشاوة الصمت إزداد تلهفه على إعادتها إلى ما كانت عليه من بهجة ومرح فقال بإغراء:

ـ هل أحدثك عما دار بين فهمى وبين نينة من حديث عنك؟

فتساءلت بلهجة بين الاكتراث وعدمه:

ـ ماذا قال وماذا قالت؟

فانشرح صدره بهذا النجاح الجزئى وقص عليها ما ترامى إليه من حديث من وراء الباب حتى أتى عليه، فخيل إليه أنها تتنهد، ثم قالت بتبرم:

ـ إن والدك رجل شديد مخيف، الكل يعرفه هكذا.

فقال وهو لا يدرى:

ـ نعم.. أبى كذلك.

ورفع رأسه إليها فى خوف وحذر ولكنه وجدها كالغائبة، فسألها متذكرا ما وصاه به أخوه:

ـ ماذا أقول له؟

فضحكت من أنفها وهى تهز كتفيها، وهمت بالكلام، ولكنها أمسكت متفكرة مليًا، ثم قالت وقد التمعت فى عينيها نظرة ماكرة:

ـ قل له إنها لا تدرى ماذا تفعل لو تقدم لها خاطب فى أثناء هذه المدة الطويلة من الانتظار!

وعنى كمال بحفظ الرسالة الجديدة أكثر مما عنى بفهمها، وسرعان ما شعر بأن مهمته قد انتهت فأودع بقية اللب جيب جلبابه، ومد لها يده بالسلام، ثم انزلق إلى أرض الحجرة خارجا.

٢٢

بدت عائشة وهى تنظر فى المرآة شديدة الإعجاب بنفسها، دون الأسرة اللامعة، بل أى فتاة فى الحى كله تتحلى بمثل هذه الخصلات الذهبية وهاتين العينين الزرقاوين؟!.. إن ياسين يتغزل بها جهاراً، وفهمى لا يخلو إذا تحدث إليها لأمر أو لآخر من نظرات تنم عن الإعجاب، حتى كمال الصغير لا يحلو له الشراب من قلَّة إلا من الموضوع المبتل بريقها، وهذه أمها تدللها فتدعوها «قمر» وإن لم تخف قلقها نحو نحافتها ورقتها الأمر الذى جعلها تحث أم حنفى على تركيب وصفة لتسمينها. أما عائشة فلعلها كانت أعرف الجميع بحسنها البارع كما تدل عليه عنايتها الشديدة به واستئناسها إليه، على أن هذه العناية المفرطة لم تمر بخديجة دون تعليق، بل مؤاخذة وتقريع، لا لأنها تستنيم إلى الإهمال فالحق أن خديجة هى الوريثة الأولى لأمها فى الواقع بالنظافة والأناقة، ولكن لأنها رأت الفتاة تستقبل النهار عادة بتمشيط شعرها وإصلاح هندامها حتى قبل القيام بواجبات المنزل كأنها لا تطيق أن يبقى جمالها ساعة من العمر غير محاط بالعناية والرعاية، ولكن لم تكن العناية بالجمال وحدها هى الباعث على هذا التجمل الباكر، فعند ذهاب الرجال كل إلى عمله - تأوى إلى حجرة الاستقبال وتفرج بين ضلفتى الشباك المطل على بين القصرين زيقا رقيقا فتقف وراءه مادة بصرها إلى الطريق يعلوها قلق الانتظار واضطراب الخوف. هكذا وقفت ذاك الصباح فظل طرفها حائراً ما بين حمام السلطان وسبيل بين القصرين وفؤادها الفتى يواصل خفقاته حتى تراءى عن بعد «المنتظر» وهو ينعطف قادما من الخرنفش خاطرا فى بذلته العسكرية والنجمتان تلمعان على كتفه، وجعل كلما اقترب من البيت يرفع فى حذر عينيه دون رأسه، حتى تدانى من البيت فهفت فى أساريره ابتسامة خفيفة اية فى الخفة - تدرك بالقلب أكثر مما تدرك بالحواس - كأنها الهلال فى ليلته الأولى، ثم اختفى تحت المشربية فاستدارت فى عجلة لتتابع مشاهدته من النافذة الأخرى المطلة على النحاسين فما راعها إلا أن ترى خديجة منتصبة على الكنبة بين النافذتين ملقية بنظرها على الطريق من فوق رأسها!

فرت منها آهة، واتسعت عيناها فى رعب فاضح، فتسمرت فى موقفها.. متى وكيف جاءت!.. كيف علت الكنبة دون أن تشعر بها؟!.. وماذا رأت؟!.. متى وكيف وماذا؟.. أما خديجة فقد ثبتت بصرها وهى تضيق عينيها رويداً صامتة، مطيلة الصمت كأنما لتطيل تعذيبها، ثم تمالكت عائشة بعض نفسها فخفضت عينيها فى جهد شديد ومالت نحو الفراش متظاهرة - عبثا - بضبط الأعصاب وهى تغمغم:

ـ أرعبتنى يا شيخة!

لم تبد خديجة اكتراثا، ظلت بموقفها على الكنبة وعيناها إلى الطريق خلل الزيق.. ثم تمتمت ساخرة:

ـ أرعبتك؟.. اسم الله عليك!.. أصلى بعبع!

وعضت عائشة على نواجذها فى غيظ وحنق ويأس بعد أن تراجعت قليلا إلى مأمن من عينيها، إلا أنها قالت بصوت هادىء:

ـ رأيتك فجأة فوق رأسى دون أن أشعر بدخولك، لماذا تسترقين الخطو؟

فوثبت خديجة إلى الأرض، ثم جلست على الكنبة فى استرخاء ساخر وهى تقول:

ـ آسفة يا أختى، فى المرة القادمة سأعلق جرسا فى عنقى مثل عربة المطافىء لتنتبهى إلى حضورى فلا ترتعبى.

فقالت عائشة فى ضيق والرعب لم يفارقها.

ـ لا لزوم لتعليق الجرس، حسبك أن تسيرى كالناس الذين خلقهم ربنا.

فقالت الأخرى بنفس اللهجة الساخرة وهى ترميها بنظرة ذات معنى:

ـ ربنا يعلم أنى أسير كالناس الذين خلقهم، ولكن الظاهر أنك إذا وقفت وراء النافذة ـ أقصد وراء هذا الزيق ـ استغرقت فيما أمامك بحيث تفقدين الوعى بما حولك فلا تبقين كالناس الذين خلقهم ربنا.

فنفخت عائشة مغمغمة:

ـ هكذا أنت دائما:

وعادت خديجة إلى الصمت قليلا، ثم حولت عينيها عن فريستها، ورفعت حاجبيها كأنما تفكر فى مشكل عسير، ثم تظاهرت بالسرور كأنما اهتدت للحل الموفق، وقالت مخاطبة نفسها هذه المرة دون أن تنظر إلى الأخرى:

ـ إذن لهذا فهى تغنى كثيراً «يابو الشريط الأحمر يا للى أسرتنى ترحم ذلى!». وكم حسبته بسلامة نيتى غناء بريئا لمجرد التسلية!

وخفق قلب الفتاة خفقة قاسية، وقع المحذور ولم يعد ينفع التعلق بأوهام الأمانى الكاذبة، وركبها اضطراب زلزل أركان نفسها فكادت تشرق بالبكاء، إلا أن اليأس نفسه دفعها إلى الاستماتة فى الذود عن نفسها فهتفت بصوت طمس اضطراب نبراته معانيه:

ـ ما هذا الكلام غير المفهوم؟!

ولكنى لم يبد على خديجة أنها سمعت كلامها فواصلت مخاطبة نفسها قائلة:

ـ ولهذا أيضا تتزين فى الصباح الباكر! طالما ساءلت نفسى أيعقل أن تتبرج بنت قبل

الكنس والمسح والتنفيض؟! ولكن أى كنس وأى تنفيض يا خديجة يا مسكينة، يا من ستعيشين بلهاء، وتموتين بلهاء، اكنسى أنت ونفضى أنت، ولا تتزينى لا قبل العمل ولا حتى بعده، ولماذا تتزينين يا تعيسة؟! . . انظرى من زيق الشباك من اليوم إلى الغد فإن اعتنى بك عسكرى دورية أقطع ذراعى!

فهتفت عائشة فى اضطراب وعصبية:

ـ حرام عليك . . حرام .

ـ لها حق يا خديجة، هذه فنون لا تستطيعين فهمها بعقلك المظلم، عيون زرق، وشعر من سبائك الذهب، شريط أحمر ونجمة لامعة، شىء مفهوم، شىء مفهوم ومعقول .

ـ خديجة، أنت مخطئة، كنت أنظر إلى الطريق فحسب، لا لأرى أحداً ولا ليرانى أحد .

فالتفتت خديجة إليها كأنما تنتبه إلى اعتراضها لأول مرة وتساءلت كالمعتذرة هل تخاطبيننى يا شوشو؟! لا مؤاخذة إنى أفكر فى بعض الأمور الهامة فأجّلى حديثك إلى حين .

وعادت تهز رأسها فى تفكير وتخاطب نفسها قائلة:

ـ شىء مفهوم ومعقول، ولكن ما ذنبك أنت يا سيد أحمد عبد الجواد؟ أسفى عليك يا سيد يا شريف يا كريم، تعال شوف حريمك يا سيدى وتاج راسى!

وقف شعر الفتاة عند سماع اسم أبيها، فدار رأسها، ورد على ذهنها قول السيد لأمها وهو يحمل على رغبة فهمى فى خطبة مريم: «أخبرينى هل رآها؟!» . . «ما كنت أحسب أن لى أبناء يسترقون النظر إلى حرمات الجيران» هذا رأيه فى الابن فكيف يكون فى البنت! وهتفت بصوت مخنوق النبرات:

ـ خديجة . . لا يليق هذا . . أنت مخطئة . . أنت مخطئة .

ولكن خديجة تابعت حديثها دون التفات إليها:

ـ ترى أهذا هو الحب؟! . . يمكن! . . ألم يقولوا عنه: «الحب كبش فى قلبى . . قربت أروح منه طوكر» .

ترى أين طوكر هذه؟! . . لعلها فى النحاسين، بل لعلها فى بيت السيد أحمد عبد الجواد .

ـ لم أعد احتمل كلامك، ارحمينى من لسانك، رباه . . لماذا لا تصدقيننى؟!

ـ تدبرى أمرك يا خديجة ليس ما نحن فيه لعبا، وأنت الأخت الكبرى، والواجب هو الواجب مهما بدا مرّاً، يجب أن يعلم أولو الشأن، هل تفضين بالسر إلى

والدك؟! . . الحق أنى لا أدرى كيف أخاطبه فى مثل هذا السر الخطير، ياسين؟! . ولكنه كعدمه وغاية ما يرجى منه أن يترنم بكلام غير مفهوم، فهمى؟ ولكنه يعطف بدوره على الشعر الذهبى أصل البلوى كلها، أظن من الأفضل أن أخبر نينة، وأترك لها التصرف بما ترى.

وندت عنها حركة كأنها تهم بالقيام فهرعت عائشة إليها كدجاجة مذبوحة وأمسكت بكتفيها صائحة بصدر يعلو وينخفض:

ـ ماذا تريدين؟

فتساءلت خديجة:

ـ أتهددينني؟!

همت عائشة بالكلام فنخقتها العبرات بغتة وهينمت بكلام مزقه البكاء شر ممزق، وجعلت خديجة تحدق إليها صامتة متفكرة، ثم زايل أساريرها عبث السخرية حتى تجهم وجهها وهى تصغى فى غير ارتياح إلى نشيج الفتاة، ثم قالت بلهجة جدية لأول مرة:

ـ لقد أخطأت يا عائشة.

وأمسكت ووجهها يشتد تجهمه، وكأن أنفها ازداد بروزا، وبدا عليها التأثر واضحا فاستطردت قائلة:

ـ يجب أن تقرى بخطئك، خبرينى كيف سولت لك نفسك هذا العبث يا مجنونة؟

فغمغمت عائشة وهى تجفف عينيها:

ـ أنت تسيئين الظن بى.

فنفخت خديجة مقطبة كأنما ضاقت بهذه المكابرة الضائعة، بيد أنها عدلت نهائيًا عن نية الاعتداء أو حتى المعابثة، إنها تعرف دائما أين ومتى تقف فلا تجاوز الحد، وقد أشبعت السخرية ميولها العدوانية القاسية فقنعت بها كما تقنع بها عادة، ولكن بقيت لديها ميول من نوع آخر ـ أبعد ما تكون عن العدوان والقسوة ـ لم تشبع بعد، ميول تنبعث من عاطفة الأخت الكبرى، بل من عاطفة أمومة لا يخطئها فيها أحد من الأسرة مهما اشتدت حملتها عليه، وتحت تأثير الرغبة فى إشباع هذه الميول الودية قالت:

ـ لا تكابرى، لقد رأيت كل شىء بعينى، لست الآن أهزل ولكنى أريد أن أصارحك بأنك أخطأت خطأ كبيرًا، هذا عبث لم يعرفه هذا البيت فى الماضى ولا يود أن يعرفه فى حاضره أو مستقبله، إنه الطيش وحده هو الذى أوقعك فيه، أصغى إلىَّ واعقلى نصيحتى، لا تعودى إلى هذا أبدًا، لا يخفى شىء وإن طال كتمانه، فتصورى ماذا يكون أمرنا جميعا لو لمحك أحد من الجيران، وأنت أدرى بألسنة الناس، تصورى ماذا يكون لو نمى الخبر إلى أبى والعياذ بالله!

فنكست عائشة رأسها تاركة الصمت يعبر عن اعترافها، وقد تضرج وجهها بحمرة الخجل، ذلك الدم الذى ينزفه الضمير فى الداخل إذا جرحته خطيئة، وعند ذاك تنهدت خديجة قائلة:

ـ حذار، حذار، فاهمة؟ . . «ثم نسمت عليها نسمة سخرية فغيرت لهجتها شيئا ما»، ألم يرك؟ فماذا يقعده عن أن يتقدم لك مثل الرجال الشرفاء؟ وقتها نقول لك مع ألف سلامة، بل فى ستين داهية يا ستى . .

استردت عائشة أنفاسها، فافتر ثغرها عن ابتسامة لاحت كلمعة اليقظة الأولى فى العين عقب غيبوبة طويلة، وكأن خديجة عز عليها ـ برؤية هذه الابتسامة ـ أن تفلت الفتاة من قبضتها بعد أن نعمت بامتلاكها فترة طويلة فصاحت بها:

ـ لا تظنى أنك بلغت بر الأمان، إن لسانى لا يسكت إذا لم تحسنى مشاغلته.

فتساءلت الأخرى فى ارتياح:

ـ ماذا تعنين؟

ـ لا تتركيه وحده حتى لا تعاوده نزعة الشر، ألهيه بشىء من الحلوى ليشغل بها عنك، علبة ملبس مثلا من شنجرلى.

ـ لك ما تشتهين وأكثر.

وساد الصمت فشغلت كلتاهما بأفكارها. على أن قلب خديجة كان ـ كما كان من بادىء الأمر ـ مرتعا لضروب من المشاعر متباينة . . غيرة وحنق وإشفاق وحنان.

٢٣

كانت ست أمينة مشغولة بإعداد أدوات القهوة استعداداً لجلسة العصر التقليدية فجاءتها أم حنفى مهرولة، يبشر لمعان عينيها بأنباء سارة، ثم قالت بلهجة موحية:

ـ ستى ثلاث سيدات غريبات يرغبن فى زيارتك.

أخلت الأم يديها من كل شىء، وانتصبت قامتها فى عجلة دلت على تأثير الخبر فى نفسها، وحدجت الخادم بنظرة اهتمام شديدة كأنه من المحتمل أن تكون الزائرات من البيت المالك أو من السماء نفسها، ثم تمتمت استزادة من التوكيد:

ـ غـريبات؟!

فقالت أم حنفى بلهجة تنم عن فرحة الظفر:

ـ نعم يا ستى، طرقن الباب ففتحت لهن فقلن لى: «أليس هذا بيت السيد أحمد عبد الجواد؟». فقلت لهن «بلى» فقلن «الهوانم فوق؟». فقلت «نعم» فقلن «نريد أن نتشرف بالزيارة»، فسألتهن «أقول من الزائرات؟»، فقالت لى إحداهن ضاحكة «دعى هذا لنا، وما على الرسول إلا البلاغ». فجئتك يا ستى طائرة وأنا أقول لنفسى «يا رب حقق لنا الأحلام».

فقالت الأم بعجلة دون أن يزايل الاهتمام عينيها:

ـ ادعيهن إلى حجرة الاستقبال.. أسرعى..

ولبثت دون حراك ثوان، مستغرقة فى خواطرها الجديدة، فى الحلم السعيد الذى تفتحت لها دنياه الغنَّاء فجأة وإن بدا شغلها الشاغل طول الأعوام الأخيرة، ثم أفاقت إلى نفسها فنادت خديجة بلهجة لا تحتمل التأجيل فجاءت الفتاة على الأثر، وما أن التقت عيناهما حتى غلبها الابتسام وقالت وهى لا تملك نفسها من الفرح:

ـ ثلاث سيدات غريبات فى حجرة الاستقبال.. ارتدى خير ملابسك.. واستعدى.

ولما تورد وجه خديجة تورد وجهها أيضًا كأنما انتقلت إليه عدوى الحياء، ثم غادرت الصالة إلى حجرتها فى الدور الأعلى لتستعد بدورها لاستقبال الزائرات، وجعلت خديجة تنظر إلى الباب حيث اختفت أمها، غائبة الطرف، وقلبها يخفق لحد الألم متسائلة «ما وراء هذه الزيارة؟»، ثم نزعت نفسها من موقفها، وسرعان ما استرد عقلها نشاطه الفائق فنادت كمال الذى جاءها من حجرة فهمى فبادرته قائلة:

ـ اذهب إلى أبلة مريم وقل لها إن خديجة تقرئك السلام وترجوك أن ترسلى لها معى علبة البودرة والكحل والأحمر.

وتلقف الغلام الأمر وهو يعدو إلى الخارج، أما خديجة فأسرعت إلى حجرتها ومضت تخلع جلبابها وهى تقول لعائشة التى لحظتها بعين متسائلة:

ـ اختارى لى أحسن فستان.. أحسن فستان بلا استثناء.

فتساءلت عائشة:

ـ ما الداعى إلى هذا الاهتمام؟.. زائرة؟!.. من؟!

فقالت خديجة بصوت خافت:

ـ ثلاث سيدات.. «ثم وهى تضغط على مخارج اللفظ».. غريبات.. فتراجع رأس عائشة فى دهش، ثم اتسعت عيناها الجميلتان سرورًا، وهتفت:

ـ آه.. هل يفهم من هذا أن.. يا له من خبر!

ـ لا تتسرعى فى الحكم.. فمن يدرى عما هناك.

فاتجهت عائشة نحو صوان الملابس لتنتقى الفستان المناسب وهى تقول ضاحكة :

ـ فى الجو شىء . . إن الفرح يشم كالروائح الزكية .

فضحكت خديجة لتخفى اضطرابها، واقتربت من المرآة ونظرت إلى صورتها بإمعان، ثم أخفت أنفها براحتها وقالت بتهكم :

ـ لا بأس بوجهى الآن، وجه مقبول «ثم رافعة راحتها» . . أما على هذه الحال فربنا وحده المنجى !

فقالت عائشة ضاحكة وهى تساعدها فى نفس الوقت على ارتداء فستان أبيض موشى بأزهار بنفسجية :

ـ لا تغمطى نفسك . . ألا يسلم شىء من لسانك ! . . ليست العروس أنفا فحسب، هناك العينان والشعر الطويل، والدم الخفيف !

فلوت خديجة بوزها قائلة :

ـ الناس لا ترى إلا العيوب .

ـ هذا صحيح بالقياس إلى من على شاكلتك . من الناس، ولكن ليس كل الناس على شاكلتك والحمد لله .

ـ سوف أجيبك حين أفرغ لك !

فرتبت الأخرى على خاصرتها وهى تسوى الفستان قائلة :

ـ ولا تنسى هذا الجسم البض الممتلىء . . يا له من جسم !

فضحكت خديجة فى سرور وقالت :

ـ لو كان العريس أعمى ما عملت حسابًا لشىء . . وإنى أرضى به فى تلك الحال ولو كان شيخا من شيوخ الأزهر .

ـ وماذا يعيب شيوخ الأزهر ! . . أليس منهم من خيراته كالبحر ؟ !

ولما فرغا من الفستان ندت عن عائشة نغمة تأفف فسألتها خديجة :

ـ ماذا بك ؟

فقالت بتذمر :

ـ ليس فى بيتنا كله نقطة بودرة أو كحل أو أحمر كأن ليس به نساء ؟ !

ـ من الأفضل أن تبلغى هذا الاحتجاج لوالدنا .

ـ أليست نينة سيدة ومن حقها أن تتزين ؟

ـ أنها جميلة هكذا بلا زينة !

ـ وحضرتك ؟ هل تلقين الزائرات هكذا ؟

فقالت خديجة ضاحكة :

ـ أرسلت كمال إلى مريم ليعود بالبودرة والكحل والأحمر ، وهل وجهى وجه أقابل به الخاطبات عاطلا؟ !

ولما كان الوقت لا يحتمل تبديد دقيقة بلا عمل فقد نزعت خديجة منديل رأسها وأخذت تحل ضفيرتيها الغليظتين الطويلتين ، على حين جاءت عائشة بالمشط وراحت تمشط شعرها المسترسل وهى تقول :

ـ يا له من شعر سبط طويل . . ما رأيك؟ سأجدله فى ضفيرة واحدة ، ألا يكون ذلك أروع؟

ـ بل ضفيرتين . . ولكن خبرينى هل أبقى الجراب فى قدمى أو أدخل عليهن عارية الساقين؟

ـ إن الوقت شتاء يستوجب لبس الجراب ولكنى أخشى إذا أبقيته أن يحسبن بساقك عيبا تتعمدين إخفاءه !

ـ صدقت ، إن المحكمة أرحم من الحجرة التى تنتظرنى الآن .

ـ قوى قلبك ، ربنا يوعدنا .

وهنا دخل الحجرة كمال مسرعًا وهو يلهث فقدَّم إلى أخته أدوات الزينة وهو يقول :

ـ قطعت السلم والطريق جريًا .

فقالت له خديجة باسمة :

ـ عفارم ، عفارم . . ماذا قالت لك مريم؟

ـ سألتنى هل عندنا ضيوف . . ومن هن ، فأجبتها بأنى لا أدرى .

فتجلت فى عينى خديجة نظرة اهتمام وهى تسأله :

ـ وهل قنعت بهذه الإجابة؟

ـ حلفتنى بالحسين أن أصرح لها بما عندى فحلفت لها بأنه ليس عندى غير ما قلت .

فضحكت عائشة قائلة ويداها لا تكفان عن العمل :

ـ ستخمن ما هنالك .

فقالت خديجة وهى تذر البودرة على وجهها :

ـ إنها بنت هرمة ، وهيهات أن يفوتها شىء ، وأراهنك على أنها سوف تزورنا غدًا على الأكثر لإجراء تحقيق شامل .

ولم يشأ كمال أن يغادر الحجرة كما كان المنتظر ، أو لعله لم يستطع مغادرتها تحت إغراء المشهد الذى يمثل أمام عينيه ، والذى يراه لأول مرة فى حياته فلم يسبق له أن رأى

وجه أخته وهو يلقى هذا التغير الذى استحال معه وجهًا جديدًا، البشرة تبيض والوجنتان تتوردان والعينان تصطبغ أشفارهما بسواد لطيف يرسم لهما حدودًا جذابة ويضفى على حدقتيهما صفاء بهيجًا، وجه جديد هش له قلب فطرب هاتفًا:

ـ أنت يا أبلة الآن كالعروس التى يشتريها بابا فى مولد النبى.

فضحكت الفتاتان، وسألته خديجة:

ـ هل أعجبك الآن؟

فاقترب منها مسرعا ومد يده صوب أرنبة أنفها وهو يقول:

ـ لو تزول هذه!

فتفادت من يده، ثم قالت لأختها:

ـ أخرجى هذا النمَّام.

فقبضت عائشة على يده وجذبته إلى الخارج رغم مقاومته حتى أخرجته وأغلقت الباب، ثم عادت إلى استئناف عملها الجميل، فواصلتا نشاطهما فى صمت وجدّ. ومع أنه كان من المتفق عليه فى الأسرة أن تقتصر مقابلة الخاطبات على خديجة وحدها إلا أن الفتاة قالت لعائشة على سبيل المكر:

ـ ينبغى أن تتأهبى أنت أيضا لاستقبال الزائرات.

فقالت عائشة بمثل مكر أختها:

ـ لن يكون هذا قبل أن تزفى إلى عريسك!

ثم استدركت قائلة قبل أن تتكلم خديجة:

ـ أما الآن فكيف للنجوم أن تطلع مع القمر؟!

فرمتها أختها بنظرة مستريبة وتساءلت:

ـ من يكون القمر؟

فقالت عائشة ضاحكة:

ـ طبعـا أنـا..!

فلكزتها بكوعها، ثم تنهدت قائلة:

ـ لو تعيريننى أنفك كما أعارتنى مريم علبة بودرتها!

ـ تناسى أنفك ولو الليلة على الأقل، إن الأنف ـ كالدمل ـ يضخم بالدأب على التفكير فيه!

أوشكتا عند ذاك على الفراغ من عملية التجميل، فتراخى انتباه خديجة عن التركيز فى مظهرها واتجه فى رهبة إلى موقف الامتحان الذى ينتظرها فشعرت بخوف لم تشعر

بمثله من قبل، لا بالقياس إلى جدته فحسب ولكن - قبل كل شىء - بالقياس إلى خطورة عواقبه، وما لبثت أن قالت متشكية:

- أية جلسة هذه التى قضى علىَّ بها! . . تصورى نفسك فى مكانى، بين نسوة غريبات لا تدرين أى خُلق خُلقهن ولا أى أصل أصلهن، وهل جئن بنية صادقة أو لمجرد الفرجة والتسلية، وماذا يكون من أمرى لو كن عيَّابات شتَّامات (ثم ضاحكة ضحكة مقتضبة) مثلى مثلا. . هه؟ وماذا بوسعى إلا أن أجلس بينهن فى أدب واستسلام أتلقى نظراتهن من اليمين والشمال، ومن الأمام والخلف، وأصدع بأمرهن بلا أدنى تردد، إذا طلبن قياما قمت، أو مشيا مشيت أو كلاما تكلمت حتى لا يفوتهن شىء من جلوسى وقيامى وصمتى وكلامى وأعضائى وقسماتى، وعلينا بعد هذه «البهدلة» كلها أن نتودد إليهن ونطرى لطفهن، وكرمهن، ثم لا ندرى بعد ذلك أنفوز بالرضى أو نفوز بالغضب، أف. . أف. . ملعون الذى أرسلهن!

فعاجلتها عائشة قائلة بلهجة ذات معنى:

- بعد الشر عنه!

فقالت خديجة ضاحكة أيضا:

- لا تدعى له حتى نتأكد أنه من نصيبنا. . آه يا ربى كم أن قلبى يدق!

فتراجعت عائشة خطوة خطوة عن مرمى كوعها وقالت:

- صبرك. . ستجدين فى المستقبل فرصا كثيرة للانتقام من مجلس اليوم الرهيب، فكم سيصلين من نار لسانك وأنت ست البيت. . ولعلهن يذكرن امتحان اليوم وهن يقلن لأنفسهن يا ليت الذى جرى ما كان!

وقنعت خديجة بالابتسام. لم يكن فى الوقت متسع لرد الهجوم، ولم تجد فى الهجوم - الذى تجد فيه عادة سروراً شافيا - لذة على الإطلاق لغلبة الرهبة على نفسها وحيرتها بين الخوف والرجاء، ولما فرغتا من مهمتهما وقفت تلقى على صورتها نظرة شاملة، وعائشة - إلى الوراء خطوتين - تردد نظرها بعناية بين الصورة والأصل، وجعلت خديجة تتمتم:

- أحسنت يداك، منظر حسن أليس كذلك؟ . . هذه خديجة حقا. . لا بأس بأنفى الآن. . جلَّت حكمتك يا رب، بقليل من الجهد صار كل شىء مقبولا فلماذا (ثم مستدركة) أستغفر الله العظيم، لك فى كل شىء حكمة.

وتراجعت خطوات وهى تفحص صورتها بعناية ثم قرأت الفاتحة فى سرها، والتفتت نحو عائشة قائلة:

- ادعى لى يا بنت. .

وغادرت الحجرة.

٢٤

اكتسب مجلس القهوة بحلول الشتاء ميزة جديدة تمثلت فى المدفأة الكبيرة التى توسطت الصالة فتكأكأت حولها الأسرة، الذكور فى معاطفهم والنساء ملتفات بخماراتهن، فهيأ لهم المجلس إلى لذة الشراب وحلو السمر متعة الدفء. وقد بدا فهمى ـ على حزنه الصامت الطويل فى الأيام الأخيرة ـ كمن يتحفز لمواجهة أهله بخبر هام، ولم يكن تردده وطول تفكيره إلا دليلا على خطورة الخبر وأهميته، بيد أنه انتهى من تفكيره وتردده إلى التصميم على إبلاغه ملقيا عبئه بعد ذلك على والديه والأقدار، فلذلك قال:

ـ عندى خبر هام لكم فاسمعوا..

فتطلعت إليه الأعين باهتمام لم يشذ عنه أحد، لأن ما عرف به الشاب من اتزان جعل الجميع ينتظرون خبراً هاماً حقا كما قال، أما فهمى فاستطرد قائلا:

ـ الخبر هو أن حسن أفندى إبراهيم ضابط قسم الجمالية ـ وهو من معارفى كما تعلمون ـ قابلنى ورجانى أن أبلغ والدى رغبته فى خطبة عائشة..!

وأحدث الخبر ـ كما قدر فهمى من قبل ما دعاه إلى التردد وطول التفكير ـ آثارا جد متباينة، فتطلعت الأم إليه باهتمام شديد، على حين صفّر ياسين وهو يرمق عائشة بنظرة مداعبة ويهز رأسه، وخفضت الفتاة الصغيرة رأسها حياء ولتخفى وجهها من الأعين أن تفضحها أساريرها فتعلن للناظرين ما يضطرب فى قلبها الخافق، أما خديجة فقد تلقت الخبر بدهشة بادىء الأمر لم تلبث أن انقلبت خوفا وتشاؤما لم تدر لهما سببا واضحا ولكنها كانت كتلميذ يتوقع بين آونة وأخرى ظهور نتيجة الامتحان ـ إذا تناهى إليه نجاح زميل له بلغته النتيجة من مصدر خاص، وتساءلت الأم فى ارتباك لا يتناسب ومناسبة الفرح الراهنة:

ـ أهذا كل ما قال؟

فقال فهمى وهو يتحاشى النظر ناحية خديجة:

ـ بدأنى بقوله إنه يود أن يتشرف بطلب يد شقيقتى الصغرى.

وماذا قلت له؟

ـ شكرت له حسن ظنه بطبيعة الحال..

لم تطرح عليه السؤال تلو السؤال فى رغبة استطلاع شىء تود معرفته، ولكن لتدارى ارتباكها وتنتزع من المفاجأة مهلة للتروى. ثم راحت تتساءل ترى هل لهذا الطلب علاقة

بالزائرات اللاتى جئنها منذ أيام؟! . . وذكرت عند ذاك كيف قالت إحداهن ـ قبل ظهور خديجة ـ وهى بمعرض الحديث عن أسرة السيد أحمد إنهن سمعن أن للسيد كريمتين فأدركت وقتها أنهن جئن لرؤية الفتاتين ولكنها تصامّت عن الإشارة، وقد انتسبت الزائرات إلى أسرة تاجر بالدرب الأحمر ـ غير والد الضابط الذى قال فهمى عنه مرة إنه موظف بوزارة الأشغال ـ ولكن هذا لا ينفى نفيا قاطعا العلاقة بين الأسرتين لأنه المألوف أن تبعث الأسر بخاطبات من بعض فروعها دون الأصل على سبيل الحرص، وكم ودت أن تسأل فهمى عن هذه النقطة بالذات وكأنها أشفقت من أن يجىء الجواب مصداقا لمخاوفها فيقضى على آمال ابنتها الكبرى ويسيمها خيبة جديدة، بيد أن خديجة نابت عن أمها ـ اتفاقا ـ بطرح ما يعتلج فى صدرها خارجا حين دارت هبوطها بضحكة فاترة وقالت متسائلة:

ـ لعله هو الذى بعث الزائرات اللاتى زرننا منذ أيام؟

ولكن فهمى بادر قائلا:

ـ كلا، فقد قال لى إنه سيرسل أمه إلينا فى حالة الموافقة على طلبه.

ولكنه بخلاف لهجته الموحية بالصدق، لم يكن صادقا فيما قال، فقد فهم من حديث الضابط أن السيدات اللاتى زرن والدته قريباته، بيد أنه أشفق من إيلام شقيقته الكبرى التى كان ـ على حبه عائشة واقتناعه بجدارة صديقه الضابط ـ يعطف عليها عطفا أخويا، ويألم أشد الألم لسوء حظها، ولعله كان لما منى به من خيبة أثر قوى فى البلوغ بهذا العطف ذروته. وضحك ياسين ضحكة غليظة وقال بجذل صبيانى:

ـ يبدو أننا سنجمع قريبا بين فرحين.

فهتفت الأم فى فرح صادق:

ـ ربنا يسمع منك.

ـ هل تخاطبين أبى نيابة عنى؟

ند عنه السؤال وهو مشغول بمسألة الخطبة عما عداها، ولكنه ـ عقب النطق به ـ وقع من أذنيه موقعا غريبا، فكأنه ألقى عليه من حافظة ذكرياته لا من طرف لسانه، أو كأنه حين ألقى على سمعه لم يقف عند أذنيه ولكنه غاص إلى أعماقه ثم طفا عالقا به ما علق به من ذكرياته، وللحال ذكر سؤالا مماثلا لهذا السؤال توجه به إلى أمه فى ظروف مشابهة فانقبض قلبه، وهاجت آلامه، وعاوده إحساسه بالظلم الذى وأد أمله، وجعل يقول لنفسه كما قال لها مراراً فى الأيام الأخيرة، كم كان يكون سعيداً بيومه مستبشراً بغده راضيا عن الحياة كلها لولا إرادة أبيه القاسية، وانتزعته الذكرى من الاهتمام بشئون غيره، فاستسلم للحزن الذى يقرض شغاف قلبه، أما الأم ففكرت مليا ثم تساءلت:

ـ ألا يحسن بنا أن نفكر فيما عسى أن أجيب أباك إذا سألنى عما دعا الضابط إلى طلب عائشة بالذات، ولماذا لم يطلب يد خديجة، ما دام لم ير هذه ولا تلك؟

وانتبهت الفتاتان إلى ملاحظة أمهما معا، ولعلهما ذكرا موقفهما وراء النافذة فى وقت واحد، بيد أن خديجة تلقت الذكرى بامتعاض ضاعف من امتعاضها الراهن، واحتج قلبها على الحظ الأعمى الذى يأبى إلا أن يجزى النزق والاستهتار بالإحسان، أما عائشة فقد اعترضت تيار سرورها ملاحظة أمها كما تعترض الحلق ـ وهو نشوان بازدراد أكلة لذيذة شهية ـ شوكة حادة مدسوسة فى الطعام، وسرعان ما امتص الخوف حرارة الفرح التى كان ينتفض بها روحها. فهمى وحده الذى ثار على قول أمه، لا دفاعا كما بدا عن عائشة ـ فإنه ما كان يجيز الدفاع عن عائشة تحت سمع خديجة فى هذه النقطة الحساسة بالذات ـ ولكن غضبا لحزنه الكظيم الذى لم يسعه الجهر بالدفاع عنه حيال أبيه، فقال محتداً يخاطب أباه فى شخص أمه، وهو لا يدرى:

ـ هذا تعسف ظالم لا مبرر له من عقل أو حكمة، ألا يعرف الرجال أشياء كثيرة عن نساء مخدرات عن طريق الفضليات من قريباتهم اللاتى لا يقصدن بحديثهن إلا الجمع بين رجل وامرأة فى الحلال.

ولكن الأم لم تقصد باعتراضها إلا تواريا وراء أبيه حتى تجد مخرجا من المأزق الذى وجدت فيه نفسها بين عائشة وخديجة. فلما صارحها فهمى باحتجاجه لم تجد بدا من مصارحته بما يدور:

ـ ألا ترى أنه من الأفضل أن ننتظر حتى يأتينا نبأ الزائرات؟!

ولم تعد خديجة تطيق الصمت مدفوعة بكبريائها التى أبت عليها إلا أن تعلن عدم المبالاة بالأمر كله بالرغم مما يصطرع داخلها من القلق والتشاؤم فقالت:

ـ هذا شىء وذاك شىء آخر وليس ثمة داع لتأجيل هذا من أجل ذاك.

فقالت الأم بهدوء مؤثر:

ـ كلنا متفقون على تأجيل زواج عائشة حتى تتزوج خديجة.

ولم يسع عائشة إلا أن تقول برقة وتسليم:

ـ هذا أمر مفروغ منه..

امتلأ صدر خديجة حنقا لدى سماع النبرات الرقيقة التى تتكلم، ولعل رقتها نفسها كانت أشد ما أحنقها، ربما لأنها أوحت بعطف أبته كل الإباء، أو لأنها ودت لو تعلن الفتاة معارضتها صريحة لتتيح لها فرصة لمهاجمتها بما يشفى حنقها على حين قام ذاك العطف الكاذب البغيض درعا يدفع عنها الأذى ويضاعف من حنق المتربص المتحفز، وأخيراً لم يسعها إلا أن تقول بلهجة لم تخل من حدة:

ـ لا أوافق على أن هذا أمر مفروغ منه، فليس من العدل أن يحملكم حظ عاثر على كسر حظ سعيد!

وتنبه فهمى إلى ما ينطوى عليه كلام خديجة من حزن غاضب بالرغم من ظاهره الموحى بالإيثار فانتزع نفسه من قبضة أحزانه الشخصية نادما على ما صدر منه من قول فى غضبته مما قد تحسبه خديجة ميلا صريحا منه إلى قضية أختها فقال موجها خطابه إليها:

ـ إن مفاتحة بابا عن رغبة حسن أفندى لا تعنى التسليم بتقديم زواج عائشة على زواجك، وما علينا من بأس إذا نلنا موافقته على الخطبة، أن نؤجل إعلانها لوقت مناسب!

ولم يكن ياسين مقتنعا بوجاهة الرأى الذى يحتم تقديم زواج على زواج، ولكنه لم يجد الشجاعة الكافية للإفصاح عن رأيه إلا أنه روَّح عنه بكلام يفهم منه من يشاء ما يشاء فقال:

ـ الزواج مصير كل حى، ومن لم تتزوج اليوم فستتزوج غداً.

وهنا انطلق صوت كمال الرفيع ـ الذى كان يتابع الحديث باهتمام ـ متسائلا على غير انتظار:

ـ نينة.. لماذا كان الزواج مصير كل حى؟

ولكنها لم تعن بالالتفات إليه، فلم يحدث تساؤله من أثر إلا عند ياسين الذى قعقع بضحكة غليظة دون أن ينبس بكلمة، على حين قالت الأم:

ـ أعلم أن كل فتاة ستتزوج اليوم أو غداً، ولكن هناك اعتبارات لا ينبغى إغفالها.

وعاد كمال يسألها:

ـ وهل ستتزوجين أنت أيضًا يا نينة؟

وضج الجميع ضحكا فخفف هذا من حدة التوتر، وانتهز ياسين هذه الفرصة السانحة فتشجع قائلا:

ـ اعرضى الأمر على أبى، فالكلمة كلمته على أى حال.

وقالت خديجة بإصرار غريب:

ـ لابد من هذا.. لابد من هذا..

كانت تعنى ما تقول: لأنها من ناحية تعلم باستحالة إخفاء مثل هذا الأمر عن أبيها، ولأنها من ناحية أخرى تعتقد بأن والدها لا يمكن أن يقبل تقديم زواج عائشة عليها، ولأنها ـ إلى هذا وذاك ـ مازالت تصر على التظاهر باللامبالاة، ومع أنها لم تكن تعلم بما بين الضابط والزائرات من سبب.. إلا أن القلق والتشاؤم اللذين شعرت بهما من بادىء الأمر لم يتخليا عنها لحظة واحدة.

٢٥

مع أن السيدة أمينة جربت فى حياتها أكثر من سبب من الأسباب التى تكدر الصفو إلا أنها لم تكن قديمة عهد بنوع طارىء من هذه الأسباب، امتاز بطابع خاص به، إذ بدا فى ذاته ـ على خلاف سوابقه ـ مما يجمع الناس على اعتباره من أسس السعادة الجوهرية فى الدنيا، ومع هذا انقلب فى بيتها، بل فى قلبها خاصة، باعثا هاما من بواعث القلق والكدر، وكم كانت صادقة وهى تسائل نفسها: من كان يظن أن مقدم عريس، الأمر الذى تتلهف النفوس على استقباله، يجر علينا هذا التعب كله! . . ولكن هكذا جرى الحال، فتنازع قلبها أكثر من رأى دون أن تطمئن إلى واحد منها، رأت حينا أن الموافقة على زواج عائشة قبل خديجة كفيلة أن تقضى على مستقبل ابنتها الكبرى، ورأت حينا آخر أن الإلحاح فى معارضة الأقدار موقف شديد الخطورة قد يعود على الفتاتين بأوخم العواقب، وإلى هذا وذاك ـ شق عليها أكثر أن توصد الباب فى وجه عريس رائع كالضابط الشاب ليس من اليسير أن يجود الحظ بمثله مرة أخرى. ولكن ما عسى أن يكون موقف خديجة إذا تمت الموافقة وما عسى أن يكون حظها ومستقبلها؟! . . لم تدر لنفسها مستقرا، خاصة وأن ما طبعت عليه من سلبية شاملة جعلها أعجز من أن تجد حلا موفقا لمشكل من المشاكل، ولهذا وجدت راحة وهى تتحفز لإلقاء العبء كله على عاتق السيد، بل وجدت هذه الراحة بالرغم مما يخامرها من خوف كلما أقدمت على مفاتحته بأمر ترتاب فى حسن تقبله له، وقد انتظرت حتى فرغ من احتساء قهوته ثم قالت بصوتها المهموس الناطق بالأدب والخضوع:

ـ سيدى . . حدثنى فهمى قال إن صديقا له رجاه أن يعرض عليك رغبته فى خطبة عائشة.

سددت العينان الزرقاوان نظرة اهتمام ودهشة من فوق الكنبة إلى حيث تجلس المرأة على شلتة غير بعيدة من قدميه، كأنما يقول لها: «كيف تحدثيننى عن عائشة وأنا فى انتظار أخبار عن خديجة بعد ما كان من نبأ الزائرات الثلاث» . . ثم تساءل ليستوثق مما سمع:

ـ عائشة؟ . .

ـ نعم يا سيدى . .

ونظر السيد أمامه فى ضيق، ثم قال وكأنه يحدث نفسه:

ـ قررت من زمن بعيد أن هذا سابق لأوانه . .

فقالت المرأة فى عجلة أن يظن بها معارضة لرأيه :

- إنى أعلم رأيك يا سيدى ، ولكن يجب أن أطلعك على كل شيء يدور بيننا .

تفحصها الرجل ببصر حاد كأنه يسبر ما فى قولها من صدق وإخلاص ولكن لمعت عيناه بخاطر طارىء حال بينه وبين تفحصها ، فتساءل فى اهتمام وقلق :

- ترى ألهذا علاقة بالسيدات اللاتى زرنك؟

أجل ، علمت بهذه العلاقة ، وهى منفردة بفهمى ، وقد اقترح عليها الشاب أن تخفى أمرها عن والده عند مفاتحته بالخبر فوعدته بالتفكير فى المسألة طويلا ، وترددت بين قبولها ورفضها ، ثم مالت أخيرا إلى كتمانها كما اقترح فهمى ، ولكنها حين جوبهت بسؤال السيد وهى تشعر بنظرة عينيه كضوء الشمس الوهاج تشتت عزيمتها وتبدد رأيها فقالت بلا تردد :

- نعم يا سيدى ، علم فهمى أنهن قريبات صديقه . .

فعبس السيد غاضبا وكعهده إذا غضب امتلأت صفحة وجهه البيضاء بالدم وتطاير الشرر من عينيه . من يستهن بخديجة فكأنما استهان بشخصه ، ومن يمس كرامتها فكأنما طعنه فى صميم كرامته ، ولكنه لم يدر كيف يعلن غضبه إلا عن طريق صوته الذى علا وغلظ وهو يتساءل بحنق وازدراء :

- من هو هذا الصديق؟

فقالت - وهى تجد للنطق بالاسم قلقا لا تدرى له من سبب :

- حسن إبراهيم ضابط قسم الجمالية .

فقال السيد متسائلا فى انفعال :

- قلت إنك أدخلت خديجة وحدها على السيدات؟!

- نعم يا سيدى . .

- هل زرنك مرة أخرى؟

- كلا يا سيدى وإلا كنت أخبرتك .

فسألها منتهرا كأنما هى المسئولة عن هذه الغرابة :

- أرسل قريباته فرأين خديجة ، وإذا به يطلب عائشة! . . ما معنى هـذا؟!

فازدردت الأم ريقها الذى جف بين الأخذ والرد وتمتمت :

- فى مثل هذا الحال لا تدخل الخاطبات البيت المقصود إلا بعد أن يزرن كثيرا من بيوت الجيران متحريات عما يهمهن ، وبالفعل قد أشرن فى حديثهن معى إلى أنهن سمعن بأن للسيد كريمتين ، ولعل تقديم واحدة دون الأخرى . .

أرادت أن تقول «لعل تقديم واحدة دون الأخرى وكد لديهن ما سمعن عن جمال الصغرى»، ولكنها أمسكت خوفا من مضاعفة غضبه من ناحية، وإشفاقا من الجهر بهذه الحقيقة التى ترتبط فى ذهنها بألوان قاتمة من القلق والأسى من ناحية أخرى، فأمسكت مكتفية بإتمام الحديث بإشارة من يدها كأنما تقول «إلخ إلخ».

وحدج السيد إليها بنظر حاد حتى غضت الطرف استخذاء، وانقلب إلى حال من الامتعاض والحزن كثفت الغضب فى صدره فمضى يقرع أضلعه يروم متنفسا أو ينشد صحبة، ثم صاح بصوت عاصف:

- عرفنا كل شيء، ها هو ذا عريس يتقدم طالبا يد ابنتك فأسمعينى رأيك؟

شعرت بسؤاله يستدرجها إلى حفرة لا قرار لها فقالت بلا تردد وهى تبسط راحتيها فى تسليم:

- رأيى رأيك يا سيدى ولا رأى لى غيره.

فصاح فى زمجرة:

- لو كان الأمر كما تقولين ما فاتحتنى فى الأمر.

فقالت فى لهجة ملهوجة وإشفاق:

- ما حدثتك يا سيدى إلا لأخبرك عما جد فى الأمر، لأن واجبى يقضى علىّ بأن أطلعك على كل ما يتصل ببيتك من قريب أو بعيد.

فهز رأسه فى حنق قائلا:

- من يدرى.. إى والله من يدرى.. ما أنت إلا امرأة، وكل امرأة ناقصة عقل، والزواج خاصة يفتنكن عن الرشاد، فلعلك.

فقاطعته بصوت متهدج:

- سيدى أعوذ بالله مما تظن بى، إن خديجة ابنتى ومن لحمى ودمى كما هى ابنتك.. وإن حظها ليفتت كبدى، أما عائشة فما تزال فى أول ربيعها ولن يضيرها أن تنتظر حتى يأخذ الله بيد شقيقتها.

فراح يمسح براحته على شاربه الغليظ بحركة عصبية حتى توقف فجأة، كأنما تذكر أمرًا وتساءل:

- وهل علمت خديجة؟

- نعم يا سيدى.

فلوح بيده غاضبا وهو يصيح:

- كيف يطلب هذا الضابط يد عائشة بالرغم من أن أحدا لم يرها؟!

فقالت بحرارة وقلبها يرتجف :

ـ قلت يا سيدى لعلهن سمعن عنها .

ـ ولكنه يعمل فى قسم الجمالية أى فى حينا ، وكأنه من أهله .

فقالت الأم فى تأثر شديد :

ـ إن عين رجل لم تقع على إحدى ابنتى منذ انقطاعهما عن المدرسة فى سن الطفولة .

فضرب كفا بكف وصاح بها :

ـ مهلا . . مهلا . . هل حسبتنى أشك فى هذا يا ولية؟ ! . . لو شككت فيه ما أشبعنى القتل !

إنما أتحدث عما يجرى فى عقول بعض الناس ممن لا يعرفوننا ، «إن عين رجل لم تقع على إحدى ابنتى» ! . . ما شاء الله ، وهل كنت تريدين أن تقع عين رجل عليهما؟ ! . . يا لك من مجنونة مهذارة ، إنى أردد ما قد تشيع به ألسنة السفهاء من الناس ، أجل . . إنه ضابط الحى ، يسير فى شوارعنا صباح مساء فلا يبعد أن يقوم عند البعض ظن احتمال رؤيته لإحدى الفتاتين إذا علموا بزواجه منها . . لا أحب ، لا أريد أن أعطى ابنتى لأحد ليثير الشبهات حول سمعتى ، بل لن تنتقل ابنتى إلى بيت رجل إلا إذا ثبت لدى أن دافعه الأول إلى الزواج منها هو رغبته الخاصة فى مصاهرتى أنا . . أنا . . أنا . . «لم تقع عين رجل على إحدى ابنتى» . . مبارك . . مبارك يا ست أمينة .

وأصغت الأم دون أن تنبس بكلمة فساد الصمت الحجرة ، ثم نهض الرجل فآذنها نهوضه بأنه سيشرع فى ارتداء ملابسه استعداداً للعودة إلى الدكان فبادرت بالقيام ، ونزع السيد ذراعيه من الجلباب ورفعه ليخلعه ، ولكنه توقف قبل أن تجاوز طاقة الجلباب ذقنه ، وقال والجلباب مكوم فوق منكبه كلبدة الأسد :

ـ ألم يقدر سى فهمى خطورة الطلب الذى تقدم به صديقه؟

(ثم محركا رأسه فى أسف) . . يحسدنى الناس على إنجاب ثلاثة ذكور ، والحق أنى لم أنجب إلا إناثا . . خمس إناث .

٢٦

على أثر مغادرة السيد للبيت ذاع رأيه فى خطبة عائشة ، ومع أنه قوبل بتسليم عام ـ تسليم من لا حيلة لهم سوى التسليم ـ إلا أنه كان متباين الصدى فى النفوس ، أسف

فهمى للخبر، وساءه أن تفقد عائشة زوجا صالحا مثل صديقه حسن إبراهيم، أجل كان قبل أن يبت أبوه فى الأمر متردداً بين التحمس للعريس المتقدم وبين العطف على موقف خديجة الدقيق، فلما أن قضى الأمر واستراح جانبه المشفق على خديجة أسف جانبه الآخر الراغب فى سعادة عائشة وأمكنه أن يجهر برأيه فقال:

- لا شك أن مستقبل خديجة يهمنا جميعا ولكننى لا أوافق على الإصرار على حرمان عائشة من الفرص الحسنة التى تتاح لها، الحظ غيب لا يعلمه إلا الله، ولعل الله يدخر للمتأخر حظا أوفر من المتقدم.

ولعل خديجة كانت أشد الجميع شعوراً بالحرج لوقوفها للمرة الثانية عشرة فى سبيل أختها، لم تكن تفكر فى الحرج وهى تحت المطرقة، ولكن حين نما إليها رأى أبيها الحاسم، وتقهقر الخطر الذى يتهددها، زايلها الحنق والألم وحل محلهما شعور أليم بالخجل والحرج، ومع أن حديث فهمى لم يترك فى نفسها أثرًا حسنا لأنها طمعت فى أعماقها أن تجد من الجميع حماسا لرأى أبيها وأن تبقى هى الوحيدة المعارضة له، إلا أنها قالت معلقة عليه:

- صدق فهمى فيما قال، وكان هذا رأيى دائما..

فعاد ياسين يؤكد رأيه السابق قائلا:

- الزواج مصير كل حى.. لا تخافوا.. ولا تجزعوا..

قنع هذه المرة بالكلام على ولعه بعائشة وشدة استيائه لما حاق بها من ظلم، ولكنه خاف أن يعلن رأيه صراحة أن تسىء خديجة فهمه أو تظن أن ثمة علاقة بين هذا الرأى وبين ما ينشب بينهما كثيرا من نقار برئ، وإلى هذا وذاك كان إحساسه الباطنى بأنه نصف أخ فقط يقعده عند مواجهة الخطير من شئون الأسرة الحساسة عن إبداء الرأى الخليق بجرح أحد من أفرادها.. ولم تكن عائشة قد نبست بكلمة فقسرت نفسها على الكلام قسرا أن يشى صمتها بآلامها التى صممت على إخفائها والتظاهر بعدم الاكتراث لها مهما سامها ذلك من عذاب وتوتر، بل أجمعت على إعلان الارتياح مجاراة لجو البيت الذى لا يعترف للعواطف بحق من حقوقها.. والذى تدارى فيه أهواء القلوب بأقنعة الزهد والرياء، فقالت:

- لا يصح أن أتزوج قبل خديجة، والخير كل الخير فيما يرى أبى (ثم مبتسمة).. لماذا تتعجلون الزواج؟.. ومن أدراكم بأننا سنحظى فى بيوت الأزواج بحياة سعيدة كالتى نحظى بها فى بيت أبينا؟!

ولما تواصل الحديث كشأنه كل مساء حول المدفأة لم تمسك عن الاشتراك فيه بما وسعها قوله بالرغم من شرود ذهنها وتشتت نفسها. وكم فى الواقع شابهت الدجاجة المذبوحة

التى تندفع مبسوطة الجناحين ـ كأنما تنتفض حيوية ونشاطا ـ على حين يتدفق الدم من عنقها مستصفيا آخر قطرات الحياة.

على أنها توقعت هذه النتيجة قبل عرض الأمر على أبيها، أن لا ثمة غامض داعب أحلامها كما يداعبنا الأمل فى كسب النمرة الأولى فى اليانصيب الكبير . . وقد تطوعت أول الأمر للمعارضة فى زواجها مدفوعة بأريحية الظفر والسعادة، وبالعطف على شقيقتها السيئة الحظ، الآن خمدت الأريحية ونضب العطف، فلم يبق إلا الامتعاض والسخط واليأس. ليس لها من الأمر شىء. هذه إرادة الأب ولا معقب لها، وما عليها إلا الإذعان والاستسلام، بل عليها أكثر من هذا الرضى والارتياح، لأن محض الوجوم ذنب لا يغتفر، أما الاحتجاج فإثم لا يطيقه أدبها وحياؤها، أفاقت من سكرة السعادة الغامرة التى انتشت بها يوما وليلة على يأس مظلم، ما أكثف الظلمة تجىء عقب النور الباهر، فى تلك الحال لا يقتصر الألم على الظلمة الراهنة، ولكنه يضاعف مرات ومرات بالحسرة على النور الذاهب وتسائل نفسها إذا كان ثمة نور أمكن أن يضىء مليا فلماذا لم يواصل الضياء، لماذا يخبو، لماذا خبا، فتكون حسرة جديدة تنضم إلى بقية الحسرات التى ينسجها الحزن حول قلبها منتزعا إياها من ذكريات الماضى وواقع الحال وأحلام المستقبل، وعلى إغراقها فى التفكير فى هذا كله وحضوره ـ تبعا لذلك ـ فى شعورها فإنها تعود تتساءل وكأنها تتساءل لأول مرة، وكأن الحقيقة المرة ترتطم بشعورها للمرة الأولى: هل حقا خبا النور؟!

هل تمزقت الأسباب بينها وبين الشاب الذى ملأ قلبها وخيالها؟!

سؤال جديد رغم تكراره، وصدمة جديدة رغم نفاذها إلى العظام، ذلك أن الحسرة الكاوية لا تنفك يتنازعها اليأس المستقر فى الأعماق والآمال المتطايرة فى الهواء كلما تطاير منها شعاع الأمل المتطاير، ثم تعود فتستقر فى الأعماق، ثم تطفو مرة أخرى، وثالثة، حتى تأوى إلى مستقرها ـ وقد ودعت النفس آخر آمالها ـ فلا تغادره إلى الأبد، انتهى كأن لم يكن، لا سبيل إليه أبدًا، ما أهون الأمر عليهم، عالجوه كما يعالجون أمور يومهم العادية مثل ماذا نأكل غدًا، أو حلمت ليلة أمس حلما غريبا، أو رائحة الياسمين تملأ جو السطح، كلمة من هنا . . كلمة من هناك . . واقتراح يعلن ورأى يبسط، فى هدوء وحلم غريبين، ثم تعزية باسمة، وتشجيع كأنه الدعابة. ثم تغير الحديث وتشعب، انتهى كل شىء، وأدرج فى التاريخ الذى تنزل عليه الأسرة النسيان. أين قلبها من هذا كله؟! . . لا قلب لها، لا يتصور وجوده أحد، لا وجود له، فى الواقع، ما أشد غربتها، ضائعة مفقودة، ليسوا منها وليست منهم، وحيدة منبوذة مقطوعة الصلات، ولكن كيف تنسى أن كلمة واحدة لو جاد بها لسان أبيها، كانت تكفى لتغيير وجه الدنيا وخلقها خلقًا جديدًا؟! . . كلمة واحدة لا أكثر، لا تزيد عن لفظة «نعم» ثم تحدث المعجزة، لم تكن

لتكلفه إلا عُشر ما تكلف من جهد فى المناقشة الطويلة التى انتهت إلى الرفض. ولكن لم تجر بذاك مشيئته، وارتضى لها هذا العذاب كله، ومع أنها كانت متألمة حانقة ساخطة إلا أن ألمها وحنقها وسخطها وقفت عند شخص أبيها وارتدت عنه خائبة ارتداد الوحش الهائج إذا اعترضه مروضه، الذى يحبه ويخافه، لم يسعها أن تحمل عليه، ولو فى أعماق سريرتها، وظل قلبها على ولائه وحبه فلم تضمر له إلا الإخلاص والوفاء كأنه إله لا يجوز أن تقابل قضاءه إلا بالتسليم والحب والوفاء.

شدت الصغيرة ذاك المساء حبل اليأس حول عنقها الرقيق فآمن قلبها المتفتح بأنه نضب وأجدب إلى الأبد، وضاعف من توتر أعصابها الدور الذى صممت على أن تمثله بينهم، دور البشر واللامبالاة وما سامته نفسها من المشاركة فى سمرهم حتى ناءت هامتها الذهبية بحمله، وانقلبت الأصوات فى أذنيها وقرا، فما جاء وقت الانسحاب إلى حجرة النوم حتى مضت فى إعياء كالمرضى، وهناك فى أمن من ظلمة الحجرة تجهم وجهها لأول مرة وعكس صورة صادقة من قلبها.

بيد أنه لحق بها رقيب - خديجة - أيقنت من بادىء الأمر أن تصنعها لن يجدى معها شيئا وقد تحامت فى المجلس نظراتها أما الآن - إذ جلست إليها - فلا مهرب منها ولا مفر. وتوقعت أن تهجم الفتاة على الموضوع بعنادها المعروف، وانتظرت تسلل صوتها إلى أذنيها بين لحظة وأخرى، ورحب قلبها بالحديث، لا لأنه سيبعث رجاء جديداً، ولكن لأنها أملت وراء الاعتذار والحرج اللذين ستعلنهما الفتاة صادقة حتما شيئا من العزاء. ولم يطل الانتظار فما لبث أن جاءها الصوت يشق الظلمة قائلا:

- عائشة، إنى حزينة آسفة، ولكن علم الله لا حيلة لى، وكم وددت لو تواتينى الشجاعة فأرجو أبى أن يعدل عن رأيه.

وتساءلت عما وراء هذا الكلام من صدق أو رياء منفعلة بثورة حنق ثارت بها لدى سماع النبرات الأسيفة مباشرة، ولكنها اضطرت إلى العودة إلى استعادة النبرات التى ظلت تتحدث بها فى مجلس أمها فقالت:

- فيم الحزن والأسف، ما أخطأ أبى وما ظلم ولا داعى للعجلة!

- هذه ثانى مرة يؤجل زواجك بسببى!

- لست آسفة مطلقا.

فقالت خديجة بلهجة ذات مغزى:

- ولكن هذه المرة غير المرة الأولى.

أدركت الفتاة ما وراء هذه الكلمات بسرعة البرق، فخفق قلبها خفقان اللوعة والحسرة، وبكى وداً وحبّا، ذلك الحب الكامن يثار بالإشارة تجيئه من الخارج عفواً أو

قصداً كما يثار الجرح أو الدمل باللمس والشك، وهمت بالكلام ولكنها أمسكت مضطرة لأن أنفاسها لم تسعفها فخافت أن تفضحها نبراتها، وعند ذاك تنهدت خديجة قائلة:

ـ لهذا تجديننى فى غاية الحزن والأسف، ولكن ربنا كريم، وما شدَّة إلا وبعدها الفرج، فعسى أن ينتظر ويصبر ويكون من نصيبك بالرغم مما بدا.

وهتفت جوارحها: «يا ليت». أما لسانها فقال:

ـ سيان عندى، الأمر أبسط مما تظنين.

ـ أرجو أن يكون كذلك.. إنى جد حزينة وآسفة يا عائشة.

وفتح الباب فجأة وبدا شبح كمال فى الشعاع الخافت الذى تسلل من فرجة الباب فصاحت به خديجة فى ضيق:

ـ لماذا جئت؟ وماذا تريد؟

فقال الغلام بصوت يشى باحتجاجه على سوء مقابلتها له:

ـ لا تنهرينى.. وأفسحى لى.

ووثب إلى الفراش وركع بينهما، ثم دس يدا إلى واحدة ويدا إلى الأخرى، وراح يدغدغهما، ليهيىء لحديثه جواً طيبا غير الجو الذى أنذرت به نهرة خديجة، ولكنهما نترتا يديه، وقالتا بصوتين متتابعين:

ـ آن لك أن تنام، فاذهب ونم.

ولكنه هتف فى غيظ:

ـ لن أذهب حتى أعرف ما جئت أسأل عنه!

ـ عم تسأل فى هذه الساعة من الليل؟

فقال مغيراً لهجته حتى يستجيبا له:

ـ أريد أن أعرف هل تتركان بيتنا إذا تزوجتما؟

فصاحت به خديجة:

ـ انتظر حتى يجيء الزواج!

فتساءل فى عناد:

ـ ولكن ما هو الزواج؟

ـ كيف أجيبك وأنا لم أتزوج.. اذهب ونم الله لا يسيئك.

ـ لن أذهب حتى أعرف.

ـ يا حبيبى توكل على الله وفارقنا.

قال بصوت حزين:

- أريد أن أعرف هل تغادران البيت إذا تزوجتما؟

فقالت فى ضجر:

- نعم يا سيدى.. ماذا تريد أيضًا؟

فقال فى جزع:

- إذن لا تتزوجا.. هذا ما أريد.

- سمعا وطاعة.

فعاد يقول فى احتجاج ثائر:

- أنا لا أطيق أن تذهبا بعيداً عنا وسأدعو الله ألا يزوجكما.

فهتفت:

- من فمك لباب السما.. عال.. عال.. ربنا يكرمك. تفضل فارقنا مع السلامة.

٢٧

سرى فى البيت شعور بأنه يستقبل من حياته المرهقة بالتزمت يوم راحة يستطيع - إذا شاء - أن يستروح فيها نسمة من الحرية البريئة فى أمن من الرقيب. فظن كمال أنه غدا فى حل من أن يقطع اليوم كله فى اللعب داخل البيت أو خارجه، وتساءلت خديجة وعائشة ألا يمكن أن تنسلا مساء إلى بيت مريم لقضاء ساعة فى لهو ومرح؟ لم تجىء هذه الراحة نتيجة لانقضاء شهور الشتاء الكالح وحلول بشائر الربيع ملوّحة بالدفء والبشاشة، إذ ليس من شأن الربيع أن يهب هذه الأسرة حرية يحرمها إياها الشتاء، ولكنها جاءت نتيجة طبيعية لسفر السيد أحمد إلى بورسعيد فى مهمة تجارية تدعوه كل عدة أعوام إلى السفر يوما أو بعض يوم، واتفق أن سافر الرجل صباح الجمعة فجمعت العطلة الرسميةبين أفراد الأسرة.. وتجاوبت رغباتهم الظمأى إلى الحرية فى الجو الطليق الآمن الذى خلقه على غير انتظار رحيل الأب عن القاهرة كلها، بيد أن الأم وقفت من رغبة الفتاتين وجماح الغلام وقفة المتردد، لأنها كانت تحرص على أن تواظب الأسرة على سيرتها المألوفة، وأن تلتزم - فى غياب الأب - الحدود التى تلتزمها فى حضوره خوفا من مخالفته أكثر منها اقتناعا بوجاهة شدته وصرامته، ولكنها ما تدرى إلا وياسين يقول لها:

- لا تعارضى بالله.. إننا نحيا حياة لا يحياها أحد من الناس، بل أريد أن أقول شيئا جديداً.. لماذا لا تروَّحين عن نفسك أنت؟!.. ما رأيكم فى هذا الاقتراح؟!

وتطلعت إليه الأعين فى دهشة ولكن أحداً لم ينبس بكلمة، ولعلهم ـ كأمهم التى رمته بنظرة تأنيب ـ لم يحملوا قوله محمل الجد، إلا أنه استطرد قائلا :

ـ لماذا تنظرين إلىّ هكذا؟! . . لم أخطئ فى البخارى، وليس ثمة جريمة والحمد لله، ما هو إلا مشوار قصير ترجعين منه وقد ألقيت نظرة على جزء صغير من الحى الذى عشت فيه أربعين عاما دون أن ترى منه شيئا . .

فتنهدت المرأة متمتمة :

ـ سامحك الله . .

فقهقه الشاب قائلا :

ـ علام يسامحنى؟ . . هل اقترفت ذنبا لا يغتفر؟ . والله لو كنت مكانك لمضيت من توى إلى سيدنا الحسين ألا تسمعين؟ . . حبيبك الذى تهيمين به على البعد وهو قريب، قومى إنه يدعوك إليه . .

وخفق قلبها خفقانا لاحت آثاره فى احمرار وجهها فخفضت رأسها لتخفى تأثرها الشديد، انجذب قلبها إلى الدعاء بقوة تفجرت فى نفسها فجأة على غير انتظار لا منها ولا من أحد ممن حولها حتى ياسين نفسه، كأنما زلزال قد وقع بأرض لم تعرف الزلازل، فلم تدر كيف استجاب قلبها للنداء، ولا كيف تطلع بصرها إلى ما وراء الحدود المحرمة، ولا كيف تراءت المغامرة ممكنة بل مغرية بل طاغية، أجل بدت زيارة الحسين عذراً قويا ـ له صفة القداسة ـ للطفرة اليسارية التى نزعت إليها إرادتها، ولكنها لم تكن وحدها التى تمخضت عنها نفسها إذ لبت دعاءها فى الأعماق تيارات حبيسة متلهفة على الانطلاق كما تلبى الغرائز المتعطشة للقتال نداء الدعاء إلى الحرب بحجة الدفاع عن الحرية والسلام . ولم تدر كيف تعلن عن استسلامها الخطير، ولكنها نظرت إلى ياسين وسألته بصوت متهدج :

ـ زيارة الحسين منية قلبى وحياتى . . ولكن . . أبوك؟

فضحك ياسين قائلا :

ـ أبى فى طريقه إلى بور سعيد ولن يعود قبل ضحى الغد، وبوسعك ـ زيادة فى الحيطة ـ أن تستعيرى ملاءة أم حنفى اللف حتى إذا اتفق أن رآك أحد وأنت تغادرين البيت أو وأنت تعودين إليه ظنك زائرة .

ورددت عينيها بين الأبناء فى خجل وتهيب كأنها تنشد المزيد من التشجيع، فتحمست خديجة وعائشة للاقتراح، وكأنهما تعبران بحماسهما عن رغبتهما الحبيسة فى الانطلاق، وفرحتهما بزيارة مريم التى باتت ـ بعد هذا الانقلاب ـ فى حكم المقرر، وهتف كمال من أعماق قلبه :

ـ سأذهب معك يا نينة لأدلك على الطريق .

وحدجها فهمى بنظرة عطف أثاره فى نفسه ما طالعه فى وجهها البرىء من سرور حائر كسرور الطفل إذا منى بلعبة جديدة فقال لها فى تشجيع واستهانة :

ـ ألقى نظرة على الدنيا ، لا عليك من هذا فإنى أخاف أن تنسى المشى من طول لزومك للبيت ! . .

وفى فورة الحماس جرت خديجة إلى أم حنفى ثم عادت بملاءتها ، وتزاحمت الأصوات بالضحك والتعليق ، فغدا اليوم عيدا سعيدا لا عهد لأحد به ، واشترك الجميع ـ وهم لا يدرون ـ فى الثورة على إرادة الأب الغائب . والتفت الست أمينة فى الملاءة وأسدلت البرقع الأسود على وجهها ، ثم نظرت فى المرآة فلم تتمالك من أن تضحك طويلا حتى اهتز جذعها ، وارتدى كمال بذلته وطربوشه وسبقها إلى فناء البيت ، ولكنها لم تتبعه ، ركبها شعور الرهبة الذى يلازم المواقف الفاصلة ، فرفعت عينيها إلى فهمى وتساءلت :

ـ ما رأيكم . هل أذهب حقا؟

فصاح بها ياسين :

ـ توكلى على الله . .

وتقدمت منها خديجة ووضعت يدها على منكبيها ودفعتها برفق وهى تقول :

ـ الفاتحة أمانة . .

ولم تزل تدفعها حتى أوصلتها إلى السلم ، ثم رفعت يدها فنزلت المرأة والجميع فى أعقابها . . ووجدت أم حنفى فى انتظارها ، فألقت الخادم على سيدتها ـ أو بالأحرى على الملاءة الملتفة بها ـ نظرة فاحصة ، ثم هزت رأسها هزة انتقادية ، وتقدمت منها وأعادت لف الملاءة حول جسمها وعلمتها كيف تمسك بطرفها فى الوضع المناسب ، فانقادت لها سيدتها التى كانت ترتدى الملاءة اللف لأول مرة ، وعند ذاك ارتسمت ملامح قامتها وقدها فى تفصيل وسيم ، وتخفيه عادة جلابيبها الفضفاضة ، فألقت خديجة عليها نظرة إعجاب باسمه وغمزت بعينها لعائشة وأغرقتا فى الضحك . .

ولاقت وهى تعبر عتبة الباب الخارجى إلى الطريق لحظة دقيقة جف لها ريقها فضاع السرور فى نوبة القلق ووطأة الإحساس بالذنب ، وتحركت فى بطء وهى قابضة على يد كمال بحال عصبية ، وبدت مشيتها مضطربة مخلخلة كأنها عاجزة عن مبادئ المشى الأولية ، إلى ما اعتراها من حياء شديد ، وهى تتعرض لأعين الناس الذين عرفتهم من عهد بعيد من وراء خصاص المشربية ـ عم حسنين الحلاق ودرويش بائع الفول والفولى اللبان وبيومى الشربتلى وأبو سريع صاحب المقلى ـ حتى توهمت أنهم سيعرفونها كما

تعرفهم ـ أو لأنها تعرفهم ـ ووجدت مشقة فى تثبيت حقيقة بديهية فى رأسها وهى أن عينا منهم لم تقع عليها مدى الحياة، وعلى تلك الحال عبرا الطريق إلى درب قرمز لأنه وإن يكن أقصر الطرق إلى جامع الحسين إلا أنه كان لا يمر ـ كطريق النحاسين ـ بدكان السيد فضلا عن خلوه من الدكاكين وانقطاع المارة عنه إلا فيما ندر، وتوقفت لحظة قبل أن توغل فيه، والتفتت صوب المشربية فرأت شبحى ابنتيها وراء ضلفة منها بينما رفعت ضلفة أخرى عن وجهى ياسين وفهمى الباسمين، فاستمدت من منظرهما شجاعة استعانت بها على ارتباكها، ثم جدَّت فى السير ـ وهى وغلامها ـ يقطعان الدرب المقفر فى شىء من الطمأنينة، لم يغب عنها القلق ولا الإحساس بالذنب ولكنهما تراجعا إلى حاشية الشعور الذى احتلت مركزه عاطفة استطلاع حماسية نحو الدنيا التى يتراءى لها درب من دروبها وميدان من ميادينها وغرائب من مبانيها وعديد من أناسها، ووجدت سرورا ساذجا لمشاركة الأحياء فى الحركة والانطلاق، سرور من قضت ربع قرن سجينة الجدران ما عدا زيارات معدودات لأمها فى الخرنفش ـ بضع مرات فى العام ـ تقوم بها داخل حنطور بصحبة السيد فلا تسعفها الشجاعة حتى لا ستراق النظر إلى الطريق. . وجعلت تسأل كمال عما يصادفهما فى طريقهما من مشاهد وأبنية وأماكن، والغلام يحدثها فى إسهاب مزهوًا بدور المرشد الذى يقوم به، فهذا هو قبو قرمز المشهور الذى يجب ـ قبل الدخول فيه ـ تلاوة الفاتحة، وقاية من العفاريت التى تسكنه، وهذا ميدان بيت القاضى بأشجاره الباسقة وكان يسميه ميدان «ذقن الباشا» مطلقا عليه اسم الزهر الذى يعلو أشجاره، أو يسميه أحيانا أخرى «ميدان شنجرلى» ساحبا عليه اسم بائع الشيكولاته التركى، أما هذا البناء الكبير فهو قسم الجمالية، ومع أن الغلام لم يجد به ما يستحق اهتمامه سوى السيف المدلى من وسط الديدبان إلا أن الأم ألقت عليه نظرة مليئة بحب الاستطلاع الخليق بمكان يقيم به الرجل الذى سعى إلى طلب يد عائشة، حتى بلغا مدرسة خان جعفر الأولية، التى قضى بها عاما قبل التحاقه بمدرسة خليل أغا الابتدائية، فأشار إلى شرفتها الأثرية وهو يقول «فى هذه الشرفة كان الشيخ مهدى يلصق وجوهنا بالجدار لأقل هفوة، ويركلنا بحذائه خمسا أو ستا أو عشرا كما يحلو له» ثم أومأ إلى دكان يقع تحت الشرفة مباشرة وقال بلهجة لم يغب عنها مغزاها وهو يتوقف عن السير «وهذا عم صادق بائع الحلوى»، ثم لم يقبل التزحزح عن موضعه حتى أخذ قرشا وابتاع به ملبنا أحمر، انعطفا بعد ذلك إلى طريق خان جعفر فلاح لهما عن بعد جانب من المنظر الخارجى لجامع الحسين، يتوسطه شباك عظيم الرقعة محلًّى بالزخارف العربية، وتعلوه فوق سور السطح شرفات متراصة كأسنة الرماح فتساءلت والبشر يسجع فى صدرها «سيدنا الحسين؟» ولما أجابها بالإيجاب مضت تقارن بين المنظر الذى تقترب منه ـ وقد حثت خطاها لأول مرة منذ غادرت البيت ـ وبين الصورة التى خلقها خيالها له مستعينا فى خلقه بنماذج من الجوامع

التى فى متناول بصرها كجامع قلاوون فوجدت الحقيقة دون الخيال لأنها كانت تنفخ فى الصورة طولا وعرضا على قدر يناسب منزلة صاحب الجامع من نفسها بيد أن هذا الاختلاف بين الحقيقة والخيال لم يكن ليؤثر شيئا فى فرحة اللقاء التى ثملت بها جوانحها. ودارا حول الجامع حتى الباب الأخضر ودخلا فى زحمة الداخلات. ولما وطئت قدما المرأة أرض المسجد شعرت بأن بدنها يذوب رقة وعطفا وحنانا، وأنها تستحيل روحا طائراً يرفرف بجناحيه فى سماء يسطع بجنباتها عرف النبوة والوحى فاغرورقت عيناها بالدمع الذى أسعفها للترويح عن جيشان صدرها وحرارة حبها وإيمانها وأريحية امتنانها وفرحها، وراحت تلتهم بأعين شيقة مستطلعة، جدرانه وسقفه وعمده وأبسطته ونجفه ومنبره ومحاريبه، وإلى جانبها كان كمال ينظر إلى هذه الأشياء من ناحية أخرى خاصة به ترى أن الجامع يكون مزاراً للناس فى النهار والهزيع الأول من الليل، وبيتًا من بعد ذلك لصاحبه الشهيد يذهب فيه ويجىء مستعملا ما فيه من أثاث على نحو ما يستعمل المالك ملكه، فيطوف بأرجائه ويصلى فى المحراب ويرتقى المنبر ويعلو النوافذ ليشرف على حيه المحيط، وكم تمنى حالما لو ينسونه فى الجامع بعد أن يغلق أبوابه فيمكنه أن يلقى الحسين وجها لوجه وأن يمضى فى حضرته ليلة كاملة حتى الصباح، وتخيل ما يخلق به أن يقدمه له عند اللقاء من أى الحب والخضوع وما يجدر به أن يلقيه عند قدميه من أمانيه ورغباته وما يرجوه بعد ذلك عنده من العطف والبركة، تخيل نفسه وهو يقترب منه خافض الرأس فيسأله الشهيد برقة «من أنت؟» فيجيبه وهو يقبّل يده «كمال أحمد عبدالجواد» ويسأله عن عمله فيقول له «تلميذ ـ ولن ينسى التنويه بتفوقه ـ بمدرسة خليل أغا» ويسأله عما جاء به فى هذه الساعة من الليل، فيجيبه بأنه حب آل البيت عامة والحسين خاصة، فيبسم إليه عطفا، ويدعوه إلى مرافقته فى تجواله الليلى، وعند ذاك يبوح له بأمانيه جملة قائلا: «أضمن لى أن ألعب كما أشاء داخل البيت وخارجه، وأن تبقى عائشة وخديجة فى بيتنا إلى الأبد، وأن تغير طبع أبى، وأن تمد فى عمر أمى إلى ما لا نهاية، وأن آخذ من المصروف قدر كفايتى، وأن ندخل الجنة جميعا بغير حساب»..

هذا وتيار الزائرات الزاحف فى بطء يدفعهما رويداً حتى وجدا نفسيهما فى مثوى الضريح، طالما تلهفت أشواقها على زيارة هذا المثوى كما تتلهف على حلم يستحيل تحقيقه فى هذه الدنيا، ها هى تقف بين أركانه، بل ها هى لصق جدران الضريح نفسه، تشرف نفسها عليه خلال الدموع، وتود لو تتريث لتتملى مذاق السعادة لولا شدة ضغط الزحام، ومدت يدها إلى الجدران الخشبية، واقتدى كمال بها، ثم قرءا الفاتحة، ومسحت بالجدران وقبلتها ولسانها لا ينى عن الدعاء والتوسل ودَّت لو تقف طويلا أو تجلس فى ركن من الأركان لتعيد النظر والتأمل ثم لتعيد الطواف، ولكن خادم المسجد وقف للجميع بالمرصاد، لا يسمح لواحدة بالتلكؤ ويحث المتباطئات، ويلوح منذراً

بعصاه الطويلة، وهو يدعو الجميع إلى إتمام الزيارة قبل حلول ميعاد صلاة الجمعة، ارتوت من المنهل العذب ولكنها لم تطفئ ظمأها، وهيهات أن يروى لها ظمأ، لقد أهاج الطواف حنينها فتفجرت عيونه وسال وزخر ولن يزال ينشد المزيد من القرب والابتهاج، ولما وجدت نفسها مرغمة على مغادرة المسجد انتزعت نفسها منه انتزاعا، وأودعته قلبها وهى توليه ظهرها، ثم مضت حسرى يعذبها شعورها بأنها تودعه الوداع الأخير، بيد أن ما طبعت عليه من قناعة واستسلام آخذها على ما استسلمت له من الحزن فردَّها إلى تملّى ما ظفرت به من سعادة طارت بها هواجس الفراق، ودعاها كمال إلى مشاهدة مدرسته فمضيا إليها فى نهاية شارع الحسين. ووقفا عندها مليا. ولما أرادت الرجوع من حيث أتت أنذره ذكر العودة بانتهاء الرحلة السعيدة مع أمه التى لم يحلم بمثلها من قبل فأبى التفريط فيها واستمات فى الدفاع عنها فاقترح عليها أن يسيرا فى السكة الجديدة حتى الغورية، ولكى يقضى على المقاومة التى بدت فى صورة تقطيبة باسمة من وراء البرقع حلَّفها بالحسين فتنهدت. واستسلمت ليده الصغيرة، ومضيا يشقان طريقهما فى زحمة شديدة وبين تيارات متلاطمة من السائرين فى جميع الجهات مما لم تجد عُشر معشاره فى الطريق الهادئ الذى جاءت منه فعلاها الارتباك، وأخذت تفقد نفسها فى اضطراب شامل، ولم تلبث أن شكت إليه ما تلقى من عناء وإعياء، ولكن تهالكه على إتمام الرحلة السعيدة جعله يصم أذنيه عن شكاتها ويشجعها على مواصلة السير ويلهيها عن متاعبها بلفت نظرها إلى الدكاكين والعربات والمارة، وهما يقتربان فى بطء شديد صوب منعطف الغورية، وعند ذاك المنعطف لاح لناظريه دكان فطائر فسال لعابه وثبتت عيناه عليها لا تتحولان وراح يفكر فى وسيلة لإقناع أمه بالدخول إلى الدكان وابتياع فطيرة، وبلغا الدكان وهو لا يزال يفكر، ولكنه ما يدرى إلا وأمه تفلت من يده فالتفت نحوها فى ذهول ورعب دون أن يبدى حراكا ولكنه على ذهوله ورعبه رأى بجانب عينه ـ فى نفس الوقت تقريبا ـ سيارة تفرمل محدثة صوتا عنيفا ومرسلة وراءها ذيلا من الدخان والغبار فكادت تدوس الملقاة لولا أن انحرفت عنها مقدار شبر، وتعالى صياح وحدثت ضجة وهرع الناس إلى المكان من جميع نواحى الطريق كما تهرع الصبية إلى صفارة الحاوى فضربوا حولها حلقة غليظة بدت أعينا مستطلعة ورءوسا مشرئبة وألسنة تهتف بكلام اختلطت أسئلته بأجوبته، وأفاق كمال من الصدمة بعض الشىء فراح يردد عينيه بين أمه الملقاة عند قدميه وبين الناس فى حال ناطقة بالخوف والاستغاثة ثم ارتمى على ركبتيه إلى جانبها ووضع كفه على منكبها وناداها بصوت تفتت نبراته بحرارة الرجاء ولكنها لم تستجب له فرفع رأسه مقلبا عينيه فى وجوه الناس، ثم صرخ باكيا فى نحيب حار علا على الضجة التى تكتنفه حتى كاد يسكتها وتطوع البعض لمواساته بكلمات لا معنى لها، وانحنى آخرون فوق أمه مستطلعين بنظرات كمنت وراءها رغبتان. تنشد إحداهما

السلامة للضحية، وتنزع الأخرى ـ فى حال اليأس من السلامة ـ إلى أن ترى الموت ـ ذلك الحتم المؤجل ـ وهو يطرق بابا غير بابهم، وينتزع روحا غير روحهم كأنهم يودون أن يقوموا بشبه بروفة آمنة لأخطر دور قضى عليهم جميعا أن يختموا الحياة بلعبة، وصاح أحدهم قائلا «صدمها باب السيارة الأيسر فى ظهرها»، وقال السائق الذى غادر السيارة ووقف مختنقا بجو الاتهام الذى يطبق عليه «لقد انحرفت عن الطوار بغتة فلم أستطع أن أتفادى من صدمها، ولكنى فرملت بسرعة فجاءت الصدمة خفيفة، ولولا رعاية الله لدستها» . . وجاء صوت من المحدقين إليها قائلا: «ما زالت تتنفس . . أغمى عليها فقط»، وعاد السائق يقول وقد لمح الشرطى قادما يترنح سيفه بجنبه الأيسر «إنها صدمة خفيفة . . لم تتمكن منها أبدا. إنها بخير . . بخير يا جماعة والله . . » ثم انتصبت قامة أول رجل تقدم لفحصها وقال كأنما يلقى خطبة «ابتعدوا ولا تمنعوا الهواء . . فتحت عينيها . . بخير . . بخير والحمد لله! . . » كان يتكلم بابتهاج لا يخلو من زهو كأنه هو الذى رد إليها الحياة، ثم تحول إلى كمال الذى غلبه بكاء عصبى فاسترسل فيه فى انفعال لم تجد معه مواساة المواسين، تحول إليه وربت على خده بحنان وقال له «حسبك يا بنى . . أمك بخير . . انتظر . . هلم ساعدنى على إقامتها» . . ولكن كمال لم يمسك عن البكاء حتى رأى أمه تتحرك فمال نحوها ووضع يسراها على كتفه، وعاون الرجل على إقامتها حتى أمكن بجهد شديد أن تقف بينهما فى إعياء وخور وقد سقطت عنها الملاءة التى امتدت بعض الأيدى لتعيدها إلى موضعها ـ بقدر الإمكان ـ حول كتفيها، ثم قدم لها الفطائرى الذى وقعت الحادثة أمام دكانه مقعداً فأقعدوها عليه وجاءها بقدح من الماء فتجرعت جرعة سال نصفها على عنقها وصدرها فمسحت بيدها على صدرها بحركة عكسية وهى تزفر زفرة عميقة. وجعلت تردد أنفاسا مضطربة بصعوبة وتنظر فى وجوه المحدقين بها فى ذهول وهى تتساءل «ماذا جرى؟ . . ماذا جرى؟ . . رباه لماذا تبكى يا كمال؟!» وعند ذاك اقترب الشرطى منها وسألها «هل بك سوء يا سيدتى؟ وهل تستطيعين السير إلى القسم؟» فصدم اسم «القسم» عقلها فرجَّها من الأعماق وهتفت بفزع «لماذا أذهب إلى القسم؟ . . لا أذهب إلى القسم أبدا» فقال لها الشرطى «لقد صدمتك السيارة فأوقعتك، فإذا كان بك سوء وجب أن تذهبى أنت وهذا السائق إلى القسم لتحرير المحضر» ولكنها قالت وهى تلهث «كلا . . كلا . لن أذهب . . أنا بخير» فقال لها الشرطى «توكدى مما تقولين، انهضى وامشى لنرى إن كان أصابك سوء»، ولم تتردد عن النهوض ـ مدفوعة بالفزع الذى أثاره ذكر القسم ـ فنهضت وأصلحت ملاءتها ثم سارت تحت الأعين المستطلعة وكمال إلى جانبها ينفض عن الملاءة ما علق بها من تراب، ثم قالت للشرطى وهى ترجو أن تنتهى هذه الحال المؤلمة بأى ثمن «إنى بخير . . (ثم مشيرة إلى السائق) . . دعوه . . لا شىء بى» لم تعد تشعر بخور فيما ركبها من خوف، هالها

منظر الناس المحدقين بها، خاصة الشرطى الذى يتقدمهم، وارتعدت تحت وقع النظرات المصوبة نحوها من كل مكان متحدية باستهانة بالغة تاريخا طويلا من التستر والتخفى فتخايلت لعينيها فوق هذا الجمع صورة السيد وكأنها تتفرس فى وجهها بعينين باردتين متحجرتين منذرتين بما لا تطيق تصوره من الشر، فلم تأل أن قبضت على يد الغلام واتجهت به صوب الصاغة فلم يعترض سبيلها أحد وما غيبهما منعطف الطريق حتى شهقت من الأعماق وخاطبت كمال وكأنما تخاطب نفسها «يا ربى ماذا حدث؟ ماذا رأيت يا كمال؟ كأنه حلم مفزع، خيل إلى أنى أهوى من عل إلى هاوية مظلمة، وأن الأرض تدور تحت قدمى، ثم غبت عن كل شىء حتى فتحت عينى على ذلك المنظر المخيف، رباه.. هل أراد حقا أن يذهب بى إلى القسم؟! يا لطيف يا رب.. يا منجى يا رب، متى نبلغ بيتنا؟! بكيت كثيراً يا كمال لا عدمت عينيك أبدا.. جفف عينيك بهذا المنديل حتى تغسل وجهك فى البيت.. آه».

وتوقفت عن السير بعد أن أوشكا أن يطويا طريق الصاغة، واعتمدت بيدها على منكب الغلام وقد تقلص وجهها، فرفع كمال وجهه إليها منزعجا وسألها:

- ماذا بك؟!

فأغمضت عينيها وهى تقول بصوت ضعيف:

- إنى تعبة، تعبة جدا، لا تكاد تحملنى قدماى، ادع أول عربة تصادفك يا كمال.

ونظر كمال فيما حوله فلم ير إلا عربة كارو واقفة عند باب مستشفى قلاوون فنادى الحوذى الذى بادر إلى سوق العربة حتى وقف بها أمامهما واقتربت الأم منها متكئة على كتف كمال ثم صعدت إلى سطحها بمعونته واعتماداً على منكب الحوذى الذى وطأه لها حتى تربعت وهى تتنهد فى إعياء شديد، وجلس كمال إلى جانبها ثم وثب الحوذى إلى المقدمة ونخس الحمار بقبضة سوطه فمشى مشيته الوئيدة والعربة تترنح وراءه مطقطقة.. وتأوهت المرأة متمتمة «ما أشد ألمى، عظام كتفى تتفكك» هذا وكمال يرمقها فى جزع وقلق.. ومرت العربة فى طريقها بدكان السيد دون أن يعيراها التفاتا، ومضى كمال يتطلع إلى الأمام حتى لاحت لعينيه مشربيات البيت.. لم يعد يذكر من الرحلة السعيدة إلا نهايتها المحزنة..

٢٨

فتحت أم حنفى الباب فأذهلها أن ترى سيدتها متربعة على عربة كارو، وقد ظنت لأول وهلة أنه ربما يكون قد خطر لها أن تختم رحلتها بجولة فى العربة على سبيل

اللهو فلاحت على وجهها ابتسامة ولكن إلى لحظة قصيرة إذ ما لبثت أن رأت عينى كمال المحمرتين من البكاء فارتدت عيناها إلى سيدتها فى انزعاج واستطاعت هذه المرة أن تلمس ما تعانى من إعياء فندت عنها آهة وهرعت إلى العربة هاتفة «ستى، ما لك، بعد الشر عنك» فقال الحوذى «تعب بسيط إن شاء الله، عاونينى على إنزالها» وتلقتها المرأة بين ذراعيها، وسارت بها إلى الداخل وتبعهما كمال واجما محزونا، وكانت خديجة وعائشة قد غادرتا المطبخ وانتظرتا فى الفناء وكلتاهما تفكر فى دعابة تلقى بها القادمين فما راعهما إلا أن تطلع عليهما أم حنفى من الدهليز الخارجى وهى تكاد تحمل الأم حملا فندت عنهما صرخة، وهرعتا إليها فزعتين وهما تهتفان :

ـ نينة . . نينة . . ما لك!

وتعاونوا جميعا على حملها، ولم تكف خديجة فى أثناء ذلك عن أن تسأل كمال عما حدث حتى اضطر الغلام إلى أن يغمغم فى خوف بالغ :

ـ سـيارة!

ـ سـيارة! . .

هكذا هتفت الفتاتان معًا مرددتين الاسم الذى وقع من نفسيهما موقعا مفزعا فاق الاحتمال. فولولت خديجة هاتفة «يا خبر اسود . . بعد الشر عنك يا نينة» أما عائشة فانعقد لسانها وأفحمت فى البكاء، ولم تكن الأم غائبة عن الوجود وإن كانت من الإعياء فى نهاية فهمست على إعيائها رغبة فى تسكين اضطرابهما :

ـ إنى بخير، لم يحدث سوء، ما بى إلا تعب.

وتناهت الضجة إلى ياسين وفهمى فخرجا إلى رأس السلم، وأطلا من فوق الدرابزين وما لبثا أن نزلا مهرولين منزعجين وهما يتساءلان عما حدث، ولم تملك خديجة إلا أن تشير إلى كمال ليجيب بنفسه مشفقة من ترديد الاسم الرهيب فاتجه الشابان إلى الغلام الذى عاد يغمغم بحزن وارتباك :

ـ سـيارة!

ثم انتحب باكيا، وتحول الشابان عنه مؤجلين ما يلح عليهما من أسئلة إلى حين، وحملا الأم إلى حجرة الفتاتين وأجلساها على الكنبة، ثم سألها فهمى قلقا معذبا :

ـ خبرينى عما بك يا نينة، أريد أن أعرف كل شىء.

ولكنها مالت برأسها إلى الوراء ولم تنبس بكلمة وريثما تسترد أنفاسها على حين علا بكاء خديجة وعائشة وأم حنفى وكمال حتى فقد فهمى أعصابه فثار بهن ونهرهن حتى أمسكن، ثم جذب كمال إليه ليستجوبه عما يريد، كيف وقع الحادث، وماذا فعل الناس

بالسائق، وهل أخذوكما إلى القسم، وكيف كان حال الأم فى أثناء ذلك كله، هذا وكمال يجيبه على أسئلته بلا تردد وفى إسهاب، وعن أكثر التفاصيل، وكانت الأم تتابع الحديث بالرغم من وهنها فلما سكت الغلام استجمعت قواها وقالت:

- إنى بخير يا فهمى، لا تزعج نفسك، كانوا يريدون أن أذهب إلى القسم فرفضت، ثم واصلت السير حتى نهاية الصاغة وهناك خارت قواى فجأة، لا تنزعج، سأسترد قواى بعد راحة قصيرة.

إلا أن ياسين عانى - إلى انزعاجه للحادث - حرجًا شديداً لأنه كان المسئول الأول عن الرحلة المشئومة - بهذا وصفت بعد الحادث - فاقترح عليهم أن يستدعوا طبيبا، وغادر الحجرة لتنفيذ اقتراحه دون انتظار لمعرفة رأى الآخرين، وارتعدت الأم لذكر الطبيب كما ارتعدت من قبل لذكر القسم فرجَت فهمى أن يلحق بأخيه وأن يثنيه عن عزمه مؤكدة له بأنها ستبرأ دون حاجة إلى طبيب ولكن الشاب رفض الإذعان لرجائها مبينا لها أوجه الفائدة المنوطة بمجيئه، وفى أثناء ذلك تعاونت الفتاتان على نزع الملاءة عنها، وجاءتها أم حنفى بقدح ماء ثم أحاطوا بها جميعا وهم يتفحصون بقلق وجهها الذى علاه الشحوب ويسألونها مراراً وتكراراً عما تجد، وهى تحاول ما استطاعت أن تتظاهر بالهدوء أو أن تقنع بأن تقول إذا ألح عليها الألم «ثمة ألم خفيف فى كتفى اليمنى» ثم تستدرك قائلة «ولكن لم يكن من داع لاستدعاء طبيب»، والحق أنها لم ترتح لاستدعائه أبدا، لأنها من ناحية لم تلق طبيبا قط - لا لحصانة صحتها فحسب - ولكن لأنها نجحت دائما فى مداواة ما يلم بها من توعك أو انحراف بطبها الخاص فلم تؤمن بالطب الرسمى، إلى أنه اقترن فى ذهنها بالحوادث الخطيرة والخطوب الفادحة، ومن ناحية أخرى فقد شعرت بأن استدعاء الطبيب من شأنه أن يهول الأمر الذى تود له الستر والطى قبل عودة السيد. . ولم تأل أن أفصحت لأبنائها من مخاوفها، ولكنهم لم يهتموا فى تلك اللحظة الدقيقة إلا بشىء واحد، وهو سلامتها.

لم يغب ياسين أكثر من ربع ساعة لأن عيادة الطبيب كانت فى ميدان بيت القاضى، ثم عاد يتقدم الرجل الذى أدخل على الأم حال حضوره، وأخليت الغرفة فلم يبق بها معه إلا ياسين وفهمى، وسأل الطبيب الأم عما تشكو فأشارت إلى كتفها اليمنى وقالت وهى تزدرد ريقها الذى جف من الخوف:

- أشعر هنا بألم.

وعلى هدى إشارتها، إلى ما حدثه به ياسين فى الطريق عن الحادث جملة، تقدم لفحصها، وطال وقت الفحص فى شعور الشابين المنتظرين فى الداخل، وشعور المنتظرات وراء الباب مرهفات السمع خافقات القلب، وتحول الطبيب عن المصابة إلى ياسين قائلا:

ـ كسر فى الترقوة اليمنى، هذا كل ما هنالك.

وأحدثت «لفظة» الكسر ارتياعا فى الداخل والخارج، وعجب الجميع لقوله «هذا كل ما هنالك» كأن وراء الكسر شيئا يتسع له احتمالهم، على أنهم وجدوا فى ذات التعبير، واللهجة التى ألقى بها ما يغرى بالطمأنينة فتساءل فهمى وهو بين الخوف والأمل:

ـ وهل هو شىء خطير؟

ـ كلا ألبتة، سأعيد العظم إلى سابق موضعه وأشده ولكن عليها أن تنام بضع ليال وهى قاعدة مسندة الظهر إلى وسادة لأنه سيتعذر عليها أن تنام على الظهر أو الجنبين، وسوف يجبر الكسر وتعود إلى ما كانت عليه فى ظرف أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر، لا داعى للخوف مطلقا.. والآن دعونى أعمل..

ومهما يكن من أمر فقد استروحوا نسمة سلام بعد أن جفت منهم الحناجر، وبدا هذا الأثر واضحا بين الجماعة خارج الحجرة فتمتمت خديجة:

ـ فلتحل بها بركة سيدنا الحسين الذى ما خرجت إلا لزيارته.

وكأنما تذكر كمال بقولها أمراً هاما أنسيه طويلا فقال بدهشة:

ـ كيف أمكن أن يقع لها هذا الحادث بعد تبركها بزيارة سيدنا الحسين؟

ولكن أم حنفى قالت ببساطة:

ـ ومن أدرانا بما كان يحدث لها ـ والعياذ بالله ـ لو لم تتبرك بزيارة سيدها وسيدنا؟.

ولم تكن عائشة قد أفاقت من أثر الصدمة فضاق صدرها بالحديث وهتفت برجاء حار:

ـ آه يا ربى متى ينتهى كل شىء كأنه لم يكن!.

وعادت خديجة تقول بأسف وحسرة:

ـ ما الذى ذهب بها إلى الغورية؟! لو رجعت بعد الزيارة إلى البيت مباشرة لما حدث لها الذى حدث!.

فدق قلب كمال خوفا وانزعاجا وتجسم ذنبه لعينيه جريمة نكراء ولكنه حاول التملص من الشبهات فقال بلهجة تنم عن لوم:

ـ أرادت أن تتمشى فى الطريق وعبثا حاولت أن أثنيها عن إرادتها.

فحدجته خديجة بنظرة اتهام وهمت بالرد عليه ولكنها أمسكت إشفاقا وعطفا على وجهه الذى علاه الاصفرار، ثم قالت لنفسها «حسبنا ما نحن فيه الآن».

وفتح الباب وغادر الطبيب الحجرة وهو يقول للشابين اللذين تبعاه:

ـ ينبغى أن أعودها يوما بعد يوم حتى يجبر الكسر، وكما قلت لكما لا داعى للخوف مطلقا.

واقتحم الجميع الحجرة فرأوا أمهم قاعدة فى الفراش، مسندة الظهر إلى وسادة مكسورة وراءها ولم يكن ثمة تغيير إلا ارتفاع فى كتف الفستان فوق منكبها الأيمن وشى بالرباط الذى تحته، فهرعوا إليها وهتفوا:

ـ الحمد لله.

وكم اشتد بها الألم والطبيب يعالج الكسر فأنَّت أنينا متواصلا، ولولا ما طبعت عليه من حياء لصرخت عاليا، ولكن زايلها الآن الألم، أو هكذا بدا، وشعرت براحة نسبية وسكينة، بيد أن زوال حدة الألم مكنت لعقلها من استئناف نشاطه فاستطاعت أن تفكر فى الموقف من مختلف نواحيه وما لبث أن ركبها الخوف فقالت متسائلة وهى تردد بينهم بصراً زائغا:

ـ ما عسى أن أقول لأبيكم إذا رجع؟

اعترض هذا السؤال ـ ساخراً متحدياً ـ نسمات الطمأنينة التى سكنوا إليها كما تعترض الصخور الناتئة سبيل سفينة آمنة، على أنه لم يجىء مفاجئة لوعيهم، بل لعله اندس فى زحمة المشاعر الأليمة التى ورت بها قلوبهم لدى ارتطامها بالخبر ولكنه ضاع فى زحمتها فتأجل حسابه إلى حين، الآن قد عاد ليحتل الصدارة من نفوسهم، فلم يجدوا مهربا من مواجهته، ورأوا بحق أنه أشد عليهم وعلى أمهم من الإصابة التى خرجت منها وشيكة الشفاء. وشعرت الأم ـ للصمت الذى قوبل به سؤالها ـ بعزلة المذنب إذا تخلى عنه رفاقه حين انكشاف تهمته فتمتمت بنبرات شاكية:

ـ سيعلم حتما بالحادث، وسيعلم أكثر من هذا بخروجى الذى أدى إليه. ومع أن أم حنفى لم تكن دون أفراد الأسرة قلقا ولا أقل إدراكا لخطورة الموقف إلا أنها أرادت أن تقول كلمة طيبة، تلطيفا للجو من ناحية، ولأنها كانت تشعر من ناحية أخرى بأن الواجب يقضى عليها ـ كخادم الأسرة القديمة الأمينة ـ بألا تلوذ عند الشدائد بالصمت أن يظن بها عدم اكتراث، فقالت وهى أدرى ببعد قولها عن الواقع:

ـ إذا علم سيدى بما وقع لك فلن يسعه إلا أن يتناسى هفوتك حامداً الله على نجاتك.

وقوبل قولها بالإهمال الذى يستحقه عند قوم لا تخفى عليهم من حقيقة الموقف خافية، إلا أن كمال آمن به، وقال متحمسا وكأنه يتم كلام أم حنفى:

ـ خصوصا إذا قلنا له إن خروجنا كان لزيارة سيدنا الحسين.

ورددت المرأة عينيها الخابيتين بين ياسين وفهمى وتساءلت:

ـ ما عسى أن أقول له؟

فقال ياسين الذى هاضته شدة مسئوليته:

ـ أى شيطان أضلّنى حين نصحت لك بالخروج، كلمة جرت على لسانى وليتها ما

جرت، ولكن هكذا شاءت الأقدار لترمى بنا فى هذا المأزق الأليم، على أننى أقول لك بأننا سنجد ما نقوله، وأيا كان الأمر فلا ينبغى أن تشغلى فكرك بما سيكون. . دعى الأمر لله، وحسبك ما قاسيت فى يومك من آلام ومخاوف.

تكلم ياسين بحماس وعطف معا، فصب سخطه على نفسه، وعطف على الأم عطف المتألم لحالها، ومع أن كلامه لم يقدم ولم يؤخر إلا أنه روّح عن شعوره الضيق بالحرج، وأفصح به فى نفس الوقت عما عساه يدور فى عقول بعض - أو كل - من يقفون إلى جانبه فأغناهم عن الإفصاح عنه بأنفسهم إذ أن التجربة علّمته بأنه أحيانا ما يكون السبيل خير السبيل للدفاع عن النفس هو الهجوم عليها وأن الاعتراف بالذنب يغرى بالصفح بقدر ما يغرى الدفاع عنه بالغضب، وكان أخوف ما يخاف أن تنتهز خديجة الفرصة السانحة لتحمله جهاراً مسئولية ما أدت إليه مشورته وتتخذها سبيلا إلى مهاجمته فسبقها إلى غرضها قاطعا عليها الطريق، ولم يكذب ظنه فالحق أن خديجة كانت على وشك أن تطالبه - بصفته المسئول الأول عما وقع - بأن يجد لها مخرجا، فلما ألقى خطابه استحيت من مهاجمته خاصة وأنها لا تهاجمه عادة إلا على سبيل النقار لا الكراهة، بذلك تحسن موقفه بعض الشىء ولكن الموقف العام بقى على سوئه، وظل كذلك حتى خرجت خديجة عن صمتها قائلة:

- لماذا لا ندّعى أنها سقطت من السلم؟

فتطلعت إليها أمها بوجه يتلهف على النجاة من أى سبيل، وقلبته بين فهمى وياسين وقد لاحت بعينيها لمعة أمل، بيد أن فهمى تساءل فى حيرة:

- والطبيب؟ . . سيعودها يوما بعد يوم وسيقابل أبى بالضرورة.

ولكن ياسين أبى أن يغلق الباب الذى تسللت منه نسمة أمل حرية بأن تستنقذه من آلامه ومخاوفه فقال:

- نتفق مع الطبيب على ما ينبغى أن يقال لأبى؟

وتبودلت النظرات بين التصديق والتكذيب، ثم شاع فى الوجوه البشر للإحساس المشترك بالنجاة وتغير الجو القاتم إلى جو بهيج كما تبدو وسط السحاب المكفهر فجوة زرقاء على غير انتظار فتنداح بمعجزة عجيبة حتى تشمل القبة السماوية فى دقائق معدودات ثم تضىء الشمس، قال ياسين وهو يتنهد:

- نجونا والحمد لله.

فقالت خديجة بعد أن استعادت فى الجو الجديد نشاطها المألوف:

- بل نجوت أنت يا صاحب المشورة. .

فقهقه ياسين حتى اهتز جسمه الضخم وقال:

ـ أجل نجوت من عقرب لسانك، طالما توقعت أن تمتد إلىَّ بين حين وآخر لتلسعنى . .

ـ ولكنها هى التى أنقذتك، ومن أجل الورد يسقى العليق . .

كادوا ينسون من فرحة النجاة أن أمهم طريحة الفراش مكسورة الترقوة، ولكنها هى نفسها كادت أن تنسى . .

٢٩

فتحت عينيها فوقع بصرها على خديجة وعائشة جالستين على الفراش عند قدميها رانيتين إليها بعينين يتنازعهما الخوف والرجاء، فتنهدت ثم التفتت صوب النافذة فرأت خصاصها ينضح بضوء الضحى فتمتمت كالمستغربة :

ـ نمت طويلا . .

فقالت عائشة :

ـ ساعات معدودة بعد أن طلع عليك الفجر دون أن يغمض لك جفن . . يا لها من ليلة لن أنساها مهما امتد بى العمر . .

وعاودتها ذكريات الليلة الماضية من الأرق والألم فنطقت عيناها بالرثاء ـ لنفسها وللفتاتين اللتين سهرتا إلى جانبها طول الليل يبادلانها الألم والأرق ـ وتحركت شفتاها وهى تستعيذ بالله بصوت غير مسموع ثم همست قائلة فيما يشبه الحياء :

ـ شد ما أتعبتكما !

فقالت خديجة بلهجة توحى بالدعابة :

ـ تعبك راحة، ولكن إياك وأن تعودى إلى إرعابنا . . (ثم بنبرات غلبها التأثر) . . كيف هاجمك ذاك الألم المخيف؟! . . لقد حسبتك استغرقت فى النوم وأنت على أحسن حال، واستلقيت لأنام بدورى، وإذا بى أستيقظ على أنينك، ثم لم تمسكى عن آه . . آه حتى مطلع الفجر . .

وتهلل وجه عائشة بالتفاؤل وهى تقول :

ـ على أى حال أبشرى، لقد أخبرت فهمى عن حالك حين سألنى عن صحتك فى الصباح فقال لى إن الألم الذى انتابك دليل على أن العظم المكسور كان آخذا فى الالتئام . .

وجذبها اسم فهمى من لجة أفكارها فتساءلت :

ـ ذهبوا بسلامة الله؟

فقالت خديجة :

ـ طبعـا ، كانـوا يـودون محادثتك ليطمئنوا عليك بأنفسهم ولكنى لم أسمح لأحد بأن يوقظك من النوم الذى لم تدخليه حتى شيبتنا . .

فتنهدت الأم فى استسلام :

ـ الحمد لله على كل حال ، ربنا يجعل العواقب سليمة . . فى أى وقت نحن الآن؟ . .

فقالت خديجة :

ـ كلها ساعة ويؤذن الظهر . .

وداعاها تأخر الوقت إلى أن تخفض عينيها متفكرة ثم رفعتهما فإذا بهما تعكسان نظرة قلق ، وتمتمت :

ـ لعله الآن فى الطريق إلى البيت . .

وأدركتا من تعنى ، ومع أنهما شعرتا بدبيب الخوف فى قلبيهما إلا أن عائشة قالت بثقة :

ـ أهلا به وسهلا ، لا داعى للقلق ، اتفقنا على ما ينبغى أن يقال وانتهى الأمر . .

ولكن اقتراب عودته أشاع فى نفسها المهزولة القلق فتساءلت :

ـ ترى هل يمكن التستر على ما وقع؟

فقالت خديجة بصوت ارتفعت حدته بنسبة قلقها المتزايد :

ـ ولم لا؟ . . سنخبره بما تم الاتفاق عليه فيمر الأمر بسلام . .

تمنت فى تلك الساعة لو بقى ياسين وفهمى إلى جانبها ليشجعاها ، تقول خديجة سنخبره بما تم الاتفاق عليه فيمر الأمر بسلام ، ولكن هل يظل ما وقع سراً مغلقا إلى الأبد . . ألا تجد الحقيقة فرجة تنفذ منها إلى الرجل؟ . . كم تخاف الكذب بقدر ما تخاف الحقيقة ، ولا تدرى أى مصير يتربص بها . . ورددت عينيها بعطف بين الفتاتين وفتحت فاها لتتكلم حين دخلت أم حنفى مهرولة وهى تقول بصوت مهموس كأنها تخاف أن يسمع خارج الحجرة :

ـ سيدى جاء يا ستى . .

وخفقت قلوبهم فى اضطراب . وجلت الفتاتان عن الفراش فى وثبة واحدة ثم وقفتا حيال أمهما يتبادلن جميعا النظر صامتات حتى غمغمت الأم :

ـ لا تتكلما أنتما فإنى أخاف عليكما مغبة مخادعته اتركا لى القول والله المستعان . .

وساد صمت مشحون بالتوتر كالصمت الذى يركب أطفالا فى الظلام إذا قرع آذانهم

وقع أقدام من يظنونهم عفاريت يجوسون فى الخارج، حتى ترامى إليهن وقع أقدام السيد على السلم وهى تقترب فأزاحت الأم كابوس الصمت بمشقة وغمغمت . .

ـ إذا تركناه صعد إلى حجرته لم يجد أحدًا؟! . .

ثم التفتت صوب أم حنفى قائلة:

ـ أخبريه بأننى هنا، مريضة، ولا تزيدى . .

وازدردت ريقها الجاف، أما الفتاتان فمرقتا من الحجرة مستبقتين وغادرتاها وحيدة، ووجدت نفسها وكأنها فى عزلة عن العالم كله فاستسلمت للمقادير، وكثيراً ما يبدو هذا الاستسلام فى سلوكها ـ الأعزل من كل سلاح ـ كأسلوب من أساليب الشجاعة السلبية، واستجمعت فكرها لتتذكر ما يجب قوله بيد أن الشك فى سلامة تدبيرها لم يزايلها قط وكمن فى أعماق شعورها معلنا عن ذاته بحال من القلق والتوتر وتبدد الثقة وجاءها وقع طرف عصاه على أرض الصالة فغمغمت «رحمتك يا رب وعونك» ثم تطلع بصرها إلى الباب حتى اعترض جسمه الطويل العريض، ورأته وهو يدخل مقتربا ملقيا عليها نظرة متفحصة من عينيه الواسعتين حتى وقف فى منتصف الحجرة وهو يتساءل بصوت خالته رقيقا على غير عادته:

ـ مالك؟ . .

فقالت وهى تغض بصرها:

ـ حمدا لله على سلامتك يا سيدى، بخير ما دمت بخير . .

ـ لكن أم حنفى قالت لى إنك مريضة . .

فأشارت بيسراها إلى كتفها وقالت:

ـ أصيب كتفى يا سيدى لا أراك الله سوءا . .

فتساءل الرجل وهو يتفرس فى كتفها باهتمام وقلق:

ـ ماذا أصابه؟

حم الأمر، وجاءت الدقيقة الفاصلة، ما عليها إلا أن تتكلم، أن تنطق بكذبة النجاة، فتمر الأزمة بسلام وتستزيد من العطف المتاح، ورفعت عينيها وهى تتوثب، فالتقت عيناها بعينيه، أو بالأحرى عيناها فى عينيه، فاشتد وجيب قلبها، وتتابع بلا رحمة، هناك تبخر ما جمعته فى رأسها من رأى، وانتثر ما كتلته فى إرادتها من عزم، ورمشت عيناها فى اضطراب وذهول، ثم رنت إليه بطرف حائر دون أن تنبس بكلمة، وعجب السيد لاضطرابها فتعجلها متسائلا:

ـ ماذا حدث يا أمينة؟!

لا تدرى ماذا تقول، كأنه ليس لديها ما تقوله ولكن بات فى حكم اليقين أنه لم يعد بوسعها أن تكذب، أفلتت الفرصة دون أن تدرى كيف، ولو أنها أعادت المحاولة لخرجت من صدرها مبتورة مكشوفة، كانت كمن يسير وهو منوَّم تنويما مغناطيسيا على حبل إذا دعى إلى إعادة مخاطرته وهو صاح، وكلما مرت الثوانى غاضت فى الارتباك والهزيمة حتى أشرفت على اليأس . .

ـ لماذا لا تتكلمين؟ . .

ها هى لهجته بدأت تنم عن نفاد صبر ولا يبعد أن تقعقع قريبا بالغضب، رباه لشد ما هى فى حاجة إلى العون، أى شيطان أغواها بتلك الخرجة المشئومة . .

ـ عجبا ألا تريدين أن تتكلمى؟! . .

وبات السكوت فوق طاقتها فتمتمت بصوت متهدج مدفوعة باليأس والقهر:

ـ أخطأت خطأ كبيراً يا سيدى . . صدمتنى سيارة . .

واتسعت عينا السيد دهشة ولاح فيهما انزعاج مقرون بالإنكار . . وكأنه بات يشك فى صحة قواها العقلية، ولم تعد المرأة تحتمل التردد وصممت على أن تبوح باعترافها كاملا مهما تكن العواقب، كمن يقدم ـ مغامراً بحياته ـ على إجراء عملية جراحية خطيرة ليتخلص من آلام داء لا قبل له به، وتضاعف عند ذاك شعورها بفداحة الذنب وخطورة الاعتراف فدمعت عيناها وقالت بصوت لم تعن بإخفاء نبراته الباكية إما لأنه غلبها على صوتها أو لأنها أرادت أن تبذل محاولة يائسة لاستدرار العطف . .

ـ ظننت أن سيدنا الحسين يدعونى إلى زيارته فلبيت . . ذهبت للزيارة . . وفى طريق العودة صدمتنى سيارة . . قضاء الله يا سيدى . . ولقد نهضت من سقطتى دون معاونة أحد (قالت العبارة الأخيرة بوضوح) ولم أشعر بادئ الأمر بأى ألم فحسبتنى بخير وواصلت السير حتى عدت إلى البيت، وهنا تحرك الألم فأحضروا لى الطبيب ففحص كتفى وقرر أن به كسرا ووعد بأن يعودونى يوما بعد يوم حتى يجبر الكسر، لقد أخطأت خطأ كبيراً يا سيدى وجوزيت عليه بما أستحق . . والله غفور رحيم . .

أنصت السيد إليها صامتا جامدا، لم تتحول عنها عيناه، ولم يبد فى وجهه أثر مما يعتلج فى صدره على حين نكست هى رأسها فى تخشع بحال من ينتظر النطق بالحكم، وطال الصمت، واشتد، وشاعت فى جوه المقبض نذر الخوف والوعيد، وتحيرت من أمره لا تدرى عن أى قضاء يتمخض ولا إلى أى مصير يقذف بها، حتى جاءها صوته وهو يقول فى هدوء غريب:

ـ وماذا قال الطبيب؟ . . هل ثمة خطر على الكسر؟! .

فالتفت رأسها صوبه بذهول . . أجل توقعت كل شىء إلا أن يجود بهذا القول

اللطيف، ولولا رهبة الموقف لاستعادته لتتوكد من صحة ما سمعت، وغلبها التأثر فطفرت من عينيها دمعتان غزيرتان فشدت على شفتيها أن تفحم فى البكاء، ثم غمغمت فى ذلة وانكسار:

ـ قال الطبيب إنه لا داعى للخوف مطلقا، نجاك الله من كل سوء يا سيدى. .

ووقف الرجل بعض الوقت وهو يقاوم رغبة تدعوه إلى المزيد من السؤال حتى تغلب عليها فتحول عن موقفه ليغادر الحجرة وهو يقول:

ـ الزمى فراشك حتى يأخذ الله بيدك. .

٣٠

هرعت خديجة وعائشة إلى الحجرة بعد ذهاب والدهما، ووقفتا حيال أمهما تنظران إليها بعينين مستطلعتين تنطق نظراتهما بالاهتمام والقلق، ثم لاحظتا احمرار عينيها من أثر البكاء، فوجمتا وتساءلت خديجة وقد استشعر قلبها الخوف والتشاؤم:

ـ خير إن شاء الله؟

فلم تعد الأم أن قالت باقتضاب وهى ترمش بعينيها ارتباكا:

ـ اعترفت له بالحقيقة. .

ـ الحقيقـــة!

فقالت باستسلام:

ـ لم يسعنى إلا الاعتراف، فما كان من الممكن أن يخفى الأمر عليه إلى الأبد، وحسنا فعلت.

فدقت خديجة صدرها بيدها وهتفت:

ـ يا نهارنا الأسود.

على حين بهتت عائشة فحملقت فى وجه أمها دون أن تنبس بكلمة، ولكن الأم ابتسمت فيما يشبه الزهو المقرون بالحياء، وتورد وجهها الشاحب وهى تستعيد ذكرى العطف الذى شملها به حين لم تكن تتوقع منه إلا غضبا كاسحا يعصف بها وبمستقبلها. . أجل شعرت بزهو وحياء وهى تتهيأ للحديث عن عطف السيد عليها فى محنتها وكيف نسى غضبه فيما اعتراه من تأثر وإشفاق، ثم غمغمت بصوت لا يكاد يسمع:

ـ كان بى رحيما أطال الله عمره، أنصت إلى قصتى صامتا، ثم سألنى عن رأى الطبيب فى خطورة الكسر وغادرنى وهو يشير علىّ أن ألزم الفراش حتى يأخذ الله بيدى.

وتبادلت الفتاتان النظرات فى دهشة وعدم تصديق ولكن زايلهما الخوف سريعا فتنهدتا فى ارتياح عميق وأضاء وجهاهما بالبشر، وهتفت خديجة:

- أرأيت بركة الحسين؟

وقالت عائشة بخيلاء:

- لكل شىء حدود حتى غضب بابا، ما كان أن يسعه أن يغضب وهو يراها على هذه الحال، الآن عرفنا قيمتها عنده.. (ثم مخاطبة أمها فى دعابة).. يا لك من أم محظوظة، هنيئا لك التكريم والعطف!

فعاود وجه الأم التورد وقالت بتلعثم وحياء:

- أطال الله عمره.. (ثم متنهدة) والحمد لله على النجاة!

وتذكرت أمراً فالتفتت إلى خديجة وقالت باهتمام:

- يجب أن تلحقى به لأنه سيحتاج إلى خدمتك حتما.

وشعرت الفتاة - لما يركبها فى محضر أبيها من الارتباك والاضطراب - كأنها وقعت فى شرك، فقالت محتدة:

- ولماذا لا تذهب عائشة؟!

ولكن الأم قالت فى عتاب:

- أنت أقدر على خدمته، لا تتلكئى يا شابة إذ ربما يكون فى حاجة إليك الآن.

وكانت تعلم أن احتجاجها لن يغنى عنها شيئا كما لا يغنى عنها عادة كلما دعيت إلى أداء واجب ترى الأم أنها أقدر عليه من أختها، ولكنها أصرت على إعلانه كما تصر عادة على إعلانه فى أمثاله من المواقف، مدفوعة بأعصابها السريعة الالتهاب، وجريا مع نزعتها العدوانية التى تجد من لسانها أطوع أداة وأحدها، ثم لتحمل أمها على إعادة القول بأنها «أقدر على كيت وكيت من عائشة»، كإقرار من أمها وإنذار لشقيقتها وعزاء لها هى نفسها، والحق أنه لو حدث أن عهدت بواجب من هذه الواجبات «الخطيرة» لعائشة دونها لثارت ثورة أشد ولحالت بينها وبينه، ما دامت تجد - فى أعماق قلبها - أن القيام بهذه الواجبات حق من حقوقها وامتياز لها كامرأة جديرة بالمكانة التالية لأمها فى البيت، ولكنها أبت فى الوقت نفسه أن تعترف جهاراً بأنها تمارس - بالقيام بها - حقا من حقوقها ولكن واجبا ثقيلا تقبله مضطرة، حتى تدعى إليه - إذا دعيت - فى حرج من الداعى، ولتحتج عليه - إذا احتجت - فى غضب يروِّح عن نفسها، ولتسمع بالمناسبة التعليق الذى تود، ثم ليحسب لها بعد ذلك كله جميلا تستحق من أجله الشكر!.. ولذلك غادرت الحجرة وهى تقول:

ـ فى كل مأزق تنادين خديجة، كأنه لا يوجد أمامك غير خديجة، ماذا تصنعين لو لم أكن موجودة!

ولكن خيلاءها تخلى عنها بمجرد مغادرتها للحجرة وحلت محله رهبة واضطراب فعجبت كيف يتأتى لها أن تمثل بين يدى الرجل، وكيف تقوم على خدمته، وماذا تلقى منه إذا تلجلجت أو أخطأت! . . على أن السيد كان قد خلع ملابسه وارتدى جلبابه بنفسه، ولما وقفت بالباب تسأله عما هو فى حاجة إليه أمرها بأن تصنع له فنجان قهوة، فبادرت تعدها ثم قدمتها له خافضة العينين خفيفة الخطى من الخوف والحياء . . ورجعت إلى الصالة فمكثت بها لتكون رهن إشارته إذا دعاها فلم يفارقها إحساس الرهبة حتى تساءلت كيف يا ترى يمكنها أن تواصل خدمته طوال الساعات التى يقضيها فى البيت يوما بعد يوم حتى تنقضى الأسابيع الثلاثة؟! . . وبدا لها الأمر شاقا حقا وأدركت لأول مرة خطورة الفراغ الذى تسده أمها فى البيت فدعت لها بالشفاء، حبا فيها من ناحية ورحمة بنفسها من ناحية أخرى .

ومن سوء حظها أن السيد شعر برغبة فى الراحة عقب تعب السفر فلم يذهب إلى الدكان كما كانت تأمل، واضطرت تبعا لذلك أن تبقى فى الصالة كالسجينة، وفى أثناء ذلك صعدت عائشة إلى الدور الأعلى وتسللت إلى الصالة حيث تجلس أختها، دون أن تحدث صوتا لتريها نفسها وتغمز لها بعينيها على سبيل التنديد بحالها ثم تعود إلى أمها تاركة إياها وهى تغلى من الغيظ إذ كان مما يحنقها أشد الحنق أن يعابثها أحد بالمزاح وإن لذ لها هى أن تعابث الجميع، ولم تسترد حريتها ـ إلى حين طبعا ـ إلا عندما أسلم السيد جنبه للنوم فطارت إلى أمها وأنشأت تحدثها عما قدمت لأبيها من خدمات حقيقية ووهمية وتصف لها ما قرأت فى عينيه من آى العطف والتقدير لخدماتها! . . ولم تنس أن تعرج على عائشة فتنهال عليها بالزجر والتوبيخ على ما بدا منها من تصرف صبيانى، ثم عادت إلى الأب بعد استيقاظه فقدمت له الغداء، ولما فرغ الرجل من غدائه جلس يراجع بعض الأوراق وقتا غير قصير ثم دعاها إليه وطلب إليها أن تبعث له ياسين وفهمى بمجرد رجوعهما إلى البيت .

وقلقت الأم للطلب وخافت أن يكون قد حز فى نفس الرجل غضب مكظوم وأنه يروم الآن ـ فى الشابين ـ متنفسا عن غضبه، ولما جاء ياسين وفهمى وعلما بما كان ثم بلغا أمر أبيهما بمقابلته دار بخاطرهما ما دار بخاطر المرأة من قبل وذهبا إلى حجرته وهما يتوجسان خيفة، ولكن الرجل خيب ظنونهما فقد لاقاهما بهدوء غير معهود وسألهما عن الحادث وظروفه وتقرير الطبيب . فحدثاه طويلا بما يعلمان وهو يصغى إليهما باهتمام، وفى النهاية سألهما :

ـ أكنتما فى البيت حين خروجها؟

ومع أن هذا السؤال كان متوقعا من بادىء الأمر إلا أنه وقع من نفسيهما ـ بعد الهدوء العجيب غير المنتظر ـ موقع الانزعاج فخافا أن يكون مقدمة لتغيير طبقة النغمة التى ارتاحا إليها ارتياح النجاة، ولم يسعهما الكلام فلاذا بالصمت . . بيد أن السيد لم يلح فى السؤال وكأنه لم يعبأ بسماع الجواب الذى استنتجه مقدما، أو لعله أراد أن يسجل عليهما الخطأ بلا اكتراث بإقرارهما به . . ولم يزد بعد ذلك على أن يشير إلى باب الحجرة آذنا لهما بالانصراف، وعندما مضيا إلى الخارج سمعاه يقول مخاطبا نفسه:

ـ ما دام الله لم يرزقنى رجالا فليهبنى الصبر.

ومع أن الظواهر دلت على أن الحادث قد هز نفس السيد حتى غيَّر المألوف من سلوكه تغيراً دهش له الجميع إلا أنه لم يستطع أن يثنى إرادته عن قضاء سهرته الليلية التقليدية! . . فما جاء المساء حتى ارتدى ملابسه وغادر حجرته ناشراً بين يديه شذاً طيبا، إلا أنه مر فى طريقه إلى الخارج بحجرة الأم وسأل عنها فدعت له طويلا ممتنة شاكرة . . لم تر فى ذهابه إلى سهرته ـ وهى طريحة الفراش ـ تجافيا للعطف، ولعلها وجدت فى مروره بها وسؤاله عنها تكريما فاق ما كانت تنتظر، بل أليس مجرد امتناعه عن صب غضبه عليها منَّة لم تكن تحلم بها؟ . . وكان الإخوة ـ قبل مبارحته حجرته ـ قد تساءلوا «ترى هل يعدل الليلة عن سهرته؟». ولكن الأم أجابت قائلة: «ولماذا يبقى بعد أن علم أن الحال مطمئنة؟!» ولعلها تمنت فيما بينها وبين نفسها لو يتم نعمته عليها فيعدل عن سهرته كما يليق بزوج أصيبت زوجه بما أصيبت هى به، ولكنها كانت أدرى بطبعه فسبقته بانتحال العذر له حتى إذا انطلق إلى سهرته كما تتوقع أمكنها ـ مداراة لموقفها ـ أن تسوغ انطلاقه بالعذر الذى انتحلت لا بقلة الاكتراث. ولكن خديجة قالت «كيف يطيق السهر وهو يراك على هذه الحال؟». فأجابها ياسين «لا عليه إذا فعل ما دام قد اطمأن عليها، حزن الرجال غير حزن النساء، وذهاب الرجل إلى سهرته لا يتنافى مع حزنه، بل لعل التفريج عن نفسه واجب عليه ليتسنى له مواصلة حياته الشاقة». ولم يكن ياسين يدافع عن أبيه بقدر ما كان يدافع عن رغبته فى الانطلاق التى بدأت تتحرك فى أعماقه، إلا أن مكره لم يجز على خديجة فسألته: «هل تطيق أنت مثلا أن تسهر فى قهوتك الليلة؟». فبادرها قائلا وهو يلعنها فى سره: «طبعا لا، ولكن أنا شىء وبابا شىء آخر!».

ولما فارق السيد الحجرة عاودها الشعور بالراحة الذى يعقب النجاة من خطر محقق فتألق محياها بابتسامة وقالت:

ـ لعله رأى أن جزائى كفاف ذنبى فعفا عنى، عفا الله عنه وعنا جميعا . . فضرب ياسين كفا بكف وهو يقول محتجا:

ـ إن رجالا غيورين مثله، منهم أصدقاء له، لا يرون بأسا فى السماح لنسائهم بالخروج كلما دعت ضرورة أو مجاملة، فما باله يقيم لنا من البيت سجنًا مؤبَّدًا؟!

فلحظته خديجة بهزء وسألته:

ـ لمَ لم تلق بدفاعك هذا وأنت بين يديه؟!

فانقلب الشاب مقهقها حتى ارتجت كرشه ثم أجابها قائلا:

ـ يلزمنى مثل أنفك أولاً كى أدافع به عن نفسى عند الضرورة.

وتتابعت أيام الرقاد، فلم يعاودها الألم الذى هصرها أول ليلة وإن تهدد جذعها وكتفها الوجع لأقل حركة تأتيها، ثم تقدمت نحو الشفاء بخطوات سريعة بفضل بنيتها القوية وحيويتها الدافقة التى تكره بطبعها السكون والقعود مما جعل الإذعان لأوامر الطبيب مهمة شاقة غطى عذابها على آلام الكسر إبان احتدامها، ولعلها لولا تشدد الأبناء فى مراقبتها لخرقت وصايا الطبيب ونهضت عجلى لأمورها.. على أن رقادها لم يمنعها من نشر الرقابة على شئون البيت من فراشها، ومراجعة الفتاتين بدقة متعبة فيما يعهد إليهما به.. خاصة عن دقائق الواجبات التى تخاف عليها الإهمال أو النسيان، فتسأل وتلح فى السؤال «هل نفضت أعلى الستائر؟.. وخصاص الشبابيك؟.. هل بخَّرت الحمام لأبيك؟.. هل سقيت اللبلاب والياسمين؟»، الأمر الذى أحنق خديجة مرة فقالت لها: «اعلمى أنك إذا كنت تعنين بالبيت قيراطا فإنى أعنى به أربعة وعشرين».. وإلى هذا كله أورثها تخليها الإجبارى عن مركزها المرموق شعوراً معقداً عانت منه كثيراً، فربما تساءلت ترى ألم يفقد البيت ـ أو أحد من أهله ـ بتخليها عنه شيئا من نظامه أو راحته؟!.. وأيهما يا ترى أحب إليها، أن يبقى كل شىء كما كان بفضل فتاتيها ـ غرس يديها ـ أم أن يختل شىء من توازنه يكون خليقا أن يذكر الجميع بالفراغ الذى خلفته وراءها؟!.. وهب السيد بالذات استشعر هذا الفراغ فهل يكون ذاك مدعاة لتقديره لأهميتها أو لسخطه على ذنبها الذى جر هذا كله؟!.. تحيرت المرأة طويلا بين عاطفتها المستحيية نحو نفسها وعاطفتها الصريحة نحو فتاتيها، ولكن المحقق أنه لو اختل شىء من النظام لأحدث لها كربا شديداً، كما أنه لو حافظ على كماله كأن لم يطرأ نقص لما خلت من ضيق.

أما الواقع فهو أن فراغها لم يسده أحد، وأثبت البيت أنه أكبر من الفتاتين على نشاطهما وإخلاصهما.. ولم تسر الأم لهذا لا فى الظاهر ولا فى الباطن، توارى شعورها نحو ذاتها، ودافعت عن خديجة وعائشة دفاعا حاراً صادقا، ثم ركبها الجزع والألم فلم تعد تطيق صبراً على انزوائها.

٣١

وفى فجر اليوم الموعود الذى انتظرته طويلا هبت من الفراش فى خفة صبيانية من الفرح كأنها ملك يعود إلى عرشه بعد نفى . . ونزلت إلى حجرة الفرن متداركة عادتها التى انقطعت عنها ثلاثة أسابيع فنادت أم حنفى ، واستيقظت المرأة وهى لا تصدق أذنيها ، ثم نهضت إلى سيدتها فعانقتها ودعت لها ، ثم باشرتا عمل الصباح فى سرور لا يوصف ، وعند شروق أول شعاع للشمس صعدت إلى الدور الأول فتلقاها الأبناء بالتهانى والقبل ، ثم مضت إلى حيث ينام كمال فأيقظته ، وما فتح الغلام عينيه حتى بهت دهشة وفرحا ، ثم تعلق بعنقها ولكنها بادرت إلى التخلص من ذراعيه برقة وهى تقول :

ـ ألا تخاف أن ترد كتفى إلى ما كانت عليه؟

فأمطرها قبلا ثم ضحك متسائلا فى خبث :

ـ متى يا عزيزتى نخرج معا مرة أخرى؟ !

فأجابته بلهجة لا تخلو من عتاب باسم :

ـ عندما يهديك الله فلا تسوقنى رغم إرادتى إلى الطريق الذى كدت أهلك فيه . . !

وأدرك أنها تشير إلى عناده الذى كان السبب المباشر فيما وقع لها فضحك ملء فيه ضحك مذنب واتته النجاة بعد أن ظل ذنبه معلقا فوق رأسه ثلاثة أسابيع ، أجل لشد ما خاف أن يجر التحقيق الذى باشره إخوته إلى معرفة الجانى المستتر ، وقد أوشكت الريبة التى سلطتها عليه خديجة حينا وياسين حينا آخر تكشفه فى الركن المنزوى فيه لولا صمود أمه فى الدفاع عنه وتصديها لتحمل مسئولية الحادث وحدها ، فلما انتقل التحقيق إلى يدى والده تناهى به الخوف وتوقع بين لحظة وأخرى أن يدعى إلى مقابلته ، هذا إلى عذابه ـ طوال الأسابيع الثلاثة ـ وهو يرى أمه المحبوبة طريحة الفراش ، شديدة العناء ، عاجزة عن الاستلقاء والنهوض معا . . الآن مضى الحادث ، ومضت فى أثره عقابيله ، وانتهى التحقيق ، وعادت أمه توقظه فى الصباح ، وسوف تنيمه فى المساء ، رجع كل شىء إلى أصله ، ونشر الأمان ألويته ، فحق له أن يضحك ملء فيه وأن يهنىء ضميره على الراحة المتاحة .

وغادرت الأم الحجرة فصعدت إلى الدور الأعلى ، ولما تدانت من باب حجرة السيد ترامى إليها صوته وهو يردد فى صلاته «سبحان ربى العظيم» فخفق قلبها ووقفت على قيد خطوة من الباب كالمترددة ، ثم وجدت نفسها تتساءل «أتدخل لتصبِّح أو الأجدر أن

تعد مائدة الفطور أولا؟». لا على سبيل التساؤل حقا ولكن فرارا مما شاع فى نفسها من الخوف والخجل، أو كليهما معا، كما يقع للإنسان أحيانا أن يخلق مشكلة وهمية يلوذ بها من مشكلة راهنة يشق عليه فضها. . ومضت إلى حجرة المائدة فأقبلت على العمل بعناية مضاعفة، إلا أن قلقها تزايد، فلم تنتفع بمهلة التفكير التى اقتنصتها، ولم تجدها راحة كما أملَت ولكن محنة انتظار أشد عناء من الموقف الذى نكصت عن مواجهته. . وعجبت كيف جفلت من دخول «حجرتها» كأنها كانت تهم بدخولها لأول مرة، خاصة وأن السيد لم ينقطع عن زيارتها يوما بعد يوم فى أثناء رقادها، ولكن الحق أن برءها رفع عنها الحماية التى ضربها حولها المرض فشعرت بأنها ستلقاه بمفردها لأول مرة مذ كشفت خطيئتها. . ولما جاء الأبناء تباعا خفت وحشتها قليلا، وما لبث أن دخل السيد الحجرة فى جلبابه الفضفاض ولكن لم يبد فى وجهه أثر لدى رؤيتها، وقال بهدوء وهو يتجه إلى مكانه فى المائدة:

- جئت؟. . (ثم مخاطبا الأبناء وهو يتخذ مجلسه). . اجلسوا.

وأخذوا فى تناول فطورهم على حين وقفت هى بمكانها المعتاد، ومع أن الخوف تناهى بها حال دخوله إلا أنها مضت تسترد أنفاسها بعد ذلك، أى بعد أن تم أول لقاء بعد الشفاء ومر بسلام، وشعرت عند ذاك بأنها لن تجد مشقة فى الانفراد به فى حجرته عما قليل. . وانقضت المائدة فعاد السيد إلى حجرته، ولحقت به بعد دقائق حاملة صينية القهوة التى وضعتها على الخوان وتنحت جانبا فى انتظار فراغه من احتسائها لتساعده على ارتداء ملابسه. وحسا السيد قهوته فى صمت عميق، لا ذاك الصمت الذى يقع عفوا أو كالراحة عقب التعب أو كغطاء لصدر فارغ من شئون الحديث، ولكنه صمت صامت مسربل بالتعمد، ولم تكن تعدم أملا - ولو ضعيفا - فى أن يتعطف عليها بكلمة رقيقة، أو فى الأقل أن يلم بشأن من شئون حديثه المعتاد فى مثل هذه الساعة من الصباح، فحيَّرها صمته المتعمد وعادت تسائل نفسها ترى ألا يزال بنفسه شىء، وأخذ القلق ينشب إبره فى قلبها مرة أخرى، على أن الصمت الغليظ لم يمتد طويلا. . كان الرجل يفكر فى سرعة وتركيز لم يذق معهما طعما، لا ذاك التفكير الذى ينبعث من وحى الساعة، ولكن آخر عنيدا قديما لم يزايل نفسه طوال الأيام المنقضية. . وأخيرا تساءل دون أن يرفع رأسه عن فنجال القهوة الفارغ:

- استرددت صحتك؟

فقالت أمينة بصوت خفيض:

- الحمد لله يا سيدى.

فاستطرد الرجل قائلا بمرارة:

ـ إنى أعجب ـ وهيهات أن ينتهى لى عجب ـ كيف أقدمت على فعلتك!

فدق قلبها بعنف وأطرقت فى وجوم . . لم تكن تطيق غضبه وهى تدافع عن خطأ ارتكبه غيرها فكيف بها الآن وهى المذنبة! . . وعقل الخوف لسانها ولكنه بانتظار الجواب فواصل حديثه متسائلا فى استنكار :

ـ أكنت مخدوعا بك طوال هذه السنين وأنا لا أدرى؟!

عند ذاك بسطت راحتيها فى جزع وألم وهمست بأنفاس مضطربة :

ـ أعوذ بالله يا سيدى، إن خطئى كبير حقا ولكنى لا أستحق هذا القول .

ولكن الرجل واصل حديثه بهدوئه الرهيب الذى يهون إلى جانبه الزعيق قائلا :

ـ كيف اقترفت هذا الخطأ الكبير! . . ألأنى ابتعدت عن البلد يوما واحدا؟!

فقالت بصوت متهدج وشت نبراته بالرجفة التى ملكت جسمها :

ـ أخطأت يا سيدى، وعندك العفو، كانت نفسى تتوق إلى زيارة سيدنا الحسين، وحسبت أن زيارته المباركة تشفع لى فى الخروج ولو مرة واحدة .

فهز رأسه فى شىء من الحدة كأنما يقول «لا فائدة ترجى من الجدال»، ثم رفع إليها عينيه متجهما ساخطا وقال بلهجة لا تقبل المراجعة :

ـ ليس عندى إلا كلمة واحدة! غادرى بيتى بلا توان .

هوى أمره على رأسها كالضربة القاضية فبهتت لا تنبس بكلمة ولا تستطيع حراكا، طالما توقعت فى أشد أوقات محنتها ـ وهى تنتظر عودته من رحلة بور سعيد ـ ألوانا من المخاوف، كأن يصب عليها غضبه أو يصمها بزعيقه وسبابه، حتى الضرب لم تستبعده، أما الطرد من البيت فلم يزعج لها خاطرا، لا لشىء إلا أنها سكنت إلى معاشرته خمسا وعشرين عاما فلم تتصور أن ثمة سببا يمكن أن يفرق بينهما أو ينتزعها من البيت الذى صارت جزءا منه لا يتجزأ . . أما السيد فقد تخلص ـ بكلمته الأخيرة ـ من عبء فكر دوَّخ دماغه طوال الأسابيع الثلاثة المنقضية . . وقد بدأ الصراع فى اللحظة التى اعترفت فيها المرأة بخطئها باكية وهى طريحة الفراش، لم يصدق أذنيه لأول وهلة، ثم أخذ يفيق إلى نفسه وإلى الحقيقة البغيضة التى تطالعه متحدية كبرياءه وصلفه، بيد أنه أجل حنقه ريثما يرى ما أصابها، أو أنه ـ وهو الأصدق ـ لم يسعه أن يفكر فيما تحدى كبرياءه وصلفه لما اعتراه من قلق عميق بلغ حد الخوف والجزع على المرأة التى يألفها ويعجب بمزاياها فعطف عليها عطفا أنساه خطأها وسأل الله لها السلامة، انكمش جبروته حيال الخطر المحدق بها واستيقظ ما تنطوى عليه نفسه من حنان موفور فعاد ـ يومذاك ـ إلى حجرته محزونا مكتئبا وإن لم يفصح وجهه . . إلا أنه مضى يستعيد طمأنينته وهو يراها تتماثل للشفاء بخطى سريعة ثابتة، ومضى بالتالى يعيد النظر إلى ا لحادث كله ـ أسبابه ونتائجه ـ بعين جديدة أو

بالأحرى بالعين القديمة التى اعتاد أن ينظر بها فى بيته، فكان من سوء حظ - حظ الأم طبعا - أن يعيد النظر فى هدوء وهو خال إلى نفسه، وأن يقتنع بأنه إذا غلب العفو ولبّى نداء العطف - وهو ما نزعت إليه نفسه - قد أضاع هيبته وكرامته وتاريخه وتقاليده جميعا فأفلت منه الزمام وانتثر عقد الأسرة التى يأبى إلا أن يسوسها بالحزم والصرامة، وبالجملة لن يكون فى تلك الحال أحمد عبد الجواد ولكن شخصا آخر لن يرتضى أن يكونه أبدًا. . أجل كان من سوء الحظ أن يعيد النظر فى هدوء وهو خال إلى نفسه، إذ لو أتيح له أن ينفس عن غضبه حين اعترافها لانفثأ حنقه ومر الحادث دون أن يسحب وراءه عواقب خطيرة، ولكنه لم يسعه الغضب فى وقته كما لم يكن مما يرضى كبرياءه أن يعلن غضبه عقب شفائها - بعد هدوء دام ثلاثة أسابيع - إذ أن هذا الغضب يكون أقرب إلى الزجر المتعمد منه إلى الغضب الحقيقى، ولما كانت حساسيته الغضبية تستعر عادة من طبع وتعمد معا، ولما كان الجانب الطبيعى منها لم يجد متنفسا فى حينه فقد وجب على الجانب المتعمد - وقد أتيحت له فرصة من الهدوء لمعاودة التفكير - أن يجد وسيلة فعالة لتحقيق ذاته على صورة تتناسب وخطورة الذنب، وهكذا انقلب الخطر الذى تهدد حياتها حينا والذى أمنها من غضبه بما أثار من عطفه أداة عقاب بعيدة المدى بما أتاح له من وقت للتدبير والتفكير. . ونهض مقطبا فولاّها ظهره مستقبلا ملابسه على الكنبة ثم قال بجفاء:

- سأرتدى ملابسى بنفسى.

كانت لم تزل متسمرة فى مكانها ذاهلة عما حولها فأفاقت على صوته، وسرعان ما أدركت من قوله ووقفته أنه يأمرها بالانصراف فاتجهت نحو الباب فى خطى لا وقع لها، وقبل أن تجاوزه أدركها صوته وهو يقول:

- لا أحب أن أجدك هنا إذا عدت ظهرا.

٣٢

خارت قواها فى الصالة فارتمت على طرف كنبة وكلماته القاسية الحاسمة تتردد فى باطنها، ليس الرجل هازلا، ومتى كان هازلا؟! ولم تستطع مبارحة مكانها - على رغبتها فى الفرار - أن يثير نزولها قبل مغادرته البيت على خلاف المألوف ريبة الأبناء الذين لا تحب لهم أن يستقبلوا يومهم أو يذهبوا إلى أعمالهم متجرعين خبر طردها، وثمة إحساس آخر - لعله الحياء - أقعدها عن أن تلقاهم فى ذل المطرود وقررت أن تبقى حيث هى حتى يغادر البيت، أو أن تأوى إلى حجرة المائدة وهو الأفضل حتى لا تقع عليها عيناه إذا مضى

إلى الخارج فتسللت إلى الحجرة كسيرة الفؤاد وقعدت على شلتة ساهمة واجمة. ترى ماذا يعنى؟ . . أيطردها إلى حين أم إلى الأبد؟ . . إنها لا تصدق أنه ينوى تطليقها، هو أكرم من هذا وأنبل، أجل إنه غضوب جبار ولكن من الإسراف فى التشاؤم أن تغيب عنها آى شهامته ومروءته ورحمته. وهل تنسى كيف حزن لحالها حين الرقاد؟ . . وكيف عادها يوما بعد يوم مستفسرا عن صحتها؟ . . مثل هذا الرجل لا يهون عليه أن يخرب بيتا أو يكسر قلبا أو ينزع أما من بين أبنائها. وجعلت تدير هذه الأفكار فى رأسها كأنما لتدخل بها بعض الطمأنينة إلى نفسها المزعزعة، وألحت فى هذا إلحاحا إن دل على شيء فعلى أن الطمأنينة لا تريد أن تستقر بنفسها كبعض المرضى الذين يزيدون تغنيا بقوتهم كلما ازدادوا إحساسا بضعفهم إذ كانت لا تدرى ماذا تصنع بحياتها أو ماذا يمكن أن تغنى الحياة لها لو خاب الرجاء ووقع المحذور. وترامى إلى أذنيها وقع عصاه على أرض الصالة وهو يمضى خارجا فأطار أفكارها وأنصتت باهتمام تتابعه حتى غاب وشعرت عند ذاك بألم جارح لحالها وسخطها على الإرادة المتحجرة التى لم ترع لضعفها حقا، ثم نهضت فيما يشبه الإعياء وغادرت الحجرة لتنزل إلى الدور الأول فجاءتها عند رأس السلم أصوات الأبناء وهم ينزلون تباعا فمدت رأسها من فوق الدرابزين فلمحت فهمى وكمال وهما يتابعان ياسين إلى الباب المفضى إلى الفناء، هناك غمزت خطرة من الحنان قلبها فأذهلته، وعجبت لنفسها كيف تركتهما يذهبان دون أن تودعهما، أليست قد تحرم عليها رؤيتهما. . أياما أو أسابيع؟ . . وربما لا تراهما مدى العمر إلا لماما كالغرباء؟ . . وعاودها غمز الحنان متتابعا وهى بموقفها من السلم لا تريم، بيد أن قلبها - على امتلائه - كبر عليه أن يصدق أن يكون هذا المصير الأسود نصيبها المقدور، لإيمانها اللانهائى بالله الذى حفظها فى وحدتها الغابرة من العفاريت نفسها، ولثقتها برجلها التى تأبى أن تنهار، ولأنها لم يصبها فى حياتها الماضية شر خطير خليق بأن يسلبها الطمأنينة إلى الحياة الوادعة فمالت نفسها إلى اعتبار محنتها تجربة قاسية ستمر بها دون أن تنشب فيها، ووجدت خديجة وعائشة مشتبكتين فى جدال كعادتهما ولكنهما نزعتا عما كانتا فيه حين رأتا وجومها ونظرة عينيها الخابية، ولعلهما خافتا أن تكون قد برحت الفراش قبل أن تسترد كامل صحتها فسألتها خديجة فى قلق:

- ماذا بك يا نينة؟

- لا أدرى والله ماذا أقول. . إنى ذاهبة.

ومع أن العبارة الأخيرة جاءت مقتضبة غير محدودة الهدف إلا أنها اكتسبت من نظرتها اليائسة ونبراتها الشاكية معنى حالكا ريعتا له فهتفتا معا:

- إلى أين؟!

فقالت بانكسار وهى تشفق سلفا من وقع كلامها من أذنيهما بل ومن أذنيها هى نفسها :

ـ إلى أمى .

فهرعتا إليها مذعورتين وهما تقولان :

ـ ماذا تقولين؟ . . لا تعيدى هذا القول . . ماذا جرى؟!

وجدت فى فزع فتاتيها عزاء ولكنه كشأنه فى مثل هذا الموقف فجَّر أشجانها فقالت بصوت متهدج وهى تمانع دموعها :

ـ لم ينس شيئا ولم يعف (رددت هذا بأسى دل على عمق حزنها) . . كان يضمر لى الغضب ويؤجله ريثما أبرأ ، ثم قال لى غادرى بيتى بلا توان . . وقال لى أيضا لا أحب أن أجدك هنا إذا عدت ظهرا (ثم بلهجة تنم عن عتاب أسيف وخيبة أمل) سمعا وطاعة . . سمعا وطاعة .

فصاحت خديجة بحال عصبية :

ـ لا أصدق . لا أصدق ، قولى قولا آخر . . ماذا جرى للدنيا؟!

وصاحت عائشة بصوت متهدج :

ـ لن يكون هذا أبدا ، أهانت عليه سعادتنا جميعا لهذا الحد؟!

وعادت خديجة تتساءل فى حدة وحنق :

ـ ماذا يقصد . . ماذا يقصد يا نينة؟

ـ لا أدرى ، هذا قوله بلا زيادة ولا نقصان .

اكتفت أول وهلة بهذا القول ، ولعلها رغبت بالاقتصار عليه أن تستزيد من عطفهما وتتعزى بجزعهما ، ولكن غلبها الإشفاق من ناحية والرغبة فى طمأنة نفسها من ناحية أخرى فاستطردت قائلة :

ـ لا أظنه يقصد أكثر من إبعادى عنكم أياما عقابا لى على ما فرط منى .

فتساءلت عائشة محتجة :

ـ أما كفاه ما وقع لك؟!

فتنهدت الأم محزونة وغمغمت قائلة :

ـ الأمر لله . . يجب الآن أن أذهب .

ولكن خديجة اعترضت سبيلها وهى تقول بصوت مختنق بالبكاء :

ـ لن ندعك تذهبين ، لا تتركى بيتك ، فلا أظنه يصر على غضبه إذا عاد ووجدك بيننا .

وقالت عائشة برجاء :

ـ انتظرى حتى يعود فهمى وياسين، ولن يرضى أبى أن ينتزعك من بيننا جميعا.

ولكنها قالت فيما يشبه التحذير:

ـ ليس من الحكمة فى شىء أن نتحدى غضبه، فمثله من يلين بالطاعة ويشتد بالعصيان.

وهمتا بالاعتراض مرة أخرى ولكنها أسكتتهما بإشارة من يدها واستطردت قائلة:

ـ لا جدوى من الكلام، لابد من الذهاب، سأجمع ثيابى وأرحل، لا تجزعا، لن يطول افتراقنا، وسنجتمع مرة أخرى إن شاء الله.

وانتقلت المرأة إلى حجرتها بالدور الثانى والفتاتان فى أعقابها وهما تبكيان كالأطفال، وأخذت تخرج ملابسها من الصوان حتى أمسكت خديجة بيدها وسألتها بانفعال:

ـ ماذا تفعلين؟

وشعرت الأم بدموعها تغالبها فامتنعت عن الكلام أن تفضحها نبراتهاـ أو تستسلم للبكاء الذى صممت على مقاومته ما دامت بمرأى من ابنتيها، فأشارت بيدها كأنها تقول «لحال يوجب أن أجمع ملابسى».

ولكن خديجة قالت بحدة:

ـ لن تأخذى معك إلا تغييرة واحدة.. واحدة فقط.

فندت عنها تنهدة. ودت تلك اللحظة لو يكون الأمر كله حلما مزعجا، ثم قالت:

ـ أخاف أن تثور ثائرته إذا رأى ملابسى بمكانها!

ـ سنحفظها عندنا.

وجمعت عائشة الثياب إلا تغييرة واحدة كما اقترحت أختها فأذعنت الأم لهما فى ارتياح عميق كأن بقاء ملابسها فى البيت مما يثبت لها حقا فى العودة إليه، ثم جاءت ببقجة وصرَّت فيها الملابس التى سمح لها بها، وجلست على الكنبة لتلبس جوربها وحذاءها والفتاتان حيالها تنظران فى حزن ذاهل حتى رق قلبها لهما فقالت متكلفه الهدوء:

ـ سيعود كل شىء إلى أصله، تشجعا حتى لا تستفزا غضبه، إنى أعهد إليكما بالبيت وآله ولى كل الثقة فى كفاءتكما، ولا شك عندى فى أنك ستجدين من عائشة كل معاونة، قوما بما كنا نقوم به معا كما لو كنت معكما، كلتاكما شابة خليقة بأن تفتح بيتا وتعمره.

ونهضت إلى ملاءتها فارتدتها وأسدلت على وجهها البرقع الأبيض فى تمهل متعمد لتؤجل ما استطاعت اللحظة الأخيرة المعذبة المحيرة ووقفن حيال بعض لا يدرين كيف

تكون الخطوة التالية . لم يسعفها صوتها على النطق بكلمة الوداع ، ولم توات إحداهما الشجاعة على الارتماء فى حضنها كما تود ومرت الثوانى محملة بالعذاب والقلق بيد أن المرأة المتجلدة خافت أن يخونها تجلدها فخطت خطوة نحوهما ومالت إليهما فقبلتهما بالتتابع وهى تهمس :

ـ تشجعا ، ربنا معنا جميعا .

هنالك تعلقتا بها وأفحمتا فى البكاء .

وقد غادرت الأم البيت بعينين ذارفتين تراءى الطريق خلال دمعهما وهو يتميع .

٣٣

طرقت باب البيت القديم وهى تفكر ـ بألم وحياء معا ـ فيما سيحدثه مجيئها مغضوبا عليها من الانزعاج والكدر ، وكان الباب يفتح على عطفة مسدودة متفرعة من شارع الخرنفش تنتهى بزاوية أقيمت بها الصلاة عهدا طويلا ثم هجرت من أعوام لقدمها ولكن بقيت آثارها المتهدمة لتذكرها ـ كلما زارت أمها ـ بطفولتها حين كانت تنتظر ببابها أباها حتى يفرغ من صلاته ويعود إليها ، وحين تمد رأسها داخلها فى أويقات الصلاة لتلهو بمنظر الركّع السجود ، أو حين تتفرج على بعض أهل الطرق الذين كانوا يجتمعون فيما يليها من العطفة فيضيئون المصابيح ويفرشون الحصر وينشدون الأذكار . ولما فتح الباب أطل منه رأس جارية سوداء فى العقد الخامس ، ما إن رأت القادمة حتى تهلل وجهها وهتفت مرحبة بها ، ثم تنحت جانبا لتوسع لها فدخلت أمينة ، ولبثت الخادم بموقفها كأنها تنتظر دخول قادم آخر فأدركت أمينة ما تعنيه وقفتها فهمست بامتعاض :

ـ أغلقى الباب يا صديقة .

فتساءلت الجارية بدهشة :

ـ ألم يأت السيد معك؟

فهزت رأسها بالنفى متجاهلة دهشتها ومضت ـ عابرة فناء البيت الذى تتصدره حجرة الفرن وتقع البئر فى ركنه الأيسر ـ إلى سلم ضيق فرقيته إلى الدور الأول والأخير . ثم اجتازت دهليزا إلى حجرة أمها ودخلت ، رأت أمها متربعة على كنبة فى صدر الحجرة الصغيرة قابضة بكلتا راحتيها على مسبحة طويلة متدلية فى حجرها ، متجهة العينين صوب الباب فى تطلع أثاره بلا ريب طرق الباب ثم وقع القدمين المقتربتين ، ولما تدانت أمينة منها تساءلت :

- مـــن . . ؟

وافتر ثغرها وهى تتساءل عن ابتسامة خفيفة تنم عن البشر والترحاب، كأنما حدست هوية القادم، فأجابتها أمينة قائلة بصوت منخفض من الانقباض والحزن:

- أنا أمينة يا أمى.

فألقت العجوز بساقيها إلى الأرض وتحسست بقدميها موضع الشبشب حتى عثرت عليه فدستهما فيه ووقفت باسطة ذراعيها منتظرة فى شوق فرمت أمينة بالبقجة إلى طرف الكنبة وانطوت بين ذراعى أمها وهى تقبل جبينها وخديها والأخرى تلثم ما يتفق وقوع شفتيها عليه من الرأس والخد والعنق، ولما انتهى العناق ربتت العجوز على ظهرها بحنان ثم لبثت بموقفها متطلعة صوب الباب وعلى شفتيها ابتسامة تعلن عن ترحيب جديد، كما فعلت صديقة من قبل فأدركت أمينة للمرة الثانية ما تعنيه هذه الوقفة وقالت بامتعاض واستسلام:

- جئت وحدى يا أمى.

فتحول الرأس إليها كالمتسائل، وتمتمت المرأة:

- وحدك؟! . . (ثم مبتسمة ابتسامة متكلفة لتطرد ما انتابها من قلق) سبحان الذى لا يتغير!

وتراجعت إلى الكنبة فجلست وهى تتساءل بلهجة أفصحت هذه المرة عن قلقها:

- كيف الحال؟ . . لماذا لم يحضر معك كعادته؟

فجلست أمينة إلى جانبها وهى تقول بلهجة التلميذ الذى يعترف برداءة إجاباته فى الامتحان:

- إنه غاضب علىَّ يا أمى.

ورمشت الأم واجمة ثم تمتمت بنبرات حزينة:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، قلبى لا يكذبنى أبدًا، وقد انقبض وأنت تقولين لى «جئت وحدى يا أمى»، ترى ماذا هيَّج غضبه على ملاك كريم مثلك لم يحظ رجل به قبله؟! . . خبرينى يا بنتى.

فقالت أمينة متنهدة:

- زرت سيدنا الحسين فى أثناء سفره إلى بور سعيد.

فتفكرت الأم فى حزن وكآبة ثم تساءلت:

- وكيف علم بأمر الزيارة؟

حرصت أمينة من بادئ الأمر على ألا تشير إلى حادث السيارة رحمة بالعجوز من

ناحية وتحفظًا من المسئولية من ناحية أخرى، ولهذا أجابتها بما أعدته سلفًا لهذا السؤال قائلة:

ـ لعل أحدا رآنى فوشى بى عنده.

فقالت العجوز بحدة:

ـ لا يعرفك أحد من البشر إلا من اختلط بك داخل بيتك، ألم تشكى فى أحد؟.. هذه المرأة أم حنفى؟! أو ابنه من المرأة الأخرى؟

فبادرتها أمينة قائلة بثقة ويقين:

ـ لعل جارة رأتنى فأخبرت زوجها بحسن نية فأعاد الرجل الخبر على مسمع السيد غير مقدر لخطورة عواقبه، ظنى ما تشائين إلا الشك فى أحد من أهل بيتى.

فهزت العجوز رأسها فى حيرة وشك وأنشأت تقول:

ـ طول عمرك سليمة الطوية، الله وحده هو المطَّلع وهو الكفيل برد كيد الكائد، ولكن زوجك؟.. الرجل العاقل.. الداخل على الخمسين.. ألم يجد وسيلة لإعلان غضبه إلا طرد عشيرة العمر من بين أولاده؟!.. سبحانك يا رب.. الناس تكبر تعقل ونحن نكبر نتهور، هل من الكفر أن تزور امرأة فاضلة سيدنا الحسين!.. ألا يسمح أصدقاؤه، وهم لا يقلّون عنه غيرة ورجولة، لزوجاتهم بالخروج لمختلف الأغراض؟!.. أبوك نفسه الذى كان شيخًا من حملة كتاب الله كان يأذن لى فى الذهاب إلى بيوت الجيران للتفرج على المحمل.

وغلب الصمت والكآبة مليًا حتى التفتت العجوز ناحية ابنتها وعلى شفتيها ابتسامة عتاب حائرة ثم تساءلت:

ـ أى شىء أغراك بعصيانه بعد ذاك العمر الطويل من الطاعة العمياء؟!.. لشد ما يحيرنى هذا.. إذ مهما يكن من حمية طبعه فهو زوجك ومن السلامة الحرص على طاعته من أجل راحتك وسعادة الأولاد، أليس كذلك يا ابنتى؟.. أعجب شىء أننى لم أجدك يومًا فى حاجة إلى نصح ناصح..!!

فندت عن أمينة ابتسامة ارتسمت على زاوية ثغرها على صورة انحراف خفيف من الارتباك والحياء، وغمغمت:

ـ تحكم الشيطان!

ـ عليه لعنة الله، أيزل اللعين قدميك بعد خمسة وعشرين عامًا من الوئام والسلام!.. ولكنه هو الذى أخرج أبانا آدم وأمنا حواء من الجنة!.. لشد ما يحزننى يا ابنتى، ولكنها سحابة صيف ثم تنقشع ويعود كل شىء إلى أصله.. (ثم وهى كأنها تحادث نفسها) ماذا كان عليه لو استوصى بالحلم؟!.. ولكنه رجل، ولن يخلو رجل من

عيوب تخفى عين الشمس . . (ثم بلهجة ترحيب وسرور متكلفة) اخلعى ملابسك واستريحى ، لا تجزعى ، ماذا يضيرك من قضاء عطلة قصيرة مع أمك فى الحجرة التى ولدت فيها؟!

فجرى بصرها فى غير اكتراث على الفراش القديم الذى حال لون عمده ، والسجادة البالية التى انجرد وبرها ونسلت أطرافها وإن بقيت رسوم ورودها حافظة لحمرتها وخضرتها ، ولكن صدرها ـ لما ران عليه من فرقة الأحباب ـ لم يكن مهيئا لتلقى موجات الذكريات ، فلم تهج دعوة أمها فى قلبها الحنان الذى تهيجه عادة ذكريات متباعدة لهذه الحجرة وهى قريرة العين ، ولم يسعها إلا أن تتنهد قائلة :

ـ ما بى إلا قلق على الأولاد يا أمى .

ـ إنهم فى رعاية الله ، ولن يطول بُعدك عنهم بإذن الرحمن الرحيم .

وقامت أمينة لتخلع ملاءتها على حين انسحبت صديقة ـ حزينة أسيفة لما سمعت ـ من موقفها عند مدخل الحجرة الذى لزمته أثناء الحديث ، ثم عادت المرأة إلى مجلسها جنب أمها وما لبثتا أن قلبتا الحديث ظهراً لبطن وهما تبدآن وتعيدان وكأن فى تقابلهما جنبا لجنب ما يدعو إلى تأمل قوانين الوراثة العجيبة وقانون الزمن الصارم ، كأنهما شخص واحد وصورته المنعكسة فى مرآة المستقبل أو نفس الشخص وصورته المنعكسة فى مرآة الماضى وبين الأصل والصورة على الحالين ما يشير إلى الصراع الرهيب الناشب بين قوانين الوراثة التى تعمل على التشابه والبقاء من ناحية وبين قانون الزمن الذى يدفع إلى التغير والنهاية من ناحية أخرى ، ذلك الصراع الذى ينجلى عادة عن سلسلة من الهزائم تلحق تباعا بقوانين الوراثة حتى يغدو قصاراها أن تؤدى وظيفة متواضعة فى نطاق قانون الزمن الصارم . فى نطاق ذلك القانون استحالت الأم العجوز جسما نحيلا ووجها ذابلا وعينين لا تبصران إلى تطورات باطنية لا تنالها الحواس ، حتى لم يبق لها من بهجة الحياة إلا ما يدعونه بجمال الشيخوخة أى السمت الهادىء والوقار المكتسب الحزين والرأس المرصع بالبياض . بيد أنها كانت تنحدر من جيل معمر عرف بصلابة المقاومة فلم يكن طعنها فيما بعد الخامسة والسبعين بمقعدها عن أن تنهض فى الصباح كعادتها منذ نصف قرن فتتحسس سبيلها ـ بدون إرشاد الجارية ـ إلى الحمام فتتوضأ ثم تعود إلى حجرتها فتصلى ، أما بقية النهار فتقطعها فى التسبيح والتأمل الصامت الذى لا يدرى به أحد طالما كانت الجارية مشغولة بأعمال البيت ، أو مستأنسة إلى حديث المرأة إذا فرغت لمجالستها ، حتى الصفات التى تلازم عادة وفرة النشاط للعمل وحدة الحماس للحياة لم تزايلها بحال ، مثال هذا شدة محاسبتها للجارية على كل صغيرة وكبيرة فيما يتعلق بالمصروفات ، وتنظيف البيت وترتيبه وتلكؤها إذا تلكأت فى مهمة ، وتأخرها إذا تأخرت

فى مشوار، ولم يكن بالنادر أن تحلفها على المصحف لتطمئن إلى صحة تقاريرها على غسل الحمَّام والأوانى وتنفيض النوافذ، دقة بالوسوسة أشبه، ومن الجائز أن تكون مثابرتها عليها استمراراً لعادة تأصلت فى صدر الشباب، كما أنه من الجائز أن تكون تكملة مما يعترى الشيخوخة ويلحق بطباعها المتطرفة استمساكها بالبقاء فى بيتها فى شبه وحدة كاملة بعد وفاة بعلها، ثم إصرارها على البقاء فيه حتى بعد فقدانها لبصرها، متصامتة عن دعوات السيد المتكررة لها بالانتقال إلى بيته لتعيش فى رعاية ابنتها وأحفادها، مما عرضها لتهمة الخرف وجعل السيد يعرض عن دعوتها نهائيًا، ولكن الحق أنها كرهت هجر بيتها لتعلقها الشديد به، ولتحاميها ما عسى أن تلقى فى البيت الجديد من إهمال غير مقصود أو ما يستوجبه وجودها من إلقاء أعباء جديدة على عاتق ابنتها المثقل بالواجبات، ولنفورها من الزج بنفسها فى بيت اشتهر صاحبه بين آله بالشراسة والغضب أن تنزلق وهى لا تدرى إلى ملاحظاته الأمر الذى تشفق من عواقبه على سعادة ابنتها، وأخيراً لما تنطوى عليه فى قرارة نفسها من حياء وكبرياء حببا إليها الحياة فى البيت الذى تملك معتمدة - بعد الله - على المعاش الذى تركه لها زوجها الراحل، على أنه ثمة أسبابًا أخرى لإصرارها على البقاء فى بيتها لا يمكن تبريرها برهافة الحساسية أو سداد البصيرة، كخوفها - إذا أخلت البيت - من أن تجد نفسها مضطرة إلى اختيار أمر من اثنين: فإما أن تسمح للغرباء بأن يسكنوه وهو أعز شىء لديها بعد ابنتها وأحفادها، وإما أن تتركه مهجوراً فتتخذه العفاريت ملعبًا بعد أن ظل طوال عمره مقامًا لشيخ من حملة كتب الله هو زوجها، إلا أن انتقالها إلى بيت السيد كان خليقًا بأن يخلق لها مشاكل معقدة لا تفض فى نظرها بميسور الحلول لأنها ما انفكت تسائل نفسها وقتذاك أتقبل ضيافته بدون مقابل وهو ما لا ترتاح إليه بحال، أم تنزل له عن معاشها لقاء إقامتها فى بيته وهو ما يقلق غريزتها فى الامتلاك التى أضحت - مع الكبر - عنصراً جوهريًا من عناصر «وسوستها» العامة؟!

بل قد توهمت أحيانًا عند إلحاحه عليها فى الانتقال إلى بيته أنه يضمر نية استغلالية نحو معاشها وبيتها الذى سيخلو بعد انتقالها ففزعت إلى الرفض لحد العناد الأعمى ولما نزل السيد عند إرادتها قالت له بارتياح «لا تؤاخذنى بإصرارى يا ابنى، ربنا يكرمك بما أوليتنى من عطف، ألا ترى أنه لا يسعنى أن أهجر بيتى؟.. وما أجدرك أن تجارى عجوزا مثلى على علاتها بيد أنى أستحلفك بالله إلا ما سمحت لأمينة والأولاد بزيارتى الحين بعد الحين بعد أن أمسى خروجى من البيت متعذراً» وهكذا بقيت فى بيتها كما أرادت متمتعة بسيادتها وحريتها وكثير من عادات الماضى العزيز. وإذا كان بعض هذه العادات، كالمغالاة الشاذة فى الاهتمام بشئون البيت والمال، مما يتنافى مع هدوء الشيخوخة الحكيمة وتسامحها، وبالتالى مما يبدو كعارض من أعراض الهرم الانتكاسية،

فثمة عادة أخرى مما حافظت عليه جديرة بأن تزين الشباب، وبأن تضفى على الشيخوخة جلالا، تلك هى العبادة. كانت ولم تزل مطمح حياتها ومشرق آمالها وسعادتها، رضعتها صغيرة فى كنف أب شيخ من شيوخ الدين، وتغلغلت فى أعماقها بزواجها من شيخ آخر لم يكن دون أبيها ورعا وتقوى. وظلت تمارس بحب وإخلاص غير مفرقة فى إخلاصها بين ما هو دين حقًا وما هو خرافة خالصة حتى عرفت بين جاراتها بالشيخة المباركة، صديقة الجارية وحدها هى التى عرفتها بخيرها وشرها، فربما قالت لها على أثر مشادة مما ينشب بينهما «يا ستى أليست العبادة أولى بوقتك من الشجار والنقار على التافه من الأمور؟!». فتجيبها محتدة «يا لئيمة إنك لا توصينى بالعبادة حبًا فيها ولكن كى يخلو لك مجال العبث والإهمال والقذارة والسلب والنهب، إن الله يأمر بالنظافة والأمانة فمراقبتك ومحاسبتك عبادة وثواب!»، ولأن الدين قد شغل من حياتها تلك المكانة العالية فقد سما أبوها ومن بعده زوجها إلى مكانة رفيعة من نفسها فوق ما كان لهما بحكم القرابة، وطالما غبطتهما على ما شرفا به من حيازة كلمات الله ورسوله فى صدريهما، ولعلها ذكرت هذا حين خاطبت أمينة مواسية ومشجعة فقالت:

- ما أراد السيد بإخراجك من بيتك إلا إعلان غضبه على مخالفتك لأمره ولكنه لن يجاوز حدود التأديب، أجل لن يحيق سوء بمن كان لها أب كأبيك أو جد كجدك.

وابتل صدر أمينة بذكر أبيها وجدها كما يبتل صدر المنقطع به الطريق فى الظلمات إذا ترامى إليه صوت الغفير وهو يهتف «هوه» فآمن قلبها بقول أمها لا لتلهفها على الطمأنينة فحسب، ولكن لإيمانها قبل كل شىء ببركة الشيخين الراحلين، فلم تكن إلا صورة من أمها فى حسها وإيمانها وجل طباعها. وانثالت على وجدانها فى تلك اللحظة ذكريات أبيها الذى أفعم قلبها وليدة بالحب والإيمان فدعت الله أن ينتشلها من ورطتها إكراما لبركته. وعادت العجوز إلى مواساتها فقالت وعلى شفتيها الجافتين ابتسامة رقيقة:

- إن الله يرعاك دائما برحمته، اذكرى عهد الوباء لا أرجعه الله وكيف نجاك الله من شره فقضى أخواتك ولم يمسك سوء!

غلبها الابتسام على كآبتها فابتسمت، وتفرست فى غبش من الماضى كاد يمحوه النسيان فوضحت - بعض الوضوح - من خليط الذكريات صورة أحيت فى نفسها أصداء من عهد الرعب، وهى صبية تحجل خارج أبواب غلقت على أخوات مستلقيات على أسرَّة المرض والموت، وهى وراء النافذة تنظر إلى سيل من النعوش لا ينقطع والناس تفر من طريقها، أو هى تسمع إلى جماهير من الشعب التقت فى ذعرها ويأسها برجل من رجال الدين - كما كان يتفق لأبيها - وراحت تجأر بالشكوى وترسل الدعوات إلى رب السماء، وعلى رغم استفحال الشر وهلاك أخواتها جميعًا فقد أفلتت من براثن الوباء

سالمة آمنة لم يكدر صفوها إلا عصير الليمون والبصل الذى كانت تجبر على تجرعه مرة أو مرتين فى اليوم. واستطردت الأم بصوت نمت رقته وحنانه على الاسترسال فى الأحلام كأنما قد ردها التذكر إلى العهد الخالى فاستعادت حياته وذكرياته ـ العزيزة الغالية لاقترانها بالشباب ـ خالصة من شوائب الألم المنسى، فقالت:

ـ ولم يقنع حظك السعيد بإنقاذك من الوباء لكنه أبقاك وحيدة الأسرة وكل ما لها فى الدنيا من أمل وعزاء وسعادة فترعرعت فى صميم قلوبنا.

لم تعد أمينة ترى الحجرة ـ بعد هذا الخطاب ـ كما كانت تراها قبله، بعثت جدة الشباب فى كل شىء، فى الجدران والسجادة والسرير، فى أمها وفيها هى نفسها، وردَّ أبوها إلى الحياة واتخذ مجلسه المعهود، وعادت تصغى إلى مناغاة الحب والتدليل وتحلم بقصص الأنبياء والمعجزات، وتستعيد نوادر السابقين من الصحابة والكفار إلى عرابى باشا والإنجليز، بعثت الحياة الماضية بأحلامها السحرية وآمالها الواعدة وسعادتها المرجوة ثم قالت العجوز بلهجة من يقرر النتيجة النهائية لما مهد به من مقدمات منطقية:

ـ أليس الله حافظك وراعيك؟!

بيد أن القول نفسه تضمن عزاء موحيًا ذكَّرها بحالها الراهنة فاستيقظت من حلم الماضى السعيد عائدة إلى كآبتها كما يعود السالى إلى اجترار أحزانه بكلمة مواساة تلقى إليه بحسن نية، ولبثت إلى جانب أمها فى حال من الفراغ الصارم لم تعهدها إلا حين مرضها فأنكرتها وضاقت بها ولم يشغل حديثها المتواصل مع أمها إلا نصف انتباهها على حين بقى النصف الآخر مرعى للضيق والقلق، ولما جاءت صديقة ظهراً بصينية الغداء قالت لها العجوز بقصد تسلية ابنتها أولا «جاءك رقيب ليكشف عن سرقاتك؟»، ولكن أمينة لم يكن يهمها وقتذاك أن تسرق المرأة أو تلتزم الأمانة، ولم ترد الجارية على سيدتها إكراما للضيفة من ناحية ولأنها من ناحية أخرى ألفت مرارة سيدتها وحلاوتها فلم يعد لها غناء عن الاثنتين. وباستدارة النهار اشتد تعلق فكرها لبيتها وتهالك عليه لأنه فى ذلك الوقت يعود السيد إلى البيت للغداء والقيلولة، ثم يرجع الأبناء تباعًا عقب خروج الرجل إلى الدكان، فرأت بخيالها الذى استمد من الألم والحنين قوة خارقة، البيت وآله كأنهم شهود. رأت السيد وهو يخلع جبته وقفطانه دون مساعدتها التى تخاف أن يكون قد ألف الاستغناء عنها منذ رقادها الطويل. وحاولت أن تقرأ ما يدور وراء جبينه من أفكار ونوايا، هل يستشعر الفراغ الذى خلفته وراءها، وكيف كان إحساسه حين لم يجد لها من أثر فى البيت، ألم يرد لها ذكر على لسانه لسبب أو لآخر؟.. وها هم الأبناء عائدون، وها هم يهرعون إلى الصالة بعد طول اشتياق إلى مجلس القهوة فيلقون مجلسها شاغراً، ويسألون عنها فتجيبهم نظرات أختيهم المتجهمة الدامعة، ترى كيف

يتلقى فهمى الخبر، وهل يدرك كمال ـ وهنا خفق قلبها خفقة جارحة ـ معنى غيابها؟ أيتشاورون طويلا؟ . . ماذا ينتظرون؟ . . لعلهم فى الطريق يستبقون إليها . . يجب أن يكونوا فى الطريق، أم يكون قد أصدر أمراً بعدم زيارتها؟ يجب أن يكونوا فى الخرنفش . . سترى عما قليل .

ـ أتحدثيننى يا أمينة؟

بهذا السؤال قاطعت العجوز خيالها فانتبهت إليها فى دهشة ممزوجة بالحياء، إذ فطنت إلى أن كلمات ـ من حديثها الباطن مع نفسها ـ قد تسللت فى غفلة منها إلى طرف لسانها محدثة الحس الذى التقطته أذن أمها المرهفة فلم تر بداً من أن تجيبها قائلة :

ـ إنى أتساءل يا أمى ألا يجىء الأولاد لزيارتى؟

ـ أظنهم جاءوا . . !

قالت العجوز وهى ترهف السمع مادة رأسها إلى الأمام فأنصتت أمينة صامتة فترامى إليها صوت مطرقة الباب وهى ترسل ضربات سريعة متلاحقة كأنها صوت يبعث فى لهفة بصرخات استغاثة حارة فعرفت وراء هذه الضربات العصبية قبضة كمال الصغيرة كما كانت تعرفها وهى تدق عليها باب حجرة الفرن، وسرعان ما هرعت إلى رأس السلم وهى تنادى صديقة لتفتح الباب، ثم أطلت من فوق الدرابزين فرأت الغلام وهو يثب فوق درجات السلم وفى أثره فهمى وياسين وتعلق كمال بعنقها فعاقها قليلا عن عناق الآخرين، ثم دخلوا الحجرة وهم، من جيشان النفس وتبلبل الخاطر يتكلمون فى وقت واحد لا يبالى أحدهم ما يقول الآخرون، ولما رأوا الجدة واقفة مبسوطة الذراعين مشرقة الوجه بابتسامة ترحاب مفعمة بالحب أمسكوا عن الكلام إلى حين وأقبلوا عليها تباعا فساد صمت نسبى تخللته همسات القبل المتبادلة وأخيراً هتف ياسين بصوت ينم عن الاحتجاج والحزن :

ـ نحن الآن لا بيت لنا، ولن يكون لنا بيت حتى تعودى إليه .

وآوى كمال إلى حجرها كالهارب وهو يقول مفصحا لأول مرة عن نيَّته التى طوى صدره عليها فى البيت وفى الطريق :

ـ سأبقى هنا مع نينة . . ولن أعود معكما .

أما فهمى فقد رنا إليها طويلا صامتا، كشأنه إذا أراد أن يحدثها بالنظر، فوجدت فى نظراته الصامتة خير معبر عما يعتلج فى صدريهما معاً . هذا الحبيب الذى لا يفوق حبه لها إلا حبها له، والذى يندر أن يشير فى أحاديثه معها إلى عواطفه ولكن تشى به خطرات نفسه وكلماته وفعاله، وقد قرأ الفتى فى عينيها نظرة تدل على الألم والخجل فاشتد تأثره وقال بحزن وتألم :

ـ نحن الذين اقترحنا عليك الخروج، وشجعناك عليه، ولكن ها أنت وحدك تتلقين العقاب.

فابتسمت الأم فى ارتباك وقالت:

ـ لست طفلة يا فهمى، وما كان ينبغى لى أن أفعل.

فتأثر ياسين لهذا الحوار المتبادل، واشتد كربه لفرط إحساسه بالحرج بصفته صاحب الاقتراح المشئوم، وتردد طويلا بين معاودة الاعتذار عن اقتراحه، على مسمع من الجدة أن تعاتبه أو تضمر له حنقًا، وبين السكوت على ما به من رغبة فى التنفيس عن تحرجه، ثم خرج من تردده بأن ترجم كلام فهمى إلى لغة أخرى قائلا:

ـ أجل نحن المذنبون وأنت المتهمة، (ثم ضاغطًا على مخارج الكلمات كأنما يضغط على عناد أبيه وصلابته). ولكنك ستعودين، وسوف تنقشع السحابة التى تظللنا جميعًا.

ولفت كمال وجهها إليه من ذقنها، وانهال عليها بسيل من الأسئلة، عن معنى مغادرتها البيت، وكم تطول إقامتها فى بيت جدته، وعما يحدث لو عادت معهم، وغير ذلك من الأسئلة التى لم يسمع عنها جوابًا واحدًا حقيقًا بأن يسكن خاطره الذى لم ينفع فى تسكينه عزمه على أن يبقى مع أمه حيث هى، ذلك العزم الذى كان أول من يرتاب فى قدرته على تحقيقه، وتغيرت وجهة الحديث بعد أن فرغ كل منهم من التعبير عن عواطفه، فأخذوا يعالجون الموقف معالجة جدية لأنه ـ كما قال فهمى ـ «لا يجدى التكلم فيما كان ولكن ينبغى أن نتساءل عما سيكون»، وقد أجابه ياسين على تساؤله قائلا: «إن رجلا كأبينا لا يرضى بأن يمر بحادث كخروج أمنا مَرًّا كريمًا، فلم يكن بد من أن يعلن غضبه بطريقة لا يسهل نسيانها، ولكنه لن يجاوز حدود ما فعل». بدا هذا الرأى مقنعًا لما صادف من ارتياح النفوس إليه فقال فهمى مفصحًا عن اقتناعه ومرجوه معًا «والدليل على صحة رأيك أنه لم يقدم على فعل شىء آخر، ومثله لا يؤجل عزمه لو صحت نيته عليه». وتكلموا كثيرًا عن «قلب» أبيهم فاتفقت كلمتهم على أنه قلب خير رغم ثورته وحدته وأن أبعد شىء عن تصورهم هو أن يقدم على عمل من شأنه أن يسىء إلى السمعة أو يؤذى أحدًا وعند ذلك قالت الجدة على سبيل الدعابة وهى تعلم باستحالة ما تدعو إليه:

ـ لو كنتم رجالا حقًا لالتمستم الوسيلة إلى قلب أبيكم ليتحول عن عناده.

فتبادل ياسين وفهمى نظرات ساخرة من هذه «الرجولة» المزعومة التى تذوب لدى ذكر أبيهم، وخافت الأم من ناحيتها أن يتطور الحديث بين الشابين والجدة إلى ذكر حادث السيارة فأفهمتهما بالإشارة ـ وهى تردد يدها بين كتفها وأمها ـ أنها أخفت عنها الأمر، ثم قالت تخاطب أمها وكأنها تنبرى للدفاع عن رجولة الشابين:

ـ لا أحب أن يتعرض أحدهما لغضبه فلنتركه لنفسه حتى يعفو .

وهنا تساءل كمال :

ـ ومتى يعفو ؟

فأشارت الأم بسبابتها إلى فوق وهى تغمغم «ربنا عنده العفو» . وكالمألوف فى مثل هذه الحال دار الحديث حول نفسه فأعاد كل ما سبق له قوله بنفس الألفاظ أو بألفاظ جديدة من إيثار متواصل للظنون الوردية فطال الحديث دون أن يستجد به جديد ، حتى خيم الظلام ووجب الرحيل . وحين وجب الرحيل وغشيت كآبته القلوب كالضباب شغل به الفكر عن الكلام فساد سكون كالسكون الذى يسبق العاصفة ، اللهم إلا كلمات لا يراد بها إلا التخفيف من وطأة الصمت أو التهرب من الاعتراف بجثوم الوداع وكأن كلا منهم يلقى تبعة إعلانه على عاتق غيره رحمة بالجانب الآخر ، هنالك حدس قلب العجوز ما تضطرم به النفوس حولها فرمشت عيناها المظلمتان ولعبت أصابعها بحبات السبحة فى عجلة ولهوجة ، ومضت بها دقائق بدت على قصرها كاتمة للأنفاس كاللحظات التى يترقب فيها الحالم فى كابوس سقطة من علو شاهق ، حتى جاءها صوت ياسين وهو يقول : «أظن آن لنا أن نذهب ، وسنعود لنأخذك معنا قريبا إن شاء الله» . وتسمعت العجوز لترى كيف تتهدج نبرات ابنتها عند الكلام ، ولكنها لم تسمع كلامًا بل سمعت حركة دالة على نهوض الجلوس ، وأصوات قُبَل وهمهمة توديع ، واحتجاج كمال على انتزاعه بالقوة فبكاءه ، ثم جاء دورها فى التسليم فى جو مشبع بالحزن والفتور ، وأخيراً أخذت الأقدام تبتعد تاركة إياها فى حدة وشجن .

وعادت قدما أمينة الخفيفتان فمضت العجوز تتصنت فى قلق حتى هتفت بها :

أتبكين؟! . . يا لك من عبيطة! . . كأنك لا تطيقين أن تبيتى ليلتين فى حضن أمك . !

٣٤

بدت خديجة وعائشة أضيق الجميع بغياب الأم ، فإلى حزنهما الذى يشاركهما فيه الإخوة تحملتا وحدهما أعباء البيت وخدمة الأب بيد أن أعباء البيت لم تكن لتنوء بهما ، أما خدمة الأب فهى التى عملتا لها ألف حساب ونزعت عائشة إلى الهرب من منطقة أبيها معتلة بأن خديجة سبق لها أن تدربت على خدمته فى أثناء رقاد الأم فوجدت خديجة نفسها مرغمة على العودة إلى تلك المواقف الدقيقة الرهيبة التى تكابدها وهى على كثب من السيد أو وهى تقضى له حاجة من حاجاته . ومنذ الساعة الأولى لذهاب الأم قالت

خديجة: «ينبغى ألا تطول هذه الحال، إن الحياة بدونها فى هذا البيت عناء لا يطاق»، فأمَّنت عائشة على قولها ولكنها لم تجد من حيلة فى وسعها غير الدموع فذرفتها، وانتظرت عودة أخوتها من بيت الجدة حتى جاءوا وقبل أن تلفظ كلمة مما يدور فى نفسها راحوا يحدثون عن حال أمهم فى «منفاها» فوقع الحديث من نفسها موقع الغرابة والاستنكار لأنها كانت تسمع عن قوم غرباء لا يتاح لها لقاؤهم فغلبها الانفعال وقالت بحدة:

- إذا قنع كل منا بالسكوت والانتظار فربما تلاحقت الأيام والأسابيع وهى مبتعدة عن بيتها حتى يضنيها الحزن، أجل إن مخاطبة بابا فى هذا الشأن مهمة شاقة ولكنها ليست أشق من السكوت الذى لا يليق بنا، ينبغى أن نجد طريقة.. ينبغى أن نتكلم.

ومع أن صيغة «نتكلم» التى ختمت بها جملتها جاءت شاملة لجميع الحاضرين إلا أنه قصد بها - كما فهم بالبداهة - شخصًا أو شخصين شعر كلاهما لدى سماعها بارتباك لم تخف بواعثه على أحد، بيد أن خديجة واصلت حديثها قائلة:

- لم تكن مهمة مخاطبته فيما يعرض من أمور بأيسر على نينة مما هى علينا ومع ذلك لم تكن تتردد عن مخاطبته إكرامًا لأى واحد منا، فمن الإنصاف أن نتحمل نفس التضحية من أجل خاطرها.

تبادل ياسين وفهمى نظرة فضحت إحساسهما بالخناق الذى أخذ يضيق حولهما سريعًا ولكن واحدًا منهما لم يجرؤ على فتح فيه أن ينتهى به الكلام إلى أن يقع عليه الاختيار ليكون كبش الفداء فاستسلما لانتظار ما يجىء به النقاش كما يستسلم الفأر للهرة، وتركت خديجة التعميم إلى التخصيص فالتفتت إلى ياسين قائلة:

- أنت أخونا الأكبر وإلى هذا فأنت موظف، أى رجل كامل. فأنت أجدرنا بهذا الواجب.

ملأ ياسين صدره بالهواء ثم نفخ وهو يعبث بأنامله فى ارتباك ظاهر وتمتم قائلا:

- والدنا رجل نارى الغضب لا يقبل مراجعة لرأيه، وأنا من ناحيتى لم أعد غلامًا بل صرت رجلا وموظفًا كما تقولين، وأخوف ما أخاف أن ينفجر فى غاضبًا فيفلت منى زمام نفسى ويثور غضبى بدوره!

وغلبهم الابتسام على أعصابهم المتوترة المحزونة فابتسموا، وأوشكت عائشة أن تضحك فأخفت وجهها فى كفيها، ولعل حالهم المتوترة نفسها مما هيأهم لقبول الابتسام كمسكن وقتى للتوتر والألم كما يحدث للنفوس أحيانًا عند اشتداد الحزن من الاستسلام للطرب لأتفه الأسباب على سبيل التخفيف عن حال بأضدادها، ذلك أنهم عدوا قوله نوعًا من الدعابة الجديرة بالضحك والسخرية، وكان هو أول من يعلم بعجزه التام عن

مجرد التفكير فى الغضب أو المقاومة حيال والده وأول من يعلم أنه قال ما قال فراراً من مواجهة أبيه واتقاء لسخطه، فلما رأى هزءهم لم يسعه إلا أن يبتسم بدوره وهو يهز منكبيه كأنما يقول لهم «دعونى وشأنى». فهمى وحده بدا متحفظًا فى ابتسامة لشعوره أن القرعة ستصيبه قبل أن تغيب ابتسامته، وصدق شعوره إذ أعرضت خديجة عن ياسين فى إزدراء ويأس وخاطبته قائلة برجاء وإشفاق:

- فهمى.. أنت رجلنا!

فرفع حاجبيه فى ارتباك متطلعًا إليها بنظرة كأنما يقول لها «أنت أدرى بالعواقب!»، حقًا كان يتمتع بمزايا لا يتمتع ببعضها أحد فى الأسرة فهو طالب بمدرسة الحقوق، وهو أكبرهم عقلا وأنفذهم رأيا، وله من ضبط النفس فى المواقف الحرجة ما يدل على الشجاعة والرجولة ولكنه سرعان ما يفقد جملة مزاياه إذا مثل بين يدى أبيه فلا يعرف غير الطاعة العمياء. وبدا وكأنه لا يدرى ماذا يقول فحثته على الكلام بإيماءة من رأسها فقال متحيرا:

- هل ترينه يقبل رجائى؟.. كلا.. ولكنه سينهرنى قائلا: «لا تتدخل فيما لا يعنيك». هذا إذا لم يثر غضبه فيوجِّه إلىَّ كلامًا أشد وأقسى!

وارتاح ياسين إلى هذا الكلام «الحكيم» الذى وجد فيه دفاعًا عن موقفه أيضًا فقال وكأنه يكمل رأى أخيه:

- وربما جر تدخلنا إلى محاسبتنا من جديد على موقفنا يوم خروجها فنفتح على أنفسنا فتحة لا ندرى كيف نسدها!

فالتفتت الفتاة نحوه مغيظة محنقة وقالت بمرارة وسخرية:

- لا منك ولا كفاية شرك!

فقال فهمى الذى استمد من غريزة «حب البقاء» قوة جديدة للدفاع عن نفسه:

- فلنفكر فى الأمر بعناية شاملة.. لا أظنه يقبل لى أو لياسين رجاء ما دام يعتبرنا شريكين فى الخطأ، وعليه فالقضية خاسرة إذا تقدم أحدنا للدفاع عنها، أما إذا حدثته واحدة منكما فلعلها تنجح فى استعطافه أو لعلها تجد - على أسوأ الظنون - إعراضًا هادئًا لا يبلغ حد العنف، فلماذا لا تحدثه إحداكما؟.. أنت مثلا يا خديجة؟!

فانقبض قلب الفتاة التى وقعت فى الشرك وحدجت ياسين وفهمى بنظرة غيظ وهى تقول:

- ظننت هذه المهمة أخلق بالرجال!

فقال فهمى مواصلا هجومه السلمى:

- العكس هو الصحيح ما دمنا نتوخى نجاح المسعى، ولا تنسى أنكما لم تتعرضا لغضبه

طول حياتكما إلا فى النادر الذى لا يقاس عليه، فهو يألف الرفق بكما كما يألف البطش بنا!

فأطرقت خديجة متفكرة فى قلق غير خاف، وكأنها خافت إن طال صمتها أن تشتد عليها الحملة فتستقر المهمة الخطيرة فى قرعتها فرفعت رأسها قائلة:

ـ إذا كان الأمر كما تقول فعائشة أخلق منى بالكلام!

ـ أنا!.. لِمَ؟!

نطقت بها عائشة فى فزع من وجد نفسه فى مرمى الخطر بعد أن اطمأن طويلا إلى موقف المتفرج الذى ليس له من الأمر شىء خاصة وإنها ـ لحداثة سنها وغلبة إحساس الطفولة المدللة عليها ـ لم تكن تندب لشىء هام فضلا عن أخطر مهمة يمكن أن تعرض لأحد منهم، إلا أن خديجة نفسها لم تجد فكرة واضحة لتبرير اقتراحها بيد أنها أصرت عليه فى عناد مشبع بالمرارة والتهكم فقالت تجيب شقيقتها:

ـ لأنه ينبغى الانتفاع بصفرة شعرك وزرقة عينيك فى إنجاح مسعانا!

ـ وما دخل شعرى وعينى فى مواجهة أبى؟!

لم تكن خديجة تهتم فى تلك اللحظة بالإقناع بقدر ما تهالكت على إيجاد مخرج لها ولو بتحويل الأذهان إلى أمور هى بالمعابثة أشبه تمهيداً للتقهقر، فالفرار من أسلم السبل الممكنة كمن يقع فى مأزق حرج وتعوزه الحجة فى الدفاع عنه فيلجأ إلى المزاح ليمهد لنفسه مفراً فى ضجة من السرور بدلا من الشماتة والازدراء لذلك قالت:

ـ أعرف لهما تأثيراً ساحراً فى كل من يتصل بك، ياسين.. فهمى.. حتى كمال، فلماذا لا يكون لهما نفس التأثير عند أبى؟

فتورد وجه عائشة وقالت بانزعاج:

ـ كيف أخاطبه فى هذا الشأن وأنا لا تقع علىَّ عيناه حتى يطير ما فى رأسى؟!

عند ذاك ـ وبعد أن تهربوا تباعا من المهمة الخطيرة ـ لم يعد يشعر أحد منهم بتهديد مباشر ولكن النجاة لم تعفهم من إحساس بالذنب، بل لعلها كانت أول دافع إليه، حيث أن الإنسان ركز تفكيره فى النجاة عند الخطر حتى إذا ظفر بالنجاة عاد ضميره يناوشه، كالجسم الذى يستنفد حيويته كلها فى العضو المريض حتى إذا ما استرد صحته توزعت حيويته بالتساوى على الأعضاء التى أهملت إلى حين، وكأن خديجة أرادت أن تتخفف من هذا الإحساس فقالت:

ـ ما دمنا نعجز جميعًا عن مخاطبة بابا فلنستعن بجارتنا الست أم مريم.

وما أن نطقت باسم «مريم» حتى لحظت فهمى بحركة عكسية فالتقت عيناهما لحظة قصيرة فى نظرة لم يرتح لها الشاب لإيحائها فأشاح عنها بوجهه متظاهراً بعدم الاكتراث،

ذلك أن اسم مريم لم يجر على لسان أمام فهمي منذ نبذت فكرة خطبتها، إما مراعاة لعواطفه، وإما لأن مريم اكتسبت معنى جديداً بعد اعترافه بحبها سلكها في زمرة المحرمات التي لا تتسامح تقاليد البيت بلوكها علانية حيال صاحب الشأن، وبالرغم من أن مريم نفسها لم تنقطع عن زيارة الأسرة متظاهرة بجهل ما دار بشأنها وراء الأبواب. . ولم تفت ياسين لحظة الارتباك المتبادل بين فهمي وخديجة فأراد أن يغطي على أثرها المحتمل بتوجيه الانتباه إلى وجهة جديدة فوضع يده على كتف كمال وقال بلهجة بين التهكم والتحريض:

ـ هـذا رجلنا الحق، هو وحده الذي يستطيع أن يرجو والده ليعيد إليه أمه!

لم يحمل كلامه محمل الجد أحد، وأولهم كمال نفسه، بيد أن قول ياسين وثب إلى ذاكرته في اليوم التالي وهو يقطع ميدان بيت القاضي عائداً من المدرسة، بعد نهار مضى أكثره في التفكير في أمه المنفية، فتوقف عن السير صوب درب قرمز، والتفت إلى طريق النحاسين متردداً وقلبه المحزون يتابع خفقاته في كآبة وتألم، ثم غير طريقه متجهاً نحو النحاسين في خطوات متباطئة دون أن يجمع عزمه على رأي، يسوقه العذاب الذي يعاني لفقد أمه، ويرجعه الخوف الذي يركبه لمجرد ذكر أبيه، فضلا عن مخاطبته أو التوسل إليه، لم يكن يتصور أنه يستطيع أن يقف بين يديه محدثًا في هذا الأمر، ولم تغب عن شعوره المخاوف العسية بأن تحيق به لو فعل، ولم يصمم على شيء إلا أنه رغم كل هذا واصل السير البطيء حتى لاح لعينيه باب الدكان كأنما ينزع إلى إرضاء قلبه المعذب ولو إرضاء عميقًا ـ كالحدأة التي تحوم حول خاطف صغارها دون أن تجد الشجاعة – على مهاجمته ـ وتدانى من الباب حتى وقف على بعد أمتار منه وطال الوقوف وهو لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يستقر على رأي، وفجأة خرج من الدكان رجل وهو يقهقه عاليًا وإذا بأبيه يتبعه حتى عتبة الباب مودعًا وهو يغرق في الضحك كذلك، فأذهلته المفاجأة، فتسمر في مكانه مستشرفًا وجه أبيه الضاحك الطليق في إنكار ودهشة لا توصفان، لم يصدق عينيه وخيل إليه أن شخصية جديدة قد حلَّت في جسم أبيه، أو أن هذا الرجل الضاحك ـ على ما به من شبه بأبيه ـ شخص آخر يراه لأول مرة، شخص يضحك، ويغرق في الضحك، وينطلق البشر من وجهه كما ينطلق الضوء من الشمس، واستدار السيد ليدخل فوقع بصره على الغلام المتطلع إليه بذهول فأخذته الدهشة لموقفه وهيئته على حين استردت أساريره بسرعة مظهر الجد والرزانة، ثم سأله وهو يتفرس في وجهه:

ـ ماذا جـاء بك؟!

وللحال دبت في أعماق الغلام غريزة الدفاع عن النفس ـ رغم ذهوله ـ فتقدم من أبيه ومد يده الصغيرة إلى يده وتطامن عليها حتى لثمها في أدب وخشوع دون أن ينبس بكلمة. فسأله السيد مرة أخرى:

ـ أتريد شيئًا؟!

فازدرد كمال ريقه وهو لا يجد ما يتلفظ به إلا أن يقول مؤثرًا السلامة «إنه لا يريد شيئا وأنه كان فى طريقه إلى البيت»، ولكن السيد استبطأه فلاح فى وجهه الضيق وقال بخشونة:

ـ لا تقف كالصنم وقل ماذا تريد.

ونفذت خشونة الصوت إلى قلبه فارتعد، وانعقد لسانه فكأن الكلام قد التزق بسقف حلقه، فازداد الأب ضيقًا وهتف بحدة:

ـ تكلم.. هل فقدت النطق؟!

وتجمعت قوته كلها فى إرادة واحدة وهى أن يخرج من صمته بأى ثمن اتقاء لغضب أبيه ففتح فاه قائلا كيفما اتفق له:

ـ كنت عائدًا من المدرسة إلى البيت.

ـ وماذا أوقفك هنا كالمعتوه؟!

ـ رأيت.. رأيت حضرتك فأردت أن أقبل يدك..!

فتجلَّت فى عينى السيد نظرة استرابة، وقال بجفاء وتهكم:

ـ أهذا كل ما هنالك!.. أوحشتك لهذا الحد؟!.. ألم تستطع أن تنتظر إلى الصباح لتقبل يدى إذا أردت؟!.. اسمع.. إياك وأن تكون قد عملت عملة فى المدرسة.. سأعرف كل شىء.

فقال كمال بسرعة واضطراب:

ـ لم أعمل شيئا وحياة ربنا.

فقال الرجل بنفاد صبر:

ـ إذن تفضل.. ضيعت وقتى بلا مناسبة.. غر من وجهى.

فغادر كمال موقفه لا يكاد يرى موضع قدمه من الاضطراب، وتحرك السيد عن مكانه ليدخل ولكن عاودت الغلام الحياة بمجرد تحول عينى أبيه عن عينيه، وصاح بلا شعور قبل أن يغيب الرجل وتضيع الفرصة:

ـ رجَّع نينة الله يخليك.

وأطلق ساقيه للريح.

٣٥

كان السيد يحتسى قهوة العصر فى حجرته حين دخلت خديجة وقالت بصوت كاد من التخشع ألا يسمع :

ـ جارتنا ست أم مريم تريد مقابلة حضرتك .

فتساءل السيد متعجبًا :

ـ حرم السيد محمد رضوان؟ . . ماذا تريد؟

فقالت خديجة :

ـ لا أعرف يا بابا .

فأمرها بإدخالها وهو يمسك عن التعجب . ومع أن مجىء بعض الفضليات من الجارات لمقابلته ـ لشأن يتعلق بتجارته أو لصلح يسعى به بينهن وبين أزواجهن من أصدقائه لم يكن مع ندرته بالجديد عليه إلا أنه استبعد أن يكون ما دعا هذه السيدة إلى مقابلته واحد من هذه الأسباب . وخطرت على ذهنه ، وهو يتساءل ، مريم وما دار عن خطبتها بينه وبين زوجه ، ولكن أى علاقة ثمة بين هذا السر الذى لا يمكن أن يتعدى دائرة أسرته وبين هذه الزيارة؟! . . ثم ذكر السيد محمد رضوان لاحتمال أن تكون الزيارة لسبب يمت إليه بيد أنه كان ولم يزل مجرد جار ، لا تربطه به إلا صلة الجيرة التى لم ترتفع يومًا لمرتبة الصداقة ، فاقتصر تزاورهما قديمًا على المناسبات الضرورية حتى شل الرجل فعاده مرات ، ثم لم يعد يطرق بابه إلا فى الأعياد . على أن ست أم مريم ليست بالغريبة عليه ، فإنه ليذكر أنها قصدت دكانه مرة لابتياع بعض الحوائج وهناك عرَّفته بنفسها استرعاء لاهتمامه فبذل لها من كرمه ما رآه جديراً بحسن الجوار ، ومرة أخرى التقى بها عند باب بيته إذ صادف خروجه قدومها للزيارة مصطحبة كريمتها وعند ذاك أدهشته بجسارتها حين حيته قائلة «مساء الخير يا سى السيد» ، أجل علمه اختلاطه بالأصدقاء أن بينهم من يتسامح فيما يتشدد فيه متطرفًا من التزام الآداب المتوارثة للأسرة ، فلا يرون بأسًا من أن تخرج نساؤهم للزيارة أو للاستبضاع ، ولا يجدون حرجًا فى توجيه تحية بريئة كالتى وجهتها أم مريم إليه ، ولم يكن ـ رغم حنبليته ـ بالذى يطعن فيما يرتضون لأنفسهم ولنسائهم ، بل لم يكن يسىء الظن حتى ببعض الأعيان من أصدقائه الذين يصطحبون زوجاتهم وبناتهم فى العربات للتنزه فى الخلوات أو لغشيان الملاهى البريئة مكتفيًا فى مثل هذه الحال بترديد قوله : «لكم دينكم ولى دين» ، أى أنه لا ينزع إلى تطبيق آرائه على

الناس تطبيقًا أعمى ، إلى أنه يحسن التمييز حقًا بين ما هو خير وما هو شر ، إلا أنه لا يفتح صدره لكل «ما هو خير» ضالعًا فى ذلك مع طبيعته التقليدية الصارمة حتى أنه عد زيارة زوجه للحسين جريمة قضى فيها بأقصى عقوبة أصدرها فى حياته الزوجية الثانية ، ولهذا كله لاقت تحية أم مريم له من نفسه دهشة مقرونة بما يشبه الانزعاج دون أن يسيء بأخلاقها الظن . وسمع خارج باب الحجرة نحنحة فأدرك أن القادمة تنذره بالدخول ، ثم دخلت ملتفة فى ملاءتها ، مستورة الوجه ببرقع أسود تتوسط عروسه الذهبية عينين مكحولتين دعجاوين وتدانت منه بجسم جسيم لحيم مترنح الأرداف ، فنهض السيد لاستقبالها وهو يمد يده قائلا :

ـ أهلا وسهلا ، شرفت البيت وأهله .

فمدت له يدها بعد أن لفتها فى طرف الملاءة أن تنقض وضوءه وقالت :

ـ ربنا يشرف قدرك يا سى السيد .

ودعاها للجلوس فجلست ، ثم جلس وهو يسألها مجاملة :

ـ كيف حال السيد محمد؟

فقالت متنهدة بصوت مسموع كأن السؤال حرك أشجانها :

ـ الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ، ربنا يلطف بنا جميعًا .

فهز السيد رأسه كالآسف وتمتم :

ـ ربنا يأخذ بيده ويمنحه الصبر والعافية .

وأعقب حديث المجاملات صمت قصير فأخذت السيدة تتهيأ للحديث الجدى الذى جاءت من أجله كما يتهيأ المطرب للغناء بعد الفراغ من عزف المقدمة الموسيقية على حين غض السيد بصره تحشمًا تاركًا على شفتيه ابتسامة لتعلن ترحيبه بالحديث المنتظر :

ـ يا سيد أحمد ، أنت فى المروءة مثل يضرب فى الحى كله ، فلن يخيب رجاء لمن يقصدك مستشفعًا مروءتك .

فتمتم السيد بصوت حيى وهو يتساءل فى نفسه «ترى ما وراء هذا كله؟!» .

ـ أستغفر الله . .

ـ المسألة أننى جئت الساعة لأزور أختى ست أم فهمى فما هالنى إلا أن أعلم بأنها ليست فى البيت وأنك غاضب عليها!

وأمسكت المرأة لتسبر أثر كلامه ولتسمع رأى السيد فيه ، ولكنه لاذ بالصمت كأنه لا يجد ما يقوله ومع أنه شعر بعدم ارتياح إلى فتح هذا الموضوع إلا ان ابتسامة الترحيب ظلت معلقة بشفتيه .

- هل توجد ست أكمل من ست أم فهمى؟!.. ست العقل والحياء، جارة عشرين عاما وأكثر، لم نسمع خلالها منها إلا ما يسر الخاطر، فما عسى يمكن أن تجنى مما تستحق عليه غضب رجل عادل مثلك؟!

فثابر السيد على صمته متجاهلا تساؤلها، ثم دارت برأسه خواطر زادت من عدم ارتياحه.. ترى أجاءت زيارة المرأة للبيت اتفاقًا أم أنها استدعيت بتدبير مدبر؟!.. خديجة؟.. عائشة؟.. أمينة نفسها؟.. إنهم لا يملُّون الدفاع عن أمهم، هل ينسى كيف تجرأ كمال على الصراخ فى وجهه مطالبًا بعودة أمه، الأمر الذى عرضه فيما بعد لعلقة ساخنة تطاير بخارها من يافوخه؟!

- يا لها من سيدة طيبة لا تستاهل عقابًا.. ويا لك من سيد كريم لا يليق به العنف، ولكنه الشيطان اللعين أخزاه الله وما أجدر نبلك بإفساد كيده.

وشعر عند ذاك بأن الصمت غدا أثقل من أن يحتمل مجاملة للزائرة فتمتم قائلا باقتضاب متعمد:

- ربنا يصلح الحال..

فقالت أم مريم بحماس متشجعة بما أصابت من نجاح فى استدراجه إلى الكلام..

لشد ما يعز علىّ أن تترك جارتنا الطيبة بيتها بعد ذاك العمر الطويل من الستر والكرامة.

- ستعود المياه إلى مجاريها، ولكن لكل شىء ميعاد.

- أنت أخى، بل أعز من الأخ، ولن أزيد على هذا كلمة واحدة!

جد جديد من الأمر لم يغب عن وعيه اليقظ فسجله كما يسجل المرصد الزلزال البعيد مهما تدق حركته. خيل إليه وهى تقول: «أنت أخى» أن صوتها رق وعذب، فلما قالت «بل أعز من الأخ»، جهر الصوت بحنان دافىء نشر فى الجو المحتشم نفحة طيبة، فتعجب وتساءل، ولم يعد يطيق غض بصره على الشك فرفعه مستأنيا.. واسترق إلى وجهها النظر - فوجدها - على غير ما توقع - تتطلع إليها بعينيها الدعجاوين، فجاش صدره وخفض بصره مستعجلا بين الدهشة والحرج ثم قال مواصلا الحديث كى يغطى على تأثيره:

- أشكرك على ما أوليتنى من أخوة.

وعاد يتساءل ترى أكانت تتطلع هكذا طوال الحديث أم صادف رفع بصره إليها تطلعها إليه؟.. وما القول فى أنها لم تغض بصرها عند التقاء العينين؟.. ولكنه سرعان ما هزأ بأفكاره قائلا لنفسه إن ولعه بالنساء وخبرته بمعاشرتهن أرهفا حاسة سوء الظن عنده، وأن الحقيقة بلا ريب أبعد ما تكون عن تصوره، أو لعل المرأة من النساء اللاتى يفضن الحنان

طبعًا وسجية فيظنه من لا يعرفهن غَزَلا وما هو بالغَزَل، ولكى يتحقق من صدق رأيه ـ لأنه لم تزل ثمة حاجة إلى التحقيق ـ رفع بصره مرة أخرى فما هاله إلا أن يراها رانية إليه، فتشجع هذه المرة وثبت عليها عينيه قليلا فلم تزل ترنو إليه باستسلام جسور حتى غض بصره فى حيرة شاملة، وعند ذاك لاحقه صوتها الناعم وهو يقول:

ـ سأرى بعد هذا الرجاء إذا كنت حقًا أثيرة عندك..

أثيرة؟!.. لو قيلت هذه الكلمة فى غير هذا الجو المشبع بالحساسية المكهرب بالشك والحيرة، لمرت دون أن تترك أثرًا، أما الآن؟!.. وعاود النظر فى غير قليل من الحرج فقرأ فى عينيها بعض المعانى التى عابثت ظنونه، هل يصدق إحساسه؟ وهل يمكن هذا حال استشفاعها لزوجه؟.. ولكن كيف يعجب من كان فى مثل خبرته بالنساء؟.. سيدة لعوب ذات بعل مشلول. وسرت فى وجدانه وثبات بهيجة ملأته حرارة وزهوًا، ولكن متى نشأت هذه العاطفة؟.. أهى قديمة وكانت تتحين الفرص؟.. ألم تزر دكانه مرة فلم يند عنها ما يريب.. ولكن الدكان ليس بالمكان الذى تطمئن إليه مثلها فى بث هوى مكتم غير مسبوق بتمهيد كما فعلت زبيدة العالمة، أم هى عاطفة بنت ساعتها وجدت مع الفرصة السانحة فى الغرفة الخالية؟.. لو صح هذا فهى «زبيدة» أخرى فى لباس سيدة مصونة، وليس غريبًا أن يجهل أمرها ـ وهو العليم ببنات الهوى ـ ما دام يحرص الحرص كله على احترام الجيران احترامًا مثاليًا، وأيًا كان الأمر فكيف يجيبها؟.. «أنت آثر عندى مما تظنين؟». قول جميل ولكنها حرية بأن ترى فيه تحية استجابة لدعائها، كلا إنه لا يريد هذا، إنه يأباه كل الإباء، لا لأنه لم يشبع بعد من زبيدة، ولكن لأنه لا يقبل أن يحيد عن مبادئه فى تقديس الأعراض عامة، وما يمس الأصدقاء والجيران منها خاصة. لهذا لم تسود صفحته نقطة واحدة يمكن أن يخزى بها أمام صديق أو جار أو أحد من الأطهار على إفراطه فى العشق والصبوات، ولم يزل دأبه أن يخاف الله فى لهوه كما يخافه فى جدِّه فلا يبيح لنفسه إلا ما يراه مباحًا أو فى حدود الهفوات. لا يعنى هذا أنه أوتى إرادة خارقة تعصمه من الأهواء، ولكنه لهج بالهوى المبذول، وصان طرفه عن الحرمات حتى أنه لم يتعمد النظر إلى وجه امرأة من حيه طوال عمره، على أنه مما يذكر له أنه صد مرة عن هوى متاح رحمة بأحد معارفه، إذ جاءه يومًا رسول يدعوه إلى لقاء أخت ذلك الرجل ـ أرملة نصف ـ فى ليلة سماها فتلقى السيد الدعوة صامتًا وصرف الرسول متلطفًا كعادته ثم قاطع الطريق الذى يوجد به البيت أعوامًا متواصلة. ولعل أم مريم كانت أول تجربة ـ عرضت لمبادئه ـ يكابدها بعينيه، ومع أنها أعجبته إلا أنه لم يستجب لنوازع الهوى، وغلب صوت الحكمة والوقار، صائنًا سمعته التى يتحدث بها الناس عن موطن المؤاخذة، كأن هذه السمعة الطيبة آثر عنده من اقتناص لذة مواتية، متعزيًا فى نفس الوقت بما يتاح له من حين لآخر من غراميات مأمونة العواقب، وهذه الروح الراعية

للعهد المخلصة للإخوان لا تزايله حتى فى مغانى اللهو والشهوة، فلم يؤخذ عليه أبدًا أنه سطا على محظية صاحب أو طمح بطرف إلى خليلة صديق، مؤثرا الصداقة على الأهواء، لأنه كما اعتاد أن يقول «الصديق ود دائم والعشيقة هوى عابر»، ولهذا قنع بانتقاء خليلاته ممن يجدهن بلا خليل، أو ينتظر حتى تنقطع علاقة فينهض لانتهاز فرصته، وأحيانًا يستأذن الخليل القديم قبل أن يتودد إلى من كانت خليلته، مواصلا العشق فى سرور لا يشوبه الندم ولا تكدر صفوه إحن النفوس. بمعنى آخر أنه نجح فى التوفيق بين «الحيوان» المتهالك على اللذات وبين «الإنسان» المتطلع إلى المبادىء العالية توفيقًا ائتلافيًا يجمعهما فى وحدة منسجمة لا يطغى أحد طرفيها على الآخر ويستقل كل منهما بحياته الخاصة فى يسر وارتياح، كما وفق من قبل فى الجمع بين التدين والغواية فى وحدة خالية من الإحساس بالذنب والكبت معًا، غير أنه لم يكن يصدر فى وفائه عن إخلاص مجرد للأخلاق ولكن ـ إلى هذا أو قبل هذا ـ عن رغبته التليدة فى أن يظل حائزًا للحب متمتعًا بالسمعة العطرة، إلى أن غزواته المظفرة فى العشق هوَّنت عليه الإعراض عن الحب الموسوم بالخيانة أو النذالة، وفضلا عن هذا وذاك فإنه لم يعرف الحب الحقيقى الذى كان خليقًا بأن يدفعه إلى إحدى اثنتين: فإما الإذعان للعاطفة القوية دون مبالاة بالمبادىء، وإما الوقوع فى أزمة عاطفية خلقية حادة لم يقدَّر عليه الاكتواء بنارها. فلم يكن فى أم مريم إلا صنفًا لذيذًا من الطعام لن يضيره ـ إذا هدده تناوله بسوء الهضم ـ أن يعدل عنه إلى غيره من الأصناف المأمونة الشهية التى تحفل بها المائدة، لذلك أجابها برقة قائلا:

ـ شفاعتك مقبولة إن شاء الله وستسمعين ما يسرك عما قريب.

فقامت المرأة وهى تقول:

ـ ربنا يكرمك يا سى السيد..

ومدت له يدًا بضَّة فمد لها يده وهو يغض بصره فخيل إليه ـ وهى تسلم ـ أنها ضغطت قليلا على يده، وجعل يتساءل أهذه طريقتها فى التسليم أم أنها تعمدت الضغط على يده، وحاول أن يتذكر كيفية تسليمها عند استقبالها ولكن الذاكرة لم تسعفه، وقضى أكثر الوقت الذى سبق عودته إلى الدكان وهو يفكر فى المرأة، حديثها، ولينها، وتسليمها.

٣٦

ـ تيزة حرم المرحوم شوكت تريد مقابلة حضرتك.

رمى السيد خديجة بنظرة حمراء وصاح بها:

ـ لمـــاذا؟

ولكن أعلنت نبراته الغاضبة ونظراته الثائرة على أنه لم يقصد الوقوف عند مدلول «لماذا» وكأنه أراد أن يقول لها «لم أكد أفرغ من وسيط الأمس حتى جئتنى بوسيط جديد اليوم، من قال لك إن هذه الحيل تجوز علىّ؟ . . كيف تجسرين أنت وإخواتك على المكر بى؟».

واصفر وجه خديجة وهى تقول بصوت متهدج:

ـ لا أدرى والله . .

فحرك رأسه حركة كأنها تقول لها «بل تدرين وأدرى أنا أيضًا ولن يجرك مكرك إلا إلى أوخم العواقب» ثم قال ساخطًا:

ـ خليها تتفضل، لن أشرب قهوتى براحة بال بعد الآن، أصل حجرتى محكمة وقضاة وشهود، وهذه هى الراحة التى أجدها فى بيتى، لعنة الله عليكم أجمعين!

اختفت خديجة قبل أن يتم كلامه كما يختفى الفار إذا قرعت سمعه قرقعة، وظل السيد لحظات متجهما حانقًا، حتى خطرت على ذهنه خديجة وهى تنسحب خائفة فعثرت قدمها بقبقابه وكاد رأسها يصطدم بالباب، فارتسمت على شفتيه ابتسامة إشفاق مسحت غضبته المتعسفة وقطرت على صدره عطفًا، يا لهم من أطفال يأبون أن ينسوا أمهم ولو دقيقة واحدة، واتجه بصره إلى الباب وهو يتهيأ لاستقبال الزائرة بوجه انبسطت أساريره كأنه لم يصب غضبه منذ ثوان على فكرة زيارتها، ولكن لم يجد له حيلة فيما يركبه من غضب ـ وهو فى بيته ـ لأتفه الأسباب أو بلا سبب على الاطلاق، وفضلا عن هذا كله كان للقادمة منزلة خاصة لا يرتقى إليها أحد من النساء اللاتى يترددن على البيت من حين لآخر، حرم المرحوم شوكت، والمرحوم شوكت من قبل، أسرة ارتبطت مع أسرته بآصرة الود الخالص من عهد الجدود، كان للراحل منزلة الأب من نفسه، ولم تزل أرملته عنده ـ وعند أسرته بالتبعية ـ بمنزلة الأم، هى التى خطبت له أمينة بنفسها، وتلقت أبناءه بيديها وهم يستقبلون نور الدنيا، وإلى هذا كله فآل شوكت أناس صداقتهم شرف، لا لأصلهم التركى فحسب، ولكن لمرتبتهم الاجتماعية وعقاراتهم الكثيرة ما بين الحمزاوى وبين الصورين، وإذا كان السيد من أوساط الطبقة الوسطى فهم من أهل القمة فيها بلا جدال، ولعل الأمومة التى تشعر بها ـ المرأة له ويشعر بها لها هى التى جعلته يقف من شفاعتها المنتظرة موقف التهيب والحرج، فليست هى بالتى تلتزم الاحترام فى مخاطبته، ولا بالتى تتعب فى استعطافه، فضلا عما عرفت به من صراحة جارحة لها مبرراتها من شيخوختها ومكانتها معًا، أجل ليست هى.

وأمسك عن أفكاره لدى سماعه وقع خطواتها، ثم نهض وهو يقول بترحيب:

ـ أهلا وسهلا ، زارنا النبى . .

اقتربت منه سيدة طاعنة فى السن ، تدب على مظلة وهى ترفع إليه وجهًا ناصع البياض كثير التجاعيد لم يكد يحجب منه شيئًا برقعها الأبيض الشفاف ، وتلقت تحيته بابتسامة جلت عن أسنانها الذهبية ، وسلمت ، ثم اتخذت مجلسها إلى جانبه بلا كلفة وهى تقول :

ـ من يعش ير ، حتى أنت يا زين الرجال! . . وحتى هذا البيت تحدث فيه هذه الأمور التى لا يطيب التحدث عنها! . . شخت ورب الحسين وبادرك الخرف .

واسترسلت فى الكلام مطلقة العنان للسانها يقول ويعيد غير تاركة للسيد من فرصة لمقاطعتها أو التعقيب عليها ، حدثته كيف جاءت للزيارة ، وكيف اكتشفت غياب زوجه «ظننت بادئ الأمر أنها خرجت فى زيارة فدققت صدرى بيدى دهشة وقلت ماذا حدث للدنيا؟! . . وكيف سمح لها السيد بالخروج مستهينًا بالشرائع الإلهية والقوانين البشرية والفرمانات العثمانية!» . بيد أنها سرعان ما عرفت الحقيقة كلها «فثبت إلى رشدى وقلت الحمد لله الدنيا بخير ، هذا حقا هو السيد ، وهذا أقل ما ينتظر منه» ثم غيرت لهجتها الساخرة وراحت تؤنبه على قسوته ، ولم تقتصد فى الرثاء لزوجه التى تعدها آخر امرأة تستحق عقابًا ، وجعلت كلما هم بمقاطعتها تصيح به «هس ، ولا كلمة . . دع حديثك الحلو الذى تحسن تنميقه فلن أخدع به ، إنى أريد عملا صالحًا لا مزوقًا» وصارحته بأنه يغالى فى المحافظة على أسرته مغالاة خرقت المألوف ، وأنه يجمل به أن يأخذ نفسه بشىء من الهوادة والرفق ، استمع السيد إليها طويلا ، ولما سمحت له بالكلام ـ بعد أن أعياها الكلام ، شرح لها وجهة نظره المعروفة ولم يمنعه دفاعها الحار ، ولا مكانتها عنده من أن يؤكد لها بأن سياسته مع أسرته عقيدة لا يتحول عنها وإن وعدها فى النهاية ـ كما وعد أم مريم من قبل ـ خيراً ، وظن أن آن للجلسة أن تنفض ولكنه ما يدرى إلا وهى تقول :

ـ غياب أمينة هانم مفاجأة غير سارة لى لأنى كنت أريدها لأمر هام جداً ، ولأن الخروج لم يعد بالمهمة اليسيرة على صحتى ، ولا أدرى الآن إن كان يحسن بى أن أتكلم فيما أردت الكلام فيه أم أنتظر عودتها؟!

فقال السيد مبتسمًا :

ـ كلنا تحت أمرك . .

ـ وودت لو كانت هى أول من يسمعنى وإن كنت لم تترك لها من الأمر شيئًا ، ولكن لئن فاتنى هذا فعزائى لها فرصة سعيدة للعودة .

فاحتار السيد فى فهم حديثها وحدج إليها متسائلا :

ـ ما وراء هذا؟

فقالت وهى تنكث السجادة بسن مظلتها :

ـ لا أطيل عليك ، لقد وقع اختيارى على عائشة لتكون زوجًا لخليل ابنى .

ودهش السيد دهش من أخذ على غرة من حيث لم يتوقع فركبه الارتباك ، بل الانزعاج ، لبواعث غير خافية ، أدرك من أول وهلة أن تصميمه القديم على ألا يزوج الصغرى حتى تتزوج الكبرى سيرتطم هذه المرة برغبة عزيزة لا يسعه إهمالها . . رغبة عالنته بها من لا تجهل تصميمه ذاك مما دل على أنها ترفضه سلفًا وتأبى أن تنزل عند حكمه .

ـ مالك صامتًا كأنك لم تسمعنى ؟ !

وابتسم السيد ارتباكًا وحياء ، ثم قال على سبيل الملاحظة والمجاملة ريثما يقلب الأمر على وجوهه :

ـ هذا شرف عظيم لنا . .

فرمته السيدة بنظرة كأنما تقول له «ابحث لك عن طريقة أخرى غير معسول الكلام» ، وقالت بلهجة هجومية :

ـ لا حاجة بى إلى الضحك علىَّ بأجوف الكلام ، لن أرضى بغير الموافقة التامة ، لقد ندبنى خليل لاختيار زوجة له فقلت له عندى عروس هى خير ما يمكن أن تظفر به فسرَّ لاختيارى ولم يعدل بمصاهرتك شيئًا . فهل جاء زمن تقابل فيه مثل هذه الرغبة ، منى أنا ، بالصمت والتهرب ؟ ! . . الله . . الله .

إلام يقع فى هذه المشكلة المعقدة التى لا يمكن أن يخرج منها دون أن يصيب إحدى ابنتيه بصدمة قاسية ؟ ! . . ونظر إليها كما يستجدى عطفها على موقفه ، وغمغم :

ـ ليس الأمر كما تتصورين ، رغبتك فوق العين والرأس ، ولكن .

ـ آه من لكن ! . . لا تقل إنك قررت ألا تزوج الصغرى حتى تتزوج الكبرى ، من أنت حتى تقرر هذا أو ذاك ؟ . . دع ما لله لله وهو أرحم الراحمين . إن شئت ضربت لك عشرات الأمثال عن أخوات صغار تزوجن قبل الكبار فلم يحل زواجهن دون زواج أخواتهن بأحسن الأزواج ، وخديجة شابة ممتازة ولن تعدم زوجًا صالحًا عندما يشاء الله . . إلام تقف حائلا بين عائشة وبين حظها ؟ . . أليست هى الأخرى جديرة بعطفك ورحمتك ؟ !

قال لنفسه : إذا كانت خديجة شابة ممتازة فلماذا لا تختارينها ؟ ! . . وهم بإحراجها كما أحرجته ولكنه خاف أن ترميه بإجابة تتضمن إساءة ـ ولو بحسن نية ـ لخديجة وبالتالى له هو ، وقال بصوت ملؤه الجد والاهتمام :

ـ ليس إلا أننى أشفق على خديجة .

فقالت بحدة كأنما هى المطالبة لا هو :

ـ كل يوم تقع أمور كهذه دون أن تربك أحداً ، إن الله يكره من عبده العناد والمكابرة ، اقبل رجائى وتوكل على الله ، لا ترفض يدى فإنى ما مددتها إلى أحد قبلك .

فدارى السيد انفعاله بابتسامة وقال :

ـ هذا شرف عظيم كما قلت لك منذ لحظة . . فقط أمهلينى قليلا ريثما أراجع نفسى وأرتب أمورى ، وستجدين رأيى عند حسن ظنك إن شاء الله .

فقالت بلهجة من يجهز على الحديث :

ـ لا يجوز أن آخذ من وقتك أكثر مما أخذت ، ثم إنه كلما طال الأخذ والرد خيل إلىَّ أنك لا تتقبل رغبتى بقبول حسن ، ومثلى من تطمع إذا قالت لك أريد أن تبادرها بنعم دون لت وعجن ، فلن أزيد عما قلت إلا كلمة واحدة : خليل ابنى وابنك وعائشة بنتك وبنتى .

وقامت فقام السيد ليودعها ، لم يكن يتوقع إلا كلمة توديع وتحية ، ولكنها أبت إلا أن تذكره بوصاياها جملة . كأنما خافت أن يفوته شىء منها فأعادتها تفصيلا ، وما يدرى ـ أو تدرى ـ إلا وهى ترجع لتأييد بعض آرائها وتوكيد البعض الآخر ، ثم غلبها تداعى الأفكار فاسترسلت فيه بلا ممانعة حتى أعادت على مسمعه جل ما قالت عن الخطبة ، وإلى هذا كله لم تشأ أن تنهى ذاك الحديث دون أن تودع حديث الأم المبعدة بكلمة أو كلمتين أو ثلاث وإذا بتداعى الأفكار يغلبها مرة أخرى فتسترسل فيه حتى كاد الرجل يفقد أعصابه ، ثم أوشك أن يضحك فى النهاية وهى تقول له : «لا يجوز أن آخذ منك أكثر مما أخذت» . وأوصلها إلى الباب مشفقا فى كل خطوة من أن تتوقف عن المسير وتشتبك فى الكلام كرة أخرى ، ثم عاد أخيراً إلى مجلسه وهو يتنفس من الأعماق . عاد مغتما مكتئبا ، قلب رقيق ، أرق مما يظن الكثيرون ، بل أرق مما ينبغى ، فكيف يصدق هذا من لا يرونه إلا مكشرا أو صاخبا أو ضاحكا ساخرا ! . . إن مسة حزن تلذع فلذة من كبده خليقة بأن تنغص العيش كله وتطين وجه الحياة فى عينيه ، ولكم يسعده أن يجود بكل غال فى سبيل إسعاد فتاتيه سواء هذه التى يرى فى وجهها الجميل وجه أمه أو تلك التى لم تصب من الحسن إلا لونا شاحبا ، كلتاهما من نبض قلبه وعصارة روحه ، بيد أن الزوج الذى تقدمه حرم المرحوم شوكت لقية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، فتى فى الخامسة والعشرين ، ذو دخل شهرى لا يقل عن الثلاثين جنيها ، حقا إنه ككثير من الأعيان لا عمل له ، وحقا إن حظه من التعليم ضئيل لا يتعدى معرفة القراءة والكتابة ، ولكنه يتصف بجملة من خلال أبيه الطيبة وكرم الأخلاق ، ما عسى أن يفعل ؟ . . يجب أن يحسم أمره لأنه لم يألف التردد ولا الشورى ولا يقبل أن يبدو أمام أهله ـ ولو لحظة قصيرة ـ كمن لا رأى

قاطعا له، ألا يشاور خاصته المقربين؟ . . إنه لا يرى غضاضة فى مشاورتهم كلما جد أمر، والواقع أن سمرهم يبدأ عادة بمناقشة الهموم والمشاكل قبل أن تطير بهم الخمر إلى الدنيا التى لا تعترف بالهموم والمشاكل، ولكنه قدر ما يستبد فى باطنه برأيه فلا يحيد عنه، فهو من الذين يلتمسون فى الشورى ما يؤيد رأيهم لا ما يعدل بهم عنه، ولكنها حتى فى هذه الحال عزاء ومتنفس، ولما ضاق الرجل بأفكاره هتف قائلا:

ـ من يصدق أن ما بى من هم لا يحتمل ما هو إلا نتيجة لخير أكرمنى به الله؟!

٣٧

لم يكن لأمينة من عمل فى أيام منفاها إلا الجلوس إلى جانب أمها والاسترسال فى الحديث، فى كل ما يخطر على البال من أحاديث تجاذبها الماضى البعيد والماضى القريب والحاضر، ما بين الذكريات العزيزة والمأساة الراهنة ولولا عذاب الفراق وشبح الطلاق لاطمأنت إلى حياتها الجديدة كعطلة للاستجمام من عناء الواجبات أو كرحلة خيالية، فى عالم الذكريات. بيد أن مرور الأيام دون وقوع الشىء الذى تخاف وما بلغها من شفاعة أم مريم وحرم المرحوم شوكت لدى السيد، كل أولئك ثبت قلبها وروّح عن نفسها، إلا أن زيارات الأبناء المسائية لم تنقطع يوما واحدا طلت جوى صدرها بنفحات أمل متجددة، ومع أن الزمن الذى يتغيبونه عنها فى البيت الجديد لم يزد كثيرا عن نظيره فى البيت القديم ـ فى كلتا الحالتين لم تكن تجتمع بهم إلا حين فراغهم فى جلسة المساء ـ إلا أنها باتت تشتاق إليهم اشتياق المغترب فى بلد بعيد إلى أحباب فرّق الدهر بينه وبينهم، اشتياق من حرم عليه تنفس جوهم والعيش بين ذكرياتهم، والإشراف على مواطن جدهم ولهوهم، كأن الجسم كلما قطع فى طريق الفراق قيراطا كابده القلب أميالا، ودأبت العجوز على أن تقول لها كلما وجدت منها صمتا أو آنست فى حديثها الشرود:

ـ الصبر يا أمينة، إنى أرثى لحالك، الأم غريبة ما ابتعدت عن أبنائها، غريبة ولو حلّت فى البيت الذى ولدت فيه.

أجل إنها غريبة، كأنه ليس البيت الذى لم تعرف حياتها الأولى سواه موطنا، وكأنها ليست الأم التى لم تكن تطيق البعد عنها لحظة واحدة، لم يعد «بيتها» ما هو إلا منفى تنتظر بين جدرانه على لهف العفو من السماء. وجاء العفو بعد طول انتظار، حمله الأبناء ذات مساء، دخلوا عليها وفى أعينهم لمعة كسنا البرق خفق لها فؤادها خفقة اهتز لها الصدر كله حتى أشفقت من أن تكون ذهبت فى تأويلها إلى أبعد مما تحتمل، ولكن كمال جرى نحوها وتعلق بعنقها ثم هتف بها وهو لا يتمالك نفسه من الفرح:

ـ البسى ملاءتك وهيا بنا . .

وقهقه ياسين قائلا :

ـ جاء الفرج (ثم هو وفهمى معا) دعانا أبى وقال لنا اذهبا فعودا بأمكما .

وغضت بصرها لتدارى فرحتها الغامرة . ما أعجزها عن كتمان ما يضطرب فى نفسها من شتى العواطف ، كأن وجهها مرآة شديدة الحساسية لا تترك كبيرة ولا صغيرة مما فى أعماقها إلا سجلته ، لشد ما ودَّت أن تتلقى النبأ السعيد بهدوء خليق بأمومتها ، ولكن الفرح استخفها فضحكت أساريرها ونطقت بابتهاج صبيانى ، وفى نفس الوقت تولاها حياء لم تدر له سببا ، وطال جمودها فى مكانها فنفد صبر كمال فشدها من يدها راميا بثقله إلى الوراء حتى طاوعته ناهضة ، ووقفت قليلا فى ارتباك غريب وما تدرى إلا وهى تلتفت إلى أمها متسائلة :

ـ أذهب يا أمى؟

بدا السؤال الذى ند عنها ـ فى نغمة الارتباك والحياء ـ غريبا ، فابتسم فهمى وياسين ، ودهش كمال وحده فيما يشبه الانزعاج وراح يؤكد لها نبأ العفو الذى جاءوا به ، أما الجدة فقد شعرت بشعورها كله وحدست باطنها فرق قلبها وتحاشت أن تظهر الإنكار لسؤالها ولو بابتسامة خفيفة ، وقالت بلهجة جدية :

ـ إلى بيتك مصحوبة بسلامة الله . .

فذهبت أمينة لترتدى ملاءتها وتصر ثيابها وكمال فى أعقابها ، وهنا خاطبت الجدة الشابين متسائلة بلهجة خففتها بابتسامة رقيقة :

ـ أما كان الأخلق بأبيكما أن يأتى بنفسه . . ؟!

فأجابها فهمى كالمعتذر قائلا :

ـ أنت أدرى يا جدتى بطبع أبينا . .

على حين قال ياسين ضاحكا :

ـ فلنحمد الله على ما كان!

فهمهمت الجدة بأصوات غير مفهومة ثم تنهدت قائلة كأنما ترد على همهمتها :

ـ على أى حال السيد أحمد رجل ولا كل الرجال .

وغادروا البيت ودعاء الجدة لهم بالبركة يتردد فى آذانهم ، وقطعوا الطريق الأول مرة فى حياتهم حتى بدا المنظر فى أعينهم بالغا فى غرابته فتبادل فهمى وياسين نظرات باسمة . وتذكر كمال يوم سار ـ كما يسير الآن ـ ممسكا بيد أمه يقودها من عطفه إلى عطفه ، ثم ما تلى ذلك من آلام ومخاوف لا يحيط بها الكابوس نفسه فتعجب طويلا ،

بيد أنه تناسى سريعا أحزان الماضى فى فرحة الساعة، ووجد من نفسه ميلا للدعابة فقال لأمه ضاحكا:

ـ تعالى نخطف أرجلنا إلى سيدنا الحسين!

فضحك ياسين بلهجة ذات معنى:

ـ رضى الله عنه، إنه شهيد يحب الشهداء.

ولاحت لهم المشربية وشبحان يتحركان وراء خصاصها فهفا قلب الأم إليهما فى حنو واشتياق، ثم وجدت وراء الباب أم حنفى فى استقبالها فغمرت يدى سيدتها بالقبل، والتقت فى فناء الدار بخديجة وعائشة اللتين تعلقتا بها كالأطفال، ورقوا السلم فى مظاهرة صاخبة، ونشوة من الفرح مطربة حتى استقروا جميعا فى حجرتها فتبادروا إلى نزع ملابسها ـ رمز الفراق البغيض ـ وهم يضجون بالضحك، فلما جلست بينهم كانت تلهث من الانفعال والتأثر. وأراد كمال أن يعبر عن فرحه بها فلم يجد خيرا من أن يقول لها:

ـ هذا اليوم أعز عندى من المحمل نفسه!

واجتمع شمل الأسرة لأول مرة منذ زمن غير يسير فى مجلس القهوة، فعادوا إلى السمر فى جو من المسرة ضاعف من بهجته ما سبقه من أيام فراق وكآبة تزداد لذة اليوم الدافىء يجىء فى أعقاب أسبوع من الزمهرير، ولم تنس الأم ـ التى استيقظت غرائزها رغم فرحة اللقيا ـ أن تسأل الفتاتين عن شئون البيت متدرجة من حجرة الفرن حتى اللبلاب والياسمين، كما سألت كثيراً عن الأب، وكم سرها أن تعلم أنه لم يسمح لأحد بمعاونته عند خلع ملابسه أو عند ارتدائها، فمهما يكن من أمر الراحة التى تهيأت له فى غيابها فثمة تغيير قد طرأ على نظام حياته حمله بلا ريب عناء سيزول بعودتها، عودتها التى تكفل له ـ وحدها ـ الحياة التى يألفها ويرتاح إليها!.. الشىء الوحيد الذى لم يخطر لأمينة على بال أن تكون بعض القلوب السعيدة بعودتها قد وجدت فى هذه العودة بالذات مبررا لاجترار الحزن والأسى!.. ولكن هكذا كان، فهذه القلوب التى شغلت بحزن الأم عن أحزانها عادت إلى التفكير فى أشجانها بعد أن اطمأنت على سلامة الأم، كالمغص الشديد الطارىء ننسى به رمداً مزمنا حتى إذا ذهب عادتنا آلام الجفون، عاد فهمى يقول لنفسه «لكل حزن ـ فيما يبدو ـ نهاية، هذه أمى قد رفع عنها الهم، ولكن حزنى يبدو كأن لا نهاية له»، ورجعت عائشة إلى أفكارها التى لا يطلع على سرها أحد، تتراءى لها الأحلام وتلم بها الذكريات وإن عدت بالقياس إلى أخيها أهدأ حالا وأسرع إلى النسيان خطوة، ولكن أمينة لم تكن تقرأ الأفكار فلم ينغص عليها صفوها منغص، ولما آوت إلى حجرتها ليلا تبين لها أن النوم لا يجد متسعا فى نفسها التى أفعمها الفرح

فلم تذقه إلا لماما حتى انتصف الليل فغادرت الفراش إلى المشربية تنتظر كعهدها مسرّحة البصر من خصاص النوافذ إلى الطريق الساهر حتى جاءت العربة تتهادى حاملة بعلها إلى بيته، خفق قلبها بشدة، وتورد وجهها حياء وارتباكا، كأنها ستلقاه لأول مرة، وكأنها لم تفكر طويلا فى هذه اللحظة.. لحظة اللقاء المنتظر، كيف تقابله؟.. كيف يعاملها بعد هذه الغيبة الطويلة؟.. ما عسى أن تقول له أو يقول لها؟.. لو يسعها أن تتصنع النوم! ولكنها لا تجيد التمثيل قط ولا تطيق أن يدخل عليها وهى مستلقية، بل لا يسعها أن تهمل واجب الخروج إلى السلم بالمصباح لتضىء له، وأكثر من هذا كله أنها بعد ظفرها بالعودة وزوال السخط عنها ـ شاعت أريحية الرضا فى قلبها فعفت عما سلف بل وحملت نفسها الذنب كله حتى رأت بعلها ـ بالرغم من أنه لم يعن بالذهاب إلى بيت أمها لمصالحتها ـ حقيقا بالاسترضاء، فتناولت المصباح ومضت إلى السلم ومدت ذراعها من فوق الدرابزين ووقفت تتابع وقع القدمين المقتربتين بفؤاد خافق حتى صعد إليها، لقيته برأس مطأطأ فلم تر وجهه عند اللقاء، ولم تدر أى تغير طرأ عليه حين مرآها، حتى سمعته يقول بلهجة طبيعية لا أثر فيها من الماضى القريب الأسيف:

ـ مساء الخير.

فغمغمت:

ـ مساء الخير يا سيدى.

وذهب إلى الحجرة وهى فى أثره رافعة يدها بالمصباح، وبدأ يخلع ملابسه صامتا فتقدمت منه لمعاونته وباشرت عملها وقلبها يردد أنفاس الراحة. ومع أنها ذكرت صباح القطيعة المشئوم حين نهض لارتداء ملابسه وقال لها بجفاء «سأرتدى ملابسى بنفسى»، إلا أن ذكراه خطرت عارية عن أحاسيس الألم واليأس التى غشيتها وقتذاك، وشعرت وهى تتعهده بهذه الخدمة التى لم يسمح بها لسواها بأنها تسترد أعز ما تملك فى الوجود. واتخذ مجلسه على الكنبة فتربعت على الشلتة عند قدميه دون أن ينبس أحدهما بكلمة، وكانت تتوقع أن يشيع «الماضى الأسيف»، بكلمة، نصيحة أو تحذير أو ما شابه ذلك، وعملت لذلك ألف حساب ولكنه سألها ببساطة:

ـ كيف حال أمك؟

فأجابته وهى تتنهد بارتياح

ـ بخير يا سيدى وتهديك التحية والدعاء.

ومضت فترة صمت أخرى قبل أن يقول فيما يشبه عدم الاكتراث:

ـ حرم المرحوم شوكت فاتحتنى برغبتها فى اختيار عائشة زوجا لخليل.

فرفعت إليه أمينة عينيها فى دهشة ناطقة بأثر المفاجأة، ولكنه هز كتفيه استهانة،

وكأنما خاف أن تدلى برأى يتفق أن يكون موافقًا لقراره الذى لم يعلم به أحد فتقوم عندها شبهة ظن بأنه أخذ برأيها فسبق قائلا :

- فكرت فى الأمر طويلا فانتهى بى التفكير إلى الموافقة ، لا أريد أن أعترض حظ البنت أكثر مما فعلت ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

٣٨

تلقت عائشة البشرى بفرح جدير بفتاة تستشرف حلم الزواج منذ الصبا الباكر لا يشغلها عنه شاغل ، وكادت لا تصدق أذنيها حين زف إليها الخبر ، هل حقا وافق أبوها؟ هل بات الزواج حقيقة قريبة لا حلما ذا دعابات قاسية؟ . . لم يكن قد فات على الخيبة التى منيت بها إلا قرابة أشهر ثلاثة ، ومع أن وقعها فى نفسها كان شديدا قاسيا إلا أنه مضى يخف ويهون حتى أمسى ذكرى شاحبة تستثير - إذا استثيرت - حزنا رقيقًا غير ذى خطورة ، كل شىء فى هذا البيت يخضع خضوعا أعمى لإرادة عليا ذات سيطرة لا حد لها هى بالسيطرة الدينية أشبه ، حتى الحب نفسه - بين جدرانه - يسترق خطاه إلى القلوب فى حياء وتردد وعدم ثقة بالنفس ، فلا يتمتع بما يتمتع به عادة من سطوة واستبداد ، إذ لا استبداد هنا إلا لتلك الإرادة العليا ، ولذلك فعندما قال الأب «لا» استقر قوله فى أعماق نفسها وآمنت الفتاة إيمانا راسخا أن كل شىء قد انتهى حقا ، لا مهرب ولا مراجعة ولا رجاء بنافع ، كأن «لا» هذه حركة كونية كاختلاف الليل والنهار ، غير مجد أى اعتراض عليها ، ولا محيد عن اتخاذ موقف موافق لها ، وعمل هذا الإيمان من ناحيته - بشعور وبغير شعور منها - على إنهاء كل شىء فانتهى ، على أنها تساءلت فيما بينها وبين نفسها : إذا كانت الموافقة على زواجها قد تمت ولما ينقض على الرفض السابق ثلاثة أشهر فلم تكن من نصيب الشاب الذى هفا فؤادها إليه؟ . . ألا ينطوى حظها السعيد نفسه - تبعا لذلك - على معاكسة غير مفهومة؟ بيد أنه تساؤل ظل فى طى الكتمان ، لم يطلع عليه أحد ولا أمها نفسها ، لأن إعلان الفرح بالعريس - كشخصية معنوية فحسب - عد استهتارا يجافى الحياء ، فما بالك بإظهار الرغبة فى رجل بالذات! . . ولكن بالرغم من هذا كله ، وبالرغم من أن العريس الجديد كان مجهولا لديها إلا فيما حدثت عنه أمه فى جملة حديثها عن أسرتها فقد سعدت بالبشرى أيما سعادة ، ووجدت عواطفها الظامئة قطبا تنجذب إليه فى هيمانها ، كأن حبها نوع من «القابلية» أكثر منه تعلقا برجل بالذات ، فإذا استبعد رجل وحل محله آخر ظفرت قابليتها بما يشبعها ، ومضى كل شىء فى سبيله ، وقد يكون رجل آثر عندها من آخر ولكن ليس إلى الحد الذى يفسد معه طعم الحياة أو يدفع إلى التمرد

والعصيان، ولما طابت نفسا ورف قلبها رفيف الغبطة انبعث منها نحو أختها ـ كشأنها فى مثل هذه الحال ـ عطف ورحمة غير مشوبين، فودَّت لو أنها سبقتها إلى الزواج، وقالت لها بين الاعتذار والتشجيع:

ـ وددت لو تقدمتنى إلى بيت الزوجية! .. ولكنها القسمة والنصيب، وكل آت قريب.

ولكن خديجة ـ التى تضيق عند الهزيمة بعزاء العطف ـ تلقت قولها بامتعاض شديد لم يخف عليها. وقبل ذلك اعتذرت لها أمها قائلة برقتها وحيائها المعهودين:

ـ تمنينا جميعا أن يكون دورك السابق ـ وعملنا على هذا أكثر من مرة، ولكن لعل عنادنا فيما ليس لنا فيه من حيلة هو الذى عاق حظك إلى اليوم، فلندع الأمور تسير كما يشاء الله، وكل تأخيرة فيها خيرة.

ووجدت من ياسين وفهمى نفس العطف يبديانه تارة بالكلام المباشر، ويصدران عنه تارة أخرى فيما يحيطانها به من مجاملة حلت ـ ولو إلى حين ـ محل المزاح القارص الذى كان مألوفا بينها وبينهما أو بينها وبين ياسين خاصة، الحق أنه لم يعدل حزنها على سوء حظها إلا نرفزتها من العطف الشائع فى جوها لا لنفور من العطف مركب فى طبعها، ولكن لأن مثلها مثل المصاب بالأنفلونزا يضار بالتعرض للهواء الطلق الذى ينعشه عادة وهو صحيح، فما كانت تأبه لعطف تعلم أنه بديل غير مجد لأمل ضائع، ولعلها ارتابت ـ إلى هذا كله ـ فى البواعث التى تدفعهم إلى إغداق العطف عليها، ألم تكن أمها الواسطة دائمًا بين الخاطبات وبين أبيها؟ .. فمن يدريها أنها كانت تقوم بالوساطة أداء لواجب ربة البيت لا سعيا وراء رغبة خفية فى تزويج عائشة؟! .. أوليس فهمى هو الذى حمل رسالة ضابط قسم الجمالية؟ .. ألم يكن بوسعه أن يعدل به عن رأيه من وراء وراء؟!

أوليس ياسين.. ولكن بأى وجه تلوم ياسين وقد خانها من هو أقرب منه إليها؟ .. فأى عطف هذا؟! .. بل أى رياء وأى كذب!. لذلك برمت بالعطف، وذكرت به الإساءة لا الإحسان، فامتلأت حنقا وامتعاضا ولكنها طوتهما فى الأعماق أن تظهر بمظهر الكاره لسعادة أختها أو تعرض نفسها ـ هكذا صور لها سوء ظنها ـ لشماتة الشامتين، على أنه لم يكن لها محيد عن كتمان عواطفها لأن الكتمان فى هذه الأسرة ـ خاصة فيما يتعلق بالعواطف ـ عادة متأصلة وضرورة أخلاقية طبعت عليه فى ظل الإرهاب الأبوى، وبين الحنق والامتعاض من ناحية والكتمان والتظاهر بالرضى من ناحية أخرى لاقت من حياتها عذابا متصلا وجهدا مطردا. وأبوها؟! .. ماذا عدل به عن رأيه القديم؟! .. أهانت عليه بعد إعزاز؟! .. هل نفد صبره فى انتظار زواجها فقرر التضحية بها وتركها للأقدار؟! .. لشد ما تعجب لتخليهم عنها كأنها شىء لا يكون،

نسيت فى ثورتها مواقفهم السابقة فى الدفاع عنها فلم تذكر إلا «خيانتهم» الأخيرة، على أن غضبتها العامة هذه لم تكن شيئا بالقياس إلى ما تجمع فى صدرها نحو عائشة من مشاعر الغيرة والحنق! . . كرهت سعادتها، وكرهت أكثر مداراتها لهذه السعادة، وكرهت جمالها الذى بدا فى عينيها أداة تنكيل وتعذيب كما يبدو البدر الساطع، فى عين المطارد، ثم كرهت الحياة التى لم تعد تدخر لها إلا اليأس، وتتابعت الأيام لتزيدها حزنا على حزن بما حملت إلى البيت من هدايا العريس ونفحاته وبما نشرت فى الجو كله من بواعث الغبطة والفرح فوجدت نفسها فى غربة موحشة تتوالد فيها الأشجان كما تتوالد الحشرات فى البركة الآسنة، ثم شرع السيد فى تجهيز العروس فاستأثر حديث الجهاز بجلسات الأسرة المسائية، تعرض عليها أنواع من الأثاث والثياب فتطرى شيئًا وتعرض عن شيء، توازن بين لون ولون، فى اهتمام نسوا فيه الشقيقة الكبرى وما يجب لها من عزاء ومجاملة، وحتى هى نفسها اضطرت ـ مجاراة لما تتظاهر به من رضى ـ إلى المشاركة فى نشاطهم وحماسهم ومناقشاتهم التى لا تنتهى. بيد أن هذا الموقف العاطفى المعقد، الذى يبدو لعين الغريب عن الأسرة كنذير شر لا تحمد عواقبه، تغير فجأة حين اتجه التفكير إلى تفصيل ثياب العروس وبالتالى حين تعلقت الأبصار بخديجة وتركز فيها الاهتمام كله والأمل كله. وقد توقعت هذا الواجب كأمر لا مفر منه، يحنقها قبوله أشد الحنق ولا يسعها رفضه وإلا فضحت خبيئتها، ولكنها، حين تطلعت إليها الأبصار فأوصتها أمها بأختها خيرا ورنت إليها شقيقتها بعين ملؤها الحياء والرجاء وقال فهمى لعائشة على مسمع منها: «لن تكونى عروسا حقا حتى تحيك لك خديجة ثياب العرس»، وقال ياسين معلقا على قوله: «صدقت . . هذه الحقيقة فوق الجدل»، حين حدث هذا كله فتر حنقها وعقل ثورتها الحياء فطفت عواطفها الطيبة المطمورة، كما يستخرج الماء العذب الأخضر من البذور الكامنة تحت الطين، ولم ترتب فى بواعث هذا الاهتمام كما ارتابت من قبل فى بواعث العطف «الزائف» لشعورها بصدقه من ناحية ولأنه اتجه إلى براعتها التى لا شك فيها من ناحية أخرى. فكأنه اعتراف جامع بأهميتها وخطورة شأنها، وبأن هذه السعادة ـ التى أبت أن تكون من نصيبها ـ لن تستكمل عناصرها حتى تسهم هى فيها، فاستقبلت العمل الجديد بنفس تخففت إلى أقصى حد ممكن من انفعالاتها السوداء، إن الانفعالات السوداء تلم بهذه الأسرة كما تلم بغالبية البشر ولكنها لا تظفر منها بقلب أسود فترسب فيه وتستقر، منهم من قابليته للغضب كقابلية الكحول للاشتعال. ولكن سرعان ما يسكت عنهم الغضب فتصفو نفوسهم وتعفو قلوبهم كأيام من شتاء مصر يطلخم سحابها حتى تمطر رذاذا وما هى إلا ساعة أو بعض ساعة حتى تنقشع السحب عن زرقة صافية وشمس ضاحكة، لا يعنى هذا أن خديجة نسيت أحزانها ولكن السماحة صفتها من الضغينة والحقد، ويومًا فيومًا لم تعد تعتب على عائشة ولا على أحد من أهلها

بقدر ما عتبت على بختها حتى نصبته فى النهاية هدفًا لامتعاضها وتذمرها، ذلك البخت الذى قتر عليها فى الحسن وأجل زواجها حتى جاوزت العشرين وكدَّر غدها بالقلق والمخاوف، واستسلمت أخيرا - كأمها - للمقادير. عجز جانبها الحامى الموروث عن أبيها، كما عجز جانبها المعقد المكتسب من موقفها حيال بيئتها، عن معالجة حظها العاثر، فوجدت السلامة فى أن تلوذ بالجانب السلمى الموروث عن أمها فاستسلمت للمقادير. كالقائد الذى تعييه الحيل عن بلوغ الهدف فيختار موقعًا ذا حصانة طبيعية ليثبت فيه فلوله، أو يدعو إلى الصلح والسلام، وراحت تشكو بثها فى الصلاة ومناجاة الرحمن، والحق أنها كانت - منذ صباها - تجارى أمها فى تدينها ومحافظتها على الفرائض بمثابرة دلت على يقظة عاطفتها الدينية، لا كعائشة التى تلم بالعبادة فى نوبات حماسية متباعدة ولا تطيق المداومة عليها، وطالما تعجبت خديجة - وهى بمعرض المقارنة بين حظها وبين حظ أختها - من سوء الجزاء الذى تثاب على إخلاصها، وحسن الجزاء الذى تثاب به الأخرى على تهاونها.. «إنى أحافظ على الصلاة أما هى فلم تطق المحافظة عليها يومين متتاليين، وإنى أصوم رمضان كله وأما هى فتصوم يومًا أو يومين ثم تتظاهر بالصوم على حين تنسل خفية إلى المخزن فتملأ بطنها بالنُّقل حتى إذا أطلق مدفع الإفطار هرعت إلى المائدة قبل الصائمين!». وحتى من ناحية الجمال لم تسلم لعائشة بدون قيد ولا شرط، نعم إنها لم تجهر برأيها لأحد، بل لعلها تؤثر كثيراً أن تهاجم نفسها بنفسها لتقطع الطريق على المتحفزين ولكنها كانت تطيل النظر إلى وجهها فى المرآة وتناجى نفسها قائلة: «عائشة جميلة بلا شك ولكنها نحيلة، السمنة نصف الجمال، أنا سمينة، واكتناز وجهى يكاد يغطى على كبر أنفى، لم يبق إلا أن يشد بختى حيله». على أنها فقدت ثقتها بنفسها فى الأزمة الأخيرة، ومع أنها عاودت كثيراً تلك المناجاة عن الجمال والسمنة والبخت إلا أنها عاودتها هذه المرة لتذرى - أمام نفسها - إحساسها المقلق بعدم الثقة كما نلجأ أحيانًا إلى المنطق لنستمد منه الطمأنينة على أمور - كالصحة والمرض والسعادة والشقاء والحب والكراهية - لا تمت إلى المنطق بسبب.

ولم تنس أمينة - رغم كثرة مشاغلها كأم العروس - خديجة، أو أن فرحها للعروس كان يذكرها بحزنها على أختها كما تذكرنا الراحة التى نحظى بها بفعل مخدر بالألم الذى سيعاودنا بعد حين، وكان زواج عائشة قد أثار مخاوفها القديمة عن خديجة فأرسلت - التماسًا للطمأنينة من أى سبيل - أم حنفى إلى الشيخ رءوف بالباب الأخضر حاملة منديل خديجة ليقرأ طالعها. وعادت المرأة بنوع من البشرى فقالت لسيدتها إن الشيخ قال لها: «ستحملين إلىَّ رطلين من السكر عما قريب» ومع أنها لم تكن أول بشرى من هذا النوع تزف إليها عن خديجة إلا أنها أملتها خيرا ورحبت بها كمسكن للقلق الذى لا يزايلها.

٣٩

«ألم يئن الأوان يا بنت المركوب؟! . . ذبت يا مسلمين، ذبت كالصابونة ولم يبق منها إلا رغوة، هى تعلم بهذا ولا تريد أن تفتح النافذة، تدللى . . تدللى يا بنت المركوب، ألم نتفق على هذا الميعاد؟ ولكن لك حق . . فردة ثدى من صدرك تكفى لخراب مالطة . . وفردة تالية تطير مخ هندنبرج، عندك كنز، ربنا يلطف بى، ربنا يلطف بى وبكل مسكين مثلى يؤرقه الثدى الناهد والعجيزة المدملجة والعين المكحولة، العين المكحولة فى الآخر، إذ رب ضريرة ريًّا الروادف كاعب الثديين خير ألف مرة من عجفاء مسحاء مكحولة العينين، يا بنت العالمة وجارة التربيعة . . تلك لقَّنتك أصول الدلال وهذه تمدُّك بأسرار الجمال، لهذا ينهد ثدياك من كثرة من عبث بهما من العشاق، اتفقنا على الميعاد لست أحلم، افتحى النافذة، افتحى يا بنت المركوب، افتحى يا أجمل من أقشعرات له سرتى، ومص الشفة ورضع الحلمة لأنتظرن حتى مطلع الفجر، ستجديننى طوع بنانك، إن أردت بأن أكون مؤخر عربة الكارو التى تتأرجحين عليه أكنه، إن أردت أن أكون الحمار الذى يجر العربة أكنه، يا وقعتك يا ياسين، يا خراب بيتك يا بن عبد الجواد، يا شماتة الأستراليين فيك . . يا أنا يا طريد الأزبكية وحبيس الجمالية، الحرب يا هوه، شنَّها غليوم فى أوربا ورحت ضحيتها أنا فى النحاسين، افتحى النافذة يا روح أمك، افتحى يا روحى أنا . . ». هكذا جعل ياسين يحادث نفسه وهو جالس على الأريكة بقهوة سى على، وعيناه تتطلعان إلى بيت زبيدة العالمة خلل الكوة المطلة على الغورية، كلما شكه الجزع غرق فى أحلامه وخواطره فترفه جزعه وتهيج أشواقه معًا، كبعض المنومات الطبية التى تعالج الأرق وتتعب القلب، كان قد تقدم خطوة فى مغازلة زنوبة العوادة مغازلة خرج بها من دور التحضير - ملازمة قهوة سى على مساء والنظر والسير وراء عربة الكارو والابتسام وفتل الشارب وتلعيب الحاجب - إلى دور المفاوضة والتأهب للعمل، حدث ذلك فى عطفة التربيعة الطويلة الضيقة المسقوفة بالخيش الملتوية ذات الدكاكين الصغيرة المتلاصقة على الجانبين كخلايا النحل. ولم تكن التربيعة بالجديدة عليه، كيف وهى سوق النسوان من جميع الطبقات يتقاطرن عليها لابتياع ما خف حمله وجلّت فوائده من مختلف صنوف العطارة ذوات البهجة والجمال والنفع، فهى هدفه كلما خلا طريقه من هدف يجذبه إليه، وهى مراحه صباح الجمعة يقطعها متمهلا - بحكم الزحمة والرغبة معًا - من طرف إلى طرف كأنما يستعرض الدكاكين لانتقاء حاجة وهو فى الحقيقة يتفحص الوجوه والأجسام وما تنحسر عنه البراقع وما تضيق به الملاءات، ما يرى جملة وما يرى تفصيلا،

ما يسطع هنا وهناك من روائح زكية، ما يند من حين لآخر من أصوات أو يوسوس من ضحكات، ملتزمًا عادة حدود الأدب لغلبة العناصر الطيبة على الزائرات، قانعًا بالمشاهدة والموازنة والنقد، لاقطًا من المرئيات صورًا ممتازة يزين بها متحف ذاكرته، لا يفوق سعادته إذا ظفر بلون بشرة صاف لم يره من قبل، أو بلحظ عين لم يتعرض لمثله، أو لثدى عجيب فى نهوده، أو لعجيزة خرقت المألوف فى ضخامتها أو حسن تكوينها فيرجع مرة وهو يقول «فاز بالسبق اليوم نهد الست التى كانت واقفة أمام الدكان الفلانى» أو «هذا يوم الكفل الرابى رقم ٥» أو «يا لها من حقيبة ويا لها من حقيبة. . هذا يوم الحقائب المشرقة» إذ تأدى به مزاجه إلى التهالك على جسم المرأة متجاهلا شخصيتها ثم إلى تركيز العناية فى أجزاء من الجسم متجاهلا جملته، وكأنه فى هذا كله ينعش آماله ويجددها أبدا كرجل لا يقدم على النسوان غاية فى دنياه ـ عند الفرص المحتملة المدخرة ليوم أو لغد، إلى ما يسنح له فى هذه الجولات الجنسية من صيد طيب فى أحوال نادرة، ففى ذات أصيل ـ وهو بمجلسه تحت الكوة بقهوة سى على ـ رأى العوادة تغادر البيت بمفردها فنهض من توه وتبعها، ومالت إلى عطفة التربيعة فمال وراءها، ثم وقفت أمام دكان فوقف إلى جانبها، وانتظرت حتى يفرغ العطار من بعض الزبائن فانتظر ولم تلتفت ناحيته فاستدل بذاك «التجاهل» على أنها فطنت لوجوده ـ كما لابد أن تكون حدست متابعته لها من بادىء الأمر ـ فهمس قريبًا من أذنها «مساء الخير» فواصلت النظر إلى الأمام إلا أنه لمح بجانب فيها انحراف ابتسامة ردا لتحيته، أو مكافأة له على طول متابعته لها مساء بعد مساء، فتنهد تنهد الراحة والظفر مطمئنًا إلى جنى ثمرة صبره فسال لعاب شهوته كما يتحلب ريق الجائع النهم إذا تطايرت إلى أنفه رائحة الشواء الذى يهيأ له ورأى عن حكمة أن يتظاهر بأنهما جاءا معًا فأدى ثمن مشترياتها من الحنَّاء والمغات عن طيب خاطر خليق برجل يؤمن بأنه ـ بأداء هذا الواجب اللذيذ ـ يكتسب حقًا ألذ وأمتع، غير مكترث لما بدا منها من الميل إلى الإكثار من المشتريات حين اطمأنت إلى أنه سيدفع الثمن. وفى طريق العودة قال لها بعجلة من يخاف وشك انتهاء الطريق «يا ست الحسن والجمال قضيت العمر كما تشهدين وراءك، وجزاء المحب اللقاء فقط؟». فلحظته بنظرة شيطنة متسائلة فى تهكم «اللقاء فقط؟» فكاد يضحك بروحه وجسمه كحاله إذا أخذته نشوة فرح ولكنه بادر إلى إحكام إغلاق فيه أن يحدث ضجة تلفت الأنظار وأجابها هامسًا «اللقاء ولوازمه!». فقالت بلهجة انتقادية «الواحد منكم يطلب بكل بساطة «اللقاء». . كلمة صغيرة. . ولكنه يعنى بها عملا ضخمًا لا ينال عند بعض الناس إلا بالسؤال والشفاعة وقراءة الفاتحة والمهر والجهاز والمأذون، أليس كذلك يا حضرة الأفندى الذى يضاهى الجمل طولا وعرضًا؟!». فتورد وجهه فيما يشبه الارتباك وقال: «يا له من تأديب مهما يكن من قسوته فإنه من شفتيك كالشهد، أليس هكذا العشق يا ست الحسن مذ خلق الله

الأرض وما عليها؟»، فقالت وهى ترفع حاجبيها حتى حاذيا طرف عروس البرقع فبدت كيعسوب باسط جناحيه «ومن أدرانى بالعشق يا جملى؟ . . لست إلا عوادة، ترى هل للعشق لوازم أيضًا؟». فقال وهو يغالب الضحك «هى ولوازم اللقاء شىء واحد» «بلا زيادة ولا نقصان؟ . .»، «بلا زيادة ولا نقصان»، «ولا واحدة طالعة ولا واحدة نازلة؟!». «لا واحدة طالعة ولا واحدة نازلة»، «لعلها التى يسمونها الزنا؟!»، «بلحمه وعظمه!». فندت عنها ضحكة قالت: «اتفقنا . . انتظر حيث تنتظر كل مساء بقهوة سى على وعندما أفتح النافذة قم إلى البيت». انتظر مساء ومساء ومساء، مساء خرجت مع الجوقة على الكارو، ومساء ذهبت مع العالمة فى حانطور، ومساء لم يبد على البيت أثر للحياة، وها هو ينتظر وقد أعيا أعصاب رأسه طول النظر إلى الشباك. ومر موهن من الليل فأغلقت الدكاكين وأقفر الطريق وشمل الغورية ظلام، ووجد ـ كما يقع له كثيراً فى إقفار الطريق وإظلامه مثاراً غريبًا لمكمن الشهوة فى جسده فازداد جزعًا على جزع، بيد أنه لكل شىء نهاية حتى الانتظار الذى يبدو وكأن لا نهاية له فترامى إليه من ناحية الشباك الغارق فى الظلمة طقطقة نفخت فى حواسه روح أمل جديد كما تنبعث روح الأمل فى نفس التائه فى القطب إذا ترامى إلى سمعه أزيز الطيارة التى يحدس أنها جاءت للبحث عنه بين الثلوج، ولاحت فرجة يشع منها ضوء، ثم تنور شبح العوادة وسط الفرجة فقام من فوره وغادر القهوة عابراً الطريق إلى بيت العالمة ودفع الباب دون أن يطرقه فانفتح كأن يداً رفعت مزلاجه فمرق إلى الداخل ليجد نفسه فى ظلمة دامسة لم يهتد معها إلى موقع السلم فلزم موقفه ليأمن الاصطدام أو العثار ووثب إلى رأسه سؤال لا يخلو من قلق: ترى أدعته زنوبة على غير علم من العالمة؟ . . وهل تبيح لها العالمة الاجتماع بعشاقها فى بيتها؟ ولكنه أبرز لسانه استهانة لأن رادعًا لم يكن ليثنيه عن مغامرة، ولأن ضبط عاشق فى بيت تقوم جدرانه على مهج العاشقين ليس مما تحاذر عواقبه وانقطع عن التفكير حين لاح لعينيه ضوء شاحب يهبط من أعلى، ثم لمحه يترنح على الجدران التى وضحت رويداً فتبين موقفه على بعد ذراع من أولى درجات السلم عن يمينه، وما عتم أن رأى زنوبة قادمة وبيدها مصباح فمضى نحوها فى سكرة من الشوق وضغط فى حنان على ساعدها امتنانًا ورغبة حتى ضحكت ضحكة رقيقة أوحت على رقتها بأنها لا تحاذر، وتساءلت بمكر:

ـ طال انتظارك؟

فمس سوالفه بأنامله وهو يقول بصوت شاك شاب شعرى الله يسامحك (ثم بصوت خافت) الست هنا؟

فحاكت صوته الخافت على سبيل المزاح وقالت:

ـ نعم . . فى خلوة مع رفيق قد الدنيا . .

ـ ألا تغضب إذا علمت بحضورى فى هذه الساعة؟

فاستدارت وهى تهز منكبيها استهانة ورقت الدرج وهى تقول :

ـ وهل أنسب من هذه الساعة لحضور عاشق مثلك؟

ـ إذًا لا ترى بأسا فى اجتماعنا ببيتها؟

فحركت رأسها حركة راقصة وقالت :

ـ لعلها ترى كل البأس فى عدم اجتماعنا!

ـ عاشت . . عاشت . .

فاستطردت فى لهجة تنم عن الفخار قائلة :

ـ لست عوادة فحسب، أنا بنت أختها، وهى لا تضن علىَّ بغال . . تقدم بسلام .

ولما بلغ الدهليز جاءهما من الداخل صوت غناء لطيف يصاحبه عود ودف فأنصت ياسين قليلا ثم تساءل :

ـ خلوة أم حفلة؟

فهمست فى أذنه :

ـ خلوة وحفلة معًا، عشيق السلطانة رجل صاحب طرب ومزاج، لا يطيق أن يخلو مجلسه ساعة من العود والدف والكأس والضحك . . عقبى لك .

ومالت إلى باب ففتحته ودخلت وهو وراءها، ووضعت المصباح على كونصول ثم وقفت أمام المرآة لتلقى نظرة فاحصة على صورتها فتناسى ياسين زبيدة وعشيقها الطروب وسدد عينيه المنهومتين إلى الجسم المشتهى الذى بدا لناظريه متجردا عن الملاءة لأول مرة سددهما بقوة وتركيز وحركهما فى أناة وتلذذ من فوق لتحت ومن تحت لفوق، ولكنه قبل أن ينفذ نية من عشرات النوايا التى اعتلجت فى صدره قالت زنوبة كأنما تصل ما انقطع من حديثها :

ـ رجل لا نظير له فى لطفه وطربه، أما كرمه فحدث عنه من اليوم إلى الغد . . هكذا يكون العشق وإلا فلا .

لم يغب عنه ما فى إشارتها إلى «كرم» عشيق العالمة من معان، ومع أنه سلم من بادىء الأمر بأن غرامه الجديد سيفرض عليه ضرائب باهظة إلا أن تلميحها ـ الذى بدا له مبتذلا ـ ضايقه، فلم يسعه إلا أن يقول مدفوعًا بغريزة الدفاع عن النفس :

ـ لعله رجل واسع الثراء!

فقالت وكأنها تجيبه على مناورته :

ـ الثراء شىء والكرم شىء آخر . . رب ثرى بخيل .

فتساءل لا عن رغبة فى المعرفة ولكن تفاديًا من الصمت الذى خاف أن يفضح استياءه :

ـ ترى من يكون هذا الرجل الكريم؟

فقالت وهى تدير عجلة المصباح لترفع فتيلته:

ـ إنه من حيِّنا ولابد أنك تسمع عنه.. السيد أحمد عبد الجواد.

ـ مــن..!

فالتفتت نحوه دهشة لترى ما أفزعه فألفته متصلب القامة جاحظ العينين فسألته مستنكرة:

ـ مـــالك؟

كان تلقى الاسم الذى نطقت به كأنه مطرقة هوت بعنف على يافوخه فند عنه التساؤل فى نبرات صارخة من الفزع وهو لا يدرى، وغاب عما حوله لحظات مليئة بالذهول، ثم تراءى له وجه زنوبة فى حالة من الدهشة والإنكار فخاف افتضاح أمره وركز إرادته كلها فى الدفاع عن موقفه فعمد إلى التمثيل يدارى به فزعه فضرب كفًا بكف كأنما لا يصدق ما قيل عن الرجل لظنه الوقار به وتمتم مستغربًا:

ـ السيد أحمد عبد الجواد!.. صاحب دكان النحاسين؟

فحدجته بنظرة انتقاد مر لإزعاجها بلا سبب وسألته مستهزئة:

ـ نعم هو.. فماذا استصرخك كأنك عذراء تفض بكارتها؟

فضحك ضحكة آلية وقال كالداهش وهو يحمد الله فى سره على أنه لم يذكر لها اسمه كاملا يوم التعارف:

ـ من يصدق عن هذا الرجل الوقور الورع؟!

فرمته بنظرة ارتياب وقالت ساخرة:

ـ أهذا ما أفزعك حقًا؟.. ولا شىء غيره؟!.. أظننته من المعصومين؟.. وماذا عليه من هذا؟.. هل يكمل الرجل إلا بالعشق؟!

وقال بلهجة المعتذر:

ـ صدقت.. لا شىء يستحق الدهش فى هذه الدنيا (ثم ضاحكًا فى عصبية) تصورى هذا الرجل الوقور وهو يطارح السلطانة الغرام ويشرب الخمر ويطرب للغناء!

فقالت وكأنها تكمل حديثه بنفس لهجتها الساخرة:

ـ ويلعب بالدف بيد ولا يد عيوشة الدفافة وينثر النكات كالدرر فيقتل من حوله ضحكًا، وليس عجبًا ـ بعد هذا كله ـ أن يرى فى دكانه مثالا للجد والوقار.. فالجد جد واللهو لهو، وساعة لربك، وساعة لقلبك.

يلعب بالدف بيد ولا يد عيوشة الدفافة!.. ينثر النكات فيقتل من حوله ضحكًا!.. من عسى أن يكون هذا الرجل؟!

أبوه السيد أحمد عبد الجواد؟!. . الصارم الجبار الرهيب التقى الورع؟!. . الذى يقتل من حوله رعبًا؟!

كيف يصدق ما سمعت أذناه؟!. . كيف، كيف؟!. . ألا يكون ثمة تشابه فى الأسماء وألا علاقة بين أبيه وبين هذا العاشق الدفاف؟!. . ولكن زنوبة وافقت على أنه صاحب دكان «النحاسين» وليس فى النحاسين من دكان تحمل هذا الاسم إلا دكان أبيه!. . رباه هل ما سمعه حقيقة أو أنه يهذى؟!. . لشد ما يود أن يطلع على الحقيقة بنفسه، أن يرى بعينيه دون وسيط، رغبة تملكته لحظتئذ فبدا تحقيقها كأخطر شىء فى الحياة ولم يستطع لها مقاومة فابتسم إلى الفتاة وهو يهز رأسه هزة حكيم كأنما يقول: «يا لها من أيام كلها عجائب!». ثم سألها بلهجة من يدفعه حب الاستطلاع وحده:

ـ ألا أستطيع أن أراه من حيث لا يرانى؟

فقالت معترضة:

ـ أمرك عجيب، وما الداعى إلى هذا التجسس؟!

فقال برجاء:

ـ منظر يستحق المشاهدة فلا حرمتنى منه!

فضحكت باستهانة وقالت:

ـ عقل طفل فى جسم جمل، أليس كذلك يا جملى؟. . ولكن لا عاش من يخيب لك رجاء. . انزو فى الدهليز وسأدخل عليهما بطبق من الفاكهة تاركة الباب مفتوحًا حتى أرجع.

وغادرت الحجرة فتبعها على الأثر بفؤاد خافق وانزوى فى ركن من الدهليز المظلم على حين تابعت العوادة سيرها إلى المطبخ، وبعد قليل عادت حاملة طبقًا من العنب فاتجهت إلى الباب الذى ينبعث منه الغناء فنقرت عليه، وانتظرت دقيقة ثم دفعته ودخلت دون أن تغلقه وراءها، هناك بدا مجلس الطرب فى صدر الحجرة تتوسطه زبيدة محتضنة العود وهى تلعب بالأوتار بأناملها وهى تغنى «يا مسلمين يا أهل الله» وعلى كثب منها جلس «أبوه» دون غيره ـ وقد اشتد خفقان قلبه لدى رؤيته ـ متجردًا من جبته مشمرًا عن ساعديه راعشًا الدف بين يديه متطلعًا إلى العالمة بوجه يقطر بشاشة وبشرًا. لم يلبث الباب مفتوحًا إلا ريثما رجعت زنوبة، دقيقة أو دقيقتين، ولكنه رأى فيهما منظرًا عجبًا، حياة غامضة، قصة طويلة عريضة، استيقظ فى أعقابها كالذى يستيقظ من نوم طويل عميق على قلقلة زلزال عنيف، رأى فى دقيقتين عمرًا كاملا ملخصًا فى صورة كمن يرى فى حلم هنيهة صورة جامعة لأحداث شىء يستغرق وقوعها فى عالم الحقيقة أعوامًا طويلة، رأى أباه حقًا، أباه دون غيره من البشر، ولكن لا كما تعود أن يراه، فلم يسبق له أن رآه

متجرداً من جبته فى جلسة مريحة منسابة مع سجيتها، ولا رأى شعره الفاحم ثائر الأطراف كأنما جاء يعدو حاسر الرأس، ولا رأى ساقه العارية كما لاحت على حافة الديوان تحت ذيل القفطان المنحسر، ولا رأى - إى والله - الدف بين يديه يرعش باعثًا شخشخته الراقصة المتقطع بالنقر الرشيق، ولا رأى - ولعله أعجب ما رأى - هذا الوجه الضاحك المتألق الريان بالود والصفاء الذى أذهله كما ذهل كمال من قبل حين رآه يضحك أمام الدكان يوم قصده مدفوعًا برغبته فى الإفراج عن أمه، رأى هذا كله فى دقيقتين، ولما أغلقت زنوبة الباب وعادت إلى حجرتها لبث بموقعه يستمع إلى الغناء وخشخشة الدف برأس دائر، نفس الصوت الذى استمع إليه حال دخوله البيت، ولكن أى تغير اعتور الأثر الذى ينطبع منه على نفسه، أى معان وصور جديدة ينقلها الآن إلى وجدانه كرنين جرس المدرسة يهش له الطفل إذا سمعه وهو غريب عنها وينقلب فى أذنيه نذيرا لمتاعب جمة إذا سمعه وهو ضمن تلاميذها. ونقرت زنوبة على الحجرة كأنما تدعوه ليلحق بها فأفاق من غيبوبته ومضى إليها وهو يحاول أن يتمالك نفسه كيلا يبدو أمامها مضطربًا أو ذاهلا فدخل وعلى شفتيه ابتسامة عريضة:

- هل أنساك نفسك ما رأيت؟!

فقال بلهجة تشى بالرضا والارتياح:

- منظر نادر، وغناء بديع.

- أتحب أن نفعل مثلهما؟

- فى ليلتنا الأولى؟!.. كلا.. لا أحب أن أخلط بك شيئًا آخر ولو كان الغناء نفسه!

ولئن تكلف بادىء الأمر الحديث ليبدو أمامها - وأمام نفسه على السواء - هادئًا طبيعيًا فقد انتهى إلى الانهماك فيه بلا تكلف ثم إلى استرداد حاله الطبيعية بأسرع مما قدر. كالذى يتصنع هيئة الباكى فى مأتم فينخرط فى البكاء. على أنه ربما عاودته الدهشة فجأة فيقول لنفسه: «أعجب بها من حال لم تخطر لى على بال من قبل، أنا هنا مع زنوبة وأبى فى الحجرة القريبة مع زبيدة، كلانا فى بيت واحد!». ولكنه سرعان ما يهز كتفيه ويستطرد فى حديثه مع نفسه «كيف أحمل نفسى مشقة العجب لوقوع شىء باعتباره بعيداً عن التصديق ما دمت ألمسه واقعًا!.. إنه هناك فمن السخف أن أتساءل ذاهلا هل يمكن تصديق هذا. فلأصدق ولأتعجب.. وماذا عليه من هذا!». ولم يشعر إلى تفكيره بارتياح فحسب ولكنه فرح فرحة فاقت كل تقدير، لا لأنه كان بحاجة إلى مشجِّع ليواصل حياته الشهوية، ولكن لأنه - كأكثرية الغارقين فى الشهوات المحرمة - يستأنس إلى الشبيه، فكيف إن وجده فى شخص أبيه - القدوة التقليدية - الذى طالما أزعجه، بشعور وبلا شعور منه، أن يجد نفسه وإياه على طرفى نقيض، تناسى كل شىء إلا فرحته،

كأنها أعز ما ظفر به فى حياته، وشعر نحو أبيه بحب وإعجاب جديدين ـ غير الحب والإعجاب اللذين اكتسبهما قديمًا تحت ستار كثيف من الإجلال والخوف. حب وإعجاب ينبعان من أعماق النفس ويختلطان بجذورها الأولى، بل كأنهما وحب الذات والإعجاب بها شىء واحد، لم يعد الرجل بعيدًا عزيز المنال مغلق الأبواب ولكن دانيًا قريبًا، قطعة من نفسه وقلبه، أبا وابنا، روحًا واحدا، ليس الرجل الذى يرعش الدف فى الداخل السيد أحمد عبد الجواد ولكنه ياسين نفسه، كما يكون وكما يجب أن يكون، وكما ينبغى أن يكون، لا يفرق بينهما إلا اعتبارات ثانوية من العمر والتجربة «هنيئا لك يا والدى، اليوم اكتشفتك، اليوم عيد ميلادك فى نفسى، يا له من يوم ويا لك من أب، لم أكن قبل الليلة إلا يتيمًا، أشرب وألعب بالدف لعبًا، ولا يد عيوشة الدفافة، إنى فخور بك، هل تغنى أيضًا يا ترى؟».

ـ ألا يغنى السيد أحمد عبد الجواد أحيانا.. ؟

ـ ألا زال فكرك مشغولا به؟!.. يا ويل الناس من الناس!.. بل يغنى أحيانًا يا جملى.. يشترك فى الهنك إذا سكر.

ـ وكيف صوته؟

ـ غليظ جميل كعنقه.

«إلى هذا الأصل ترجع الأصوات التى تغنى فى بيتنا، الجميع يغنون، أسرة عريقة فى الطرب، ليتنى أسمعك ولو مرة، لا أحفظ لك فى ذاكرتى إلا الزعق والنهر، غنوتك الوحيدة المشهورة بيننا «يا ولد ـ يا ثور ـ يا بن الكلب»، أريد أن أسمع منك «الوداد فى الملاح صُدَف» أو «حبيت يا جميل» كيف تسكر يا أبى؟ كيف تعربد؟ ينبغى أن أعرف لأحتذى مثالك وأحيى تقاليدك، كيف تعشق؟ كيف تعانق؟

وانتبه إلى زنوبة فرآها أمام المرآة وهى تسوى أهداب شعرها بأناملها وقد لاح إبطها من فرجة الفستان أملس ناصعًا يتصل منحدره بأصل نهد كقرصة العجين فسرت فى بدنه سكرة الهياج وانقض عليها كأنه فيل ينقض على غزال.

٤٠

وقفت ثلاث سيارات تطوع بتقديمها بعض الأصدقاء أمام بيت السيد أحمد فى انتظار العروس وحاشيتها لحملهن إلى بيت آل شوكت بالسكرية، كان الوقت أصيلا وقد انحسرت أشعة شمس الصيف المائلة عن الطريق واستقرت على البيوت المواجهة لبيت

العروس. ولم تكن ثمة مظاهر تدل على عرس، اللهم إلا الورود التى ازينت بها أولى السيارات الثلاث فلفتت أنظار أصحاب الدكاكين القريبة وكثير من المارة، ومن قبل ذلك اليوم تمت الخطبة ووردت الهدايا ونقل الجهاز وعقد القران فلم تنطلق من البيت زغرودة أو تعلق ببابه زينة أو تشى بما يدور داخله علامة من علامات الأفراح المألوفة التى تفاخر الأسر بإعلانها فى أمثال هذه المناسبات، وتتعلل بسوانحها لتفصح عن مكنون حنينها للمسرة بالغناء والرقص والزغاريد، تم كل شيء فى صمت وهدوء فلم يدر به إلا الأقارب والأصدقاء وخاصة الجيران، وأبى السيد أن يتزحزح عن تزمته أو أن يسمح لأحد من آل بيته بأن يتزحزح عنه ولو ساعة واحدة، وفى ظل هذا الجو الصامت غادرت العروس والمدعوات البيت رغم احتجاج أم حنفى على الخرجة الصامتة، فمرقت عائشة إلى السيارة فى سرعة خاطفة كأنما تخاف أن يشتعل فستان العرس أو قناعه الحرير الأبيض الموشى بالفل والياسمين تحت نظرات المتطلعين، وتبعتها خديجة ومريم وبعض الفتيات، واستقلت الأم وبعض النسوة من الأهل والجارات السيارتين الأخريين، على حين اتخذ كمال مجلسه إلى جانب سائق سيارة العروس، ورغبت الأم فى أن يمضى الركب إلى السكرية عن طريق الحسين لتلقى نظرة جديدة على مقامه الذى كلفها الشوق إليه قبل ذلك غاليًا ولتستوهب صاحب المقام البركة لعروسها الحسناء، فاخترقت السيارات الطرق التى قطعتها هى ذلك اليوم مع كمال، ثم مالت إلى الغورية عند المنعطف الذى كادت تلقى فيه حتفها حتى وقفت بهن عند بوابة المتولى أمام مدخل السكرية الذى يضيق عن دخول السيارات، وترجلن جميعًا ودخلن العطفة فطالعتهن معالم الزينات وهرع إليهن غلمان الحارة هاتفين وتعالت الزغاريد من بيت آل شوكت، أول بيت إلى يمين الداخل - حيث ازدحمت نوافذه برءوس المطلات المزغردات، ووقف عند مدخله العريس خليل شوكت وشقيقه إبراهيم شوكت وياسين وفهمى، وتقدم خليل مبتسمًا من العروس ومنحها ساعده فارتبكت ولم تبد حراكًا حتى بادرت مريم إلى يدها فشبكتها بساعده، ثم سار بها إلى الداخل مارًا بحذاء الفناء المزدحم والورد والملبس ينهال على أقدامها وعلى أقدام من تبعنها من حاشية العروس حتى واراهن باب الحريم، ومع أن قران عائشة بخليل تم قبل ذلك اليوم بشهر أو أكثر إلا أن منظر اشتباكهما وسيرهما معًا لاقى من ياسين وفهمى - والأخير خاصة - دهشة مقرونة بالحياء وشعورًا بالإنكار أشبه كأن جو أسرتهما لا يهضم حتى طقوس حفلات الزفاف المشروعة، وبدا هذا الأثر بصورة أوضح عند كمال الذى جعل يجذب أمه من يدها فى انزعاج وهو يشير إلى العروسين اللذين يتقدمان الجميع على السلم كأنه يستعديها على دفع شر فظيع، وخطر للشابين أن يسرقا النظر إلى وجه أبيهما ليريا أى أثر تركه ذاك المنظر الفريد، فشملا المكان بنظرة سريعة ولكنهما لم يقفا له على أثر، لم يوجد عند المدخل، ولا فيما يلى هذا من فناء البيت الذى اصطفت به

الأرائك والمقاعد وأقيمت فى صدره منصة الغناء. والواقع أن السيد خلا إلى نفر من خاصة أصدقائه بمنظرة الفناء فلم يفارقها منذ حل بالبيت مصممًا على ألا يفارقها حتى ختام الليلة مبتعدًا بنفسه عن «الجمهور» الصاخب خارجها، لم يكن أشد إحراجًا لنفسه من الظهور بين آله فى ليلة زفاف، إذ لا يرضى أن ينشر فوقهم رقابته فى يوم خالص السرور، ولا يطيق من ناحية أخرى أن يشهد عن كثب انطلاقهم مع دواعى الفرح، وفضلا عن هذا وذاك لم يكن أكره لديه من أن يرى - بينهم - على غير ما عهدوا من وقار صارم، ولو كان الأمر بيده لتم الزفاف فى صمت شامل ولكن حرم المرحوم شوكت وقفت من اقتراحه فى هذا الشأن موقف معارض لا تلين صلابته، وأبت إلا أن تحييها ليلة حافلة فاتفقت على إحيائها مع العالمة جليلة والمغنى صابر، وبدا كمال لفرط ابتهاجه بما أتيح له من حرية وسرور كأنه عريس الليلة، وكان أحد أفراد قلائل أبيح لهم التنقل كيفما شاءوا بين الحريم فى الداخل وبين مجلس الطرب فى فناء الدار، لبث طويلا مع أمه بين النساء منقلا طرفه بين زينتهن وحليهن مصغيًا إلى دعاباتهن وأحاديثهن التى يستأثر الزواج بخلاصتها، أو منصتًا معهن إلى العالمة جليلة التى تصدرت البهو كالمحمل ضخامة وزينة وراحت تنشد الطقاطيق وتعاقر الشراب جهاراً، فاستأنس إلى الجو الضاحك لغرابته وجاذبيته - والأهم من هذا كله - لوجود عائشة على حال من التبرج لم يحلم بها من قبل، وشجعته أمه على البقاء ليظل تحت رعايتها، بيد أنها عدلت عن موقفها بعد حين واضطرت إلى أن تحثه همسًا على الانتقال إلى مجلس أخويه لأمور لم تتوقع حدوثها، من ذلك ما بدا من اهتمامه بعائشة، بفستانها حينًا وبزواقها حينًا آخر، فخيف منه على هندامها، أو ما بدر منه من ملاحظات صبيانية صريحة نحو بعض السيدات كما هتف بأمه مرة وهو يشير إلى امرأة من آل العريس قائلا: «انظرى يا نينة إلى أنف هذه الست.. أليس أكبر من أنف أبلة خديجة». أو ما فاجأ به الجميع وجليلة تغنى من الاشتراك مع التخت فى ترديد «يمامة حلوة.. ومنين اجيبها» حتى دعته العالمة إلى الجلوس بين أفراد تختها، وبهذا وغيره جذب الأنظار إليه فأخذت المدعوات فى مداعبته، ولكن أمه لم ترتح إلى الضجة التى أثارها، وآثرت على كره منها - إشفاقًا على البعض من عبثه وإشفاقًا عليه من أعين المعجبات - أن تحمله على مغادرة المكان، انضم إلى مجلس الرجال، وتردد بين الصفوف، ثم وقف بين فهمى وياسين حتى ختم صابر دور «بس ليه تعشق يا جميل»، واستأنف تجواله حتى مر بالمنظرة فأغراه حب الاستطلاع بالنظر إلى داخلها فمد رأسه وما يدرى إلا وعيناه تلتقيان بعينى والده فتسمر فى مكانه وعجز عن استردادهما، ورآه أحد أصدقاء أبيه - السيد محمد عفت - فناداه فلم يجد بدًا من تلبية النداء ليتفادى من إغضاب أبيه فتدانى من الرجل على كره وخوف حتى وقف أمامه منتصب القامة مضموم الذراعين إلى جانبيه كأنه عسكرى فى طابور، وصافحه الرجل قائلا:

ـ ما شاء الله . . في أي سنة يا عم؟

ـ سنة ثالثة رابع .

ـ عال . . عال . . سمعت صابر؟

ومع أنه كان يجيب على أسئلة محمد عفت إلا أنه راعى من بادىء الأمر أن تكون إجاباته بحيث ترضى أباه . . فلم يدر كيف يجيب على السؤال الأخير أو أنه تردد قبل أن يعد الإجابة ولكن الرجل بادره متلطفًا :

ـ ألا تحب الغناء؟

فقال الغلام بتوكيد :

ـ كـــلا . .

وبدا من بعض الحاضرين ما يدل على أنهم سيعلقون على هذه الإجابة ـ آخر ما ينتظر من شخص ينتمى إلى عبد الجواد ـ مازحين ـ ولكن السيد حذَّرهم بعينيه فأمسكوا ، أما السيد محمد عفت فعاد يسأله :

ـ ألا تحب أن تسمع شيئًا؟

فقال كمال وهو يلحظ إباه :

ـ القرآن الشريف .

فتعالت أصوات الاستحسان وسمح للغلام بالانصراف فلم يتأت له أن يسمع ما قيل عنه وراء ظهره حين قهقه السيد الفار قائلا :

ـ إن صح هذا فالغلام ابن زنا!

فضحك السيد أحمد عبد الجواد وقال وهو يشير إلى حيث كان يقف كمال :

ـ هل رأيتم أمكر من ابن الكلب يدعى التقوى أمامى! . . رجعت مرة إلى البيت فترامى صوته وهو يغنى «يا طير يا للى على الشجر» .

فقال السيد على :

ـ آه لو رأيته وهو ينصت بين أخويه إلى صابر وشفتاه تتحركان مع الغناء فى انسجام تام ولا انسجام أحمد عبد الجواد نفسه .

على حين خاطب محمد عفت السيد أحمد متسائلا :

ـ المهم أن تخبرنا هل أعجبك صوته فى دور «يا طير يا للى على الشجر»؟

فضحك السيد قائلا وهو يشير إلى نفسه :

ـ ذاك الشبل من هذا الأسد .

فهتف الفار قائلا :

ـ الله يرحم اللبؤة الكبيرة التى أنجبتكم .

غادر كمال المنظرة إلى الحارة وكأنه يفيق من كابوس ووقف بين الغلمان الذين ازدحم بهم الطريق ، وما لبث أن استعاد ارتياحه فتمشى مزهواً بملابسه الجديدة ، مغتبطًا بحريته التى جعلت من المكان كله ـ فيما عدا المنظرة المخيفة ـ مجالا مباحًا لقدميه دون معترض أو رقيب ، فأى ليلة هذه فى الزمان ! . . شىء واحد جعل ينغص عليه صفوه كلما خطر على فؤاده هو انتقال عائشة إلى هذا البيت الذى باتوا يدعونه «بيتها» هذا الانتقال الذى نفذ على رغمه دون أن يستطيع أحد إقناعه بوجاهته أو فائدته ، تساءل طويلا كيف سمح أبوه به وهو الذى لا يسمح لظل امرأة من آله بأن يلوح وراء خصاص النافذة فتلقى الجواب ضحكًا عاليًا ، وساءل أمه فى عتاب ، كيف تفرط فى عائشة لحد النزول عنها للغير فأجابته بأنه سيكبر يومًا ويأخذ مثلها من بيت أبيها فتشيَّع إليه بالزغاريد ، وسأل عائشة هل يسرُّها حقًا أن تهجرهم فأجابت أن لا ، ولكن الجهاز حمل إلى بيت الرجل الغريب ولحقت به عائشة التى لا يطيب له الرِّى إلا من موقع شفتيها ، حقًا أن الفرح الراهن ينسى أشياء ما كان يتصور أن ينساها لحظة ولكن خاطرة الأسى تغشى فؤاده الجذل كما تغشى السحابة الصغيرة وجه القمر فى ليلة صافية السماء ، ومن عجب أن سروره بالغناء فى تلك الليلة فاق أى سرور عداه ، كاللعب مع الغلمان أو مشاهدة النساء والرجال فى مرحهم المطلق أو حتى عيش السراى والألمظية على مائدة العشاء ، ولئن أدهش اهتمامه الجدى بسماع جليلة وصابر الذى لا يتفق مع سنه كل من لاحظه من النساء والرجال فلم يدهش أحداً من أسرته التى تعرف سوابقه فى الغناء مع معلِّمته عائشة كما تعرف حُسن صوته الذى تعده أحسن أصواتها بعد عائشة وإن كان صوت الأب ـ الذى لا يسمعونه إلا مزمجرا ـ أحسنها جميعًا ، وقد استمع كمال طويلا إلى جليلة وصابر ولكنه على غير المنتظر وجد غناء الرجل وعزف تخته أحب إلى قلبه وآخذ لنفسه ، فرسخت منه فى ذاكرته جمل غنائية مثل «تعشق ليه . . علشان كده» ، جُمل يرددها بعد ليلة الزفاف طويلا فى سقيفة اللبلاب والياسمين فوق سطح بيتهم ، وشاركت أمينة وخديجة كمال فى بعض ما أتيح له من أسباب السرور والحرية ، فلم يسبق لهما ـ مثله ـ أن شهدا ليلة كتلك الليلة بما حفلت من أنس وطرب ومرح ، وأبهج أمينة خاصة ما لاقت من الرعاية والمجاملة بصفتها أم العروس ، هى التى لم تنعم فى حياتها برعاية أو مجاملة ، حتى خديجة اختفى همها فى أنوار الفرح كما تختفى الظلمة عند إشراق الصباح ، نسيت أحزانها بين الضحكات الناعمة والأنغام العذبة والأحاديث الطلية ، وازدادت لها نسيانا بفضل حزن جديد خالص الطوية منشؤه شعورها بفراق عائشة الوشيك ، شعور أثمر حبًا وعطفًا خالصين فتوارت الأحزان القديمة أمام الحزن الجديد كما تتوارى الأحقاد أمام الأريحية ، أو كما يقع لشخص حيال آخر يحب منه جانبًا ويكره جانبًا أن تتوارى ـ ساعة الفراق مثلا ـ

الكراهية لجانب أمام الحزن على الجانب الآخر، هذا إلى ما شاع فى نفسها من ثقة حين تبدت فى زينة أضفت على جسمها ووجهها سواء لفت إليها أنظار بعض النساء فلهجن بالثناء عليها ثناء ملأها أملا وأحلاما عاشت بها زمنًا رغدا.

وجلس ياسين وفهمى جنبًا لجنب ـ يراوحان بين السمر والسماع، وجلس خليل شوكت ـ العريس ـ ينضم إليهما بين ساعة وأخرى كلما وجد فرجة بين أشغال ليلته الشاقة الممتعة، وبالرغم من الجو المشبع بالبهجة والطرب انطوى ياسين على قلق فارتسمت فى عينيه نظرة شرود مزمنة وراح يسائل نفسه بين حين وآخر ترى هل يتاح له أن يروى ظمأه ولو بكأس أو بكأسين؟ . . لذلك مال مرة على أذن خليل شوكت ـ وكان صديقًا للأخوين وهمس قائلا:

ـ أدركنى قبل أن تضيع الليلة.

فقال له الشاب وهو يغمز بعينه مطمئنًا:

ـ أفردت مائدة فى حجرة خاصة لأمثالك من الأصدقاء.

عند ذاك اطمأن باله وعاودته حيويته للسمر والدعابة والسماع، لم يكن فى نيته أن يسكر، ففى مثل هذا المكان الحافل بالأهل والمعارف يعد القليل من الخمر فوزًا كبيرًا، خاصة وأن والده وإن انزوى فى المنظرة ـ غير بعيد ـ فلم يكن وقوفه على أسرار حياته يزحزحه عن مكانته التقليدية من نفسه، لم يزل قائمًا بحصنه الحصين من المهابة والإجلال، ولم يزل هو بموقف الطاعة والعبودية، حتى السر الذى اطلع عليه خفية لم يفكر فى البوح به لإنسان ولا لفهمى نفسه أقرب المقربين إليه، لهذا كله قنع من بادىء الأمر بكأس أو بكأسين يتملق بهما رغبته الجامحة، ويتهيأ بهما لتذوق المرح والسمر والطرب وغيرها من المسرات التى لم يعد لها عنده طعم بغير شراب. فهمى بخلاف ياسين ـ لم يجد، أو لم يطمئن إلى أنه سيجد ريًا لظمئه، ثار شجنه من حيث لا ينتظر عند مجىء العروس، ذهب مع العريس وياسين لاستقبالها بقلب خلى فوقع بصره على مريم وهى تسير وراء العروس مباشرة ومتألقة الثغر بابتسامة تحية للمكان كله، لاهية بالزغاريد والورود عنه، وقد شف قناعها الحريرى عن ديباجة وجهها الصافى، فتبعها نظره بقلب خافق حتى واراها باب الحريم، ثم عاد إلى مجلسه مزلزل النفس كأنه قارب تعرض بغتة لإعصار، بيد أنه كان قبل رؤيتها هادىء النفس لاهيًا بشجون السمر شأن السالى الناسى، والحق تمر به أوقات فيجد نفسه على هذه الحال من السلو والنسيان كأن قلبه يستجم من العناء، ولكن ما أن تخطر خطرة أو تهفو ذكرى، أو يجرى اسمها على لسان، أو . . أو حتى يخفق فؤاده ألما، ويفرز الحسرة تلو الحسرة، كالضرس المسوس الملتهب تجىء عليه فترة فيسكن ألمه حتى إذا هرس لقمة أو مس جسمًا صلبًا انفجر به

الألم، وهناك يقرع الحب أضلعه من الداخل كأنما يروم متنفسًا، صائحًا بأعلى صوته أنه لا زال حبيسًا لم يطلق سراحه العزاء أو النسيان. طالما تمنى لو يعمى عنها الراغبون حتى يستوى على قدميه رجلا حر التصرف فى تقرير مصيره، وقرب أمنيته كر الأيام والأسابيع والأشهر دون أن يتقدم لها خاطب، ولكنه لم ينعم بالطمأنينة الحقة، ولم يزل عرضة للقلق والخوف يتناوبانه الحين بعد الحين ينغصان صفوه ويكدران أحلامه ويخلقان له ضروبًا من الألم والغيرة إن تكن وهمية فليست دون الواقع - فيما لو تحققت - ضراوة وقساوة، حتى بات التمنى نفسه وتأخر وقوع البلاء من بواعث تجدد القلق والخوف وبالتالى الألم والغيرة فود كلما اشتد به العذاب أن يقع البلاء ليلقى نصيبه من الحزن دفعة واحدة لعله بعد ذلك يبلغ باليأس ما لم يبلغ بالأمانى العابثة من الراحة والسلام، ولكنه لم يستسلم للشجن فى مجلس طرب تكتنفه أنظار الأصدقاء والأقرباء، إلا أنه كان تلقى من منظر مريم وهى تسير وراء أخته «أثرًا» لا يمكن أن يمضى بلا رد فعل محسوس، ولما لم يسعه أن يجتر به أحزانه وأن يجلو المستور من نفسه فقد استهلكه - بطريقة عكسية - بالإغراق فى الحديث والضحك والتظاهر بالغبطة والسعادة، على أنه كلما خلا إلى نفسه ولو لحظات شعر فى أعماقه بعزلة قلبية عما حوله، وأدرك مع مرور الوقت أن رؤيته مريم وهى تخطر فى معية العروس قد هيجت حبه كما تهيج ضوضاء مفاجئة مهمومًا ذا قابلية للأرق، وإنه لن ينعم على الأقل هذه الليلة - بصدر مستقر، وإن شيئًا مما يدور حوله لن يستطيع أن ينتزع من مخيلته صورتها أو الابتسامة التى حيث بها جو الاستقبال الحار المشبع بالزغاريد والورود، ابتسامة عذبة صافية وشت بقلب خلى متشوق للهدوء والسرور، ابتسامة لا يوحى رواؤها بأنه يمكن أن ترتسم على موضعها من الشفتين تقلصات الألم، فهز منظرها قلبه وكاشفه بأنه يكابد الألم منفردًا ويحمل متاعبه وحده، ولكن ألا يقهقه هو الآن عاليًا، يحرك رأسه مع الأنغام كالمنبسط الطروب؟.. ألا يجوز أن يخدع الناظر بحاله ويظن به ما ظن هو بها؟.. وجد فى تفكيره شيئًا من العزاء ولكن ليس أوكد من عزاء المصاب بالتيفود حين يسائل نفسه «ألا يحتمل أن أشفى كما يشفى فلان الذى أصيب به قبلى»، وما لبث أن ذكر رسالتها التى عاد بها كمال إليه منذ أشهر وهى: قل له إنها لا تدرى ماذا تفعل لو تقدم لها خاطب أثناء هذه المدة الطويلة من الانتظار.. وتساءل كما تساءل عشرات المرات من قبل هل ثمة عاطفة وراء هذه الكلمات؟.. أجل لا يستطيع إنسان مهما بلغ به التعنت أن يؤاخذها على كلمة منها، بل لا يستطيع أن يتجاهل ما تضمنته من عقل وحكمة ولكن هذا نفسه ما أشعره بالعجز حيالها وما أحنقه بالتالى عليها، إذ يندر أن يرضى العقل والحكمة طموح عاطفة لا تعرف بطبعها الحدود، وعاد إلى الحاضر، إلى مجلس الطرب، إلى الحب الهائج، ليست رؤيته لها وحدها التى رجَّته هذه الرجَّة العنيفة، فلعل ذلك لأنه رآها لأول مرة، فى مكان

جديد ـ فناء بيت آل شوكت ـ بعيداً عن داره التى لم يرها خارج نطاقها من قبل، كان وجودها الدائم فى المقام القديم قد سلكها فى آلية العادة اليومية على حين بعث ظهورها المفاجىء فى المكان الجديد ـ ذاك الظهور الذى خلقها فى عينيه خلقًا جديداً ـ حياة جديدة فى وجدانه، أيقظت الحياة الأصلية الكامنة، ثم تعاونتا معًا على إحداث هذه الرجة العنيفة، ولعل ذلك أيضًا لأن وجودها بعيداً عن بيته وما يقترن به من تقاليد صارمة أقامت بينه وبينها سداً من اليأس، وجودها فى جو من الحرية والانطلاق، وعلى حال لم يعهدها من التبرج والحركة، وجودها فى بيئة الزفاف وما توحى به من خواطر الحب والوصال، كل أولئك أطلقها من قمقمها إلى حيث يراها القلب أملا غير عسير، وكأنما تقول له «انظر أين ترانى الآن، ما هى إلا خطوة أخرى فتجدنى بين ذراعيك». ولكن ما لبث هذا الأمل أن ارتطم بالواقع الشائك مسهما فى إحداث الرجة العنيفة، ولعل ذلك أيضًا لأن رؤيتها والمكان الجديد زادتها رسوخًا فى نفسه وتغلغلا فى حياته ـ ونشوبها فى ذكرياته، فإن الصور تتعمق فى أنفسنا باندماجها فى مختلف الأماكن التى تمتد إليها تجاربنا، وكما اقترنت مريم قديمًا بسطح البيت وبستان اللبلاب والياسمين وكمال وتسميع الكلمات الإنجليزية ومجلس القهوة وحديثه مع أمه فى حجرة المذاكرة والرسالة التى عاد بها كمال فستقترن منذ الليلة بالسكرية وفناء آل شوكت ومجلس الطرب وغناء صابر وزفاف عائشة وغير ذلك مما ينثال على سمعه وبصره وكافة حواسه، ومثل هذه العملية. . لا يمكن أن تتم دون أن تشارك فى إحداث الرجة العنيفة التى دوخته. .

وحدث فى فترة الاستراحة أن ترامى صوت العالمة إلى مجلس الرجال من النوافذ المطلة على الفناء وهى تغنى «حبيبى غاب» فنشط إلى السماع باهتمام شديد وجمع حواسه كلها فى النغمات، لا لأن صوت جليلة أعجبه ولكن لظنه أن مريم تنصت إليها فى تلك اللحظة لأن الجملة الغنائية تخاطب أذنيهما فى وقت واحد معًا، لأنها أَلَّفت بينهما على حال واحدة من الإنصات وربما من الإحساس، لأنها خلقت لهما موعداً يلتقيان فيه بروحيهما، وحمله هذا كله على احترام الصوت وحب النغمات كى يجتمع بها فى إحساس واحد، وحاول طويلا أن ينفذ إلى نفسها بالرجوع إلى نفسه، أن يتلمس ذبذبات تأثرها بمتابعة ذبذبات تأثره، ليعيش فى ذاتها لحظات بلا حجاب على بعد المسافة وكثافة الجدران، وحاول إلى هذا أن يستخبر الجمل الغنائية على آثارها فى النفس المحبوبة، ماذا تركت فى قلبها جملة «حبيبى غاب» أو «بقى له زمان ما بعتش جواب»، ترى هل غابت فى لجج الذكريات؟ . . أو لم تنحسر موجة منه عن وجهه؟ . . ألم ينقبض قلبها لشكة ألم أو لحزة حسرة؟ . . أم لها سادرا طوال الوقت لا يجد فى النغمة إلا فرحة الطرب؟ . .

وتصورها وهى تهب انتباهها للنغم سافرة متبرجة الحيوية أو وثغرها يفتر عن ابتسامة كتلك التى لمحها على شفتيها عند مجيئها فآلمته لأنه توسم فيها رمز السلو والنسيان، أو

وهى تحادث إحدى أختيه كما يحلو لها كثيراً وهو ما يحسدهما عليه على حين لا تجدان فيه الأمر الذى يدهشه لحد الانزعاج إلا حديثًا عاديًا كسائر الأحاديث التى تشتبكان فيها مع غيرها من فتيات الجيران، أجل طالما عجب لموقف أختيه منها، لا لأنهما لا تكترثان لها فالحق أنهما تحبانها، ولكن لأنهما تحبانها كما تحبان غيرها من فتيات الجيران كأنها مجرد «فتاة» من فتيات الجيران، وكيف تلقيانها بترحيب عادى دون أن يضطرب لهما نفس كما يلقى هو فتاة عابرة أو أيا من أقرانه طلبة مدرسة الحقوق، وكيف تتحدثان عنها فتقولان: «مريم قالت أو مريم فعلت» وتنطقان بالاسم كما تنطقان بأى اسم. . أم حنفى مثلا كأنه ليس الاسم الذى لم ينطق به على مسمع من غيره إلا مرة أو مرتين وهو يعجب لموقعه من أذنه أو كأنه ليس الاسم الذى لا ينطق به فى وحدته إلا كما ينطق بالأسماء المبجلة المنقوشة فى خياله بتهاويل الأحلام التى لا ينطق بأحدها حتى يردف «رضى الله عنه»، أو «عليه السلام». . وكيف إذن عطل الاسم - بل الشخص نفسه - عندهما من سحره وقدسيته؟! - وعندما انتهت جليلة من الأغنية تعالى الهتاف والتصفيق فركز فيه انتباهه باهتمام لم تحظ الأغنية نفسها بمثله لأن حنجرة مريم ويديها اشتركت فيه، وتمنى لو كان بوسعه أن يميز صوتها من تلك الأصوات وأن يفرز تصفيقها من ذلك التصفيق ولكن لم يكن ذلك بأسهل من تمييز صوت موجة بالذات من هدير الأمواج المتلاطمة على الشاطىء، على أنه وهب حبه للهتاف كله وللتصفيق كله بلا تمييز كالأم التى يترامى إلى سمعها أصوات التلاميذ من المدرسة التى يتبعها ابنها فتدعو لهم جميعًا بالبركة والسلامة.

لم يكن أشبه بفهمى فى عزلته الباطنية - وإن اختلفت الأسباب - من أبيه الذى لزم المنظرة بين نفر من خاصة خلانه، حتى الأصدقاء الذين لم يطيقوا التوقر، والغناء يجلجل فى الخارج، انفضوا من حوله وتفرقوا بين المستمعين يطربون ويلهون، فلم يبق معه إلا النفر الذين مجلسه أحب إليهم من اللهو نفسه فلبثوا جميعًا فى رزانة غير معهودة كأنما يؤدون واجبًا أو يشهدون مأتمًا، هذا ما قدروه من قبل، حين دعاهم السيد إلى ليلة الزفاف، لما خبروه من طبيعته المزدوجة التى عرف بجانب منها بين أصدقائه وبالجانب الآخر بين آل بيته، ولم يفتهم وجه من وجوه التناقض بين مجلسهم الوقور هذا الذى يحتفلون فيه «بليلة زفاف»، وبين مجالسهم المسائية المعربدة التى لا يحتفلون فيها بشىء! . . وما عتموا أن جعلوا من توقرهم موضوعًا للمزاح الخفيف الهادىء فما إن علا صوت السيد عفت مرة وهو يضحك حتى بادره السيد الفار واضعًا سبابته على شفتيه كأنما يأمره بخفض صوته وهمس فى أذنه محذراً زاجراً: نحن فى فرح يا رجل! . . ومرة أخرى وكان الصمت قد غلبهم مليًا فإذا بالسيد على يقلب عينيه فى وجوههم ثم يقول رافعًا يده إلى رأسه كالشاكر: «شكر الله سعيكم»، وعند ذاك دعاهم السيد إلى اللحاق بصحبه فى الخارج ومشاركتهم لهوهم ولكن السيد عفت خاطبه بلهجة تنم عن شديد

العتاب قائلا: نتركك فى مثل هذه الليلة؟!.. وهل يعرف الصديق إلا عند الضيق؟!..
فما تمالك السيد أن ضحك قائلا: ما هى إلا عدة ليالى زفاف أخرى حتى يتوب الله علينا جميعًا.. على أن ليلة الزفاف تضمنت فى نظر السيد أحمد معانى أخرى غير التوقر الإجبارى فى مجلس أنس وطرب، معانى تخصه وحده كأب ذى طبيعة خرقت المألوف من الطبائع، فلم يزل يجد لفكرة زواج كريمته إحساسًا غريبًا لا يرتاح إليه وإن لم يقره عقله أو دينه، لا يعنى هذا أنه ود ألا تتزوج كريمتاه، فالحق أنه كسائر الآباء جميعًا رجا الستر لفتاتيه، ولكن لعله تمنى كثيراً لو لم يكن الزواج الوسيلة الوحيدة لهذا «الستر» ولعله تمنى لو كان الله قد خلق البنات على طبيعة لا تحتم الزواج. أو لعله تمنى فى الأقل لو لم يكن أنجب إناثًا قط، أما وتلك أمانى لم تتحقق ولا سبيل إلى تحقيقها فلم يكن بد من أن يرجو الزواج لفتاتيه ولو كما يرجو الإنسان أحيانًا ـ ليأسه من دوام العمر ـ ميتة شريفة أو ميتة مريحة!.. طالما أفصح عن نفوره هذا بسبل متباينة سواء عن شعور أو لا شعور، فربما حدَّث بعض خلصائه قائلا: «تسألنى عن إنجاب الإناث؟.. إنه شر لا حيلة لنا فيه ولكن الشكر إلى الله واجب على أى حال، لا يعنى هذا أنى لا أحب ابنتيَّ فالحق أنى أحبهما كما أحب ياسين وفهمى وكمال سواء بسواء ولكن كيف يطمئن خاطرى وأنا أعلم بأنى سأحملهما يومًا إلى رجل غريب مهما يبدو لى من مظاهر فالله وحده المطَّلع على باطنه؟.. ما حيلة البنت الضعيفة حيال رجل غريب وهى بعيدة عن رعاية أبيها؟.. وكيف يكون مصيرها لو طلَّقها يومًا وقد مات أبوها فلجأت إلى بيت أخيها لتعيش عيشة المنبوذين؟!.. لست أخاف على أحد من أبنائى لأنه مهما يحدث لأيهم من أمر فهو رجل قادر على أن يواجه الحياة، أما البنت.. اللهم احفظنا!». أو يقول فيما يشبه الصراحة: «البنت مشكلة حقًا.. ألا ترى أنَّا لا نألوا أن نؤدبها ونهذبها ونحفظها ونصونها؟.. ولكن ألا ترى أنَّا بعد هذا كله نحملها بأنفسنا إلى رجل غريب ليفعل بها ما يشاء.. الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه..». وتجسم هذا الإحساس القلق الغريب فى النظرة الانتقادية التى والى بها خليل شوكت «العريس» نظرة متعسفة عيَّابة أبت أن ترجع قبل أن تظفر بعيب يرضى تعنتها، كأنه ليس من آل شوكت الذين ألَّفت بينه وبينهم أسباب المودة والولاء من قديم الزمان، أو كأنه ليس الشاب الذى شهد له كل من رآه بالرجولة والجمال والوجاهة، لم يسعه أن ينكر مزية من مزاياه، ولكنه وقف طويلا عند وجهه الريان ونظرة عينيه الهادئة الثقيلة الموحية بالكسل فطاب له أن يستدل بهما على ما تركه الفراغ فى حياته من حيوانية قائلا لنفسه: «ما هو إلا ثور يعيش ليأكل وينام!». لم يكن اعترافه بمزاياه أولا ثم فحصه عن أى عيب ليلصقه به أخيراً إلا منطقًا عاطفيًا يعكس ما يكمن فى نفسه من رغبة فى تزويج الفتاة ونفوره من فكرة الزواج، فالاعتراف مهَّد إلى تحقيق الزواج والفحص عن العيوب نفَّس عن العاطفة العدائية، كمدمن الأفيون الذى

تستذله لذته وترعبه خطورته فينشده بكل سبيل وهو يلعنه، بيد أنه تناسى مشاعره الغريبة وهو بين أصدقائه الحميمين يتسلى بالحديث حينًا وبالسماع حينًا آخر، ففتح صدره للرضى والغبطة ودعا لفتاته بالسعادة والحياة المطمئنة، حتى نظرته الانتقادية لخليل شوكت استحالت إحساسًا ساخرًا غير مشوب بالحنق.

وعندما دعى المدعوون إلى الموائد افترق فهمى وياسين لأول مرة فقاد خليل شوكت الأخير إلى المائدة الخاصة حيث بذل الشراب بغير حساب ولكن ياسين بدا حذرًا مقدرًا للعواقب فأعلن قناعته بكأسين وقاوم بشجاعة - أو بجبن - تيار الشراب المتدفق حتى إذا ما لسعته النشوة فهيجت ذكرياته عن لذة النشوات ووهنت إرادته فرغب فى الاستزادة من النشوة إلى القدر الذى لا يخرجه عن حدود الأمان فتناول كأسا ثالثة ثم فر بنفسه عن المائدة إلا أنه - على سبيل الاحتياط أو لأنه لم يزل عينا فى الجنة وعينا فى النار - أخفى زجاجة مملوءة حتى النصف فى مكان خفى للرجوع إليها عند الضرورة القصوى، وعادوا إلى مجلسهم بأرواح جديدة راقصة انطلق منها إلى الجو المحيط سرور محرر من القيود.

وفى الحريم كان السكر قد بلغ بالعالمة جليلة حد السلطنة، وإذا بها تقلب عينيها فى وجوه المدعوات وتتساءل:

- من منكن حرم السيد أحمد عبد الجواد؟

فجذب تساؤلها الأنظار وأثار اهتماما شاملا حتى غلب الحياء أمينة فلم تنبس بكلمة وجعلت تحملق فى وجه العالمة بحيرة وإنكار، ولما أعادت العالمة السؤال تطوعت حرم المرحوم شوكت بالإشارة إلى أمينة وهى تقول:

- ها هى حرم السيد أحمد ففيم يا ترى التساؤل؟

فتفحصتها العالمة بعينين ثاقبتين ثم أطلقت ضحكة رنانة وقالت بلهجة تنم عن الرضى:

- حسناء وحق بيت الله، إن ذوق السيد لا يجارى.

وبدت أمينة كالعذراء فى حيائها، بيد أن الحياء لم يكن كل ما تعانيه، ساءلت نفسها فى حيرة وانزعاج عما يعنيه حديث العالمة عن حرم «السيد أحمد عبد الجواد». وعن إطرائها ذوق السيد بلهجة لا يدعيها لنفسه إلا الخبير به، وشاركتها شعورها عائشة وخديجة التى رددت عينيها بين العالمة وبين بعض الفتيات من صديقاتها كأنما تسائلهن رأيهن فى «هذه المرأة السكيرة»، ولكن جليلة لم تأبه لما أثاره كلامها من انزعاج فحولت عينيها إلى العروس وتفحصتها كما تفحصت أمها من قبل ثم أرعشت حاجبيها وهى تقول بإعجاب:

- قمر ورسول الله، أنت بنت أبيك حقا، ومن ير هاتين العينين يذكر من توِّه عينيه..

(ثم مقهقهة) . . أراكن تتساءلن من أين لهذه المرأة معرفة السيد أحمد؟! . . إنى أعرفه من قبل أن تعرفه زوجه نفسها، إنه ربيب حينا وقرين صباى، وكان والدانا صديقين، أم تحسبين العالمة لا أب لها؟ . . كان أبى شيخ كتاب من أهل البركة . . ما رأيك يا زينة الستات؟!

وجهت السؤال الأخير إلى أمينة فدفعها الخوف وما طبعت عليه من لين وتودد إلى أن تجيبها ـ وهى تقاوم ما ركبها من ارتباك ـ قائلة :

ـ رحمه الله، كلنا أبناء حواء وآدم .

فجعلت جليلة تحرك رأسها يمنة ويسرة وهى تضيق عينيها كأنما بلغ تأثرها بالذكرى وموعظتها نهايته، أو لعل رأسها السكران وجد فى هذه الحركة رياضة التذ بها، ثم استطردت قائلة :

ـ وكان رجلا غيوراً، ولكنى نشأت بفطرتى لعوبًا لا أبالى كأنما رضعت الغنج فى المهد، كنت أضحك الضحكة فى الدور الأعلى فتضطرب لها جوانح الرجال فى الشارع، فما يبلغه صوتى حتى ينهال علىَّ ضربًا ويرمينى بشر الصفات، ولكن ما حيلة التأديب فيمن قدرت عليها فنون العشق والطرب والدلال؟! . . ضاع التأديب هباء، ومضى الرجل إلى الجنة ونعيمها، وقضى علىَّ بأن أتخذ مما رمانى به من شر الصفات شعاراً لى فى الحياة . . هى الدنيا . . ربنا يطعمكن خيرها ويكفيكن شرها . . ولا حرمنا الله جميعًا من الرجال سواء فى الحلال أو فى الحرام .

وعزف الضحك فى جنبات الحجرة حتى غطى على تأوهات الدهش التى ندت هنا وهناك، ولعل ما استثاره قبل أى شىء آخر هو وجه التناقض بين الدعاء الإباحى الأخير وبين ما سبقه من عبارات توحى ـ فى ظاهرها على الأقل بالجد ـ والتأسى، أو بين ما تقنعت به المرأة من ستار الجد والرزانة وما جهرت به أخيراً من مزاح مكشوف، حتى أمينة نفسها ـ وعلى رغم ارتباكها ـ ما تمالكت أن ابتسمت وإن نكست وجهها لتوارى ابتسامتها، على أن النساء كن يستجبن ـ فى مثل هذا المجلس ـ لدعابات مهرجات العوالم ويرحبن بمزاحهن وإن خدش الحياء أحيانًا كأنما ينفسن به على طول تزمتهن، وواصلت العالمة السكرانة حديثها قائلة :

ـ وكان جعل الله الجنة مثواه سليم الطوية، وآى ذلك أنه جاءنى يومًا برجل طيب مثله وأراد أن يزوجنى منه (وكركرت ضاحكة) . . أى زواج يا عمر؟! . . وماذا بقى للزواج بعد ما كان مما كان! . . وقلت لنفسى انفضحت يا جليلة وواقعتك كحل .

وأمسكت مليًا لتستزيد من التشويق، أو لتتمتع أكثر بصمت الانتباه المركز فيها الذى لا تحظى بمثله حين الغناء نفسه، ثم عادت تقول :

ـ ولكن الله سلم فـأدركتنى النجاة قبل الفضيحة المتوقعة بأيام إذ هربت مع المرحوم حسونة البغل تاجر المنزول، وكان للمرحوم أخ عواد عند العالمة نيزك فعلمنى العود، ثم طاب له صوتى فعلمنى الغناء، وأخذ بيدى حتى ضمنى إلى تخت نيزك التى حللت محلها بعد وفاتها، ومارست الغناء دهراً عرفت فيه من العشاق مائة و . . (وقطبت وهى تتذكر بقية العدد ثم التفتت إلى الدفافة وسألتها)، وكم يا فينو؟

فبادرتها الدفافة قائلة:

ـ وخمسة فى عين من لم يصل على النبى.

وتعالى الضحك مرة أخرى فجعلت بعض المشغوفات بالحديث يسكتن الضاحكات ليصفو الجو للعالمة ولكنها نهضت بغتة واتجهت نحو باب الحجرة غير ملقية بالا إلى اللاتى تساءلن عن وجهتها دون أن يحظين بجواب، ولكن أحداً لم يلح عليها فى السؤال لما اشتهرت به عند الناس من أنها صاحبة نزوة إذا نادتها لبَّت دون مراجعة، وهبطت السلم إلى باب الحريم ثم مرقت منه إلى فناء الدار، ولما جذب ظهورها المفاجىء بعض الأنظار القريبة تلبثت بمكانها لتتيح لنفسها أن ترى من الجميع فتستمتع بما يحدثه منظرها فيهم من اهتمام طمعت فى أن تتحدى به صابرا وهو فى ذروة التطريب، وتحققت رغبتها إذ سرت عدوى الالتفات نحوها ـ كالتثاؤب ـ من فرد إلى فرد وتردد اسمها على الألسن، ثم شعر صابر نفسه ـ رغم إنهماكه فى الغناء ـ بالفجوة الفجائية التى فصلت بينه وبين جمهوره فمد بصره إلى الهدف الذى استشرفته الأعين حتى استقر على العالمة وهى تنظر إليه من بعيد برأس مائل إلى الوراء من سلطنة السكر والخيلاء فاضطر إلى الإمساك عن الغناء وأشار إلى تخته فتوقف عن العزف، ثم رفع يديه إلى رأسه تحية لها! . . كان صابر خبيراً بنزوات جليلة ـ وعلى خلاف الكثيرين ـ عالما بطيبة قلبها، ومقدِّراً فى الوقت نفسه لخطر معاندتها، فأظهر لها التودد بلا تحفظ، ونجحت حيلته فانطلقت أسارير المرأة بالبشر وهتفت به «واصل غناءك يا سى صابر فما جئت إلا لسماعه»، فصفق المدعوون وعادوا إلى صابر مهللين على حين اقترب منها إبراهيم شوكت شقيق العريس الأكبر وسألها بلطف عن حاجتها فذكرت بسؤاله السبب الحقيقى الذى دعاها إلى المجىء وسألته بدورها بصوت ترامى إلى الكثيرين ومنهم ـ وهو الأهم ـ ياسين وفهمى:

ـ ما لى لا أرى السيد أحمد عبد الجواد؟! . . أين يختبىء الرجل؟

فأخذ إبراهيم شوكت بيدها وسار بها إلى المنظرة باسمًا، على حين تبادل فهمى وياسين نظرة ملئت دهشًا واستغرابًا وشيعاهما بعينين متسائلتين حتى واراهما الباب، ولم يكن السيد دون ابنيه دهشًا لدى رؤيتها مقبلة نحوه تخطر فحدجها بنظرة انزعاج وتساؤل بينما تبادل صحبه نظرات باسمة ذات معان، وشملت جليلة الجميع بنظرة عابرة قائلة:

ـ مساء الأنس يا رجال . .

وركزت عينيها فى السيد فما تمالكت أن أغربت فى الضحك وهى تتساءل ساخرة :

ـ هل أخافك مجيئى يا سيد أحمد؟ !

فأشار السيد إلى الخارج محذراً وهو يقول لها جاداً :

ـ اعقلى يا جليلة ، ماذا حملك على المجىء إلى هنا تحت أنظار الناس جميعًا؟ !

فقالت كالمعتذرة وإن لم تزايلها بسمة ساخرة :

ـ عز علىَّ ألا أهنئك على زواج كريمتك !

فقال السيد فى ضيق :

ـ لك الشكر يا ستى ، ولكن أما فكرت فيما يثيره مجيئك لدى من يشهده من ظنون؟

فضربت جليلة كفًا بكف وقالت فيما يشبه العتاب :

ـ هذا أحسن ما عندك لى من استقبال! . . (ثم موجهة الخطاب إلى صحبه) . . أشهدكم يا رجال على الرجل الذى لم يكن يبتل صدره حتى يغرز فردة شاربه فى سرتى ، انظروا إليه كيف لا يطيق الآن رؤيتى .

فلوح السيد لها بيده كأنما يقول لها : «لا تزيدى الطين بلَّة» وقال برجاء :

ـ علم الله ما بى استياء لرؤيتك ولكنه الحرج كما ترين .

هنا قال السيد على كأنما ليذكرها بما لا ينبغى لها أن تنساه :

ـ لقد عشتما حبيبين وافترقتما صديقين ، وليس بينكما ثأر ، ولكن أهله فوق وأبناءه فى الخارج .

فقالت متمادية فى إغاظة السيد :

ـ لماذا تتظاهر بالتقوى بين أهلك وأنت بركة فسق !

فرماها بنظرة احتجاج قائلا :

ـ جليلة . . ! . . لا حول ولا قوة إلا بالله .

ـ جليلة أم زبيدة يا ولى الله؟ !

ـ حسبى الله ونعم الوكيل .

فأرعشت له حاجبيها كما أرعشتهما لعائشة من قبل ولكن على سبيل التهكم لا الإعجاب هذه المرة وقالت بصوت هادىء جاد كالقاضى ينطق بالحكم :

ـ سيان عندى أن تعشق زبيدة أم غيرها من النساء ولكن يؤسفنى ورأس أمى أن تتمرغ فى التراب بعد أن غرقت حتى أذنيك (مشيرة إلى نفسها) فى القشدة .

عند ذاك نهض السيد محمد عفت ـ وكان من أقرب المقربين إليها ـ وقد خاف أن يتمادى بها السكر إلى ما لا تحمد عقباه فتناول يدها وجذبها برفق صوب الباب هامسًا فى أذنها:

ـ حلفتك بالحسين إلا ما رجعت إلى مستمعاتك المنتظرات على نار.

فطاوعته بعد ممانعة ولكنها التفتت نحو السيد وهى تبتعد رويدًا وقالت:

ـ لا تنس أن تبلغ تحياتى إلى القارحة، ونصيحتى إليك ـ بحق الأخوة أن تغتسل بعدها بالكحول لأن عرقها مصاص للدماء.

شيعها السيد بنظرة ساخطة وهو يلعن الحظ الذى قضى بأن ينكشف أمام كثيرين ـ خاصة أهله ـ ممن عرفوه مثالا للجد والرزانة، أجل لم يزل ثمة أمل فى ألا يبلغ الحادث أحدًا من آله ولكنه أمل ضعيف، ولم يزل ثمة رجاء فى ألا يفهموه إذا بلغهم ـ بما طبعوا عليه من براءة ـ على حقيقته ولكنه رجاء غير مضمون لأكثر من سبب بيد أنه على أسوأ الفروض لا يحق له أن يجزع لأن خضوعهم له من ناحية وسيطرته عليهم من ناحية أخرى أثبت من أن يزعزعهما مزعزع ولا هذه الفضيحة نفسها، وفضلا عن هذا فإن احتمال انكشاف أمره لدى أحد من أبنائه أو لديهم جميعًا لم يكن عنده يومًا بالفرض المستحيل، ولكنه لم يقلق لذاك أكثر مما ينبغى، لثقته بقوته، ولأنه لم يعتمد فى تربيتهم على القدوة والاقناع فيخاف انحرافهم عن الجادة تبعًا لما قد يظهر لهم من انحرافه عنها، ولأنه استبعد أن يطلعوا على شىء من أمره قبل أن يبلغوا أشدهم أى حين لا يهمه كثيرًا أن ينكشف لهم سره، ولكن شيئًا من هذا لم يستطع أن يلطف من أسفه على ما وقع. حقا لم يخل من سرور ومن تيه جنسى، إذ أن مجىء امرأة كجليلة بنفسها إلى مجلسه لتهنئه أو لتعابثه أو حتى لتتهكم بعشقه الجديد «حادث»، له مغزاه الهام فى الأوساط التى تشهد لياليه، وظاهرة لها دلالتها البعيدة لرجل مثله لا يعدل بالهوى والطرب والأنس شيئًا، ولكن كم كانت تكون سعادته صافية لو وقع الحادث الجميل بعيدًا عن هذه البيئة العائلية!

أما ياسين وفهمى فلم تتحول عيناهما عن باب المنظرة منذ ولجته جليلة حتى خرجت منه مصحوبة بالسيد محمد عفت. دهش فهمى دهشة بكرا دار لها رأسه كياسين حين سمع زنوبة وهى تجيبه قائلة: «إنه من حينا ولابد أنك تسمع عنه.. السيد أحمد عبد الجواد..»، على حين ركب ياسين حب استطلاع نهم فأدرك ـ فى سعادة ـ أيقظت فى قلبه نشوة الإعجاب والمشاركة الوجدانية التى شعر بها نحو أبيه فى حجرة زنوبة ـ أن جليلة مغامرة أخرى فى حياة أبيه التى بات يؤمن بأنها سلسلة ذهبية من المغامرات، وأن الرجل فاق كل ما تصوره خياله عنه، ولبث فهمى يأمل ويرجو أن يعلم بين حين وآخر

بأن العالمة إنما أرادت مقابلة والده لسبب أو لآخر يتعلق بدعوتها إلى إحياء فرح عائشة حتى جاء خليل شوكت وأخبرهما ضاحكا بأن جليلة «تداعب السيد»، وبأنها «تتودد إليه تودد الصديق للصديق». وعند ذاك لم يطق ياسين صبرا على كتمان ما عنده من سر ووثبت نشوة الشراب به إلى الإدلاء بمعلوماته فانتظر حتى غادر خليل ثم مال على أذن أخيه قائلا وهو يغالب ضحكه «كتمت عنك أشياء تحرجت من البوح بها فى حينها، أما وقد رأيت وسمعت ما سمعت فسأبوح لك بها». ومضى يقص عليه ما سمع وما رأى فى بيت زبيدة العالمة، وفهمى يقاطعه من آونة لأخرى قائلا فى ذهول «لا تقل هذا..»، «هل فقدت وعيك»، «كيف تريدنى على أن أصدقك». حتى أتى الشاب على قصته بكل تفاصيلها، لم يكن فهمى، بما نشأ عليه من عقيدة ومثالية، على استعداد لفهم ـ بله هضم ـ السيرة الخفية التى تنكشف له لأول مرة خاصة وأن والده نفسه كان من أركان عقيدته ودعائم مثاليته، ولعل ثمة وجها من التشابه بين شعوره وهو يعانى هذا الكشف لأول وهلة وبين شعور الجنين ـ إن صدق الخيال ـ وهو ينتقل من مستقر الرحم إلى مضطرب الحياة، ولعله لو كان قيل له إن جامع قلاوون انعكس وضعه فصارت المئذنة أسفل بنائه والضريح عاليه، أو كان قيل له إن محمد فريد خان رسالة مصطفى كامل وباع نفسه للإنجليز لما كان هذا أو ذاك بأدعى إلى إنكاره وانزعاجه. «أبى يذهب إلى بيت زبيدة ليشرب ويغنى ويضرب الدف!.. أبى يذعن لمداعبة جليلة وتوددها!.. أبى يقترف السكر والزنا، كيف اجتمعت الثلاث!.. إذن هو غير الأب الذى عرفته فى البيت مثالا للورع والقوة!.. أيهما الصحيح؟.. كأنى أسمعه الآن وهو يردد: الله أكبر. الله أكبر، فكيف ترديده للغناء!.. حياة تمثيل ورياء!.. ولكنه صادق، صادق إذا رفع رأسه للدعاء، صادق إذا غضب.. أيكون أبى رذيلة أم يكون الفسق فضيلة؟!

ـ ذهلت؟!.. ذهلت أنا أيضًا عندما نطقت زنوبة باسمه، ولكن سرعان ما استخففت نفسى وسألتها ماذا عليه من هذا؟!.. كفر!.. هكذا الرجال جميعا أو هكذا يجب أن يكونوا.

«هذا القول جدير بياسين حقا.. ياسين شىء وأبى شىء آخر.. ياسين!.. ما ياسين؟!.. ولكن كيف يحق لى أن أردد هذا الآن وأبى، أبى نفسه، لا يختلف عنه فى شىء إن لم يفقه تدهورا.. كلا ليس تدهورا.. ثمة أمر أجهله.. أبى لا يخطىء.. غير قابل للخطأ.. فوق الشبهات.. وعلى أى حال فوق الاحتقار.

ـ ما زلت ذاهلا؟!

ـ لا أتصور شيئًا مما قلت!

ـ لماذا؟.. اضحك وافهم الدنيا، يغنى وماذا فى الغناء من عيب؟.. ويسكر وصدقنى

أن السكر ألذ من الأكل، ويعشق والعشق كان ملهاة الخلفاء، اقرأ ديوان الحماسة والأخبار التى بهامشه، ليس على أبينا حرج، اهتف معى ليحيى السيد أحمد عبد الجواد، ليحيى أبونا، سأتركك لحظة ريثما أزور ـ لهذه المناسبة ـ الزجاجة التى أخفيها تحت الكرسى.

بعودة العالمة إلى التخت شاع فى الحريم نبأ مقابلتها للسيد أحمد عبد الجواد فانتقل من لسان إلى لسان حتى تناهى إلى الأم وخديجة وعائشة، ومع أنهن كن يسمعن شيئًا كهذا لأول مرة إلا أن سيدات كثيرات ـ ممن بين بعولهن وبين السيد سبب من أسباب المودة ـ تلقين النبأ فى غير ما دهش وغمزن بأعينهن باسمات شأن الذى يعرف أكثر مما يقال، ولكن واحدة منهن لم تسول لها نفسها الخوض فى الموضوع إما لأن الخوض فيه جهارا أمر لا يجمل بهن أمام كريماتهن وإما لأن دواعى المجاملة أملت عليهن بأن يمسكن عنه حيال أمينة وكريمتيها، غير أن حرم المرحوم شوكت قالت لأمينة مداعبة «حذار يا أمينة هانم فالظاهر أن عين جليلة زاغت إلى السيد أحمد!». فابتسمت أمينة متظاهرة بعدم الاكتراث ودم الحياء والارتباك يخضب وجهها، لأول مرة تلمس دليلا محسوسا على ما قام بنفسها قديما من شكوك، ومع أنها ألفت الصبر والتسليم بما قدر عليها إلا أن ارتطامها بدليل محسوس حز فى قلبها فأحست عذابا لا عهد لها به وجرحا داميا فى صميم كبريائها، وأرادت امرأة أن تعلق على قول حرم المرحوم شوكت بكلمة مجاملة تليق بأم العروس فقالت: «من يكن له وجه كوجه ست أم فهمى قسامة فلا يحق لها أن تخشى زيغان عين زوجها إلى امرأة أخرى!». فاهتزت جوانحها للثناء وعاودتها ابتسامتها الحيية ووجدت ـ على أى حال ـ بعض العزاء عما تعانيه من ألم صامت، إلا أنه لما بدأت جليلة أغنية جديدة فملأ صوتها مسمعيها ثار بها غضب مفاجئ وشعرت ثوانى بأن زمام نفسها سيفلت من قبضتها ولكنها سرعان ما كظمته بقوة خليقة بامرأة لم تعترف لنفسها قط بحق الغضب. هذا على حين تلقت خديجة وعائشة النبأ بدهش فتبادلتا نظرة حائرة وتساءلتا بعينيهما عما يعنيه الأمر كله، بيد أن دهشهما لم يقترن بانزعاج كما حدث لفهمى ولا بألم كما حدث لأمهما، ولعلهما وجدتا فى قيام امرأة كجليلة من تختها وتكبدها مشقة النزول إلى مجلس أبيهما لتحيته ومحادثته شيئًا مثيراً للإعجاب حقا، ثم شعرت خديجة برغبة غريزية فى استطلاع وجه أمها فاسترقت إليها النظر ومع أنها رأتها تبتسم إلا أنها تكابد ألما وارتباكا ينغصان عليها صفوها وأحست بضيق وما لبثت أن حنقت على العالمة وحرم المرحوم شوكت والمجلس كله.

ولما أزفت ساعة الزفة نسى كل همَّه. أسابيع مضت فشهور وصورة عائشة فى ثوب الزفاف لا تبرح الأذهان.

* * *

بدت الغورية متلفعة بالظلام والصمت حينما غادرت الأسرة بيت العروس عائدة إلى النحاسين. سار السيد أحمد فى المقدمة وحده، وتبعه على بعد أمتار فهمى وياسين الذى أفرغ ما فى وسعه كيما يتمالك نفسه ويتحكم فى مشيته أن يخونه وعيه الزائغ من فرط الشراب، ثم جاءت فى المؤخرة أمينة وخديجة وكمال وأم حنفى، انضم كمال إلى القافلة على رغمه فلولا الحادى الذى يتقدمها لوجد سبيلا إلى عصيان يد والدته وانقلب راجعا إلى حيث غادروا عائشة، وجعل لهذا يتلفت بين خطوة وأخرى صوب بوابة المتولى ليودع أسيفًا محزونًا آخر ما لاح من مظاهر الفرح، ذلك المصباح المضىء الذى رقى عامل فى سلم خشبى إليه ليقتلعه من مربطه فوق مدخل السكرية، لشد ما يقطع قلبه أن ينظر إلى أسرته فيجدها قد تخلَّت عن أحب أفرادها إليه بعد أمه، ورفع بصره إلى والدته وسألها هامسا:

- متى تعود أبلة عائشة إلينا؟

فأجابته بمثل صوته:

- لا تكرر هذا وادع لها بالسعادة، ستزورنا كثيراً ونزورها كثيراً.

فهمس مرة أخرى محنقًا:

- ضحكتم على!

فأشارت بيدها إلى الأمام، فى اتجاه السيد الذى كادت تبتلعه الظلمة «هس»، ولكنه كان مشغولا باستحضار صور مما مر به فى بيت العُرس إلى مخيلته، رأى أنها متناهية فى غرابتها وفيما بعثه فى نفسه من حيرة فجذب يدها إليه ليبتعد بها عن خديجة وأم حنفى ثم همس متسائلا وهو يشير إلى الوراء:

- أما علمت بما يدور هنالك؟

- ماذا تقصد؟

- نظرت من ثقب الباب.

فانقبض قلب الأم جزعا لأنها حدست أى باب يعنى ولكنها سألته مكذبة نفسها:

- أى باب؟

- باب غرفة العروس!

فقالت المرأة بانزعاج:

- يا له من عيب أن ينظر الإنسان من ثقوب الأبواب!

فهمس من فوره:

- ما رأيته أعيب!

ـ اخـرس . .

ـ رأيت أبلة عائشة وسى خليل يجلسان على الشيزلونج . . وهو .

فلكزته فى كتفه بشدة حتى أمسك ثم همست فى أذنه :

ـ يجب أن تخجل مما تقول ، لو سمعك أبوك لقتلك .

ولكنه قال بإصرار وبلهجة من يشعر بأنه يكشف لها عن حقيقة لا يمكن أن تتصور هى وقوعها :

ـ كان يتناول ذقنها بيده ويقبلها .

ولكزته مرة أخرى بقسوة لم يعهدها من قبل فأدرك أنه أخطأ حقا وهو لا يدرى وسكت خائفا ، ولكنه عندما كانا يقطعان فناء البيت المظلم متأخرين عن بقية الأسرة ـ وقد تخلفت عنهما أم حنفى لتسك الباب وتضببه وتترسه ـ ألح عليه ما يكابد من حيرة ورغبة فى الاستطلاع فخرج من صمته وخوفه وسألها برجاء :

ـ لماذا يقبلها يا نينة؟ !

فقالت له بحزم :

ـ إذا عدت إلى هذا أخبرت والدك !

٤١

آوى ياسين إلى حجرة النوم وهو على حال من السكر شديدة ، ما كاد يخلو إلى فهمى ويأمن الرقباء ـ سرعان ما غط كمال فى نومه عقب وضع رأسه على المخدة مباشرة ـ حتى جمحت به رغبة فى العربدة كرد فعل للجهد العصبى الذى بذله طوال السهرة ، خاصة فى طريق العودة ، كما يضبط نفسه ويسيطر على سلوكه ، ولكنه وجد الحجرة أضيق من أن تتسع لعربدته فمال إلى التنفيس عن صدره بالكلام فنظر نحو فهمى وهو ينزع ملابسه وقال ساخرا :

ـ قارن بين خيبتنا وبين براعة أبينا ! . . حقا إنه لرجل . .

على رغم ما حرك هذا الكلام من ألم فهمى وحيرته إلا أنه قنع بأن يقول وهو يرسم على شفتيه المتعضتين شبه ابتسامة :

ـ البركة فيك فأنت نعم الخلف .

ـ أيحزنك أن يكون والدنا من كبار القناصة؟ .

ـ وددت لو تمتد يد التغيير إلى صورته الماثلة فى نفسى .

فقال ياسين وهو يفرك راحتيه فى سرور :

ـ الصورة الحقيقية أبهى وأمتع ، أعظم به من أب هو المثل الأعلى ، آه لو رأيته وهو قابض على الدف والكأس بين يديه تزهر! عفارم . . عفارم يا سيد أحمد! .

فتساءل فهمى فى حيرة :

ـ وحزمه وتقواه؟!

فقطب ياسين ليركز فكره فى المسألة ولكنه وجد نفسه فى حال الجمع بين الأضداد أروح لها من التوفيق بينها فقال مدفوعا بالإعجاب وحده :

ـ ليس ثمة مشكلة على الإطلاق ، عقلك الرعديد وحده الذى يخلق المشكلة من العدم ، أبى حازم ومؤمن ويحب النسوان ، شىء بسيط واضح ١+١=٢ ، ولعلى أشبه الناس به على وجه التقريب لأنى مؤمن وأحب النسوان وإن قل نصيبى من الحزم ، أنت نفسك مؤمن وحازم وتحب النسوان ، ولكن بينا تحقق إيمانك وحزمك إذ بك تنكص عن الثالثة (ثم ضاحكا) والثالثة هى الثابتة!

لعله نسى عند آخر كلامه باعث الإعجاب الذى دفعه إلى الاسترسال فيه ، فجاء قوله دفاعا عن أبيه فى الظاهر فقط ، أما فى الحقيقة فلم يكن إلا تعبيراً عن شعوره وهَّاج هاج به دمه المخمور ، عن نشوة جامحة ركبته عقب اختفاء الرقباء الذين يحذرهم ، شهوة أثارها خيال مكهرب بالشراب ، فرغب جسده فى الحب رغبة جنونية عجزت إرادته عن شكمها أو ملاطفتها ، ولكن أين يجد مطلبه؟ . . هل يتسع له الوقت؟! . . زنوبة؟! . . ماذا يحول بينه وبينها؟! . . طريق قصير ، ضجعة قصيرة ، ثم يعود فينام نوما عميقا هادئا ، هش للأخيلة المغرية هشاشة شخص لا عقل له يراجعه فاندفع إلى تحقيقها بلا تردد ، وما لبث أن قال لأخيه :

ـ الجو حار ، سأصعد إلى السطح لأتنسم هواء الليل الرطيب .

وغادر الحجرة إلى الدهليز الخارجى ، ومضى يهبط متلمسا طريقه فى ظلمة غاشية ، محاذراً غاية الحذر أن يند عنه صوت . ترى كيف يستطيع الوصول إلى زنوبة فى هذه الساعة فى الليل؟ . هل يطرق الباب؟ . ومن عسى أن يجىء لفتحه؟ . وبم يجيبه إذا سأله عن مقصده؟ . وإذا لم يستيقظ أحد لفتح الباب؟ . إو إذا جاء الخفير ليراقبه بتطفله المعروف؟ . عامت هذه الخواطر على سطح مخه كالفقاقيع ثم انداحت غارقة فى تيار الخمر الجارف فلم يتجهم لها كعوائق ينبغى تقدير عواقبها ولكنه ابتسم لها كدعابات مما قد يؤنس وحشة مغامرته ، ثم جاوزها خياله طائراً إلى حجرة زنوبة المطلة على مفرق الغورية والصنادقية فتخيلها فى قميص النوم الأبيض الشفاف الذى يتقوس مطاوعا فوق

النهدين وحول الردفين وتنحسر حاشيته عن ساقين مدملجتين خمريتين فجن جنونه وود لو يثب فوق الدرجات لولا الظلمة الغاشية. خرج ـ بخروجه إلى الفناء ـ إلى ظلمة أخف قليلا بما نفضته النجوم عليها من أضواء خافتة بيد أنها بدت لعينيه اللتين كابدتا ظلمة السلم طويلا نوراً أو كالنور. وعندما خطا خطوتين متجها إلى الباب الخارجى فى آخر الفناء جذب عينيه نور ضئيل ينبعث من سراج على وضم أمام حجرة الفرن فألقى عليه نظرة لا تخلو من استغراب حتى عثر قريبا على جسم منطرح على الأرض فتنوره على ضوء السراج فعرف أم حنفى التى بدت وكأنها استحبت النوم فى الهواء الطلق فراراً من جو حجرة الفرن الخانق. وهم بمواصلة السير ولكن ثمة شىء استوقفه فعطف رأسه مرة أخرى صوب النائمة فأمكنه أن يتبينها من موقفه، الذى لم يفصله عنها إلا بضعة أمتار، بوضوح غير منتظر، رآها مستلقية على ظهرها ثانية ساقها اليمنى التى رسمت فى الهواء بحافة الجلباب الملتصقة بالركبة هرما قائما وكشفت فى نفس الوقت عن فخذها اليسرى التى لاحت عارية فيما يلى الركبة ثم غرقت فى ظلمة الفرجة التى انحسر عنها الجلباب بين الساق القائمة والأخرى الممدودة ومع أن إحساسه بضيق الوقت ووجوب البدار إلى غايته لم يهن إلا أنه لم يسترد بصره عن الجسم الملقى غير بعيد منه، أو لعله لم يستطع استرداده وانساق وهو لا يدرى إلى تفرسه بإمعان بدا فى يقظة عينيه المحمرتين وانفراج شفتيه الممتلئتين، فاستحالت يقظة العين ـ وهى تتفحص الجسم اللحيم الذى شغل فراغا كبيرا كأنه جاموسة مسمنة ـ رغبة مريبة حتى استقر البصر على الفرجة المعتمة ما بين الساق القائمة والساق الممدودة، ثم تحول التيار المضطرم فى شرايينه من التطلع صوب باب الخروج إلى حجرة الفرن، وكأنه يكتشف لأول مرة المرأة التى خالطها أعواما طويلة بغير مبالاة. على أن أم حنفى لم تحظ بسمة واحدة من سمات الحسن، وبدا وجهها أكبر من سنها الحقيقية التى لم تكد تجاوز الأربعين، حتى اكتنازها باللحم والدهن كان ـ لتنافره وسوء تنسيقه ـ بالانتفاخ الغليظ أشبه، ولذلك، وربما أيضا لطول انزوائها فى حجرة الفرن وقديم معاشرته لها التى بدأت مع صباه، لم يلتفت إليها قط. بيد أنه كان وقتذاك على حال من الهيجان فقد معها أية قدرة على التميز فأعمته الشهوة، وأى شهوة؟ شهوة مولعة بالمرأة لذاتها لا لمعانيها ولا لألوانها، تعشق الحسن ولا تعزف عن القبح، والكل عندها فى «الأزمات» سواء كالكلب يلتهم بلا تردد ما يصادفه فى القمامة، عند ذاك بدت له مغامرته الأولى ـ زنوبة ـ محفوفة بالمتاعب مجهولة العواقب، ولم يعد «الوصول إليها فى هذه الساعة من الليل، وطرق الباب، وما يقول لفاتحه، والخفير» دعابات يبسم لها، ولكن عوائق يجدر به أنه يتفادى منها. تقدم فى خفة وحذر فاغراً فاه، ذاهلا عن كل شىء إلا قنطار اللحم المنطرح عند قدميه الذى بدا لعينيه النهمتين وكأنه أخذ أهبته لاستقباله. حتى توقف بين الساق القائمة والأخرى الممدودة، ثم انحنى عليها قليلا قليلا

بلا وعى تقريبا، وبإغراء شديد من الداخل والخارج معا، وما يدري إلا وهو ينبطح فوقها. لعله لم يتعمد الذهاب إلى هذا الحد دفعة واحدة، ولعله همّ بشىء من التمهيد كان لا ينبغى أن يسبق الحركة العنيفة الأخيرة، ولكن الجسم الذى انبطح عليه اضطرب اضطرابة فزع شديدة وندت عنه صرخة مدوية ـ سبقت يده التى رامت كتمها ـ فمزقت السكون الشامل ولطمت مخه لطمة قوية ردت إليه وعيه فأطبق راحته على فمها وهو يهمس فى أذنها بقلق وخوف بالغين:

ـ أنا ياسين، أنا ياسين يا أم حنفى، لا تخافى..

وطفق يكرر قوله حتى اطمأن إلى وعيها إياه فاسترد راحته، ولكن المرأة ـ التى لم تمسك عن المقاومة قط ـ تمكنت أخيرا من تنحيته عنها، فاستوت جالسة وهى تلهث من الجهد والانفعال ثم سألته بصوت أزعجه أيما إزعاج:

ـ ماذا تريد يا سى ياسين؟

فقال لها بلهجة هامسة ملؤها الرجاء:

ـ لا ترفعى صوتك هكذا، قلت لك لا تخافى، ليس ثمة ما يدعو إلى الخوف بتاتا..

فعادت تسأله بجفاء وإن خفضت من صوتها قليلا:

ـ ماذا جاء بك؟

فجعل يربت على يدها متوددا وهو يتنهد فى شبه ارتياح لم يخل من عصبية كأنما رأى فى خفضها لصوتها أمارة مشجعة وقال لها:

ـ ماذا أغضبك؟ لم أرد بك سوءا (مبتسما ابتسامة وشت بها نبراته) هلمى إلى حجرة الفرن..

فقالت المرأة بصوت مضطرب ولكنه ذو دلالة حازمة:

ـ كلا يا سيدى، اذهب إلى حجرتك، اذهب، الله يلعن الشيطان..

لم تزن أم حنفى كلماتها بميزان ولكنها ندت عنها كما اقتضى الحال. لعلها لم تعبر أصدق التعبير عن رغباتها، ولكنها عبرت تماما وبغير شعور منها على شدة المفاجأة، مفاجأة لم تسبق يوما بتمهيد من أى نوع كان، التى انقضت عليها فى نومها كما تنقض الحدأة على الفرخ، فصدت الشاب وزجرته بلا أدنى تفكير حقيقى فى الصد أو الزجر، بيد أنه أساء فهمها فامتلأ حنقا وثارت برأسه الخواطر.. «ما العمل مع بنت الكلب هذه! لا يمكن أن أتراجع بعد أن كشفت نفسى وتماديت إلى حد الفضيحة، لا بد مما أريد ولو لجأت إلى القوة» وفكر بعجلة فى أنجع وسيلة للتغلب على ما تراءى له من مقاومة ولكنه ـ قبل أن يتخذ قرارًا ـ سمع حركة غريبة، لعلها أقدام، آتية من باب السلم، فوثب قائما وهو من الفزع فى نهاية، مزدردا شهوته كما يزدرد اللص فص الماس المسروق إذا بوغت

فى مكمنه، واستدار صوب الباب ليعاين ما هنالك فرأى والده وهو يجتاز العتبة مادًّا ذراعه بالمصباح. تسمر فى مكانه مختطف الدم مستسلما ذاهلا يائسا. أدرك من توه إن صرخة أم حنفى لم تضع هباء، وأن النافذة الخلفية لحجرة الأب كانت له بالمرصاد، ولكن ما جدوى الإدراك المتأخر؟.. لقد وقع فى فخ القضاء والقدر. وجعل السيد يتفرس فى وجهه بقسوة صامتا، مطيلا الصمت، وهو ينتفض غضبا، ودون أن يحول عينيه القاسيتين أشار بيده إلى الباب يأمره بالدخول، ومع أن الاختفاء كان أحب إليه فى تلك اللحظة من الحياة نفسها إلا أنه من الخوف والارتباك لم يستطع أن يحرك ساكنا، فضاق صدر الأب ولاحت فى عبوسته بوادر الانفجار ثم زمجر صائحا وعيناه ـ اللتان انعكس عليهما ضوء المصباح المرتعش بارتعاش اليد القابضة عليه ـ ترسلان شررا..

ـ اطلع يا مجرم يابن الكلب..

فما ازداد إلا استمساكا بجموده حتى هجم عليه السيد فقبض على ذراعه بيمناه وشد عليها بغلظة ثم جذبه بشدة نحو الباب فاندفع بقوة الجذبة الخارقة فكاد يقع على وجهه، وتمالك توازنه وهو يلتفت وراءه فزعا، وفر بنفسه وثبا وهو لا يبالى ظلمة.

٤٢

علم بفضيحة ياسين شخصان ـ غير أبيه وأم حنفى ـ هما ست أمينة وفهمى، سمعا صرخة أم حنفى، فشاهدا من نافذتيهما ما دار بين الشاب وبين السيد، ثم حدسا ما هنالك دون حاجة إلى كبير ذكاء، على أن السيد كاشف زوجه بزلة ابنه وسألها مدققا عما تعلم من أخلاق «أم حنفى» فدافعت أمينة عن خادمتها بما علمت من طبيعتها واستقامتها وذكَّرت السيد بأنه لولا «صرختها» ما درى أحد بما كان، فقضى الرجل ساعة وهو يسب ويلعن، سب ياسين، وسب نفسه لأنه «ما كان ينبغى أن ينجب أطفالا ليكدروا صفوه بأهوائهم الشريرة» واستفاض به الغضب فسب البيت وأهله جميعا!.. وظلت أمينة صامتة كما واصلت صمتها فيما بعد كأنما لم تدر شيئا، كذلك تجاهل فهمى الأمر كله، تظاهر بالاستغراق فى النوم حين عاد أخوه إلى الحجرة لاهثا عقب الموقعة الخاسرة، ولم يبد منه فيما بعد ما ينم عن علمه بشىء، كره أن يعلم الآخر بوقوفه على ما نزل به من ذل ومهانة إكراما لاحترام يكنه له بصفته أخاه الأكبر، احترام لم يذهبه كل ما تكشف له من استهتاره ومجونه أو ما تقدم هو به عليه من علم وثقافة، أو ما يبدو من ياسين نفسه من عدم مبالاة بإلزام أحد من إخوته باحترامه بما يعابثهم من مزاح ودعابة،

أجل لم يزل يكن له احتراما لعل حرصه على الإبقاء عليه راجع إلى ما يأخذ به نفسه من تأديب وجد ورزانة أكسبته مظهرا أكبر من سنه، بيد أن خديجة لم يفتها أن تلاحظ ـ غداة الواقعة ـ أن ياسين لم يتناول فطوره على مائدة أبيه فسألته باستغراب عن المانع فأجابها بأنه لم يهضم عشاء الفرح، وشعرت الفتاة ـ بسوء ظنها الطبيعى المرهف ـ بأن ثمة علة لتخلفه غير عسر الهضم فساءلت أمها ولكنها لم تجد جوابا شافيا، ثم رجع كمال من حجرة الطعام وهو يتساءل أيضا، لا بدافع من حب الاستطلاع أو الأسف، ولكن أملا أن يجد فى الجواب ما يبشره بفترة أخرى يخلو الميدان فيها من منافس خطير كياسين، وكاد الأمر ينسى لولا أن ياسين غادر البيت مساء من غير أن يشترك فى مجلس القهوة المعهود، ومع أنه اعتذر لفهمى والأم بارتباطه بميعاد إلا أن خديجة قالت بصراحة «فى الأمر شىء، لست عبيطة . . أقطع ذراعى إن لم يكن ياسين متغيراً». وعند ذاك اضطرت الأم أن تعلن غضب السيد على ياسين لسبب لم تعلمه . . وانقضت ساعة وهم يخمنون السبب حتى أمينة وفهمى اشتركا مع الآخرين مداراة للواقع. وظل ياسين على تجنبه لمائدة أبيه حتى دعى ذات صباح إلى مقابلته قبل الفطور. لم تفجأه الدعوة، وإن أزعجته رغم ذلك ـ فكم توقعها يوما بعد يوم لاستيثاقه من أن أباه لا يمكن أن يقنع من زلته بتلك الجذبة العنيفة التى كادت أن تلقيه على وجهه، وأنه لا بد عائد إليها بطريق أو بآخر ولعله توقع أيضا معاملة لن تليق بحال بموظف مثله مما حمله حينا على التفكير فى مغادرة البيت إلى حين أو إلى الأبد. أجل لا يجمل بأبيه ـ أبيه كما عرفه فى بيت زبيدة خاصة ـ أن يلقى زلته بهذا العنت كله، كما لا يجمل به هو أن يعرض نفسه لمعاملة لا تليق برجولته فالأكرم له أن يفارقه، ولكن إلى أين؟ . . ليس إلا أن يعيش عيشة مستقلة بمفرده، ولن يعجزه هذا، بيد أنه قلب الأمر على مختلف وجوهه، قدَّر النفقات وتساءل عما يبقى له بعدها لملاذه: لقهوة سى على وحانة كوستاكى وزنوبة، هنالك فتر حماسه حتى انطفأ كما تنطفىء شمعة سراج تعرضت لهبة هواء عنيفة، وراح يقول لنفسه وهو شاعر بخداعه «لو طاوعت الشيطان وهجرت البيت لأحدثت تقليداً خبيثا لا يليق بأسرتنا، مهما يقل أبى أو يفعل فهو أبى وهيهات أن نضام حيال تأديبه» ثم قال بصراحته التى يصطنعها إذا غلبته روح الدعابة «شيئا من التواضع يا ياسين بك، دعنا من الكرامة وحياة أمك، أيهما أحب إليك كرامة سيادتك أو كونياك كوستاكى وسرة زنوبة». هكذا عدل عن التفكير فى مغادرة البيت ولبث ينتظر الدعوة المتوقعة حتى وقعت فجمع نفسه ومضى كارها متوجسا، دخل الحجرة خافض الرأس خفيف القدم ووقف بعيدا عن مجلس أبيه من غير أن يجرؤ على التسليم عليه، وانتظر. وألقى السيد عليه نظرة طويلة ثم هز رأسه كالمتعجب وهو يقول:

ـ ما شاء الله! . . طول وعرض، شارب وقفا، إذا رآك الرائى فى الطريق قال لنفسه

بإعجاب نعم الرجل ونعم الابن، فليت القائل يجيء إلى البيت ليراك على حقيقتك! . .

ازداد الشاب ارتباكا وحياء ولكنه لم ينبس بكلمة ومضى السيد يتفحصه بسخط ثم قال باقتضاب وبلهجة جافة آمرة:

ـ قررت أن تتزوج . . !

ودهش ياسين دهشة لم يكد يصدق معها أذنيه، كان يتوقع سبا ولعنا فحسب ولكن لم يخطر له على بال أنه سيسمع قرارًا خطيرًا بغير مجرى حياته كلها فما تمالك أن رفع عينيه إلى وجه أبيه حتى إذا ما التقتا بعينيه الزرقاوين الحادتين خفضهما متورد الوجه لائذا بالصمت، وفطن السيد إلى أن ابنه بوغت بهذا القرار «السعيد» بدلا من المعاملة الفظة التى كان يتوقعها فثار حنقه على الظروف التى أملت عليه أن يلقاه بجانب دمث خليق بتكذيب ظنه بجبروته المعروف فبث حنقه فى نبرات صوته، وهو يقول عابسا:

ـ الوقت ضيق وأريد أن أسمع جوابك . .

مادام الرجل قد قرر أن يزوجه فهو يأبى إلا أن يسمع جوابا واحدا، ولا مانع من أن يسمعه الجواب الذى يريد، لا طاعة لأمره فحسب، ولكن تلبية لرغبته هو أيضا. أجل ما كاد والده يعلنه بقراره حتى انطلق خياله يصور له «عروسا» حسناء، امرأة تكون ملك يمينه ورهن إشارته حين يشاء فأبهج الخيال قلبه حتى أوشك أن يفضحه صوته وهو يقول:

ـ الرأى رأيك يا بابا . .

ـ تريد أن تتزوج أم لا؟ . . انطق . .

فقال الشاب بحذر من يرغب الزواج وهو غير مستعد له ماليًا:

ـ ما دامت هذه إرادتك فإنى موافق على العين والرأس.

فخفف السيد من خشونة لهجته وهو يقول:

ـ سأطلب لك كريمة صديقى السيد محمد عفت تاجر الأقمشة بالحمزاوى، لقية ظفرها برقبة ثور مثلك.

فابتسم ياسين ابتسامة خفيفة وقال مداهنا:

ـ ولكنى بفضلك أصير كفئا لها.

فرمقه بنظرة حادة كأنما لينفذ بها إلى أعماق مداهنته وقال:

ـ من يسمع كلامك لا يتصور فعالك يا منافق . . اغرب عن وجهى . . وهم ياسين بالتحرك ولكنه أوقفه بإشارة من يده ثم تساءل مستدركا كأنما عرض التساؤل له اتفاقا:

ـ أظنك حوّشت المهر؟

لم يحر جوابا وعلاه الارتباك فاغتاظ السيد وتساءل مستنكرًا:

ـ ولكنك عشت رغم توظفك فى كفالتى كما كنت تعيش وأنت تلميذ فماذا صنعت بمرتبك؟

فلم يزد على أن حرك شفتيه دون أن ينبس فحرك الأب رأسه ممتعضا وذكر قوله له منذ عام ونصف وهو يوصيه لمناسبة توظفه «لو طالبتك الآن بأن تتعهد بنفقات نفسك بوصفك رجلا مسئولا ما خرقت المألوف بين الآباء والأبناء ولكنى لن أطالبك بمليم واحد كى أهيىء لك فرصة لاقتصاد مقدار من المال تجده بين يديك إذا دعت الحاجة إليه» ودل ذلك التصرف من جانبه على ثقته بابنه، والحق أنه لم يتصور أن يجنح أحد من أبنائه ـ بعد ما نال من تأديبه وتهذيبه الصارمين ـ إلى هوى من الأهواء الجامحة التى تبدد المال، لم يتصور أن ينقلب ابنه «الصغير» سكيرا ماجنا، فالخمر والنساء التى يراها فى حياته هو لونا من اللهو لا يمس رجولة ولا يؤذى إنما تنقلب إذا «لوثت» أحدا من أبنائه جريمة لا تغتفر، ولذلك فإن زلة الشاب التى كشفتها فى فناء البيت طمأنته بقدر ما أغضبته لأن أم حنفى فى نظره لا يمكن أن تغرى شابا إن لم يكن تحمل ما فاق طاقته من الاستقامة والعفة.. أجل لم يشك فى براءة ابنه بيد أنه ذكر ما لاحظه كثيرا من ولعه بالأناقة وتخيره النفيس من البدل والقمصان وأربطة الرقبة وكيف لم يرتح إلى ذلك وحذره الإسراف ولكن تحذيرا هينا، إما لأنه لم ير فى الأناقة جريمة، وإما لأن تشبه ابنه به وتكراره لصورة من صور سلوكه الذى لا يرى بأسا فى أن يكرره ابناؤه ـ حركا فى صدره العطف والتسامح، ولكن كيف كانت نتيجة ذلك التسامح؟، وهى ما وضح له الآن من تبذيره نقوده فى التافه من الكماليات. ونفخ الرجل مغيظا محنقا وقال له محتدا:

ـ اغرب عن وجهى..

غادر ياسين الحجرة مغضوبا عليه بسبب تبذيره لا بسبب زلته كما توقع وهو ذاهب إلى الحجرة، تبذيره الذى لم يكربه من قبل فسلم إليه نفسه بلا تفكير ولا تدبر، ينفق ما فى جيبه حتى يفرغ غارقا فى ساعته، متعاميا عما يسمونه «المستقبل» كأنه شىء لا وجود له، ومع أنه غادر الحجرة مرتبكا وجلا لنهرة أبيه إلا أنه لم يخل من ارتياح عميق إذ أدرك أن تلك النهرة لا تعنى طرده فحسب ولك أيضًا أن السيد سيتكفل بنفقات زواجه، ومضى كالطفل الذى يضيق أبوه بإلحاحه فى طلب قرش فينقده إياه ويدفعه خارجا فينسى شدة الدفعة فى فرحة الظفر، ولبث الأب ساخطا راح يردد «يا له من حيوان، جسم طويل عريض ولكن بلا مخ» أغضبه إسرافه كأنه لم يتخذ هو من الإسراف شعارًا فى الحياة، ولكنه لا يرى بأسًا فى إسرافه كسائر أهوائه ـ ما دام لا يفقره وينسيه واجباته أو

يدهور شخصيته، ولكن كيف يضمن أن يصمد أمامه ياسين؟ . . فلم يكن يحرم عليه ما يحل لنفسه من استبداد وأنانية فحسب ولكن شفقا عليه وإن دل شفقه هذا على ثقة بالنفس وعدم ثقة بالآخر لا يخلوان من غرور. وزايله الغضب كعادته ـ بنفس السرعة التى ركبه بها، فصفت نفسه وانبسطت أساريره وأخذت الأمور تتبدى له بوجه جديد لطيف مسماح . . «تريد أن تتشبه بأبيك يا ثور . . إذن لا تأخذ جانبا وتهمل الجوانب الأخرى، كن أحمد عبدالجواد كله إن استطعت أو فالزم حدودك، أحسبتنى حقا سخطت على تبذيرك لأنى كنت أرجو أن أزوجك بنقودك؟! خسئت . . إنما رجوت أن أجدك مقتصدا كى أزوجك بنقودى على وفرة النقود لديك، هذا هو الرجاء الذى خيبت. وهل حسبتنى لم أفكر فى اختيار زوجة لك إلا بعد ضبطك متلبسا بالزنا، وأى زنا . . زنا حقير كحقارة ذوقك وذوق أمك؟! كلا يا بغل إنى أفكر فى سعادتك منذ توظفت، كيف لا وأنت أول من جعلنى أبا . . وأنت شريكى فى العذاب الذى أصلتنا إياه أمك اللعينة؟! . . ثم أليس من حقى أن أفرح بك خصوصا وأنه على أن أنتظر طويلا حتى أفرح بالثور الآخر أخيك أسير العشق ويا ترى من يعيش؟! . . » فى اللحظة التالية استرجع ذكرى ذات سبب وثيق بموقفه الراهن ذكر كيف قص على السيد محمد عفت «جريمة» ياسين وما كان من زجره وجذبه تلك الجذبة التى كادت تلقيه على وجهه وهو بصدد طلب يد كريمته للشاب ـ الواقع أن الموافقة على ذلك تمت بين الرجلين من قبل مفاتحة ياسين ـ وكيف قال له الرجل «ألا ترى أنه يجمل بك أن تغير من معاملتك لابنك كلما قارب سن الرشد خاصة إذا توظف وصار رجلا مسئولا؟ (ثم ضاحكا) الظاهر أنك من الآباء الذين لا يرتدعون حتى يجهر أبناؤهم بالثورة عليهم». وكيف أجابه بثقة قائلا: «هيهات أن تتعرض الرابطة بينى وبين أبنائى لتغير الزمن» صدرت عنه الإجابة الأخيرة بمباهاة وثقة لا حد لها، على أنه اعترض له بعد ذلك أن معاملته تتغير فى الواقع بتغير الأحوال وإن عمل من جانبه على ألا يفطن أحد إلى نية التغيير الباطنة ثم قال: «الحق أنى لا أقبل أن أمد يدى الآن على ياسين ولا حتى على فهمى، والحق أنى جذبت ياسين تلك الجذبة تحت تأثير غضب ثائر ومن غير أن أقدر المدى الذى ذهبت إليه» ثم استطرد قائلا وهو يكر إلى فترة من الماضى البعيد «كان أبى رحمة الله عليه يلتزم فى تربيتى شدة تهون إلى جانبها شدتى مع أبنائى ولكنه سرعان ما غير من معاملته لى منذ أن دعانى إلى معاونته فى الدكان، ثم استحالت معاملته صداقة أبوية منذ تزوجت أم ياسين، وقد بلغ بى الاعتزاز بالنفس أن عارضت فى زواجه الأخير لكبره من ناحية وحداثة سن العروس من ناحية أخرى فلم يزد على أن قال لى «أتعارضنى يا ثور . . وما دخلك فى هذا الشأن؟ إنى أقدر منك على إرضاء أية امرأة» فما تمالكت أن ضحكت وطيبت خاطره معتذرا» ذكر هذا كله فورد على ذهنه المثل القائل «إذا كبر ابنك آخه» فشعر ـ ربما لأول مرة فى حياته ـ

بتعقد مهمة الأبوة كما لم يشعر بها من قبل . فى نفس الأسبوع أذاعت الأم خطبة ياسين فى مجلس القهوة ، كان فهمى قد علم بها عن طريق ياسين نفسه ، أما خديجة فما تمالكت أن ربطت بين الخطبة وبين ما عرف من قبل عن غضب الأب على ياسين ظنا منها أن الغضب إنما وقع نتيجة لرغبة ياسين فى الزواج قياسا على ما كان بين الأب وفهمى للسبب نفسه فصرحت برأيها كالمتسائلة فقال ياسين ضاحكا وهو يخطف من الأم نظرة لا تخلو من حياء وارتباك :

ـ الحق أن ثمة علاقة قوية بين الغضب وبين الخطبة . .

فقالت خديجة متظاهرة بالاستنكار على سبيل السخرية والمزاح :

ـ بابا معذور فى غضبه لأن حضرتك لا يمكن أن تشرفه أمام صديق كبير مثل السيد محمد عفت . .

فجاراها ياسين فى سخريتها قائلا :

ـ وسوف يزداد موقف أبى حرجا إذا ما علم السيد الكبير المذكور أن للعريس أختا مثل حضرتك !

عند ذاك تساءل كمال :

ـ هل سيتركنا ياسين كما تركتنا أبلة عائشة؟

فقالت له أمه باسمة :

ـ كلا ولكن ستنضم إلى بيتنا أخت جديدة هى العروس . .

ارتاح كمال إلى هذه الإجابة التى لم يكن يتوقعها ، ارتاح إلى بقاء «راويته» الذى يمتعه بحكاياته ونوادره ومؤانسته ولكنه عاد يتساءل لماذا لم تبق عائشة أيضا؟ فأجابته أمه بأن العادة قضت بأن العروس تنتقل إلى بيت العريس وليس العكس ، لم يدر من سن هذه العادة وكم تمنى لو كان العكس هو المتبع ولو يضحى بياسين ولطائفه . بيد أنه لم يستطع أن يجهر برغبته فأفصح عنها بنظرة ناطقة رنا بها إلى أمه ، فهمى وحده الذى أثار الخبر أشجانه لا لأنه لم يشارك ياسين فرحته ولكن لأن سيرة الزواج غدا شأنها أن توقظ عاطفته وتستثير حزنه كما تستثير سيرة النصر حزن أم فقدت ابنها . . فى موقعة ظافرة . .

٤٣

تحرك الحانطور مقلا الأم وخديجة وكمال فى طريقه إلى السكرية . أيكون زواج عائشة إيذانا بعهد جديد من الحرية؟ أيقدر لهم أخيرا أن يطلعوا على نور الدنيا من حين

لآخر وأن يتنفسوا هواءها الطليق؟!. بيد أن أمينة لم تستسلم للتفاؤل أو تسبق الحوادث، فالذى حرم عليها زيارة أمها فيما ندر قادر على أن يحرم عليها زيارة ابنتها كذلك. ولم تنس أنه مضت أيام كثيرة على زواج الفتاة زارها خلالها الأب وياسين وفهمى وحتى أم حنفى دون أن يؤذن لها هى بزيارتها أو تواتيها شجاعتها على الاستئذان للزيارة، تحرزت من تذكيره بأن لها ابنة فى السكرية يجب أن تراها، ولازمت الصمت وإن لم تبرح صورة الصغيرة مخيلتها، على أنه لما ضاق صدرها بآلام التصبر استجمعت إرادتها وسألته:

ـ إن شاء الله يكون سيدى عازما على زيارة عائشة قريبا لنطمئن عليها؟..

فطن السيد إلى ما وراء السؤال من رغبة خفية فحنق عليها، لا لأنه كان قرر أن يحول بينها وبين زيارة عائشة، ولكن لأنه ود ـ كشأنه فى مثل هذه الحالة ـ أن يصدر السماح منه منحة غير مسبوقة بطلب أن تقوم بنفسها شبهة بأن طلبها ذو أثر فى استصدار السماح، فكره أن تسعى إلى تذكيره بهذا السؤال الماكر، ومن قبل فكر فى الأمر بضيق فأحنقه أن يجده ضرورة لا محيص منها، ولذلك هتف بها حانقًا:

ـ عائشة فى بيت زوجها ولا حاجة بها إلى أحد منا، على أننى زرتها كما زارها أخواها فماذا يقلقك عليها؟!

غاص قلبها فى صدرها وجف ريقها يأسا وقهرا، أما السيد فقد تعمد أن يلزم الصمت كأنه انتهى من الأمر كله معاقبة لها على ما عده مكرًا منها لا يغتفر، ثم أهملها طوال الوقت وهو يختلس النظر إلى ما غشى أساريرها من كمد، حتى حان وقت انصرافه إلى عمله فقال لها بجفاء واقتضاب:

ـ اذهبى غدًا إلى زيارتها..!

تدافع دم الانشراح إلى الوجه الذى لا تخفى بصفحته خافية فبدت فى سرور الطفل فما عتم أن عاوده حنقه فصاح بها:

ـ لن تريها بعد ذلك إلا إذا سمح لها زوجها بزيارتنا..!

فلم تعلق على قوله بكلمة ولكنها لم تنس عهدا حملته وهى تشاور خديجة فى مفاتحته فقالت بعد تردد وإشفاق:

ـ هل يسمح سيدى بأن آخذ معى خديجة؟

فهز رأسه كأنما يقول «ما شاء الله.. ما شاء الله..» ثم قال لها محتدا:

ـ طبعا.. طبعا!.. ما دمت قد قبلت أن أزوج ابنتى فيجب أن تنضم أسرتى إلى أبناء الشوارع!.. خذيها، ربنا يأخذكم جميعا..

تم لها فوق ما تطمع من السرور فلم تلق بالا إلى الدعاء الأخير الذى ألفت سماعه.. وأكثر ـ فى أوقات غضبه أو تظاهره بالغضب على السواء ـ كانت تعلم بأنه من طرف لسانه

وأنه أبعد ما يكون من قلبه، مثله كمثل القطة تبدو، حين تحمل صغارها، وكأنها تلتهمها. تحقق الرجاء وانطلقت العربة بهم فى طريقها إلى السكرية. بدا كمال، لزيارة عائشة وخروجه بصحبة أمه وأخته وركوبه الحانطور، أوفر الثلاثة سرورا، وكأنه لم يستطع كتمان فرحه أو أنه رغب فى إعلانه على الملأ أو لعله أراد لفت الأنظار إلى شخصه وهو يتخذ مجلسه فى الحانطور بين أمه وأخته فما اقتربت العربة من دكان عم حسنين الحلاق حتى وقف بغتة هاتفا «ياعم حسنين.. انظر!» فنظر الرجل إليه ولما لم يجده وحده غض بصره فى عجلة مبتسما فذابت الأم خجلا وارتباكا وجذبته من طرف جاكتته أن يعيد الكرة أمام الدكاكين التالية وراحت تؤنبه على فعلته «الجنونية». بدا بيت السكرية - وليس كذلك بدا فى حلة الأنوار ليلة الفرح - عتيقا هرما ولكن دل عتقه نفسه فضلا عن ضخامة بنيانه ونفاسة أثاثه على السؤدد والجاه، فآل شوكت أسرة «قديمة» وإن لم يبق لهم من عزة القدم - خاصة بعد توزيع الثروة بالتوارث والاستكبار على التعليم - إلا الاسم، وقد أقامت العروس بالدور الثانى على حين نزلت حرم المرحوم شوكت - ومعها ابنها الأكبر إبراهيم - الدور الأول لعجزها مع الكبر عن ارتقاء السلم فبقى دور ثالث شاغرا لم يسعهم أن يشغلوه وأبوا أن يسكنوه. ولما أدخلوا شقة عائشة همَّ كمال، منطلقا مع سجيته كما لو كان فى بيته، يجوس خلالها كى يعثر بنفسه على أخته مستمتعا بلذة المفاجأة التى تخيلها وهو يرقى فى السلم ولكن أمه لم تدعه يفلت من يدها رغم مقاومته وما يدرى إلا والخادم تقودهم إلى حجرة الاستقبال ثم تتركهم وحدهم! شعر بأنهم يعاملون معاملة «الغرباء» أو «الضيوف» فانقبض صدره وانكسرت نفسه وجعل يردد فى جزع «أين عائشة؟.. لماذا تبقى هنا؟» فلا يسمع إلا كلمة «هس» وتحذيرا من منعه من الزيارة مرة أخرى إذا علا صوته!.. ولكنه سرعان ما زايله الألم حين جاءت عائشة مهرولة مشرقة الوجه بابتسامة غطى سناها على أضواء حلتها الزاهية وزينتها الباهرة فجرى نحوها وتعلق بعنقها، فتبودل التسليم بينها وبين أمها وأختها وهو على ذلك الوضع!

بدت عائشة سعيدة كل السعادة بنفسها وبحياتها الجديدة وبزيارة أهلها، حدثتهم عن زيارات أبيها وياسين وفهمى، وكيف غلبها الشوق إليها على خوفها من أبيها فواتتها الجرأة على أن ترجوه بالسماح لهم بزيارتهم!.. قالت «لا أدرى كيف طاوعنى لسانى حتى تكلمت!. لعل مظهره الجديد الذى لم يتراء لى به من قبل هو الذى شجعنى، بدا لطيفا وديعا باسما، إى والله باسما، على أننى ترددت رغم ذلك طويلا، خفت أن ينقلب فجأة فينتهرنى، ثم توكلت على الله ونطقت!» فسألتها أمها عن رده كيف كان فقالت «قال لى باقتضاب: إن شاء الله، ثم استطرد مسرعا بلهجة جدية تنم عن تحذير: ولكن لا تظنى المسألة لعبا فكل شىء بحساب. فخفق قلبى ورحت أدعو له طويلا توددا واسترضاء!» ثم رجعت إلى الوراء قليلا فوصفت حالها عندما قيل لها «السيد الكبير فى

حجرة الاستقبال» قالت «ركضت إلى الحمام فغسلت وجهى لأزيل كل أثر للمساحيق حتى تساءل سى خليل عما يدعو إلى ذلك كله ولكنى قلت له: أدركنى، لا أستطيع أن ألقاه بفستان صيفى يكشف عن ذراعى!. ولم أبرح موضعى حتى تلفعت بشال كشميرى!» ثم قالت «ولما علمت نينة.. (ضاحكة) أعنى نينة الجديدة.. لما قص عليها سى خليل ما جرى ضحكت وقالت له: إنى أعرف السيد أحمد تمام المعرفة.. هو هذا وأكثر (ثم ملتفتة إلى) ولكن اعلمى يا شوشو أنك لم تعودى من آل عبدالجواد، أنت الآن شوكتية فلا تبالى الآخرين..». أصاب منظرها البهيج وحديثها من نفوسهم موضع الحب والإعجاب فحملق كمال فيها كما فعل فى ليلة الزفاف وتساءل محتجا «لماذا لم تكونى تبدين هكذا وأنت فى بيتنا؟!» فأجابته على الفور ضاحكة «لم أكن وقت ذاك شوكتية» حتى خديجة رمقتها بعين الحب. انقطعت بزواج الفتاة دواعى الملاحاة التى كانت تنشب بينهما بسبب الاختلاط، ومن ناحية أخرى لم يبق من الإحساس بالحنق الذى ركبها عند السماح بزواج الفتاة قبلها إلا أثر باهت حمَّلته «بختها» من دون الفتاة، فلم يعد ينطوى قلبها إلا على الحب والشوق، لشد ما تفتقدها كلما آنست من نفسها حاجة إلى أنيس تفضى إليه بذات نفسها. ثم تحدثت عائشة عن البيت الجديد، عن المشربية التى تطل على بوابة المتولى، والمآذن التى تنطلق عن قرب، وتيار السابلة الذى لا ينقطع. كل شىء حولها يذكرها بالبيت القديم وما يكتنفه من سبل وأبنية فلا اختلاف فيما عدا الأسماء وبعض المعالم الثانوية «ولكن على فكرة البوابة العظيمة لا نظير لها عندكم (ثم بشىء من الفتور) وإن كان المحمل لا يمر تحتها كما أخبرنى سى خليل!» وواصلت حديثها «تحت المشربية مباشرة مجلس يضم ثلاثة لا يفارقونه قبل جثوم الليل: شحاذ كسيح وبائع مراكيب وضارب رمل، أولئك جيرانى الجدد، إلا أن ضارب الرمل أسعدهم حظا، لا تسألوا عن أفواج النساء والرجال الذين يجلسون القرفصاء أمامه مستخبرين عن طوالعهم، كم وددت لو كانت مشربيتى أوطأ كيما أسمع ما يقول لهم، وألذ منظر، منظر سوارس القادمة من الدرب الأحمر إذا تقابلت مع عربة حجارة قادمة من الغورية فضاق عنهما مدخل البوابة وركب كل سائق رأسه متحديا الآخر أن يتراجع ليفسح السبيل، يبدأ الكلام ليِّنا بعض اللين فيحتد، ثم يخشوشن، ثم تهدر الحناجر بالسباب والشتائم، وتجىء فى أثناء ذلك عربات كارو وعربات يد فيغص بها الطريق ولا يدري أحد كيف يعود الحال إلى ما كان عليه، هنالك أقف وراء الخصاص أكاتم الضحك وأتأمل الوجوه والمناظر» وما أشبه فناء البيت الجديد بفناء بيتهم، حجرة الفرن والمخزن وحماتها سيدة الفناء والجارية سويدان «لا أجد لى عملا فلا أذكر المطبخ حتى تحمل إلى صينية الطعام» وعند ذاك لم تتمالك خديجة نفسها من أن تضحك قائلة «نلت ما طالما تمنيته!» لم يجد كمال فى الحديث شيئا ذا بال إلا أنه أحس فى نغمته العامة بما يوحى «باستقرار» المتحدثة فداخله الانزعاج وسألها:

ـ ألن تعودى إلينا؟ . .

فملأ الحجرة صوت يقول :

ـ لن تعود إليكم يا سى كمال . .

ـ وإذا بخليل شوكت يدخل ضاحكا وهو يرفل بجسمه الربعة فى جلباب حرير أبيض . كان ذا وجه بيضاوى ممتلئ، أبيض البشرة فى عينيه جحوظ خفيف وفى شفتيه غلظة ، أما رأسه الكبير فينتهى بجبين ضيق يفترق عند قمته شعر أسود كثيف يشبه فى لونه وتسريحته شعر السيد ، تلوح فى عينيه نظرة طيبة وخمول لعلها أثر للراحة والفراغ والرضى . انحنى على يد الأم ليقبلها فجذبتها بسرعة فى خجل وارتباك وهى تتمتم شاكرة ثم سلَّم على خديجة وكمال وجلس وكأنه ـ على حد تعبير كمال فيما بعد ـ واحد منهم . وانتهز الغلام فرصة تشاغل العريس بتحديثهم وتفرس فى وجهه طويلا ، ذاك الوجه الغريب أصلا الذى برز فى محيط حياتهم ليحتل مكانا مرموقا يؤهله لأن يكون أقرب الأقرباء أو بالأحرى أن يكون قرينا لوجه عائشة ، كلما خطر هذا على باله جرَّ وراءه ذاك كما يجر الأبيض الأسود . تفرس فيه طويلا وهو يردد فى نفسه قوله الممتلىء ثقة «لن تعود إليكم يا سى كمال» فوجد نحوه إنكارا ونفورا وحقدا وكادت تتمكن من قلبه لولا أن قام الرجل فجأة ومضى إلى الخارج ثم عاد حاملا صينية فضية ملئت حلوى من مختلف الألوان فقدم له باسما ـ وإن كشف افترار ثغره عن سنتين ركبت إحداهما الأخرى ـ نخبة من أشهى الأصناف ، وجاءت حرم المرحوم شوكت معتمدة على ذراع رجل استدلوا بمشابهته خليل على أنه أخوه الأكبر ، ثم وكد استدلالهم تقديم الأرملة بقولها «إبراهيم ابنى . . ألم تعرفوه بعد؟!» وعندما لاحظت ارتباك أمينة وخديجة حال التسليم قالت باسمة «نحن كالأسرة الواحدة من قديم الزمان ولكن بعضنا يرى البعض الآخر الساعة لأول مرة . . لا بأس . . ! فطنت أمينة إلى أن المرأة تشجعها وتهون عليها الأمر فابتسمت ، ولكن ساورها شىء من القلق وتساءلت : ترى هل يوافق السيد على مقابلتهما لهذا الرجل ـ وإن عد عضوا جديدا فى الأسرة كخليل سواء بسواء ـ بغير نقاب؟ . . وهل تكاشفه بالمقابلة أو تتحاشى ذكرها إيثاراً للسلامة؟ . .

كان إبراهيم وخليل أشبه بالتوأمين لولا فارق السن ، على أن اختلافهما بدا أقل من القليل بالقياس إلى اختلاف عمريهما ، والحق أنه لولا قصر شعر إبراهيم ، ولولا شاربه المفتول ، لما كان ثمة ما يميزه عن خليل ، كأنه لم يبلغ الأربعين ، أو كأن شبابه ومظهره لا يتأثران بكرور الأعوام ، لذلك ذكرت أمينة ما حدثها به السيد مرة عن المرحوم شوكت من أنه «كان يبدو أقل من عمره الحقيقى بعشرين عاما أو يزيد» أو قوله عنه «إنه رغم طيبته

ونبله كان كالحيوان لا يسمح لفكره أبدا بأن ينغص عليه صفوه!»، أليس عجيبا أن يبدو إبراهيم فى الثلاثين مع أنه تزوج فى صدر شبابه وأنجب طفلين ثم ماتت زوجه وطفلاه؟! ولكنه مرق من تجربته القاسية سالما لم يمس، ثم عاود الحياة مع أمه فى خمول ودعة وفراغ شأن آل شوكت جميعا، راق خديجة أن تسترق النظر - كلما أمنت أعين الرقباء إلى الشقيقين، إلى أوجه الشبه العجيبة بينهما، بيضاوية الوجه وامتلائه، جحوظ العينين الواسعتين، البدانة، الخمول، فحرك كل أولئك السخرية الكامنة فى نفسها حتى ضحكت أفكارها ومضت تدخر فى ذاكرتها من الصور ما تعود إليه إذا ضمها مجلس القهوة ومالت جريا على سنتها فى التهكم إلى العبث والإضحاك، وإلى هذا فكرت باهتمام فى اختيار اسم وصفى عيَّاب لهما على مثال الأسماء الوصفية التى تطلقها على ضحاياها من الناس أو بالأحرى أسوة بأمهما التى تطلق عليها «المدفع ا لرشاش» لتناثر ريقها عند الحديث. واسترقت مرة نظرة إلى إبراهيم فما راعها إلا أن تلتقى عيناها بعينيه الواسعتين وهما تتفرسان فى وجهها باهتمام من تحت حاجبيه الكثيفين فغضت بصرها فى حياء وارتباك، وتساءلت فى خوف المريب عما عسى أن يظنه بنظرتها، ثم وجدت نفسها تفكر بقلق فى منظرها وما يمكن أن يتركه فى نفسه من أثر. ترى أيسخر من أنفها كما سخرت من بدانته وخموله؟!.. واستغرقها التأمل والقلق..

سئم كمال الجلسة التى وإن تكن جمعته بعائشة إلا أنها جمعته بها على نحو مما تجمع بين الضيوف فلم تتحقق - عدا ما منحت من حلوى - شيئا من رغابة، فانتقل إلى جوار العروس وأبدى لها إشارة فهمت منها أنه يريد أن يخلو بها فقامت وأخذته من يده وغادرا الحجرة، ظنته قانعا بمجالستها فى الصالة ولكنه جذبها من يدها إلى حجرة النوم ورد الباب وراءهما حتى ارتج. انطلقت أساريره ولمعت عيناه، وتطلع إليها طويلا ثم تصفح الحجرة ركنا ركنا وهو يتشمم رائحة الأثاث الجيد مازجها أريج زكى لعله بقية مما انتشر من أيدى المتطيبين وصدورهم، ثم رنا إلى الفراش الوثير إلى النمرقتين الورديتين المتجاورتين على الغطاء فوق الوسائد وسألها «ما هما؟» فأجابته «وسادتان صغيرتان» فسألها «أتتوسدينهما؟» قالت باسمة «كلاهما للزينة فقط» فأشار إلى الفراش متسائلا «أين تنامين؟» فأجابت باسمة أيضا «فى الداخل» فسألها كأنه متوكد من أنه ينام معها «وسى خليل؟» فأجابت وهى تقرص خده برقة «فى الخارج..» عند ذاك التفت صوب «الشيزلنج» بغرابة وسار إليه وجلس، ودعاها إلى الجلوس جنبه فجلست، وما لبث أن غاب فى الذكريات غاضا بصره ليخفى نظرة مريبة وصمها بالريبة اشتداد أمه بالحملة عليه مساء ليلة الزفاف وهو يسر إليها بما رأى من ثقب الباب، راودته نفسه علي أن يبوح لها بسره، أن يسألها عنه، تحت ضغط إغراء لا يخلو من قسوة، ولكن الخجل الناجم عن الشعور بالريبة عقَلَه فشكم رغبته على رغمه، ثم رفع إليها عينين صافيتين

وابتسم إليها، فابتسمت إليه ومالت نحوه فقبلته، ثم نهضت قائلة وملء وجهها ابتسامة حلوة:

ـ لأملأن جيوبك بالشيكولاتة..

٤٤

تصايح الغلمان المتجمهرون أمام البيت وعلى طوار سبيل بين القصرين مهللين، تميز صوت كمال وهو يهتف «هلت سيارة العروس» ورددها ثلاثا فخرج ياسين ـ وهو فى كامل زينته وأبهته ـ من بين الجماعة الواقفة عند مدخل الفناء ومضى إلى الطريق فوقف أمام البيت متجها صوب النحاسين فرأى موكب العروس وهو يتقدم على مهل كأنه يتبختر. فى تلك الساعة الحافلة بالسعادة والرهبة على رغم الأعين المحملقة فيه من داخل البيت وخارجه ومن فوق ومن تحت، بدا ثابتا غير هياب مفعما رجولة وفحولة، لعل مما أيده فى ثباته إحساسه بأنه محط الأنظار فغالب بشجاعة ما يخفق بين جوانحه من اضطراب أن يبدو للناظرين فى حال تخجل منها الرجولة، ولعله أيضا علم بأن أباه منكمش فى مؤخرة الجماعة المنتظرة عند مدخل الفناء ـ التى تضم آل العروسين من الذكور ـ بحيث لا تمتد إليه عيناه، فوسعه أن يتمالك نفسه وهو يرنو إلى السيارة الموشاة بالورود التى تحمل إليه عروسه بل زوجه منذ أكثر من شهر وإن لم تقع عيناه عليها بعد، أو الأمل الذى صاغه بأحلامه الظامئة لسعادة لا تقنع بما دون الدوام. وتوقفت السيارة أمام البيت على رأس ذيل طويل من السيارات فأخذ أهبته للاستقبال السعيد وقد استجدت عنده الرغبة فى أن يستشف النقاب الحريرى ليرى وجه عروسه لأول مرة، ثم فتح باب السيارة وترجلت جارية سوداء فى الأربعين قوية البنية لماعة البشرة نجلاء العينين فاستدل بما يلوح على حركاتها من الثقة والإدلال على أنها الجارية التى تقرر إلحاقها بخدمة العروس فى بيتها الجديد، تنحت جانبا ووقفت منتصبة القامة كالديدبان ثم خاطبته بصوت كرنين النحاس وهى تبتسم عن أسنان ناصعة البياض قائلة:

ـ تفضل خذ عروسك..

فتقدم ياسين من باب السيارة ومال إلى الداخل قليلا فرأى العروس فى حلتها البيضاء بين غادتين على حين استقبله عرف طيب مفتنة للجوارح فتاه فى جو الحسن منبهرا، ومد لها ذراعه لا يكاد يرى شيئا كما يكل بصر طالع نورا ساطعا، وعقل الحياء العروس فلم تبد حراكا فتطوعت التى إلى يمينها فتناولت يدها وطرحتها على ذراعه هامسة بنبرة ضاحكة:

ـ تشجعى يا زينب . .

دخلا جنبا لجنب وهى من الحياء تحول بينه وبينها بمروحة كبيرة من ريش النعام وارت بها رأسها وعنقها فقطعا الفناء بين صفين من المنتظرين يتبعهما المدعوات من آلها اللواتى تعالت زغاريدهن كأنهن لا يبالين السيد أحمد وقيامه على ذراع منهن، هكذا لعلعت الزغاريد فى البيت الصامت لأول مرة وعلى مسمع من سيده الجبار فلعلها وقعت من آذان أهله موقع الدهشة، بيد أنها دهشة مزجت بالفرح ولم تخل من شماتة بريئة مرحة روحت بها القلوب عن قرار الحظر الصارم الذى قضى بألا تكون زغاريد ولا غناء ولا لهو، وبأن تمضى ليلة زفاف الابن البكر كما تمضى غيرها من الليالى. وتبادلت أمينة وخديجة وعائشة النظرات متسائلات باسمات وتكأكأن على خصاص نافذة مطلة على الفناء ليشهدن أثر الزغاريد فى نفس السيد فرأينه يحادث السيد محمد عفت ضاحكا فتمتمت أمينة قائلة: «لن يسعه الليلة إلا أن يضحك مهما يبدو مما لا يروقه!» وانتهزت أم حنفى الفرصة السانحة فاندست بين المزغردات كالبرميل وأطلقت زعرودة قوية مجلجلة غطت على الزغاريد كلها وعوضت بها ما ضيعت ـ فى ظل الإرهاب ـ من فرص المرح والمسرة على عهد خطبتى عائشة وياسين، وأقبلت على سيداتها الثلاث وهى تزغرد حتى استغرقن فى الضحك، ثم قالت لهن «زغردن ولو مرة فى العمر . . إنه لن يدرى الليلة من المزغرد!»، رجع ياسين بعد إيصال العروس إلى باب الحريم فالتقى بفهمى الذى لاحت على شفتيه ابتسامة موحية بالحرج والإشفاق لعلها أثر مما خلفته فى نفسه هذه الضجة البهيجة «المحرمة»، وكان يخالس أباه النظر ثم يرده إلى وجه أخيه ضاحكا ضحكة مقتضبة مغضوضة، فما كان من ياسين إلا أن قال له بلهجة، لا تخلو من استياء:

ـ أى استنكار فى أن نحيى ليلة الزفاف بالفرح والزغاريد؟! . . وماذا كان عليه لو وافق على استدعاء عالمة أو مغن؟!

تلك كانت رغبة الأسرة التى لم تجد إلى الإفصاح عنها من سبيل إلا أن تحرض ياسين على الاستشفاع بالسيد محمد عفت على أبيه، ولكن السيد اعتذر وأبى إلا أن تكون ليلة زفاف صامتة وأن تقتصر مسراتها على العشاء الفاخر. وعاد ياسين يقول آسفا:

ـ لن أجد من تزفنى هذه الليلة التى لن تتكرر أبدا الدهر! . . سأدخل حجرة العروس غير مشيع بالأناشيد والدفوف كأننى راقص يهز جذعه دون إيقاع.

ثم لاحت فى عينيه ابتسامة مرحة ماكرة فقال:

ـ الذى لا شك فيه أن أبانا لا يطيق «العوالم» إلا فى بيوتهن!

مكث كمال فى الدور الأعلى الذى أعد لجلوس المدعوات ساعة ثم نزل باحثا عن ياسين فى الدور الأول الذى هيىء لاستقبال المدعوين ولكنه وجده فى فناء

البيت يتفقد المطبخ المتنقل الذى أقامه الطاهى فأقبل نحوه مسرورا إدلالا بأداء المهمة التى عهد بها إليه وقال له :

- فعلت كما أمرتنى فتبعت العروس حتى حجرتها وتفحصتها بعد أن حسرت النقاب عن وجهها . .

فانتحى به جانبا وهو يسأله باسما :

- هه؟ . . كيف عودها؟

- فى عود أبلة خديجة . .

ضاحكا :

- فى هذه الناحية لا بأس؟ . . أتعجبك كعائشة؟

- كلا . . أبلة عيشة أجمل كثيرًا . . !

- يخرب بيتك أتريد أن تقول إنها كخديجة؟

- كلا إنها أجمل من أبلة خديجة . .

- كثيرًا؟ !

فهز رأسه مفكرًا فسأله الشاب بلهفة :

- حدثنى عما أعجبك فيها؟ . .

- أنفها صغير كأنف نينة . . وعيناها كعينى نينة أيضا . .

- ثم؟ . .

- لونها أبيض وشعرها أسود ورائحتها حلوة جدًا . .

- نحمده . . ربنا يبشرك بخير . .

وخيل إليه أن الغلام يغالب رغبة فى معاودة الكلام فسأله فى شىء من القلق :

- هات ما عندك ولا تخف!

- رأيتها تخرج منديلا ثم تتمخط!

والتوت شفتاه تفززا كأنما كبر عليه أن تند الفعلة عن عروس فى ريق فتنتها ، فما تمالك ياسين أن ضحك قائلا :

- لحد هنا عال ، ربنا يجعل العواقب سليمة!

ألقى نظرة كئيبة على الفناء الخالى إلا من الطاهى وصبيانه ، وبعض الأولاد والبنات فتخيل ما كان ينبغى أن يوجد من معالم الزينة وسرادق الطرب ومجلس المدعوين ، من قضى بهذا؟ . . أبوه! . . الرجل الذى يفوح عرقه بالمجون والعربدة والطرب . . أعجب به من رجل يحل لنفسه اللهو الحرام ويحرم على بيته اللهو الحلال ، وراح يتخيل مجلس

السيد كما رآه فى حجرة زبيدة بين الكأس والعود فما يدرى إلا وقد وثبت إلى ذهنه فكرة غريبة لم تخطر له من قبل على شدة وضوحها فيما رأى، تلك هى التشابه بين طبيعتى أبيه وأمه! طبيعة واحدة فى شهوانيتها وجريها وراء اللذة فى استهتار لا يقيم وزنا للتقاليد، ولعل أمه لو كانت رجلا لما قصرت عن أبيه فى اللهج بالشراب والطرب أيضا! لذلك انقطع ما بينهما ـ أبيه وأمه ـ سريعا، فما كان لمثله أن يطيق مثلها وما كان لمثلها أن تطيق مثله، بل ما كانت الحياة الزوجية لتستقيم له لولا وقوعه على زوجته الراهنة!، ثم ضاحكا ضحكة لم يتح لها روعه من هذه «الفكرة الغريبة» روحا من السرور «عرفت الآن من أكون، لست إلا ابن هذين الشهوانيين، وما كان لى أن أكون غير ما كنت!»، فى اللحظة التالية تساءل ترى ألم يخطئه الصواب عند إغفال دعوة أمه إلى زفافه؟! تساءل رغم إصراره على الاعتقاد بأنه لم يتنكب عن الصواب، لعل أباه رام إراحة ضميره حينما قال له قبل ليلة الزفاف بعدة ليال «أرى أن تبلغ أمك، ولك إن شئت أن تدعوها إلى شهود زفافك» ذاك قوله بلسانه لا بقلبه فيما يعتقد، فما يتصور أن يرضى أبوه له بأن يذهب إلى حيث يقيم ذلك الرجل الحقير الذى اتخذته أمه زوجا لها من بعد أزواج كثيرين، وأن يتودد إليها على مرأى منه بأن يدعوها إلى شهود زفافه، لا كان الزفاف، ولا كانت أى سعادة فى هذه الدنيا إن حملته يوما على أن يصل ما انقطع بينه وبين تلك المرأة.. تلك الفضيحة.. تلك الذكرى المخزية! وما كان منه إلا أن أجاب أباه وقتذاك قائلا: «لو كان لى أم حقا لكانت أول من أدعو إلى زفافى!». انتبه فجأة إلى الأولاد والبنات وهم يرنون إليه ويتهامسون فخص البنات بنظره وسألهن بصوت جهورى ضاحك «هل تحلمن بالزواج من الآن يا بنات؟» واتجه نحو باب الحريم وهو يذكر قول خديجة الساخر له بالأمس «إياك وأن تستسلم غداً للحياء بين المدعوين وإلا عرفوا الحقيقة المرة وهى أن أباك الذى زوجك ونقد مهرك وجملة تكاليف ليلتك، ولكن تحرك بلا توقف، تنقل بين حجرات المدعوين، ضاحك هذا وكلم ذاك، اطلع وانزل، تفقد المطبخ، اهتف وازعق، لعلك توهم الناس بأنك حقا رجل الليلة وسيدها!» فمضى ضاحكا وفى نيته أن يمتثل النصيحة الساخرة فخطر بين المدعوين بجسمه الطويل الجسيم فى أناقة بديعة ووسامة جذابة وشباب ريق، ذهب وجاء، ونزل وطلع، وإن لم يفعل شيئا، بيد أن الحركة نفضت عن نفسه طوارئ الفكر فصفت نفسه لمفاتن الليلة. ولما خطرت العروس على قلبه سرت فى بدنه قشعريرة بهيمية، ثم ذكر آخر ليلة قضاها عند زنوبة العوادة من شهر، كيف أنبأها بزواجه الوشيك وهو يودعها وكيف هتفت به بلهجة اصطنعت الغيظ «يابن الكلب!.. كتمت الخبر حتى نلت وطرك!.. (المركب اللى تودى أحسن من اللى تجيب).. مع ألف شبشب يابن المركوب»، لم يعد لزنوبة من أثر فى نفسه، ولا لغيرها، أسدل الستار على هذا الجانب من حياته إلى الأبد، وربما عاود

الشراب فما يظن أن تموت رغبته فيه ، أما النساء فلم يتصور أن تزيغ عيناه إلى امرأة عابرة وبين يديه حسناء طوع بنانه ، عروسه لذة متجددة ، رى للظمأ الوحشى الذى طالما قلقل كيانه ، ثم راح يتمثل حياته المقبلة ، الليلة ، والليالى الآتيات ، الشهر والعام فالعمر كله ، ووجهه يسطع ببهجة ناطقة لحظها فهمى بعين مليئة بحب الاستطلاع والغبطة الهادئة وغير قليل من الأسى . وجاء كمال الذى كان يتراءى فى أى مكان فجأة وخاطب ياسين والبشر يتألق فى وجهه :

ـ الطاهى قال لى إن الحلوى تزيد على حاجة المدعوين والمدعوات وإنه سيتبقى منها مقدار وفير . .

٤٥

زاد مجلس القهوة وجها جديدا بانضمام زينب إليه ، وجهًا زكاه بريق الشباب وفرحة العرس ، وفيما عدا هذا ، وفيما عدا فرش الحجرات الثلاث المجاورة لحجرة الوالدين فى الدور الأعلى بجهاز العروس ، فلم يحدث زواج ياسين تغييراً يذكر فى النظام العام للبيت سواء من الناحية السياسية التى ظلت خاضعة بكل معانى الكلمة لسلطات السيد وإرادته أو من الناحية الإدارية الداخلية التى ظلت وحدة تابعة لهيمنة الأم كما كان الحال قبل الزواج . التغيير الجوهرى حقا كان الذى طرأ على النفوس ودار مع الخواطر فدقت رؤيته على الحواس ، إذا لم يكن من اليسير أن تشغل زينب مكانة الزوجة للابن البكر وأن يجمعهما وبقية أفراد الأسرة بيت واحد دون أن يطرأ على العواطف والمشاعر تطور ذو شأن ، رمقتها الأم بنظرة امتزج فيها الرجاء بالحذر ، هذه الفتاة التى قضى عليها بأن تعاشرها دهرًا طويلا ربما امتد حتى نهاية العمر ، أى إنسان تكون؟ ماذا تخبىء وراء ابتسامتها الرقيقة؟ . . بالجملة استقبلتها كما يستقبل مالك البيت ساكنا جديدا فيؤمله ويحاذره ، أما خديجة فعلى رغم المجاملات التى تبودلت بينهما جعلت تسدد نحوها عينين نافذتين مفطورتين على السخرية وسوء الظن ، منقبة عن العيوب والمآخذ بحرص ساخط لم يلق من انضمامها إلى البيت وفوزها بالزواج من أخيها إلا ضيفا خفيا ، فلما اعتكفت الفتاة فى حجراتها الأيام الأولى من الزواج ساءلت خديجة أمها وهما فى حجرة الفرن «ترى هل حجرة الفرن مكان غير لائق (بها)؟» ومع أن الأم وجدت فى تهجمها ترويحا عن حيرة ظنونها إلا أنها اتخذت موقف الدفاع عن الفتاة وأجابتها قائلة : «صبرك ، لم تزل عروسا فى بدء عهدها الجديد!» فتساءلت الأخرى بلهجة تشى بالاستنكار «ومن ذا الذى قضى بأن نكون خدما للعرائس؟!» فسألتها أمها وكأنما تطرح

السؤال على نفسها هى «أتفضلين أن تستقل بمطبخها؟ فهتفت خديجة معترضة» لو كان المال مال أبيها لا مال أبى لجاز هذا! ولكنى أعنى أنها يجب أن تعمل معنا» على أنه لما قررت زينب، بعد انقضاء أسبوع على الزواج، أن تحمل بعض الأعباء فى حجرة الفرن لم يرحب قلب خديجة بهذه الخطوة التعاونية ومضت تلاحظ عمل العروس بدقة انتقادية وتقول لأمها: «لم تجىء لتعاونك ولكن لتمارس ما لعلها تدعيه لنفسها من حق»، أو تقول ساخرة «طالما سمعنا عن آل عفت أنهم من الصفوة وأنهم يأكلون مالا يأكل الناس.. فهل وجدت فى طهيها شيئا عجيبا لم نسمع به؟!» بيد أن زينب اقترحت يوما أن تصنع «الشركسية» باعتبارها الصنف الأثير على مائدة أبيها - وهى المرة الأولى لدخول الشركسية فى بيت السيد - فحازت لدى تناولها إعجابا شاملا بلغ أقصاه عند ياسين حتى أن الأم نفسها لم تبرأ من لسعة غيرة، أما خديجة فجن جنونها وجعلت تهزأ بالصنف قائلة «قالوا شركسية قلنا يعيش المعلم يتعلم ولكن ماذا رأينا؟ أرزا وصلصة فى هيئة بوليتيكا، طعمها لا هنا ولا هناك، كالعروس تزف إلى عريسها فى حلة خلابة وحلىّ لألاء حتى إذا نزعت عنها ثياب العرس بدت فتاة عادية من نفس الخلطة المعروفة من قبل أى اللحم والعظم والدم!». ثم ما كاد يمضى على الزواج أسبوعان حتى قالت على مسمع من أمها وكمال إن العروس وإن كانت بيضاء البشرة وذات حظ «معتدل» من الجمال إلا أن دمها ثقيل كالشركسية سواء بسواء، قالت هذا فى نفس الوقت الذى أكبت فيه على استظهار دقائق صنع الشركسية بحذقها المعترف به! على أن ثمة أحاديث صدرت عن زينب بحسن نية - فى الأقل لأن وقت سوء النية لم يئن بعد - فأثارت الخواطر وألقت عليها ظلا من الشك إذ طاب لها كلما تهيأت مناسبة أن تنوِّه بأصلها التركى وإن التزمت الأدب واللطف كما لذ لها أن تروى لهم بعض ما شاهدت من رحلات فى حانطور والدها وبصحبته إلى الملاهى البريئة والحدائق فوقع الحديث كله من نفس الأم موقعًا أدهشها إلى حد الانزعاج. عجيب لتلك الحياة التى تسمع عنها لأول مرة، وأنكرتها، واستنكرت فيما بينها وبين نفسها هذه الحرية الغريبة استنكارا جاوز كل تقدير، إلى أن المباهاة بالأصل التركى - وإن لطِّفت بالأدب والبراءة - ساءتها كثيراً لأنها كانت - على تخشعها وانطوائها - شديدة الاعتزاز بأبيها وبعلها فترى أنها بهما فى مكانة لا تدانى، إلا أنها كظمت ما قام بنفسها فلم تلق زينب منها إلا اهتمام الإصغاء وابتسامة المجاملة، ولولا حرص الأم الشديد على السلام لانفجرت خديجة حنقا ولساءت العاقبة، على أنها نفست عن غيظها بطرق ملتوية ليس من شأنها أن تعكر صفو السلام كتعليقها على أنباء الرحلات مثلا - وهى التى لم يسعها أن تجهر فيها برأيها - بالمبالغة فى إظهار الدهشة، أو بالهتاف وهى تحملق فى وجه محدثتها «يا خبر!»، أو بأن تضرب براحتها على صدرها وهى تقول: «ويراك السابلة وأنت تمشين فى الحديقة!»، أو بقولها: «ما كنت أتصور

إمكان هذا يا ربى!». وغير ذلك من العبارات التى وإن لم تفصح ألفاظها عن إساءة إلا أن لهجتها الممطوطة التمثيلية تضمنت أكثر من معنى كلهجة الزجر التى يصطنعها الأب وهو يتلو القرآن إذا ما أنس من ابنه غير البعيد عنه إخلالا بالنظام أو الأدب وعز عليه لزجره صراحة أن يخرج من الصلاة، لذلك لم تكن تخلو إلى ياسين حتى تبادره مروحة عن غيظها الذى عز عليه المتنفس «يا سلام يا سلام على عروسك النزهية». فيقول لها ضاحكا «هذه هى الموضة التركية التى تسمو على إدراكك!» فتذكرها صفة «التركية» بالمباهاة الثقيلة على قلبها فتقول «على فكرة، ست الدار تباهى كثيراً بأصلها التركى، لماذا؟.. لأن جد جد جد جدها تركى!.. حذار يا أخى فإن خاتمة التركيات الجنون» ولكنه يقول لها مجاريا سخرتها «الجنون أحب إلى من وجه أنفه يجنن ذا الذوق السليم!». تراءى لأعين المتنبئين النقار المتوقع بين خديجة وزينب فى أفق الأسرة فنبهها فهمى إلى ضبط لسانها أن يبلغ الفتاة شىء من هذرها، وأشار محذرا إشارة خفية إلى كمال الذى دأب على التنقل بينهم وبين العروس تنقُّل الفراشة - حاملة اللقاح - بين الأزهار!. ولكن غاب عنه - كما غاب عن الأسرة جميعا - أن القدر كان يعمل من جانبه على الحيلولة بين الفتاتين، إذ زارت البيت حرم المرحوم شوكت وعائشة زيارة لم يحلم أحد من قبل بأن تتوج بالنهاية التى توجت بها، قالت العجوز تخاطب الأم على مسمع من خديجة:

- يا أمينة هانم جئتك اليوم خاصة لأخطب خديجة لابنى إبراهيم..

فرحة بلا تمهيد وإن طال انتظارها حتى شق، فلذلك سجع صوت المرأة فى أذنى الأم سجعا جميلا حتى إنها لم تذكر أن قولا - قبله - بلَّ صدرها بندى الطمأنينة والسلام كما بلَّه فكاد يستخفها الفرح وهى تقول بصوت متهدج:

- ليس لى فى خديجة أكثر مما لك، هى ابنتك ولتجدن فى حِماك أضعاف ما تجد فى بيت أبيها من السعادة..

استرسل الحديث السعيد إلا أن خديجة جعلت تغيب عنه فيما يشبه الذهول، خفضت عينها فى حياء وارتباك وقد زايلها روح السخرية التى طالما توهجت فى حدقتها، فشملتها وداعة غير معهودة ثم جرت مع تيار خواطرها، جاء الطلب مفاجأة، فكما بدا عسيرا فى غيابه بدا غير مصدق فى حدوثه حتى لقد غشيت فرحتها موجة ثقيلة من الذهول.. «لأخطب خديجة لابنى إبراهيم».. ماذا دهاه؟.. إنه على خموله الذى أثار هزءها حسن المحيا وجيه فى الرجال، فماذا دهاه؟!

- ومن حسن الطالع أن يجمع بين الأختين فى بيت واحد.

صوت حرم المرحوم شوكت يؤكد الحقيقة ويزكى وجوهها.. ليس ثمة شك..

إبراهيم مثل خليل مالاً وجاها فأى حظ ادخرته لها الأقدار، لشد من أسفت على أن عائشة سبقتها إلى الزواج إذ لم تكن تدرى أن زواج عائشة هو الذى قدر له أن يفتح لها أبواب الحظ المغلقة.

- ما أجمل أن تكون السلفة هى الشقيقة فيزول سبب جوهرى من أسباب وجع الدماغ فى الأسر (ثم ضاحكة) فلا تبقى إلا حماتها وأظن أمرها هينا!

- إن تكن سلفتها هى شقيقتها فحماتها هى أمها بلا نقصان.

لم تزل الأمَّان تتجاملان. لقد أحبت العجوز وهى تزف إليها البشرى بقدر ما أبغضتها يوم خطبت عائشة!. يجب أن تعلم مريم بالخبر اليوم، لا تطيق أن تؤجله إلى الغد، لا تدرى ما الدافع إلى هذه الرغبة الملحة، لعله قول مريم لها غداة خطبت عائشة «ماذا كان عليهم لو أنهم انتظروا حتى تتم خطبتك أنت؟!» فأغراها وقتذاك سوء ظنها المطبوع باتهام براءته الظاهرة. ولما انصرفت أسرة شوكت قال ياسين بقصد التحرش والدعابة:

- الحق أنى مذ رأيت إبراهيم شوكت قلت لنفسى ما أجدر هذا الرجل الثور الذى لا يبدو أنه يفرق بين الأبيض والأسود أن يقع اختياره يوما على زوجة مثل خديجة:

فابتسمت خديجة ابتسامة خفيفة ولم تنبس بكلمة فهتف بدهشة:

- هل عرفت الأدب والحياء أخيرًا!

بيد أن وجهه نطق وهو يمازحها بالرضا والغبطة فلم يعكر صفوها إلا حين تساءل كمال فى قلق:

- أتتركنا خديجة أيضا؟

فقالت الأم تعزيه وتعزى نفسها:

- ليست السكرية ببعيدة.

على أن كمال لم يستطع أن يدلى بما عنده فى حرية كاملة إلا حين انفرد بأمه ليلا فتربع قبالتها على الكنبة وسألها بصوت ينم عن الاحتجاج واللوم:

- ماذا جرى لعقلك يانينة؟.. أتفرطين فى خديجة كما فرطت فى عائشة؟

فأفهمته أنها لم تفرط فيهما ولكنها ترضى بما يسعدهما.

فقال محذرا كأنما ينبهها إلى شىء فاتها ويوشك أن يفوتها مرة أخرى:

- ستذهب هى الأخرى، ربما ظننت أنها ستعود كما ظننت بعائشة، ولكنها لن تعود، وستزورك إذا زارتك كالضيفة فما أن تشرب القهوة حتى تقول لك السلام عليكم، إنى أقولها فى صراحة إنها لن تعود.

ثم محذرا وواعظا فى آن:

ـ ستجدين نفسك وحدك بلا رفيق، من يعينك على الكنس والتنفيض؟ . . من يعينك في حجرة الفرن؟ من يجالسنا فى جلسة المساء؟ . . من يضحكنا؟ . . لن تجدى إلا أم حنفى التى سيخلو لها الميدان لسرقة طعامنا كله .

فأهمته مرة أخرى أن فى الزواج سعادة؟! . . أؤكد لك أنه لا سعادة مطلقا فى الزواج . كيف يحظى أحد بالسعادة بعيداً عن نينة؟

ومردفا بحماس :

ـ ثم إنها لا ترغب فى الزواج كما لم ترغب فيه عائشة من قبل . . لقد صارحتنى بذلك ذات ليلة فى فراشها!

ولكنها قالت له إنه لابد للفتاة من أن تتزوج ، فلم يتمالك من أن يقول :

ـ من قال بأنه لابد للفتاة من أن تذهب إلى بيوت الغرباء! . . ثم ماذا تفعلين لو أجلسها الآخر على الشيزلنج وتناول ذقنها هى الأخرى و . .

عند ذاك زجرته وأمرته بألا يتكلم فيما لا يعنيه فضرب كفا بكف وهو يقول منذرا :

ـ أنت حرة . . وسترين! .

فى تلك الليلة لم يغمض لأمينة من يقظة الفرح جفن كأنها السماء المقمرة لا تغشاها الظلماء ، فظلت مستيقظة حتى جاء السيد بعد منتصف الليل ، ثم زفت إليه البشرى فتلقاها بغبطة أطارت عن رأسه الخمار بالرغم مما فى هذا الرأس من نظريات غريبة عن زواج البنات ، إلا أنه تجهم بغتة متسائلا :

ـ هل أتيح لإبراهيم أن يراها؟!

ساءلت المرأة نفسها ألا يمكن أن يدوم ابتهاجه ـ ونادرا ما يعلنه ـ أكثر من نصف دقيقة؟ . . وتمتمت فى قلق :

ـ أمــه . .

فقاطعها محتدا :

ـ هل أتيح لإبراهيم أن يراها؟!

فقالت وقد ولى عنها السرور لأول مرة فى تلك الليلة :

ـ دخل علينا مرة فى شقة عائشة باعتباره فرداً من الأسرة فلم أر فى ذلك من بأس .

فتساءل مزمجرا :

ـ ولكنى لم أعلم بذلك .

كل شىء ينذر بالشر ، ترى هل يهوى على مستقبل الفتاة بضربة قاضية؟ . . على رغمها اغرورقت عيناها بالدمع وما تدرى إلا وهى تقول مستهينة بغضبته المكفهرة :

ـ سيدى، حياة خديجة وديعة بين يديك، هيهات أن يبتسم لها الحظ مرتين.

فرماها بنظرة قاسية وراح يهدر مدمدمًا مهينما مهمهما كأنما رده الغضب إلى حالة من حالات التعبير بالأصوات التى مر بها أسلافه الأولون، ولكنه لم يزد على ذاك شيئا، لعله أضمر الموافقة من أول الأمر ولكنه أبى أن يسلم بها قبل أن يسجل سخطه ـ كالسياسى الذى يهاجم خصمه وإن اقتنع بالغاية التى يستهدفها ـ ذودًا عن مبادئه.

٤٦

مضى شهر العسل وياسين متفرغ بكليته لحياته الزوجية الجديدة، لا يصرفه عنها عمل فى النهار حيث وافق زواجه أواسط العطلة الصيفية، ولا سهر بالليل خارج البيت لأنه لم يكن يغادره إلا للضرورة القصوى كابتياع زجاجة كونياك مثلا، وفيما عدا هذا لم يجد لنفسه عملا أو معنى أو صفة خارج نطاق الزوجية فاندلق عليها بقوة وحماس وتفاؤل خليقة برجل ظن أنه ينفذ الخطوات الأولى فى برنامج ضخم من المتعة الجسدية سيمتد يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر وعاما بعد عام. ولكنه أدرك فى الثلث الأخير من الشهر أن تفاؤله لابد أن يكون مبالغا فيه على نحو ما أو أن خللا لا يدرى كنهه قد طرأ على حياته. كان يعانى فى حيرة بالغة ولأول مرة فى حياته ذاك المرض المتوطن فى نفس الإنسان الملل. لم يعرفه من قبل عند زنوبة ولا حتى عند بائعة الدوم لأنه لم يملك هذه أو تلك كما يملك زينب الآن بيمينه ويحوزها تحت سقف بيته، فأى فتور يتبخر من تلك «الملكية» الآمنة المطمئنة. . الملكية ذات الظاهر الخلاب المغرى لدرجة الموت والباطن الرزين الثقيل لحد اللامبالاة أو التقزز كأنها الشيكولاتة المزيفة التى تهدى فى أول إبريل بقشرة من الحلو وحشو من الثوم. وأى مأساة فى أن تندمج نشوة القلب والجسد فى آلية العادة المنظمة العاقلة الباردة المتكررة القاتلة للشعور والجدة كأنها رؤية روحانية رفيقة تجسدت فى صلاة لفظية ترددها الذاكرة بلا وعى! . . وراح الفتى يتساءل عما دهى ثورته، عما هدى شياطينه»، عن ذاك الشبع وأين جاء، عن تلك الفتنة أين ذهبت، أين ياسين وأين زينب، أين الأحلام، أهذا شأن الزواج أم شأنه هو، وكيف إذا تتابعت الشهور فى أعقاب الشهور! ليس أنه لم يعد له رغبة فيها، ولكنها لم تعد رغبة الصائم فى لذيذ المأكل، هاله أن يدركها الهدوء حيث انتظر لها الازدهار، وضاعف من حيرته أنه لم يبد على الفتاة عارض من عوارض رد الفعل أو بالأحرى أنها تزيد حيويةورغبة فحينما يظن أن النوم بات واجبا بعد طول التعب لا يدرى إلا وساقها تطرح على ساقه كأنما طرحت عفوا حتى قال لنفسه «يا عجبا. . أحلامى عن الزواج تحققت عندها هى!». إلى هذا كله وجد فى

عنفها نوعا من الاحتشام وإن طاب له أول الأمر أنه جعله يهيم آخرا فى وديان الذكريات التى ظن أنه ودعها إلى الأبد، طغت على رأسه من الأعماق «زنوبة» وأخريات كما تطفو ودائع البحر عند هدوء العاصفة لا لشر يبيت فالحق أنه مرق إلى عش الزوجية عامر القلب بالنية الحسنة، ولكن للموازنة والمقارنة والتأمل، وليقتنع أخيرا أن «العروس» ليست المفتاح السحرى لدنيا المرأة، ليس يدرى كيف يخلص حقا للنوايا الحسنة التى فرش بها طريق الزواج، يبدو جانب ـ على الأقل ـ من أحلامه الساذجة عسير التحقيق وهو ظنه بأنه سيستغنى بأحضان زوجه عن العالم الخارجى، وأنه سيلبد بكنفها العمر كله، ذاك حلم من أحلام الشهوة فى سذاجتها، وسيجد من الآن فصاعدا أن الانقطاع عن عالمه وعاداته مما يشق عليه وليس ثمة ضرورة تدعو إليه، وأنه ينبغى أن يتلمس وسيلة أو أخرى ـ الوقت بعد الوقت ـ ليحسن الهرب من نفسه وأفكاره وخيبته، حتى المغنى المجيد إذا طال فى تقاسيم الليالى انبعث فى نفس السامع الشوق إلى الدخول فى الدور، ثم إنه فى الانطلاق من محبسه فرصة للاختلاط بالأصحاب المتزوجين لعله يظفر عندهم بأجوبة مسكنة للأسئلة الحيرى التى تلح عليه، ولن يتأتى له من وراء ذلك الدواء الشافى لكل داء؟! وكيف يؤمن من بعد اليوم بوجود دواء شاف لكل داء؟! يحسن به من الآن ألا يرسم برامج بعيدة المدى، لا تلبث أن تنهار ساخرة من قدرته على التخيل. ليقنع من تنسيق حياته بالخطوة تلو الخطوة حتى يرى أين يرسو، وليبدأ بتنفيذ اقتراحه هى ـ زوجه ـ عليه بأن يخرجا معا.

ما تدرى الأسرة ذات مساء إلا وياسين وزوجه يغادران البيت من دون أن يطلعا أحدا على مقصدهما بالرغم من أنهما قضيا معهم سهرة المساء. بدا الخروج بالنظر إلى وقته المتأخر من ناحية وإلى وقوعه فى بيت السيد من ناحية أخرى حادثا غريبا أثار شتى الظنون فما عتمت خديجة أن استدعت نور جارية العروس وسألتها عما تعلم عن خروج سيدتها فأجابت الجارية بصوتها الرنان فى بساطة متناهية:

ـ ذهبا يا ستى إلى كشكش بك.

فهتفت خديجة وأمها فى نفس واحد:

ـ كشكش بك!

ليس الأسم غريبا عليهم، اقتحم ذكره الدور وتغنى بأغانيه كل من هب ودب ولكنه على ذلك يبدو بعيدا كأبطال الخرافات أو كزبلن أبليس السماء. أن يذهب ياسين بزوجه إليه أمر مختلف جدا ليس دونه أن يقال ذهبا إلى محكمة الجنايات. رددت الأم عينيها بين خديجة وفهمى وتساءلت فيما يشبه الخوف:

ـ متى يعودان..

فأجابها فهمى وابتسامة لا معنى لها تفغم على شفتيه:

ـ بعد منتصف الليل، وربما قبيل الفجر .

صرفت الأم الجارية وانتظرت حتى غاب وقع أقدامها ثم قالت فى لهوجة وانفعال :

ـ ماذا دهى ياسين؟ ! كان جالسا بيننا فى كامل عقله . . ألم يعد يعمل حسابا لأبيه؟ . .

فقالت خديجة فى حنق :

ـ ياسين أعقل من أن يدير رحلة كهذه، ليس قلة العقل عيبه ولكن به خنوع لا يليق بالرجال، أقطع ذراعى إن لم تكن هى حرضته .

فقال فهمى مدفوعا برغبة فى تلطيف الجو المتوتر وإن نفر بطبعه الموروث من جرأة أخيه :

ـ ياسين ذو ميل قديم إلى الملاهى .

فضاعف دفاعه من حنق خديجة التى اندفعت قائلة :

ـ لسنا بصدد الحديث عن ياسين وميوله، له أن يحب الملاهى كما يحلو له، أو أن يواصل السهر فى الخارج حتى مطلع الفجر كلما شاء، ولكن اصطحاب زوجه المصون معه فكرة لا يمكن أن تصدر عن ذاته فلعلها جاءته عن إيحاء عجز عن مقاومته خصوصا وأنه يبدو مستكينا بين يديها كالقطة الأليفة، ثم إنها فيما أرى لا تتورع عن رغبة كهذه. ألم تسمعها وهى تروى قصص الرحلات التى شاهدتها بصحبة والدها؟ ! لولا ايحاؤها ما أخذها معه إلى كشكش بك ـ ياللفضيحة ! ـ فى هذه الأيام التى ينجحر فيها الرجال فى البيوت كالفيران رعبا من الأستراليين .

لم يقف التعليق على الحادث عند حد لما أثاره فى النفوس ـ سواء المهاجمة أو المدافعة أو المحايدة ـ من امتعاض، كمال وحده تابع النقاش المحتدم فى صمت يقظ من دون أن يفطن إلى السرّ الذى جعل من كشكش بك جريمة نكراء استوجبت ذلك النقاش كله وذاك الكرب كلّه، أليس كشكش هذا صاحب التمثال الصغير الذى يباع فى الأسواق بجسم متوثّب فى دعابة ووجه ضاحك ذى لحية عريضة وجبّة فضفاضة وعمامة مقلوظة؟ أليس هو من تُنسب إليه الأغانى المرحة التى استظهر بعضًا منها ينشده مع صديقه فؤاد بن جميل الحمزاوى وكيل أبيه؟ فبأىّ شرّ يتهمون هذه الشخصية اللطيفة التى ارتبطت فى خياله بالفكاهة والمرح؟ . .

لعلّ مصدر هذا الكدر إلى اصطحاب ياسين لزوجه لا لكشكش بك نفسه، فإن كان ذلك كذلك فهو يتفق معهم فى الانزعاج من جرأة ياسين خصوصًا وأن زيارة أمّه للحسين وما أعقبها من أحداث لا يمكن أن تبرح مخيلته، أجل كان الأجدر بياسين أن يذهب وحده أو أن يأخذه «هو» إن كان يريد رفيقا لا سيما وأنه فى عطلة الصيف فضلا عن نجاحه المتوفق فى المدرسة، وما يدرى إلا وهو يقول متأثرا بأفكاره :

ـ ألم يكن من الأفضل أن يأخذنى أنا . . ؟!

اندس تساؤله فى الحديث كما تندس نغمة غريبة مقتبسة فى لحن شرقى صميم، فقالت خديجة :

ـ من الآن فصاعدا يحق علينا أن نعذرك فى قلة عقلك . . !

فندت عن فهمى ضحكة قائلا :

ـ ابن الـوز عـوام . .

بيد أن المثل رن فى أذنيه رنينا جافيا وكد أثره السيئ تحديق أمه وأخته خديجة فى عينيه باستغراب فانتبه إلى خطئه غير المقصود وتداركه قائلا وقد دخله امتعاض وخجل :

ـ أخو الوز عوام! . . هذا ما قصدت أقوله . .

دل الحديث فى جملته على تحامل خديجة على زينب من ناحية، وخوف الأم من العواقب من ناحية أخرى، بيد أن أمينة لم تعلن ما فى نفسها كله . فى تلك الليلة عرفت فى نفسها أمورا لم تكن تعرفها من قبل . أجل كثيرا ما وجدت نحو زينب إنكارا وضيقا ولكنه لم يبلغ أن يكون نفوراً أو كراهية فعزته إلى خيلاء الفتاة بداع وبغير داع، ولكن هالها اليوم أن تخرق الآداب والتقاليد، وأن تحل لنفسها ما لا يحلّ ـ فى نظرها هى ـ إلاّ للرجال، عابت هذا السلوك بعين امرأة قضت عمرها حبيسة وراء الجدران، امرأة دفعت صحتها وسلامتها ثمناً لزيارة بريئة لزين آل البيت لا لكشكش بك، فمازج انتقادها الصامت شعور طافح بالمرارة والغيظ كأنَّ منطقها غدا يردّد فيما بينها وبين نفسها «وإمّا أن تنال الأخرى الجزاء أو فلتذهب الحياة هباء» . هذا تلوّث بالحنق والموجدة ـ فى الشهر الأول من معاشرته لامرأة جديدة ـ القلب الطاهر الورع الذى لم يعرف طول حياته المحفوفة بالجدّ والصرامة والتعب إلاّ الطاعة والعفو والصفاء . ولمّا آوت إلى حجرتها لم تدر إن كانت تودّ ـ كما دعت بلسانها أمام أبنائها ـ أن يستر الله على «جناية» ياسين أم أنّها ترجو أن ينال أو بالأحرى أن تنال زوجه جزاءها من الزجر والتأنيب؟، بدت تلك الليلة وكأنها لا يعنيها من أمر الدنيا جميعا إلا أن تصان تقاليد الأسرة من كل عبث وأن يدفع عنها ما يتحرش بها من عدوان، بدت غيورا على الآداب إلى حد القسوة فطمرت عواطفها الرقيقة المألوفة فى الأعماق باسم الإخلاص والفضيلة والدين متعللة بها فراراً من ضميرها المتألم كالحلم الذى ينفس عن غرائز مكبوتة باسم الحرية أو غيرها من المبادئ السامية . جاء السيد وهى على تلك الحال من التصميم إلا أن منظره بث الخوف فى حناياها فانعقد لسانها، راحت تتابع حديثه وتجيب عن أسئلته بذهن شارد وفؤاد خافق لا تدرى كيف تنفس عما احتدم بخاطرها، وكلما مر الوقت واقترب ميعاد النوم ألحت عليها رغبة عصبية فى الكلام، كم ودت لو تتكشف الحقيقة بنفسها كأن يجىء ياسين

وزوجه مثلا قبل إخلاد أبيه إلى النوم فيتنبه السيد بنفسه إلى فعلته النكراء فيجبه العروس الرعناء برأيه فى سلوكها بغير تدخل منها هى ـ الأم ـ لا شك أنه يحزنها بقدر ما يريحها . . انتظرت طويلا فى لهفة وقلق أن يطرق الباب الكبير ، انتظرت دقيقة بعد أخرى حتى تثاءب السيد وقال بصوت متراخ :

ـ أطفئى المصباح . .

حاقت بها الهزيمة فانحلت عقدة لسانها فقالت بصوت خافت مضطرب كأنها تناجى نفسها :

ـ تأخر الوقت ولما يعد ياسين وزوجه!

فحملق السيد فى وجهها وتساءل فى عجب :

ـ وزوجه؟ . . أين ذهبا؟

ازدردت المرأة ريقها وقد ركبها الخوف ، من السيد ومن نفسها معا ، ولكن لم تجد بدا من أن تقول :

ـ سمعت الجارية تقول إنهما ذهبا إلى كشكش بك!

ـ كشكش!

عزف الصوت عاليا فى شراسة وتطاير الشرر من العينين اللتين ألهبهما الكحول ، وراح يطرح عليها السؤال تلو السؤال مزمجرا مدمدما حتى طار النوم عن رأسه فأبى أن يزايل مجلسه حتى يعود «الضالان» فانتظر وهو يغلى من الحنق ، ولما كان غضبه ينعكس على نفسها رعبا فقد ارتعبت كما لو كانت هى المذنبة ، ثم غصت بالندم على ما بدر منها ، ندم عاجلها مبادرا عقب البوح بسرها مباشرة كأنها لم تبح إلا كى تندم ، فلم تكن تبخل بغال مهما غلا ساعتئذ لو تستطيع أن تصلح خطأها ، وقست على نفسها بلا تحفظ فاتهمتها بالوقيعة والشر ، ألم يكن الأجدر بها أن تتستر عليهما على أن تنبههما إلى خطئهما غدا إن كانت تريد الإصلاح حقا لا الانتقام؟ . . ولكنها أذعنت لعاطفة شريرة ، عن عمد وسوء نية ، فهيأت للفتى وعروسه نكدا لم يدر لهما بخلد وجرت على نفسها ندما بات يحرق نفسها المعذبة حرقا بلا رحمة ، وراحت تدعو الله ـ خجلى من ذكره ـ أن يلطف بهم جميعا ، مضى الوقت تقرع دقائقه قلبها بالألم حتى انتبهت على صوت السيد وهو يقول متهكما بمرارة :

ـ جاء سى كشكش . .

فأرهفت السمع وهى تتطلع بناظريها إلى النافذة المفتوحة المطلة على الفناء فترامى إليها صرير الباب الكبير وهو يغلق ، وقام السيد وغادر الحجرة فقامت بطريقة آلية ولكنها تسمرت فى مكانها جبنا وخزيا وضربات قلبها تتدافع حتى سمعت صوته الجهير وهو

يخاطب القادمين قائلا : «اتبعانى إلى حجرتى» ، فتناهى بها الخوف فتسللك من الحجرة هاربة . . عاد السيد إلى مجلسه يتبعه على الأثر ياسين وزينب ، فحدج الفتاة بنظرة عميقة متجاهلا ياسين ثم قال بحزم وإن نقى نبراته من الغلظة والجفاء :

- أصغى إلىَّ يا بنية جيدا ، أبوك أخى أو أوثق صلة ومودة ، فأنت ابنتى كخديجة وعائشة على السواء ، ما قصدت أبدا أن أكدر صفوك ولكن ثمة أمور أعد السكوت عنها جريمة لا تغتفر ، من ذلك أن تبقى فتاة مثلك خارج بيتها حتى هذه الساعة من الليل ، لا تحسبى أن فى وجود زوجك معك عذراً عن هذا السلوك الشاذ فإن الزوج الذى يستهين بكرامته على هذا النحو غير خليق بأن يقيل من العثرات التى هو للأسف أول دافع إليها ، ولما كنت على يقين من براءتك أو بالأحرى من أنه لا ذنب لك إلا أنك جاريته على هواه فرجائى إليك أن تعاوننى على إصلاح أمره بألا تستسلمى إلى غواياته مرة أخرى .

وجمت الفتاة واستحوذ عليها الذهول ، وعلى أنها كانت تحظى فى كنف أبيها بقسط من الحرية إلا أنها لم تجد فى نفسها شجاعة على مناقشة الرجل بله معارضته ، كأن إقامتها فى بيته شهرا أعدت شخصيتها بعدوى الخضوع لإرادته التى يفرق حيالها كل حى فى البيت . احتج باطنها بأن أباها نفسه استساغ أكثر من مرة أن يصطحبها إلى السينما ، وأنه لا يحق له منعها من شىء سمح به زوجها ، إلى اقتناعها بأنها لم تخرق أدبا أو تهتك حرمة ، قال باطنها هذا وأكثر بيد أنها لم تستطع أن تنطق بكلمة واحدة حيال عينيه الملتزمتين بالطاعة والاحترام وأنفه الكبير الذى بدا - وهو يرفع رأسه - كأنه مسدس مصوب نحوها ، فانكتم حديثها الباطنى تحت مظهر من الرضى والأدب كما تنكتم الأمواج الصوتية فى جهاز الاستقبال بالمذياع بإغلاق مفتاحه ، ثم ما تدرى إلا وهو يسألها وكأنه يتمادى فى تحديه لها :

- ألك اعتراض على قولى؟

فهزت رأسها بالنفى ورسمت شفتاها حرف «لا» دون أن تنطق به فقال لها :

- اتفقنا . تفضلى إلى حجرتك بسلام . .

غادرت الحجرة شاحبة الوجه فالتفت السيد صوب ياسين الذى أخفى عينيه فى الأرض ، ثم قال وهو يهز رأسه فى أسف شديد :

- الأمر جد خطير ولكن ما حيلتى؟! . . لم تعد طفلا وإلا كسرت رأسك ، ولكنك وا أسفاه رجل وموظف وزوج أيضا وإن كنت لا تتورع عن العبث برباط الزوجية ، فما عسى أن أصنع بك؟ أهذه نهاية تربيتى لك؟ . . (ثم بصوت أذهب فى التأسف) . . ماذا دهاك؟ . . أين الرجولة؟ . . أين الكرام؟ . . يعز علىَّ والله أن أصدق ما وقع .

لم يرفع ياسين رأسه ولم يتكلم فظن صمته خوفا وشعورا بالخطأ ـ إذ لم يتصور أن يكون ما به سكر ـ ولكنه لم يجد فى ذلك عزاء، بدا الخطأ أفظع من أن يترك بلا علاج حاسم، فإذا لم يكن من سبيل إلى العلاج القديم ـ العصا ـ فلا أقل من الحزم وإلا انتثر سلك الأسرة جميعا، قال:

ـ ألم تعلم بأنى أحرم على زوجى الخروج ولو لزيارة الحسين؟ كيف إذن سوّلت لك نفسك أن تأخذ زوجك إلى ملهى داعر لتسهر فيه إلى ما بعد منتصف الليل؟!.. يا أحمق أنت تدفع بنفسك وبزوجك إلى الهاوية فأى شيطان ركبك؟

وجد ياسين فى الصمت آمن ملاذ أن تفضحه نبراته أو أن يسترسل فى الحديث بطلاقة مريبة تنم فى النهاية على سكره، لا سيما وأن خياله أصر على التسلل ـ هازئا بالموقف الخطير ـ من الحجرة فانطلق إلى آفاق بعيدة بدت لرأسه الثمل راقصة تارة ومترنحة أخرى، ولم يستطع صوت أبيه على ما ابتعث فى نفسه من الرهبة أن يسكت الأنغام التى غناها المهرجون فى المسرح فكانت تثب إلى ذهنه ـ على رغمه ـ بين لحظة وأخرى كالأشباح فى ليل المرعوب هامسة:

أبيع هدومى عشان بوسة من خدك القشدة يا ملبن

يا حلوة زى البسبوسة يا مهلبية كمان واحسن

تغيب تحت تأثير الخوف ثم تطفر راجعة، ولكن أباه ضاق بالصمت فصاح به غاضبا:

ـ انطق حدثنى عن رأيك فإنى مصمم على ألا يمر الحادث بسلام!..

خاف عاقبة الصمت فخرج عنه متهيبا مضطربا ثم قال وهو يبذل قصارى جهده ليتمالك نفسه:

ـ كان والدها يعاملها بشىء من التسامح.. (ثم متعجلا) ولكنى أقر بأنى أخطأت..

فصاح السيد مغضبا ومتجاهلا الجملة الأخيرة:

ـ لم تعد فى بيت أبيها، عليها أن تحترم آداب الأسرة التى صارت عضوا فيها، أنت زوجها وسيدها وبيدك وحدك أن تصورها فى أى صورة تشاء، خبرنى عن المسئول عن ذهابها معك أنت أم هى؟

شعر على سكره بالفخ المنصوب له ولكن الخوف دفعه إلى التوارى فغمغم:

ـ لما علمت بنيتى فى الخروج وتوسلت إلىّ أن أصطحبها..

فضرب السيد كفا بكف وهو يقول:

ـ أى رجل فى الرجال أنت؟.. كان الجواب الخليق بها لطمة!.. إنه لا يفسد النساء إلا الرجال وليس كل الرجال جديرا بالقيام على النساء..

ـ وتذهب بها إلى مكان ترقص فيه النساء نصف عرايا . . ؟

تخايلت لعينيه الصور التى أفسدها تعرُّض أبيه له على رأس السلم وعادت الأنغام تتجاوب فى رأسه «أبيع هدومى . . » ولكن ما يدرى إلا والرجل يقول له متوعدا :

ـ لهذا البيت قانون أنت تعرفه فوطِّن نفسك على احترامه ما رغبت فى البقاء فيه . .

٤٧

قامت عائشة بتزيين خديجة خير قيام بمهمة لا تجارى ومهارة فائقة كأن التزيين خير مهمة تؤديها فى الحياة على أكمل الوجوه، فبدت خديجة عروسا حقا تأخذ أهبتها للانتقال إلى بيت العريس وإن ادعت ـ جريا على عادتها فى التقليل من شأن الخدمات التى يؤديها لها الغير ـ أن أكبر الفضل فى إظهارها بالمظهر اللائق إنما يعود إلى سمانتها هى قبل كل شىء! على أن «جمالها» لم يعد مثار وساوسها مذ طلب يدها رجل اتفق له أن رآها بعينيه، بيد أن جميع مظاهر السعادة التى أحاطت بها لم تستطع أن تمحو من نفسها خفقات الحنين الذى دب فى أعماقها لوشك البين، حنين خليق بفتاة مثلها لم يخفق قلبها بحب شىء فى الوجود كحبها لآلها وبيتها جميعا من الوالدين المعبودين إلى الدجاج واللبلاب والياسمين، حتى الزواج نفسه الذى طالما تحرقت فى انتظاره بجزع الملهوف لم يكن ليهون عليها مرارة الفراق، من قبل أن تطلب يدها بدت كاللاهية عن حب البيت وإعزازه، وربما غلب عليها الضجر فى مضطرب الحياة فوارى عواطفها العميقة الصادقة لأن الحب كالصحة، يهون فى الوصال ويعز عند الفراق، فلما أن اطمأنت على مستقبلها أبى قلبها أن ينتقل من حياة إلى حياة دون جزع شديد كأنما يكفر عن إثم أو يضن بغال، تطلع كمال إليها صامتا، لم يعد يتساءل هل تعودين، بعد أن عرف أن التى تتزوج لا تعود إلا أنه خاطب شقيقتيه مغمغما (سوف أزوركما كثيرا عقب الخروج من المدرسة) فرحبتا به معا بيد أنه لم تعد تغرر به الآمال الكاذبة، كثيراً ما زار عائشة فلم يظفر بعائشته القديمة. يجد مكانها أخرى متبرجة تلقاه بتودد بالغ يشعره بالغربة ثم لا يكاد يخلو إليها حتى يدركهما زوجها الذى لا يغادر البيت قانعا من ألوان التسلية بسجائره وغليونه وعود يعبث بأوتاره بين حين وآخر، لن تكون خديجة خيرا من عائشة، فليس من رفيق فى البيت إلا زينب، وهى لا تتودد إليه كما يحب إلا بمشهد من أمه كأنما تتودد إليها هى فإذا غابت الأم تجاهلته كأنه لا يكون! ومع أن زينب لم تشعر بأنها ستفقد عزيزاً بذهاب خديجة إلا أنها استنكرت الجو الرزين الصامت الذى يغشى يوم الزفاف، فتعللت بذلك

لتفصح عما تكنه لروح السيد المسيطرة من حنق وغيظ فراحت تقول متهكمة «ما رأينا بيتا يحرم فيه الحلال كبيتكم هذا. . حكم!» غير أنها لم تشأ أن تودع خديجة من غير كلمة مجاملة فنوَّهت كثيراً بمقدرتها، وأنها «ست بيت» خليقة بأن يهنَّأ عليها بعلها، فأمَّنت عائشة على قولها وأردفت قائلة:

ـ لا عيب فيها إلا لسانها!. . ألم تجربيه يا زينب؟. .

فما تمالكت أن ضحكت قائلة:

ـ لم أجربه والحمد لله ولكنى سمعته وغيرى يجرِّبه.

وتعالى الضحك، وخديجة أولى الضاحكات، حتى رأين الأم ترهف السمع بغتة هاتفة «هس» فأمسكن مرة واحدة، فترامى إليهن صوات من الخارج فصاحت خديجة من فورها منزعجة:

ـ مات السيد رضوان!

كانت مريم وأمها قد اعتذرتا عن عدم شهود الزفاف لاشتداد المرض على السيد محمد رضوان فلم يكن غريبا أن تستدل خديجة بالصوات على موت الرجل، وغادرت الأم الحجرة مهرولة فغابت دقائق ثم عادت وهى تقول بأسف شديد:

ـ مات الشيخ محمد رضوان حقا. . يا له من موقف حرج!

فقالت زينب:

ـ عذرنا واضح كالشمس، لم يعد فى وسعنا تأجيل الزفاف أو منع العريس من الاحتفال بليلته فى بيته وهو بحمد الله بعيد، أما أنتم فهل تطالبون بأعمق من هذا الصمت البليغ؟!

لكن خديجة شردت فى خواطر أخرى انقبض لها قلبها خوفا فتطيرت من النبأ المحزن وغمغمت كأنها تخاطب نفسها:

ـ يا لطيف يارب. .

فقرأت الأم أفكارها فانقبض صدرها بدورها ولكنها أبت أن تستكين لهذا الشعور الطارئ أو أن ابنتها تستكين له فقالت باستهانة متصنعة:

ـ لا شأن لنا بقضاء الله فالحياة والموت بيده، والتشاؤم من عند الشيطان. .

انضم ياسين وفهمى إلى المجتمعات بحجرة العروس بعد أن فرغا من ارتداء ملابسهما فأخبرا الأم بأن السيد ناب عن الأسرة ـ بالنظر إلى ضيق الوقت ـ فى تقديم واجب العزاء إلى آل السيد رضوان، ثم حدج ياسين إلى خديجة وقال ضاحكا:

ـ أبى السيد رضوان أن يبقى فى الدنيا بعد رحيلك عن جواره. .

فردت عليه بابتسامة شاحبة غاب عنه ما وراءها فمضى يتفحصها بعناية وهو يهز رأسه متظاهرا بالرضى ثم قال متنهدا :

ـ صدق من قال «لبِّس البوصة تبقى عروسة» . .

فقطبت معلنة عدم استعدادها لمجاراته ثم نهرته قائلة :

ـ اسكت ، إنى متطيرة من موت السيد رضوان فى يوم زفافى .

فقال ضاحكا :

ـ لا أدرى أيكما جنى على صاحبه؟

ثم وهو يواصل الضحك :

ـ لا خوف عليك من موت الرجل ، لا تشغلى فكرك به ، ولكنى أخاف عليك من لسانك فهو الأحق بأن تتطيرى منه ، ونصيحتى التى لا أَمَلّ ترديدها أن تنقيه فى شراب مشبع بالسكر حتى يحلو ويصلح لمخاطبة العريس . .

عند ذلك قال فهمى متلطفا :

ـ مهما يكن من أمر السيد رضوان فيوم زفافك لم يخل من بركة طال انتظار الأرض لها : ألم تعلمى أن الهدنة قد أعلنت؟

فهتف ياسين :

ـ كدت أنسى هذا! ليس زفافك المعجزة الوحيدة فى يومنا هذا . حصل ما لم يحصل منذ أعوام فانتهت الحرب وسلَّم غليوم .

فتساءلت الأم :

ـ هل يذهب الغلاء والأستراليون؟!

فقال ياسين ضاحكا :

ـ طبعا . . طبعا . . الغلاء والأستراليون ولسان خديجة هانم .

لاح التفكير فى عينى فهمى ، ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :

ـ غلب الألمان! . . من كان يتصور هذا؟! . . لا أمل بعد اليوم فى أن يعود عباس أو محمد فريد ، كذلك آمال الخلافة قد ضاعت ، لا يزال نجم الإنجليز فى صعود ونجمنا فى أفول فله الأمر . .

فقال ياسين :

ـ اثنان كسبا الحرب هما الإنجليز والسلطان فؤاد ، فلا أولئك كانوا يحلمون بالقضاء على الألمان ولا هذا كان يحلم بالعرش . .

وسكت لحظة ثم استطرد ضاحكا :

ـ وثالث لا يقل حظه عن السابقين هو عروستنا التى ما كانت تحلم بالعريس . .

فرمته خديجة بنظرة وعيد وقالت :

ـ تأبى أن أغادر البيت من غير أن ألدغك . .

فتراجع وهو يقول :

ـ من الخير أن أطلب الهدنة فلست أعظم شأنا من غليوم أو هندنبرج . .

ثم نظر إلى فهمى الذى لاح فى وجهه التفكير بحال لا يتفق مع المناسبة السعيدة فقال له :

ـ اطرح السياسة وراء ظهرك وتهيأ للطرب ولذيذ المآكل والمشارب . .

ومع أن خديجة تناوبتها أفكار كثيرة وخطرت على قلبها أحلام وأحلام إلا أن ذكرى قريبة ـ من ذكريات الصباح فحسب ـ ألحَّت عليها من شدة تأثرها بها حتى كادت تحجب غيرها من الشجون ، تلك دعوة أبيها لها على انفراد لمناسبة اليوم الذى يعد مبدأ حياة جديدة فى حياتها ، قابلها بلطف ورحمة كانا بلسما شافيا من وعكة الحياء والرهبة التى اعترتها حتى تعثرت فى مشيتها ، ثم قال لها برقة وقعت من نفسها موقعا غريبا لا عهد لها به .

ـ ربنا يسدد خطاك ويهيىء لك التوفيق وراحة البال ، وما من نصيحة تسدى إليك خيرا من أن أقول : اقتدى بأمك فى كل كبيرة وصغيرة . .

وأعطاها يده فقبلتها ثم غادرت الحجرة لا تكاد ترى ما بين يديها من الانفعال والتأثر ، وجعلت تردد طول الوقت «كم أنه لطيف رقيق رحيم!» ثم تذكر بقلب ملؤه السعادة قوله «اقتدى بأمك فى كل كبيرة وصغيرة» وتقول لأمها التى أصغت إليها بوجه متورد وعينين مرتعشتين «ألا يعنى هذا أنه يراك القدوة الصالحة للزوجة الصالحة؟» (ثم ضاحكة) يا لك من امرأة سعيدة الحظ ! ولكن من عسى أن يصدق هذا كله؟ كأنى كنت فى حلم سعيد! أين كان يدخر هذا العطف الجميل؟!» ثم دعت له طويلا حتى أغرورقت عيناها بالدموع . .

وجاءت أم حنفى تعلنهم بوصول السيارات . .

٤٨

خلا مجلس القهوة من وجه خديجة كما خلا من وجه عائشة من قبل ، على أن خديجة تركت فراغا لم يسد فكأنها استلت روحه وسلبته حيويته وحرمته مزايا لا يستهان

بها من الفكاهة والمرح والنقار، أو كما قال ياسين لنفسه «كانت فى مجلسنا كالملح فى الطعام، ليس الملح فى ذاته لذيذا ولكن ما لذة الطعام من دونه؟». بيد أنه لم يجهر برأيه مجاملة لزوجه إذ أنه لم يزل ـ على خيبة أمله فى الزواج التى لم يعد لها من دواء فى البيت ـ يشفق من جرح مشاعرها على الأقل كيلا تسىء الظن بسهره المتواصل ليلة بعد أخرى فى «القهوة» كما يزعم لها، ولئن كان مزاحه يفوق جده، إن كان ثمة جد، إلا أنه فقد النديم الذى طالما طارحه الدعابة وهيأ له دواعيها فلم يبق له إلا أن يقنع بالقليل فى هذه الجلسة التقليدية، ها هو يتربع على الكنبة، يحسو القهوة، ويمد بصره إلى الكنبة المقابلة له فيرى الأم وزوجه وكمال مستغرقين فى أحاديث لا طائل تحتها، ولعله يتعجب للمرة المائة من رزانة زينب المعتمة فيذكر ما رمتها به خديجة من «ثقل الدم» ويسلم بوجه نظرها!. . ثم يفتح ديوان الحماسة أو غادة كربلاء ويقرأ، أو يقص على كمال شيئا مما قرأ، ويلتفت إلى يمينه فيرى فهمى متوثبا للحديث، عن أى شىء يا ترى، محمد فريد، مصطفى كامل، . . لا يدرى ولكنه سيتكلم بلا ريب، بل يبدو اليوم منذ عودته من المدرسة كالسماء المنذرة بالمطر، هل ينكشه؟ . . كلا، لا حاجة به إلى ذلك، ها هو يستقبله باهتمام شديد، ويحدجه بنظرة موحية ناطقة ثم يسأله:

ـ ألم تبلغك أنباء جديدة. . ؟

يسأله هو عن أنباء جديدة! عندى أنباء لا عد لها. . الزواج أكبر خدعة، الزوجة تنقلب بعد أشهر شربة زيت خروع، لا تحزن على ما فاتك من مريم أيها السياسى الغر، أتريد أنباء أخرى؟! لدىَّ منها الكثير لكنها على وجه اليقين لا تهمك ألبتَّة، ثم إن الشجاعة تخوننى إذا سوَّلت لى نفسى إذاعتها على مسمع من زوجى، وما يدرى إلا وهو يستشهد ـ فى سره طبعا ـ بقول الشريف:

عندى رسائل شوق لست أذكرها لولا «الرقيب» لقد بلَّغتها فاك

ثم تساءل بدوره:

ـ أى أنباء جديدة تعنى؟ . .

فقال فهمى باهتمام شديد:

ـ ذاع بين الطلبة نبأ عجيب كان حديثنا اليوم كله وهو أن وفداً مصريا مكوَّنا من سعد زغلول باشا وعبدالعزيز فهمى بك وعلى شعراوى باشا توجَّه أمس إلى دار الحماية وقابل نائب الملك للمطالبة برفع الحماية وإعلان الاستقلال. .

ورفع ياسين حاجبيه فى اهتمام ولاحت فى عينيه نظرة شك مقرونة بالدهشة. لم يكن اسم سعد زغلول بالجديد عليه وإن لم يجد وراء الاسم فى نفسه شيئًا ذا بال اللهم إلا ذكريات غامضة اقترنت بحوادث أتى عليها النسيان من زمن دون أن تترك فى قلبه ـ الذى

لا يكاد يعبأ بالأمور العامة ـ أثرا عاطفيا يدل عليها ولو من بعيد، إلا أن الاسمين الآخرين كانا يقعان فى أذنه لأول مرة، بيد أن غرابة الأسماء ليست شيئا يذكر إلى جانب الحركة التى قام بها أصحابها إن صح ما يقول فهمى، إذ كيف يتصور أن يطالب الإنجليز غداة انتصارهم على الألمان والخلافة باستقلال مصر؟! . . وسأله :

ـ ماذا تعرف عن هؤلاء السادة؟

فقال فهمى بلهجة لا تخلو من امتعاض خليق بمن يود لو كان هؤلاء السادة من أعضاء الحزب الوطنى :

ـ سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية، وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى عضوان بها، الحق أنى لا أعرف شيئا عن الأخيرين أما سعد فأكاد أكوِّن عنه فكرة لا بأس بها مما ترامى إلىَّ عن كثيرين من زملائى الطلبة الوطنيين الذين يختلفون فيه كثيرًا، منهم من يعدُّه ذَنَبا من أذناب الإنجليز ولا شىء أكثر من هذا ومنهم من يقرّ له بمزايا عظيمة جديرة بأن ترفعه إلى مصاف رجال الحزب الوطنى أنفسهم. ومهما يكن من شأن فالخطوة التى أقدم عليها مع زميله ـ ويقال إنه كان الداعى إليها كذلك ـ عمل مجيد لعله لا يوجد الآن من ينهض به مثله بعد نفى المبرزين من الوطنيين وعلى رأسهم زعيمهم محمد فريد.

بدا ياسين جاداً أن يظن به الآخر استهانة بحماسه وردد قائلا وكأنه يسائل نفسه :

ـ المطالبة برفع الحماية وإعلان الاستقلال!

ـ وسمعنا أيضًا أنهم طالبوا بالسفر إلى لندن للسعى إلى الاستقلال، وأنهم لهذا القصد قابلوا السير «ريجنالد ونجت»، نائب الملك!

لم يستطع ياسين أن يواصل مداراة حيرته فأعلنها بأساريره وهو يسأله بصوت مرتفع بعض الشىء :

ـ الاستقلال! . . أتعنى هذا حقا؟ . . ماذا تعنى؟

فقال فهمى بلهجة عصبية :

ـ أعنى إخراج الإنجليز من مصر، أو الجلاء كما عبَّر عنه مصطفى كامل ودعا إليه.

يا له من أمل! . . لم يكن السعى إلى حديث السياسة من طبعه ولكنه يقبل دعوة فهمى كلما دعا إليه، اتقاء لتكديره، وطلبا لنوع طريف من التسلية، وربما ثار اهتمامه بين الحين والحين وإن لم يبلغ درجة الحماس، بل ربما شاركه أمانيه بطريقة سلبية هادئة، ولكنه أثبت طوال حياته أنه قليل الاكتراث بهذا الجانب من الحياة العامة، كأنه لا غاية له وراء التنعم بطيبات الحياة ولذاتها، لذلك لم يجد فى نفسه استعدادا للأخذ بهذه الأقوال مأخذ الجد وتساءل مرة أخرى :

ـ هل يقع هذا فى حدود الإمكان حقا؟

فقال فهمى بحماس لا يخلو من لوم :

ـ لا يأس مع الحياة يا أخى!

فأثارت هذه الجملة، فى نفسه ما تثيره أمثالها من ميل إلى السخرية بيد أنه تساءل متظاهرا بالجد :

ـ وكيف لنا بأن نخرجهم؟

ففكر فهمى قليلا ثم قال عابسا :

ـ لهذا طلب سعد وزميلاه السفر إلى لندن!

تابعت الأم الحديث باهتمام مركزة فيه وعيها كله كى تفهم أقصى ما يسعها فهمه منه كدأبها كلما ثار حديث فى الشئون العامة البعيدة كل البعد عن اللغو المنزلى، تلك الأمور تشوِّقها، وتدعى القدرة على فهمها، ولا تتردد إذا سنحت فرصة عن المشاركة فيها غير مبالية بما تحدثه آراؤها فى أحايين كثيرة من الاستهانة المشربة بالعطف، ولكن لم يكن شىء ليحطم مجاديفها أو يصدها عن الاهتمام بهذه الشئون «الكبيرة» التى يبدو أنها تتبعها مدفوعة بنفس البواعث التى تدفعها إلى التعلُّق بدروس كمال الدينية أو مناقشة ما يلقى عليها من معلوماته الجغرافية والتاريخية على ضوء معارفها الدينية أو الأسطورية، وفقد أكسبها هذا الجد شيئا من الإلمام بما يقال عن مصطفى كامل ومحمد فريد وأفندينا المبعد، أولئك الرجال الذين ضاعف من حبها لهم إخلاصهم للخلافة الأمر الذى قرَّبهم فى نظرها ـ كشخص يقدِّر الرجال بحسب منازلهم الدينية ـ من مراتب الأولياء الذين تهيم بهم، ولما أن ذكر فهمى أن سعدا وزميليه يطلبان السفر إلى «لندن» خرجت عن صمتها فجأة متسائلة :

ـ أى بلاد الله لندن هذه؟

فبادرها كمال باللهجة المنغومة التى يسمِّع بها التلاميذ دروسهم :

ـ لندن عاصمة بريطانيا العظمى وباريس عاصمة فرنسا والكاب وعاصمتها الكاب .

ثم مال على أذنها هامسا «لندن بلاد الإنجليز» فتولَّت الأم الدهشة وقالت مخاطبة فهمى :

ـ يذهبون إلى بلاد الإنجليز ليطالبوهم بأن يخرجوا من مصر؟! . . ليس هذا من الذوق فى شىء . . كيف تزورنى فى بيتى وأنت تضمر طردى من بيتك؟!

أضجرت مقاطعتها الشاب فنظر إليها باسما معاتبا فى آن ولكنها ظنت أنها بسبيل إقناعه فأردفت قائلة :

ـ وكيف يطلبون إخراجهم من ديارنا بعد إقامة طالت هذا الدهر كله؟! . . لقد ولدنا وولدتم وهم فى بلادنا فهل من «الإنسانية» أن نتصدَّى لهم بعد ذاك العمر الطويل من العشرة والجيرة لنقول لهم بصريح العبارة ـ وفى بلادهم أيضا ـ اخرجوا؟!

ابتسم فهمى كاليائس على حين قهقه ياسين أما زينب فقالت جادة:

ـ كيف تواتيهم الجرأة على أن يقولوا لهم هذا فى بلادهم! . . هب الإنجليز قتلوهم هناك فمن ذا يدرى بهم؟ . . ألم يجعل جنودهم المشى فى الشوارع البعيدة من المخاطرات غير المأمونة؟ . . فكيف بمن تحدثه نفسه باقتحام ديارهم؟!

ود ياسين لو يسترسل مع المرأتين فى حديثهما الساذج إرواء لعواطفه الظامئة إلى المزاح ولكنه لمس ضجر فهمى فأشفق من إغضابه، فتحول إليه مواصلا ما انقطع من الحديث وهو يقول:

ـ فى كلامهما حق لم يحسنا التعبير عنه، خبِّرنى يا أخى ما عسى أن يصنع سعد حيال دولة تعد الآن سيدة العالم بلا منازع؟

فوافقت الأم على قوله بإيماءة من رأسها كأن الحديث كان موجها إليها وراحت تقول:

ـ كان عرابى باشا أعظم الرجال وأشجعهم، لا يقاس به سعد ولا غيره، وكان فارسا وكان مقاتلا، فماذا لقى من الإنجليز يا ولداه؟ . . أسروه ثم نفوه إلى بلاد وراء الشمس.

فلم يتمالك فهمى من أن يقول لها بلهجة جمعت بين الرجاء والضيق:

ـ نينة! . . هلا تركتنا نتحدث؟!

فابتسمت فيما يشبه الحياء مشفقة كل الإشفاق من إغضابه فغيرت لهجتها الحماسية كأنما هى بتغيير لهجتها تعلن تغير رأيها كله ثم قالت برقة واعتذار:

ـ يا سيدى لكل مجتهد نصيب، فليذهبوا فى رعاية الله، وعسى أن يحظوا بعطف الملكة الكبيرة.

فما يدرى الشاب إلا وهو يسألها فى غرابة:

ـ أى ملكة تقصدين؟

ـ الملكة فيكتوريا يا بنى، أليس هذا اسمها؟ . . طالما سمعت أبى وهو يتحدث عنها، هى التى أمرت بنفى عرابى ولكنها أعجبت بشجاعته كثيرا فيما قيل.

فقال ياسين ساخرا:

ـ إذا كانت قد نفت عرابى الفارس فهى أجدر أن تنفى سعدا العجوز!

فقالت الأم:

ـ مهما يكن من أمرها فهى لم تزل امرأة يحمل صدرها ولا شك قلبا رقيقا فإذا أحسنوا مخاطبتها وعرفوا كيف يتوددون إليها جبرت بخاطرهم .

وجد ياسين سرورا كبيرا فى منطق الأم التى جعلت تتحدث عن الملكة التاريخية كما لو كانت تتحدث عن أم مريم أو غيرها من الجارات ، ولم يعد يرغب فى مجاراة فهمى ، فسألها بإغراء :

ـ خبرينا عما يحسن أن يقولوه لها؟

فاعتدلت المرأة فى جلستها مسرورة بهذا السؤال الذى أقرَّ لها بالجدارة «السياسية» ومضت تفكر باهتمام لاح فى تقارب حاجبيها فى صيغة مناسبة لأول «مفاوضة» بيد أن فهمى لم يمهلها حتى تتم تفكيرها فقال لها باقتضاب واستياء :

ـ الملكة فيكتوريا ماتت من زمن بعيد ، لا تتعبى نفسك بلا طائل!

انتبه ياسين عند ذاك إلى غاشية المساء الزاحفة من خلال خصاص النوافذ فأدرك أنه آن له أن يودع المجلس ليمضى إلى سهرته ، ولما كان يعلم حق العلم بأن ظمأ فهمى لم يرو بعد فقد رغب فى أن يقدم له اعتذاره عن ذهابه فى صورة تأييد من نوع ما للنبأ الذى أخذ بلبِّه فقال له وهو ينهض :

ـ إنهم رجال يدركون بلا شك خطورة ما أقدموا عليه فعلَّهم أعدُّوا له الوسيلة الناجحة ، فلندع لهم بالتوفيق .

وغادر المجلس وهو يشير إلى زينب لتلحق به فتجهز له ملابسه ، فشيعه فهمى بنظرة لا تخلو من غضب ، غضب من لم يظفر بمشاركة وجدانية تتجاوب مع نفسه المتأججة ، لشد ما تثير أحاديث الوطنية أكبر الأحلام فى نفسه ، فى دنياها الساحرة تتراءى لعينيه دنيا جديدة ، ووطن جديد ، وبيت جديد ، وأهل جدد ، ينتفضون جميعا حيوية وحماسة ولكن ما أن يفيق على هذا الجو الخانق من الفتور والسذاجة وعدم المبالاة حتى تشب بين أضلعه نار الحسرة والألم فتروم فى قهرها متنفسا ـ أيًّا ما كان ـ تنطلق منه إلى السماء ، ود فى تلك اللحظة بكل قوته لو ينطوى الليل فى غمضة عين ليجد نفسه مرة أخرى فى مجمع الطلاب من إخوانه فيروى ظمأه إلى الحماس والحرية ويسمو فى وقدة حماسهم إلى ذلك العالم الكبير من الأحلام والمجد ، لقد تساءل ياسين عن ماذا يصنع سعد حيال بلد تعد اليوم بحق سيدة العالم ، وهو نفسه لا يدرى على وجه التحقيق ماذا سيصنع سعد ، ولا يدرى ماذا يمكن أن يصنع ، ولكنه يشعر بكل ما فى قلبه من قوة بأن ثمة ما يجب عمله ، ربما لم يجده ماثلا فى عالم الواقع ، ولكنه يشعر به كامنا فى قلبه ودمه ، فما أجدره أن يبرز إلى ضوء الحياة والواقع أو فلتمض الحياة عبثا من العبث وباطلا من الأباطيل .

٤٩

بدا الطريق أمام دكان السيد ـ كعادته ـ مكتظا بالسابلة والمركبات ورواد الدكاكين المتراصة على الجانبين إلا أن هامته إزدانت بشفافية مقطرة من جو نوفمبر اللطيف الذى حجبت شمسه وراء سحائب رقاق لاحت رقاعها ناصعة البياض فوق مآذن قلاوون وبرقوق كأنها بحيرات من نور، لم يكن شىء فى السماء ولا فى الأرض قد خرق المألوف مما اعتاد السيد أن يراه كل يوم، ولكن نفس الرجل، والأنفس الموصولة بنفسه وربما أنفس الناس جميعا تعرضت لموجة عاتية من الانفعال والشعور خرجت بها عن طورها أو كادت حتى قال السيد إنه لم تمر به أيام كهذه الأيام اجتمع الناس فيها حول نبأ واحد وخفقت قلوبهم بإحساس واحد. فهمى الذى يلوذ بالصمت بين يديه ما لم يبدأه هو بالحديث نقل إليه فى إسهاب ما اتصل بعلمه عن مقابلة سعد لنائب الملك، وفى مساء اليوم نفسه، وفى مجلس الطرب، أكد نفر من الصحاب أن الخبر حقيقة لا يرتقى إليها الشك، وفى دكانه حدث أكثر من مرة أن خاض زبائن لا تربط بينهم صلة تعارف سابق فى حديث المقابلة، بل ما يدرى هذا الصباح إلا والشيخ متولى عبد الصمد يقتحم عليه الدكان بعد غيبة طويلة فلم يقنع بتلاوة الآيات وأخذ نصيبه من السكر والصابون وأبى إلا أن يعلن نبأ الزيارة بلهجة من يزف البشرى لأول مرة ولما سأله السيد ـ مداعبا ـ عما يظن أن تكون نتيجة الزيارة أجاب الشيخ «محال!.. محال أن يخرج الإنجليز من مصر، أتحسبهم مجانين كى يجلوا عن البلد بلا قتال!.. لابد من قتال، ولا قتال لنا، فلا سبيل إلى إخراجهم، فلعل رجالنا يوفقون ولو إلى إبعاد الأستراليين حتى يعود الأمن إلى سابق عهده، والسلام؟». أيام أنباء ومشاعر فياضة صادفت فى السيد رجلا ذا قابلية شديدة لعدوى الأشواق الوطنية والسياسية فبات على حال من الانتظار والتوقع جعلته يقبل بانفعال على قراءة الجرائد التى بدت فى الأغلب وكأنها تصدر فى بلد غريب لا انفعال فيه ولا توثب، واستقبال الأصدقاء بنظرة استطلاع تتلهف عما وراءهم من جديد، وعلى تلك الحال استقبل السيد محمد عفت حين دخل الدكان مهرولا، لم تكن نظرة القادم الحادة ولا حركته النشيطة مما يوحى بأن مجرد زائر قد عرج إلى الدكان لاحتساء قهوة أو رواية ملحة، فوجد السيد فى مظهره ما تجاوب مع نفسه القلقة المشوقة فبادره قائلا والآخر يشق طريقه بين الزبائن الذين قام جميل الحمزاوى على قضاء حوائجهم:

ـ صباحنا ناد، ماذا وراءك يا سبع؟

اتخذ السيد محمد عفت مجلسه لصق المكتب وهو يبتسم ابتسامة وشت بالعجب كأن

قول السيد «ماذا وراءك»، وهو نفس السؤال الذى يتكرر كلما لاقى أحدا من صحبه ـ إقرار بأهميته فى هذه الأيام البالغة فى أهميتها بالنظر لما يربطه ببعض الشخصيات المصرية الهامة من صلات القربى. كان السيد عفت دائمًا همزة الوصل بين جماعته الأصلية المكونة من تجار وبين من انضم إليها بمضى الزمن من موظفين ممتازين ومحامين وإن تفرد السيد أحمد بمنزلة الإعزاز بفضل شخصيته وسجاياه، غير أن صلة القربى هذه التى لم تفقد شيئا من خطورتها قط لدى أصدقائه التجار الذين يتطلعون إلى الموظفين وذوى الألقاب بنظرة ملؤها الإكبار، صلة القربى هذه قد زادت خطورة فى هذه الأيام التى بات فيها «الخبر الجديد»، أهم من الماء والغذاء! . . بسط السيد عفت صحيفة كانت مطوية بيمينه ثم قال:

ـ خطوة جديدة. . لم أعد ناقل أنباء فحسب ولكنى بت رسولا أحمل إليك وإلى غيرك من الأكرمين هذا التوكيل السعيد.

وأعطاه الصحيفة وهو يغمغم مبتسما «اقرأ» فتناولها السيد وقرأ:

ـ نحن الموقعين على هذا قد أنبنا عنا حضرات سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك ومحمد على علوبة بك وعبد اللطيف المكباتى ومحمد محمود باشا وأحمد لطفى السيد بك، ولهم أن يضموا إليهم من يختارون، فى أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلا فى استقلال مصر استقلالا تاما».

فتهلل وجه السيد وهو يتلو أسماء أعضاء الوفد المصرى الذين سمع بهم فيما سمع من أنباء الحياة الوطنية التى ترددها الألسن، وتساءل:

ـ ماذا تعنى هذه الورقة؟

فقال الرجل بحماس:

ـ ألا ترى هذه الإمضاءات؟ . . وقع تحتها بإمضائك وادع جميل الحمزاوى ليوقع بإمضائه أيضا. هذا توكيل من التوكيلات التى طبعها الوفد ليوقعها الشعب فيتخذ بها صفة الوكالة عن الأمة المصرية.

أمسك السيد بالقلم ووقع بإمضائه فى سرور تجلى فى تألق عينيه الزرقاوين وهو يبتسم ابتسامة رقيقة نمت عن شعوره بالسعادة والخيلاء إذ يوكل عن نفسه سعدا وزملاءه، أولئك الرجال الذين ملكوا النفوس على حداثة شهرتهم حيث حركوا منها أهواء عميقة مكبوتة كالدواء الجديد يستأثر بأفكار المرضى بداء قديم استعصى علاجه بالرغم من استعماله لأول مرة، ودعا الحمزاوى فوقع بإمضائه كذلك، ثم التفت إلى صاحبه وهو يقول باهتمام شديد:

ـ المسألة جد فيما يبدو!

فضرب الرجل حافة المكتب بقبضة يده ثم قال:

ـ غاية الجد، كل شيء يسير بقوة وتصميم، أما علمت بما دعا إلى طبع هذه التوكيلات؟ . . قيل إن «الرجل» الإنجليزى تساءل عن الصفة التى كلمه بها سعد وزميلاه فى صباح ١٣ نوفمبر الماضى فما كان من الوفد إلا أن عمد إلى هذه التوكيلات ليثبت أنه يتكلم باسم الأمة.

فقال السيد بتأثر:

ـ لو كان محمد فريد بيننا ما عدا هذا.

ـ لقد انضم إلى الوفد من رجال الحزب الوطنى محمد على علوبة بك وعبد اللطيف المكباتى.

ثم هز منكبيه لينفض عنهما الماضى كله ثم قال:

ـ كلنا نذكر سعدا بما كان يثير من ضجة عظيمة على عهد توليه لنظارة المعارف ثم الحقانية، ما زلت أذكر ترحيب اللواء به منذ ترشيحه للوزارة وإن لم أنس حملاته عليه بعد ذلك، بل لا أنكر أننى ملت مع انتقاد المنتقدين له لشدة تعلقى بالمغفور له مصطفى كامل، ولكن سعد أثبت دائما أنه جدير بإعجاب المعجبين، أما حركته الأخيرة فهى خليقة بأن تحله من القلوب فى أعز مكان.

ـ صدقت. . حركة مباركة، لندع الله أن يتولاها بتوفيقه.

ثم باهتمام:

ـ ترى أيؤذن لهم فى السفر؟ . . وماذا تراهم فاعلين إذا سافروا؟

طوى السيد محمد عفت التوكيل ثم نهض وهو يقول:

ـ ما الغد ببعيد.

فى طريقهما إلى باب الدكان غلبت روح الدعابة السيد فهمى فى أذن صاحبه:

ـ كأنى لشدة سرورى بهذا التوكيل الوطنى ثمل يعل الكأس الثامنة بين فخذى زبيدة. . !

فحرك محمد عفت رأسه فى تأثر كأن الصورة التى جسَّمها خياله عند ذكر الكأس وزبيدة قد أسكرته، وغمغم:

ـ يا ما بكره نسمع.

ثم غادر الدكان والسيد فى أعقابه مبتسما:

ـ وبعده نشوف!

ثم عاد إلى مكتبه وأثر المزاح منبسط فى أساريره وانفعال الحماس فى قلبه لا يخمد، شأنه فى كل ما يعرض له من مهام الحياة بعيدا عن داره، فهو يجد الجد كله كلما دعا الداعى إلى الجد ولكنه لا يتردد عن تلطيف جوِّه بالمزاح والدعابة كلما لاحت له صادرا فى ذاك عن طبع لا يملك معه حيلة وإن بدا قدرة عجيبة على التوفيق بينهما، فلا جدّه بقاهر مزاحه ولا مزاحه بمفسد جده، ولما كانت دعابته ليست ترفا مما يدور على هامش الحياة، ولكن ضرورة تتوزعها كالجد سواء بسواء، فلم يسعه يوما الاقتصار على الجد الخالص أو تركيز همته فيه، وبالتالى قنع دائمًا من «وطنيته» بالعاطفة والمشاركة الوجدانية دون الإقدام على عمل يغير وجه الحياة الذى آنس إليه فلا يرضى عنه بديلا، لذلك لم يدر له بخلد أن ينضم إلى لجنة من لجان الحزب الوطنى على شدة تعلقه بمبادئه، ولا حتى أن يجشم نفسه شهود اجتماع من اجتماعاته، أليس فى ذلك إهدار لوقته «الثمين»؟ ليس الوطن فى حاجة إليه على حين يتلهف هو على كل دقيقة منه لينفقها فى أسرته أو تجارته أو على الخصوص فى لهوه بين الأحباب والخلاَّن؟! . . ليكن إذن وقته خالصا لحياته، وللوطن ما يشاء من قلبه وعواطفه، بل ماله كلما تيسر، إذ لم يكن يضن به إذا وجب التبرع لغرض من الأغراض، وإلى ذلك فلم يشعر مطلقا بأنه مقصر فى واجبه على نحو ما، وعلى العكس عرف بين صحبه بالوطنية، إما لأن قلوبهم لم تسخ بعواطفها كما سخا قلبه، وإما لأن الذين سخت قلوبهم لم يذهبوا إلى حد التبرع بالمال مثله، فتميز بوطنيته، وعرف هو ذلك فأضافه إلى بقية مزاياه التى يباهى بها سرا فى أعماق قلبه، ولم يتصور أن الوطنية يمكن أن تطالبه بأكثر مما يجود به، ذاك القلب المولع بالغرام والطرب والمزاح لم يضق ـ على ازدحامه ـ بالعاطفة القومية، وهى وإن قنعت بالقلب مجالا لحيويتها إلا أنها كانت قوية عميقة تشغل النفس وتهمها، لم تجئه عرضا ولكن نشأت مع صباه فيما تلقته أذناه من أحاديث البطولة التى رواها السلف عن عرابى، ثم اتقدت جذوتها بمقالات اللواء وخطبه، وكم كان منظرا فريدا ـ أهاج التأثر والضحك معا ـ يوم رئى وهو يبكى كالأطفال عند وفاة مصطفى كامل، تأثر صحبه لأن أحدا منهم لم يسلم من وعكة حزن ثم أغرقوا فى الضحك فى مجلس الطرب الليلى حين تذكروا المنظر إذ لم يكن من اليسير أن يرى «رب الضحك»، وهو يجهش بالبكاء! . . اليوم بعد سنى الحرب الخامدة، بعد موت الزعيم الشاب ونفى خليفته، بعد انقطاع الأمل من عودة أفندينا، بعد هزيمة تركيا، وانتصار الإنجليز، بعد هذا كله، أو بالرغم من هذا كله، تسرى أنباء عجيبة حاملة حقائق كالأساطير . مواجهة الرجل الإنجليزى بمطالب الاستقلال، إمضاء التوكيلات الوطنية، التساؤل عن الخطوة التالية، قلوب تنفض عن جوهرها الغبار، أنفس تشرق بالآمال، ماذا وراء هذا كله؟! . . إن خياله السلمى الذى ألف الاستكانة يتساءل دون جدوى، وإنه ليتعجل الليل ليهرع إلى مجلس الطرب حيث باتت الأحاديث السياسية «مزة»، الشراب

والطرب فائتلفت مع جملة المغريات التى تجذب حنانه إلى سهرته كزبيدة وحب الإخوان والشراب والطرب وإنه لتبدو فى ذلك الجو الخلاب عذبة الروح لطيفة التناول تغنى القلوب بشتى عواطف الحماس والحب من دون أن تستأديه ما لا طاقة له به! . . وإنه ليفكر فى هذا كله إذ اقترب منه جميل الحمزاوى وهو يقول :

ـ أما سمعت عن الاسم الجديد الذى أطلق على بيت سعد باشا؟ . . إنهم يدعونه «بيت الأمة».

ومال الرجل نحوه ليفضى إليه كيف نمى إليه الخبر .

٥٠

فى نفس الوقت الذى شغل فيه الوطن بحريته كان ياسين دائبا بحزم وعزم على الاستئثار بحريته هو كذلك، فإن انطلاقه إلى سهراته الليلية ـ بعد امتناع موسوم بالاستقامة فيما أعقب الزواج من أسابيع ـ لم يفز به بلا نضال، ثمة حقيقة كثيراً ما رددها لنفسه كاعتذار عن سلوكه الجديد . هى أنه لم يكن يتصور ـ وهو فى سكرة حلم الزواج ـ أنه سيرتد إلى حياة التسكع بين القهوة وحانة كوستاكى، اعتقد مخلصاً أنه ودَّع ذاك إلى الأبد مضمرا لحياته الزوجية أحسن النيات، حتى دهمته الخيبة المستعصية فى الزواج كله فجزعت أعصابه عن تحمل الملل أو الحياة الفارغة كما دعاها، وفزع بكل قوة نفسه المدللة الحساسة إلى الترفيه والتسلية والنسيان، إلى القهوة والحانة، لا كحياة لهو عابرة كما ظنها فى الماضى والزواج أمل مدخر، ولكن كحياة هى كل ما تبقى له من متعة بعد أن غدا الزواج خيبة مريرة، كالذى تشرده الآمال عن وطنه فيرده الإخفاق إليه تائبا . بيد أن زينب التى عهدت عنده التودد الحار والتملق النهم، بل الإعزاز الذى بلغ به يوما أن ذهب بها إلى مسرح كشكش بك مستهينا بالسياج المسلح من التقاليد الصارمة الذى يضربه أبوه حول الأسرة . . زينب هذه كابدت من انصرافه عنها إلى منتصف الليل ليلة بعد أخرى وعودته ثملا يترنح، صدمة عز عليها احتمالها فما تمالكت أن كاشفته بأحزانها، وكان يعلم بداهة أن طفرة مفاجئة فى حياته الزوجية لا يمكن أن تمر بسلام فتوقع من بادىء الأمر المعارضة على أى لون جاءت، عتابا أو خصاما وأعد العدة المناسبة ليحسم موقفه بقول أبيه له ليلة ضبطه راجعا من كشكش بك «إنه لا يفسد النساء إلا الرجال، وليس كل الرجال جديرا بالقيام على النساء» . فما تشكَّت حتى قال لها : «لا داعى للحزن يا عزيزة، منذ القدم والبيوت للنساء والدنيا للرجال، هكذا الرجال جميعا، والزوج

المخلص يحافظ على أمانته وهو بعيد عن زوجته كما يحافظ عليها وهو بين يديها، ثم إننى أتزود من السهرة ترويحا عن النفس وبهجة يجعلان من حياتنا متعة كاملة»، ولما عرَّضت بسكره محتجة بأنها «تخاف على صحته»، ضحك وقال بنفس اللهجة الجامعة بين الرقة والحزم «كل الرجال يسكرون، إن صحتى تتحسن بالسكر (ثم ضاحكا مرة أخرى) سلى أبى أو أباك!». إلا أنها همت بالاسترسال فى مناقشته جريا وراء أمل كاذب فشد حبل الحزم متشجعا بملله الذى هوَّن عليه ما لم يكن يهون من إغضابها فراح ينوه بما للرجال من حق مطلق فى أن يفعلوا ما يشاءون، وما على النساء من واجب الطاعة والتزام الحدود «انظرى إلى امرأة أبى هل رأيتها اعترضت يوما على تصرف لأبى؟.. على ذاك فهما زوجان سعيدان وأسرة مطمئنة، ينبغى ألا نعود إلى هذا الموضوع».. لعله لو كان ترك إلى شعوره وحده ما اصطنع فى خطابها ما اصطنع من سياسة فإن خيبته فى الزواج جعلته يجد نحوها أحيانا ما يشبه الرغبة فى الانتقام، وأحيانا أخرى نوعا من الكراهية المتقطعة وإن لم يكف عن الرغبة فيها بين هذا وذاك، ولكنه راعى عواطفها إكراما - أو خوفا - من أبيه الذى علم بعظيم تعلقه بأبيها السيد محمد عفت. والحق لم يكن يكربه شىء كإشفاقه من أن تشكوه إلى أبيها فيشكوه هذا بدوره إلى أبيه، حتى لقد صمم جادا، إذا وقع شىء مما يحاذر، أن يستقل بمسكن مهما تكن العواقب ولكن مخاوفه لم تتحقق، أثبتت الفتاة رغم حزنها أنها امرأة «عاقلة» كأنها من طراز امرأة أبيه نفسها، قدَّرت موضعها حق قدره ونزلت عند حكم الواقع، مطمئنة - لبعلها - بما يردده دائمًا من إخلاصه وبراءة سهراته، قانعة من الألم والحزن ببثها فى دائرة الأسرة الضيقة - مجلس القهوة - من دون أن تظفر بتأييد جدى، وكيف لها بذاك فى بيئة ترى الخضوع للرجال دينا وعقيدة، بل لعل الست أمينة استنكرت شكواها وسخطت على ما تطمح إليه من استئثار غريب ببعلها، لأنها لم يكن يسعها أن تتصور النساء إلا على مثالها هى ولا الرجال إلا على مثال زوجها، فلم تر فى استمتاع ياسين بحريته عجبا ولكن شكوى زوجه بدت هى العجب، فهمى وحده قدَّر أحزانها فتطوع لترديدها على مسمع من ياسين ولو أنه أيقن من بادىء الأمر أنه يدافع عن قضية خاسرة، ولعل ما شجعه على ذاك كان كثرة تلاقيهما فى قهوة أحمد عبده بخان الخليلى، تلك القهوة التى تقع تحت سطح الأرض كأنها كهف منحوت فى جوف جبل، مسقوفة بربوع الحى العتيق، منعزلة عن العالم بحجراتها الضيقة المتقابلة، وباحتها التى تتوسطها نافورة صامتة، ومصابيحها التى تقاد ليل نهار، وجوها الهادىء الحالم الرطيب، كان ياسين قد مال إلى هذه القهوة لدنوها من حانة كوستاكى من ناحية ولاضطراره إلى هجر قهوة سى على بالغورية بعد قطع زنوبة من ناحية أخرى، ثم لما خصت به القهوة الجديدة من طابع أثرى صادف هوى من نفسه الميالة للشعر، أما فهمى فلم يعرف طريق المقاهى لخلل طرأ على سلوكه كطالب مجتهد ولكن

تلبية لداء تلك الأيام الذى دعا الطلبة وغيرهم إلى التجمع والتشاور، فاختار ونفر من زملائه قهوة أحمد عبده ـ لنفس ميزاتها الأثرية التى جعلتها بمأمن من العيون ـ للاجتماع مساء بعد مساء للحديث والتشاور والتنبؤ وانتظار الحوادث، كثيراً ما التقى الأخوان فى حجرة من الحجرات الصغيرة ولو لحين قليل أى حتى يصل زملاء فهمى أو يأزف ميعاد ياسين للانتقال إلى حانة كوستاكى، وفى مرة من هذه المرات أشار فهمى إلى كدر زينب مبديا دهشته لسلوك أخيه الذى لا يتفق مع حياة زوجية ناشئة، ضحك ياسين ضحكة رجل يرى لنفسه الحق كل الحق فى أن يضحك من سذاجة الآخر الذى ارتضى بأن يخاطبه بلسان الناصح فيما يجهله، بيد أنه لم يشأ أن يبرر سلوكه مباشرة مؤثرا أن ينفس عن صدره بما يعن له من قول، قال مخاطبا الشاب:

ـ رغبت يوما فى الزواج من مريم، ولست أشك فى أنك حزنت جد الحزن لموقف أبيك الذى منع تلك الرغبة من أن تتحقق.. أقول لك، وأنا أدرى بما أقول، إنك لو علمت وقتذاك بما يخفى الزواج وراء سطحه لحمدت الله على الفشل.

دهش فهمى لحد الانزعاج لأنه لم يتوقع أن يباغت فى أول جملة يخاطب بها بألفاظ تجمع بين «مريم» و«الزواج» و«الرغبة»، أفكار لعبت على مسرح صدره أدوارا لا تنسى ولا تمحى آثارها، فلعله بالغ فى إظهار دهشته ليخفى ما أثارت الذكريات فى نفسه من الشجن والتأثر، ولعله لذلك لم يستطع أن ينبس بكلمة، فتابع ياسين حديثه وهو يلوح بيده سأما ومللا قائلا:

ـ ما كنت أتصور أن ينجلى الزواج عن هذا الخواء، إنه فى الحق لا يعدو أن يكون حلما كاذبا، وقاسيا ككل شىء خبيث الخداع!

بدا له قوله عسير الهضم مثيرا للريب كما يخلق بشاب تتدفق ينابيع حياته الوجدانية نحو هدف واحد لا يتمثل له إلا فى صورة «زوجة» وتحت مقولة «الزواج» فعز عليه أن يتناول أخوه المستهتر مقولته المقدسة بهذه المرارة الساخرة، وتمتم فى دهشة بالغة:

ـ ولكن زوجك سيدة.. كاملة!

فهتف ياسين ساخرا:

ـ سيدة كاملة!.. هو ذاك أليست كريمة رجل فاضل؟.. وربيبة أسرة كريمة؟.. جميلة.. مهذبة.. ولكن لا أدرى أى شيطان موكل بالحياة الزوجية يجعل من جميع المزايا السالفة أعراضا تافهة لا يلقى إليها ببال تحت ضغط الملل المسقم كأنها بعض ما نغدق على الفقر من صفات النبل والسعادة كلما تراءى لنا أن نعزى فقيرا عن فقره.

فقال فهمى ببساطة وصدق:

ـ لا أفهم حرفا مما تقول:
ـ انتظر حتى تعرف بنفسك. .
ـ لماذا إذن يصر الناس على الزواج منذ بدء الخليقة؟
ـ لأن الزواج ـ كالموت ـ لا ينفع معه التحذير ولا الحذر.
ثم مستطردا وكأنه يخاطب نفسه:
ـ لشد ما عبث بى الخيال فسما بى إلى عوالم تفوق مباهجها الأحلام، وطالما ساءلت نفسى: هل يجمعنى حقًا بيت واحد بغادة حسناء إلى الأبد؟. . يا له من حلم!. . ولكنى أؤكد بأنه ليست ثمة مصيبة أفدح من أن يجمعك بيت واحد بحسناء إلى الأبد.
وغمغم فهمى فى حيرة رجل يعز عليه ـ فيما يكابد من أشواق الشباب ـ تصور الملل:
ـ لعله بدت لعينك أشياء وراء الظاهر الذى لا يعاب!
فقال ياسين وهو يضحك بمرارة:
ـ لا أشكو إلا الظاهر الذى لا يعاب!. . شكواى فى الحق منصبة على الجمال نفسه!. . هو. . هو الذى مللت لحد السقم، كاللفظ الجديد يبهرك معناه لأول مرة ثم لا تزال تردده وتستعمله حتى يستوى عندك وألفاظ مثل «الكلب» و«الدودة» و«الدرس» وسائر الأشياء المبتذلة، يفقد جدته وحلاوته، وربما نسيت معناه نفسه فغدا مجرد لفظ غريب لا معنى له ولا وجه لاستعماله، ولعله لو عثر عليه الغير فى إنشائك أخذهم العجب لبراعتك على حين يأخذك العجب لغفلتهم، ولا تسل عما فى ملل الجمال من فجيعة، إذ إنه يبدو مللا بلا عذر مقبول، وبالتالى قضاء محتوما. . فيتعذر التفادى من يأس ليس له من قرار، لا تعجب لقولى، إنى عاذرك لأنك تنظر من بعيد، والجمال كالسراب لا يرى إلا من بعيد.
على مرارة اللهجة شك فهمى فى حقيقة بواعثها إذ أنه مال من بادىء الأمر إلى اتهام أخيه ـ لا الطبيعة البشرية ـ لما عرفه عنه من انحراف السلوك، ألا يجوز أن ترد شكواه فى الحق إلى ما لهج به من مجون فى حياته السابقة على الزواج؟!. . أصر على هذا الظن إصرار رجل يأبى أن يفجع فى أعز آماله، ولما كان ياسين لا يهتم بآراء أخيه بقدر ما يهتم بالإفصاح عما فى صدره هو، فقد واصل حديثه وهو يبتسم لأول مرة ابتسامة وضيئة:
ـ أصبحت أدرك موقف أبى حق الإدراك!. . وأفهم ما جعل منه ذاك الرجل العربيد الراكض وراء العشق أبدا!. . كيف كان يتأتى له أن يصبر على طعام واحد ربع قرن من الزمان وقد قتلنى الملل بعد خمسة أشهر؟!
فقال فهمى وقد قلق لإقحام أبيه فى الحديث:

ـ حتى على افتراض أن شكواك صادرة عن تعاسة مركبة فى الطبيعة البشرية، فالحل الذى تبشر به . . (هم بأن يقول: بعيد عن الطبيعة السوية ثم عدل عنه ليكون أكثر منطقية فقال) . . بعيد عن الدين.

فقال ياسين الذى كان يقنع من الدين دون اكتراث جدى لأوامره ونواهيه:

ـ الدين يؤيد رأيى، وآى ذلك أنه سمح بالزواج من أربع غير الجوارى اللاتى كانت تكتظ بهن قصور الخلفاء والأغنياء، فقد فطن إذن إلى أن الجمال نفسه ـ إذا ابتذلته العادة والألفة ـ مل وأسقم وقتل.

فقال فهمى باسما:

ـ كان لنا جد يمسى مع زوجة ويصبح مع أخرى فلعلك أن تكون وريثه . . فتمتم ياسين متنهدا:

ـ لعـلى . . .

على أن ياسين ـ حتى ذاك الوقت ـ لم يكن أقدم على تحقيق حلم من أحلامه المتمردة، حتى أنه رجع إلى القهوة فالحانة ولكنه تردد قبل أن يخطو الخطوة الأخيرة، قبل أن ينزلق إلى زنوبة أو إلى غيرها، وما الذى جعله يفكر ويتردد؟ . . ربما لم يخل من إحساس بالمسئولية حيال الحياة الزوجية، وربما لم ينج من تهيب لرأى الدين فى «الزوج الفاسق»، الذى توكد لديه أنه غير رأيه فى «الشاب الفاسق»، وربما أيضًا أن خيبة أقوى أمل تردد فى جوانبه صدت نفسه عن لذات الدنيا حتى يفيق، على أن واحدة من أولاء لم تكن لتقيم فى سبيله عائقا جديا خليقا بأن يقف مجرى حياته، إلا أنه وجد إغراء لا يصمت من سيرة أبيه التى استحوذت عليه، وما بدا من زوجه من «حكمة» قرنتها فى ذهنه بامرأة أبيه فينشط خياله إلى رسم تخطيط لحياتها المستقبلة معه على مثال حياة الست أمينة مع أبيه، أجل تمنى كثيراً لو تطمئن زينب إلى الحياة التى تقدر عليها كما تطمئن امرأة أبيه إلى حياتها، فيشب هو مثل وثبات أبيه الموفقة ليعود آخر الليل فيحظى ببيت هادىء وزوجة مستنيمة، بذاك ـ وبذاك وحده تراءت له الحياة الزوجية محتملة، بل أثيرة ذات مزايا تفتقد. «فيم تطمح أية امرأة وراء البيت الزوجى والارتواء الجنسى؟! . . لا شىء! . . إنهن حيوانات أليفة كالحيوانات الأليفة ينبغى أن يعاملن، أجل لا يجوز للحيوانات الأليفة أن تتطفل على حياتنا الخاصة وإنما عليها أن تنتظر فى البيت حتى نفرغ لمداعبتها، أن أكون زوجا خالصا للحياة الزوجية هو الموت، منظر واحد وصوت واحد وطعم واحد لا تزال تتكرر وتتكرر . . حتى تنقلب الحركة والجمود سيين، والصوت والصمت توأمين، كلا كلا، ما لهذا تزوجت . . إن قيل إنها بيضاء، ألست ذا مآرب فى السمراء، بل والسوداء . . وإن قيل إنها مدملجة فما عزائى عن النحيلة والجسيمة، أو أنها مهذبة

سليلة نبل وكرم فهل عطلت من المزايا ربيبة العربات الكارو؟! . . إلى الأمام . . إلى الأمام . . » .

٥١

كان السيد مكبا على دفاتره حين طرقت عتبة الدكان حذاء ذات كعب عال فرفع عينيه باهتمام غريزى ، فرأى امرأة تشتمل الملاءة اللف منها على جسم لحيم وتنحسر حافة البرقع الأسود على جبين ناصع وعينين مكحولتين ، فابتسمت أساريره فى ترحاب طال تشوقه إليه ، وعرف من توه الست أم مريم أو حرم المرحوم رضوان كما صارت تدعى أخيرا ، ولما كان جميل الحمزاوى مشغولا ببعض الزبائن فقد دعاها للجلوس على كثب من مكتبه ، فأقبلت المرأة تخطر وجلست على المقعد الصغير الذى فاضت عنه أعطافها وهى تلقى إليه بتحية الصباح ، ومع أن التحية من ناحيتها والترحاب من ناحيته جريا على النحو المعهود الذى يتكرر كلما جاءته «زبونة» تستحق التكريم ، فإن الجو الذى غشى ركن الدكان من حول المكتب شحن بكهرباء تعوزها البراءة ، لاحت أمارات لها فى الجفنين المسبلين حياء حول عروس البرقع من ناحية ، والنظرة المتربصة فوق سفحى الأنف العظيم من ناحية أخرى ، كهرباء خفية صامتة إلا أن نورها الكامن كان متحفزا فى انتظار لمسة كى يسطع ويشعشع ويستعر نارا . . كأنه كان ينتظر هذه الزيارة التى انجابت عن آمال مهموسة وأحلام مكبوتة ، ولكن لأن وفاة السيد محمد رضوان أثارت منه فكرا وهيجت رغبات كما يهيج انطواء الشتاء شتى آمال الشباب فى الطبيعة والأحياء ، زال بموته الشجا الذى اعترض إحساسه بالمروءة فأمكنه أن يذكر نفسه بأن المرحوم لم يكن إلا جارا ـ لا صديقا ـ ورحل ، كما أمكن شعوره بجمال هذه المرأة الذى أعرض عنه قديما حفاظا على كرامته أن يعبر عن ذاته ويطالب بنصيبه من المتعة والحياة ، إلا أن عاطفته نحو زبيدة ، كان أدركها العطب كالفاكهة فى نهاية موسمها ، فلاقت المرأة منه ـ على خلاف الزيارة السابقة ـ ذكرا متوثبا وعاشقا متحررا . . على أن خاطرة ثقيلة ـ أن تكون الزيارة بريئة ـ مرت به ولكنه نفاها عن نفسه بقوة ، مستشهدا بما بدا منها فى الزيارة القديمة من رقيق الإشارات وبديع الريب ، مؤكدا ظنونه بهذه الزيارة نفسها التى ليس ثمة ما يوجبها إن لم يكن مثل ما يدور بنفسه ، ثم صمم أخيرا على أن يتلمس سبيله كخبير قديم . . فقال لها برقة باسما :

ـ خطوة عزيزة!

فقالت فى شىء من الارتباك :

ـ الله يكرمك ، كنت راجعة إلى البيت فمررت بالدكان فتراءى لى أن آخذ لوازم الشهر بنفسى .

فطن إلى «اعتذارها» عن المجىء ولكنه أبى أن يصدقه فإن يتراءى لها أن تأخذ لوازم الشهر بنفسها ليس شيئا إن لم يكن وراءه دافع ، لا سيما وأنها تدرى بالبداهة والغريزة أن مجيئها بعد «مقدمات» الزيارة القديمة خليق بأن يثير فى نفسه الريب ، وإن يبدو لعينيه «تمحكا» ، غير خافى الدلالة ، فزادته مبادرتها إلى الاعتذار ثقة وقال :

ـ فرصة طيبة لأحييك ولأكون فى خدمتك !

فشكرته فى اقتضاب أصغى إليه بنصف انتباه إذ شغل بالتفكير فى الكلمة التالية ، لعله كان من الطبيعى أن يعرج على ذكر الزوج الراحل مترحما ولكنه تحاشى هذا الخاطر أن يفسد عليه الجو كله ، ثم تساءل : هل يهاجم أو يمسك حتى يستدرجها إلى الهجوم؟ . . لكل طريقة لذاتها . . بيد أنه لم يشأ أن ينسى أن مجيئها وحده خطوة كبيرة من جانبها تستحق حسن الاستقبال من جانبه ، فاستطرد قائلا وكأنه يتمم حديثه الأول :

ـ بل فرصة طيبة كى أراك ! .

تحرك الجفنان والحاجبان حركة ربما دلت على الحياء أو الارتباك أو كليهما معا ، ولكنها فضحت قبل كل شىء فطنتها إلى ما وراء مجاملته الظاهرة من معان خفية ، على أنه رأى فى حيائها استجابة لشعورها الباطنى الذى دفعها إلى زيارته أكثر منه استجابة لقوله ، فازداد اطمئنانا إلى تخمينه الأول وراح يؤكد ما عناه فى نغمة رقيقة قائلا :

ـ أجل فرصة طيبة كى أراك .

عند ذاك قالت بلهجة تنم عن عتاب حبيس :

ـ لا أظن أنك تعد رؤيتى فرصة طيبة !

فوقعت لهجة العتاب من صدره موقع الرضى والسرور ، لكنه قال كالمحتج :

ـ صدق من قال إن بعض الظن إثم .

فهزت رأسها هزة كمن تقول له «هيهات أن يؤثر فىّ مثل هذا الكلام» وقالت :

ـ ليس ظنا فحسب ، إنى أعنى ما أقول ، إنك رجل لا يعوزك الفهم ، وأنا كذلك وإن توهمت غيره . . فلا يجوز لأحدنا أن يحاول خدع صاحبه .

ومع أن صدور هذا الكلام عن امرأة لم يمض على وفاة زوجها شهران أثار فى نفسه شعورا بالسخرية والمرارة ، فإنه تطوع لانتحال الأعذار لها ـ الأمر الذى لم يكن ليفكر فيه فى ظروف أخرى ـ قائلا لنفسه : ما أحرى صبرها على مرضه الطويل بأن يشفع لها ، ثم تخلص من شعوره الطارئ بقوة وقال متصنعا الأسى :

ـ غاضبة على؟!. يا له من حظ سيئ لا أستحقه!

فقالت فى شىء من الاندفاع ربما كان الباعث عليه ضيق المكان والزمان عن ملاعبات الأخذ والرد:

ـ قلت لنفسى وأنا فى الطريق إليك «ما ينبغى أن تذهبى».. فلاة يحق لى الآن أن ألوم إلا نفسى!

ـ بعض هذا الغضب يا ست!.. إنى أسائل نفسى عما جنيت؟!

فتساءلت بلهجة ذات معنى:

ـ ما عسى أن تصنع إذا حييت إنسانا بتحية فلم يرد بمثلها ولا حتى بأسوأ منها؟!

فأدرك من توه أنها تشير إلى ما بدا منها فى الزيارة القديمة من تودد قابله بالصمت، ولكنه تجاهل الإشارة.. وقال مجاراة لأسلوبها الرمزى:

ـ لعلها لم تبلغ سمعه لسبب أو لآخر.

ـ إنه قوى السمع والحواس جميعا.

فجرت على فمه ابتسامة عُجْب لم يتمالكها، قال بلهجة المذنب إذا أنشأ يعترف:

ـ لعله لم يردها حياء أو تقوى.

فقالت بصراحة أعجبته وهزت فؤاده:

ـ أما الحياء فلا حياء له، وأما سائر الأعذار فمن أين للقلوب الصادقة أن تباليها؟

فندت عنه ضحكة ما لبث أن اختزلها وهو يسترق النظر إلى جميل الحمزاوى الذى بدا منهمكا فى العمل بين نفر من الزبائن، ثم قال:

ـ لا أحب أن أعود إلى الملابسات التى قست علىَّ وقتذاك، على أنه لا يجوز لى أن أيأس ما دام ثمة ندم وتوبة وعفو!

فتساءلت فى إنكار:

ـ من يدرينا بالندم؟

فقال بلهجة حارة برع فى تجويدها عاما بعد عام:

ـ تجرعته طويلا والله شهيد!

ـ والتــوبة؟

فقال وهو يثقبها بنظرة متوهجة:

ـ أن ترد التحية بعشر أمثالها؟!

فتساءلت فى دلال:

ـ ومن أدراك بأن ثمة عفوا؟

فقال بلباقة :

ـ أليس العفو من شيم الكرام؟

ثم فى نشوة مسكرة :

ـ العفو كثيرا ما يكون كلمة السر لولوج الجنة .

ثم وهو يرنو إلى ابتسامة عذبة لاحت فى عينيها :

ـ الجنة التى أعنيها تقع عند ملتقى بين القصرين بالنحاسين، ومن جميل التوفيق أن بابها يفتح على عطفة جانبية بعيدا عن أعين الرقباء، وألا حارس لها!

وفطن إلى أن حارس الجنة السماوية سمى «المرحوم» الذى كان حارسا للجنة الأرضية التى يتلمس طريقه إليها، فشاب خاطره ضيق وخاف أن تكون المرأة قد فطنت إلى نفس الحقيقة الساخرة ولكنه وجدها مهومة فيما يشبه الحلم فتنهد وهو يستغفر الله فى سره. وكان جميل الحمزاوى قد فرغ من زبائنه، فأقبل على السيدة ليقضى حوائجها فسنحت للسيد فرصة للتأمل، فراح يذكر كيف رغب ابنه فهمى يوما فى خطبة مريم ابنة هذه المرأة، ثم كيف ألهمه الله الرفض، وقد اعتقد وقتذاك أنه إنما ينفذ مشيئة حرمه فحسب فلم يدر له بخلد أنه جنب ابنه شر مأساة ينكب بها زوج، وهل يمكن أن تنهج فتاة إلا على مثال أمها؟ . . وأى أم؟ . . امرأة خطيرة! . . قد تكون جوهرة ثمينة عند أمثاله من الصيادين، ولكنها فى البيوت مأساة دامية، ترى أى طريق سلكت طوال الأعوام التى عاشها زوجها ميتا حيا؟ . . كل القرائن تشير إلى طريق واحد، ولعل كثيرين من الجيران يعرفون، بل لعله لو كان فى بيته من يحسن ملاحظة هذه الأمور لما خفى عليه شىء، ولما بقيت زوجه على الولاء لها والإيمان بها حتى هذه الساعة، وعاودته رغبة ـ استحوذت عليه أول مرة عقب الزيارة المريبة القديمة، ولم يجد عندئذ سبيلا آمنا إلى تحقيقها دون إثارة الريب ـ وهى أن يحول بين المرأة المستهترة وبين بيته الطاهر، الآن يرى الظرف مهيئا ـ لتحقيق رغبته، وذلك بأن يوحى لها بقطع أسبابها بزوجه رويدا رويدا منتحلا ما يعن له من أعذار حقيقة ببلوغ الهدف دون مساس بكرامتها، هذه المرأة التى باتت أقرب ما تكون إلى فؤاده وأبعد ما تكون عن احترامه فى لحظة واحدة! . ولما انتهى الحمزاوى من إعداد حوائجها نهضت مادة يدها إلى السيد فسلم باسما وهو يقول بصوت خافت :

ـ إلى اللقاء .

فغمغمت وهى تهم بالانصراف :

ـ نحن فى الانتظار .

غادرته أوفر سعادة، نشوان بالظفر والعُجب، ولكنها خلقت له أيضا

همًّا لم يكن، همّا جديرا بأن يحتل مكانا بارزا من مشاغله اليومية، سوف يتساءل من الآن فصاعدا عن آمن السبل للانسحاب من بيت زبيدة بنفس الاهتمام الذى يتساءل به عما فعلت السلطة العسكرية وعما يبيّت الإنجليز وعما ينوى سعد، أجل جد جديد من السعادة يجر وراءه ـ كالعادة ـ ذيلا من الفكر. لولا حرصه الشديد على حب الناس له، ذلك الحب الذى يحظى منه بأسعد سعاداته، لهان عليه هجر العالمة بعد أن بلى حبه وذوت أزاهره وأغرقه الشبع فى مستنقع آسن، ولكنه يشفق دائما من أن يترك وراءه قلبا حانقا أو نفسا حاقدة، وكم يود كلما ضيق الملل أنفاسه لو يبدأه الحبيب بالهجر من ناحيته فيكون مهجورا بدل أن يكون هاجرا، وكم يود أن تنتهى علاقته بزبيدة كما انتهت أخوات لها من قبل، بكدر عابر تغسله هدايا الوداع المنتقاة، ثم يستحيل إلى صداقة وطيدة، فهل تتقبل زبيدة ـ التى يظن أنها ليست دونه شبعا ـ اعتذاره بقبول حسن؟ . . وهل يطمع فى أن تغفر له هداياه ما اعتزم من هجـر؟ . . هل تثبت أنها امرأة كبيرة القلب سخية النفس كزميلتها جليلة مثلا؟ . هذا ما ينبغى أن يفكر فيه طويلا وأن يهيىء له أنجع الذرائع. وتنهد تنهدة طويلة كأنما يشكو ما جعل الحب فانيا لا يدوم ليكفى القلب متاعب الأهواء ثم شرد به الخيال طاويا النهار فتراءى له وهو يدب فى الظلماء متلمسا سبيله إلى البيت الموعود، والمرأة تنتظر بيدها سراج.

٥٢

«أعلنت انجلترا حمايتها من تلقاء نفسها دون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية، فهى حماية باطلة لا وجود لها قانونا بل هى ضرورة من ضرورات الحرب تنتهى بنهايتها. .».

كان فهمى يملى الكلمات، كلمة كلمة، فى أناة وبصوت واضح النبرات والأم وياسين وزينب يتابعون باهتمام درس الإملاء الجديد الذى انكب كمال على كتابته، مركزا وعيه فى ألفاظه من دون أن يفقه معنى كلمة مما كتب صوابا أو خطأ. لم يكن غريبا أن يلقى فهمى على شقيقه الصغير درسا فى الإملاء أو غيرها فى جلسة القهوة، ولكن موضوع الإملاء بدا جديدا حتى للأم وزينب، أما ياسين فنظر إلى أخيه مبتسما:

ـ أرى هذه المعانى قد ملكت عليك نفسك. . فلم يفتح الله عليك بإملاء لهذا الغلام المسكين إلا خطبة سياسية وطنية ينفتح لها المغلق من أبواب السجون.

فبادر فهمى إلى تصحيح رأى أخيه قائلا:

ـ هى من خطبة سعد أمام سلاطين الاحتلال فى جمعية الاقتصاد والتشريع.

فتساءل ياسين باهتمام ودهشة:

ـ وكيف كان ردهم عليه؟

فقال فهمي بانفعال:

ـ لم يجيء ردهم بعد، والكل يتساءل عنه في حيرة وقلق، إنها غضبة مزمجرة في وجه أسد لم يؤثر عنه الحلم أو العدل.

ثم وهو يتنهد مغيظا محنقا:

ـ كان لابد من غضبة بعد أن منع الوفد من السفر، وبعد أن استقال رشدي باشا من الوزارة فخيب السلطان المأمول بقبول استقالته.

ثم مضى إلى حجرته مسرعا، وعاد وهو يبسط ورقة مطوية وقدمها إلى أخيه وهو يقول:

ـ ليست الخطبة كل ما عندي، اقرأ هذا المنشور الذي يوزع سرا متضمنا رسالة الوفد إلى السلطان..

فتناول ياسين المنشور وراح يقرأ:

ـ «يا صاحب العظمة..».

يتشرف الموقعون على هذا أعضاء الوفد المصري أن يرفعوا إلى مقام عظمتكم بالنيابة عن الأمة ما يلي:

لما اتفق المحاربون على أن يجعلوا مبادئ الحرية والعدل أساسا للصلح وأعلنوا أن الشعوب التي غيرت الحرب مركزها يؤخذ رأيها في حكم نفسها أخذنا على عاتقنا السعي في استقلال بلادنا والدفاع عن قضيتها أمام مؤتمر السلام ما دام أن الحق الأقوى قد زال من ميدان السياسة، وما دامت بلادنا قد أصبحت بزوال السيادة التركية حرة من كل حق عليها لأن الحماية التي أعلنها الإنجليز بلا اتفاق بينهم وبين الأمة المصرية باطلة، ولم تكن في الواقع إلا ضرورة حربية تزول بزوال الحرب، اعتمادا على هذه الظروف وعلى أن مصر غرمت كل ما قدرت عليه من المغارم في صف القائلين بحق حرية الأمم الصغرى، لا يكون لدى مؤتمر السلام ما يمنع من الاعتراف بحريتنا السياسية جريا على المبادئ التي أسس عليها.

عرضنا رغبتنا في السفر على رئيس وزرائكم صاحب الدولة حسين رشدي باشا، فوعد بمساعدتنا على السفر وثوقا منه بأننا إنما نعبر عن رأي الأمة كافة.. فلما لم يسمح لنا بالسفر وحبسنا داخل حدود بلادنا بقوة الاستبداد لا بقوة القانون، وحيل بيننا وبين الدفاع عن قضية هذه الأمة الأسيفة، ولما لم يستطع دولته أن يحتمل مسئولية البقاء في منصبه في حين أن الشعب يصادر في مشيئته، استقال هو وزميله صاحب المعالي عدلي يكن باشا استقالة نهائية قوبلت من الشعب بتكريم شخصيهما والاعتراف بصدق وطنيتهما.

ولقد كان الناس يظنون أنه كان لهما فى وقفتهما الشريفة دفاعا عن الحرية عضد قوى من نفحات عظمتكم، لذلك لم يكن ليتوقع أحد فى مصر أن يكون آخر حل لمسألة سفر الوفد قبول استقالة الوزيرين، لأن فى ذلك متابعة للطامعين فى إذلالنا وتمكينا للعقبة التى ألقيت فى سبيل الإدلاء بحجة الأمة إلى المؤتمر، وإيذانا بالرضى بحكم الأجنبى علينا إلى الأبد.

قد نعلم أن عظمتكم ربما كنتم مضطرين لاعتبارات عائلية أن تقبلوا عرش أبيكم العظيم الذى خلا بانتقال أخيكم المغفور له السلطان حسين، ولكن الأمة من جهة أخرى كانت تعتقد أن قبولكم لهذا العرش فى زمن الحماية الوقتية الباطلة رعاية لتلك الظروف العائلية ليس من شأنه أن يصرفكم عن العمل لاستقلال بلادكم، غير أن حل المسألة بقبول استقالة الوزيرين اللذين أظهرا احترامهما لإرادة الأمة لا يمكن أن يتفق مع ما جبلتم عليه من حب الخير لبلادكم، والاعتداد بمشيئة شعبكم، لذلك عجب الناس من مستشاريكم كيف أنهم لم يلتفتوا إلى الأمة فى هذا الظرف العصيب وهى إنما تطلب منكم - يا أرشد أبناء محررها الكبير محمد على - أن تكونوا لها العون الأول على نيل استقلالها، مهما كلفكم ذلك، فإن همَّتكم أرفع من أن تحددها الظروف. كيف فات مستشاريكم أن عبارة استقالة رشدى باشا لا تسمح لرجل مصرى ذى كرامة وطنية أن يخلفه فى مركزه؟!.. كيف فاتهم أن وزارة تؤلف على برنامج مضاد لمشيئة الشعب مقضى عليها بالفشل؟!

عفوا مولانا قد تكون مداخلتنا فى هذا الأمر وفى غير هذا الظرف غير لائقة.. ولكن الأمر قد جل الآن عن أن يراعى فيه أى اعتبار غير منفعة الوطن الذى أنت خادمه الأمين. إن لمولانا أكبر مقام فى البلاد فعليه أكبر مسئولية عنها، وفيه أكبر رجاءلها، وإننا لا نكذبه النصيحة إذا تضرعنا إليه أن يتعرف رأى أمته قبل أن يتخذ قرارا نهائيا فى أمر الأزمة الحالية، فإننا نؤكد لسدته العلية أنه لم يبق أحد فى رعاياه من أقصى البلاد إلى أقصاها إلا وهو يطلب الاستقلال، فالحيلولة بين الأمة وبين طلبتها مسئولية لم يتحرَّ مستشارو مولانا أمرها بالدقة الواجبة، لذلك دفعنا واجب خدمة بلادنا وإخلاصنا لمولانا أن نرفع لسدته شعور أمته التى هى الآن أشد ما تكون رجاء فى استقلالها وأخوف ما تكون من أن تلعب به أيدى حزب الاستعمار، والتى تطلب إليه بحقها عليه أن يغضب لغضبها ويقف فى صفها فتنال بذلك غرضها.. وأنه على ذلك قدير..».

رفع ياسين رأسه عن المنشور وفى عينه ذهول وفى قلبه نبض جديد من التأثير، بيد أنه هز رأسه قائلا:

- يا له من خطاب!.. لا أحسبنى أستطيع أن أوجه مثله إلى ناظر مدرستى دون أن ينالنى العقاب الرادع..!

فرفع فهمى منكبيه استهانة وقال :

ـ الأمر قد جل الآن عن أن يراعى فيه أى اعتبار غير منفعة الوطن . . !

ردد العبارة عن ظهر قلب كما وردت فى المنشور ، فلم يتمالك ياسين أن يقول ضاحكا :

ـ أحفظت المنشور! . . ولكنى لا أعجب لهذا ، كأنك كنت تترصد طول حياتك لمثل هذه الحركة كى تلقى إليها بكل قلبك ، ولعلى لا أخلو من مثل شعورك وآمالك ، ولكنى لا أقرّك على الاحتفاظ بهذا المنشور . . خصوصا بعد استقالة الوزارة وتحرش الأحكام العرفية . . !

فقال فهمى فى فخار :

ـ إنى لا أحتفظ بها فحسب ولكنى أقوم بتوزيعها ما سمح الجهد . . !

فاتسعت عينا ياسين فى قلق وهم بالكلام . . ولكن الأم كانت أسبق إليه منه فقالت بانزعاج :

ـ لا أكاد أصدق أذنى ، كيف تعرض نفسك للشر وأنت سيد العقلاء؟!

لم يدر فهمى كيف يجيبها ، ولكنه شعر بما جره عليه تهوره من حرج ، لم يكن أشفق عليه من محادثتها فى هذا الأمر ، كانت السماء أقرب إليه من إقناعها بأن تعريض نفسه للخطر فى سبيل الوطن واجب ما دام الوطن كله لا يساوى فى نظرها قلامة ظفر ، بل قد بدا له أن إخراج الإنجليز من مصر أيسر من حملها على الاقتناع بوجوب إخراجهم أو إغرائها ببغضهم ، فما أن يدور الحديث حول ذلك حتى تقول ببساطة «لماذا تكرههم يا بنى! . . أليسو أناسا مثلنا لهم أبناء وأمهات؟!» فيقول لها بحدة : «ولكنهم يحتلون بلادنا!» . . وتحس بحدة الغضب فى نبراته فتلوذ بالصمت وهى تدارى نظرة إشفاق لو نطقت لقالت له «لا عليك من هذا» . . ومرة قال لها وقد ضاق بمنطقها : «لا حياة لقوم إذا حكمهم أجنبى «فقالت له فى استغراب «ولكنا لا نزال أحياء رغم أنهم يحكموننا من زمن بعيد ، وقد أنجبتكم جميعا فى ظل حكمهم! . . إنهم يا بنى لا يقتلون ولا يتعرضون للمساجد ولا تزال أمة محمد بخير!» فقال الشاب يائسا : «لو كان سيدنا محمد حيا ما رضى أن يحكمه الإنجليز» فقالت بلهجة الحكيم : «هذا حق ، ولكن أين نحن من الرسول عليه الصلاة والسلام؟ . . كان الله يعينه بملائكته . .» فهتف بها حانقا : «سيعمل سعد زغلول ما كانت الملائكة تعمله» ولكنها هتفت وهى ترفع ذراعيها كأنما تدفع بلاء لا دافع له : «لا تقل هذا يا بنى ، استغفر ربك ، اللهم رحمتك وغفرانك!» . . هذه هى ، فكيف يجيبها الآن وقد استشعرت فى توزيع المنشور خطرا يتهدده؟ . . لم يسعه إلا أن يركن إلى الكذب فقال متصنعا الاستهانة :

ـ ما أردت إلا المزاح فلا تنزعجى للاشىء . .

فعادت المرأة تقول بنبرات تنم عن ضراعة :

ـ هذا ما أومن به يا بنى ، هيهات أن يخيب ظنى فى أرشد الراشدين ، ما لنا نحن وهذه الأمور ! إذا رأى باشواتنا أن يخرج الإنجليز من مصر فليخرجوهم بأنفسهم .

بدا كمال طوال الحديث وكأنه يحاول أن يتذكر أمرًا ذا بال ، فما بلغ الحديث تلك النقطة حتى صاح :

ـ مدرس العربى قال لنا بالأمس إن الأمم تستقل بعزائم أبنائها ! . .

فهتفت الأم ساخطة :

ـ لعله قصد بخطابه كبار التلاميذ ، أم تحدثنى يومًا بأن عندكم تلاميذ قد ظهرت شواربهم؟

فتساءل كمال بسذاجة :

ـ وأخى فهمى أليس تلميذا كبيرا؟

فقالت الأم بحدة على غير مألوفها :

ـ كلا ليس أخوك كبيرا ، إنى أعجب لذلك المدرس كيف سولت له نفسه أن يتحدث إليكم فى غير الدرس ! . . إذا شاء أن يكون وطنيا فليوجه هذه الكلام إلى أبنائه فى البيت لا إلى أبناء الناس ! . .

كاد الحديث يحمس ويستمر لولا أن سنحت كلمة عابرة فغيرت مجراه ، أرادت زينب أن تتودد إلى الأم بتأييدها فى دفاعها فحملت على مدرس العربى ونعتته بأنه «مجاور حقير عملت الحكومة منه رجلا ذا شأن فى غفلة من الزمان» . . ولكن ما أن سمعت الأم هذه الإهانة توجه إلى «المجاور» حتى أفاقت من انفعالها وأبت أن تسكت عنها رغم أنها قيلت تأييدا لها ، مدفوعة بكل ما تنطوى عليه نفسها من إجلال لذكرى أبيها فتحولت إلى زينب وقالت بهدوء :

ـ أنت يا ابنتى تحقرين أشرف ما فيه ، الشيوخ خلفاء الرسل ، إنما يلام الرجل على خروجه عن حدود وظيفته الشريفة ، ألا ليته قنع بأن يكون مجاورا وشيخا ! . .

ولم يفت ياسين سر تحول الأم المفاجئ ، فبادر بالتدخل ليمحو الأثر الذى تركه دفاع زوجته البرىء .

٥٣

- انظر إلى الطريق، انظر إلى الناس، من يقول بعد هذا إن الكارثة لم تقع؟

ولكن السيد أحمد لم يكن فى حاجة إلى مزيد من النظر، الناس يتساءلون، ويرجفون، وأصحابه يخوضون فى الحديث خوضا حارا تجاوبت فيه الحسرة مع الغضب، إلى أن الخبر قد تردد على ألسنة كافة من مرَّ به من الأصدقاء والزبائن، أجمع الكل على أن سعد زغلول وصفوة أصحابه قد اعتقلوا وسيقوا إلى مكان مجهول فى القاهرة أو خارجها، قال السيد عفت وهو محتقن الوجه بدم الحنق:

- لا تشكُّو فى صحة الخبر فإن لأخبار السوء رائحة تزكم الأنوف. . ألم يكن هذا متوقعا بعد خطاب الوفد للسلطان؟ . . أو بعد رده على الإنذار البريطانى بذلك الخطاب الجبار إلى الوزارة الإنجليزية؟!

فقال السيد بوجوم شديد:

- يعتقلون الباشوات الكبار! . . يا له من حدث مخيف، ترى ما عسى أن يصنعوا بهم؟

- الله وحده يعلم، البلد يختنق فى ظل الحكم العرفى . .

ودخل عليهم السيد إبراهيم الفار تاجر النحاس مهرولا وهو يهتف لاهثا:

- أما سمعتم بآخر الأنباء؟! . . مالطة!

وضرب يدا بيد وراح يقول:

- النفى إلى مالطة، لم يعد أحد منهم بيننا، نفوا سعدا وأصحابه إلى جزيرة مالطة . .

وهتف الجميع فى نفس واحد:

- نفـــوهم! . .

أثار «النفى» فى نفوسهم ما خامرهم منذ الصبا من ذكريات قديمة أسيفة عن عرابى باشا ونهايته، فتساءلوا وهم لا يملكون قلوبهم من الجزع: أيجرى نفس المصير علي سعد زغلول وصحبه؟ . . أينقطع حقا ما بينهم وبين الوطن إلى الأبد؟ . . أتموت هذه الآمال الكبار وهى لا تزال فى مهد الإزهار؟ . . وشعر السيد بحزن لم يشعر بمثله من قبل، حزن ثقيل غليظ شاع فى صدره كما يشيع الغثيان، عانى تحت وطأته خمودا وهمودا واختناقا وجعلوا يتبادلون نظرات ساهمة واجمة، ناطقة بغير لسان، صارخة بلا صوت، ثائرة بلا

صخب، وفى الريق مرارة واحدة، ثم جاء فى أثر الفار صاحب وثان وثالث مرددين نفس النبأ، آملين فى أن يجدوا عند الآخرين مسكّنا لما يستعر فى نفوسهم، فلا يظفرون إلا بالحزن الصامت والوجوم الكئيب والثوران الكظيم.

ـ هل تضيع الآمال اليوم كما ضاعت بالأمس؟

فلم يحر أحد جوابا، ولبث المتسائل يقلب عينيه فى الوجوه دون جدوى، لا جواب تأوى إليه النفس من مضطربها وإن أبت أن تسلم جهارا بما يميتها خوفا، نفى سعد.. هذا حق، ولكن هل يعود سعد ولو بعد حين؟.. وكيف يعود سعد؟.. أية قوة تعيده؟.. لن يعود سعد، فأين تذهب هذه الآمال العراض؟ لقد انبثقت من الأمل الجديد حياة حارة عميقة يأبى استحوازها عليهم أن يسلمهم لليأس ولكنهم لا يدرون كيف يعللون النفس ببعثها من جديد.

ـ ولكن أليس ثمة أمل فى أن يكون الخبر شائعة كاذبة؟

لم يعر أحد القائل التفاتا فى حين لم يحفل هو بهذا التجاهل لأنه لم يقصد بقوله فى الحق إلا تلمس مهرب ـ ولو وهمى ـ من اليأس الخانق.

ـ أسره الإنجليز.. ومن ذا يغالب الإنجليز!

ـ رجل ولا كل الرجال، بعث لحظة من الحياة باهرة، ومضى.

ـ كالحلم.. وسوف ينسى فلا يبقى منه إلا ما يبقى من حلم عند الضحى.. وهتف هاتف بصوت أبحَّه الألم:

ـ الله موجود..

فهتفوا بصوت واحد:

ـ نعم.. وهو أرحم الراحمين..

ذكر اسم الله فكان كالقطب الممغنط، جذب إليه شواردهم وجمع أفكارهم التى شتتها اليأس. وفى مساء ذلك اليوم ـ ولأول مرة منذ ربع قرن أو يزيد ـ بدا مجلس الإخوان مجافيا للهو والطرب يغشاه الوجوم، وتتجه أحاديثه جميعا إلى الزعيم المنفى. قهرهم الحزن، وإن يكن وجد بينهم من تنازعه الحزن والرغبة فى الشراب مثلا، فقد غلب الأولى على الثانية احتراما للشعور العام ومجاراة للموقف، بيد أنه لما طال بهم مطال الحديث حتى استنفدوا أغراضه لاذوا بما يشبه الصمت، وما لبث أن ركبهم قلق خفى وشى بحكة الإدمان التى تئن فى أعماقهم فبدوا وكأنهم ينتظرون إشارة الجسور الذى يتقدم الصفوف، ولكن السيد محمد عفت قال فجأة:

آن لنا أن نعود إلى بيوتنا..

لم يكن يعنى ما يقول، ولكن كأنما أراد أن ينذرهم بأنهم إذا تركوا الوقت يمضى كما

مضى فلن يبقى أمامهم إلا أن يعودوا إلى بيوتهم، وكانت المعاشرة الطويلة لقنتهم دقيق التفاهم بالإشارة فشجع على عبدالرحيم بائع الدقيق بهذا الإنذار الخفى وقال:

- أنعود إلى البيت دون كأس تخفف من بلوى هذا اليوم!

فأحدث قوله فى النفوس ما يحدثه الجراح فى أهل المريض إذا خرج عليهم من حجرة الجراحة وهو يقول «الحمد لله.. نجحت العملية»، إلا أن الذى تنازعه الحزن والرغبة فى الشراب قال فيما يشبه الاحتجاج متسترا على ما أثلج صدره من ارتياح:

- نشرب فى مثل هذا اليوم؟!

فحدجه السيد أحمد بنظرة ذات معنى، ثم قال متهكما:

- دعهم يشربوا، وحدهم وهلم بنا إلى الخارج يابن.. الكلب.

ندت عنهم ضحكات لأول مرة ثم جاءوا بالقوارير وكأنما أراد السيد أن يعتذر عن السلوك فقال:

- إن اللهو لا يغير ما بقلوب الرجال!

فأمنوا على قوله، كانت أول ليلة يترددون طويلا قبل الاستجابة إلى نداء الصبوات، وما لبث السيد أن قال متأثرا بمنظر القوارير:

- إنما ثار سعد لإسعاد المصريين لا لتعذيبهم فلا تخجلوا عند الحزن عليه من معاقرة الشراب.

لم يكن الحزن يمنعه من المزاح، بيد أن الليلة لم تهنأ بصفاء خال من الكدر، حتى وصفها السيد فيما بعد بأنها «ليلة مريضة تداووا فيها بجرعات من الخمر!».

* * *

استقبلت الأسرة مجلسها التقليدى فى جو من الوجوم لم تعهده من قبل، انطلق فهمى فى حديث ثورى والدموع فى عينيه، واستمع ياسين آسفا حزينا، وودت الأم أن تبدد الكآبة أو تخفف البلوى ولكنها أشفقت من انقلاب غرضها عليها، ثم ما لبثت عدوى الحزن أن انتقلت إليها فرق قلبها للشيخ العجوز الذى انتزعوه من بيته وزوجته إلى منفى بعيد، قال ياسين:

- أمر محزن، رجالنا جميعا، عباس ومحمد فريد وسعد زغلول.. مشردون بعيدا عن الوطن..

فقال فهمى بانفعال شديد:

- يا لهم من أوغاد هؤلاء الإنجليز!.. نخاطبهم باللغة التى كانوا يستعطفون بها الناس فى محنتهم فيجيبون بالإنذارات العسكرية والنفى والتشريد..

لم تطق الأم أن ترى ابنها منفعلا على تلك الحال فنسيت مأساة الزعيم وقالت برقة واستعطاف:

- ارحم نفسك يا بنى، ربنا يلطف بنا. . !

ولكن هذه اللهجة الرقيقة زادته هياجا فصاح دون أن يلتفت إليها:

- إذا لم نقابل الإرهاب بالغضب الذى يستحقه فلا عاش الوطن بعد اليوم، لا يجوز أن تنعم البلاد بالسلام وزعيمها الذى قدم نفسه فدية لها يعانى عذاب الأسر. . !

فقال ياسين متفكرًا:

- من حسن الحظ أن الباسل باشا بين المنفيين، إنه شيخ قبيلة مرهوبة الجانب ولا أظن رجاله يسكتون على نفيه. .

فقال فهمى بحدة:

- والآخرون. ؟ أليس وراءهم رجال أيضا؟ . . إنها ليست قضية قبيلة ولكنها قضية الأمة كلها. .

جرى الحديث بلا توقف وما يزداد إلا حدة وعنفا ولكن المرأتين لاذتا بالصمت إشفاقا ورعبا، لم تستطع زينب أن تدرك بواعث هذه الثورة العاطفية فلم تفهم لها معنى، نفى سعد ورجاله معه، ومن المؤكد أنهم لو عاشوا كما يعيش «عباد الله» ما فكر أحد فى نفيهم، ولكنهم لم يريدوا ذلك، أرادوا أمورا خطيرة مرادها وخيم العواقب دون ثمة ضرورة تدعو إليها، ومهما يكن من أمرهم فماذا يبعث فهمى على هذا الغضب الجنونى كأن سعدا أبوه أو أخوه؟! بل ماذا بعث ياسين - وهو الرجل الذى لا يأوى إلى فراشه إلا مترنحا من السكر - على هذا الأسف؟! أيحزن حقا من كان مثله على نفى سعد أو غيره من الناس؟! كأن حياتها فى حاجة إلى مزيد من التنغيص حتى يعكر فهمى عليها صفو الجلسة القصيرة بهذه الثورة التى لا معنى لها. جعلت تفكر فى هذا كله وهى تلحظ زوجها من آن لآخر متعجبة ساخطة ولسان حالها يقول له: «إن كنت صادقا حقا فى حزنك فلا تذهب هذا المساء - هذا المساء فقط إلى الحانة؟»، ولكنها لم تنبس بكلمة، كانت أحكم من أن تلقى بأفكارها الباردة فى هذا التيار النارى، فى هذه الناحية الأخيرة شابهتها الأم التى سريعا ما تفقد شجاعتها حيال الغضب وإن هان، لذلك لاذت بالصمت وانطوت على ضيق شديد وهى تتابع مشفقة الحديث الثائر الهائج، ولكنها كانت أعظم من زوج ياسين إدراكا لبواعث هذه العواصف فإن رأسها لم يخل من ذكرى عرابى كما أن قلبها لم يخل من أسف على أفندينا، أجل لم تكن كلمة «النفى» عاطلة من المعانى فى نفسها، بل لعلها خلت من الأمل الجدير بأن يداعب شخصا كفهمى فقد اقترنت فى ذهنها - كما اقترنت فى ذهن زوجها وأصحابه - باليأس من العودة، وإلا فأين

أفندينا؟ . . ومن أجدر منه بالعودة إلى وطنه؟ . . ولكن أيظل فهمى على حزنه ما امتد النفى بسعد. ترى أى نحس فى هذه الأيام يأبى إلا أن يبيتهم بنبأ ويصبحهم بنبأ حتى زلزل أمنهم وكدَّر صفوهم؟! كم تتمنى أن يعود السلام إلى ربوعه، وأن تطيب هذه الجلسة كما طابت العمر كله، وأن تنبسط أسارير فهمى ويلذ الحديث، كم تتمنى . .

ـ مالطة . . ! هذه هى مالطة!

هكذا صاح كمال فجأة وهو يرفع رأسه عن خريطة البحر الأبيض وقد ثبَّت أصبعه على رسم الجزيرة ونظر إلى أخيه بظفر وسرور كأنما عثر على سعد زغلول نفسه، ولكنه وجد منه وجها متجهما كالحا، لا استجاب إلى ندائه ولا أعاره أدنى اهتمام فباخ الغلام وأعاد بصره إلى رسم الجزيرة فى ارتباك وحياء، ومضى يتأمله طويلا وهو يقيس ببصره المسافة بينه وبين الإسكندرية وبينه وبين القاهرة ويتخيل صورة مالطة الحقيقية ما شاء له الخيال، ومنظر أولئك الرجال الذين يتحدثون عنهم مسوقون إليها، ولما كان قد سمع فهمى وهو يقول عن سعد إن الإنجليز قد انتزعوه على أسنَّة الرماح فإنه لم يسعه أن يتصوره إلا محمولا على أسنة الرماح، لا متألما أو صارخا كما يتوقع فى مثل تلك الحال ولكن «ثابتا كالطود» كما وصفه أخوه أيضا فى مرحلة أخرى من الحديث، وكم ود لو يستطيع أن يسائل أخاه عن كنه ذلك الرجل الساحر العجيب الذى يثبت على أسنة الرماح كالطود، ولكنه حيال ثورة الغضب التى التهمت سلام المجلس كله أجَّل تحقيق رغبته إلى فرصة أنسب، وأخيرًا ضاق فهمى بمجلسه بعد أن أيقن أن ما بصدره من عاطفة أكبر من أن تروِّح عنها محادثة أخيه فى هذا المكان الذى يقف من شعوره موقف المتفرج إن لم يكن موقف الإنكار، نازعته نفسه إلى الاجتماع بإخوانه فى قهوة أحمد عبده حيث يظفر بقلوب تستجيب لقلبه ونفوس تسابقه إلى الإعراب عما يضطرم فى قراراتها من الإحساس والرأى، هناك يسمع أصداء الغضب المتقد فى قلبه ويستأنس بإيحاءاته الجسورة الملتهبة فى جو باهر من التعطش إلى الحرية الكاملة، مال إلى أذن ياسين وهمس:

ـ إلى قهوة أحمد عبده . .

فتنفس ياسين من الأعماق لأنه كان بدأ يتساءل وهو من الحرج فى غايته ـ عن وسيلة لبقة ينسحب بها من المجلس، ليمضى إلى سهرته، دون أن يزيد من غضب فهمى اشتعالا . لم يكن ما به من أسف تصنعا، أو لم يكن تصنعا كله، هز النبأ الخطير قلبه، ولكنه لو ترك إلى نفسه لتناساه بغير جهد كبير، ولما فرض على أعصابه ما فرض من تكلف مجاراة لفهمى ومجاملة له واحتراما لغضبه الذى لم يسبق له أن رآه على مثله من قبل، غادر الحجرة وهو يقول لنفسه: «حسبى اليوم ما بذلت من جهد فى سبيل الحركة الوطنية فإن لبدنى علىَّ حقا».

٥٤

على ضربات العجن المتصاعدة من حجرة الفرن فتح فهمى عينيه، كانت الحجرة مغلقة النوافذ، فى شبه ظلام إلا ما لاح من نور باهت وراء خصاص النوافذ، ترامى إلى أذنيه همس أنفاس كمال المترددة فعطف رأسه إلى فراشه القريب، ثم انثالت عليه ذكريات الحياة، هذا صباح جديد، إنه يستيقظ من نوم عميق سلمه إلى تعب شمل النفس والجسم وإنه لا يدرى إن كان يستيقظ صباح الغد بهذا الفراش أم لا يستيقظ أبدا، لا يدرى ولا أحد يدرى، فالموت يجوب شوارع القاهرة طولا وعرضا ويرقص فى أركانها، يا للعجب، ها هى أمه تعجن كعهدها منذ قديم، وها هو كمال يغط فى نومه ويتقلب فى أحلامه، وذاك ياسين يدل وقع قدميه فوق سقف الحجرة على أنه انتزع نفسه من الفراش، أما أبوه فلعله الآن منتصب القامة تحت ماء الدش البارد، وها هو نور الصباح ذو البهاء والحياء تستأذن طلائعه فى رقه بالغة، كل شىء يواصل حياته المعهودة كأن شيئا لم يحدث، كأن مصر لم تنقلب رأسا على عقب، كأن الرصاص لا يعزف باحثا عن الصدور والرءوس. . كأن الدم الزكى لا يخضب الأرض والجدران. وأغمض الشاب عينيه وهو يتنهد مبتسما إلى تيار مشاعره الزاخر بما يحمل فى موجاته المتلاحقة من حماس وأمل وحزن وإيمان، حقا لقد حيى فى الأيام الأربعة المنطوية حياة عريضة لم يكن له بها عهد من قبل، أو أنه لم يعرفها إلا أطيافا فى أحلام اليقظة، حياة طاهرة رفيعة، حياة تجود بنفسها عن طيب خاطر فى سبيل شىء باهر أثمن منها وأجل، تتعرض للموت بلا مبالاة، وتستقبله بعناد، وتهجم عليه باستهانة، وإذا أفلتت مخالبه مرة عادت إليه كرة أخرى متنكبة عن ذكر العواقب جانبا، شاخصة طوال الوقت إلى نور رائع عنه لا تحيد، مدفوعة بقوة لا قبل لها بها، مسلمة مصيرها لله وهى تشعر به محيطا بها كالهواء يغمرها من كل جانب، هانت الحياة كوسيلة حتى لم تعد تزن ذرة، وجلّت كغاية حتى وسعت السماوات والأرض، تآخى الموت والحياة فكانا يدا واحدة فى خدمة أمل واحد، هذه تؤيده بالجهاد وذاك يؤيده بالفداء، لو أن الانفجار الرهيب لم يقع لمات غما وكمدا، فما كان يحتمل أن تواصل الحياة سيرها الهادئ الوئيد على أطلال الرجال والآمال، كان لا بد من انفجار ينفس عن صدر الوطن وصدره كالزلزال الذى ينفس عن أبخرة باطن الأرض المتجمعة، فلما وقعت الواقعة وجدته على ميعاد فألقى بنفسه فى خضمّها. . متى حدث هذا؟ . . وكيف حدث؟ . . كان راكبا ترام الجيزة فى طريقه إلى مدرسة الحقوق فوجد نفسه بين شرذمة من الطلاب يتناقشون ملوّحين بقبضاتهم، نفى سعد وهو

يعبر عن قلوبنا فإما أن يعود سعد ليواصل جهاده وإما أن ننفى معه، وانضم الراكبون من الأهالى إليهم فى الحديث والوعيد حتى الكمسارى أهمل عمله ووقف ينصت ويتكلم، يا لها من ساعة! . . فيها أشرق بنفسه الأمل من جديد بعد ليلة من الحزن واليأس قاتمة، فأيقن أن هذه النار المتقدة لن تبرد، ولما أقبلوا على فناء المدرسة وجدوه مكتظا صاخبا مرعدا فسبقتهم قلوبهم إليه، ثم هرعوا إلى زملائهم تحدثهم نفوسهم بحدث وشيك، وما لبث أن انبرى أحدهم مناديا بالإضراب! . . شىء جديد لم يسمع من قبل، بيد أنهم هتفوا بالإضراب وهم يتأبطون كتب القانون، وجاءهم ناظرهم المستر والتون فى لطف غير معهود ونصحهم بالدخول إلى الفصول فكان الجواب أن صعد شاب منهم إلى أعلى السلم المفضى إلى حجرة السكرتير وراح يخطب بحماسة فائقة فلم يسع الناظر إلا الانسحاب. وأنصت إلى الخطيب بمجامع روحه وعيناه شاخصتان إلى عينيه، وقلبه يتابع دقاته فى سرعة ونشاط، ثم ود لو يصعد إلى موقفه فيفيض من معين قلبه المستعر، ولكنه لم يكن ذا استعداد قوى للخطابة فقنع بأن يردد غيره هواتف نفسه، وتابع الخطيب بانتباه حماسى حتى وقف عند مقطع من خطابه فصاح مع زملائه جميعا فى نفس واحد «يحيا الاستقلال» ثم تابع الإنصات باهتمام بث الهتاف فيه حيوية جديدة حتى انتهى الخطيب إلى مقطع ثان فهتف مع الهاتفين «لتسقط الحماية» ووالى الإصغاء بجسم متصلب من الانفعال وهو يعض على أسنانه ليحبس الدمع الذى زفره جيشان نفسه حتى إذا بلغ الخطيب المقطع الثالث هتف مع الهاتفين «يحيا سعد»، هتاف جديد، وكل شىء جديدا بدا ذلك اليوم، بيد أنه هتاف مطرب رجَّعه قلبه من الأعماق وظل يردده مع دقاته المتابعة، كأنه صدى للسانه، بل هتاف لسانه كان صدى لقلبه، فإنه ليذكر كيف ردد قلبه هذا الهتاف فى صمت مكظوم طوال الليلة السابقة للانفجار التى باتها مغموما محسورا، كانت عواطفه المكبوتة، حبه وحماسه وطموحه وتطلعه إلى المثل الأعلى وأحلامه تائهة مبعثرة حتى انطلق صوت سعد مدويا فانجذبت طائرة إليه كما ينجذب الحمام السابح فى الفضاء إلى صفير صاحبه، ثم لا يدرون إلا والمستر إيموس نائب المستشار القضائى البريطانى لوزارة الحقانية يشق طريقه بين جموعهم فقابلوه بهتاف واحد «لتسقط الحماية. . لتسقط الحماية» فتلقاهم الرجل ببرود لم يخرق به حد اللطف ونصحهم بالعودة إلى دروسهم داعيا إياهم إلى ترك السياسة إلى آبائهم، هناك تصدى له أحدهم قائلا:

ـ ان آباءنا قد سجنوا، ولن ندرس القانون فى بلد يداس فيه القانون.

وتعالى الهتاف من أعماق القلوب كهزيم الرعد فانسحب الرجل. ود الشاب مرة ثانية لو كان هو القائل، لشد ما تنثال المعانى على روحه ولكن يسبقه السابقون إلى إعلانها فيشتد حماسه ويتعزى بأن فيما ينتظره عوضا عما يفوته، وجرت الأمور سراعا، دعا

الداعى إلى الخروج فخرجوا متظاهرين وتوجهوا إلى مدرسة المهندسخانة فسرعان ما انضمت إليهم ثم إلى الزراعة فهرع طلبتها إليهم هاتفين كأنهم على ميعاد، ثم إلى الطب فالتجارة وما بلغوا ميدان السيدة زينب حتى انتظمتهم مظاهرة كبيرة انضمت إليها جموع الأهالى وتعالى الهتاف لمصر والاستقلال وسعد، وكلما تقدموا خطوة ازدادوا حماسة وثقة وإيمانا بما يلقون فى كل مكان من مشاركة تلقائية واستجابة بديهية، وما يصادفون من نفوس متحفزة تصدعت بالغضب حتى وجدت فى مظاهرتهم المتنفس، تساءل - ودهشته لحدوث المظاهرة تكاد تغلب أنفعاله بالتظاهر نفسه - «كيف حدث هذا كله؟!». لم تكن مضت إلا بضع ساعات على الصباح الذى شهد قنوطه وانهزامه، ها هو الآن، قبيل الظهر، يشترك فى مظاهرة ثائرة يكاشفه فيها كل قلب بأنه صدى لقلبه، ويردد هتافه، ويناشده بإيمان لا يتزعزع أن يسير إلى النهاية، فأى سرور سروره، وأى حماس حماسه!.. لقد انطلقت روحه فى سماء من الأمل لا تحدها الآفاق، نادمة على ما اعتورها من قنوط، خجله بما رمت به الأبرياء من ظنون، وفى ميدان السيدة زينب بدا له منظر جديد من مناظر ذاك اليوم العجيب. رأى مع الرائين جماعات من فرسان البوليس وعلى رأسها مفتش إنجليزى تتقدم ساحبة وراءها ذيولا من الغبار، والأرض تضطرب تحت وقع السنابك، إنه ليذكر كيف مد بصره نحوهم فى ذهول من لم يسبق له أن وجد نفسه عرضة لمثل ذلك الخطر الداهم، وتلفت فيما حوله فرأى وجوها يلمع فى محاجرها الحماس والغضب فتنهد فى عصبية ولوح بيده هاتفا، أحاط الفرسان بجموعهم ولم يعد يرى من الخضم الهائل الذى يضطرب فيه إلا رقعة محدودة يغرق فى رءوسها المشرئبة، ثم ترامى إليهم أن البوليس اعتقل طلابا كثيرين ممن تصدوا لمخالفته أو كانوا على رأس المظاهرة فللمرة الثالثة ذلك اليوم تمنى، وكان تمنيه أن يكون بين المعتقلين ولكن من دون أن يخرج من الدائرة التى يتحرك فيها بجهد جهيد.

على أن ذاك اليوم كان يوم سلام بالقياس إلى اليوم الذى تلاه، بدا يوم الاثنين منذ مطلع الصباح يوم اضراب شامل اشتركت فيه جميع المدارس بأعلامها وحشود من الأهالى لا يحيط بها الحصر، بعثت مصر بلدا جديدا يبكر إلى الاحتشاد فى الميادين للحرب بغضب طال كتمانه، وألقى هو بنفسه بين الجموع فى نشوة فرح وحماس كأنه تائه ضال عثر على أهله بعد فراق طويل، وسارت المظاهرة مسيرا مشهودا مارة بدور المعتمدين السياسيين معلنة احتجاجها بمختلف اللغات، حتى بلغت شارع الدواوين وهناك سرت بين الجموع موجة اضطراب عنيفة وصاح صائحهم: «الإنجليز!» وما لبث أن فرقع الرصاص مغطيا على أصوات الهاتفين فسقط أول القتلى، وواصل قوم تقدمهم فى حماس جنونى، وتسمر آخرون، وتفرق كثيرون يلوذون بالبيوت والمقاهى، وكان هو ضمن الآخرين، اندس وراء باب وقلبه يبعث ضربات فزعة متناسيا كل شىء إلا

حياته، ولبث على ذلك زمنا لا يدريه حتى شمل السكون الدنيا جميعها فمد رأسه، ثم قدمه، ومضى إلى حال سبيله غير مصدق بالنجاة وعاد إلى بيته فيما يشبه الذهول، وفى وحدته الحزينة تمنى لو كان من الذاهبين أو فى الأقل من الثابتين، وفى وقدة الحساب العسير وعد ضميره الفظ بالتكفير، ومن حسن الحظ أن بدا ميدان التكفير متسعا وقريبا.

وجاء الثلاثاء والأربعاء فكانا كالأحد والاثنين، أيام متشابهات فى أفراحها وأحزانها، مظاهرات فهتاف فرصاص فضحايا، ألقى بنفسه فى خضمها جميعا يندفع بحماس، ويسمو إلى آفاق بعيدة من الإحساس النبيل، ويضطرب بالحياة ويعضه ندم على النجاة! ثم ضاعف من حماسه وأمله انتشار روح الغضب والثورة فما لبث أن اضرب عمال الترام وسائقو السيارات والكناسون فبدت العاصمة حزينة غاضبة موحشة. وترامت الأخبار حاملة البشرى بقرب إضراب المحامين والموظفين. إن قلب البلاد يخفق حيا ثائرا ولن تذهب الدماء هدرا ولن ينسى المنفيون فى منفاهم، لقد زلزلت اليقظة الواعية أرض وادى النيل.

تقلب الفتى فى فراشه فاسترد وعيه من لجة الذكريات وجعل يتابع دقات العجن مرة أخرى مقلبا ناظريه فى أركان الحجرة التى أخذت تستبين على النور المشرق رويدا وراء النوافذ المغلقة. أمه تعجن! ولن تزال تعجن صباحا بعد صباح، هيهات أن يشغلها حدث عن التفكير فى إعداد الموائد وغسل الثياب وتنظيف الأثاث، إن كبار الحادثات لا يعطل صغار الأعمال، وسيتسع صدر المجتمع دائما للجليل والتافه من الأمور فيرحب بها جنبا إلى جنب، ولكن مهلا، ليست أم على هامش الحياة هى التى أنجبته والأبناء وقود الثورة، وهى التى تغذيه والغذاء وقود الأبناء، الحق أن ليس ثمة شىء تافه فى الحياة.. ولكن ألا يجىء يوم يهز فيه الحادث الكبير المصريين جميعا فلا تتفرق عنده القلوب كما تفرقت فى مجلس القهوة منذ خمسة أيام؟. ألا ما أبعد هذا اليوم!. ثم جرت على شفتيه ابتسامة إذ وثب إلى ذهنه هذا السؤال: «ما عسى أن يصنع والده إذا علم «بجهاده» المتواصل يوما بعد يوم؟. ماذا يصنع أبوه الجبار المستبد وماذا تصنع أمه الرقيقة الحنون؟» ابتسم فى حيرة وهو يعلم أن المتاعب التى قد تعترضه فى تلك الحال ليست دون المتاعب التى قد تعترضه إذا نمى سره إلى السلطة العسكرية نفسها، ثم أزاح الغطاء عن صدره وجلس فى الفراش وهو يغمغم: «سيان أن أحيا أو أن أموت، الإيمان أقوى من الموت، والموت أشرف من الذل، فهنيئا لنا الأمل الذى هانت إلى جانبه الحياة، أهلا بصباح جديد من الحرية، وليقض الله بما هو قاض».

٥٥

لم يعد أحد يستطيع الادعاء بأن الثورة لم تغير ولو وجها من وجوه حياته، حتى كمال نفسه عرض لحريته التى تمتع بها طويلا فى ذهابه إلى المدرسة وإيابه منها طارئ ثقيل ضاق به كل الضيق وإن لم يستطع له دفعا، ذلك أن الأم أمرت أم حنفى بأن تتبعه فى ذهابه إلى المدرسة وعند إيابه منها، وألا تتخلى عنه بحال كى تعود به إلى البيت إذا صادفتها مظاهرة دون أن تدع له فرصة للتلكؤ، أو مطاوعة نزوات الطيش، دار رأس الأم بأنباء المظاهرات والاضطرابات وارتج قلبها لحوادث الاعتداء الوحشى على الطلبة فعانت من ذاك الزمن أياما كالحات ملأتها هلعا وجزعا فودَّت لو تستبقى ابنيها إلى جانبها حتى تثوب الأمور إلى مستقرها، ولكنها لم تجد إلى تحقيق مرادها من سبيل خصوصا بعد أن وعد فهمى - وهو من ثقتها فى «عقله» لا تتزعزع - أنه لا يشترك فى الإضراب بتاتا، وبعد أن رفض الأب فكرة استبقاء كمال فى البيت لعلمه بأن المدرسة تحول بين صغار التلاميذ وبين الاشتراك فى الإضراب. سلَّمت الأم بذهاب الأخوين إلى المدرسة على كره منها ولكنها فرضت على كمال رقابة أم حنفى وهى تقول له: «لو كان بوسعى أن أخرج كما أشاء لتبعتك بنفسى» وقد عارضها كمال بما وسعه من قوة لأنه أدرك بالبداهة أن هذه الرقابة التى لن تخفى عن أمه خافية من شئونه ستقضى قضاء مبرما على كل ما يتمتع به فى الطريق من ألوان العبث والشطارة، وإنها ستلحق هذه الفترة القصيرة السعيدة من يومه بالسجنين اللذين يتردد بينهما: البيت والمدرسة، إلى هذا امتعضت نفسه، أشد الامتعاض من السير فى الطريق مصطحبا هذه المرأة التى ستلفت الأنظار حتما ببدانتها المفرطة ومشيتها المتهالكة، ولكنه لم يسعه إلا أن يذعن لرقابتها سيما بعد أن أمره أبوه بقبولها، قصارى ما استطاعه تنفيسا عن صدره أنه كان ينتهرها كلما تدانت منه، وأنه حتَّم عليها أن تتأخر عنه مسيرة أمتار. على تلك الحال مضيا إلى مدرسة خليل أغا صباح الخميس وهو خامس أيام المظاهرات فى القاهرة، ولما بلغا باب المدرسة اقتربت أم حنفى من البواب وسألته تنفيذا للأمر اليومى الذى تلقته فى البيت:

- هل يوجد تلاميذ فى المدرسة؟

فأجابها الرجل بغير اكتراث:

- منهم من يدخل، ومنهم من يذهب، والناظر لا يتعرض لأحد!

كانت هذه الإجابة مفاجأة سيئة لكمال، كان مهيأ النفس لسماع الإجابة التى باتت

مألوفة منذ يوم الاثنين وهى «التلاميذ مضربون» فيعودان إلى البيت حيث يمضى سحابة النهار فى حرية حببت إلى قلبه الثورة من بعيد، ونازعته نفسه إلى الهرب تفاديا من عواقب الإجابة الجديدة فخاطب البواب قائلا:

ـ أنا ممن يذهبون.

وابتعد عن المدرسة والمرأة فى أثره، بيد أنها سألته: لماذا لا يدخل مع الداخلين؟ فرجاها مترددا لأول مرة فى حياته ـ أن تقول لأمه أن التلاميذ مضربون، وزيادة فى الرجاء والتودد دعا لها ـ وهما يمران بجامع الحسين ـ بطول العمر والسعادة، إلا أن أم حنفى لم تستطع إلا أن تصارح الأم بالحقيقة كما سمعتها فأنَّبته الأم على كسله وأمرت المرأة بأن تعود به إلى المدرسة فغادرا البيت وهو يسلقها بلسان حاد راميا إياها بالخيانة والغدر، لم يجد فى المدرسة إلا لداته. . ذوى الأسنان الصغيرة، أما من عداهم، وهم الأغلبية الساحقة، فكانوا مضربين، وألفى فى فصله، الذى كان يتوافر له من صغار التلاميذ ما لم يتوافر لغيره من الفصول ـ نحوا من ثلث التلاميذ، بيد أن المدرس أمرهم أن يراجعوا دروسهم السابقة وانكب هو على تصحيح بعض الكراسات فتركهم فى شبه إضراب فى الواقع. فتح كمال كتابا متظاهرا بالقراءة دون أن يعيره أدنى انتباه فقد ساءه البقاء فى المدرسة بلا عمل فلا هو مع المضربين ولا هو فى البيت يتمتع بالفراغ الذى جادت به هذه الأيام العجيبة بلا حسبان، ضاق بالمدرسة كما لم يضق من قبل، وهفا خياله إلى أولئك المضربين فى الخارج بدهشة واستطلاع، كثيرا ما تساءل عن حقيقة أمرهم، أهم كما تدعى أمه «متهورون» لا يرحمون أنفسهم ولا أهليهم ملقين بأرواحهم إلى التهلكة، أم هم كما يصفهم فهمى أبطال فدائيون يجاهدون عدو الله وعدوهم؟! وكثيرا ما مال إلى رأى أمه لحنقه على التلاميذ الكبار ـ فئة المضربين ـ الذين خلفوا فى نفسه ونفوس أضرابه من التلاميذ الصغار أسوأ الآثار بما ينالهم على أيديهم من غلظة واستكبار وهم يتحدونهم فى فناء المدرسة بضخامة أجسامهم وقحة شواربهم، بيد أنه لن يستسلم إلى هذا الرأى كل الاستسلام طالما كان لقول فهمى من الإقناع فى نفسه ما لا قبل له بالاستهانة به، لن يسعه أن يسلبهم ما يضفيه عليهم من ضروب البطولة حتى ود لو يطَّلع من مكان آمن على معاركهم الدامية، قامت قيامة الدنيا ما فى ذلك من شك، أو فلماذا يضرب المصريون وينطلقون جماعات إلى الاشتباك بالجنود؟! وأى جنود؟! الإنجليز؟ الإنجليز الذين كان يكفى ذكر اسمهم لإخلاء الطرقات!. . ماذا حدث للدنيا وللناس؟!. . ذاك صراع عجيب قضى عنفه بأن تنقش عناصره الجوهرية فى نفس الغلام بلا وعى أو قصد فتغدو أسماء سعد زغلول. الإنجليز. الطلبة. الشهداء. المنشورات. المظاهرات، من القوى المؤثرة الموحية فى أعماقه وإن وقف من معانيها موقف المستطلع الحائر. وضاعف من حيرته أن آله استجابوا للحوادث استجابة متباينة وأحيانا متناقضة، فبينما يجد فهمى ثائرا

يحمل على الإنجليز بحنق قاتل ويحن إلى سعد حنينا يفجر الدمع، إذا بياسين يناقش الأخبار فى اهتمام رصين مشوب بأسف هادئ لا يمنعه من مواصلة حياته المعتادة بين السمر والضحك وتلاوة الأشعار والقصص، ثم السهر حتى منتصف الليل، أما أمه فلا تكف عن دعاء الله أن ينشر السلام ويعيد الأمان ويصفى قلوب المصريين والإنجليز جميعا، والأدهى من كل أولئك زينب زوجة أخيه التى أفزعتها الأحداث فلم تجد من تصب عليه غضبها إلا سعد زغلول نفسه متهمة إياه بأنه سبب هذا الشر كله، وإنه «لو عاش كما يعيش عباد الله فى دعة وسلام ما تعرض له أحد بسوء ولا اشتعلت تلك النيران». لذلك كان حماس الغلام يستعر لفكرة الصراع نفسه، وحزنه يفيض بفكرة الموت فى ذاته دون أن يكون لنفسه معنى واضحا لما يدور حوله من بعيد أو قريب، وكم أسف يوم دعا تلاميذ خليل أغا إلى الإضراب ـ لأول مرة ـ فسنحت له فرصة ليشهد مظاهرة عن كثب أو يشترك فيها ولو فى فناء المدرسة، ولكن الناظر بادر إلى حجز صغار التلاميذ فى فصولهم فأفلتت الفرصة ووجد نفسه وراء الجدران ينصت إلى الهتافات العالية فى دهشة ممزوجة بسرور خفى، لعل مبعثه الفوضى التى نشبت فى كل شىء فعصفت بالروتين اليومى الثقيل بلا رحمة. أفلتت ذلك اليوم فرصة الاشتراك فى مظاهرة كما ضاعت اليوم فرصة الاستمتاع بالفراغ فى البيت، وسيبقى مغلولا فى هذه الجلسة المملة ينظر فى الكتاب بعينين لا تريان شيئا، ويسترق لمسات مع رفيقه على القمطر فى حذر وخوف حتى يدرك نهاية النهار الطويل، ولكن ثمة شىء استرعى انتباهه فجأة، قد يكون صوتا غريبا بعيدا أو وشًا فى الأذن، ولكى يستوثق من حاسته نظر فيما حوله فرأى رءوس التلاميذ مرفوعة وأعينهم تتبادل النظرات ثم تتجه معا صوب النوافذ المطلة على الطريق، إنه حقيقة وليس وهما ما استرعى انتباههم، إنها أصوات مندمجة فى صوت ضخم غير متمايز تسمع لبعدها كهدير الأمواج من بعيد، الآن وقد أخذت تشتد يمكن أن تسمى ضوضاء، بل ضوضاء تقترب، وسرت فى الفصل حركة وتعالى الهمس ثم ارتفع صوت قائلا: «مظاهرة!». فخفق قلب الغلام وعلت عيناه لمعة تجمع بين السرور والاضطراب، وجعلت الضوضاء تقترب وتقترب حتى وضحت هتافا يرعد ويزمجر فى جميع الجهات المحيطة بالمدرسة، وعادت تقرع أذنيه الأسماء التى ملأت ذهنه طوال الأيام الماضية.. سعد.. الاستقلال.. الحماية، وتدانى الهتاف وعلا حتى أطبق على فناء المدرسة نفسها فوجمت قلوب التلاميذ وأيقنوا أن الطوفان لابد مغرقهم، ولكنهم قابلوا ذلك بسرور صبيانى تنكب عن تقدير العواقب فى حمية نزوعه إلى الفوضى والانطلاق، ثم ترامى إليهم وقع أقدام مقبلة فى سرعة وصخب، ثم فتح الباب على مصراعيه تحت وقع صدمة عنيفة واندفعت إلى الحجرة جماعات من الطلبة والأزهريين كما تندفع المياه من فوهة الخزّان وهم يصيحون: «إضراب.. إضراب.. لا ينبغى أن

يبقى أحد»، وفى لحظات وجد نفسه غائصا فى موج مصطخب يدفعه أمامه دفعا يعطل كل مقاومة وهو من الاضطراب فى غاية، تحرك فى بطء شديد تحرك حبوب البن فى فوهة الطاحونة لا يدرى أين تقع عيناه، ولا يرى من الدنيا إلا أجساما متلاصقة فى ضجة تصك الآذان حتى استدل بظهور السماء فوق رأسه على بلوغ الطريق، واشتد الضغط عليه حتى كادت تكتم أنفاسه فصرخ صراخا حادا عاليا متواصلا من شدة الفزع، وما يدرى إلا ويد تقبض على ذراعه وتجذبه بقوة وهى تشق بين الناس طريقا حتى ألصقته بجدار على الطوار، فراح يلهث ويتلمس فيما حوله منجى حتى عثر على دكان حمدان بائع البسبوسة وقد أنزل بأبها الحديدى إلى ما فوق العتبة بقليل، فهرع إليه ودخل زحفا على ركبتيه، ولما قام فى الداخل رأى عم حمدان الذى كان يعرفه حق المعرفة وامرأتين وبعض صغار التلاميذ فأسند ظهره إلى جدار القائمة التى تحمل الصوانى وصدره يعلو وينخفض بلا توان. وسمع عم حمدان وهو يقول:

ـ أزهريون، طلبة، عمال، أهالى.. جميع الطرقات المؤدية إلى الحسين مكتظة بالبشر.. ما كنت أحسب قبل اليوم أن الأرض تستطيع أن تحمل كل هؤلاء البشر.

إحدى المرأتين بدهشة:

ـ كيف يصرون على التظاهر بعد ما كان من إطلاق النار عليهم؟

المرأة الأخرى بحسرة.:

ـ ربنا الهادى، كلهم أبناء ناس يا ولداه.

فقال عم حمدان:

ـ لم نر شيئا كهذا من قبل، ربما يحميهم.

تفجر الهتاف فى الحناجر يزلزل الجو زلزالا، حينا عن قرب كأنه يدوى فى الدكان، وحينا عن بعد فى ضوضاء شديدة غير متمايز كهزيم الريح، وتواصل بلا انقطاع، فى حركة بطيئة مستمرة دل عليها تفاوت درجات الشدة والارتفاع بين الأمواج القادمة والذاهبة، وكلما ظن أنه انقطع جاء غيره حتى بدا وكأن لا نهاية له، تركزت حياة كمال فى أذنيه وهو يرهف السمع فى اضطراب وقلق، بيد أنه لما تتابع الوقت دون وقوع مكروه استرد أنفاسه ومضى يعاوده الشعور بالطمأنينة، ثم وسعه أخيراً أن يفكر فيما يدور حول كطارئ لا يلبث أن يزول فتساءل متى يجد نفسه فى البيت ليروى لأمه ما وقع له؟ «اقتحمت علينا الفصول مظاهرة لا أول لها ولا آخر، وما أدرى إلا وتيارها الزاخر يحيط بى ويجرفنى إلى الشارع، وهتفت مع من هتف: ليحيى سعد، لتسقط الحماية، ليحيى الاستقلال. وما زلت أنتقل من طريق إلى طريق حتى هجم الإنجليز علينا وأطلقوا الرصاص». ستفزع عند ذاك لحد البكاء ولا تكاد تصدق أنه حى يرزق وستتلو آيات كثيرة

وهى ترتجف. «ومرت رصاصة جنب رأسى ما زال عزيقها يطن فى أذنى، وتخبط الناس كالمجانين، وكدت أهلك مع الهالكين لولا أن جذبنى رجل إلى دكان. . ».

انقطع حبل أحلامه على صياح عال غير منتظم ووقع أقدام متدافعة فى اضطراب، فخفق قلبه ونظر فى وجوه من حوله فرآهم محملقين فى الباب كمن يتوقع ضربة على أم رأسه، واقترب عم حمدان من الباب وانحنى حتى نظر من الفرجة فى أسفله ثم تراجع وأنزله حتى ألصقه بالأض بسرعة وهو يتمتم فى اضطراب:

ـ الإنجـــليز. . !

وصاح كثيرون فى الخارج: «الإنجليز. . الإنجليز» ونادى آخرون «الثبات. . الثبات» وهتف غيرهم «نموت ويحيا الوطن». . ثم سمع الغلام لأول مرة فى حياته الصغيرة طلقات الرصاص عن بعد قريب فعرفها بالبداهة وارتعدت أوصاله، وما أن ندت عن المرأتين صرخة حتى أفحم فى البكاء، وجعل عم حمدان يقول بصوت متهدج: «وحدوا الله. . وحدوا الله» ولكن الغلام شعر بالخوف، باردا كالموت يزحف على جسمه كله من قدميه إلى رأسه. وتوالت الطلقات، وصكت الآذان صلصلة عجلات وصهيل خيل، تتابعت الأصوات والحركات فى سرعة فائقة تلاحقها زمجرات وصراخ وأنين، فترة اعتراك خاطفة بدت للقابعين وراء الباب دهرا فى حضرة الموت. . ثم حل صمت مخيف كالإغماء الذى يعقب تبريح الألم، تساءل كمال بصوت متهدج مبحوح:

ـ ذهبـــوا؟!. .

فوضع عم حمدان سبابته على فيه وهو يغمغم «هس». . وتلا آية الكرسى، فتلا كمال فى سرِّه ـ إذ خانته قدرته على الكلام ـ «قل هو الله أحد» لعلها تطرد الإنجليز كما تطرد العفاريت فى الظلام. على أن الباب لم يفتح إلا عند الظهر فانطلق الغلام إلى الطريق المقفر ثم أطلق للريح ساقيه، وفيما هو يمر بالسلم الهابط إلى قهوة أحمد عبده لمح شخصا صاعدا عرف فيه أخاه فهمى فهرع إليه كغريق عثرت يده على أداة النجاة وقبض على ذراعه فالتفت الشاب نحوه فزعا، ولما عرفه هتف به:

ـ كمال؟! أين كنت أثناء الضرب؟

ولاحظ الغلام أن صوت أخيه مبحوح مطموس المخارج، بيد أنه أجابه بقوله:

ـ كنت فى دكان عم حمدان وسمعت الرصاص وكل شىء. .

فقال له بعجلته ولهوجته:

ـ اذهب إلى البيت ولا تقل لأحد إنك قابلتنى. . سامع؟

فسأله الغلام بارتباك:

ـ ألا تعود معى؟!

فقال باللهجة نفسها :

ـ كلا . . ليس الآن . . سأعود فى موعدى المعتاد ، لا تنس أنك لم تقابلنى قط .

ودفعه حتى لا يدع له فرصة للمناقشة فاندفع الغلام راكضا حتى بلغ منعطف خان جعفر ، فرأى شيخا واقفا وسط الطريق يشير إلى الأرض ويخاط نفرا من الرجال فنظر حيث يشير فرأى بقعا حمراء ملبَّسة بالتراب ، وسمعه يقول بلهجة رثائية :

ـ هذا الدم الزكى يستصرخنا إلى مواصلة الجهاد ، وقد شاء الله أن يسفك فى رحاب سيد الشهداء لنصل فى الاستشهاد حاضرنا بماضينا ، والله معنا . .

وأحس فزعا يركبه ، فاسترد بصره من الأرض الدامية وانطلق يعدو كالمجنون .

٥٦

كانت أمينة تتلمس طريقها إلى باب الحجرة خلال ظلمة السَّحر ، فى حذر وتمهل أن توقظ السيد ، حين ترامى إلى أذنيها لغط غريب صاعدا من الطريق يطن طنين النحل . لم يكن يطرق أذنيها فى هذه الساعة التى اعتادت أن تستيقظ فيها إلا صلصلة عجلات عربات الدبش وسعال العمال المبكرين وهتاف رجل يحلو له عند مرجعه من صلاة الفجر أن يردد فى الصمت الشامل صائحا بين حين وآخر «وحّدوه» أما هذا اللغط الغريب فلم تسمعه من قبل ، وحارت فى تفسيره فتطلعت إلى معرفة مصدره فمضت بخطواتها الخفيفة إلى نافذة بالصالة مطلة على الطريق ثم رفعت خصاصها وأخرجت رأسها فوجدت فى الخارج ظلمة مختلطة عند الأفق ببشائر ضياء ولكن ليس إلى الحد الذى تستطيع معه رؤية ما يجرى تحتها بيد ، أن اللغط ازداد ارتفاعا ، وازداد فى الوقت نفسه غموضا ، حتى تبينت فيه أصواتا آدمية مجهولة النسب . دارت عيناها فى الظلام الذى أخذت تألفه شيئا ما فرأت تحت سبيل بين القصرين وما يليه من تقاطع النحاسين مع درب قرمز أشباحا آدمية غير واضحة المعالم ، وأشياء على هيئة أهرامات صغيرات ، وأخرى كأنها الأشجار القصار ، فارتدَّت فى حيرة ونزلت قاصدة حجرة فهمى وكمال ، ثم ترددت ، أتوقظه ليرى ما هنالك ويحل لها تلك الألغاز أم تؤجل ذلك إلى حين استيقاظه؟! ثم أبت أن تزعجه طاوية رغبتها حتى موعد استيقاظه عند مطلع الشمس الوشيك ، ثم صلَّت ، ثم عادت مدفوعة بحب الاستطلاع إلى النافذة فأطلَّت منها . بدا وشى الشروق ناشبا فى غلالة السحر وأضواء الصباح تسيل من ذرى المآذن والقباب ، فأمكنها أن ترى الطريق فى كثير من الوضوح وفتشت عيناها عن الأشباح التى راعتها فى

الظلام فتبينت حقيقتها وندت عنها آهة فزع وارتدت مهرولة إلى حجرة فهمى فأيقظته بلا احتراس فانتفض الشاب جالسا فى فراشه وهو يتساءل منزعجا :

ـ مالك يا أماه . . ؟

فقالت وهى تلهث :

ـ الإنجليز يملأون الطريق تحت بيتنا . .

هب الشاب من فراشه واثبا إلى النافذة ورمى ببصره فرأى تحت سبيل بين القصرين معسكرا صغيرا يشرف على رءوس الطرق التى تتفرع عنده، يتكون من عدد من الخيام، وثلاث لوريات وشراذم متفرقة من الجند، وفيما يلى الخيام أقيمت البنادق أربعا أربعا، كل مجموعة تتساند رءوسها وتفترق قواعدها على هيئة هرم، وقد وقف الحراس كالتماثيل أمام الخيام وتبعثر الآخرون وهم يتراطنون ويتضاحكون، ورمى الشاب ببصره ناحية النحاسين فرأى معسكرا ثانيا عند تقاطع النحاسين بالصاغة كما رأى فى الناحية الأخرى من بين القصرين معسكرا ثالثا عند منعطف الخرنفش، ابتدره خاطر أهوج لأول وهلة أن هؤلاء الجنود قد جاءوا للقبض عليه! . . ولكنه ما لبث أن استسخفه معتذرا عنه بقومته المزعجة من النوم الذى لم يكد يفيق منه، وبهذا الإحساس بالمطاردة الذى لم يفارقه منذ شبت الثورة، ثم وضحت له الحقيقة رويدا، وهي أن الحى الذى أتعب السلطة المحتلة بمظاهراته المتواصلة قد احتل احتلالا عسكريا ـ لبث ينظر خلال الخصاص متفحصا للجنود والخيام والبنادق واللوريات وقلبه يخفق فى رهبة وحزن وحنق، حتى تحول عن النافذة شاحب اللون وهو يتمتم مخاطبا أمه :

ـ إنهم الإنجليز كما تقولين، جاءوا للإرهاب ومنع المظاهرات فى منابتها . . وجعل يقطع الحجرة ذهابا وإيابا وهو يقول فى سره حانقا «هيهات . . هيهات» حتى سمع أمه تقول :

ـ سأوقظ والدك لأخبره بالأمر . .

قالتها المرأة كآخر ما عندها من حيلة، كأن السيد ـ الذى يحل لها جميع مشكلات حياتها ـ كفيل أيضا بأن يجد حلا لهذا المشكل يبلغ به بر الأمان، ولكن الشاب قال لها بأسى :

ـ دعيه حتى يستيقظ فى وقته . .

فتساءلت المرأة فى رهبة :

ـ ماذا نفعل يا بنى وهم مرابطون أمام مدخل بيتنا؟

فهز فهمى رأسه فى حيرة قائلا :

ـ ماذا نفعل؟! (ثم بلهجة أكثر ثقة) لا داعى للخوف، ليس إلا أنهم يرهبون المتظاهرين . .

قالت وهى تزدرد ريقا جافا:

ـ أخاف أن يعتدوا على الآمنين فى بيوتهم . .

ففكر قليلا فى قولها ثم تمتم:

ـ كلا لو كان الاعتداء على البيوت مقصدهم ما وقفوا ساكنين حتى الآن . . لم يكن مطمئنا إلى قوله كل الاطمئنان ولكنه وجده أوفق ما يقال، وعادت أمه تسائله:

ـ وحتى متى يقيمون بيننا؟!

بطرف شارد أجابها:

ـ من يدرى؟! . . إنهم ناصبون الخيام فلن يرحلوا سريعا . .

تنبه إلى أنها تسأله كما لو كان قائد القوات العسكرية فنظر إليها فى عطف وهو يدارى بسمة ساخرة فرَّجت ما بين شفتيه الممتقعتين، وفكر لحظة فى مداعبتها ولكن كآبة الموقف صدَّت نفسه، فعاوده الجد كما يقع له أحيانا إذا روى ياسين له «نادرة» من نوادر والده تدعوه بطبيعتها إلى الضحك ولكن يصده عنه القلق الذى يعتريه كلما اطلع على جانب من شخصية أبيه الخفية، وسمعا وقع أقدام تهرول نحوهما، ثم اقتحم الحجرة ياسين تتبعه زينب على الأثر، وصاح الشاب الذى بدا منتفخ العينين مشعث الشعر:

ـ أرأيتم الإنجليز . . ؟

وهتفت زينب:

ـ أنا التى سمعتهم ثم أطللت من النافذة فرأيتهم وأيقظت سى ياسين . .

وواصل ياسين الحديث قائلا:

ـ لقد نقرت على باب والدى حتى استيقظ وأخبرته ولما رآهم بنفسه أمر بألا يغادر البيت أحد وألا يرفع مزلاج البيت، ولكن ماذا هم فاعلون؟ . . وما عسى أن نصنع؟ . . ألا توجد فى البلد حكومة تحمينا؟ . .

فقال له فهمى:

ـ لا أظنهم يتعرضون لغير المتظاهرين:

ولكن حتى متى نظل محبوسين فى بيوتنا؟! . . إن البيوت ملأى بالنساء والأطفال فكيف يعسكرون تحتها؟

فغمغم فهمى فى ضيق:

ـ سيجرى علينا ما يجرى على غيرنا فلنصبر ولننتظر . .

وهتفت زينب فى عصبية ظاهرة :

ـ لم نعد نسمع أو نرى إلا الرعب والحزن ، ربنا على أولاد الحرام . .

عند ذاك فتح كمال عينيه فرددهما دهشا فى المجتمعين فى حجرته علي غير انتظار ، ثم جلس فى فراشه وتطلع إلى أمه بعينين متسائلتين فاقتربت من فراشه وربتت بيدها الباردة على رأسه الكبير ثم قرأت بصوت مهموس وعقل شارد الفاتحة ، فسألها الغلام :

ـ ماذا جاء بكم إلى هنا؟

رأت أن تبلغه الخبر فى أحسن صورة ممكنة فقالت برقة :

ـ لن تذهب اليوم إلى المدرسة . .

فتساءل بابتهاج :

ـ بسبب المظاهرات؟

فقال فهمى بشيء من الحدة :

ـ الإنجليز يسدون الطريق !

شعر كمال بأنه أدرك سر تجمعهم فقلب عينيه فى الوجوه مذهولا ، ثم وثب إلى النافذة ونظر من خصاصها طويلا ثم عاد وهو يقول باضطراب :

ـ البنادق أربع أربع . .

ونظر إلى فهمى كالمستغيث وتمتم فى خوف :

ـ سيقتلوننا . . ؟

ـ لن يقتلوا أحد ، جاءوا لمطاردة المتظاهرين . .

ومضت فترة صمت قصيرة وإذا بالغلام يقول وكأنه يخاطب نفسه :

ـ ما أجمل وجوههم ! . .

فسأله فهمى ساخرا :

ـ هل أعجبوك حقا؟ . .

فقال كمال بسذاجة :

ـ جدا ، كنت أتخيلهم كالشياطين . .

فقال فهمى بمرارة :

ـ من يدرى ، لعلك لو رأيت الشياطين أعجبك منظرهم . . !

لم يرفع مزلاج الباب فى ذلك اليوم ، ولم تفتح نافذة من النوافذ المطلة على الطريق ولو لتغيير الهواء وإدخال الشمس ، ولأول مرة تبسّط السيد أحمد فى الحديث على مائدة

الإفطار فقال بلهجة العليم الخبير إن الإنجليز يتشددون فى منع المظاهرات وإنهم لهذا احتلوا الأحياء التى تكثر بها المظاهرات وأنه رأى أن يمكثوا يومهم فى البيت حتى تتضح الأمور. استطاع الرجل أن يتكلم بثقة وأن يحافظ على مظهره المعهود من الجلال وألا يدع منفذا لأحد يتسرب منه إلى القلق الذى تفشى فى باطنه مذهب من فراشه على نقر ياسين، ولأول مرة كذلك جسر فهمى على مناقشة رأى أبيه فقال بأدب:

- ولكن يا والدى قد تظننى المدرسة إذا مكثت فى البيت من المضربين!

لم يكن السيد يعلم شيئا طبعا عن اشتراك ابنه فى المظاهرات فقال:

- للضرورة أحكام، أخوك موظف وموقفه أدق من موقفك ولكن العذر واضح..

لم تواته شجاعته على مراجعة أبيه خشية أن يغضبه من ناحية، ولأنه من ناحية أخرى- وجد فى أمره بمنع مغادرة البيت عذرا يبرر به أمام ضميره امتناعه عن الخروج إلى الطريق المحتل بالجنود المتعطشين إلى دماء أمثاله من الطلبة. انفضت المائدة فأوى السيد إلى حجرته، وما لبثت الأم وزينب أن اشتغلتا بواجباتهما اليومية، ولما كان اليوم مشمسا، وهو يوم من أيام مارس الأخيرة التى تكتنز فى أعطافها نسائم دافئة من أنفاس الربيع فقد صعد الإخوة الثلاثة وجلسوا تحت عرش اللبلاب والياسمين. ووجد كمال فى خُص الدجاج تسلية وأى تسلية فانتقل إليها، وراح يبذر للدجاج الحَب ويطاردها مسرورا بدجدجتها ويلتقط ما يعثر عليه من البيض فى حين راح الأخوان يتحدثان بالأنباء المثيرة التى تناقلتها الألسنة عن الثورة المستعرة فى جنبات الوادى من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه. تكلم فهمى عما يعلم من قطع السكك الحديد والتلغرافات والتليفونات وقيام المظاهرات فى شتى المديريات والمعارك التى تنشب بين الإنجليز والثوار والمذابح والشهداء والجنازات الوطنية التى تشيع فيها النعوش بالعشرات والعاصمة المضربة طلبتها وعمالها ومحاموها والتى لم يعد بها وسيلة للمواصلات إلا العربات الكارو، ثم قال الشاب بحرارة:

- هذه الثورة حقا؟.. فليقتلوا ما شاءت لهم وحشيتهم فلن يزيدنا الموت إلا حياة..

فقال ياسين وهو يهز رأسه عجبا:

- ما كنت أتصور أن فى شعبنا هذه الروح المكافحة..

فقال فهمى وكأنه نسى كيف أشفى على اليأس قبيل نشوب الثورة حتى فاجأته بزلزالها وبهرته بنورها:

- بل إنه ممتلىء بروح الكفاح الخالد التى تشتعل فى جسده الممتد من أسوان إلى البحر الأبيض، استثارها الإنجليز حتى ثارت ولن تخمد إلى الأبد.

فقال ياسين وعلى شفتيه ابتسامة:

ـ حتى النساء خرجن فى مظاهرة . .

فتمثل فهمى أبيات من قصيدة حافظ فى مظاهرة السيدات .

خرج الغوانى يحتججـــ	**ـــن ورحت أرقب جمعهنَّه**
فـــإذا بهـــن تخـــذن من	**ســـود الثياب شـــعارهنَّه**
فطلعـــن مثـــل كواكب	**يــسطعن فى وســط الدجنَّه**
وأخذن يجتـــزن الطريق	**ودار ســـعد قصـــدهنَّه**

فاهتزت نفس ياسين وقال ضاحكا :

ـ ما كان أجدرنى أنا بحفظها . .

وفكر فهمى فى خاطر طارئ ثم تساءل بحزن :

ـ ترى أترامت أنباء ثورتنا إلى سعد فى منفاه؟ . . أعلم الشيخ الكبير بأن تضحيته لم تذهب هباء أم تراه غارقا فى يأس المنفى؟ . .

٥٧

لبثوا على السطح حتى الضحى ، وراق للأخوين أن يراقبا المعسكر البريطانى الصغير ، فرأيا نفرا من الجنود قد أقاموا مطبخا واحوا يعدون الغداء ، وتفرق كثيرون ما بين مدخل درب قرمز والنحاسين وبين القصرين فى خلاء من المارة ، وبين حين وآخر كان يتجمع كثيرون فى طابور على نداء النفير ثم يأخذون بنادقهم ويركبون أحد اللوريات الذى ينطلق بهم صوب بيت القاضى مما دل على قيام مظاهرات فى الأحياء القريبة ، وكان فهمى يراقب تجمعهم وذهابهم بقلب خافق وخيال متقد . .

وأخيرا غادر الأخوان السطح تاركين كمال يلهو كيف شاء وحده ، وأويا إلى حجرة المذاكرة ، فأقبل فهمى على كتبه يراجع ما فاته فى الأيام المنقضية ، وتناول ياسين «ديوان الحماسة» و«غادة كربلاء» وخرج إلى الصالة يستعين بهما على قتل الوقت الذى توافر وراء جدران سجنه كما يتوافر الماء وراء السدود ، كانت الروايات ـ بوليسية وغيرها ـ أشد استحواذا على قلبه من الشعر ، ولكنه أحب الشعر كذلك . وعرفه من أيسر سبله ، يفهم ما يسهل فهمه ، ويقنع من الصعب بموسيقاه ، فندر أن يلجأ إلى الهامش المشحون بالشروح ، وربما حفظ البيت وترنم به وهو لا يفقه من معناه إلا أقله ، أو يتصور له معنى لا يمت إلى حقيقته بسبب ، أو لا يدرك له معنى على الإطلاق ، ولكن رغم هذا كله رسب فى عقله من صوره وألفاظه ما يعد ثروة يتيه بها مثله حتى دأب على استغلالها لمناسبة

ولغير مناسبة وهو الأكثر ، فإذا عرض له يوما أن يكتب رسالة تهيأ لها تهيؤ الكتَّاب وأقحم عليها من الألفاظ الرنانة ما يعلق بحافظته ، وضمنها ما فتح الله به عليه من مأثور الشعر حتى عرف بين معارفه بالبلاغة ، لا لأنه كان بليغا حقا ، ولكن لقصورهم عن مجاراته وارتياعهم حيال غريب محفوظاته . قبل اليوم لم يعهد مثل هذا الفراغ الطويل الذى قضى عليه بأن يكابده ساعة فساعة محروما من أسباب الحركة والتسلية ، وربما كانت القراءة خليقة بأن تسعفه على تحمله لو كان به صبر عليها ، ولكنه اعتاد أن يلم بها فى رفق ، وفى الأوقات القصيرة التى تسبق خروجه إلى سهرته اليوميةدون غيرها ، وحتى فى تلك الأوقات لم يكن يجد بأسا فى أن يقطع القراءة بالمشاركة فى أحاديث مجلس القهوة ، أو يطالع قليلا ثم يدعو كمال ليروى له ما قرأ مستلذا بإقبال الغلام على الإصغاء بذاك الشغف المأثور عن الأطفال والغلمان . إذن لم يكن الشعر ولا الرواية بالتى تستطيع أن تؤنس وحشته يوما كيومه هذا ، وقد قرأ أبياتا من الشعر وفصولا من غادة كربلاء ، ومضى يتجرع الملل قطرة فقطرة ، لاعنا الإنجليز من أعماق قلبه ، ضجراً برمًا ضيق الصدر ، حتى حان وقت الغداء ، جمعتهم المائدة مرة أخرى ، وقدمت لهم الأم حساء ودجاجات محمرة وأرزا وأتمَّت أطباقها ـ التى حرمت من الخضر بسبب الحصار المضروب حول البيت ـ بجبن وزيتون ومش ، وأحضرت عسلا أسود بدلا من الحلوى ، ولكن لم يأكل بشهوة إلا كمال أما السيد والأخوان فلم يسعدوا بقابلية قوية للطعام لقبوعهم يومهم بلا عمل ولا حركة ، بيد أن الطعام هيأ لهم فرصة للهروب من الفراغ بالنوم وعلى الخصوص السيد وياسين اللذين كان يسعهما الظفر بالنوم وقتما شاءا وكيفما أحبا . وغادر ياسين فراشه قبيل المغرب فنزل إلى الدور التحتانى لشهود جلسة القهوة ولكنها كانت جلسة قصيرة إذ أن الأم لم يسعها أن تترك السيد وحده طويلا فودعتهم وطلعت إليه ، ولبث ياسين وزينب وفهمى وكمال يتسامرون فى جو يغلب عليه الفتور حتى استأذن فهمى ومضى إلى حجرة المذاكرة ثم دعا إليه كمال فغودر الزوجان منفردين . «ما عسى أن أصنع من الآن إلى ما بعد منتصف الليل؟» . أزعجه هذا السؤال الذى ألح عليه طويلا وبدا له اليوم كئيبا ذميما منتزعا بالقوة الغشوم من مجرى الزمان الذى يتدفق فى الخارج حافلا بالمسرات كما ينتزع الغصن من الشجرة فيستحيل حطبا . لولا الحصار العسكرى لكان الآن بمجلسه المحبوب بقهوة أحمد عبده ، يحسو الشاى الأخضر ، ويسامر معارفه من روادها ويمتع النفس بجوها العتيق الذى يستهوى شعوره بمقدمه ويستأثر خياله بحجراته المطمورة تحت أنقاض التاريخ . قهوة أحمد عبده أحب المقاهى إلى قلبه ، ولولا الغرض ـ والغرض مرض كما يقولون ـ ما اختار غيرها ، ولكنه الغرض الذى جذبه فيما مضى إلى الكلوب المصرى لقربه من مقام بائعة الدوم وهو نفسه الذى أغراه بالانتقال بعد ذلك إلى قهوة سى على بالغورية لوقوعها أمام بيت زنوبة

العوادة. فهو يبدل المقاهى تبعا لغرضه، بل إنه يبدل من تعرض له صداقتهم فيها تبعا له، ففيما وراء الغرض لا مقهى ولا أصدقاء له، أين الكلوب المصرى وأصحابه؟. . أين قهوة سى على ومعارفها؟. . من حياته ذهبوا، ولعله لو صادفه أحدهم تجاهله أو تهرب منه، والدور الآن على قهوة أحمد عبده وسمَّارها، والله وحده يعلم ما يخبئه الغد من مقاه وأصدقاء. على أنه لم يكن يمكث بقهوة أحمد عبده طويلا فسرعان ما يسترق الخطى إلىً بقالة كوستاكى أو بالأحرى إلى حانته السرية ليحظى بالقارورة الحمراء أو «العادة» كما يحلو له أن يدعوها. . أين منه «العادة» هذا المساء الكالح؟! وسرت فى بدنه لتذكر حانة كوستاكى رعدة شهوة، ثم ما لبث أن لاحت فى عينيه نظرة سأم عميقة وتململ تململ السجين - بدا البقاء فى البيت حسرة طويلة زاد من حدة ألمها ما طاف بمخيلته من صور الهناء وذكريات النشوة المقترنة بالحانة والقارورة، فعذبته الأحلام وضاعفت من وجده، وقد جرت حنينه الملهوف على موسيقى الخمر الباطنية ولعبها بالرأس ذلك اللعب المدغدغ الحار السائل بهجة وأفراحا، فلم يدرك قبل ذاك المساء أنه أعجز من أن يصبر على هجر الشراب يوما واحدا ولم يحزن لما بدا له من ضعفه وعبوديته، ولا لام نفسه على إسرافها الذى جر عليه التعاسة لأهون الأسباب، كان أبعد ما يكون عن لوم نفسه أو السخط عليها، ولم يذكر من بواعث ألمه إلا الحصار الذى شنه الإنجليز حول البيت، وأنه يحترق ظمأ ومورد النشوات غير بعيد، ثم لاحت منه التفاتة إلى زينب فوجدها تتفرس فى وجهه بنظرة كأنما تقول له حانقة «ما لك شاردا، ما لك واجما، أليس لوجودى أى أثر فى التسرية عنك!». . أدرك معناها كله فى لحظة خاطفة التقت فيها عيناهما، ولكنه لم يستجب لعتابها الحانق الحزين، وبالعكس لعله أحنقه وأثار ثائرته، أجل لم يحقد على شىء كما حقد على اضطراره للبقاء معها طوال الليل، بلا رغبة، ولا مسرة، وحتى محروما من النشوة التى يستعين بها على تحمل حياته الزوجية. جعل يسترق إليها النظر ويتساءل فى غرابة أليست هى هى!. . أليست هى التى خلبت لبِّى ليلة الزفاف؟!. . أليست هى التى شغفتنى هياما ليالى وأسابيع؟!. . فما لها لا تحرك فى ساكنا!. . أى شىء طرأ عليها! ما لى أتململ برما وسأما فلا أجد من حسنها وأدبها ما يغنينى عن سكرة تأجلت! ومال - كما فعل مرات من قبل - إلى رميها بالنقص فيها برعت فيه زنوبة ومثيلاتها من ضروب الخدمة والشطارة، والحق أن زينب كانت أول تجاربه فى المعاشرة الدائمة. فلم تطل به معاشرة العوادة ولا بائعة الدوم، ولم يكن تعلقه بإحداهما بمانعه من التنقل إذا سنحت دواعيه، وقد ذكر لحظات حيرته هذه وأفكاره عنها بعد كرور أعوام طوال فعرف من نفسه ومن الحياة عامة ما لم يجر له فى خاطر. وانتبه على تساؤلها:

- لعلك غير مرتاح إلى البقاء فى البيت؟!. .

لم يكن على حال يطيق معها حتى العتاب فوقع تساؤلها التهكمى من نفسه موقع الضربة الطائشة من الدمل فاندفع قائلا بصراحة مؤلمة وإصرار :

- بـــلى . .

ومع أنها تحامت النقار من بادئ الأمر إلا أن لهجته آذتها أشد إيذاء فقالت بحدة :

- لا ذنب لى فى هذا ، أليس عجيبا ألا تطيق التخلف عن سهرتك ولو ليلة واحدة . .

فقال مستخطًا :

- دلينى على شىء واحد يجعل البيت محتملا . .

فقامت غاضبة وهى تقول فى نبرات منذرة بالبكاء :

- سأخلى لك المكان لعله يطيب لك . . !

وولَّت كالهاربة وهو يتبعها بصرا جامدا ، ثم قال لنفسه «يا لها من حمقاء لا تدرى أن القدرة الإلهية وحدها هى التى تبقى عليها فى بيتى» . ومع أن الشجار نفَّس عن حنقه قليلا إلا أنه كان يفضِّل ألا يقع حتى لا يضاعف من كآبة فراغه ، ولم يكن يعجز عن استرضائها لو أراده ولكن عقله الفتور الذى ران على مشاعره جميعا . غير أنه لم تمض دقائق حتى شمله هدوء نسبى فرن صدى عباراته القاسية التى وجهها إليه فى أذنيه فأقر بقسوتها ، وبأنه لم يكن ثمة ما يدعو إليها ، وداخله شبه ندم ، لا لعثوره فجأة على ثمالة حب لها فى زوايا قلبه ولكن لحرصه على ألا يشذ فى معاملتها عن حد الأدب - ربما إكراما لأبيها أو خوفا من أبيه ، حتى فى فترة الانتقال العصيبة التى أخذ على نفسه فيها إخضاعها لسياسته بالصلابة والحزم ، واعتذر عن إسرافها بالغضب ، ولم يكن الغضب بالانفعال المستغرب فى هذه الأسرة ، فما يركبهم الحلم إلا حين قيام الأب بينهم مستأثرا لنفسه من دونهم بكافة حقوق الغضب .

بيد أن غضبهم كالبرق سريع الاشتعال سريع الانطفاء ثم يردون إلى ألوان من الأسف والندم ، إلى هذا كله خص ياسين بالمكابرة فلم يدفعه أسفه إلى مصالحة زوجه بل قال لنفسه : «هى التى استثارت غضبى . . ألم يكن بوسعها أن تخاطبنى بلهجة أرق !» . إنه يحب دائما أن تتحلى بالصبر والحلم والعفو كيما ينطلق على هواه مطمئنا إلى خطوطه الخلفية . اشتد ضيقه بسجنه بعد غضبها وانسحابها فغادر المكان إلى السطح . وجد الجو لطيفا والليل ساجيا والظلمة شاملة إلا أنها كثيفة تحت عرش اللبلاب والياسمين ، رقيقة فى نصف السطح الآخر المسقوف بقبة السماء المرصعة بلآلىء النجوم . وراح يقطع السطح ذهابا وجيئة ما بين السور المطل على بيت مريم ونهاية حديقة اللبلاب المشرفة على قلاوون ، مستسلما لخيالات شتى ، وفيما هو يسير الهوينا عند مدخل السقيفة تسلل إلى أذنيه حفيف ، أو لعله همس ، بل أنفاس تتردد بين لحظة وأخرى فحملق فى الظلام متعجبا وهتف متسائلا :

ـ من هنا؟ . .

فجاءه صوت يعرفه حق المعرفة وهو يقول فى نبرات نحاسية :

ـ أنا نور يا سيدى . .

تذكر من توه أن نور . . جارية زوجة تأوى ليلا إلى حجرة خشبية لصق خص الدجاج تحوى بعض الكراكيب، نظر صوب السطح حتى ميز شبحها القائم على بعد خطوة منه كأنه قطعة من الليل تكاثفت وتجمدت، ثم تراءى له بياض عينيها الناصح كدائرتين مرسومتين بالطباشير على سبورة حالكة السواد، واصل سيره دون أن ينبس وصورتها ترتسم فى مخيلته بطريقة تلقائية، سوداء فى الأربعين متينة البنيان، غليظة الأطراف، ناهدة الصدر، عبلة الأرداف، ذات وجه لامع، وعينين براقتين، وشفتين ممتلئتين، فيها قوة وخشونة وغرابة، أو هكذا بدت له مذ طرأت على بيته. وفجأة، وعلى حين غرة، تفجرت فى صدره نية الاعتداء كما تنفجر بعض المفرقعات بلا سابق إنذار، ولكن قوية مسيطرة كأنما تركز فيها هدف حياته، فملكته كما ملكته على عتبة باب الفناء حيال أم حنفى ليلة زفاف عائشة، انبعثت فى وجدانه الخامد حياة فوارة، وانتشر القلق فى دمه حتى تكهرب، وحل محل الملل والسأم اهتمام حار ثائر جنونى، كل أولئك فى لمح البصر، ودب النشاط فى مشيته وفكره وخياله، وكف وهو لا يدرى عن قطع السطح من أوله إلى آخره مقصرا خط ذهابه وإيابه إلى الثلثين ثم إلى النصف، وكلما مر بها اضطرب جسمه برغبة عارمة. جارية سوداء؟ . . خادم؟ . . وإن كانت، له سوابق غير منكورة، ليس حتما أن تقع بغيته على طراز زنوبة، ميزة حُسن واحدة تغنى كما أغنت عينا بائعة الدوم المكحولتان بحارة الوطاويط اللتان شفعتا لنتن إبطيها وتلبد الطين على ساقيها. بل الدمامة نفسها ـ ما دامت قد ركبت على امرأة ـ اعتذار مقبول عند شهوته العمياء كما تطلع إليها عند أم حنفى أو عند ضاربة رمل عوراء خلا بها وراء بوابة النصر، نور على أية حال ذات جسم مكتنز صلب يوحى ـ لا شك ـ ملمسه بالفتوة والصراع، إلى أنها جارية سوداء تعد بطرافة فى الوصال وجدة فى التجربة وتحقيق للمأثور عن بنات جنسها من بعث الحرارة والدفء. وبدا الجو من حوله مهيئا آمنا مظلما فاستحرت رغبته وتوثبت أعصابه واسترسل قلبه فى دقات متتابعة فرمى بنظرة ساقبة موضعها ومال فى سيره إليها بحيث «يتفق» له أن يحتك بها على نحو ما حين مروره بها مؤجلا الجهر برغبته حتى يتاح له جس النبض فى جو من الحذر أن تكون ـ كأم حنفى ـ بلهاء فتتجاوب أركان البيت بفضيحة جديدة، تقدم فى خطوات وئيدة محملقا صوبها، يود بكل ما اضطرم فى صدره من شهوة لو تنفذ كلمات عينيه ـ رغم الظلمة الفاشية ـ إلى نفسها، حتى اقترب منها فاختلطت دقات قلبه، ثم حاذاها فمس كوعه أعلى جسمها ولكنه واصل سيره كأن ما وقع كا ن عفوا، غير أن رعدة سرت فى بدنه عند لمس الموضع الذى لم يتحقق من هويته فى الغيبوبة

التى تاه فيها عالمه فلم يبق منه عند الإفاقة النسبية فى نهاية السطح إلا مس طرى غزير الحنان وما ند عن صاحبته من تراجع برىء أيَّد ما رجَّحه من عدم ارتيابها فى أمره فاستدار مصمما على إعادة الكرَّة. أعاد نحوها ثانية ذراعه حتى مس كوعه إحدى ثدييها ـ لم يخطئه إحساسه هذه المرة ـ ثم لم يسحبه كما كان ينتظر من شخص يدعى أنه ضل السبيل، بل تركه يصافح الثدى الأخرى مصافحة رقيقة لا تبالى دفع الريب، ومضى وهو يقول لنفسه ستدرك غايتى بلا شك، بل لعلها أدركتها فند عنها ما يوحى بأنها أرادت أن تنتحى جانبا ولكنها أبطأت، أو بوغتت فذهلت، على أى حال لم تتقينى باليد، ولم تحرك ساكنا، فلن تصرخ فجأة كما فعلت بنت المركوب، لنجرب مرة ثالثة. عاد هذه المرة متعجلا جزعا، فتثاقل حيالها، ثم مد كوعه إلى الصدر الناهد كقربة صغيرة منتفخة، ثم حرك ذراعه حركة ناطقة بالتردد والريبة معا، وهمَّ بمواصلة السير مدفوعا برغبة فى الفرار لولا أن وجد منها استسلاما أو بلادة أغرقت ثمالة وعيه فى تيار من الجنون فتوقف متسائلا بصوت خرج من بخار الشهوة منصهرا متهدجا:

ـ أهذه أنت يا نور؟!

فقالت الجارية وهى تتقهقر وهو يتبعها كيلا تفلت منه حتى التصق ظهرها بالحائط وأوشك هو أن يلتصق بها:

ـ نعم يا سيدى..

أراد أن يقول أى كلام يعن له حتى يتمكن من الجهر بما يضطرب فى أعماقه كالملاكم الذى يلوح بقبضته فى الهواء متحينا الفرصة ليضرب ضربته القاضية فسألها وأنفاسه تترامى على جبينها:

ـ لِمَ لم تذهبى إلى حجرتك؟

فقالت الجارية التى تعثرت فى نطاق حصاره:

ـ كنت أشم الهواء قليلا..

وكأنما غلب النهم تردده فمد راحته إلى خاصرتها ثم جذبها برفق إلى صدره وهى تبدى ممانعة تحول بينه وبين ما يريد، ثم همس فى أذنها وهو يلصق خده بخدها:

ـ هلمّى إلى الحجرة.

فتمتمت فى ارتباك:

ـ عيب يا سيدى..

رنت نبراتها النحاسية فى الصمت رنينا أزعجه، لم تكن تعمدت أن ترفع صوتها ولكنها ـ فيما بدا ـ لا يتأتى لها الهمس أو أن من طبع همسها الرنين ولو فى أخفض

درجاته، على أنه سرعان ما زايله الانزعاج لتوقد شهوته من ناحية ولخلو لهجتها من الاحتجاج الذى يستوحيه مدلول عبارتها، فجذبها بيده وهو يغمغم :

ـ تعالى يا حلوة .

فسلست ليده، ربما عن رضى وربما عن طاعة، وهو يغمر خدها وصفحة عنقها بقبلاته مترنحا من شدة الانفعال، وفى نشوة السرور جعل يقول :

ـ ماذا غيبك عنى طول هذه الأشهر !

فأجابته بلهجتها العادية الخالية من أى احتجاج :

ـ عيب يا سيدى .

فقال وهو يبتسم :

ـ ما أرق ممانعتك، زيدينى منها! . .

ولكنها أبدت شيئا من المقاومة عند مدخل الحجرة قائلة :

ـ عيب يا سيدى . . (ثم كالمحذرة) . . الحجرة ملأى بالبق .

فدفعها وهو يهمس فى قفاها :

ـ أنام على العقارب من أجلك يا نور .

جارية، هكذا بدت بأدق ما تحمل هذه الكلمة من معان، وقفت مستسلمة بين يديه فى الظلام فوضع شفتيه على شفتيها وقبلها بحرقة وتشوق وهى ساكنة مستسلمة كأنها تشاهد منظراً لا دور لها فيه، حتى قال لها بانفعال : «قبلينى» ثم أعاد لصق شفتيه بشفتيها وقبل فقبلته! ثم طلب إليها أن تجلس فرددت قولها «عيب يا سيدى» الذى بدا مضحكا من ابتذاله على وتيرة واحدة فأجلسها بنفسه فاستجابت بلا ممانعة، وما لبث أن وجد لذة جديدة فى ترددها بين السلبية والإذعان فجد فى طلب المزيد منه وتتابعت الممانعة اللفظية والإذعان الفعلى فنسى الزمن . ثم خيل إليه أن الظلام من حوله يتحرك أو أن مخلوقات غريبة فى طياته تتراقص، ربما الجهد أصابه من طول ما لبث إن كان طال لبثه فإنه على وجه اليقين لا يدرى كم لبث، أو لعلها التيارات المتوقدة المتلاطمة فى رأسه تولد من ارتطامها فى بصره أنوار وهمية، ولكن مهلا، إن جدران الحجرة تتماوج، ناضحة بضوء خافت ذابت فيه الظلمة الداجنة ذوبانا يهتك الأسرار، ورفع رأسه محملقا فرأى نورا خافتا يتسلل من شقوق الجدار الخشبى مقتحما عليه خلوته، ثم ارتفع صوت زوجه فى الخارج وهى تنادى الجارية قائلة :

ـ نمت يا نور؟! . . نور . ألم ترى سى ياسين؟

فانتفض قلبه فزعا ووثب قائما واندفع على عجل ولهفة يتخطف ثيابه

ويرتديها وهو يتفحص الحجرة ببصر زائغ لعله يجد مخبأ بين كراكيبها، ولكن نظرة واحدة آيسته من الاختفاء على حين صك أذنيه وقع شبشب يقترب فلم تتمالك الجارية من أن تقول بصوت باك:

ـ أنت السبب يا سيدى، ماذا أفعل الآن؟!

فلكزها فى كتفها بقسوة حتى أمسكت، وحدق فى الباب بفزع ويأس وهو يتقهقر ـ بدافع لا شعورى ـ إلى الركن البعيد عن المدخل حتى التصق بالجدار، وتجمد فى موقفه يترقب. تتابع النداء ولا مجيب، ثم انفتح الباب ولاحت ذراع زينب يتقدمها مصباح وهى تهتف:

ـ نور.. نور..

فلم يسع الجارية إلا أن تخرج من صمتها مغمغمة بصوت شاحب حزين:

ـ نعم يا ستى.

فقالت زينب بصوت ينم عن الحنق والتعنيف:

ـ ما أسرع أن تنامى يا شيخة! ألم ترى سى ياسين؟.. سيدى الكبير أرسل فى طلبه فبحثت عنه فى الدور التحتانى والفناء وها أنا لا أجده فوق السطح، هل رأيته؟

وما أتمت كلامها حتى كان رأسها قد برز داخل الحجرة وهو يطل على الجارية المرتبكة فى جلستها باستغراب، ثم بحركة غريزية التفتت إلى يمينها فوقع بصرها على زوجها الملتصق بالحائط بجسم ضخم كأنما ترهل وتخاذل من الخزى والهوان، التقت عيناهما لحظة قبل أن يغض بصره، ومرت لحظة أخرى فى صمت قاتل، ثم ندت عن الفتاة صرخة كالعواء وتراجعت وهى تهتف ضاربة صدرها بيسراها:

ـ يا فضيحتك السوداء!.. أنت!.. أنت!..

وجعلت ترتجف كما بدا من ارتجاف المصباح بيدها وارتعاش ضوئه المنعكس على الجدار المواجه للباب ثم ولت هاربة وعويلها يمزق الصمت. قال ياسين لنفسه وهو يزدرد ريقه «اتفضحت وما كان كان» ولبث بموقفه ذاهلا عما حوله حتى انتبه إلى نفسه فغادر الحجرة إلى السطح دون أن يخطر له أن يتجاوزه. لم يدر ماذا يصنع ولا إلى أى مدى تذاع الفضيحة، أتنحصر فى شقته أم تنتقل إلى الشقة الأخرى؟.. ثم راح يوبخ نفسه على ذهوله وضعفه اللذين منعاه من أن يلحق بها كى يحصر الفضيحة فى أضيق حدود، ثم تساءل وهو فى أشد حالات الضيق كيف يتلقى هذه الفضيحة؟.. هل يسعفه الحزم هنا أيضا؟. ربما لو لم يتسرب نبؤها إلى أبيه. وسمع حركة آتية من ناحية الحجرة المشئومة فالتفت نحوها فرأى شبح الجارية يغادرها وبيده لفة كبيرة، ثم هرولت نحو باب السطح

ومرقت منه، هز كتفيه استهانة، وفيما هو يتحسس صدره بيده أدرك أنه نسى أن يرتدى الفانلة فعاد إلى الحجرة مسرعا.

٥٨

فى الصباح الباكر طرق الباب، وكان الطارق شيخ الحارة، فقابل السيد أحمد وأخبره بأنه مكلف من لدن السلطات بإبلاغ سكان الأحياء المحتلة بأن الإنجليز لن يتعرضوا إلا للمتظاهرين وأن عليه أن يفتح دكانه، وعلى التلميذ أن يذهب إلى مدرسته والموظف إلى وظيفته، وحذّره من حجز التلاميذ أن يظنوا من المضربين لافتا نظره إلى الأوامر المشددة بمنع المظاهرات والإضراب، بذلك استرد البيت نشاطه الذى يستقبل به الصباح. وتنفس رجاله الصعداء لإطلاق سراحهم بعد حبس البارحة، واستروحت النفوس شيئا من الطمأنينة والسلام. قال ياسين لنفسه تعقيبا على زورة شيخ الحارة: «الأحوال خارج البيت تتحسن أما داخله فهى طين ووحل»، أجل قضت أكثرية أهل البيت ليلة نكراء أحاطت بها الفضيحة ومزق أوصالها النكد، زينب لم يستطع الصبر الذى تغلق به صدرها على حزنها وتذمرها أن يصمد للمنظر المروع الذى رأته عيناها فى حجرة جاريتها فتفجر صدرها قاذفا بشواظه كل سبيل، تعمدت تعمدا أن يقرع عويلها آذان السيد فجاءها مهرولا متسائلا.. وكانت الفضيحة.. قصت عليه كل شىء متشجعة بانفعالها الجنونى الذى لعلها لولاه ما واتتها شجاعتها على مواجهته بما قصت لما باتت تجد نحوه من تهيب لم تجد مثله حيال أحد من الناس، انتقمت بذاك لكرامتها الذبيحة، وللصبر الذى تجرعته حينا مختارة وحملت عليه فى أكثر الأحايين: «جارية! خادمة! فى سن أمه! وفى بيتى! ماذا عساه أن يفعل فى الخارج إذن؟» لم تكن تبكى غيره. أو لعل الغيرة توارت إلى حين وراء حجب كثيفة من التقزز والغضب كما تتوارى النار وراء سحب الدخان، وكأنما غدت تؤثر الموت على أن تبقى معه تحت سقف واحد ولو يوما واحدا بعد ما كان، أجل هجرت مخدعها فقضت الليل فى حجرة الاستقبال يقظى أكثره تهذى هذيان المحمومين ونائمة أقلَّه نوما ثقيلا مريضا مزعجا. أصبحت وهى مصممة على هجر البيت. لعل هذا التصميم وحده الذى وجدت فيه مسكنا لأوجاعها. ماذا بوسع حميها نفسه أن يفعل؟.. لن يستطيع أن يمنع المنكر بعد أن وقع، ولن يسعه مهما يكن جبروته أن ينزل بزوجها العقاب الذى يستحقه حتى يستشفى صدرها، أقصى ما يراه أن يزجره، أن يصب عليه غضبه، وسينصت ـ الفاسق ـ خافض الرأس كى يواصل فيما بعد سيرته الخبيثة!.. هيهات. لقد رجاها السيد أن تدع الأمر بين يديه، ونصحها طويلا أن تعرض

عن زلته مستوصية بصبر الفضليات من مثيلاتها، ولكنها لم تعد تحتمل الصبر أو العفو. جارية سوداء فوق الأربعين! . . كلا. ستهجره هذه المرة بلا تردد، ستفضى إلى أبيها ببثها كله، وستبقى فى كنفه حتى يثوب إلى رشده، فإذا جاءها بعد ذلك نادما، وغيَّر من سلوكه أو فلتذهب هذه الحياة كلها ـ بخيرها وشرها ـ إلى الشيطان، أخطأ ياسين حين ظنها قد طوت صدرها على كربها عقلا وحكمة، الحق أنه غلبها الجزع من بادئ الأمر فبثت همها إلى أمها، ولكن الأم أثبتت أنها امرأة حكيمة فلم تدع الشكوى تتسرب إلى الأب، وأوصت ابنتها بالصبر قائلة إن الرجال يسهرون ـ كوالدها مثلا ـ وإنهم أيضا يشربون، وإنه حسبها أن بيتها عامر بالخير، وأن زوجها يعود إليها مهما سهر ومهما سكر. أصغت الفتاة إلى النصيحة على مضض، وجاهدت نفسها أيما جهاد متجملة بالصبر ولم تأل أن تحمل نفسها على الرضى، بالواقع والقناعة من أحلامها العريضة بما سمحت به الحقيقة خصوصا وقد دب الجنين فى بطنها مبشرا بالأمومة المرموقة. ربما كمن التذمر فى أعماقها بيد أنها راضت نفسها على التسليم متأسية بأمها تارة وطورا بامرأة سيدها الكبير، ثم لم يخل الحال من ريبة تختلج فى صدرها بين حين وآخر عما يمكن أن يفعل زوجها فى سهراته الخمرية، وحدث أن أفضت إلى أمها بمخاوفها، بل لم تخف عنها ما لحق بالرجل من فتور فى عواطفه. ولكن الأم الحكيمة أفهمتها أن ذاك الفتور ليس حتما نتيجة لما يقع فى خاطرها، إنه «شىء طبيعى» وإن الرجال جميعا لديه سواء، وأنها سوف تقتنع به بنفسها كلما تقدمت بها تجارب العمر. . على أنه لو صدقت وساوسها فماذا تراها فاعلة؟ . . هل تراها تهجر بيتها لأن زوجها يلم بغيرها من النساء؟ . . كلا. وألف مرة كلا، لو تخلت امرأة عن مكانها لسبب كهذا لأقفرت البيوت من الفضليات، والرجل قد يطمح طرفه إلى امرأة أو أخرى ولكنه يعود دائمًا إلى بيته ما دامت زوجه خليقة بأن تبقى عنده المرجع الأخير والمأوى الثابت، والعاقبة للصابرات. ومضت تذكرها بالمطلقات بلا ذنب واللائى يشركهن فى أزواجهن أخريات، أليس طيش زوجها ـ إن صح ـ خطبا أخف من سلوك أولئك؟! . . ثم إنه لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره، ومصيره يعقل فيثوب إلى بيته ويشغل بذريته عن الدنيا جميعا، ومعنى هذا أنه ينبغى لها الصبر حتى لو صدقت وساوسها فما بالها والوساوس لم تصدق؟! . . رددت المرأة هذا، وغيره مما يجرى مجراه، حتى سلس جماح الفتاة وآمنت بالصبر وراضت نفسها عليه. بيد أن واقعة السطح قضت على كل ما وطنت النفس عليه فانهار البنيان جميعا كأن لم يكن.

ومع أن السيد لم يفطن إلى هذه الحقيقة المؤسفة فظن الفتاة قد امتثلت لنصيحته إلا أن غضبته كانت أشد من أن تمر بسلام، وقد أحسنت الجارية صنعا بفرارها، أما ياسين فلم يبرح السطح، لبث يفكر منزعجا فى العاصفة التى تتربص به، حتى ترامى إلى أذنيه صوت أبيه وهو يناديه بنبرات كفرقعة السياط فدق قلبه، ولكنه لم يجب ولم يستجب

وتسمر يائسا فى مكانه، وما يدرى إلا والرجل يقتحم عليه السطح ثم يقف مدمدما لحظات وهو يتفحص المكان حتى يعثر على شبحه فيتجه إليه ويقف على كثب منه شابكا ذراعيه على صدره مصوبا نحوه رأسا متصلبا متعجرفا، ملتزما الصمت ومطيله كى يطيل له به العذاب والإرهاب، كأنما أراد بصمته أن يعبر له عما يجد نحوه مما يعيى الألفاظ حمله، أو أنه أراد أن يرمز به إلى ما كان يود أن يؤدبه به من مبرح الركل واللكم فمنعه منه استواؤه رجلا وزوجا، ثم لم يعد يستطيع مع الصمت صبرا فانهال عليه سبا وتعنيفا وهو ينتفض غضبا وهياجا «أنت تتحدانى تحت سمعى وبصرى! . . فلتذهب أنت وخزيك إلى جهنم . . دنست بيتى يا وغد، هيهات أن يتطهر هذا البيت ما دمت فيه . . كان لك قبل الزواج عذر واه فأى عذر لك الآن؟!» . . «لو أصاب كلامى حيوانا لأدبه ولكنه ينصب على حجر . . إن بيتا يضمك خليق بأن تستنزل عليه اللعنات» . . نفَّس عن صدره المستعر بكلمات كالرصاص المنصهر وياسين بين يديه ساكن صامت خافض الرأس كأنه يوشك أن يذوب فى الظلام، حتى أجهد الرجل الزعق فولاَّه ظهره وغادر المكان وهو يلعنه ويلعن أباه وأمه، ومضى إلى حجرته يفور بالغضب فورا. فى ثورة الغضب رأى زلة ياسين جريمة تستحق الإبادة، وفى ثورة الغضب لم يعد يذكر أن ماضيه كله صورة مطولة متكررة من ذلة ياسين، وأنه لا يزال دائبا على سلوكه وقد انتصف به العقد الخامس وشب أبناؤه فصار منهم الأزواج والزوجات. لا لأنه فى ثورة الغضب ينسى حقا، ولكن لأنه يحل لنفسه ما لا يحل لأحد من ذويه، له أن يفعل ما يشاء وعليهم التزام الحدود التى يريدهم على أن يلتزموها فلعل غضبه على ما فى ذنب ياسين من «تحد» لإرادته و«استهانة» بوجوده و«تشويه» للصورة التى يحب أن يتصوره بها أبناؤه، كان أضعاف غضبه على الذنب نفسه، على أن غضبه - كما هى عادته - لم يستمر طويلا، ما لبث أن خبا لظاه وخمد توقده فعاوده الهدوء رويدا وإن شاب مظهره - مظهره فقط - الوجوم والأسى، عند ذاك أمكنه أن ينظر إلى «جريمة» ياسين من أكثر من زاوية واحدة، أمكنه أن يتأملها بعقل مستقر فانجلى له قتامها عن مواضع شتى ساخرة تسلى بها عن وحدته الاضطرارية. أول ما ابتدر ذهنه أن يلتمس للمذنب عذرا، لا حبًّا فى التسامح فإنه يكره التسامح فى بيته، ولكن ليتخذ من ذاك العذر المرجى «مبررا» لخروجه عن إرادته، كأنما يقول لنفسه «إن ابنى لم يشق عصا الطاعة . . هيهات، ولكن عذره كيت وكيت» . . ولكن هل يلتمس له العذر عند شبابه باعتباره عهد طيش ونزق؟ . . كلا. إن الشباب عذر عن الذنب وليس عذرا عن خروجه على إرادته وإلا لجاز لفهمى بل لكمال أن يتماديا فى الاستهانة بتعاليمه، ليلتمس العذر إذن عند رجولته، هذه الرجولة التى تحل له أن يستقل بنفسه عن إرادته ولو شيئا ما وتعفيه هو - السيد - من تحمل مسئولية فعاله، كأنما يقول لنفسه: «إنه لم يخرج على إرادتى . . هيهات، ولكنه بلغ السن التى لا يعد فيها ذنبه

خروجا على إرادتى وغنى عن القول إنه يأبى أن يعترف أمامه بهذا الحق ولن يعفو عنه لو يجاسر على المطالبة به، بل إنه لا يعترف له به فيما بينه وبين نفسه إلا فى حال الوقوع فى معصية تستوجب مبرراً للخروج على إرادته، ولم ينس حتى فى تلك الحال أن يذكر نفسه التماسا للمزيد من الطمأنينة - بأنه أدبه تأديبا غليظا نادرا قل من يستبيحه من الآباء فقوبل بخضوع كامل قليل من يتحمله من الأبناء. . وعرج خاطره إلى زينب متفكرا ولكنه لم يجد نحوها أى عطف، لقد واساها إكراما لأبيها العزيز الحبيب، ولكنه لا يظن أن الفتاة جديرة بأبيها حقا، ما كان يخلق بزوجة كريمة أن تفضح زوجها - مهما تكن الظروف - على النحو الذى فضحت به ياسين! . . لشد ما أعولت! . . لشد ما صرخت! . . ماذا كان يصنع هو - السيد - لو أن أمينة فجأته يوما بمثل هذا التصرف؟! . . ولكن أين هى من أمينة؟! . . ثم كيف قصَّت عليه ما رأت دون حياء! . . أف! . . أف! . . لو لم تكن هذه الفتاة كريمة محمد عفت لحق لياسين أن يؤدبها بل لما رضى هو أن تمر هذه الواقعة دون عقاب زاجر، لقد أخطأ ياسين ولكنها أخطأت خطأ أكبر. ثم عاد إلى ياسين سريعا فراح يفكر - بباطن مبتسم - فى الطبيعة الواحدة التى تجمع بينهما، تلك الطبيعة الموروثة عن الجد بلا ريب، ومن يدرى لعلها تضطرم الآن فى صدر فهمى تحت قناع التهذيب والاستقامة، بل ألا يذكر كيف عاد يوما إلى البيت على غير انتظار فترامى إلى سمعه صوت كمال وهو يغنى «يا طير يا للى على الشجر»؟! . . تأخر لحظتذاك وراء الباب - لا ليتظاهر بأنه وصل بعد انتهاء الغناء فحسب - ولكن ليتابع الصوت متذوقا معدنه سابرا طول نفسه، حتى إذا ما ختم الغلام النغمة صفق الباب بقوة وهو يسعل ومضى إلى الداخل طاويا صدره على ابتهاج لم يفطن إليه أحد، كم يلذه أن يرى نفسه مترعرعة من جديد فى حياة أبنائه على الأقل فى ساعات الهدوء والصفاء، ولكن رويدا. . إن لياسين طبيعة خاصة به لا يشركه هو فيها، أو أنه لا تجمع بينهما طبيعة واحدة إذا روعى المعنى الدقيق لهذه الكلمة، ياسين حيوان أعمى. . ينقض مرة على أم حنفى ويضبط مرة أخرى مع نور، يتمرغ فى التراب دون مبالاة، وما هكذا هو! . . أجل إنه يدرك مقدار الضيق الذى ألَّم بياسين لاضطراره إلى قضاء الليلة فى شبه سجن، يدرك لأنه كابده هو أيضا كئيبا محزونا كمن فقد عزيزا، ولكن هبه كان يتنزه فى بستان السطح - كما فعل الفتى - فصادف جارية - ولنفترض أنها تكون ملبية لذوقه - أكان يقدم على المغامرة؟ . . كلا. مؤكد كلا، ولكن أى وازع كان يشكمه؟ . . لعله المكان؟ . . الأسرة! . . ولعله العمر الرشيد. آه. لقد تضايق عند ورود الوازع الأخير على ذهنه، وخيل إليه أن يغبط ياسين على ريق شبابه وجنون زلته معا! . . مهما يكن من أمر فالطبيعتان مختلفتان، لم يكن السيد - كابنه - مغرما بالمرأة بلا قيد ولا شرط، امتازت شهوته دائما بالرفاهية وحداها الانتخاب الرفيع، بل أثرت فى ميزاتها ميزات اجتماعية ضمت إلى الميزات الطبيعية المألوفة، كان مغرما بالجمال الأنثوى فى

لحمه وتبختره وأناقته، فلم تخل جليلة أو زبيدة أو أم مريم وعشرات غيرهن من ميزة أو أكثر من هذه الميزات، وفضلا عن هذا كله فلم يكن مزاجه ليصفو ويطيب إلا بالمنظر البهيج وبالمجلس الأنيس وما يتبعهما من شراب وسمر وغناء، فلا يكاد يمضى طويل وقت على عشيقة جديدة حتى تفطن إلى هواه فتهيىء له ما تهفو إليه نفسه من جو عذب يعبق فيه الورود والبخور والمسك، وكما كان يعشق الجمال مجردا كان يعشقه كذلك فى هالاته الاجتماعية اللألاءة. تجذبه المكانة المرموقة والصيت البعيد، ويلذ له أن ينوه خاصته بعشقه ومعشوقاته إلا فيما ندر من أحوال توجب التستر والكتمان كحال أم مريم، على أن هذا الحب «الاجتماعى» لم يكن ليفرض عليه تضحية بالجمال، فالجمال والصيت ـ فى هذا المجال ـ يسيران جنبا لجنب كالشىء وظله، وغالبا ما يكون الجمال اليد الساحرة التى تشق السبيل إلى الصيت والمكانة المرموقة، وقد عشق أشهر عوالم عصره فلم تخيب إحداهن نزوعه إلى الجمال وولعه بالحسن. هذا ما جعله يذكر نزوات ياسين بازدراء وهو يردد مستنكرا «أم حنفى! نور!.. يا له من حيوان»، إنه برىء من هذا الشذوذ بيد أنه ليس فى حاجة إلى أن يتساءل طويلا عن مصدره فإنه لم ينس بعد ذلك المرأة التى أنجبت ياسين فأودعته طبيعتها المولعة بالقذارة، إنه مسئول عن قوة شهوته أما هى فمسئولة عن نوع هذه الشهوة النزاعة إلى الحضيض. وقد عاوده فى الصباح التفكير «الجدى» فى المسألة فكاد يدعو الزوجين إليه كى يصفى ما بينهما ـ وما بينه وبين كليهما ـ من حساب، ولكن أرجأ ذلك إلى متسع من الوقت أنسب من الصباح.

ولما ساءل فهمى ياسين عما دعاه إلى التخلف عن المائدة أجابه مقتضبا «شىء تافه سوف أحدثك عنه فيما بعد»، وظل فهمى جاهلا سر غضب أبيه على أخيه حتى علم باختفاء الجارية نور فحدس الأمر كله. شهد الصباح الأسرة على غير مألوفها فقد غادر ياسين البيت مبكراً ولزمت زينب حجرتها ثم غادر الرجال البيت واجفين متحاشين أن يرفعوا بصرا صوب الجنود والأم من وراء خصاص المشربية تدعو الله أن يقيهم من كل سوء. ولم تشأ أمينة أن تقحم نفسها فى «واقعة» السطح فنزلت إلى حجرة الفرن وانتظرت بين حين وآخر أن تلحق بها زينب كالعادة. لم تكن تقرها على غضبتها لكرامتها فعَدَّتها تدليلا أثار استياءها، وجعلت تتساءل «كيف تدعى لنفسها من الحقوق ما لم تدعه امرأة قط؟..».

لا ريب أن ياسين قد أخطأ فدنس البيت الطاهر ولكنه أخطأ فى حق أبيه وحرمته لا فى حقها هى. ألست ملاكا بالقياس إلى هذه الفتاة؟!.. ولكن لما طال بها الانتظار لم تعد تستطيع تجاهلها وأقنعت نفسها بوجوب الذهاب إليها مواسية فصعدت إلى شقتها وناداتها، ثم دخلت الحجرة فلم تعثر لها على أثر، ومضت من حجرة إلى حجرة وهى

تنادى حتى فتَّشت البيت ركنا ركنا، ثم ضربت كفا بكف وهى تقول «رباه.. هل ارتضت زينب أن تهجر بيتها؟!».

٥٩

لم تنج أمينة سحابة النهار من قلق، فإن احتمال تعرض الجنود لأحد من رجالها فى ذهابه أو إيابه لم يكد يفارق رأسها. وكان فهمى أول العائدين فتخففت لدى رؤيته من بعض آثار قلقها ولكنها رأته متجهما فسألته:

- ماذا بك يا بنى؟

فهتف فهمى متأففا:

- أكره أن أرى هؤلاء الجنود.

فقالت المرأة بإشفاق:

- لا تبد لهم الكراهية، إن كنت تحبنى لا تفعل.

ولكنه لم يفعل بغير استعطافها. لم يتجاسر على أن يتحداهم ولو بالنظر وهو يتلمس سبيله تحت رحمتهم، تحاشى أن ينحرف بصره إلى أحدهم، ومضى إلى البيت متسائلا فى سخرية عما كانوا يفعلونه لو أنهم علموا بأنه راجع من مظاهرة اشتبكت مع جنودهم فى شبه معركة، أو أنه وزع فى مطلع اليوم عشرات المنشورات التى تحرض على قتالهم، جلس يستعرض ما لاقاه فى يومه مستحضرا أقله كما وقع وأكثره كما كان يتمنى أن يكون. هكذا كان رأيه أن يعمل نهارا وأن يحلم مساء. تحدوه فى الحالين أسمى العواطف وأفظعها، حب قومه من ناحية والرغبة فى التقتيل والإبادة من ناحية أخرى، أحلام يسكر بها وقتا يطول أو يقصر ثم يفيق منها على حسرة لاستحالتها وفتور لسخافة تصوراتها، أحلام تنسج لحمتها وسداها من معارك يتقدم صفوفها كجان دارك، واستيلاء على سلاح للعدو ثم الهجوم عليه، هزيمة الإنجليز. خطبة خالدة فى ميدان الأوبرا، اضطرار الإنجليز إلى إعلان استقلال مصر. عودة سعد من المنفى ظافرا، لقاء بينه وبين الزعيم وكلمة الزعيم، مريم بين شهود الافتتاح التاريخى. أجل كانت أحلامه تتوج دائما بصورة مريم رغم انزوائها - طوال تلك الأيام - فى ركن قصى من قلبه الذى شغلته الشواغل كلها كما ينزوى القمر وراء السحب إبان العاصفة. وما يدرى إلا وأمه تقول له وهى تشد المنديل حول رأسها فى ارتباك:

- ذهبت زينب إلى بيت أبيها غضبانة.

آه . . كاد ينسى ما ألم بأخيه وأسرته فى الصباح ، الآن تأكد لديه ما حدسه حين علم باختفاء الجارية نور ، وتحاشى عينى أمه حياء أن تقرأ ما يدور بخلده خصوصا وأنه أيقن باطلاعها على جلية الأمر ، ولم يستبعد أن تفطن إلى إدراكه له أو فى الأقل أن ترجحه ، فلم يدر ما يقول لا سيما أنه لم يعتد فى محادثتها أن يبدى خلاف ما يبطن ، ولم يكن أبغض لديه من أن يقوم المكر مقام الصراحة بينهما فقنع بأن يتمتم قائلا :

ـ ربنا يصلح الحال . .

ولم تنبس أمينة بكلمة كأن اختفاء زينب من التفاهة بحيث تكفى جملة إخبارية وأخرى دعائية فى معالجته ، وما لبث فهمى أن دارى ابتسامة كادت تفضح تحفظه إذ أدرك أن أمه تكابد مثل شعوره وأنها تعانى ارتباكا لعجزها الفطرى عن التمثيل ، لم تكن تحسن الكذب ، وحتى إذا اضطرت إليه أحيانا كشفتها طبيعة لا تستقر على بساطتها الأقنعة ، على أن أرتباكهما لم يطل فما هى إلا دقائق حتى رأيا ياسين مقبلا نحوهما . خيل إليهما أنه يطالعهما بوجه لا يقدر المتاعب التى تترصد فى البيت وإن لم يعلم بعد بمدى ما بلغته ، ولم يدهش فهمى لذلك كثيراً لما يعلمه من استهانته بالمتاعب التى تنوء بغيره من الناس ، ولكن الحقيقة أن ياسين غلبه شعور باهر بأنه اجتاز مغامرة ظافرة أنسته إلى حين جل متاعبه . كان فى طريقه إلى باب البيت حين اعترض سبيله جندى كأنما انشقت عنه الأرض فارتعدت مفاصله وتوقع شرا لا قبل له به أو فى الأقل إهانة جارحة على مرأى من أصحاب الحوانيت والمارة ، ولكنه لم يتردد فى الدفاع عن نفسه ، فقال برقة وتودد مخاطبا الجندى كأنما يستأذنه فى المرور :

ـ من فضلك يا سيدى .

ولكن الجندى طلب عود ثقاب وهو يبتسم ـ أجل يبتسم ـ فذهل ياسين لابتسامته حتى استعصى عليه أن يفهم مراده حتى أعاده ، لم يكن يتصور أن جنديا إنجليزيا يبتسم على هذا النحو ، أو إذا كان الجنود الإنجليز يبتسمون كسائر البشر ـ أن يبتسم له أحدهم فيما يشبه الأدب ، فاستخفه سرورا أربكه حتى لبث جامدا لحظات لا يحرى جوابا ولا يبدى حراكا ، ثم توثب بكل ما فيه من قوة لأداء هذه الخدمة البسيطة لذاك الجندى العظيم المبتسم ، ولما كان غير مدخن فلا يحمل ثقابا فقد بادر إلى الحاج درويش بائع الفول وابتاع علبة ثقاب وهرع إلى الجندى ماداً له يده بها فتناولها الجندى وهو يقول :

ـ أشـــكرك .

لم يكن أفاق من أثر الابتسامة السحرية فجاء الشكر كقدح البيرة الذى يعل به من استوفى طاقته من الوسكى ، ملأه الامتنان والزهو ، تورد وجهه المكتنز وضحكت أساريره وكأن عبارة «ثانك يو» ، نيشان سام تقلده على الملأ ، إلا أنها ضمنت له أن يذهب

ويجيء أمام المعسكر آمنا، وما كاد الرجل يبدى أول حركة للذهاب، حتى قال له متوددا من أعماق فؤاده:

ـ حظ سعيد يا سيدى.

ومضى إلى البيت كالمترنح من الفرح. أى حظ سعيد ظفر به هو! . . إنجليزى ـ لا أسترالى ولا هندى ـ وابتسم له وشكره! . . إنجليزى أى رجل يتمثل فى خياله كأنموذج لكمال الجنس البشرى، ربما أبغضه كما يبغضه المصريون جميعا، ولكنه فى قرارة نفسه يحترمه ويجلُّه حتى ليخيل إليه كثيرا أنه من طينة غير طينة البشر، هذا الرجل ابتسم له وشكره! . . وقد أجابه إجابات صحيحة مقلدا ما وسعته مرونة شدقيه طريقة النطق الإنجليزية فنجح نجاحا باهرا استحق عليه الشكر. . كيف يصدق ما ينسب إليهم من الأعمال الوحشية؟! . . لماذا نفوا سعد زغلول إذا كانوا على هذا الظرف كله؟! . . غير أن حماسه فتر بمجرد أن وقع بصره على الست أمينة وفهمى واستطاع أن يقرأ نظرتهما، وسرعان ما اتصل ما كان انقطع من حين من حبل همومه، انتبه إلى أنه يواجه مرة أخرى المشكلة التى هرب منها مع الصباح الباكر. تساءل وهو يشير بأصبعه إلى فوق:

ـ لماذا لا تجلس معكما؟ . . ألا تزال غضبانة؟

فتبادلت أمينة مع فهمى نظرة ثم تمتمت بارتباك:

ـ ذهبت إلى أبيها.

فرفع حاجبيه دهشة وانزعاجا ثم سألها:

ـ لماذا تركتها تذهب؟

فقالت أمينة وهى تتنهد:

ـ تسللت دون أن يشعر بها أحد.

شعر بأنه يجب أن يقول قولا يرضى كرامته أمام أخيه وأمه فقال باستهانة:

ـ إلى حيث.

وقرر فهمى أن يقاوم رغبته فى اللواذ بالصمت كى يوهم أخاه بأنه لم يطلع على سره وبالتالى أن ينفى شبهة إذاعته هذا السر عن أمه فسأله ببساطة:

ـ ما الذى دعا إلى هذا النكد؟!

فحدجه ياسين بنظرة متفحصة ثم لوح بيده الغليظة وهو يمط بوزه كأنما يقول له «ليس ثمة ما يدعو إلى النكد» ثم قال:

ـ بنات اليوم لم تعد بهن طاقة على حسن المعاشرة.

ثم ناظرا إلى ست أمينة:

ـ أين هن ستات الأمس؟!

نكست أمينة رأسها حياء فى الظاهر، وفى الحق لتدارى ابتسامة لم تستطع مغالبتها حينما ربط ذهنها بين الصورة التى يتخذها ياسين الآن، صورة المتأمل الواعظ المجنى عليه، والصورة التى ضبط بها مساء أمس فوق السطح. على أن انزعاج ياسين كان أعظم بكثير من القدر الذى سمح له الموقف بأن يتظاهر به، فإنه على فداحة الخيبة التى منى بها فى حياته الزوجية لم يفكر لحظة فى قطع هذه الحياة، وجد فيها ملاذا مستقرا ورعاية إلى ما بشرت به من أبوة وشيكة رحب بها أيما ترحيب، تمنى دائما أن تبقى وراء ظهره ليعود إليها من شتى جولاته كما يعود الرحالة فى نهاية العام إلى وطنه، ولم يغب عنه ما سيجره عليه ذهاب زوجته من نزاع جديد بينه وبين أبيه وبين السيد عفت، إلى ما يلابس هذا كله من فضيحة ستفوح رائحتها حتى تزكم الأنوف. . بنت الكلب! . . لشد ما كان مصمما على أن يستدرجها إلى الاعتراف بأنها أخطأت خطأ أكبر من خطئه، بل لعله اقتنع بذلك لدرجة تقرب من اليقين، فأقسم ليحملنها على الاعتذار وليأخذن نفسه بتأديبها بمختلف الوسائل، ولكنها ذهبت . . قلبت خططه رأسا على عقب . . وضعته فى مأزق غير يسير . بنت الكلب! . . وانتزع من تيار أفكاره على صوت صراخ يمزق الصمت المحيط بالبيت فالتفت صوب فهمى وأمه فوجدهما يرهفان السمع باهتمام وقلق، وتواصل الصراخ فأدركوا بسهولة أنه صادر عن امرأة، ولكن تساءلت أعينهم عن الناحية التى يترامى منها وعن سببه: أنعى ميت أم عراك أم استغاثة، وراحت أمينة تستعيذ بالله من الشرور جميعا حتى قال فهمى:

ـ إنه قريب . . لعله فى طريق بيتنا.

ونهض فجأة مقطبا جبينه وهو يتساءل:

ـ ألا يكون الإنجليز قد هاجموا امرأة مارة بالطريق؟

وهرع إلى المشربية والآخران فى أثره، بيد أن الصراخ انقطع غير تارك وراءه دليلا على الناحية التى ترامى منها، فرمى ثلاثتهم بأنظارهم خلال الخصاص يتفحصون الطريق فاستقرت على امرأة لفتت الأنظار بوقفتها الغريبة وسط الطريق وبمن أحاط بها من المارة وأصحاب الحوانيت، على أنهم عرفوها لأول وهلة وهتفوا معا:

ـ أم حــنفى . .

وتساءلت أمينة التى كانت أرسلتها لتعود بكمال من المدرسة:

ـ مالى لا أرى كمال معها؟! . . وماذا يوقفها هكذا كالجماد! . . كمال . . رباه . . أين كمال؟

ثم مدفوعة بشعور غريزى:

ـ هى التى كانت تصرخ . . عرفت الآن صوتها . . أين كمال؟ . . أغيثونى .

لم ينبس فهمى ولا ياسين بكلمة . استغرقهما فحص الطريق عامة والمعسكر الإنجليزى خاصة حيث رأوا أنظار المتجمعين ـ وفى مقدمتهم أم حنفى ـ تتجه ، لم يكن ثمة شك لديهما فى أن أم حنفى هى التى صرخت حتى جمعت الناس حولها ، بل شعرا بالبداهة أنها كانت تستغيث لأن ثمة خطرا تهدد كمال ، ثم تركزت مخاوفها فى الإنجليز . ولكن أى خطر هو؟ . . وأين كمال؟ . . ماذا حدث للغلام؟ . . إن الأم لا تكف عن الاستغاثة بدورها وهما لا يدريان كيف يسكنان خاطرها ، لعلهما فى حاجة إلى من يسكن خاطرهما . . أين كمال؟ . . إن الجنود ما بين جالس وواقف وماض لطيته ، كل مشغول بشأنه كأن شيئا لم يقع وكأن أحدا من الناس لم يتجمع . وهتف ياسين بغتة وهو يلكز فهمى فى كتفه :

ـ ألا ترى هؤلاء الجنود الواقفين على هيئة دائرة تحت سبيل بين القصرين؟ . . إن كمال يقف بينهم . . انظر .

فلم تملك الأم أن صرخت قائلة :

ـ كمال بين الجنود . . ها هو يا ربى . . رباه . . أغيثونى .

أربعة جنود عمالقة وقفوا على هيئة دائرة متشابكى الأذرع ، وقد مرت عينا فهمى أكثر من مرة دون أن تعثرا على ضالتهما ، فى هذه المرة لمح كمال واقفا وسط الدائرة كما لاح من فرجة انشقت عنها ساقا الجندى الذى يوليهم ظهره ، خيل إليه أنهم سيتقاذفونه بأرجلهم كالكرة حتى يقضوا عليه ، أنساه خوفه على أخيه نفسه فاستدار قائلا بنبرات مضطربة :

ـ سأذهب إليه مهما تكن العواقب .

ولكن يد ياسين قبضت على منكبه وهو يقول بصوت حازم «قف» . . ثم خاطب الأم بصوت هادىء باسم قائلا :

ـ لا تخافى . . لو أنهم أرادوا أن يصيبوه بسوء ما ترددوا . . انظرى إليه ألا يبدو منهمكا فى حديث طويل؟ ! . . ثم ما هذا الشىء الأحمر الذى بيده؟ ! . . أراهن على أنها قطعة من الشيكولاتة ! . . هدئى روعك . . إنهم يتسلون به «ومتنهدا» شد ما أفزعنا على لا شىء .

سكن روع ياسين ، وما لبث أن تذكر مغامرته السعيدة مع الجندى فلم يستبعد أن يوجد له من زملائه نظائر فى لطفه ورقته ، ثم رأى أن يدعم قوله ويثبته فى فؤاد الأم الملتاع فأشار إلى أم حنفى التى لم تزل فى موقفها قائلا :

ـ ألا تريان أن أم حنفى لم تكف عن الصراخ إلا حين لم تجد داعيا له . ها هم الناس ينفضون من حولها تعلوهم الطمأنينة .

فغمغمت أمينة بصوت مرتعش:

- لن يطمئن قلبى حتى يعود إلىَّ . .

وتركزت أعينهم فى الغلام، أو فيما يلوح منه بين آونة وأخرى غير أن الجنود استردوا أذرعهم المتشابكة وضموا سيقانهم المنفرجة كأنما اطمأنوا إلى عدول كمال عن التفكير فى الهرب، فبدا الغلام بكامل هيئته، بدا باسما يتكلم كما استدلوا عليه من حركة شفتيه وإشارات يديه التى استعان بها على الإفصاح عن أفكاره فدل التفاهم بينه وبينهم على أنهم يستطيعون إلى حد ما استعمال اللغة العربية، ولكن ماذا يقول لهم أو ماذا يقولون له؟ . . هذا ما لم يستطع أحد أن يخمنه، بيد أنهم ثابوا إلى رشدهم، حتى الأم نفسها استطاعت أخيراً أن تشاهد المنظر العجيب الذى يمثل تحت ناظريها بدهشة ممزوجة بقلق صامت دون عويل أو استغاثة، على حين جعل ياسين يضحك قائلا:

- الظاهر أننا غالينا فى التشاؤم حينما ظننا أن احتلال هؤلاء الجنود لحينا سيكون مصدر متاعب لنا لا تنتهى.

ومع أن فهمى بدا ممتنا لسلوك الجنود مع كمال، إلا أنه يرتح إلى ملاحظة ياسين فقال دون أن تتحول عيناه عن الغلام:

- ربما اختلفت معاملتهم للرجال أو النساء عن معاملتهم للأطفال. لا تغل فى تفاؤلك.

وكاد ياسين يندفع متحدثا عن مغامرته السعيدة، ولكنه أدرك لسانه فى اللحظة المناسبة فأمسك تفاديا من إثارة أخيه، ثم قال على سبيل الملاطفة والتودد:

- ربنا يخلصنا منهم على خير.

وتساءلت أمينة فى لهفة:

- ألم يئن لهم أن يدعوه مشكورين؟

ولكن بدا على دائرة كمال أن ثمة جديدا ينتظر، فقد تراجع أحد الجنود الأربعة إلى خيمة قريبة ثم عاد بعد قليل بكرسى خشبى فوضعه أمام كمال، وما لبث الغلام أن وثب إلى الكرسى فوقف منتصب القامة مشدود الذراعين إلى أسفل، كأنما ينتظمه طابور القسم المخصوص، وقد انحدر طربوشه إلى قذاله - دون شعور منه فى الغالب - كاشفا عن مقدم رأسه الكبير البارز. ما خطبه؟ . . ماذا وراء هذه الوقفة؟ . . لم يطل بأحد التساؤل إذ سرعان ما علا صوته الرفيع وهو ينشد:

يا عــــزيز عـــينى بـــدى أروح بلـــدى

يا عــــزيز عـــينى السلطة خدت ولدى

غناها مقطعا مقطعا بصوته اللطيف والجنود يتطلعون إليه فاغرى الأفواه ضاحكى الأسارير تلاحق أكفهم ترديده بالتصفيق، وكان أحدهم قد تأثر بما أدركه من بعض معانى الأغنية فراح يهتف «أروح بلدى. . أروح بلدى». . فتشجع كمال بما حظى من سرور سامعيه وأقبل يجوِّد من إنشاده ويحسِّن من ترنمه ويعلى من صوته، حتى ختمت الأغنية بين التصفيق والاستحسان الذى شاركت فيه الأسرة من وراء الخصاص بقلوب ملؤها السرور والإشفاق. أجل شاركت الأسرة فى الاستحسان بعد أن شاركت ـ بقلوبها أيضا ـ فى الغناء، تتبعوه بإشفاق وقلق، دعوا له بالسلامة والإجادة، خافوا عليه الزلل أو النشاز كأنما يغنى بالإنابة عنهم جميعا، أو كأنما هم الذين يغنون من حنجرته، وكأن كرامتهم ـ أفرادا ومجموعة ـ أمست متعلقة بنجاح الغناء، نسيت أمينة فى لجة هذا الشعور مخاوفها، حتى فهمى لم يكن يفكر فى أثناء ذلك إلا فى الغناء وما يرجو له من نجاح، فلما انتهى بخير تنهدوا من الأعماق وودوا أن يبادر كمال إلى العودة قبل أن يطرأ طارىء يفسد عليهم مسك هذا الختام. والظاهر أن الحفلة آذنت بانتهاء فقد قفز كمال إلى الأرض فسلم على الجنود فردا فردا ورفع يده محييا ثم انطلق يعدو صوب البيت. فهرولت الأسرة من المشربية إلى الصالة لتكون فى استقباله. أقبل عليها لاهثا مورد الوجه مبتل الجبين تنطق عيناه وأساريره وحركات أعضائه المرسلة بلا اتزان أو غاية بالفرح والفوز. أترع قلبه الصغير سعادة غامرة ما كان بوسعه إلا أن يعلن عنها بكل سبيل ويدعو الآخرين إلى الاشتراك فيها كالفيضان الزاخر يضيق عنه النهر فيغمر الحقول والوديان، وكانت نظرة واحدة تلقى بروية كافية لأن تريه مغامرته معكوسة على صفحات الوجوه. . ولكن الفرح أعماه فهتف بهم:

ـ عندى خبر لن تصدقوه ولن تتصوروه. .

فقهقه ياسين متسائلا فى سخرية:

ـ أى خبر يا عزيز عينى؟!

كشفت هذه الجملة الغشاوة عن عينيه كأنها نور شعشع فجأة فى الظلام فرأى الوجوه على ضوئها مفصحة ناطقة، بيد أن علمه برؤيتهم لمغامرته عوضه عما ضاع من فرصة إدهاشهم بحديثه العجيب فأغرق فى الضحك وهو يضرب ركبتيه بكفيه، ثم قال وهو يغالب الضحك:

ـ أرأيتمونى حقا. .؟!

عند ذاك جاء صوت أم حنفى وهى تقول بنبرات متشكية:

ـ كان الأفضل أن يروا تعاستى!. . علام هذا الفرح كله بعد أن سيبت مفاصلى؟. . حادثة أخرى كهذه والله يرحمنى.

لم تكن قد خلعت ملاءتها فبدت كزكيبة فحم منتفخة، يعلو وجهها الشحوب والإعياء وتلوح فى عينيها نظرة استسلام غريبة، فسألتها أمينة:

ـ ماذا حدث؟. . ماذا دعاك إلى الصراخ؟. . لقد لطف الله بنا فلم نشهد شيئا مفزعا.

فأسندت أم حنفى ظهرها إلى ضلفة الباب وأخذت تقول:

ـ حدث ما لن أنساه يا ستى. . كنا عائدين وإذا بشيطان من هؤلاء الجنود يقفز أمامنا ويشير إلى سيدى كمال ليذهب إليه ففزع سيدى وجرى إلى درب قرمز، ولكن جنديا آخر اعترض سبيله فانحرف إلى بين القصرين وهو يصرخ فغاص قلبى من الخوف وجعلت أستغيث بأعلى صوتى وعيناى لا تفارقانه وهو يجرى من جندى إلى جندى حتى أحاطوا به. . كدت أموت من شدة الخوف وزاغ بصرى فلم أعد أرى شيئا، وما أدرى إلا والناس قد اجتمعوا حولى ولكنى لم أكف عن الصراخ حتى قال لى عم حسنين الحلاق: «ربنا يكفيه شر أولاد الحرام. وحدى الله. . إنهم يلاطفونه. .». آه يا ستى لقد حضرنا سيدنا الحسين ودفع عنا الشر.

فقال كمال معترضا:

ـ لم أصرخ أبدا. .

فضربت أم حنفى صدرها بكفها قائلة:

ـ لقد ثقب صراخك أذنى حتى جننتنى.

فقال بصوت منخفض كالمعتذر:

ـ ظننتهم يريدون قتلى، ولكن أحدهم جعل يصفر لى ويربت كتفى ثم أعطانى (وهنا جس جيبه) شيكولاته فذهب عنى الخوف.

زايل أمينة السرور، لعله كان سرورا زائفا متعجلا، الحقيقة التى يجب ألا تغيب عنها هى أن الفزع ركب كمال دقائق، وأنه يجب أن تدعو ربها طويلا كى ينجيه من عواقبه، لم تكن ترى فى الفزع مجرد شعور عابر، كلا. . إنه شعور شاذ تكتنفه هالة غامضة تأوى إليها العفاريت كما تأوى الخفافيش إلى الظلام، فإذا أحاط بشخص ـ خصوصا الصغار ـ مسه بضر سيئ العاقبة، لذلك فهو يستوجب فى نظرها مزيدا من العناية والحيطة، تلاوة من القرآن كانت أم بخورا أم حجابا، قالت بحزن:

ـ أفزعوك!. . قاتلهم الله.

وقرأ ياسين ما يدور فى خاطرها. . فقال مداعبا:

ـ الشيكولاتة رقية ناجعة للفزع. . (ومخاطبا كمال). . هل دار الحديث بالعربى؟

رحب كمال بالسؤال لأنه فتح له مرة أخرى أبواب الخيال والمغامرة، منتشلا إياه من مضايقات الواقع، فقال وقد استعادت أساريره انبساطها:

ـ كلمونى بعربى غريب! . . ليتك سمعته بنفسك!

وراح يحاكى طريقتهم فى الكلام حتى ضحك الجميع، حتى أمه ابتسمت . . فعاد ياسين يسأله وكان يغبطه:

ـ ماذا قالوا لك؟

ـ كلاما كثيرا! . . ما اسمك، أين بيتك، أتحب الإنجليز؟!

فهمى ساخرا:

ـ وبم أجبتهم على هذا السؤال الفريد؟!

فرمق أخاه كالمتردد . . ولكن ياسين أجاب عنه قائلا:

ـ طبعا قال إنه يحبهم . . ماذا كنت تريد أن يقول؟

على أن كمال استطرد يقول متحمسا:

ـ ولكنى قلت لهم أيضا أن يعيدوا سعد باشا.

فلم يتمالك فهمى أن ضحك عاليا . . وسأله:

ـ حقا! . . وماذا قالوا لك؟

فقال كمال مستردا ارتياحه بضحك أخيه:

ـ أمسك أحدهم بأذنى وقال لى «سعد باشا نو . .».

فعاد ياسين يتساءل:

ـ وماذا قالوا أيضا؟

فقال كمال ببراءة:

ـ سألونى . . ألا يوجد بنات فى بيتنا؟

فتبودلت نظرة جدية بينهم لأول مرة منذ قدم كمال، ثم سأله فهمى باهتمام:

ـ وماذا قلت لهم؟

ـ قلت لهم أن أبلة عائشة وأبلة خديجة تزوجتا، ولكنهم لم يفهموا كلامى فقلت ليس فى البيت إلا نينة، فسألونى عن معنى نينة فقلت!

رمى فهمى أخاه ياسين بنظرة كأنما يقول: «أرأيت كيف أن سوء ظنى فى محله!». ثم ساخرا:

ـ لم يعطوه الشيكولاتة لوجه الله.

فابتسم ياسين ابتسامة باهتة وغمغم قائلا:

ـ ليس ثمة ما يدعو إلى القلق.

وأبى أن يترك هذه السحابة تغشى مجلسهم فسأل كمال:

ـ وكيف دعوك إلى الغناء؟

فقال كمال ضاحكا :

ـ فى أثناء الحديث انطلق أحدهم يغنى بصوت منخفض، فاستأذنتهم فى أن أسمعهم صوتى . . !

فقهقه ياسين قائلا :

ـ يا لك من فتى جرىء! . . ألم يعاودك الخوف وأنت بين أرجلهم؟

فقال كمال فى مباهاة :

ـ أبدا . . (ثم بتأثر) . . ما أجملهم! . . لم أر أجمل منهم من قبل . عيون زرق . . وشعر من ذهب . . وبشرة ناصعة البياض . . كأنهم أبلة عائشة!

وجرى فجأة إلى حجرة المذاكرة ورفع رأسه إلى صورة لسعد زغلول ثبتت فى الجدار إلى جانب صورة الخديو ومصطفى كامل ومحمد فريد . . ثم عاد وهو يقول :

ـ إنهم أجمل من سعد باشا كثيراً .

فهز فهمى رأسه كالآسف وقال :

ـ يا لك من خائن! . . اشتروك بقطعة من الشيكولاتة . . لست صغيرا ليغفر لك هذا القول، من مدرستك من يستشهد كل يوم، خيبة الله عليك .

وكانت أم حنفى قد أحضرت الموقد والكنجة والفناجين وعلبة البن . . وأخذت أمينة تهيىء القهوة للجلسة التقليدية، عاد كل شىء إلى أصله إلا ياسين فقد عاود التفكير فى زوجه الغاضبة، على حين انتحى كمال جانبا وأخرج الشيكولاتة من جيبه وراح ينزع عنها الغلاف المورد اللامع، بدا أن تعنيف فهمى ضاع فى الهواء إذ لم يكن فى قلبه وقتذاك إلا الرضى والحب .

٦٠

تعقدت مشكلة ياسين الزوجية فبلغت درجة من الخطورة لم يتوقعها أحد، وما يدرى السيد أحمد إلا ومحمد عفت قادم عليه فى الدكان فى اليوم التالى لالتجاء زينب إلى بيته، ثم قال قبل أن يسترد يده التى شد عليها السيد بالسلام :

ـ يا سيد أحمد . . جئتك برجاء . . يجب أن تطلق زينب اليوم قبل الغد إن أمكن .

بهت السيد، أجل قد ساءه سلوك ياسين أكبر إساءة، ولكنه لم يتصور أن يبعث رجلا

فاضلا كالسيد محمد عفت إلى المطالبة بالطلاق، لم يتصور أن تدعو هذه «الهفوات» إلى الطلاق مطلقا، بل لم يجر له على بال أن تجيء المطالبة بالطلاق من ناحية الزوجة أبدا، فخيل إليه أن الدنيا انقلبت رأسا على عقب، وأبى أن يصدق أن محدثه جاد فى طلبه فقال بلهجته اللطيفة التى طالما استأسرت قلوب أصدقائه:

ـ ليت الإخوان كانوا معنا ليشهدوا عليك وأنت تقذفنى بهذه اللهجة القاسية! . . أصغ إلىّ . . باسم صداقتنا أمنعك من أن تجرى للطلاق ذكرا على لسانك.

ثم تفرس فى وجهه ليسبر أثر كلامه فيه، ولكنه وجده متجهما كالحا ينذر بالشر والتصميم، فبدا يستشعر الخطورة والتشاؤم . . دعاه إلى الجلوس فجلس وما تزداد صورته إلا ظلاما، وأنه يعرف حق المعرفة، عنيد شديد المراس إذا ركبه الغضب كفر بالمودة والمجاملة فتمزقت على سنان حدته أسباب القربى والعطف جميعا، قال السيد:

ـ وحد الله . . ولنتحدث فى هدوء.

فقال محمد عفت وكأنه يقبس لهجته من نار الغضب الذى توهج به خداه:

ـ صداقتنا فى حرز، فلندعها جانبا . . ابنك ياسين لا يعاشر، تحققت من هذا بعد أن عرفت كل شىء، كم تصبَّرت المسكينة! . . حضنت همومها طويلا، أخفت عنى كل شىء، ثم بثتها جملة حين تصدع صدرها . . يسهر طول الليل ويعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكرا، أهانها ولفظها، ثم ماذا كانت عقبى صبرها الطويل؟! . . أن تضبطه فى بيتها مع خادمتها! . . (وبصق على الأرض) . . جارية سوداء؟ . . بنتى لم تخلق هذا . . كلا ورب السماوات، أنت أعرف الناس بمنزلتها عندى، كلا . . ورب السماوات، لا كنت محمد عفت إذا سكتّ على هذا.

قصة معادة، ولكن ثمة جديدا صدمه حتى زلزله هو قوله إن ياسين «يعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكرا»! . . أعرف طريق الحانة أيضا؟! . . متى؟ . . كيف! . . آه ليس فى الوقت متسع للتفكير أو الانزعاج، ليخفف انفعاله كله، الساعة تتطلب هدوءا وضبطا للنفس، يجب أن يملك الموقف ليتفادى استفحال الشر . . قال بنبرات أسيفة:

ـ إن ما يحزنك يحزننى أضعافا، ومن سوء الحظ أن سوءة من السوءات التى حدثتنى عنها لم تتصل لى بعلم أو تجر لى على بال، اللهم إلا الحادثة الأخيرة وقد أدَّبته عليها تأديبا لا يستبيحه لنفسه أب غيرى، ما عسى أن أصنع؟ . . لقد أخذته بالتأديب العنيف منذ كان صبيا، ولكن وراء إرادتنا دنيا وشياطين تهزأ من تصميمنا وتفسد علينا نوايانا الطيبة.

قال محمد عفت وهو يتحاشى عينى السيد بالنظر إلى المكتب:

ـ لم أجىء لأوجِّه إليك لوما أو أحمِّلك تقصيرا، أنت كأب مثال يحتذى ولا

يجارى . . ولكن هذا لن يغير من الحقيقة المحزنة، وهى أن ياسين كان غير ما أردت له أن يكون، وأنه بحالته الراهنة لا يصلح للحياة الزوجية .

فقال السيد فى عتاب :

ـ رويدك يا سيد محمد !

فقال الرجل مستدركا ولكن مصمما على رأيه :

ـ على أى حال لن يصلح زوجا لابنتى، سيجد من تقبله على علاته ولكن غيرها، لم تخلق ابنتى لهذا . . أنت أدرى الناس بمنزلتها عندى .

أدنى السيد رأسه من رأس الرجل وقال بصوت منخفض . . وكأنما يدارى ابتسامة :

ـ ليس ياسين بين الأزواج بنادرة، فكم منهم من يسكر ويعربد ويعمل البدع !

فقطب محمد عفت لينفى عن نفسه شبهة الاستجابة لهذا الكلام الموحى بالدعابة . . وقال بجفاء .

ـ إن كنت تشير إلى جماعتنا أو إلىَّ أنا خاصة، فالحق أنى أسكر وأعربد، وأعشق، ولكنى . . بل نحن جميعا، لا نوحل فى القاذورات ! . . جارية سوداء ! . . أهذه التى قضى على ابنتى بأن تتخذها ضرة ؟ ! . . كلا . . كلا ورب السماوات . . لن تكون له ولن يكون لها .

أدرك السيد أحمد أن محمد عفت ـ ربما كابنته سواء بسواء ـ مستعد لأن يعفو عن أمور كثيرة، إلا أن يخلط ياسين بين كريمته وبين جاريتها السوداء، إنه يعرفه تركيا فى عناد البغل، ثم ورد على ذهنه قول صديقه إبراهيم الفار يوم كاشفه بنيته فى خطبة زينب لابنه ياسين، فقد قال له : «أصيلة بنت أصيل، محمد أخونا وحبيبنا، ابنته ابنتنا، ولكن هل فكرت رويدا فى منزلة الفتاة من نفس أبيها . . هل فكرت فى أن محمد عفت لا يتسامح من ذرة غبار إذا مست لها ظفرا ؟ !» . لكنه رغم هذا كله تعذر عليه أن يقيس الأمور بغير مقياسه، وكان يفاخر دائما، بأن محمد عفت على فظاعة غضبه إذا غضب، لم يحتد عليه ولو مرة واحدة طوال معاشرتهما المديدة ! . . قال متسائلا :

ـ رويدك، ألا ترى أن مبادئنا واحدة وإن اختلفت التفاصيل ؟ . . جارية سوداء أو عالمة . . أليست كلتاهما امرأة ؟ !

فانتفخت أوداج محمد عفت وضرب حافة المكتب بقبضته . . وانفجر قائلا :

ـ أنت لا تعنى ما تقول ! . . الخادمة خادمة والسيدة سيدة، لماذا لا تعشق الخادمات إذن ؟ ! . . لم يشابه ياسين أباه، إنى آسف لكون ابنتى حبلى، كم أكره أن يكون لى حفيد تجرى فى دمه القذارة !

وخزته الجملة الأخيرة فغضب، ولكنه استطاع أن يغلق قلبه على غضبه بقوة حلمه

الذى يحبو به أصدقاءه وأحبابه، حلم بين الأصدقاء لا يعادله فى قوته إلا غضبه بين آله . . ثم قال بهدوء :

ـ أقترح عليك أن تؤجل الحديث إلى وقت آخر .

فقال محمد عفت محتدا :

ـ أرجو أن تحقق رجائى الساعة !

آه . . لقد بلغ به الامتعاض حدا لم يكن الطلاق نفسه معه بالحل المستكره ولكنه كان يشفق على صداقة العمر من ناحية، وتعز عليه الهزيمة من ناحية أخرى، أليس هو الرجل الذى يتشفع به الناس ليفض الخصومات وليصل ما انقطع من المودات والزيجات؟! . . فكيف تحل به الهزيمة وهو يدافع عن ابنه فيرضى بحكم الطلاق؟! . . أين حلمه؟ . . أين كياسته؟ . . أين لباقته؟

ـ لقد أصهرت إليك لأوثِّق أسباب الصداقة بيننا . . فكيف أقبل أن أعرضها للوهن؟

فقال الرجل بإنكار :

ـ صداقتنا فى حرز! . . لسنا أطفالا، ولكن كرامتى لا يمكن أن تمس .

فقال السيد برقة :

ـ ماذا عسى أن يقول الناس عن زيجة انقطعت ولم تتم عامها الأول؟

فقال محمد عفت بعجرفة :

ـ لن يرجع عاقل العيب إلى ابنتى . .

آه . . مرة أخرى! . . ولكنه تلقَّاها بنفس الحلم، بدا وكأن استياءه لعجزه عن التوفيق قد غطى استياءه من تهور الرجل الغاضب فلم يهتم بالرصاص المنطلق عليه اهتمامه بتبرير إخفاقه . . راح يعزى نفسه بأن الطلاق بيده هو وحده، إذا شاء منحه وإذا شاء منعه، محمد عفت يعلم ذلك حق العلم، لذلك جاء يستوهبه إياه باسم الصداقة التى لا شفيع له غيرها، فإذا قال «لا» فلا راد لكلمته، وسترجع الفتاة إلى ابنه طوعا أو كرها، ولكن تمسى الصداقة القديمة فى خبر كان، أما إذا قال نعم فسيقع الطلاق ولكن تصان الصداقة ويعترف له بالجميل، وليس من العسير أن يتذرع بكل أولئك فى المستقبل لوصل ما انقطع، وإذن فالطلاق وإن يكن هزيمة إلا أنه هزيمة مؤقتة تتضمن تسامحا ونبلا غير منكورين وقد تنقلب فوزا بعد حين . وما أن اطمأن إلى سلامة موقفه ولو بعض الشىء حتى شعر بالرغبة فى معاتبته على ما فرط فى حقه . . فقال بلهجة ذات معنى :

ـ لن يكون الطلاق إلا بموافقتى . . أليس كذلك؟ . . بيد أننى لن أنبذ رجاءك ما دمت مصراً عليه، إكراما لك، إكراما للصداقة التى لم ترع لها حقا فى مخاطبتى .

فتنهد محمد عفت . . إما ارتياحا للنهاية المنشودة أو احتجاجا على عتاب صديقه أو للإثنين معا ، ثم قال بلهجة قاطعة خلت من حدة الغضب لأول مرة :

- قلت ألف مرة إن صداقتنا فى حرز! . . إنك لم تسئ إلىّ قط ، على العكس من ذلك فإنك تكرمنى بتحقيق رجائى وإن كرهته .

فردد السيد قوله محزونا :

- نعم . . وإن كرهته .

ثار حنقه حالما غاب الرجل عن ناظريه . انفجر الغيظ المكبوت فالتهم نفسه ومحمد عفت وياسين ، ياسين خاصة ، ثم تساءل : ترى هل يمكن أن تبقى الصداقة فى حرز حقا فلا يصيبها رشاش الحوادث المتوقعة؟ . . آه . . لم يكن ليضن بنفيس فى سبيل صون حياته عن مثل هذه الهزة القاسية . . لكنه العناد التركى ، لكنه الشيطان ، بل لكنه ياسين ، أجل ياسين دون غيره . . قال له بغضب وازدراء :

- كدرت صفو ود لم تكن الأيام لتكدره ولو اجتمعت له . .

ثم قال له بعد أن أعاد على مسمعيه حديث محمد عفت :

- خيبت أملى فيك فحسبى الله ونعم الوكيل ، ربيتك وأدبتك ورعيتك . . ثم انجلى تعبى كله عن ماذا؟ . . سكير صعلوك تسوّل له نفسه الاعتداء على أحقر الخادمات فى بيت الزوجية ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، ما كنت أتصور أن يخرج من حضانتى ابن على هذه الصورة فالأمر لله من قبل ومن بعد ، ما عسى أن أصنع بك؟ . . لو كنت قاصرا لكسرت دماغك ، ولكن لتكسرنّها الأيام ، ها أنت تنال جزاءك الحق فتتبرأ منك الأسرة الكريمة وتبيعك بأبخس الأثمان!

لعله وجد نحوه بعض الرثاء ، بيد أن سخطه غلب ثم استحال شعوره كله ازدراء ، لم يعد يملأ عينيه رغم فتوته وجماله وضخامته ، يوحل فى القذارة كما قال محمد عفت قاتله الله ، وعجز عن كبح جماح امرأة ، ما أصغره ، سرعان ما لحقت به الهزيمة التى لم ينج هو نفسه من هوانها من جراء طيشه . ما أحقره ، ليسكر ويعربد وليعشق تحت شرط أن يظل السيد المطاع ، أما أن ينهزم على تلك الصورة المخزية فما أحقره ، لم يشابه أباه كما قال أيضا محمد عفت قاتله الله ، إنى أفعل ما أشاء ولكنى أظل السيد أحمد وكفى ، حكمة رائعة تلك التى ألهمتنى أن أنشئ الأولاد على مثال فريد للاستقامة والطهارة ، فإنه لمما يشق أن ينهجوا نهجى ويحظوا فى نفس الوقت بالكرامة والاستقرار ، ولكن واأسفاه ضاع جهدى هباء مع ابن هنية!

- وهل وافقت يا أبى؟

تردد صوت ياسين كالحشرجة . . فأجابه بخشونة قائلا :

ـ نعم، إبقاء على صداقة قديمة ولأنه أوفق حل فى الوقت الحاضر على الأقل.

جعلت يد ياسين تنقبض وتنبسط فى حركة آلية عصبية، كأنما كانت تشفط الدم من وجهه حتى انقلب شديد الشحوب، شعر بهوان لم يشعر بمثله إلا فيما كابد من سلوك أمه، حموه يطالب بالطلاق!.. أو بمعنى آخر زينب تطالب بالطلاق أو على الأقل توافق عليه!.. أيهما الرجل وأيتهما المرأة؟!.. ليس عجيبا أن ينبذ الإنسان حذاء أما أن ينبذ حذاء صاحبه!!.. كيف رضى أبوه له بهذا الخزى الذى لم يسمع بمثله من قبل؟! حدج أباه بنظرة حادة وإن عكست ما يعتلج فى صدره من أنات الاستغاثة، ثم قال بلهجة حرص الحرص كله على أن ينقيها من أى أثر للاحتجاج أو الاعتراض، كأنما يريد بها أن يذكره بما عسى أن يكون أنسب:

ـ ثمة طريقة لمعالجة الزوج الناشز..

شعر السيد بشعور ابنه فأدركه التأثر، ولذلك لم يبخل عليه ببعض ما يدور فى نفسه.. فقال له:

ـ أعلم ذلك.. ولكنى اخترت أن نكون من الكرماء.. محمد عفت عقل تركى حجرى ولكن قلبه من ذهب، هذه الخطوة ليست الأخيرة، ليست النهاية، لم أغفل مصلحتك وإن كنت لا تستأهل خيرا، دعنى أتصرف كما أشاء.

كما تشاء!.. منذا يرد لك مشيئة؟!.. تزوجنى وتطلقنى.. تحيينى وتميتنى، لست هنا، خديجة عائشة فهمى ياسين.. الكل واحد، الكل لا شىء، أنت كل شىء.. كلا.. لكل شىء حد، لم أعد طفلا، رجلا مثلك سواء بسواء، أنا الذى أقرر مصيرى، أطلق أو أودعها بيت الطاعة، تراب حذائى بمحمد عفت وزينب وصداقتكما.

ـ مالك لا تتكلم؟

فقال دون تردد:

ـ أمرك يا أبى...

أى عيشة وأى بيت وأى أب، زجر وتأديب ونصائح، أزجر نفسك.. أدب نفسك.. انصح نفسك، أنسيت زبيدة؟.. وجليلة؟.. والغناء والشراب؟.. ثم تطالعنا بعمامة شيخ الإسلام وسيف أمير المؤمنين، لم أعد طفلا، اعتن بالقصَّر ودعنى وشأنى، تزوج.. أمرك يا فندم.. طلِّق.. أمرك يا فندم.. ملعون أبوك.

٦١

خفت حدة المظاهرات شيئا ما فى حى الحسين بعد احتلال الجنود الإنجليز له فأمكن للسيد أحمد أن يستأنف ممارسة عادة قديمة انقطع عنها مضطرا إلى حين أمكنه أن يصطحب أبناءه إلى مسجد الحسين لتأدية صلاة الجمعة . . عادة قديمة دأب عليها منذ عهد بعيد . . كان يدعو ابنه إليها حالما يبلغ صباه ليوجه قلبه إلى العبادة مبكرا، مستوهبا من ورائها البركة لنفسه ولأبنائه وللأسرة جميعا، ربما كانت أمينة وحدها التى لا ترتاح إلى تحرك القافلة فى نهاية كل أسبوع حاملة رجالها، ثلاثة رجال كالجمال طولا وعرضا إلى فتوتهم وإشراقهم، كانت تتبعهم ناظريها من خصاص المشربية فيخيل إليها أنهم ملتقى الأنظار فتجزع وتدعو الله أن يقيهم شر العين، وما ملكت يوما أن أفضت بمخاوفها إلى السيد فبدا وكأنه تأثر لتحذيرها حينا، بيد أنه لم يستسلم للخوف طويلا وقال لها: «إن بركة الفريضة التى نذهب لتأديتها حقيقة بأن تحفظنا من كل شر».

وكان فهمى يلبى دعوة الجمعة ببشاشة قلب أولع بتأدية الفرائض منذ الصغر مطيعا فى ذلك - قبل إرادة أبيه - عاطفة دينية صادقة، تمتاز إلى صدقها بقدر من الاستنارة لا بأس به، استمده مما اطلع عليه من آراء محمد عبده وتلاميذه . . لذلك كان الوحيد فى الأسرة الذى يقف من إيمانها بالتعاويذ والرقى والأحجبة وكرامات الأولياء موقف المتشكك، وإن أبت عليه دماثة خلقه أن يجهر بتشككه أو يعلن استهانته، بل كان يتقبل حجاب الشيخ متولى عبد الصمد الذى يجىء به أبوه بين حين وآخر برضى ظاهرى . أما ياسين فكان يلبى دعوة أبيه لأنه لم يكن من تلبيتها بد، لعله لو ترك لشأنه ما فكر يوما فى أن يدس جسمه الضخم فى زحمة المصلين، لا عن تزعزع فى العقيدة، ولكن استهانة وتكاسلا . . لذا كان ليوم الجمعة عنده هم يكابده مع مطلع الصباح، فإن حان وقت الذهاب إلى الجامع ارتدى بذلته فى شىء من التذمر، ثم يسير وراء أبيه كالأسير، ولكن كلما اقترب من الجامع خطوة تخفف من تذمره رويداً، حتى يدخل الجامع منشرح الصدر فيؤدى الصلاة ويدعو الله أن يغفر له ويعفو عن ذنوبه، دون أن يسأله التوبة كأنما يشفق فى أعماقه أن يستجاب دعاؤه فينقلب زاهدا فى اللذات التى يحبها حبا لا يرى للحياة بدونه معنى . كان يعلم علم اليقين أن التوبة واجبة، وأن مغفرة لن تكتب له بدونها، ولكنه كان يرجو أن تجىء فى الوقت «المناسب» حتى لا يخسر الدارين، ولذا كان على تكاسله وتذمره يحمد فى النهاية الظروف التى تدفعه إلى تأدية فريضة هامة كفريضة الجمعة يمكن -

عند الحساب ـ أن تمحو بعضا من سيئاته وتخفف من أوزاره، خصوصا وأنه لا يكاد يؤدى غيرها فريضة.

أما كمال فلم توجه إليه الدعوة إلا حديثا. مذ جاوز العاشرة، نهض إلى تلبيتها فى زهو وخيلاء وفرح، شعر شعورا غامضا بأنها تتضمن اعترافا بشخصه، وأنها تمنحه مساواة من نوع ما مع فهمى وياسين وأبيه نفسه، ثم سرَّه على وجه الخصوص أن يسير فى ركاب أبيه آمنا دون أن يتوقع من ناحيته شرا، وأن يقف فى الجامع إلى جانبه على قدم المساواة مؤتمين جميعا بإمام واحد. بيد أنه كان يستغرق فى صلاته اليومية ـ فى البيت ـ استغراقا لا يظفر بمثله فى صلاة الجمعة بالنظر إلى ما يعتريه من ارتباك لقيامه وسط خلق لا يحيط بهم حصر، ولإشفاقه من أن تند عنه هفوة فتلتقطها إحدى حواس أبيه، إلى أن شدة شعوره بالحسين ـ الذى يحبه أكثر من نفسه ـ وهو فى مسجده كانت تحول بينه وبين التوجه الخالص لله كما ينبغى للمصلى.

هكذا رآهم طريق النحاسين مرة أخرى وهم يحثون الخطى إلى بيت القاضى، السيد فى المقدمة وياسين وفهمى وكمال وراءه صفا، حتى اتخذوا مجالسهم فى الجامع وراحوا ينصتون إلى خطبة الجمعة بين رءوس مشرئبة إلى المنبر فى صمت شامل، لم يكن السيد على شدة إنصاته يكف عن الدعاء الباطنى، وتوجه قلبه إلى ياسين خاصة، كأنما رآه بعد ما لحق به من عثار الحظ أحق بالرحمة، فدعا الله طويلا أن يصلح من شأنه ويقوِّم ما اعوج من أمره ويعوضه عما فقد خيرا.. على أن الخطبة جبهته بمعاصيه، أخلت ما بينه وبينها فطالعها وجها لوجه فى هالة مرعدة من صوت الواعظ الجهورى الرنان الناقد حتى خيل إليه أنه يعنيه بالذات، وأنه يشد على أذنه صارخا فيها بأعلى صوته، وأنه لا يستبعد أن يخاطبه باسمه قائلا: «يا أحمد ازدجر. تطهر من الفسق والخمر وتب إلى الله ربك». فألمَّ به قلق وضيق كما ألـمَّا به يوم ناقشه الشيخ متولى عبد الصمد الحساب، وهو ما يقع له كثيرا عند سماع الخطبة فيسترسل فى طلب الغفران والعفو والرحمة، ولكنه ـ كابنه ياسين ـ لم يكن يطلب التوبة وإن طلبها فبلسانه دون قلبه، يقول بلسانه «اللهم التوبة» على حين يقتصر قلبه على طلب الغفران والعفو والرحمة كأنهما آلتان موسيقيتان تعزفان معا فى أوركسترا واحد فتصدر عنهما نغمتان مختلفتان، لأنه لم يتصور أن يرى الحياة بغير العين التى يراها بها ولا أن تبدو له بغير الوجه الذى تبدو به، فإذا ألح عليه القلق والضيق المستوليان عليه نهض للدفاع عن نفسه.. ولكنه يلقى دفاعه فى صورة دعاء واستغفار فيقول «اللهم إنك أعلم بقلبى وإيمانى وحبى، اللهم زدنى استمساكا بتأدية فرائضك وقدرة على صنع الخير، اللهم إن الحسنة بعشر أمثالها، اللهم إنك أنت الغفور الرحيم».. وبهذا الدعاء تعاوده الطمأنينة رويدا.

لم تكن لياسين مثل هذه المقدرة على التوفيق أو أنه لم يشعر قط بحاجة إليها، لم تكن

موضع تفكيره يوما، يهيم بالحياة كما يشتهى ويؤمن بالله كما يؤمن بوجوده هو، ثم يستسلم للتيار دون مقاومة أو ممانعة، قرعت أذنيه كلمات الواعظ فتحرك صوته الباطنى سائلا الرحمة والمغفرة بطريقة آلية وفى طمأنينة شاملة دون أن يستشعر خطورة حقيقية، إن الله أرحم من أن يحرق مسلما مثله بهفوات عابرة لا تؤذى أحدا من عباده، ثم هنالك التوبة!. . ستأتى «يوما» فتمحو ما قبلها، واسترق نظره إلى أبيه وتساءل وهو يعض على شفتيه كأنما يكتم ضحكة نافرة مما عسى أن يدور بخاطره وهو ينصت بهذا الاهتمام البادى إلى الخطبة؟. . أهو يعانى العذاب كل صلاة جمعة أم تراه ينافق ويخادع؟. . كلا. . لا هذا ولا ذاك. . إنه مثله ـ ياسين ـ يؤمن برحمة الله الواسعة، لو أن الأمر بالخطورة التى يصفه بها الواعظ لاختار أبوه إحدى السبيلين، استرق إليه نظرة أخرى فرآه كالجواد الكريم الجميل بين القاعدين المتطلعين إلى المنبر، شعر نحوه بإعجاب وحب خالصين، لم يعد للحنق أثر فى نفسه، ومع أن الغضب بلغ به مداه يوم الطلاق، حتى بث همه إلى فهمى قائلا: «لقد خرب أبوك بيتى وجعلنى أضحوكة بين الناس»، إلا أنه تناسى الآن حنقه كما تناسى الطلاق والفضيحة وكل شىء، ثم هذا الواعظ نفسه ليس خيرا من أبيه. . بل هو على وجه اليقين أمعن فى الضلال، حدثه عنه مرة أحد الأصحاب فى قهوة أحمد عبده فقال: «إنه يؤمن بشيئين. . بالله فى السماء وبالغلمان فى الأرض، إنه من طراز حساس ترف عينه وهو فى الحسين إذا تأوه غلام فى القلعة»، بيد أنه لم يحقد عليه لذاك، وعلى العكس وجد فيه كما وجد فى أبيه ما يجد الجندى فى الخنادق المحفورة فى الخطوط الأمامية التى على العدو أن يقتحمها قبل أن يصل إليه.

ثم دعا الداعى إلى الصلاة فقام الرجال قومة واحدة، وقفوا صفوفا متراصة ملأت صحن الجامع الكبير، صار المسجد أجساداً ونفوسا ذكَّر كمال احتشادها مشهد المحمل فى النحاسين واتصلت الأزياء فى خطوط طويلة متوازية وحدتها البدل والجبب والجلاليب، ثم انقلب الجمع جسما واحدا تصدر عنه حركة واحدة مستشرفا قبلة واحدة، وترددت التلاوات الهامسة فى همهمة شاملة حتى أذن بالسلام. . عند ذاك انتثر سلك النظام، استردت الحرية أنفاسها، نهض كل لوجهته، منهم من قصد الضريح للزيارة ومنهم من اتجه نحو الأبواب للخروج ومنهم من تلبَّث للحديث أو تريَّث حتى يخف الزحام. . فاختلطت تياراتهم أيما انتشار، أزفت الساعة السعيدة التى منى كمال بها. . ساعة الزيارة ولثم الجدران وقراءة الفاتحة إصالة عن نفسه وإنابة عن أمه كما وعدها، بدأ يتحرك ببطء فى ركاب أبيه. . وما يدرى إلا وشاب أزهرى يبرز من الزحمة فجأة فيعترض سبيلهم فى حركة عنيفة لافتة للأنظار، ثم بسط ذراعيه لينحى الناس جانبا ومضى يتقهقر أمامهم وهو يتفحص ياسين بنظرات ثاقبة مريبة وقد عبس وجهه وتطايرت نار الغضب من صفحته المكفهرة. عجب السيد له فجعل يردد بصره بينه وبين ياسين،

على حين بدا ياسين أشد عجبا فراح بدوره يردد بصره بينه وبين أبيه متسائلا، ثم انتبه أناس إلى المشهد فركزوا فيه أنظارهم مترقبين فى دهشة واستطلاع وعند ذاك لم يتمالك السيد أن خاطبه متسائلا فى استياء:

ـ ما لك يا أخى تنظر إلينا هكذا؟!

فأشار الأزهرى إلى ياسين وصاح بصوت كالرعد:

ـ جاسوس!

نفذت الكلمة إلى صدر الأسرة كالرصاص فدار رأسها وحملقت أعينها وجمدت فى أماكنها، على حين جرت التهمة على الألسن فرددتها فى فزع وحنق وأخذ الناس يتجمعون حولهم وأذرعهم تشتبك فى حذر لتحصرهم فى دائرة ما لها من منفذ، وكان السيد أول من ثاب إلى وعيه، ومع أنه لم يفهم شيئا مما يدور حوله.. إلا أنه أدرك خطورة الصمت والانكماش فهتف بالشباب غاضبا:

ـ ماذا تقول يا سيدنا الشيخ؟.. أى جاسوس تعنى؟!

ولكن الشاب لم يأبه للسيد، فأشار مرة أخرى إلى ياسين وصاح:

ـ حذار أيها الناس، هذا الشاب الخائن جاسوس من جواسيس الإنجليز اندس بينكم ليتسقط الأنباء ثم ينقلها إلى سادته المجرمين.

ركب الغضب السيد فتقدم من الشاب خطوة وصاح به غير متمالك نفسه:

ـ أنت تهرف بما لا تعرف، فإما أن تكون مجرما أو مجنونا، هذا الشاب ابنى لا خائن ولا جاسوس، كلنا وطنيون وهذا الحى يعرفنا كما نعرف أنفسنا.

فهز الشاب منكبيه استهانة وصاح بصوته الخطابى:

ـ جاسوس إنجليزى حقير، رأيته بعينى رأسى مرارا وهو يناجى الإنجليز عند بين القصرين، عندى شهود على ذلك، ولن يجرؤ على تكذيبى.. إنى أتحداه.. ليسقط الخائن.

وتجاوبت فى أركان الجامع دمدمة غاضبة، تعالى الهتاف هنا وهناك «ليسقط الجاسوس»، وصاح غيرهم «فليؤدب الخائن».

ولاحت فى أعين القريبين نذر الوعيد تترصد بادرة أو إشارة كى تنقض على الفريسة، لعله لم يؤخر إقدامها إلا منظر السيد المؤثر الذى وقف لصق ابنه كأنما يتلقى عنه ما يتهدده من أذى، ودموع كمال الذى أغرق فى الانتحاب، أما ياسين فقد وقف بين السيد وفهمى فاقد الوعى من الاضطراب والوجل، وجعل يقول بصوت متهدج لم يسمعه أحد:

ـ لست جاسوسا.. لست جاسوسا.. الله على صدق قولى شهيد.

ولكن الغضب بلغ بالناس مداه، فتجمهروا حول الدائرة المحصورة وهم يتدافعون بالمناكب ويتوعدون «الجاسوس» شرا، على أن صوتا من وسط الزحام ارتفع هاتفا:

- تمهلوا يا سادة.. هذا ياسين أفندى كاتب مدرسة النحاسين.

فانطلقت أصوات كالهدير:

- مدرسة النحاسين أو الحدادين فليؤدب الخائن.

وكان رجل يشق طريقه بين الأجسام بصعوبة ولكن بعزم لا يقهر، فما بلغ الصف الأمامى حتى رفع يديه وهو يزعق: «اسمعوا.. اسمعوا». ولما هدأت الأصوات قليلا قال وهو يومىء إلى السيد أحمد:

- هذا السيد أحمد عبد الجواد من أهل النحاسين المعروفين.. ولا يمكن أن يضم بيته جاسوسا، فتريثوا حتى تنجلى الحقيقة.

ولكن الأزهرى صرخ حانقا:

- لا شأن لى بالسيد أحمد أو السيد محمد، هذا الشاب جاسوس مهما يكن من أمر أبيه، رأيته يضاحك الجلادين الذين زحموا القبور بأبنائكم.

وما عتم أن صاح أناس لا حصر لهم:

- ليضرب بالأحذية..

وسرت فى المتجمهرين حركة عنيفة، فأقبل متحمسون من كل صوب ملوحين بالأحذية والمراكيب حتى شعر ياسين بالانهيار واليأس، دارت عيناه فيما حوله فلم تقعا إلا على وجه متحرش يفور بالغضب والبغضاء، والتصق السيد وفهمى بجانب ياسين بحركة غريزية كأنما ليدفعا عنه الأذى أو ليقاسماه إياه، وهما على حال من اليأس والقهر لم تكن دون ما يأخذ بخناقه، على حين انقلب انتحاب كمال صراخا كاد يغطى على أصوات الثائرين. كان الأزهرى أول المهاجمين فرمى بنفسه على ياسين قابضا على بنيقة قميصه ثم جذبه بعنف لينتزعه من المأوى الذى لاذ به بين أبيه وأخيه حتى لا تخطئه الأحذية، ولكن ياسين قبض على معصميه مقاوما ودخل السيد بينهما، ورأى فهمى أباه فى الموقف المثير لأول مرة فى حياته.. فاستفزه غضب شديد أذهله عما يحدق بهم من خطر، دفع الأزهرى فى صدره دفعة قوية ردته إلى الوراء فصاح به متوعدا:

- حذار أن تتقدم خطوة واحدة!

فصرخ الأزهرى وقد جن جنونه:

- أدبوهم جميعا.

عند ذاك علا صوت قوى يقول بلهجة آمرة:

ـ انتظر يا سيدنا الشيخ . . انتظروا جميعا .

فاتجهت الأنظار إلى الصوت ، فإذا بأفندى شاب يبرز من بين الجموع إلى الدائرة المحصورة يتبعه ثلاثة فى مثل سنه وزيه ، تقدموا فى خطوات ثابتة توحى بالثقة والعزم حتى وقفوا بين الشيخ وذويه ، تهامس كثيرون متسائلين «بوليس . . بوليس؟» . بيد أن التساؤل انقطع حينما مد الأزهرى يده إلى يد قائد الجماعة وشد عليها بحرارة ، ثم سأل الأفندى الأزهرى بنبرات حاسمة :

ـ أين هذا الجاسوس؟

فأشار الشيخ إلى ياسين بازدراء وتقزز ، فالتفت الشاب إليه وثبت عليه عينيه متفحصا إياه بدقة وقسوة ، وقبل أن ينبس بكلمة تقدم فهمى خطوة إلى الأمام كأنما ليسترعى انتباهه فلمحه الآخر . . وسرعان ما اتسعت عيناه دهشة وإنكاراً فغمغم قائلا :

ـ أنت . . .

فابتسم ابتسامة شاحبة وقال بلهجة لا تخلو من تهكم :

ـ هذا الجاسوس أخى !

فالتفت الشاب إلى الأزهرى متسائلا :

ـ أأنت متأكد مما تقول؟

فبادره فهمى قائلا :

ـ ربما صدق فى قوله . . إنه رآه يحادث الإنجليز ولكن أساء التفسير أيما إساءة ، إن الإنجليز معسكرون أمام بيتنا وهم يتعرضون لنا فى الذهاب والإياب فنتورط أحيانًا فى محادثتهم على كره . . هذا كل ما هنالك .

وهم الأزهرى بالكلام ولكن الشاب أسكته بإشارة من يده ، ثم خاطب الجمع قائلا وهو يضع يده على منكب فهمى :

ـ هذا الشاب من الأصدقاء المجاهدين ، كلانا يعمل فى لجنة واحدة فكلامه عندى مصدق . . أخلوا سبيلهم .

لم ينبس أحد بكلمة ، انسحب الأزهرى بلا تردد ومضى الناس يتفرقون ، صافح الشاب فهمى ثم ذهب يتبعه رفاقه ، ربت فهمى على رأس كمال حتى كف عن البكاء ، ساد الصمت فأخذ كل يضمد جراحه ، انتبه السيد إلى وجوه نفر من معارفه قد أحاطوا به وراحوا يواسونه ويعتذرون إليه عن الخطأ الكبير الذى وقع فيه الأزهرى ومن ضل به من الناس ، ويؤكدون له إنهم لم يألوا جهدا فى الدفاع عنه فشكرهم ، وإن كان لا يدرى متى جاءوا ولا كيف دافعوا عنه ، وعدل عن الزيارة لما استحوذ عليه من انفعال فاتجه صوب الباب مطبق الفم متجهم الوجه وتبعه الأبناء فى صمت ثقيل .

٦٢

فى الطريق استرد أنفاسه، فداخله ارتياح لابتعاده عن الناس الذين شاركوا فى «الحادث» ولو بمجرد الرؤية، كره وقتذاك كل شىء وراءه وقذفه باللعنات، لم يكد يرى من الطريق الذى يسير فيه شيئا، فتبادل التحية مرتين مع اثنين من معارفه على نحو مقتضب متكلف لم يعهد فيه من قبل، تركز شعوره فى ذاته - ذاته الجريحة - وسرعان ما فار بالغضب.. كان أحب إلى أن تنتهى الحياة من أن أقف ذلك الموقف المزرى، كالأسير بين طغمة من اللئام، وهذا المجاور المقمل مدعى الوطنية الجوعان تهجم على بكل وقاحة، لم يرع لى حرمة سن أو مهابة، لم أخلق لهذا، ليس «أنا» الذى يهان بتلك الكيفية، وبين أبنائى.. لا تعجب.. أبناؤك هم أصل البلوى.. هذا الثور ابن المرة لن يعفيك من متاعبك أبدا. فقس الفضائح فى بيتى وأوقع بينى وبين أعز الأصدقاء، ثم توج عامنا بالطلاق.. لم يكفه هذا كله، كلا. ابن هنية لابد أن يسامر الإنجليز جهارا كى أدفع أنا الثمن للسفلة المتهجمين، اذهب بهم إليها كى يكمل متحف عشاقها بالإنجليز والأستراليين.

- يبدو لى أننى لن أخلص العمر من متاعبك؟

ندت عنه هذه الجملة بحدة، بيد أنه قاوم رغبته فى تأديبه لأنه رغم غضبه قدر حاله الذى يرثى لها، رآه ذاهلا شاحبا متوعكا فلم تطاوعه نفسه فى الهجوم عليه حسبه الآن ما حاق به، ليس وحده الذى يتحفه بالمتاعب، هنالك البطل، ولكن فلنؤجل همه حتى نفيق من متاعب الثور، ثور فى البيت، فى الحانة.. ثور أمام أم حنفى ونور، أما فى المعركة فهو رطل خرع لا فائدة منه ولا عائدة، يا أولاد الكلب! الله يقطع الأولاد والخلف والبيوت، آه.. لماذا تسوقنى قدماى إلى البيت؟!.. لمَ لا أتناول لقمتى بعيدا عن الجو المسموم؟!.. ستولول هى الأخرى إذا علمت بالخبَر، لست فى حاجة إلى مزيد من القرف، إلى الدهان.. سأجد حتما صديقا أقص عليه رزيتى وأشكو إليه همى.. كلا.. لدى متاعب أخرى لا تقبل التأجيل أكثر من هذا. البطل، مصيبة جديدة يجب أن نجد لها علاجا، إلى الغداء المسموم، ولولى.. ولولى.. ولولى.. ملعون أبوك أنت الأخرى.

لم يكد فهمى يغير ملابسه حتى دعى إلى مقابلة والده، فلم يملك ياسين على خموده وكربه إلا أن يغمغم قائلا:

ـ جاء دورك . .

فتساءل فهمى متجاهلا المعنى الكامن وراء ملاحظة أخيه :

ـ ماذا تعنى؟

فضحك ياسين ـ أجل وسعه أخيرا أن يضحك ـ وقال :

ـ انتهى دور الخونة وجاء دور المجاهدين!

لشد ما تمنى أن تغيب النعوت التى نعته بها صديقه فى الجامع وراء ضجة الثورة وذهول الانفعال، ولكنها لم تغب، ها هو ياسين يرددها، ولا شك أن أباه يدعوه من أجل مناقشتها. تنهد فهمى من الأعماق ثم ذهب، وجد السيد متربعا على الكنبة يعبث بحبات سبحته وفى عينيه نظرة تنم عن تفكير كئيب، فحياه بأدب جم ووقف على بعد مترين من الكنبة فى خضوع وامتثال، ورد الرجل تحيته بحركة خفيفة من رأسه تدل على الضيق أكثر مما تدل على التحية، وكأنما تقول له: «إنى أرد تحيتك مرغما كما تقضى اللياقة ولكن أدبك الزائف هذا لم يعد ينطلى على». ثم حدجه بنظرة متجهمة ينبعث منها شعاع الارتياب كأنه مصباح كشاف يفتش عن مختبئ بالظلام وقال بحزم :

ـ دعوتك لأعرف كل شىء، أريد أن أعرف كل شىء، ماذا قصد فى لجنة واحدة؟ . . صارحنى بكل شىء دون تردد .

ومع أن فهمى اعتاد فى الأسابيع الأخيرة أن يواجه أخطارا شتى، حتى الطلقات النارية ألف أزيزها، إلا أنه لاقى تحقيق أبيه بقلب ما قبل الثورة، ركبته الرهبة وشعر بأنه لا شىء، وتركز تفكيره فى تحاشى غضبه ونشدان النجاة فقال برقة وأدب :

ـ الأمر بسيط جداً يا بابا، لعل صديقى بالغ فى قوله كى ينتشلنا من ورطتنا .

فقال السيد وقد نفد صبره :

ـ الأمر بسيط جداً . . عال . . ولكن أى أمر هو؟ . . لا تخف عنى أى شىء .

وكان فهمى يقلب الأمر على مختلف وجوهه فى سرعة خاطفة ليختار ما يصح قوله وتؤمن مغبته . . قال :

ـ سماها لجنة وهى لا تعدو أن تكون جماعة من الأصدقاء يتحدثون كلما اجتمعوا فى الشئون الوطنية .

فهتف السيد مغيظًا محنقا :

ـ ألهذا استحققت لقب المجاهد . . ؟!

نطق صوت الرجل بالاستنكار العنيف كأنما عز عليه أن يحاول ابنه اللعب به . . وارتسم الوعيد فى تجعدات عبوسته . فسارع فهمى ـ دفاعا عن النفس ـ إلى الاعتراف

بشىء ذى بال ليقنع أباه بأنه امتثل لأمره كالمتهم الذى يتطوع بالاعتراف طمعا فى الرأفة. . قال فيما يشبه الحياء:

- يحدث أحيانا أن نقوم بتوزيع بعض النداءات الحاثة على الوطنية.

فتساءل السيد بانزعاج:

- المنشورات! . . هل تعنى المنشورات؟!

ولكن فهمى هز رأسه سلبا، خاف أن يعترف بهذا الاسم الذى يقرن فى البلاغات الرسمية بأقصى العقوبات، وقال بعد أن وجد صيغة مقبولة تخفف من خطورة اعترافه:

- ليست إلا نداءات تحث على حب الوطن.

ترك الرجل السبحة تسقط من يده إلى حجره، وراح يضرب كفا على كف ويقول وهو لا يتمالك نفسه من الانزعاج:

- أنت من موزعى المنشورات! . . أنت!

زاغ بصر السيد من شدة الانزعاج والغضب: موزع منشورات! . . من الأصدقاء المجاهدين! . . كلانا يعمل فى لجنة واحدة! . . هل بلغ الطوفان مرقده؟! . . طالما راعه فهمى بأدبه وبره وذكائه، لولا أن الثناء فى نظره مفسدة وأن الفظاظة تهذيب وتقويم لأوسعه ثناء، كيف انجلى هذا كله عن موزع منشورات . . مجاهد . . كلانا يعمل فى لجنة واحدة؟! . . إنه لا يحتقر المجاهدين، هو أبعد ما يكون عن ذلك، طالما تابع أنباءهم بحماس ودعا لهم عقب كل صلاة بالتوفيق، طالما ملأته أخبار الإضراب والتخريب والمعارك أملا وإعجابا، ولكن الأمر يختلف كل الاختلاف إذا صدر عمل من هذه الأعمال عن ابن من أبنائه، كأنهم جنس قام بذاته خارج نطاق التاريخ، هو وحده الذى يرسم لهم الحدود لا الثورة ولا الزمن ولا الناس، الثورة وأعمالها فضائل لا شك فيها ما دامت بعيدة عن بيته . . فإذا طرقت بابه، وإذا تهددت أمنه وسلامه وحياة أبنائه، تغير طعمها ولونها ومغزاها، انقلبت هوسا وجنونا وعقوقا وقلة أدب، فالتشتعل الثورة فى الخارج وليشارك فيها هو بقلبه كله، وليبذل لها ما فى وسعه من مال . . وقد فعل ولكن البيت له وحده دون شريك، ومن تحدثه نفسه - فيه - بالاشتراك فى الثورة فهو ثائر عليه هو لا على الإنجليز، إنه يترحم ليل نهار على الشهداء ويعجب كل الإعجاب بالشجاعة التى يتذرع بها آلهم فيما يروى الرواة، ولكنه لن يسمح لابن من أبنائه بأن ينضم إلى الشهداء ولا تطيب نفسه بهذه الشجاعة التى يتذرع بها آلهم، فكيف سولت نفس فهمى له بالإقدام على هذه الخطوة الجنونية؟ . . كيف ارتضى - وهو خير أبنائه - أن يعرض نفسه إلى الهلاك المبين؟ . . انزعج الرجل انزعاجا لم يشعر بمثله من قبل، فاق انزعاجه فى مأزق الجامع نفسه، فلم يتمالك أن يسأله بصرامة ووعيد كأنه أحد مفتشى البوليس الإنجليزى:

ـ ألا تعلم ما جزاء الذى يضبط وهو يوزع منشورات؟!

رغم خطورة الموقف وما يقتضيه من تركيز فكره فيه، أيقظ السؤال ذكرى قريبة اهتزت لها نفسه، ذكرى هذا السؤال نفسه بنصه ومعناه حينما طرحه عليه الرئيس الأعلى للجنة الطلبة التنفيذية ـ بين جملة أسئلة أخرى ـ وهو بصدد اختياره عضوا فيها، ثم ذكر بالتالى كيف أجابه وقتذاك بعزم وحماس «كلنا فداء للوطن» وقارن بين الظرفين اللذين ألقى فيهما السؤال الواحد، فاعتراه شعور بالسخرية، بيد أنه أجاب والده برقة وبصوت يوحى بالتهوين:

ـ إنى أقوم بالتوزيع بين الأصدقاء من الزملاء فقط، ولا شأن لى بالتوزيع العام.. فليس ثمة مخاطرة أو خطر.

فهتف السيد بغلظة وكأنه يدارى خوفه على ابنه بحدة الغضب:

ـ إن الله لا يكتب السلامة لمن يعرض نفسه للهلاك، وقد أمرنا سبحانه بألا نعرض أنفسنا للتهلكة.

ود الرجل أن يستشهد بالآية التى تترجم هذا المعنى، ولكنه لم يكن يحفظ من القرآن إلا السور القصيرة التى يتلوها فى صلواته، فخاف أن يسهو عن لفظ أو يحرفه فيحمل نفسه وزرا لا يغتفر، فاكتفى بترديد المعنى وكرره حتى بلغ مداه، ولكنه ما يدرى إلا وفهمى يقول بلهجته المهذبة:

ـ ولكن الله يحث المؤمنين على الجهاد كذلك يا بابا.

ساءل فهمى نفسه فيما بعد متعجبا كيف واتته شجاعته على مجابهة السيد بهذا القول الذى فضح ما داراه من استمساك برأيه!.. لعله احتمى بالقرآن فوقف وراء معنى من معانيه مطمئنا إلى أن أباه سيحجم فى تلك الحال عن مهاجمته، وقد بوغت السيد مباغتة شديدة بجرأة ابنه وحجته معا، ولكنه لم يستسلم للغضب لأن الغضب ربما أسكت فهمى ولكنه لن يسكت حجته، فتناسى جرأته إلى حين ريثما يقرع حجته بحجة مثلها من القرآن نفسه حتى تتم الهداية للابن الضال، وله بعد ذلك أن يعود إلى محاسبته كيفما شاء، وفتح الله عليه فقال:

ـ ذاك كان جهادا فى سبيل الله.

اعتبر فهمى جواب أبيه قبولا للمناقشة والمحاجة، فتشجع مرة أخرى قائلا:

ـ جهادنا فى سبيل الله كذلك، كل جهاد شريف فهو فى سبيل الله.

آمن السيد بقوله فى قلبه، ولكن هذا الإيمان نفسه وما خلفه من شعور بالضعف أمام محدثه، هو ما جعله يرتد إلى غضبه دون إبطاء.. بيد أنه لم يكن غضبا لكبريائه فحسب، ولكن أيضا لإشفاقه من أن يتمادى الشاب فى غيه حتى يودى بنفسه، فكف عن الجدل وتساءل مستنكرا:

ـ أحسبتنى قد دعوتك لتناقشنى!

انتبه فهمى إلى ما تنطوى عليه كلمات أبيه من نذير، فضاعت أحلامه وانعقد لسانه، أما السيد أحمد فعاد يقول بحدة:

ـ لا جهاد فى سبيل الله إلا ما أريد به وجه الله وحده ـ أى الجهاد الدينى ـ لا جدال فى هذا! . . والآن أريد أن أعرف ألا يزال أمرى مطاعا؟

فبادره الشاب قائلا:

ـ بكل تأكيد يا بابا . . .

ـ إذن اقطع كل صلة بينك وبين الثورة . . ولو اقتصر دورك على توزيع المنشورات على خاصة أصدقائك!

إن قوة فى الوجود لا يمكن أن تحول بينه وبين واجبه الوطنى! . . لن يتراجع مطلقا ولو خطوة واحدة، انتهى زمان ذلك إلى غير رجعة، إن هذه الحياة الحارة الباهرة التى تنبعث من أعماق قلبه وتضىء جوانب نفسه لا يمكن أن تغيض وهيهات أن يغيضها هو بيده، كل هذا حق لا شك فيه، ولكن لماذا لا يلتمس وسيلة إلى إرضاء أبيه وتحامى غضبه؟! . . إنه لا يستطيع أن يتحداه ولا أن يجهر بمخالفة أمره . . أجل استطاع أن يثور على الإنجليز وأن يتحدى رصاصهم كل يوم تقريبا، ولكن الإنجليز عدو مخيف وبغيض معا أما أبوه فرجل مخيف ومحبوب، وهو يعبده بقدر ما يخافه فلن يهون عليه أن يصدمه بعصيان، وثمة إحساس آخر لا سبيل إلى تجاهله هو أن وراء الثورة على الإنجليز مثالية نبيلة، أما وراء التمرد على أبيه فليس إلا الخزى والتعاسة، وماذا يدعو إلى هذا كله؟! . . لماذا لا يعده بالطاعة ثم يفعل ما يشاء؟! . . لم يكن الكذب فى هذا البيت بالرذيلة المخزية، ولم يكن فى وسع أحد منهم أن يتمتع بالسلامة فى ظل الأب دون حماية من الكذب، وهم يجاهرون به فيما بينهم وبين أنفسهم، بل ويتفقون عليه فى الموقف الحرج، وهل كان فى نية الأم يوم تسللت فى غيبة السيد إلى زيارة الحسين أن تعترف بفعلتها؟ . . وهل كان فى وسع ياسين أن يسكر، وهو أن يحب مريم، وكمال أن يتعفرت بين خان جعفر والخرنفش بلا حماية من الكذب؟! . . ليس الكذب مما يتورع عنه أحد منهم، ولو أنهم التزموا الصدق مع أبيهم ما ذاقوا للحياة طعما، لهذا كله قال بهدوء:

ـ أمرك مطاع يا بابا . .

وأعقب هذا التصريح صمت تنفس فيه كلاهما من الراحة، فظن فهمى أن استجوابه قد انتهى بسلام، وظن السيد أحمد أنه انتشل ابنه من الهاوية، وبينما كان فهمى ينتظر أن يؤذن له بالانصراف، قام الأب فجأة واتجه إلى صوان الملابس ففتحه ودس يده فيه والشاب يراقبه بعينين لا تدركان شيئا ثم عاد إلى مجلسه حاملا القرآن، ونظر إلى فهمى مليا ثم مد يده بالكتاب إليه وهو يقول:

ـ أقسم لى على هذا الكتاب . . .

وتراجع فهمى بحركة عكسية ندت عنه قبل أن يتدبر أمره، كأنما يفر من لسان لهب امتد إليه فجأة، وتسمر فى موقفه وهو يحملق فى وجه أبيه مرتبكا مذعورا يائسا، فلبث السيد مادا يده بالكتاب وهو ينظر إليه فى غرابة وإنكار، ثم احمر وجهه كأنه يلتهب وانبعث من عينيه بريق مخيف، وتساءل فى ذهول وكأنه لا يصدق عينيه:

ـ ألا تريد أن تقسم؟!

ولكن لسان فهمى انعقد فلم ينبس بكلمة ولم يبد حراكا، فتساءل الرجل بصوت هادىء تخللته رعشة متهدجة أنذرت بما يفور تحته من غضب مستعر كما ينذر البرق بقعقعة الرعد:

ـ أكنت تكذب على؟

لم يطرأ على فهمى تغير إلا أنه غض بصره فراراً من عينى أبيه، ووضع السيد الكتاب على الكنبة ثم انفجر صائحا بصوت مدو خاله فهمى كفوفا تهوى على خديه:

ـ أنت تكذب على يابن الكلب! . . أنا لا أسمح لمخلوق بأن يضحك على ذقنى، ماذا تظن بى وماذا تظن بنفسك! . . أنت حشرة خبيثة مجرمة، بنت كلب خدعت بظاهرها طويلا، لن أنقلب امرأة على آخر الزمن، سامع؟! . . لن أنقلب امرأة على آخر الزمن، حيرتمونى يا أولاد الكلب وجعلتمونى أضحوكة الناس، أنا أسلمك بنفسى إلى البوليس، فاهم؟! . . بنفسى يابن الكلب، الكلمة هنا كلمتى أنا، أنا أنا أنا . . (ثم متناولا الكتاب مرة أخرى) أقسم . . آمرك بأن تقسم.

بدا فهمى وكأنه فى غيبوبة، كانت عيناه مثبتتين على بعض الصور الغريبة المنقوشة على السجادة الفارسية دون أن تريا شيئا، وكأن تلك النقوش قد انطبعت بإدامة النظر على صفحة عقله فاستحال شتيتا من الفوضى والخواء، وكلما مرت ثانية أمعن فى الصمت واليأس، لم يبق له إلا أن يلوذ بهذه المقاومة السلبية اليائسة، ونهض السيد والكتاب فى يده فاقترب خطوة منه ثم زعق:

ـ أتوهمت أنك رجل؟ . . أتوهمت أنك تستطيع أن تفعل ما تشاء؟! . . لو أشاء أضربك حتى أكسر رأسك . .

لم يملك فهمى عند ذاك إلا أن يبكى، لا خوفا من التهديد فما كان يبالى فى موقفه وتأثره بأى أذى يصيبه، ولكن تنفيسا عن قهره وترويحا عن الصراع الناشب فى صدره، ثم جعل يعض على شفتيه ليكتم البكاء، ثم اعتراه الخجل لما ركبه من ضعف بيد أنه وسعه أخيراً أن يتكلم لشدة تأثره من ناحية ومداراة لخجله من ناحية أخرى، فاسترسل قائلا فى ضراعة ورجاء:

ـ سامحنى يا بابا، أمرك مطاع فوق العين والرأس ولكنى لا أستطيع، إننا نعمل يداً واحدة فلا أرضى ولا ترضى لى أن أنكص وأتخلف على إخوانى، هيهات أن تطيب لى الحياة إن فعلت، ليس ثمة خطر وراء ما نعمل، غيرنا يقوم بأعمال أجل كالاشتراك فى المظاهرات وقد استشهد منهم كثيرون، لست خيراً منهم، إن الجنازات تشيع بالعشرات معا ولا هتاف فيها إلا للوطن، حتى أهل الضحايا يهتفون ولا يبكون.. فما حياتى؟.. وما حياة أى إنسان؟.. لا تغضب يا بابا وفكر فيما أقول.. وأكرر على مسمعك بأنه ليس ثمة خطر وراء عملنا السلمى الصغير!

وغلبه الانفعال فلم يعد يستطيع مواجهة أبيه ففر من الحجرة هاربا، كاد يصطدم وراء الباب بياسين وكمال اللذين وقفا ينصتان وقد ارتسم على وجهيهما الارتياع.

٦٣

كان ياسين ماضيا إلى قهوة أحمد عبده حينما التقى فى بيت القاضى بأحد أقرباء أمه، فأقبل الرجل نحوه باهتمام ثم صافحه وهو يقول:

ـ كنت ذاهبا إلى البيت لمقابلتك.

حدس ياسين وراء كلامه أنباء عن أمه التى أورثته الهموم، فأحس ضيقا وتساءل بفتور:

ـ خير إن شاء الله؟

فقال الرجل باهتمام غير عادى:

ـ والدتك مريضة، مريضة جداً فى الواقع، أصابها المرض منذ شهر أو أكثر ولكنى لم أعلم به إلا فى هذا الأسبوع، وقد ظنوه بادئ الأمر حالة عصبية فسكتوا عنه حتى استفحل ثم تبين بعد فحص الأطباء أنه ملاريا شديدة.

دهش ياسين للخبر الذى لم يكن يتوقعه، كأنه يتوقع حديثا عن طلاق أو زواج أو شجار وما شاكل ذلك، أما المرض فلم يقع له فى حسبان، تساءل وهو لا يكاد يتبين مشاعره من شدة اعتلاجها:

ـ وكيف حالها الآن..؟

قال الرجل بصراحة لم يخف مغزاها على ياسين:

ـ حالها خطيرة!.. امتد العلاج دون أن يبشر بأدنى تقدم، وبالأحرى ازدادت الحال

سوءا، وقد أرسلتنى إليك كى أصارحك بأنها تشعر بدنو أجلها، وأنها ترجو أن تراك دون تأخير.

ثم بلهجة ذات معنى:

ـ يجب أن تذهب إليها بلا تردد، هذه نصيحة ورجاء، والله غفور رحيم.

لعل كلام الرجل لم يخل من مبالغة أراد بها دفعه إلى الذهاب ولكنه ليس اختلاقا كله، فليذهب ولو بدافع الواجب وحده، ها هو يخترق مرة جديدة منحنى الطريق المفضى إلى الجمالية بين بيت المال وحارة الوطاويط، إلى يمينه عطفة التيه حيث تلبد بائعة الدوم فى ذكريات الظلام المرتعشة وإلى الأمام طريق الآلام، سيرى عما قليل دكان الفاكهة فيغض البصر ويتسلل كاللص الهارب، كلما ظن أنه لن يعود إليه عادت به تعاسته، ما من قوة كانت تستطيع أن تعيده إليها.. إلا الموت؟.. الموت!.. ترى هل حمت النهاية حقا؟!.. قلبى يخفق، ألما؟.. حزنا؟.. لا أدرى إلا أنى خائف، إذا ذهبت فلن أعود إلى هذا المكان مرة أخرى.. سيغشى النسيان سالف الذكريات.. ثم ترد إلىّ البقية الباقية من أملاكى، ولكنى خائف.. وحانق على هذه الأفكار الخبيثة، اللهم احفظنا.

حتى إذا حظيت بعيشة أرغد وبال أصفى فلن ينجو قلبى من الآلام، حين الموت سأودع أما بقلب ابن.. أم وابن أليس كذلك؟.. لست إلا معذبا لا وحشا ولا حجرا، بيد أن الموت زائر جديد علىّ لم أشهد محضره من قبل، وددت لو كانت النهاية بغيره، سنموت جميعا.. حقا؟!.. يجب ألا أستسلم للخوف، إن أنباء الموت لا تنقطع عنا ليل نهار فى هذه الأيام، فى شارع الدواوين والمدارس والأزهر، وهنالك فى أسيوط كل يوم ضحايا، حتى المسكين الفولى اللبان فقد ابنه أمس، ما عسى أن يصنع أهل الشهداء؟.. أيقضون العمر بكاء؟.. إنهم يبكون ثم ينسون وهذا هو الموت، أف.. يخيل إلىّ أنه ليس ثمة مفر من المتاعب الآن، ورائى فى البيت فهمى وعناده وأمامى أمى فما أبغض الحياة!.. وإذا كان الأمر مكيدة ووجدتها فى خير وعافية؟!.. ستدفع الثمن غاليا.. يقينا لتدفعن الثمن. لست لعبة أو أضحوكة، لن تجد «الابن» إلا حين الموت، ترى ماذا بقى لى من ثروة؟.. وإذا دخلت البيت ألتقى بذلك (الرجل) هنالك؟.. لا أدرى كيف أقابله.. ستلتقى عينانا فى لحظة رهيبة، الويل له، أتجاهله أو أطرده هذا هو الحل، هنالك ألوان من العنف لا تخطر له ببال، ولكن ستجمعنا الجنازة حتما. وهذا مضحك، تصور أن يسير وراء النعش أقدم الأزواج وأحدثهم وبينهما الابن دامع العينين.. حتم وقتذاك أن تدمع عيناى.. أليس كذلك؟.. لن يكون فى وسعى أن أطرده من الجنازة فتلاحقنى الفضيحة حتى اللحظة الأخيرة.. ثم تدفن، أجل تدفن وينتهى كل شىء، ولكنى خائف ومتألم ومحزون، إن الله وملائكته يصلون.. هذه هى

الدكان المجرمة . . وهذا هو . . لن يعرفنى ، هيهات ، إننا نتنكر بالعمر ، يا عم . . أمى تقول لك .

فتحت له الخادم الباب ـ نفس الخادم التى استقبلته منذ عام فأنكرته ـ فتطلعت إليه كالمتسائلة لحظة ، وسرعان ما غلبت نظرة التساؤل وراء لمعة كأنما تقول له : «آه . . أنت الذى تنتظر» ، ثم أفسحت له وهى تومىء إلى حجرة على يمين الداخل قائلة :

ـ تفضل يا سيدى . . لا يوجد أحد .

جذبت العبارة الأخيرة انتباهه بقوة كأنما جاءته جوابا شافيا لبعض حيرته ، فأدرك أن أمه أخلت له الطريق ، اتجه إلى الحجرة ، وتنحنح ، ثم دخل ، وقعت عيناه على عينى أمه وهما ترفعان إليه من فراش على يسار الداخل ، عينين حجبت صفاءهما المعهود غشاوة باهتة فلاحت نظرتهما الواهنة كأنما تتطلع إليه من بعيد ، وبالرغم من ذبولهما وما أوحى به انطفاؤهما من عدم الاكتراث لشىء فقد ثبتتا على وجهه ثبوت العرفان ، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة خفيفة وشت بظفر وارتياح وامتنان ، لم يكن يبدو منها إلا وجهها إذا اشتملت ببطانية حتى الذقن ، وجه أدركه من التغير فوق ما أدرك العينين ، جف بعد اكتناز واستطال بعد استدارة وشحب بعد تورد وشف جلده الرقيق عن عظام الفك والوجنتين البارزة فبدا صورة للرثاء والفناء ، وقف ذاهلا منكرا كأنه لا يصدق أن ثمة قوة فى الوجود تجرؤ على هذا العبث القاسى ، فقبض قلبه فزعا كأنه يرى الموت نفسه ، تخلت عنه كأنما ارتد طفلا وافتقد أباه أيما افتقاد ، ثم دفعه تأثر لا يقاوم إلى الفراش حتى انحنى فوقها مغمغما فى نبرات أسيفة :

ـ لا بأس عليك . . كيف حالك؟

ملأه شعور صادق بالرحمة غابت فى حرارته آلامه المزمنة كما تغيب ـ فى أحوال نادرة ـ ظاهرة مرضية ميئوس منها ، كالشلل ، عند هجوم فزع هائل مفاجىء . . كأنه يلقى أم طفولته التى أحبها قبل أن تواريها عن قلبه الآلام ، فتشبث ـ وعيناه مرسلتان إلى الوجه الفانى ـ بهذا الشعور المستجد الذى رده أعواما طويلة إلى الوراء ـ إلى ما وراء الألم ـ كما يتشبث المريض المتهالك بصحوة طارئة يخاف عليها إحساسا باطنيا بوشك الزوال ، تشبث به بشدة خليقة برجل يقدر القوى المضادة التى تتهدده ، وإن دل تشبثه نفسه على أن آلامه لم تزل تضطرم فى الأعماق منذرة إياه بما يترصده من حزن إذا هو تهاون فخلط بشعوره الصافى ما يفسده من مشاعر أخرى ، وأخرجت المرأة من تحت الغطاء يدا ممصوصة معروقة اكتست بشرتها الجافة بمزيج من سواد باهت وزرقة كأنها يد محنطة منذ آلاف السنين فتناولها بين يديه بتأثر شديد ، وعند ذاك سمع صوتها الضعيف المبحوح وهو يجيبه قائلا :

ـ كما ترى ، صرت خيالا .

فغـمـغـم :

- ربنا يدركك برحمته، ويردك إلى خير مما كنت.

فندت عن رأسها المعصوب بخمار أبيض حركة دعائية كأنما تقول: «ربنا يسمع منك»، وأشارت إليه أن يجلس فجلس على الفراش ثم استرسلت - بقوة جديدة استمدتها من محضره - تقول:

- فى أول الأمر كانت تنتابنى رعشة غريبة فحسبتها طارئا عصبيا، نصحونى بالطواف ببيوت الله وبالتبخر فزرت الحسين والسيدة وتبخرت بأنواع شتى من البخور الهندى والسودانى والعربى، ولكن لم تكن الحال تزداد إلا سوءا.. أحيانا كانت تملكنى رجفة متواصلة لا تدعنى حتى أكون قد أشفيت على الهلاك، وتمر بى أوقات أجد جسمى باردا كالثلج، وأوقات أخرى تمتد النار فى جسدى حتى أصرخ من شدة الحرارة أخيرا صمم سـ.. (أمسكت عن النطق بالفاعل منتبهة فى اللحظة الأخيرة إلى الخطأ الذى كانت ستقع فيه). أخيرًا استحضرت الطبيب، ولكن لم يتقدم بى العلاج خطوة واحدة نحو الصحة إن لم يكن تأخر خطوات، لم تعد ثمة فائدة ترجى.

فقال ياسين وهو يضغط برقة على راحتها:

- لا تيأسى من رحمة الله، إن رحمته واسعة.

فافتر ثغرها الممتقع عن ا بتسامة ضعيفة وقالت:

- يسرنى أن أسمع هذا، يسرنى أن أسمعه منك أنت قبل الناس جميعا، أنت عندى أغلى من الدنيا ومن عليها، صدقت إن رحمة الله واسعة، طالما ساءنى الحظ، لا أنكر الهفوات والأخطاء، العصمة لله وحده.

آنس - جزعا - من حديثها ميلا إلى ما يشبه الاعتراف، فانقبض صدره وجفل جفولا حادا من أن تردد على مسمعيه أمورًا لا يطيقها ولو على سبيل الندم والتكفير. فتوترت أعصابه حتى أوشك أن تبدل حالا بعد حال، قال بتوسل:

- لا تتعبى نفسك بالكلام.

رفعت إليه عينيها باسمة وهى تقول:

- مجيئك رد إلىَّ الروح، دعنى أقل لك إنى لم أقصد فى حياتى سوءا بإنسان، كنت أنشد كسائر الخلق راحة البال فيعاندنى الحظ العاثر، لم أسئ إلى أحد ولكن كثيرين أساءوا إلىّ.

شعر بأن رجاءه أن تمضى الساعة بسلام سيخيب.. وأن عاطفته الصافية تعانى أزمة من التنغيص، فقال بلهجة التوسل السالفة:

ـ دعى الناس بخيرهم وشرهم، صحتك الآن أهم من أى شىء آخر.

فربتت على يده باستعطاف كأنما تسأله أن يترفق بها، ثم همست:

ـ فاتتنى أشياء، لم أؤد إلى الله حقه، وددت لو طال عمرى حتى أستدرك بعض ما فاتنى، بيد أن قلبى كان دائما مفعما بالإيمان والله شهيد.

فقال وكأنه يدفع عن نفسه وعنها معا:

ـ القلب هو كل شىء، هو عند الله فوق الصوم والصلاة.

فشدت على يده بامتنان ثم غيرت مجرى الحديث قائلة بترحاب:

ـ وعدت إلىّ أخيرا، لم أجرؤ على دعوتك حتى انتهى بى المرض إلى ما ترى، داخلنى شعور بأننى أودع الحياة فلم أطق أن أفارقها قبل أن أملأ عينى منك، فأرسلت إليك وبى من الخوف من رفضك أكثر مما بى من خوف الموت نفسه، ولكنك رحمت أمك وأقبلت تودعها فلك الشكر ودعاء أرجو الله أن يتقبله.

اشتد التأثر ولكنه لم يدر كيف يعبر عن شعوره، تثاقلت الكلمات الحنونة فى فيه متعثرة فيما يشبه الحياء أو الغرابة حالما أراد توجيهها إلى المرأة التى ألف مجافاتها ونبذها، بيد أنه وجد فى يده أداة تعبير طيعة حساسة، فضغط على راحتها مغمغما:

ـ ربنا يكتب لك السلامة.

وجعلت تدور حول المعنى الذى أفصحت عنه جملتها الأخيرة، مرددة نفس الألفاظ تارة أو مستبدلة بها غيرها مما يدل على نفس معناها طورا آخر، وراحت تفصل الحديث بازدراد ريقها بجهد ملحوظ أو بالصمت القصير ريثما تسترد أنفاسها، مما دعاه مرات إلى أن يرجوها بالكف عن الحديث، ولكنها كانت تبتسم لمقاطعته ثم تعود إلى مواصلة الحديث، حتى توقفت وقد لاح فى وجهها اهتمام طارىء كلما تذكرت شيئا ذا بال.. وقالت:

ـ تزوجت؟

فرفع حاجبيه فى شىء من الضيق وتورد وجهه، ولكنها أخطأت فهمه فبادرته كالمعتذرة:

ـ لا عتاب.. حقا كنت أود أن أرى عروسك وذريتك، ولكن بحسبى أن تكون سعيدا.

فما ملك أن قال باقتضاب:

ـ لست متزوجا، طلقت منذ شهر تقريبا.

لأول مرة لاحت آى الانتباه فى عينيها، لو كان فى الإمكان أن يلتمعا لالتمعا . . ولكن انبعث منهما شبه ضوء كالضوء الحالم الذى تنضح به ستارة كثيفة، وتمتمت:

ـ طلقت يا بنى! . . ما أحزننى!

فابتدرها قائلا:

ـ لا تحزنى، لست حزينا ولا آسفا (ثم باسما) أخذت الشر وراحت.

ولكنها تساءلت بنفس اللهجة:

ـ من الذى اختارها لك . . هو أم هى؟!

فقال بلهجة نمت عن رغبته فى قفل باب هذا الحديث:

ـ اختارها الله، كل شىء قسمة ونصيب!

ـ أعلم هذا، ولكن من الذى اختارها لك؟ . . امرأة أبيك؟

ـ كلا أبى الذى اختارها، ولا غبار على اختياره فهمى من أسرة كريمة . . ولكنها القسمة والنصيب كما قلت.

فقالت ببرود:

ـ القسمة والنصيب واختيار أبيك . . هذه هى!

ثم بعد وقفة قصيرة:

ـ حبلى . . ؟

ـ نعم . . .

وهى تتنهد:

ـ الله ينكد عيشة أبيك!

تعمد ألا يعقب عليها، كما يمتنع عن حك قرحة تأكله لعلها تسكن . . فشملهما صمت، وأغمضت المرأة عينيها كأنما أنهكها التعب، بيد أنها فتحتهما هنيهة فابتسمت إليه وهى تسأله بصوت رقيق لا أثر فيه لانفعال:

ـ ترى هل يمكن أن تنسى الماضى؟

فغض بصره منتفضا وهو يشعر برغبة فى الهرب لا تقاوم، ثم قال برجاء:

ـ لا تعودى إلى ذكراه، فليذهب إلى غير رجعة.

لعل قلبه لم يع ما يقول، ولكن لسانه قال ما ينبغى أن يقال . . أو لعل ذلك القول كان تعبيرا صادقا عن شعوره لحظتذاك، تلك اللحظة التى استغرقه فيها بكليته الموقف المحيط به، ولعل قوله: «فليذهب إلى غير رجعة» . قد وقع من مسمعه ـ ومن قلبه ـ موقعا غريبا خلف وراءه قلقا، ولكنه أبى أن يجعله موضوعا لتأمله، فر من ذلك فرارا، وتشبث

بعاطفته الصافية التى عقد العزم على التثبت بها من بادىء الأمر، أما أمه فعادت تسأله:

- وهل تحب أمك كما كنت تحبها فى الزمن السعيد؟

فقال وهو يربت على راحتها:

- أحبها وأدعو لها بالسلامة:

- سرعان ما وجد العزاء عن قلقه وجهاده الباطنى فيما انطبع على وجهها الذاوى من روح السلام والارتياح العميق، ثم شعر براحتها تضغط على يده كأنما تبثه ما يكنه صدرها من امتنان، وتبادلا نظرة طويلة هادئة باسمة حالمة أشاعت فى الحجرة جوا من الطمأنينة والمودة والحزن، لم يعد يبدو منها ما يدل على رغبتها فى الحديث أو لعل الجهد حال بينها وبين هذه الرغبة، ثم تراخت جفونها رويدا حتى انطبقت، جعل ينظر إليها كالمتسائل ولكن لم تند عنه حركة، ثم انفرجت شفتاها قليلا وانبعث منهما شخير خفيف متقطع. اعتدل فى جلسته وهو يتوسم وجهها ثم أغمض عينيه قليلا ريثما يستحضر صورة الوجه الآخر الذى طالعته به منذ عام فانقبض صدره وعاوده شعور الخوف الذى طارده طوال الطريق، ترى هل يتاح له أن يرى ذلك الوجه مرة أخرى؟.. وبأى قلب يلقاه إن عاد؟!.. لا يدرى، لا يحب أن يتصور المضمر فى علم الغيب، يود أن يقف عقله عن الحركة وأن يتبع الحوادث لا أن يسبقها، وأحاط به شعور الخوف والقلق، عجبا!.. لقد ركبته رغبة فى الهرب وهو ينصت إلى حديثها حتى خيل إليه أنه أرتاح إلى نومها كل الارتياح ولكنه ما كاد ينفرد بنفسه حتى هاجمه الخوف.. خوف لم يدرك له سببا فتمنى لو تصحو من سباتها وتعود إلى الحديث، حتام ينتظر. هبها استغرقت فى النوم حتى الصباح!.. لن يسعه أن يبقى طويلا فريسة للخوف والقلق هكذا، يجب أن يضع حدا لآلامه.. غدا أو بعد غد تكون تهنئة أو تعزية.. تهنئة أو تعزية؟!.. أيهما أحب إلى نفسه؟!.. يجب أن يقف عن الحركة، تهنئة كانت أم تعزية لا ينبغى أن أسبق الحوادث، غاية ما يمكن قوله لو قدر علينا أن نفترق الآن لافترقنا صديقين، تكون خير نهاية لأسوأ حياة، أما إذا مد الله فى عمرها.

سرح طرفه وهو شارد فوقع على مرآة الصوان - فى الجهة المقابلة - التى عكست صورة الفراش فرأى جسم أمه مطروحا تحت البطانية كما رأى نفسه يكاد يحجب نصفها الأعلى إلا يدها التى أخرجتها عند استقباله فحملها برفق وأدخلها تحت الغطاء ثم ثبته حول عنقها بعناية، عاد ينظر إلى المرآة فخطر له هذا الخاطر!.. ربما عكست هذه المرآة غدا فراشا خاليا عاريا!.. ليست حياتها - حياة أى إنسان. لم لا؟ - بأرسخ دواما من هذه الصور الوهمية!.. فاشتد به شعور الخوف وهمس لنفسه «يجب أن أضع حدا

لآلامى . . يجب أن أذهب»، بيد أن بصره تحرك تاركا المرآة فالتقى بخوان وضعت عليه نارجيلة التف خرطومها حول عنقها كالثعبان فثبت عليها فى دهشة وإنكار سرعان ما حل مكانهما شعور هائج بالتقزز والغضب، ذلك الرجل! . . هو بلا ريب صاحب هذه النارجيلة . . تخيله متربعا على الكنبة القائمة بين الفراش والخوان وقد اندلق على النارجيلة يشهق ويزفر متلذذا وأمه تروح له على الجمرات . . آه ترى أين هو الآن، فى مكان بالبيت أم فى الخارج؟ . . هل رآه من حيث لم يره؟ . . لم يعد يحتمل البقاء مع النارجيلة أكثر مما بقى فألقى نظرة على وجه أمه التى وجدها مستغرقة فى النوم ثم زايل مجلسه بخفة وسار إلى الباب، ولما التقى بالخادم فى الردهة الخارجية قال لها :

ـ ستك نامت، سأعود غدا صباحا .

والتفت إليها مرة أخرى وهو يغادر الباب الخارجى قائلا :

ـ غـداً صباحا .

كأنما ينبه الرجل نفسه إلى موعد حضوره ليختفى من وجهه، مضى إلى حانة كوستاكى رأسا . شرب كعادته ولكنه لم يطب بالشراب نفسا، أعياه أن يطرد عن قلبه الخوف والقلق، ومع أن أحلام الثروة وراحة البال لم تغب عن ذهنه إلا أنها لم تستطع أن تمحو عن مخيلته صورة المرض وخواطر الفناء . ولما عاد إلى البيت عند منتصف الليل وجد امرأة أبيه فى انتظاره بالدور الأول فنظر إليها متعجبا ثم تساءل خافق القلب :

ـ أمـى؟!

فأحنت أمينة رأسها وقالت بصوت خافت :

ـ جاءنا رسول من قصر الشوق قبل مجيئك بساعة، العمر الطويل لك يا ابنى .

٦٤

تطورت العلاقة بين كمال والجنود البريطانيين إلى صداقة متبادلة، وقد حاولت الأسرة أن تتذرع بمأساة ياسين فى جامع الحسين لتقنع الغلام بقطع علاقته مع أصدقائه ولكنه أجابهم بأنه «صغير»، أصغر من أن يتهم بالجاسوسية، ولكى يتفادى من منعهم إياه بالقوة كان يمضى إلى المعسكر رأسا بعد عودته من المدرسة تاركا حقيبة كتبه مع أم حنفى فلم تكن ثمة وسيلة إلى منعه إلا باستعمال القوة الأمر الذى لم يروا له موجبا لا سيما وأنه يمرح فى المعسكر تحت أعينهم متقبلا فى كل موضع بالترحيب والتكريم، حتى فهمى نفسه أغضى عنه ولم يكن يجد بأسا فى التسلى بمشاهدته وهو يتنقل بين الجنود «كقرد يلهو فى غابة من الوحوش» .

ـ قولوا لسيدى الكبير .

هكذا اقترحت أم حنفى وهى تشكو تجرؤ الجنود عليها ـ بسبب الصداقة اللعينة ـ ومحاكاة بعضهم لمشيتها بطريقة «يستحقون عليها قطع رقبتهم»، ولكن أحدا لم يأخذ اقتراحها مأخذ الجد، لا رحمة بالغلام فحسب، ولكن رحمة بهم هم أنفسهم خشية أن يجر التحقيق إلى معرفة تسترهم الطويل على هذه الصداقة، فتركوا الغلام وشأنه، ولعلهم لم يخلوا من رجاء فى أن يقوم الشعور الطيب المتبادل بين الغلام والجنود حائلا بينهم وبين ما يحتمل أن يتعرضوا له من عبث وأذى فى الذهاب والإياب! . . أسعد ساعات يومه كانت تلك التى يدخل فيها المعسكر، لم يكن جميع الجنود «أصدقاء» بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ولكن لم يعد أحد منهم يجهل شخصه، كان يصافح الأصدقاء ويشد على أيديهم بحرارة على حين يكتفى برفع يده، تحية للآخرين، وربما صادف مجيئه قيام أحد الأصدقاء بنوبة الحراسة فيقبل الغلام عليه هاشا باشا وهو يمد يده فما يروعه إلا أن يلقى منه جمودا غريبا مثيرا كأنما يتجاهله أو كأنما تحول إلى صنم فلا يدرك أن ليس فى الأمر تجاهل أو غضب إلا من إغراق الآخرين فى الضحك. ولم يكن من النادر أن يباغت وهو بين الأصدقاء بصفير الإنذار، هنالك يهرعون إلى الخيام ثم يعودون بعد قليل وقد ارتدوا ملابسهم وخوذاتهم وحملوا بنادقهم، ويتحرك لورى من موقفه وراء سبيل بين القصرين إلى وسط الطريق فيمضون إليه ويقفزون إلى داخله حتى يكتظ بهم، بات يدرك من المنظر الذى أمامه أن مظاهرة قامت فى جهة ما وأن الجنود ذاهبون لتفريقها وأن قتالا سينشب بينهم وبين المتظاهرين، ولكن لم يكن يهمه فى تلك الأوقات إلا أن يتفقد الأصدقاء ببصره حتى يعثر عليهم فى زحمة اللورى وأن يملأ منهم عينيه كأنما يودعهم، وأن يبسط كفيه واللورى يبتعد بهم صوب النحاسين داعيا لهم بالسلامة ثم تاليا الفاتحة! . . على أنه لم يكن يقضى فى المعسكر أكثر من نصف ساعة كل أصيل وهو أقصى ما وسعه أن يتغيبه عن البيت عقب عودته من المدرسة، نصف ساعة لم تكد تغفو فيها حاسة من حواسه دقيقة واحدة، يدور حول الخيام، يسير بين اللوريات مستطلعا قطعها قطعة قطعة، يقف حيال أهرام البنادق طويلا متفحصا أجزاءها جزءا جزءا خاصة فوهة الماسورة التى يكمن فيها الموت . . يقف على بعد لا يسمح له بتجاوزه ونفسه ذاهبة حسرات على اللعب بها أو على الأقل لمسها، ولما كانت زيارته توافق ميعاد الشاى فكان يمضى مع أصدقائه إلى المطبخ القائم عند مدخل درب قرمز ويأخذ مكانه فى نهاية طابور «الشاى» كما يدعونه ثم يعود وراءهم حاملا قدح شاى باللبن وقطعة من الشيكولاتة فيجلسون على سور السبيل يحتسون شرابهم وينشد الجنود أغانى جماعية وهو ينصت لهم باهتمام منتظرا دوره فى الغناء، تركت حياة المعسكر فى نفسه أثرا عميقا بث فى خياله وأحلامه يقظة شاملة، أثرا نقش على صفحة قلبه إلى جانب الآثار التى

نقشتها حكايات أمينة عن عالم الغيب والأساطير، وقصص ياسين الذى جذب روحه إلى دنياها الساحرة، والأطياف والرؤى التى تتخايل له فى أحلام اليقظة وراء أغصان الياسمين واللبلاب وأصص الزهور - فوق السطح - عن حياة النمل والعصافير والدجاج، من ثم أنشأ عند سور السطح الملاصق لسطح بيت أم مريم معسكرا كامل العدة والعدد، أقام خيامه بالمناديل والأقلام، وأسلحته بعيدان الخشب، ولورياته من القباقيب وجنوده من نوى التمر، وعلى كثب من المعسكر مثل المتظاهرين بالحصى. يبدأ التمثيل عادة بنشر النوى جماعات بعضها فى الخيام وعند مداخلها وبعضها حول البنادق غير أربع بينها حصاة (تمثله هو) ينتحون جانبا، يأخذ فى محاكاة الغناء الإنجليزى ثم يجىء دور الحصاة لتغنى «زورونى كل سنة مرة» أو «يا عزيز عينى»، ينتقل إلى الحصى فينضده صفوفا ويهتف «يحيا الوطن. . تسقط الحماية. . يحيا سعد»، يعود إلى المعسكر مصفرا فتنتظم النوى صفوفا كذلك وعلى رأس كل صف تمرة، ثم يدفع قبقابا وهو ينفخ محاكيا أزيز اللورى، ويضع النوى على سطح القبقاب ثم يدفعه مرة أخرى صوب الحصى فتنشب المعركة وتسقط الضحايا من الجانبين! . . ولم يكن يسمح لعواطفه الشخصية بأن تؤثر فى سير المعركة، على الأقل فى بدئها ووسطها، كانت تتحكم فيه رغبة واحدة هى أن يجعلها معركة «صادقة مشوقة» يتنازعها الدفع والجذب من الجانبين وتتعادل الإصابات فتظل النتيجة مجهولة والاحتمال متأرجحا بين الطرفين على أن المعركة لا تلبث طويلا حتى تستوجب نهاية تنتهى إليها، هنالك يجد نفسه فى موقف حائر، أى جانب ينتصر؟ . . فى جانب أصدقاؤه الأربعة وعلى رأسهم جوليون، وفى الجانب الآخر مصريون يخفق معهم قلب فهمى! . . فى اللحظة الأخيرة يقرر النصر للمتظاهرين فينسحب اللورى بقلة من الجنود بينهم الأصدقاء الأربعة وإن كان قد ختم المعركة مرة بصلح شريف احتفل به المتحاربون من الطرفين بالغناء حول مائدة حفلت بأقداح الشاى ومختلف ألوان الحلوى. . وكان جوليون أعز أصدقائه، امتاز إلى جماله بدماثة الخلق فضلا عن براعته النسبية فى التكلم بالعربية، وهو الذى جعل دعوته إلى الشاى حقا ثانيا كما بدا أشد الجنود تأثرا بغنائه حتى كان يدعوه كل يوم تقريبا إلى غناء «يا عزيز عينى» فيتابعه باهتمام ثم يغمغم فى تشوق وحنين:

- أروح بلدى. . أروح بلدى!

وآنس كمال منه هذه الروح فازداد له ألفة واطمئنانا حتى قال له مرة جادا وكأنما يدله عن مخرج من كربه:

- أرجعوا سعد باشا وعودوا إلى بلادكم!

ولكن جوليون لم يلق اقتراحه بالارتياح الذى كان ينتظر وعلى العكس طلب إليه -

كما فعل من قبل فى ظرف مشابه ـ ألا يعود إلى ذكر سعد باشا قائلا : «سعد باشا . . نو!»، وهكذا فشل ـ على حد تعبير ياسين ـ أول مفاوض مصرى! . . ما يدرى يوما إلا وأحد «الأصدقاء» يقدم له صورة كاريكاتورية رسمها، فنظر كمال إليها بدهشة وانزعاج وهو يقول لنفسه «صورتى؟! . . ليست هذه صورتى!». ولكنه شعر فى قرارة نفسه بأنها صورته دون غيره ولو على وجه ما، ثم رفع عينيه للواقفين فألفاهم يضحكون فأدرك أنها نوع من المزاح وأن عليه أن يتقبله بسرور فجاراهم فى ضحكهم مداريا بالضحك خجله، ولما أطلع عليها فهمى تفرس هذا فيها بدهشة ثم قال :

ـ رباه . . لم تترك عيبا إلا أبرزته! . . الجسم النحيف الصغير، الرقبة الطويلة الهزيلة، الأنف الكبير، الرأس الضخم، العينان الصغيرتان .

ثم ضاحكا :

ـ الشىء الوحيد الذى يبدو أن «صديقك» يضمر نحوه إعجابا هو بذلتك الأنيقة المهندمة ولا فضل لك فى ذلك وإنما الفضل لنينة التى لا تترك شيئا فى البيت إلا هندمته!

ورمى إليه بطرف شامت ثم قال :

ـ بأن السر الذى حببك إليهم! . . إنهم يتسلون بالضحك على شكلك وأناقتك المفرطة، يعنى بالعربى لست إلا «قره جوز» فى نظرهم . . ماذا كسبت من وراء خيانتك؟!

ولكن كلام فهمى لم يحدث أثرا لأن الغلام كان يدرك مدى عداوته للإنجليز فظنها مناورة يراد بها التفرقة بينه وبينهم! . . وجاء يوما المعسكر كعادته فرأى جوليون عند أقصى جدار السبيل يتطلع باهتمام إلى العطفة التى يفتح عليها بيت المرحوم السيد محمد رضوان فمضى نحوه ولكنه رآه يلوح بيده محدثا إشارات غامضة لم يفقه لها معنى بيد أنه توقف عن التقدم ملبيا إحساسا غريزيا خفى عنه معناه، ثم أغراه حب الاستطلاع بأن يدور حول الخيام المنصوبة أمام واجهة السبيل متسللا إلى ما وراء جوليون وأن يمد بصره إلى الهدف الذى يتطلع إليه، هنالك رأى كوة فى جناح بيت آل رضون الذى يسد العطفة القصيرة يلوح منها وجه مريم واضحا باسما متسجيبا! . . وقف يردد النظر بين الجندى وبين الفتاة فى ذهول كأنما يأبى أن يصدق عينيه، كيف اقترفت مريم الظهور فى الكوة؟! . . كيف تصدت لجوليون على هذا النحو الفاضح؟! . . هو يلوح بيديه وهى تبتسم! . . أجل ها هى الابتسامة لا تزال مطبوعة على شفتيها! . . وها هما عيناها يستغرقهما النظر إليه حتى أنها لم تفطن بعد إلى وجوده هو! . . وندت عنه حركة لفتت إليه جوليون فما كاد يطلع على موقفه حتى أغرق فى الضحك وهو يرطن على حين

تراجعت مريم بسرعة خاطفة فى ذعر بين. راح يتطلع إلى الجندى فى ذهول وقد زاده فرار مريم ريبة على ريبة وإن بدا له الأمر كله غموضا فى غموض.

سأله جوليون متوددا:

ـ تعرفها؟

فأحنى رأسه بالإيجاب ولم ينبس. غاب جوليون دقائق ثم عاد حاملا لفافة كبيرة قدمها إلى كمال قائلا وهو يشير إلى بيت مريم:

ـ اذهب بها إليها.

ولكن كمال تراجع جافلا وهو يهز رأسه يمنة ويسرة فى عناد، لم تبرح تلك الحادثة مخيلته، ومع أنه شعر بخطورتها من بادىء الأمر إلا أنه لم يدرك مدى الخطورة على حقيقتها إلا حين قص القصة فى مجلس القهوة مساء. استوت أمينة فى جلستها وهى تتباعد وقد ظل فنجان القهوة معلقا بين أصبعيها لا هى تقربه من فيها ولا هى تضعه على الصينية على حين غادر فهمى وياسين الكنبة المواجهة لمجلس الأم مهرولين إلى الكنبة التى تجلس عليها هى وكمال وجعلا يحدقان إليه باهتمام ودهش وانزعاج فاق كل ما توقع.

قالت أمينة وهى تزدرد ريقها:

ـ أرأيت هذا حقا!.. ألم تخدعك عيناك؟!

وتأفف فهمى:

ـ مريم؟!.. مريم؟!.. أمتأكد أنت مما تقول؟!

وتساءل ياسين:

ـ أكان يشير إليها وكانت تبتسم إليه؟!.. أرأيتها تبتسم حقا؟!

وأعادت أمينة الفنجان إلى الصينية فأسندت رأسها على راحتها قائلة بلهجة تنم عن الوعيد:

ـ كمال!.. الكذب فى مثل هذا الأمر جريمة لا يغفرها الله.. راجع نفسك يا ابنى.. ألم تعد الحق فى شىء؟!

وحلف كمال بأغلظ الأيمان فقال فهمى بيأس ومرارة:

ـ إنه لا يكذب، ليس فى وسع عاقل أن يتهمه بالكذب فيما قال، ألا تدركون أن اختراع مثل هذه القصة هو أبعد ما يكون عن تصور واحد فى سنه؟!

فتساءلت الأم بصوت حزين:

ـ وكيف يسعنى أن أصدقه!

فقال فهمى وكأنه يحدث نفسه:

- أجل كيف يمكن تصديقه! . . (ثم بصوت حاد) ولكنه وقع . . وقع . . !

وقعت الكلمة الأخيرة من نفسه موقع الخنجر، كررها وكأنما يكرر الطعن متعمدا، حقا شغلته عن مريم الشواغل فلم تعد ذكراها تلوح إلا فى حاشية أحلام يقظته، ولكن الطعنة التى أصابت سمعتها نفذت إليها خلال قلبه . . إنه ذاهل . . ذاهل . . ذاهل، لا يدرى إن كان نسى أم لم ينس، يحب أم يكره، يغضب للكرامة أم للغيرة . . ورقة شجر جافة فى مهب زوبعة متناوحة .

- كيف يسعنى أن أصدقه؟ . . طالما كانت ثقتى فى مريم كثقتى فى خديجة أو عائشة، أمها من الفضليات، أبوها طيب الله ثراه كان من الأكرمين . . جيران العمر ونعم الجيران .

قال ياسين - الذى بدا طول الوقت مستغرقا بالتفكير - بلهجة لم تخل من سخرية :

- علام تعجبون؟ . . منذ القدم والله يخلق من صلب الأبرار أشرارا .

فقالت أمينة محتجة كأنما تأبى أن تصدق أنها خدعت طوال ذلك الدهر :

- يشهد الله أنى لم ألاحظ عليها ما يسوء قط .

فقال ياسين بحذر :

- ولا أحد منا، حتى خديجة العيابة الكبرى، بل خدع بها من هو أفطن منك ومنى!

فهتف فهمى متألما :

- من أين لى أن أطلع على الغيب؟! إنه أمر يشق تصوره .

وحنق على ياسين لدرجة الغليان، ثم بدا له الخلق جميعا بغضاء، الإنجليز والمصريون على السواء . . الرجال والنساء - والنساء خاصة - إنه يختنق . . هفت نفسه إلى الاختفاء ليتنشق فى وحدته نسمة راحة بيد أنه لم يبرح مكانه كأنما شد إليه بحبال غلاظ .

اتجه ياسين إلى كمال متسائلا :

- متى رأتك؟

- عندما التفت إلىَّ جوليون .

- ثم فرَّت من النافذة؟

- نعـــم . .

- هل رأت أنك رأيتها؟

- التقت عينانا لحظة .

ياسين ساخرا :

ـ مسكينة! . . إنها دون شك تتخيل الآن مجلسنا هذا وحديثنا ذا الشجون!

ـ إنجليزى!

هتف فهمى وهو يضرب كفا على كف:

ـ بنت السيد محمد رضوان!

غمغمت أمينة متنهدة وهى تهز رأسها عجبا.

فقال ياسين متفكرا:

ـ مغازلة إنجليزى ليست بالمسألة الهينة على فتاة، هذه درجة من الفساد لا يمكن أن تظهر طفرة.

فسأله فهمى:

ـ ماذا تعنى؟

ـ أعنى أنه لابد أن تسبقها درجات من الفساد!

فقالت أمينة برجاء:

ـ أستحلفكم بالله أن تمسكوا عن هذا الحديث.

فواصل ياسين حديثه، كأنه لم يسمع رجاءها، قائلا:

ـ مريم بنت سيدة لها فى التبرج فنون بشهادتكن أنت وخديجة وعائشة!

فهتفت أمينة بصوت ملؤه العتاب والزجر:

ـ ياســـين!

فقال ياسين كالمتراجع:

ـ أريد أن أقول إننا أسرة تعيش فى حق مغلق لا تكاد تعلم شيئا عما يدور حولها، قصارى جهدنا أن نتصور الناس على مثالنا، اختلطت بنا مريم أعواما طوالا ولكننا لم نعرفها على حقيقتها حتى كشفها لنا آخر من ينشد عنده كشف الحقائق!

وربت على رأس كمال ضاحكا، ولكن أمينة عادت تقول بتوسل حار:

ـ أستحلفكم بالله أن تغيروا مجرى الحديث. .

ابتسم ياسين ولم ينبس، فأطبق الصمت، لم يعد فهمى يتحمل البقاء بينهم فاستجاب إلى الصوت الباطنى الذى يستصرخه ملهوفا على الفرار. . بعيدا عن الأنظار والأسماع، هنالك يستطيع أن يخلو إلى نفسه، أن يعيد إليها الحديث من ألفه إلى يائه، كلمة كلمة، عبارة عبارة، جملة جملة، ليفهمه ويتفهمه ثم ينظر أين يكون موضعه.

٦٥

كان الليل قد جاوز منتصفه عندما غادر السيد أحمد عبد الجواد بيت أم مريم متلفعا بظلمة العطفة المسدودة. بدا الحى كله - كما أمسى يبدو مع الهزيع الأول من الليل منذ عسكر الإنجليز فيه - غارقا فى النوم متدثرا بالظلام، لا مقهى يسمر ولا بائع يسرح ولا دكان يسهر ولا مار يدب، فلم يكن فيه أثر للحياة أو النور إلا ما انبعث من المعسكر، ومع أن أحدا من الجنود لم يتعرض له بسوء فى الذهاب أو الإياب إلا أنه لم يكن يخلو قط من قلق وتوجس كلما اقترب من المعسكر فى طريقه إلى البيت خاصة وأنه يعود - آخر الليل - على حال من الإعياء والاسترخاء والذهول يشق معها مجرد التفكير فى السير الآمن المطمئن، انحدر إلى طريق النحاسين ثم انعطف يمنة متجها إلى البيت وهو يختلس النظر إلى الديدبان حتى دخل أشد مناطق الطريق خطورة.. تلك التى ينتشر فيها النور المنبعث من قلب المعسكر، هنالك عاوده الإحساس الذى يخامره كلما دخلها وهو أنه هدف يسير لأى صائد، فحث خطاه ليخرج منها إلى الظلام المفضى إلى مدخل بيته ولكنه ما كاد يخطو خطوة حتى صك أذنيه صوت أجش غليظ يزعق وراءه راطنا فأدرك على جهله رطانته - من عنف اللهجة واقتضابها - أنه رماه بأمر لا يقبل المناقشة فتوقف عن السير والتفت وراءه مرتاعا فرأى جنديا - غير الديدبان - يتجه نحوه بقوة شاكى السلاح، ماذا جد حتى دعا إلى هذه المعاملة؟.. أيكون الرجل ثملا؟.. أم لعله أذعن لنزوة اعتداء طارئة؟.. أم هو يبتغى السلب والنهب؟.. جعل يرقب اقترابه بقلب خافق وحلق جاف وقد طار الخمار من رأسه. وقف الجندى على بعد خطوة منه ثم وجَّه إليه بلهجة آمرة كلاما سريعا قصيرا - لم يفهم منه بطبيعة الحال كلمة واحدة - وهو يشير بيده الخالية صوب شارع بين القصرين فحملق السيد فى وجهه بيأس واستعطاف وهو يعانى مرارة العجز عن التفاهم معه كى يقنعه ببراءته مما يتهمه به أو كى يعرف على الأقل ما يريد، ثم خطر له أنه قصد بإشارته إلى بين القصرين أن يأمره بالابتعاد ظنا منه أنه غريب فراح يشير إلى بيته بدوره ليفهمه أنه من سكانه وأنه عائد إليه ولكن الجندى تجاهل حركته وهو يدمدم ثم أصر على إشارته وهو يهز رأسه فى نفس الاتجاه كأنما يحثه على الذهاب، ثم بدا أنه ضاق به فقبض على منكبه وأداره بقوة فدفعه فى ظهره فوجد السيد نفسه يتحرك متجها نحو بين القصرين والآخر وراءه فاستسلم ومفاصلة تكاد تسيب - إلى المقادير، جاوز فى مسيره المجهول المعسكر ثم سبيل بين القصرين وهناك اختفى آخر أثر للضوء المنبعث من المعسكر فخاض أمواج الظلام الدامس والصمت الثقيل، لا منظر يرى إلا أشباح البيوت ولا

صوت يسمع إلا وقع القدمين الغليظتين اللتين تتبعانه فى نظام ميكانيكى كأنهما يعدان الدقائق الباقية له فى الحياة، ولعلها ثوان، أجل كان يتوقع فى أية لحظة أن ينقض عليه بخبطة تهوى به إلى النهاية فمضى يترقبها بعينين محملقتين فى الظلام وفم مطبق من الجزع وحرقوة تتحرك حركة عصبية من آن لآن كلما ازدرد ريقه الجاف الملتهب حتى بوغت بوميض يجذب بصره إلى أسفل فكاد يصرخ كالأطفال من الهلع وقد تهاوى قلبه ولكنه تبينه دائرة من الضوء تذهب وتجىء فأدرك أنها شعاع من بطارية أضاءها سائقه ليتعرف على طريقه خلال الظلمات. استرد أنفاسه بعد أن تخفف من الذعر المباغت ولكنه لم يستشعر نسمة راحة حتى تلقفه خوفه الأول، خوف الموت الذى يساق إليه، فعاد يترقب حتفه بين لحظة وأخرى كأنه غريق توهم فى تخبطه أنه يرى تمساحا يتوثب لمهاجمته ثم تبين له أن ما رأى أعشاب طافية ولكن فرحته للنجاة من الخطر الوهمى لم تكد تتنفس حتى اختفت تحت ضغط الخطر الحقيقى المحيط به، إلى أين يسوقه؟.. لو يستطيع أن يراطنه فيسأله!.. يبدو أنه سيواصل سوقه حتى يدفع به إلى قرافة باب النصر، لا أثر لإنسان ولا لحيوان، أين الغفير؟.. وحيد تحت رحمة من لا يرحم، متى كان مثل هذا العذاب.. هل يذكر؟ الكابوس.. أجل أنه الكابوس.. كابده أكثر من مرة خلال نوم مريض، إن ظلمة الكابوس نفسها لا تخلو أحيانا من بارقة أمل قد يشرق بنفس النائم إحساس حنون بأن ما يعانيه حلم لا حقيقة وبأنه سينجو من شره الآن أو بعد حين، هيهات أن يجود الدهر بمثل ذلك الأمل، إنه صاح لا نائم وهذا الجندى الشاكى السلاح حقيقة لا خيال وهذا الطريق الذى يشهد ذله وأسره شىء ملموس مخيف لا وهم، عذابه حقيقة لا سبيل إلى الشك فيها، إن أقل حركة ممانعة تند عنه خليقة بأن تطيح رأسه.. لا سبيل إلى الشك فى هذا أيضا.. قالت له أم مريم وهى تودعه: «إلى الغد» الغد؟!.. هل يطلع ذلك الغد؟!.. سل القدمين الثقيلتين اللتين ترجان الأرض وراء ظهرك.. سل البندقية ذات السونكى الحاد المدبب، قالت له أيضا وهى تمازحه «تكاد رائحة الخمر المتطايرة من فيك أن تسكرنى»، الآن طارت الخمر وطار عقله، ولَّت ساعة الصبوة، منذ دقائق معدودة.. كانت الصبوة كل شىء فى الحياة. الآن العذاب هو كل شىء.. وليس بين هذا وذاك إلا دقائق معدودة، دقائق معدودة؟!.. عندما بلغ منعطف الخرنفش جذب عينيه شعاع يومض فى الظلام فلحظ الطريق فرأى بطارية تتحرك فى يد جندى آخر يسوق بين يديه أشباحا لم يتبين عددهم!.. تساءل ترى هل صدرت إلى الجنود أوامر بالقبض على من يصادفون من الرجال ليلا؟!.. وإلى أين يسوقونهم؟.. وأى عقاب سيقضون به عليهم؟.. تساءل طويلا وهو من الدهش والانزعاج فى نهاية بيد أن رؤيته للضحايا الجدد أدخلت على قلبه شيئا من العزاء والارتياح، لم يعد على الاقل وحيدا كما كان تظن، وجد فى بلواه اندادا يؤنسون وحشته ويشاركونه المصير، كان يتقدم

قافلتهم بمسافة قصيرة فراح ينصت إلى وقع اقدامهم مستأنسا إليها كما يستأنس الضال فى مفازه إلى أصوات آدمية ترامت إليه مع الريح، ولم تكن أمنية أعز على نفسه آنئذ من أن يلحقوا به لينضم إلى جماعتهم، سواء كانوا معارف أو غرباء، لتخفق قلوبهم معا وهم يحثون الخطى نحو المصير المجهول. هؤلاء الرجال أبرياء وهو برىء ففيم القبض عليهم؟ فيم القبض عليه هو مثلا؟ لا هو من الثوار ولا من المشتغلين بالسياسة ولا حتى من الشبان فهل يطلعون على الأفئدة ويحاسبون على المشاعر؟ . . أو تراهم يعتقلون أفرادالشعب بعد أن فرغوا من اعتقال الزعماء؛ لو كان يعرف الإنجليزية فيسأل آسره؟ أين فهمى ليحادثه نيابة عنه؟ وخزه الألم والحنين، أين فهمى وياسين وكمال وخديجه وعائشة وأمهم؟ هل يمكن أن تتصور أسرته ما آل إليه حاله من هوان وهى التى لم تره إلا جبارا عزيزا جليلا؟ هل تتصور أن جنديًا دفعه بعنف حتى أوشك أن يطرحه أرضا وأن يسوقه كما تساق السائمة؟ وجد لذكر آله ألما وحنينا فكادت تدمع عيناه. كان يمر فى طريقه بأشباح بيوت ودكاكين يعرف أصحابها، ومقاه كان يوما - خاصة عهد الصبا والشباب - من سمارها، فأحزنه أن يمضى بها سيرا دون أن تنهض لنجدته أو حتى ترثى لحاله، شعر حقا بأن أحزن صنوف الهوان ما حاق به فى حيه، ثم رفع عينيه الى السماء باعثا بفكره الى الله المطلع على قلبه، بعث اليه بفكره دون أن يجرى له ذكرا على لسانه ولو همسا مستحييا من أن ينطق باسمه وجسمه لم يتطهر من أنفاس الشراب وعرق الغرام، وما لبث أن تضاعف خوفه من أن يباعد دنسه بينه وبين النجاة، أو أن يلقى مصيرا كفاء لما سلف من استهتاره، فغشى صدره تطير وكآبة، وأشفى على اليأس، حينما شارف سوق الليمون ترامى إلى الصمت الذى لا يؤنسه الا وقع أقدام أصوات مبهمة فأرهف محملقا فى الظلام - وهويتقدم بين الخوف والرجاء - فتناهت الى أذنيه لجة لم يدر إن كان مصادرها إنسان أو حيوان غير أنه تبين بعد قليل لغطا فلم يتمالك أن قال لنفسه فى لهفة «أصوات آدمية» ومال مع الطريق فلاحت لعينيه أضواء متحركة حسبها بادىء الأمر بطاريات جديدة ولكنها وضحت مشاعل رأى على نورها جانبا من بوابة الفتوح يقف تحته جنود بريطانيون، ثم تراءى له جنود من البوليس المصرى رد منظرهم إلى صدره الدماء، سأعرف ما يراد بى، لم يبق إلا مسيرة خطوات، ماذا دعا إلى تجمهر الجنود الإنجليز والمصريين عند البوابة؟ لماذا يسوقون الأهالى من شتى أنحاء الحى؟ عما قليل أعرف كل شىء، كل شىء؟ فلأستعذ بالله ولأسلم إليه أمرى، سأذكر هذه الساعة الرهيبة مدى العمر إن كان فى العمر بقية، الرصاص. . المشنقة . . دنشواى. . أأنضم إلى سجل الشهداء؟ أأصبح نبأمن أنباء الثورة يتناقله محمد عفت وعلى عبد الرحيم وإبراهيم الفار كما كنا نتناقل الأخبار فى سهرات المساء؟ تصور السهرة ومكانك شاغر؟ رحمة الله عليك . . كان وكان. . لشد ما يبكونك ، وسيتذكرونك طويلا ، ثم تنسى، ما أشد

اضطراب قلبى، سلم أمرك للذى خلقك، أللهم حوالينا ولا علينا. ما إن اقترب من موقف الجنود حتى اتجهت الأنظار إليه باردة قاسية متوعدة فغاص قلبه فى الأعماق مخلفا وراءه فى الأضلع ألما حادا، ترى هل آن له أن يتوقف؟ تثاقلت قدماه ولفه التردد والحيرة..

ـ أدخـــل..

هتف بها شرطى وهوى يشير إلى داخل البوابة فنظر السيد إليه نظرة ناطقة بالتساؤل والاستعطاف والاستغاثة، ثم مر بين الجنود لايكاد يرى ما بين يديه من شدة الفزع ويود لو يغطى رأسه بذراعيه استجابة لغريزة الخوف التى تستصرخه. هنالك تحت قبة البوابة رأى منظرا عرفه بما يراد به بغير حاجة الى سؤال، رأى حفرة عميقة كالخندق تعترض الطريق، كما رأى جمهورا من الأهالى يعملون بلا توقف وتحت إشراف الشرطة لسد الحفرة بأن يحملوا الأتربة فى مقاطف ويفرغونها فيها، الكل يعمل بهمة وسرعة والأعين تسترق النظر فى خوف إلى الجنود الإنجليز الذين رابطوا عند مدخل البوابة. اقترب منه شرطى ورمى إليه بمقطف وهو يقول بصوت غليظ ينم عن وعيد:

ـ إفعل كما يفعل الآخرون..

ثم همســـا:

ـ أسرع حتى لا يصيبك أذى..

كانت هذه الجملة أول تعبير «انسانى» يلقاه فى رحلته المخيفة فسرت فى صدره سرى النسمة فى حلق المختنق، إنحنى على المقطف فتناوله من علاقته وهو يسأل الشرطى همسا:

ـ هل يطلق سراحنا إذا تم العمل؟

فأجابه بنفس الصوت:

ـ إن شاء الله.

تنهد من الأعماق، راودته نفسه على البكاء، شعر بأنه يولد من جديد.. رفع بيسراه الجبة من طرفها ودسه فى حزام القفطان كيلا تعوقه عن العمل ومضى بالمقطف الى طوار البوابة حيث تراكمت الاتربة فوضعه بين قدميه وراح يملأ كفيه بالتراب ويفرغها فى المقطف حتى امتلأ ثم حمله بيده وذهب الى الحفرة فأفرغه فيها وعاد إلى الطوار، واصل العمل بين جماعات مختلفة من الناس ضمت الأفندية والمعممين، الهرمين والشبان، يعملون جميعا بهمة عالية مستمدة من رغبتهم فى الحياة، وانه ليملأ مقطفه اذ لكزه كوع فالتفت الى مصدره فرأى صديقا يدعى غنيم حميدو صاحب معصرة زيوت

بالجمالية ممن يلمون بمجالس لهوه بين حين وآخر ففرح به فرحة عظمى كما فرح به الآخر، وسرعان ما تهامسا:

ـ أنت وقعت أيضا! . .

ـ قبلك . . وصلت قبيل منتصف الليل ورأيتك وأنت تتسلم مقطفك فجعلت فى ذهابى وإيابى أتبع طريقا يميل إليك رويدا رويدا حتى جاورتك.

ـ أهلا . . أهلا، أليس ثمة أحد من أصدقائنا.

ـ لم أعثر على غيرك.

قال لى الشرطى انهم سيطلقون سراحنا حالما نتم العمل.

ـ قيل لى ذلك أيضا، ربنا يسمع منك.

سيبوا ركبى الله يخرب بيوتهم . .

ـ لم تعد لى ركب على ما أظن!

وتبادلا ابتسامة مقتضبة . .

ـ ما أصل هذه الحفرة؟

ـ يقال ان فتوات الحسينية حفروها أول الليل ليمنعوا مسير اللوريات ويقال ايضا ان لوريا وقع فيها!

ـ إن صح هذا فقل علينا السلام!

وعندما تجاورا مره ثانية عند كوم الأتربة كانا قد ألفا الموقف بعض الشىء فعاودتهما الروح حتى أنهما لم يتمالكا أن ابتسما وهما يملآن مقطفيهما بالتراب كعمال البناء فهمس غنيم:

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل على أولاد الكلب . .

فهمس السيد باسما:

ـ أرجو أن يعطونا أجرا مناسبا!

ـ أين قبض عليك؟

ـ أمام البيت.

ـ طبعا!

ـ وأنت؟.

ـ كنت بالعا منزولة، ولكننى أفقت تماما، الإنجليز أقوى من الكوكاين!

ـ أقوى من القىء نفسه!

مضى الرجال يذهبون ويجيئون عجلين ما بين طوار الأتربة والحفرة على ضوء المشاعل، أثاروا التراب حتى انتشر فى فراغ القبة خالقا جوا خانقا فعلاهم البهر وتصبب منهم العرق من جبهاتهم واغبرت وجوههم وتتابع من انتشاق الغبار سعالهم فكأنهم أشباح انشقت عنهم الحفرة، على أى حال لم يعد وحده، هذا الصديق وهؤلاء الرجال من حيه، جنود البوليس المصريون معهم بقلوبهم، آى ذلك أنهم جردوا من سلاحهم . . لم يعد السيف ذوالغمد المعدنى يتدلدل من أحزمتهم، أصبر . . أصبر لعل هذه الغمة أن تنكشف، هل كنت تتصور أنك ستعمل حتى مطلع الصبح وربما حتى الضحى، شد حيلك ليس ثمة أنك ستحمل التراب وتسخر فى سد الحفرة؟ لاتريد الحفرة ان تمتلىء، لافائدة ترجى من الشكوى، ولمن تشكو؟ جسمك قوى صلب العود يستطيع أن يتحمل رغم سكرة الليلة وعبثها. كم الساعة الآن؟ ليس من الحيطة إن تنظر فيها، لو لم يقع لى هذا لكنت الآن مستلقيا على الفراش منعما بلذيذ المنام، كنت أستطيع أن أغسل رأسى ووجهى وأشرب شربة روية من القلة المعطرة بالزهر، هنيئا لنا هذه المشاركة فى جحيم الثورة، لم لا؟ البلد ثائر . . كل يوم . . كل ساعة ضحايا وشهداء، بيد أن قراءة الصحف وتناقل الأخبار شىء أما حمل التراب تحت تهديد البنادق فشىء آخر، هنيئا لكم أيها النائمون فى اسرتكم، اللهم احفظنا، لست لها . . لست لها، اللهم اهزم المشركين بقوتك، نحن ضعفاء، لست لها، هل يتصور فهمى أى خطر يتهدده؟ انه يستذكر دروسه الآن غير عالم بما يحيق بابيه، قال لى: (لا) لأول مره فى حياته، قالها بدموعه ولكن سيان عندى. المعنى واحد، لم أقل لأمه، لن أقول لها، أأكشف لها عن عجزى؟أأستعين بضعفها بعد أن أخفقت بقوتى؟ كلا . . لتبقى جاهلة بكل شىء، يقول إنه لا يعرض نفسه للخطر، حقا؟ اللهم استجب، لولا هذا ما رحمته أبدا اللهم احفظه، اللهم احفظنا جميعا من شر هذه الأيام، كم الساعة الآن؟ إن طلع علينا الصباح آمنا القتل، لن يقتلونا أمام الخلق. الصباح؟

- بصقت على الأرض كى أتخلص من الغبار اللازق بسقف حلقى فرمانى أحد الأبالسة بنظرة وقف لها شعر رأسى!

- لا تبصق، تشبه بى، لقد بلعت من التراب قدرا يكفى لسد هذه الحفرة!

- لعل زبيدة دعت عليك!

- لعلها . .

- ألم يكن سد حفرتها أطيب من سد هذه الحفرة؟

- بل أشق!

تبادلا ابتسامة سريعة ثم قال غنيم متنهدا:

انقصم ظهرى يا هوه!

ـ مثلك، عزاؤنا أننا نشارك المجاهدين بعض آلامهم.

ـ ما رأيك فى أن أرمى بالمقطف فى وجه الجنود وأهتف بأعلى صوتى (يحيا سعد)؟!

ـ اشتغلت المنزولة من جديد؟

ـ يا للخسارة!.. كانت قطعة (قد فص العين) حركتها بالشاى مرة ومرتين وثلاثا، ثم ذهبت إلى الطمبكشية أسمع الشيخ على محمود فى بيت الحمزاوى، وعدت قبيل منتصف الليل وأنا أقول لنفسى (الولية الآن تنتظرك لا أفلح من خيب لها رجاء) حين طلع ابن القرد و ساقنى من قفاى..

ـ ربنا يعوض عليك.

ـ آمـــين.

جاء الجنود برجال آخرين بعضهم من ناحية الحسينية والبعض الآخر من ناحية النحاسين وسرعان ما انضموا إلى «العمال». ألقى على المكان نظرة فوجده ازدحم بالجمهور أو كاد وقد انتشروا حول الحفرة فى جميع الجهات، يذهبون إلى الطوار ويرجعون إليها فى حركة لا تنقطع وأنوار المشاعل تضىء منهم وجوها لاهثة نال منها الإعياء والذل والخوف كل منال. الكثرة بركة وأمان، لن يذبحوا هذا الجمع الغفير من الناس، لن يأخذوا البرىء بالمذنب، ترى أين المذنبون؟ أين هؤلاء الفتوات؟ هل يعلمون الآن أن إخوانا لهم وقعوا فى الحفرة التى حفروا؟! قاتلهم الله هل حسبوا أن حفر حفرة سيعيد سعدا أو يخرج الإنجليز من مصر! لأنقطعن عن السهر إن كتب الله لى عمراً جديداً، أنقطع عن السهر؟ لم يعد السهر بمأمون، كيف يكون طعم الحياة، لا طعم للحياة فى ظل الثورة، الثورة.. أى جندى يقبض عليك.. تحمل التراب بكفيك، فهمى يقول لك لا!، متى تعود الدنيا إلى أصلها؟ صداع؟.. بل صداع وغثيان، دقائق من الراحة.. لا أطمع فى مزيد! بهيجة فى سابع نومة، أمينة تنتظر كما تنتظر «ولية» غنيم، هيهات أن يخطر لكم ما حاق بأبيكم، رباه إن التراب يملأ أنفى وعينى، يا سيدنا الحسين، امتلئى.. امتلئى.. أما كفاك هذا التراب كله؟! يابن بنت رسول الله، غزوة الخندق.. هكذا دعاها سيدنا الواعظ، كان عليه الصلاة والسلام يعمل مع العاملين ويرفع التراب بيديه.. كافرون وكافرون لماذا ينتصر كافرو اليوم! فساد الزمن.. فسادى أنا، هل يعسكرون أمام البيت حتى تنتهى الثورة؟

ألم تسمع الديكة؟

أرهف السيد أذنيه ثم غمغم:

ـ الديكة تصيح! الفجر؟

ـ نعم . . ولكنها لن تمتلىء قبل الصباح .

ـ الصبـــاح !

ـ المهم أنى محصور ، محصور جداً .

اتجه ذهن السيد إلى أسفل فشعر بأنه محصور أيضا ، وبأن جانبا من آلامه يعود بلا شك إلى ذلك ، وسرعان ما اشتد ضغط المثانة عليه كأنما هيجها تفكيره فيها ، قال :

ـ وأنا كذلك .

ـ والعمل ؟

ـ ما باليد حيلة !

ـ انظر هناك إلى ابن القرد الذى وقف يبول أمام دكان على الزجاج !

ـ آه . .

ـ إخراج شوية بول أهم الآن عندى من إخراج الإنجليز من مصر كلها . .

ـ إخراج الإنجليز من مصر كلها ؟ ! ليخرجوا أولا من النحاسين .

ـ رباه . . انظر . . لا يزال الجنود يأتون بالناس !

رأى السيد جماعة جديدة تشق طريقها صوب الحفرة .

٦٦

استيقظ السيد أحمد من نومه حوالى العصر وكان نبأ واقعته قد ذاع فى الأهل والأصدقاء فوفدوا على البيت واجتمعوا به مهنئين بالسلامة فراح يقص القصة ويعيدها بأسلوب لم يخل ـ رغم جدية الأمر ـ من فكاهة وتهويل حتى أثار شتى التعليقات . كانت أمينة أول من سمع القصة ، ألقاها عليها وهو مشتت النفس خائر القوى لا يكاد يصدق حقا أنه نجا فتلقت وحدها الجانب المفجع خالصا ، وما كادت تغادره نائما حتى استرسلت فى البكاء وجعلت تدعو الله أن يرعى أسرتها بعنايته ورحمته ، ودعت الله طويلا حتى كلَّ لسانها . ولكنه حينما وجد نفسه محوطا بأصدقائه خاصة المقربين منهم أمثال إبراهيم الفار وعلى عبد الرحيم ومحمد عفت ، استرد الكثير من روحه المعنوية فتعذّر عليه أن يغفل الجانب الفكاهى من الحادث حتى غلب على ما عداه فانتهى الحديث إلى نوع من المزاح كأنما كان يقص عليهم مغامرة من مغامراته . وبينما حفل الدور الأعلى بالزائرين اجتمع شمل الأسرة بالدور التحتانى فيما عدا الأم التى شغلت مع أم حنفى بتهيئة القهوة

والأشربة، شهدت الصالة من جديد اجتماع ياسين وفهمى وكمال وخديجة وعائشة فى مجلس الأم التقليدى، وقد انضم إليهم خليل شوكت وإبراهيم شوكت سحابة النهار ولكنهما صعدا إلى حجرة الأب عقب استيقاظه بقليل فخلا الجو للإخوة، وكان الحزن الذى غشيهم طوال النهار على ما أصاب والدهم قد زايلهم بعودة الطمأنينة إلى نفوسهم فنبضت قلوبهم بالعواطف الأخوية وتوثبوا للسمر والمرح كعهدهم فى الأيام الخوالى. على أن الطمأنينة لم تستقر بنفوسهم حتى رأوا والدهم بأعينهم، أقبلوا عليه واحدا فى إثر واحد فقبَّلوا يده ودعوا له بطول العمر والسلامة ثم غادروا الحجرة فى نظام وأدب عسكريين. ومع أن السيد اكتفى بمد يده لياسين وفهمى وكمال بالتتابع دون أن ينبس بكلمة إلا أنه ابتسم إلى خديجة وعائشة وسألهما فى رقة عن الحال والصحة، رقة لم تحظيا بها إلا بعد زواجهما، وكان كمال يلاحظها بدهشة مقرونة بسرور، كأنما هو الذى يحظى بها. والحق أن كمال كان أسعد الجميع بزيارات شقيقتيه كلما هلَّت.. كان ينعم فى أثنائها بسعادة عميقة لا يعكر عليه صفوها إلا التفكير فى النهاية المتوقعة. ودائما كان يجيء النذير بهذه النهاية من أحد الرجلين - إبراهيم أو خليل - إذا تمطى أو تثاءب ثم قال: «آن لنا أن نذهب»، أمر مطاع لا يرد، لم تتكرم إحدى شقيقتيه - ولو مرة واحدة - بأن تجيبه قائلة مثلا «اذهب أنت وسألحق بك غدا»!.. بيد أنه بمرور الزمن اعتاد الصلة العجيبة التى تربط بين شقيقتيه وزوجيهما وسلَّم بحكمها وقنع بالزيارة القصيرة تجيء بين الحين والحين فيسعد بها دون طمع فى مزيد. وبالرغم من هذا فلم يكن يتمالك أحيانا إذا رآهما مقبلتين من أن يقول متمنيا «لو تعودان إلى البيت فتقيمان فيه كما كنتما»! فتبادره أمه قائلة: «ربنا يكفيهما شر تمنايتك الطيبة!». بيد أن أعجب ما صادفه فى حياتهما الزوجية كان ذلك التغير الذى طرأ على البطن.. وما صاحبه من أعراض بدت تارة مرعبة كالمرض وطورا غريبة كالأساطير، وفدت على حافظته ألفاظا جديدة كالحبل والوحم وما اكتنف الأخير من قيء وتوعك والتهام لحبات الطين الجافة.. ثم ما شأن بطن عائشة؟.. متى يقف عن النمو الذى جعله كالقربة المنفوخة؟.. وهذا بطن خديجة بدا - فيما يبدو - يخطو نفس الخطوات، وإذا كانت عائشة ذات البشرة العاجية والشعر الذهبى قد وحمت على الطين فعلى أى شيء توحم خديجة؟!.. غير أن خديجة لم تحقق مخاوفه فتوحمت على المخلل حتى استثارت منه أسئلة لا حصر لها لم يظفر أحدها بجواب مقنع!.. وتقول أمه إن بطن عائشة - وبطن خديجة بالتالى - سيتمخض عن طفل صغير سوف يكون قرة عينه.. ولكن أين يقيم هذا الطفل، وكيف يعيش، وهل يسمع ويرى، وماذا يسمع وماذا يرى، وكيف وجد، ومن أين جاء؟!.. على أن هذه الأسئلة لم تهمل، ظفر عنها بأجوبة جديرة حقا بأن تلحق بمعارفه عن الأولياء والعفاريت والرقى والتعاويذ وغير ذلك من المواد التى تزخر بها دائرة معارف أمه.. لذلك سأل عائشة مستطلعا باهتمام:

ـ متى يخرج الطفل؟

فأجابته ضاحكة :

ـ اصبر لم يبق إلا قليل .

فتساءل ياسين :

ـ أظنك فى الشهر التاسع؟

فأجابته :

ـ نعم ولو أن حماتى تصر على أنى فى الثامن ! . .

فقالت خديجة بحدة :

ـ أصل حماتك تصر دائما على أن يكون لها رأى مخالف ، هذا كل ما هنالك !

ولما كان الجميع على علم مما ينشب كثيرا بين خديجة وحماتها من نزاع فقد تبادلوا النظرات ثم ضحكوا .

وقالت عائشة :

ـ أود أن أقترح عليكم أن تنتقلوا إلى بيتنا فتبقوا معنا حتى يجلو الإنجليز عن شارعكم .

فقالت خديجة بحماس :

ـ أجل ، لم لا؟ إن البيت كبير وستنزلون على الرحب والسعة ، فيقيم بابا ونينة عند عائشة لأنها فى الدور الأوسط ، وتقيمون أنتم عندى .

رحب كمال بالاقتراح فتساءل بلهجة تنم عن التحريض :

ـ من يقول لبابا؟

ولكن فهمى قال وهز يهز منكبيه :

ـ إنكما تعلمان حق العلم أن بابا لا يمكن أن يوافق .

فقالت خديجة بأسف :

ـ ولكنه يحب السهر فيكون عرضة لتحرش الجنود ، يا لهم من مجرمين !

ساقوه فى الظلام وحمَّلوه التراب ! . . آه . رأسى يدور كلما تصورت هذا .

فقالت عائشة :

ـ كنت أنتظر دورى لتقبيل يده وأنا أتفحص جسمه جزءا جزءا لأطمئن عليه ، كان قلبى يدق . . وعيناى تغالبان الدمع . . لعنة الله على الكلاب أولاد الكلاب !

فابتسم ياسين . . وقال لعائشة محذرا وهو يلحظ كمال غامزا بعينه :

ـ لا تسبى الإنجليز هكذا فإن لهم بيننا أصدقاء !

فقال فهمى متهكما :

ـ لعله مما يسر له بابا أن يعلم أن الجندى الذى يقبض عليه ليلا ما هو إلا صديق من أصدقاء كمال .

فابتسمت عائشة إلى كمال متساءلة :

ـ ألا تزال تحبهم بعد ما كان منهم؟

فغمغم كمال وقد تورد وجهه حياء وارتباكا :

ـ لو عرفوا أنه أبى ما تعرضوا له بسوء!

فما تمالك ياسين إلا أن يضحك ضحكة عالية حتى أنه غطى فمه بيده وهو ينظر فى حذر إلى السقف كأنما خاف أن يترامى صوت ضحكته إلى الدور الأعلى . . ثم قال ساخرا :

ـ الأحرى بك أن تقول : إنهم لو عرفوا أنك مصرى ما صبُّوا العذاب على مصر والمصريين ، ولكنهم لا يعرفون؟

فقالت خديجة بلهجة لاذعة :

ـ دع هذا الكلام لغيرك أنت . . ! أتنكر أنك من أصدقائهم كذلك؟!

ثم مخاطبة كمال بلهجة لاذعة :

ـ أتواتيك الشجاعة بعد ما عرف عن صداقتك لهم على أن تصل الجمعة فى سيدنا الحسين؟

ففطن ياسين إلى مرمى هجومها وقال مظهرا الأسف :

ـ يحق لك أن تتطاولى علىَّ ما دمت قد تزوجت فاكتسبت بعض حقوق الآدميين . .

ـ ألم يكن لى هذا الحق من قبل؟!

ـ الله يرحم أيام زمان . . ! ولكنه الزواج يعيد إلى البائسات الروح! . . اسجدى شكرا للأولياء . . ولتعاويذ وأقراص أم حنفى .

فقالت خديجة وهى تغالب ضحكة :

ـ يحق لك أن تتهجم على الناس بالحق وبالباطل بعد أن ورثت المرحومة وصرت من عداد الملاك .

فقالت عائشة بفرح صبيانى كأنما لم تدر من الأمر شيئا :

ـ أخى فى عداد الملاك! . . ما أجمل أن أسمع هذا! . . أأنت غنى حقا يا سى ياسين؟!

فقالت خديجة :

ـ دعينى أعد لك أملاكه، اسمعى يا ستى: دكان الحمزاوى وربع الغورية وبيت قصر الشوق..

فقال ياسين وهو يهز رأسه مغمضا عينيه:

ـ ومن شر حاسد إذا حسد..

فتابعت خديجة حديثها دون مبالاة بمقاطعته:

ـ وما خفى من الحلى والنقود المخبأة أعظم..

فهتف ياسين فى أسف صادق:

ـ اختفت كلها وحياتك، سرقت، سرقها ابن الكلب، جعلت أبى يسأله عما إذا كانت تركت حليا أو نقودا فقال اللص «ابحثوا بأنفسكم، علم الله أنى كنت أنفق عليها فى أثناء مرضها من جيبى الخاص».. اسمعوا يا هوه.. جيبه الخاص ابن الغسالة!..

فقالت عائشة بتأثر:

ـ يولداه!.. مريضة طريحة الفراش تحت رحمة رجل طامع فى مالها!.. لا صديق ولا حبيب، غادرت الدنيا من دون أن يحزن عليها أحد.

فتساءل ياسين:

ـ من دون أن يحزن عليها أحد؟!

فأشارت خديجة من خلال باب موارب إلى ملابس ياسين المعلقة بالمشجب وقالت محتجة احتجاجا ساخرا:

ـ وهذا البابيون الأسود؟!.. أليس آية على الحزن؟!

فقال ياسين جادا:

ـ لقد حزنت عليها حقا، ربنا يرحمها ويغفر لها، ألم نكن تصافينا فى آخر لقاء؟ الله يرحمها ويغفر لها ولنا..

فخفضت خديجة رأسها قليلا رافعة حاجبيها ثم نظرت إليه من أعلى كمن ينظر من فوق نظارته وهى تقول:

ـ إحم.. إحم.. اسمعوا سيدنا الواعظ (ثم وهى ترميه بنظرة شك) ولكن لم يبد عليك فيما أظن حزن شديد؟!

فرماها بنظرة مغيظة قائلا:

ـ ما قصَّرت فى واجبى نحوها والحمد لله، أقمت لها مأتما استمر ثلاث ليال، وكل جمعة أزور القرافة محملا بالرياحين والفواكه.. أم تريديننى ألطم وأعول وأحثوا التراب على رأسى! إن للرجال حزنا غير حزن النساء.

فهزت رأسها كأنما تقول «أفدتنى أفادك الله» ثم قالت متنهدة :

ـ آه من حزن الرجال! . . ولكن خبرنى وحياتى عندك ألم يخفف الدكان والربع والبيت من لوعة الحزن؟!

فقال متأففا :

ـ صدق من قال : إن قبح اللسان من قبح الوجه . .

ـ من قائل هذا؟

أجابها باسما :

ـ حمـــاتك!

فضحكت عائشة ، وضحك فهمى وهو يسأل خديجة :

ـ ألم تتحسن العلاقات بينكما؟

فأجابته عائشة بالنيابة عنها قائلة :

ـ سوف يتحسن ما بين الإنجليز والمصريين قبل أن يتحسن ما بينهما . .

فقالت خديجة بحنق لأول مرة :

ـ امرأة قوية ، ربنا عليها ، والله أنا بريئة ومظلومة . .

فقال ياسين متهكما :

ـ نصدقك يا أختى بلا قسم ، هذا شيء نشهد به أمام الله فى يوم العذاب!

فعاد فهمى يسأل عائشة :

ـ وأنت كيف حالك معها؟

فقالت عائشة وهى تلحظ خديجة بإشفاق :

ـ على ما يرام . .

فهتفت خديجة :

ـ آه من أختك عائشة . . تعرف كيف تسوس وتطأطئ الرأس . . أتفوخص . .

فقال ياسين متصنعا الجد :

ـ على أى حال فلحماتك الرحمة ولك صادق التهنئة!

فقالت بسخرية :

ـ التهنئة الحقة لك أنت قريبا إن شاء الله حين تزف إلى عروسك الثانية! . . أليس كذلك؟

فما تمالك إلا أن ضحك . . ثم قال :

ـ ربنا يسمع منك . .

فتساءلت عائشة باهتمام :

ـ حقـــا ؟ . .

ففكر قليلا . . ثم قال فى شىء من الجد :

ـ المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، ولكن من يعلم بما يأتى به الغد ؟ ! ربما ثانية وثالثة ورابعة . .

فهتفت خديجة :

ـ هذا ما أتوقعه . الله يرحم جدك !

فضحكوا جميعا حتى كمال ، ثم عادت عائشة تقول بصوت أسيف :

ـ مسكينة زينب ! . . كانت فتاة لطيفة وطيبة . .

ـ كانت . . ! وكانت حمقاء أيضا ، أبوها ـ مثل أبى ـ لا يطاق ، لو رضيت بمعاشرتى كما أحب ما فرطت فيها أبدا . .

ـ لا تعترف بهذا ، حافظ على كرامتك ، لا تشمت بك خديجة . .

قال باستهانة :

ـ نالت الجزاء الذى تستحقه ، فلينقعها أبوها ويشرب ماءها .

فغمغمت عائشة :

ـ ولكنها حبلى يا ولداه ! . . أترضى لوليدك أن ينمو بعيدا عن رعايتك حتى تسترده غلاما ؟ ! . .

آه ، أصابت مقتلا ، ينمو فى حضانة أمه كما نما أبوه من قبل ، ربما كابد تعاسة كتعاسته أو أشد . . ربما نمت مع كراهية لأمه أو لأبيه ، تعاسة على أى حال . قال عابسا :

ـ ليكن حظه كحظ أبيه ، ما باليد حيلة !

وساد الصمت قليلا حتى سأل كمال خديجة :

ـ وأنت يا أبلة متى يخرج الطفل . . ؟

فأجابته ضاحكة وهى تتحسس بطنها :

ـ إنه لا يزال فى سنة أولى . .

فعاد يقول لها ببراءة وهو يتفرس فى وجهها :

ـ نحفت جدا يا أبلة وصار وجهك قبيحا . . !

ضحكوا جميعا وهم يغطون أفواههم بأيديهم ، ضحكوا حتى شعر كمال بالحياء

والارتباك، أما خديجة التى لم يكن الاستياء من كمال مما تستطيعه فقد مالت إلى أن تجارى التيار فقالت ضاحكة:

ـ اعترف لكم بأنى خسرت فى أيام الوحم كل اللحم الذى تعبت أم حنفى أعواما فى جمعه ولمّه، نحفت وبرز أنفى وغارت عيناى وخيل إلى أن «الرجل» يقلب عينيه مفتشا عبثا عن العروس التى زفوها إليه؟ . .

ثم ضحكوا ثانية حين قال ياسين:

ـ الحق أن زوجك مظلوم لأنه على غباوته البادية وسيم الطلعة فسبحان من جمع الشامى على المغربى . .

تجاهلته خديجة وخاطبت فهمى قائلة وهى تومئ إلى عائشة:

ـ كلاهما ـ زوجى وزوجها ـ فى الغباء سواء! لا يكادان يبرحان البيت ليل نهار، لا هم ولا عمل، أما زوجها فوقته كله ضائع بين التدخين وعزف العود كأنه شحاذ من الشحاذين الذين يمرون على البيوت فى الأعياد، وأما زوجى فلا تراه إلا مستلقيا يدخن ويثرثر حتى يدوخ دماغى . .

فقالت عائشة كالمعتذرة:

ـ الأعيان لا يعملون!

فقالت خديجة هازئة:

ـ العفو! . . يحق لك أن تدافعى عن هذه الحياة، الحق أن الله لم يجمع بين متشابهين كما جمع بينكما، كلاكما فى الكسل والدعة والخمول شخص واحد، والنبى يا سى فهمى يمر اليوم كله وهو يدخن ويعزف وهى تزوِّق نفسها وتذهب وتجىء أمام المرآة . .

تساءل ياسين:

ـ لم لا ما دامت ترى منظرا حسنا . . ؟!

وقبل أن تفتح خديجة فاها سألها مستعجلا:

ـ خبرينى يا أختاه ماذا تصنعين لو جاء وليدك شبيها بك؟

كانت شبعت من مهاجمته فأجابته جادة:

ـ سيجىء بإذن الله شبيها بأبيه أو جده أو جدته أو خالته، أما . . (ثم ضاحكة) أما إذا أبى إلا أن يجىء شبيها بأمه فالنفى يكون أحق به من سعد باشا!

ولكن كمال قال بلهجة خبير عليم:

ـ الإنجليز لا يهمهم الجمال يا آبلا . إنهم يعجبون كثيرا برأسى وأنفى . .

فضربت خديجة صدرها بيدها هاتفة :

ـ يدَّعون صداقتك وهم يعبثون بك! . . ربنا يسلط عليهم زبلن من جديد .

ورمت عائشة فهمى بنظرة رقيقة وهى تقول :

ـ كم يسر دعاؤك بعض الناس . .

فابتسم فهمى مغمغما :

ـ كيف أسر ولهم فى بيتنا أصدقاء مغفلون؟

ـ يا خسارة تربيتك له . .

ـ من الناس من لا تنفع فيه التربية .

فتساءل كمال محتجا :

ـ ألم أرج جوليون أن يعيد سعد باشا؟

فقالت خديجة ضاحكة :

ـ فى المرة القادمة حلَّقه برأسك الذى يعجب به .

شعر فهمى أكثر من مرة بأن من حوله يسعون كلما بدت فرصة إلى استدراجه إلى الحديث والتسلية، بيد أن ذلك لم يجد شيئا فى التخفيف من الإحساس بالغربة الذى غشيه طوال الوقت، هو إحساس كثيرا ما يفصله عن آله وهو بينهم فيشعر بالغربة أو الوحدة رغم زحمة المجلس، ينفرد بقلبه وحزنه وحماسه بين أناس لاهين ضاحكين، حتى نفى سعد يتخذون منه دعابة إذا لزم الأمر . . اختلس منهم النظرات تباعا فوجدهم راضين، عائشة . . هانئة وإن تكن تعبت قليلا بسبب الحمل ولكنها سعيدة بكل شىء حتى بتعبها، خديجة . . متوثبة ضاحكة، ياسين . . صحة وعافية وغبطة، منْ من هؤلاء يكترث لحوادث هذه الأيام! من منهم يهمه بقى سعد أم نفى، جلا الإنجليز أم مكثوا! إنه غريب، أو غريب على الأقل بين هؤلاء . ومع أن هذا الإحساس كان يلقى منه عادة نفسا مسماحة فإنه لم يلق هذه المرة إلا حنقا وامتعاضا، ربما كان ذلك لما عاناه فى الأيام الأخيرة . كثيرا ما توقع أن يسمع عن زواج مريم، كان ذلك همه وكربه بيد أنه سلَّم به سلفا تسليم اليأس، وكاد يألفه بكرور الأيام، إلا أن حبه نفسه تراجع عن بؤرة شعوره الذى شغلته الشواغل الكبرى، حتى وقعت واقعة جوليون فزلزل زلزالا . تغازل إنجليزيا لا مطمع لها فى الزواج منه فأى معنى تتضمنه هذه المغازلة؟هل تصدر إلا متهتكة؟ مريم متهتكة؟ وفيم كانت أحلامه الماضية؟ ولم يكن يخلو بكمال حتى يدعوه إلى إعادة القصة من جديد محتما عليه أن يصف التفاصيل بدقة، كيف لاحظ ما يدور، وأين كان موقف الجندى، وأين كان موقفه هو، وهل هو متأكد من أن مريم نفسها التى كانت فى الكوة؟ وأنها كانت تنظر حقا إلى الجندى؟ وهل رآها تبتسم إليه، وهل وهل وهل، ثم يسأله وهو

يعض على أسنانه كأنما يهرس الشقاء الذى يعذبه : وهل تراجعت فى خوف حين وقعت عيناها عليك؟ ثم يمضى متخيلا المواقف والمناظر، موقفا موقفا، ومنظرا منظرا، ويتخيل الابتسامة طويلا حتى كأنه يرى الشفتين المفترتين كما رآهما يوم زفاف عائشة وصاحبتهما تتبع العروس فى فناء بيت آل شوكت .

ـ يبدو أن نينة لن تجالسنا اليوم .

قالته عائشة بصوت يدل على الأسف .

فقالت خديجة :

ـ الزوار يملأون البيت .

ياسين ضاحكا :

ـ أخاف أن يشتبه الجنود فى كثرة القادمين فيظنوا أن اجتماعا سياسيا ينعقد فى بيتنا .

خديجة فى مباهاة :

ـ إن أصدقاء بابا يحجبون عين الشمس . .

فقالت عائشة :

ـ رأيت السيد محمد عفت نفسه على رأس القادمين .

فأمَّنت خديجة على قولها قائلة :

ـ كان صديقا حميما لبابا من قبل أن نرى نور الدنيا .

فقال ياسين وهو يهز رأسه :

ـ اتهمنى بابا ظلما بأننى قطعت ما بينهما .

ـ ألا يفرق الطلاق بين أعز الأصدقاء؟!

ياسين باسما :

ـ إلا أصدقاء أبيك!

عائشة بفخار :

ـ من ذا تطاوعه نفسه على مخاصمة بابا؟ والله ما فى الدنيا كلها نظير له . .

ثم وهى تتنهد :

ـ كلما تصورت ما وقع له أمس شاب شعر رأسى . .

أخيرا ضاقت خديجة بوجوم فهمى فعزمت على أن تعالجه بطريقة مباشرة بعد أن أخفقت ـ فيما رأت الطرق غير المباشرة، فالتفتت إليه متسائلة :

ـ أرأيت يا أخى كيف أن ربنا أكرمك يوم لم يأذن بتحقيق رغبتك نحو . . مريم؟!

نظر فهمى إليها بين الدهشة والحياء، سرعان ما تركزت فيه الأبصار حتى كمال تطلع إليه باهتمام، وساد صمت نم عمقه عن شعور مكبوت طال فى الصدر تجاهله أو إخفاؤه حتى أفصحت عنه خديجة بجرأة فتطلعوا إلى الشاب فى صمت المنتظر للجواب كأنما هو نفسه الذى طرح السؤال، غير أن ياسين رأى أن ينهى الصمت قبل أن يستفحل فيبعث على الألم فقال متظاهرا بالسرور:

ـ أصل أخيك ولى والله يحب أولياءه.

وكان فهمى يكابد حرجا وحياء فقال باقتضاب:

ـ هذه مسألة قديمة عفاها النسيان.

فقالت عائشة بلهجة المعتذر:

ـ لم يكن سى فهمى وحده الذى خدع بها، كلنا خدعنا بها.

فقالت خديجة مدافعة عن نفسها ـ بأقصى ما فى وسعها ـ تهمة الغفلة:

ـ على أى حال أنا لم أقتنع لحظة واحدة فيما مضى، حتى مع اعتقادى ببراءتها، بأنها جديرة به.

فعاد فهمى يقول متظاهرا بالاستهانة:

ـ هذه مسألة قديمة عفاها النسيان، إنجليزى.. مصرى.. سيان، دعونا من هذا كله.

وجد ياسين نفسه تعاود التفكير فى «مسألة» مريم.. مريم؟!.. لم يكن ينظر إليها فيما مضى ـ إن مرت فى مجال بصره ـ إلا عابرا، ثم زاده زهدا فيها تعلق فهمى بها، حتى ذاعت فضيحتها فى الأسرة.. هناك ثار اهتمامه، تساءل طويلا أى فتاة هى؟ ود لو ملأ عينيه منها، تمنى لو كان سبر الفتاة التى استرعت تشوق «إنجليزى».. إنجليزى جاء الحى مقاتلا لا مغازلا، لم يبد سخطه عليها إلا مجاراة للحديث كلما تناولها أما فى الباطن فقد أطربه غاية الطرب وجود «مفضوحة» جريئة مثلها على كثب منه فلا يفصله عنها إلا جدار، شاع فى صدره العريض المكتنز ذاك الطرب البهيمى الذى يدعوه إلى الصيد وإن وقف ـ احتراما لحزن فهمى الذى يحبه ـ عند حد الشعور واللذة السلبية المجرده، لم يعد فى الحى من يستثير اهتمامه كمريم.

ـ آن أوان الذهاب.

قالت خديجة ذلك وهى تنهض على حين ترامى إليهم صوت إبراهيم وخليل وهما يتحدثان قادمين من الردهة الخارجية. قام الجميع، من يتمطى ومن يحبك ملابسه، إلا كمال فقد لزم مجلسه وهو يتطلع إلى باب الصالة بحزن وقلب خافق.

٦٧

جلس السيد أحمد إلى مكتبه، مكبًا على دفاتره، يزاول عمله اليومى الذى يتناسى به ـ ولو إلى حين ـ همومه الشخصية والهموم العامة التى تتطاير بها الأنباء الدامية. غدا يحب الدكان حبه مجالس الأنس والطرب لأنه على الحالين يظفر بما ينتزعه من جحيم الفكر، إلا أن جو الدكان حافل بالمساومة والبيع والشراء والربح وغير ذلك من شئون الحياة العادية، حياة كل يوم، فلا تخلو من أن تبعث فى نفسه شيئا من الثقة الموحية بإمكان عودة كل شىء إلى أصله، إلى حالته الأولى من الاستقرار والسلام. السلام؟!.. أين ذهب ومتى يأذن بالعودة؟!.. حتى فى هذا الدكان تجرى أحاديث الدماء همسا مفجعا، لم يعد الزبائن يقنعون بالمساومة والشراء فما تألو ألسنتهم أن تردد الأنباء وتندب الأحداث، فوق زكائب الأرز والبن سمع عن معركة بولاق ومذابح أسيوط والجنازات التى تشيع فيها النعوش بالعشرات والشاب الذى انتزع من العدو مدفعا رشاشا أراد أن يدخل به الأزهر لولا أن سبقته المنية فانغرست فى جسمه عشرات المقذوفات، هذه الأنباء وغيرها مما يصطبغ بلونها القانى تقرع أذنيه بين حين وآخر فى المكان الذى يلوذ به ناشدا النسيان. ما أتعس الحياة فى ظل الموت، هلا عجلت الثورة بتحقيق غايتها من قبل أن يمتد أذاها إليه أو إلى أحد من ذويه!.. إنه لا يبخل بمال ولا يضن بعاطفة أما بذل الحياة فأمر آخر، أى عذاب صبَّه الله على العباد فهانت النفوس وجرت الدماء!.. لم تعد الثورة «فرجة» حماسية، إنها تهدد أمنه فى الذهاب والإياب، وتتوعد ابنه «العاصى». فتر حماسه لها، هى دون غايتها، يحلم بالاستقلال وبعودة سعد ولكن دون ثورة أو دماء، أو ذعر، يهتف مع الهاتفين ويتحمس مع المتحمسين ولكن عقله يقاوم التيار متعلقا بالحياة فمكث وحده فى المجرى كأصل شجرة اقتلعت العواصف أغصانها، لن يوهن شىء وإن جلّ من حبه للحياة، فلتبق له إلى آخر العمر، وليؤمن فهمى إيمانه لتبقى له حياته إلى آخر العمر كذلك، فهمى العاق الذى رمى بنفسه إلى التيار بلا حزام نجاة.

ـ هل السيد أحمد موجود؟

سمع السيد صوت السائل وهو يشعر باندفاع شخص داخل الدكان كأنه مقذوف آدمى فرفع رأسه عن مكتبه فرأى الشيخ متولى عبد الصمد يتوسط المكان رامشا بعينيه الملتهبتين مدققًا النظر ـ عبثا ـ صوب المكتب فهش قلبه وابتسمت أساريره ثم هتف بالقادم:

ـ تفضل يا شيخ متولى، حلت البركة .

فلاح الاطمئنان فى وجه الشيخ وتقدم يهتز أعلاه ما بين الوراء والأمام كأنه راكب جملا، فمال السيد فوق مكتبه ومد يده حتى التقت بيد الرجل وشد عليها متمتما «الكرسى على يمينك، تفضل بالجلوس» فأسند الشيخ متولى عصاه إلى المكتب وجلس على الكرسى ثم اعتمد بيديه على ركبتيه وهو يقول :

ـ الله يحفظك ويصونك .

فقال السيد من قلبه :

ـ ما أطيب دعاءك وما أحوجنى إليه!

ثم ملتفتا صوب جميل الحمزاوى الذى كان يزن أرزا لزبون :

ـ لا تنس أن تهيىء لفة سيدنا الشيخ .

فجاء صوت جميل الحمزاوى قائلا :

ـ من ذا الذى ينسى سيدنا الشيخ!

فبسط الشيخ راحتيه ورفع رأسه وهو يحرك شفتيه بالدعاء فى هينمة لم يسمع منها إلا وسوسة متقطعة، ثم عاد إلى وضعه الأول فصمت لحظة ثم قال بلهجة الافتتاح :

ـ أبدأ بالصلاة على نور الهدى .

فقال السيد بحرارة :

ـ عليه أزكى الصلاة والسلام .

ـ وأثنِّى بالترحم على أبيك طيب الذكر .

ـ رحمه الله رحمة واسعة .

ـ ثم أسأل الله أن يقر عينيك بأسرتك وذريتك وذرية ذريتك وذرية ذرية ذريتك .

ـ آمـــين .

متنهـــدا :

ـ وأدعوه أن يعيد إلينا أفندينا عباس ومحمد فريد وسعد زغلول .

ـ اللهم استجب .

ـ وأن يخرب بيت الإنجليز بما أثموا وبما يأثمون .

ـ سبحان المنتقم الجبار .

عند ذاك تنحنح الشيخ ومسح على وجهه بكفه ثم قال :

ـ أما بعد فقد رأيتك فى منامى تلوح بيديك فما فتحت عينى حتى صح عزمى على زيارتك .

فابتسم السيد ابتسامة لا تخلو من حزن وقال :

ـ لا أعجب لذلك فإنى فى مسيس الحاجة إلى بركتك ، زادك الله بركة على بركة .

فمال وجه الشيخ نحو السيد فى عطف وتساءل :

ـ أحق ما بلغنى عن حادث بوابة الفتوح؟

فأجاب السيد مبتسما :

ـ نعم . . من أبلغك يا ترى؟

ـ كنت ماراً بمعصرة حميدو غنيم فاستوقفنى وقال لى «ألم يبلغك ما فعل الإنجليز بحبيبك السيد أحمد وبى؟» . فاستوضحته منزعجا فقصَّ علىَّ العجب العجاب .

قصَّ عليه السيد الحادث بتفاصيله ، لم يكن يمل ترديده ، ولعلّه قصَّه فى الأيام القلائل الأخيرة عشرات المرات .

وأصغى الشيخ وهو يتلو همسا آية الكرسى : أفزعت يا بنى؟ كيف كان فزعك . . خبرنى . . لا حول ولا قوة إلا بالله . . ولكن هل قنعت بالسلامة؟ . . أنسيت أن الفزع لا يمضى إلى حال سبيله؟ . . صليت طويلا وسألت الله النجاة! هذا جميل ولكن يلزمك حجاب .

ـ كيف لا! . . يزيدنا بركة يا شيخ متولى . . والأولاد وأمهم ، ألم يدركهم الفزع؟

ـ طبعا . . قلوب ضعيفة لا عهد لها بالقسوة والإرهاب ، الحجاب . . الحجاب . . وفيه الشفاء .

ـ أنت الخير والبركة يا شيخ متولى . . لقد نجانى الله من شر كبير ، ولكن ثمة شر لا يزال يتهددنى ويقض مضجعى .

مال وجه الشيخ نحو السيد فى عطف مرة أخرى وتساءل :

ـ ماذا بك يا بنى عفا الله عنك؟

فرنا السيد إليه بطرف واجم وغمغم فى ضجر :

ـ ابنى فهمى . .

فرفع الشيخ حاجبيه الأشيبين متسائلا أو منزعجا ثم قال برجاء :

ـ محفوظ بإذن الرحمن . .

فهز السيد رأسه بأسى وقال :

ـ عقَّنى لأول مرة والأمر لله . .

فبسط الشيخ متولى ذراعيه أمامه كأنما يتقى بهما البلاء وهتف :

ـ معاذ الله ، فهمى ابنى ، وأنا أعلم علم اليقين أنه طبع على البر .

فقال السيد أحمد متسخطا :

ـ يأبى حضرته إلا أن يفعل كما يفعل الشبان فى هذه الأيام الدامية .

فقال الشيخ فى دهش واستنكار :

ـ أنت أب حازم ما فى ذلك شك ، ما كنت أتصور أن ابنا من أبنائك يجرؤ على أن يرد لك أمرا .

حز هذا القول فى قلبه حتى أدماه وضاق به صدره ، ثم وجد من نفسه نزوعا إلى التهوين من عصيان ابنه ليدفع عن شخصه تهمة الضعف أمام الشيخ وأمام نفسه معا فقال :

ـ لم يجرؤ على هذا صراحة طبعا ولكنى دعوته إلى أن يحلف على المصحف بألا يشترك فى أى عمل من أعمال الثورة فبكى ، بكى من دون أن يجسر على قول لا ، ما عسى أن أصنع ؟ . . لا أستطيع أن أحبسه فى البيت ولا يسعنى أن أراقبه فى المدرسة ، وأخاف أن يكون تيار هذه الأيام أقوى من أن يقاومه شاب مثله ، ماذا أصنع ؟ . . أأهدده بالضرب ؟ . . أضربه ؟ . . لكن ما عسى أن يجدى التهديد مع شخص لا يبالى تعريض نفسه للموت !

فمسح الشيخ على وجهه وتساءل بقلق :

ـ وهل ألقى بنفسه فى المظاهرات ؟

فقال السيد وهو يهز منكبيه العريضين :

ـ كلا ولكنه يوزع المنشورات ، لما ضيقت عليه زعم أنه يكتفى بالتوزيع على خاصة أصدقائه .

ـ ما له ولهذه الأعمال ! . . إنه الوديع ابن الوديع ولهذه الأعمال رجال من صنف آخر ، ألم يعرف أن الإنجليز وحوش لا تتطرق الرحمة إلى قلوبهم الغليظة ؟ . . وإنهم يتغذون صباح مساء بدماء المصريين المساكين ؟ . . كلمه بالحسنى ، عظه ، بيِّن له النور من الظلام ، قل له إنك أبوه وإنك تحبه وتخاف عليه ، أما أنا فسأعمل من ناحيتى على إعداد حجاب من نوع خاص وأدعو له فى صلاتى وخاصة صلاة الفجر ، والله المستعان من قبل ومن بعد .

قال السيد بحزن :

ـ إن أنباء القتلى تتواتر كل ساعة معلنة آى التحذير لمن يعتبر فما الذى أصاب عقله ؟ . . لقد ضاع ابن الفولى اللبان فى غمضة عين فشهد مأتمه معى وعزَّى والده المسكين ، كان الشاب يوزع سلاطين اللبن الزبادى فصادف فى طريقه مظاهرة فأغراه القضاء بالاشتراك فيها بلا وعى ، وما هى إلا ساعة أو نحوها حتى خر صريعا فى

ساحة الأزهر، لا حول ولا قوة إلا بالله . . إنا لله وإنا إليه راجعون، لما تأخر عن ميعاد عودته قلق أبوه فمضى إلى زبائنه يسأل عنه، قال له بعضهم إنه جاءهم بالزبادى وذهب وقال آخرون إنه لم يمر عليهم كعادته، حتى بلغ حمروشا بائع الكنافة فوجد عنده الصينية وما تبقَّى من السلاطين التى لم توزع وأخبره الرجل بأنه تركها عنده واشترك فى مظاهرة المساء، فجن جنون المسكين وقصد من توِّه قسم الجمالية فوجَّهوه إلى قصر العينى وهناك عثر على ابنه فى المشرحة، لقد علم بالقصة بحذافيرها كما قصَّها علينا الفولى ونحن فى بيته نعزيه، علم كيف فقد الشاب وكأن لم يوجد ولمس حزن أبيه المبِّرح وسمع صوات أهله، هلك المسكين فلم يعد سعد ولم يخرج الإنجليز، لو كان حجرا لعقل ولكنه خير أبنائى فلله الحمد والشكر.

فقال الشيخ متولى بصوت أسيف:

ـ أعرف ذلك الشاب المسكين، إنه أكبر أبناء الفولى أليس كذلك؟ . . كان جده مكاريًا وكنت أكترى حماره للذهاب إلى سيدى أبى السعود، إن للفولى أربعة أولاد ولكن الفقيد كان أحبهم إلى قلبه.

هنا اشترك جميل الحمزاوى لأول مرة فى الحديث قائلا:

ـ أيامنا هذه مجنونة وقد تلفت عقول الناس حتى صغارها، بالأمس قال ابنى فؤاد لأمه إنه ود لو يشترك فى مظاهرة!

فقال السيد بقلق:

ـ يعملها الصغار ويقع فيها الكبار! . . ابنك فؤاد صديق ابنى كمال وكلاهما فى مدرسة واحدة، ألا تحدثه نفسه . . ألا تحدثهما نفسهما مرة بأن يسيرا فى مظاهرة! . . هه! . . ما من عجيبة تعد الآن عجيبة!

فقال الحمزاوى وقد ندم على ما فرط منه:

ـ ليس إلى هذا الحد يا سى السيد، على أنى أدَّبته بلا رحمة على تمنياته الساذجة، إن سى كمال لا يخرج إلا مصحوبا بأم حنفى حفظه الله ورعاه.

ساد الصمت فلم يعد يسمع فى الدكان إلا خشخشة الورقة التى يلف فيها الحمزاوى هدية الشيخ متولى عبد الصمد، ثم تنهد الشيخ وقال:

ـ فهمى ولد عاقل، لا ينبغى أن يمكن الإنجليز من نفسه العزيزة، الإنجليز! . . حسبى الله . . ألم تسمع بما فعلوا فى العزيزية والبدرشين؟

كان السيد على حال من القلق لم يجد معها رغبة صادقة فى التساؤل، إلا أنه لم يتوقع جديدا فوق ما يقرع سمعه هذه الأيام، فاكتفى بأن يرفع حاجبيه متظاهرا بالاهتمام فأنشأ الشيخ يقول:

ـ كنت أول أمس فى زيارة الحسيب النسيب شداد بك عبد الحميد بسرايه العامرة بالعباسية، دعانى إلى الغداء والعشاء فأتحفته بأحجبة له ولآل بيته، وهناك حدثنى بحديث العزيزية والبدرشين.

سكت الشيخ قليلا فتساءل السيد أحمد:

ـ تاجر الأقطان المعروف؟

ـ شداد بك عبد الحميد أكبر تاجر قطن، لعلك عرفت ابنه عبد الحميد بك شداد فقد كان يوما على صلة وثيقة بالسيد محمد عفت؟

فقال السيد ببطء ليملى لنفسه فى التذكير:

ـ أذكر أنى رأيته مرة فى مجلس السيد محمد عفت قبل نشوب الحرب، ثم سمعت عن إبعاده عن القطر عقب عزل أفندينا، أما من جديد عنه؟

فقال الشيخ متولى بلهجة سريعة عابرة كأنما يضع كلامه بين قوسين، ليعود إلى حديثه الأول:

ـ لا يزال مبعدا عن البلاد، وهو يقيم فى بلاد فرنسا ومعه زوجه وأولاده، لشد ما يخاف شداد بك أن يموت قبل أن يرى ابنه فى هذه الدنيا.

وسكت مرة أخرى، ثم مضى يهز رأسه يمنة ويسرة ويقول بصوت منغوم كأنما ينشد مطلع توشيح نبوى:

ـ بعد انتصاف الليل بساعتين أو ثلاث والناس نيام حاصر البلدتين بضع مئات من الجنود البريطانيين مدججين بالسلاح.

انتبه السيد انتباهة قاسية.. حاصروا البلدتين والناس نيام؟.. أليس أولئك المحاصرون من جنس هؤلاء الذين يعسكرون أمام البيت؟.. بدءوا بالاعتداء علىَّ فأى خطوة تالية يضمرون؟!

ضرب الشيخ على ركبتيه كأنما إنشاده ينوع من الإيقاع ثم استطرد قائلا:

ـ واقتحموا على العمدتين داريهما فأمروهما بتسليم السلاح ثم مرقوا إلى الحريم فنهبوا الحلى وأهانوا النساء وجروهن من شعورهن إلى الخارج وهن يولولن ويستغثن وما من مغيث، عطفك اللهم على المستضعفين من عبادك.

دار العمدتين!.. العمدة شخصية حكومية أليس كذلك؟.. لست عمدة ولا دارى بدار عمدية، ما أنا إلا رجل كسائر الناس، ما عسى أن يصنعوا بأمثالنا.. تصور أمينة مجرورة من شعرها، أيقضى علىَّ بأن أتمنى الجنون!.. الجنون؟

واصل الشيخ حديثه وهو يهز رأسه قائلا:

ـ وأجبروا العمدتين على أن يدلُّوهما على بيوت مشايخ البلدتين وأعيانهما ثم اقتحموا

البيوت محطمين الأبواب، نهبوا كل ثمين، اعتدوا على النساء اعتداء إجراميا بعد أن قتلوا اللاتى حاولن الدفاع عن أنفسهن، وضربوا الرجال ضربا مبرحا، ثم غادروهما بعد أن لم يبقوا فيهما على ثمين لم يسلب أو عرض لم يثلم.

ليذهب كل ثمين إلى الجحيم.. «أو عرض لم يثلم».. أين رحمة الله؟.. أين انتقامه؟.. الطوفان.. نوح.. مصطفى كامل. تصور..! كيف يمكن أن تبقى معه بعد ذلك تحت سقف واحد!.. أى ذنب جنت!.. وهو بأى وجه؟!

ضرب الشيخ بيده ثلاثا على ركبتيه ثم عاد إلى الحديث وقد تهدج صوته فصار بالنواح أشبه، قال:

ـ وأضرموا النار فى البلدتين مستعينين بما على أسقف الدور من حطب وقش وبما صبُّوا عليها من بترول، استيقظت القرى فى فزع رهيب وفر أهلوها عن بيوتهم كالمجانين، وعلا الصراخ والأنين، وامتدت ألسنة اللهب فى كل مكان حتى استحالت البلدتان شعلة من النيران.

هتف السيد بلا وعى:

ـ يا رب السماوات والأرض!

فمضى الشيخ قائلا:

ـ وضرب الجنود نطاقا حول البلدتين المشتعلتين من بعيد يتربصون بالأهالى البؤساء الذين انطلقوا هائمين على وجوههم تتبعهم الأغنام والكلام والقطط يرومون سبيلا للنجاة من النار فما أن بلغوا مواقف الجنود حتى انهال هؤلاء على الذكور ضربا وركلا، ثم حجزوا النساء ليسلبوا حليهن ويهتكوا أعراضهن، فإذا قاومت إحداهن قتلت، وإذا ندت عن زوج أو أب أو أخ حركة دفاع رمى بالرصاص.

ثم التفت الشيخ متولى إلى السيد الذاهل وضرب كفًا على كف وهو يهتف:

ـ وساقوا بقية الضحايا إلى معسكر قريب وهنالك أجبروهم على التوقيع على مكتوب يتضمن اعترافهم بجرائم لم يرتكبوها وإقرارا بأن ما أنزله الإنجليز بهم جزاء حق على ما فعلوا، هذا ما حصل يا سيد أحمد للعزيزية والبدرشين، هذا مثل من أمثلة التنكيل التى نسامها بلا رحمة ولا شفقة، اللهم فاشهد.

وساد صمت كئيب أليم خلا فيه كل إلى أفكاره وتخيلاته حتى قطعه جميل الحمزاوى وهو يهتف متأوها:

ـ ربنا موجود.

فهتف السيد مؤمِّنا على قوله:

ـ نعم! (ومشيرا إلى الجهات الأربع) فى كل مكان.

وخاطب الشيخ متولى السيد قائلا:

ـ قل لفهمى إن الشيخ متولى ينصحه بالابتعاد عن موارد التهلكة، قل له سلِّم إلى الله ربك فهو القادر وحده على إهلاك الإنجليز كما أهلك من قبلهم ممن شقوا عصا طاعته.

ثم مال الشيخ نحو عصاه ليتناولها فأشار السيد إلى جميل الحمزاوى فجاءه بالهدية ووضعها فى يده ثم ساعده على النهوض. صافح الشيخ الرجلين ومضى وهو يقول:

ـ ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾.. صدق الله العظيم.

٦٨

عند الغلس، ونور الصباح يولد رويدا من ظلمة الفجر، طرقت خادم من السكرية بيت السيد فأخبرت أمينة بأن عائشة قد جاءها المخاض. كانت أمينة فى حجرة الفرن فعهدت بالعمل إلى أم حنفى وهرعت إلى باب السلم. بدا على أم حنفى الاستياء ربما لأول مرة فى تاريخ خدمتها الطويل بهذا البيت، أما كان يحق لها أن تشهد ولادة عائشة؟.. لها كل الحق.. كأمينة سواء بسواء، فتحت عائشة عينيها فى حجرها، كل ابن فى هذا البيت له أمَّان: أمينة وأم حنفى، كيف يحال بينها وبين ابنتها فى هذه الساعة الرهيبة!.. هل تذكرين ولادتك؟.. وربع الطمبكشية، كان المعلم فى الخارج كعادته وكانت وحيدة بعد منتصف الليل، وجدت فى أم حسنية صديقة وقابلة معا!.. ترى أين أم حسنية الآن؟.. ألا زالت على قيد الحياة؟.. ثم جاء حنفى بعد تأوهات الألم، ذهب بين تأوهات الألم أيضا، وهو فى المهد، لو عاش لكان ابن عشرين الآن؟.. سيدتى الصغيرة تتألم وأنا هنا أهيىء الطعام. أمتلأ قلب أمينة بفرح موصول بإشفاق، هو الإحساس الذى خفق به قلبها أول مرة يوم استقبلت التجربة بنفسها. ها هى عائشة تتأهب لاستقبال أول مولود تستهل به أمومتها، كما استهلت هى أمومتها بخديجة، هكذا تمتد الحياة التى انبثقت منها إلى غير نهاية، ومضت إلى الأب فزفت إليه البشرى بنبرات رقيقة مهذبة، مبالغة هذه المرة فى حيائها وتهذيبها أن يستشف وراء صوتها رغبتها الحارة فى الانطلاق إلى ابنتها غير أن السيد تلقى الخبر فى هدوء ثم أمرها بالذهاب دون إبطاء!.. راحت ترتدى ملابسها على عجل وقد شعرت بأن المزايا التى تكسبها امرأة ضعيفة مثلها بإنجاب الأطفال خليقة بصنع المعجزات أحيانا، وعلم الأخوة بالخبر عند

استيقاظهم عقب ذهاب الأم بقليل علت وجوههم إبتسامة وتبادلوا نظرة متسائلة عائشة أم!. . أليس ذلك غريبًا؟. ما وجه الغرابة فيه. كانت نينة أصغر منها يوم ولدت خديجة. هل ذهبت نينة لتخرج الطفل بيديها؟. . ابتسامتان. هذا نذير لى، عما قليل تلد بنت الكلب أيضا. . من تعنى؟!. . زينب. آه لو سمعك بابا. عائشة أم، وأنا أب، وأنا خال وعم، ستكون أنت أيضا خال وعم يا سى كمال، يجب أن أتخلف اليوم عن المدرسة لأذهب إلى آبلا عائشة. جميل جدا، استأذن بابا إن استطعت على المائدة!. . أوووه. نحن فى حاجة إلى مزيد من المواليد لنسد العجز الذى أوقعه الإنجليز بنا. . لو تخلفت عن المدرسة ما حدث شىء غير عادى، ثلاثة أرباع التلاميذ مضربون أكثر من شهر، قل هذا لبابا وسيقتنع حتما بحجتك فيضربك بطبق الفول فى وجهك. أوووه. مولود جديد، بعد ساعة أو ساعتين يصير بابا جدا ونينة جدة ونحن أخوالا. شىء خطير، كم مولود يا ترى يرى نور الدنيا فى هذه اللحظة؟. . وكم إنسانا يغيب عنه هذا النور فى هذه اللحظة؟. . يجب أن نبلغ جدتى. أستطيع أن أذهب إلى الخرنفش لإبلاغها إذا تخلفت عن المدرسة!. . قلنا لك لا شأن لنا بمدرستك، قل لبابا وسيرحب بفكرتك. أوووه. لعل عائشة تتألم الآن. مسكينة المحبوبة، إن الطلق لا يلين للشعر الذهبى والأعين الزرق ربنا يقومها بالسلامة، عند ذاك نشرب المغات ونشعل الشموع، ذكر أم أنثى؟. . أيهما تفضل؟. . الذكر طبعا، ربما بدأت بأنثى كأمها. لم لا تبدأ بذكر كأبيها؟. . ها ها، عندما يحين ميعاد انصراف المدرسة يكون الطفل قد خرج فلن أتمكن من مشاهدة خروجه. أتريد أن تراه وهو يخرج؟. . طبعا. أجِّل هذه الرغبة حتى يكون المولود ابنك أنت!. . كان كمال أشد الجميع تأثرا بالخبر، شغل به عقلا وقلبا وخيالا، لولا شعوره برقابة ضابط المدرسة عليه وأنه يحصى حركاته وسكناته ليبلغها أول فأول إلى أبيه لما كان فى وسعه أن يقاوم الإغراء الذى يناديه للذهاب إلى السكرية. ومكث فى المدرسة جسداً بلا روح، هامت روحه فى السكرية تتساءل عن القادم الجديد الذى ترقب مقدمه أشهراً وهو يمنى النفس بالاطلاع على سره المكنون. شهد مرة ولادة قطة وهو دون السادسة إذ استرعت انتباهه بموائها الحاد فهرع إليها تحت عرش اللبلاب فوق السطح فوجدها تتلوى ألما وقد جحظت عيناها، ثم رأى جسمها يتصدع عن فلذة ملتهبة فتراجع متقززا وهو يصرخ بأعلى صوته. طافت هذه الذكرى بمخيلته وألحت عليه حتى عاوده تقززه القديم وانتشرت حوله مضجرة مقلقة بالضباب. غير أنه لم يستسلم للخوف، أبى أن يتصور أن ثمة علاقة بين القطة وعائشة إلا ما يكون بين الحيوان والإنسان وهو ـ فى إيمانه ـ أبعد مما بين الأرض والسماء، ولكن ماذا يحدث فى السكرية إذن؟. . ماذا طرأ على عائشة من غرائب الأمور؟. . ثمة أسئلة حيارى لا تنعم بجواب. . ما كاد يغادر المدرسة عصرا حتى اندفع يقطع الطريق عدوا إلى السكرية.

دخل فناء بيت آل شوكت وهو يلهث، ومضى إلى باب الحريم فلاحت منه التفاتة إلى المنظرة فما يدرى إلا وعيناه تلتقيان بعينى والده الذى جلس شابكا راحتيه على مقبض عصاه القائمة بين رجليه. تسمر فى مكانه جامدا محملقا كأنما نوِّم تنويما مغناطيسيا، لم يطرف ولم يبد حراكا، ركبه شعور بالذنب لا يدريه فلبث يترقب انقضاض العقاب عليه وبرودة الخوف تسرى فى أطرافه حتى اشتبك السيد أحمد فى حديث مع شخص يجلس إلى جانبه فالتفت نحوه فاسترد كمال عينيه وهو يزدرد ريقه، عند ذلك لمح فى داخل المنظرة إبراهيم شوكت وياسين وفهمى قبل أن يفر إلى الداخل، رقى فى السلم وثبا حتى انتهى إلى دور عائشة فدفع بابا مواربا ودخل فالتقى بخليل شوكت زوج أخته واقفا فى الصالة، ورأى باب حجرة النوم مغلقا وقد ترامى من ورائه إلى سمعه أصوات تتحادث ميز منها أمه وحرم المرحوم شوكت وصوتا ثالثا لا يعرفه، سلم على زوج أخته ثم سأله وهو يتطلع إليه بطرف باسم:

ابلا عائشة ولدت؟

فرفع الرجل سبابته إلى شفتيه محذرا وهو يقول:

ـ هــس..؟

أدرك كمال أنه لم يرحب بالسؤال، بل أنه لم يرحب بمقدمه كسالف عادته فخجل وعانى قلقا لم يدر له سببا، وأراد أن يتقدم من الباب المغلق ولكن صوت خليل أوقفه وهو يهتف باقتضاب ينم عن الضجر:

ـ لا..

فتحول نحوه متسائلا ولكن الرجل قال له فى عجلة ولهوجة:

ـ انزل يا شاطر والعب تحت..

انكسرت نفس الغلام فتقهقر متثاقلا بائخا وقد عز عليه أن يجزى على عذاب انتظاره طوال اليوم هذا الجزاء البخس، ولما بلغ عتبة الصالة صك أذنيه صوت غريب آت من الحجرة المغلقة، بدأ رفيعا حادا عاليا، ثم غلظ وترهل حتى بح، وانتهى بحشرجة طويلة قاسية، ثم غاب لحظة مقدارها تردد النفس المقطوع، ثم بعث آهة عميقة شاكية، بدا له غريبا أول الأمر كأنه لم يعرف صاحبه، ولكن نبرة من نبراته المعذبة تميزت وسط الحدة والغلظة والحشرجة فوشت بهوية مصدره، صوت عائشة بلا ريب، أو هو عائشة مذابة منصهرة، ثم تأكد من ظنه عند تردد الآهة العميقة الشاكية، فارتعشت جوارحه، وخيل إليه أنه يراها تتلوى على حال من الألم دعت إلى مخيلته بصورة القطة القديمة، وعطف رأسه صوب خليل فألفاه يقبض راحته ويبسطها وهو يتمتم «يا لطيف يارب» فخيل إليه مرة أخرى أن جسم عائشة ينقبض وينبسط مثل راحة الرجل، لم يعد يملك من نفسه شيئا

فركض إلى الخارج مفحما فى البكاء، وعندما انتهى إلى باب الحريم استرعى سمعه وقع أقدام هابطة وراءه فرفع رأسه فرأى الجارية سويدان نازلة على عجل فمرت به دون أن تنتبه إليه حتى وقفت على عتبة باب الحريم ثم نادت سيدها إبراهيم فجاء الرجل مسرعا فقالت له «الحمد لله يا سيدى»، لم تزد على ذلك شيئا ولم تنتظر حتى تسمع ما يقول ولكنها دارت على عقبيها وهرعت إلى السلم فرقيت فيه دون تردد، رجع إبراهيم إلى المنظرة متهلل الوجه فلبث كمال وحده لا يدرى ما يفعل ولكن لم تمض دقيقة حتى عاد إبراهيم يتبعه السيد أحمد فياسين ثم فهمى فتنحى الغلام جانبا حتى مروا ثم صعد فى أعقابهم خافق القلب، وقابل خليل الآتين أمام مدخل الشقة فسمع أباه وهو يقول له:

ـ الحمد لله على السلامة..

فغمغم خليل فى وجوم:

ـ الحمد لله على كافة الأحوال!..

فسأله السيد باهتمام:

ـ مالك..؟

فقال بصوت منخفض:

ـ إنى ذاهب لاستدعاء الطبيب..

فتساءل السيد قلقا:

ـ المولود..؟

فأجابه وهو يهز رأسه سلبا:

ـ عائشة!.. ليست على ما يرام، سأجىء بالطبيب حالا..

وذهب مخلفا وراءه وجوما وقلقا واضحين، ثم دعاهم إبراهيم شوكت إلى حجرة الاستقبال فمضوا إليها صامتين. وجاءت حرم المرحوم شوكت بعد قليل فسلمت وهى تبتسم لتدخل الطمأنينة إلى قلوبهم ثم جلست وهى تقول:

ـ قاست المسكينة طويلا حتى أنهكت قواها، ولكنها حال عارضة وستزول وشيكا، إنى واثقة مما أقول ولكن ابنى بدا اليوم خوافا على غير عادته، على أنه لا ضرر ألبتة من مجىء الطبيب (ثم مناجية نفسها بصوت خفيض) الطبيب ربنا وربنا هو الطبيب..

لم يعد السيد يطيق ما يلتزم به عادة من وقار وبرود أمام أبنائه فسألها فى قلق غير خاف:

ـ ماذا بها؟. ألا أستطيع أن أراها؟..

فابتسمت المرأة وقالت:

ـ ستراها عما قريب وهى بخير وعافية، الحق على ابنى المجنون هو الذى أزعجكم بغير موجب..

كان وراء الصدر العريض القوى والوقار الحازم المهيب قلب يتعذب أشد العذاب، كان وراء العينين الواجمتين. الرزينتين دمع متجمد.. ماذا دهم الصغيرة؟ الطبيب؟! لماذا تحول العجوز بينى وبينها؟! ابتسامة رقيقة أو كلمة حنونة منى أنا، منى أنا خاصة، حقيقة بأن تخفف من آلامها، زواج وزوج وألم، لم تذق فى بيتى مرارة الألم قط، العزيزة الجميلة الصغيرة رحمتك اللهم، فسد طعم الحياة، إنه ليفسد لأهون أذى يتهددهم، فهمى.. أراه واجما متألما.. هل أدرك معنى الألم؟.. من أين له أن يعرف قلب الأم!، العجوز مطمئنة وواثقة مما تقول، ابنها أزعجنا بغير موجب، اللهم استجب، أنت أعلم بحالى بأن تنجيها كما نجيتنى من الإنجليز، قلبى لا يطيق هذا العذاب، عند الله الرحمةوهو قادر على حفظ أبنائى من كل سوء، لا طعم للحياة بغير ذلك، لا طعم للسرور والطرب واللهو إذا انغرست فى جنبى شوكة حادة، قلبى يدعو لهم بالسلامة، لأنه قلب أب، ولأنه لا تطيب المسرات إلا لخلّى، هل ألقى سمار الليل بقلب سعيد؟.. أحب إذا ضحكت أن تنطلق الضحكة من أعماق قلبى صافية، القلب القلق كالوتر المختل، حسبى فهمى، إنه يلح علىّ كوجع الأسنان، ما أبغض الألم، دنيا بلا ألم، لا شىء على الله بكثير، دنيا بلا ألم ولو تكون قصيرة، دنيا تقر فيها عينى بهم جميعا، هنالك أضحك وأغنى وألهو، يا أرحم الراحمين، عائشة يا أرحم الراحمين!

بعد غيبة ثلث ساعة عاد خليل مصحوبا بالطبيب فدخلا الحجرة من فورهما ثم أغلق الباب وراءهما، وعلم السيد بمقدمهما فقام واتجه إلى باب حجرة الاستقبال ووقف على العتبة قليلا وهو يمد البصر إلى الباب المغلق ثم عاد إلى مجلسه فجلس. قالت حرم المرحوم شوكت:

ـ لتعلمن صدق رأيى حالما يتكلم الطبيب..

فغمغم السيد وهو يرفع رأسه إلى أعلى:

ـ عنده العفو..

عما قليل يعرف الحقيقة فيمرق من ضباب الشك مهما تكن العواقب. إن قلبه يخفق خفقانا سريعا متواصلا، فليصبر، لم يبق إلا القليل. إن إيمانه بالله قوى عميق لا يتزعزع فليسلم إليه أمره، سيخرج الطبيب طال مكثه أم قصر وعند ذاك يسأله عما وراءه، الطبيب؟.. لم يفكر فى ذلك من قبل، طبيب عند نفساء؟!.. مع الرحم وجها لوجه، أليس كذلك؟ ولكنه طبيب!.. ما الحيلة؟! المهم أن ربنا يأخذ بيدها فلنسأله السلامة،

وجد السيد إلى قلقه حياء وامتعاضا . واستمر الفحص زهاء ثلث ساعة ثم فتح الباب فنهض السيد ومضى من توه إلى الصالة ، وتبعه الأبناء حتى تجمعوا حول الطبيب . كان الطبيب من معارف السيد فصافحه باسما ثم قال :

ـ بخير وعافية . .

ثم فى شىء من الجد :

ـ جاءوا بى للوالدة ولكنى وجدت أن التى فى حاجة إلى العناية حقا هى المولودة . .

تنفس السيد بارتياح لأول مرة منذ حوالى الساعة فتساءل ووجهه يشرق بابتسامة لطيفة :

ـ أأطمئن إذن على عهدتك؟

فقال الطبيب وهو يتظاهر بالدهش :

ـ نعم ، ولكن ألا تهمك حفيدتك؟!

فقال السيد باسما :

ـ لا عهد لى بعد بواجبات الجد . .

وتساءل خليل :

ـ أليس ثمة أمل فى حياتها؟

فقال الرجل وهو يزوى ما بين حاجبيه :

ـ الأعمار بيد الله ، ولكنى وجدت قلبها ضعيفا ، من المحتمل أن تموت الليلة ، وإذا مرت الليلة بسلام جازت الخطر الماثل ولكنى لا أظن أنها تعمر طويلا ، فى تقديرى أنه لا يمكن أن يمتد بها العمر إلى ما بعد العشرين ، ولكن من يعلم؟ . . الأعمار بيد الله وحده . .

ولما ذهب الطبيب إلى طيته التفت خليل نحو أمه وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة تنم عن أسف وقال :

ـ كان فى نيتى أن أسميها نعيمة باسمك . .

فقالت المرأة وهى تلوح بيدها مؤنبة :

ـ الطبيب نفسه قال : إن الأعمار بيد الله أفتكون أنت أضعف إيمانا منه ، سمَّها نعيمة ، يجب أن تسميها نعيمة إكراما لى ، وسيكون عمرها بإذن الله مديدا كعمر جدتها!

كان السيد يحادث نفسه : دعا الأحمق الطبيب ليطلع على زوجه بغير موجب ، بغير موجب! . . يا له من أحمق . ولم يستطع أن يكتم غيظه فقال وهو يداريه بلهجة رقيقة :

ـ حقا الخوف يفقد الرجال حسن الروية ، أما كان يجمل بك أن تفكر قليلا قبل أن تبادر إلى إحضار رجل غريب ليرى زوجك بملء عينيه؟!

لم يجب خليل، ولكنه نظر فيمن حوله وقال بجد :

ـ لا يجوز أن تعلم عائشة بما قال الطبيب . .

٦٩

ـ ماذا فى الطريق؟ . .

تساءل السيد أحمد وهو ينهض فى عجلة من وراء مكتبه، فذهب صوب باب الدكان يتبعه جميل الحمزاوى وبعض الزبائن . لم يكن طريق النحاسين طريقا هادئا . كان أبعد ما يكون عن الهدوء، صوته الجهير لا يخفت من الفجر إلى ما قبيل الفجر، حناجر عالية هتافة بنداءات الباعة ومساومات الشارين ودعوات المجذوبين ودعابات السابلة، يتحادثون وكأنهم يخطبون، حتى أخص الشئون تترامى إلى جوانبه وتطير حتى مآذنه، إلى ضوضاء شاملة تصدر عن صليل سوارس حينا وطقطقة الكارو حينا آخر، لم يكن طريقا هادئا بحال ولكن تعالت ضجة فجائية وفدت من بعيد فى بادئ الأمر كهدير الأمواج ثم غلظت واشتدت حتى صارت بعزيف الريح أشبه وقد لفَّت الحى كله قريبة وبعيدة، بدت غريبة شاذة حتى فى هذا الطريق الصاخب، ظنها السيد أحمد مظاهرة ثائرة كما ينبغى لرجل عاش فى تلك الأيام، ولكن جلجلت فى طياتها زغاريد مبشرة بالأفراح، فمضى الرجل متسائلا إلى الباب ولم يكد يبلغه حتى اصطدم بشيخ الحارة الذى أقبل مندفعا وهو يهتف بوجه طفر منه البشر :

ـ أبلغك الخبر؟

فقال السيد وعيناه تلمعان تفاؤلا من قبل أن يسمع شيئا :

ـ كلا . . ماذا وراءك؟

قال الرجل بحماس :

ـ سعد باشا أفرج عنه . .

فما تمالك السيد أن تساءل صائحا :

ـ حقــا؟!

فقال شيخ الحارة بيقين :

ـ أذاع اللنبى الساعة بيانا بهذه البشرى . .

فى اللحظة التالية كانا يتعانقان، واشتد التأثر بالسيد أحمد فاغرورقت عيناه ثم قال وهو يضحك مداراة لتأثره :

ـ كان العهد به دائما أن يذيع الإنذارات لا البشريات فماذا غيره ابن الهرمة؟!

فقال شيخ الحارة:

ـ سبحان الذى لا يتغير . .

وصافح السيد ثم غادر الدكان وهو يصيح «الله أكبر، الله أكبر، النصر للمؤمنين!».

وقف السيد على عتبة الدكان مقلبا عينيه فى أنحاء الطريق بقلب ارتد إلى براءة الطفولة وبهجتها، طالع أثر الخبر السعيد فى كل مكان . . فى الدكاكين التى سدت مداخلها بأصحابها وزبائنها وهم يتبادلون التهانى، فى النوافذ التى تزاحمت فيها الأحداث وانطلقت الزغاريد من وراء خصاصها، فى المظاهرات التى تألفت ارتجالا ما بين النحاسين والصاغة وبيت القاضى هاتفة قلوبها لسعد، وسعد وسعد ثم سعد، فى المآذن التى اعتلى المؤذنون شرفاتها يشكرون ويدعون ويهتفون، فى العربات الكارو التى تجمعت بالعشرات حاملة المئات من النسوة المتلفعات بالملاءات اللف وهن يرقصن ويرددن الأغانى الوطنية، لم يعد يرى إلا آدميين أو بالأحرى هاتفين، اختفت الأرض وتوارت الجدران وتعالى الهتاف لسعد فى كل مكان كأنما الجو قد انقلب اسطوانة هائلة تدور بلا توقف مرددة اسمه. وجرى نبأ فوق الرءوس الحاشدة أن الإنجليز يجمعون معسكراتهم القائمة عند مفترق الطرق تأهبا للرحيل إلى العباسية فاستمر الحماس وحمست النشوات. لم ير السيد أحمد منظرا كهذا من قبل فراح يقلب عينين متألقتين وفؤاده يخفق وثبا وباطنه يردد مع النسوة الراقصات «ياحسين . . حملة وانشالت!» حتى أدنى جميل الحمزاوى رأسه من أذنه قائلا:

ـ الدكاكين توزع الشربات وترفع الأعلام . .

فقال له بحماس:

ـ اصنع كما يصنعون وأكثر، أرنى همتك . . !

ثم بصوت متهدج:

ـ علق صورة سعد تحت البسملة . .

فنظر إليه جميل الحمزاوى كالمتردد ثم قال محذرا:

ـ هذا موضع ترى فيه الصورة من الخارج ألا يحسن بنا أن نتريث حتى تستتب الأمور؟

فقال السيد باستهانة:

ـ مضى عهد الخوف والدماء إلى غير رجعة، ألا ترى أن المظاهرات تمر تحت أعين الإنجليز دون أن يتعرضوا لها بسوء؟ علق الصورة وتوكل على الله.

غار عهد الخوف والدماء، أليس كذلك؟ سعد حر طليق ولعله فى طريقه الآن إلى أوربا، لم يعد بيننا وبين الاستقلال إلا خطوة أو كلمة، مظاهرات الزغاريد بدلا من

مظاهرات الرصاص، الأحياء منا قوم سعداء، اخترقوا النيران وخرجوا سالمين، رحمة الله على الشهداء، فهمى؟! نجا من خطر لم يقدره، نجا والحمد لله والشكر لله، أجل نجا فهمى، ماذا تنتظر؟.. صل إلى الله ربك.

لما اجتمعت الأسرة مساء وشت الحناجر المبحوحة بيوم ملىء بالهتاف، كان مساء سعيدا، نمت عن سعادته الأعين والثغور والحركة والكلام حتى أمينة نهل قلبها من نخب السعادة المبذول مشاركة للأبناء واستبشارا بعودة السلام وفرحا بالإفراج عن سعد:

- من المشربية رأيت ما لم تر عين من قبل، هل قامت القيامة ونصب الميزان؟! وأولئك النسوة هل جنن؟! لا يزال صدى ترديدهن يرن فى أذنى «يا حسين.. حملة وانشالت».

قال ياسين ضاحكا وهو يعبث بشعر كمال:

- تحية شيَّعوا بها الإنجليز الراحلين كما يشيَّع الضيف الثقيل بكسر القلَّة وراءه!..

نظر إليه كمال من دون أن ينبس على حين عادت أمينة تتساءل:

- أرضى الله عنا أخيرا..؟

فأجابها ياسين قائلا:

- بلا ريب (ثم مخاطبا فهمى) ماذا تظن؟

قال فهمى الذى بدا فى فرح الأطفال:

- لو لم يسلم الإنجليز بمطالبنا لما أفرجوا عن سعد، سوف يسافر إلى أوربا ثم يعود بالاستقلال، هذا ما يؤكده الجميع، ومهما يكن من أمر سيبقى يوم ٧ إبريل سنة ١٩١٩ رمزا لانتصار الثورة.

فعاد ياسين يقول:

- يا له من يوم! اشترك الموظفون فى المظاهرات علانية، ما كنت أظن أن بى هذه القدرة العظيمة على السير المتواصل والهتاف العالى..!

فضحك فهمى قائلا:

- وددت لو رأيتك وأنت تهتف متحمسا، ياسين يتظاهر ويتحمس ويهتف!.. يا له من منظر فريد!

يوم عجيب فى الأيام حقا، اكتسحه سيله الزاخر فحمله بين أمواجه العاتية كوريقة لا وزن لها حتى طار به كل مطار، لا يكاد يصدق أنه ثاب إلى رشده وأنه آوى إلى برج المراقبة الهادئ يشاهد من منظاره الحوادث فى هدوء وعدم اكتراث!.. جعل يستحضر الحال التى تلبسته فى المظاهرات على ضوء ملاحظة فهمى حتى قال بغرابة:

ـ الواحد منا ينسى نفسه وهو بين الناس نسيانا غريبا فكأنه يبعث شخصا جديدا . .

سأله فهمي باهتمام :

ـ أكنت تشعر بحماس صادق؟

ـ هتفت لسعد حتى بح صوتى، وأغرورقت عيناى مرة أو مرتين .

ـ كيف اشتركت فى المظاهرة؟

ـ بلغنا نبأ الإفراج عن سعد ونحن فى المدرسة ففرحت فرحا عظيما حقا ، أكنت تتوقع غير هذا؟ . . وإذا بالمدرسين يقترحون الانضمام إلى المظاهرة الكبيرة فى الخارج فلم أجد من نفسى ميلا إلى مجاراتهم وفكرت فى التسلل إلى البيت ، غير أنى اضطررت إلى السير معهم حتى تسنح لى فرصة للزيغان ، ماذا حصل بعد ذلك . ! وجدت نفسى فى بحر متلاطم من الناس وجو مكهرب من الحماس فما ملكت أن ذهلت عن نفسى واندمجت فى التيار كأشد ما يكون المرء ـ صدقنى فى هذا ـ حماسا وأملا . . !

فهز فهمى رأسه وهو يغمغم :

ـ شىء عجيب . .

ضحك ياسين عاليا ثم قال :

ـ أحسبتنى فاقد الوطنية؟! المسألة أنى لا أحب الزياط والعنف ، ولا أجد حرجا فى التوفيق بين حب الوطن وحب السلامة . .

ـ وإذا شق التوفيق بينهما . . ؟

فقال مبتسما ولكن دون تردد :

ـ قدمت حب السلامة! نفسى أولا . . ألا يستطيع الوطن أن يسعد إلا بالتهام حياتى؟! يفتح الله ، أنا لا أفرط فى حياتى ولكنى سأحب الوطن ما دمت «حيا» .

قالت أمينة :

ـ هذا عين العقل (ثم متطلعة إلى فهمى) هل عند سيدى رأى آخر . . ؟

قال فهمى بهدوء :

ـ كلا طبعا ، إنه عين العقل كما قلت . .

ولم ير كمال أن يبقى بمعزل عن الحديث لا سيما أنه كان مقتنعا بأنه لعب فى يومه دورا خطيرا حقا فقال :

ـ وأضربنا نحن كذلك ولكن الناظر قال لنا : إننا ما زلنا صغارا ، وإننا إذا خرجنا من المدرسة داستنا الأقدام ، ثم سمح لنا بالتظاهر فى فناء المدرسة فتجمعنا فيه وهتفنا

(هنا هتف عاليا : يحيا سعد) طويلا جدا، ثم لم نعد إلى الفصول لأن المدرسين كانوا قد غادروا المدرسة منضمين إلى المتظاهرين فى الخارج . . !

رماه ياسين بنظرة ساخرة وقال :

ـ ولكن أصدقاءك ذهبوا . . !

ـ فى داهية . . !

ندت عنه هذه العبارة بلا تفكير وهى أبعد ما تكون عن حقيقة شعوره، لأن الحال تقتضيها من ناحية، ولأنه أراد أن يدارى بها هزيمته أمام سخرية ياسين من ناحية أخرى، أما قلبه فكان يكابد دهشة وغمزا، لم ينس كيف وقف لدى عودته من المدرسة فى المكان المهجور الذى كان يحتله المعسكر يقلب عينيه فى أرجائه فى صمت أليم وعيناه مغرورقتان. سوف يمضى وقت طويل قبل أن ينسى مجلس الشاى على طوار سبيل بين القصرين والإعجاب الذى كان يحظى به غناؤه، والمودة التى كان يلقاها من الجنود خاصة جوليون، والصداقة التى ربطته بالسادة المتفوقين الذين يعلون فى اعتقاده على سائر البشر! قالت أمينة :

ـ سعد باشا رجل سعيد الحظ، الدنيا كلها تهتف باسمه، ولا أفندينا فى زمانه . . رجل مؤمن بلا ريب لأن الله لا ينصر إلا المؤمنين. نصره على الإنجليز الذين غلبوا زبلن نفسه، أى فوز وراء هذا؟! . . لقد ولد الرجل فى ليلة القدر .

سألها فهمى باسما :

ـ أتحبينه . . ؟

ـ أحبه ما دمت تحبه . .

بسط فهمى راحتيه ورفع حاجبيه مستنكراً ثم قال :

ـ لا يعنى هذا شيئا . . !

فتنهدت فيما يشبه الارتباك ثم قالت :

ـ كنت كلما بلغنى نبأ أسيف تقطع قلبى حزنا وقلت لنفسى «يا ترى أكان يقع هذا لو لم يقم سعد قومته؟!» على أن رجلا يجمع الكل على حبه لا بد أن الله يحبه كذلك . .

ثم متنهدة بصوت مسموع :

ـ أسفى على الهالكين، كم أمّا تبكى الآن بحرارة؟ . . كم أما لم تزدها فرحة اليوم إلا حسرة على حسرة . .

قال لها فهمى وهو يغمز ياسين بطرفه :

ـ الأم الوطنية حقا تزغرد لاستشهاد ابنها . .

وضعت أصبعيها فى أذنيها وهتفت :

ـ اللهم إنى أشهدك على ما يقول سيدى الصغير ! . . أم تزغرد لاستشهاد ابنها ! أين ؟ ! على هذه الأرض ؟ ولا تحت الأرض فى عالم الشياطين ! . .

قهقه فهمى عاليا ومضى يفكر مليا ، ثم قال وعيناه تلمعان باسمتين :

ـ نينة . . ! سأبوح لك بسر خطير آن له أن يذاع . لقد اشتركت فى المظاهرات وقابلت الموت وجها لوجه . . !

سهمت إليه غير مصدقة ثم قالت وعلى شفتيها ابتسامة باهتة :

ـ أنت ؟ ! . . محال . . إنك من لحمى ودمى وقلبك من قلبى ، لست كالآخرين . .

فقال بيقين وهو يبتسم إليها :

ـ أقسم لك على ذلك بالله العظيم . .

اختفت الابتسامة واتسعت العينان فى ذهول ، ثم رددت بصرها بينه وبين ياسين الذى حدجه بدوره بنظرة متسائلة ، ثم غمغمت وهى تزدرد ريقها :

ـ رباه ! . . كيف أصدق أذنى !

ثم بعد أن هزت رأسها فى حيرة أليمة :

ـ أنت ! . .

كان يتوقع انزعاجها ولكن ليس ـ بالنظر لمجىء اعترافه بعد زوال الخطر ـ إلى الحد الذى بدا عليها ، فبادرها قائلا :

ـ ذاك تاريخ مضى وانتهى ، لا داعى الآن للانزعاج .

فقالت بإصرار ونرفزة :

ـ صه . . أنت لا تحب . . أمك ، سامحك الله .

فضحك فهمى فى شىء من الارتباك . قال كمال لأمه وهو يبتسم بمكر :

ـ أتذكرين يوم دكان البسبوسة وضرب النار ؟ . . رأيته وأنا عائد فى الطريق المقفر فنبَّه علىَّ بألا أخبر أحدا بأنى رأيته .

ثم نظر إلى فهمى وسأله باهتمام وتشوق :

ـ قص علينا يا سى فهمى ما لقيت فى المظاهرات ، كيف كانت تقع المعارك ؟ وكيف يصرخ القتلى ؟ ألم تطلق النار قط ؟

فتدخل ياسين فى الحديث قائلا للأم :

ـ ذاك تاريخ مضى وانتهى ، اشكرى الله على نجاته ، هذا أولى بك من الانزعاج .

سألته بجفاء :

ـ أكنت تعلم بذلك . . ؟

فبادرها قائلا :

ـ لا وحياة تربة أمى (ثم مستدركا) ودينى وأيمانى وربى .

ثم نهض من مجلسه ، منتقلا إلى جوارها فوضع يده على منكبيها وقال برقة :

ـ أتطمئنين حين كان ينبغى الانزعاج وتنزعجين حين ينبغى الاطمئنان! . . وحدى الله ، زال الخطر وعاد السلام ، ها هو فهمى بين يديك . . (وضاحكا) ابتداء من الغد سنقطع القاهرة طولا وعرضا ، ليلا ونهارا ، بلا خوف أو قلق .

وقال فهمى جادا :

ـ نينة ، رجائى إليك ألا تكدرى صفونا بحزن لا موجب له .

تنهدت . . فتحت فاها لتتكلم ولكنها حركت شفتيها دون أن تنبس ، ابتسمت ابتسامة شاحبة لتعلن استجابتها لرجائه ، ثم نكست وجهها لتخفى عينيها المغرورقتين .

٧٠

بات فهمى تلك الليلة وهو عاقد العزم على استرضاء أبيه مهما كلفه الأمر ، وفى صباح اليوم التالى صميم على تنفيذ عزمه دون تردد ، ومع أنه لم يضمر لأبيه ـ طول فترة العصيان ـ أى إحساس بالغضب أو التحدى فإن ضميره كابد شعورا بالذنب ناء به قلبه الحساس المشرب بالطاعة والولاء . حقا لم يتحده بلسانه ولكنه خالف إرادته بالفعل ، بل خالفها مرارا وتكرارا ، فضلا عن امتناعه عن القسم يوم دعاه إليه فى حجرته وإعلانه بالبكاء تمسكه برأيه رغم إرادة الرجل ، كل أولئك أحله ـ على حسن نيته ـ موقفا عاقا شريرا لا يرضاه لنفسه ولا يحتمله ، ولم يكن سعى إلى استرضائه من قبل خشية أن ينكأ الجرح دون أن يسعه أن يلأمه ، لأنه قدر أن يدعوه السيد إلى القسم تكفيرا عما بدر منه فيضطر مرة أخرى إلى الامتناع مؤكدا عصيانه من حيث أراد أن يعتذر عنه . الحال اليوم غيرها بالأمس ، انتشى قلبه بالسرور والظفر ، الوطن كله ثمل بخمر السعادة والفوز ، فلا يطيق أن يقوم بينه وبين أبيه حجاب من سوء الظن ولو لحظة واحدة ، الاسترضاء ، فالعفو الذى يهفو إليه ، ثم السعادة الحقة التى لا تشوبها شائبة ، دخل حجرة أبيه قبيل ميعاد الفطور بربع ساعة فوجده يطوى سجادة الصلاة مغمغما بالدعاء ، لمحه الرجل بلا ريب ولكنه تجاهله فمضى إلى الكنبة دون أن يلتفت صوبه وجلس . عند ذاك تراءى فهمى بموقفه عند الباب ملفوفا بالارتباك والحياء فحدجه بنظرة جافة مستنكرة كأنما تتساءل «من

هذا الواقف وماذا جاء به؟!». فتغلب فهمى على ارتباكه وتقدم من مجلس أبيه فى خطى خفيفة حتى انحنى على يده فتناولها فلثمها باحترام لا حد له، وصمت مليا ثم قال بصوت لا يكاد يسمع:

- صباح الخير يا بابا.

واصل التحديق فيه صامتا كأنه لم يسمع تحيته حتى غض الشاب بصره ارتباكا وغمغم فى نبرات نمت عن اليأس:

- إنى آسف..

صمت وإصرار على الصمت..

- آسف جدا، لم أذق طعم السكينة منذ..

وجد أن الكلام كاد يستدرجه إلى ذكر ما ود من كل قلبه أن يتحاشاه فأمسك، وما يدرى إلا والسيد يسأله بجفاء وتبرم:

- وماذا تريد؟

رحب بإقلاعه عن الصمت أيما ترحيب فتنهد بارتياح كأنه لم يستشعر جفاءه وقال برجاء:

- أريد أن تكون راضيا عنى.

قال السيد بضجر:

- غر من وجهى.

فقال فهمى وهو يشعر بقبضة اليأس تتراخى قليلا عن عنقه:

- عندما أنال رضاك..

تساءل السيد متحولا فجأة إلى التهكم:

- رضاى!.. لم لا؟.. هل فعلت لا سمح الله ما يستوجب السخط؟!

رحب بالتهكم أضعاف ترحيبه بالإقلاع عن الصمت، التهكم عند أبيه أول خطوة نحو الصفح، غضبه الحقيقى صفع أو لكم أو ركل أو سب أو كل أولئك جميعا، التهكم أول بشير بالتحول، انتهز الفرصة وتكلم، تكلم كما ينبغى لرجل قد يعمل فى المحاماة غدا أو بعد غد، هذه فرصتك!.. وتكلم، الاستجابة لنداء الوطن لا تعد عصيانا لإرادة حضرتك، لم أفعل شيئا يحسب بين الأعمال الوطنية حقا، توزيع منشورات على الأصدقاء.. وما توزيع المنشورات على الأصدقاء؟ أين أنا ممن بذلوا الحياة رخيصة؟ فهمت من كلام حضرتك أنك تخاف على حياتى لا لأنك تستنكر حقا الواجبات الوطنية، فقمت بشىء من الواجب وأنا مطمئن إلى أنى - فى الواقع - لا أخالف لك إرادة.. إلخ.. إلخ.

ـ علم الله أنه لم يخطر ببالى قط أن أعصى لك أمرا .

قال السيد بحدة :

ـ كلام فارغ ، تتظاهر بالطاعة الآن لأنه لم يعد ثمة داع إلى العصيان ، لمَ لم تطلب رضاى قبل اليوم؟

قال فهمى بحزن :

ـ كانت الدنيا فى دم وكرب وكنت من الحزن فى شغل شاغل .

ـ شغلك عن طلب رضاى؟!

قال بحرارة :

ـ شغلنى عن نفسى لا عن طلب رضاك .

ثم بصوت منخفض :

ـ لن أستطيع أن أعيش بغير رضاك .

قطب السيد ، لا غضبا كما تظاهر ، ولكن ليخفى الأثر اللطيف الذى بعثه كلام الشاب فى نفسه ، هكذا يكون الكلام وإلا فلا ، يجيد صناعة الكلام حقا ، هذه هى البلاغة أليس كذلك؟ سأعيد أقواله على مسامع الأصدقاء الليلة لأمتحن أثره فى نفوسهم ترى ما عسى أن يقولوا؟ الولد سر أبيه . . هذا ما ينبغى أن يقال ، قديما قيل لى إننى لو أتممت مراحل التعليم لكنت أبلغ المحامين ، إنى أبلغ الناس بغير التعليم والمحاماة ، الحديث اليومى كالقانون سواء بسواء فى الكشف عن موهبة البلاغة ، كم من محام أو من موظف كبير ينكمش فى المجلس أمامى كالعصفور! ولا فهمى نفسه بمستطيع أن يسد مكانى يوما ما ، سيقولون لى وهم يضحكون حقا الولد سر أبيه ، امتناعه عن القسم لا يزال يحز فى نفسى ، لكن أليس من دواعى الفخر لى أنه اشترك فى الثورة ولو من بعيد؟ ليته اشترك فى الأعمال الكبيرة ما دام الله قد كتب له العمر حتى اليوم ، سأقول من الآن فصاعدا إنه خاض غمار الثورة ، أتظنون أنه اكتفى بتوزيع المنشورات كما كان يؤكد لى؟ . . لقد رمى ابن الكلب بنفسه فى التيار الدامى ، يا سيد أحمد ينبغى أن نشهد لابنك بالوطنية والشجاعة . . لم نشأ أن نقول لك هذا فى إبان الخطر أما وقد استقر السلام فلا حرج من قوله . . أتنكر أنت شعورك الوطنى؟ . . ألم يثن عليك جامعو التبرعات من مندوبى الوفد . . والله لو كنت شابا لفعلت ما لم يفعله ابنك ولكنه عصانى! . . عصى لسانك وأطاع قلبك! . . الآن ما عسى أن أفعل؟ . . يريد قلبى أن يهبه العفو ولكنى أخاف أن يستهين بمخالفتى!

ـ وأنا لن أستطيع أن أنسى أنك خالفت إرادتى ، أحسبت أن الخطبة الفارغة التى صبحتنى بها على غيار الريق يمكن أن تؤثر فى؟!

هم فهمى بالكلام ولكن أمه دخلت فى تلك اللحظة وهى تقول :

ـ الفطور جاهز يا سيدى .

وقد دهشت لوجود فهمى على غير انتظار فرددت عينيها بينهما ، وتلكأت قليلا لعلها تسمع شيئا مما يدور ولكنها رأت فى الصمت ـ الذى خافت أن يكون مجيئها باعثه ـ ما دعاها إلى مغادرة الحجرة على عجل . نهض السيد للانتقال إلى حجرة المائدة فتنحى فهمى جانبا وقد علاه حزن شديد لم يخف أثره عن عينى الرجل فتردد لحظات ثم قال أخيرا بصوت سلمى :

ـ أريد مستقبلا ألا تصر على حماقتك وأنت تخاطبنى .

وسار فتبعه الشاب ممتنا باسم الأسارير ، ثم سمعه يقول متهكما وهما يقطعان الصالة :

ـ أظنك حاسب نفسك على رأس الذين أفرجوا عن سعد !

غادر فهمى البيت قرير العين فمضى من توه إلى الأزهر حيث اجتمع بزملائه أعضاء لجنة الطلبة العليا للنظر فى تنظيم المظاهرات السلمية الكبرى التى سمحت السلطة بقيامها للإعراب عن ابتهاج الشعب والتى تقرر أن يشترك فيها ممثلو الأمة بكافة طبقاتها ، دام الاجتماع وقتا غير قصير ، ثم تفرق المجتمعون كل إلى وجهته فركب الشاب إلى ميدان المحطة بعد أن عرف الدور الذى عهد به إليه وهو الإشراف على تجمعات طلبة المدارس الثانوية . لئن كان يعد ما يعهد عادة إليه ـ بالقياس إلى غيره ، من الأدوار الثانوية إلا أنه كان يقوم به بدقة وعناية وغبطة كأنما هو أسعد ما يحظى به فى حياته غير أنه لم يكن يخلو فى جهاده من تعاسة خفيفة لم يعلم بها أحد سواه ، منشؤها ما اقتنع به من أنه دون الكثيرين من أقرانه جرأة وإقداما . . أجل لم ينكص عن مظاهرة من المظاهرات التى دعت إليها اللجنة ولكنه كان يفقد جنانه عند ظهور اللوريات المحملة بالجنود وخاصة عند إطلاق الرصاص وتساقط الضحايا . . فمرَّة لاذ بمقهى وهو يرتعد ، ومرة أخرى جرى على وجهه شوطا بعيدا حتى وجد نفسه فى قرافة المجاورين ، أين هو من حامل اللواء فى مظاهرة بولاق ، أو مذبحة بولاق كما غدت تسمى ، الذى استشهد ويداه قابضتان على اللواء وقدماه ثابتتان فى الطليعة وحنجرته تهتف بالثبات؟ ! . . أين هو من أقران ذلك الشهيد الذين تبادروا إلى اللواء ليرفعوه فسقطوا فوقه وقد تقلدت صدورهم نياشين الرصاص؟ ! . . أين هو من ذلك الشهيد الذى انتزع المدفع الرشاش من أيدى الجنود فى الأزهر؟ ! . . أين هو من هؤلاء جميعا وغيرهم ممن تطير الأنباء بآى بطولتهم واستشهادهم؟ ! . . كانت أعمال البطولة تتراءى لعينيه رائعة باهرة تخطف الأبصار ، وطالما أنصت إلى نداء باطنى يهيب به إلى الإقدام والتأسى بالأبطال ، ولكن كانت تخذله

أعصابه فى اللحظة الحاسمة فما أن تنحسر موجة المعركة حتى يجد نفسه فى المؤخرة إن لم يكن مختبئا أو هاربا، ثم يعود إلى التصميم على مضاعفة البذل والكفاح والتماسك بضمير معذب وقلب حائر ورغبة فى الكمال لا تحد، متعزيا أحيانا بقوله: «ما أنا إلا محارب أعزل، ولئن فاتنى الرائع من أعمال البطولة فحسبى أننى لم أتردد مرة واحدة عن الإلقاء بنفسى فى أتون المعركة». فى طريقه إلى ميدان المحطة جعل يراقب الطرق والمركبات، كان الجميع يتوجهون ـ فيما بدا ـ وجهته، طلبة وعمالا وموظفين وأهلين راكبين وراجلين، تظلهم جميعا طمأنينة خليقة بقوم ذاهبين إلى مظاهرة سلمية مصرح بها، إنه مثلهم، يشعر بشعورهم، لا كعهده القديم حين كان يلتمس طريقه إلى موعد المظاهرة بنفس ثائرة وقلب تثقل ضرباته كلما تخايل لعينيه شبح الهلاك. ذاك عهد مضى، اليوم يمضى مطمئن الجانب باسم الثغر.. انتهى الجهاد؟.. خرج منه سليما لا عليه ولا له. ولا له؟!.. ليته عانى شيئا مما تعرض له الآلاف كالسجن أو الضرب أو إصابة غير مميتة!.. أليس من المحزن أن تكون السلامة المطلقة جزاء من أوتى قلبا كقلبه وحماسا كحماسه! كطالب مجتهد لم يتح له أن يظفر بأية شهادة.. أتنكر سرورك بالنجاة؟.. أكنت تفضل أن تكون من الشهداء؟.. كلا، أكنت تتمنى لو كنت من المصابين غير الهالكين؟.. نعم، كان ذلك فى وسعك فلم نكصت؟ لم تكن تضمن أن تقع الإصابة غير مميتة أو أن يكون السجن عابرا، أنت لا تكره النجاة الراهنة ولكنك تتمنى لو كان أصابك شىء دون أن يغير من هذه النهاية الجميلة، ينبغى إذا جاهدت مرة أخرى أن أطلع على الغيب؟.. أمضى إلى المظاهرة السلمية بقلب مطمئن وضمير قلق ـ بلغ الميدان زهاء الواحدة بعد الظهر، قبل الميعاد المحدد لقيام المظاهرة بساعتين فاتخذ مكانه فى الموضع الذى حدد له!.. با ب المحطة. لم يكن بالميدان إلا المشرفون وجماعات متفرقة من شتى الطوائف، وكان الجو معتدلا إلا أن شمس أبريل صبَّت على من تعرض لأشعتها لظى، ولم يطل الانتظار فأخذت الجموع تتوافد على الميدان من مختلف الطرق المفضية إليه، ومضت كل جماعة صوب عملها، بذلك شرع فهمى فى عمله بلذة وفخار، بالرغم من بساطة العمل الذى لم يعد أن يكون ترتيبا للمدارس كل وراء علمها إلا أنه ملأ نفسه زهوا وخيلاء سيما وأنه كان يشرف على طلبة كثيرين ممن يكبرونه سنا حتى بدت التسعة عشر عاما التى يجرها وراءه ذيلا قصيرا فى زحمة التلاميذ الذين ناهز كثير منهم الثانية والعشرين والرابعة والعشرين وفتلت شواربهم، ولاحظ أعينا ترمقه باهتمام وشفاهها تتهامس عليه كما سمع اسمه ـ مقرونا بصفته الشعبية ـ يجرى على بعض الألسن «فهمى أحمد عبد الجواد مندوب اللجنة العليا»، فحرك أوتار قلبه حتى أطبق شفتيه دون أن تند عنهما بسمة حياء أو ارتباك من «مهابته». أجل ينبغى أن يحافظ على منظر مندوب اللجنة العليا، على الجد والصرامة الخليقتين بالرعيل الأول من

شباب المجاهدين كى ينفسح المجال لأخيلة المتطلعين لحدس ما يخفى وراءه من أعمال البطولة والكفاح، فلتتحقق تلك الأعمال الخارقة ـ التى عجز عن تحقيقها فى الواقع فى أخيلتهم، لن تفتر له رغبة فى المزيد منها وإن وخز قلبه إحساسه الحاد بالحقيقة العارية. موزع منشورات وجندى من جنود المؤخرة! . . هذا هو بلا زيادة، اليوم يوكل به قيادة المدارس الثانوية فيواجه زعامة كبيرة. ترى هل يقدر الآخرون عمله أكثر مما يقدره هو؟! . . لشد ما يحبونه بالاحترام والمحبة، لم يعقد اجتماع إلا وكان له فيه رأى مسموع، والخطابة؟ . . ليس من الضرورى أن تكون خطيبا . . أليس كذلك؟ ليس محالا أن تكون عظيما وأنت غير خطيب ولكن أى خسارة ستمنى بها يوم تمثل اللجنة العليا بين يدى الزعيم فيستبق الخطباء وتلوذ أنت بالصمت. كلا لن ألوذ بالصمت، سوف أتكلم، سأطلق لقلبى العنان أجاد أم لم يجد، متى تقف بين يدى سعد؟ . . متى تراه لأول مرة فتملأ منه عينيك؟ . إن قلبى يخفق وعيناى تحنان للدموع، سيكون يوما عظيما، ستخرج مصر كلها لاستقباله، لن يكون يومنا هذا إلى ذلك إلا كقطرة إلى البحر، رباه! . . امتلأ الميدان، امتلأت الشوارع المفضية إليه. عباس نوبار الفجالة، لم تسبق كهذه مظاهرة، مائة ألف، طرابيش عمائم، طلبة . . عمال . . موظفون . . الشيوخ والقساوسة، القضاة . . من كان يتصور هذا، لا يبالون الشمس . . هذه مصر، لمَ لم أدع بابا؟ . . صدق ياسين . . الواحد منا ينسى بين الناس نفسه، يعلو على نفسه، أين همومى الشخصية؟ . . لا شىء، لشد ما يخفق قلبى، سأتحدث عن هذا طويلا الليلة وما بعدها. ترى هل ترتعد نينة مرة أخرى؟ . . منظر جليل تخشع له القلوب وتطمئن، أريد أن ألمس أثره فى وجوه الشياطين! ها هى ثكناتهم تشرف على الميدان، الراية اللعينة ترفرف، هناك رءوس فى النوافذ . . فيم تتهامس؟! . . الديدبان تمثال لا يرى شيئا، لم تقض رشاشاتكم على الثورة، افقهوا هذا، سترون عما قريب سعد فى هذا الميدان عائدا مظفرا تنفونه بالسلاح ونعيده بغير سلاح، سوف ترون قبل الجلاء. تحرك الموكب العظيم فتدفقت موجاته تباعا مرددة الهتافات الوطنية، بدت مصر مظاهرة واحدة، بل رجلا واحدا، بل هتافا واحدا، تتابعت طوابير الطوائف طويلا، طويلا جدا، حتى خيل إليه أن الطلائع ستشارف عابدين قبل أن يتزحزح هو وجماعته أمام باب المحطة، أول مظاهرة تسير دون أن تقطع المدافع الرشاشة الطريق عليها، لا رصاص من ناحية ولا زلط من الناحية الأخرى، وافتر ثغره عن ابتسامة، رأى الجماعة التى تعسكر أمامه مباشرة تتحرك فدار على عقبيه كى يواجه مظاهرته «الخاصة» ورفع يديه فسرت فى الصفوف حركة تأهب وتوثب، ثم هتف بأعلى صوته وهو يسير مقهقرا. واصل مهمة القيادة والهتاف حتى مدخل شارع نوبار ثم تخلى عن الثانية لغيره ممن أحاطوا به مترصدين دورهم بأفواه قلقة متحركة كأنما قد جاءها المخاض والطلق فلا تستريح حتى تقذف بهتافاتها، دار على عقبيه

مرة أخرى سائرا بوجهه، يشرئب بعنقه تارة ليشاهد ما تقدم من جسم المظاهرة التى لم يعد يرى لها أولا ويتلفت يمنة ويسرة تارة أخرى ليرى من اكتظت بهم الأرصفة والنوافذ والشرفات والأسطح من جموع المشاهدين الذين جعلوا يرددون الهتافات. امتلأت نفسه بمنظر الألوف الحاشدة قوة إلى قوة وطمأنينة على طمأنينة، كأنها دروع منصوبة حواليه، قوة متماسكة لا ينفذ منها الرصاص، إن قوات البوليس تتعهد النظام بعد أن أعياها الطعان والهجوم، إن منظر هؤلاء الرجال الذاهبين الجائين على صهوات جيادهم كأنهم حراس تابعون للمظاهرة قائمون على خدمتها، لأبلغ دليل على انتصار الثورة، الحكمدار؟!.. أليس هذا هو رسل بك.. بلى هو إنه يعرفه حق المعرفة، وهذا وكيل الحكمدار يخب وراءه ملقيا على الأفق نظرة جامدة مترفعة كأنما تحتج احتجاجا صامتا على السلام الذى احتضن المظاهرة، ما اسمه؟ هل يمكن أن ينسى الاسم الذى ملأ الأسماع فى الأيام السود الدامية؟!.. أوله جيم أليس كذلك؟.. جا.. جو.. جى.. يأبى أن يستجيب إلى الذاكرة، جوليون!! أوه كيف تسلل هذا الاسم البغيض إلى وعيه؟!.. هوى عليه كالتراب فأطفأ حماسه، كيف لنا أن نلبى نداء الحماس والظفر ما دام القلب ميتا! قلب ميت؟!.. لم يكن ميتا منذ دقيقة، لا تستسلم للحزن، لا تدع قلبك يبتعد عن المظاهرة، ألم تعاهد نفسك على النسيان؟ بل إنك نسيت بالفعل، مريم.. من هى؟!.. ذلك التاريخ القديم؟!.. نحن نعيش للمستقبل لا للماضى.. جيز.. مستر جيز.. مستر جيز.. هذا هو اسم وكيل الحكمدار لعنة الله عليه، عد إلى الهتاف كى تنفض عن نفسك هذا الغبار الطارىء. مضت «مظاهرته» تقترب رويدا من حديقة الأزبكية التى لاحت أشجارها الباسقة فوق الأعلام المنتشرة بطول الطريق على حين بدا ميدان الأوبرا من بعيد رءوسا متلاصقة كأنها تنبت من جسد واحد ملأ الأرض طولا وعرضا. كان يهتف بقوة وحماس والجمهور يردد هتافه بصوت ملأ الجو كهزيم الرعد، ولما شارفوا سور الحديقة دوت ـ على حين بغتة ـ فرقعة حادة فشلّت حنجرته وتلفَّت فيما حواليه متسائلا فى انزعاج، صوت معهود كثيرا ما صك أذنيه فى الشهر المنصرم وكثيرا ما تردد صداه فى ذاكرته فى هدأة الليل بيد أنه لم يستطع أن يألفه فما يكاد يدوى حتى يخطف دمه ويوقف قلبه عن الخفقان.

ـ رصــــاص؟!

ـ غير معقول، ألم يصرحوا بالمظاهرة؟

ـ أسقطت من حسابك الغدر؟

ـ ولكن لا أرى جنودا..؟!

ـ حديقة الأزبكية معسكر هائل مكتظ بهم.

ـ لعلها فرقعة عجلة سيارة .

ـ لعلهـــا .

أرهف أذنيه لما يدور حوله من دون أن يثوب إلى السكينة ، وما هى إلا لحظات حتى دوت فرقعة ثانية . . آه . . لم يعد ثمة شك ، رصاصة كسابقتها ، أين ترى استقرت؟ أليس يوم سلام؟ ! . . شعر بحركة اضطراب تسرى بين المتظاهرين وافدة من الأمام كالموجة الثقيلة التى تدفعها إلى الشاطىء باخرة تمخر وسط النهر ، ثم تراجع الألوف وانتشروا باعثين فى كل ناحية دفعات جامحة جنونية من الاضطراب والارتباك والارتطام ، تعلوها صيحات مفزعة من الغضب والخوف ، وسرعان ما انتثرت الصفوف المتناسقة وانهد البنيان المشيد . تلاحقت جملة من الطلقات الحادة فتعالى صراخ الغضب وأنين الألم ، ماج بحر الخلق وهاج وتدافعت موجاته إلى جميع المنافذ لا تبقى على شىء فى طريقها ولا تذر . اهرب ، ما من الهرب بد ، إن لم يقتلك الرصاص قتلتك الأذرع والأقدام ، هم بالهرب أو بالتراجع أو حتى التحول عن موقفه ولكنه لم يفعل شيئا ، ما وقوفك وقد تشتت الجمع؟ ! . . فى خلاء أنت ، اهرب . . صدرت عن ذراعيه وساقيه حركة بطيئة وانية متراخية . ما أشد الضوضاء ، ولكن بم علا صراخها؟ هل تذكر؟ ما أسرع ما تفلت منك الذكريات . ماذا تريد؟ أن تهتف؟ أى هتاف؟ أو نداء فحسب . . من؟ ما؟ فى باطنك يتكلم ، هل تسمع؟ هل ترى؟ ولكن أين؟ لا شىء ، لا شىء ، ظلام فى ظلام ، حركة لطيفة تطرد بانتظام كدقات الساعة ينساب معها القلب . . تصاحبها وشوشة . باب الحديقة . أليس كذلك؟ يتحرك حركة تموجية سائلة ، يذوب رويدا ، الشجرة السامقة ترقص فى هوادة ، السماء . . السماء؟ . . منبسطة عالية ، لا شىء إلا السماء هادئة باسمة يقطر منها السلام .

٧١

سمع السيد أحمد عبد الجواد وقع أقدام على مدخل الدكان فرفع رأسه عن مكتبه فرأى ثلاثة شبان يتقدمون نحوه تعلوهم سيماء الجد والرزانة حتى وقفوا لصق مكتبه وهم يقولون :

ـ السلام عليكم ورحمة الله .

فنهض السيد قائلا بأدبه المعهود :

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته (ثم مشيرا إلى الكراسى) تفضلوا .

ولكنهم لم يلبوا الإشارة شاكرين وقال أوسطهم :

- حضرتك السيد أحمد عبد الجواد؟

فقال السيد باسما وإن لاح فى عينيه التساؤل :

- نعم يا سيدى .

ماذا يريدون يا ترى؟ . . الشراء مستبعد . . ما للشراء والمشية العسكرية التى جاءوا عليها! . . ما للشراء واللهجة الجدية التى يتكلمون بها! . . ثم الساعة جاوزت السابعة مساء . ألا يرون الحمزاوى وهو يرفع الزكائب إلى الرفوف إيذانا بإغلاق الدكان؟ . . أيكونون من جامعى التبرعات ، لكن سعد قد أفرج عنه وانتهت الثورة ، وأنا لم أعد صالحا الآن إلا للسهرة! يا هؤلاء أعلموا أنى لم أغسل رأسى ووجهى بالكولونيا وأمشط شعرى وشاربى وأحبك جبتى وقفطانى كى ألقى وجوهكم! . . ماذا تريدون؟ . . غير أنه خيل إليه وهو يرنو إلى محدثه أن وجهه ليس غريبا عليه ، رآه من قبل؟ . . أين؟ . . متى؟ . . تذكر ، من المؤكد أنه لا يراه لأول مرة ، آه . . قال باسما وقد شاع الارتياح فى وجهه :

- أليس حضرتك الشاب النبيل الذى تقدم لإنقاذنا فى الوقت المناسب يوم حمل الناس علينا فى مسجد الحسين رضى الله عنه؟

فقال الشاب بصوت خفيض :

- بلى يا سيدى .

صدق ظنى ، يقول البلهاء إن الخمر تضعف الذاكرة؟ لكن ما بالهم ينظرون إلى هكذا؟ انظر ، انظر؟ . . هذه النظرات لا تنبىء عن خير ، اللهم اجعله خيرا ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . قلبى ينقبض لأمر ما ، جاءوا لأمر يتعلق بـ . .

- فهمى؟! . . جئتم تريدونه . . لعلكم؟!

نكس الشاب عينيه ثم قال بصوت متهدج :

- مهمتنا شاقة يا سيدى ولكنها فرض واجب ، ربنا يلهمك الصبر! .

مال السيد فجأة إلى الأمام معتمدا على حافة المكتب وهتف :

- الصبر؟ . . علام؟ . . فهمى؟!

قال الشاب بحزن بالغ :

- يؤسفنا أن ننعى إليك أخانا المجاهد فهمى أحمد .

صاح بلهجة منكرة وإن لاحت فى عينيه نظرة قاطعة بالتصديق واليأس :

- فهـمـى؟

- استشهد فى مظاهرة اليوم.

وقال الذى إلى يمينه:

- انتقل إلى جوار الله وطنيا نبيلا وشهيدا كريما.

تلقى كلماتهم بأذن أصمها الشقاء على حين ختم الصمت شفتيه واسترسلت عيناه فى نظرة شاردة غائبة. مضت هنيهة خيم الصمت فيها عليهم أجمعين حتى جميل الحمزاوى تسمر تحت الرفوف ذاهلا يمد إلى الرجل بصرا ملؤه الجزع، أخيرا عاد الشاب يغمغم:

- لشد ما أحزننا فقده ولكن ليس لنا إلا أن نتلقى قضاء الله بصبر المؤمنين، وإنك لمن المؤمنين يا سيدى.

إنهم يعزونك، لا يعلم هذا الشاب أنك أول من يحسن إلقاء التعازى فى مثل هذا الموقف!.. ماذا تعنى هى للقلب المصاب؟ لا شىء! من أين للكلام أن يطفىء النار؟.. مهلا.. ألم تخطر الرزية بقلبك قبل أن يتكلم قائلهم؟ بلى.. تخايل لعينى شبح الموت، الآن والموت حقيقة تلقى إلى سمعك تأبى أن تصدق، أو تخونك شجاعتك فلا تريد أن تصدق، كيف أصدق أن فهمى مات حقا، كيف تصدق أن فهمى الذى كان يطلب رضاك من ساعات فتثاقلت عنه، فهمى الذى تركنا هذا الصباح ممتلئا صحة وعافية وأملا وسرورا، مات.. مات!.. لن أراه بعد اليوم لا فى البيت ولا فى أى مكان من ظهر الأرض؟.. كيف يكون البيت من غيره؟ كيف أكون أنا بعده؟.. أين تذهب الآمال المعقودة عليه؟.. لم يعد ثمة أمل إلا فى الصبر.. الصبر؟.. آه.. هل تشعر بوخز الألم الحاد؟ هذا هو الألم حقا.. كنت تخدع أحيانا فتزعم أنك متألم. كلا. لم تتألم قبل اليوم، هذا هو الألم حقا.

- سيدى، شد حيلك وسلم أمرك إلى الله.

رفع السيد رأسه إلى الشاب، ثم قال بصوت مريض:

- ظننت عهد القتل قد انتهى.

فقال الشاب بنبرات غاضبة:

- كانت مظاهرة اليوم سلمية، وقد أذنت بها السلطات فاشترك فيها صفوة الرجال من شتى الهيئات، وسارت أول الأمر فى أمان حتى بلغ منتصفها حديقة الأزبكية، وما ندرى إلا والرصاص ينهال علينا من وراء السور بلا سبب، لم يتعرض أحد للجنود لا بخير ولا بشر حتى الهتاف بالإنجليزية امتنعنا عنه تفاديا من الاستفزاز، ولكنهم مسَّهم جنون القتل فجأة فعمدوا إلى بنادقهم وأطلقوا النار، وقد انعقد الإجماع على توجيه احتجاج شديد إلى دار الحماية، بل قيل: إن اللنبى سوف يعلن أسفه عما بدر من الجنود.

قال السيد بنفس اللهجة المريضة :

ـ ولكنه لن يرد حياة إلى ميت .

ـ وا أسفاه!

قال السيد بتفجع :

ـ لم يشترك فى المظاهرات الخطرة ، هذه أول مظاهرة ينضم إليها!

تبادل الشبان نظرة ذات معنى فلم ينبس أحدهم بكلمة . . وكأنما ضاق السيد بالحصار المضروب حوله فقال وهو يزفر :

ـ الأمر لصاحب الأمر ، أين أجده الآن؟

قال الشـاب :

ـ فى قصر العينى «ثم وهو يشير إلى السيد متمهلا لما رآه يتعجل الذهاب» . ستشيع جنازته مع ثلاثة عشر شهيدا من إخواننا فى تمام الساعة الثالثة من مساء الغد .

هتف السيد فى جزع :

ـ ألا يترك لى تشييع جنازته من بيته!

فقال الشاب بقوة :

ـ بل تشيع جنازته مع إخوانه فى احتفال شعبى .

ثم برجـاء :

ـ القصر محاصر الآن بقوات من البوليس ، ولا بأس من الانتظار ما دمنا نحرص على تمكين أهالى الشهداء من توديعهم قبل تشييع الجنازة ، لا يليق أن يشيع فهمى فى جنازة عادية كمن قضوا فى بيوتهم .

ثم مد له يده مودعا وهو يقول :

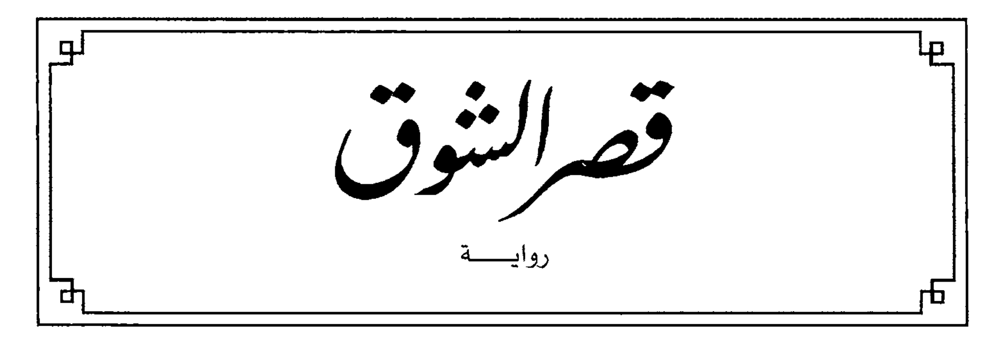
ـ اصبر وما صبرك إلا بالله .

وصافحه الآخران مكررين له العزاء ، ثم ذهبوا جميعا . . أسند رأسه إلى راحته وهو يغمض عينيه فجاءه صوت جميل الحمزاوى وهو يعزيه بنبرات باكية ، ولكنه بدا ضيق الصدر بالتعزية ، ولم يعد يحتمل البقاء فزايل موضعه يسير بخطى بطيئة ثقيلة حتى غادر الدكان ، ينبغى أن يخرج من حيرته ، فإنه لا يدرى حتى كيف يحزن ، يود لو يخلو إلى نفسه ولكن أين؟ سينقلب البيت جحيما بعد دقيقة أو دقيقتين ، وسيلحق به الأصدقاء فلا يدعون له فرصة للتفكير . . متى يتأمل الخسارة التى منى بها . . متى يتهيأ له أن يغيب فيها عن الدنيا جميعا؟ . . يبدو هذا بعيدا . . ولكنه آت لا ريب فيه ، وهذا قصارى ما يجد من عزاء فى راهنه . . أجل سيأتى وقت يخلو فيه إلى نفسه ويفرغ إلى حزنه بكل كيانه ،

هنالك يمعن النظر فى موقفه على ضوء الماضى والحاضر والمستقبل، أطوار حياته كلها من طفولته وصباه إلى ريق شبابه، ما أثار من آمال وما خلف من ذكريات مطلقا لدموعه العنان حتى يستنفدها عن آخرها، حقا أن أمامه فسحة من الوقت يحسد عليها فلا داعى للجزع، انظر إلى ذكرى الملاحاة التى نشبت بينهما عقب صلاة الجمعة أو ذكرى ما دار بينهما هذا الصباح من استعطاف وعتاب، كم يستغرقان من وقته تأملا وتذكرا وشجنا؟ كم يستهلكان من قلبه؟.. كم يهيجان دموعه؟.. كيف يجزع؟ الأيام تدخر له كل هذه السعادة؟ رفع رأسه المثقل بالفكر فلاحت لعينيه المظلمتين مشربيات البيت فذكر أمينة لأول مرة حتى أوشكت أن تخونه قدماه.. ما عسى أن يقول لها؟.. كيف تتلقى الخبر؟.. الضعيفة الرقيقة التى تبكى لمصرع عصفور!.. أتذكر كيف هملت دموعها لمقتل ابن الفولى اللبان؟.. ماذا تصنع لمقتل فهمى؟.. مقتل فهمى!.. أهذه هى نهايتك حقا يا بنى؟.. يا بنى العزيز التعيس!.. أمينة.. ابننا قتل، فهمى قتل.. يا له.. أتأمر بمنع الصوات كما أمرت بمنع الزغاريد من قبل؟.. أم تصوت بنفسك أم تدعو النائحات؟!.. لعلها تتوسط الآن مجلس القهوة بين ياسين وكمال متسائلة عما أخر فهمى، سوف يتأخر طويلا، لن تريه أبدا.. ولا جثته، ولا نعشه، يا للقسوة، سأراه أنا فى القصر أما أنت فلن تريه، لن أسمح بهذا.. قسوة أم رحمة؟.. ما الفائدة؟.. وجد نفسه أمام البيت فامتدت يده إلى المطرقة ثم تذكر أن المفتاح فى جيبه فأخرجه وفتح الباب ثم دخل.. ترامى عند ذاك إلى سمعه صوت كمال وهو يغنى بعذوبة:

زورونى كل سنة مرة   حرام الهجر بالمرة

(تمت)



١

أغلق السيد أحمد عبد الجواد باب البيت وراءه، ومضى يقطع الفناء على ضوء النجوم الباهت فى خطوات متراخية، وطرف عصاه ينغرز فى الأرض الترية كلما توكأ عليها فى مشيته المتثائبة. تشوَّق وجوانبه تحمى بمثل الوهج إلى الماء البارد الذى سيغسل به وجهه ورأسه وعنقه كى يلطف ـ ولو إلى حين ـ من حرارة يولية والنار المستعرة فى جوفه ورأسه، فهش لفكرة الماء البارد حتى انبسطت أساريره. ولما جاز باب السلم لاح له الضوء الوانى الهابط من أعلى يتحرك على الجدران واشيا بحركة اليد القابضة على المصباح، فرقى على السلم يدا على الدرابزين ويدا على عصاه التى بعث طرفها دقات متتابعة اكتسبت من قديم إيقاعا خاصا غدا ينم عنه كما تنم عنه سماته. وعند رأس السلم بدت أمينة والمصباح فى يدها، حتى إذا انتهى إليها توقف وصدره يعلو وينخفض ريثما يسترد أنفاسه، ثم حياها تحيته الليلية المألوفة قائلاً :

ـ مساء الخير . .

فغمغمت أمينة وهى تتقدمه بالمصباح :

ـ مساء الخير يا سيدى ! . .

فى الحجرة هرع إلى الكنبة فتهالك عليها، ثم تخلص من عصاه وخلع طربوشه، وطرح قذاله على المسند مادا ساقيه إلى الأمام حتى انحسر جناحا الجبة عن قفطانه، وكشف القفطان عن رجلى سرواله المتداخلتين فى جوربه، وأغمض عينيه وهو يجفف بمنديله جبهته وخديه وعنقه. على حين كانت أمينة تضع المصباح على الخوان، ثم وقفت تترقب قيامه لتساعده فى نزع ثيابه، وهى تنظر إليه باهتمام مشوب بقلق، وتود لو تواتيها شجاعتها فتسأله أن يعفى نفسه من الدأب على السهر الذى لم تعد تنهض به صحته بالاستخفاف المعهود قديما. ولكنها لم تدر كيف تفصح عن أفكارها الأسيفة! توالت دقائق قبل أن يفتح عينيه، ثم نزع الساعة الذهبية من قفطانه والخاتم الماسى فأودعهما داخل الطربوش، ثم نهض ليخلع الجبة والقفطان بمعاونة أمينة، هناك بدا جسمه كالعهد

به : طولاً ، وعرضًا ، وامتلاء . . لولا شعيرات اغتصبها المشيب من فوديه ، وعندما أدخل رأسه فى طاقة الجلباب الأبيض غلبه الابتسام فجأة ، إذ ذكر كيف تقيأ السيد على عبد الرحيم الليلة فى مجلس الأنس ، وكيف اعتذر عن ضعفه ببرد أصاب معدته . وكيف تعمدوا أن يعيروه به زاعمين أنه لم يعد يحتمل الشراب ، وأنه ليس كل الرجال من يستطيعون معاشرة الخمر إلى نهاية العمر الخ الخ ، وذكر كيف غضب السيد على وجدٍّ فى دفع الريبة عنه ، يا عجبا . . ألهذا الحد يعير بعض الناس أهمية لهذه الأمور التوافه؟! ولكن إذا لم يكن ذلك كذلك! فلم فاخر هو فى صخب الحديث الضاحك بأنه يستطيع أن يشرب حانة دون أن تضطرب له معدة؟!

جلس على الكنبة مرة أخرى ومد ساقيه للمرأة التى راحت تخلع الحذاء والجورب ، وغابت عن الحجرة قليلاً ، وعادت بالطست والإبريق وجعلت تصب له الماء فيغسل رأسه ووجهه وعنقه ويتمضمض ، وأخيرا تربع فى جلسته مستعرضا نسمة الهواء التى تهفو فى لطف ما بين المشربية والنافذة المطلة على الفناء .

ـ ياله من صيف فظيع صيف هذا العام!

فقالت أمينة وهى تسحب الشلتة من تحت السرير ، وتتربع بدورها عليها على كثب من قدميه :

ـ ربنا يلطف بنا (ثم وهى تتنهد) الدنيا كلها كوم وحجرة الفرن كوم! السطح هو المتنفس الوحيد فى الصيف بعد مغيب الشمس .

بدت فى جلستها غيرها بالأمس ، نحفت واستطال وجهها ، أو لعله تراءى أطول مما هو لما حل بالخدين من رقة ، وقد انتشر المشيب فيما انحسر عنه منديل رأسها من خصلات ، فأضفى عليها روح كبر أكثر مما تستحق . . وغلظت الشامة فى وجنتها قليلاً ، على حين نمت عيناها ـ إلى نظرة الخضوع القديمة ـ عن شرود مُزج بالحزن ، كما اشتدت حيرتها لما طرأ عليها من تغير ، ولئن كانت قد رحبت به بادئ الأمر على سبيل التعزى إلا أنها أخذت تتساءل فى قلق : أليست هى فى حاجة إلى صحتها مادام فى العمر بقية؟ بلى! والآخرون فى حاجة إلى صحتها أيضا ، ولكن كيف يعاد الشىء إلى أصله؟! ثم إنها تقدمت سنين ، لعلها لم تكن بالكثرة التى تبرر هذا التغير ولكنها مما يترك أثرًا ولا شك .

هكذا كانت تقف فى المشربية الليالى المتعاقبة تراقب الطريق من وراء الخصاص ، فترى طريقًا لا يتغير ، والتغير يدب إليها غير متوان . وعلا صوت النادل فى القهوة فتطاير إلى الحجرة الصامتة كالصدى ، فابتسمت وهى تسترق النظر إلى السيد .

ما أحب هذا الطريق الذى يسهر الليالى سامرًا إلى قلبها ، إنه الصديق الغافل عن

القلب الذى يحبه من وراء خصاص، معالمه ملء نفسها، سماره أصوات حية تعيش فى مسامعها، هذا النادل الذى لا يستكن له لسان، وذو الصوت المبحوح الذى يعقب على حوادث اليوم بلا تعب أو ضجر، وذو الصوت العصبى الذى يتصيد بخته فى «الكومى» و«الولد»، ووالد هنية الطفلة المصابة بالسعال الديكى الذى يُسأل عنها فيجيب ليلة بعد أخرى «عند الله الشفاء»، آه. . كأن المشربية ركن من القهوة هى جليسته. كانت ذكريات الطريق ترتسم على مخيلتها وراء عينين لا تفارقان الرأس المتوسد لمسند الكنبة، فلما انقطع التيار تركز انتباهها فى الرجل فتبينت فى صفحتى وجهه حمرة شديدة اعتادت أن تطالعها فى أعقاب الليالى الأخيرة، ولم تكن ترتاح إليها فتساءلت فى إشفاق:

ـ سيدى بخير. . ؟

فاعتدل رأسه، وهو يتمتم:

ـ بخير، والحمد لله (مستدركا) ما أفظع الجو!!

الزبيب خير مسكر فى الصيف. . هكذا قالوا له وأعادوا، ولكنه لا يطيقه، فإما الويسكى وإلا فلا. عليه إذن أن يعانى خمار سكرة صيف ـ وصيف شديد ـ كل ليلة. شد ما ضحك هذه الليلة. . . ضحك حتى كلت عروق عنقه. ولكن فيم كان الضحك؟! لا يكاد يذكر شيئا، وليس هناك شىء يروى أو يعاد، ولكن جو المجلس كان مشحونا بكهرباء لطيفة بحيث إن أى لمسة كانت تحدث اشتعالاً، فما هو إلا أن قال السيد إبراهيم الفار: «أبحر الإسكندرية من سعد اليوم إلى باريس» وكان يقصد أن يقول: «أبحر سعد من الإسكندرية اليوم إلى باريس» حتى انفجروا ضاحكين، فعُدت «نادرة» من نوادر الخمر اللسانية. وابتدروه قائلين: «وسيمكث فى المفاوضة ريثما يسترد صحته، ثم يبحر إلى الدعوة تلبية للندن التى تلقاها من» أو «وسينال رامزاى مكدونالد من الاستقلال على الموافقة» و«سيعود حاملاً مصر إلى الاستقلال»، وجعلوا يتحدثون عن المفاوضة المنتظرة ويعلقون عليها بما يحلو لهم من المداعبات. .

حقًا. . إن دنيا الأصدقاء على رحابتها تتلخص فى ثلاثة: محمد عفت، وعلى عبد الرحيم، وإبراهيم الفار. . فهل يستطيع أن يتصور للدنيا وجودا من دون وجودهم؟! إن إشراق وجوههم بالبشر الصادق حين رؤيته، سعادة لا تدانيها سعادة. التقت عيناه الحالمتان بعينى أمينة المستطلعتين، فقال وكأنه يذكرها بأمر هام:

ـ غدا. .

فقالت، وقد شاعت فى وجهها ابتسامة:

ـ كيف أنسى!

فقال بشىء من الفخار لم يحاول مداراته:

ـ قيل لى إن نتيجة البكالوريا كانت سيئة هذا العام . .

فقالت وهى تشاركه فخاره بمعاودة الابتسام :

ـ ربنا ينجح مقاصده ، ويمد فى عمرنا حتى نشهد نجاحه فى الدبلوم . .

فتساءل :

ـ هل ذهبت اليوم إلى السكرية؟

ـ نعم ، ودعوتهم جميعا ، وسوف يحضرون إلا الست الكبيرة التى اعتذرت بتعبها ، فقالت : إن ابنيها سينوبان عنها فى تهنئة كمال .

فقال السيد ، وهو يومئ بذقنه صوب جبته :

ـ جاءنى اليوم الشيخ متولى عبد الصمد بأحجبة لأولاد خديجة وعائشة ، ودعا لى قائلاً : «إن شاء الله أعمل لك أحجبة لأولاد أحفادك» .

ثم وهو يهز رأسه باسما :

ـ لا شىء على الله ببعيد ، ها هو الشيخ متولى نفسه كالحديد رغم الثمانين ! . .

ـ ربنا يمتعك بالصحة والعافية !

فتفكر مليا ، وهو يعد على أصابعه ، ثم قال :

ـ لو امتد العمر بأبى ـ رحمه الله ـ ما زاد على عمر الشيخ كثيرا . .

ـ رحم الله الراحلين .

وخيم الصمت ريثما ذهب الأثر الذى تركه ذكر «الراحلين» ، ثم قال الرجل بلهجة من تذكر أمرا هاما :

ـ زينب خطبت !

اتسعت عينا أمينة ، وهى ترفع رأسها قائلة :

ـ حقا؟! . .

ـ نعم ، أخبرنى محمد عفت بذلك الليلة ! . .

ـ من؟

ـ موظف يدعى محمد حسن ، رئيس إدارة المحفوظات بالمعارف .

فتساءلت بوجوم :

ـ يبدو أنه متقدم فى السن؟

فقال كالمعترض :

ـ كلا ، فى الحلقة الرابعة ، خمسة وثلاثين . . ستة وثلاثين . . أربعين عاما على الأكثر !

ثم بلهجة تهكمية :

ـ جربت حظها مع الشباب فأخفقت، أعنى الشباب الذين لا يرفعون رأسا، فلتجرب حظها مع الرجال العقلاء!

فقالت أمينة بأسف :

ـ كان ياسين أولى بها، على الأقل من أجل خاطر ابنهما . .

كان هذا رأى السيد، وعنه دافع طويلا لدى محمد عفت، بيد أنه لم يعلن موافقته على رأيها مداراة لخيبة مسعاه، فقال متسخطًا :

ـ لم يعد للرجل به من ثقة، والحق أنه غير جدير بالثقة، لذلك لم ألح عليه، لم أقبل أن أستغل صداقتنا فى حمله على ما لا خير فيه .

فغمغمت أمينة فى شىء من الإشفاق :

ـ هفوة شباب لا يضيق عنها العفو!

هان على السيد أن يعترف بجانب من مسعاه الخائب، فقال :

ـ لم أقصر فى حقه ولكنى لم أصادف ترحيبا، وقال لى محمد عفت برجاء : «إن السبب الأول فى اعتذارى هو إشفاقى من تعريض صداقتنا إلى الشقاق»، وقال لى أيضا : «لا أستطيع أن أرفض لك رجاء، ولكن صداقتنا أعز لدىَّ من رجائك» . . فأمسكت عن الكلام .

قال محمد عفت هذا حقًا، ولكنه لم يصرح به إلا مدافعة لإلحاحه . والحق أن السيد كان شديد الرغبة فى وصل ما انقطع من مصاهرة محمد عفت لمكانته من نفسه ومكانة أسرته من المجتمع، ولم يكن يطمع فى أن يجد لياسين زوجة خيراً من زينب، ولكنه لم يسعه إلا التسليم بالهزيمة، خاصة بعد أن صارحه الرجل بما يعلم عن حياة ياسين الخاصة، حتى قال له : «لا تقل لى إننا نحن أنفسنا لا نختلف عن ياسين، فالحق أننا نختلف بعض الشىء، والحق أنى لا أرتضى لزينب ما ارتضيت لأمها!» .

تساءلت أمينة :

ـ هل علم ياسين بما كان؟

ـ سيعلم غدا أو بعد غد، هل ترينه يكترث لذلك؟ . إنه أبعد ما يكون عن تقدير الزيجة المشرفة . .

فهزت أمينة رأسها أسفا، ثم تساءلت :

ـ ورضوان؟

فقال السيد مقطبا :

ـ سيبقى عند جده، أو يلحق بأمه إن لم يصبر على فراقها، الله يحير من حيره. . !

ـ مسكين يا ربى، أمه فى ناحية وأبوه فى ناحية، أتطيق زينب فراقه. . ؟

فقال السيد فيما يشبه الازدراء:

ـ للضرورة أحكام (ثم متسائلا) متى يبلغ السن؟ . . ألا تذكرين؟

فتفكرت أمينة قليلاً، ثم قالت:

ـ إنه أصغر قليلاً من نعيمة بنت عائشة، وأكبر قليلاً من عبد المنعم ابن خديجة، فيكون فى الخامسة يا سيدى، سوف يسترده أبوه بعد عامين، أليس كذلك يا سيدى؟

قال السيد، وهو يتثاءب:

ـ يا ترى من يعيش (ثم مستطردا) وكان متزوجًا، أعنى الزوج الجديد!

ـ وله أولاد؟

ـ كلا لم ينجب من زوجه الأولى.

ـ لعل هذا ما حسنه فى عينى السيد محمد عفت. .

فقال السيد بامتعاض:

ـ ولا تنسى مقامه. .

فقالت أمينة معترضة:

ـ لو أن الأمر أمر مقام ما عدل بابنك أحدا، على الأقل من أجلك أنت.

فشعر باستياء حتى لعن فى سره ـ على حبه ـ محمد عفت، ولكنه عاد يجر خطا تحت النقطة التى يتعزى بها، فقال:

ـ لا تنسى أنه لولا حرصه على أن يضع صداقتنا فى حرز حريز ما تردد عن قبول رجائى. .

فقالت أمينة معربة عن نفس الإحساس:

ـ طبعًا، طبعا يا سيدى، إنها صداقة العمر، وليست لهوا ولعبًا.

عاوده التثاؤب مرة أخرى، فتمتم قائلاً:

ـ خذى المصباح خارجا. .

قامت أمينة لتنفيذ أمره فأغمض عينيه قليلاً، ثم نهض دفعة واحدة كأنما ليقاوم الكسل واتجه نحو الفراش فاستلقى عليه. . إنه الآن خير حالاً!! ما أهنأ الرقاد بعد التعب!! أجل. لا يخلو رأسه من نبض قارع، ولكن رأسه لا يكاد يخلو من شىء ما، فليحمد الله على أى حال. ! الصفاء الكامل ماض مضى، ثمة شىء نفتقده كلما خلونا

إلى أنفسنا ولكنه لا يعود، يلوح لنا من الماضى بذكرى شاحبة كهذا الضوء الخافت الذى تشف عنه شراعة الباب. فليحمد الله على أى حال!! ولينعم بحياة يغبطه عليها الغابطون!! الأجدى أن يقطع برأى فيما إذا كان سيقبل الدعوة أم لا، أو فليدع ما للغد للغد، إلا ياسين. . فإنه مسألة الأمس واليوم والغد، ليس صغيراً من بلغ الثامنة والعشرين، وليس المشكل أن يبحث له عن زوجة أخرى، ولكن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. متى تسطع هداية الله فتملأ الأرض حتى يبهر نورها الأعين؟ هنالك يهتف من الأعماق أن الحمد لله، ولكن ما ذا قال محمد عفت؟ إن ياسين يصول ويجول فى الأزبكية حتى سراديبها. . كانت الأزبكية مغنى آخر حينما كان هو يصول فيها ويجول، وهزه الحنين مرات إلى معاودة بعض مشاربها إحياء للذكريات، فليحمد الله على أنه علم بسر ياسين قبل أن يقدم، وإلا لضحك الشيطان من أعماق قلبه الهازئ. أوسعوا الطريق للأبناء فقد شبوا، عنها صدك الأستراليون أول الأمر، وأخيراً هذا البغل الأسترالى.

٢

تتابعت دقات العجين من حجرة الفرن فى هدأة السحر مع صياح الديكة، كانت أم حنفى مكبة على جرة العجين بجسمها اللحيم، يلوح وجهها ريان على ضوء المصباح المنبعث من فوق سطح الفرن لم ينل الكبر من شعرها ولا شحمها ولكن شابت ملامحها جهامة واخشوشنت قسماتها، وإلى يمينها قعدت أمينة على كرسى المطبخ تفرش ألواح العجين بالردة استعداداً لاستقبال الأقراص، تواصل العمل ـ فى صمت ـ حتى توقفت أم حنفى عن العجين. فاستخرجت يدها من الجرة ومسحت على جبينها المبتل بالعرق ببطن مرفقها، ثم لوحت بقبضتها المغطاة بالعجين كقفاز ملاكمة أبيض، وقالت:

ـ أمامك يا ستى يوم شاق ولكنه لذيذ، كثّر الله من أيام السرور. .

فغمغمت أمينة دون أن ترفع رأسها عن عملها:

ـ علينا أن نقدم مائدة شهية.

فابتسمت أم حنفى، وهى تومئ بذقنها إلى سيدتها، قائلة:

ـ البركة فى المعلمة.

ثم غرست يديها فى الجرة مرة أخرى، وعادت إلى ملاكمة العجين.

ـ وددت لو قنعنا بتوزيع الثريد على فقراء الحسين.

فقالت أم حنفى بلهجة معاتبة :

ـ لن يكون بيننا غريب .

فتمتمت أمينة بصوت لم يخل من ضيق :

ـ ولكنها وليمة وضجة على أى حال ، فؤاد بن جميل الحمزاوى نال البكالوريا أيضًا ، ولا من رأى ولا من سمع ! !

ولكن أم حنفى أصرت على المعاتبة ، قائلة :

ـ ما هى إلا فرصة نجتمع فيها بمن نحب . .

كيف تكون مسرة دون تأنيب أو توجس خيفة . قديمًا استخبرت السنين فأجابت بأن تاريخ ابتدائية هذا سيوافق تاريخ ليسانس ذاك ، حفل لم يجئ ونذر لم يوف ١٩ . . ٢٠ . . ٢١ . . ٢٢ . . ٢٣ . . ٢٤ . شباب العمر اليافع الذى حرمت من احتضان ينعه ، من قسمة التراب كان ، يا انصداع القلب الذى يسمونه الحسرة .

ـ ستفرح ست عائشة بالبقلاوة ، وتذكر أيام زمان يا ستى . .

ستفرح عائشة وأم عائشة ستفرح أيضًا ، نهار وليل وشبع وجوع ويقظة ونوم ، وكأن شيئا لم يكن . سلى الزعم الذى زعم بأنك لن تعيشى بعده يومًا واحدًا ، عشت لتحلفى بتربته ، إذا زلزل القلب فليس معناه أن تزلزل الدنيا ، كأنه نسىّ منسىّ حتى تزار المقابر ، كنت ملء العين والنفس يا بنى ثم لا يذكرونك إلا فى المواسم ، أين أنتم يا هؤلاء؟ كل مشغول بشواغله ، إلا أنت يا خديجة قلب أمك وروحها حتى وصيتك يوما بالصبر ، لم تكن كذلك عائشة ، مهلا! لا ينبغى أن أكون ظالمة ، حزنت حزنها كما ينبغى ، كمال لا لوم عليه ، رفقا بالقلوب الغضة ، بات الأول والأخير ، شاب شعرك وصرت كالخيال ، هكذا تقول أم حنفى ، لا كانت الصحة ولا كان الشباب ، تقاربين الخمسين وهو لم يتم العشرين ، حبل ووحم وولادة ورضاعة وحب وآمال ، ثم لا شىء . . ترى هل خلا من الأفكار رأس سيدى؟ دعيه وشأنه! ليس حزن الرجال كحزن النساء ، هكذا قولك يا أمى جعل الله الجنة مثواك ، يحز فى نفسى يا أمى أنه عاد إلى سيرته ، كأن فهمى لم يمت ، وكأن ذكراه قد تبخرت ، بل يلومنى كلما لج بى الحزن ، أليس هو أباه كما أنا أمه؟ . . يا أمينة يا مسكينة . . لا تفتحى صدرك لهذه الأفكار . . لو صح أن نحكم على القلوب بقلب الأم لبدت القلوب أحجاراً . . إنه رجل وليس حزن الرجال كحزن النساء . . لو استسلم الرجال للأحزان لناءت بها كواهلهم المثقلة بالأعباء ، عليك إذا أنست منه حزنًا أن تسرّى عنه . . إنه ركنك يا ابنتى المسكينة» . غاب ذلك الصوت الحنون وصادف فقده قلوبا مترعة بالحزن فلم يكد يبكيه أحد ، وشهد شاهد. حكمتها ليلة عاد فى أخريات الليل ثملا ، ثم ارتمى على الكنبة مجهشا فى البكاء ، وتمنيت

ليلتئذ له السلامة ولو بالنسيان الأبدى، أنت نفسك ألا تنسين أحيانًا؟ ثمة ما هو أفظع من ذلك، هو تمتعك بالحياة وحرصك عليها. هذه هى الدنيا. هكذا يقولون! فترددين ما يقولون وتؤمنين به. كيف جاز لك ـ يومًا ـ بعد هذا أن تحنقى على ياسين برءه ومواصلته مألوف الحياة! مهلا، الإيمان والصبر.. سلمى إلى الله، فكل ما جاءك من عنده، «أم فهمى» إلى الأبد، سوف أظل ما حييت أمك يا بنى وتظل ابنى..

تتابعت دقات العجن، ففتح السيد عينيه على نور الصباح الباكر، وراح يتمطى ويتثاءب بصوت مرتفع ممطوط، تصاعد كالتذمر أو الاحتجاج، ثم جلس فى الفراش مستندا براحتيه على ساقيه الممدودتين، فبدا ظهره مقوسا وقد نضح أعلى الجلباب الأبيض بالعرق، وجعل يحرك رأسه يمنة ويسرة كأنما لينفض عنه وطأة الوخم، ثم انزلق إلى أرض الحجرة، ومضى متهاديًا إلى الحمام إلى الدش البارد.. الدواء الوحيد الذى يغير عليه بدنه فيعيد إلى رأسه اتزانه وإلى نفسه اعتدالها، تجرد من ثيابه، ولما تعرض لرشاش الماء وردت ذهنه ذكرى الدعوة التى وجهت إليه أمس، فخفق فؤاده الذى تلقى الذكرى والإحساس المنعش بالماء البارد معًا، على عبد الرحيم قال: «نظرة إلى الوراء، إلى حبيبات زمان، لا يمكن أن تمضى الحياة هكذا إلى الأبد، إنى أعرف الناس بك». أيقدم على هذه الخطوة الأخيرة؟ خمس سنوات مضت وهو يأبى أن يخطوها. أكان تاب إلى الله توبة مؤمن مصاب؟ أم أضمر التوبة وخاف أن يجهر بها؟ أم أطلقها نية صادقة دون تورط فى التوبة؟.. لا يذكر، ولا يريد أن يذكر، ليس صغيراً من يدنو من الخامسة والخمسين. ولكن ما لفكره قد تقلقل وتزلزل؟! كحاله يوم دعى إلى السماع فلبى، هل يلبى النداء إلى حبيبات زمان بالمثل؟ متى يبعث الحزن ميتا؟ هل أمرنا الله أن نهلك أنفسنا وراء من نحبهم إذا ذهبوا؟!.. فى عام الحداد والتقشف كاد الحزن يقتله قتلا، عام طويل لم يذق فيه شرابا، ولم يسمع نغما، ولم تند عن فيه ملحة حتى شابت شعيراته.. أجل لم يتسلل الشيب إلى شعره إلا فى ذلك العام، رغم أنه عاد إلى الشراب والسماع رحمة بالأصدقاء المقربين الذين انقطعوا عن اللذات إكراما لحزنه، كذب وصدق، عاد إلى الشراب لنفاد صبره ورحمة بالأصدقاء الثلاثة، لم يكونوا كالآخرين، وما على الآخرين من ملام، حزنوا لحزنك، ثم جعلوا يراوحون بين مجلسك الجاف ومجالسهم الندية فأى تثريب عليهم؟! بيد أن الثلاثة المحبين أبوا أن ينالوا من الحياة نصيبا أوفى مما ارتضيت لنفسك، وعدت رويدا إلى أشياء، إلا المرأة رأيتها كبيرة فلم يلحوا عليك أول الأمر، لشد ما تأبيت وحزنت، لم يؤثر فيك رسول زبيدة، رددت أم مريم بوقار حزين حازم وأنت تكابد آلاما لا قبل لك بها، ظننت أن لن تعود أبدا، وخاطبت نفسك المرة تلو المرة.. «أأعود إلى أحضان الغوانى وفهمى فى قبضة التراب؟!» آه.. ما أحوجنا فى ضعفنا وتعاستنا إلى الرحمة!! فليداوم على الحزن من يضمن ألا يموت غدًا، من قائل

هذه الحكمة؟ واحد من اثنين : على عبد الرحيم أو إبراهيم الفار . محمد عفت بك لا يجود بالحكم . رفض رجائى ، وزوج البنت من رجل غريب ، ثم ضحك علىَّ بالقبل ، لا ينكر غضَبه ويشفق من أن يطالعنى به كما وقع قديمًا ، لله هو أى وفاء وأى ود أتذكر كيف امتزج دمعه بدمعك فى القرافة؟ ولكنه القائل فيما بعد «أخاف عليك الكبر إن لم تفعل . . تعال إلى العوامة». ولما آنس ترددًا قال : «لتكن زيارة بريئة . . لن يجردك أحد من ملابسك ويرميك على امرأة». لم أحزن قليلا علم الله ، بموته مات جزء جسيم منى . مات أملى الأول فى الدنيا ، منذا يلومنى على الصبر والعزاء؟ ، قلبى جريح وإن ضحك! ترى ، كيف هنَّ؟ ، ماذا فعل بهن الزمان فى خمسة أعوام؟ . خمسة أعوام طوال؟

* * *

كان شخير ياسين أول ما تلقى كمال من عالم اليقظة ، فلم يتمالك أن يناديه وهو إلى معاكسته أرغب منه إلى إيقاظه فى ميعاده ، ولاحقه بصوته غير متوان حتى رد عليه الآخر بصوت كالنزع تشكيًا وتذمراً ، ثم تقلب بجسمه الضخم فطقطق الفراش فيما يشبه الأنين والتوجع ثم فتح عينين حمراوين وتأوه .

لم يكن ثمة ـ فى رأيه ـ ما يدعو إلى هذه العجلة ما دام أحد منهما لن يذهب إلى الحمام قبل عودة الأب منه ، لم يعد من اليسير استعمال حمام الدور الأول منذ قضى التنظيم الجديد للبيت ـ منذ خمسة أعوام ـ بنقل الحجرات إلى الدور الأعلى فيما عدا حجرة الاستقبال والصالة المتصلة بها التى فرشت بأثاث بسيط باعتبارها مدخلا لها ، ومع أن ياسين وكمال لم يرحبا ـ قط ـ بالإقامة مع الأب فى دور واحد ، إلا أنهما لم يجدا بدًا من احترام الرغبة فى مقاطعة الدور الأول الذى لم تعد تدخله قدم إلا حين يلم بالبيت زائر ، أغمض ياسين عينيه ، ولكنه لم ينم لا لأن معاودة النوم كانت عبثًا فحسب ـ ولكن لأن صورة انبعثت فى خياله فأشعلت إحساسه . . وجه مستدير ، تتوسط صفحته العاجية عينان سوداوان . مريم ! فاستجاب لداعى الأحلام . . واستسلم لتخدير ألذ من تخدير المنام .

قبل أشهر معدودات ، لم تكن بالنسبة إليه موجودة قط ، وكأنها لم تكن ، حتى سمع أم حنفى تتحدث ـ ذات مساء ـ إلى امرأة أبيه ، فتقول : «أما سمعت بالخبر يا ستى؟ . . ست مريم طلقت من زوجها وعادت إلى أمها» هنالك عاوده ذكر مريم ، وفهمى ، والجندى الإنجليزى ، صديق كمال وإن غاب عنه اسمه ، ثم ذكر بالتالى اهتمامه القديم بشخصيتها الذى جاش بها صدره عقب ذيوع الفضيحة ، ما يدرى إلا وقد أضاءت فجأة فى نفسه لوحة معبرة ، كما تضىء الإعلانات الكهربائية فى الليل ، سُطِّر عليها «مريم . . جارتك . . الجدار لصق الجدار . . مطلقة . . ذات تاريخ وأى تاريخ . . أبشر» ، ولكنه ما

لبث أن جفل من نفسه، لأن اقترانها بذكرى فهمى صده وآلمه وأهاب به أن يغلق هذا الباب وأن يُحكم إغلاقه، وأن يندم ـ إن كان ثمة ندم ـ على فكرة خفية عابرة، صادفها بعد ذلك فى الموسكى مع أمها، فالتقت الأعين على سهوة، ولكن سرعان ما لاح فيها العرفان، ونمت بسمات لا تكاد ترى بالعين المجردة عن عرفانها، فتحرك قلبه، تحرك للعرفان ـ فسحب ـ أول الأمر، ثم للطيف الأثر الذى خلّفه وجه عاجى مكحول العينين، وجسم نابض بالفتوة والحيوية، ذكّره بزينب فى إبّانها. . فمضى إلى طيّته متفكرًا هائجًا. غير أنه بعد خطوات، أو حال هبوطه إلى قهوة أحمد عبده، هفت عليه ذكرى محزنة بعثت فى قلبه الشجن، بُعث فهمى فى خياله بشتى ذكرياته: صورته وأماراته وأسلوبه فى الحديث والحركة ففتر وجده وباخ وغشيه حزن غليظ، يجب أن ينتهى كل شىء. . لِمَ؟. .

عاد يتساءل بعد ساعة، أو بعد أيام، فكان الجواب: فهمى. . أية علاقة بين الاثنين؟. . ود يوما أن يخطبها، ولِمَ لَمْ يفعل؟. . أبوك لم يوافق. فقط؟. . هذا فى الأقل أصل المسألة. ثم؟. . جاءت فضيحة الإنجليزى، فمحت ما بقى من أثر باهت. . أثر باهت؟. . أجل لأنه على الأرجح كان نسى. إذن نسى أولا، ونبذ أخيرًا؟ نعم، فأية علاقة هنالك؟. . لا علاقة؟، ولكن!!. . أعنى شعور الأخوة، هل يمكن أن يرقى شك إلى شعورك؟. . كلا وألف مرة كلا. الفتاة تستحق. . ؟. . نعم، وجها وجسما؟. . وجها وجسما فما انتظارك؟. .

فى النافذة كان يلمحها حينا بعد حين، ثم فوق السطح. . فوق السطح مرات، ومرات. .

لِمَ طلقت؟. . لسوء فى خلق زوجها، فيكون الطلاق من حسن حظها. أو لسوء فى خلقهَا فيكون الطلاق من حسن حظك أنت.

ـ قم وإلا غلبك النوم.

ـ فتثاءب وهو يتخلل شعره الملهوج بأصابعه الغلاظ، ثم قال:

ـ يا بختك بعطلتك المدرسية الطويلة!

ـ ألم أستيقظ قبلك؟

ـ ولكن بوسعك أن تواصل النوم إذا شئت. .

ـ لا أشاء كما ترى. .

ضحك ياسين ضحكة لا معنى لها، ثم تساءل:

ـ ما اسم الجندى الإنجليزى صديقك القديم؟

ـ أوه. . جوليون. . .

ـ أجل جوليون . .

ـ ما الذى دعاك إلى السؤال عنه؟

ـ لا شىء !!

لا شىء؟ . ما أسخف لساننا، أليس ياسين خيرًا من جوليون؟ . فى الأقل جوليون عابر وياسين مقيم، فى وجهها شىء يبتسم إليك دواما، ألم تلاحظ مثابرتك على الظهور فوق السطح؟ بلى وذكر جوليون، ليست ممن يفوتهن معنى، ردَّت تحيتك . . . أول مرة أدارت رأسها باسمة، فى المرة الثانية ضحكت، ما أجل ضحكتها ! فى الثالثة أشارت إلى أسطح البيوت محذرة، سأعود بعد الغروب . هكذا قلت فى جرأة، ألم يرسل جوليون إشارته من الطريق العام؟

ـ لشد ما أحببت الإنجليز فى صغرى ! . . انظر كيف أمقتهم الآن مقتا . .

ـ سعد بطلك سافر ينشد صداقتهم !

هتف كمال بحدة:

ـ والله لأبغضنهم ولو وحدى . .

وتبادلا نظرة أسى صامتة، تناهى إليهما وقع قبقاب السيد وهو راجع إلى حجرته مبسملا محوقلا، فانزلق ياسين إلى الأرض وغادر الحجرة وهو يتثاءب .

تقلب كمال على جنبه ثم استلقى على ظهره مسترخيا وثنى ساعديه شابكا راحتيه تحت رأسه، ومضى ينظر فيما أمامه بعينين لا تريان شيئا . . لتسعد بك رأس البر، لم تخلق بشرتك الملائكية لتصلَى حر القاهرة، فلتطب بموطئ قدميك الرمال، وليهنأ بمشهدك الماء والهواء، سوف تشيدين بالمصيف، وعيناك تنطقان بالمسرة والحنين، فأتطلع إليهما بقلب مشوق وعين تسائل الغيب ـ فى حسرة ـ عن المكان الذى استهواك فاستحق عن جدارة رضاك . . ولكن متى تعودين ومتى ينسكب فى أذنىّ تغريدك المسحور؟، كيف المصيف؟ . ليتنى أدرى . . قيل إنه حرية كالهواء، ولقاء بين أحضان الماء، وأهواء بعدد حبات الرمال . . وخلق كثيرون يحظون بمحياك . . أما أنا . . أنا الذى خفقات قلبه تئن لشكاتها الجدران فأتلظى فى سعير الانتظار . هيهات! أن تنسى وجهك المنطلق بالبشر وأنت تغمغمين: «سنسافر غدًا . . ما أجمل رأس البر!» ولا اكتئابى وأنا أتلقى نذير الفراق من ثغر يومض بسنا السرور كمن يتلقى السم مدسوسا فى طاقة من الزهر الفواح، ولا غيرتى من الجماد الذى قدر على إسعادك حين عجزت وحظى بمودتك حين حرمت . ألم تلحظى حين الوداع اكتئابى؟ . كلا لم تلحظى شيئًا، لا لأنى كنت واحدًا بين كثيرين ولكن لأنك يا حبيبة لا تلحظين . . كأنما كنت شيئا لا يسترعى انتباهك . . أو كأنما أنت مخلوق بديع غريب استوى فوق الحياة يطالعنا من عل بعينين

هائمتين فى ملكوت لا ندريه . . هكذا وقفنا وجها لوجه . . أنت شعلة من سعادة سادرة، وأنا رماد من وجوم وكآبة . . تحظين بحرية مطلقة أو تذعنين لسنن فوق مداركنا، وأنا أدور فى فلكك مجذوبًا بقوة هائلة . . كأنك الشمس، وكأننى الأرض، هل وجدت عند الشاطئ حرية لم تنعمى بها فى مغانى العباسية؟ كلا، وحق قدرك عندى . . لست كالأخريات . . فى حديقة القصر والطريق، آثار عاطرات لقدميك . . وفى قلب كل صديق ذكريات وآمال . . آنسة سهلة ممتنعة، تطوف بنا على غير مثال، كأن الشرق قد استوهبها الغرب فى ليلة القدر . . أى جديد من الجود ترى تهبين إذا امتد الشاطئ وترامى الأفق واكتظ الساحل بالمعجبين؟ أى جديد يا أملى وحسرتى؟! القاهرة فى غيبتك خواء تنضح كآبة ووحشة، كأنها عكارة الحياة والأحياء . . ثمة مناظر ومعالم، ولكنها لا تخاطب وجدا ولا تحرك قلبا، كأنها عاديات الدنيا وذكرياتها فى قبر فرعونى لم يفض . . ما من مكان بها يعدنى بعزاء أو تسلية أو مسرة. أخالنى حينا مختنقا وحينا سجينا وحينا مفقودًا ضالاً غير مفتقد. يا عجبا أكان وجودك ينيل أملا أفقدنيه البعاد؟ كلا يا قضائى وقدرى، ولكنك كالأمنية الاستظلال بجناحها برد وسلام وإن اعتصمت بالمحال، هل يغنى المشتاق المتطلع إلى ظلمة السماء معرفته . . أن البدر يسطع فوق المكان الآخر من الأرض؟ . . كلا وإن لم يدر للبدر امتلاكًا. إنما أطمع إلى الحياة فى صميمها ونشوتها ولو بفادح الألم، بل أنت حالة فى ما خفق الفؤاد والفضل لهذا المخلوق السحرى: الذاكرة. عن إعجازها غفلت حتى عرفتك، اليوم أو غداً أو بعد دهر فى العباسية أو رأس البر أو فى أقصى الأرض لن تبرح مخيلتى عيناك السوداوان الساجيتان، وحاجباك المقرونان، وأنفك السوى اللطيف، ووجهك الدرى الخمرى، وجيدك الطويل، وقامتك الهيفاء، وما شئت من سحر يكتنفك مزريا بكل وصف مسكرا كعرف الفل والياسمين، لأملكن هذه الصورة ما ملكت الحياة، وبعد الحياة لتقوضن عوائق وموانع فيكون المصير إلىّ . . إلىّ وحدى بما أحببت هذا الحب كله . . وإلا فخبرينى عن معنى لهذه الحياة ينشد أو عن طعم للخلود يرام، لا تزعم أنك سبرت جوهر الحياة إلا أن تحب، السمع والبصر والذوق والجد واللهو والمودة والظفر مسرات تهوى عند من فعم الحب قلبه، من أول نظرة يا قلبى. ما ارتدت عنها عيناى حتى آمنت بأنها زيارة مقيم لا زيارة عابر، لحظة خاطفة حاسمة، ولكن فى مثلها تخلق الأرواح فى الأرحام وتزلزل الأرض . . رباه لم أعد أنا . . قلبى تلاطمه جدران الأضلع، أسرار السحر تنفث معانيها، العقل يتمادى حتى يمس الجنون، اللذة تسطع حتى تعانق الألم، وأوتار الوجود والنفس تجود بالنغم المكنون، دمى يصرخ مستغيثا لا يدرى مم يستغيث، الأعمى يبصر والكسيح يسير والميت يحيا، حلفتك بكل عزيز ألا تذهبى أبداً، أنت يا إلهى فى السماء وهى فى الأرض، آمنت بأن ما مضى من حياتى كان تمهيداً لبشارة الحب، لم أمت صغيراً ولم

ألحق بمدرسة غير فؤاد الأول، ولم أصادق أول ما صادقت من تلاميذها حسين ولم . . ولم . . كل أولئك كى أدعى يومًا إلى قصر آل شداد، يا للذكرى! يكاد القلب من وقعها يقتلع، كنت وحسين وإسماعيل وحسن منهمكين فى شتى الأحاديث حين ورد مسامعنا صوت رخيم محييا، التفت وأنا من الذهول فى غاية . . من تكون القادمة؟ . . كيف لفتاة أن تقتحم على غرباء مجلسهم؟ . . ثم سرعان ما انقطعت عن التساؤل . . وتناسيت التقاليد جميعًا . . وجدتنى حيال مخلوق لا يمكن أن يكون من هذه الأرض جاء . بدت وكأنها صديقة للجميع إلاى، فقال حسين يعارف بيننا : «صديقى كمال . . أختى عايدة» ليلتئذ عرفت لمَ خلقت . . لمَ لمْ أمت . . لمَ دفعتنى المقادير إلى العباسية، وحسين، وقصر آل شداد، متى كان ذلك؟ . كان الزمَان نسيًا منسيًا وا أسفاه! إلا اليوم، كان يوم الأحد . . عطلة مدرستها الفرنسية الذى صادف عطلة رسمية لعلها مولد النبى، وعلى اليقين كانت مولدى أنا، ما قيمة التاريخ؟ سحر التقويم أنه يوهمنا بأن الذكرى تُبعث حية وتعود ولو أن شيئا لا يعود، لن تفتأ تجد فى البحث عن التاريخ، ولن تفتأ تردد : مطلع السنة الثانية بالمدرسة . . أكتوبر نوفمبر . . حين زيارة سعد للصعيد وقبل نفيه للمرة الثانية . . مستخبراً الذاكرة والشواهد والأحداث وليس إلا أنك تتشبث تشبث اليائس باستعادة سعادة مفقودة وعهد مضى إلى الأبد . لو مددت يدك عند التعارف كما كدت لصافحتك فعرفت مسها، وهو ما تتخيله حينا بعد حين بشعور ملؤه الشك والهيام، كأنما هى مخلوق غير جسمانى لا مس له . . وهكذا ضاعت فرصة كالحلم كما ضاع الزمان، ثم أقبلت على صديقيك تحادثهما ويحادثانها ـ بغير كلفة ـ وأنت قابع فى مقعدك تحت الكشك تكابد حيرة المتشبع بتقاليد حى الحسين، حتى عدت تتساءل : ترى، أهى تقاليد خاصة بالقصور، أم نفحة من باريس التى نشأ المعبود بين أحضانها؟ . . ثم تستغرق فى رخامة الصوت وتستطعم نبراته وتنتشى بتغريده وتمتلئ بكل حرف يند عنه، ولعلك ـ يا مسكين ـ لم تدرك وقتها أنك تولد من جديد، وأنك كالوليد سوف تستقبل دنياك الجديدة بالارتياع والدموع . وقالت ذات الصوت الرخيم : «سنذهب هذا المساء لمشاهدة الغندورة» . فسألها إسماعيل باسما : «أتحبين منيرة المهدية؟» . . فترددت كما ينبغى لآنسة نصف باريسية، ثم أجابت : «ماما تحبها»، ثم اشترك حسين وإسماعيل وحسن فى حديث عن منيرة وسيد درويش وصالح وعبد اللطيف البنا، ثم ما أدرى إلا والصوت الرخيم يسأل : «وأنت يا كمال، ألا تحب منيرة؟»، أتذكر ذلك النداء الذى نزل على غير انتظار؟ أعنى أتذكر النغمة الطبيعية التى تجسمها؟ لم يكن قولاً، ولكن نغمًا وسحراً استقر فى الأعماق كى يغرد دوما بصوت غير مسموع ينصب فؤادك إليه فى سعادة سماوية لا يدريها أحد سواك، كم روعك وأنت تتلقاه، كأن هاتفًا من السماء اصطفاك فردد اسمك، سقيت المجد كله والسعادة كلها والامتنان كله فى نهلة واحدة وددت بعدها لو تهتف مستنجداً : «زملونى . . دثرونى»، ثم أجبت وإن كنت لا أذكر بماذا أجبت،

لبثت دقائق ثم ودعتنا ومضت، فى عينيها السوداوين نظرة أنيقة، تنم إلى جمالها الفاتن عن صراحة محببة وجرأة مصدرها الثقة ـ لا الاستهتار أو القحة ـ وترفع مروع، كأنما تجذبك وتدفعك معًا. . جمالها فتنة لا أدرك له كنها ولا أدرى له شبها، وكان يخيل إلىّ كثيراً أنه ليس إلا ظلا لسحر أعظم يكمن فى شخصها. . من أجل أى هذين أحبها؟ . . كلاهما لغز، ولغز ثالث هو حبى. يتراجع ذلك اليوم كل يوم يومًا إلا أن ذكرياته ناشبة فى قلبى أبدًا. لبناتها مكان وزمان وأسماء وصحاب وأحاديث يتقلب القلب فى جنباتها نشوان حتى يخال أنها الحياة جميعًا، فيتساءل فيما يشبه الشك: هل كانت ثمة وراء ذلك حياة؟ . . هل حقًا مضى زمن قبلها خلا من الحب قلبى وأقفرت من تلك الصورة الإلهية نفسى؟ ربما أسكرتك السعادة حتى تحزن على ما ضاع من ماض جديب وربما لسعك الألم حتى تذوب حسرات على السلام الذى ولى، وبين هذا وذاك لا يجد قلبك إلى الاستقرار سبيلاً، فيمضى ملتمسا الشفاء فى شتى العقاقير الروحية، يستمدها من الطبيعة آنا، ومن العلم آنا، ومن الفن حينا، وفى العبادة أحيانا كثيرة. . قلب استيقظ فانطلقت من صميمه شهوة مولعة بالمسرات الإلهية. . أيها الناس حبوا أو موتوا. . لسان حالك وأنت تسير مزهواً فخوراً بما تحمل بين جنبيك من نور الحب وأسراره. . يزدهيك علو فوق الحياة والأحياء، ويصل أسبابك بالسموات جسر مفروش بورود السعادة، وأنت أنت الذى تخلو حينا آخر إلى نفسك فتطغى عليك حساسية أليمة مريضة بإحصاء النقائص وتقصيها بلا رحمة فى كائنك الصغير ودنياك المتواضعة وهناتك الآدمية. . رباه، كيف تخلق نفسك من جديد؟ هذا الحب طاغية يتيه فوق كافة القيم وفى ركابه يتألق معبودك، لا تكمله الفضائل ولا تنقصه المثالب، النقيصة تلوح فى تاجه الدرى حسنا يشغلك إعجابًا، هل أزرى بها فى نظرك أن تخرج على التقاليد المرعية؟ كلا، بل إن خروجها بالتقاليد المرعية أزرى. يطيب لك أحيانًا أن تسأل نفسك: ماذا تروم من حبها؟ أجب بكل بساطة: أن أحبها، أيجوز أن تنبثق فى النفس هذه الحياة كلها ثم يتساءل عن غاية وراءها؟ لا شىء وراءها. العادة هى التى ربطت بين لفظى الحب والزواج، ليست فوارق السن والطبقة هى وحدها التى تجعل من الزواج غاية مستحيلة فى مثل حالى، ولكنه الزواج نفسه، بما يستنزل الحب من سمائه إلى أرض العقود والعرق. . ويسألك الذى يأبى إلا أن يحاسبك، بم جادت عليك لقاء التهالك فى حبها؟ أجبه بلا تردد: ابتسامة فاتنة، و«يا كمال» الغالية، وزيارتها للحديقة فى الأوقات السعيدة النادرة، وترائيها مع الصباح الندى، وسيارة المدرسة تمضى بها، ومعابثتها الخيال فى سبحات اليقظة وتهويم الأحلام. ثم تسألك النفس الطماعة المجنونة: أمن المحال أن يكون المعبود مشغولا بأمر عابده؟ . . أجبها غير مستسلم لإغراء الآمال الكواذب: حسن أن يذكر عند العودة اسمنا. . ». .

ـ بسرعة إلى الحمام، هل تأخرت؟!

مالت عينا كمال ـ وقد لاح فيهما رجع المفاجأة ـ إلى ياسين الذى عاد إلى الحجرة وهو ينشف رأسه بالفوطة، ثم وثب إلى الأرض فبدا فرعه الطويل نحيفا، وألقى نظرة طويلة على المرآة كأنما يتفحص رأسه الضخم وجبينه البارز وأنفه الذى تراءى لكبره وقوته كأنه منحوت من الجرانيت، ثم تناول فوطته من على شباك السرير ومضى إلى الحمام.

وكان السيد أحمد قد فرغ من الصلاة، فعلا صوته الغليظ بالدعاء المعتاد للأولاد ولنفسه، سائلاً الله الهداية والستر فى الدارين.. وفى أثناء ذلك كانت أمينة تعد المائدة، ثم ذهبت إلى حجرة السيد، فدعته ـ بصوتها الوديع ـ إلى تناول الفطور، واتجهت إلى حجرة ياسين وكمال فكررت الدعوة.

اتخذ الثلاثة أماكنهم حول الصينية، وبسمل الأب وهو يتناول رغيفا معلنا بدء الأكل، فتبعه ياسين ثم كمال، على حين وقفت الأم وقفتها التقليدية إلى جانب صينية القلل. كان مظهر الأخوين يدل على الأدب والخشوع، ولكن خلا قلبهما ـ أو كادا ـ من الخوف الذى كان يركبهما ـ قديمًا ـ فى حضرة الأب، ياسين: لأن بلوغه الثامنة والعشرين منحه امتيازاً من امتيازات الرجولة، وضمانًا ضد الإهانات الجارحة والاعتداءات التعيسة، وكمال: لأن بلوغه السابعة عشرة، وتقدمه فى الدراسة وهباه نوعًا من الضمان أيضًا إلا يكن بقوة ضمان ياسين، فإنه لم يخل من العفو والتسامح على الأقل فى الهفوات التافهة، إلى أنه آنس من أبيه فى السنوات الأخيرة أسلوبًا من المعاملة تخفف من البطش والإرهاب بدرجة محسوسة، ولم يكن من النادر أن يدور حديث مقتضب بين الآكلين بعد أن كان الصمت يتحكم فى مجلسهم تحكما مخيفًا، إلا أن يسأل الأب أحدهم فيجيب بعجلة ولهوجة ولو بفم ممتلئ بالطعام. أجل لم يعد غريبًا أن يخاطب ياسين أباه، فيقول مثلا: «زرت أمس رضوان فى بيت جده، وهو يقرئكم السلام ويقبل يدكم»، فلا يعد السيد الخطاب جرأة غير محمودة، ولكنه يقول له ببساطة: «ربنا يحفظه ويرعاه».. ولا يبعد عند ذلك أن يتساءل كمال بأدب، محدثا بذلك تطوراً خطيراً فى علاقته التاريخية بأبيه: «متى يستحق رضوان شرعًا لأبيه يا بابا؟». فيجيبه السيد: «عندما يبلغ السابعة»، بدلاً من أن يصيح به: «اخرس يا ابن الكلب»، طاب لكمال يومًا أن يتعرف على تاريخ آخر شتمة تلقاها من أبيه، حتى تذكر أنه كان ذلك قبل عامين على وجه التقريب، أو بعد حبه ـ الذى غدا يؤرخ به ـ بعام، إذ شعر وقتذاك بأن مصادقته لشبان من طراز حسين شداد وحسن سليم وإسماعيل لطيف تتطلب زيادة كبيرة فى مصروفه كى يتأتى له مجاراتهم فى لهوهم البرىء، فشكا أمره إلى أمه راجيًا إياها أن تخاطب أباه فى شأن الزيادة المأمولة، ومع أن مخاطبة الأب ـ فى مثل هذا الأمر ـ لم تكن يسيرة على الأم، إلا أنها هانت بعض الشىء بتغير معاملته لها عقب

وفاة فهمى، فحدثته منوهة بعلاقة جديدة مشرفة لابنها بأصدقاء من «الأكابر»، وعند ذاك دعا السيد كمال، وصب عليه غضبه، حتى صاح به: «هل ظننتنى تحت أمرك أو أمر أصحابك! . . ملعون أبوك وأبوهم»، فغادره كمال خائب الرجاء وقد ظن أن الأمر انتهى عند ذاك. . ولكنه ما يدرى إلا والرجل يسأله عن هوية أصدقائه على مائدة إفطار اليوم التالى، وما أن سمع اسم حسين عبد الحميد شداد، حتى سأله باهتمام: «من العباسية صاحبك؟». فأجاب كمال بالإيجاب، وقلبه يخفق، فقال السيد: «كنت أعرف جده شداد بك، وأعرف أيضًا أباه عبد الحميد بك كان مبعدا فى الخارج لسابق علاقته بالخديو عباس. . أليس كذلك؟»، فأجاب كمال بالإيجاب مرة أخرى، وهو يغالب وجده الذى أهاجه الحديث عن والد معبودته وذكر لتوه ما علم عن الأعوام التى قضتها الأسرة فى باريس، حيث ترعرعت معبودته فى نور مدينة النور، فما تمالك أن شعر نحو أبيه بإجلال وإكبار جديدين ومودة مضاعفة، وعد معرفته لجد معبودته رقية سحرية تنسبه ـ ولو من بعيد ـ إلى منزل الوحى ومبعث السنا. ثم ما لبثت أمه أن زفت إليه بشرى موافقة والده على مضاعفة مصروفه.

منذ ذلك اليوم لم يتعرض لشتمة جديدة، إما لأنه لم يرتكب ما يستوجبها، وإما لأن أباه رأى أن يعفيه من الشتم إطلاقًا. . وقف كمال إلى جانب أمه فى المشربية يشاهدان السيد أحمد فى الطريق، وهو يردد ـ فى وقار ولطف ـ تحيات عم حسنين الحلاق والحاج درويش بائع الفول والفولى اللبان وبيومى الشربتلى، وأبو سريع صاحب المقلى. ثم رجع إلى الحجرة حيث وجد ياسين واقفا أمام المرآة يتأنق فى عناية وصبر. جلس على كنبة بين السريرين، وراح يتأمل جسم أخيه الطويل البدين ووجهه المورد المكتنز بنظرة باسمة غامضة، كان يكن له حبًا أخويًا صادقًا، بيد أنه لم يكن يستطيع ـ كلما أنعم فيه الفكر أو النظر ـ أن يقاوم شعورا خفيا بأنه حيال «حيوان أليف جميل»، على رغم أنه أول من هز أوتار أذنيه بأنغام الشعر ونفثات القصص، ربما تساءل، تساؤل من يرى فى الحب جوهر الحياة والروح، أمن الممكن أن يتصور ياسين عاشقًا؟. فيتمثل الجواب ضحكة باطنية أو منطلقة، أجل ما للحب وهذه الكرش المترعة! ما للحب وهذا الجسم اللحيم! ما للحب وهذه النظرة الشهوانية الساخرة! ثم لا يتمالك أن يجد نحوه إحساسًا بالازدراء الملطف بالعطف والود، وإن لم يخل أحيانًا ـ خاصة فى الأوقات التى تعترى حبه فيها نوبة من نوبات الألم والهبوط ـ من عاطفة إعجاب بل حسد، كذلك بدا ياسين لعينيه أبعد ما يكون عن عرش الثقافة، الذى بوأه إياه قديما حينما كان يظنه عالمًا ساحرًا مالكًا لفنون الشعر والقصص، تكشف له قارئًا سطحيا يقنع من وقت مجلس القهوة ببضع ساعة يتنقل فيها بلا جهد أو عناء بين الحماسة وقصة من القصص قبل انطلاقه إلى قهوة أحمد عبده، حياة عاطلة من بهاء الحب وأشواق المعرفة الحقيقية

وإن كنَّ لصاحبها حبًا أخويًا لا تشوبه شائبة . . لم يكن كذلك فهمى ، كان مثله الأعلى فى الحب والعقل ، ولكنه بدا أخيراً كالمتخلف بعض الشىء عما يطمح إليه ، أجل ساوره شك يقارب اليقين فى أن فتاة كمريم يمكن أن تبعث فى النفس حبًا حقيقيًا كالحب الذى يضىء به نفسه ، كما ارتاب فى أن تضاهى الثقافة القانونية التى نزع إليها أخوه الراحل المعرفة الإنسانية التى يتشوقها بكل قوة نفسه ، كان يتأمل من حوله بعين تنفتح على التأمل والنقد ، وذهب فى ذلك كل مذهب إلا أنه وقف عند عتبة أبيه لا يجرؤ على أن يرفع قدمًا ، لاح الرجل لعينية شيئًا هائلاً يتربع على عرشه فوق النقد ! !

ـ أنت اليوم عريس ! اليوم عيد من أعيادك الظافرة ، أليس كذلك؟ لولا . نحافتك ما وجدت ما أؤاخذك عليه .

قال كمال مبتسمًا :

ـ إنى راض عنها .

ألقى ياسين على صورته نظرة أخيرة ، ثم وضع الطربوش على رأسه وأماله يمنة بعناية حتى أوشك أن يمس حاجبه ، ثم قال وهو يتجشأ :

ـ أنت حمار كبير يحمل البكالوريا ، تمتع بالطعام والراحة فهذه هى العطلة ، كيف تسول لك نفسك أن تقرأ فى العطلة أضعاف ما تقرأ فى عامك الدراسى؟ ! اللهم إنى برىء من النحافة وأصحابها !

ثم ، وهو يغادر الغرفة والمنشة العاجية فى يده :

ـ لا تنس أن تختار لى قصة جيدة ، مثل «باردليان» ، و«فوستا» ، هه؟ . . مضى زمن كنت تستجدينى فصلاً من رواية ، هاك زمنا أغبر أشحذك فيه القصص !

ارتاح إلى الوحدة التى يخلو فيها إلى نفسه ، فنهض وهو يغمغم : من أين له بالبدانة والقلب لا ينام؟ ! . لم تكن تحلو له الصلاة إلا خاليًا ، صلاة بالجهاد أشبه ويشترك فيها القلب والعقل والروح ، جهاد من لا يضن بجهد للفوز بالضمير الطاهر النقى ولو لاحق نفسه بالحساب تلو الحساب على الهفوة والخاطرة . . أما الدعاء فى أعقاب الصلاة ، فلها ، لها وحدها .

٣

عبد المنعم: الفناء أوسع من السطح، ولابد أن نزيح الغطاء عن البئر لنرى ما فيها . .

نعيمة: ستغضب ماما وخالتى وجدتى . .

عثمان: لن يرانا أحد . .

أحمد: البئر فظيعة، ويموت من ينظر فيها .

عبد المنعم: نرفع الغطاء، ثم ننظر من بعيد . . (**ثم بصوت مرتفع**) . . هيا بنا ننزل .

أم حنفى: (**معترضة باب السطح**) لم يبق فىّ حيل للنزول والطلوع، قلتم نطلع السطح فطعلنا السطح، وقلتم ننزل الفناء فنزلنا إلى الفناء، نطلع السطح مرة ثانية فطلعنا السطح مرة ثانية، ماذا تريدون من الفناء؟ . . الجو حار تحت، أما هنا فالنسمة جارية، وعما قليل تغيب الشمس .

نعيمة: سيرفعون غطاء البئر لينظروا فيها . .

أم حنفى: سأنادى ست خديجة وست عائشة .

عبد المنعم: نعيمة كذابة، لن نرفع الغطاء، ولن نقترب منه، سنلعب فى الفناء قليلاً ثم نعود، ابقى هنا حتى نعود .

أم حنفى: أبقى هنا؟! رجْلى على رجلكم، الله يهديكم . . ليس فى البيت كله مكان أجمل من السَطح، انظروا إلى هذا البستان!

محمد: نامى لأركبك . .

أم حنفى: كفاية ركوب، اختر لنفسك لعبة أخرى، الله، الله . . انظروا إلى الياسمين واللبلاب، انظروا إلى الحمام . .

عثمان: أنت قبيحة كالجاموسة، ورائحتك نتنة . .

أم حنفى: الله يسامحك، عرقى سال من الجرى وراءكم .

عثمان: خلينا نرى البئر ولو شوية صغيرة .

أم حنفى: البئر ملأى بالعفاريت، ولذلك سددناها .

عبد المنعم: كذابة، لم تقل ماما ولا خالتى هذا . .

أم حنفى: الحقيقة عندى أنا، أنا وستى الكبيرة، كنا نراهم رؤية العين، فانتظرنا حتى دخلوا، وألقينا على فوهة البئر الغطاء الخشبى وأثقلناه بالحجارة . لا تذكروا البئر، وقولوا معى: «باسم الله الرحمن الرحيم» . .

محمد: نامى لأركبك.

أم حنفى: انظروا إلى اللبلاب والياسمين! ليت عندكم مثلهما، ليس فى سطحكم إلا الدجاج والخروفان اللذان تسمنونهما للعيد.

أحمد: ماء.. ماء.. ماء..

عبد المنعم: هاتى سلما لنطلع عليها!

أم حنفى: يا ساتر يا رب، الولد لخاله، العبوا فى الأرض لا فى السماء.

رضوان: فى شرفة بيتنا وفى السلاملك أصص ورد أحمر وأبيض وقرنفل..

عثمان: عندنا خروفان ودجاج..

أحمد: ماء.. ماء.. ماء..

عبد المنعم: أنا فى الكتاب، من منكم فى الكتاب؟

رضوان: أنا حافظ «الحمد».

عبد المنعم: الحمد، كبة لمبه!

رضوان: إخص، أنت كافر.

عبد المنعم: هذا ما يتغنى به العريف فى الطريق...

نعيمة: قلنا ألف مرة لا تردد كلامه..

عبد المنعم: (لرضوان) لماذا لا تعيش مع باباك خالى ياسين؟

رضوان: أنا عند ماما.

أحمد: أين ماما؟

رضوان: عند جدى الآخر!

عثمان: أين جدك الآخر؟

رضوان: فى الجمالية!.. فى بيت كبير وسلاملك.

عبد المنعم: لماذا أمك فى بيت، وأبوك فى بيت؟

رضوان: ماما عند جدى هناك، وبابا عند جدى هنا..

عثمان: لمَ لا يوجدان فى بيت واحد مثل بابا وماما..؟

رضوان: اَلقسمة والنصيب، هذا ما تقوله جدتى الأخرى!

أم حنفى: قررتموه حتى أقر، لا حول ولا قوة إلا بالله! ارحموه والعبوا..

محمد: نامى لأركبك..

رضوان: انظروا إلى العصفورة فوق عود اللبلاب..

عبد المنعم: هاتوا سلما، وأنا أقبض عليها..

أحمد: لا ترفع صوتك، إنها تنظر إلينا بعينيها وتسمع كل كلمة نقولها..

نعيمة: ما أجملها، عرفتها! هى العصفورة التى رأيتها أمس فوق حبل الغسيل عندنا..

أحـــمـــد: الأخرى فى السكرية، فكيف عرفت الطريق إلى بيت جدى . . ؟
عبد المنعم: يا حمار، العصفورة تطير من السكرية إلى هنا وتعود قبل المساء .
عــثـمــان: أهلها هناك وأقاربها هنا . .
مــحـمـــد: نامى لأركبك، أو أبكى حتى تسمعنى ماما . .
نعـيـمـة: نلعب الحجلة؟
عبد المنعم: بل نتسابق . .
أم حنفى: من غير شجار بين السابق والمسبوق .
عبد المنعم: اسكتى يا جاموسة . .
عــثـمــان: ناععع . . ناععع .
أحـــمـــد: ماء . . ماء . . ماء . .
مــحـمـــد: سأدخل السباق راكبًا، نامى لأركبك .
عبد المنعم: واحد . . اثنان . . ثلاثة . .

* * *

احتفى السيد أحمد عبد الجواد بالمدعوين فأخلى نفسه لهم النصف الأول من النهار كله، ثم توسط مائدة الوليمة التى ضمت: إبراهيم شوكت، وخليل شوكت، وياسين وكمال. ثم دعا بالرجلين إلى حجرة نومه فى جلسة عائلية، فمضوا يتسامرون فى جو من المودة والمؤانسة وإن لم يخل من تحفظ من ناحية السيد وتأدب من ناحية صهريه، مصدره ما يلتزمه الرجل فى المعاملة مع آل بيته حتى الوارد من الخارج منهم على رغم المقاربة فى السن بينه وبين إبراهيم شوكت زوج خديجة.

ودعى الأطفال إلى حجرة الجد ليقبلوا يده ويتلقوا هداياه النفيسة من الشيكولاطة والملبن، فتقدموا إليه بترتيب أسنانهم: نعيمة بنت عائشة أولاً، فرضوان بن ياسين، فعبد المنعم بن خديجة، فعثمان بن عائشة، فأحمد بن خديجة، ثم محمد بن عائشة. راعى السيد المساواة المطلقة فى توزيع عطفه وابتساماته على أحفاده، منتهزًا فرصة خلو الحجرة من مراقبين ـ عدا إبراهيم وخليل ـ ليتخفف بعض الشىء من تحفظه المأثور، فهز الأيدى الصغيرة بترحاب، وقرص الخدود الموردة بحنان، ولثم الجباه وهو يداعب هذا ويمازح ذاك، وظل مراعيًا المساواة حريصًا عليها حتى مع رضوان أحظى الصغار بمحبته.

كان من عادته إذا خلا إلى أحد من أحفاده أن يتفحصه بشغف، مدفوعًا بعواطف أصيلة كالأبوة وأخرى دخيلة كحب الاستطلاع. وكان يجد لذة كبيرة فى تتبع ملامح الأجداد والآباء والأمهات فى السلالات الجديدة الصاخبة التى لم تكد تلقن احترامه فضلاً عن مخافته، وقد أسره جمال نعيمة ذات الشعر الذهبى والعينين الزرقاوين التى فاقت أمها نفسها حسنًا ورواء، فأتحفت الأسرة بقسمات غنية من الحسن بعضها مشتق من

أمها والبعض الآخر متوارث عن آل شوكت، وعلى هذا المنهج من الجمال سار شقيقاها عثمان ومحمد مع ميل واضح إلى ملامح الأب ـ خليل شوكت ـ خاصة فى عينيه الواسعتين البارزتين ذواتى النظرة الهادئة الخاملة، وعلى خلاف هذا تبدى عبدالمنعم وأحمد ابنا خديجة، فبشرتهما وإن تكن شوكتية، إلا أن عينيهما هما عينا الأم أو الجدة الصغيرتان الجميلتان، أما الأنف فينذر بمشابهة أنف الأم أو الجد على الأصح، أما رضوان فما كان له إلا أن يكون جميلاً حظى بعينى أبيه أو عينى هنية السوداوين المكحولتين وبشرة آل عفت العاجية، وأنف ياسين المستقيم. أجل ترقرقت الملاحة فى وجهه آسرة. مضى زمن طويل مذ كان يتعلق به أطفاله بلا خوف من ناحيتهم ولا تكلف من ناحيته كما يفعل الأطفال اليوم، يا لها من أيام! ويا لها من ذكريات! ياسين وخديجة وفهمى ثم عائشة وكمال، ما منهم إلا وقد دغدغه تحت إبطه وأركبه منكبيه، ترى هل يتذكرون؟. لقد كاد هو ينسى، على أن نعيمة تبدو رغم ابتسامتها الوضيئة متحلية بالحياء والأدب، أما أحمد فلم يكف عن المطالبة بالمزيد من الشيكولاطة والملبن، على حين وقف عثمان ينتظر نتيجة المطالبة بفارغ الصبر، وأما محمد فهرول إلى الساعة الذهبية والخاتم الماسى فى جوف الطربوش وكبشهما فما استخلصهما خليل شوكت من يده إلا بالقوة. ومرت لحظات توزع السيد الارتباك والحيرة، فلم يدر ماذا يفعل وهو محاط، بل مهدد من كل جانب بالأحفاد الأعزاء.. وقبيل العصر غادر السيد البيت إلى الدكان، وبذهابه تمتعت الصالة ـ حيث اجتمع بقية أفراد الأسرة ـ بكامل حريتها. ورثت صالة الدور الأعلى أختها بالدور المهجور، ففرشت بحصيرها وكنباتها، وعلق بسقفها الفانوس الكبير، فغدت مجلسًا ومقهى لمن تبقى من الأسرة فى البيت القديم. وقد حافظت طوال اليوم ـ رغم امتلائها على هدوئها، حتى إذا لم يعد يبقى من السيد إلا ما سطع فى الجو من عرف الكولونيا التى تطيب بها، استردت أنفاسها، فتعالت بها الأصوات والضحكات، ودبت فيها الحركة، واتخذ المجلس هيئته كالعهد القديم، فتربعت أمينة على كنبة أمام أدوات القهوة، وعلى الأخرى المواجهة لها جلست خديجة وعائشة، وعلى ثالثة جانبية قعد ياسين وكمال، وما لبث أن انضم إليهم إبراهيم شوكت، وخليل شوكت ـ بعد ذهاب السيد ـ فجلس إبراهيم إلى يمين حماته، وخليل إلى يسارها.

لم يكد إبراهيم يستقر على مجلسه، حتى خاطب أمينة قائلاً بلهجة متوددة:

ـ بارك الله فى اليد التى قدمت لنا أشهى الطعام وألذه (ثم وهو يردد عينيه البارزتين الخاملتين فى الجلوس كأنما يلقى محاضرة) الطواجن.. الطواجن!.. معجزة هذا البيت، ليس الطاجن بما يحويه من المأكول ـ وإن لذ وطاب ـ ولكن بتسبيكه قبل كل شيء. التسبيك هو كل شيء!! هو الصنعة، وهو المعجزة، دلونى على طواجن كالتى التهمناها اليوم!..

كانت خديجة تتابع كلامه باهتمام، وهى بين التأييد له اعترافًا بمهارة أمها والاحتجاج عليه لتجاهله إياها، فلما أمسك كى يهيئ للمنصتين فرصة للإقرار برأيه، لم تتمالك من أن تقول:

ـ هذا حكم مسلم به وليس فى حاجة إلى شهادة شاهد، غير أنى أذكر ـ وأحب أن أفكر أيضًا ـ بأنك ملأت بطنك فى بيتك مرارًا من طواجن لا تقل صنعة عن طواجن اليوم!

ارتسمت ابتسامة ـ ذات معنى ـ على وجوه عائشة وياسين وكمال، وبدا على الأم أنها تغالب حياءها، لتقول كلمة تجمع بين الشكر لإبراهيم وإرضاء خديجة، ولكن خليل شوكت بادر قائلاً:

ـ صدقت خديجة هانم، إن لطواجنها فضلاً علينا جميعًا، لا يمكن أن تنسى ذلك يا أخى..

فردد إبراهيم نظره بين زوجه وحماته، وهو يبتسم كالمعتذر، ثم قال:

ـ معاذ الله أن أنكر هذا الفضل، ولكنى بصدد التحدث عن المعلمة الكبيرة (ثم وهو يضحك) وعلى أى حال! فأنا أنوه بفضل والدتك لا والدتى أنا!

وانتظر حتى خفت أصوات الضحك التى أثارها قوله الأخير، ثم واصل تقريظه متلفتا نحو الأم، وهو يقول:

ـ نعود إلى الطواجن، ولكن لم نقصر كلامنا على الطواجن؟! الحق أن الصنوف الأخرى لم تكن دون الطواجن لذة وفخامة، خذوا مثلاً: البطاطس المحشو، الملوخية، الأرز المفلفل بالكبد والقوانص، المحاشى المتنوعة، والله أكبر على الدجاج ولحمه المكتنز.. خبرينى. أى غذاء تطعمينه يا حماتى؟

أجابته خديجة فى تهكم:

ـ من الطواجن تطعمه!

ـ سأكفر طويلا عن إقرارى بالفضل لأهله، ولكن الله غفور رحيم، مهما يكن من أمر فلندع الله أن يكثر من أيام الأفراح.. مبارك عليك البكالوريا يا سى كمال، وعقبى للدبلوم إن شاء الله..

قالت أمينة بامتنان، وكانت موردة الوجه من الحياء والسرور:

ـ ربنا يفرحك بعبد المنعم وأحمد، ويفرح سى خليل بنعيمة وعثمان ومحمد، (ثم ملتفتة إلى ياسين) ويفرح ياسين برضوان..

كان كمال يسترق النظر إلى إبراهيم حينا وإلى خليل آخر، وعلى شفتيه ابتسامة ثابتة يدارى بها عادة ملله من الحديث، الذى تنعدم متعته وتقضى اللياقة بالاشتراك فيه ولو

بحسن الإنصات. إن الرجل يحدث عن الطعام وكأنه لم يزل على المائدة سكران بشهوة الأكل.. الطعام.. الطعام.. الطعام.. لم استحق هذا التقديس كله؟. هذان الرجلان العجيبان لا يبدو أنهما يتغيران مع الزمن، كأنهما بمنأى عن تياره. إبراهيم اليوم هو إبراهيم الأمس، لم يكد يطرأ عليه من إشرافه على الخمسين إلا أثر غير ملحوظ تحت العينين أو فيما حول طرفى الفم، ونظرة رزينة ثقيلة لم تكسبه وقاراً بقدر ما أكسبته مزيداً من الخمول، ولكن شعرة واحدة - سواء فى رأسه أم فى شاربه المفتول - لم تشب، وبدانته لم تزل مدمجة قوية لم يعتورها ترهل، إلى أن التشابه الذى جمع بين الشقيقين إلا فى أغراض لا يعتد بها: كالاختلاف بين شعر خليل السبط المرسل وشعر إبراهيم القصير المحلوق، وتماثلهما فى الصحة والنظرة الخاملة كان مما يبعث على الضحك والازدراء حقًا. وكانا يرتديان بذلتين من الحرير الأبيض قد نزع كل منهما جاكتته فلاح قميصه الحريرى والأزرار الذهبية تلمع فى عرا أكمامه. مظهر ينم على وجاهة هى كل ما هنالك. فى بحر السنوات السبع التى وصلت بين الأسرتين، كان يخلو إلى هذا أو ذاك منهما كثيراً أو قليلاً، ولكن حديثًا واحداً ذا طعم لم يجر بينهم!.. فيم الانتقاد؟ ولولا ذاك ما كان هذا الانسجام الموفق بينهما وبين شقيقتيه؟!. إن الازدراء - من حسن الحظ - لا يناقض العطف والإيثار بالخير والمودة. أوه.. يبدو أن حديث الطواجن لم ينته بعد، ها هو سى خليل شوكت يتهيأ ليلقى كلمته:

- لم يعد أخى إبراهيم الحق فيما قال، يد لا عدمناها، ومائدة جديرة بأن ينادى بها المنادون..

كانت أمينة فى أعماقها تحب الثناء، وكثيراً ما تعانى مرارة الحرمان منه، لشعورها بالجهد الدائب الذى تبذله عن حب وطواعية فى خدمة البيت وآله، وكثيراً ما نهمت إلى سماع كلمة طيبة من السيد، ولكن السيد لم يكن من عادته أن يجود بالثناء عليها وإذا جاد ففى اقتضاب وفى أحوال نادرة لا تكاد تذكر، لذلك وجدت نفسها بين إبراهيم وخليل فى موقف عُجب غير مألوف ملأها سروراً حقًا، ولكنه هيج لحد الارتباك حياءها، فقالت تدارى مشاعرها:

- لا تبالغ يا سى خليل، أنت لك أمّ من يألف طعامها يزهد فى أى طعام سواه!...

وبينا عاد خليل إلى توكيد الثناء، اتجهت عينا إبراهيم بحركة عكسية إلى خديجة، فالتقى بعينيها وهما تحدجان إليه كأنما توقعت نظرته فاستعدت لها، فابتسم كالظافر، وقال يخاطب حماته:

- لا يقرك بعض الناس على هذا الرأى يا حماتى..

أدرك ياسين مرمى هذه الملاحظة، فضحك ضحكة عالية، وسرعان ما ضج المجلس

بالضحك، حتى أمينة ابتسمت ابتسامة عريضة واهتز نصفها الأعلى بضحكة مكتومة فدارت استسلامها بخفض رأسها كأنما تنظر فى حجرها، بقيت خديجة وحدها جامدة الوجه وانتظرت حتى هدأت العاصفة، ثم قالت بتحد:

ـ لم يكن خلافنا حول الطعام وطهيه، ولكن حول حقى فى الاستقلال بشئون بيتى، ولا علىَّ من هذا.

تجددت فى النفوس ذكرى المعركة القديمة التى استعرت فى العام الأول من زواج خديجة بينها وبين حماتها حول «المطبخ»، وهل يظل واحداً للبيت كله تحت إشراف الأم، أو تستقل خديجة بطبيخها كما أرادت. كان خلافًا خطيراً هدد وحدة الأسرة الشوكتيـة وترامت أنباؤه إلى بين القصرين، حتى علم به الجميع ما عدا السيد الذى لم يجرؤ أحد على إبلاغه إياه، لا هو ولا سائر الخلافات التى نشبت تباعًا بعد ذلك بين الحماة وكنَّتها، وأدركت خديجة مذ فكرت فى الكفاح أن عليها أن تعتمد على نفسها وحدها، فزوجها على حد تعبيرها «رجل نائم» لا هو لها ولا عليها، كلما حرضته على استخلاص حقها قال لها كالمداعب: «يا ست. . دعينا من وجع الدماغ»، ولكنه إذا كان لم يؤيدها فإنه كذلك لم يشكمها. فانبرت إلى الميدان وحيدة ورفعت رأسها حيال العجوز المبجلة بجرأة لم تكن متوقعة وبعناد لم يخذلها حتى فى ذلك الموقف الدقيق. عجبت العجوز لجرأة البنت التى تلقتها على يدها من عالم الغيب وسرعان ما احتدم الخصام وجن الغضب، وراحت تذكرها بأنه لولا فضلها عليها ما صح ولو فى الأحلام أن تظفر مثلها بزوج من آل شوكت، ولكن خديجة رغم ثورتها كظمت غيظها فوقفت عند التصميم على نيل ما تراه حقًا لها دون اللجوء إلى حدة لسانها المأثورة، لسابق منزلة العجوز من ناحية، ولخوفها من أن تشكوها إلى أبيها من ناحية أخرى، ثم هداها مكرها إلى أن تحرض عائشة على العصيان، ولكنها وجدت من الفتاة الكسول إعراضًا وجبنا، لا حبا فى الحماة ولكن إيثاراً للراحة والدعة اللتين تمتعت بهما ـ بغير حساب ـ فى ظل الحضانة الإجبارية التى فرضتها حماتها على الجميع، فصبت غضبها عليها ورمتها بالضعف والتنبلة، ثم ركبها العناد فواصلت «الجهاد» بلا توان أو تردد حتى ضاق صدر العجوز فسلمت كارهة بحق كنَّتها «الغجرية» بالاستقلال بمطبخها وهى تقول لابنها الأكبر: «أنت وشأنك. إنك رجل َضعيف لا قبل لك بتأديب زوجك، وجزاؤك الحق أن تحرم من طعامى إلى الأبد!». ظفرت خديجة ببغيتها فاستردت أدوات جهازها النحاسية، وهيأ لها إبراهيم المطبخ كما رسمت، ولكنها خسرت حماتها وفتكت بأسباب المودة التى ربطت بينهما مذ درجت فى المهد، ولم تحتمل أمينة فكرة الخصام فصبرت حتى هدأت النفوس ثم سعت سعيها عند السيدة المبجلة مستعينة بإبراهيم وخليل حتى تم صلح، ولكن أى صلح كان؟. . كان صلحا لا يكاد يستقر حتى يصطدم بنقار، ثم يعقبه

صلح، فنقار من جديد، وهكذا. . وكل واحدة منهما تلقى التبعة على الأخرى، وأمينة بينهما حائرة، وإبراهيم واقف موقف المحايد أو المتفرج، كأن الأمر لا يعنيه، فإذا رأى أن يتدخل تدخلا وانيا وقنع بترديد النصيحة فى هدوء بل برود غير مبال بتوبيخ أمه أو عتاب زوجه، ولولا إخلاص أمينة ودماثة خلقها لسارت العجوز بشكواها إلى السيد أحمد، ولكنها عدلت عن ذلك كارهة ومضت تنفس عن صدرها فى أحاديثها الطويلة مع كل من يلقاها من الأهل والجيران، معلنة على رءوس الأشهاد بأن اختيارها خديجة زوجة لابنها كان أكبر غلطة ارتكبتها فى حياتها وأن عليها أن تتحمل الجزاء.

قال إبراهيم معقبًا على كلام خديجة، وهو يبتسم، كأنما ليخفف بابتسامته من وقع تعقيبه:

ـ ولكنك لم تكتف بالمطالبة بحقك، بل طعنت بلسانك ما حلا لك الطعن، هذا إذا لم تكن خانتنى الذاكرة. .

رفعت خديجة رأسها المعصوبة بمنديل بنى فى تحد، وقالت وهى ترمق زوجها بنظرة تهكم وغيظ:

ـ ولم تخونك الذاكرة؟! . هل من أفكار أو مشاغل ترهقها حتى تخونك! . ، ليت للناس جميعًا ذاكرة هادئة مطمئنة خالية البال كذاكرتك! . لم تخنك ذاكرتك يا سى إبراهيم، ولكنها خانتنى أنا!، والحق أنى لم أتعرض لمقدرة نينتك، ولم يكن لى بها شأن ولا حاجة إليها، فإنى أعرف بحمد الله كافة واجباتى وأعرف كيف أؤديها على خير وجه، ولكنى كرهت أن أقبع فى بيتى وأن يجيئنى الطعام من الخارج كنزلاء الفنادق، وفضلا عن هذا كله فإنى لم أطق ـ كما يحلو «لبعض الناس» أن أمضى نهارى نائمة أو لاهية وغيرى يقوم بمهام بيتى.

أدركت عائشة من توها المقصود من «بعض الناس»، فضحكت ولما تكمل خديجة كلامها، ثم قالت بلهجة لطيفة كأنما دافعها الإشفاق:

ـ افعلى ما يحلو لك ودعى الناس ـ أو بعض الناس وشأنهم، لا شىء الآن يدعو إلى كدرك، فأنت سيدة مستقلة ـ عقبى لمصر ـ وتعملين من طلوع الفجر إلى نزول الليل: فى المطبخ، والحمام، وفوق السطح، وتعنين فى وقت واحد بالأثاث والدجاج والأولاد، والجارية سويدان لا تجرؤ على الاقتراب من شقتك أو حمل ابن من أبنائك، رباه. . لم هذا العناء وقليل منه يغنى؟!

أجابت خديجة بحركة من ذقنها، وهى تغالب ابتسامة دلت على أنها وجدت فى كلام عائشة ما استأنست إليه، وعند ذاك قال ياسين:

ـ بعض الناس يخلقون للسيادة، وبعضهم يخلقون للعبودية. .

فقال خليل شوكت، وهو يبتسم كاشفًا عن ثنيتيه المتراكبتين :

ـ خديجة هانم مثال صالح لست البيت، غير أنها تتجاهل حقها من الراحة .

فقال إبراهيم شوكت مؤمنا على قوله :

ـ هذا رأيي بالتمام، صارحتها به مراراً، ثم آثرت السكوت تفاديًا من وجع الدماغ .

نظر كمال إلى أمه، وكانت تملأ فنجان خليل للمرة الثانية واستحضر صورة أبيه مقرونة بذكريات جبروته، فعلت شفتيه ابتسامة، ثم مد بصره إلى إبراهيم مدهوشا وهو يقول :

ـ كأنك تخافها!

فقال الرجل وهو يهز رأسه الكبير :

ـ أنا أتفادى من النكد ما وجدت سبيلاً إلى السلامة، وأختك تتفادى من السلامة ما وجدت سبيلاً إلى النكد!

هتفت خديجة :

ـ اسمعوا الحكم (ثم وهى تشير إليه كالمتحدية) أنت تتفادى من اليقظة ما وجدت سبيلاً إلى النوم!

فقالت لها أمها، وهى تحدجها بنظرة تحذير :

ـ خديجة!

فربت إبراهيم على منكب حماته، قائلاً :

ـ عندنا من هذا كثير! . . ولكن اشهدى بنفسك!

وكان ياسين يردد بصره بين خديجة القوية الممتلئة، وعائشة النحيفة الرقيقة بحركة متعمدة للفت الأنظار، ثم قال كالمستنكر :

ـ حدثتمونا عن تعب خديجة المتصل من الفجر إلى الليل، فأين أثر ذلك التعب؟! . . كأنها هى اللاهية وكأن عائشة هى العاملة! . .

فقالت خديجة، وهى تبسط راحة يمناها فى وجهه مفرجة بين أصابعها الخمس :

ـ ومن شر حاسد إذا حسد!

ولكن عائشة لم ترتح لمجرى الحديث الأخير، فلاحت فى عينيها الزرقاوين الصافيتين نظرة اعتراض، واندفعت للذود عن نحافتها متجاهلة الغاية الواضحة من ملاحظة ياسين، وهى تعانى شيئًا من الغيرة فقالت :

ـ لم تعد السمانة موضة العصر (ثم مستدركة عندما شعرت باتجاه رأس خديجة نحوها)، أو على الأقل فالنحافة موضة كذلك عند كثيرات . . !

فقالت خديجة بتهكم :

ـ النحافة موضة العاجزات عن السمانة .

خفق قلب كمال عندما تناهت كلمة «النحافة» إلى سمعه ، فوثب من باطنه إلى مخيلته صورة القامة الفارعة والقد الممشوق ، فرقص قلبه بطرب روحانى وانبثقت منه النشوات ، ثم احتضنته فرحة صافية نسى فى حلمها الهادئ العميق نفسه ومكانه وزمانه . فلم يدر كم فيها لبث حتى انتبه على ظل سحابة من الأسى تجىء كثيراً ذيلاً لحمله ، لا كما يجىء الغريب الدخيل أو العنصر المتنافر ، ولكنها تتسرب إلى الحلم الباهر كأنها خيط من نسجه أو نغمة من هارمونيته . تنفس تنفسًا عميقًا ، ثم جال ببصره الحالم فى الوجوه التى يحبها من قديم ، والتى يبدو أنها تتباهى على نحو أو آخر بحسنها ، خاصة الوجه الأشقر الذى هام زمنا باحتساء الماء من موضع شفتيه . . استرجع هذه الذكرى فى حياء ـ وما يشبه التأفف ـ فشعر بأن أى نموذج من الجمال خلا النموذج المعبود خليق بأن يثير تعصبه وإن حظى بعطفه وحبه .

ـ لن أرضى عن النحافة ولو فى الرجال (واصلت خديجة حديثها) .

انظروا إلى كمال ما أجدره بأن يعنى بزيادة وزنه ، لا تظن يا بنى أن طلب العلم هو كل شىء .

أصغى كمال إليها باسما فى استهانة وهو يتفحص جسمها الذى تراكم لحمه وشحمه ، ووجهها الذى توارت بالاكتناز عيوبه ، معجباً بروح السعادة والفوز التى تكتنفها ، غير أنه لم يجد فى نفسه الرغبة فى مناقشة رأيها ، أما ياسين ، فقال بتحد وسخرية معًا :

ـ إذا فأنت راضية عنى ، لا تكابرى فى هذا!

كان ثانيا ساقه اليمنى تحته طارحا الأخرى على الأرض ، وقد فتح ـ من الحر ـ طوق جلبابه ، فبدت من فتحة فانلته الواسعة خصلات من شعر صدره الأسود الأثيث ، فألقت عليه نظرة نافذة ، ثم قالت :

ـ لكنك زدتها حبتين ، ثم إن شحمك وصل إلى المخ ، وهذا شىء آخر .

نفخ ياسين كاليائس ، ثم التفت إلى إبراهيم شوكت متسائلا فى إشفاق وعطف :

ـ خبرنى عما تصنع بين زوجك ـ وهذه حالها ـ وبين والدتك؟

أشعل إبراهيم سيجارة ، وأخذ نفسا ، ثم نفخه وهو يمط بوزه مشاركًا أخاه خليل ـ الذى لم يكن ينزع غليونه من فيه إلا حين يتكلم ـ فى تعفير جو الصالة ، ثم قال فى عدم اكتراث :

ـ أذنا من طين وأذنا من عجين ، هذا ما تعلمته من التجربة!

فقالت خديجة ، مخاطبة ياسين بصوت مرتفع وشى بغيظها :

ـ لا دخل للتجربة فى ذلك، التجربة بريئة وحياتك عندى. المسألة أن ربنا أعطاه طبعًا مثل دندورمة عم بدر التركى، ولو تحركت مئذنة الحسين ما اهتزت له شعرة. . !

رفعت أمينة رأسها، فرمقت خديجة بنظرة عتاب وتحذير حتى ابتسمت الابنة وخفضت عينيها فيما يشبه الحياء. وإذا بخليل شوكت يقول فى فخار لطيف:

ـ هذا طبع آل شوكت، وهو طبع سلطانى. أليس كذلك؟!

فقالت خديجة ـ بلهجة ذات مغزى ـ وهى تضحك لتخفف من وقع كلامها:

ـ من سوء حظى يا سى خليل أن والدتك لم تتطبع بهذا الطبع السلطانى!

فبادرتها أمينة قائلة وقد نفد صبرها:

ـ حماتك لا نظير لها فى النساء، سيدة جليلة بكل معنى الكلمة!!

فمال رأس إبراهيم يسرة، وهو يحدج زوجه بنظرة من عل التمعت بها عيناه البارزتان، ثم قال وهو يتنهد فى ظفر:

ـ وشهد شاهد من أهلها، الله يكرمك يا حماتى. . (ثم مخاطبًا الجميع) يا هوه أمى ست كبيرة، وفى سن تستوجب الرعاية والحلم، وزوجى لا تعرف عن الحلم شيئًا. .

فانبرت خديجة للدفاع عن نفسها قائلة:

ـ أنا لا أغضب بلا سبب، ولم يكن الغضب من طبعى فى يوم من الأيام، وهاك أهلى فسلهم عما تشاء!

ساد الصمت. كان أهلها لا يدرون ماذا يقولون، حتى ندت عن كمال ضحكة، فلفتت إليه الأنظار، فلم يتمالك أن يقول:

ـ أبلة خديجة أغضب حليمة عرفتها!

فتشجع ياسين قائلاً:

ـ أو هى أحلم غضوب، والله أعلم. .

انتظرت خديجة حتى هدأت ثائرة الضحك التى أعقبت ذلك. ثم أومأت إلى كمال وهى تهز رأسها فى حسرة، قائلة:

ـ خاننى الذى حملته على حجرى أكثر مما حملت أحمد وعبد المنعم.

فقال كمال كالمعتذر:

ـ لا أظننى أفشيت سرا. .

وسرعان ما اتخذت أمينة موقفًا جديداً للدفاع عن خديجة التى بدت فى مركز لا تحسد عليه فقالت باسمة:

ـ جُلَّ من له الكمال . .

وجاراها إبراهيم شوكت فى لباقة قائلا :

ـ صدقت ، إن لزوجى مزايا لا يستهان بها ، لعنة الله على الغضب الذى يصيب أول ما يصيب صاحبه ، لا شىء فى الدنيا يستحق فى نظرى الغضب!

فقالت خديجة ضاحكة :

ـ يا بختك! . . لذلك تمضى الأيام ـ عينى عليك باردة ـ وأنت من التغير فى حصن!

بدا على أمينة الاستياء ـ لأول مرة ـ بصورة جدية ، فقالت فى عتاب :

ـ ربنا يصون له شبابه ، هو وأمثاله!

تساءل إبراهيم ضاحكًا ، وهو لا يخفى سروره بدعاء حماته :

ـ شبابه؟!

فقال خليل شوكت يجيبه ، وإن وجه الخطاب لأمينة :

ـ إن التاسعة والأربعين فى آل شوكت تعد من مراحل الشباب!

فعادت أمينة تقول فى إشفاق :

ـ يا بنى لا تتكلم هكذا ودعونا من هذه السيرة . .

ابتسمت خديجة لما بدا من أمها من إشفاق كانت هى على علم وإيمان بأسبابه وبواعثه ، ذلك أن الإشادة بالصحة جهراً فى البيت القديم ـ صراحة ـ مكروهة ، لتجاهلها «العين» وشرها ، وهى نفسها ـ خديجة ـ لم تكن لتعالن بقوة صحة زوجها لو لم تكن قضت السنوات الست الأخيرة من حياتها بين آل شوكت ، حيث لا تحظى عقائد كثيرة ـ كالحسد مثلاً ـ بإيمان عميق ، وحيث يخوضون فى أمور شتى بلا خوف ـ كسيَر الجن والموت والمرض ـ يحول الإشفاق والحذر دون الخوض فيها فى البيت القديم ، إلى هذا كله ، كانت العلاقة بين الزوجين أوثق مما تبدو فى الظاهر ، فلم يكن ثمة ما يتهددها من قول أو فعل ، كانا زوجين موفقين ، يشعر كلاهما فى أعماقه بأنه لا غنى له عن الآخر رغم شتى المآخذ ، وقد كان مرض إبراهيم يومًا فرصة غريبة جلت مكنون ما يعمر صدر خديجة من محبة ووفاء . أجل! لم يكن النقار ليسكت بينهما ، على الأقل من ناحيتها هى ، فلم تكن أمه هدفها الوحيد ، ورغم سياسة الرجل وبروده لم يُعْيِها أن تكتشف فيه موضعًا كل يوم لانتقاد . مثل : كثرة نومه ، قبوعه فى البيت بلا عمل ، تكبره على مجرد فكرة أن يكون له عمل فى الحياة ، ثرثرته التى لا تنتهى ، تجاهله لما ينشب بينها وبين أمه من نزاع وملاحاة . . حتى مرت أيام وأيام ـ على حد تعبير عائشة ـ لم يكن لها من حديث إلا شكه ولسعه ـ ولكن رغم هذا كله ـ أو بفضل هذا ، من يدرى؟! فالنقار نفسه يقوم أحيانًا بوظيفة الشطة فى تهييج شهوة الطعام ـ ظلت عواطفهما قوية ثابتة لا تتأثر بما يكدر

الظاهر، كأنها التيارات المائية العميقة التى لا يتحول مجراها بفورات السطح وتشنجاته، إلى ذلك لم يسع الرجل إلا أن يقدر نشاطها حق قدره، بعد أن لمس آثاره فى رونق مسكنه ولذة مطعمه وأناقة ملبسه وهندمة ابنيه.. فكان يقول لها مداعبًا: «الحق أنك لقية يا غجرية!» رغم رأى أمه فى هذا النشاط الذى لم تتردد عن الجهر به فى أوقات الخصام وما أكثرها، فتقول لخديجة ساخرة: «هذه فضيلة الخدم لا الهوانم»، فتبادرها خديجة قائلة: «أنتم أناس لا عمل لكم إلا الأكل والشرب، سيد البيت الحقيقى من يخدمه»، فتقول العجوز مواصلة تهكمها: «لقنوك هذا الكلام فى بيتك كى يخفوا عنك أنك لم تكونى تصلحين فى نظرهم إلا للخدمة!»، فتصيح خديجة: «أنا أعلم بسبب حنقك علىّ، أعلم به منذ لم أجعل لك وزنا فى بيتى»، فتصرخ العجوز: «يا ربى اشهد. السيد أحمد عبد الجواد رجل طيب، ولكنه أنجب شيطانة، أنا أستحق ضرب الشبشب جزاء اختيارى لك». فتمضى خديجة وهى تغمغم، حتى لا تتبين المرأة كلامها: «أنت تستحقين ضرب الشبشب.. لا أجادلك فى هذا».

نظر ياسين إلى عائشة، وقال وهو يبتسم فى خبث:

ـ ما أسعدك بنفسك يا عائشة، علاقتك حسنة مع جميع الأحزاب!

فأدركت خديجة ما وراء كلامه من التعريض بها، وقالت له وهى تهز كتفيها متظاهرة بالاستهانة:

ـ وقّاع يسعى بوقيعة بين أختين!

ـ أنا؟!.. حسبى الله، فهو المطلع على حسن نيتى!

وهى تهز رأسها كالآسفة:

ـ لم تكن يومًا ذا نية حسنة!.

وقال خليل شوكت، معلقًا على كلام ياسين:

ـ نحن نعيش فى سلام، وشعارنا: «عش ودع غيرك يعيش»!

فضحكت خديجة حتى بدت أسنانها اللامعة الدقيقة، وقالت بلهجة لم تخل من تهكم:

ـ بيت سى خليل بيت أفراح، لا يزال هو يلعب بأوتار العود، والهانم تسمع أو تستعرض نفسها فى المرآة أو تحادث هذه أو تلك من صويحباتها من النافذة أو المشربية، ونعيمة وعثمان ومحمد يلعبون بالمقاعد والوسائد، حتى إن عبد المنعم وأحمد إذا ضاقا برقابتى فرّا إلى شقة خالتهما فانضما إلى فرقة التخريب..!

تساءلت عائشة باسمة:

ـ أهذا كل ما ترين فى بيتنا السعيد؟

قالت خديجة بنفس اللهجة :

ـ أو تغنين ونعيمة ترقص . . !

عائشة بمباهاة :

ـ حسبى أن جميع الجارات يحببننى ، وأن حماتى تحبنى كذلك . .

ـ لا أتصور أن أفتح صدرى لإحدى أولئك النسوة الثرثارات ، أما حماتك فتحب من يتملقها ويسجد لها . .

ـ يجب أن نحب الناس ، وما أسعد أن يحبنا الناس كذلك ، حقا من القلب للقلب رسول ، إنهن جميعًا يخشينك وكثيراً ما قلن لى : «أختك لا ترحب بنا ولا تتعب من تنقُّصنا !» . . (ثم مخاطبة أمها وهى تضحك) . . لا تزال تسمى الناس بأسماء هزلية ، ثم تتندر بها فى البيت ، فيحفظها عبد المنعم وأحمد ، ويرددانها فى الحارة بين الغلمان فتذيع ! . .

عاود الضحك الصامت أمينة ، كذلك ضحكت خديجة فى شىء من الارتباك ، كأنما طافت بها ذكريات بعض مواقف محرجة ، على حين راح خليل يقول فى ابتهاج غير خاف :

ـ بالجملة نحن تخت صغير ، فيه العواد والمطربة والراقصة ! حقا لا يزال ينقصنا جماعة المنشدين والمرددين ، ولكنى أتوسم فى أولادى خيراً ، والمسألة مسألة وقت !

فقال إبراهيم شوكت ، موجها الخطاب إلى أمينة :

ـ أشهد أن بنت بنتك نعيمة راقصة بارعة !

ضحكت أمينة حتى تورد وجهها الشاحب ، ثم قالت :

ـ رأيتها وهى ترقص ، ما ألطفها !

قالت خديجة بحماس نطق بحنانها العائلى المأثور :

ـ ما أجملها ! ، كأنها صورة من صور الإعلانات .

فقال ياسين :

ـ ما أجملها عروسا لرضوان !

فقالت عائشة ضاحكة :

ـ ولكنها بكرية الأسرة ! . . آه . . لم يمكننى أن أغالط فى عمرها كما يجدر بالأمهات !

فتساءل ياسين بعدم اكتراث :

ـ لماذا يشترط الناس أن تكون العروس أحدث سنا من العريس ؟

فلم يجبه أحد، حتى قالت أمينة:

ـ لن يطول انتظار نعيمة للعريس المناسب!

فعادت خديجة تقول:

ـ ما أجملها يا ربى!، لم أر لجمالها مثيلاً . . .

فتساءلت عائشة ضاحكة:

ـ وأمها؟! . . ألم ترى أمها؟

فقطبت خديجة لتضفى على كلامها صفة الجدية، وهى تقول:

ـ هى أجمل منك يا عائشة، لن تستطيعى المكابرة فى هذا!

ثم ما لبثت أن عاودتها سخريتها فقالت:

ـ وأنا أجمل منكما معا! . .

«هؤلاء الناس يتحدثون عن الجمال!، ماذا عرفوا من كنه الجمال؟. تعجبهم ألوان: بياض العاج، وسبائك الذهب. سلونى أنا عنه، ولن أحدثكم عن السمرة الصافية والأعين السود السواجى والقامة الهيفاء والأناقة الباريسية. كلا! كل أولئك جميل، ولكنه خطوط وشكول وألوان تخضع فى النهاية للحواس والقياس. الجمال هزة فى القلب جارحة وحياة فى النفس عامرة وهيمان تسبح الروح على أثيره حتى تعانق السماوات. . حدثونى عن هذا إن استطعتم. . ».

ـ لمَ يلتمس نساء السكرية ود خديجة هانم؟ . . ربما كان لها مزايا ـ كما يشهد بذلك زَوجها ـ ولكن الناس عامة يستهويها الوجه الصبيح واللسان الحلو . . !

قال ياسين ذلك كى ينكش خديجة من جديد، بعد أن رأى الحديث يتحول عنها فى سلام، فرمته بنظرة كأنما تقول له: «تأبى أن أرحمك».

ثم قالت وهى تتنهد بصوت مسموع:

ـ حسبى الله ونعم الوكيل، لم أكن أعلم أن لى هنا حماة أخرى.

ثم إذا بها تعود من جديد إلى ذلك الموضوع، ولكن بلهجة جدية تاركة ياسين وشأنه على غير ما توقع، فتقول:

ـ ليس عندى متسع من الوقت كى أضيعه فى الزيارات، البيت والأولاد يلتهمون وقتى كله، خاصة وأن زوجى لا يهتم لا بالبيت ولا بالأولاد!

قال إبراهيم شوكت، مدافعًا عن نفسه:

ـ اتقى الله ولا تغالى شأنك فى كل شىء، الأمر وما فيه: أنه ينبغى لمن كان له زوجة كزوجتى أن يقف موقف الدفاع من حين لآخر. الدفاع عن قطع الأثاث التى تكاد

تنبرى من كثرة النفض والمسح، والدفاع عن الأولاد الذين تحملهم فوق ما يطيقون . . آخر العهد بذاك، ما علمتم من دفعها عبد المنعم إلى الكتّاب ولما يبلغ الخامسة من عمره!

قالت خديجة بفخار:

ـ لو اتبعت رأيكم لا ستبقيته فى البيت حتى يبلغ سن الرشد!، كأن بينكم وبين العلم عداوة، كلا يا حبيبى، سينشأ أولادى على ما نشأ عليه أخوالهم. إنى أذاكر لـ عبد المنعم فى دروسه بنفسى!

ياسين مستنكراً:

ـ أنت تذاكرينه؟!

ـ لم لا؟! كما كانت نينة تذاكر لـ كمال، أجالسه كل مساء فيسمعنى ما يحفظونه فى الكتاب.

ثم وهى تضحك:

ـ وبذلك أيضاً أستذكر مبادئ القراءة والكتابة التى أخاف أن أنساها بمرور الزمن . .

تورد وجه أمينة حياء وسروراً، فرنت إلى كمال كأنما تستجديه إشارة إلى ذكر الليالى الخوالى فابتسم إليها ابتسامة ذكور «لتنشئ خديجة ابنيها على ما نشأ عليه أخوالهما، ليكن منهما من يتأثر كمال الذى يشق السبيل إلى المدرسة العليا، ليكن منهما من يتشبه بـ . . ، آه ما أضعف الصدور المتصدعة عن تحمل الخفقات الوالهة، لو امتد به العمر لكان اليوم قاضيا أو فى الطريق إليها، كم حدثك عن آماله أو آمالك!، أين مضى كل ذلك؟، ليته عاش ولو فردا من غمار الناس» . .

قال إبراهيم شوكت، مخاطبًا كمال:

ـ لسنا كما تتهمنا أختك. لقد دخلت امتحان الابتدائية سنة ١٨٩٥ ودخله خليل سنة ١٩١١، كانت الابتدائية على أيامنا شيئا عظيماً على خلاف الحاصل الآن حيث لا يكاد يقنع بها أحد، لم نواصل التعليم، لأنه لم يكن فى نيتنا أن نتوظف، أو بمعنى آخر لم نكن فى حاجة إلى الوظيفة! . .

أعجب كمال إعجابًا ساخراً بقوله «دخلت امتحان الابتدائية»، ولكنه قال مجاملاً:

ـ هذا أمر طبيعى . .

كيف يكون للعلم قيمة ذاتية عند ثورين سعيدين؟، كلا كما تجربة ثمينة علمتنى أنه من الجائز أن أحب ـ أى حب كان ـ من أحتقر . . أو أن أتمنى الخير ـ كل الخير ـ لشخص تثير مبادئه فى الحياة نفورى وتقززى، لا أملك إلا أن أكره الحيوانية من صميم قلبى، صار ذلك حقيقة وحقًا مذ هفت على القلب نسمة السماء!

هتف ياسين فى حماس هزلى :

ـ لتحى الابتدائية القديمة!

ـ نحن حزب الأغلبية على أى حال!

تضايق ياسين من إقحام خليل نفسه ـ وأخاه ضمنا ـ على حزب الابتدائية التى لم ينالاها، ولكنه لم يجد بدا من التسليم، على حين راحت خديجة تقول :

ـ سيواصل عبد المنعم وأحمد التعليم حتى ينالا الدبلوم العالى، سيكونان عهداً جديداً فى آل شوكت، اسمعوا وقع هذين الاسمين جيداً : عبد المنعم إبراهيم شوكت، أحمد إبراهيم شوكت، . . ألا يرن الاسم رنين «سعد زغلول»؟!

فصاح إبراهيم ضاحكا :

ـ من أين لك هذا الطموح كله؟

ـ لم لا؟ . . ألم يكن سعد باشا مجاوراً بالأزهر؟! . من الجراية إلى رياسة الوزراء، وكلمة منه تقيم الدنيا وتقعدها، ليس شىء على الله بكثير!!

تساءل ياسين متهكمًا :

ـ هلا قنعت بأن يكونا مثل عدلى أو ثروت؟

فصاحت كالمستعيذة بالله :

ـ الخونة؟! لن يكونا من الذين هتف الناس بسقوطهم ليل نهار! أخرج إبراهيم من جيب بنطلونه منديلاً، ومسح به وجهه الذى زادت حمرته عمقًا بحرارة الجو ونضح عرقًا بما يشرب من ماء مثلوج وقهوة ساخنة، ثم قال وهو آخذ فى تجفيفه :

ـ لو أن لشدة الأمهات فضلاً فى خلق العظماء، فأبشرى من الآن بما ينتظر ابنيك من مجد كبير!

ـ تريدنى على أن أتركهما وشأنهما؟

قالت عائشة برقة :

ـ لا أذكر أن نينة انتهرت أحدًا منا فضلاً عن ضربه، ألا تذكرين؟

فقالت خديجة كالآسفة :

ـ لم تلجأ نينة إلى الشدة، لأن بابا كان هناك! كان ذكره كافيًا لإلزام كل حدَّه، أما عندى، أو عندك فالحال من بعضه، فالأب غير موجود إلا بالاسم (اضطرت أن تضحك) ما عسى أن أفعل والحال كذلك؟ إذا كان الأب أمًّا، فعلى الأم أن تكون أبًا . . !

ياسين مبتهجًا :

ـ يقيني أنك نجحت في أبوتك! أنت أب . . هذا ما شعرت به طويلاً، ولكن كانت تنقصني معرفته!

فتظاهرت بالرضى قائلة:

ـ أشكرك يا بمبة كشر . .

«خديجة وعائشة، صورتان متعارضتان . . تأمل جيداً، أيهما تظن الأجدر بأن تكون معبودتك على مثالها؟ . . أستغفر الله! معبودتي على غير مثال، لا أتصورها ربة بيت. ما أبعد هذا عن التصور! معبودته في ثياب البيت تنهنه طفلاً أو ترعى مطبخا؟! يا للفزع ويا للتقزز، بل لاهية أو سادرة أو رافلة في حلة باهرة في حديقة أو سيارة أو ملهى، ملاك في زيارة طارئة سعيدة للدنيا، جنس مفرد غير سائر الأجناس لا يعرفه إلا قلبي، لا يجمعها وهؤلاء النسوة إلا تسمية العاجز عن معرفة الاسم الحقيقي، لا يجمع جمالها وجمال عائشة وسائر ألوان الجمال إلا تسمية العاجز عن معرفة الاسم الحقيقي، هاك حياتي أكرسها لمعرفتك، هل ثمة وراء ذلك ظمأ لعرفان؟».

ـ يا ترى ما أخبار مريم؟

تساءلت عائشة حال خطرت صديقتها القديمة ببالها، فأحدث الاسم آثاراً متباينة في كثير من الجالسين، تغير وجه أمينة حتى نمت أساريره عن الامتعاض الشديد، تجاهل ياسين السؤال كأنه لم يسمعه متشاغلاً بتفحص أظافره، وردت رأس كمال جملة من ذكريات هزت نفسه هزاً، أما خديجة فأجابتها بلهجة باردة:

ـ أي أخبار جديد تتوقعين؟ طلقت وعادت إلى بيتها!

انتبهت عائشة ـ بعد فوات الفرصة ـ إلى أنها انزلقت سهوا إلى ورطة، وأنها أساءت إلى أمها بهفوة لسان. ذلك أن أمها آمنت منذ عهد بعيد بأن مريم وأم مريم لم تصدقا في حزنهما على فهمي، إن لم تكونا شمتتا بهم من أجل ذلك، لما سبق من معارضة السيد في خطبة مريم للفقيد. وكانت خديجة البادئة بترديد ذلك الظن، فتابعتها الأم عليه بلا تردد أو تفكير، وسرعان ما تغيرت عواطفهما نحو جارتهما القديمة حتى أوحى ذلك بالتنكر فالقطيعة.

قالت عائشة بارتباك، محاولة الاعتذار عما بدر منها:

ـ لا أدري ماذا دعاني للسؤال عنها؟

فقالت أمينة بانفعال ظاهر:

ـ ما ينبغي لك أن تفكري فيها.

كانت عائشة قد أعلنت شكها ـ عند ذلك التاريخ ـ في واقعية التهمة التي ألصقت بصديقتها، معتلة بأن الخطبة وما دار حولها بقي طي الكتمان، فلم يتناه نبؤه إلى بيت

مريم فى حينه، مما ينفى على الفتاة وآلها دواعى الشماتة. . ولكن أمها لم تر رأيها محتجة بأن مسألة خطيرة كهذه المسألة مما يتعذر منع تسرب خبرها إلى أصحاب الشأن فيها، فلم تلبث عائشة وراء رأيها طويلاً خشية أن تتهم بمحاباة مريم أو بفتور حماسها لذكرى شقيقها، لكنها بإزاء انفعال أمها، وجدت نفسها مساقة إلى تلطيف وقع هفوتها، فقالت:

ـ لا يدرى بالحقيقة يا نينة إلا الله. . لعلها بريئة مما رميناها به.

فاشتد امتعاض أمينة على خلاف ما توقعت عائشة، حتى لاحت فى وجهها بوادر غضب بدت غريبة عنها لما عرف عنها من حلم وهدوء، وقالت بصوت متهدج:

ـ لا تحدثينى عن مريم يا عائشة.

وصاحت خديجة مشاركة أمها فى عواطفها:

ـ قُطعت مريم وسيرتها!

فابتسمت عائشة فى ارتباك دون أن تنبس. وقد لبث ياسين متشاغلاً بأظافره حتى انتهى ذاك الحديث الحامى، وأوشك مرة أن يشترك فيه متشجعًا بقول عائشة «لا يدرى بالحقيقة يا نينة إلا الله. .»، ولكن اندفاع أمينة إلى الرد عليها بذاك الصوت المتهدج غير المعهود أسكته. أجل أسكته وانطلق لسانه باطنيا بالشكر على نعمة السكوت. وكان كمال يتابع الحديث باهتمام وإن لم يبد أثره على وجهه، وقد أكسبه حمل الحب عهداً طويلاً ـ فى ظروف حساسة غير مواتية ـ قدرة على التمثيل تحكم بها فى كتمان عواطفه ومطالعة الناس ـ إن دعت الضرورة ـ بمظهر على نقيض مخبره، فذكر ما سمع قديمًا عن «شماتة» آل مريم، ومع أنه لم يأخذ التهمة مأخذ الجد إلا أنه تذكر عهد الرسالة السرية التى ذهب بها إلى مريم والرد الذى عاد به إلى فهمى، ذلك سر قديم صانه ولم يزل مستمسكًا بصونه رعاية لعهد أخيه واحترامًا لرغبته، وقد لذ له أن يعجب كيف لم يفقه معنى الرسالة التى حملها إلا أخيراً، حين انبثقت معانيها فى نفسه خلقًا جديداً. . كان ـ على حد تعبيره ـ حجراً يحمل نقوشًا مبهمة حتى جاء الحب فحل رموزها، ولم يفته أن يلاحظ غضب أمه، وهو ظاهرة جديدة فى حياتها لم تكن تعرفها قبل العهد المشئوم، لم تعد كما عهد، أجل لم تتغير تغيراً خطيراً أو دائمًا ولكنها غدت عرضة بين الحين والحين لنوبات لم تكن تطرأ عليها ولم تكن إذا طرأت تستسلم لها، ما عسى أن يقول فى ذلك؟ إن قلب الأم الجريح الذى لا يعرف عنه إلا شذرات وقع عليها ضمن مطالعاته، شد ما يتألم لها، ثم ما وراء عائشة وخديجة؟ هل يمكن أن تُرمى عائشة ببرود نحو ذكرى فهمى؟ لا يتصور هذا ولا يطيقه، إنها امرأة سليمة الطوية وفى قلبها متسع للصداقة والمودة، تميل فيما يبدو ـ ولها عذرها ـ إلى تبرئة مريم، ولعلها تحن إلى عهدها بهذا القلب المفتوح للناس جميعًا، أما خديجة فقد ازدردتها الحياة الزوجية، لم تعد إلا أمّا

وربة بيت، لا حاجة بها إلى مريم أو غيرها، لم يبق لها من ماضيها إلا عواطفها الثابتة نحو أسرتها، نحو أمها خاصة، فهى تدور حيث تدور، ما أعجب هذا كله!

ـ وأنت يا سى ياسين إلام تبقى أعزب؟

وجه إبراهيم هذا السؤال إلى ياسين، مدفوعًا برغبة صادقة فى تنقية الجو مما شابه، فأجابه ياسين مازحًا:

ـ غادرنى الشباب وقُضى الأمر!

فقال خليل شوكت بلهجة جدية، دلت على أنه لم يفطن إلى ما فى قول ياسين من مزاح:

ـ لقد تزوجت وأنا فى مثل سنك تقريبًا، ألست فى الثامنة والعشرين؟

فتضايقت خديجة من ذكر سن ياسين الذى كشف بطريقة غير مباشرة عن سنها، فخاطبت ياسين قائلة بلهجة حادة:

ـ هلا تزوجت وأرحت الناس من حديث عزوبيتك؟

فقال ياسين راميا ـ قبل كل شىء ـ إلى التودد إلى أمينة:

ـ مرت بنا أعوام أنْست الإنسان رغائبه!

ارتد رأس خديجة إلى الوراء، كأنما دفعته قبضة يد، ثم رمته بنظرة كأنما تقول «غلبتنى يا شيطان»، ثم قالت وهى تتنهد:

ـ آه منك!، قال إن الزواج لم يعد يروقك وهو الأصدق!

فقالت أمينة ممتنة لتودده:

ـ ياسين رجل طيب، والرجل الطيب لا يمتنع عن الزواج إلا مضطرا، الحق آن لك أن تفكر فى استكمال دينك..

يا طالما فكر فى استكمال دينه، لا ليجرب حظه من جديد فحسب ولكن رغبة فى رد الإهانة التى لحقت به يوم اضطر ـ بدافع من أبيه ـ إلى تطليق زينب إنفاذا «لمشيئة» أبيها محمد عفت!! ثم كان مصرع فهمى فصرفه عن التفكير فى الزواج حتى كاد يألف هذه الحياة الطليقة ويعتادها، غير أنه قال لأمينة، وكان يؤمن بما يقول:

ـ لابد مما ليس منه بد، وكل شىء رهن بوقته..

قطع عليهم أفكارهم بغتة ضجة وصياح وضوضاء جاءت من ناحية السلم، مختلطة بوقع أقدام متدافعة، فاتجهت الأبصار متسائلة نحو باب السلم، وما هى إلا لحظة حتى ظهرت أم حنفى على عتبة الباب عابسة لاهثة، وهى تصيح:

ـ الأولاد يا ستى، سى عبد المنعم وسى رضوان متشابكان، رمونى بالحصى وأنا أخلص بينهما..

قام ياسين وخديجة، فهرعا إلى الباب، ثم نفذا إلى السلم، ومضت دقيقة أو دقيقتان عادا بعدها، ياسين قابضًا على يد رضوان، وخديجة دافعة أمامها عبد المنعم وهى تلكمه برحمة فى ظهره، ثم تتابعت البقية مهللة، فجرت نعيمة إلى أبيها خليل، وعثمان إلى عائشة، ومحمد إلى جدته أمينة، وأحمد إلى أبيه إبراهيم، ثم جعلت خديجة تنتهر عبد المنعم وتنذره بأنه لن يرى بيت جده مرة أخرى، حتى صاح بصوت باك، وهو يشير متهمًا إلى رضوان الذى جلس بين أبيه وكمال:

ـ قال إنهم أغنى منا. .

فصاح رضوان محتجا:

ـ هو الذى قال لى إنهم أغنى منا، وقال أيضًا: إنهم يملكون بوابة المتولى بكنوزها!

فطيب ياسين خاطره، وهو يقول ضاحكًا:

ـ اعذره يا بنى، إنه مزّاع مثل أمه. . !

فقالت خديجة لرضوان، وهى لا تتمالك نفسها من الضحك:

ـ تتشاجران على بوابة المتولى؟! عندك يا سيدى باب النصر وهى قريبة من بيت جدك، فخذها ولا تتشاجر!

فقال رضوان، وهو يهز رأسه بإباء:

ـ فيها أموات لا كنوز، فليأخذها هو!

عند ذاك علا صوت عائشة، وهى تقول برجاء وإغراء:

ـ صلوا على النبى، أمامكم فرصة نادرة كى تسمعوا نعيمة وهى تغنى، ما رأيكم فى هذا الاقتراح؟. .

فجاءها الاستحسان والتشجيع من أركان الصالة جميعًا، حتى رفع خليل نعيمة بين يديه ووضعها على حجره، وهو يقول لها «أسمعى هذا الجمهور صوتك. الله. . الله. . ، إياك والخجل، أنا لا أحب الخجل»، ولكنَ نعيمة غلب عليها الخجل، فدفنت وجهها فى حجر أبيها حتى لم يعد يبدو منه إلا هالة من نضار الذهب، وحانت من عائشة التفاتة، فرأت محمد وهو يحاول عبثًا أن ينزع الشامة من خد جدته، وقامت إليه وعادت به إلى مجلسها رغم ممانعته، ثم واصلت تشجيع نعيمة على الغناء، وألح معها خليل حتى همست الصغيرة فى أذن أبيها بأنها لن تغنى إلا إذا توارت عن الأنظار وراء ظهره، فسمح لها بما أرادت، فزحفت على أربع حتى لبدت بين ظهره ومسند الكنبة. . وعند ذاك شمل الصالة سكون باسم مترقب، وامتدت فترة السكوت فأوشك خليل أن يفقد صبره، ولكن صوتًا رفيعًا لطيفًا بدأ يتكلم فيما يشبه الهمس، ثم أخذ يتشجع رويدًا رويدًا، حتى سرت فى نبراته الحرارة فعلاً مغنيًا:

حـــودّ مـــن هنـــا وتـعـــال عنـدنـــا
يـا الـلـى أنـــا وانـت نحـــب بعـــضنا

وراحت الأيدى الصغيرة تصفق على إيقاعه .

٤

ـ آن لك أن تخبرنى عن المدرسة التى تنوى الالتحاق بها . .

كان السيد أحمد عبد الجواد متربعًا على الكنبة بحجرة نومه ، على حين جلس كمال على طرفها المواجه للباب شابكا ذراعيه على حجره يكتنفه الأدب والطاعة . ود السيد لو يجيبه الفتى قائلاً : «الرأى رأيك يا أبى» . بيد أنه كان مسلمًا بأن اختيار المدرسة ليس من الأمور التى يدعى لنفسه فيها حقًا مطلقًا ، وأن موافقة الابن عامل جوهرى فى الاختيار ، إلى أن مدى علمه بالموضوع كله كان محدودًا جدًا ، وقد استمد أكثره مما يثار أحيانًا فى بعض مجالسه بين أصحابه من الموظفين والمحامين الذين أجمعوا على الإقرار بحق الابن فى اختيار نوع دراسته تفاديًا من الإخفاق والفشل ، لهذا كله لم يستنكف أن يجعل الأمر شورى مسلّمًا أمره إلى الله . .

ـ نويت يا بابا بإذن الله ، وبعد موافقة حضرتك طبعًا ! الالتحاق بمدرسة المعلمين العليا !

ندّت عن رأس السيد حركة موحية بالانزعاج ، واتسعت عيناه الزرقاوان الواسعتان ، وهو يحدج ابنه بغرابة ، ثم قال بنبرات ناطقة بالاستنكار :

ـ المعلمين العليا ! . . مدرسة المجانية ! . أليس كذلك؟

فقال كمال بعد تردد :

ـ ربما ، لا أدرى شيئًا عن هذا الموضوع . .

فلوح السيد بيده مستهزئًا ، كأنما أراد أن يقول له : «ينبغى أن تتجمل بالصبر قبل أن تقطع برأى فيما ليس لك به علم» ، ثم قال بازدراء :

ـ هى كما قلت لك ، ولذلك يندر أن تجذب أحدًا من أولاد الناس الطيبين ، ثم إن مهنة المعلم . . أتدرى شيئًا عن مهنة المعلم أم أن علمك بها لا يعدو علمك بمدرستها؟ هى مهنة تعيسة لا تحوز احترام أحد من الناس ، إنى عليم بما يقال عن هذه الشئون ، أما أنت فغرّ صغير لا تدرى من أمور الدنيا شيئًا ، هى مهنة يختلط فيها الأفندى

بالمجاور، خالية من كل معانى العظمة والجلال، ولقد عرفت أناسا من الأعيان والموظفين المحترمين يأبون ـ الإباء كله ـ أن يزوجوا بناتهم من معلم مهما تكن مكانته. .

ثم بعد أن تجشأ ونفخ طويلاً:

ـ فؤاد بن جميل الحمزاوى، وهو من كنت تخلع عليه البالى من بذلك سيلتحق بمدرسة الحقوق، ولد ذكى متفوق ولكنه ليس أذكى منك، وقد وعدت أباه بالمعاونة فى تسديد مصروفاته حتى تتحقق له المجانية، فكيف أنفق على أولاد الناس فى المدارس المحترمة وابنى يتعلم بالمجان فى المدارس الحقيرة؟!. . .

كان هذا التقرير الخطير عن «المعلم ورسالته» مفاجأة مزعجة لكمال. لمَ هذا التحامل كله؟ لايمكن أن يرجع ذلك إلى علم المعلم الذى هو تلقين العلم، فهل يرجع إلى مجانية المدرسة التى تخرجه؟ لم يكن يتصور أن يكون للغنى أو للفقر دخل فى تقدير العلم أو أن يكون للعلم قيمة خارجة عن ذاته. كان يؤمن بذلك إيمانًا عميقًا لا يمكن أن يتزعزع، كما يؤمن بكفالة الآراء السامية التى يطلع عليها فى مؤلفات رجال يحبهم ويعتز بهم، مثل: المنفلوطى، والمويلحى وغيرهما. كان يعيش بكل قلبه فى عالم «المثال» كما ينعكس على صفحات الكتب، فلم يتردد فيما بينه وبين نفسه عن تخطئة رأى أبيه رغم جلاله ومكانته من نفسه، معتذراً عن ذلك بجناية المجتمع المتأخر عليه، وأثر «الجهلاء» من أصحابه فيه، وهو ما أسف له كل الأسف، بيد أنه لم يسعه إلا أن يقول ملتزمًا غاية ما يستطيع من الأدب والرقة، وكان فى الواقع يردد نصًا من مطالعاته:

ـ العلم فوق الجاه والمال يا بابا. .

ردد السيد رأسه بين كمال وبين صوان الملابس، كأنما يُشهد شخصًا غير منظور على خرق الرأى الذى سمع، ثم قال باستياء:

ـ حقًا؟! عشت حتى أسمع هذا الكلام الفارغ، كأن ثمة فرقا بين الجاه والعلم! لا علم حقيقى بلا جاه ومال. ثم مالك تتكلم عن العلم كأنه علم واحد! ألم أقل لك إنك غر صغير؟ هنالك علوم لا علم واحد. للصعاليك علومهم، وللباشوات علومهم. افهم يا جاهل قبل أن تندم!

كان على يقين من احترام أبيه للدين ولأهله بالتالى، فقال بمكر:

ـ إن الأزهريين يتعلمون كذلك بالمجان ويشتغلون بالتدريس، ولكن أحدًا لا يستطيع أن يحتقر علومهم. .

فأومأ له بذقنه باحتقار، وهو يقول:

ـ الدين شىء، ورجال الدين شىء آخر!

فقال مستمداً من اليأس قوة يستعين بها على مناقشة الرجل الذى لم يتعود إلا طاعته:

ـ ولكنك يا بابا تحترم علماء الدين وتحبهم!

فقال السيد بلهجة لم تخل من حدّة:

ـ لا تخلط بين الأمور، أنا أحترم الشيخ متولى عبد الصمد وأحبه كذلك، ولكن أن أراك موظفًا محترمًا أحب إلىَّ من أن أراك مثله، ولو سرت بالبركة بين الناس ودفعت عنهم السوء بالأحجبة والتعاويذ.. لكل زمان رجال، ولكنك لا تريد أن تفهم!

تفحص الرجل الشاب ليسبر أثر كلامه فيه، فغض كمال بصره، وعض على شفته السفلى، وجعل يرمش، ويحرك زاوية فيه اليسرى فى عصبية. يا عجبا!. ألهذا الحاضر يصر الناس على ما فيه ضرر محقق لهم؟. وأوشك أن ينفجر غاضبًا، ولكنه تذكر أنه إنما يعالج أمرًا خارجًا عن نطاق سلطته المطلقة، فكظم غيظه، وساءله:

ـ ولكن ما الذى جعلك تتحمس لمدرسة المعلمين وحدها كأنها استأثرت بالعلم كله؟! ما الذى لا يروقك فى مدرسة الحقوق مثلاً؟ أليست هى المدرسة التى تخرج الكبراء والوزراء؟ أليست هى المدرسة التى تثقف بعلومها سعد باشا وأضرابه من الرجال؟

ثم بصوت منخفض، وقد عكست عيناه نظرة واجمة:

ـ وهى المدرسة التى وقع اختيار المرحوم فهمى عليها بعد رؤية وتفكير، ولو لم يعاجله الأجل لكان اليوم من رجال النيابة أو القضاء، أليس كذلك؟

قال كمال بتأثر:

ـ جميع قولك حق يا بابا، ولكننى لا أحب دراسة القانون!

ضرب الرجل كفا بكف، وهو يقول:

ـ لا يحب!، وما دخل الحب فى العلم والمدارس؟! قل لى ماذا تحب فى مدرسة المعلمين؟ أريد أن أعرف أمارات الحسن التى فتنتك فيها، أم أنت ممن يحبون الرمامة؟ تكلم ها أنا مصغ إليك..

ندّت عنه حركة، كأنه يستجمع قواه لإيضاح ما غمض على أبيه من الرأى، ولكنه كان مسلمًا بصعوبة مهمته، ومقتنعًا فى الوقت نفسه بأنها ستجر عليه مزيداً من السخريات التى ذاق أمثلة منها فيما سلف من النقاش، وفضلاً عن هذا كله، فلم يكن يستبين هدفًا واضحًا محدداً حتى يستطيع بدوره أن يوضحه لأبيه، فما عسى أن يقول؟ فى وسعه إذا تأمل قليلاً أن يعرف ما لا يريد، فليس القانون ببغيته ولا الاقتصاد ولا الجغرافيا ولا التاريخ ولا اللغة الإنجليزية وإن كان يقدر أهمية المادتين الأخيرتين لما يتطلع إليه، هذا ما لا يريد، فما الذى يريد؟ إن فى نفسه أشواقًا تحتاج إلى عناية وتأمل حتى

تتضح أهدافها، ولعله غير متوكد من أنه سيظفر بها فى مدرسة المعلمين، وإن رجح عنده أن تكون ـ هذه المدرسة ـ أقصر سبيل إليها. أشواق تهزها مطالعات شتى لا تكاد تجمعها صفة واحدة: مقالات أدبية، واجتماعية، ودينية، وملحمة عنتر، وألف ليلة، والحماسة، والمنفلوطى، ومبادئ الفلسفة، إلى أنها ربما لم تكن مقطوعة الصلة بالأحلام التى كاشفه بها ياسين قديمًا، بل والأساطير التى سكبتها فى روحه أمه من قبل ذلك.. كان يحلو له أن يطلق على هذا العالم الغامض اسم «الفكر»، وعلى نفسه اسم «المفكر»، فيؤمن بأن حياة الفكر أسمى غاية للإنسان تتعالى بطبعها النورانى على المادة والجاه والألقاب وسائر ألوان العظمة الزائفة.. هى كذلك!! وضحت معالمها أم لم تتضح، فاز بها فى مدرسة المعلمين أم لم تكن هذه المدرسة إلا وسيلة إليها، لا يملك عقله أن يتحول عن هذه الغاية أبدًا، ولكن من الحق كذلك أن يقر بأن ثمة صلة قوية تربطها بقلبه أو بالحرى بحبه! كيف كان ذلك؟ ليس بين «معبودته» وبين القانون أو الاقتصاد من سبب، ولكن ثمة أسباب وإن دقت وخفيت بينها وبين الدين والروح والخلق والفلسفة وما شاكل ذلك من المعارف التى يستهويه النهل من منابعها، على نحو يشبه ما بينها وبين الغناء والموسيقى من أسرار يتشوف إليها فى هزة الطرب وأريحية النشوة. إنه يجد هذا كله فى نفسه ويؤمن به كل الإيمان، ولكن ما عسى أن يقول لأبيه؟. لجأ مرة أخرى إلى المكر، وهو يقول:

ـ إن مدرسة المعلمين تدرس علومًا جليلة، كتاريخ الإنسان الحافل بالعظات، وكاللغة الإنجليزية!

كان السيد يتفحصه وهو يتكلم، وإذا بمشاعر الاستياء والحنق تزايله فجأة. تأمل ـ وكأنه يراه لأول مرة ـ نحافته وضخامة رأسه وكبر أنفه وطول عنقه، فوجد فى منظره غرابة تضاهى ما فى آرائه من شذوذ، وأوشكت روحه الساخرة أن تضحك فى باطنه، ولكن عطفه وحبه أبيا عليه ذلك، غير أنه تساءل فيما بينه وبين نفسه: النحافة ظاهرة مؤقتة، الأنف عندى مصدره، ولكن من أين له هذا الرأس العجيب؟ أليس من المحتمل أن يعرض له شخص ـ مثلى ـ ممن ينقبون عن العيوب صيدا لمزاحهم؟ ضايقته هذه الفكرة مضايقة ضاعفت من عطفه عليه، فعندما تكلم جاء صوته أهدأ نبرة وأدنى إلى الحلم والنصح، قال:

ـ العلم فى ذاته لا شىء، والعبرة بالنتيجة، القانون يفضى بك إلى وظيفة القضاء، أما التاريخ والعظات فمؤداها أن تكون معلمًا بائسًا، عند هذه النتيجة قف طويلاً وتأمل (ثم ونبرات صوته تعلو قليلا فى شىء من الحدة) لا حول ولا قوة إلا بالله، عظات وتاريخ وسخام، هلا حدثتنى بكلام معقول؟!

تورد وجه كمال حياء وألما وهو يستمع إلى رأى أبيه فى المعارف والقيم السامية التى يقدسها، وكيف استنزلها إلى مستوى السخام وقرنها به، غير أنه لم يعدم عزاء فيما ورد ذهنه ـ فى لحظته تلك ـ جليل دون شك، إلا أنه ضحية زمان ومكان ورفاق. ترى هل يجدى معه النقاش؟ هل يجرب حظه مرة أخرى مستعينا بمكر جديد؟

ـ الواقع يا بابا أن هذه العلوم تحوز أكبر التقدير فى الأمم الراقية؟ إن الأوروبيين يقدسونها، ويقيمون التماثيل للنابغين فيها!

حول السيد وجهه عنه، ولسان حاله يقول: «اللهم طوِّلك يا روح»، بيد أنه لم يكن غاضبا حقًا، ولعله رأى الأمر كله مفاجأة مضحكة لم تخطر له ببال، ثم أعاد إليه وجهه، وهو يقول:

ـ بصفتى والدك! أريد أن أطمئن على مستقبلك، أريد لك وظيفة محترمة، هل يختلف اثنان فى هذا؟ الذى يهمنى حقا أن أراك موظفًا مهابًا لا مدرسا بائسا وإن أقاموا له تمثالاً كإبراهيم باشا أبى أصبع! يا سبحان الله! عشنا وشفنا وسمعنا العجب! ما لنا نحن وأوربا؟! أنت تعيش فى هذا البلد، فهل هو يقيم التماثيل للمعلمين؟.. دلنى على تمثال واحد لمعلم؟! (ثم بلهجة استنكارية) خبرنى يا بنى: أتريد وظيفة أم تمثالا؟!

ولما لم يجد إلا الصمت والارتباك، قال فيما يشبه الحزن:

ـ فى رأسك أفكار لا أدرى كيف اندست إليه، إنى أدعوك إلى أن تكون واحداً من الرجال العظماء الذين يهزون الدنيا بجلالهم ومراكزهم، فهل عندك مثال تتطلع إليه لا أدريه؟ صارحنى بما فى نفسك حتى يرتاح بالى وأدرك غرضك، الحق أنى فى حيرة من أمرك!!

فليتقدم خطوة جديدة يفصح بها عن بعض ما فى نفسه وأمره لله، قال:

ـ هل من العيب يا بابا أن أتطلع إلى أن أكون كالمنفلوطى يومًا ما؟

قال السيد بدهشة:

ـ الشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى!؟.. رحمة الله عليه رأيته أكثر من مرة فى سيدنا الحسين.. لكنه لم يكن معلمًا فيما أعلم، كان أعظم من هذا بكثير، كان من جلساء سعد وكتَّابه، ثم إنه كان من الأزهر لا من المعلمين، ولا شأن للأزهر نفسه بعظمته، كان هبة من الله.. هكذا يقولون عنه!! نحن نبحث فى مستقبلك والمدرسة التى ينبغى أن تدخلها ولندع ما لله لله، فإن كنت أنت الآخر هبة من الله أيضًا، فستكون فى عظمة المنفلوطى وأنت وكيل نيابة أو قاض، لِمَ لا؟!

كمال، وهو يناضل فى استماتة:

ـ لست أتطلع إلى شخص المنفلوطى فحسب ولكن إلى ثقافته أيضًا، ولا أجد مدرسة هى أقرب إلى تحقيق غرضى، أو فى الأقل إلى تمهيد السبيل إليه من مدرسة المعلمين، لذلك آثرتها، ليس بى من رغبة خاصة فى أن أكون معلمًا، بل لعلى لم أقبل هذا إلا لأنه السبيل المتاح إلى ثقافة الفكر . .

الفكر؟! . . وردد مقطع أغنية الحامولى «الفكر تاه اسعفينى يا دموع العين» الذى طالما أحبه واستعاده فيما مضى من زمانه، أهذا هو الفكر الذى يسعى وراءه ابنه؟ سأله بدهشة:

ـ ما هى ثقافة الفكر؟

لجَّت به الحيرة، فازدرد ريقه، وقال بصوت منخفض:

ـ لعلى لا أعرفها، (ثم يبتسم متوددًا) لو كنت أعرفها لما كان بى حاجة إلى طلب تعلمها!

فسأله مستنكرًا:

ـ إذا كنت لا تعرفها فبأى حق اخترتها؟ . . هه . ؟ . . هل تهيم بالضعة لوجه الله؟

تغلب على ارتباكه بجهد شديد، وقال مدفوعا باستماتته فى الدفاع عن سعادته:

ـ إنها أكبر من أن يحاط بها، إنها تبحث فيما تبحث عن أصل الحياة ومآلها!

تأمله مليًا فى ذهول قبل أن يقول:

ـ أمن أجل هذا تريد أن تضحى بمستقبلك؟ أصل الحياة ومآلها؟! أصل الحياة آدم، ومصيرنا إلى الجنة أو النار، أم جد جديد فى ذلك؟

ـ كلا، أعلم هذا، أريد أن أقول . .

فعاجله قائلاً:

ـ هل جننت؟ . . أسألك عن مستقبلك، فتجيبنى بأنك تريد أن تعرف أصل الحياة ومآلها؟! . . وماذا تعمل بعد ذلك؟ . . تفتح دكانًا لاستطلاع الغيب؟!

خاف كمال إن هو استسلم للارتباك والصمت أن يغلب على أمره أو يضطر إلى التسليم بوجهة نظر أبيه، فقال مستنجدًا شجاعته:

ـ اعذرنى يا بابا إذا لم أكن أحسنت التعبير عن رأيى، أريد أن أواصل دراستى الأدبية التى بدأتها بعد الكفاءة، أن أدرس التاريخ واللغات والأخلاق والشعر، أما المستقبل فأمره بيد الله!

فهتف السيد متهكما حانقًا، وكأنما يتم سرد ما سكت كمال عنه:

ـ وأدرس أيضا فن الحواة والقره جوز وفتح المندل ونبين زين نبين . لـمَ لا، اللهم غفرانك، أكنت حقًا تدخر لى هذه المفاجأة؟ . . لا حول ولا قوة إلا بَالله!

اقتنع السيد أحمد بأن الحال أخطر مما قدر، فحار فى أمره، وجعل يسائل نفسه: أأخطأ فيما أباح لابنه من حرية القول والرأى؟، كلما مد له فى حبل الصبر والتسامح لج الآخر فى العناد وتمادى فى الجدل.. وما لبث أن قام فى نفسه صراع بين نزعته الاستبدادية وبين تسليمه بحق «اختيار المدرسة»، حرصًا على مستقبل كمال من ناحية وكراهية للانهزام من ناحية أخرى، ولكنه انتهى على غير عادته ـ أو بالأحرى على غير عادته فى الزمن القديم ـ بتغليب الحكمة، فعاد إلى النقاش وهو يقول:

ـ لا تكن غرًّا، ثمة شىء فى عقلك لا أدريه أسأل الله لك منه النجاة، ليس المستقبل لهوا ولعبًا، ولكنه حياتك التى لن تكون لك حياة غيرها، فكر فى الأمر طويلاً، الحقوق خير مدرسة لك، إنى أفهم الدنيا خيرا منك، ولى أصدقاء من كافة الطبقات ولا خلاف بينهم فى ذلك، أنت طفل أحمق، ألا تدرى ما هى النيابة، وما هو القضاء؟ هذه وظائف تهز الأرض هزًا وفى وسعك أن تتبوأ واحدة منها، كيف تعرض عنها بكل بساطة وتختار أن تكون.. معلما؟!

شد ما يتألم ـ لا غضبا لكرامة المعلم فحسب ـ ولكن غضبًا لكرامة العلم أولاً وأخيرًا، العلم الحقيقى فى نظره! لم يكن حسن الظن بالوظائف التى تهز الأرض هزًا، فطالما وجد الكتّاب المسيطرين على روحه يطلقون عليها العظمة الزائفة والمجد الزائل وغير ذلك من نعوت الاستهانة والاستخفاف، فآمن ـ تبعًا لأقوالهم ـ بألا عظمة حقيقية إلا فى حياة العلم والحقيقة، واقترنت من ثم كل مظاهر السلطان والجاه فى ذهنه بالزيف والتفاهة، غير أنه تحاشى الإفصاح عن إيمانه هذا أن يستفحل غضب أبيه، وقال برقة وتودد:

ـ على أى حال مدرسة المعلمين مدرسة عليا!

تفكر السيد مليًا، ثم قال متبرما يائسا:

ـ إذا لم تكن بك رغبة فى الحقوق، وبعض الناس يعشقون التعاسة، فاختر مدرسة محترمة: الحربية، البوليس.. وشىء خير من لا شىء!

فقال كمال منزعجًا:

ـ أدخل الحربية أو البوليس وقد نلت البكالوريا؟

ـ ما حيلتى إذا لم يكن لك فى الطب نصيب؟!

عند ذاك شعر بضوء آت من ناحية المرآة أقلق عينه اليسرى، فمد بصره صوب الصوان، فرأى أشعة شمس العصر المائلة المتسربة إلى الحجرة من النافذة المطلة على الفناء، وقد زحفت من الجدار المواجه للفراش حتى غيبت جانب المرآة، مؤذنة باقتراب موعد انصرافه إلى الدكان، فتزحزح قليلاً مبتعدًا عن الضوء المنعكس، ثم نفخ نفخة وشت بضيقه وأنذرت ـ أو بشرت ـ فى الوقت نفسه بوشك انتهاء الحديث، وتساءل واجما:

ـ ألا توجد مدرسة أخرى غير هذه المدارس المغضوب عليها؟

فقال كمال وهو يغض بصره حرجًا لعجزه عن إرضاء أبيه:

ـ لم يبق إلا مدرسة التجارة ولا أرب لى فيها!

ومع أن مبادرته إلى الرفض أحنقته، إلا أنه لم يجد من نفسه نحو المدرسة الجديدة إلا الفتور، لظنه أنها إنما تخرج «تجارًا»، ولم يكن يرضى لابنه أن يكون تاجرًا. لم يغب عن علمه أول الأمر أن متجرًا كمتجره ـ وإن هيأ له حياة صالحة ـ فإنه أعز من أن يهيئ هذه الحياة لمن يخلفه فيها من أبنائه إذا روعى ما سيفرق من دخله على بقية المستحقين، فلن يعمل على إعداد أحد منهم ليحل محله، على أن ذلك لم يكن السبب الجوهرى لفتوره، كان فى الحق يكبر الوظيفة والموظفين ويدرك خطرهم ومنزلتهم فى الحياة العامة كما لمس ذلك بنفسه، سواء فى أصدقائه من الموظفين أو فى بعض اتصالاته الحكومية المتعلقة بعمله، فأراد أبناءه على أن يكونوا موظفين وأعدهم لذاك، كذلك لم يكن يخفى عليه أن التجارة لا تحظى بربع ما تحظى به الوظيفة من التقدير فى نظر الناس وإن أخلفت أضعافها من المال. وهو نفسه شارك الناس شعورهم وإن لم يعترف بذلك بلسانه، بل كان يعتز بإكبار الموظفين له فيعد نفسه من الناحية «العقلية» موظفًا أو ندا للموظفين، ولكن من غيره يسعه أن يكون تاجرًا وندا للموظفين معا؟ ومن أين لأبنائه بشخصية مثل شخصيته؟!آه يا لها من خيبة أمل! كم تمنى قديمًا أن يرى ابنا من أبنائه طبيبًا، وكم ناط بفهمى أمنيته حتى قيل له إن البكالوريا الآداب لا تؤدى إلى مدرسة الطب فرضى بالحقوق واستبشر بما بعدها خيرًا، ثم علق أمله بكمال فاختار قسم الآداب فعاد الرجل يحلم بما بعد الحقوق، ولكنه لم يتصور قط أن تنجلى المعركة بين آماله وبين الأقدار بوفاة «نابغة» الأسرة، وبإصرار كمال على أن يكون معلمًا! أى خيبة أمل! وبدا السيد حزينًا حقًا، وهو يقول:

ـ لقد أخلصت لك النصيحة وأنت حر فيما تختار لنفسك، ولكن ينبغى أن تذكر دائمًا أننى لم أوافقك على رأيك، فكر فى الأمر طويلاً، لا تتعجل، فما يزال أمامك فسحة من الوقت وإلا ندمت على سوء اختيارك مدى الحياة، أعوذ بالله من الحمق والجهل والسخف!!

وطرح الرجل رجله على الأرض آتيا حركة دلت على شروعه فى القيام ليأخذ أهبته لمغادرة البيت، فنهض كمال فى أدب وحياء، وانصرف.

عاد إلى الصالة فوجد أمه وياسين جالسين يتحادثان، وكان مُوزع النفس كاسف البال لمعارضته لأبيه ولإصراره على معارضته رغم ما أبدى الرجل من حلم ولين، ثم لما بدا عليه أخيرًا من ضيق وحزن، فقص على ياسين خلاصة ما دار فى الحجرة من نقاش،

وأنصت إليه الشاب وعلى جبهته علامة احتجاج وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة، وسرعان ما صارحه بأنه من رأى السيد وأنه يعجب لجهله للقيم الجليلة فى هذه الحياة، وتطلعه لأخرى وهمية أو سخيفة. تريد أن تجود بحياتك للعلم؟ ما معنى هذا؟! إنه سلوك رائع كما يبدو فى فصل من فصول المنفلوطى أو فى نظرة من نظراته، أما فى الحياة فما هو إلا عبث لا يقدم ولا يؤخر، وأنت تعيش فى الحياة لا فى كتب المنفلوطى.. أليس كذلك؟ الكتب تقرر أموراً غريبة وخارقة، مثال ذلك، أنك تقرأ فيها أحيانًا «كاد المعلم أن يكون رسولاً»، ولكن هل صادفت مرة معلمًا يكاد أن يكون رسولاً؟ تعال معى إلى مدرسة النحاسين أو تذكر من تشاء من معلميك، ودلنى على واحد منهم يستحق أن يكون آدميًا لا رسولاً! وما هذا العلم الذى تريد؟ أخلاق وتاريخ وشعر؟ كل أولئك جميل للتسلية، حاذر من أن تفلت من يديك فرصة الحياة الرفيعة، كم أتحسر أحيانًا على معاكسة الظروف التى حالت بينى وبين مواصلة الدراسة!

تساءل عندما خلا إلى أمه على أثر ذهاب الأب وياسين، ترى ما رأيها؟.. لم تكن ممن يؤخذ رأيهم فى مثل هذا الأمر، بيد أنها تابعت أكثر حديثه مع ياسين، إلى أنها كانت على علم برغبة السيد فى إلحاقه بمدرسة الحقوق، الأمر الذى باتت تتطير منه فلم ترتح إليه، على أن كمال كان يعرف كيف يظفر بموافقتها من أقصر سبيل، قال لها:

- إن العلم الذى أرغب فى دراسته وثيق الصلة بالدين، ومن فروعه: الحكمة والأخلاق، وتأمل صفات الله وكنه آياته ومخلوقاته!

فتطلّق وجه أمينة، وقالت بحماس:

- هذا هو العلم حقًا، علم أبى، علم جدك، إنه أجل العلوم!

وفكرت قليلاً وهو ينظر إليها من طرف خفى باسما، ثم عادت تقول بنفس الحماس:

- منذا الذى يحتقر المعلم يا بنى؟ ألم يقولوا فى الأمثال «من علمنى حرفًا صرت له عبدًا»؟

فقال مرددًا حجة أبيه الذى هاجم بها اختياره، وكأنما يستوهبها رأيا يؤكد به موقفه:

- ولكنهم يقولون، إن المعلم لا حظ له فى المناصب الرفيعة!

فلوحت بيدها باستهانة قائلة:

- المعلم موفور الرزق. أليس كذلك؟ حسبك هذا، إنى أسأل الله لك الصحة وطول العمر وصالح العلم، كان جدك يقول: «إن العلم أعز من المال»!

أليس عجيبًا أن يكون رأى أمه خيراً من رأى أبيه؟. ولكنه ليس برأى، إنه شعور سليم، لم تفسده ممارسة الحياة الواقعة التى أفسدت رأى أبيه. ولعل جهلها بشئون العالم هو الذى صان شعورها عن الفساد، ترى ما قيمة شعور - وإن سما - إذا كان

مـصـدره الجـهل؟ وألا يكون لـهـذا الجـهل نفـسـه أثره فى تكوين آرائه؟ . . ثار علـى هذا المنطق، وقـال يحاوره: إنه عـرف الدنيـا خيرها وشرها فى الكتب وآثر الخيـر عن إيمان وتفكير، وقد يلتقى الشعور الفطرى الساذج بالرأى الحكيم دون أن تهوى سذاجة الفطرة من أصالة الحكمة. أجل! إنه لا يشك لحظة فى صدق رأيه وجلاله، ولكن هل يدرى ماذا يريد؟ ليست مهنة المعلم بالتى تجذبه، إنه يحلم أن يؤلف كتابًا، هذه هى الحـقيقة، أى كتاب؟ لن يكون شعراً، إذا كانت كراسة أسراره تحوى شعرا، فمرجع ذلك إلى أن عايدة تحيل النثر شعرا لا إلى شاعرية أصيلة فيه، فالكتاب سيكون نثراً، وسيكون مجلدا ضخمًا فى حجم القرآن الكريم وشكله، وستحدق بصفحاته هوامش الشرح والتفسير كذلك، ولكن عم يكتب؟ ألم يحو القرآن كل شىء؟ لا ينبغى أن ييأس، ليجدن موضوعه يوما ما، حسبه الآن أنه عرف حجم الكتاب وشكله وهوامشه، أليس كتاب يهز الأرض خيرا من وظيفة وإن هزت الأرض؟! كل المتعلمين يعرفون سقراط، ولكن من منهم يعرف القضاة الذين حاكموه؟!

٥

ـ مساء النور! . .

لا تجيب! هذا ما قدرته وما أنا به عليم. هى البداية دائما. . منذ قديم وإلى الأبد، ها هى توليك ظهرها، ابتعدت عن الحائط نحو حبل الغسيل، تحبك المشابك، ألم تحبكيها من قبل؟ . . بلى ولكنك تدارين موقفك، إنى أفهم كل الفهم، عشرة أعوام فى المجون ليست بالخبرة القليلة، متع عينيك بمنظرها قبل أن يستقر الظلام الزاحف فلا تبدو إلا شبحًا، سمنت واكتنزت، زادت حسنًا عمًا كانت أيام صباها. كالغزال كانت ولكنها لم تكن تملك هذه الأرداف العبلة، رويدا. . لم يزل لها من رشاقة البكارة نصيب محترم، ما عمرك يا شاطرة؟ زعم أهلك قديمًا أنك فى سن خديجة. رأى خديجة أنك تكبرينها بسنوات وسنوات. امرأة أبى تؤكد هذه الأيام أنك فى الثلاثين مستشهدة بذكريات قديمة من نوع: أيام كنت حبلى فى خديجة كانت صبية فى الخامسة الخ، ما قيمة العمر؟ هل أنت ستعاشرها حتى الكبر؟! فى الأيام القصيرة تستوى الشابة والنصف، جميلة وجذابة ومشبعة دسمة، آه، نظرت صوب الطريق ولحظتك، أرأيت مقلتها وهى تلحظك كالدجاجة؟، لن أبرح موقفى يا مليحة، فتى تعرفين الشىء الكثير عن جماله وقوته وماله، أليس هو خيراً من ذلك الإنجليزى القديم. . ؟

ـ هل التحية عندكم لا تستحق ردا ولو بمثلها؟

ولَّتك قذاها مرة أخرى، مهلا . . ألم تبتسم؟ بلى ومن سوى جمالها فجعله فتنة، لقد ابتسمت، مهدت لهذه الخطوة الأخيرة فأحسنت التمهيد، لا شك أنها تعلم بكل حركاتى ومناوراتى السابقة، آن لى . . وآن لك . . من حسن حظى أنك لست من المصابات بداء الحشمة، ذاك الإنجليزى . . جوليون، الجواد الكريم القائم أمامك موطأ المتن، ألا تسمعين حمحمته؟

ـ أليس للجار عندكم إكرام؟ . . إنى أشحذك تحية هى من صميم حقوقى!

جاءه صوت رقيق خافت ـ بدا لتحول الوجه عنه كأنه آت من بعيد ـ وهو يقول:

ـ ليست من حقك . . على هذا النحو!

أجيب الطارق . رفعت سقاطة الباب . لن تظفر بالمناغاة حتى تلعق الزجر . اثبت، الثبات . . الثبات . . كما يهتف به المجاورون:

ـ إذا كان صدر منى ما أغضبك فلن أغتفره لنفسى ما حييت؟

هى فى عتاب:

ـ إن سطح بيت أم على، الداية، فى مستوى سطحنا وسطحكم، ما عسى أن يظن الناظر إذا رأى موقفك منى وأنا أنشر الغسيل؟ . .

ثم فى تساؤل هازئ:

ـ أم تريد أن تجعل منى أحدوثة؟!

بُعّد الشر عنك؟ هل راعيت هذا الحذر فى موقفك مع جوليون فى الزمن القديم؟ لكن مهلاً، إن جمال عينيك وعجيزتك يغفر ما تقدم وما تأخر من ذنبك!

ـ لا أبقانى الله فى الحياة لحظة واحدة إن كنت قصدتك بسوء، لقد تواريت تحت سقيفة الياسمين حتى غابت الشمس، ولم أقترب من السور حتى ثبت عندى خلو سطح أم على الداية . .

ثم وهو يتنهد بصوت مسموع:

ـ وعذرى بعد ذلك أنى واليت صعود السطح أبدا كى أظفر بهذه الخلوة . . فلما وجدتها الساعة استخفنى السرور، وعلى أى حال ربنا يستر . .

ـ عجيبة! . . لم هذا التعب كله؟

سؤال لا يبعث عليه الجهل، يسألْنَ عما يعرفن، ارتضت أن تحاورك فاهنأ بجوارها . .

ـ قلت لنفسى : إن تحييها وترد تحيتك ألذ من الصحة والعافية!

التفتت إليه برأس دلت حركته فى شبه الظلام على تكتم الضحك، وقالت:

ـ لسانك أطول من جسمك، ترى ماذا وراء كلامك؟

ـ وراءه؟! هلا اقتربت من السور؟ عندى حديث طويل، منذ أيام وأنا أغادر البيت إلى الطريق، لاحت منى التفاتة إلى الأرض فرأيت ظل يد تتحرك، فنظرت إلى فوق فرأيتك مطلة من السور، رأيت منظرًا جميلاً لا يمكن أن ينسى . .

دارت على عقبيها ولكنها لم تقترب خطوة، ثم قالت فى لهجة تنم عن الاتهام:

ـ كيف تنظر إلى فوق؟! . . ولو كنت جارًا حقًا كما تقول ما سمحت لنفسك بأن تجرح جارتك، ولكنك سيئ النية فيما بدا منك باعترافك فيما يبدو منك الساعة!

حق أنه سيئ النية، أليس الفسق من سوء النية؟ سوء نية من النوع الذى تحبينه، آه من النسوان، بعد ساعة ستطالبين به كحق من حقوقك، بعد ساعتين سأهرب وتجدين فى أثرى، على أى حال ليلتنا فل . .

ـ ربنا يعلم بحسن نيتى، نظرت إلى فوق لأنى لا أستطيع أن أمنع النظر عن مكان تكونين فيه، ألم تدركى هذا؟ ألم تشعرى به؟ جارك القديم يتكلم وإن تأخر به الزمن.

هازئة:

ـ تكلم. أطلق الحرية للسانك الطويل، ارفع صوتك، ماذا تفعل لو اقتحمت عليك السطح امرأة أبيك فرأتك ورأتنى؟

لا تزوغى يا بنت اللبؤة، سيكون من المعجزات أن أطوى عقلك، أتخافين امرأة أبى حقا؟ آه . . إن ليلة فى حضنها تساوى العمر كله!

ـ سأسمع وقع الأقدام قبل مجيئها، خلينا فيما نحن فيه . . .

ـ ما هذا الذى نحن فيه؟

ـ إنه يجل عن الوصف!

ـ لا أجد شيئا مما تقول، لعل هذا ما أنت وحدك فيه!

ـ لعله، إنه لأمر مؤسف حقا، أمر مؤسف أن يتكلم قلب فلا يجد من يستجيب له، إنى أذكر أيام زياراتك لبيتنا. تلك الأيام التى كنا فيها وكأننا أسرة واحدة، وأتحسر . .

غمغمت وهى تهز رأسها:

ـ تلك الأيام!

لمَ عدت إلى الماضى؟ أخطأت خطأ كبيرا، احذر أن يفسد عليك الألم جهدك كله، ركزَ إرادتك كى تنسى كل شىء إلا الحاضر . .

ـ ثم رأيتك أخيراً فرأيت شابة جميلة كالزهرة، تتطلع فى ظلام الليل فتنوره، فكأنما أراك لأول مرة، ساءلت نفسى أتكون هذه جارتنا مريم التى كانت تلعب مع خديجة وعائشة؟ كلا . . هذه فتاة اكتمل لها الحسن ونضج، وشعرت بأن الدنيا تتغير من حولى . .

قالت، وقد عاود صوتها عبثه :

ـ فى تلك الأيام لم تكن عيناك تستبيحان التطلع إلى أحد! ! كنت جاراً بمعنى الكلمة، ولكن ماذا بقى من تلك الأيام؟ تغير كل شىء، عدنا كالأغراب، وكأننا لم نتبادل كلمة، ولم ننشأ معا نشأة الأسرة الواحدة. هذا ما أراده أهلك.

ـ دعينا من هذا، لا تحمليني همّا إلى همّ.

ـ اليوم تتطلع بعينيك . . فى النافذة، وفى الطريق، وها أنت تقطع علىّ السطح! ماذا يمنعك من الذهاب إن كنت حقا تريدينه؟ كذبك ألذ من الشهد يا نور الظلام . .

ـ هذا قليل من كثير، إنى أتطلع إليك أيضًا من حيث لا تدرين، وأراك فى الخيال أكثر مما تتصورين، أقول لنفسى الآن وأنا على بينة مما أقول: إما القرب وإما الموت!

هسيس ضحكة مكتومة اهتز لها قلبه، ثم تساءلت :

ـ من أين لك هذا الكلام؟

أشار إلى صدره، وهو يقول :

ـ من قلبى!

مسحت بقدمها على أرض السطح محدثة بالشبشب حفيفا ينذر بالتحرك ولكنها لم تزايل موضعها، وقالت :

ـ ما دام الأمر قد بلغ القلب، فينبغى أن أذهب!

بحماس علا به صوته أولا حتى انتبه إلى نفسه فخفضه :

ـ بل يجب أن تأتى، أن تأتى إلىّ، الآن وإلى الأبد . . (ثم بمكر) إلى قلبى . . هو لك وما يملك!

وبلهجة وعظيّة عابثة :

ـ لا تفرط فى نفسك على هذا النحو، حرام على أن أحرمك قلبك وما يملك . .

إلى أى مدى ذهب بك الفهم؟ إنى أخاطب فيك اللبؤة التى أحبها، لست بلهاء وحق ذكرى جوليون، تعالى يا بنت القديمة، أخاف أن أضىء فى الظلام من شدة النار التى تستعر فى جسدى . .

ـ هو وما يملك لك عن طيب خاطر، سعادته فى أن تقبليه وتملكيه، وأن تكونى له وحده!

قالت ضاحكة:

ـ أرأيت يا ماكر؟.. تريد أن تأخذ لا أن تعطى..

من أين لك بهذا اللسان؟، ولا زنوبة فى زمانها، ملعونة الدنيا من غيرك!..

ـ أريد أن تكونى لى كما أكون لك.. أين الظلم فى هذا؟

صمت، ونظر متبادل بين الشبحين، حتى قالت:

ـ لعلهم يتساءلون الآن عما أخرك!

فقال مستعطفا بمكر:

ـ ليس ثمة فى الدنيا من يهتم بأمرى!

عند ذاك غيرت لهجتها متسائلة بجد:

ـ كيف ابنك؟.. لا يزال عند جده؟

ماذا وراء هذا السؤال الغريب؟

ـ بلى..

ـ ما عمره الآن؟

ـ خمس سنوات..

ـ وما أخبار والدته؟

ـ إنها تزوجت أو ستتزوج فى القريب العاجل...

ـ خسارة!.. لِمَ لم تردها ولو إكراما لرضوان؟

يا بنت اللبؤة!.. أفصحى عما ترومين..

ـ أهذه رغبتك حقا؟

وهى تضحك ضحكة خافتة:

ـ يا بخت من وفق رأسين فى الحلال!

وفى الحرام؟!

ـ لكننى لا أنظر إلى الوراء..

ساد صمت بدا غريبا مليئا بالفكر.. حتى قالت بصوت جمع بين التحذير واللين:

ـ إياك وأن تقطع علىَّ السطح مرة أخرى.

فقال بجرأة:

ـ أمرك مطاع، ليس السطح بالمكان المأمون، ألم تعلمى بأن لى بيتا فى قصر الشوق؟!

هتفت مستنكرة:

ـ بيتك! . . . أهلا يا سى بيته!

فسكت قليلاً، كأنما يحاذر، ثم تساءل:

ـ خمنى فيم أفكر؟

ـ لا شأن لى بهذا . .

صمت، ظلام، خلوة، ما أفظع تأثير الظلام فى أعصابى . .

ـ إنى أفكر فى سورَى سطحينا المتلاصقين، بم يوحى منظرهما إليك؟

ـ لا شىء . .

ـ منظر حبيبين متلاصقين . .

ـ لا أحب سماع هذا الكلام . .

ـ تلاصقهما يذكر أيضًا بأنه ليس ثمة ما يفصل بينهما.

ـ هيه!

ندت عنها كاستدراج ملىء بالوعيد، فقال ضاحكًا:

ـ كأنهما يقولان لى: اعبر!

تراجعت خطوتين حتى التصق ظهرها بملاءة منشورة، ثم همست فى تحذير جدى:

ـ لا أسمح بهذا!

ـ هذا . . . ما هذا؟

ـ هذا الكلام.

ـ والفعل؟

ـ سأتركك غاضبة!

كلا وحياتك الغالية . . أتعنين ما تقولين؟ أأنا أغبى مما أظن؟ أم أنت أمكر مما أتصور؟ لِمَ تكلمت عن رضوان وأمه؟ هل تلوّح بالزواج؟ ما أشد رغبتك إليها؟ رغبة جنونية . .

قالت مريم بغتة:

ـ آه . . ما الذى يدعونى إلى البقاء؟

ودارت حول نفسها، ثم تطامن رأسها لتمر من تحت الغسيل، فأرسل صوته وراءها قائلاً فى جزع:

ـ تذهبين دون تحية!

اشرأبّ رأسها فوق حبل الغسيل، ثم قالت:

ـ البيوت من أبوابها، هذه تحيتي..

واتجهت مسرعة نحو باب السطح فمرقت منه.

عاد ياسين إلى الصالة فاعتذر لأمينة عن طول غيبته بحرارة الجو فى الداخل، ثم ذهب إلى حجرته ليرتدى بذلته. كان كمال يتبعه عينيه فى دهشة وتفكير. ونظر إلى أمه فألفاها هادئة مطمئنة وكانت فرغت من احتساء قهوتها وقراءة الفنجان، فتساءل ترى ماذا يحدث لها لو علمت بما دار فوق السطح؟.. هو نفسه لم يزايله القلق منذ اطلع مصادفة على منظر المتناجيين حين مضى وراء أخيه مستطلعا غيبته، فعل ياسين ذلك، هل هانت عليه ذكرى فهمى؟ لا يستطيع أن يتصور هذا، كان ياسين يحب فهمى حبا صادقا، وقد حزن عليه حزنًا شديداً، لا يجوز أن يرتاب فى إخلاصه، إلى أن هذه «الحوادث» كثيراً ما تقع، ثم إنه لم يدر لِمَ يربطون دائمًا بين فهمى ومريم؟! لقد علم المرحوم بواقعة جوليون فى حينها، ثم مر زمَن طويل بدا عليه أنه نسيها نسيا تاما وشغل عنها بما هو أجل وأخطر، وما كانت تستحق غير ذلك وما كانت يومًا كفئا له. إنه مما يدعو إلى النظر حقا أن يتساءل: هل يمكن أن ينسى الحب؟ الحب لا يُنسى، هذا ما يؤمن به، ولكن من أدراه أن فهمى أحب مريم بالمعنى الذى يفهمه ـ أو يشعر به ـ هو من الحب؟ لعلها كانت رغبة قوية، كهذه الرغبة التى تستحوذ الساعة على ياسين، بل كتلك الرغبة القديمة إلى مريم نفسها التى ناوشته هو على عهد البلوغ وعابثت أحلامه، أجل وقع هذا أيضًا، وعانى منها ألمين: ألم الرغبة وألم الندم، وكانا فى القوة متعادلين فلم ينقذه من شرهما إلا زواج مريم واختفاؤها. يهمه أن يعلم الآن هل تألم ياسين وهل وخزه الندم؟ وإلى أى مدى؟ لا يتصور أن يكون الأمر جرى سهلا مهما يكن ظنه بحيوانية ياسين وفتور حماسه للمثل العليا، وعلى رغم نظرته المتسامحة للأمر كله شعر بامتعاض وقلق كما ينبغى لإنسان لا يعدل بمثاليته شيئًا فى الوجود.

رجع ياسين من الحجرة وقد ارتدى ملابسه وأخذ زينته، فحياهما وانصرف، وبعد قليل سمعا نقر استئذان على باب الصالة فدعا كمال القادم ـ وهو على يقين من هويته ـ فدخل شاب يماثله فى السن. قصير القامة، وسيم الطلعة، مرتديا جلبابا وجاكتة، فقصد أمينة وقبّل يدها، ثم صافح كمال وجلس إلى جانبه. كان فى سلوكه ـ رغم ما أخذ به نفسه من التأدب ـ ألفة كأنما كان واحدا من أهل البيت، وأكثر من هذا فقد أقبلت أمينة تحادثه وهى تدعوه بكل بساطة «يا فؤاد»، وتسأله عن صحة أبيه جميل الحمزاوى ووالدته، فيجيبها مستشعراً السرور، والامتنان فى حسن استقبالها، وترك كمال صديقه مع والدته، ومضى إلى حجرته ليرتدى جاكتته، ثم يعود إليه فينطلقا معا.

٦

سارا جنبًا إلى جنب صوب درب قرمز، متجنبين طريق النحاسين، ليتفاديا من المرور بالدكان حيث يوجد والداهما. . كمال بقامته الطويلة النحيلة، وفؤاد بقامته القصيرة، تكاد صورتاهما تلفتان الأنظار بتناقضهما. تساءل فؤاد بصوت هادئ:

ـ أين تذهب هذا المساء؟

فأجابه كمال بصوته الانفعالى:

ـ قهوة أحمد عبده. .

كان كمال ـ عادة ـ يقرر، وفؤاد يوافق رغم ما عرف عن الأخير من رجاحة العقل. ورغم نزوات كمال التى كانت تبدو مضحكة فى عين رفيقه، مثل دعواته المتكررة له للذهاب إلى جبل المقطم والقلعة والخيمية لتسريح النظر ـ على حد تعبيره ـ فى مخلفات التاريخ وعجائب الحاضر، ولكن الحق أن العلاقة بين الصديقين لم تخل من تأثر بفارق طبقتيهما، وكون الأول ابن صاحب الدكان والآخر ابن وكيله، وعمق هذا التأثر أن فؤاد اعتاد فى صباه أن يؤدى ما يكلف به من شراء بعض حوائج لبيت السيد أحمد، وأن يكون صنيعة لكرم أمينة التى لم تكن تضن عليه بأحسن ما عندها من مأكل ـ وكثيراً ما يصادف مجيئه أوقات الغداء ـ وأصلح ما يمكن استغناء عنه من ملابس كمال، فربط بينهما منذ البدء شعور باستعلاء من ناحية وبالتبعية من ناحية أخرى. . وهو وإن مضى يزول بحلول شعور الصداقة محله، إلا أن أثره النفسى لم يُقتلع من الأعماق، وقد قضت ظروف بألا يجد كمال من رفيق تقريبًا طوال العطلة الصيفية إلا فؤاد الحمزاوى، ذلك أن رفاق صباه من أهل الحى لم يواصلوا التعليم إلى النهاية: منهم من توظف بالابتدائية أو الكفاءة، ومنهم من اضطر إلى مزاولة عمل من الأعمال البسيطة مثل صبى قهوة بين القصرين وصبى الكواء البلدى بخان جعفر. كان كلاهما من أقرانه فى الكتاب، وما زال ثلاثتهم يتبادلون تحية الزمالة القديمة كلما اتفق لهم اللقاء، تحية مشربة بالاحترام من ناحيتهما لما يضفيه طلب العلم عليه من امتياز، مشبعة من ناحيته بالمودة الصادرة عن نفس مطبوعة على التواضع والبساطة، أما أصدقاؤه الجدد الذين اكتسب صداقتهم فى العباسية: حسن سليم، وإسماعيل لطيف، وحسين شداد فكانوا يقضون العطلة فى الإسكندرية ورأس البر، فلم يبق له من رفيق إلا فؤاد.

بلغا مدخل قهوة أحمد عبده بعد مسيرة دقائق، فهبطا إلى مستقرها الغريب فى جوف

الأرض تحت حى خان الخليلى، واتجها إلى مقصورة خالية، وفيما هما يجلسان متقابلين حول المائدة تمتم فؤاد فى شىء من الحياء:

ـ ظننتك ستذهب هذا المساء إلى السينما!

وشى قوله برغبته فى الذهاب إلى السينما، ولعلها راودته قبل أن يذهب إلى مقابلة كمال فى بيته ولكنه لم يفصح عنها، لا لأنه لا يستطيع أن يثنى كمال عن رأى فحسب، وإنما لأن كمال هو الذى يقوم بنفقات السينما إذا ذهبا إليها معًا، فلم تواته شجاعته على التلميح إلى رغبته حتى استقر بهما المجلس بالقهوة.. حيث يمكن أن يؤخذ قوله مأخذ الملاحظة البريئة العابرة.

ـ سنذهب يوم الخميس القادم إلى الكلوب المصرى لمشاهدة شارلى شابلن، فلنلعب الآن عشرة دومينو..

خلعًا طربوشيهما ووضعاهما على مقعد ثالث، ثم نادى كمال النادل، طلب شايا أخضر ودومينو. بدا المقهى المدفون كجوف حيوان من الحيوانات المنقرضة طُمر تحت ركام التاريخ إلا رأسه الكبير، فقد تشبث بسطح الأرض فاغرا فاه عن أنياب بارزة على هيئة مدخل ذى سلم طويل، وثمة فى الداخل صحن واسع مربع الشكل مبلط بالبلاط المعصرانى تتوسطه فسقية رصت على حافتها أصص القرنفل، وأحدقت بها من الجهات الأربع أرائك فُرشت بالحصير المزركش والوسائد، أما جدرانه فقد انتظمتها مقاصير صغيرة الحجم متجاورة، كأن الواحد منها كهف منحوت فى الحائط، لا نافذة بها ولا باب لها، واقتصر أثاثها على مائدة خشبية وأربعة مقاعد ومصباح صغير يشتعل ليل نهار فى كوة بأعلى الجدار المواجه للمدخل. وكأن القهوة اكتسبت من موقعها الغريب بعض صفاته، فهى تهوم فى هدوء غير مألوف لسائر المقاهى، وضوء غير باهر، وجو رطيب، وقد انطوت كل جماعة على نفسها فى مقصورتها أو فوق أريكتها، تدخن النارجيلة وتحسو الشاى وتهيم فى دردشة لا نهاية لها، تكاد تشملها نغمة صبا وانية متصلة إلا أن تقطعها فى فترات متباعدة سعلة أو ضحكة أو قرقرة مدخن منهم.

كانت قهوة أحمد عبده فى نظر كمال مجتلى للمتأمل وتحفة للحالم، أما فؤاد ـ وإن لم تغب عنه طرافتها أول عهده بها ـ فلم يعد يجد فيها إلا مجلسا كئيبًا تغشاه الرطوبة والهواء الفاسد، ولكنه لم يكن يملك إلا أن يلبى كلما دُعى إليها!

ـ أتذكر يوم أن رآنا أخوك سى ياسين ونحن فى مجلسنا هذا؟

قال كمال باسما:

ـ نعم، سى ياسين متسامح ولطيف ولم يشعرنى أبدا بأنه أخى الأكبر، بيد أنى رجوته يومذاك ألا يشير إلى مجلسنا فى البيت لا خوفًا من أبى، فإن أحدًا عندنا لا يجرؤ

على مكاشفته بمثل هذا الأمر، ولكن إشفاقًا من إزعاج والدتى، تصور أنها ترتعب إذا علمت بترددنا على هذه القهوة أو غيرها، وتظن أن أغلبية رواد المقاهى من الحشاشين وسيئى السمعة!

ـ وسى ياسين، ألم تعلم بأنه من رواد المقاهى؟

ـ إذا قلت لها هذا قالت لى: إن ياسين «كبير» ولا خوف عليه، أما أنا فصغير! الظاهر أنى سأظل معدودًا فى الصغار فى بيتنا حتى يدركنى المشيب!

جاء النادل بالدومينو، وقدحين من الشاى على صينية فاقعة الاصفرار، فتركها جميعًا على المائدة وذهب، تناول كمال قدحه من فوره وراح يحتسيه من قبل أن تخف حرارته، ينفخ السائل ثم يتمزّزه، وينفخ مرة أخرى ويمصمص شفتيه كلما لسعته الحرارة، ولكن ذلك لا يردعه فيعاود المحاولة فى عناد وجزع كأنه محكوم عليه بالفراغ منه فى دقيقة أو دقيقتين، على حين جعل فؤاد يراقبه صامتًا أو يمد بصره إلى لا شىء وهو مستند إلى ظهر مقعده فى رزانة أكبر من سنه، تلوح فى عينيه الواسعتين الجميلتين نظرة عميقة هادئة، ولم يمد يده إلى قدحه حتى كان كمال قد فرغ من مغالبة قدحه، وعند ذاك أقبل يتحسى الشاى فى تأنّ مستطعما مذاقه مستلذا نكهته، وهو يغمغم بعد كل حسوة «الله .. ما أطيبه!»، والآخر يحثه على الفراغ منه بصبر نافد كى يأخذا فى اللعب، وهو يقول منذرا:

ـ لأهزمنّك اليوم. لن يحالفك الحظ أبد الدهر..

فيبتسم فؤاد مغمغمًا:

ـ سنرى..

وأخذا يلعبان..

كان كمال يولى المباراة اهتمامًا عصبيا، كأنه يخوض معركة تتوقف على نتائجها حياته أو كرامته، بينا مضى فؤاد فى نظم قطعه بهدوء ومهارة فلم تفارق الابتسامة شفتيه، أقبل الحظ أم أدبر، هش كمال أم عبس، وقد خرج كمال ـ كعادته ـ عن طوره، فهتف به: «لعب سخيف، وحظ سعيد». فلم يزد الآخر عن أن ضحك ضحكة مهذبة لا تثير حنقا ولا توحى بتحد. طالما قال كمال لنفسه وهو يتميز غيظا «لن يبرح حظه راكبا حظى»، ولم يكن يلقى اللعب بالتسامح الخليق باللهو والتسلية، بل الحق لم يكن ثمة فارق ـ فى اهتمامه وحماسه ـ بين جده ولهوه،. على أن تفوق فؤاد فى المدرسة لم يكن دون تفوقه فى الدومينو، كان أول فرقته بينا كان هو فى الخمسة الأوائل، فهل ثمة دور للحظ فى ذلك أيضًا؟ كيف يعلل تفوق الشاب الذى ينطوى له فى الأعماق على شعور بالاستعلاء ظن أنه ينبغى أن يمتد إلى المواهب العقلية على السواء؟ لم يُعدم رأيا يهون به

من تفوق صاحبه، فهو يقول إنه يكرس وقته كله للمذاكرة وإنه لو كان عقله بالتفوق الذى يزعمون لأغنى عنه بعض هذا الوقت، ويقول أيضًا: إنه يتجنب الألعاب الرياضية وقد برّز هو فى أكثر من نوع منها، ويقول أخيراً: إن فؤاد يقتصر فى مطالعاته على الكتب المدرسية، وإذا تراءى له أن يقرأ كتابًا غير مدرسى فى العطلة لاحظ فى اختياره أن يكون مفيداً لدراسته اللاحقة، أما هو فلا تحد مطالعته حدود ولا توجهها منفعة، فما وجه الغرابة فى ذلك فى أن يسبقه الشاب فى الترتيب؟ غير أن سخطه هذا لم يعرّض صداقتهما للوهن، كان يحبه ويجد فى رفقته مؤانسة ومسرة إلى أنه لم يضن ـ على الأقل فيما بينه وبين نفسه ـ بالإقرار بفضائله ومزاياه.

تواصل اللعب وانتهت العشرة ـ على غير ما أنذر به مطلعها ـ بانتصار كمال! فتطلّق وجهه، وضحك ضحكة عالية، ثم سأل غريمه: «عشرة أخرى؟»، لكن فؤاد قال باسما: «حسبنا اليوم ما كان» لعله كان ملّ اللعب، أو لعله أشفق من أن تجىء نتيجة العشرة المقترحة مخيبة لآمال كمال فينقلب سروره غما، فهز كمال رأسه كالمتعجب وقال:

ـ إنك كالسمك من ذوى الدم البارد!

ثم بلهجة المنتقد، وهو يدلك أرنبة أنفه العظيم بإبهامه وسبابته:

ـ إنى أعجب لك، إذا غُلبت لم تأبه للأخذ بثأرك، وتحب سعد ولكنك تنكص عن الاشتراك فى مظاهرة أريد بها تحيته يوم ولى الوزارة، وتتبارك بسيدنا الحسين ولكن لم تهتز لك شعرة يوم ثبت لنا من تاريخه أن جثمانه غير ثاو فى ضريحه القريب! إنى أعجب لك . .

شد ما يحنقه البرود، إن ما يسمونه «العقل» لا يطيقه، وكأنه يحب الجنون ويهيم به، إنه يذكر يوم قيل لهما فى المدرسة: «إن ضريح الحسين رمز له ولا شىء غير ذلك». عادا يومذاك معًا وفؤاد يردد ما قاله مدرس التاريخ الإسلامى، وكان كمال يتساءل منزعجا: كيف أوتى صاحبه تلك القوة التى تحمل بها الخبر كأنه شأن لا يعنيه؟! أما هو فلم يستسلم لتفكير، ولم يستطع أن يفكر ألبتة، وكيف لثائر أن يفكر؟ سار كالمترنح من هول الطعنة التى نفذت إلى صميم قلبه، كان يبكى خيالاً نضب وحلمًا تبدد، لم يعد الحسين بجارهم، بل لم يكن بجارهم يومًا من الأيام، أين ذهبت القبلات التى طُبعت على باب الضريح فى صدق وحرارة؟ أين يذهب الاعتزاز بالقرب والإدلال بالجوار؟ لا شىء من هذا كله، لم يبق إلا رمز فى الجامع ووحشة وخيبة فى القلب، وبكى ليْلتَذاك حتى بلل وسادته، تلك كانت الصدمة التى لم تحرك فى صديقه العاقل إلا لسانه حين علق عليها مردداً أقوال مدرس التاريخ، ألا ما أبشع العقل!

ـ هل علم والدك برغبتك فى دخول مدرسة المعلمين؟

قال كمال بحدة جاءت معبرة عن ضيقه ببرود صاحبه وألمه المتخلف عن مناقشة أبيه معًا:

ـ نعم! . . .

ـ وماذا قال لك؟

فقال يروح عن صدره بمهاجمة محدثه عن طريق غير مباشر:

ـ وا أسفاه! . . إن والدى كأكثر الناس ممن يهيمون بالمظاهر الزائفة، الوظيفة . . النيابة . . القضاء . . هذا كل ما يهمه، لم أدر كيف أقنعه بجلال الفكر والقيم السامية الحقيقة بالنشدان فى هذه الحياة! غير أنه ترك لى حرية التصرف . . .

جعلت أصابع فؤاد تعبث بقطعة من الدومينو، وهو يقول فى حذر وإشفاق:

ـ قيم جليلة بلا شك، ولكن أين البيئة التى ترفعها إلى المنزلة اللائقة بها؟

ـ لا يمكن أن أنبذ عقيدة سامية لا لشىء إلا أن مَن حولى لا يؤمنون بها . .

فعاد يقول فى هدوء مسكن:

ـ روح جديرة بالإعجاب! . . ولكن ألا يحسن بك أن تقدر مستقبلك فى ضوء الواقع؟

فتساءل كمال بازدراء:

ـ ترى لو كان زعيمنا قد أخذ بهذه النصيحة، أكان يفكر جديًا فى أن يذهب إلى دار الحماية للمطالبة بالاستقلال؟

ابتسم فؤاد ابتسامة كأنها تقول: «رغم ما فى حجتك من وجاهة فهى لا تصلح قاعدة عامة فى الحياة»، ثم قال:

ـ ادخل الحقوق حتى تضمن عملاً محترمًا، ولك بعد ذلك أن تواصل ثقافتك كما تشاء!

ـ لم يجعل الله لامرئ من قلبين فى جوفه، ثم دعنى أحتج على ربطك العمل المحترم بالحقوق! كأن التدريس ليس عملاً محترمًا!!

فبادر فؤاد يقول بتوكيد يدفع به عن نفسه الشبهة:

ـ لم أقصد هذا مطلقًا، ومنذا الذى يقول إن حفظ العلم ونشره ليس عملاً محترمًا؟ . . لعلى كنت أردد رأى الناس وأنا لا أدرى، والناس كما أشرت إلىّ شىء من هذا تبهرهم أضواء القوة والنفوذ!

فهز كمال منكبيه استهانة، وقال بإصرار:

ـ إن حياة تكرس للفكر لهى أجل حياة . .

هز فؤاد رأسه كالموافق دون أن ينبس، وظل لائذا بالصمت حتى سأله كمال:

ـ ما الذى دعاك إلى اختيار الحقوق؟

ففكر قليلاً ثم أجابه:

ـ لم أكن مثلك واقعا فى غرام الفكر، فكان علىّ أن أختار دراسة عالية على ضوء المستقبل وحده، فاخترت الحقوق. . .

أليس هذا هو صوت العقل؟ بلى إنه هو، شد ما يثير حنقه تمرده، أليس من الظلم أن يمضى العطلة الطويلة وهو حبيس هذا الحى ولا رفيق له إلا هذا «العاقل»؟ ثمة حياة أخرى تعارض حياة الحى العتيق معارضة الضد للضد، وثمة رفاق آخرون يخالفون فؤاد مخالفة النقيض للنقيض، إلى تلك الحياة وإلى أولئك الرفاق تهفو نفسه، إلى العباسية، إلى الطراز الطريف من الشباب، وقبل كل شىء إلى الأناقة الرفيعة والنغمة الباريسية والحلم البديع. . إلى معبودته، آه. . إن نفسه تنازعه على البيت، إلى حجرته كى يخلو إلى نفسه فيدعو كراسته، يراجع تاريخا أو يستعيد ذكرى أو يسجل نفثة. ألم يئنْ له أن يقوض هذا المجلس ويذهب؟

ـ قابلت أناسًا فسألونى عنك. . !

تساءل كمال، وهو ينزع نفسه بمشقة من تيار الوجد:

ـ من؟

فؤاد ضاحكًا:

ـ قمر ونرجس:

قمر ونرجس ابنتا أبو سريع صاحب المقلى، قبو قرمز، الأزقة المظلمة بعد الغروب، العبث المشوب بالسذاجة الدنسة أو الدنس الساذج، المراهقة المحمومة، ألا يذكر هذا كله؟، ما لشفتيه تتقلصان تقززا؟ ذلك التاريخ قديم نسبيًا، قبل حلول الروح القدس، لا يذكره إلا ويثور قلبه سخطًا وألما وخجلاً كما ينبغى لقلب أترع بشراب الحب الطهور.

ـ كيف قابلتهما؟

ـ فى زحمة مولد الحسين، فسرت إلى جانبهما دون تردد أو ارتباك، كأننا أسرة واحدة جاءت لتطوف بالمولد!

ـ يا لك من جرىء!

ـ أحيانًا، سلمت فسلمتا، وتحادثنا مليا، ثم سألتنى قمر عنك!

تورد وجهه قليلاً، وهو يسأل:

ـ ثم؟

ـ اتفقنا مبدئيًا على أن أخبرك، ثم نتقابل جميعًا!

هز كمال رأسه فى نفور، ثم قال باقتضاب:

ـ كلا. .

فقال فؤاد فى دهش:

ـ كلا؟، ظننتك ترحب بلقاء تحت القبو أو فى فناء البيت المهجور. نضج جسماهما، وعما قليل تصيران امرأتين بكل معنى الكلمة، وعلى فكرة كانت قمر مرتدية الملاءة اللف ولكنها كانت سافرة فقلت لها ضاحكًا: لو لبست البرقع ما تجرأت على محادثتك!

قال كمال بإصرار:

ـ كلا. .

ـ لمَ؟

ـ لَمْ أعد أطيق القذارة!

ثم بحدة نمت عن ألم دفين:

ـ لا أستطيع أن ألقى الله فى صلاتى وثيابى الداخلية ملوثة!

فقال فؤاد بسذاجة:

ـ تطهر واغتسل قبل الصلاة!

فقال كمال، وهو يهز رأسه للاستعارة الضائعة:

ـ إن الماء لا يطهر من الدنس. .

ذلك الصراع القديم، كان يمضى فى لقاء قمر مضطربا بالشهوة والقلق ويعود بضمير معذب وقلب باك، ثم عقب الصلاة يستغفر استغفاراً حاراً طويلاً، لكنه يمضى مرة أخرى مغلوبًا على أمره ثم يعود بالعذاب ليستغفر من جديد. . يا لها من أيام نضحت بالشهوة والمرارة والعذاب، ثم انبثق النور، هناك وسعه أن يحب وأن يصلى معًا، كيف لا؟! والحب من منبع الدين يقطر صافيا! قال فؤاد فى شىء من الحسرة:

ـ انقطعت علاقتى بنرجس منذ مُنعت من اللعب فى الحارة!

فسأله كمال باهتمام:

ـ ألم تكن ـ وأنت المؤمن ـ تتعذب بتلك العلاقة؟

فقال فؤاد، وهو يغض البصر حياء:

ـ هنالك أمور ما منها بد. .

ثم متسائلاً وكأنه يدارى حياءه:

ـ أترفض حقا انتهاز هذه الفرصة؟

ـ بكل تأكيد!!

ـ لوجه الدين وحده؟

ـ أليس هذا كافيا؟

ابتسم فؤاد ابتسامة عريضة، وقال:

ـ كم تحمل نفسك ما لا يُحتمل..

فقال كمال بإصرار:

ـ إنى لكذلك وما ينبغى لى أن أكون غير ذلك..

وتبادلا نظرة طويلة، أفصحت فى عينى كمال عن الإصرار والتحدى، فانعكست فى عينى فؤاد مهادنة وابتسامة كأشعة الشمس الجهنمية التى تنعكس على سطح الماء لألاء ضاحكًا، ثم واصل كمال حديثه:

ـ إنى أرى الشهوة غريزة حقيرة، وأمقت فكرة الاستسلام لها، لعلها لم تخلق فينا إلا كى تلهمنا الشعور بالمقاومة والتسامى حتى تعلو عن جدارة إلى مرتبة الإنسانية الحقة، إما أن أكون إنسانًا وإما أن أكون حيوانًا..

فتريث فؤاد قليلاً، ثم قال بهدوء:

ـ أظن أنها ليست شرا خالصًا، فهى الدافع إلى الزواج، فالذرية!!

خفق قلب كمال خفقة عنيفة لم تجر لفؤاد فى خاطر، أهذا هو الزواج فى النهاية؟ لكنه لم يكن يجهل هذه الحقيقة فى جملتها وإن كان فى حيرة لا يدرى كيف يوفق الناس بين الحب والزواج، إنها مشكلة لم يرتطم بها فى حبه، لأن الزواج بدا دائمًا ـ ولأكثر من سبب ـ فوق مرتقى أمانيه، ولكن ذلك لم يمنع من قيامه مشكلة تتطلب الحل. ما كان يتصور أن يكون اتصال سعيد بينه وبين معبودته إلا عن طريق العطف الروحى من ناحيتها والتطلع الهيمان من ناحيته، طريق بالعبادة أشبه، بل هو العبادة نفسها، فأى شأن للزواج فى هذا؟

ـ الذين يحبون حقًا لا يتزوجون.

تساءل فؤاد بدهش:

ـ ماذا قلت؟!

فطن حتى قبل تساؤل فؤاد إلى أن لسانه خان إرادته، فبدا عليه الارتباك لحظة حرجة، وراح يتذكر آخر أقوال فؤاد قبل ندود هذه الجملة الغريبة عنه حتى اهتدى بشىء من الجهد ـ على حداثة العهد بسماعها ـ إلى كلماته عن الزواج والذرية، فصمم على مداراة هفوته وعلى تصحيح معناها ما أمكن، فقال:

ـ الذين يحبون ما فوق الحياة لا يتزوجون، هذا ما عنيت.

ابتسم فؤاد ابتسامة خفيفة أو لعله كان يقاوم ضحكة، غير أن عينيه العميقتين لم تنما عما وراءهما، واكتفى بأن قال:

ـ هذه أمور خطيرة، والحديث عنها الآن سابق لأوانه، فلندعها مرهونة بأوقاتها..

فرفع كمال منكبيه استهانة وثقة، وقال:

ـ فلندعها ولننتظر..

فؤاد فى واد وهو فى واد، على ذلك فهما صديقان، لا يسعه أن ينكر أن الخلاف فى نفسه يجذبه إليه على ما فى ذلك من جهد تعانيه أعصابه المرة بعد المرة، ألم يئنْ له أن يعود إلى البيت؟ الوحدة ومناجاة النفس تتجاذبانه، الكراسة النائمة فى درج مكتبه تهيج جيشان صدره، لابد للمكدود فى مكابدة الواقع من انتجاع بعض الراحة فى الانطواء..

ـ آن أن نعود...

٧

كان الحنطور يتابع سيره على شاطئ النيل حتى وقف أمام عوامة فى نهاية المثلث الأول من طريق إمبابة، وما لبث أن غادره السيد أحمد عبد الجواد ثم تبعه على الأثر السيد على عبد الرحيم.

كان الليل قد جثم فى مجثمه وغشيت الظلمة كل شىء إلا أضواء متباعدة تطل من نوافذ العوامات والذهبيات التى ينتظمها الشاطئان من جسر الزمالك فهابطا، وأنوار خافتة لاحت عند موقع القرية فى نهاية الطريق كالسحابة الناضحة بوهج الشمس فى سماء ملبدة بالغيوم الدكن.

كان السيد أحمد يجىء للعوامة للمرة الأولى على رغم اكتراء محمد عفت لها منذ أربع سنوات ـ ذلك أن صاحبها خصصها لمجالس الغرام وقد حرمها السيد أحمد على نفسه منذ مصرع فهمى ـ فتقدمه على عبد الرحيم ليدله على المعبر، حتى إذا قارب السلم، قال محذراً:

ـ السلم ضيق ودرجاته مرتفعة ولا درابزين له، ضع يدك على كتفى وانزل على مهل..

هبطا بحذر شديد، وخرير الماء المتلاطم على الشاطئ ومقدم العوامة يداعب آذانهما،

وقد فغمت أنفيهما رائحة نباتية مازجها عرف الطمى الذى جاد به الفيضان فى ذلك الوقت من أول سبتمبر، قال على عبد الرحيم وهو يتحسس زر الجرس على جدار المدخل:

ـ هذه ليلة تاريخية فى حياتك وحياتنا، ينبغى أن نطلق عليها اسما مناسبا احتفالاً بها. ليلة رجوع الشيخ؟ . . ما رأيك؟ . .

قال السيد أحمد، وهو يشد قبضته على منكبه:

ـ لكننى لست شيخًا، الشيخ الحقيقى كان أبوك! . .

على عبد الرحيم وهو يضحك:

ـ سترى الآن وجوها لم ترها منذ خمس سنوات . .

قال السيد كالمتردد:

ـ لا يعنى هذا أننى أغير من سلوكى أو أحيد عن خطتى (ثم بعد لحظة سكوت) قد. . قد. .

ـ تصور كلبا يعد بألا يقرب اللحم إذا تُرك فى المطبخ!

ـ الكلب الحقيقى كان أبوك يا بن الكلب. .

رن الجرس، فتح الباب بعد نصف دقيقة عن وجه نوبى عجوز، تنحى جانبًا وهو يرفع يديه إلى رأسه تحية للقادمين، فدخل الرجلان ومالاً إلى باب على يسار الداخل فجازاه إلى دهليز قصير مضاء بمصباح كهربائى يتدلى من السقف، وقد حُلّى جداراه المتقابلان بمرآتين قام تحت كل منهما مقعد جلدى كبير وخوان، وكان فى نهاية الدهليز المواجه لمدخله باب آخر موارب وشى بأصوات السمار التى اهتز لها صدر أحمد عبد الجواد، فدفعه على عبد الرحيم ودخل، فتبعه السيد، ولكنه ما كاد يعبر عتبته حتى وجد نفسه حيال الحاضرين وهم وقوف، وقد أقبلوا نحوه مرحبين مهللين يكاد يطفر البشر من وجوههم، وكان محمد عفت أسرعهم إليه فعانقه، وهو يقول:

ـ طلع البدر علينا. .

ثم عانقه إبراهيم الفار، قائلاً:

ـ أتانى زمانى بما أرتضى. .

وتنحى الرجال جانبا، فرأى جليلة، وزبيدة، وامرأة ثالثة وقفت متأخرة عنهما خطوتين ما لبث أن تذكر فيها زنوبة العوادة. آه. . الماضى كله قد جُمع فى إطار واحد، وتطلقت أساريره وإن بدا عليه شىء من الارتباك، ولكن جليلة ضحكت ضحكة طويلة، ثم فتحت ذراعيها وعانقته، وهى تقول بنبرات غنائية:

ـ كنت فين يا حلو غايب . .

ولما أطلقته رأى زبيدة على بعد ذراع كالمترددة وإن أضاء وجهها نور الترحيب والسرور، فمد نحوها ذراعه فشدت عليها، وعند ذاك زوت ما بين حاجبيها المزجوجين فى عتاب، قائلة بلهجة لم تخل من تهكم:

ـ من بعد تلتاشر سنة . .

فما تمالك أن ضحك من أعماق صدره، وأخيراً رأى زنوبة بموقفها لم تبرحه، وقد ارتسمت على ثغرها ابتسامة حياء كأنها لم تجد من ماضيها ما يعطيها حقًا فى رفع الكلفة بينهما، فمد لها يده مصافحا، وهو يقول مشجعا ومجاملا:

ـ أهلا بأميرة العوادات . .

ورجعوا إلى مجالسهم، فشبك محمد عفت ذراعه بذراع أحمد ومضى به إلى مجلسه، فأجلسه إلى جانبه، وهو يتساءل ضاحكًا:

ـ وقعت أم الهوى رماك؟

فغمغم السيد أحمد:

ـ رمانى الهوى فوقعت . .

أخذ المكان يستبين لعينيه اللتين غابتا عنه أول الأمر فى حرارة اللقاء ومزاح المرحبين، فوجد نفسه فى حجرة متوسطة الحجم، طليت جدرانها وسقفها بلون زمردى، تطل على النيل بنافذتين وعلى الطريق بنافذتين، وقد أغلق خصاص نوافذها وفتح زجاجها، يتدلى من سقفها مصباح كهربائى ذو غطاء مخروطى من البلور يركز نوره على سطح خوان توسط الحجرة حاملاً الأقداح وقوارير الويسكى، وقد فرشت الأرض ببساط متجانس اللون مع الجدران والسقف، وقامت فى كل جانب من الحجرة كنبة كبيرة شطرت بنمرقة وغشيت بغطاء مزركش، أما الزوايا فقد احتلت بشلت ووسائد. جلست جليلة وزبيدة وزنوبة على الكنبة المجاورة للنيل، واقتعد الرجال الثلاثة الكنبة المواجهة لها، بينا انتشرت على الشلت آلات الطرب كالعود والدف والدربكة والصنج. أجال بصره فى المكان مليًا، ثم تنهد بارتياح، وقال بتلذذ:

ـ الله . . الله، كل شىء جميل، لم لا تفتحون النافذتين المطلتين على النيل؟

فأجابه محمد عفت:

ـ يفتحان عندما ينقطع مرور السفن الشراعية، وإذا بليتم فاستتروا . .

فبادره السيد أحمد باسما:

ـ وإذا استترتم فابتلوا!

فهتفت جليلة كالمتحدية:

- أرنا شطارة زمان!

لم يقصد بقوله إلا المزاح، والحق أن إقدامه على هذه الخطوة الثورية - مجيئه إلى العوامة - بعد طول الإحجام أورثه قلقا وترددًا، لكن ثمة شيء آخر، تغيير من نوع ما عليه أن يكتشفه بنفسه ولنفسه، فليسدد بصره وليمعن النظر، ماذا يرى؟، هاك جليلة وزبيدة، كلتاهما كالمحمل - كما كان يقول قديمًا - أو لعلهما ازدادتا شحما ولحما، ولكن ثمة شيء يكتنفهما، لعله إلى متناول الشعور أقرب منه إلى متناول الحس، إلا أنه وجه من وجوه الكبر بلا مراء، لعل أصحابه لم يفطنوا إليه لأنهم لم ينقطعوا عن المرأتين مثلما انقطع، ترى ألم يطرأ عليه هو أيضًا مثل الذى طرأ عليهما؟ انقبض قلبه وفتر حماسه، الصديق العائد بعد غيبة طويلة هو أفصح مرآة للإنسان، لكن كيف السبيل إلى هذا التغيير حتى يقبض عليه؟ ليست هنالك شعرة بيضاء واحدة فى رأسيهما. . ولكن ما للشيب ورءوس الغوانى؟ وليس ثمة تجعدات كذلك. هل غلبت على أمرك؟ كلا، إليك نظرة هاتين العينين، إنها تعكس روحًا خابيًا رغم ما يكتنفه من لألاء براق يستخفى حينا وراء الابتسام واللعب ثم يبين على حقيقته فيما بين ذلك فتقرأ فيه نعى الشباب، إنه الرثاء الصامت، أليست زبيدة فى الخمسين من عمرها؟ وجليلة جاوزتها بأعوام، إنها لدته ولن تكابر فى هذا مهما أنكره لسانها، ثمة تغيير فى قلبه أيضًا ينذر بالنفور والتقلص، لم يكن كذلك حين جاء، جاء يجرى لاهثا وراء صورة لم يعد لها من وجود، ليكن، حاشا أن يستسلم للهزيمة. . اشرب، واطرب، واضحك، لن يدفعك أحد على رغمك إلى ما لا تود. .

قالت جليلة:

- لم أكن أصدق أن عينى ستقعان عليك فى هذه الدنيا!

وجد إغراء شديدًا فى أن يسألها:

- كيف تريننى؟

فتدخلت زبيدة بينهما قائلة:

- كالعهد بك، جمل ولا كل الجمال، شعرة بيضاء تلمع تحت طربوشك ولا شىء خلاف ذلك!

فقالت لها جليلة محتجة:

- دعينى أجب أنا، لأن سؤاله كان لى (ثم مخاطبة السيد) أراك كما كنت، لا غرابة فى ذلك، ما «نحن» إلا أبناء الأمس القريب!

فطن السيد إلى ما رمت إليه، فقال متكلفا الجد والصدق:

ـ أما أنتما فقد ازددتما حسنا ورواء، لم أكن أنتظر هذا كله.

زبيدة، وهى تتفحصه باهتمام:

ـ ما الذى غيبك عنا ذلك العمر كله؟ (ثم ضاحكة) كان بوسعك، لو كان فيك خير، أن تلقانا لقاء بريئا، ألا يكون لقاء بيننا إلا إذا كان الفراش تحتنا؟

قال السيد إبراهيم الفار، وهو يرعش ذراعه فى الهواء ليحسر كم القفطان عنه:

ـ لاعلم له ولنا بأن ثمة لقاء بريئا يمكن أن يجمع بيننا وبينكن!

زبيدة متأففة:

ـ أعوذ بالله منكم يا رجال، لا تودون المرأة إلا مطية!

فقهقهت جليلة قائلة:

ـ يا ست أمك احمدى ربنا على ذلك، أكنت تكتنزين هذا الشحم كله لو لم تضمرى فى نفسك أن تكونى مطية أو حشية؟

فقالت لها زبيدة معاتبة:

ـ خلى بينى وبين المتهم كى أحقق معه..

قال السيد أحمد باسما:

ـ كنت محكوما علىَّ بخمس سنوات بريئة بدون شغل..

فعادت زبيدة تهاجمه قائلة فى تهكم:

ـ يا ولداه! حرمت على نفسك اللذات كلها، كلها يا ولداه، حتى لم يبق لك منها إلا الطعام والخمر والطرب والمزاح والسهر حتى مطلع الفجر كل ليلة! فقال السيد كالمعتذر:

ـ هذه أشياء لابد منها للقلب الحزين، أما الأخرى..!

زبيدة وهى تلوح له بيدها كأنما تقول له «آه منك آه»:

ـ علمت الآن أنك تعدنا شرا من كافة الذنوب والخطايا..

محمد عفت هاتفًا مقاطعا، كأنما تذكر أمرًا هامًا كاد يفلت منه:

ـ هل جئنا من أقصى الأرض كى نتكلم، على حين تطل علينا الأقداح ولا تجد من يعنى بها!، املأ الأقداح يا على، اربطى الأوتار يا زنوبة؟، اخلع ملابسك يا حضرة المحترم، أنت حاسب نفسك فى مدرسة؟، انزع الجبة والطربوش، لا تظن أنك أعفيت من التحقيق، ولكن يجب أولاً أن تسكر المحكمة وأن تسكر النيابة ثم نعود إلى التحقيق، جليلة أصرت على تأجيل السكر حتى يحضر سلطان الفرفشة أو كما قالت، هذه الولية تعزك إعزاز الشيطان للضال المزمن، بارك الله لك فيها وبارك لها فيك..

نهض السيد أحمد ليخلع الجبة، قام على عبد الرحيم ليتولى ـ كعادته ـ مهمة الساقى، صدرت عن أوتار العود همسات غير مؤتلفة للاختبار، دندنت زبيدة فى غمغمة، سوت جليلة بأناملها خصلات شعرها وطوق الفستان فيما بين ثدييها، تابعت أعين بتشوق يدى على عبد الرحيم وهو يملأ الأقداح، تربع السيد أحمد فى مجلسه وهو يجيل بصره فى المكان والناس حتى التقت عيناه اتفاقًا بعينى زنوبة فابتسمت الأعين تحية، قدم على عبد الرحيم الدفعة الأولى من الكئوس. قال محمد عفت: صحتكم ومحبتك، قالت جليلة: نخب العودة يا سى أحمد، قالت زبيدة: نخب الهداية بعد الضلال، قال أحمد: نخب الأحباب الذين فرق الحزن بينى وبينهم. . شربوا عندما رفع السيد أحمد كأسه إلى شفتيه، رأى من فوق سفح الكأس وجه زنوبة مرفوعًا كذلك إلى كأسه فهزته نضارته، قال محمد عفت لعلى عبد الرحيم: املأ الثانى، وقال له إبراهيم الفار: والثالث فى أثره حتى نثبت الأساس، قال على عبد الرحيم وهو يشمر: خادم القوم سيدهم. وجد أحمد عبد الجواد نفسه يتابع أنامل زنوبة وهى تربط الأوتار، فتساءل عن عمرها ثم قدره بين الخامسة والعشرين وبين الثلاثين، ساءل نفسه مرة أخرى عما جاء بها. . العود؟!. . أم أن خالتها زبيدة تهيئ لها سبيل الرزق؟. قال السيد إبراهيم الفار: إن النظر إلى ماء النيل يدوخه. فهتفت به جليلة: يا ابن الدايخة!. سأل على عبد الرحيم: إذا رميت امرأة فى حجم جليلة أو زبيدة إلى الماء فهل تغرق أم تطفو؟ فأجابه السيد أحمد بأنها تطفو إلا إذا كان بها ثقب، ساءل السيد أحمد نفسه عما يحدث لو نزعت به نفسه إلى زنوبة، فأجابت نفسه بأن ذلك يكون فضيحة لو أراده الآن، أما بعد خمس كئوس فلن يخلو من حرج، وأما بعد زجاجة فيكون واجبا. . اقترح محمد عفت أن يشربوا كأسا فى صحة سعد زغلول ومصطفى النحاس اللذين سيسافران فى نهاية الشهر من باريس إلى لندن للمفاوضة، اقترح إبراهيم الفار أن يشربوا كأسا آخر فى صحة مكدونالد صديق المصريين، تساءل على عبد الرحيم عما عناه مكدونالد بقوله: «إنه يستطيع أن يحل القضية المصرية قبل أن يفرغ من فنجان القهوة الذى كان بين يديه». فأجابه أحمد عبد الجواد بأن ذلك يعنى أن الإنجليزى يشرب فنجان القهوة ـ فى المتوسط ـ فى نصف قرن، تذكر السيد أحمد كيف ثار على الثورة عقب مصرع فهمى وكيف ثاب رويدا إلى مشاعره الوطنية الأولى لما أسبغه الناس عليه من تقدير وإكبار بصفته والد لشهيد نبيل، ثم كيف انقلبت مأساة فهمى مع الزمن مفخرة يباهى بها وهو لا يدرى!

رفعت جليلة كأسها صوب السيد أحمد وهى تقول:

ـ صحتك يا جملى، طالما كنت أسائل نفسى هل نسينا حقًا السيد أحمد؟ ولكنى علم الله عذرتك ودعوت الله أن يلهمك الصبر والعزاء، لا تعجب فأنا أختك وأنت أخى. .

فسألها محمد عفت بخبث :

ـ إذا كنت أخته وكان أخاك كما تدعين ، فهل يفعل الأخوان ما فعلتما فى زمانكما؟

فأطلقت ضحكة أعادت إلى الأذهان ذكريات عام ١٩١٨ وما قبله ، وقالت :

ـ سل أخوالك يا روح أمك . .

قالت زبيدة وهى تلحظ أحمد عبد الجواد بمكر :

ـ بدا لى رأى آخر فى تفسير غيبته الطويلة . .

سألها أكثر من صوت عما بدا لها ، على حين تمتم السيد أحمد بصوت المستعيذ :

ـ يا ساتر استر . .

ـ بدا لى أنه ربما كان حصل عنده ضعف مما يدرك الكهول أمثاله ، فاعتل بالحزن واختفى . .

قالت جليلة معترضة وهى تهز رأسها على أسلوب العوالم :

ـ إنه آخر من يدركه الكبر !

فسأل السيد محمد عفت السيد أحمد :

ـ أى الرأيين أصح؟

فقال السيد أحمد بلهجة ذات معنى :

ـ الرأى الأول يعبر عن الخوف والآخر يعبر عن الرجاء؟

قالت جليلة بظفر وارتياح :

ـ لست ممن يخيب عندهم الرجاء :

همّ بأن يقول «عند الامتحان يُكرم المرء أو يهان» ، ولكنه خاف أن يدعى للامتحان أو أن يفهم قوله على أنه تقديم فى الامتحان ، على حين كان كلما أنعم النظر تمكن منه شعور بالنفور وبالزهد لم يجر له فى خاطر قبل المجىء . أجل ثمة تغير لا ينكر ، مضى الأمس ، وليس اليوم كالأمس ، لا زبيدة بزبيدة ولا جليلة بجليلة ، وليس ثمة ما يستحق المغامرة ، ليقنع بالأخوة التى نوهت بها جليلة ، وليمدها حتى تظلل زبيدة نفسها ، قال برقة :

ـ من أين للكبر أن يدرك آدميا وهو بينكن !

تساءلت زبيدة وهى تقلب عينيها فى الرجال الثلاثة :

ـ أيكم الأكبر؟

فقال السيد أحمد ببراءة :

ـ أنا ولدت فى أعقاب ثورة عرابى . . !

فقال محمد عفت محتجًا :

ـ قل كلاما غير هذا، لقد بلغنى أنك كنت من جنود عرابى . . !

فقال السيد أحمد :

ـ كنت جنديًا من بطونهم، كما يقال الآن : تلميذ من منازلهم . .

فتساءل على عبد الرحيم كالداهش :

ـ وماذا صنعت المرحومة والدتك وأنت داخل خارج إلى المعركة؟!

صاحت زبيدة بعد أن أفرغت الكأس فى فيها :

ـ لا تهربوا بالهزار، إنى أسألكم عن أعماركم . .

قال إبراهيم الفار بتحد :

ـ ثلاثتنا بين الخمسين والخمسة والخمسين، فهل تكاشفاننا بعمركما؟ . .

هزت زبيدة كتفيها استهانة، وقالت :

ـ أنا ولدت . .

ثم ضاقت عيناها المكحولتان وهما ترفعان إلى المصباح فى حال تذكر، غير أن السيد أحمد عاجلها متممًا ما توقفت عن إتمامه :

ـ عقب ثورة سعد باشا؟!

ضحكوا طويلاً حتى ألعبت لهم الوسطى، ولكن جليلة لم ترحب بالحديث فيما بدا، فصاحت بهم :

ـ دعونا من هذه السيرة المقطرنة! ما لنا نحن والأعمار! ليسأل عنها صاحب الأمر فى سماواته، أما نحن فالمرأة منا شابة ما وجدت من يرغب فيها، والرجل منكم شاب ما وجد من ترغب فيه . .

هتف على عبد الرحيم بغتة :

ـ هنئونى!

وسئل عما يهنأ عليه، فواصل الهتاف قائلاً :

ـ سكرت :

قال أحمد عبد الجواد : إنهم ينبغى أن يلحقوا به قبل أن يضل وحده فى عالم السكر، حثتهم جليلة على أن يتركوه وحده جزاء تعجله، آوى علىّ عبد الرحيم فى ركن وفى يده كأس مترعة وهو يقول لهم : ابحثوا عن ساق غيرى . قامت زبيدة إلى حيث تركت ملابسها الخارجية وفحصت فى حقيبتها عن حق الكوكايين حتى اطمأنت إلى أنه فى مكانه، اغتنم إبراهيم الفار فرصة خلو مكان زبيدة فجلس فيه ثم أسند رأسه إلى كتف

جليلة وهو يتنهد بصوت مسموع، نهض محمد عفت إلى النافذتين المطلتين على النيل وأزاح الخصاص عنهما جانبا فلاح سطح الماء ظلمات متحركة عدا خطوط من الضياء الهادئ رسمتها على الأمواج الأشعة المرسلة من مصابيح الذهبيات الساهرة، لعبت زنوبة بأوتار العود محدثة نغمة راقصة فاتجهت عينا السيد إليها مليا ثم قام ليملأ كأسه لنفسه، عادت زبيدة فجلست بين محمد عفت وأحمد عبد الجواد وهى تضرب الأخير على سلسلة ظهره، علا صوت جليلة وهى تغنى:

«يوم ما عضتنى العضة..».

هتف إبراهيم الفار بدوره: هنئونى.. اشترك محمد عفت وزبيدة فى غناء جليلة عند جملة: «وجابولى طاسة الخضة»، اشتركت زنوبة فى الأغنية، فعاود السيد أحمد النظر إليها وما يدرى إلا وهو ينضم إلى المغنين. جاء صوت على عبد الرحيم من ركن الحجرة مؤيداً. هتف إبراهيم الفار ورأسه لا يزال مسندا إلى كتف جليلة: مغنون ستة وسميع واحد هو أنا. قال السيد أحمد لنفسه دون أن يتوقف عن الغناء: سوف تلبى وهى من الرضى والسرور فى نهاية، ثم ساءل نفسه أيضًا: ألَلَيلة عابرة أم معاشرة طويلة؟ قام إبراهيم الفار فجأة واندفع يرقص، جعل الجميع يصفقون على الواحدة ثم غنوا معًا:

«خدنى فى جيبك بقه.. بين الحزام والمنطقة».

ساءل السيد أحمد نفسه: ترى أتقبل زبيدة أن يكون اللقاء فى بيتها؟.. انتهت الأغنية والرقص فاستبقوا إلى التراشق بالدعابات دون توقف، جعل أحمد عبد الجواد كلما أطلق دعابة يسترق النظر إلى وجه زنوبة ليرى أثرها فيه، اشتد الهرج والمرج، ومضى الوقت منسرقًا..

ـ آن لى أن أذهب..

قال على عبد الرحيم ذلك، وهو ينهض متجها إلى ملابسه. فصاح به محمد عفت ساخطا:

ـ قلت لك أن أحضرها معك حتى لا نقطع السهرة!

تساءلت زبيدة وهى ترفع حاجبيها:

ـ من هى المحروسة؟

فقال إبراهيم الفار:

ـ رفيقة جديدة، معلمة قد الدنيا وصاحبة بيت بوجه البركة..

فسأله السيد أحمد باهتمام:

ـ من..؟

أجاب على عبد الرحيم، وهو يحبك الجبة ضاحكًا:

ـ صاحبتك القديمة سنية القللى . .

فاتسعت عينا السيد الزرقاوان، وتجلت فيهما نظرة حالمة، ثم قال باسما:

ـ اذكرنى عندها وأقرئها السلام . .

قال على عبد الرحيم، وهو يفتل شاربه ويتأهب للذهاب:

ـ سألت عنك واقترحت على أن أدعوك إلى قضاء سهرة فى بيتها بعد مواعيد العمل، فقلت لها إن بكره اسم النبى حارسه قد بلغ السن التى تعد فى أسرتهم موجبة للدخول فى وجه البركة وغيرها من وجوه الفسق، فلا يأمن أبوه إن جاء أن يلتقى به فى إحدى جولاته . . !

وضحك الرجل ملء شدقيه، ثم سلم وغادر الحجرة إلى الدهليز، فتبعه على الأثر محمد عفت وأحمد عبد الجواد ليوصلاه إلى الباب الخارجى. واستمروا يتحادثون ويتضاحكون حتى غادر السيد على العوامة، وعند ذاك غمز محمد عفت ذراع أحمد عبد الجواد، وهو يتساءل:

ـ زبيدة أم جليلة؟

فقال السيد أحمد ببساطة:

ـ لا هذه ولا تلك!.

ـ لمَ؟ كفى الله الشر!!

فقَال بلهجة القانع:

ـ خطوة خطوة، سوف أكتفى ما بقى من هذه الليلة بالشراب وسماع العود . . !

ألح عليه أن يقدم رجله خطوة أخرى، ولكنه اعتذر فلم يثقل عليه، عادا إلى الحجرة المبعثرة الفاقدة الوعى فاستردا مجلسيهما. قام إبراهيم الفار مقام الساقى، افتضحت أمارات السكر فى وهج العيون وسلس الحديث وتحرر الأعضاء، غنوا جميعًا وراء زبيدة:

«البحر بيضحك ليه . . ».

لوحظ أن صوت السيد أحمد عبد الجواد علا حتى كاد يغطى على صوت زبيدة، روت جليلة تناتيش من مغامراتها. مذ وقع بصرى عليك شعرت بأن الليلة لن تمر بلا مغامرة، ما أملح الصغيرة، الصغيرة؟ هى كذلك ما دمت تكبرها بربع قرن. تحسر إبراهيم الفار على العصر الذهبى للنحاس على أيام الحرب، فقال لهم بلسان ثقيل «كنتم تقبلون يدى من أجل رطل نحاس» فقال له السيد أحمد: «إن كان لك عند الكلب حاجة

قل له يا سيدى». اشتكت زبيدة شدة السكر فقامت تتمشى ذهابًا وجيئة، وعند ذاك جعلوا يصفقون على إيقاع مشيتها المترنحة ويهتفون بها:

«تاتا خطى العتبة.. تاتا خطى العتبة».

الخمر تشل العضو الذى يفرز الحزن، غمغمت جليلة قائلة: «حسبنا»، ونهضت فغادرت الحجرة إلى ردهة تفضى إلى مخدعين متقابلين، فمالت إلى المخدع المجاور للنيل ودخلت، وما لبث أن ترامت إليهم طقطقة الفراش وهو يتلقى جسمها العظيم، راق زبيدة تصرف جليلة فاتبعت أثرها إلى المخدع الآخر باعثة وراءها طقطقة أعنف، قال إبراهيم الفار: «إن لسان السرير قد نطق». تناهى إليهم من المخدع الأول صوت وان يترنم محاكيا بحة منيرة: «يا حبيبى تعالى»، فقام محمد عفت وهو يجيب مترنما كذلك: «آدينى جى». نظر إبراهيم الفار إلى أحمد عبد الجواد متسائلا، فقال له السيد: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»، فقام وهو يقول: «لا حياء فى العوامة!».. خلا الجو، ها هى الساعة التى رصدتها طويلاً، نحت الصغيرة العود جانبا وتربعت وهى تسبل حاشية الفستان على ساقيها المتشابكتين. ساد صمت وتبودل نظر ثم مدت بصرها إلى لا شىء، تكهرب الصمت فلم يعد يحتمل، نهضت فجأة فسألها: إلى أين؟ فغمغمت وهى تمرق من الباب: «الحمّام»، قام بدوره إلى مجلسها فجلس وتناول العود وراح يعبث بأوتاره، وهو يتساءل: «أليس ثمة حجرة ثالثة؟» لا ينبغى لقلبك أن يدق هكذا كأنما الجندى الإنجليزى يسوقك أمامه فى الظلام، ليلة أم مريم هل تذكر؟ لا تعد إلى ذكراها فهى ألم، عادت من الحمّام.. ما أنضرها!..

ـ أتضرب العود؟

أجاب باسما:

ـ علمينى..

ـ حسبك الدف فإنك من رجاله!

وهو يتنهد:

ـ تلك أيام خلت، ما ألطفها، كنت طفلة! ما لك لا تجلسين؟ تكاد تلمسك، ما أحلى أول الصيد!

ـ خذى العود وأسمعينى..

ـ شبعنا غناء وعزفا وضحكا، عرفت الليلة أكثر من ذى قبل لماذا يفتقدونك فى كل سهرة!

فابتسم ابتسامة وشت بسروره، ثم قال بمكر:

ـ ولكنك لم تشبعى شربا؟

فأجابت بالإيجاب وهى تضحك، فوثب كالجواد إلى المائدة، ثم عاد بزجاجة مملوءة حتى النصف، وكأسين، وجلس وهو يقول: «لنشرب معًا». الشرهة اللذيذة تنفث عيناها شيطنة وسحراً، سلها عن الحجرة الثالثة.. سل نفسك: ليلة أم معاشرة.. وعن العواقب لا تسل، أحمد عبد الجواد بجلالة قدره يفتح ذراعيه لزنوبة العوادة.. بصحاف الفاكهة كانت تقف بين يديك.. لكن لتحل بك السعادة جزاء نضارتك، أما الكبر فلم يكن أبدا من شيمى.. رأى كفها القابضة على الكأس قريبة من ركبته، فمد راحته وربت عليها بلطف، ولكنها سحبتها فى صمت إلى حجرها دون أن تلتفت إليه، فساءل نفسه ترى هل يحلو التدلل فى هذا الوقت المتأخر خاصة إذا كان الداعى مثله وكانت المدعوة مثلها؟ غير أنه لم يحد عن سنن الملاينة والملاطفة، فسألها بلهجة ذات معنى:

ـ أليس ثمة حجرة ثالثة فى العوامة؟

قالت تجيب على ظاهر السؤال متجاهلة مغزاه وهى تشير صوب باب الدهليز:

ـ فى الناحية الأخرى..

تساءل وهو يفتل شاربه مبتسمًا:

ـ أليست تسع كلينا؟

فقالت بصوت لا أثر للدلال فيه، وإن لم يجاوز حدود الأدب:

ـ تسعك وحدك إن طاب لك النوم!

فسألها كالداهش:

ـ وأنت؟

فقالت بنفس اللهجة:

ـ مستريحة كما أنا..

تزحزح قليلاً مقتربا منها، ولكنها قامت فوضعت كأسها على المائدة، ثم مضت إلى الكنبة المقابلة له، فجلست راسمة على وجهها صورة الجد والاحتجاج الصامت حتى عجب الرجل لشأنها فباخ حماسه ووجد وخزة فى كبريائه، ثم جعل ينظر إليها وعلى شفتيه ابتسامة متكلفة حتى سألها:

ـ ماذا أغضبك؟

فلازمت الصمت مليا، ثم شبكت ذراعيها على صدرها.

ـ إنى أتساءل عما أغضبك؟

قالت باقتضاب:

ـ لا تسل عما تعلم..

ضحك فجأة ضحكة عالية معلنا بها عن استهانته وعدم تصديقه، وقام بدوره فملأ الكأسين ثم قدم لها كأسها، وهو يقول:

ـ روّقى مزاجك..

فتناولت الكأس تأدبًا ثم أعادتها إلى المائدة، وهى تغمغم «أشكرك» فتراجع إلى مجلسه وقعد، ثم رفع كأسه إلى شفتيه وتجرعها دفعة واحدة وقهقه ضاحكًا:

أكان فى وسعك أن تتوقع هذه المفاجأة؟، لو أستطيع أن أرجع فى الزمن ربع ساعة إلى الوراء، زنوبة.. زنوبة.. ولا شىء غير زنوبة فهل تصدق ذلك؟ لا تتشتت حيال الصدمة، من يدرى لعله دلال موضة ١٩٢٤ يا حمصانى ١٩٠٠، ماذا تغير فىّ؟.. لا شىء.. لكنها زنوبة.. أليس ذلك هو اسمها؟، لكل رجل حتما من امرأة تعرض عنها، وما دامت زبيدة وجليلة وأم مريم يسعين إليك فمن غير زنوبة ـ هذه الخنفساء ـ تعرض عنك؟! تحمل حتى تحتمل، ليس الأمر على أى حال بكارثة، آه، انظر انظر، ساقها مليحة مدملجة، أساسها متين، لِمَ تظن أنها أعرضت عنك حقًا؟..

ـ اشربى يا حلوة..

قالت بصوت يجمع بين الأدب والحزم:

ـ عندما يروق لى الشراب..

فسدد نحوها بصره، ثم تساءل بلهجة ذات معنى:

ـ ومتى يروق لك..؟

فقطبت معلنة عن مدى فهمها لإشارته ولم تجب..

تساءل السيد، وكان يشعر فى تلك اللحظة أنه يتدهور:

ـ ألم يصادف توددى القبول؟

فطامنت من رأسها لتخفى وجهها عن عينيه، وقالت برجاء حازم:

ـ هلا كففت عن هذا؟

تملكه غضب فجائى فجاء كرد فعل لإحساسه بالتدهور، فتساءل داهشا:

ـ لم تجيئين إلى هنا؟

قالت باحتجاج، وهى تشير إلى العود المستلقى على الكنبة غير بعيد عنه:

ـ أجىء من أجل هذا..

ـ فقط؟.. لا تناقض بين هذا وبين ما أدعوك إليه..!

تساءلت باستياء:

ـ بالقوة؟

فقال وهو يعانى سكرات الخيبة والحنق:

ـ كلا، ولكنى لا أجد سببًا للرفض!

فقالت ببرود:

ـ لعل عندى أسبابا . .

ضحك ضحكة عالية فاضية، ثم غلبه الحنق، فقال هازئًا:

ـ لعلك تخافين على بكارتك!

رَنَت إليه بنظرة طويلة قاسية، ثم قالت بحنق وتشفّ:

ـ أنا لا أرضى إلا بمن أحبه . .

هم بأن يضحك مرة أخرى، ولكنه أمسك بعد أن ضاق صدره بهذه الضحكات الآلية المحزنة، ومد يده إلى القارورة فصب منها فى كأسه بلا تدبر حتى امتلأت إلى النصف، ولكنه تركها على المائدة، وراح ينظر إلى المرأة فى حيرة لا يدرى كيف يخرج من المأزق الذى دفع نفسه إليه . . الأفعى بنت الأفعى لا ترضى إلا بمن تحبه، هل يعنى هذا إلا أنها تحب كل ليلة رجلاً!، هيهات أن تمحى من صفحتك فضيحة الليلة! السادة هناك فى الداخل، وأنت هنا تحت رحمة عوادة متدللة . . اسلخها بلسانك . . اركلها بقدمك . . ادفعها أمامك إلى الحجرة قهرا . الأجدر أن تشيح عنها بوجهك وتغادر المكان فوراً، فى أعيننا لعنة تذل الأعناق، ما ألطف جيدها، لا تمار فى حلاوتها، طاش الرأى ووجب الألم . .

ـ لم أكن أتوقع هذا الجفاء . .

وقطب مصمما وقد تجهم وجهه، فنهض رافعا كتفيه فى استهانة، وهو يقول:

ـ ظننتك مثل خالتك لطافة وذوقا فخاب ظنى، ولن ألوم إلا نفسى . .

سمع وسوسة شفتيها وهى تمتص ريقها مصة الاحتجاج والانتقاد . ولكنه مضى إلى ملابسه فأخذ يلبسها على عجل حتى انتهى منها فى أقل من نصف المدة التى تتطلبها عادة أناقته . كان مصمما غاضبًا، ولكن اليأس لم يبلغ به نهايته، ظل جزء من نفسه متمرداً يأبى أن يصدق ما وقع أو يعز عليه أن يسلم به، فتناول عصاه وهو يترقب بين لحظة وأخرى أن يحدث شىء فيكذب ظنه ويصدق أمانى كبريائه الجريح، كأن تضحك فجأة حاسرة عن وجهها قناع الجد الزائف، أو أن تهرع إليه مستنكرة غضبه، أو أن تثب أمامه لتحول بينه وبين الذهاب، أجل كثيراً ما تكون مصة الريق التى ندت عنها مناورة يعقبها الاستسلام، غير أن شيئًا من ذلك لم يحدث .

ولبثت وهى بمجلسها تنظر إلى لا شىء، متجاهلة إياه كأنها لا تراه، فغادر الحجرة إلى الدهليز ومنه إلى الباب الخارجى ثم إلى الطريق وهو يتنهد فى حزن وأسف وغيظ . قطع

الطريق المظلم مشيًا على الأقدام حتى بلغ جسر الزمالك وجو الخريف الرطيب يتسلل فى لطف إلى داخل ملابسه، ومن هناك استقل تاكسى، فطوى به الأرض طيًا وهو ذاهل من السكر والفكر، حتى انتبه إلى ما حوله فى ميدان الأوبرا والسيارة تدور به فى طريقها إلى العتبة الخضراء، فى أثناء دورانها حانت منه التفاتة فلمح على ضوء المصابيح سور حديقة الأزبكية فعلق به بصره حتى غيبه عنه منعطف الطريق، ثم أغمض عينيه وهو يشعر بشكة تنفذ إلى أعماق قلبه، ووجد فى باطنه صوتًا كالأنين يهتف فى عالمه الصامت داعيًا بالرحمة للفقيد العزيز، فلم يجرؤ على ترديد الدعاء بلسانه أن يذكر اسم الله بلسان مشبع بالخمر، وعندما رفع جفنيه، ذرفت عيناه دمعتين غزيرتين . .

٨

لم يدر ماذا ركبه!! شيطان رجيم أم داء وبيل؟ نام وهو يأمل أن يكون انتهى من سخف الليلة الماضية، بسخف السكر دعاه، وللسكر سخف لا ريب فيه يفسد لذاته ويقلب مسراته، وعندما ألقى عليه الصباح نوره وجده من قلق يتقلب، ورشاش الدش يترشش على جسده العارى تشتت فكره وخفق قلبه، تخايل لعينيه وجهها وطنت فى أذنيه وسوسة شفتيها ورجع قلبه صدى الألم، ثم تجتر أفكارك الظامئة كفتى مراهق والطريق من حولك يحييك تحية الإجلال. يحيون فيك الوقار والورع وحسن الجوار، ولو علموا أنك ترد تحياتهم فى آلية وفكرك عنهم غائب مهموم فى حلم جارية عالمة . . عوادة . . امرأة تعرض جسدها كل ليلة فى سوق المضاجع . لو علموا ذلك، لأولوك بدل التحية ابتسامة هزء ورثاء. فلتقل الأفعى «نعم» وعند ذلك أعرض عنها بكل ازدراء وارتياح، ماذا دهانى وماذا أروم، هل أدركك الكبر؟ أتذكر ما ابتلى جليلة وزبيدة من عاديات الزمن؟ تلك آثار بغيضة يجدها القلب ولا يدركها الحس، لكن مهلاً، حذار أن تسلم للوهم فيسلمك الوهم لقمة سائغة للانهيار . . ما هى إلا شعرة بيضاء، لغير ذلك من البواعث أعرضت عنك العوادة الحقيرة . . الفظها كما تلفظ ذبابة اندست فى فيك وأنت تتثاءب، وأسفاه!! أنت تعلم أنك لن تلفظها، لعلها الرغبة فى الانتقام ولاشىء سوى ذلك. رد اعتبار ليس إلا. ينبغى أن تقول الجارية «نعم» ولك أن تهجرها بعد ذلك قرير العين. لاشىء فيها يستحق النضال. أتذكر ساقيها وجيدها وشهوة عينيها؟ لو داويت كبريائك بلعقة من الصبر لفزت ـ من ليلتك ـ بالمتعة والبهجة، ماذا وراء هذا القلق كله؟! إنى أتألم، أجل! إنى أتألم، إنى مكروب بما نزل بى من مهانة، أتوعدها بالازدراء ثم تخطر منها على القلب خطرة فتستعر عروقى . . استبق الحياء ولا تجعل من نفسك

أضحوكة، إنى أستحلفك بالأولاد من بقى منهم ومن ذهب. هنية كانت المرأة الوحيدة التى هجرتك فجريت وراءها، ماذا لقيت منها؟ ألا تذكر!! فتوة الزفة يرقص ويسكر ويصول ويجول، ثم يعمل عصاه فى المصابيح وطاقات الورد والمزامير والمدعوين، حتى يغطى الصلوات على الزغاريد... ذاك رجل؟! كن فتوة العوامة واقتل أعداءك بالتجاهل والإعراض. ما أضعف أعداءك وما أقواهم، ساق مسترخية لا تكاد تقوى على المشى غير أنها تهد الجبال الرواسى، ما أفظع سبتمبر إذا ارتفعت حرارته المشبعة بالرطوبة، ما ألطف أماسيه خاصة ما يكون منها فى العوامة. إن بعد العسر يسرا..

فكر فى أمرك وانظر فى أى اتجاه تسير، المكتوب لازم تشوفه العين، الإقدام مُر والنكوص مرعب، كم كنت تراها وهى فى ميعة الصبا فلم توقظ فيك نائمًا ومررت بها كأنها شىء لم يكن، ماذا جد حتى زهدت فيمن أحببت وأحببت من كنت تزهد، ليست أجمل من زبيدة ولا جليلة ولو كان بها جمال ينافس جمال خالتها ما اصطحبتها، على ذلك فأنت تريدها وتريدها بكل قوة نفسك.. آه!! ما جدوى المكابرة؟! لا أرضى إلا بمن أحبه!! أحبَّك برص يا بنت اللبؤة.. تألم حتى تختنق، ما أذل الإنسان مثل نفسه، هل تذهب إلى العوامة؟ ليست خير مكان لإذاعة الفضائح، البيت؟ هناك زبيدة!! أهلا أهلا!! أعدت أخيرا إلى عرينك؟ بم تجيبها؟ لم أعد لذاك، ولكنى أريد بنت أختك! يا له من سخف! دع الهذر. هل فقدت صوابك!؟ استعن بالفار أو بمحمد عفت. السيد أحمد عبد الجواد يبحث لنفسه عن شفيع إلى.. زنوبة!.. أليس من الأفضل أن تفصد نفسك حتى يتفصد الدم الخبيث الذى يسيمك الذل!

كان الليل قد غشى الغورية وأغلقت أبواب حوانيتها، حين أقبل أحمد عبد الجواد من دكانه عقب إغلاقها، يسير فى خطوات وئيدة وعيناه تتفحصان الطريق والنوافذ، لاح وراء نافذتى زبيدة ضوء، ولكنه لم يدر ماذا كان يدور وراءهما، أوغل فى الطريق وقتا ثم عاد من حيث أتى، فوصل مسيره إلى بيت محمد عفت بالجمالية حيث يلتقى الأصدقاء الأربعة قبل انطلاقهم إلى السهرة معا. قال السيد مخاطبًا محمد عفت:

ـ ما ألطف ليالى العوامة، لا يزال قلبى يحن إليها!

فقال محمد عفت ضاحكًا فى ظفر:

ـ هى رهن إشارتك فى أى وقت تشاء..

وعقب على عبد الرحيم على ذلك بقوله:

ـ حننت إلى زبيدة، يا عكروت.

فبادر السيد قائلا فى جد:

ـ كلا..

ـ جليلة؟

ـ العوامة ولا شيء عداها . .

فسأله محمد عفت بمكر :

ـ أتريدها سهرة قاصرة علينا ، أم ندعو إليها صديقات الزمان الأول؟

فضحك السيد ضحكًا أعلن بها هزيمته ، ثم قال :

ـ بل تدعوهن يا بن الماكرة ، وليكن ذلك مساء الغد ، لأن الوقت تأخر بنا الليلة ، ولكنى لن أجاوز الاستمتاع بالمجالسة والمؤانسة . .

قال إبراهيم الفار «إحم» ، وقال على عبد الرحيم : «على روحى أنا الجانى» ، وقال محمد عفت ساخراً : «سمه كما تشاء ، تعددت الأسماء والفعل واحد» .

ثم كان اليوم التالى كأنما اكتشف قهوة سى على لأول مرة . انجذب إليها قبيل الأصيل ، وجلس على الأريكة تحت الكوة ، فأقبل عليه صاحب القهوة مرحبًا ، فقال له السيد وكأنه يبرر مجيئه إلى القهوة لأول مرة :

ـ كنت راجعًا من بعض الأعمال ، فنازعتنى النفس إلى احتساء شايك العذب .

زيارة لا يبدو أنها من السهل أن تتكرر . . رويدًا رويدًا ! ! ستفضح نفسك أمام الناس ، ما جدوى هذا كله؟ ! . هل يسرك حقًا أن تراك من وراء الخصاص لتهزأ من تدهورك؟ . إنك لا تدرى ماذا تصنع بنفسك ، أتعبت عينيك فى محجريهما ودوخت دماغك ، لن تبدو لك ، والأدهى من هذا أن تتفرج عليك ساخرة من وراء خصاص ، ماذا جاء بك؟ تريد أن تملأ عينيك منها . اعترف ، تريد أن تقيس أبعاد جسمها اللدن . . أن ترى ابتسامتها وإغضاءتها . . أن تتابع أناملها المخضبة ، فيم هذا كله؟ لم يسلف لك شىء كهذا مع من فُقنها حسنا ورواء وشهرة ، أَقْضِى عليك أن تتعذب وتهون فى سبيل الشىء الحقير ! . لن تبدو . . تطلع كيفما شئت . . الفت إليك الأنظار . . السيد أحمد عبد الجواد فى قهوة سى على يسترق النظر من الكوة ، لشد ما تدهورت ! ! من أدراك أنها لم تفش سرك؟ لعل التخت يدرى ، ولعل زبيدة نفسها تدرى ، ولعل الجميع يدورن ! ! مد يده المحلاة بالخاتم الماسى إلى فصددته ثم توسل إلىّ فأصررت على صده . . هذا هو السيد أحمد عبد الجواد الذى تشيدون به ! . . لشد ما تدهورت ! ! أقصى التدهور ما تنحدر إليه ، بل ما تصر على الانحدار إليه وأنت أعلم الناس بما ينطوى عليه فعلك المشين من مذلة وهوان ، إذا عرف السر أصحابك وزبيدة وجليلة ، فماذا أنت صانع؟ ! حقا أنت ماهر فى مداراة الحرج بالنكتة ، ولكن سوف تنحسر موجات الضحك والقهقهة عن الحقيقة المرة . . هذا مؤلم وآلم منه أنك تريدها . لا تكذب على نفسك ، فأنت تريدها حتى الممات . ماذا أرى؟ . . تساءل وهو ينظر إلى عربة كارو جاءت فوقفت أمام بيت

العالمة، ثم ما لبث أن فُتح الباب فخرجت عيوشة الدفافة ساحبة وراءها عبده القانونجى، ثم تبعتها بقية الجوقة، فأدرك أنهم ذاهبون إلى فرح من الأفراح. وشعر الرجل شعوراً عنيفًا بخفقان قلبه وهو يتطلع إلى الباب فى ترقب مشوق محزن اشرأب بعنقه فى غير ما حيطة متجاهلاً ما حوله من الناس، ثم رنت ضحكة وراء الباب، ثم برز العود فى جراب بمبى يسبق صاحبته التى خرجت فى نشاط ثورى ضاحكة ثم وضعت العود على مقدم العربة، وصعدت إليها بمعونة عيوشة، وجلست فى الوسط حتى لم يعد يرى منها إلا منكبا يبدو خلال زاوية انفرجت ما بين عيوشة وعبده الضرير. أصر السيد على أسنانه حنينا وحنقا معا. أتبع العربة عينيه وهى تتمايل ذات اليمين وذات الشمال موغلة فى الطريق، مخلفة فى صدره إحساسا عميقًا بالكآبة والهوان، وتساءل: هل يقوم فيتبعها؟ غير أنه لم يحرك ساكنًا ولم يزد على أن قال لنفسه: «كان المجىء إلى هنا حماقة جنونية».

ذهب فى المساء الموعود إلى العوامة بإمبابة، لم يكن استقر على رأى فيما ينبغى أن يفعل على كثرة ما أدار الأمر فى ذهنه. ثم أخيراً، رهن حل مشاكله بيد الظروف والفرص.. حسبه أنه ضمن رؤيتها ومجالستها والانفراد بها فى آخر الليل، سوف يجس النبض من جديد وربما أعاد الكرة مستعينا هذه المرة بكافة ضروب الإغراء، دخل العوامة كالوجل، وعلى حال لو رآها على غيره وحدس بواعثها لأغرقه ضحكا وسخرية. هنالك وجد الإخوان وجليلة وزبيدة ولكنه لم يعثر للعوادة على أثر!! وقد استقبل استقبالاً حاراً، وما كاد يخلع جبته وطربوشه ويتخذ مجلسه حتى انفجرت القهقهات من حوله فاندمج فى جوها بقوة مرونته. حدث ونكَّت ومازح وداعب مغالبًا قلقه محاوراً همه، غير أن مخاوفه كمنت تحت تيار المرح دون أن تتبدد كما يكمن الألم إلى حين تحت تأثير المخدر، وما برح يأمل أن ينفتح باب فتأتى منه أو أن يشير أحد إليها بكلمة تفسر غيابها أو تعد بقرب حضورها، وكلما مضى الوقت متثاقلاً متثائبًا شحب أمله وفتر حماسه وغيم المأمول من صفوه.

ترى أيهما كان الطارئ: حضورها أول أمس، أم تخلفها اليوم؟، لن أسأل أحدا، الظواهر تنم على أن سرك لا يزال مصونا، لو علمت به زبيدة ما تورعت أن تجعل منه فضيحة وجرسة. ضحك كثيرا وشرب أكثر، سأل زبيدة أن تغنيه «أضحك من الفم وأبكى من صميم قلبى»، أوشك مرة أن يخلو بمحمد عفت ليكاشفه بما يريد، أوشك مرة أخرى أن يجس نبض زبيدة نفسها بيد أنه ضبط نفسه فخرج من أزمته مصون السر والكرامة.

ولما قام على عبد الرحيم عند منتصف الليل ليذهب إلى رفيقته بوجه البركة، قام معه على غير توقع من أحد ليعود إلى بيته، وعبثا حاولوا أن يثنوه عن عزمه أو أن يستنظروه

ساعة، فذهب مخلفا وراءه دهشة، وخيبة للذين حدسوا وراء مجيئه المرسوم ظنونًا لم تقع.

ثم كان يوم الجمعة فخرج إلى جامع الحسين قبيل الصلاة بقليل، وإنه ليسير فى شارع خان جعفر، إذ رآها عابرة من حارة الوطاويط فى طريق الجامع!.. آه.. لم يخفق قلبه مثل تلك الخفقة من قبل، وأعقبها على الأثر جمود شمل حركته النفسية كلها، حتى خيل إليه ـ فيما يشبه الغيبوبة، وخلافًا للواقع ـ أنه توقف عن السير، وأن العالم من حوله صمَت صمْت القبور، كمثل السيارات التى تتوقف محركاتها عن الدفع فيخرس أزيزها ولكنها تسير بقوة القصور الذاتى فى سكون شامل، ولما أفاق إلى نفسه وجدها تتقدمه بمسافة غير قصيرة، فتبعها على الأثر دون تدبر أو روية، فمر بالجامع دون أن يعرج إليه، ثم مال وراءها عن بُعد إلى السكة الجديدة. ماذا يبغى؟ إنه لا يدرى!! كان يطيع رد الفعل طاعة عمياء، لم يكن سبق له أن تعقب امرأة فى الطريق ولا فى أيام شبابه الأول فأخذ ينتابه الحرج والحذر، ثم دهمته فكرة ساخرة مفزعة معًا: أن يهتك سر المطاردة الخفية، ياسين أو كمال!. على أنه حرص على ألا تقصر المسافة بينه وبينها عما كانت عليه مذ بدأت المطاردة، وراحت عيناه ترتويان من هيئة جسمها اللطيف بنهم وظمأ وهو يستقبل موجات متتابعة من الأشواق والآلام، حتى رآها تعدل عن الطريق إلى دكان صائغ من معارفه يدعى يعقوب، تباطأت قدماه كى يتيح لنفسه فرصة للتدبر وتضاعف شعوره بالحرج والحذر: ألا يعود من حيث أتى؟، أم يمر بالدكان دون أن يلتفت نحوها؟ أم ينظر إلى الداخل وينتظر ما يحدث؟

كان يقترب من الدكان رويدا، حتى إذا لم يبق بينه وبينها إلا أقدام خطرت له خاطرة جريئة، فاندفع إلى تنفيذها بلا تردد متجاهلاً خطورتها، وهى أن ينتقل إلى الطوار ثم يسير متمهلا أمام الدكان على أمل أن يراه صاحبه فيدعوه كعادته إلى الجلوس فيلبى دعوته!.. مضى متمهلاً فوق الطوار حتى بلغ الدكان، فنظر إلى الداخل كأنما ينظر عفوا، فالتقت عيناه بعينى يعقوب.. وإذا بالخواجا يهتف به:

ـ أهلا بالسيد أحمد، تفضل..

ابتسم السيد متوددا ثم عرج إلى الداخل فتصافحا بحرارة ودعاه الخواجا إلى كوب خروب، فقبل الدعوة قبول الكرام، وجلس على طرف كنبة جلدية من قبل الخوان المنصوب عليه الميزان. لم يبد عليه أنه فطن إلى وجود ثالث فى الدكان حتى جلس فتراءت أمام عينيه زنوبة وهى واقفة حيال الخواجا تقلب بين يديها قرطا فتظاهر بالدهش، والتقت عيناهما وهو على تلك الحال.. ابتسمت فابتسم، ثم بسط راحته على صدره محييا، وهو يقول:

ـ صباح الخير . . كيف حالك؟

فقالت وهى تعاود النظر إلى القرط :

ـ بخير ربنا يكرمك . .

كان الخواجا يعقوب يعرض استبدال القرط بأسورة مع دفع فرق اختلفًا عليه ، فانتهز السيد فرصة انشغالها ليملأ عينيه من صفحة خدها ، ولم يغب عليه ما فى المساومة والاستبدال من فرص تتيح له التدخل بالحسنى ، لعل وعسى . . غير أنها قطعت عليه سبيله وإن لم تدر بما أضمر ، فردت القرط إلى صاحبه وهى تعلنه بأنها عدلت نهائيًا عن المبادلة ، وطلبت إليه إصلاح الأسورة ، ثم حيته ، وحيت السيد بإحناءة من رأسها وغادرت الدكان! . حدث هذا كله بسرعة لم يكن ثمة داع إليها فيما بدا له ، فأخذ وانزعج واستحوذ عليه الفتور والضيق . ولبث مع الخواجا يعقوب يتبادلان حديث المجاملات المألوف حتى شرب كوب الخروب ، ثم استأذن فى الانصراف وذهب .

ذكر ـ فى خجل شديد ـ صلاة الجمعة التى أوشكت أن تفوته ، ولكنه تردد فى المضى إلى الجامع ، لم تواته الشجاعة على الانتقال المباشر من تعقب امرأة وقت الصلاة إلى الجامع ، ألم ينقض نزقه وضوءه؟ ، بل ألم يجعله غير أهل للوقوف بين يدى الرحمن؟ عدل عن الصلاة محزونا متألما فسار فى الطرقات ساعة على غير هدى ، ثم عاد إلى البيت معاودا التفكير فى ذنبه ، على أن رأسه ـ حتى فى تلك اللحظات الحساسة المليئة بالندم ـ لم يغلق بابه دون زنوبة! . قال مخاطبا محمد عفت ، وكان قد سبق إلى بيته مساء ليخلو إليه قبل توافد الأصدقاء :

ـ أريد منك خدمة ، أن تدعو مساء الغد زبيدة إلى العوامة!

ضحك محمد عفت ، وقال له :

ـ إن كنت تريدها فلم هذا اللف والدوران! لو طلبتها أول ليلة لفتحت لك ذراعيها على الرحب والسعة . .

فقال أحمد عبد الجواد فى شىء من الحرج :

ـ أريد أن تدعوها وحدها . . !

ـ وحدها؟! يا لك من رجل أنانى لا تفكر إلا فى نفسك ، والفار وأنا؟! بل لنجعلها ليلة من ليالى العمر ، ولندع زبيدة وجليلة وزنوبة أيضًا! . .

تساءل أحمد عبد الجواد فيما يشبه الاستنكار :

ـ زنوبة؟!

ـ لِمَ لا؟! إنها احتياطى لا بأس به ، يُرجع إليه عند الضرورة . .

ما آلمنى ! . . كيف تمنعت بنت القديمة ولِمَ؟ !

ـ أنت لم تدرك بعد غايتى ، الحق أنى لاَ أنوى المجىء غدا!

قال محمد عفت فى استغراب :

ـ تطلب أن أدعو زبيدة! وتقول إنك لن تجىء غدا! ما هذه الألغاز ! !

ضحك أحمد ضحكة عالية يدارى بها ارتباكه ، ثم لم يجد بدا من أن يقول كاليائس :

ـ لا تكن بغلا ، سألتك أن تدعو زبيدة وحدها ، كى تبقى زنوبة فى البيت وحدها!

ـ زنوبة يابن أم أحمد! ؟

ثم وهو يسترسل فى الضحك :

ـ لِمَ كل هذا التعب؟ لِمَ لَمْ تطلبها أول ليلة فى العوامة؟ ! ولو أشرت إليها بأصبعك لطارت إليك ، ولزقت فيك بالغراء!

ابتسم ابتسامة فارغة ، رغم شعوره الأليم بالامتعاض ، ثم قال :

ـ نفذ ما أمرت به ، هذا ما أريد . .

قال محمد عفت وهو يفتل شاربه :

ـ ضعف الطالب والمطلوب!

فقال أحمد عبد الجواد جادا جدًا :

ـ ليكن هذا سرًا بيننا . .

٩

طرق الباب فى ظلام دامس وفى خلاء من المارة ، وكانت الساعة تدور فى التاسعة ، فُتح الباب بعد حين دون أن يبدو الفاتح ، ثم جاءه صوت ارتج له فؤاده ارتجاجًا يتساءل قائلاً : «من؟» فقال بهدوء «أنا» ، وهو يدخل بغير استئذان ، ثم رد الباب وراءه فوجد نفسه قبالتها وهى واقفة على آخر درجة من السلم مادة ذراعها بالمصباح ، حدجته بنظرة داهشة ، ثم غمغمت :

ـ أنت!

فوقف صامتًا مليا ، وعلى فيه ابتسامة خفيفة تنم عن الإشفاق والقلق ، ولما لم يأنس منها اعتراضًا أو غضبًا تشجع قائلاً :

ـ أهذا هو استقبالك لصديق قديم؟ !

فولته كشحها، ومضت ترقى فى الدرج، وهى تقول:

ـ تفضل..

تبعها صامتًا، وقد استنتج من فتحها الباب بنفسها أنها بمفردها فى البيت، وأن مكان الجارية جلجل التى ماتت منذ عامين لا يزال شاغراً.. تبعها حتى دخلا إلى الدهليز، فعلقت المصباح بمسمار مثبت فى الجدار على كثب من الباب، ثم دخلت وحدها حجرة الاستقبال، فأوقدت المصباح الكبير المدلى من السقف ـ زادته هذه الحركة اطمئنانا إلى استنتاجه ـ ثم خرجت فأومأت له بالدخول وذهبت..

مضى إلى الحجرة ثم جلس فى الموضع الذى كان يجلس فيه فى العهد القديم على الكنبة الوسطى، فنزع طربوشه وحطه على النمرقة التى تشطر الكنبة، ومد ساقه وهو يلقى نظرة فاحصة على ما حوله.. إنه يذكر المكان كما لو كان لم يغادره إلا أمس القريب، هذه الكنبات الثلاث، وهذه المقاعد، وهذا البساط الفارسى، وهذه الأخونة الثلاثة المطعمة بالصدف، كل شىء كان بصفة عامة كما كان!! هل يذكر متى جلس آخر مرة فى هذا المكان؟ إن ذكرياته عن بهو الطرب وحجرة النوم أوضح وأثبت، بيد أنه لا يمكن أن ينسى أول لقاء تم بينه وبين زبيدة فى هذه الحجرة، فى هذا الموضع بالذات!! وجملة ما دار فيه، لم يكن أحد يومذاك مثله خلو بال وثقة بالنفس؟ ترى متى تعود؟ ماذا أحدثت زيارته فى نفسها؟ إلى أى درجة سيرتفع غرورها؟ وهل أدركت أنه جاء من أجلها هى لا من أجل خالتها؟ إن أخفق هذه المرة فقل عليه السلام!

سمع وقع شبشب خفيف، ثم بدت زنوبة عند الباب فى فستان أبيض منمنم بورد أحمر، ملتفعة بوشاح مرصع بالترتر، أما رأسها فحاسر، وأما شعرها فمجدول فى ضفيرتين غليظتين استرسلتا على ظهرها.. استقبلها واقفًا باسما متفائلاً بالزينة التى تبدت فيها، فحيته بابتسامة، وأشارت إليه أن يجلس، ثم جلست على الكنبة التى تتوسط الجدار الذى إلى يمينه، وهى تقول بصوت لم يخلُ من دهش:

ـ أهلا وسهلا، أى مفاجأة!

فابتسم السيد متسائلاً:

ـ من أى نوع يا ترى هذه المفاجأة؟

قالت وهى ترفع حاجبيها فى حركة غامضة لم تنم عما إذا كانت ستتكلم جادة أم ساخرة:

ـ سارة طبعًا!

ما دمنا قد أطعنا أقدامنا حتى جاءت بنا إلى هنا فعلينا أن نتحمل الدلال بكافة أنواعه: ثقيله وخفيفه.

تفحص جسمها ووجهها ـ فى هدوء ـ كأنما ينقب فيهما عما لوعه وعبث بوقاره، فساد الصمت حتى رفعت إليه وجهها دون أن تنبس، ولكن فى حركة نمت عن تساؤل مُشرب بأدب، كأنما تقول له: «نحن فى الخدمة».

فتساءل السيد فى مكر:

ـ هل يطول انتظارنا للسلطانة؟ ألم تفرغ بعد من ارتداء ملابسها؟

فحدجته بنظرة غريبة وهى تضيق عينيها، ثم قالت:

ـ السلطانة ليست فى البيت..

فتساءل متظاهراً بالدهشة:

ـ أين هى يا ترى؟

فقالت وهى تهز رأسها، راسمة على شفتيها ابتسامة غامضة:

ـ علمى علمك..

فكر فى إجابتها قليلاً، ثم قال:

ـ ظننتها تطلعك على خط سيرها؟

فلوحت بيدها كالمستنكرة، وقالت:

ـ إنك حسن الظن بنا (ثم ضاحكة) السلطة العسكرية زمانها انتهى! وإن شئت فأنت أحق منى بالاطلاع على خط سيرها!

ـ أنا؟!

ـ لم لا، ألست صديقها القديم؟

قال، وهو يحدجها بنظرة باسمة عميقة ناطقة:

ـ الصديق القديم والغريب سواء، ترى هل يطلع أصدقاؤك القدماء على خط سيرك؟

رفعت منكبها الأيمن وهى تمط بوزها، قائلة:

ـ ليس لى أصدقاء، لا قدماء ولا حديثون..

فراح يعبث بفردة شاربه وهو يقول:

ـ هذا كلام لمن لا عقل له، أما من له ولو شىء من العقل فلا يتصور كيف يمكن أن تكونى بين قوم يبصرون ولا يستبقوا إلى صداقتك...

ـ إن هى إلا تصورات الكرماء أمثالك! ولكنها لا تعدو التصورات الخيالية، الدليل على هذا أنك صديق قديم لهذا البيت، فهل راق لك يومًا أن تهبنى قسطا من صداقتك؟

قطب فى ارتباك، ثم قال بعد تردد:

ـ كنت وقتذاك، أعنى أنه كانت ثمة ظروف . .

ففرقعت بأصابعها، وقالت ساخرة:

ـ لعلها نفس الظروف التى حالت بينى ـ يا عينى ـ وبين الآخرين!

ألقى بظهره إلى مسند الكنبة فى حركة سريعة تمثيلية ثم مد نظره إليها من فوق أنفه العظيم، وهو يهز رأسه كالمستعيذ بالله منها، ثم قال:

ـ أنت عقدة، وها أنا أعترف بأننى لا قبل لى بك!

فدارت ابتسامة بعثها الثناء، ثم تظاهرت بالدهشة، وهى تقول:

ـ لا أفهم مما تعنى شيئا، الظاهر أنك فى واد وأنى فى واد، المهم أنك قلت إنك جئت لمقابلة خالتى، فهل من رسالة أبلغها إياها عند عودتها؟ . .

ضحك السيد ضحكة قصيرة، ثم قال:

ـ قولى لها إن أحمد عبد الجواد جاء ليشكونى إليك، فلم يجدك!

ـ تشكونى أنا!، ماذا صنعت؟

ـ قولى لها إنى جئت أشكو إليها ما لقيت منك من قسوة ليست من شيم الحسان!

ـ يا له من قول خليق برجل يجعل من كل شىء مادة لمزاحه ودعابته!

فاعتدل فى جلسته، وقال جادا:

ـ معاذ الله أن أجعل منك مادة للمزاح أو الدعابة؟! إن شكواى صادقة، ويخيل إلى أنك واقفة على سرها، ولكنه دلال الحسان، وللحسان الحق كل الحق فى التدلل، ولكن عليهن مراعاة الرحمة أيضًا.

فمصمصت بشفتيها قائلة:

ـ عجب! . .

ـ لا عجب ألبتة!! أتذكرين ما كان بالأمس فى دكان يعقوب الصائغ؟ هل يستحق ذلك اللقاء الجاف من كان يعتز بمثل مودتى لكم وقدم عهدى بكم؟ وددت لو استعنت بى مثلاً فيما كان بينك وبين الصائغ، ووددت لو أتحت لى الفرصة كى أضع خبرتى فى خدمتك، أو أن تتواضعى درجة أخرى فتسمحى لى بأن أنهض بالأمر كله كما لو كانت الأسورة أسورتى أو كانت صاحبتها صاحبتى! . .

ابتسمت، وهى ترفع حاجبيها فى شىء من الارتباك، ثم قالت باقتضاب:

ـ تشكر . .

تنفس الرجل تنفسا عميقًا ملأ به صدره العريض، ثم قال بحماس:

ـ مثلى لا يقنع بالشكر، ماذا يفيد الجائع إن أعرضت عنه، وأنت تقولين له: «على الله؟!»، الجائع يريد الطعام، الطعام الشهى اللذيذ.

شبكت ذراعيها على صدرها وهى تتظاهر بالدهش، ثم قالت ساخرة:

ـ أنت جائع يا سى السيد؟! عندنا ملوخية وأرانب تستاهل فمك.. وهو يضحك عاليًا:

ـ عال، اتفقنا، ملوخية وأرانب، تضاف إليها زجاجة ويسكى، ثم نحلى بشىء من العود والرقص، ونتمدد ساعة معًا حتى نهضم..

فلوحت له بيدها كأنما تهتف به «إلى الوراء»، وقالت:

ـ الله الله، سكتنا له دخل بحماره.. بُعْدك!

ضم أصابع يمناه الخمس، حتى صارت كفم مزموم، وجعل يرفعها ويخفضها بتؤدة، وهو يقول بلهجة وعظية:

ـ يا بنت الحلال لا تضيعى الوقت الغالى فى الكلام..

وهى تهز رأسها فى زهو ودلال:

ـ بل قل لا تضيعى الوقت الغالى مع الكهول..!

مسح السيد صدره العريض بكفه فى حركة توحى بالتحدى الباسم، ولكنها هزت منكبيها ضاحكة، وهى تقول:

ـ ولو...

ولو؟ يا لك من طفلة، حرام علىّ النوم إن لم أعلمك ما ينبغى أن تعلميه، هاتى الملوخية والأرانب والويسكى والعود وزنار الرقص، هيا.. هيا..

ثنت سبابة يسراها وألصقتها بحاجبها الأيسر، ثم أرعشت حاجبها الأيمن، وهى تتساءل:

ـ ألا تخاف أن تكبسنا السلطانة على غفلة؟

ـ لا تخافى، لن تعود السلطانة الليلة...

فحدجته بنظرة حادة مريبة، وتساءلت:

ـ من أدراك بذلك؟

انتبه إلى عثرة لسانه، فأوشك لحظة أن يغلبه الارتباك، ولكنه تخلص منه قائلاً فى لباقة:

ـ السلطانة لا تبقى فى الخارج حتى هذه الساعة إلا لضرورة تستدعى بقاءها حتى الصباح!

جعلت تحدق فى وجهه طويلاً دون أن تنبس، ثم هزت رأسها فى سخرية ظاهرة، ثم قالت بصوت ملىء بالثقة:

ـ يالمكر الكهول! يضعف فيهم كل شىء إلا مكرهم! هل حسبتنى غفلانة؟ كلا وحياتك، إنى أعلم كل شىء..

عاد إلى العبث بفردة شاربه فى شىء من الضيق، ثم سألها:

ـ ماذا تعلمين:

ـ كل شىء!

وتريثت قليلاً لتزيد من ارتباكه، ثم استطردت:

ـ أتذكر يوم جلست على قهوة سى على لتسترق النظر من نافذة القهوة؟ يومها عيناك حفرت جدار بيتنا من شدة النظر! ولما ركبت العربة الكارو مع أفراد التخت ساءلت نفسى: ترى هل يتبعنا مهللا وراءنا كما يفعل الصبية؟ ولكنك عقلت وانتظرت فرصة أحسن!

قهقه الرجل حتى اشتدت حمرة وجهه، ثم قال بتسليم:

ـ اللهم اعف عنا..

ـ ولكنك نسيت عقلك أمس، عندما رأيتنى أمام خان جعفر فتبعتنى حتى دخلت ورائى دكان يعقوب...

ـ عرفت هذا أيضًا يا بنت أخت زبيدة؟

ـ نعم يا زين العشاق، بيد أنى لم أكن أتصور أنك ستدخل ورائى الدكان، ولكنى ما لبثت أن وجدتك جالسًا فوق الكنبة ولا عفريت النسوان نفسه، ولما تظاهرت بالدهشة لرؤيتى كدت أطلق لسانى فيك بما قسم، ولكن الموقف أملى علىّ الأدب..

تساءل ضاحكًا، وهو يضرب كفا بكف:

ـ ألم أقل إنك عقدة؟

فواصلت الحديث وهى فى نشوة من الفوز والسرور:

ـ وما أدرى ليلة إلا والسلطانة تقول لى: استعدى، إننا ذاهبان إلى عوامة محمد عفت، فمضيت لأستعد، ولكنى سمعتها تقول بعد ذلك: إن السيد أحمد هو الذى اقترح الدعوة! لعب فى عبى الفار، وقلت لنفسى: السيد أحمد لا يقترح شيئا لوجه الله، وفهمت الفولة، فلم أذهب معتلة بصداع!

ـ يا لى من مسكين! وقعت فى مخالب من لا يرحم، هل عندك مزيد؟..

ـ لو اطلعتم على الغيب لا خترتم الواقع . . .

ـ ما أحلى هذا الكلام! قلد الوعاظ ، يا أفسق خلق الله!

وهو يضحك عاليًا :

ـ الله يسامحك . . .

ثم متسائلاً فى سرور غير خاف :

ـ فهمت الفولة هذه المرة أيضًا ، ولكنك بقيت ، فلم تغادرى البيت أو تخفى نفسك . .

ونهض قبل أن يتم جملته فاتجه نحوها ، وجلس إلى جانبها ، ثم تناول طرف الوشاح المرصع بالترتر فقبله ، وهو يقول :

ـ اللهم إنى أشهد بأن هذه المخلوقة الجميلة ألذ من أنغام عودها ، لسانها سوط ، وحبها نار ، وعاشقها شهيد ، وسوف يكون لهذه الليلة شأن فى التاريخ كله . .

أبعدته عنها بكفها قائلة :

ـ لا تأخذنى فى دوكة ، هوه! عد إلى مجلسك . .

ـ لن يفصل بيننا شىء بعد الآن . . .

جذبت وشاحها فجأة من يده ونهضت مبتعدة قليلاً ، ثم وقفت على بعد ذراع منه تمعن فيه نظرًا صامتا ، وكأنما تراجع نفسها فى أمور ذات شأن ، ثم قالت :

ـ لم تسألنى عما جعلنى أتخلف عن الذهاب إلى العوامة ـ يوم دعانا محمد عفت ـ بناء على اقتراحك . .

ـ كى تزيدى النار اشعالا!!

ضحكت ثلاث ضحكات منقطعة ، ثم صمتت مليا ، ثم قالت :

ـ فكرة لا بأس بها ولكنها قديمة ، أليس كذلك يا زين الفساق؟ . . ستظل الحقيقة سرًا حتى أرى أن أفشيه عندما يحلو لى . .

ـ أقدم حياتى ثمنا له . .

ابتسمت ابتسامة صافية لأول مرة ، ولاحت فى عينيها نظرة رقيقة جاءت فى أعقاب سخرياتها ، كما يجىء الهدوء فى أعقاب زوبعة ، وبشر حالها بسياسة جديدة ومعنى جديد ، فاقتربت منه خطوة ومدت يديها إلى شاربه برشاقة وراحت تجدله بعناية ، ثم قالت بنبرات لم يسمعها من قبل :

ـ إذا قدمت حياتك ثمنا لهذا ، فماذا يبقى لى أنا؟

وجد راحة عميقة لم يجد مثلها منذ تلك الليلة الخاسرة فى العوامة ، وكأنما كان يفوز

بامرأة لأول مرة فى حياته، تناول يديها من فوق شاربه وأودعهما بين راحتيه الكبيرتين، ثم قال بحنان وامتنان:

ـ أنا نشوان يا ست الكل نشوان لحد يعجزنى عن الوصف، دمت لى إلى الأبد، إلى الأبد، لا عاش من رد لك رجاء أو طلبًا، أتمى نعمتك على وهيئى مجلسنا، الليلة ليست كالليالى الأخريات، وهى تستحق أن نحتفل بها حتى مطلع الفجر . .

قالت وهى تلعب بأناملها بين راحتيه:

ـ ليست هذه الليلة كالليالى الأخريات حقًا، ولكن ينبغى أن نقنع منها بالقليل . . .

القليل! هل ثمة صد بعد هذا اللطف كله؟ لم يعد بك صبر.

مضى يربت كفيها، ثم بسط راحتيها، ونظر بافتتان فى لون الحناء الوردى الذى يصبغهما، وما يدرى إلا وهى تسأله بصوت ضاحك:

ـ هل تقرأ الكف يا سيدنا الشيخ؟

ابتسم، وقال مداعبًا:

ـ أنا من المشهود لهم فى قراءته، أتحبين أن أقرأ لك كفك؟

أحنت رأسها بالإيجاب. فراح يتأمل راحتها اليمنى متظاهرًا بالتفكير، ثم قال باهتمام:

ـ فى طريقك رجل سيكون له شأن فى حياتك . .

تساءلت ضاحكة:

ـ فى الحلال يا ترى؟

ارتفع حاجباه وهو يمعن النظر فى كفها، ثم قال دون أن يبدو على وجهه أثر ولو خفيف للمزاح:

ـ بل فى الحرام!

ـ أعوذ بالله! ما عمره؟

نظر إليها من تحت حاجبيه، ثم قال:

ـ غير واضح ولكن إذا قسته بمقياس مقدرته فهو فى عنفوان الشباب! . .

فتساءلت بمكر:

ـ أهو كريم يا ترى؟

آه، لم يكن الكرم مما يزكيك عندهن قديما.

ـ لم يعرف البخل قلبه . .

فكرت قليلاً ثم عادت تتساءل:

ـ هل يرضيه أن أبقى كالتابعة فى هذا البيت؟

العجل وقع هاتوا السكاكين . .

ـ بل سيجعلك سيدة قد الدنيا ! . .

ـ أين يا ترى سأقيم فى كنفه؟

زبيدة نفسها لم تكلفك شيئا من هذا، سيقولون فيك ويعيدون . . .

ـ شقة جميلة . .

ـ شقة؟! . . .

عجب للهجتها المستنكرة، فسألها داهشًا :

ـ ألا يعجبك هذا؟

قالت وهى تشير إلى راحتها :

ـ ألا ترى ماء يجرى؟ . . انظر جيدًا . . .

ـ ماء يجرى! . . أتودين السكنى فى حمام؟

ـ ألا ترى النيل . . عوامة أو ذهبية . . ؟!

أربعة جنيهات أو خمسة شهريًا دفعة واحدة، غير النفقات الأخرى، آه!، لا تعشقوا أولاد السفلة! . .

ـ لماذا تختارين مكانًا بعيدًا عن العمران؟ . .

اقتربت منه حتى مست ركبتاها ركبتيه، وقالت :

ـ لست دون محمد عفت جاها، ولست دون السلطانة حظا ما دمت تحبنى كما تقول، وفى وسعك أن تسهر فيها أنت وأصحابك، إنها حلمى محققه لى . . . !

أحاط وسطها بذراعيه، ولبث صامتًا ليستشعر فى هدوء مسها ولينها، ثم قال :

ـ لك ما تشائين يا أملى . . .

فكان الشكر أن ألصقت راحتيها بخديه، ثم قالت :

ـ لا تظن أنك تعطى دون أن تأخذ، اذكر دائمًا أنه من أجلك سأغادر هذا البيت الذى عشت عمرى فيه إلى غير رجعة، واذكر أننى إذ أطالبك بأن تجعلنى سيدة فما ذلك إلا لأنه لا يليق بمن كانت صاحبة لك أن تكون أقل من سيدة . . . !

شدّ ذراعيه حول وسطها حتى التصق صدرها بوجهه، ثم قال :

ـ إنى أدرك كل شىء يا نظرى، سيكون لك ما تحبين وأكثر، أحب أن أراك كما تحبين أن ترى نفسك، والآن هيئى لنا مجلسنا، أريد أن أبدأ حياتى من الليلة . . .

أمسكت بساعديه، ثم ابتسمت إليه ابتسامة اعتذار، وقالت برقة:

ـ عندما نجتمع فى عوامتنا على النيل . . .

قال لها محذراً:

ـ لا تثيرى جنونى، هل تستطيعين أن تقاومى صولتى؟

فتراجعت وهى تقول بلهجة تجمع بين التوسل والإصرار:

ـ ليس فى البيت الذى عملت فيه وصيفة، انتظر حتى يجمعنا المسكن الجديد، مسكنك ومسكنى، عند ذاك أكون لك إلى الأبد، ليس قبل ذلك وحياتك عندى وحياتى عندك . . !

١٠

«خير إن شاء الله» . . .

هذا ما ردده أحمد عبد الجواد فى نفسه وهو يطالع ياسين مقبلاً نحوه فى الدكان . . كانت زيارة غريبة وغير متوقعة، أعادت إلى ذاكرته زيارته القديمة لدكانه، يوم جاءه ليشاوره فيما ترامى إليه من اعتزام المرحومه أمه الزواج للمرة الرابعة، والحق أنه أيقن أنه لم يجئه لتبادل التحية والسلام ولا للحديث فى شأن عادى مما يمكن أن يحدثه فى البيت، أجل إن ياسين لا يجىء إلى مقابلته فى الدكان إلا لشأن خطير. صافحه، ثم دعاه إلى الجلوس، وهو يقول:

ـ خير إن شاء الله . . .

جلس ياسين على كرسى قريب من مجلس أبيه وراء مكتبه، موليا بقية الدكان ظهره حيث وقف جميل الحمزاوى أمام الميزان يزن بضاعة لبعض الزبائن، ونظر إلى أبيه فى شىء من ارتباك وكد حدسه، فأغلق الرجل دفتراً كان يسجل فيه أرقامًا واعتدل فى جلسته متأهبا لما يجىء، وقد بدت إلى يمينه الخزينة نصف مفتوحة، وفوق رأسه صورة سعد زغلول فى بدلة الرياسة معلقة فى الجدار تحت إطار البسملة القديم. ولم يكن قصد الدكان اعتباطا ولكن عن تدبر وتفكير باعتباره أأمن مكان لمقابلة أبيه بما جاء من أجله، إذ إن وجود جميل الحمزاوى به ومن يتفق وجودهم من الزبائن خليق بأن يهيئ له درعًا واقيًا من الغضب إذا جاءت دواعيه، وكان يحسب ألف حساب لغضب أبيه رغم الحصانة التى اكتسبها بتقدم العمر والمعاملة الطيبة التى يحظى بها بوجه عام . .

قال ياسين بأدب بالغ:

ـ اسمح لى بقليل من وقتك الغالى، لولا الضرورة ما تجرأت على إزعاجك، ولكنى لا يمكن أن أخطو خطوة دون استنارة برأيك، واعتماد على رضاك . .

ابتسم باطن السيد أحمد هازئًا من هذا الأدب الجم، وجعل يتأمل فتاه الضخم الجميل الأنيق فى حذر، ملقيًا عليه نظرة إجمالية شملت شاربه المجدول على طريقته ـ هو ـ وبذلته الكحلية وقميصه ذا البنيقة المنشية والبابيون الأزرق والمنشة العاجية والحذاء الأسود اللامع، ولم يكن ياسين قد مس مظهره ـ تأدبا فى محضر أبيه ـ إلا فى نقطتين، فأخفى طرف منديله الحريرى الذى يطل من جيب جاكتته الأعلى، وعدل طربوشه الذى يعوجه عادة إلى اليمين. يقول: إنه لا يمكن أن يخطو خطوة دون استنارة برأيه!! مرحى. . هل استنار به وهو يسكر؟ وهو يسبح على وجهه فى وجه البركة الذى حرمه عليه؟ هل استنار به ليلة وثب على الجارية فوق السطح؟ مرحى!! مرحى!! ماذا وراء هذه الخطبة المنبرية؟

ـ طبعًا، هذا أقل ما ينتظر من رجل عاقل مثلك، خير إن شاء الله؟

التفت ياسين التفاتة سريعة لحظ بها جميل الحمزاوى ومن معه، ثم قرب الكرسى من المكتب، واستجمع شجاعته، قائلاً:

ـ اعتزمت ـ بعد موافقتك ورضاك ـ أن أكمل نصف دينى . .

مفاجأة حقيقية! غير أنها مفاجأة سارة على غير ما توقع، ولكن مهلاً!! لن تكون سارة حقًا إلا بشروط، فلينتظر حتى يسمع الأهم من الحديث!! أليس ثمة ما يدعو إلى القلق؟ بلى! تلك المقدمة البالغة فى الأدب والتودد، إيثاره الدكان مكانًا للحديث لدواع لا يمكن أن تخفى عن فطنة الفَطِن، أما الزواج فى ذاته فطالما تمناه له، تمناه حين ألح على محمد عفت ليرد إليه زوجته، وتمناه حين دعا الله فى أعقاب صلواته أن يهديه إلى الرشاد وبنت الحلال، بل لعله لولا إشفاقه من أن يحرجه مع أصدقائه كما أحرجه من قبل مع محمد عفت لما تردد من تزويجه مرة أخرى، فلينتظر! وعسى ألا يتحقق شىء من مخاوفه . .

ـ اعتزام جميل أوافق عليه كل الموافقة، فهل وقع اختيارك على أسرة معينة؟

خفض ياسين عينيه لحظة، ثم رفعهما قائلاً:

ـ وجدت بغيتى، بيت كريم خبرناه بطول الجوار، وكان ربه من معارفك المحمودين . .

رفع السيد حاجبيه متسائلاً دون أن ينبس، فقال ياسين:

ـ المرحوم السيد محمد رضوان!

ـ لا . . . !

ندت عن السيد أحمد قبل أن يتمالك نفسه، ندت عنه فى تأفف واحتجاج حتى شعر

بأنه ينبغى أن يبرر تأففه واحتجاجه بسبب وجيه يدارى به حقيقة مشاعره، ولم يعوزه ذلك، فقال:

ـ أليست كريمته مطلقة؟! فهل ضاقت الدنيا حتى تتزوج من ثيب؟! . . .

لم يفاجأ ياسين بهذا الاعتراض، كان يتوقعه منذ اللحظة التى عزم فيها على الزواج من مريم، غير أنه كان قوى الأمل فى التغلب على معارضة أبيه التى لم يتصور أن تكون إلا صدى لتفضيل البكر على الثيب أو تجنبا لامرأة عسية بأن تذكره بمأساة ابنه الراحل، وكان يؤمن بحكمة أبيه ويرجو أن تستهين فى النهاية بهذين المأخذين الواهيين، بل كان يعتمد كل الاعتماد على موافقته فى التغلب على المعارضة الحقيقية التى يتوقعها عند امرأة أبيه. . تلك المعارضة التى وقف أمام التفكير فيها حائرا حتى خطر له أن يغادر البيت مغادرة الهارب كى يتزوج كما يحلو له مواجها الجميع بالأمر الواقع، ولولا أن إغضاب أبيه كان فوق طاقته لفعل، إلا أنه عز عليه أن يتجاهل عواطف أمه الثانية ـ بل أمه الأولى ـ قبل أن يبذل قصاراه لاستمالتها واقتناعها برأيه، قال:

ـ لم تضق بى الدنيا، ولكنها القسمة والنصيب. . أنا لا أبحث عن المال أو الجاه، وحسبى الأصل الطيب والخلق القويم. .

إن كان ثمة عزاء وسط هذه الأمور المعقدة المؤسفة، فهو صدق رأيه الذى لا يكذب أبدًا. هذا هو ياسين بلا زيادة ولانقصان، إنسان ـ أو حيوان ـ تسير المتاعب بين يديه ومن خلفه، ولو جاء بنبأ سعيد أو زف إليه بشرى سارة لما كان ياسين ولخاب تقديره ورأيه فيه، لعله مما لا يعيبه ألا يبحث فى الزوجة عن المال أو الجاه أما الخلق فمسألة أخرى، ولكن البغل معذور ويبدو ـ وهذا طبيعى ـ أنه لا يدرى شيئًا عن سيرة أم الفتاة التى يرومها زوجة، تلك سيرة يعرفها هو وحده معرفة الفاعل، ولعل آخرين سبقوه إليها أو لحقوا به، فما العمل؟ أجل قد تكون الفتاة مهذبة، ولكن من المؤكد أنها لم تظفر بأحسن أم ولا بأحسن بيئة، ومن المؤسف أنه لا يستطيع أن يجهر برأيه ـ ذاك ـ ما دام لا يسعه أن يقرن القول بالدليل، خاصة وأنه رأى خليق بأن يقابل ـ ممن يسمعه لأول مرة ـ بالإنكار والانزعاج، والأدهى من ذلك أنه يخاف أن يلمح إليه. فيدفع ياسين إلى البحث والاستقصاء فيعثر آخر الأمر على أثر بصماته هو ـ أبيه ـ فتكون الفضيحة التى ليس وراءها فضيحة.

المسألة إذن دقيقة حرجة، ثم إن ثمة شوكة حادة تكمن فى تضاعيفها ـ هى ـ تاريخ قديم يتصل بفهمى، ألا يذكر ياسين ذلك؟ كيف هان عليه أن يرغب فى فتاة تطلع إليها قديمًا أخوه الراحل؟ أليس هذا سلوكًا بغيضًا؟ بل إنه لكذلك وإن كان لا يشك فى إخلاص الشاب لأخيه الراحل، إن منطق الحياة القاسى يقيم عذرًا لأمثاله، إن الرغبة طاغية أعمى لا يرحم وهو أخبر الناس بذلك!

قطب الرجل ليشعره بتضايقه، ثم قال:

ـ إن قلبى لم يرتح لاختيارك، لا أدرى لماذا، كان المرحوم السيد محمد رضوان رجلاً طيبًا حقًا، ولكن الشلل حال بينه وبين رعاية بيته من زمن بعيد سابق لوفاته، لم أقصد بهذه الملاحظة إساءة الظن بأحد، كلا! ولكنه كلام يقال، ربما ردده بعض الناس، هه؟ الأهم عندى أن الفتاة مطلقة، لماذا طلقت؟ هذا سؤال من أسئلة كثيرة ينبغى أن تعلم جوابها، لا يصح أن تأمن مطلقة حتى تستقصى كل شىء عنها، لعل هذا ما أردت قوله، والدنيا ملأى ببنات الناس الطيبين.

قال ياسين متشجعًا بأسلوب أبيه، الذى اقتصر على النقاش والنصح:

ـ بحثت بنفسى وبواسطة آخرين، فتبين لى أن الحق كان على الزوج، إذ كان متزوجًا وأخفى عنهم ذلك، فضلاً عن عجزه عن الإنفاق على بيتين فى وقت واحد وسوء خلقه!

سوء خلقه! إنه يتكلم ـ بلا حياء ـ عن سوء الخلق، البغل يمدك بمادة بكر لمزاح سهرة كاملة! قال:

ـ إذن فرغت من البحث والتقصى!

قال ياسين بحياء، وهو يتهرب من عينى أبيه الحادتين:

ـ تلك خطوة بديهية. .

فسأله الرجل وهو يخفض عينيه:

ـ ألم تدرك أن تلك الفتاة ترتبط بذكريات أليمة لنا؟

اعتراه الارتباك حتى اختطف لونه، وهو يقول:

ـ لم يكن من الممكن أن يغيب عنى هذا، ولكنه وهم لا أصل له، فإنى أعرف عن يقين أن المرحوم لم يهتم بالأمر كله إلا أيامًا معدودات ثم نسيه نسيانًا تامًا، وأكاد أجزم بأنه ارتاح فيما بعد إلى فشل مسعاه إذ اقتنع بأن الفتاة لم تكن طلبته كما توهم. .

ترى: أيقول ياسين الحق، أم يدافع عن موقفه؟ كان نجى المرحوم ولعله الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يزعم أنه مطلع على ما لا علم للآخرين به من خاصة شئونه، فليته كان صادقًا! أجل، ليته كان صادقًا إذن لأعفاه من عذاب يؤرقه كلما ذكر أنه وقف يومًا عثرة فى سبيل سعادة الفقيد أو كلما خطر بباله أنه ربما مات تعيس القلب أو ناقمًا عليه استبداده وتعنته، تلك الآلام التى نهشت قلبه، هل يريد ياسين أن يعفيه منها؟

سأل ياسين بلهفة لم يفطن الشاب إلى عمقها:

ـ أأنت حقًا على يقين مما تقول؟ هل صارحك به؟

ولثانى مرة فى حياته رأى ياسين أباه على حال من الانكسار لم يشهد مثلها إلا يوم مصرع فهمى، وهو يقول له:

ـ كاشفنى الحقيقة عارية عن كل تخفيف، الحقيقة الكاملة، هذا يهمنى فوق ما تتصور، (وكاد يعترف له بألمه، ولكنه أمسك الاعتراف وهو على طرف لسانه). . الحقيقة الكاملة يا ياسين!

فقال ياسين دون تردد:

ـ إنى على يقين مما أقول! خبرته بنفسى وسمعته بأذنى، لا شك فى ذلك مطلقًا! . .

فى ظروف أخرى لم يكن هذا القول ـ ولا أبلغ منه ـ كافيًا لإقناعه بصدق ياسين، لكنه كان فى الحق متعطشا إلى تصديقه، فصدقه وآمن به، وامتلأ قلبه نحوه بامتنان عميق وسلام شامل. لم تعد مسألة الزواج ـ فى تلك اللحظة على الأقل مما يكربه، ولاذ بالصمت مليًا هانئا بالسلام الذى غمر قلبه، ورويدا رويدا!! مضى يسترد شعوره بالموقف ويرى ياسين بعد أن غيبه عن عينيه الانفعال، فعاد يفكر فى مريم وأم مريم وزواج ياسين وواجبه وما يستطيع قوله وما لا يستطيع قوله، قال:

ـ مهما يكن من أمر فإنى أود أن تولى المسألة تفكيرًا أعمق، وحذرًا أشد، لا تتعجل، مد لنفسك فسحة التدبر والمراجعة، إنها مسألة مستقبل وكرامة وسعادة، وإنى على استعداد لأن أختار لك بنفسى مرة أخرى إذا وعدتنى وعد رجل صادق ألا تجعلنى أندم على تدخلى لما فيه صلاحك، هه؟ ما رأيك؟

صمت ياسين متفكرًا، مستاء من تحول الحديث إلى مجرى ضيق محفوف بالحرج، حقًا أن الرجل يتحدث بحلم عجيب، ولكنه لم يخف قلقه وعدم ارتياحه. فإذا أصر على رأيه بعد ذلك فقد يجرهما النقاش إلى شقاق غير مستحب، ولكن هل ينكص تفاديًا من هذه العاقبة؟ كلا! لم يعد طفلاً! سيتزوج بمن يشاء كما يشاء، ولكن فليعنه الله على الاحتفاظ بمودة أبيه! قال:

ـ لا أريد أن أجشمك تعبا جديدًا، شكرًا لك يا بابا، غاية ما أتمنى أن أحظى بموافقتك ورضاك. .

لوح السيد يده فى نفاد صبر، وقال بلهجة لم تخل من حدة:

ـ تأبى أن تفتح عينيك على ما فى رأيى من حكمة. . !

فقال ياسين برجاء حار:

ـ لا تغضب يا بابا، أستحلفك بالله ألا تغضب، إن رضاك بركة، ولا أطيق أن تضن على بها، دعنى أجرب حظى وادع لى بالتوفيق. .

اقتنع أحمد عبد الجواد بأن عليه أن يسلم بالأمر الواقع، فسلم به فى حزن ويأس.. أجل! ربما كانت مريم - رغم استهتار أمها - فتاة شريفة وزوجة صالحة، ولكن لا شك كذلك فى أن ياسين لم يوفق إلى اختيار أصلح الزوجات ولا أفضل البيوت.

الأمر لله، مضى الزمن الذى كان يملى فيه إرادته إملاء فلا يجد رادًا لها، وياسين اليوم رجل مسئول ولن يجنى من محاولة فرض رأيه عليه إلا العصيان.. فليسلم بالأمر الواقع، وليسأل الله السلامة..

عاود النصح والتبصير فلجأ ياسين كرة أخرى إلى الاعتذار والتودد حتى لم يعد ثمة زيادة لمستزيد.. غادر الدكان وهو يقنع نفسه بأنه نال موافقة أبيه ورضاه، على أنه كان يعلم أن الأزمة الخطيرة حقا هى التى تنتظره فى البيت، وكان يعلم أيضًا أنه سيترك البيت حتمًا، لأن مجرد التفكير فى إمكان ضم مريم إلى الأسرة ضرب من الجنون، فرجا أن يتركه بسلام غير مخلف وراءه عداوة أو حقدًا، إذ لم يكن من اليسير عليه أن يستهين بامرأة أبيه أو يتنكر لعهدها وفضلها عليه، لم يكن يتصور أن تدفعه الأيام إلى وقوف هذا الموقف الغريب من البيت وآله، ولكن تعقدت الأمور وضاقت السبل حتى لم يبق من منفذ إلا الزواج. والعجب أنه لم تغب عن فطنته السياسة النسائية التى رسمت للإيقاع به، سياسة قديمة تتلخص فى كلمتين: التودد والتمنع. ولكن الرغبة فى الفتاة كانت قد تسربت إلى دمه ولم يعد بد من إروائها بأى سبيل ولو كان الزواج، وأعجب من ذاك أنه كان يعلم من تاريخ مريم ما يعلمه أفراد أسرته جميعًا - عدا والده بطبيعة الحال - ولكن رغبته طغت فلم يصده ذلك عن فكرته أو يزهده فيها، وقال لنفسه: لمَ أكرب قلبى على ماض فات لست مسئولاً عنه، سنبدأ معًا حياة جديدة، ومن هنا تبدأ مسئوليتى، وإن ثقتى بنفسى لا حد لها، وإذا حدث أن خيبت ظنى نبذتها كما ينبذ الحذاء البالى.. والحق أنه لم يستلهم فيما عزم فكره ولكنه استخدمه فى تبرير رغبته الجامحة التى لا تزدجر، فأقبل على الزواج هذه المرة كبديل من مخادنة امتنعت عليه، غير أن ذلك لا يعنى أنه أضمر نحوه سوءًا أو أنه اتخذه ذريعة مؤقتة لقضاء لبانة، فالحق أيضًا أن نفسه - رغم تقلباتها التى لا تنفك عنها - كانت تهفو إلى حياة الزوجية والبيت المستقر..

مرّ هذا كله بخاطره وهو متخذ مكانه - إلى جنب كمال - بمجلس القهوة، ذلك المجلس الذى يبدو أنه يشهد آخر أيامه فيه، ومضى يجيل طرفه بين كنباته وحصره الملونة والفانوس الكبير المدلى من سقفه فى كثير من الأسى، وكانت أمينة متربعة كعادتها على الكنبة القائمة بين بابى حجرة نوم السيد وحجرة المائدة، عاكفة على المجمرة رغم دفء الجو لتصنع قهوتها، وقد تلفعت بخمار أبيض فوق جلباب بنفسجى نم عن ضمورها، واكتنفها هدوء يشاب عند الصمت بأمارات الحزن، كما الشاطئ إذا استكن شف عما فى

باطنه. شد ما شعر بالأسف والحرج وهو يأخذ أهبته للإفصاح عما فى ضميره، ولكن لم يكن من الإفصاح بد، فقال بعد أن فرغ من احتساء قهوته دون أن يذوق لها طعما:

ـ والله يا نينة لدىّ مسألة أريد أن أستشيرك فيها..

وتبادل مع كمال نظرة دلت على أن الأخير على علم سابق بموضوع الحديث، وأنه يترقب عواقبه باهتمام لا يقل عن اهتمام ياسين نفسه. قالت أمينة:

ـ خير يا بنىّ..

قال ياسين باقتضاب:

ـ قررت أن أتزوج..

فتجلى فى عينيها العسليتين الصغيرتين اهتمام باسم، ثم قالت:

ـ خير ما قررت يا بنى، لا ينبغى أن يطول انتظارك أكثر مما طال.

ثم لاحت فى عينيها نظرة متسائلة، ولكنها بدل أن تفصح عن تساؤلها، قالت وكأنما تستدرجه إلى الاعتراف كأن ثمة سر:

ـ خاطب والدك أو دعنى أخاطبه، ولن يعجزه أن يجد لك زوجة جديدة خيراً من الأولى..

قال ياسين فى رزانة بدت لها أكثر مما يستدعى الأمر:

ـ خاطبت أبى بالفعل، وليس هناك حاجة إلى تكليفه عناء جديداً لأنى اخترت بنفسى، وقد وافق أبى، فأرجو أن أحوز موافقتك أيضًا.

تورد وجهها حياء وسروراً بما أولاها من أهمية، فقالت:

ـ ربنا يوفقك إلى ما فيه الخير، عجل حتى تعمر لنا الدور المهجور، ولكن من بنت الحلال التى قررت أن تتخذها زوجة؟

تبادل مع كمال نظرة أخرى، ثم قال فى عناء:

ـ جيران تعرفينهم!..

ارتسم بين حاجبيها تقطيب التذكر وهى تمد نظرها إلى لا شىء، محركة سبابتها كأنما تحصى من فى مخيلتها من الجيران، ثم قالت:

ـ إنك تحيرنى يا ياسين، هلا تكلمت وأرحتنى!

قال وهو يبتسم ابتسامة شاحبة:

ـ جيراننا الأقربون!.

ـ مَن..؟!

ندت عنها فى إنكار وانزعاج وهى تحملق فى وجهه، فخفض رأسه وأطبق شفتيه متجهم الوجه، فعادت تقول بصوت متهدج، وهى تشير بإبهامها إلى الوراء:

ـ أولئك؟! مستحيل، هل تعنى ما تقول يا ياسين؟!

فأجاب بالصمت المتجهم حتى زعقت:

ـ خبر أسود.. أولئك الذين شمتوا بنا فى أجلّ مصاب؟!

فلم يتمالك أن هتف بها:

ـ أستحلفك بالله ألا ترددى هذا القول، إنه وهم باطل، ولو اقتنع به قلبى لحظة واحدة..

ـ طبعًا تدافع عنهم، ولكنه دفاع لا ينطلى على أحد، لا تتعب نفسك فى إقناعى بالمحال، يا ربى!! أى ضرورة تدعو إلى هذه الفضيحة؟! كلهم نقائص وعيوب، فهل من فضيلة واحدة تبرر هذا الاختيار الجائر؟ قلت إنك نلت موافقة أبيك، الرجل لا يعلم عن هذه الأمور شيئا، قل إنك خدعته..

قال ياسين بتوسل:

ـ هدئى روعك، ليس أكره عندى من إغضابك، هدئى روعك ولنتكلم فى هدوء..

ـ كيف أسمع لك وأنا أتلقى منك هذه اللطمة القاسية؟! قل إن الأمر لا يعدو أن يكون مزاحًا سخيفًا، مريم؟! الفتاة المستهترة التى تعرف من أمرها ما نعرف جميعًا؟.. هل نسيت تاريخها الفاضح؟.. هل نسيت حقا؟ أتريد أن تجىء بهذه الفتاة إلى بيتنا؟!

قال وهو يزفر كأنما يطرد من صدره الكرب والاضطراب:

ـ لم أقل هذا قط، هذا أمر لا أهمية له، المهم عندى حقًا أن تنظرى إلى المسألة كلها نظرة جديدة خالية من التحامل..

ـ أى تحامل يا هذا؟! هل ادعيت عليها بالباطل؟ تقول إن أباك وافق، فهل أخبرته عن عبثها الفاضح مع الجنود الإنجليز؟ ماذا جرى لأولاد الناس الطيبين يا ربى؟!

ـ هدئى روعك، دعينا نتحدث فى هدوء، ماذا يجدى هذا الهياج؟!

صاحت بحدة لم تكن من طباعها فى الزمن الأول:

ـ إن روعى لا يمكن أن يهدأ ما دام الأمر يتعلق بالكرامة.

ثم بصوت باك:

ـ وأنت تسىء إلى ذكرى أخيك الغالى.

ياسين وهو يزدرد ريقه:

ـ أخـى؟ رحـمه الله وأسكنه فسيح جناته، إن هذا الأمر لا يمس ذكراه فى أى شىء، صدقينى فإنى أدرى بما أقول، لا تُقلقى مرقده!

ـ لسـت أنـا التـى أقلق مرقده، إنما يقلق مرقده حقًا أخوه الذى يتطلع إلى هذه الفتاة، أنت تعلم هذا يا ياسين!! ولا تستطيع أن تنكره..

ثم فى انفعال شديد:

ـ لعلك كنت تتطلع إليها حتى فى ذلك الزمن البعيد!

ـ نينة!!

ـ لم تعد لى ثقة فى شىء، كيف تبقى لك ثقة فى شىء بعد هذا الغدر؟! هل ضاقت الدنيا وأقفرت حتى لم تجد من فتياتها زوجة إلا الفتاة التى أدمت قلب أخيك؟ ألا تذكر ما أصابه من حزن وهو يستمع معنا إلى قصة الجندى الإنجليزى؟!..

بسط ياسين ذراعيه فى توسل، قائلاً:

ـ فلنؤجل هذا الحديث إلى وقت آخر، سأثبت لك فيما بعد أن المرحوم لبى نداء ربه وليس فى قلبه أى أثر لهذه الفتاة، أما الآن فلم يعد الجو صالحًا للكلام..

صاحت به غاضبة:

ـ هيهات أن يصلح عندى جو لهذا الكلام، إنك لا ترعى ذكرى فهمى..!

ـ ليتك تتصورين ما يُحدثه فى كلامك من حزن!

صاحت، وقد بلغ بها الغضب منتهاه:

ـ أى حزن؟! إنك لم تحزن على أخيك! من الغرباء من حزن عليه أكثر منك!

ـ نينة!..

وهمّ كمال بالتدخل فى الحديث، ولكنها أسكتته بإشارة من يدها، وهتفت:

ـ لا تدعنى نينة، لقد كنت لك أما حقًا، ولكنك لم تكن لى ابنا ولم تكن لابنى أخا!

لم يعد يحتمل البقاء، فنهض محزونا مكتئبًا، وغادر الصالة إلى حجرته، وما لبث كمال أن لحق به ولم يكن دونه حزنًا وكآبه فقال له:

ـ ألم أحذرك؟..

فقال ياسين مقطبا:

ـ لن أبقى فى هذا البيت دقيقة واحدة بعد الآن..!

فقال كمال بجزع:

ـ يجب أن تعذرها، أنت تعلم أن والدتى لم تعد كما كانت، إن أبى نفسه يغضى عن بعض هفواتها أحيانًا، ما هى إلا غضبة لا تلبث أن تسكت فلا تحاسبها على كلامها، هذا رجائى إليك..

قال ياسين، وهو يتنهد:

ـ لن أحاسبها يا كمال، لن أبيع جميل الأعوام بإساءة ساعة، إنها معذورة كما قلت، ولكن كيف أطالعها بوجهى صباح مساء، وهذا ظنها بى؟

ثم بعد لحظات صمت مشحونة بالكآبة:

ـ لا تصدق أن مريم أدمت قلب المرحوم، لقد استأذن المرحوم يومًا فى أن يخطبها فرفض أبوك، وتناسى المرحوم الأمر حتى نسيه فانتهى كل شىء، فما ذنب الفتاة فى ذلك، وما ذنبى أنا إذا أردت أن أتزوجها بعد ست سنوات من ذلك التاريخ؟!

قال كمال برجاء:

ـ لم تعدّ الحق فيما قلت: وسوف تقتنع نينة به عاجلاً، فأرجو أن يكون كلامك عن عدم البقاء فى البيت مجرد هفوة لسانية. .

فقال ياسين وهو يهز رأسه فى حزن:

ـ أنا أول من يعز عليه هجر هذا البيت، ولكنى سأتركه عاجلاً أو آجلاً ما دام انتقال مريم إليه مستحيلاً، فلا تنظر إلى مسألة ذهابى إلا من هذه الزاوية، سأنتقل إلى بيتى بقصر الشوق، ومن حسن الحظ أن شقة أمى لا تزال خالية، وسأقابل والدى فى الدكان وأوضح له أسباب ذهابى متحاشيًا كل ما يعكر صفوه، لست غاضبًا، سأترك البيت آسفًا عليه كل الأسف، آسفًا على فراق أهله وأولهم نينة، لا تحزن ستعود المياه إلى مجاريها فى وقت قريب، ليس فى هذه الأسرة قلب أسود، وقلب والدتك أنصعها بياضًا. .

ومضى إلى صوان ملابسه ففتحه، وجعل ينظر إلى ملابسه ولوازمه، وتردد قليلاً قبل أن ينفذ ما عقد العزم عليه، فالتفت إلى كمال، وهو يقول:

ـ سأتزوج من هذه الفتاة كما قضت بذلك المقادير، ولكنى ـ علم الله ـ مقتنع كل الاقتناع بأنى لم أسئ إلى ذكرى فهمى، أنت أعلم يا كمال بما كان من حبى له، كيف لا؟ إذا كان هناك من سيساء بهذا الزواج، فهو أنا. . . !

١١

قادت خادم صغيرة ياسين إلى حجرة الاستقبال ثم انصرفت. كان يقوم بزيارة بيت المرحوم السيد محمد رضوان لأول مرة فى حياته، وكانت الحجرة ـ على طراز الحجرات ببيت أبيه ـ واسعة الأركان، مرتفعة السقف، فيها مشربية تشرف على شارع بين

القصرين ونافذتان تطلان على العطفة الجانبية التى يفتح عليها مدخل البيت، وقد فُرشت أرضها ببسط صغيرة، واصطفت فى جوانبها الكنبات والمقاعد، وأسدلت على الباب والمنافذ ستائر من مخمل رمادى باهت من القدَم، وعلى الجدار المواجه للباب عُلقت البسملة فى إطار أسود كبير، بينا توسطت الجدَار الأيمن ـ فوق الكنبة الرئيسية ـ صورة للمرحوم السيد محمد رضوان تمثله فى أوسط العمر . .

اختار ياسين أول كنبة صادفته إلى يمين المدخل، فجلس وهو يتفحص المكان بعناية حتى ثبتت عيناه على وجه السيد محمد رضوان الذى بدا وكأنه يبادله النظر بعينى مريم! ابتسم ابتسامة راضية وراح ينش لا شيء بمنشته العاجية . . ثمة مشكلة قد واجهته مذ فكر فى المجيء لخطبة مريم، هى خلو البيت من جنس الرجال وعدم توفيقه إلى إنابة أحد من جنس النساء عنه، فكانت النتيجة أن جاء وحده كأنه مقطوع من شجرة ـ على حد تعبيره ـ الأمر الذى أخجله بعض الشيء كرجل ورث عن وسطه الاعتزاز بالأهل والأسرة، غير أنه كان مطمئنا من ناحية أخرى إلى أن مريم لا بد وأن تكون قد مهدت له السبيل عند أمها، بحيث إن مجرد إعلان زيارته سيشى بما جاء من أجله، ومن ثم يهيئ له جوا طيبا لإنجاز مهمته.

عادت الخادم إلى الظهور حاملة صينية القهوة، فوضعتها على المنضدة أمامه، وتراجعت وهى تخبره بأن ستها الكبيرة فى الطريق إليه . . . وستها الصغيرة ترى هل علمت بحضوره؟ وما صدى ذلك فى نفسها الرقيقة؟ سوف يحملها بحسنها إلى قصر الشوق، ولتفعل بنا القوة ما تشاء! من كان يظن لأمينة هذه القدرة على الغضب؟ كانت فى وداعة الملاك. قاتل الله الحزن!! كذلك غضب أبوه وهو يعترف له فى الدكان بأنه هجر البيت ولكن غضب رحيم كشف عن تأثره وحزنه. ترى: هل تطلعه أمينة على تاريخ مريم؟ غضب الثكلى شيء مخيف، ولكن كمال وعد بأن يحملها على السكوت . . فى قصر الشوق صادفتك أول مفاجأة سعيدة فى هذا الجو العاصف!! هو موت الفكهانى وحلول ساعاتى محله، إلى القبر . . ! سمع نحنحة عند الباب، فاتجه بصره إليه وهو ينهض، وما لبث أن رأى ست بهيجة وهى تدخل بجنبها، إذ إن مصراع الباب المفتوح لم يكن ليتسع لها إذا دخلت بعرضها، ولمح عن غير قصد الخطوط التى تحد تفاصيل جسمها الجسيم، فلم يتمالك من العجب عندما مرت أمام عينيه عجيزتها التى كادت قمتها تبلغ منتصف ظهرها ويفيض أسفلها على فخذيها، فكأنها كرة منطاد!! وأقبلت نحوه فى خطوات متمهلة ناءت بقناطير اللحم والشحم، ثم مدت له يداً بضة بيضاء برزت من كم فستانها الأبيض الفضفاض، وهى تقول:

ـ أهلا وسهلاً، شرفت ونورت . .

فصافحها ياسين بأدب، ولبث واقفًا حتى جلست على الكنبة المجاورة فجلس . . كان يراها عن كثب لأول مرة، إذ إن علاقتها القديمة بأسرته واكتسابها مع الأيام منزلة أشبه بمنزلة الأم فى السن والاحترام حملاه على تجنب تفحصها ـ كما يفعل مع غيرها من النساء ـ كلما لمحها عن بُعد فى الطريق، لذلك خيل إليه أنه عثر على كشف جديد. وكانت ترتدى فستانا قد غطى على جسمها من العنق إلى ما فوق القدمين، وحتى القدمان وارتهما فى جورب أبيض رغم دفء الجو، بينا امتد كُمّا الفستان على ذراعيها وساعديها حتى المعصمين، ولفّت رأسها وعنقها بخمار أبيض طرح ذيله العريض على أعلى الصدر والظهر فبدت فى احتشام يناسب المقام ويوافق العمر الذى قارب الخمسين ـ فيما علم ـ وإن تبدت فى صحة ريانة تنطق بصفاء المزاج وشباب القلب. ولاحظ فيما لاحظ أنها تطالعه بوجه طبيعى لم يمسه زخرف أو زواق رغم ما عُرف عنها من حب التبرج وإتقان التزين، الأمر الذى نصبها من قديم مرجعًا لكل ما يتعلق بالذوق النسائى من ملبس وزواق فى الحى كله. وذكر بهذه المناسبة كيف كانت أمينة تدافع عن هذه المرأة كلما عنَّ لأحد أن ينتقد إفراطها فى التبرج، ثم كيف انقلبت تحمل عليها لأتفه الأسباب فى السنوات الأخيرة رامية إياها بقلة الحياء وتجاهل ما يستوجبه عمرها من احتشام.

ـ خطوة عزيزة يا ياسين أفندى . .

ـ الله يكرمك!!

كاد يختم جملته بقوله «يا تيزة» ولكن إحساسًا غريزيًا خوفه فى اللحظة الأخيرة من النطق بها، خاصة وأنه لاحظ أنها لم تدْعُه بيا «ابنى» كما كان المنتظر، وعادت المرأة تسأل.

ـ كيف حالكم؟، والدك وأم فهمى وخديجة وعائشة وكمال؟

أجاب، وهو يشعر بحياء لسؤالها عن الذين ناصبوها العداء بلا سبب وجيه :

ـ كلهم بخير، سألت عنك العافية . .

لا شك أنها تفكر الآن فى الجفاء الذى قوبلت به فى بيت أبيه عقب وفاة فهمى فاضطرها إلى الانقطاع عن أسرته بعد معاشرة دامت العمر كله. يا له من جفاء!! بل يا لها من عداوة صامتة!! لم يكن إلا أن أعلنت امرأة أبيه يومًا أن «شعورها» يحدثها بأن مريم وأمها لم يصدقا فى حزنهما على فهمى! . . لمَ كفى الله الشر؟ قالت إنه من غير المعقول أن يكون رفض السيد لخطبة مريم لم يبلغهما فى حينه عن طريق أو آخر أو حتى استنتاجًا، ومن غير المعقول أن تعلما به ولا تضطغناه عليهم! ورددت كثيراً أنها سمعت أن مريم تندب فهمى فى المأتم فتقول : «أسفى على شبابك الذى لم تتمتع به» فترجمتها إلى «أسفى على شبابك الذى وقف أهلك فى سبيله فلم تتمتع به!». وزادت على ذلك

ما شاء لها حزنها وقهرها، ولم تنفع معها حيلة فى تحولها عن «شعورها»، وسرعان ما تغير سلوكها نحو مريم وأمها حتى كانت القطيعة! . . قال وهو لم يزل تحت تأثير الحياء والحرج :

ـ لعن الله الشيطان!

فقالت بهيجة مؤمّنة على قوله :

ـ ألف لعنة! . . طالما ساءلت نفسى عما جنيت حتى ألاقى ما لاقيت من الست أم فهمى، ولكنى أعود فأدعو لها بالصبر . . المسكينة!

ـ جزاك الله كل خير على نبل خلقك وطيبة قلبك، حقًا إنها مسكينة وفى حاجة إلى الصبر!!

ـ ولكن ما ذنبى أنا؟!

ـ لا ذنب لك، إنه الشيطان لعنة الله عليه.

هزت المرأة رأسها هزة الضحية البريئة، وصمتت قليلاً، حتى حانت منها التفاتة إلى فنجال القهوة الذى بدا كالمنسى على صينية القهوة، فقالت وهى تومئ إليه :

ـ ألم تشرب قهوتك بعد؟

فرفع ياسين الفنجال إلى فيه، وحسا الحسوة الأخيرة، ثم أعاده إلى الصينية، وتنحنح قليلاً، ثم أنشأ يقول :

ـ شد ما ساءنى ما انتهت إليه صداقة الأسرتين، ولكن ما باليد حيلة، على أى حال ينبغى أن نتناسى ذلك تاركين أمره للزمن، والواقع أننى لم أكن أحب أن أثير أسيف الذكريات، فما لهذا جئت، إنما جئت لغرض آخر هو أبعد ما يكون عن الذكريات الأسيفة . .

هزت المرأة رأسها هزة كأنما تطرد الذكريات الأسيفة، ثم ابتسمت ابتسامة استعداد لسماع جديد، كانت تهز رأسها وابتسامتها كالآلة الموسيقية المصاحبة للمغنى إذا غيرت عزفها تمهيداً لدخول المغنى فى طبقة جديدة من النغم، قال ياسين مستمداً من ابتسامتها طلاقة :

ـ أنا نفسى لا تخلو حياتى من ذكريات أسيفة تتصل بحياتى الماضية . . أعنى تجربتى الأولى فى الزواج الذى لم يوفقنى الله فيه إلى بنت الحلال! ولكنى لا أريد أن أرجع إلى ذلك، الواقع أننى جئت بعد أن عزمت ـ متوكلاً على الله ـ على فتح صفحة جديدة مستبشراً الخير كله فيما اعتزمت . .

التقت عيناهما على الأثر فطالع فيهما الترحيب الجميل . . ترى : هل كان موفقًا فى الإشارة إلى زواجه الأول؟ ترى ألم يترام إلى سمع هذه المرأة شىء عن الأسباب الحقيقية

لفشل ذلك الزواج؟ لا تشغل بالك، إن ملامحها الجميلة توحى بالتسامح إلى غير حد، ملامحها الجميلة!! أليس كذلك؟ بلى، لولا فارق السن لكانت أجمل من مريم، كانت بلا مراء أجمل من مريم فى شبابها الذاهب... كلا! إنها أجمل من مريم رغم فارق السن!.. إنها لكذلك!..

- أظنك فطنت إلى مقصدى، أعنى إلى أننى جئت طالبا يد كريمتك مريم هانم..

أضاء الوجه الرقراق ابتسامة بثت فيه حيوية جديدة، وقالت:

- لا يسعنى إلا أن أقول أهلا وسهلا، نعم الأسرة ونعم الرجل، أمس أوقعنا سوء الحظ فيمن لاخلاق له، اليوم يسعى إلى مريم رجل جدير حقًا بإسعادها، وستكون بفضل الله جديرة بإسعادة، ونحن - مهما فرق بيننا سوء التفاهم - أسرة واحدة من قديم الزمن..

اغتبط ياسين حتى راحت أصابعه تسوى البابيون بلمسات سريعة غير مقصودة، ثم قال وقد تورد وجهه الأسمر الجميل:

- أشكرك من صميم قلبى، جزى الله عنى لسانك الحلو، نحن أسرة واحدة كما قلت رغم أى شىء، ومريم هانم فتاة يزدان بها حينا كله أصلاً وخلقًا، أرجو أن يعوضها الله من صبرها خيراً وأن يعوضنى بها من صبرى خيراً.

غمغمت «آمين» وهى تنهض، ثم أقبلت بجسمها المفتخر نحو المنضدة، فتناولت صينية القهوة وهى تنادى ياسمينة، ثم استدارت حاملة إياها فأعطتها الخادمة التى جاءت على عجل، ولفتت عنقها فجأة لتقول له «آنستنا» فباغتته وهو يحملق فى ردفيها الثقيلتين!!.. وشعر لتوه بأنه «ضُبط فى حالة تلبس» فبادر بخفض عينيه ليوهمها بأنه كان ينظر إلى الأرض، ولكن بعد فوات الأوان!.. وارتبك وجعل يسأل نفسه عما عسى أن تظن به، ثم اختلس منها نظرة بعد أن عادت إلى مجلسها فلمح على شفتيها ابتسامة خفيفة كأنما تقول له «رأيتك». لعن عينيه اللتين لا تعرفان الحياء، وتساءل عما يمكن أن يكون قد دار فى رأسها.. أجل إنها تحاول أن تبدو كأنها لم تر شيئًا، ولكن هيئتها - بعد ابتسامتها - تقول له أيضًا «رأيتك!». لينس الهفوة فهذا خير حل، ولكن هل تصير مريم مثل أمها يوما ما؟ متى يجىء هذا اليوم؟! للأم مزايا لا يجود بها الزمان إلا فى النادر، يا لها من امرأة!! إن خير وسيلة لتغيير أفكاره وتبديد سحابة الشك هى أن يمزق الصمت، قال:

- إذا حاز طلبى القبول، فستجدينى رهن إشارتك لمناقشة التفاصيل الهامة..

ضحكت ضحكة قصيرة، فبدا وجهها فى إشراقتها لطيفا شابا، وقالت:

- كيف لا يحوز القبول يا ياسين أفندى؟! أصل وجوار على رأى المثل..

قال، وقد تورد وجهه:

ـ إنك تأسرينني بلطفك!

ـ ما عدوت الحق، والله شهيد!

ثم متسائلة بعد فاصل صمت قصير:

ـ هل تمت موافقة البيت؟

تجلت فى عينيه نظرة جد لحظة، ثم ضحك ضحكة فاترة من أنفه، وقال:

ـ دعينا من البيت وسيرته!

ـ لِمَ كفى الله الشر؟

ـ لَيس البيت على ما يرام!

ـ ألم تشاور السيد أحمد؟

ـ أبى موافق..

فضربت يدا على يد، و قالت:

ـ فهمت، أم فهمى؟! أليس كذلك؟! إنها أول من تبادر إلى ذهنى وأنت تفاتحنى بالموضوع، طبعًا لم توافق، هه؟ سبحان الذى لا يتغير، امرأة أبيك امرأة غريبة!

هز كتفيه استهانة، وهو يقول:

ـ لا يقدم هذا ولا يؤخر..

قالت متشكّية:

ـ طالما ساءلت نفسى عما جنيت؟ أى إساءة أسأت بها إليها!

ـ لا أحب أن أقدم على حديثنا حديثًا آخر لا يجنى منه الإنسان إلا وجع الدماغ، ليكن ظنها ما يكون، المهم أنى ماض إلى هدفى، ولا يعنينى إلا موافقتك أنتِ..

ـ إذا لم يتسع لك بيتك فبيتنا تحت أمرك..

ـ شكرًا.. لدىّ بيتى بقصر الشوق بعيدًا عن الحى كله، أما بيت أبى فقد غادرته من أيام..

ضربت صدرها بيدها هاتفة:

ـ طردتك!..

قال ضاحكا:

ـ كلا لم يبلغ الأمر إلى هذا الحد، المسألة وما فيها أن اختيارى آلمها لأسباب قديمة لها صلة بالمرحوم أخى (هنا نظر إليها نظرة ذات معنى)، ومع أننى لم أجد فى معارضتها وجه حق مقنع، فإننى رأيت من اللياقة أن أعد للزوجية بيتا جديدًا..

سألته، وهى ترفع حاجبيها وتهز رأسها فيما يشبه الشك:

ـ لمَ لمْ تنتظر فى بيتك حتى يحين ميعاد الزواج؟

فضحك ضحكة تسليم، وقال:

ـ آثرت الابتعاد خوفًا من تفاقم الخلاف!

فقالت كالمتهكمة:

ـ ربنا يصلح الحال..

وقامت مرة أخرى قبل أن تتم جملتها، فاتجهت إلى النافذة المطلة على العطفة الجانبية وفتحتها لتفتح لنور الأصيل بعد أن بات باب المشربية غير كاف لإضاءة الغرفة، وجد نفسه على رغمه وحذره يسترق النظر إلى كنزها النفيس وهو يطّالعه كالقبة. رآها وهى تعتمد على الكنبة بركبتها ثم تميل على حافة النافذة لتشبك مصراعيها فرأى منظرًا عجبًا ترك فى نفسه أثرا داميًا. تساءل وهو يشعر بجفاف حلقه: لمَ لمْ تدع الخادمة لتفتح النافذة؟ كيف ارتضت أن تعرض أمام ناظريه ـ اللذين باغتتهما منذ قليل فى حالة «تلبس» ـ هذا المنظر الذى لا يخفى عنها مغزاه؟ لم وكيف وكيف ولم؟ كان فيما يتصل بالنساء مرهف الحس سيئ الظن، فلاح له شىء كالشك يتردد على عتبة إدراكه لا يريد أن يدخل ولا يريد أن يختفى، ولكنه بادر فأغمض عينيه متأثرًا بخطورة الموقف. إما أن يكون مجنونًا وإما أن تكون ـ هى ـ المجنونة، أو فلا هذا ولا ذاك؟ من له بمن ينتشله من حيرته! استقام جسمها المائل، فوقفت، ثم تحولت عن النافذة متجهة إلى مجلسها. فبادر إلى رفع عينيه صوب البسملة ـ قبل تحولها ـ متظاهرا بالاستغراق فى تفحصها، ولم يلفت رأسه نحوها حتى صدرت عن الكنبة طقطقة تنبئ بجلوسها، وعند ذاك التقت عيناهما، فرأى فى عينيها نظرة باسمة ماكرة أشعرته بأنه لم تخفَ عنها خافية، وكأنها تقول له بأفصح لسان «رأيتك!». لبث حينا مضطرب النفس والخاطر، ولم يكن على بينة من شىء فخاف أن يكون ظلمها أو أن يكون عرّض نفسه أمامها للاتهام، وبدا له أنه سيحاسب على كل حركة تبدر منه، وأن أى هفوة قد تنقلب فضيحة.

ـ ما زال الجو مائلا إلى الحرارة والرطوبة..

جاء صوتها هادئًا طبيعيا، ودل ـ إلى ذلك ـ على رغبتها فى إزاحة الصمت، فقال بارتياح:

ـ أجل إنه كذلك..

عاودته الطمأنينة، غير أنه ما لبث أن تخايل لعينيه المنظر الذى رآه عند النافذة، وجد نفسه على رغمه يجتره ويتيه فى جاذبيته، ويتمنى لو كان عثر على مثله فى إحدى مغامراته. لو كان لمريم مثل هذا الجسم! ألا فى مثله فليتنافس المتنافسون. ولعلها ظنته ـ

لصمته ـ لا يزال مشغولاً بما أثارته من حديث خلافه مع امرأة أبيه ، فقالت فيما يشبه الدعابة :

ـ لا تشغل بالك ، لا شيء في هذه الدنيا يستحق شغلة البال !

ثم لوحت بيديها ورأسها ـ واهتز جسمها فيما بين ذلك اهتزازة خاصة ـ كأنما لتحثه على الاستهانة بالهموم ، فابتسم مطاوعًا وهو يغمغم : «نطقت بالحق» . غير أنه كان يبذل قصاراه ليملك نفسه . أجل فقد حدث أمر جلل . لم يكن في ظاهره إلا تلك الحركة الشاملة التي أرادت بها الإفصاح عن الاستهانة وحثه عليها ، إلا أنها كانت حركة بالغة الخطورة من حيث دلالتها على الخلاعة والدلال والاستهتار ، وقد ندت عنها في لحظة نسيان فخرجت بها عما التزمته طوال الجلسة من تأدب واحتشام وكشفت عن خبيئة طبيعتها وهي لا تدري ، أو وهي تدري؟ لا يستطيع أن يقطع بهذا أو بذاك ولكنه لم يعد به شك في أنه حيال امرأة جديرة حقًا بأن تكون أم مريم ذات التاريخ القديم! أبى أن يتراجع عن رأيه مهما يكن من أمر ، فهذه الحركة الراقصة المغناج لا يمكن أن تصدر عن سيدة مصون! ولم يكن إزعاجه إلا لحظة عابرة ، فسرعان ما حل محله إحساس بسرور شهواني ماكر ، وراح يتذكر أين ومتى رأى هذه الحركة من قبل ، على زنوبة؟ جليلة ليلة اقتحمت على أبيه المنظرة ببيت آل شوكت؟ آه . . هذه هي! . وخيل إليه أنها رغم سنها أشهى من مريم وألذ ، وغلبته فطرته فحدثته نفسه بأن يجس النبض وألا يقف إن أمكن عند حد! وشعر برغبة في الضحك من غرابة أفكاره ، وبأنه سيسلك طريقا وعرا لم يطرق من قبل ، ولكنه لم يعتد يومًا أن يزجر النفس عن هوى . . أين يتأدى به هذا المسلك؟ هل يمكن أن يعدل عن مريم إلى أمها! كلا! إنه لا يضمر ذلك قط ، ولكن تصوروا كلبا قد عثر على عظمة وهو في طريقه إلى المطبخ فهل يتعفف؟ . . بيد أنها مجرد أفكار وتخيلات وفروض! فلأنتظر! . . وتبادلا ابتسامة في الصمت الذي عاد فسحب ذيله بينهما ، أما ابتسامتها فكانت فيما بدا تحية مضيف لضيف ، وأما ابتسامته فقد انفغمت على فم حائر بهمسات الاعتداء المختنق .

ـ نورت بيتنا يا ياسين أفندي . .

ـ ياستي بيتك لا ينقصه النور ، أنت تنورين البلد وما فيها . .

ضحكت ضحكة مالت برأسها إلى الوراء ، وهي تتمتم :

ـ الله يكرمك يا ياسين أفندي! . .

كان ينبغي أن يعود إلى الحديث عن طلبه أو أن يستأذن في الانصراف على أن يسمي موعدا آخر لمواصلة الحديث ، ولكنه لم يعد إلى الحديث ولم يتسأذن في الانصراف . . بل راح يحدجها بنظرات ريبة تطول حينا وتقصر حينا دون انقطاع وفي صمت مريب .

النظرات معان لا تخفى على ذى عينين!! لا بد من إيصال أفكاره إليها بالنظرات وحدها حتى يرى رد الفعل. . اعرف لقدمك قبل الخطو موضعها وليسقط ألّلنبى، خذى هذه النظرة النارية وخبرينى إن كنت صادقة عن أى مجنون يسعه أن يتجاهل سوء مقصدها أو يدعى براءتها؟ انظر هاهى ترفع عينيها وتخفضهما كالشاردة وعلى حال بينة من الفهم المريب، تستطيع الآن أن تقول إن الفيضان وصل إلى أسوان وأنه لا مناص من فتح الخزان، وأنت تخطب إليها ابنتها؟! مجنون من لا يؤمن بالجنون بعد اليوم، أنت الآن أشهى شيء إلى نفسى، وليكن بعد ذلك الطوفان. . منظرك لا يوحى باليأس أبدا!

ـ هل تقيم فى قصر الشوق بمفردك؟

ـ نعم. .

ـ قلبى عندك. .

جملة قد تصدر عن شيطان، وقد تصدر عن ملاك، ترى هل تتنصت مريم الآن وراء الباب؟

ـ أنت جربت الوحدة بنفسك فى بيتك هذا، إنها شىء لا يُحتمل!. .

ـ حقا لا يُحتمل!

وفجأة امتدت يدها إلى خمارها فنزعته من حول رأسها وعنقها وهى تقول كالمعتذرة «لا تؤاخذنى الدنيا حارّة». فبدا رأسها فى منديل برتقالى وأسفر عنقها الوضىء. رنا إلى عنقها مليا فى قلق متزايد، ثم لحظ الباب كالمتسائل عمن عسى أن يكون رابضا وراءه. . أغيثوا الذى جاء يخطب البنت فوقع فى الأم. وقال ردًا على اعتذارها:

ـ خذى راحتك، أنت فى بيتك، ولا غريب فى البيت. .

ـ ليت أنّ مريم كانت فى البيت لأزف إليها الخبر!

خفق قلبه خفقة حادة كإشارة الهجوم، وتساءل:

ـ وأين هى؟

ـ عند جماعة من معارفنا فى الدرب الأحمر.

وداعا يا عقلى! خاطب بنتك يريدك وأنت تريدينه، ليرحم الله من يحسنون الظن بالنساء، لا يمكن أن يكون فى رأس هذه المرأة عقل، جارة العمر ولا تعرفها إلا اليوم!. . مجنونة. . مراهقة فى الخمسين!. .

ـ متى تعود مريم هانم؟

ـ قبيل المساء. .

قال بخبث:

ـ أشعر بأن زيارتى قد طالت . .

ـ لم تطل زيارتك، أنت فى بيتك . .

فسألها بخبث أيضًا :

ـ ترى هل أطمع فى أن تردى لى الزيارة؟

فابتسمت ابتسامة عريضة، كأنما تقول له «إنى أدرك ما وراء هذه الدعوة»، ثم أطرقت فى حياء وإن لم يغب عنه ما فى حركتها من تمثيل، ولكنه لم يبالها، وراح يصف لها موقع بيته من الحارة وموضع شقته من البيت، وهى مطرقة صامتة باسمة. ترى ألم تشعر بأنها تسىء إلى ابنتها أبلغ إساءة، وأنها تعتدى عليها أنكر اعتداء؟!

ـ متى تتكرمين بالزيارة؟

غمغمت وهى ترفع وجهها :

ـ لا أدرى ماذا أقول!

فقال بتوكيد وثقة :

ـ أقول أنا بالنيابة عنك، مساء الغد، ستجديننى فى انتظارك!

ـ ثمة أمور يجب أن نعمل حسابها! .

ـ سنعمل حسابها معًا . . فى بيتى!

وقام من فوره وهم بأن يتقدم نحوها، فأشارت إليه وهى تلتفت نحو الباب محذرة، ثم قالت وكأنما لا تقصد إلا التفادى من صولته :

ـ غدًا مساء . . !

١٢

وعرف بيت قصر الشوق بهيجة زائرة مواظبة. كانت إذا نشر الظلام ستاره، تتلفع بملاءتها، وتمضى إلى الجمالية، فإلى بيت هنية . . وهنالك تجد ياسين فى انتظارها بالحجرة الوحيدة المفروشة فى الشقة. لم يجر لمريم ذكر بينهما إلا حين قالت له مرة :

ـ لم أستطع أن أخفى عن مريم نبأ زيارتك، لأن خادمتنا تعرفك، ولكنى قلت لها : إنك فاتحتنى برغبتك فى خطبتها بعد تذليل العقبات التى تعترض سبيلك فى محيط الأسرة!

ووجد نفسه مذهولاً عن مناقشتها، فأبدى موافقته واستحسانه. واستقبلا معًا حياة

حافلة بالمتع، وجد ياسين ذات «الكنز» ملبية بين يديه، فانطلق انطلاق الجواد الجامح، ولم تكن الحجرة التى أثثت على عجل واقتصاد بالمكان الصالح لمطارحة الغرام، ولكنه لم يألُ عن تهيئة الجو الخلاب بتوفير الطعام والشراب حتى يطيب له الوصال فيواصل صولاته بذلك النهم الغريزى الذى لا يعرف حدا أو اعتدالاً. وما لبث أن أدركه الملال قبل أن يتم الأسبوع الأول دورته. هى نفس الحلقة التى تدور فيها شهوته حتى غدا الدواء نوعًا من الداء بيد أنه لم يؤخذ على غرة، كلا! ولم يضمر نحو تلك العلاقة الغريبة من بادئ الأمر أى نية حسنة ولا قدر لها أى دوام، بل لعله لم يبلغ من وراء المغازلة فى حجرة الاستقبال إلا ضجعة عابرة، غير أنه وجد من المرأة تعلقا به وحرصًا عليه وأملاً فى أن يكون قنع بها راضيا وعدل عن مشروع الزواج، فلم ير بدا من مجاراتها كيلاً يفسد على نفسه لذتها مؤمنا بأن الزمن وحده كفيل بإرجاع كل شىء إلى أصله! وما أسرع أن رجع كل شىء إلى أصله بالنسبة إليه هو، بل ربما أسرع مما قدر، وكان جاراها وهو يظن أن جدة محاسنها خليقة بأن تحتفظ برونقها أسابيع أو شهراً، ألا يا ربما كذب الظن!.. أما عن مظهرها الشهى فبحسبه أن جعله يرتكب أكبر حماقة فى حياته العامرة بالحماقات، ولكن الكهولة تكمن وراء ذلك كما تكمن الحمى وراء تورد الخدين الكاذب، وإن القناطير المقنطرة من اللحم البشرى المتحبكة تحت طيات الثياب ـ على حد قوله ـ غيرها إذا تجردت، للعيان، وليس كاللحم البشرى مسجل لآثار العمر الحزينة، حتى قال لنفسه «الآن أدرك لماذا تعبد النساء الملابس!» لم يكن عجيبا بعد ذلك أن يقول عنها وقد ضاق باندلاقها عليه إنها «مرض»، وأن يجمع العزم على قطع علاقته بها. وعادت مريم ـ بعد خمود النزوة الجنونية ـ إلى سابق مكانتها من نفسه، كلا، لم تكن بارحتها، ولكن النزوة الطارئة غشيتها كما تغشى السحابة العجلى وجه القمر، عجبًا! لم تعد رغبته فى مريم مجرد استجابة لولعه الخالد بجنسها وإن غلب ذلك عليها، ولكنها أرضت من ناحية أخرى حنينه إلى تكوين الأسرة التى كان يعتدها مصيراً محتوما ومرغوبًا فيه أيضا! واستوصى بالصبر ـ كارها ـ على أن تثوب بهيجة إلى رشدها، أن تقول له يومًا «حسبنا لعبا وهلم إلى عروسك» ولكنه لم يجد لأمله صدى فى نفسها، كانت تواظب على الزيارة ليلة بعد أخرى، وما تزداد إلا إغراقًا وتهالكًا، وشعر بأنها تمتلئ مع الزمن إيمانًا بحقها عليه كأنه بات محور حياتها وملك يمينها.

أجل! لم تكن تنظر إلى الأمر بعين الاستهانة أو اللهو، وإلى هذا تكشفت نفسها له عن خفة وطيش ونزق أقنعته جميعًا بأن سلوكها الشاذ معه فى أول مقابلة لم يكن أمرا مستغربًا، فاستهان بها وازدراها وتضخمت عيوبها فى عينيه الزاريتين حتى ضاق بها كل الضيق وصمم على التخلص منها فى أول فرصه تسنح، وإن حرص على تجنب الفظاظة أن تبعثر العراقيل فى طريق مريم. قال لها مرة:

ـ ألا تتساءل مريم عن سر اختفائى؟

فقالت وهى تطمئنه بحركة من رأسها :

ـ إنها على بينة من معارضة أسرتك .

فقال بعد تردد :

ـ أصارحك بأننا كنا نتحادث أحيانًا فوق السطح ، وإنى رددت لها مرات بأننى مصمم على الزواج منها مهما يكن من معارضة المعارضين .

فحدجته بنظرة نافذة ، وهى تتساءل :

ـ ماذا تريد؟

قال متظاهرا بالبراءة :

ـ أريد أن أقول إنها سمعت منى ذلك التوكيد ، وأنها علمت بعد ذلك بزيارتى لك ، فينبغى أن تقتنع بسبب وجيه لاختفائى ! . .

فقالت بغير مبالاة أدهشته :

ـ لن يضيرها ألا تقتنع ، فليس كل كلام بمفض إلى خطبة ولا كل خطبة بمفضية إلى زواج ، إنها تعلم علم اليقين . . .

ثم بصوت منخفض :

ـ ولن يضيرها أن تفقدك ، إنها شابة فى عز جمالها ، ولن تعدم خاطبًا اليوم أو غدًا ! . .

كأنها تعتذر عن أنانيتها ، أو تلمح إلى أنها هى ـ لا ابنتها ـ التى يضيرها فقده ، فلم يزده قولها إلا ضيقًا وملالاً ، إلى أنه أخذ يتوجس خيفة من معاشرة امرأة تكبره بعشرين عامًا ، متأثرًا بما يتردد بين العامة من أن مخادنة الكهلات تذبل الشبان ، حتى شحنت ساعات اللقاء ـ من ناحيته ـ بالتوتر والحذر فمقتها مقتًا . . وإنه لعلى ذلك إذ صادف مريم يومًا فى السكة الجديدة ، فتقدم منها دون تردد ، وسلم عليها ، وسار إلى جانبها كأنه من ذوى قرباها ، كانت قلقة عابسة ، فأخبرها بأنه كان يقنع والده بالموافقة حتى ظفر بها ، وأنه يعد مسكنه بقصر الشوق ليكون صالحًا لهما ، واعتذر عن طول غيبته بكثرة مشاغله ، ثم قال لها : «أخبرى والدتك بأننى سأجىء غدا لمقابلتها للاتفاق على عقد القران ! » ومضى سعيداً بانتهاز الفرصة التى سنحت على غير ميعاد ، غير عابئ ـ فى غمرة السعادة ـ بما سيكون موقف بهيجة منه . وفى مساء ذلك اليوم جاءت بهيجة فى ميعادها إلى قصر الشوق ، ولكنها جاءت هذه المرة منفعلة كسيرة النفس ، بادرته هاتفة قبل أن ترفع برقعها :

ـ بعتنى غيلة وغدرا . .

ثم انحطت على الفراش، وهى تنزع برقعها فى نرفزة، وتقول:

- لم يطف بخاطرى أنك تضمر لى هذا الغدر كله، ولكنك جبان غادر كسائر الرجال..

قال ياسين برقة المعتذر:

- ليس الأمر كما تتصورين، الحق أنى قابلتها صدفة..

فصاحت بوجه مكفهر:

- كذاب! كذاب! وحق من هو قادر على أن يرينى فيك ما أشتهى. هل تظننى أصدقك ما حييت بعد ما كان (ثم وهى تحاكيه محاكاة كاريكاتورية) الحق أنى قابلتها صدفة أى صدفة يا عمر؟! وهبها صدفة حقا، فلمَ كلمتها فى الطريق أمام الرائح والغادى؟ اليس هذا فعل الغادر السيئ النية؟ (ثم وهى تعود إلى المحاكاة الكاريكاتورية) الحق أنى قابلتها صدفة..!

فقال فى شىء من الارتباك:

- وجدتنى معها فجأة - وجها لوجه - فامتدت يدى بالسلام عليها! ما كان بوسعى تجاهلها بعد ما كان من تحادثنا فوق السطح.

فصاحت به بوجه مصفر من الغضب:

- فامتدت يدى بالسلام عليها! اليد لا تمتد إلا إذا مدها صاحبها، قطعت اليد وصاحبها، قل إنك مددت يدك إليها لتتخلص منى..

- لم يكن من السلام بد، أنا إنسان وفى وجهى دم!

- دم؟! أين هو ذاك؟ دم يلطشك يا غادر يا بن الغادر..

ثم بعد أن ازدردت ريقها:

- ووعدك إياها بالمجىء للاتفاق على عقد القران، هل أفلت منك أيضًا كما أفلتت يدك؟.. تكلم ياسى دم..

قال بهدوء عجيب:

- إن كل الحى يعلم الآن بأنى هجرت بيت أبى لأتزوج من ابنتك، فلم يكن من المستطاع تجاهل ذلك وأنا أحدثها..

فصاحت بحدة:

- كان بوسعك أن تنتحل من الأعذار ما تشاء لو كانت بك رغبة إلى ذلك، لست ممن يعيبهم الكذب، ولكنك أردت التخلص منى، هذه هى الحقيقة..

قال وهو يتحاشى نظرتها:

ـ ربنا يعلم بحسن نيتى!

فحدجته بنظرة طويلة، ثم سألته فى تحد:

ـ أتعنى أنك تورطت فى وعدك لها على غير رغبة منك؟

أدرك خطورة التسليم بذلك، فغض بصره ولاذ بالصمت، فقالت وهى تزفر من الغيظ:

ـ أرأيت أنك كذاب كما قلت لك؟

ثم صارخة:

ـ أرأيت؟! أرأيت يا غادر يا بن الغادر؟!

قال بعد تردد:

ـ إن سرا لا يمكن أن يخفى إلى الأبد، تصورى ماذا يقول الناس لو كشفوا سر علاقتنا، بل تصورى ماذا تقول مريم!

فصرفت بأسنانها من الحنق، وقالت:

ـ يا لك من خنزير! لمَ لمْ تذكر هذه الاعتبارات يوم وقفت أمامى سائل اللعاب كالكلب؟ آه يا جنس الرجال، جهنم الحمراء عقوبة تافهة لكم!

ابتسم خفيفًا، وكان أوشك أن يضحك لولا فرملة الجبن، ثم قال بتودد ورقة:

ـ لقد قضينا وقتًا طيبًا سوف أذكره دائمًا بكل خير، حسبك غضبًا واستياء، ما مريم إلا ابنتك، وإنك أول من يروم سعادتها..

وهى تهز رأسها بتهكم:

ـ أأنت الذى ستسعدها؟! اسمعى يا حيطان، المسكينة لا تدرى أى إبليس ستتزوج، أنت دائر ابن دائرة، وربنا يكفيها شر ما وقعت فيه..

قال بهدوئه الذى التزمه من أول الأمر:

ـ عند ربنا الصلاح، إنى أرغب رغبة صادقة فى بيت مستقر، وزوجة بنت حلال!!

قالت هازئة:

ـ أقطع ذراعى إن صدقت، سوف نرى، لا تظن بأمومتى الظنون، إن سعادة ابنتى مقدمة عندى على كل اعتبار، ولولا أنك خدعتنى وغدرت بى ما كان يهمنى أن أهديك إليها على الحذاء!

ساءل ياسين نفسه: ترى هل مرت الأزمة بسلام؟ وانتظر أن تلبس برقعها وتودعه، ولكنها لم تحرك ساكنًا، ومضى الوقت ـ وهى بمجلسها من الفراش، وهو بمجلسه على الكرسى قبالتها ـ لا يدرى كيف، ولا متى تتقوض هذه الجلسة الغريبة المتوترة، واسترق

النظر إليها، فوجدها ترنو إلى الأرض كالسارحة على حال من التسليم نزعت به إلى العطف عليها، هل تعود مرة أخرى إلى المهاترة؟ غير مستبعد!! ولكنها ـ فيما يبدو ـ تفكر فى موقفها الدقيق بينه وبين ابنتها وتنحنى أمام مقتضياته، وما يدرى إلا وهى تنتزع الملاءة عن نصفها الأعلى وتغمغم «الجو حار» ثم تزحزحت حتى نهاية الفراش فاستندت إلى شباكه، ومدت ساقيها غير عابئة بالحذاء الذى انغرز كعباه فى طيات اللحاف، ثم واصلت شرودها، ترى: ألا يزال لديها ما تقول؟ سألها بلهجة بالغ فى رقتها:

ـ هل تسمحين لى بأن أزوركم غدا..؟

تجاهلت سؤاله دقيقة أو نحوها، ثم حدجته بنظرة كاللعنة، وقالت:

ـ على الرحب والسعة يا بن القديمة!

ابتسم قانعًا وهو يشعر بنظراتها تلهب وجهه، وعادت هى تقول بعد هنيهة:

ـ لا تظننى بلهاء، كنت موطنة النفس على توقع هذه النهاية عاجلاً أو آجلا، ولولا أنك تعجلتها بطريقة.. (ثم بتسليم وازدراء معا).. ما علينا..

لم يصدقها، ولكنه تظاهر بتصديقها، ومضى يقول: إنه كان واثقا من ذلك، وأنه يرجو أن تعفو عنه وتشمله برضاها، ولكنها لم تعن بالإصغاء إليه، وتزحزحت ـ مرة أخرى ـ إلى حافة الفراش، فطرحت ساقيها على الأرض، وقامت فأخذت تحبك ملاءتها، وهى تقول: «أستودعك الله».. فقام صامتا وتقدمها إلى الباب وفتحه، ثم تقدمها مرة أخرى إلى الخارج، وما يدرى إلا وصفعة تهوى على قفاه، على حين مرقت المرأة من جانبه إلى السلم وتركته وراءها كالذاهل وكفه منطرحة على موضع الصفعة، التفتت نحوه ويدها على الدرابزين، وقالت:

تعيش وتأخذ غيرها، آذيتنى أكثر من هذا، ألا يحق لى أن أشفى غليلى ولو بصفعة يا بن الكلب..؟!

١٣

ـ يا سيد أحمد لا تؤاخذنى إذا صارحتك بأنك تبذر نقودك هذه الأيام بلا حساب..

قال جميل الحمزاوى ذلك بلهجة جمعت بين أدب المستخدم وإدلال الصديق. وكان الرجل لا يزال قوى البنية جيد الصحة على بلوغه السابعة والخمسين من عمره، أما رأسه فقد رصعه المشيب، ولم تؤثر السنون فى نشاطه شيئًا فلم يزل يومه ينقضى على حركة دائبة فى خدمة الدكان وعملائه كعهده منذ التحق به على أيام منشئه الأول. وقد اكتسب

مع طول العهد حقوقا ثابتة واحترامًا جديراً بنشاطه وأمانته، فنزل من نفس أحمد عبد الجواد منزلة الصديق، ولم يكن عطف الرجل عليه الذى تمثل أخيراً فى معاونته على إلحاق ابنه فؤاد بمدرسة الحقوق إلا مضاعفاً لإخلاصه وموجباً عليه مصارحته عندما تجب المصارحة لدفع ضر أو تحقيق منفعة. على أن أحمد قال بلهجة مطمئنة، ولعله كان يشير إلى الرواج الذى لم تزل تثمل السوق بسكرته:

ـ الحال معدن، والحمد لله..

فقال جميل الحمزاوى باسما:

ـ ربنا يزيد ويبارك، غير أنى لا أزال أكرر القول عليك بأنك لو كنت اتخذت من التجار خلقهم كما اتخذت حرفتهم، لكنت الآن من كبار الأغنياء.

ابتسم أحمد ابتسامة الرضى والقناعة وهو يهز منكبيه استهانة. ربح كثيراً وأنفق كثيراً، فكيف يأسف على ماجنى من لذات العيش؟ لم يفقد يومًا حاسة التوازن بين دخله ومنصرفه، ولم يخل رصيده من الستر، وقد تزوجت عائشة وتزوجت خديجة، وطرق كمال باب المرحلة النهائية من حياته الدراسية، فماذا عليه لو تمتع بعد ذلك بطيبات الحياة؟ على أن الحمزاوى لم يعد الحق فى ملاحظته على تبذيره. فالحق أنه يبدو ـ هذه الأيام ـ أبعد ما يكون عن الاعتدال والقصد، تشعبت وجوه نفقاته: فالهدايا تستنزف مالا لا يُستهان به، والعوامة تستحلب دسمه، ومحظيته تستأديه القرابين، وفى الجملة فإن زنوبة تدفعه إلى الإسراف دفعًا، وهو من ناحيته يدفع بلا مقاومة تذكر، لم يكن كذلك فى الأيام الخالية، حقًا كان ينفق عن سعة!! ولكن امرأة لم تستطع أن تخرجه عن حد الاعتدال أو تضطره إلى ركوب الإسراف. كان بالأمس مستشعرا قوته، ولم يكن يبالى كثيراً أن تجاب كل مطالبه الحبيبة، ولم يكن يبالى إن تدللت عليه أن يتدلل عليها تياها بفتوته وفحولته. اليوم أذل حرصه على حبيبته عنقه فهان عليه الغالى، وكأنه لم يعد يروم من مطلب فى هذه الحياة وراء استبقاء مودتها واستمالة قلبها، ويا لها من مودة متعززة، ويا له من قلب عصى!! ولم يكن فى واقع حاله ليغيب عن فطنته، شعر به شعور الألم والحزن، وذكر به أيام عزته فى لهفة وأسى وإن لم يقر بأنها ذهبت وتولت، ولكنه لم يحرك أصبعًا للمقاومة الجدية ولم يكن ذلك فى طوقه! وقال مخاطبًا جميل الحمزاوى فيما يشبه السخرية:

ـ لعله من الظلم أن تعدّنى تاجراً!.. (ثم فى تسليم).. الله هو الغنى..

وجاء نفر من الناس فشغل بهم الحمزاوى، وما كاد أحمد يخلو إلى نفسه حتى رأى قادما يزحم الباب على سعته ويتجه إليه متبخترا. كانت مفاجأة وذكر لتوه أنه لم تقع عيناه على القادم منذ أربع سنوات أو يزيد، ثم نهض مرحبًا مدفوعًا بأدبه وحده، وهو يقول:

ـ أهلا وسهلاً، بجارتنا المكرمة . .

فمدت له أم مريم يدها ملفوفة فى طرف ملاءتها قائلة :

ـ أهلا بك يا سيد أحمد . .

ودعاها إلى الجلوس فجلست على الكرسى الذى جلست عليه يومًا يُعتبر الآن من التاريخ، ثم قعد وهو يتساءل . . لم يكن رآها منذ جاءت لمقابلته فى هذا الدكان بعد مرور عام على وفاة فهمى محاولة استدراجه إلى بيتها مرة أخرى . عجب يومئذ لجرأتها ـ ولم يكن أفاق من الحزن ـ فقابلها بجفاء وشيعها ببرود . ترى ما الذى جاء بها اليوم؟! وألقى عليها نظرة شاملة فوجدها كالعهد بها : جسامة وأناقة ، يفوح من أعطافها الطيب ، وتتألق عيناها فوق البرقع . غير أن تبرجها لم يجد فى إخفاء دبيب الزمن ، فلاحت أمارات الكبر تحت عينيها ، وذكر بها جليلة وزبيدة ، شد ما يستبسل أولئك النسوة فى معركة الحياة والشباب، أما أمينة فسرعان ما تهاوت فريسة للحزن والذبول! . . وقربت بهيجة الكرسى من المكتب، ثم قالت بصوت خافت :

ـ لا تؤاخذنى يا سى السيد على هذه الزيارة، فللضرورة أحكام . .

فقال أحمد ـ من فوره ـ وقد كان يبدو رزينا جادًا :

ـ أهلاً وسهلاً، إن زيارتك تشريف لنا وتكريم . .

فقالت باسمة ، وقد نمت نبرات صوتها على الامتنان :

ـ تشكر ، والحمد لله على أنى وجدتك بخير وعافية!!

فشكرها بدوره، ودعا لها بالصحة والعافية ، فعادت تشكر له شكره ودعاءه وتدعو له من جديد، ثم سكتت لحظات ، وقالت باهتمام :

ـ جئتك لأمر هام، قيل لى : إنه بلغ إليك فى حينه، وإنه نال موافقتك ، وأعنى طلب ياسين أفندى ليد ابنتى مريم ، فهل صحيح ماقيل لى؟ هذا ما جئت من أجل التحقق منه . .

خفض أحمد عبد الجواد عينيه أن تقرأ فيهما الحنق الذى اشتعلت به جوانحه وهو يتابع كلامها ، ولم يخدع بتظاهرها بالاهتمام بموافقته ، فلتحاول خداع غيره ممن يجهلون خباياه، أما هو فيعلم علم اليقين أن موافقته وعدمها عندها سواء ، بل ألم تدرك ما وراء تخلفه عن زيارتها مع ابنه؟ . . ولكنها جاءت لتحمله على الإقرار بالموافقة ، وربما لغرض آخر لا يلبث أن يستبينه ، رفع إليها عينين هادئتين ، وقال :

ـ حدثنى ياسين عن رغبته فدعوت له بالتوفيق ، كانت مريم ولم تزل ابنتنا . .

ـ الله يبارك لى فى عمرك يا سى السيد. هذه المصاهرة ستشرفنا بين الناس . .

ـ أشكر حسن ظنك . .

فقالت بحماس :

ـ ويسرنى أن أصارحك بأننى أجلت إعلان موافقتى حتى أتأكد من موافقتك أنت!

قارحة! لعلها أعلنت موافقتها حتى قبل أن ترى ياسين!

ـ أكرر الشكر، يا ست أم مريم . .

ـ لذلك كان أول ما قلت لياسين أفندى، دعنى أتأكد أولاً من موافقة والدك، فإن كل شىء يهون إلا سخطه!

الله . . الله! . لم تكد تسرق البغل حتى نشطت لرمى الأحابيل حول صاحبه . .

ـ ليس بمستغرب أن يصدر عنك ذلك القول النبيل!

فواصلت حديثها فى حماس مظفر، قائلة :

ـ إنك يا سى السيد رجلنا، وخير من يفخر به حينا كله!

مكر النساء، ودلال النساء، ما أضيقه بهما معًا، هل خطر لها ببال أنه يتمرغ فى التراب مناشدة لعطف عوادة زهد فيها السكارى؟!

قال فى تواضع :

ـ أستغفر الله . .

فقالت بلهجة حزينة علا بها صوتها قليلاً، حتى خاف أن يبلغ الموجودين بالناحية الأخرى من الدكان، فحرك رأسه نحوهم محذرًا :

ـ لشد ما حزنت عندما أنبأنى بأنه هجر بيت والده . .

فبادرها قائلاً وقد تجهم وجهه :

ـ الحق أن سلوكه أغضبنى . فعجبت كيف تأتّى له أن يرتكب تلك الحماقة، كان ينبغى أن يستشيرنى أولاً، ولكنه حمل متاعه إلى قصر الشوق، ثم جاء يعتذر إلىّ!! عبث صبيانى يا ست أم مريم . وقد وبخته ولم أكترث لخلافه المزعوم مع أمينة . ذلك تعلل سخيف حاول به أن يبرر حماقة أسخف منه!!

ـ هذا ما قلته له وحياتك، ولكن الشيطان شاطر، وقلت له أيضًا : إن ست أمينة معذورة، ربنا يصبرها على ما ابتلاها به . . وعلى أى حال فمثلك يرجى منه الصفح يا سى السيد . .

فأشار بيده إشارة قصيرة، كأنما تقول «دعينا من هذا» فقالت متوددة :

ـ لكننى لا أقنع إلا بالصفح والرضى . .

أف، ليته يستطيع أن يصارحها بمدى اشمئزازه منهم جميعًا، هى وابنتها والبغل الكبير . .

ـ ياسين ابنى على كل حال، وفقه الله إلى الهداية . .

أمالت رأسها إلى الوراء قليلاً، وأبقته على وضعه مليًا ريثما تستمتع بلذة النجاح والارتياح، ثم عادت تقول فى نبرات لطيفة :

ـ ربنا يجبر خاطرك يا سيد أحمد، ساءلت نفسى وأنا قادمة إليك؛ ترى : أيكسفنى ويردنى خائبة، أم يعامل جارته القديمة بما تعود أن يعاملها به فى الأيام الخالية؟ الحمد لله فأنت دائما عند حسن الظن بك، مد الله فى عمرك ومتعك بالصحة والعافية!!

تظن أنها ضحكت على ذقنه، يحق لها هذا، ما أنت إلا أب خائب مات خير أبنائه، وخاب الإبن الثانى، وركب الثالث رأسه، كل هذا على رغمى يا قارحة . .

ـ إنى عاجز عن شكرك . .

وهى تخفض رأسها :

ـ مهما قلت فيك فهو دون ما تستحق، طالما أقررت لك به فيما مضى . .

آه، ذلك الماضى! أوصدى ذلك الباب وحياة البغل الذى جئت تسجلين حق ملكيته! . وبسط راحته على صدره آية على الشكر، فراحت تقول بلهجة حالمة :

ـ كيف لا، ألم أعزك إعزازًا لم يحظ به إنسان قبلك ولا بعدك؟

هذا هو المطلوب، كيف لم يفطن إليه من أول لحظة؟! لم تجيئى من أجل ياسين ولا من أجل مريم، ولكن من أجلى أنا، بل من أجل نفسك! أنت أنت لم يغير الزمن منك شيئًا، إلا شبابك، ولكن رويدك!! هل تستطيعين أن تردى الأمس الذى ولى؟ مر بقولها دون تعليق مكتفيًا بابتسامة شكر، فابتسمت ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانها من ثقوب البرقع، وقالت فيما يشبه العتاب :

ـ يبدو أنك لا تذكر شيئا . .

أراد أن يعتذر عن فتوره دون أن يمس إحساسها فقال :

ـ لم يبق فى الرأس عقل أتذكر به . .

فهتفت بإشفاق :

ـ لشد ما أغرقت فى الحزن، الحياة لا تحتمل هذا ولا تسيغه، وأنت ـ ولا تؤاخذنى على ما سأقول ـ رجل ألفَ الحياة المليحة، فالحزن إذا أثر فى الإنسان العادى قيراطا يؤثر فيك أربعة وعشرين قيراطًا . .

موعظة يراد بها منفعة الواعظ، ليت أن ياسين كان يعتصم بمثل شعبى، لماذا أتقزز

منك؟ أنت دون شك أطوع من زنوبة وأقل نفقة بما لا يقاس، ولكن يبدو أن قلبى أصبح مولعًا بالمتاعب. قال بدهاء ومسكنة معًا:

ـ من أين للقلب المحزون أن يضحك؟

اندفعت تقول بحماس وكأنها شامت برق أمل:

ـ اضحك يضحك قلبك، لا تنتظر حتى يضحك هو، هيهات أن يضحك وحده بعد ما عانى من طول الوجوم، عد إلى حياتك القديمة تعد إليك بهجتها الغافية، ابحث عن مسرات زمانك الأول وأحبابه، من أدراك أن ليس ثمة قلوب تهفو إليك وتقيم على عهدك رغم إعراضك الطويل عنها؟

طرب الفؤاد على رغمه وتاه هذا ما ينبغى أن يقال حقًا لأحمد عبد الجواد، وما كان يسكب فى أذنيه على قرع الكئوس فى ليالى الطرب، أين العوادة لتسمع هذا المديح علها تخفف من غلوائها؟! لكن يردده من أنت عنه راغب! قال بصوت لا أثر فيه للطرب:

ـ ولى ذلك الزمان..

مال نصفها الأعلى إلى الوراء استنكارًا، وقالت:

ـ لم تزل شابًا ورب الحسين!.. (ثم وهى تبتسم فى حياء) جمل له طلعة البدر! لم يول زمانك ولن يولى أبدًا، لا تكبر نفسك قبل الأوان، أو دع الحكم على ذلك للآخرين فلعلهم يرونك بغير العين التى ترى بها نفسك..

قال بأدب، ولكن بلهجة تعبر بلطف عن رغبته فى إنهاء الحديث:

ـ اطمئنى يا ست أم مريم إلى أننى لا أقتل نفسى حزنًا، فإننى أتسلى عن الهم بشتى ضروب التسلية..

تساءلت وقد فتر حماسها قليلاً:

ـ أيكفى هذا للترفيه عن رجل مثلك؟

فقال بقناعة:

ـ لا تتطلع النفس إلى شىء وراءه..

بدا أنه تنغص صفوها، وإن تظاهرت بالارتياح وهى تقول:

ـ أحمد الله على أننى وجدتك على ما أحب لك من راحة البال وصفائه..

لم يعد ثمة قول يقال، فنهضت وهى تمد له يدها ملفوفة فى طرف الملاءة، فتصافحا، ثم قالت وهى تهم بالذهاب:

ـ فتك بعافية..

وذهبت وهى تحول عنه عينين لم يجدِ التصنع فى إخفاء ما غشيهما من خيبة..

١٤

طوت سوارس شارع الحسينية، ثم أخذ جواداها المهزولان يخبّان فوق أسفلت العباسية والسائق يلهبهما بسوطه الطويل. كان كمال جالسًا فى مقدمة العربة على طرف المقعد الطويل فيما يلى السائق، فأمكنه أن يرى بلفتة من رأسه ـ فى غير جهد ـ شارع العباسية ممتدا أمام عينيه، فى اتساع لا عهد للحى القديم به وطول لا يلوح له منتهى، أرضه مستوية ملساء، وبيوته على الجانبين ضخمة ذوات أفنية رحيبة بعضها يزدان بحدائق غناء.

كان يضمر للعباسية إعجابًا كبيرًا ويكن لها حبا وإجلالاً يبلغان حد التقديس، أما الإعجاب فمرده إلى نظافتها وهندستها والهدوء المريح المخيم على ربوعها، وكل أولئك سمات لا يعرفها حيّه العتيق الزياط. وأما الحب والإجلال فمرجعهما إلى أنها وطن قلبه ومنزل وحى حبه ومثوى قصر معبودته.

منذ أعوام أربعة وهو يتردد عليها بقلب مرهف وحواس مشحوذة حتى حفظها عن ظهر قلب، فحيثما مد بصره ارتد إليه بصورة مألوفة كأنها وجه صديق قديم، وجميع معالمها ومناظرها ودروبها وعدد من أهلها قد اقترن فى ذهنه بأفكار وعواطف وأخيلة أمست ـ فى جملتها ـ جوهر حياته ومعقد أحلامه، فحيثما ولى وجهه فثمة مناد يدعو القلب للسجود.

وأخرج من جيبه خطابًا تلقاه من البريد أول أمس، وكان مرسله حسين شداد ينبئه فيه بعودته ـ وصديقيه حسن سليم وإسماعيل لطيف ـ من المصيف، ويدعوه إلى مقابلتهم جميعًا فى بيته الذى تسير به سوارس إليه.. نظر إلى الخطاب بعين حالمة شاكرة وامقة ساجدة عابدة متعبدة، لا لأن مرسله شقيق معبودته فحسب، ولكن لظنه أن الخطاب كان مودعا فى مكان ما بالبيت قبل أن يكتب حسين عليه رسالته، وأنه والحال كذلك غير مستبعد أن تكون عينها الجميلة قد وقعت عليه فى ذهابها أو مجيئها أو أن تكون أناملها قد لمسته لسبب أو لآخر أو حتى عفوا، بل حسبه أن يظن أنه كان مودعًا فى نفس المكان الذى يحل فيه جسمها وتعمره روحها كى يستحيل الخطاب إلى رمز قدسى تهفو إليه روحه ويشتاق إليه قلبه. ومضى يقرأ الخطاب للمرة العاشرة حتى وقف عند هذه الجملة «عدنا إلى القاهرة مساء أول أكتوبر» أى أنها شرفت العاصمة منذ أربعة أيام وهو لا يدرى، كيف لم يدر؟! كيف لم يفطن إلى وجودها سواء بالغريزة أو بالشعور أو بالبصيرة؟!

كيف جاز للوحشة التى غشيته طوال الصيف أن تمد ظلها الثقيل على هذه الأيام الأربعة المباركة؟! هل رانت الكآبة المتواصلة على حساسيته بطبقة من البلادة والجمود؟ على أى حال فالساعة يرف قلبه وتحلق روحه فى أجواء من السمر والسعادة!! الساعة يشرف على الدنيا من ذروة رفيعة تبدو منها معالمها فى هالة من الشفافية والنورانية كأنها أطياف فى دنيا الملائكية!! الساعة يضطرم وجدانه بنشاط الحيوية ونشوة الحبور وسكرة الطرب!! الساعة ـ أو حتى فى هذه الساعة ـ يطوف به طائف الألم الذى يلازم مسرة الحب عنده ملازمة الصدى للصوت. قديما كانت تحمله سوارس فى هذا الطريق نفسه وقلبه من الحب خال لم يمس، ماذا كان يجد من مشاعر وآمال وخوف ورجاء؟ لا يذكر حياة ما قبل الحب إلا ذكرى مجردة، ينكرها ما عرف للحب قدره، ويحن إليها كلما نبا به ألم، ولكنها لشدة إحساسه بخاطره كادت تلحق بالأساطير، لذلك بات يؤرخ بالحب حياته، فيقول: كان ذلك قبل الحب «ق. ح»، وحدث ذلك بعد الحب «ب. ح».

وقفت العربة عند الوايلية، فأعاد الخطاب إلى جيبه، وغادرها متجها إلى شارع السرايات وعيناه تتطلعان إلى أول قصر على اليمين فيما يلى صحراء العباسية. بدا القصر بدوريه من الخارج بناء ضخما عاليًا، يتصل مقدمه بشارع السرايات وينتهى مؤخره بحديقة رحيبة تراءت رءوس أشجارها العالية من وراء سور رمادى متوسط الارتفاع يحيط بالقصر والحديقة معا ويرسم مستطيلاً هائلاً ممتدًا فى الصحراء التى تكتنفه من الجنوب والشرق. كان منظره مطبوعًا على صفحة نفسه، يستأسره جلاله وتفتنه آى فخامته، ويرى فى عظمته تحية مزجّاة عن جدارة بصاحبه، وتلوح لعينيه نوافذ مغلقة وأخرى مرخاة الستائر، فيلمح فى تحفظها وانطوائها ما يرمز إلى عزة محبوبه وعصمته وامتناعه وغموضه، وهى معان تؤكدها الحديقة المترامية والصحراء الغارقة فى الأفق، وتعرض هنا أو هناك نخلة سامقة أو لبلاب متسلق جدارًا أو جدائل ياسمين مسترسلة فوق سور فتناوش قلبه بذكريات انعقدت فوق هاماتها كالثمار تساره بحديث الوجد والألم والعبادة وقد غدت ظلا للحبيب ونفحة من روحه وانعكاسا لملامحه، ناشرة بجملتها ـ وبما عرف من أن باريس كانت لأهل القصر منفى ـ جواً من الجمال والحلم تواءم مع حبه فى سموه وقداسته وبذخه وتطلعه إلى المجهول.

رأى وهو يقترب من مدخل القصر البواب والطاهى وسائق السيارة جالسين فوق أريكة على كثب من الباب كعادتهم فى العصارى، فلما بلغ مجلسهم وقف البواب، وقال له «حسين بك ينتظرك فى الكشك» فدخل مستقبلاً مزيجا من عرف الفل والقرنفل والورد التى نُضدت أصصها على جانبى السلم المفضى إلى الفراندا الكبيرة التى تطالع القادم على بعد يسير من الباب، ثم مال يمنة إلى ممر جانبى يفصل القصر عن السور ويسير بينهما حتى مشارف الحديقة فيما يلى الفراندا الخلفية للقصر.

ليس من الهين على قلبه الخفاق أن يمشى فى هذا المحراب الكبير، ولا أن يطأ أديما وطئته قدماها من قبل، إنه يكاد من إجلال يتوقف، أو يمد يده إلى جدار البيت تبركا، كما كان يمدها إلى ضريح الحسين من قبل أن يعلم أنه لم يكن إلا رمزًا، ترى: فى أى مكان من القصر يمرح محبوبه الساعة؟ وما عسى أن يفعل إذا طالعته بلفتتها الفاتنة؟ ليته يجدها فى الكشك كى تجزى عين عن طول التصبر والتشوق والتسهد!!

ألقى على الحديقة نظرة شاملة حتى سورها الخلفى الذى ترامت وراءه الصحراء، وكانت الشمس المائلة فوق القصر صوب الشارع تجلو منها أعالى الأشجار والنخيل وسقائف الياسمين المبطنة للسور من كافة نواحيه، ودوائر الأزهار والورود ومربعاتها وأهلتها تكتنفها ممرات الفسيفساء، ثم سار فى ممشى وسيط يفضى إلى كشك قائم وسط الحديقة، وقد تراءى فيه عن بعد حسين شداد، وضيفاه: حسن سليم وإسماعيل لطيف جلوسًا على كراسى خيزران حول مائدة مستديرة خشبية انتثرت عليها أكواب حول دورق ماء. سمع هتاف ترحيب صدر عن حسين فآذنه بانتباههم إلى مقدمه، وما لبثوا أن قاموا للقائه فعانقهم واحدا واحدًا بعد فراق دام الصيف كله، حمدا لله على السلامة، أنت أوحشتنا جدًا، شد ما اسمرت وجوهكم فلا خلاف الآن بينكما وبين إسماعيل، بل أنت بيننا كأوروبى بين ملونين، عما قليل يعود كل شىء إلى أصله، كنا نتساءل لم لا تلوننا شمس القاهرة؟ منذا يجرؤ على التعرض لشمس القاهرة إلا من رام ضربة شمس! ولكن ما سر هذه السمرة المكتسبة؟.. أذكر أننا تلقينا تفسيرًا لهذا فى بعض دروسنا، أجل لعله فى الكيمياء، لقد درسنا الشمس خلال علوم شتى كالجغرافيا الفلكية والكيمياء والطبيعة، ففى أى من أولئك نجد تفسيرًا لسمرة المصيف! هذا سؤال متأخر عن أوانه لأننا انتهينا من الدراسة الثانوية! إلينا إذن بأخبار القاهرة، بل عليك أنت أن تحدثنا عن رأس البر، وعلى حسن وإسماعيل أن يحدثانا بعدك عن الإسكندرية، انتظروا فلكل وقت حديثه..

لم يكن الكشك إلا مظلة خشبية مستديرة تقوم على عمود ضخم، وأرضه رملية تحدق بها أصص الورد، ويقتصر أثاثه على المائدة الخشبية والكراسى الخيزران، وقد جلسوا وراء المائدة على هيئة نصف دائرة مولّين وجوههم شطر الحديقة. بدوا سعداء باللقاء وكان الصيف يفرق بينهم فيما عدا حسن سليم وإسماعيل لطيف اللذين يصيفان عادة فى الإسكندرية، ومضوا يتضاحكون لأقل سبب، وأحيانًا لمجرد تبادل النظر كأنما يجترون ذكريات مزاح ماضية. وكان الأصدقاء الثلاثة يرتدون قمصانا حريرية وبنطلونات رمادية. كمال وحده بدا فى بدلة رصاصية خفيفة، إذ كان يعتبر رحلة العباسية ذات صفة رسمية على خلاف حيّه الذى يجول فيه مكتفيا بلبس الجاكتة فوق الجلباب. كل شىء من حوله كان يخاطب قلبه فيهزه من الأعماق. هذا الكشك الذى

تلقى فيه رسالة الحب، وهذه الحديقة التى خصت وحدها بسره، وهؤلاء الأصدقاء الذين يحبهم للصداقة ويحبهم مرة أخرى لاقترانهم بسيرة حبه، كل شىء يخاطب حبه وقلبه، يتساءل متى تجىء؟ وهل يمكن أن تمضى الجلسة دون أن تقع عليها عيناه المشوقتان؟ وعلى سبيل التعويض راح يطيل النظر إلى حسين شداد ما وسعه ذلك، ولم يكن ينظر إليه بعين الصديق فحسب، لأن أخوته لمعبودته أضفت عليه سحراً من السحر وسراً من السر، فبات يكن له - إلى الحب - إكباراً وتقديساً ودهشاً. وكان حسين يشبه شقيقته إلى حد كبير بعينيه السوداوين وقامته الطويلة الرشيقة وشعره السبط العميق السواد ولفتاته وسكناته الجامعة بين السمو واللطافة، فلم يكن ثمة فارق جوهرى بينهما إلا فى أنفه الأقنى الممتلئ وبشرته البيضاء التى غشيتها سمرة المصطاف. ولما كان كمال وحسين وإسماعيل من الناجحين فى امتحان البكالوريا ذلك العام - مع ملاحظة أن الأولين كانا فى السابعة عشرة والأخير فى الحادية والعشرين - فقد تحدثوا عن الامتحان وما تفرع عنه من شئون المستقبل، وكان البادئ بالحديث إسماعيل لطيف، وكان إذا تحدث تطاول بعنقه كأنما ليدارى قصر قامته وضآلة حجمه - على الأقل بالقياس إلى أصدقائه الثلاثة - غير أنه كان مدمج الخلق مفتول العضلات، وفى نظرة عينيه الضيقتين الحادة الساخرة وأنفه المدبب الحاد وحاجبيه الكثيفين وفمه العريض القوى ما يكفى لتحذير من تحدثه نفسه بالتهجم عليه. قال:

- نتيجتنا هذا العام مائة فى المائة، لم يحصل شىء كهذا من قبل - على الأقل - فيما يخصنى أنا. كان ينبغى أن أكون فى السنة النهائية من التعليم العالى كحسن الذى دخل معى مدرسة فؤاد الأول فى يوم واحد وسن واحدة، وقد سألنى أبى ساخرا لما رأى رقمى فى الجريدة بين الناجحين «ترى هل يمد الله فى عمرى حتى أراك من حملة الدبلوم!؟».

قال حسين شداد:

- لست متأخراً إلى الحد الذى يبرر يأس والدك..

قال إسماعيل ساخراً:

- صدقت فقضاء عامين فى كل فصل ليس بالشىء الكثير..

ثم موجها الخطاب إلى حسن سليم:

- أما أنت فلعلك مشغول منذ الآن بما بعد الليسانس؟

كان حسن سليم بالسنة النهائية بمدرسة الحقوق، فأدرك أن إسماعيل لطيف يدعوه إلى إعلان رأيه فيما ينويه عقب الفراغ من الدراسة، غير أن حسين شداد سبقه إلى الرد على إسماعيل قائلاً:

ـ لا داعى لأن يشغل نفسه، سوف يحصل حقًا على وظيفة فى النيابة أو فى السلك السياسى!

خرج حسن سليم عن هدوئه المتسم بالكبرياء، ولاح فى وجهه الحسن الدقيق القسمات التحفز للنضال، فتساءل متحديًا:

ـ من أين لى بما يجعلنى أطمئن إلى رأيك؟!

وكان يعتز باجتهاده وذكائه ويريد الجميع أن يقروا له بهما، ولم يكن أحد يمارى فى ذلك، ولكن لم يكن أحد كذلك ينسى أنه نجل سليم بك صبرى المستشار بمحكمة الاستئناف، وأن تمتعه بهذه الأبوة ميزة يفوق أثرها كل ما للذكاء والاجتهاد من أثر، بيد أن حسين شداد تحاشى ما يهيجه، فقال:

ـ فى تفوقك الضمان الذى تسأل عنه..

ولم يتركه إسماعيل لطيف كى يستمتع بإطراء حسين له، فقال:

ـ وهناك والدك، وهو فيما أعتقد أهم من التفوق بكثير..!

ولكن حسن قابل الهجوم باستماتة غير متوقعة، إما لأنه ملّ مناجزة إسماعيل الذى لم يكد يفترق عنه يومًا طيلة اصطيافهما بالإسكندرية، وإما لأنه بات يرى فى صاحبه مشاكسًا «محترفًا» لا يصلح أن يأخذ أقواله دائمًا مأخذ الجد. على أن رابطة الأصدقاء لم تكن تخلو من نقار جدلى يبلغ أحيانًا حد الشغب دون أن يوهن من قوتها. تساءل حسن سليم وهو يرمق إسماعيل متهكمًا:

ـ وأنت كيف انتهى سعى الساعين لك؟

ضحك إسماعيل ضحكة عالية، كشف عن أسنانه الحادة المصفرة من أثر التدخين الذى كان من أوائل رواده من تلاميذ الثانوى، وقال:

ـ نتيجة لا تسر، لم تقبلنى الطب ولا الهندسة لنقص المجموع، فلم يبق أمامى إلا التجارة والزراعة، فاخترت أولاهما..

لاحظ كمال فى تأثر كيف تجاهل صاحبه مدرسة المعلمين كأنما ليست فى الحسبان، غير أنه وجد فى إيثاره لها، مع قدرته على دخول الحقوق التى لا نزاع فى مكانتها، وجد فى ذلك مثالية تعزى بها على حزنه ووحشته. ضحك حسين شداد ضحكته اللطيفة التى تجلو جمال ثغره وعينيه، وقال:

ـ آه لو اخترت الزراعة! تصوروا إسماعيل فى حقل يقضى عمره بين الفلاحين..!

قال إسماعيل بقناعة:

ـ لا علىّ من هذا لو كان الحقل فى عماد الدين..

عند ذاك نظر كمال إلى حسين شداد متسائلاً :

ـ وأنت؟

مد حسين بصره إلى بعيد متفكرا قبل أن يجيب ، فأتاح لكمال فرصة كى يتوسمه ، شد ما تفتنه فكرة أنه شقيقها ، أى أن بينهما ما قام يومًا بينه وبين خديجة وعائشة من مخالطة وألفة ، تصور يعز عليه أن يعتنقه ، لكنه يجالسها ويحادثها وينفرد بها ويلمسها ، يلمسها؟ ! ويؤاكلها! ترى كيف تتناول طعامها؟ هل تتمطق؟ هل تأكل الملوخية والمدمس مثلاً؟ ما أبعد هذا عن التصور أيضًا! المهم أنه شقيقها ، وأنه ـ كمال ـ يلمس يده التى تلمس يدها ، لو أتيح له أن يشم أنفاسه التى تماثل ولا شك أنفاسها؟ ! أجاب حسين شداد :

ـ مدرسة الحقوق بصفة مؤقتة . .

ألا يحتمل أن يتخذ من فؤاد جميل الحمزاوى صديقًا؟ لم لا؟ لا شك أن الحقوق مدرسة جليلة الشأن حقًا ما دام حسين سيلتحق بها ، من المجازفة أن تحاول إقناع الناس بقيمة مثال معنوى . .

قال إسماعيل لطيف ساخرًا :

ـ لم أكن أعلم أن من الطلاب من يلتحق بمدرسة ما بصفة مؤقتة! حدثنا عن هذا من فضلك . .

قال حسين شداد جادًا :

ـ جميع المدارس عندى سواء ، ليس فى هذه المدرسة أو تلك ما يجذبنى إليها ، حقا أريد أن أتعلم ، ولكنى لا أريد أن أعمل ، ولن أجد فى مدرسة من مدارسنا ما أبتغيه من علم لا يراد به عمل ، ولكنى لم أظفر فى بيتنا بشخص يوافقنى على رأيى ، ولا أرى مناصًا من أن أجاريهم إلى حد ما ، وساءلتهم أى مدرسة تختارون؟ فأجاب أبى : وهل يوجد غير الحقوق؟ فقلت إذن لتكن الحقوق!

إسماعيل لطيف محاكيًا لهجته وحركاته :

ـ بصفة مؤقتة . .

ضحكٌ عام ، ثم استطرد حسين شداد قائلاً :

ـ أجل بصفة مؤقتة أيها المشاكس ، فمن غير المستبعد إذا سارت الأمور على ما أشتهى أن أقطع دراستى المحلية كى أسافر إلى فرنسا ولو بحجة دراسة القانون فى معاهدها ، وهناك أنهل من منابع الثقافات بغير قيد ، وهنالك أفكر وأرى وأسمع . .

إسماعيل لطيف مصرًا على محاكاة لهجته وحركاته ، وكأنما يتم ما ظن أن الآخر سكت عنه :

ـ وأذوق وألمس وأشم . . !

واصل حسين شداد حديثه بعد فاصل ضحك قائلاً :

ـ ثق بأن مقصدى غير ما نحلم به!

صدقه كمال بكل قلبه بلا حاجة إلى دليل لا لأنه يكرمه عن شبهة الكذب فحسب، ولكن لأنه يؤمن بأن الحياة التى يتطلع إلى الاستمتاع بها فى فرنسا خليقة «وحدها» باستهواء النفوس، هيهات أن يدرك إسماعيل هذه الحقيقة على بساطتها، لا هو ولا أضرابه ممن لا يؤمنون إلا بالأرقام والمظاهر. طالما أثار حسين أحلامه، هذا حلم منها يمتاز بالرحابة والجمال، حلم عامر بثمار الروح والفكر والسمع والبصر!! كم طاف بى فى نومى أو فى يقظتى، ثم بعد شدة التطلع وطول السعى انتهى المطاف بى وبه إلى مدرسة المعلمين!! وسأل حسين :

ـ أتعنى حقًا ما قلت من أنك لا تريد أن تعمل؟!

فقال حسين شداد وفى عينيه السوداوين الجميلتين نظرة حالمة :

ـ لن أكون مضاربًا فى البورصة كأبى؛ لأنى لا أطيق حياة : العمل المتواصل جوهرها والمال غايتها، ولن أكون موظفًا، لأن الوظيفة عبودية فى سبيل الرزق، ورزقى موفور. أريد أن أحيا فى الدنيا سائحًا، أقرأ وأرى وأسمع وأفكر، وأنتقل من جبل إلى سهل ومن سهل إلى جبل . .

قال حسن سليم معترضًا، وكان يرمقه طيلة الحديث بنظرة استخفاف داراها بتحفظه الأرستقراطى :

ـ ليست الوظيفة وسيلة إلى الرزق دائمًا، إنى مثلاً فى غنى عن السعى إلى الرزق، ولكن يهمنى بلا شك أن أشغل وظيفة سامية، فإنه يجب على الإنسان أن يعمل، وإن العمل السامى هدف يراد لذاته.

وقال إسماعيل لطيف، مصدقًا على قول حسن :

ـ هذا حق، الأعمال القضائية والدبلوماسية وظائف يتمناها أغنى الأغنياء (ثم ملتفتا إلى حسين شداد) لم لا تختار لنفسك وظيفة من هذه الوظائف وهى فى حدود طاقتك . . . ؟

وقال كمال مخاطبًا حسين أيضًا :

ـ السلك السياسى حقيق بأن يهيئ لك العمل السامى والسياحى معا!

وحسن سليم قال بلهجة ذات معنى :

ـ إنه باب ضيق!

فقال حسين شداد :

ـ للسلك السياسى مزايا رائعة بلا ريب ، إلا أنه فى الغالب وظيفة شرفية فلا يتعارض كثيراً مع رغبتى عن عبودية العمل ، وهو سياحة وفراغ يتيحان لى ما أحب من الحياة الروحية والجمالية ، ولكننى لا أظننى بالغه ، لا لأنه باب ضيق كما قال حسن ، ولكن لأنى أشك فى أنى سأواصل التعليم النظامى حتى نهايته . .

إسماعيل لطيف ، وهو يضحك متخابثًا :

ـ يغلب على ظنى أنك تريد فرنسا لأمور لا شأن لها بالثقافة ، وحسنا تفعل . .

ضحك حسين شداد وهو يهز رأسه سلبًا ، ثم قال :

ـ كلا أنت تفكر بأهوائك ، إن لرغبتى عن التعليم المدرسى أسبابًا أخرى ، أولها : أننى غير مكترث لدراسة القانون ، ثانيًا : أنه لا توجد مدرسة يمكن أن تمدنى بما أريد الإلمام به من شتى المعارف والفنون ، كالمسرح والتصوير والموسيقى والفلسفة . ما من مدرسة إلا وستشحن رأسك بالتراب كى تعثر فيه ـ إن عثرت ـ على ذرات من التبر ، فى باريس يتاح لك أن تشهد محاضرات فى شتى الفنون والمعارف دون تقيد بنظام أو امتحان ، إلى ما يتهيأ لك من الحياة السامية الجميلة . .

ثم مستطردا بصوت خافت ، وكأنه يخاطب نفسه :

ـ وربما تزوجت هناك كى أقضى العمر سائحًا فى عالمى الواقع والخيال!

لم يبد على وجه حسن سليم أنه يولى الحديث اهتمامًا جديًا ، أما إسماعيل لطيف فرفع حاجبيه الكثيفين ، تاركًا عينيه تُفحصان عما يضطرب فى صدره من مكر وسخرية . . كمال وحده الذى بدا متأثرًا متحمسًا ، إنه يستشرف نفس الآمال مع شىء من تعديل لا يمس الجوهر ، لا تهمه السياحة ولا الزواج فى فرنسا ، ولكن من له بهذه المعارف التى لا تتقيد بنظام أو امتحان؟ إنها أجدى بلا جدال من التراب الذى سيشحن به رأسه فى المعلمين كى يفوز فى النهاية بذرات من التبر ، باريس؟! غدت حلمًا جميلاً منذ علم بأنها احتضنت عهداً غضا من عمر معبودته ، لا تزال تدعو حسين بسحرها ، وتفتن خياله هو بشتى وعودها ، كيف الشفاء من لوعة الآمال؟

قال بعد تردد وإشفاق :

ـ يخيل إلىّ أن أقرب المدارس فى مصر إلى تحقيق ولو جزء يسير من رغبتك هى المعلمين العليا!

تحول إسماعيل لطيف نحوه فيما يشبه القلق ، وسأله :

ـ ماذا اخترت أنت؟ لا تقل مدرسة المعلمين! رباه ، نسيت أن بك لوثة قريبة الشبه بلوثة حسين!

ابتسم كمال ابتسامة عريضة كشفت عن مرونة منخريه العظيمين، وقال:

ـ التحقت بالمعلمين للسبب الذى ذكرت! . .

فنظر حسين شداد إليه باهتمام، ثم قال باسما:

ـ لا شك أن ميولك الثقافية أتعبتك كثيراً قبل أن يقع اختيارك. .

فقال له إسماعيل لطيف بلهجة نمت عن الاتهام:

ـ إنك مسئول لدرجة كبيرة عن توكيد ميوله هذه، بل الحق أنك تتكلم كثيراً وتقرأ قليلاً، أما المسكين فيأخذ الأمر مأخذ الجد ويقرأ لحد العمى، انظر إلى تأثيرك السيئ فيه كيف دفع به إلى المعلمين نهاية الأمر! . .

استطرد حسين حديثه متجاهلاً مقاطعة إسماعيل:

ـ هل ثبت لديك أن فى المعلمين ما تود؟!

قال كمال بحماس، وقد انشرح صدره بأول صوت يتساءل عن مدرسته بلا احتقار أو استنكار:

ـ حسبى أن تتاح لى دراسة الإنجليزية لأتخذ منها وسيلة ناجعة للاطلاع غير المحدود، وإلى هذا فهناك فرصة طيبة ـ فيما أظن ـ لدراسة التاريخ والتربية وعلم النفس. .

فكر حسين شداد قليلاً، ثم قال:

ـ عرفت كثيراً من المعلمين الذين خالطتهم عن كثب فى دروسى الخصوصية، لم يكونوا مثالاً طيبًا للرجل المثقف، ولكن لعل النظام الدراسى العتيق هو المسئول عن ذلك. .

فقال كمال بحماس لم يفتر:

ـ حسبى الوسيلة، الثقافة الحقة تتوقف على الإنسان لا المدرسة!

وتساءل حسن سليم:

ـ أتنوى أن تصير معلمًا؟

ومع أن حسن طرح سؤاله بأدب، فإن كمال لم يطمئن إليه كل الاطمئنان، إذ أن التزامه الأدب كان طبعًا مأثورا عنه فلا يزايله إلا عند الضرورة القصوى أو حيث يشرع غيره فى العراك، وذلك نتيجة طبيعية لرزانته من ناحية، ولتربيته الأرستقراطية النبيلة من ناحية أخرى، فلم يكن من اليسير على كمال أن يعرف إن كان سؤال صاحبه يخلو حقًا من الاستنكار أو الازدراء، لذلك حرك منكبيه استهانة، وقال:

ـ لا مفر من ذلك ما دامت مصممًا على تعلم ما أروم من العلم!

وكان إسماعيل لطيف يتفحص كمال من طرف خفى. . رأسه وأنفه، وعنقه الطويل

وقامته النحيلة، وكأنما كان يتخيل أثر هذه الصورة فى التلاميذ عامة وفى أشقيائهم خاصة، فما ملك أن غمغم:

ـ تلك لعمرى كارثة!

أما حسين شداد، فعاد يقول فى لطف وشى بميله إلى كمال:

ـ الوظيفة شيء ثانوى عند ذوى الأهداف البعيدة، على أنه لا ينبغى أن ننسى أن نخبة من نابهى مصر قد تخرجوا فى المدرسة.

انقطع حديث المدرسة عند ذاك، فساد الصمت، وحاول كمال أن يلقى بروحه فى أحضان الحديقة، غير أن الحديث ترك فى رأسه حرارة كان عليه أن ينتظر حتى تبترد، وسنحت منه نظرة، فرأى دورق الماء المثلوج على المائدة، فخطرت له خاطرة قديمة طالما منته بالسعادة فى مثل ظرفه هذا، أن يملأ كوبًا ويشربه لعله يلمس بشفتيه موضعًا منه يكون قد اتفق أن لمسته شفتاها وهى تشرب مرة، فقام إلى المائدة، وملأ من الدورق كوبا وشربه، ثم عاد إلى مجلسه مركزا انتباهه فى نفسه وهو يترقب، كأنما كان ينتظر ـ فيما لو حالفه الحظ فأصاب الهدف ـ أن يتغير شأنه، أن تنبثق من روحه قوة سحرية لا عهد له بها، أن ينتشى بنشوة إلهية يرقى بها فى معارج السماوات السعيدة، ولكنه، أجل!! ولكنه قنع فى النهاية بلذة المغامرة وبهجة الأمل، ثم راح يتساءل فى قلق: متى تجيء؟.. هل يمكن أن تلحق هذه الفترة الواعدة بأشهر الفراق الثلاثة الماضية؟.. وعادت عيناه إلى الدورق، فطافت به ذكرى حديث قديم دار بينه وبين إسماعيل لطيف عن هذا الدورق أو بالحرى عن الماء المثلوج الذى لا يقدم شيء خلافه فى سراى شداد! وكان إسماعيل قد أشار ـ وهو بصدد الحديث عن ذلك ـ إلى النظام الاقتصادى الدقيق الذى تخضع له السراى من السطح إلى البدروم، وتساءل: أليس ذلك نوعًا من البخل؟ غير أن كمال أبى أن توصم أسرة معبودته بما يشين، فدفع عنها التهمة مستشهداً ببذخها وخدمها وحشمها والسيارتين اللتين تملكهما: المنيرفا، والفيات التى يكاد يختص بها حسين، فكيف تُتهم بعد ذلك بالبخل؟! هنالك قال إسماعيل ـ ولم يكن يعوزه طول اللسان ـ إن البخل أنواع، وإنه لما كان شداد بك مليونيرا بكل معنى الكلمة، فإنه رأى لزاما عليه أن يحيط نفسه بمظاهر الجاه، ولكنه اكتفى بما يعد فى «بيئته» من الضروريات، أما القاعدة المتبعة التى لا يحيد عنها فرد من الأسرة، فهى ألا يتسامح فى إنفاق مليم واحد فى غير موضعه وبلا موجب.. الخدم يتناولون أدنى الأجور ويأكلون أقل الطعام، وإن كسر أحدهم طبقًا خصم ثمنه من مرتبه. حسين شداد نفسه فتى الأسرة الوحيد لا يعطى مصروفًا أسوة بأمثاله من الأبناء أن يتعود بعثرة النقود بلا ضرورة، أجل ربما ابتاع له أبوه كل عيد عددا من الأسهم أو السندات، ولكنه لا يعطيه قرشا فى يده.. أما زوار النجل

العزيز، فلا يقدم لهم إلا الماء المثلوج! . . أليس هذا بخلا، وإن يكن بخلا أرستقراطيا؟! . . ذكر كمال ذلك الحديث وهو ينظر إلى الدورق، وتساءل كما تساءل قديمًا فى ارتياع: أمن الممكن أن ترتقى إلى أسرة معبودته هنة من الهنات؟ أبى قلبه أن يصدق هذا إباء من ينزه الكمال عن المآخذ وإن هانت بيد أنه خيل إليه أن ثمة شعوراً بما يشبه الارتياح يعابثه هامسا فى أذنه «لا تفزع . . أليس هذا النقص إن صح مما ينزلها ولو درجة إليك، أو يرفعك ولو درجة إليها؟!»، ومع أنه وقف من أقوال إسماعيل موقف التحفظ والارتياب، فإنه وجد نفسه يعيد النظر وهو لا يدرى فى «رذيلة» البخل، فيقسمها إلى نوع دنىء وآخر ليس إلا سياسة حكيمة تمد الحياة الاقتصادية بأسس بارعة من النظام والدقة، فمن الإسراف كل الإسراف تسميته بخلا أو اعتباره رذيلة، كيف لا، وهو لا يتعارض مع تشييد القصور واقتناء السيارات واتخاذ كافة مظاهر البذخ والبلهنية؟ كيف لا، وهو يصدر عن نفوس سامية مطهرة من الخبائث والضعة؟!

استيقظ من أفكاره على يد إسماعيل لطيف وهى تقبض على ذراعه وتهزه، ثم سمعه وهو يقول مخاطبًا حسن سليم:

ـ حذار، ها هو مندوب الوفد يرد عليك!

أدرك من فوره أنهم طرقوا حديث السياسة وهو عنهم ساه، حديث السياسة . . ما أشقه وما ألذه، دعاه إسماعيل «مندوب الوفد» فلعله يتهكم، فليتهكم ما شاء له أن يتهكم، الوفد عقيدة تلقاها عن فهمى واقترنت فى قلبه باستشهاده وتضحيته. نظر إلى حسن سليم، وقال باسما:

ـ أيها الصديق الذى لا تبهره إلا العظمة، ماذا قلت عن سعد؟

لم يبد على حسن سليم أنه اكترث لحديث العظمة، ولم يكن كمال يتوقع غير ذلك، فطالما صاوله حتى وقف على رأيه العنيد المتعجرف ـ ولعله رأى أبيه المستشار أيضًا ـ فى سعد زغلول الذى يكاد هو من حب وإخلاص أن يقدسه. لم يكن سعد زغلول إلا مهرجا شعبيًا فى نظر حسن سليم، وكان يردد هذا الوصف فى تقزز وازدراء مثيرين خارقًا المعتاد من أدبه ودماثته، ثم يمضى فى السخرية من سياسته ومأثوراته البلاغية، منوها فى الوقت نفسه بعظمة عدلى وثروت ومحمد محمود وغيرهم من الأحرار الدستوريين الذين لم يكونوا فى نظر كمال إلا «خونة» أو إنجليز مطربشين! أجاب حسن سليم بهدوء:

ـ كنا نتحدث عن المفاوضات التى لم تستمر إلا ثلاثة أيام، ثم قطعت!

فقال كمال بحماس:

ـ يا له من موقف وطنى جدير بسعد حقًا، طالب بحقوقنا الوطنية مترفعا عن

المساومة، ثم قطع المفاوضة حين وجب قطعها، وقال قولته الخالدة: «لقد دعونا إلى هنا لكى ننتحر، ولكننا رفضنا الانتحار، وهذا كل ما جرى».

قال إسماعيل لطيف، وكان يجد فى السياسة مادة للعبث:

ـ لو قَبِل أن ينتحر لتوج حياته بأجل خدمة يمكن أن يؤديها إلى بلاده!

انتظر حسن سليم حتى فرغ إسماعيل وحسين من الضحك، ثم قال:

ـ ماذا أفدنا من هذه المأثورة؟ ليست الوطنية عند سعد إلا نوعًا من البلاغة التى تستهوى العامة، «لقد دعونا إلى هنا لكى ننتحر إلخ إلخ»، «يعجبنى الصدق فى القول إلخ إلخ»! . . كلام فى كلام، هنالك رجال لا يتكلمون ولكنهم يعملون فى صمت، وقد حققوا للوطن الفائدة الوحيدة التى جناها فى تاريخه الحديث . .

احتدم الغيظ فى قلب كمال، ولولا ما يكنه لحسن من احترام لشخصيته وسنه لا نفجر، وعجب كيف يتابع «شاب» مثله أباه ـ وهو من جيل قديم على أى حال ـ فى انحرافه السياسى!

ـ أنت تقلل من شأن الكلام كأنه لا شىء، الحق أن أخطر ما تمخض عنه تاريخ البشرية من جلائل الأمور يمكن إرجاعه فى النهاية إلى كلمات، الكلمة العظيمة تتضمن الأمل والقوة والحقيقة، نحن نسير فى الحياة على ضوء كلمات، على أن سعد ليس صانع كلمات فحسب، إن سجله حافل بالأعمال والمواقف!! تخلل حسن شداد شعره الفاحم بأنامله الطويلة الرشيقة وهو يقول:

ـ أوافق على ما قلت عن قيمة الكلمة بصرف النظر عن سعد . . !

لم يعبأ حسن بمقاطعة حسين شداد، فقال مخاطبًا كمال:

ـ إن الأمم تحيا وتتقدم بالعقول والحكمة السياسية والسواعد، لا بالخطب والتهريج الشعبى الرخيص . .

نظر إسماعيل لطيف إلى حسين شداد، وهو يتساءل ساخرا:

ـ ألا ترى أن من يتعب نفسه فى الكلام عن إصلاح هذا البلد كالنافخ فى قربة مثقوبة؟

التفت كمال إلى إسماعيل ليخاطب من وراء حسن بما تردد عن مخاطبته وجها لوجه، قال منفسا عن غيظه:

ـ أنت لا تهمك السياسة فى شىء، لكن مزاحك يفصح أحيانًا عن موقف «قلة» من المحسوبين على المصريين كأنك ناطق بلسانهم، تراهم يائسين من نهوض الوطن، يأس الاحتقار والتعالى لا يأس الطموح والتطرف، ولولا أن السياسة مطية لأطماعهم لاعتزلوها كما تفعل أنت!

ضحك حسين شداد ضحكته اللطيفة، ومد يده إلى ذراع كمال، فشد عليها قائلاً:

- أنت مجادل عنيد، يعجبنى حماسك وإن لم أشاركك الإيمان به، على أننى كما تعلم محايد، لا من الوفديين ولا من الدستوريين، لا استهانة كإسماعيل لطيف، ولكن لاعتقادى بأن السياسة تفسد الفكر والقلب، ينبغى أن تعلو عليها حتى تتراءى لك الحياة ميدانا لانهائياً للحكمة والجمال والتسامح، لا معترك صراع وكيد..

ارتاح إلى صوت حسين فسكنت فورته، كان يطرب لموافقته إذا وافقه على رأى، ويتسع صدره لمعارضته إذا عارضه فيه، ومع أنه كان يشعر بأن تبريره للحياد ما هو إلا اعتذار عن ضعف وطنيته، فإنه لم يحنق عليه لذلك ولم ير فيه نقيصة ولكن وسعها عفوه وحلمه وتسامحه، قال يجاريه:

- الحياة هى هذا كله، هى الصراع والكيد والحكمة والجمال، فأى وجه تتجاهله من وجوهها تفقد به فرصة لاستكمال فهمك لها وقدرتك على التأثير فيها بما يوجهها نحو الأحسن، لا تحتقر السياسة أبداً، فالسياسة هى نصف الحياة، أو هى الحياة كلها إذا عددت الحكمة والجمال مما فوق الحياة..

حسين شداد كالمعتذر:

- فيما يتعلق بالسياسة، أصارحك بأننى لا أثق فى جميع أولئك الرجال..

سأله كمال كالمتودد:

- ماذا نزع ثقتك من سعد؟

- بل دعنى أسألك عما يجعلنى أضع ثقتى فيه!.. سعد وعدلى وعدلى وسعد، ما أسخف هذا كله، على أنه إذا كان سعد وعدلى سيين عندى فى الناحية السياسية فإننى لا أراهما كذلك كرجلين، إذ لا يمكن أن أتجاهل مايمتاز به عدلى من كريم الأصل وعظيم الجاه والثقافة، أما سعد - وإياك أن تغضب - فما هو إلا أزهرى قديم!..

آه، شد ما يحز فى نفسه أن يند عن حسين أحيانًا ما يشى بتعاليه عن الشعب فيشعر وهو من الحزن فى نهاية كأنه يتعالى عنه هو أو - وهو الأدهى والأمر - كأنه ينطق بلسان الأسرة جميعًا، أجل، إنه إذا حادثه أشعره كأنما يتكلم عن شعب غريب «عنهما» معًا، ولكن أكان ذلك عن خطأ فى التصوير أم عن مجاملة؟ ومن عجب أن موقف حسين هذا لم يغضبه من ناحية دلالته العامة بقدر ما أحزنه من ناحية دلالته الخاصة به، فلم يستثر عداوته الطبقية ولا إحساسه الوطنى.. انهزمت هذه المشاعر حيال بشاشة وضيئة تنم عن الصراحة وحسن الطوية، وتراجعت أمام حب لا تنال منه الآراء والأحداث، على الضد من هذا كان شعوره حيال موقف حسين شداد منه، فكان - رغم صداقتهما - يهيج غضبه

لوطنه ـ ولم يشفع له عنده تأدبه فى الخطاب وتحفظه فى إظهار مشاعره، بل لعله آنس فيهما «حكمة» تضاعف من مسئوليته وتؤكد تعصبه الأرستقراطى الموجه ضد الشعب، قال مخاطبًا حسين:

ـ أفى حاجة أنا أن أذكرك بأن العظمة شىء غير العمامة والطربوش أو الفقر والغنى؟ يبدو لى أن السياسة تضطرنا أحيانًا إلى مناقشة البديهيات! . .

قال إسماعيل لطيف:

ـ إن ما يعجبنى فى الوفديين ـ أمثال كمال ـ هو شدة تعصبهم!

ثم وهو يجيل بصره فى الجالسين:

ـ أما ما يسوءنى منهم، فهو شدة تعصبهم أيضًا!

قال حسين شداد ضاحكًا:

ـ أنت سعيد الحظ، لأنك مهما أبديت فى السياسة من رأى، فلن يعترض سبيلك معقب . . !

هنا سأل حسن سليم حسين شداد قائلاً:

ـ تزعم أنك تربأ بنفسك عن السياسة، فهل تصر على ذلك حتى إذا تعلق الأمر بالخديو السابق؟

اتجهت الأعين نحو حسين فى تحد باسم لما هو معروف عن تشيع والده شداد بك للخديو السابق، الأمر الذى أبعد من أجله أعوامًا قضاها فى باريس، ولكن حسين قال فى غير مبالاة:

ـ لا تعنينى هذه الأمور فى كثير أو قليل، كان والدى ولا يزال من رجال الخديو، ولكننى لست مطالبًا باعتناق آرائه . .

سأله إسماعيل لطيف، وفى عينيه الضيقتين بريق ضاحك:

ـ أكان والدك من الذين يهتفون «الله حىّ . . عباس جى»؟

فقال حسين شداد ضاحكًا:

ـ لم أسمع عن هذا الذكر إلا منكم، والحق الذى لا ريب فيه، أنه لم يعد بين أبى وبين الخديو إلا الصداقة والوفاء، وفضلاً عن ذلك فليس ثمة حزب ـ كما تعلمون ـ يدعو اليوم إلى عودة الخديو . .

قال حسن سليم:

ـ أمسى الرجل وعهده فى ذمة التاريخ، الحاضر يمكن تلخيصه فى كلمتين، وهما، أن سعد يأبى أن يقوم فى مصر من يتكلم باسمها غيره ولو كان خير الرجال وأحكمهم!

لم يكد يتلقى الضربة كمال حتى جاوبه قائلاً :

ـ الحاضر فى كلمة واحدة، أن ليس فى مصر من يتكلم باسمها إلا سعد، وأن التفاف الأمة حوله جدير فى النهاية بأن يبلغ بها ما نرجو من الآمال . .

وشبك ذراعيه على صدره، ومد ساقيه حتى مس طرف حذائه رجل المائدة، وهم بالاسترسال فى حديثه لو لا أن جاءهم من الوراء صوت غير بعيد يتساءل «ألا تريدين يا بدور أن تحيى أصدقاءك القدماء؟» فانعقد لسانه، ووثب قلبه وثبة عنيفة رجت صدره رجا أفزعه أول الأمر وآلمه، وفى أسرع من لمعان البرق استغرقته سكرة طاغية من السعادة كاد يغمض لها عينيه من شدة التأثر، ثم وجد أن كل خاطرة تنبض بها نفسه قد اتجهت صوب السماء، قام مع الأصدقاء كما قاموا، واستدار معهم إلى الوراء، فرأى على بعد خطوة من الكشك عايدة واقفة ممسكة بيد بدور شقيقتها الصغرى ذات الأعوام الثلاثة، وهما يتطلعان إليهم بأعين هادئة باسمة . . ها هى ذى بعد انتظار ثلاثة أشهر أو يزيد، ها هو «الأصل» الذى تملأ «صورته» روحه وجوارحه ويقظته، ونومه، ها هى قائمة أمام عينيه شاهدا على أن الألم الذى لا حد له والسرور الذى لا وصف له واليقظة المحرقة للنفس والحلم المدوم فى السماء، إن كل أولئك ربما رجعت فى آخر الأمر إلى آدمى لطيف تترك قدماه انطباعاتهما على أرض الحديقة! ورنا إليها فجذب مغناطيسها شعوره كله حتى سلبه الإحساس بالزمان والمكان والأناسى والنفس، فعاد كأنه روح مجردة تسبح فى فراغ نحو معبودها . . على أن إدراكه لها هى نفسها لم يكن حسيًا بقدر ما كان روحيًا، تمثل فى نشوة ساحرة وغبطة شادية وسبحة عالية، بينا وهنت منه الرؤية أو تلاشت، كأن قوة انفعاله الروحى استأثرت بكل حيويته فغودرت حواسه وقواه العاقلة والمدركة والملاحظة فى سبات أشرف به على نوع من الفناء، لذلك كانت دائمًا أطوع لذاكرته منها إلى حواسه، لا يكاد يرى منها وهو فى محضرها شيئًا، ولكنها تتراءى فيما بعد فى ذاكرته بقامتها الهيفاء ووجهها البدرى الخمرى وشعر عميق السواد مقصوص «ألاجرسون» ذى قصة مسترسلة على الجبين كأسنان المشط وعينين ساجيتين تلوح فيهما نظرة لها هدوء الفجر ولطفه وعظمته، كان يرى هذه الصورة بذاكرته لا بحواسه كالنغمة الساحرة نفنى فى سماعها فلا نذكر منها شيئًا حتى تفاجئنا مفاجأة سعيدة فى اللحظات الأولى من الاستيقاظ أو فى ساعة انسجام، فتتردد فى أعماق الشعور فى لحن متكامل . وتساءلت أحلامه وأمانيه : ترى هل تغير من طريقتها المألوفة فتمد يدها للمصافحة فيلمسها ولو مرة فى الحياة؟ لكنها حيتهم بابتسامة وتحنية من رأسها، وهى تتساءل بذلك الصوت الذى يزرى بأحب الألحان إليه :

ـ كيف حالكم جميعًا؟

فاستبقت الأصوات إليها بالتحية والشكر والتهنئة على سلامة العودة، عند ذاك عبثت أناملها الرشيقة برأس بدور وهى تقول لها:

ـ صافحى أصدقاءك!

فثنت بدور شفتيها داخل فيها وعضت عليهما وهى تردد عينيها بينهم فى حياء حتى استقرتا على كمال، فابتسمت وابتسم! قال حسين شداد، وكان على علم بما بين الطفلة وكمال من مودة:

ـ إنها تبتسم لمن تحبه!

ـ أتحبين هذا حقًا؟ (ثم وهى تدفعها نحوه) إذن سلِّمى عليه..

مد لها كمال يديه متورد الوجه من السرور، فأقبلت نحوه، فرفعها بين يديه حتى أقرها فى حضنه، وراح يقبل خديها فى حنان وتأثر شديدين، كان بهذا الحب سعيدا فخوراً، ليست التى بين يديه إلا فلذة من جسد الأسرة، فهو يضم الكل إذ يضم الجزء إلى صدره، هل أمكن اتصال العبد بمعبوده إلا عن وساطة كهذه الوساطة؟.. والسحر كل السحر فى هذا الشبه الغريب بين الطفلة وشقيقتها، كأن المطمئنة إلى صدره عايدة نفسها فى طور من أطوار حياتها الماضية، كانت يومًا مثل بدور سنا وحجمًا وجودًا فتأمل!.. فليهنأه هذا الحب الطاهر.. ليسعد بعناق جسم تعانقه هى.. وبتقبيل وجنة تقبلها هى.. وليحلم حتى يشرد منه العقل والقلب. إنه يدرى لمَ يحب بدور ولمَ يحب حسين ولمَ يحب القصر وحديقته وخدمه، إنه يحبها جميعًا إكراما لعايدة، أما الذى لا يدريه فهو حب عايدة نفسها!.. رددت عايدة عينيها بين حسن سليم وإسماعيل لطيف، ثم سألتهما:

ـ كيف وجدتما الإسكندرية؟

فقال حسن:

ـ رائعة!..

على حين تساءل إسماعيل:

ـ ماذا يجذبكم إلى رأس البر دواما؟

فقالت بصوت رخيم مشرّبة نبراته بعذوبة موسيقية:

ـ صيفنا مرات فى الإسكندرية، ولكن الاصطياف لا يطيب لنا إلا فى رأس البر، هنالك الهدوء والبساطة وألفة لا تجدها إلا فى بيتك!

فقال إسماعيل ضاحكًا:

ـ من سوء الحظ أن الهدوء لا يطيب لنا..

ما أسعده بهذا المنظر . . هذا الحديث . . هذا الصوت، تأمل أليست هذه هى السعادة؟! فراشة كنسمة الفجر تقطر ألوانا بهيجة وترشف رحيق الأزاهر . . هذا أنا، لو يدوم هذا الموقف إلى الأبد! . .

قالت عايدة :

ـ كانت رحلة ممتعة، ألم يحدثكم حسين عنها؟

قال حسين بلهجة انتقادية :

ـ بل كانوا يتناقشون فى السياسة!

فالتفتت ناحية كمال قائلة :

ـ هنا شخص لا يحلو له إلا حديثها . .

من عينيها نظرة تلقى إليك كالرحمة، صفاؤها يجلو روحا ملائكيًا، بعثت كما يبعث عباد الشمس فى ضوئها المشرق، لو يدوم هذا الموقف إلى الأبد! . .

ـ لم أكن المسئول عن إثارة المناقشة اليوم . .

فقالت باسمة :

ـ لكنك اغتنمت الفرصة . .

ابتسم فى تسليم، وعند ذاك حولت عينيها إلى بدور هاتفة :

ـ أتنوين أن تنامى بين ذراعيه! . . كفاك سلامًا . .

غلب الحياء بدور، فدفنت رأسها فى صدره، فجعل يربت على ظهرها فى حنان، غير أن عايدة توعدتها قائلة :

ـ إذن سأتركك وأرجع وحدى . .

فرفعت بدور رأسها ومدت لها يدها وهى تغمغم «لا»، فقبلها كمال وأنزلها إلى الأرض، فجرت إلى عايدة وقبضت على يدها، ألقت عايدة عليهم نظرة شاملة ثم لوحت بيدها تحية وذهبت من حيث أتت. عادوا إلى مقاعدهم فواصلوا الحديث كيفما اتفق، هكذا كانت تقع زيارات عايدة فى كشك الحديقة، مفاجأة سعيدة قصيرة ولكنه بدا قانعًا، وشعر بأن تصبره طيلة أشهر الصيف لم يذهب هدرًا، لم لا ينتحر الناس ضنا بالسعادة كما ينتحرون فرارًا من الشقاء؟ ليس من الضرورى أن تسيح كما يود حسين أن يسيح كى تلقى متع الحواس والعقل والروح، فمن الجائز أن تفوز بكل أولئك فى لحظة خاطفة دون أن تبرح مكانك! من أين لبشر أن يؤتى القدرة على إحداث هذا كله؟! أين فورة السياسة وحرارة الجدل واحتدام الخصام وتصادم الطبقات؟ . . ذابت كلها وتوارت تحت نظرة من عينيك يا معبودتى، ما الفاصل بين الحلم والحقيقة وفى أيهما ترانى أهيم الساعة؟

ـ موسم الكرة سيبدأ عما قريب . .

ـ كان الموسم الماضى موسم الأهلى دون شريك!

ـ هُزم المختلط بالرغم من أن فريقه يضم أبطالاً أفذاذا . .

انبرى كمال للدفاع عن المختلط ـ كما دافع عن سعد ـ صادا عنه هجمات حسن سليم . كان أربعتهم من لاعبى الكرة على تفاوت فى الحذق والحماس ، فكان إسماعيل أمهرهم إلى حد أنه برز بينهم كالمحترف بين الهواة ، على حين كان حسين شداد أضعفهم ، أما كمال وحسن فكانا بين ذلك ، وقد اشتدت المناظرة بين كمال وحسن ، ذاك يرجع هزيمة المختلط إلى سوء الحظ وهذا يردها إلى تفوق لاعبى الأهلى الجدد . . واستمر الجدل دون أن ينزل أحدهما عن رأيه . تساءل كمال : لمَ يجد نفسه دائمًا فى الجانب المضاد للجانب الذى يقف فيه حسن سليم؟ الوفد الأحرار ، المختلط الأهلى ، حجازى مختار ، وفى السينما يفضل شارلى شابلن فيفضل الآخر ماكس لندر!

غادر المجلس قبيل المغيب ، وفيما هو يسير فى الممر الجانبى المفضى إلى الباب الخارجى إذ سمع صوتًا يهتف :

ـ ها هو ذا . .

رفع رأسه مسحوراً فرأى عايدة فى إحدى نوافذ الدور الأول ، مُجلسة بدور على حافة النافذة بين يديها وهى تشير لها إليه ، وقف تحت النافذة مباشرة مرفوع الرأس ، يتطلع بوجه باسم إلى الطفلة التى لوحت له بيدها الصغيرة ، ويلمح بين لحظة وأخرى إلى الوجه الذى استقرت فى هيئته ورموزه آماله فى الحياة وما بعد الحياة ، وقلبه يتلاطم بين الضلوع سكرًا ، لوحت له بدور بيدها مرة أخرى ، فسألتها عايدة :

ـ تذهبين إليه؟

حنت الصغيرة رأسها بالإيجاب ، فضحكت عايدة من هذه الرغبة التى لن تتحقق ، على حين مضى هو يتوسمها متشجعًا بضحكاتها ـ غارقا بروحه فى حور عينيها وملتقى حاجبيها مسترجعًا صدى ضحكتها المترعة ونبرات وصوتها الدافئ حتى اضطربت أنفاسه من وجد وهيام ، ولما كان الموقف يملى عليه أن يتكلم ، فقد سأل معبودته وهو يشير إلى محبوبته الصغيرة :

ـ هل ذكرتنى فى المصيف؟

قالت عايدة وهى تتراجع برأسها قليلاً :

ـ سلها هى ، لا شأن لى بما بينك وبينها!

ثم مستدركة قبل أن ينبس هو بكلمة :

ـ هل ذكرتها أنت؟

آه، موقفك فوق السطح بين مريم وفهمى، قال بحرارة:

ـ لم تغب عن ذاكرتى يومًا واحدًا . .

نادى عند ذاك صوت من داخل القصر فاعتدلت عايدة فى وقفتها ورفعت بدور بين يديها، ثم قالت معلقة على كلامه وهى تهم بالذهاب:

ـ يا له من حب عجيب!

وغابت عن النافذة . .

١٥

لم يبق من رواد مجلس القهوة إلا أمينة وكمال، وحتى كمال كان يبرحه عند الأصيل إلى الخارج فتلبث الأم بمفردها أو تدعو أم حنفى إلى مؤانستها حتى يحين وقت النوم. وكان ياسين قد خلف وراءه فراغًا، ومع أن أمينة حرصت دائمًا على ألا تعود إلى ذكراه فإن كمال شعر لغيابه بوحشة غاضت أبهج ما كان يجد فى مجلس القهوة من متعة. وكانت القهوة ـ قديمًا ـ شراب المجلس الذى يجتمع حوله الأبناء للسمر. فانقلب اليوم ـ عند الأم ـ كل شىء فيه، فأسرفت فى حسوها إسرافًا وهى لا تدرى حتى صار صنع القهوة وحسوها سلوة وحدتها، فربما احتست خمسة أو ستة ـ وأحيانًا عشرة ـ فناجيل تباعًا، وكان كمال يتابع إفراطها بقلق ويحذرها من عواقبه، فترد عليه بابتسامة كأنما تقول له «وماذا أفعل إذا لم أشرب؟» ثم تقول له بلهجة الواثق المطمئن «لا ضرر من القهوة» . . . جلسا متقابلين، هى على الكنبة الفاصلة بين حجرتى النوم والمائدة، وهو على الكنبة المتوسطة لحجرتى نومه ومكتبه، وكانت عاكفة على المجمرة التى دفنت الكنجة حتى نصفها فى جمراتها، وكان صامتًا شارد النظرة، وفجأة سألته:

ـ فيم تفكر يا ترى؟ دائمًا ترى وكأنك مشغول الفكر بأمر ذى بال.

آنس من صوتها ما يشبه العتاب، فقال:

ـ العقل يجد دائمًا ما يشغله!

فرفعت إليه عينيها الصغيرتين العسليتين كالمتسائلة، ثم قالت فى شىء من الحياء:

ـ مضى زمن كنا لا نجد وقتًا يتسع لحديثنا!

حقا؟ ذلك ماض مضى، عهد الدروس الدينية وقصص الأنبياء والشياطين، عهد تعلقه بها لحد الجنون، انقضى ذلك العهد، فيم يتحدثان اليوم؟ إلا تكن دردشة لا معنى

لهـا فلا وجه للكلام على الإطلاق، ابتسم كأنما يعتذر بابتسامته عن صمته السابق واللاحق معًا، ثم قال:

ـ نحن نتكلم كلما وجدنا للكلام موضوعًا.

فقالت برقة:

ـ ليس للكلام حدود لمن أراد أن يتكلم، ولكنك تبدو غائبًا دائمًا أو كالغائب . .

ثم بعد تفكير:

ـ أنت تقرأ كثيرًا، فى عطلتك تقرأ كما تقرأ فى وقت دراستك، لم تستوف يومًا حظك من الراحة، أخاف أن تكون أتعبت نفسك أكثر مما ينبغى . .

فقال كمال بلهجة دلت على أنه لم يرحب بهذا التحقيق:

ـ اليوم طويل جدا، وقراءة ساعات لا يمكن أن تتعب إنسانًا، ليست إلا نوعًا من التسلية وإن تكن تسلية مفيدة . .

فقالت بعد تردد:

ـ أخاف أن تكون القراءة سبب ما يبدو عليك كثيراً من الصمت والشرود . . .

كلا ليست القراءة، القراءة ملاذ من التعب لو تعلمين، شىء آخر يشغل عقله طيلة الوقت ولا يسلم منه وقت القراءة نفسه، شىء لا علاج له لا عندها ولا عند غيرها من البشر، إنه مرض قلب يتعبد حائرا ولا يدرى ماذا وراء عنائه يروم! قال بمكر:

ـ القراءة كالقهوة لا ضرر منها! ألا تحبين أن أصير «عالما» كجدى؟

فشاعت البهجة والفخار فى الوجه المستطيل الشاحب، وقالت:

ـ بلى، إنى أود ذلك بكل قلبى، ولكننى أحب أن أراك دائمًا منشرح الصدر . . .

وقال باسمًا:

ـ إنى منشرح الصدر كما تحبين، فلا تشغلى البال بمحض أوهام.

كان يلاحظ أن رعايتها له ازدادت فى السنوات الأخيرة أكثر مما ينبغى، وأكثر مما يود، وأن تعلقها به وحدبها عليه وإشفاقها مما يضره ـ أو مما تتوهم أنه يضره ـ باتت شغلها الشاغل إلى حد ضايقه واستفزه للذود عن حريته وكرامته، بيد أنه لم تغب عنه أسباب هذا التطور الذى بدأ عقب مصرع فهمى وابتلائها بفقده، فلم يجاوز أبدًا فى ذوده عن حريته حدود اللطف والأدب:

ـ يسرنى أن أسمع هذا منك وأن يكون حقًا وصدقًا، لست أبغى إلا سعادتك، ولقد دعوت لك اليوم فى سيدنا الحسين دعاء أرجو أن يمن الله باستجابته!

ـ آمين . .

ونظر إليها وهى ترفع الكنجة لتملأ فنجانها للمرة الرابعة، فانفرج ركنا فيه عن ابتسامة خفيفة.. ذكر كيف كانت زيارة الحسين لديها أمنية فى حكم المستحيل، ها هى اليوم تزوره كلما زارت القرافة أو السكرية، ولكن ما أفدح الثمن الذى دفعته نظير هذه الحرية الضئيلة! هو نفسه له أمانيه التى فى حكم المستحيل فأى ثمن تقتضيه كى تتحقق؟ ألا إن أى ثمن - وإن جلّ - يهون فى سبيل ذلك، عاد يقول ضاحكًا ضحكة مقتضبة:

- إن لزيارة الحسين ذكريات لا تنسى..

تحسست ترقوتها بيديها، وهى تبتسم قائلة:

- وأثر باق لا يزول..

فقال كمال فى شىء من الحماس:

- لست اليوم حبيسة البيت كما كنت قديمًا، أصبح من حقك أن تزورى خديجة وعائشة أو سيدنا الحسين كلما أردت، تصورى أى حرمان كنت تمنين به نفسك لو لم يفك أبى قيودك!

رفعت إليه عينيها فيما يشبه الارتباك أو الخجل، كأنما كبر عليها أن تذكر بامتياز نالته نتيجة لثكلها، ثم أطرقت فى وجوم ولسان حالها يقول «ليتنى بقيت كما كنت وبقى لى فقيدى»، غير أنها تحاشت الإفصاح عما جاش به صدرها إشفاقًا من تكدير صفوه، وقنعت بأن تقول وكأنها تعتذر عما حظيت به من حرية:

- ليس خروجى بين حين وآخر فرجة أستمتع بها، إنى أزور الحسين لأدعو لك، وأزور أختيك لأطمئن عليهما ولأحل مشكلات لا أدرى من كان غيرى يحلها!

فابتده المشكلات التى تعنى، ولما كان يعلم أنها زارت السكرية اليوم، فقد تساءل:

- هل من جديد فى السكرية؟

قالت وهى تتنهد:

- العادة..!

هز رأسه أسفًا، وهو يبتسم قائلاً:

- مخلوقة للنقار، هذه هى خديجة..

قالت أمينة بحزن:

- قالت لى حماتها، إن أى محادثة معها مخاطرة غير محمودة العواقب..

- الظاهر أن حماتها - نفسها - قد خرفت!.

- لها من الكبر أعذار، ولكن ما عذر أختك؟

- ترى آآثرتها على الحق أم آثرت الحق عليها؟

وضحك ضحكة ذات مغزى، فتنهدت أمينة مرة أخرى، وقالت:

ـ أختك حامية الطبع، وسرعان ما تضيق حتى بالنصيحة الخالصة، ويا ويلى إذا جاملت حماتها مراعاة لسنها ومكانتها، هنالك تسألنى وعيناها تحماران «أنت معى أم علىّ؟»، لا حول ولا قوة إلا بالله، معى أم علىّ! هل نحن فى حرب يا بنى؟ ومن الغريب أن يكون الحق أحيانًا على حماتها ولكنها تتمادى فى الخصام حتى ينقلب الحق عليها هى..!

هيهات أن يسخطه عليها شىء، كانت ولا تزال أمه الثانية ومورد حنان لا ينضب، أين منها عائشة الجميلة السادرة التى تشبعت بالشوكتية حتى ذؤابتها!

ـ وعم أسفر التحقيق؟

ـ بدأ الشجار بالزوج هذه المرة وعلى غير المألوف، دخلت الشقة وهما يتجادلان فى عنف حتى عجبت لما أهاج الرجل الطيب، فتدخلت بينهما بالسلام، ثم عرفت سبب هذا كله، كانت معتزمة أن تنفض الشقة، ولكنه ظل نائمًا حتى التاسعة فأصرت على إيقاظه حتى استيقظ غاضبًا، وركبه عناد مفاجئ فأبى أن يغادر الفراش، وسمعت والدته الزعق، فجاءت على عجل، وما لبثت النار أن اشتعلت، ولم يكد هذا الشجار أن ينتهى حتى شب آخر بسبب أحمد الذى عاد من الطريق مطين الجلباب، فضربته وأرادت أن يستحم من جديد، فاستغاث الولد بأبيه، وتصدى الرجل لحمايته، فكان الشجار الثانى فى نصف نهار!

وهو يضحك:

ـ وماذا فعلت؟

ـ بذلت ما فى وسعى ولكنى لم أسلم، فلامتنى طويلاً على وقوفى موقف الوسيط، وقالت لى: كان ينبغى أن تنضمى إلى كما انضمت أمه إليه!

ثم وهى تتنهد لثالث مرة:

ـ قلت لخديجة: ألا تذكرين كيف كنت ترييننى أمام والدك، فقالت بحدة: «هل تظنين أنه يوجد رجل مثل أبى فى هذه الدنيا!؟».

وردت مخيلته على غير ميعاد صورة عبد الحميد بك شداد وحرمه سنية هانم، وهما يسيران جنبًا إلى جنب، من الفراندا إلى السيارة المنيرفا المنتظرة أمام باب القصر، لا سيد ولا مسود ولكن صديقين متساويين، يتحادثان فى غير كلفة وهى تتأبط ذراعه، حتى إذا بلغًا السيارة تنحى البك جانبًا حتى تركب هى أولا! هل يتأتى لك أن ترى والديك فى مثل هذه الصورة؟! يا لها من خاطرة مضحكة! يتحركان فى جلال خليق بالمعبودة التى أنجباها، ولو أن الهانم لم تكن دون أمه كهولة إلا أنها كانت ترتدى معطفا نفيسًا آية فى

الذوق والأناقة والغندرة، وتنطلق سافرة الوجه، وجه مليح وإن يكن دون الوجه الملائكى بما لا يقاس، وتنشر فيما حولها شذى عطراً وروعة آسرة، ود لو يعلم كيف يتحادثان وكيف يأتلفان، وكيف يتخاصمان إن كانا يتخاصمان. شغفا بمعرفة حياة تمت إلى حياة معبودته بأوثق الوشائج والصلات، أتذكر كيف كنت تطالعهما بين المتعبد الرانى إلى كبار الكهنة والسدنة؟ قال بهدوء:

ـ لو تطبعت خديجة ببعض طباعك لضمنت حياة سعيدة..

ابتسمت أساريرها فى سرور، غير أن سرورها ارتطم بالحقيقة المرة، وهى أن طباعها لم تستطع على دماثتها أن تضمن لها السعادة دواما، ثم قالت والابتسامة لا تفارق شفيتها لتدارى بها أفكارها السوداء التى تشفق من إطلاعه عليها:

ـ هو وحده الهادى، ربنا يزيد طبعك حلاوة حتى تكون من الذين يحبون الناس ويحبهم الناس..

فبادرها متسائلاً:

ـ كيف تجديننى؟

فقالت بإيمان:

ـ أنت كذلك، وأكثر..

لكن كيف يتأتى لك أن تحبك الملائكة؟! ادع صورتها السعيدة وتأمل قليلاً، هل يمكن أن تتخيلها مسهدة طريحة حب وجوى؟ وما أبعد ذلك عن خوارق الظنون، إنها فوق الحب ما دام الحب نقصًا لا يدرك الكمال إلا بالحبيب، اصبر ولا تلو قلبك من الألم، حسبك أن تحب، حسبك منظرها الذى يشعشع بالنور روحك، وأنغام نبراتها التى تسكر بالتطريب جوارحك، من المعبودة ينبثق نور تتبدى فيه الكائنات خلقا جديدا، الياسمين واللبلاب من بعد صمت يتناجيان، والمآذن والقباب تطير فوق بساط الشفق صوب السماء، معالم الحى العتيق تنطق عن حكمة الأجيال، أوركسترا الوجود تستأنف زفرات الصراصير، الحنان يفيض من الجحور، الأناقة تزخرف الأزقة والدروب، عصافير الغبطة تزقزق فوق القبور، الجمادات تتيه فى صمت التأملات، قوس قزح يتجلى فى الحصيرة التى تطرح عليها قدميك، هذه دنيا معبودتى!

ـ كنت مارة بالأزهر فى الطريق إلى الحسين، فقابلتنى مظاهرة كبيرة تهتف بهتافات ذكرتنى بالماضى، هل جد جديد يا بنى؟

قال:

ـ الإنجليز لا يريدون أن يذهبوا بسلام!

قالت بحدة، وفى عينيها نظرة غضب تبرق:

ـ الإنجليز . . الإنجليز! . . متى تنزل عليهم نقمة الله العادل؟

انطوت دهراً لسعد نفسه عن مثل هذه الكراهية، لولا أن أقنعها فى النهاية بأنه لا يجوز أن يبغضوا شخصاً أحبه فهمى! وعادت تتساءل فى قلق ظاهر:

ـ ماذا تعنى يا كمال؟ هل نعود إلى أيام البلاء؟

فقال بامتعاض:

ـ لا يعلم الغيب إلا الله!

فاعتراها ضيق بدا فى تقلصات وجهها الشاحب، وقالت:

ـ اللهمّ قنا العذاب فلنتركهم لغضب القهار، هذه هى الخطة المثلى، أما أن نلقى بأنفسنا إلى التهلكة فهو الجنون والعياذ بالله!

ـ هدئى من روعك، لا محيد من الموت، الناس يموتون بسبب أو بآخر، وبلا سبب على الإطلاق!

قالت فى استياء:

ـ لا أنكر أن قولك حق، ولكنّ لهجتك لا تعجبنى!

ـ كيف تريدين أن أتكلم؟

قالت بصوت مؤثر:

ـ أريد أن تعلن موافقتك على أنه من الكفر أن يعرض الإنسان نفسه للتهلكة . .

قال فى تسليم، وهو يدارى ابتسامة:

ـ أوافق . .

فرمقته بارتياب، وقالت بتوسل:

ـ وأن تقول ذلك بالقلب لا باللسان . .

ـ بالقلب أتكلم . .

ما أعظم الفارق بين الواقع والمثال، أنت تتطلع بحماس إلى المثل الأعلى فى الدين والسياسة والفكر والحب، الأمهات لا يفكرن إلا فى السلامة، أى أمّ ترضى أن تدفن ابنا فى كل خمسة أعوام، لابد للحياة المثالية من قرابين وشهداء، . . الجسم والعقل والروح قرابينها، فهمى ضحى بحياة واعدة فى سبيل ميتة رائعة، فهل تستطيع أن تلقى الموت كما لقيه؟ قلبك لا يتردد عن الاختيار ولو حطم قلب هذه الأم التعيسة، ميتة تستنزف جرحًا وتضمد جروحًا، يا له من حب . . أجل، ولكنه ليس الذى بينى وبين بدور وأنت تعلمين، الحب العجيب حقًا هو حبى لك، هو شهادة للدنيا ضد المتشائمين من خصومها، علمنى أن الموت ليس أفظع ما نخاف وأن الحياة ليست أبهج ما نبتغى، وأن

من الحياة ما يغلظ ويفر حتى يلتمس الموت، ومنها ما يرق ويثرى حتى يهفو إلى الخلود، ومناداتها لك ما أطربها، بصوت لا تدرى كيف تصفه، لا رفيع النبرة ولا غليظها، مثل «فا» السلم الموسيقى المنبعثة من كمان، رنينه فى صفاء النور، ولونه لو تخيلت له لونًا فى زرقة السماء العميقة، دافئ الإيمان، داعية إلى السماء . .

١٦

- يوم الخميس القادم سأعقد زواجى متوكلاً على الله . . .
- ربنا يوفقك!
- سيكون التوفيق من نصيبى إذا رضى عنى أبى . .
- إنه راض عنك، والحمد لله . .
- سيقتصر الحضور على الأهل، ولن تلقى هنالك ما يضايق حضرتك.
- عظيم عظيم!!
- وددت لو كانت نينة فى الحاضرين، ولكن . .
- ما علينا، المهم أن تمر الليلة فى هدوء . .
- لم يغب عنى هذا بطبيعة الحال، أنا أعرف الناس بطبعك، ولن يعدو اليوم كتابة العقد وشرب الشربات . .
- عظيم، ربنا يهديك إلى سواء السبيل . .
- كلفت كمال أن يبلغ والدته تحياتى وأن يرجوها عنى ألا تحرمنى من دعائها الطيب كما عودتنى من قديم، وأن تعفو عما كان . .
- طبعًا . . طبعًا!!
- أرجو أن تكرر على سمعى أنك راضى عنى.
- إنى راض عنك، والله أسأل أن يكتب لك التوفيق والفلاح، إنه سميع الدعاء . .

هكذا سارت الأمور ضد مشيئة السيد أحمد، واضطر إلى مجاراتها أن ينصدع ما بينه وبين ابنه، وكان قلبه فى الحق أرق من أن يتصدى لياسين بخصام جدى فضلاً عن القطيعة، فقبل أن يسلم بيده ابنه البكر إلى بنت بهيجة، وأن يبارك ـ بنفسه ـ العلاقة التى ستضم خليلته السابقة إلى صميم أسرته! بل لم يقبل تدخل أمينة حين أعربت له عن رجائها فى أن يمتنع «إخوة فهمى» عن شهود زواج ياسين من مريم، فقال لها بلهجة

حاسمة «فكرة سخيفة، من الناس من يتزوج من أرملة أخيه على حبه والوفاء له، ومريم لم تكن زوجة فهمى ولا حتى خطيبته، وذلك تاريخ قديم مضى عليه ستة أعوام، لست أنكر أنه لم يوفق فى اختياره ولكنه حسن النية بقدر ما هو بغل، ولم يسئ إلى أحد كما أساء إلى نفسه، أسرة كان بوسعه أن يصهر إلى خير منها، وفتاة مطلقة، الأمر لله وذنبه على جنبه» . سكتت أمينة كأنما سلمت بحجته، فإنها وإن كانت اكتسبت مع الأيام السود بعض جرأة تعينها على الإفصاح عن رأيها للسيد إلا أنها لم تكن من القوة بحيث تجعلها تراجعه أو تجادله، ولذلك فعندما زارتها خديجة لتخبرها بأن ياسين دعاها إلى حضور زواجه، وأنها تفكر فى ادعاء المرض لتتخلف عن الذهاب لم توافقها على رأيها ونصحتها بقبول دعوة أخيها.

وجاء يوم الخميس، فذهب السيد أحمد عبد الجواد إلى بيت المرحوم محمد رضوان، حيث وجد ياسين وكمال ـ الذى سبقه إليه ـ فى استقباله، ثم لحق بهم بعد قليل إبراهيم شوكت وخليل شوكت مصحوبين بخديجة وعائشة، ولم يكن فى والبيت من آل مريم سوى بضع نساء، فاطمأن السيد أحمد إلى مرور اليوم بسلام! . وكان فى طريقه إلى حجرة الاستقبال قد رأى معالم مألوفة فى البيت، مر بها من قبل فى ظروف جد مختلفة، فهجمت عليه ذكريات الماضى محدثة فى نفسه ألوانًا من الاستياء والضجر لسخريتها الصامتة من الدور الجديد الذى جاء يمثله كوالد وقور للعريس، وراح يلعن فى سره ياسين الذى أوقعه ـ وأوقع نفسه وهو لا يدرى ـ فى هذا المأزق، غير أن الأمر الواقع حمله على أن يراجع نفسه ويمنيها قائلاً: إنه ليس على الله بكثير أن يخلق البنت على غير مثال الأم، وأن يجد ياسين فى مريم زوجا صالحة بكل معنى الكلمة ـ وأن يقيه نزق أمها، ثم سأل الله الستر!

وكان ياسين آخذا زينته، بادى السرور رغم تواضع الحفل المقام لزواجه، وسَرَّه ـ على وجه الخصوص ـ أن لم يتخلف أحد من إخوته عن الحضور، وكان يشفق من أن تؤثر الأم فى بعضهم فيتخلف! أكان فى وسعه أن يستغنى عن مريم إكرامًا لهم؟ كلا، أحبها، ولم تجعل هى من سبيل إليها إلا الزواج فلم يكن من الزواج بد، لم لا؟ ليست اعتراضات والده أو زوجه بعادلة أو مما يكترث لعواقبها، ثم إن مريم أول امرأة يرغب الزواج منها عن معرفة ونظر، وهو إلى هذا متفائل جداً بزواجه ويرجو أن تستقر به حياة زوجية دائمة، أليس كذلك؟ . بلى وهو يشعر أنه سيكون زوجًا طيبًا وستكون زوجة طيبة وسيجد رضوان فى مقبل الأيام بيتا سعيداً ينمو فيه وينضج، لقد دار كثيرا وآن له أن يستكن، فى غير الظروف التى اكتنفت زواجه لم يكن يتردد عن أن يحتفل به احتفالاً شاملاً لشتى ألوان البهجة والسرور، ليس كهلاً ولا فقيراً ولا هو ممن «يدعون» كراهية الليالى الملاح حتى يرضى بهذا الحفل الموحش الصامت الذى هو بالمأتم أشبه، ولكن مهلاً، فللضرورة أحكام، وليزج تقشفه. هذا تحية لذكرى فهمى.

وكان لقاء مريم بخديجة وعائشة ـ بعد فراق طال أعواما ـ مؤثرًا على تحفظه ولم يخل من حرج بين. تبادلن القبلات والتهانى، وتحادثن طويلاً فشرقن وغربن، ولكنهن تجنبن الماضى ما استطعن إلى ذلك سبيلاً. وكانت اللحظات الأولى أحرجها جميعًا. فتوقعت كل واحدة منهن ترديدا الذكرى ماضية على نحو يثير عتابًا أو ملامًا، ماذا دعا إلى تقاطعهن أو لمَ تعكر الجو، ولكنها مرت بسلام، ثم وجهت مريم الحديث بلباقة إلى ثياب خديجة ورشاقة عائشة التى لا زالت تحافظ عليها رغم إنجابها ثلاثة، ثم سألت مريم وأمها عن «الوالدة»، فكان الجواب أنها بخير ولم يزدن حرفًا. ونظرت عائشة إلى صديقتها القديمة بعين ملؤها المودة والحنان وقلب متعطش إلى حب الناس دواما، ولولا إحساس بالإشفاق لساقت الكلام إلى الذكريات الماضية ولضحكت ملء فيها، أما خديجة فجعلت تسترق إليها نظرات متفحصة، ومع أن مريم ظلت سنوات لا تخطر لها على بال فإن أنباء زواجها من ياسين أطلقت لسانها بالملاحظات المرة، وراحت تذكر عائشة بواقعة «الإنجليز» وتتساءل عما أعمى ياسين وأصمه! على أن شعور خديجة العائلى المرهف الذى يقدم سائر مزاياها، لم يسمح لها بلوك شىء من ذلك على مسمع من آل شوكت غير مستثنية زوجهانفسه، حتى نبهت أمها إلى ذلك قائلة «سواء رضينا أم لم نرض فستصبح مريم من أسرتنا!».. ولا عجب، فما زالت خديجة حتى بعد إنجاب عبد المنعم شوكت وأحمد شوكت تعد آل شوكت «أغرابًا» لدرجة ما.

وجاء المأذون فى مطلع المساء، ثم عقد الزواج، ودارت أكواب الشربات، وانطلقت زغرودة واحدة، وتلقى ياسين التهانى والدعوات الصالحات، ودعيت العروس إلى مقابلة «سيدها الكبير» وآل زوجها، فجاءت محاطة بأمها وخديجة وعائشة وقبلت يده وصافحت الآخرين وعند ذاك قدم السيد لها هدية الزواج، أسورة ذهبية ذات فصوص دقيقة من الماس والزمرد، واستمرت الجلسة العائليه وقتًا غير قصير، وحوالى التاسعة أخذ الحاضرون فى الانصراف تباعًا، ثم جاء حنطور فحمل العروسين إلى بيت ياسين بقصر الشوق الذى جهز دوره الثالث لاستقبال العروس، وظن الجميع أن الستار قد أسدل على الزواج الثانى لياسين بخيره وشره؛ ولكن حدث بعد مرور أسبوعين من تاريخ الزواج أن شهد بيت المرحوم محمد رضوان حفلاً آخر لزواج جديد، عُد بحق مفاجأة غريبة فى بيت السيد أحمد والسكرية وقصر الشوق بل فى حى بين القصرين جميعًا!! فعلى حين غرة ـ ودون سابق إنذار ـ لم يدر الناس إلا وبهيجة تعقد زواجها على بيومى الشربتلى!.. عجب الناس لهذا الزواج كل العجب، وكأنما كانوا يفطنون ـ لأول مرة ـ إلى أن دكان بيومى الشربتلى تقع على ناصية عطفة بيت آل رضوان تحت إحدى مشربيات البيت العتيدة مباشرة، فوقفوا أمام هذه الحقيقة يتساءلون، وحق للناس أن يعجبوا، فالعروس أرملة رجل عرف فى حياته بينهم بالطيبة والتقوى، وهى معدودة

من «سيدات» الحى المحترمات رغم ولعها بالتبرج، فضلاً عن بلوغها الخمسين من عمرها، بينا كان الزوج من العامة ذوى الجلابيب يبيع الخروب والتمر هندى فى دكان صغير، ولم يجاوز الأربعين من عمره إلى كونه زوجا رسخت قدمه فى الحياة الزوجية عشرين عامًا، أنجب خلالها تسعا من الإناث والذكور! كل ذلك أثار القيل والقال!! فخاض الناس ـ دون تورع ـ فى مقدمات الزواج التى لم يشعر بها أحد، متى وكيف بدأت ثم كيف نضجت حتى انتهت بالزواج؟! وأى الطرفين كان البادئ الداعى وأيهما كان المستجيب الملبى؟! . .

قال عم حسنين الحلاق، وكان دكانه يقع فى الجانب الآخر من الطريق لصق سبيل بين القصرين إنه كثيراً ما كان يرى ست بهيجة واقفة أمام دكان بيومى تشرب الخروب، ربما تبادلا حديثًا قصيراً، فلا يظن ـ لحسن نيته ـ إلا خيرا! . . وقال أبو سريع صاحب المقلى، وكان دكانه يتأخر ميعاد إغلاقه عن بقية الدكاكين: بأنه ـ أستغفر الله ـ لاحظ مرات أن قوما يتسللون بليل إلى داخل البيت، ولكنه لم يكن يعلم أن بيومى بينهم! وتكلم درويش بائع الفول، وتكلم الفولى اللبان، ومع أنهم تظاهروا بالرثاء للأب المعيل وانتقدوا ـ بمرارة ـ الرجل الأخرق الذى تزوج امرأة فى سن أمه، فإنهم فى قرارة النفس نفسوا عليه حظه ونقموا عليه ارتفاعه عن طبقتهم بهذه الحيلة «غير المناسبة»، ثم طال الحديث بعد ذلك عن تقدير «ميراثه» المنتظر فى البيت، وعن الغنائم المحتملة من نقود وحلى!

أما بيت السيد وبيت السكرية بل وبيت قصر الشوق فقد زلزلوا زلزالاً شديداً، يا للفضيحة! . . هكذا هتفت ألسنتهم، وغضب السيد أحمد غضبًا أرعب آل بيته فتجنبوا مخاطبته أيامًا متتابعات، أليس من حق بيومى الشربتلى أن يدعى قرابته من الآن فصاعدا؟ ملعون ياسين وملعونة شهواته، بيومى الشربتلى أصبح «عمه» وأنف الجميع فى الرغام، وصاحت خديجة عندما تلقت النبأ «يا خبر أسود»، ثم قالت لعائشة «منذا يلوم نينة بعد الآن؟ إن قلبها لا يكذبها أبداً»، وأقسم ياسين ـ بين يدى أبيه ـ على أن الأمر وقع على غير علم منه ولا من زوجه، وأنه أحزنها حزنًا فاق كل تصور، ولكن ما حيلتها؟! ولم تقف الفضيحة عند هذا الحد، فإنه ما كادت زوجة بيومى الأولى تعلم بالخبر حتى طاش عقلها، فغادرت بيتها كالمجنونة سائقة أمامها ذريتها جميعًا، ثم انقضت على بيومى فى دكانه، فنشب بينهما عراك عنيف استعمل فيه اللسان واليد والقدم والزعق والصراخ على مرأى ومسمع من الأطفال الذين جعلوا يعولون ويستنجدون بالمارة حتى تجمهر الناس أمام الدكان السابلة وأصحاب الدكاكين والنساء والأطفال، فخلصوا بين الزوجين وجروا المرأة جراً إلى الطريق، فوقفت تحت مشربية بهيجة مشقوقة الجلباب ممزقة الملاءة منفوشة الشعر دامية الأنف، ثم رفعت رأسها إلى النوافذ المغلقة وأطلقت لسانها كالسوط المحملة أطرافه بالرصاص المنقوع فى السم، والأدهى من هذا

كله أنها برحت موقفها رأسًا إلى دكان السيد أحمد بصفته والد زوج بنت زوجها، وتوسلت إليه بلهجة خطابية باكية أن يستعمل نفوذه لإقناع زوجها فى الرجوع عن غيه، فاستمع السيد إليها وهو يكظم غيظه وحزنه على ما آل إليه أمره، ثم أفهمها برقة ـ ما استطاع ـ أن هذا الأمر كله خارج عن دائرة نفوذه بخلاف ما تتصور، وما زال بها حتى صرفها عن الدكان وهو يغلى من الحنق، على أنه رغم حنقه فكر طويلاً وهو بين الحيرة والتساؤل فيما دفع بهيجة إلى هذا الزواج الغريب، خاصة وهو يعلم علم اليقين أنه لم يكن يعز عليها إرضاء قلبها لو كان به رغبة إلى بيومى الشربتلى دون حاجة إلى تعريض نفسها وآلها لشتى القلاقل بالاقتران منه، لمَ أقدمت على هذه الحماقة غير مبالية بزوج الرجل وعياله ولا عابئة بعواطف ابنتها وآلها الجدد كأنما قد أصابها مس؟ ألا يكون الإحساس المحزن بالكبر هو الذى جعلها تفزع إلى الزواج، بل والتضحية بكثير مما تملك جريًا وراء سعادة كان يضمنها لها الشباب الذى تخلى عنها؟ تأمل هذه الفكرة فى حزن واكتئاب، وذكر مذلته بين يدى زنوبة العوادة التى أبت أن تجود عليه بنظرة عطف حتى حملها إلى العوامة، تلك المذلة التى زعزعت ثقته بنفسه وحملته ـ على طمأنينته الظاهرة ـ على التجهم للزمان الذى سبق فتجهمه.

على أى حال لم تتمتع بهيجة بزواجها طويلاً!!

مع نهاية الأسبوع الثالث منه شكت دمّلا فى ساقها، ثم تبين بالكشف الطبى أنها مصابة بمرض السكر فنقلت إلى قصر العينى، وترامت الأخبار عن خطورة حالها أيامًا، ثم وافاها الأجل المحتوم.

١٧

أمام سراى آل شداد وقف كمال متأبطًا حقيبة صغيرة، فى بدلة رمادية أنيقة، وحذاء أسود لامع، وقد استقام طربوشه فوق رأسه الكبير. بدا طويلاً نحيفًا، وبرز عنقه من فوق بنيقة القميص غير عابئ بحمل الرأس الكبير والأنف العظيم. وكان الجو لطيفًا تتخلله نسائم باردة تؤذن باقتراب ديسمبر، وكان فى السماء سحاب متفرق ناصع البياض يتحرك وانيا فيحجب شمس الصباح حينا بعد حين. وقف كمال وقفة المنتظر وعيناه متجهتان نحو الجراج، حتى خرجت منه الفيات يسوقها حسين شداد ثم دارت فى شارع السرايات ووقفت أمامه، وأخرج حسين شداد رأسه من نافذتها وهو يسأل كمال:

ـ ألم تجيئا بعد؟

نفخ فى البوق ثلاثا، ثم عاد يقول وهو يفتح الباب:

ـ تعالى اجلس إلى جانبى..

ولكن كمال اكتفى بإدخال الحقيبة وهو يغمغم «صبراً». وترامى إليه صوت بدور من ناحية الحديقة، فالتفت صوبه فرآها مقبلة تركض وفى أثرها عايدة.. أجل المعبودة، تخطر بقوامها البديع فى فستان سنجابى قصير على أحدث موضة، توارى أعلاه تحت درّاعة من الحرير كحليّة اللون كشفت عن ساعديها الخمريتين الصافيتين، وكانت هالة شعرها الأسود تحدق بقذالتها وعارضيها وتنوس بحركة مشيتها نوسانا تموجيًا، أما أسلاك قصتها الحريرية فاستكنت على الجبين كأسنان المشط، وفى وسط هذه الهالة بدا الوجه البدرى فى طابع من الحسن أنيق ملائكى كأنه سفير سام لدولة الأحلام السعيدة. تسمر فى موضعه تحت تأثير التيار المغناطيسى، على حال بين اليقظة والنوم، ولم يبق من الدنيا فى وعيه إلا عاطفة امتنان وجيشة وجدان، وجعلت هى تقترب فى خفة وتبختر كأنها نغمة حلوة مجسمة حتى سطعه من أعطافها عبير باريسى، ولما التقت الأعين لمعت فى ناظريها وشفتيها المضمومتين ابتسامة موسومة بالبشاشة والهدوء والأرستقراطية معًا فرد عليها كمال بابتسامة حائرة وسجدة من رأسه، عند ذاك خاطبها حسين قائلاً:

ـ اجلسى أنت وبدور فى المقعد الخلفى..

تأخر كمال خطوة ففتح باب السيارة الخلفى ووقف منتصب القامة كأحد الحاشية، فكانت مكافأته ابتسامة وكلمة شكر بالفرنسية، وانتظر حتى دخلت بدور فالمعبودة، ثم أغلقه واندس إلى جانب حسين، ونفخ حسين مرة أخرى وهو ينظر صوب القصر، فما لبث أن جاء البواب حاملاً سلة صغيرة فوضعها لصق حقيبة كمال فيما بينه وبين حسين، فقال الأخير ضاحكًا وهو ينقر بأصبعه على السلة والحقيبة:

ـ ما جدوى رحلة بلا طعام؟!

وزمجرت السيارة وهى تتحرك، ثم انطلقت إلى شارع العباسية وحسين شداد يقول مخاطبًا كمال:

ـ عرفت عنك أشياء كثيرة، اليوم يتاح لى أن أضيف إليها معلومات جديدة عن معدتك، ويبدو لى أنك رغم نحافتك أكول، فهل ترانى مخطئًا؟

فقال كمال باسما، وكان سعيدا منشرحًا فوق مطمح البشر:

ـ انتظر حتى تعرف بنفسك..

سيارة واحدة تحملهما معًا، مشاركة من نوع ما تعز فيما عدا الأحلام، تهمس الأمانى: لو جلست أنت فى المقعد الخلفى وجلست هى فى المقعد الأمامى لملأت عينيك منها طوال الطريق ولا رقيب، لا تكن طماعا جحوداً واسجد حمداً وشكراً، استنقذ

رأسك من شتى الفكر وخلص نفسك من تيار الوجد وعش بكل وعيك فى الساعة الراهنة، أليست ساعة بالعمر أو أكثر؟

ـ لم أستطع أن أدعو حسن وإسماعيل إلى رحلتنا هذه !

نظر كمال إليه كالمتسائل دون أن ينبس. بيد أن قلبه خفق فى سرور وحياء لهذا الامتياز الذى خص به وحده، على حين استطرد حسين قائلاً بلهجة المعتذر :

ـ السيارة كما ترى لا يمكن أن تتسع للجميع . .

فقال كمال بصوت خافت :

ـ هذا واضح . .

فعاد الآخر يقول باسمًا :

ـ وإذا لم يكن من الانتخاب بد فانتخب من يشابهك، ولا شك أن ميولنا متقاربة فى هذه الحياة، أليس كذلك؟

فقال كمال بوجه وشت أساريره بالفرحة التى غمرت قلبه :

ـ بلى . .

ثم وهو يضحك :

ـ غير أنى قانع بالرحلة الروحية، أما أنت فيبدو أنك لن تقنع حتى تصل الرحلة الروحية بالرحلة حول الأرض . .

ـ ألا تهفو نفسك إلى السياحة فى جنبات الأرض الواسعة؟

فكر كمال قليلاً، ثم قال :

ـ يخيل إلى أنى مطبوع على حب الاستقرار وكأنى أجفل من فكرة الرحلات، أعنى من الحركة والاضطراب لا من الرؤية والاستطلاع، ووددت لو كان من الميسور أن يطوف بى العالم حيث أنا !

ضحك حسين شداد ضحكته اللطيفة المنبعثة من القلب، وقال :

ـ قف فى منطاد ثابت إن استطعت، وانظر إلى الأرض وهى تدور من تحتك !

تملى كمال ضحكة حسين اللطيفة الجذابة مليًا، فوردت ذهنه صورة حسن سليم وراح يقارن بين هذين اللونين من الأرستقراطية : أحدهما يمتاز باللطف والبشاشة، والأخر يتسم بالتحفظ والكبرياء، وكلاهما بعد ذلك جليل . وقال كمال :

ـ من حسن الحظ أن الرحلات الفكرية لا تقتضى التنقل حتمًا . .

فرفع حسين شداد حاجبيه فيما يشبه الشك، غير أنه عدل عن متابعة الموضوع قائلاً بابتهاج :

ـ المهم الآن أننا نقوم برحلة قصيرة معًا، وأن ميولنا متقاربة فى هذه الحياة . .

وما يدرى إلا والصوت العذب يجىء من الوراء قائلاً :

ـ وبالاختصار فإن حسين يحبك كما تحبك بدور . . !

نفذت هذه الجملة المعطرة بالحب الملحنة بالصوت الملائكى فى قلبه فطيرته نشوة وطربًا، كالنغمة الساحرة التى تند فجأة فى تضاعيف أغنية فوق المنتظر والمألوف والمتخيل من الأنغام، فتترك السامع بين العقل والجنون . المعبود يعبث بألفاظ الحب سادرًا، يلقيها عليك غافلاً عن أنه يلقى مغنسيوما على قلب يحترق، استرجع صداها لتستعيد رنين الحب فى أوتار ثغره، والحب لحن قديم غير أنه يضحى جديدًا عجبًا فى ترنيمة خالقة، يا إلهى؟! إننى أفنى من فرط السعادة .

قال حسين معلقًا على قول أخته :

ـ عايدة تترجم أفكارى بلغتها النسائية الخاصة . .

انطلقت السيارة إلى السكاكينى فإلى شارع الملكة نازلى ثم إلى شارع فؤاد الأول، ومنه مرقت إلى الزمالك فى سرعة عدها كمال جنونية :

ـ فى السماء غيم، ولكنا فى حاجة إلى مزيد منه لنضمن نهارًا سعيدًا فى سفح الهرم .

وعلا الصوت البديع وهو يخاطب بدور فيما بدا قائلاً :

ـ انتظرى حتى نصل إلى الهرم، وهنالك أجلسى معه كيفما يحلو لك . . فسألها حسين ضاحكًا :

ـ ماذا تريد بدور؟

ـ تريد يا سيدى أن تجلس مع صاحبك . .

صاحبك! لـِمَ لـِمْ تقولى «كمال»؟ هلا أسعدت الاسم بما لا يطمح إليه صاحبه؟ وخاطبة حسين قائلاً :

ـ أمس سمعها بابا وهى تسألنى : هل يجىء معنا أنكل كمال إلى الهرم؟ فسألنى من يكون كمال؟ ولما أجبته سألها : «أتحبين أن تتزوجى أنكل كمال؟» فأجابته بكل بساطة «نعم!» .

فالتفت كمال إلى الوراء، ولكنها تراجعت حتى التصقت بمسند المقعد وأخفت وجهها فى كتف أختها، فتزود كمال من الوجه البديع بنظرة خاطفة ثم أعاد رأسه، وهو يقول بلهجة الرجاء :

ـ لعلها عند الجد لا تنسى كلمتها!

ولما بلغت السيارة طريق الجيزة ضاعف حسين من سرعتها فعَلا أزيزها وساد

الصمت، رحب كمال بالصمت ليفرغ إلى نفسه ويتملى سعادته، كان أمس حديث الأسرة فاختاره ربها زوجًا للصغيرة، يا أغاريد الزهور والسعادة، احفظ عن ظهر قلب كل كلمة تقال. . املأ نفسك بعبير باريس، زود أذنك بالهديل والبغام، علك تعود إليها إذا عادت لليالى السهاد، كلمات المعبودة عاطلة عن حكمة الحكماء ودرر الأدباء، فما بالها تهزك حتى الأعماق وفى فؤادك تفجر ينابيع السعادة! هذا الذى جعل السعادة سرا تتيه فيه العقول والأفهام، أيها المجدون اللاهثون وراء السعادة إنى وجدتها فى الكلمة الفارغة والرطانة الغامضة والصمت أيضًا وفى لا شىء، رباه ماأعظم هذه الأشجار الباسقة على الجانبين تتعانق أعاليها فوق الطريق فتنتشر سماء من الخضرة اليانعة، وهذا النيل الجارى مكتسبًا من وشى الشمس غلالة من اللآلىء، متى رأيت هذا الطريق آخر مرة؟ فى رحلة إلى الهرم وأنا فى السنة الثالثة، فى كل رحلة عاهدت نفسى بالعودة إليه منفرداً، ووراءك تجلس من ترى بوحيها كل شىء جديداً وجميلاً حتى مجرى الحياة الأثرية فى الحى العتيق، هل لك أمنية فوق ما أنت فيه؟ . . نعم: أن تواصل السيارة انطلاقها على هذه الحال التى نحن عليها إلى الأبد، رباه أهذا هو الجانب الذى طالما أعياك وأنت تتساءل عما تريد من هذا الحب؟ هبط عليك من وحى الساعة يكتنفه المحال، أسعد بالساعة المتاحة، ها هو الهرم يلوح من بعيد صغيراً، وعما قليل تقف عند قدميه كالنملة عند أصل الشجرة الفارعة . .

- نحن ذاهبون إلى زيارة قرافة جدنا الأول!

فقال كمال ضاحكًا:

- لنقرأ الفاتحة بالهيروغليفية . .

فقال حسين ساخرًا:

- وطن أجلّ مخلفاته قبور وجثث! . . (وهو يشير صوب الهرم) انظر إلى الجهد الضائع . .

قال كمال بحماس:

- ذلك الخلود! . .

- أوه . . سوف تنشط كعادتك للدفاع، أنت وطنى لحد المرض، لن نختلف فى هذا، ربما كان أحب إلى أن أكون فى فرنسا من أن أكون فى مصر . .

فقال كمال وهو يوارى ألمه تحت ابتسامة رقيقة:

- ستجد هنالك الفرنسيين أعظم أمم الأرض وطنية! . .

- نعم، الوطنية مرض عالمى، لكنى أحب فرنسا نفسها، وأحب فى الفرنسيين مزايا لاتمت إلى الوطنية بسبب . .

هذا محزن مؤسف حقا بيد أنه لا يثير حفيظته، لأنه صادر عن حسين شداد. . إسماعيل لطيف يحنقه أحيانًا باستهانته. . حسن سليم يغضبه أحيانًا بتكبره. . أما حسين شداد فيحظى برضاه على أى حال من الأمر.

وقفت السيارة غير بعيد من سفح الهرم الأكبر منضمة إلى صف طويل من السيارات الفارغة، ولاح خلق كثيرون هنا وهناك، تفرقوا جماعات صغيرة، ومنهم من امتطى حمارًا أو جملاً أو تسلق الهرم، غير باعة ومكاريين وجمالين، أرض واسعة لا تحد إلا أن الهرم انطلق فى وسطها كمارد خرافى، أما تحت المنحدر من الناحية الأخرى فقد ترامت المدينة، رءوس أشجار وخط مياه وأسطح عمارات، ترى أين يقع بين القصرين من هذا كله؟ والبيت القديم؟ أين أمه وهى تسقى الدجاج تحت سقيفة الياسمين؟

ـ فلنترك كل شىء فى السيارة لنتجول أحرارا. .

غادروا السيارة، ومضوا صفا واحدًا بدأ من السيارة بعايدة فحسين ثم بدور، وأخيرا كمال الذى أمسك بيد صديقته الصغيرة، وطافوا بالهرم الأكبر متصفحين أركانه ثم أوغلوا فى الصحراء. وكانت الرمال تقاوم أقدامهم فتعرقل انطلاقهم، غير أن الهواء هفا لطيفا منعشا، وراوحت الشمس بين الظهور والاختفاء، وانتشرت تجمعات السحب فى آفاق السماء ترسم فى اللوحة العلية صورًا تلقائية تعبث بها يد الهواء كيفما اتفق. قال حسين وهو يملأ رئتيه بالهواء:

ـ جميل. . جميل. .

ورطنت عايدة بالفرنسية، فأدرك كمال بمعلوماته المحدودة فى تلك اللغة أنها تترجم قول أخيها، وكان الرطانة عادة مألوفة لديها، فخففت من غلوائه فى التعصب للغته القومية من ناحية، وفرضت نفسها على ذوقه كأمارة من أمارات الحسن النسائى من ناحية أخرى. قال كمال بتأثر، وهو يتأمل ما حوله:

ـ جميل حقًا، سبحان الله العظيم!

فقال حسين ضاحكًا:

ـ إنك تجد دائمًا وراء الأمور إما الله وإما سعد زغلول. .

ـ أظن أنه لا خلاف بيننا فيما يتعلق بالأول!

ـ ولكن دأبك على ذكره يضفى عليك مسحة دينية خاصة كأنك من رجال الدين، (ثم بلهجة تسليم) فيم العجب وأنت من حى الدين؟!

أتكمن وراء هذه الجملة سخرية ما؟ وهل يمكن أن تشاركه عايده فى سخريته؟ ترى ما رأيهما فى الحى القديم؟ وبأى عين تنظر العباسية إلى بين القصرين والنحاسين؟ هل مسك الخجل؟ مهلاً إن حسين لا يكاد يبدى أى اهتمام بالدين، المعبودة فيما يبدو أقل

اهتماماً منه، ألم تقل يوماً إنها تحضر دروس الدين المسيحى فى الميرى دى دييه وأنها تشهد الصلاة وتترنم بأناشيدها؟ ولكنها مسلمة! مسلمة رغم أنها لا تعرف عن الإسلام شيئًا يذكر! ما رأيك فى هذا؟ أحبها، أحبها لحد العبادة، وأحب دينها رغم وخز الضمير، أعترف بهذا مستغفرًا ربى!

أشار حسين بيده إلى ما يحيط بهم من آى الجمال والجلال، ثم قال: ـ هذا ما يستهوينى حقًا، أما أنت فمجنون بالوطنية، قارن بين هذه الطبيعة الجليلة وبين المظاهرات وسعد وعدلى واللوريات المحملة بالجنود!

فقال كمال باسما:

ـ الطبيعة والسياسة كلتاهما شىء جليل!..

تساءل حسين فجأة كأنما قد تذكر بتداعى المعانى أمرًا هامًا:

ـ كدت أنسى، لقد استقال زعيمك!

فابتسم كمال ابتسامة حزينة ولم يجب، فقال الآخر بقصد إغاظته:

ـ استقال بعد أن ضيع السودان والدستور، هه؟!

قال كمال بهدوء لم يكن يُنتظر منه فى غير هذه الظروف:

ـ كان قتل سير لى ستاك ضربة موجهة على وزارة سعد..

ـ دعنى أكرر على سمعك ما قاله حسن سليم، قال: إن هذا الاعتداء مظهر للكراهية التى يضمرها البعض ـ ومنهم القتلة ـ للإنجليز، وسعد زغلول هو المسئول الأول عن تهييج هذه الكراهية!

كظم كمال الغيظ الذى أثاره «رأى» حسن سليم فى نفسه، وقال بالهدوء الواجب فى حضرة المعبودة:

ـ هذا هو رأى الإنجليز، ألم تقرأ برقيات الأهرام؟ فليس عجيبًا أن يردده الأحرار الدستوريون، إن من مفاخر سعد أن يثير العداوة ضد الإنجليز..

تدخلت عايدة متسائلة، وفى عينيها نظرة عتاب أو تحذير مازجتها ابتسامة جذابة:

ـ رحلة أم سياسة؟

فأشار كمال إلى حسين، وهو يقول معتذرًا:

ـ إليك المسئول عن فتح هذا الموضوع..

فقال حسين ضاحكًا، وهو يتخلل شعره الحريرى الأسود بأصابعه الرشيقة:

ـ رأيت أن أقدم تعزيتى فى استقالة الزعيم، هذا كل ما هنالك!

ثم متسائلاً بلهجة جدية:

ـ ألم تشترك فى المظاهرات الخطيرة التى كانت تقوم فى حيكم على عهد الثورة؟

ـ كنت دون السن القانونية!

فقال حسين بلهجة لم تخل من سخرية لطيفة:

ـ على أى حال تعد واقعة دكان البسبوسة اشتراكا فى الثورة!

وضحكوا جميعًا، حتى بدور اشتركت فى الضحك محاكاة لهم، فصدر عنهم أوركسترا رباعى مكون من بوقين وكمان وصفارة، وبعد هنيهة صمت، قالت عايدة كأنما لتدافع عنه:

ـ كفاية أنه فقد أخاه!..

فقال كمال مدفوعًا بشعور الفخار الذى دب فى قلبه، واستزادة من عطفهما:

ـ أجل، فقدنا خير أسرتنا..

فعادت تسائله باهتمام:

ـ كان فى الحقوق.. أليس كذلك؟، كم كان يكون عمره لو عاش حتى الآن؟

ـ كان يكون فى الخامسة والعشرين.. (ثم بلهجة أسيفة).. كان نابغة بكل معنى الكلمة..

فقال حسين، وهو يفرقع بأصبعيه:

ـ كان!.. هذه هى الوطنية، كيف تتعلق بها بعد ذلك؟!

فقال كمال باسمًا:

ـ سوف نكون جميعًا فى خبر كان، ولكن شتان بين ميتة وميتة!

فرقع حسين بأصبعيه مرة أخرى دون تعليق، يبدو أنه لا يرى فى قوله معنى، ماذا أقحم حديث السياسة عليهم؟ لم يعد به ما يسر، شغل الشعب بعداوته الحزبية عن الإنجليز، سحقًا لهذا كله، يخلق بمن يتنسم الفردوس ألا يكرب صدره بهموم الأرض، ولو إلى حين، أنت تمشى فى معية عايدة فى صحراء الهرم، تأمل هذه الحقيقة الرائعة واهتف بها حتى تسمع بناة الهرم، معبود وعابده يسيران معًا فوق الرمال، العابد من شدة الوله يكاد يذروه الهواء والمعبود يتسلى بعد الحصى، لو كان مرض الحب معديًا، ما باليت بآلامه، الهواء يهفو بأهداب فستانها ويتخلل هالة شعرها ويسرى فى أعماق صدرها.. ألا ما أسعد الهواء! أرواح العاشقين فوق الهرم تبارك القافلة معجبة بالمعبود راثية للعابد مرددة بلسان الزمان: ليس أقوى من الموت إلا الهوى، تراها على بعد أشبار منك ولكنها فى الحق كالأفق تخاله منطبقًا على الأرض وهو فى ذروة السماء يحلق.. كم منيت النفس بأن تمس فى هذه الرحلة راحتها، ولكن يبدو أنك سترحل عن هذه الدنيا

قبل أن تعرف مسها، لم لا تكون شجاعًا فتهوى إلى انطباعة قدمها فتلثمها؟ . . أو تأخذ منها حفنة فتجعلها حجابًا يقى من آلام الحب فى ليالى الفكر؟ وا أسفاه!! كل الدلائل تشير إلى أنه لا اتصال بالمعبود إلا بالتراتيل أو الجنون، فرتِّل أو جُن . .

شعر باليد الصغيرة تجذب يده، فنظر إليها، فرفعت نحوه ذراعيها داعية إياه إلى حملها، فانحنى فوقها ثم رفعها بين يديه غير أن عايدة قالت معترضة:

ـ كلا، بدأ التعب يساورنا، فلنسترح قليلاً . .

على صخرة عند رأس المنحدر المفضى إلى أبى الهول جلسوا على نفس الترتيب الذى ساروا عليه، مد حسين ساقيه غارزا كعبيه فى الرمال، جلس كمال واضعا رجلاً على رجل ضامًا بدور إلى جنبه، على حين قعدت عايدة إلى يسار أخيها فتناولت مشطها وراحت تسرح شعرها وتربت خصلاته بأناملها .

وحانت من حسين نظرة إلى طربوش كمال، فسأله منتقدًا:

ـ لماذا تلبس الطربوش فى هذه الرحلة؟

فنزع كمال طربوشه ووضعه فى حجرة قائلاً:

ـ ليس من المألوف عندى أن أسير بدونه . .

فضحك حسين قائلاً:

ـ إنك مثال طيب للرجل المحافظ!

تساءل كمال: ترى هل يعنى بقوله مدحًا أم ذمًا؟ وأراد أن يستدرجه للإيضاح، ولكن عايدة مالت إلى الأمام قليلاً ملتفتة نحوه لتلقى نظرة على رأسه فنسى ما كان بسبيله، وتحول انتباهه إلى منطقة الرأس فى قلق، إن رأسه يبدو الآن حاسرًا فيكشف عن ضخامته ويعرض شعره الأجرد العاطل عن الزينة، وها هما العينان الجميلتان ترنوان إليه، فأى أثر يعكسه عليهما؟ تساءل الصوت الموسيقى:

ـ لماذا لا تربى شعر رأسك؟

سؤال لم يخطر له على بال من قبل، هكذا رأس فؤاد جميل الحمزاوى وجميع الرفاق بالحى العتيق، ياسين لم يُر يطلق شعره وشاربه حتى توظف، هل يتصور أن يلقى أباه كل صباح على مائدة الفطور بشعر مصفف؟!

ـ ولمَ أربيه؟

فتساءل حسين مفكرًا:

ـ ألا يكون أجمل؟

ـ ليس هذا بذى بال . .

حسين ضاحكًا:

ـ يخيل إلى أنك خلقت لتكون معلمًا.

مدح أم ذم، على أى حال ليهنأ رأسك بالرعاية السامية.

ـ أنا خلقت لأكون طالبًا..

ـ جواب جميل.. (ثم رفع طبقة صوته متسائلاً).. لمْ تحدثنى عن مدرسة المعلمين حديثًا شافيًا، كيف وجدتها بعد مرور ما يقرب من الشهرين؟

ـ أرجو أن تكون مدخلاً لا بأس به للدنيا التى أتطلع إليها، وترانى أحاول الآن أن أعرف عن سبيل الأساتذة الإنجليز معانى للكلمات المحيرة مثل «أدب» و«فلسفة» و«فكر»..

ـ هذه هى الثقافة الإنسانية التى نتطلع إليها..

فقال كمال بحيرة:

ـ ولكنها خضم مضطرب فيما يبدو، ينبغى أن نعرف الحدود، ينبغى أن نعرف ما نريد على نحو أوضح، إنها مشكلة..

لاح الاهتمام فى عينى حسين الجميلتين وهو يقول:

ـ الأمر بالنسبة إلى لا يعد مشكلة، إنى أقرأ قصصًا ومسرحيات فرنسية مستعينا بعايدة على فهم الصعب من نصوصها، وأستمع معها أيضًا إلى مختارات من الموسيقى الغربية تعزف هى بعضها بمهارة على البيانو، وقد طالعت أخيرًا كتابًا يلخص الفلسفة الإغريقية فى يسر وسهولة، لست أبغى إلا السياحة للعقل والجسم، أما أنت فتريد أيضًا أن تكتب، وهذا يقتضيك أن تعرف الحدود والأهداف..

ـ الأدهى من ذلك أننى لا أدرى فيم أكتب على وجه التحديد.!

تساءلت عايدة بلهجة باسمة:

ـ أتريد أن تكون مؤلفًا؟

فقال وهو يتلقى موجة عالية من السعادة التى عزت على البشر:

ـ ربما!..

ـ شاعرًا أم ناثرا.. (وهى تميل إلى الأمام لتتمكن من رؤيته).. دعنى أخمن بفراستى..

استنفدت الشعر فى مناجاة طيفك، الشعر لغتك المقدسة فلا أمتهنه، غاضت دموعى ينابيعه فى سواد الليالى، ما أسعدنى فى مرمى ناظريك وما أتعسنى، إنى أحيا تحت نظرتك كما تحيا اليابسة بمقلة الشمس..

ـ شاعر، أجل أنت شاعر..

ـ حقًا؟ كيف عرفت هذا؟

اعتدلت فى جلستها، فندت عنها ضحكة خافتة كأنها وسوسة الأمانى، ثم قالت:

ـ الفراسة بداهة، فكيف تطالب بتفسير لها؟!

ـ إنها تعبث!

قال حسين ذلك وهو يضحك، فبادرت تقول:

ـ كلا، إذا كان الشاعر لا يعجبك فلا تكُنْه..

النحلة فطرتها الطبيعة ملكة، البستان مغناها، رحيق الزهر شرابها، الشهد نفثها، وجزاء الآدمى الطائف بعرشها.. لسعة،.. لكنها قالت «كلا».

عادت تسأله:

ـ هل قرأت من القصص الفرنسية شيئًا؟

ـ بعض ما ترجم عن ميشيل زيفاكو، لا أستطيع أن أقرأ الفرنسية كما تعلمين..

فقالت بحماس:

ـ لن تكون مؤلفًا حتى تتقن الفرنسية، اقرأ بلزاك وجورج صاند، ومدام دى ستال ولوتى، واكتب بعد ذلك قصة..

فقال كمال باستنكار:

ـ قصة؟! إنها فن على الهامش، إنما أتطلع إلى عمل جدى..

فقال حسين جادا:

ـ القصة فى أوربا عمل جدى، ثمة كتّاب يتفرغون لها دون غيرها من فنون الكتابة فترفعهم إلى درجة الخالدين، لست أهرف بما لا أعرف، ولكن أستاذ اللغة الفرنسية أكد لى ذلك..

هز كمال رأسه الكبير فى شك، فاستطرد حسين قائلاً:

ـ حاذر أن تغضب عايدة، إنها قارئة معجبة بالقصة الفرنسية، بل إنها بطلة من بطلاتها!

فمال كمال إلى الأمام قليلاً، ومد إليها بصره ليقرأ أثر قول حسين فيها مغتنما الفرصة المتاحة ليملأ عينيه من منظرها البهيج، ثم تساءل:

ـ كيف كان ذلك؟

ـ إن القصة تستغرقها استغراقًا غريبًا، فرأسها مفعم بحياة خيالية، مرة رأيتها تختال أمام المرآة، فسألتها عما بها؟ فأجابتنى «هكذا كانت تسير أفروديت على ساحل البحر بالإسكندرية!».

قالت عايدة وهى تقطب تقطيبة باسمة :

ـ لا تصدقه ، إنه أغرق منى فى الخيال ، ولكنه لا يرتاح حتى يرمينى بما ليس فىّ . .

أفروديت؟ . . ما أفروديت يا معبودتى؟! يحزننى وحق كمالك أن تتخيلى نفسك فى صورة غير ذاتك!

قال بإخلاص :

ـ لا عليك من هذا ، إن أبطال المنفلوطى وريدر هجارد يستأثرون بخيالى . . !

فضحك حسين ضحكة رائعة ، وهو يهتف :

ـ ما أحرى أن يجمعنا كتاب واحد! لماذا نبقى على الأرض ما دمنا نهفو هكذا إلى الخيال؟ عليك أنت أن تحقق هذا الحلم ، لست كاتبًا ولا أريد أن أكون كاتبًا ، ولكن فى وسعك أنت أن تجمعنا إذا شئت فى كتاب واحد .

عايدة فى كتاب تكون أنت مؤلفه! صلاة أم تصوف أم جنون؟!

ـ وأنا؟!

علا صوت بدور فجأة متسائلا فى احتجاج فضج ثلاثتهم بالضحك ، وقال حسين فى لهجة تنبيه :

ـ لا تنس أن تحجز مكانًا لبدور!

فقال كمال وهو يضم الصغيرة بساعده فى حنان :

ـ ستكونين فى الصفحة الأولى . .

تساءلت عايدة وهى ترمى بناظريها إلى الأفق :

ـ ماذا تكتب عنا؟

لم يدر ماذا يقول ، فدارى ارتباكه بضحكة وانية ، ولكن حسين أجاب عنه قائلاً :

ـ كما يكتب المؤلفون ، قصة غرامية عنيفة تنتهى بالموت أو الانتحار . !

يقذفون كرة قلبك بالأقدام وهم يلعبون .

ـ أرجو أن تكون هذه النهاية من نصيب البطل وحده؟

قالت عايدة ذلك ضاحكة .

البطل أعجز من أن يتصور معبوده فانيا ، وتساءل :

ـ هل حُتِّم أن تنتهى بالموت أو الانتحار؟

فأجاب حسين ضاحكًا :

ـ هى النهاية الطبيعية لقصة غرام عنيف! .

فرارا من الألم أو ضنا بالسعادة تراءى الموت أمنية. قال كالساخر:

ـ شيء مؤسف حقًا. .

ـ ألم تكن تعرف هذا؟، يبدو أنك لم تجرب الغرام بعد. . !

من لحظات الحياة الحية لحظة يقوم البكاء فيها مقام البنج فى العملية الجراحية، وعاد حسين يقول:

ـ المهم عندى ألا تنسى أن تحجز لى مكانًا أيضًا فى كتابك ولو كنت بعيدًا عن الوطن. .

حدجه كمال بنظرة طويلة، ثم سأله:

ـ ألا تزال تراودك فكرة السفر؟

فانساب الجد فى لهجة حسين شداد، وهو يقول:

ـ كل ساعة، أريد أن أحيا، أريد أن أسيح على وجهى طولاً وعرضًا وارتفاعًا وعمقًا، ثم ليأت الموت بعد ذلك. .

وإن جاء قبل ذلك؟ هل يمكن أن يحدث هذا؟ ما للحزن يكاد أن يقتلك؟ أنسيت فهمى؟ الحياة لا تقاس بالطول والعرض دائمًا، كانت حياتك لمحة ولكنها كانت كاملة، أو فما جدوى الفضيلة والخلود؟ لكنك حزين لسبب آخر، كأنما عز عليك أن يهون فراقك على الصديق المتشوق إلى السفر، كيف تكون دنياك من بعده؟ كيف تكون إذا حال رحيله بينك وبين القصر الحبيب؟ ما أكذب ابتسامة اليوم، إنها الآن قريبة، صوتها فى أذنك وعبيرها فى أنفك فهل تستطيع أن توقف عجلة الزمن؟ هل تعيش بقية العمر حائمًا من بعيد حول القصر كالمجانين. .

ـ إن أردت رأيى فأجل سفرك حتى تتم دراستك. .

فقالت عايدة بحماس:

ـ هذا ما قاله له بابا مرارًا. .

ـ هو الرأى الصواب. .

فتساءل حسين متهكمًا

ـ أمن الضرورى أن أحفظ المدنى والرومانى كى أتذوق جمال دنياى؟

عادت عايدة تخاطب كمال قائلة:

ـ شد ما يسخر أبى من أحلامه، إنه يتمنى أن يراه قضائيًا أو عاملاً معه فى دنيا المال. .

ـ القضاء. . المال! . لن أكون قضائيًا، حتى إذا نلت الليسانس وفكرت جديًا فى

اختيار وظيفة فسيكون السلك السياسى وجهتى، أما المال فهل تطمعون فى مزيد منه؟ إننا أغنى مما يطيق الإنسان . .

ما أعجب أن تكون ثروة الإنسان أعظم مما يطيق، قديمًا تخيلت أن تكون تاجرًا كأبيك وأن تملك خزانة كخزانته، لم تعد الثروة من أحلامك، ولكن ألا تتمنى أن تكون قادرًا على تجريد نفسك للمغامرات الروحية؟ ما أتعس حياة تستغرقها مطالب الرزق.

ـ إن أسرتى جميعًا لا تفهم آمالى، يروننى طفلاً مدللاً، قال خالى مرة متهكما على مسمع منى «لا ينتظر أن يكون الذكر الوحيد فى الأسرة خيرًا من هذا»، لم هذا كله؟، لأنى لا أعبد المال ولأننى أوثر الحياة عليه، أرأيت؟! إن أسرتنا تؤمن بأن أى نشاط لا يؤدى إلى أى زيادة فى الثروة ضرب من العبث الباطل، وتراهم يحلمون بالألقاب كأنها الفردوس المفقود، أتدرى لم يحبون الخديو؟ طالما قالت لى ماما: «لو بقى أفندينا على العرش لنال أبوك الباشوية من زمن بعيد»، والمال العزيز يهون وينفق بلا حساب فى استقبال أمير إذا شرفنا بزيارته . . (ثم وهو يضحك) . . لا تنس أن تسجل هذه الغرائب إذا فرغت يومًا لتأليف الكتاب الذى اقترحته عليك.

لم يكد يفرغ من حديثه حتى بادرت عايدة تخاطب كمال قائلة:

ـ أرجو ألا تتأثر فى تأليفك بتحامل هذا الأخ العاق حتى لا تظلم أسرتنا! فقال كمال بلهجة ساجدة:

ـ معاذ الله أن ينال أسرتك ظلم على يدى! وفضلاً عن ذلك فليس فيما قال ما يشين . .

فضحكت عايدة فى ظفر، على حين ارتسمت على شفتى حسين ابتسامة ارتياح رغم ارتفاع حاجبيه كالداهش. وكان الأثر الذى تركه حديث حسين فى نفسه أنه لم يكن صادقًا كل الصدق فى حملته على أسرته، أجل لم يشك فى قوله أنه لا يعبد المال وأنه يؤثر الحياة عليه، وأبى ـ إلى ذلك ـ أن يرجع هذا الخلق إلى وفرة المال وحدها ولكن إلى اتساع أفق صاحبه أولاً ما دام الثراء لا يحول دون عبادة المال عند الكثيرين ولكنه خيل إليه أن ما ورد فى حديثه عن الخديو والألقاب واستقبال الأمراء إنما ورد على سبيل الفخر المدغم فى الانتقاد، لا الفخر وحده ولا الانتقاد وحده، كأنما كان يفاخر بها بقلبه وينتقدها بعقله، أو لعله كان يسخر منها حقًا، ولكنه لم يجد غضاضة فى التشهير بها أمام شخص لا يشك فى أنها تبهره وتفتنه مهما يكن من مجارته له فى انتقادها. عاد حسين يتساءل فى هدوء باسم:

ـ أينا سيكون بطل الكتاب، أنا أم عايدة أم بدور؟

هتفت بدور «أنا!»، فقال لها كمال وهو يشد عليها «اتفقنا» . . ثم أجاب حسين:

ـ سيبقى هذا سرًا حتى يولد الكتاب!

ـ وأى عنوان ستختار له؟

ـ حسين حول العالم!

فضج ثلاثتهم بالضحك بما ذكرهم هذا العنوان المفتوح باسم تمثيلية «البربرى حول العالم» التى كانت تمثل فى الماجستيك، وسأله حسين بالمناسبة قائلاً:

ـ ألم تعرف الطريق إلى المسرح بعد؟

ـ كلا، فى السينما الكفاية الآن. .

قال حسين مخاطبًا عايدة:

ـ إن مؤلف كتابنا غير مسموح له بالسهر خارج البيت إلى ما بعد التاسعة مساء!

فقالت له عايدة متهكمة:

ـ على أى حال فهو خير من الذين يسمح لهم بالطواف حول العالم!

ثم التفتت صوب كمال، وسألته برقة خليقة بجذبه إلى رأيها سلفًا:

ـ أمن العيب حقا أن يتمنى أب أن ينشأ ابنه على مثاله فى النشاط والجاه؟! أمن العيب أن نسعى فى الحياة إلى المال والجاه والألقاب والقيم العالية؟

ابقى حيث أنت يسعى إليك المال والجاه والألقاب والقيم العالية كى تسمو جميعًا بلثم موطئ قدميك، كيف أجيب وفى الجواب الذى تودين انتحارى؟ يا ويح قلبك من مرام لا يرام!

ـ لا عيب فى هذا أبدا. . (ثم بعد انقطاع قصير) على شرط أن يوافق مزاج الشخص!

فاستطردت قائلة:

ـ وأى مزاج لا يوافقه هذا؟! والعجيب أن حسين لا يزهد فى هذه الحياة الرفيعة طموحًا إلى ما هو أرفع منها، كلا يا سيدى، إنه يحلم بأن يحيا بلا عمل، فى فراغ وبطالة! أليس هذا بعجيب؟!. .

تساءل حسين ضاحكًا فى سخرية:

ـ ألا يعيش هكذا الأمراء الذين تعبدونهم؟

ـ لأنه ليس فوق حياتهم حياة يتطلع إليها، أين أنت من أولئك يا تنبل؟

التفت حسين ناحية كمال قائلاً بصوت لم يخل من أثر للغيظ:

ـ القاعدة المتبعة فى أسرتنا هى العمل على زيادة الثروة ومصادقة ذوى النفوذ فتأمل من وراء ذلك فى رتبة البكوية، وعليك بعد ذلك مضاعفة الجهد لإنماء الثروة ومصادقة النخبة الممتازة حتى تنال الباشوية، وأخيرًا أن تجعل غايتك العليا فى الحياة

التودد إلى الأمراء والقناعة بذلك ما دامت الإمارة لا تنال بالعمل أو اللباقة، أتدرى كم كلفتنا زيارة الأمير الأخيرة؟ . . عشرات الألوف من الجنيهات ضاعت فى ابتياع أثاث جديد وتحف نادرة من باريس!

فعارضته عايدة قائلة :

ـ لم ينفق ذلك المال توددًا لأمير من حيث هو أمير فحسب، ولكن لكونه شقيق الخديو، فالدافع إلى المجاملة كان الوفاء والصداقة لا التودد والزلفى، وهو بعد شرف لا يمارى فيه عاقل.

ولكن حسين تمادى فى عناده قائلاً :

ـ ولكن بابا لا يفتأ يوطد علاقته بعدلى وثروت ورشدى وغيرهم ممن لا يمكن أن يتهموا بالإخلاص للخديو! . . أليس فى ذلك تسليم بالحكمة القائلة بأن الغاية تبرر الواسطة؟ . .

ـ حسين! . .

هتفت به بصوت لم يسمعه من قبل، بصوت نم عن الكبرياء والاستياء والتأنيب، كأنما أرادت أن تنبهه إلى أن هذا الكلام لا يجوز أن يقال أو فى الأقل أن يجهر به على مسمع من «غريب» فاحمر وجهه خجلاً وألما وفترت السعادة التى حلق فى أجوائها ساعة بالإندماج فى هذه الأسرة الحبيبة، وكانت هامتها مرفوعة وشفتاها مضمومتين وفى عينيها نظرة موحية بالتقطيب وإن لم يلمح له أثر فى جبينها، كانت بالجملة غضبى ولكن كما يخلق بالملكة العريقة أن تغضب، ولم يكن رآها من قبل منفعلة، ولم يكن يتصور أنها تنفعل، فرنا إلى وجهها فى دهش وارتياع، وامتلأ إحساسًا بالحرج حتى ود لو ينتحل عذرًا يتنحى به عن متابعة الحديث، ولكن لم يمض على ذلك ثوان حتى أفاق من غشيته وراح يتملى جمال الغضب الملكى فى الوجه الملائكى، ويتذوق لفحة الكبرياء واستعلاء الإباء وتجهم السماء، ثم عادت كأنما لتسمعه هو :

ـ إن صداقة بابا لمن ذكرت تعود إلى تاريخ قديم سابق على خلع الخديو . .

عند ذلك رغب كمال صادقًا فى أن يبدد هذه السحابة، فساءل حسين مداعبًا :

ـ إذا كان هذا رأيك فكيف تحتقر سعد لأنه كان أزهريًا؟

فضحك حسين ضحكته الصافية وهو يقول :

ـ إنى أكره التودد إلى الكبراء، ولكن لا يعنى هذا أن أحترم العامة . . إنى أحب الجمال وأزدرى القبح، ومن المؤسف أن الجمال قل أن يوجد فى العامة! . .

ولكن عايدة تدخلت فى الحديث قائلة بصوت معتدل :

ـ ماذا تعنى بالتودد إلى الكبراء؟ إنه سلوك يعاب على من ليس منهم، ولكن أظننا من الكبراء أيضًا، وليس توددنا إليهم دون توددهم إلينا . .

فتطوع كمال للإجابة عن حسين قائلاً بإيمان:

ـ هذا حق لا مراء فيه . .

وما لبث أن نهض حسين وهو يقول:

ـ حسبنا جلوسًا، هلموا نواصل السير . .

نهضوا فاستأنفوا السير متجهين نحو أبى الهول فى جو ظليل انتشرت تجمعات السحب فى آفاقه حتى تعانقت وحجبت الشمس بستار شفاف فاكتسى منها لونا أبيض ناصعًا يقطر صفاء وملاحة، والتقوا فى طريقهم بجماعات من الطلبة والأوربيين نساء ورجالاً، فقال حسين مخاطبًا عايدة، ولعله أراد أن يسترضيها بطريق غير مباشر:

ـ إن الأوربيات يتفرسن فى فستانك باهتمام، مبسوطة؟

فافتر ثغرها عن ابتسامة عجب وارتياح، وقالت بلهجة تنم عن ثقة مكينة بالنفس وهى ترفع رأسها فى كبرياء لطيف:

ـ طبيعى . . !

فضحك حسين وابتسم كمال، ثم قال الأول يخاطب الآخر:

ـ عايدة تعد مرجعًا للذوق الباريسى فى حينا جميعه . .

فقال كمال وهو لا يزال يبتسم:

ـ طبيعى . .

فكافأته عايدة بضحكة رقيقة خافتة كسجع الحمام، مسحت عن قلبه الأثر الخفيف الذى تركه النزاع الأرستقراطى البديع! . . العاقل من يعرف لقدمه قبل الخطو موضعها. فاعرف أين أنت من هؤلاء الملائكة، المعبود الذى يشرف عليك من فوق السحاب يتعالى حتى على أهله المقربين، فما وجه العجب فى هذا؟! ما كان ينبغى أن يكون له أهل أو أسرة، فلعله اتخذهم ليكونوا وسطاء بين ذاته وبين عابديه، أعجب به فى هدوئه وحدته وتواضعه وتكبره وإقباله وإدباره ورضاه وغضبه، كل أولئك صفاته فارو بالعشق قلبك الظامئ. انظر إليها، إن الرمال تعوق مشيتها فتوانت خفتها واتسعت خطواتها وتمايل أعلاها كالغصن الثمل بالنسيم الوانى ولكنها وهبت الأبصار صورة جديدة من محاسن المشى تضارع فى جمالها مشيتها المعروفة فوق فسيفساء الحديقة، وإذا التفت إلى الوراء فرأيت آثار القدمين اللطيفتين مطبوعة فوق الرمال، فاعلم أنها تقيم معالم للطريق المجهول يهتدى بها السالكون إلى سبحات الوجد وإشراقات السعادة، فى زياراتك السالفة لهذه الصحراء كان نهارك ينقضى فى اللعب والوثب سادرًا عن نفحات المعانى

لأن برعمة قلبك لم تكن تفتحت. . أما اليوم فأوراقها ندية برضاب الهوى تقطر بهجة وتنز ألما فإن تكن سلبت طمأنينة الجهالة فقد وهبت القلق السامى. . حياة القلب وأنشودة النور. .

ـ جعت. .

ندت الشكوى عن ثغر بدور، فقال حسين:

ـ آن لنا أن نعود، ما رأيكم؟! على أى حال أمامنا مسافة طويلة سيجوع فى نهايتها من لم يجع. .

ولما بلغوا السيارة أخرج حسين الحقيبة والسلة المملوءتين بالطعام، فوضعهما على مقدمة السيارة وراح يزيح الغطاء عن سلته، غير أن عايدة اقترحت أن يتناولوا الطعام على درجة من درجات الهرم، فمضوا إليه وارتقوا درجة من درجات الأساس فحطوا الحقيبة والسلة فى وسطها، وجلسوا على حافتها تاركين أرجلهم تتدلى. بسط كمال جريدة كانت فى حقيبته وطرح عليها الطعام الذى جاء به، دجاجتين وبطاطس وجبنا وموزاً وبرتقالاً، ثم تابع يدى حسين وهو يستخرج من السلة طعام «الملائكة»، فإذا به: سندويتشات أنيقة، وأكواب أربع، وترموث. . ومع أن طعامه كان أدسم فإنه بدا ـ فى ناظريه على الأقل ـ عاطلاً عن حلية الأناقة فساوره قلق وحياء، وتساءل حسين وهو يرمق الدجاجتين بنظرة ترحاب عما إذا كان صاحبه قد أحضر أدوات مائدة، فأخرج كمال من الحقيبة سكاكين وشوكا وشرع يقطع الدجاجتين شرائح، وهنا نزعت عايدة سدادة الترموث وراحت تملأ الأكواب الأربع، فإذا بها تمتلئ بسائل أصفر كالذهب، فلم يملك كمال أن يسأل داهشًا:

ـ ما هذا؟

فضحكت عايدة ولم تجب، أما حسين فقال ببساطة وهو يغمز أخته بعينه:

ـ بيرة. . !

ـ بيرة؟!

هتف كمال كالخائف، فقال حسين بتحد وهو يشير إلى السندوتشات:

ـ ولحم خنزير! . .

ـ أنت تعبث بى! لا أصدق هذا. .

ـ بل صدق وكُلْ، يا لك من جحود! جئناك بأنفس ما يؤكل وألذ ما يشرب!

أفصحت عينا كمال عن دهش وانزعاج، وانعقد لسانه فلم يدر ماذا يقول، وكان أشد ما يزعجه أن هذا الطعام والشراب جهز فى البيت، وبالتالى عن علم أهله ورضاهم!

ـ ألم تذق شيئًا من هذا من قبل؟

ـ سؤال فى غير حاجة إلى جواب .

ـ إذن ستذوقه لأول مرة ، والفضل لنا!

ـ هذا محال . .

ـ لم؟

ـ لم؟! . سؤال فى غير حاجة إلى جواب أيضًا . .

رفع حسين وعايدة وبدور أكوابهم وشربوا جرعات ثم أعادوها ، ونظر الأولان إلى كمال مبتسمين كأنما يقولان له «أرأيت أنه لم يحدث لنا شىء!» ، ثم قال حسين :

ـ الدين! هه؟ كوب البيرة لا يسكر ، ولحم الخنزير كله لذة وفوائد ، لست أدرى ما حكمة الدين فى شئون الطعام!

تقلص قلب كمال لوقع هذا الكلام ، بيد أنه لم يخرج عن رقته وهو يقول معاتبًا :

ـ حسين . لا تجدّف . .

ولأول مرة مذ افتتحت المأدبة تكلمت عايدة فقالت :

ـ لا تسئ بنا الظن ، نحن نشرب البيرة لفتح النفس ليس إلا ، ولعل مشاركة بدور لنا تقنعك بحسن نيتنا ، أما لحم الخنزير فلذيذ جداً ، جربه ولا تكن حنبليًا ، لا تزال أمامك فرصة كبيرة كى تطيع الدين فيما هو أهم من هذا كله . .

ومع أن كلامها لم يختلف فى جوهره عن كلام حسين ، فإنه نزل على قلبه المتألم بردا وسلامًا ، وإلى هذا فقد صادف منه نفسًا حريصة كل الحرص على ألا تكدر لهم صفوا أو تخدش لهم شعوراً ، فابتسم فى تسامح رقيق ، ومضى يتناول طعامه وهو يقول :

ـ دعونى آكل الطعام الذى آلفه ، وأكرمونى بالمشاركة فيه .

ضحك حسين ، ثم قال مخاطبًا كمال وهو يشير إلى أخته :

ـ اتفقنا فى البيت على أن نقاطع طعامك إذا قاطعت طعامنا ، ولكن يخيل إلىّ أننا لم نحسن تقدير ظروفك ، على هذا فإننى سأتحلل من ذلك الاتفاق إكراما لك ، ولعل عايدة أن تقتدى بى . .

فنظر كمال نحوها برجاء ، فقالت باسمة :

ـ إذا وعدتنى بألا تسىء الظن بنا . . !

فقال كمال بابتهاج :

ـ لا عاش من أساء بكم الظن . .

أكلوا بشهوة عظيمة ، حسين وعايدة أولاً ثم تشجع كمال بهما فتابعهما ، وكان يقدم

الطعام بنفسه إلى بدور التى اكتفت بسندوتش وقطعة من صدر الدجاجة ثم أقبلت على الفاكهة، ولم يستطع كمال أن يقاوم الرغبة فى استراق النظر إلى حسين وعايدة وهما يأكلان ليرى كيف يتناولان طعامهما، أما حسين فكان يلتهم الطعام دون مبالاة كأنه منفرد، غير أنه لم يفقد طابعه الممتاز الذى يمثل فى عينى كمال الأرستقراطية المحبوبة المنطلقة على سجيتها، وأما عايدة فقد كشفت عن أسلوب جديد من الرشاقة والأناقة والتهذيب فى طبيعتها الملائكية سواء فى قطع اللحم أو القبض بأطراف الأنامل على السندوتش أو حركات الثغر عند المضغ، ومضى هذا كله يسيرا هينا لا أثر للتكلف أو القلق فيه، الحق أنه انتظر هذه الساعة بتشوف وإنكار كأنما كان فى شك من أنها تأكل الطعام كسائر البشر. . ومع أن معرفته لنوع الطعام أزعجت ضميره الدينى أيما إزعاج فإنه وجد فى «غرابته» وخروجه عن مألوف ما يتناوله الناس الذين عهدهم مشابهة تربطه بآكله، فارتاح لها خياله الحائر المتسائل، وتناوبه شعوران متناقضان، قلق بادئ الأمر وهو يراها تقوم بهذه الوظيفة التى يشترك فيها الإنسان والحيوان، ثم داخله شىء من الارتياح لما قربت هذه الوظيفة بينه وبينها ولو درجة واحدة! على أن نفسه لم تعفه من علامات الاستفهام عند هذا الحد، فوجدها تدفعه إلى التساؤل عما إذا كانت تؤدى سائر الوظائف الطبيعية الأخرى؟ لم يسعه أن يقول لا، ولم يهن عليه أن يقول نعم، فأضرب عن الإجابة وهو يعانى إحساسًا لم يعرفه من قبل تضمن ـ فيما تضمن ـ احتجاجًا صامتًا على نواميس الطبيعية!

ـ إنى معجب بشعورك الدينى ومثاليتك الأخلاقية. .

نظر كمال إليه فى حذر المرتاب، فقال حسين بتوكيد:

ـ عن صدق تكلمت لا عن دعابة. .

ابتسم كمال فى حياء، ثم أشار إلى ما تبقى من السندوتشات والبيرة قائلاً:

ـ بالرغم من هذا، فإن احتفالكم بشهر رمضان يفوق كل وصف، أنوار تضاء، قرآن يتلى فى بهو الاستقبال، المؤذنون يؤذنون فى السلاملك، هه؟

ـ إن أبى يحيى ليالى رمضان حبًا وكرامة واستمساكًا بالتقاليد التى اتبعها جدى، وإلى هذا فهو وماما يواظبان على الصوم. .

قالت عايدة باسمة:

ـ وأنا. .

فقال حسين بجد أريد به السخرية:

ـ عايدة تصوم يومًا واحدًا من الشهر، وربما أفلست قبيل العصر!

فقالت عايدة على سبيل اللانتقام:

ـ وحسين يأكل فى رمضان أربع وجبات يوميًا، الوجبات الثلاث المعتادة ووجبة السحور!

فقال حسين ضاحكا، وقد كاد الطعام يسقط من فيه لولا أن رفع رأسه بحركة سريعة:

ـ أليس غريبًا ألا نعرف عن ديننا شيئًا ذا بال؟! لم يكن عند بابا وماما معلومات تستحق الذكر، وكانت مربيتنا يونانية، وعايدة تعرف عن المسيحية وطقوسها أكثر مما تعرف عن الإسلام، نحن بالقياس إليك فى حكم الوثنيين.. (ثم مخاطبًا عايدة).. إنه يقرأ القرآن والسيرة..!

فقالت بلهجة ربما دلت على شىء من الإعجاب:

ـ حقا؟! برافو، ولكن أرجو ألا تسىء بى الظن أكثر مما ينبغى، فإنى أحفظ أكثر من سورة..

فغمغم كمال كالحالم:

ـ بديع، بديع جدًا، مثل ماذا؟

فكفت عن الأكل حتى تتذكر، ثم قالت باسمة:

ـ أعنى أنى كنت أحفظ بعض السور، لا أدرى ماذا تبقى منها.. (ثم رفعت صوتها فجأة شأن من تذكر شيئًا أعياه طلابه) مثل السورة التى يقول فيها إن ربنا واحد إلخ..

ابتسم كمال، وقدم لها شريحة من صدر الدجاجة فتناولتها شاكرة، ولكنها اعترفت بأنها أكلت أكثر مما تأكل عادة، ثم قالت:

ـ لو كان الناس يتناولون الطعام عادة كما فى الرحلات لاختفت الرشاقة من الوجود..

فقال كمال بعد تردد:

ـ إن نساءنا لا تستهويهن النحافة..

فوافقه حسين على رأيه قائلاً:

ـ ماما نفسها من هذا الرأى، ولكن عايدة تعد نفسها باريسية..

عفا الله عن استهانة معبودتى، شد ما أزعجت نفسك المؤمنة، كما أزعجتها من قبل خطرات الشك التى صادفتها فى مطالعتك، هل تستطيع أن تلقى استهانة المعبود بما لقيت به من خطرات الشك من نقد وغضب؟ هيهات، نفسك لا تنطوى لها إلا على الحب الخالص، حتى عيوبها فأنت تحبها، عيوبها؟! لا عيب لها ولو كان ما بها خفة فى الدين

واجتراء على المحرمات، تلك عيوب لو وجدت فى غيرها، أخشى ما أخشاه ألا تروق فى عينى حسناء بعد اليوم إذا لم يكن بها خفة فى الدين واجتراء على المحرمات، هل مسّك القلق؟ استغفر الله لنفسك ولها، وقل إن هذا كله عجيب، عجيب كأبى الهول، ما أشبه حبك به أو ما أشبهه بحبك، كلاهما لغز وخلود!!

أفرغت عايدة آخر ما فى الترموث فى الكوب الرابع، ثم قالت لكمال بإغراء:

ـ هلا غيرت رأيك؟ ما هى إلا شراب منعش..

فابتسم ابتسامة اعتذار وشكر، وعند ذاك خطف حسين الكوب ورفعه إلى فيه، وهو يقول:

ـ أنا بدل كمال.. (ثم وهو يتأوه).. يجب أن نمسك وإلا متنا امتلاء..

فرغوا من الطعام، ولكن فضل منه نصف دجاجة وثلاثة سندوتشات، فخطر لكمال أن يوزعها على الغلمان الذين يتجولون فى المكان، غير أنه رأى عايدة وهى تعيد السندوتشات مع الأكواب والترموث إلى السلة، فلم ير بدا من أن يعيد بقية طعامه إلى الحقيبة وقد وردته ذكرى حديث إسماعيل لطيف عن الروح الاقتصادية لآل شداد! ووثب حسين إلى الأرض وهو يقول:

ـ لدينا مفاجأة سارة لك، أحضرنا معنا فونوغرافا وبعض الأسطوانات لتساعدنا على الهضم، ستسمع أسطوانات أوروبية من مختارات عايدة وأخرى مصرية مثل «حزر فزر»، و«بعد العشى»، و«حود من هنا».. ما رأيك فى هذه المفاجأة؟..

١٨

انتصف ديسمبر، غير أن الجو لم يجاوز حد الاعتدال إلا قليلاً على رغم أن الشهر هلّ بعاصفة من الرياح والأمطار والبرد القارص. وكان كمال يقترب من سراى آل شداد فى خطوات متئدة سعيدة طارحًا معطفه المطوى على ساعده الأيسر وقد دل مظهره الأنيق ـ خاصة مع ملاحظة ميل الجو إلى الاعتدال ـ على أنه جاء بمعطفه استكمالاً لمظاهر الأناقة والوجاهة أكثر منه حيطة لتقلب الجو، وكانت شمس الضحى ساطعة فرجح عنده أن مجلس الأصدقاء سينعقد فى كشك الحديقة ـ لا فى الثوى حيث يجتمعون فى الأيام الباردة ـ وأن الفرص بالتالى ستسنح لرؤية عايدة التى لا يتاح لقاؤها إلا فى الحديقة، على أن الشتاء إذا كان يحرمه من لقائها فى الحديقة، فإنه لم يحل دون رؤيتها فى النافذة المشرفة على الممر الجانبى للحديقة أو فى الشرفة المطلة على مدخل القصر، فى هذه أو

تلك، وعند مقدمه أو حال منصرفه، ربما لمحها وهى معتمدة الحافة بمرفقيها أو مفترشة راحتها بذقنها، فيرفع نحوها عينيه حانيًا رأسه فى ولاء العابد، فترد تحيته بابتسامة رقيقة ذات وميض يضىء له أحلام اليقظة وأحلام المنام. على أمل رؤيتها اختلس من الشرفة نظرة وهو يدخل القصر، ثم من النافذة وهو يقطع الممر الجانبى ولكنه لم يجدها لا فى هذه ولا فى تلك، فاتجه ـ وهو يمنى النفس باللقاء فى الحديقة ـ نحو الكشك حيث رأى حسين جالسا بمفرده على غير العادة. تصافحًا وقلبه يشرق ببهجة المودة التى تبعثها فى نفسه مطالعة هذا الوجه الصبيح، أليف روحه وعقله، واستمع إليه وهو يرحب به فى لهجته المرحة الصافية قائلاً:

ـ أهلاً بالمعلم! الطربوش والمعطف! لا تنس فى المرة القادمة الكوفية والعصا، أهلا.. أهلا..

خلع كمال طربوشه ووضعه على المنضدة، وطرح المعطف على كرسى وهو يتساءل:

ـ أين إسماعيل وحسن؟

ـ إسماعيل سافر إلى البلد مع والده فلن تراه اليوم، أما حسن فقد تلفن لى صباحًا بأنه سيتأخر ساعة أو أكثر لكتابة بعض المحاضرات.. أنت تعلم أنه طالب مثالى مثل حضرتك، وهو مصمم على نيل الليسانس هذا العام..

جلسًا على كرسيين متقابلين موليين القصر ظهريهما وقد وعد انفرادهما كمال بجلسة هادئة لا شقاق فيها، جلسة يرحب صدرها بالتأملات غير أنها ستخلو فى الوقت نفسه من النضال المتعب اللذيذ معًا الذى يدعو إليه حسن سليم، والملاحظات التهكمية اللاذعة التى يبعثرها إسماعيل لطيف دون حساب، استطرد حسين قائلاً:

ـ أنا على العكس منكما طالب ردىء، أجل إنى أستمع إلى المحاضرات مفيدًا من قدرتى على تركيز الانتباه، غير أنى لا أكاد أطيق مراجعة كتبى المدرسية، قالوا لى كثيرا: إن دراسة القانون تتطلب ذكاء نادرًا، الأحرى أن يقولوا: إنها تتطلب غباء وصبرا. حسن سليم طالب مجد شأن الذين يحدوهم الطموح، طالما تساءلت عما يجعله يحمل نفسه فوق ما تطيق من العمل والسهر، وهو لو شاء ـ كأمثاله من أبناء المستشارين ـ لقنع من العمل بما يكفل له النجاح اعتمادا على نفوذ أبيه الذى سيضمن له فى النهاية نيل الوظيفة التى يتطلع إليها، فلم أجد تفسيرًا لذلك إلا كبرياءه الذى يحبب إليه التفوق ويدفعه إليه دفعًا لا هوادة فيه، أليس كذلك؟ ما رأيك فيه؟

قال كمال فى صدق:

ـ حسن شاب جدير بالإعجاب لخلقه وذكائه..

ـ سمعت أبى يقول مرة عن أبيه سليم بك صبرى : إنه مستشار فذ عادل ، فيما عدا القضايا السياسية . .

صادف هذا الرأى هوى فى نفس كمال ، لما سبق إلى علمه من تشيع سليم بك صبرى إلى الأحرار الدستوريين ، فقال ساخرا :

ـ معنى هذا أنه قانونى بارع ، ولكنه غير أهل للقضاء .

فضحك حسين ضحكة عالية ، وقال :

ـ نسيت أننى أخاطب وفديًا . .

فقال كمال وهو يرفع منكبيه :

ـ لكن والدك ليس وفديا ! . تصور أن يجلس سليم بك صبرى للفصل فى قضية عبد الرحمن فهمى والنقراشى !

هل صادف قوله عن سيلم بك صبرى ارتياحًا فى نفس حسين؟ نعم هذا يبدو جليًا فى العينين الجميلتين اللتين لم تألفا الكذب أو الرياء ، ولعله راجع إلى المنافسة التى تقوم عادة ـ مهما اتسمت بالتهذيب وآداب اللياقة ـ بين الأنداد ، وقد كان شداد بك مليونيرا ومن رجال المال ذوى المكانة والجاه فضلاً عن صلته التاريخية بالخديو عباس ، غير أن سليم بك صبرى مستشار فى أكبر هيئة قضائية وفى بلد تفتنها المناصب إلى حد التقديس ، فلم يكن بد من أن يتبادل المنصب الرفيع والمال الوفير نظرات الشزر أحيانًا . ألقى حسين على الحديقة المترامية أمام ناظريه نظرات هادئة يشوبها شىء من الأسف ، فقد تجردت جدائل النخيل وتعرت شجيرات الورد ، وشحبت الخضرة اليانعة واختفت ابتسامات الزهور من ثغور البراعم ، وبدت الحديقة غارقة فى الحزن حيال زحف الشتاء ، ثم قال وهو يشير أمامه :

ـ انظر إلى فعل الشتاء ، هذه آخر جلسة لنا فى الحديقة ، ولكنك من هواة الشتاء . .

إنه يهوى الشتاء حقًا ، ولكن عايدة أحب إليه من الشتاء والصيف والخريف والربيع معا ، فلن يغفر للشتاء حرمانه من مقابلات الكشك السعيدة ، غير أنه قال موافقًا :

ـ الشتاء فصل جميل وقصير ، وفى البرد والغيم والرذاذ حياة يستجيب لها القلب . .

ـ يخيل إلىّ أن هواة الشتاء يكونون عادة من ذوى النشاط والاجتهاد ، فهكذا أنت ، وهكذا حسن سليم . .

ارتاح كمال إلى هذا الثناء ولكنه أراد أن يخص ـ من دون حسن سليم ـ بأكثره ، فقال :

ـ ولكنى لا أعطى واجباتى المدرسية إلا نصف نشاطى فحسب ، الحق أن حياة العقل أوسع من المدرسة بكثير . .

هز حسين رأسه مستحسنًا، وقال:

ـ لا أظن أن ثمة مدرسة يمكن أن تستهلك الوقت الطويل الذى تكرسه للعمل يوميًا.. على فكرة: أنا لا أوافقك على هذا الإسراف وإن أكن أغبطك أحيانًا، خبرنى ماذا تقرأ الآن..؟

ابتهج كمال بهذا الحديث الذى كان ـ بعد عايدة ـ أحب شيء إلى نفسه وأجاب قائلاً:

ـ أستطيع أن أقول لك الآن: إن مطالعاتى أخذت تتبع نوعًا من النظام، لم تعد قراءة حرة كيفما اتفق ما بين قصص مترجمة ومختارات شعرية ومقالات نقدية، أصبحت أتلمس سبيلى على قدر من الضوء لا بأس به، فعمدت أخيراً إلى تخصيص ساعتين كل مساء للقراءة فى دار الكتب وهنالك أنظر فى دائرة المعارف باحثًا عن معانى الكلمات الغامضة الساحرة، كالأدب والفلسفة والفكر والثقافة، مسجلا فى الوقت نفسه أسماء الكتب التى تصادفنى، إنه عالم بديع تذوب فيه النفس شغفًا واستطلاعًا..!

كان حسين يصغى إليه بانتباه واهتمام طارحًا ظهره على مسند الكرسى الخيزران، واضعًا يديه فى جيبى جاكتته الكحلية الإنجليزية، وعلى شفتيه العميقتين ابتسامة مشاركة وجدانية صافية، قال:

ـ جميل جدًا، بالأمس كنت أحيانًا تسألنى عما ينبغى أن يقرأ، اليوم جاءت نوبتى لأسألك أنا، هل وضح لك الطريق؟

ـ رويدا.. رويدا، يغلب على ظنى أنى سأتجه نحو الفلسفة!

ارتفع حاجبًا حسين كالمتسائل، ثم قال باسما:

ـ الفلسفة؟ إنها كلمة مثيرة، حذار أن تذكرها على مسمع من إسماعيل! طالما اعتقدت أنك ستتجه نحو الأدب..

ـ لا لوم عليك، الأدب متعة سامية بيد أنه لا يملأ عينى، إن مطلبى الأول الحقيقة، ما الله، ما الإنسان، ما الروح، ما المادة؟! الفلسفة هى التى تجمع كل أولئك فى وحدة منطقية مضيئة كما عرفت أخيراً، هذا ما أروم معرفته من كل قلبى، وهذه هى الرحلة الحقيقية التى تعد رحلتك حول العالم بالقياس إليها مطلبًا ثانويًا، تصور أنه سيمكننى أن أجد أجوبة شافية لهذه المسائل جميعًا!..

نوّر الشوق والحماس وجه حسين وهو يقول:

ـ هذا بديع حقا، لن أتوانى عن مرافقتك فى هذا العالم الساحر، بل لقد طالعت بالفعل فصولاً عن الفلسفة الإغريقية وإن لم أخرج منها بشيء يعتد به، لست أحب

الاندفاع مثلك، ولكنى أقطف زهرة من هنا وزهرة من هناك وأسلك بين هذا وذاك سبيلاً، والآن دعنى أصارحك بأنى أخاف أن تقطع الفلسفة ما كان بينك وبين الأدب من أسباب، فأنت لا تقنع بالاطلاع ولكنك تريد أن تفكر وأن تكتب، ولن يتاح لك ـ فيما أعتقد ـ أن تكون فيلسوفا وأديبًا فى آن. . !

ـ لن ينقطع ما بينى وبين الأدب، إن حب الحقيقة لا يناقض تذوق الجمال، ولكن العمل شىء والراحة شىء آخر، وقد عزمت على أن أجعل الفلسفة عملى والأدب راحتى. .

فضحك حسين فجأة، ثم قال:

ـ هكذا تتملص من تعهدك لنا بأن تكتب عنا قصة جامعة!

فلم يملك كمال أن يضحك قائلا:

ـ ولكنى آمل أن أكتب يومًا عن «الإنسان» فيشملكم ضمنا!

ـ لا يهمنى الإنسان بقدر ما يهمنى أشخاصنا، انتظر حتى أشكوك إلى عايدة!

خفق قلبه لدى سماع الاسم خفقة تحية وحنان وشوق، فانقلب نشوان كأنما قد ثمل روحه بلحن معربد بالطرب، هل يرى حسين حقًا أنه أتى من الأمر ما يستأهل عليه مؤاخذة عايدة؟ ما أجهل حسين! كيف غاب عنه أنه ما من شعور يستشعره أو فكرة يتأملها أو شوق يستشرفه إلا وآفاقها تترقرق ببهاء عايدة وروحها!

ـ انتظر أنت، وسوف تثبت لك الأيام أننى لن أتخلى عن عهدى ما حييت. . ثم متسائلاً بعد قليل بلهجة جدية:

ـ لِمَ لا تفكر فى أن تكون كاتبًا؟ كل الظروف الراهنة والآتية تهيئ لك التفرغ لهذا الفن!

فهز حسين كتفيه استهانة، وقال:

ـ أأكتب ليقرأ الناس؟ ولِمَ لا يكتب الناس لأقرأ أنا؟

ـ أيهما أعظم شأنا؟

ـ لا تسألنى أيهما أعظم شأنًا، ولكن سلنى أيهما أسعد حالاً، إنى أعد العمل لعنة البشرية، لا لأنى كسول، كلا، ولكن لأن العمل مضيعة للوقت وسجن للفرد وحائل منيع دون الحياة، الحياة السعيدة هى الفراغ السعيد. .

حدجه كمال بنظرة دلت على أنه لم يأخذ قوله مأخذ الجد، ثم قال:

ـ لا أدرى ماذا كانت تكون حياة الإنسان لولا العمل؟. إن ساعة من الفراغ المطلق تنقضى أثقل من عام حافل بالعمل. .

ـ يا للتعاسة! إن صدق قولك نفسه هو ما يؤكد هذه التعاسة، هل حسبتنى أطيق الفراغ المطلق؟ كلا وأسفاه، لا أزال أشغل وقتى بالنافع والضار، ولكنى آمل يومًا أن أعاشر الفراغ المطلق معاشرة سعيدة. .

هم بالتعليق على قوله، ولكن جاء صوت من ورائهما يتساءل «فيم تتحدثان يا ترى» ، صوت أو بالحرى نغمة حلوة ما إن تتردد فى مسمعيه حتى تعزف أوتار قلبه مجاوبة إياها من الأعماق كأنها عناصر مؤتلفة فى لحن واحد وسرعان ما خلت نفسه من متواثب الفكر فغمرها فراغ مطلق ـ ترى أهو الفراغ المطلق الذى يحلم به حسين؟ ـ هو ذاته لا شىء، ولكنه السعادة كلها. .

والتفت إلى الوراء، فرأى عايدة قادمة على بعد خطوات تتقدمها بدور حتى وقفتا أمامهما، كانت ترتدى فستانًا كمونيا وسترة صوفية زرقاء ذات أزرار مذهبة، وقد تجلت بشرتها السمراء فى عمق السماء الصافية وصفاء الماء المقطر. وهرعت بدور إليه فتلقفها بين ذراعيه وضمها إلى صدره كأنما ليوارى فى عناقها ما اعتراه من هيمان، وعند ذاك جاء خادم مسرعًا فوقف أمام حسين وهو يقول بأدب «التليفون» . فقام حسين مستأذنًا، ومضى نحو السلاملك والخادم يتبعه. .

وهكذا وجد نفسه معها على انفراد ـ وجود بدور لم يكن ليغير من هذا المعنى ـ لأول مرة فى حياته، تساءل فى إشفاق: ترى أتبقى أم تذهب؟ ولكنها تقدمت خطوتين حتى صارت تحت مظلة الكشك جاعلة المنضدة بينها وبينه، فدعاها إلى الجلوس بإشارة من يده، ولكنها هزت رأسها بالرفض باسمة، فقام واقفا ورفع بدور بين يديه فأجلسها على المنضدة، ولبث يربت رأس الصغيرة فى ارتباك وهو يبذل كل قوته كى يملك عواطفه ويتغلب على انفعاله. . مضت فترة صمت لم يسمع خلالها إلا حفيف الغصون وخشخشة أوراق جافة متناثرة وزقزقة عصفور، فبدا المكان فيما لمحت عيناه من أرضه وسمائه وأشجاره وسوره البعيد الفاصل بين الحديقة والصحراء وقصة المعبودة المسبلة على جبينها والنور البديع المنبثق من حور مقلتيها، بدا كل أولئك كأنه منظر بهيج من حلم سعيد، لم يدر ـ على وجه اليقين ـ إن كان حقيقة ماثلة أمام ناظريه أم خيالة ملوحة حيال ذاكرته، حتى سجع الصوت الرخيم وهو يقول مخاطبًا بدور فيما يشبه التحذير: «لا تضايقيه يا بدور!» فكان جوابه أن ضم بدور إلى صدره قائلاً: «إن تكن هذه هى المضايقة فما أحبها إلى نفسى!» ، ورنا إليها وفى عينيه أشواق، وراح يتملى منظرها آمنا هذه المرة من الرقباء منعما فيها التأمل كأنما يستكنه أسرارها ويطبع على صفحة مخيلته ملامحها ورموزها، فتاه فى سحر المنظر حتى بدا ذاهلا أو غائبًا، وما يدرى إلا وهى تتساءل:

ـ ما لك تنظر إلىّ هكذا. . ؟!

فأفاق من غشيته، وتجلى فى عينيه الارتباك فابتسمت متسائلة:

ـ هل تريد أن تقول شيئا؟

هل يريد أن يقول شيئا؟ إنه لا يدرى ماذا يريد، حقا أنه لا يدرى ماذا يريد، وتساءل بدوره:

ـ هل قرأت فى عينىّ هذا؟

أجابت وثغرها يفتر عن ابتسامة غامضة:

ـ نعم..

ـ ماذا قرأت فيهما؟

فرفعت حاجبيها كالمتعجبة، وهى تقول:

ـ هذا ما أردت معرفته..

أيبوح لها بسره المكنون قائلاً بكل بساطة «أحبك» وليكن ما يكون! لكن ما جدوى البوح؟ وماذا يكون من أمره لو قطع الاعتراف ما بينه وبينها من صداقة ومودة ـ كما هو الراجح ـ إلى الأبد؟! وانتبه ـ وهو يتأمل ـ إلى النظرة التى تلوح فى عينيها الجميلتين، نظرة مطمئنة شديدة الثقة بنفسهاجريئة لا يعتورها ارتباك أو خجل، نظرة كأنما تهبط عليه من عَلُ بالرغم من أنها فى مستوى نظره، فلم يرتح لها وزداته ترددًا، ماذا وراءها يا ترى؟ وراءها فيما رأى شعور بالاستهانة، وربما العبث كأنما هى بالغ ينظر إلى طفل، ولعلها لم تخل كذلك من تعال لا يمكن أن يبرره فارق السن وحده إذا لم تكن تكبره إلا بعامين على أكثر تقدير، أفلا تكون هذه النظرة الخليقة بأن يلقيها هذا القصر الشامخ بشارع السرايات على البيت القديم بين القصرين؟ ولكن لمَ لمْ يلمحها فى عينيها من قبل ذلك؟ ربما لأنها لم تنفرد به من قبل أو لأنه لم يتح له أن ينعم فيها النظر إلا هذه الساعة، وآلمه ذلك وأحزنه حتى فترت نشوته أو كادت. ورفعت بدور نحوه يديها داعية إياه لحملها، فتناولها فى حضنه، وإذا بعايدة تقول:

ـ يا للعجب! لماذا تحبك بدور كل هذا الحب؟

فقال وهو ينظر فى عينيها:

ـ لأنى أكن لها مثله وأكثر..

فتساءلت كالمرتابة:

ـ أهذا قانون يركن إليه؟

ـ الحكمة السائرة تقول «من القلب للقلب رسول»..

فجعلت تنقر المنضدة بأنملتها وهى تتساءل:

ـ هب فتاة جميلة أحبها كثيرون، فهل تحبهم جميعًا؟ أرنى كيف يصدق قانونك فى هذه الحال..

فقال وقد أذهله سحر الحوار عن كل شىء حتى أحزانه :

ـ يكون من أمرها أن تحب أصدقهم حبًا لها! . .

ـ وكيف تفرزه من الآخرين؟ . .

لو يدوم هذا الحوار إلى الأبد!

ـ أحيلك مرة أخرى إلى الحكمة السائرة «من القلب للقلب رسول»!

فضحكت ضحكة مقتضبة مثل رنة الوتر، وقالت فى تحد :

ـ لو صح هذا ما خاب محب صادق فى حبه! فهل هذا صحيح؟! صدمه قولها كما تصدم حقائق الحياة المستنيم إلى المنطق وحده، فلو صح منطقه لوجب أن يكون أسعد الناس بحبه ومحبوبه، ولكن أين هو من ذلك؟! الحق أن تاريخ حبه الطويل لم يعد لحظات أمل خلت كان يضىء ظلمات قلبه بسعادة وهمية على أثر ابتسامة حلوة يجود بها المحبوب أو كلمة عابرة قابلة للتأويل أو حلم سعيد عقب ليلة فكر وسهاد ولواذا بقول سائر له احترامه فى نفسه مثل «من القلب للقلب رسول» ، فكان يتعلق بالأمل الخلب فى إصرار اليائس حتى تعيده الحقيقة إلى وعيه، هاهو الساعة يتلقى هذه الجملة الساخرة الحاسمة كالدواء المر ليتداوى بها مستقبلاً من كواذب الآمال، وليعرف على وجه اليقين موضعه أين يكون، ولما لم يحر جوابًا على سؤالها الذى تحدته به، هتفت معبودته ومعذبته بلهجة المنتصر :

ـ غُلبْت . . !

واستحكم الصمت مرة أخرى، فعاود مسمعيه حفيف الغصون وخشخشة الأوراق الجافة وزقزقة العصفور، غير أنه تلقاها هذه المرة بوجد فاتر وقلب خائب، ولاحظ أن عينيها تتفحصانه بإمعان لا داعى له، وأن نظرتها تزداد جرأة وثقة وما يوحى بالعبث، وأنها أبعد ما يكون عن منظر أنثى تصدت لذكر، فشعر بغمز فى قلبه وبرودة، وتساءل هل قدر له أن ينفرد بها لتقوض أحلامه دفعة واحدة؟! ولاحظت قلقه، فضحكت ضحكة لاهية، وقالت فى دعابة وهى تومئ إلى رأسه :

ـ لا يبدو أنك شرعت فى تربية شعرك؟

فقال باقتضاب :

ـ كلا . .

ـ ألا يروقك ذلك؟

وهو يمط بوزه باستخفاف :

ـ كلا . .

ـ قلنا لك إنه أجمل . .

ـ هل ينبغى للرجل أن يكون جميلاً . . ؟

فقالت باستغراب :

ـ طبعًا الجمال محبوب ، سواء فى الرجال والنساء . . ؟

همَّ بأن يردد بعض محفوظاته مثل «جمال الرجل فى أخلاقه» إلخ ، ولكن غريزة من غرائزه أوحت إليه بأن مثل هذا القول ـ مع صدوره عن شخص فى صورته ـ لن يلقى عند معبودته إلا الهزء والسخرية ، فقال وهو يعانى وخزا فى قلبه داراه بضحكة مصطنعة :

ـ لست من رأيك . .

ـ أو لعلك تنفر من الجمال كما تنفر من البيرة ولحم الخنزير !

فضحك ضحكة يعالج بها يأسه وقهره ، فعادت تقول :

ـ الشعر الطبيعى غطاء طبيعى أعتقد أن رأسك فى حاجة إليه ، ألا تعلم أن رأسك كبير جدًا؟ .

ذو الرأسين ! أنسيت ذلك النداء القديم؟ . . يا للتعاسة !

ـ هو كذلك . . .

ـ لمه؟ . .

أجاب وهو يهز رأسه فى إنكار :

ـ سليه بنفسك فإننى لا أدرى . .

ضحكت ضحكة خافتة ، أعقبها صمت ، معبودك جميل فاتن ساحر ، ولكنه ذو جبروت كما ينبغى له ، ذق جبروته وتلقن شتى أنواع الألم . ولم ترحمه فيما بدا ، لم تزل عيناها الجميلتان تصعدان البصر فى وجهه وتصوبان حتى ثبتتا على . . ، أجل على أنفه ! . . هنالك وجد قشعريرة فى أعماقه حتى قفّ شعره وغض البصر وهو خائف يترقب ، وسمعها تضحك ، فرفع عينيه وهو يتساءل :

ـ ماذا يضحكك؟

ـ ذكرت أموراً مثيرة طالعتها فى مسرحية فرنسية معروفة ، ألم تقرأ «سيرانو دى برجراك؟» .

أنسب الأوقات للاستخفاف بالألم وقت يزيد فيه الألم عن حده ، قال بهدوء واستهانة :

ـ لا داعى للمداراة ، أنا أعرف أن أنفى أكبر من رأسى ، ولكن أرجو ألا تسألى مرة أخرى «لمه؟» سليه بنفسك إن شئت . . !

وإذا ببدور تمد يدها فجأة فتقبض على أنفه، فأغرقت عايدة فى الضحك وهى تميل برأسها إلى الوراء، ولم يملك هو أيضًا إلا أن يضحك، ثم سأل بدور مداراة لارتباكه:

ـ وأنت يا بدور، هل هالك أنفى؟!..

وترامى إليهم صوت حسين وهو يهبط سلم الفراندا، فغيرت عايدة من لهجتها فجأة، وقالت له بصوت جمع بين الرجاء والتحذير:

ـ إياك أن تزعل من مزاحى!..

عاد حسين إلى الكشك، فجلس على كرسيه داعيًا كمال إلى الجلوس فاقتدى به ـ بعد تردد ـ واضعا بدور على حجره، غير أن عايدة لم تلبث بعد ذلك إلا قليلاً فأخذت بدور وحيتهما، ثم انصرفت وهى تلحظ كمال بنظرة ذات معنى خاص، وكأنما تكرر تحذيره من الزعل، لم يجد من نفسه أى رغبة فى استئناف الحديث فاكتفى بالإصغاء أو بالتظاهر بالإصغاء مع المشاركة فيه بين حين وآخر بسؤال أو تعجب أو استحسان أو استهجان لإثبات وجوده ليس إلا، وكان من حسن حظه أن عاد حسين إلى طرق موضوع قديم لا يتطلب انتباها أكثر مما عنده، وهو رغبته فى السفر إلى فرنسا ومعارضة أبيه التى يأمل فى التغلب عليها قريبًا، . أما الذى كان يشغل قلبه وفكره معا فهو ذلك المظهر الجديد الذى تبدت به عايدة فى الدقائق التى جمعت بينهما على انفراد أو على شبه انفراد، ذلك المظهر الموسوم بالاستخفاف والسخرية والقسوة، أجل القسوة! فقد عبثت به بدون رحمة وأعملت فيه دعابتها كما يعمل المصور ريشته فى الخلقة الآدمية ليستخرج منها صورة كاريكاتورية فذة فى قبحها وصدقها معا! ذكر ذلك المظهر ذاهلا، ومع أن الألم كان يسرى فى روحه كما يسرى السم فى الدم ناشرا فيها ظلا ثقيلاً من القنوط والكآبة، فإنه لم يجد فى نفسه سخطًا أو غضبًا أو احتقارًا له، أليس هو صفة جديدة من صفاتها؟ بلى، لعله أن يكون غريبًا كولعها بالرطانة وشرب البيرة وأكل لحم الخنزير، ولكنه ككل أولئك صفة منسوبة إلى ذاتها، خليقة بأن تتشرف بهذا الانتساب وإن عدت فى غيرها نقيصة أو استهتارًا أو معصية، ولا ذنب لها هى أن نشأ عن صفة من صفاتها ألم فى قلبه أو يأس فى نفسه ما دام العيب عيبه هو لا عيبها هى، وهل كانت هى التى كبرت رأسه أو غلظت أنفه؟ أو هل تراها جارت بدعاباتها على الصدق والواقع؟ لم يحدث شىء من هذا فانتفى عنها الملام وحق عليه الألم، وعليه أن يتقبله بتسليم صوفى كما يتقبل العابد القضاء وهو أصدق ما يكون إيمانًا بأنه قضاء عادل مهما يكن من قسوته، وأنه صادر عن معبود كامل لا مظنة فى صفة من صفاته أو إرادة من إراداته.. هكذا خرج من التجربة القصيرة العنيفة التى صهرته منذ دقائق وهو أشد ما يكون ألما وعذابًا ولكن دون أن ينال ذلك من قوة حبه وافتتانه بالحبيب!.. الساعة يحظى بمعرفة ألم جديد، ألم الرضى بحكم قاس قضى عليه

بعدم الأهلية، كما عرف من قبل ـ عن طريق الحب أيضًا ـ ألم الفراق وألم الإغضاء وألم الوداع وألم الشك وألم اليأس، وكما عرف أيضًا ألما يحتمل وألما يستلذ وألما لا يسكن مهما قدم له من قرابين التأوهات والدموع، كأنما أحب ليتفقه فى معجم الألم، ولكنه على التماع الشرر المتطاير من ارتطام آلامه يرى نفسه ويعرف أشياء، ليس الله والروح والمادة ـ فحسب ـ ما يجب أن تعرفه، ما الحب؟ . . ما البغض؟ . . ما الجمال؟ . . ما القبح؟ . . ما المرأة؟ . . ما الرجل؟ . . كل أولئك يجب أن تعرف أيضًا، أقصى درجات الهلاك تماس أولى درجات النجاة، اذكر ضاحكًا أو اضحك ذاكرًا أنك هممت بالإفضاء إليها بمكنون سرك! . اذكر باكيا أن أحدب نوتردام ـ ملأ حبيبته رعبًا وهو يحنو عليها مواسيًا، وأنه ـ أحدب نوتردام ـ لم يستثر عطفها البرىء إلا وهو يلفظ آخر أنفاسه الأخيرة، «إياك أن تزعل من مزاحى»! . . حتى راحة اليأس تضن بها عليك، فليفصح المعبود عن ذات نفسه علنًا نخرج من جحيم الحيرة ونطمئن فى قبر اليأس، هيهات أن يقتلع اليأس جذور الحب من قلبى، ولكنه على أى حال مناجاة من كواذب الآمال! . .

والتفت حسين نحوه ليسأله عن سر صمته، ولكنه لمح ـ فيما بدا ـ شخصًا قادمًا، فأدار رأسه ثم هتف:

ـ هاهو حسن سليم قد أقبل، كم الساعة الآن؟

فالتفت كمال إلى الوراء، فرأى حسن مقبلاً نحو الكشك. .

١٩

غادر حسن وكمال سراى آل شداد والساعة تدور فى الواحدة، وهم كمال بافتراق عن صاحبه أمام باب القصر، ولكن الآخر قال له برجاء:

ـ هلا تمشيت معى قليلاً من الوقت. . !

فلبى كمال الدعوة عن طيب خاطر، وسارا فى شارع السرايات جنبًا إلى جنب. . كمال بقامته الطويلة، وحسن لا يكاد يبلغ رأسه منكب صاحبه، لم يكن يخلو من تساؤل! ! خاصة وأن الوقت لم يكن أنسب الأوقات للمشى الذى ليس وراءه هدف، وما يدرى إلا وحسن يلتفت إليه متسائلاً:

ـ فيم كنتما تتحدثان؟

فأجاب كمال وهو يزداد تساؤلاً:

ـ فى أمور شتى كالعادة، سياسة . . ثقافة إلخ . .

فكانت مفاجأة حقًا أن يقول له بصوته الهادئ المتزن :

ـ أعنى أنت وعايدة . . !

فاستولت الدهشة على كمال، حتى لبث ثوانى لا يتكلم، ثم تمالك نفسه فسأله :

ـ كيف عرفت هذا ولم تكن معنا؟

فقال حسن سليم دون أن يلوح فى وجهه أى تغيير :

ـ جئت فى أثناء حديثكما، فتراءى لى أن أذهب إلى حين حتى لا أقطعه عليكما . .

ترى أكان يسلك مسلكه لو وجد نفسه فى موقفه؟ واشتدت به الحيرة وخالطه شعور بأنه مقبل على حديث مثير ذى شجون، قال :

ـ لا أدرى ماذا حملك على ذلك التصرف، ولو لمحتك ما تركتك تذهب . .

ـ لللياقة أحكام! أعترف بأننى شديد الحساسية فى هذه الناحية . . آداب أرستقراطية! . . أين أنت من إدراكها .

ـ لا تؤاخذنى إذا صارحتك بأنك تدقق أكثر مما ينبغى . .

ابتسم حسين ابتسامة خفيفة لم تمكث على شفتيه، ثم بدا كالمنتظر، ولما طال به الانتظار عاد يتساءل :

ـ نعم؟ . . فيم كنتما تتحدثان؟

كيف إذن ارتضت آداب اللياقة مثل هذا الاستجواب؟! وفكر لحظات فى توجيه هذه الملاحظة إليه، غير أنه دقق فى اختيار الصياغة الجديرة بالاحترام الذى يكنه له ـ احترام يرجع إلى شخصيته أكثر مما يرجع إلى سنه ـ حتى قال :

ـ المسألة أبسط من أن تحتاج إلى هذا كله، غير أنى أتساءل عن مدى التزامى بالإجابة!

فبادره حسن قائلاً بلهجة المعتذر :

ـ أرجو ألا ترمينى بلهجة المتطفل أو بدس أنفى فى خاص شئونك، فإن لدىّ من الأسباب ما يبرر هذا السؤال، وسوف أحدثك عن أمور لم تعرض مناسبة تجعلنى أحدثك عنها من قبل، غير أنى اعتقدت ـ اعتمادًا على ما بيننا من صداقة ـ أنك لن تضيق بسؤالى، أرجو ألا تفهم الأمر على غير هذا الوجه . . !

خف التوتر، ولعله سُر لتلقى هذا الكلام الرقيق عن حسن سليم بالذات، الشخص الذى طالما رآه مثالاً للأرستقراطية والنبل والكبرياء، فضلاً عن أنه كان أرغب منه فى استنفاد أوجه الحديث عن أمر يتعلق بمعبودته . لو كان إسماعيل لطيف هو صاحب

السؤال ما احتاج الأمر إلى شيء من هذا اللف والدوران حول ما يجب وما لا يجب ومايليق وما لا يليق، وربما كان أفضى إليه بكل شيء وهما يتضاحكان، ولكن حسن سليم لا يخرج عن تحفظه أبدا ولا يخلط بين الصداقة ورفع الكلفة، فلا بأس من أن يؤدى ثمن تحفظه! قال:

ـ أشكرك على حسن ظنك، وثق بأنه لو كان ثمة ما يستحق أن أخبرك به ما كتمته عنك، ليس إلا أننا تكلمنا بعض الوقت فى شئون عادية وهذا كل ما هنالك، غير أنك أيقظت حب استطلاع فى نفسى فهل لى أن أسالك ـ ولو من باب العلم بالشيء ـ عن الأسباب التى تراها مبررة لسؤالك؟ . . لست ألح بطبيعة الحال، بل إنى على أتم الاستعداد للنزول عن سؤالى إذا لم يصادف منك قبولاً . . !

قال حسن سليم بهدوئه واتزانه المألوفين:

ـ سأحدثك عما تسأل عنه، ولكن أرجو أن تنتظر قليلاً، يبدو أنك لا تود إخبارى عما دار بينكما من حديث، وهذا حقك لا ريب فيه، بل لا أجد فيه إخلالا بواجب الصداقة، ولكنى أود أن ألفت نظرك إلى أن كثيرين يخدعون بحديث عايدة ويفسرونه تفسيراً لا يمت للواقع بسبب، وربما أحدثوا لأنفسهم بسبب ذلك متاعب لا داعى لها . . !

أفصح عما تريد قوله، فى الجو نذر تجهم لا يلبث أن ينقلب إعصاراً فيعصف بقلبك المطعون، كأن به موضعاً سليما لم يطعن! أنت أنت المخدوع يا صاح، ألا تدرى أنه الحياء وحده الذى يمنعنى من أن أفضى إليك بما كان؟! فلتصعقنى الصواعق إن أرحت لك بالا!

ـ لم أفهم مما قلت حرفًا . . !

علا صوت حسن قليلاً، وهو يقول:

ـ لسانها يجود فى يسر بألطف الكلام، فيحسبه السامع ذا مغزى أو أن وراءه عاطفة ما، ولكنه محض كلام لطيف تخاطب به كل من يحادثه سراً أو جهرًا! وكم خدع كثيرين . . !

برح الخفاء، صاحبك مصاب بالداء الذى هصرك! من يكون حتى يدع العلم بالبواطن؟! شد ما يثير حنقى! قال باسما وهو يتظاهر بعدم الاكتراث:

ـ يبدو أنك واثق مما تقول؟!

ـ إنى أعرف عايدة حق المعرفة، نحن جيران منذ بعيد . .

الاسم الذى يهاب النطق به فى السر فضلاً عن الجهر ينطق به هذا الشاب المفتون بلا مبالاة، كأنه اسم فرد من غمار الملايين! هذه الجرأة فيه تخفضه فى قلبه درجات وترفعه

فى خياله درجات، وجملة «نحن جيران منذ بعيد» حزت فى قلبه كالخنجر فأطاحت به كما تطيح النوى بالغريب. سأله بلهجة مؤدبة وإن لم يخل مدلولها من سخرية:

ـ ألا يجوز أن تكون خدعت أيضًا كالآخرين؟..

فتراجع رأس حسن فى كبرياء، وهو يقول فى يقين:

ـ لست كالآخرين..!

شد ما أحنقه غطرسته، شد ما أحنقه جماله وثقته بنفسه، هذا الابن المدلل للمستشار الخطير الذى ترتقى الشبهات إلى أحكامه السياسية! وندت عن حسن «هه» كأنه ذيل ضحكة وإن لم تضحك أساريره، أراد أن يمهد بها للانتقال من طبقة صوتية متغطرسة إلى طبقة أخرى لطيفة، ثم قال:

ـ إنها فتاة ممتازة لاتشوبها شائبة، ولو أن مظهرها وحديثها وأنسها تجر عليها الظنون أحيانًا!

فبادره كمال قائلاً بحماس:

ـ إن مظهرها ومخبرها على السواء لفوق كل ظن!

فحنى حسن رأسه بامتنان كأنما يقول له «أحسنت»، ثم قال:

ـ هذا ما ينبغى أن تراه عين بصيرة سليمة، غير أن ثمة أمورًا تحير بعض الأفهام، سأضرب لك أمثلة على سبيل التوضيح: إن البعض يسىء فهم اختلاطها فى الحديقة بأصدقاء أخيها حسين، نابذة ما جرت به التقاليد الشرقية، والبعض الآخر يقف متسائلاً حيال محادثتها لهذا وملاطفتها لذاك، وآخرون يتوهمون وراء الدعابة اللطيفة ـ تصدر عنها عفوا ـ سرًا خطيرًا، هل أدركت ما أعنى؟!

فقال كمال بنفس الحماس السابق:

ـ إنى أدرك ما تعنى طبعًا، ولكنى أخشى أن تكون مغاليًا فى ظنونك، عنى أنا شخصيًا لم يساورنى شك قط فى أى تصرف من تصرفاتها، لأن أحاديثها ودعابتها ظاهرة البراءة، ولأنها من ناحية أخرى لم تتلق تربية شرقية خالصة حتى تطالب بالمحافظة على التقاليد أو تؤاخذ على الخروج عليها، وأظن أن هذا هو رأى الآخرين أيضا..

هز حسن رأسه كأنما يتمنى لو يستطيع أن يؤمن برأيه فى «الآخرين»، غير أن كمال لم يعن بالتعليق على ملاحظته الصامتة، كان سعيدًا بالدفاع عن معبودته، سعيدًا بالفرصة التى تهيأت له لإعلان رأيه فى طهارتها وبراءتها، أجل لم يكن صادقًا فى حماسه ـ لا لأنه كان يبطن غير ما يعلن، فطالما آمن بأن معبودته فوق منال الشبهات ـ ولكن حزنا على الأحلام السعيدة التى قامت على افتراض وجود «سر» وراء دعابات المعبودة

وتلميحاتها الرقيقة، إن حسن يبدد تلك الأحلام كما بددها حديث اليوم تحت الكشك، ومع أن قلبه المكلوم كان يجاهد سراً للاستمساك ولو بخيط واه من خيوط الأمل، فإنه جارى حسن سليم مجاراة المؤمن برأيه تغطية لموقفه ومداراة لهزيمته وإبطالاً لإدعاء الآخر بأنه «العارف» وحده لحقيقة المعبودة! عاد حسن يقول:

ـ لا غرابة فى أن تدرك هذا فإنك شاب لبيب، الواقع كما قلت إن عايدة بريئة ولكن . . معذرة إذا صارحتك بخصلة فيها ربما بدت غريبة فى عينيك، وربما كانت مسئولة لحد كبير عن سوء فهم الكثيرين لها، أعنى شغفها بأن تكون «فتاة أحلام» كل من يتصل بها من الشباب! . . لا تنس أنه شغف برىء، فإننى أشهد بأننى لم أصادف فتاة أحفظ لكرامتها منها، ولكنها مولعة بقراءة الروايات الفرنسية كثيرة التحدث عن بطلاتها مفعمة الرأس بالخيال!

ابتسم كمال ابتسامة مطمئنة أراد أن يعبر بها عن أنه لم يسمع جديداً فيما قال صاحبه، ثم قال مدفوعًا برغبة فى إغاظته:

ـ عرفت هذا كله من قبل، دار حديثنا يومًا ـ أنا وحسين وهى ـ عن الموضوع ذاته!

تمكن أخيراً أن يخرجه عن وقاره الأرستقراطى، فنطقت أساريره بالدهش وتساءل كالمنزعج:

ـ متى كان ذلك؟ لا أذكر أننى حضرت هذا الحديث! هل قيل أمام عايدة أنها تود أن تكون «فتاة أحلام» كل شاب؟ . .

رمق كمال ما طرأ عليه من تغير بعين الظفر والارتياح، غير أنه أشفق من التمادى، فقال بحذر:

ـ لم يرد ذكر هذا بلفظه ولكن بالمعنى الذى يؤدى إليه خلال حديث دار حول ولعها بالروايات الفرنسية وإغراقها فى الخيال! . .

استرد حسن هدوءه واتزانه، ولزم الصمت مليًا كأنه يحاول أن يستجمع فكرة الذى نجح كمال فى تشتيته إلى حين، وبدا كالمتردد لحظات حتى شعر كمال بأنه يود أن يعرف كل شىء عن الحديث الذى دار بينه وبين عايدة وحسين، متى وقع؟! ماذا جعلهم يطرقون هذه الشئون الحساسة؟! وما تفصيل ما قيل فيه؟! لولا أن كبرياءه كان يمنعه من السؤال، وأخيراً قال:

ـ هاأنت نفسك تشهد لصدق رأيى، ولكن من سوء الحظ أن كثيرين لم يفهموا سلوك عايدة كما فهمته أنت، فلم يفطنوا إلى حقيقة هامة وهى أنها تحب حب الشخص لها لا الشخص نفسه!

لو اطلع الأحمق على الواقع ما تجشم كل هذا التعب الضائع، ألا يعلم بأننى لا أطمع

حتى فى أن تحب حبى؟ انظر إلى رأسى وأنفى وانعم بالا! قال بصوت لم يخل من تهكم:

ـ تحب حب الشخص لها لا الشخص نفسه! يا لها من فلسفة!

ـ هى حقيقة أنا بها عليم!

ـ ولكنك لا تستطيع أن تضمن صدقها فى جميع الأحوال!؟

ـ بلى أستطيع وأنا مغمض العينين.

غالب كمال حزنه وهو يتساءل متظاهراً بالدهش:

ـ أتستطيع أن تؤكد عن يقين أنها لا تحب هذا الشخص أو ذاك؟

فقال حسن بثقة واطمئنان:

ـ أستطيع أن أؤكد أنها لم تحب أحداً ممن يتوهمون أحياناً أنها تحبهم! اثنان يحق لهما أن يتكلما بهذه الثقة: المؤمن والأحمق، وهو ليس بالأحمق، ترى لم يتحرك الألم ولا جديد فيما سمعت؟! الحق أنى تألمت اليوم تألم عام من أعوام الحب.

ـ ولكنك لا تستطيع أن تؤكد أنها لا تحب إطلاقاً؟!

ـ لم أقل هذا..

فرمقه بالعين التى يتطلع بها الإنسان إلى العراف، ثم سأله:

ـ أتدرى إذن أنها تحب؟

فحنى رأسه بالإيجاب، وقال:

ـ إنما دعوتك إلى المشى لأحدثك عن هذا..!

غاص قلبه فى أعماق صدره كأنما يحاول الفرار من الألم ولكنه غرق فى عباب الألم، كان قبل ذلك يتألم لأنها لا يمكن أن تحبه، ها هو معذبه يؤكد له أنها تحب.. إن المعبودة تحب!.. إن قلبها الملائكى يخضع لنواميس الشوق والحنين والرغبة واللهفة الموجهة جميعاً إلى شخص معين! أجل كان عقله ـ لا شعوره ـ يسلم أحياناً بإمكان ذلك، ولكن كما يسلم بالموت كفكرة مجردة لا كحقيقة باردة ناشبة فى جسد عزيز أو فى جسده هو بالذات، لذلك فاجأة الخبر كأنه يتحقق لأول مرة فى الوجود والفكر معاً، تأمل هذه الحقائق جميعاً واعترف بأن ثمة آلاما فى هذه الدنيا لم تخطر لك على بال رغم خبرتك العميقة بالألم، استطرد حسن قائلاً:

ـ قلت لك من بادئ الأمر إن لدىّ من الأسباب ما يبرر هذا الحديث معك، وإلا ما سمحت لنفسى بالتدخل فى خاص شئونك..

ينبغى أن تلتهمه النار المقدسة حتى آخر ذرة من رماد.

ـ إنى مقتنع بما تقول، وها أنا مصغ إليك . .

ابتسم حسن ابتسامة خفيفة أوحت بتردده حيال الكلمة الأخيرة الفاصلة، فصبر كمال، ثم تعجله ـ رغم أن قلبه استشف الحقيقة المفجعة ـ قائلاً:

ـ قلت إنك تدرى أنها تحب . . !؟

فنبذ حسن التردد قائلاً:

ـ نعم، يوجد بيننا ما يجعل لى الحق فى ادعاء ما قلت . . !

عايدة تحب أيتها السماوات! أوتار قلبك تنقبض باعثة لحنا جنائزيًا، هل يكن قلبها لهذا الشاب السعيد مثل ما يكنه لها قلبك، إن صح أن هذا من الممكنات فأحرى بالعالم أن يتصدع، ليس صاحبك بكاذب لأن النبيل الجميل لا يكذب، قصارى أمالك أن يكون حبها من جنس خلاف حبك، وإذا لم يكن من الفاجعة بد فمن العزاء أن يكون حسن هو المحبوب، من العزاء أيضًا أن الحزن والغيرة لا يطمسان الحقيقة أمام عينيك، هذا الغنى الساحر العجيب! قال كالذى يضغط على زناد المسدس وهو يعلم أنه فارغ:

ـ يبدو أنك مطمئن إلى أنها تحب ـ هذه المرة ـ الشخص نفسه لا حب الشخص لها!

فندت عنه «هه» مرة أخرى ليعرب بها عن ثقته. ولمحه بنظرة سريعة ليرى مدى إيمانه بما يقول، ثم قال:

ـ لم يكن حديثنا قط ـ أنا وهى ـ من النوع الذى يحتمل معنيين! أى نوع من الحديث هو؟ حياتى كلها أهبها ثمنًا لكلمة منه، أعرف الحقيقة كلها وأتجرع العذاب حتى الثمالة، ترى هل سمع الصوت المطرب وهو يقول له «أحبك» ؟ بالفرنسية قالها أم بالعربية؟ بمثل هذا العذاب تشتعل النيران، قال بهدوء:

ـ أهنئك، كلا كما فيما أرى جدير بصاحبه!

ـ شكرًا . .

ـ غير أنى أتساءل عما دعاك إلى الإفضاء إلىّ بهذا السر الثمين؟

فرفع حاجبيه حسن، وهو يقول:

ـ لما وجدتكما تتحدثان على انفراد أشفقت أن تخدع ببعض القول كما خدع كثيرون، فصممت على مصارحتك بالحقيقة، لأنى كرهت فكرة انخداعك أنت بالذات . . !

غمغم كمال قائلاً «شكرًا» تأثرًا بالعطف السامى، عطف الشاب الموهوب الذى تحبه عايدة، الذى كره له الانخداع فقتله بالحقيقة، ترى ألم تكن أوهام الغيرة بين البواعث التى أغرته بمصارحته بسره؟ ولكن أليس له عينان يرى بهما رأسه وأنفه؟! استطرد حسن قائلاً:

ـ إنها ووالدتها كثيراً ما تزوران بيتنا ، وهناك تسنح لنا فرص للحديث . .

ـ على انفراد؟

أفلتت العبارة منه بلا وعى ، فارتبك نادما وتورد وجهه ، ولكن الآخر قال ببساطة :

ـ أحيانًا . .

كم يود أن يراها فى هذا الدور ـ دور المحبة ـ الذى لم يخطر له فى خيال ، كيف تتجلى فى العين الساجية التى تلقى إليه بنظرتها من عل لمعة الوجد والحنان؟ منظر يضىء العقل بقبس من الحقيقة المقدسة ويقتل القلب قتلاً ، بهذا تستباح لعنة الكفر الأبدية ، روحك يتململ كطائر سجين يود أن ينطلق ، العالم ملتقى خرابات يستعذب عنه الرحيل ، لكنك حتى إذا صح عندك أن الشفاة تلاقت فى قبلة وردية فلن تعدم فى دوامة الجنون لذة الحرية المطلقة ، وسأله مدفوعًا برغبة انتحارية لم يستطع مقاومتها فضلاً عن فهمها :

ـ كيف إذن توافق على اختلاطها بأصدقاء حسين؟

تريث حسن قليلاً قبل أن يجيب قائلاً :

ـ لعلى لا أرتاح إلى ذلك كل الارتياح ، ولكنى لا أجد فيه مأخذًا وهى تمارسه على مرأى من أخيها ومن الجميع وبحكم تربيتها الأوربية ، ولا أخفى عليك أنى فكرت أحيانًا فى مكاشفتها بامتعاضى ولكنى كرهت أن ترمينى بالغيرة ، وكم تود لو تثير غيرتى! أنت تعرف طبعًا هذه الحيل النسائية وأعترف لك بأنى لا استسيغها . .

لا عجب أن إثبات دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس قد أطاح بأوهام ودوخ رءوسا .

ـ كأنها تتعمد مضايقتك! .

فقال حسن بلهجته الناطقة بالثقة :

ـ على أنه فى وسعى دائمًا أن أحملها على الإذعان لمشيئتى إذا أردت!

أثارته هذه الجملة واللهجة التى قيلت بها إلى حد الجنون ، وتمنى لو يجد سببًا يعتل به على ضربه ليمرغه ـ وإنه لقادر ـ فى التراب ، ولحظه من عَلُ فلاح له الفارق بين طوليهما أكثر من الواقع بكثير ، لمَ لمْ تحب أيضًا الذى دونها سنا؟ وآمن قلبه بأنه خسر الدنيا .

ودعاه حسن إلى تناول الغداء على مائدته ، فاعتذر شاكرًا ، ثم تصافحا وافترقا .

عاد فاتر النفس مثقل القلب بالقنوط ، وكان يود أن يخلو إلى نفسه ليحتضن أحداث يومه متأملاً حتى يستصفى معانيها كلها ، بدت الحياة متلفعة بثوب حداد ، ولكن ألم يكن يعلم من أول الأمر أن هذا الحب ضائع ؟ فأى جديد جلجلت به الحوادث؟ على أى حال ليكن عزاؤه أن الآخرين يتكلمون عن الحب ، أما هو فيحب ملء قلبه . إن الحب الذى

ينور روحه لا يستطيعه أحد سواه، فهذا هو امتيازه وتفوقه، ولن يتخلى عن حلمه القديم بأن يظفر بمعبودته فى السماء، فى السماء حيث لا فوارق مصطنعة ولا رأس كبير ولا أنف غليظ، فى السماء ستكون عايدة لى وحدى بحكم قوانين السماء. .

٢٠

كأنه لم يعد له وجود، تجاهلته بحال لا يمكن أن يتأتى إلا عن تعمد، فطن إلى ذلك أول ما فطن إليه صباح الجمعة التالى - بعد مضى أسبوع على حديث حسن سليم بشارع السرايات - فى اجتماع الأصدقاء بكشك الحديقة بسراى آل شداد. كانوا يتحادثون فجاءت عايدة كعادتها مصطحبة بدور، لبثت عندهم قليلاً تخاطب هذا وتداعب ذاك دون أن تعيره التفاتًا، فظن أول وهلة أن دوره سيجىء. ولكن طال به الترقب، ولاحظ إلى هذا أن عينيها لا تريدان أن تلتقيا بعينيه أو لعلهما تجتنبانه فخرج عن موقفه السلبى واعترض حديثها بملاحظة عابرة ليحملها على مخاطبته، ولكنها واصلت الحديث متجاهلة إياه، ومع أن أحداً لم يتنبه فيما بدا إلى مناوراته الفاشلة - لانهماكهم فى الحديث المحبوب - فإن ذلك لم يخفف من وقع اللطمة التى تلقاها من غير أن يدرك لها سببًا، غير أنه مال إلى تكذيب ما قام بنفسه ودارى شكوكه، وجعل يتحين الفرص لتجربة حظه من جديد وهو من الإشفاق فى غاية، وإذا ببدور تحاول الإفلات من يد عايدة ملوحة له بيدها المطلقة، فتقدم منها ليأخذها بين ذراعيه، ولكن عايدة جذبتها نحوها وهى تقول: «آن لنا أن نذهب»، ثم حيتهم ومضت إلى حال سبيلها!

آه ما معنى هذا؟ إن عايدة غضبانة عليه وما أرادت بمجيئها إلا أن تعالنه بغضبها، ولكن فيم آخذته؟ أى ذنب جنى؟ أى هفوة كبيرة أو صغيرة أتى؟ يا لها من حيرة هزئت بمنطقه وشتتت يقينه، بيد أنه قبض على زمام نفسه بيد قوية أن تفضحه شجونه، وكان على ضبط النفس قادراً، فمثل دوره المألوف تمثيلاً حسنًا ووارى أثر الضربة القاصمة عن أعين الصحاب، وقال لنفسه بعد تقوض المجلس: إنه يحسن به أن يواجه الحقيقة مهما تكن قاسية، وأن يسلم بأن عايدة حرمته - اليوم على الأقل - من نعمة صداقتها. . إن فى قلبه العاشق مسجلاً كهربائيًا دقيقًا لا يترك للحبيب همسة أو خطرة أو لمحة إلا سجلها. حتى النوايا يطلع عليها وحتى الآتى البعيد يبتدهه، ليكن السبب ما يكون أو ليكن الأمر بلا سبب كمرض استعصى على الطب سره، فإنه فى الحالين يرى كأنه ورقة شجر انتزعتها ريح عاتية من فنن غصن وألقت بها فى غث النفايات.

ووجد فكره يحوم حول حسن سليم، ألم يختم حديثه معه بقوله «على أنه فى وسعى دائمًا أن أحملها على الإذعان لمشيئتى إذا أردت»؟! ولكنها جاءت اليوم كعادتها، إن بلواه من تجاهلها إياه لا من غيابها، ثم إنه وحسن افترقا على صفاء، وليس ثمة ما يدعو حسن إلى مطالبتها بتجاهله، وليست هى بالتى تمتثل أمر إنسان مهما يكن شأنه، وليس هو بالمذنب، فما سر التجنى يا رب السموات؟! إن لقاء الكشك - بينه وبينها - على قسوته وعبثه الجارح برأسه وأنفه وكرامته لم يخل من مودة ودعابة ثم ختم بما يشبه الاعتذار، ربما يكون قد قضى على أمله فى الحب ولكنه لم يكن فى حبه أمل، أما لقاء اليوم فابتلاه بالتجاهل. بالنبذ. بالصمت. بالموت، ولأن يجفو الحبيب أو يقسو خير على أى حال من أن يمر بعابده وكأنه شىء لم يكن، يا للتعاسة! ألم جديد يضاف إلى معجم الآلام الذى يحمله على صدره، ضريبة جديدة للحب، وما أفدح ضرائبه، يؤدى بها ثمن النور الذى يضيئه ويحرقه.

واحتقن بالغضب صدره، عز عليه جدًا ألا يحظى على حبه العظيم إلا بهذا الإعراض البارد المتعجرف، وحز فى نفسه ألا يتمخض غضبه إلا عن الحب والولاء، وألا يرد اللطمة إلا بالابتهال والدعاء، ولو كان المتجنى عليها شخصًا آخر ولو كان حسين شداد نفسه لقطعه دون تردد، أما وهو المعبود فقد ردت شظايا الغضب إلى نحره، وانصبت العداوة على هدف واحد هو نفسه، فنزعت به الرغبة فى الانتقام إلى إنزال العقاب بالجانى - الذى هو نفسه - قضى عليها بالحرمان من الدنيا، وامتلأ بشعور عنيد محزون أملى عليه الإعراض عنها إلى الأبد! رضى فيما رضى بصداقتها، بل اعتبرها فوق أحلام مطمعه بالرغم من أن قوة حبه تضيق عنها السماوات والأرض، ورضى أكثر من هذا باليأس من حبها قانعًا من عربدة الأمانى بابتسامة حلوة أو كلمة رقيقة ولو تكون ابتسامة الوداع وكلمته، غير أن التجاهل أحزنه وأذهله وخبله ثم من الدنيا جميعًا نبذه، ولعله أتاح له أن يشعر بشعور الميت لو كان ميت يشعر، لم ترحمه الفكر ساعة من ساعات يقظته طول الأسبوع الذى قضاه بعيدًا عن قصر آل شداد، وتهالك شعوره فى اجترار الخيبة التى قرعته لحظة بعد أخرى، وهو فى البيت صباحًا يفطر على مائدة أبيه، وهو فى الطريق يسير بحواس زائفة، وهو فى مدرسة المعلمين يسمع بعقل غائب، وهو يقرأ مساء بانتباه مشتت، وهو يتذلل للنوم كى يقبله فى ملكوته، ثم وهو يفتح عينيه فى الصباح الباكر فإذا بالفكر تتخاطفه كأنما كانت على عتبة الوعى ترصده أو كأنما هى التى طرقته بجزع النهم كى تواصل التهامه كرة أخرى، ألا ما أفظع النفس إذا خانت صاحبها!..

ويوم الجمعة ذهب إلى قصر الحب والعذاب، فبلغه قبل الميعاد المعتاد بقليل. لماذا ترقب هذا اليوم بصبر نافد؟ ماذا يرجو عنده؟ هل يطمع أن يجد ولو نبضا بطيئًا ضعيفًا ليوهم نفسه بأن جثة الأمل لم تفارقها الحياة بعد؟ هل يحلم بمعجزة ترد معبوده إلى

الرضى على غير انتظار وبلا سبب كما غضب على غير انتظار وبلا سبب؟ أو أنه يستزيد من الجحيم نارًا ظمأ إلى برودة الرماد؟! سار فى ممر الذكريات إلى الحديقة، وإذا به يرى عايدة جالسة على كرسى واضعة بدور على حافة المائدة أمامها، وليس فى الكشك سواها أحد! توقف عن المسير وفكر فى العودة إلى الخارج قبل أن تلتفت ناحيته، ولكنه نبذ هذه الفكرة بتحد وازدراء، وتقدم صوب الكشك تدفعه رغبة شديدة فى مواجهة العذاب وكشف النقاب عن اللغز الذى فتك بأمنه وسلامه، هذا الكائن اللطيف الجميل، هذا الروح الشفاف المتنكر فى فستان امرأة، هل يدرى ماذا فعل به جفاه؟ هل ينام ضميره قرير العين لو شكا إليه ما عاناه، ما أشبه استبداده باستبداد الشمس بالأرض الذى قضى عليها بأن تدور حولها فى دائرة مرسومة ـ لا تقترب منها فتندمج ولا تبتعد عنها فتنتهى ـ إلى الأبد! لو تجود بابتسامة فيتداوى بها من آلامه جميعًا؟! وكان يقترب منها متعمدًا أن يحدث فى مشيته صوتًا لتنبيهها، فأدارت رأسها نحوه كالمتسائلة، ثم لم تفصح أساريرها عن شىء، فوقف على بعد ذراعين من مجلسها، وحنى رأسه فى خشوع، وقال باسما:

ـ صباح الخير..

فحنت رأسها حنوة صغيرة، ولكنها لم تنبس، ثم نظرت فيما أمامها.

لم يعد ثمة شك فى أن الأمل جثة هامدة، وخيل إليه أنها ستصيح به «اذهب عنى برأسك وأنفك حتى لا يحجبا عنى ضوء الشمس!»، غير أن بدور لوحت له بيدها، فمالت عيناه إلى وجهها الجميل المشرق ومضى نحوها ليدارى فى عطفها البرىء هزيمته فتعلقت بذراعيه، فهوى رأسه إليها وقبل خدها قبلة حنان وامتنان، وإذا بالصوت الذى فتح له فيما مضى أبواب الموسيقى الإلهية يقول بجفاء:

ـ من فضلك لا تقبلها، القبلة تحية غير صحية..!

ندت عن ضحكة حائرة لم يدر كيف ولا لمَ ندت، ثم امتقع لونه، وبعد دقيقة واجمة ذاهلة قال منكرًا:

ـ إنها ليست القبلة الأولى فيما أذكر!

فرفعت كتفيها كأنما تقول «هذا لا يغير من الحقيقة شيئا». آه، أيمضى إلى أسبوع جديد من العذاب دون أن ينطق بكلمة دفاعًا عن نفسه؟

ـ اسمحى لى أن أتساءل عن سر هذا التغير الغريب، فقد جعلت أتساءل عنه طوال الأسبوع الماضى دون أن أظفر بجواب!؟

لم يبد عليها أنها سمعته، وبالتالى لم تعن بالرد عليه، فعاد يقول وقد وشى صوته بحيرته وألمه:

ـ إن ما يحزننى حقًا هو أنى برىء لم أجن ما أستحق عليه العقاب!

ولم تزل مصرة على الصمت، فخاف أن يجىء حسين قبل أن يستدرجها إلى الكلام، فبادر يقول بلهجة جمعت بين التشكى والترجى:

ـ ألا يستحق صديق قديم مثلى أن يكاشف على الأقل بذنبه؟

فرفعت نحوه جانب رأسها، ولحظته بنظرة مكفهرة اكفهرار السحاب المنذر بالمطر، ثم قالت بلهجة غاضبة:

ـ لا تدّعِ البراءة الكاذبة . . !

يا رب السماوات هل ترتكب الذنوب بلا وعى من الجانى؟! قال فى نبرات متدافعة، وهو يربت بحركة آلية يدى بدور التى حاولت أن تجذبه إليها وهى لا تدرك مما يدور شيئًا:

ـ صدقت ظنونى وا أسفاه!، هذا ما حدثنى به قلبى فكذبته، إنى مذنب فى نظرك، أليس كذلك؟، ولكن بأى ذنب تتهميننى؟!، خبرينى وحياتك، لا تنتظرى أن أكون البادئ بالاعتراف لسبب بسيط، وهو أننى لم أجن شيئا يستحق الاعتراف، مهما أنقب فى زوايا نفسى وحياتى وتاريخى فلن أعثر على نية أو كلمة أو فعل وجه ضدك بسوء، إنى أعجب كيف لا تأخذين هذا مأخذ البديهيات من الأمور؟!

فقالت بازدراء:

ـ لست ممن يؤثر فيهن التمثيل، سَلْ نفسك عما قلت عنى!

فقال بانزعاج:

ـ ماذا قلت عنك؟ ولمن قلته؟ أقسم لك . . .

فقاطعته بضيق قائلة:

ـ لا يهمنى القسم فى كثير أو قليل، وفره لنفسك، إن الذى يغتاب الناس لا يؤتمن على قسم، المهم أن تذكر ماذا قلت عنى . . !

رمى بمعطفه على مقعد كأنما ليأخذ كامل أهبته للنضال، وابتعد خطوة عن بدور ليتخلص من محاولتها البريئة فى الاستئثار بانتباهه، ثم قال بحرارة ناطقة بالصدق:

ـ لم أقل عنك كلمة أخجل من إعادتها الآن على مسمعك، لم أتفوه عنك بكلمة سوء فى حياتى وما كان ذلك فى وسعى لو تعلمين، وإذا كان «بعضهم» قد أبلغك عنى ما أغضبك، فهو واش حقير لا يستحق ثقتك، وإنى على استعداد لمواجهته أمامك لترى بنفسك مبلغ صدقه أو بالحرى مدى كذبه. ماذا بك من عيب حتى أتحدث به؟! لشد ما أسأت بى الظن!

فقالت بتهكم :

ـ شكراً على هذا الثناء الذى لا أستحقه ، لا أظننى أخلو من نقص ، على الأقل فإنى لم أتلق تربية شرقية خالصة!

نشبت هذه الجملة الأخيرة فى انتباهه ، فذكر كيف وردت على لسانه وهو يحاور حسن سليم دافعًا الشبهات عن معبودته ، فهل يكون حسن أعادها بطريقة أثارت الشك فى حُسْن مقصده؟! حسن سليم النبيل؟ هل يتأتى هذا حقا؟ شد ما يدور رأسه! قال وعيناه تنطقان بالدهش والأسف :

ـ ماذا تقصدين؟! أعترف لك بأنى قائل هذه الجملة ، ولكن سلى حسن سليم يخبرك ، أو ينبغى له أن يخبرك ، بأننى قلتها وأنا أنوه بمزاياك! . .

فحدجته بنظرة باردة ، وتساءلت :

ـ مزاياى؟! وهل رغبتى فى أن أكون «فتاة أحلام» كل شاب من بين هذه المزايا؟!

فهتف كمال بانزعاج وغيظ :

ـ هو قائل هذا عنك لا أنا ، هلا انتظرت حتى يحضر لأتحداه أمامك؟! . .

فواصلت تساؤلها الذى تتابع فى مرارة وسخرية قائلة :

ـ وهل ملاطفتى إياك من بين هذه المزايا أيضًا؟

قال يائسا وقد عجز ، حيال انصباب التهم ، عن الدفاع :

ـ ملاطفتك إياى؟! أين؟ ومتى؟

ـ فى هذا الكشك!؟ هل نسيت؟! أتنكر أنك أوهمته ذلك؟!

آلمته سخريتها وهى تتساءل «هل نسيت؟!» وأدرك لتوه أن حسن سليم ـ يا للحماقة ـ قد ظن بلقاء الكشك الظنون ، فكاشف حبيبته بشكوكه أو نسبها إليه ليتحقق منها . . حيل خبيثة راح هو ضحيتها! ، قال بحزن وحنق :

ـ أنكر ، أنكر بكل قوة وصدق ، إنى نادم على حُسْن ظنى بحَسَن!

فقالت بكبرياء ، كأنما اعتبرت جملته الأخيرة موجهة إليها هى :

ـ إنه عند حُسْن الظن دائمًا . .

زفر غبارا ، وخيل إليه أن أبا الهول قد رفع قبضته الجرانيتية الهائلة التى لم تتحرك منذ آلاف السنين ، ثم هوى بها عليه ، فهرسه وواراه تحتها إلى الأبد ، قال بصوت متهدج :

ـ إذا كان حسن هو الذى أبلغك عنى هذه الأكاذيب فهو كاذب وضيع ، ويكون هو الذى اغتابنى لا أنا الذى اغتبتك . . !

لاحت فى عينيها الجميلتين نظرة قاسية ، وتساءلت بحدة :

ـ أتنكر أنك انتقدت أمامه اختلاطى بأصدقاء حسين؟!

أهكذا يحرّف النبل الأرستقراطى الكلام؟! قال بتأثر شديد:

ـ كلا، لم يحصل ذلك، علم الله أنى لم أقله منتقداً، ولكنه ادعى ادعاءات كبيرة، قال.. قال إنك تحبينه! وقال إنه إن شاء منعك من الاختلاط بنا! ولم أكن أقصد...

قاطعته قائلة بازدراء وهى تقف منتصبة القامة فى كبرياء، حتى تموجت هالة شعرها الأسود بحركة رأسها المرفوع:

ـ أنت تهذى! لا يهمنى ما يقال عنى، إنى فوق هذا كله، ولا خطأ لى فيما أعتقد إلا أننى أهب صداقتى دون تمييز..!

وأنزلت بدور إلى الأرض وهى تتكلم، فتناولت يدها ثم ولته ظهرها، وغادرت الكشك، فهتف بها متوسلاً:

ـ انتظرى لحظة من فضلك كى..

ولكنها كانت قد ابتعدت، وكان صوته قد علا أكثر مما ينبغى حتى خيل إليه أنه أسمع الحديقة كلها، وأن الأشجار والكشك والكراسى ترمقه بنظرة جامدة ساخرة، فأطبق فاه واعتمد براحته حافة المائدة، فمال فرعه الطويل كأنما انحنى تحت ضغط القهر، لم يمكث وحده طويلاً، فما لبث أن جاء حسين شداد طلق المحيا كعادته، فحياه تحيته الصافية الحلوة وجلسا على كرسيين متجاورين، وتبعه بعد قليل إسماعيل لطيف، وأخيراً جاء حسن سليم يسير فى خطواته المتمهلة وحركاته المترفعة. وتساءل كمال فى حيرة: ترى ألم يلمحهما حسن من بعيد كما لمحهما فى المرة السابقة؟ ومتى ـ وكيف ـ يدرى بما دار بينهما من حديث قاطع أسيف! وانفجر فى صدره الغيظ والغيرة كما تنفجر الذائدة، بيد أنه آلى على نفسه ألا يُشمت به غريمًا، وألا يضع شخصه موضع السخرية أو العطف الزائف، وألا يمكن أحدا من أن يطالع فى صفحة وجهه أثرًا مما تضطرب به جوانحه، فألقى بنفسه فى تيار الحديث، ضحك لملاحظات إسماعيل لطيف، وعلق طويلاً على تكون حزب الاتحاد وخروج الخارجين على سعد زغلول والوفد ودور نشأت باشا فى هذا كله، بالاختصار مثل دوره خير تمثيل حتى انفض المجلس بسلام، وغادر كمال وإسماعيل وحسن سراى آل شداد عند الظهر، وكأن كمال لم يعد يحتمل مزيدا من الصبر، فخاطب حسن قائلاً:

ـ أريد أن أحدثك قليلاً..

فقال حسن بهدوء:

ـ تفضل..

فنظر كمال إلى إسماعيل كالمعتذر، وقال:

ـ على انفراد!

همّ إسماعيل بالانسحاب، فأوقفه حسن بإشارة من يده، وقال:

ـ لست أخفى عن إسماعيل شيئًا..

فأحنقته هذه الحركة فاستشف وراءها مريبًا يتوجس، غير أنه قال دون مبالاة:

ـ إذن فليسمعنا، فلست أخفى عنه شيئا أيضًا..

وانتظر قليلاً حتى باعد المشى بينهم وبين سراى آل شداد، ثم قال:

ـ قبل حضوركم اليوم اتفق لى أن قابلت عايدة فى الكشك على انفراد، فدار بيننا حديث غريب أدركت منه أنك نقلت إليها بعض حديثنا فى شارع السرايات ـ أتذكره؟ ـ مشوها محرفًا حتى دخل فى روعها أننى حملت عليها حملة ظالمة باغية..

ردد حسن بين شفتين ممتعضتين لفظى «مشوه ومحرف» ثم قال ببرود وهو يلقى عليه نظرة كأنما يريد بها أن يذكره بأنه إنما يخاطب «حسن سليم» لا شخصًا آخر:

ـ يحسن بك أن تكلف نفسك بعض الجهد فى تخير الألفاظ..

فقال كمال بانفعال:

ـ هذا ما فعلته! فالحق أن كلامها لم يدع لى شكا فى أنك أردت الوقيعة بينى وبينها!

حال لون حسن غضبًا، ولكنه لم يستسلم له، فقال بصوت أمعن فى البرود:

ـ يؤسفنى أننى أحسنت الظن طويلاً بفهمك وتقديرك للأمور (ثم بلهجة ساخرة) هلا أخبرتنى عما عسى أن أجنيه من وراء هذه الوقيعة المزعومة؟! الحق أنك تندفع بلا روية أو عقل..

فاشتد الغضب بكمال، وهتف قائلاً:

ـ بل سوّلت لك نفسك سلوكًا شائنًا..!

وهنا تدخل إسماعيل قائلاً:

ـ إنى أقترح عليكما تأجيل الحديث إلى وقت آخر تكونان فيه أملك لأعصابكما!

فقال كمال بإصرار:

ـ إن الأمر من الجلاء بحيث لا يحتاج إلى مناقشة، وهو عارف وأنا عارف!

فعاد إسماعيل يقول:

ـ قُص علينا ما دار فى الكشك بينك وبينها لعلنا..

ولكن حسن قال بكبرياء :

ـ أنا لا أقبل محاكمة . . !

فهتف كمال منفسا عن غيظه، وإن كان يعلم أنه من الكاذبين :

ـ على أى حال أخبرتها بالحقيقة لتعلم أينا أصدق قولا !

فصاح حسن بوجه ممتقع :

ـ فلندعها توازن بين ما قال ابن التاجر وما قال ابن المستشار !

اندفع كمال نحوه مكوراً قبضته فحال إسماعيل بينهما، وكان أقوى الثلاثة رغم ضآلة حجمه، ثم قال بحزم :

ـ لا أسمح بهذا، كلاكما صديق، محترم ابن محترم، دعانا من هذا العبث الخليق بالأطفال . .

عاد ثائراً هائجًا جريحًا يقطع الطريق بخطوات حادة اعتدائية وباطنه يستعر بالألم، طعن فى قلبه وكرامته، معبودته وأبيه، فما بقى له فى الدنيا؟! وحسن، الذى لم يحترم زميلاً كما احترمه ولا أعجب بخلق أحد كما أعجب بخلقه، كيف انقلب فى ساعة من الزمان وقّاعًا سبّابًا؟! الحق أنه رغم حنقه عليه لم يستطع أن يؤمن بالتهمة التى اتهمه بها إيمانًا خالصًا من كل شك أو تردد، فلم يزل يعاوده التفكير فى الأمر، فيسائل نفسه : ألا يجوز أن يكون من وراء ذلك الموقف الأليم ما وراءه من أسرار؟! أيكون حسن شوه كلامه، أم تكون عايدة قد أساءت الفهم أو بالغت فى التكهن أو استسلمت للغضب؟ غير أن الموازنة بين ابن التاجر وابن المستشار رمت به فى جحيم من الغضب والألم جعلا من محاولة إنصاف حسن ضربًا من العبث. وقد ذهب بعد ذلك إلى سراى آل شداد فى موعد اللقاء المعهود، فوجد حسن معتذراً عن التخلف بطارئ، وأخبره إسماعيل لطيف عقب انفضاض المجلس : بأنه ـ حسن ـ آسف جداً على ما بدر منه حين الغضب عن «ابن التاجر وابن المستشار»، وأنه مؤمن بأنه ـ كمال ـ ظلمه ظلمًا فادحًا باستنتاجاته الواهمة وأنه يرجو ألا تقطع هذه الحادثة العارضة أسباب الصداقة بينهما، وأنه ـ حسن ـ كلفه بإبلاغه ذلك عن لسانه، ثم تلقى منه خطابًا بهذا المعنى مشدداً الرجاء فى ألا يعودا إلى الماضى إذا تلاقيًا وأن يسدلا عليه ستار النسيان، وختمه بقوله «اذكر جملة ما أسأت به إلىّ وجملة ما أسأت به إليك لعلك تقتنع معى بأن كلانا مخطئ وأنه لا يصح لأحدنا تبعًا لذلك أن يرفض اعتذار صاحبه!». وطابت نفس كمال بالرسالة حينا، بيد أنه لاحظ أن ثمة تناقضا بين كبرياء حسن المعروف وبين هذا الاعتذار الرقيق غير المتوقع، أجل غير المتوقع!! فما كان يتصور أنه يعتذر لأى سبب من الأسباب؟ فماذا غيره؟ لا يمكن أن يكون لصادقته هو هذا التأثير الضخم فى كبرياء صاحبه، فلعله ـ حسن ـ أراد أن يسترد

سمعته المهذبة أكثر مما أراد استرداد صداقته، ولعله حرص أيضًا على ألا يستفحل الشقاق فتترامى أنباؤه إلى حسين شداد أن يستاء الشاب لموقف شقيقته من النزاع أو يغضب بدوره إذا بلغه ما قيل عن ابن التاجر ـ وهو ابن تاجر ـ وابن المستشار! أى سبب من أولئك له وجاهته وهو أدنى إلى المنطق فى حال حسن من اعتذار لا يراد به إلا وجه الصداقة وحدها؟! كل شىء يهون، فليصالحه حسن أو فليخاصمه، المهم حقا أن يعرف هل قررت عايدة الاختفاء؟ لم تعد تطوف بمجلسهم، أو تبدو فى النافذة، أو تلوح فى الشرفة لقد أفشى لها قول حسن بأنه إذا شاء منعها من الاختلاط بأحد ليضمن ـ اعتمادا على كبريائها ـ إصرارها على زيارة الكشك فلا يحرم من رؤيتها. لكنها اختفت رغم ذلك، كأنما رحلت عن البيت كله، بل عن الحى كله، بل عن الدنيا كلها فما عاد يجد لها طعمًا، أيمكن أن يطول هذا الفراق إلى ما لا نهاية؟. . ود لو كان قصدها أن تعاقبه حينًا ثم تعفو، أو فى الأقل أن يذكر حسين شداد سببًا لغيابها يكذب مخاوفه، ود هذا أو ذلك كثيرًا، وانتظر وطال انتظاره بلا فائدة.

كان إذا مضى لزيارة السراى أقبل عليها بعينين قلقتين تضطربان فى محجريهما بين اليأس والرجاء، فيسترق إلى شرفة المدخل نظرة، وإلى نافذة الممر الجانبى نظرة، ثم يلحظ شرفة الحديقة وهو فى طريق الكشك أو السلاملك، ويجلس بين الأصدقاء ليحلم طويلاً بالمفاجأة السعيدة التى لا تريد أن تقع، وينفض المجلس فيغادره ليختلس نظرات متعبة حزينة من النافذة والشرفات، خاصة نافذة الممر الجانبى التى كثيرًا ما تظهر فى أحلام يقظته إطارا للصورة المعبودة، ثم يذهب متجرعًا اليأس زافرًا الكرب، وبلغ به اليأس أن كاد يسأل حسين شداد عن سر اختفاء عايدة، غير أن تقاليد الحى العتيق الذى تشبع بها عقلته فلم ينطق، وجعل يتساءل فى قلق عن مدى إلمام حسين بالظروف التى أدت إلى توارى المعبودة، أما حسن سليم فلم يشر إلى «الماضى» بكلمة ولم يبد فى صفحة وجهه أنه يفكر على أى وجه فيه، ولكن لا شك أنه كان يرى فى كل جلسة تجمعهم شاهدا على هزيمته ـ كمال ـ المجسمة، وكم كان يتألم كمال لهذا الخاطر، تعذب كثيرًا، شعر بالعذاب ينفذ إلى نخاعه، وبهذيان العذاب يخالط عقله، وكان شر ما يعذبه لوعة الفراق ومرارة الهزيمة وضيقة اليأس، وأفظع من هذا كله الإحساس بالهوان، بأنه المنبوذ من روضة الرضى، المحروم من أنغام المعبود وأضوائه، فجعل يردد وروحه تذرف دموع الأسى والقهر «أين أنت من أولئك السعداء أيها المخلوق المشوه!»، ما معنى الحياة إن أصرت على الاختفاء؟ أين تجد عيناه النور؟ ويتلقى قلبه الحرارة؟ وتنعم روحه بالغبطة؟ فلتبد المعبودة بأى ثمن ترضاه، فلتبد لتحب من تشاء حسن كان أو غيره، فلتبد ولتهزأ برأسه وأنفه ما شاء لها المزاح واللعب، إن اشتياقه إلى اجتلاء طلعتها وسماع صوتها فاق طاقة النفس على الاشتياق، فأين منه نظرة رانية لتمسح عن صدره سخام

الكآبة والوحشة، ولتسر قلبًا أمسى مفتقد السرور منه كالنور من فقيد البصر، فلتبد وإن تتجاهله، فإنه إن خسر سعادة القبول عندها فلن تضيع سعادة رؤيتها ورؤية الدنيا بعد ذلك فى مجتلى ضوئها البهيج، أما بغير ذلك فلن تكون الحياة إلا لحظات متصلة من الألم المخلخل بالجنون، وهل كان خروجها من حياته إلا كخروج العمود الفقرى من الجسم الإنسانى يرده من بعد توازن وتكامل إلى شبه جثة ناطقة؟

وأخرجه الألم والقلق عن الصبر، فلم يعد يحتمل الانتظار حتى يجىء يوم الجمعة فكان يذهب مع الأصدقاء إلى العباسية فيحوم حول السراى من بعيد لعله يلمحها فى نافذة أو شرفة أو فى خطراتها وهى تظن أنها بمنأى عن عينيه، على أن الانتظار فى بين القصرين كان من فضائله اليأس بخلاف حومان المحموم حول مقام المعبودة، كحومان مجموعة من الديناميت حول عمود من النيران. ولم يرها، ولكنه رأى مرات أحد الخدم وهو ذاهب إلى الطريق أو عائد منه، فكان يتبعه عينا متفحصة متعجبة كأنما تسائل المقادير عما جعلها تخص هذا الإنسان بحظوة القرب من المعبودة والاختلاط بها والاطلاع على شتى أحوالها، مستلقية أو مترنمة أو لاهية، كل ذلك من حظ هذا الإنسان الذى يعيش فى المحراب ولا تشغل قلبه العبادة!

وفى جولة من جولاته رأى عبد الحميد بك شداد وحرمه المصون وهما يغادران القصر ليركبا المنرفا التى كانت فى انتظارهما أمام الباب، رأى الشخصين السعيدين اللذين تقف عايدة أمامهما ـ من دون العالمين بإجلال واحترام، اللذين يخاطبانها بلسان الأمر أحيانا فلا تملك إلا أن تطيع! وهذه الأم المقدسة التى حملتها فى بطنها تسعة أشهر، فما من ريب فى أن عايدة كانت جنينا فوليدة كتلك المخلوقات التى كان يرنو إليها طويلاً فى فراشى عائشة وخديجة. وليس من إنسان هو أعرف بطفولة معبودته من هذه الأم السعيدة المقدسة! سوف تبقى الآلام ما بقى فى متاهة الحياة أو فى الأقل لن تمحى آثارها. أين تذهب ليالى يناير الطوال وهو دافن فى الوسادة عينيه الهامعتين؟ وبسط راحتيه إلى رب السماوات وهو يدعو من الأعماق «اللهم قل لهذا الحب كن رمادا كما قلت لنار إبراهيم كونى بردا من ريب فى أن عايدة كانت جنينا فوليدة كتلك المخلوقات التى كان يرنو إليها طويلاً فى فراشى عائشة وخديجة. وليس من إنسان هو أعرف بطفولة معبودته من هذه الأم السعيدة المقدسة! سوف تبقى الآلام ما بقى فى متاهة الحياة أو فى الأقل لن تمحى آثارها. أين تذهب ليالى يناير الطوال وهو دافن فى الوسادة عينيه الدامعتين؟ وبسط راحتيه إلى رب السماوات وهو يدعو من الأعماق «اللهم قل لهذا الحب كن رمادا كما قلت لنار إبراهيم كونى بردا وسلاما»؟! وتمنيه لو كان للحب مركز معروف فى الكائن البشرى لعله يبتره كما يبتر العضو الثائر بالجراحة؟ وهتافه باسمها المحبوب ليتلقى صداه فى سكون الحجرة الصامتة بقلب خاشع كأنما كان غيره المنادى؟ ومحاكاته لصوتها

حينما دعت باسمة ليستعيد حلم السعادة المفقودة؟ وتقليبه البصر فى كراسة الذكريات للتثبت من أن ما كان كان حقيقة لا وهما من الخيال؟!

ولأول مرة منذ أعوام تطلع إلى ما قبل الحب من الماضى بلهفة كما يتطلع السجين إلى ذكريات الحرية الضائعة، أجل لم يتصور شخصًا هو أشبه بحاله من السجين، غير أن قضبان السجن بدت أطوع للتحطيم وأرق أمام الزمام من أغلال الحب الأثيرية التى تستأثر المشاعر فى القلب والأفكار فى العقل والأعصاب فى الجسد ثم لا تؤذن بانحلال، ووجد نفسه يومًا يتساءل: ترى هل ذاق فهمى مثل هذا العذاب الذى يعانيه؟ وهفت عليه ذكريات أخيه الراحل مثل لحن كامن حزين. تنهد فى أعماق النفس. فذكر كيف قصّ يومًا على مسمعه مغامرة مريم مع جوليون، فأغمد خنجرا مسمومًا فى قلبه بلا حيطة أو حذر. وجعل يستحضر فى ذاكرته وجه فهمى، فتخيل إليه هدوءه الذى انخدع به وقتذاك، ثم تصور تقلصات الألم فى قسماته الجميلة حين خلا إلى نفسه، ومناجاته الشاكية التى لا شك غرق فيها كما هو يغرق الآن فى تأوهاته وأنينه. فشعر بغمز فى قلبه وراح يقول: لقد عانى فهمى ما هو أشد من الرصاص قبل أن يستقر الرصاص فى صدره! ومن عجب أنه وجد فى الحياة السياسية صورة مكبرة لحياته. فكان يطالع أنباءها فى الصحف وكأنما يطالع مواقف مما مر به فى بين القصرين أو العباسية. هذا سعد زغلول ـ مثله هو ـ شبه سجين وهدف للطعنات الباغية والحملات الظالمة ولخيانة الأصدقاء وغدرهم، وكلاهما ـ هو وسعد ـ يكابدان أحزانا من اتصالهما بأناس علوا بأرستقراطيتهم وسفلوا بفعالهم. تقمص شخص الزعيم فى كدره كما تقمص حال الوطن فى قهره، وكان يلاقى الموقف السياسى وموقفه الشخصى بعاطفة واحدة وانفعال واحد، فكأنما كان يعنى نفسه وهو يقول عن سعد زغلول «أتليق هذه المعاملة الظالمة بهذا الرجل المخلص؟»، وكأنما كان يعنى حسن سليم وهو يقول عن زيور «خان الأمانة واستحل القبيح فى سبيل الاستيلاء على الحكومة»، وكأنما كان يعنى عايدة وهو يقول عن مصر «هل تخلت عن رجلها الأمين وهو يذود عن حقوقها؟!».

٢١

كان بيت آل شوكت بالسكرية من البيوت التى لا تحظى بنعمة الهدوء والسكينة، لا لأن أدواره الثلاثة أصبحت مأهولة بالسكان من آل شوكت فحسب، ولكن بسبب خديجة قبل أى شىء آخر. كانت الأم العجوز تقيم فى الدور التحتانى، وخليل وعائشة وأبناؤهما: نعيمة، وعثمان، ومحمد فى الدور الفوقانى، ولكن ضوضاء أولئك جميعًا

لم تكن شيئًا بالقياس إلى ضوضاء خديجة وحدها. سواء ما يصدر عنها مباشرة أو ما يصدر عن الآخرين بسببها، وقد حدثت تغيرات فى نظام البيت كانت خليقة بحصر أسباب الضوضاء فى أضيق الحدود، كاستقلال خديجة ببيتها ومطبخها، وكاستئثارها بالسطح لتربية دواجنها، وغرس بستان متواضع فى جانب منه على مثال بستان البيت القديم بعد أن أجلت عنه حماتها ودواجنها، كان كل ذلك خليقًا بتخفيف الضوضاء إلى حد كبير، ولكن الضوضاء لم تخف، أو لعلها خفت بقدر لم يلحظه أحد، على أن روح خديجة اعتورها هذا اليوم فتور، ولم يكن سره ـ فيما بدا ـ خافيًا، فإن عائشة وخليل انتقلا إلى شقتها ليشاركا فى تفريج الأزمة ـ أجل الأزمة ـ التى أزّمتها، جلسوا: الأخوان، والأختان فى الصالة على كنبتين متقابلتين، وكانت الوجوه جادة، وكانت خديجة متجهمة، وكانوا يتبادلون نظرات ذات معنى، ولكن أحدا منهم لم يشأ أن يطرق الأمر الذى جمعهم حتى قالت خديجة بنبرة شاكية حانقة معًا:

ـ هذه المنازعات تقع فى كل بيت، هكذا كانت الدنيا منذ خلقها ربنا وليس معنى هذا أن ننشر متاعبنا على الناس، خصوصًا أولئك الذين لا ينبغى أن يشغلوا بالكلام الفارغ، ولكنها أبت إلا أن تجعل من شئون بيتنا فضائح عامة، حسبى الله ونعم الوكيل..

تحرك إبراهيم فى معطفه كأنه يستوى فى مجلسه، ثم ضحك ضحكة مختزلة لم يدر أحد على وجه الدقة ماذا أراد بها، فحدجته خديجة بنظرة ارتياب وهى تتساءل:

ـ ماذا تعنى بهئ هئ؟.. ألا يهتم قلبك بشىء فى الدنيا؟

وأعرضت عنه كاليائسة، ثم استطردت تقول مخاطبة خليل وعائشة:

ـ هل يرضيكما ذهابها إلى أبى فى الدكان لتشكونى إليه؟ هل يجوز اقحام الرجال ـ خاصة من كان على شاكلة أبى ـ فى منازعات النسوان؟ ما كان ينبغى أن يعلم بشىء من هذا، ولا شك أنه تضايق من زيارتها وشكواها، ولولا أدبه لصارحها بذلك.. ولكنها ما زالت تلح عليه حتى وعدها بالمجىء، ما أبشع تصرفها، لم يخلق أبى لهذه الصغائر، فهل يرضيك هذا التصرف يا سى خليل؟

فقطب خليل فى استياء، وقال:

ـ أمى أخطأت، صارحتها أنا نفسى بذلك حتى صبت علىّ غضبها، غير أنها ست كبيرة، وأنت تعلمين أن الإنسان فى مثل سنها يحتاج إلى المداراة والحلم كالأطفال، حبذا...

فقاطعه إبراهيم فى ضجر قائلاً:

ـ حبذا.. حبذا..! كم كررت حبذا هذه حتى مللتها، أمك كما قلت ست كبيرة، ولكن قرعتها وقعت على من لا ترحم..!

التفتت خديجة إليه بحدة وقد عبس وجهها واتسع منخراها، وقالت:

ـ الله.. الله..، لم يبق إلا أن تعيد هذا الكلام الجائر أمام بابا..!

فقال إبراهيم وهو يلوح بيده آسفًا:

ـ بابا ليس معنا الآن، وهو إن جاء فلن يجيء ليستمع إلىّ أنا، ولكنى أقرر الحقيقة التى يسلم بها الجميع ولا تستطيعين أنت إنكارها، أنت لا تطيقين أمى ولا تحتملين ظلها، أعوذ بالله، لم كل هذا يا شيخة؟ بشيء قليل من الحلم والكياسة كان يسعك أن تأسريها، ولكن القمر أقرب منالاً من حلمك، هل تستطيعين أن تنكرى كلمة واحدة مما قلت؟!

فرددت عينيها بين خليل وعائشة لتُشهدهما على هذا «الظلم» الصارخ، فبدوا حائرين بين الحق والسلامة، حتى تمتمت عائشة وهى من الإشفاق فى نهاية:

ـ سى إبراهيم يقصد أن تغضى قليلاً عما يبدر منها..

وهز خليل رأسه بالموافقة فى ارتياح من ظفر أخيرًا بسلم النجاة، ثم قال:

ـ هو ذلك، أمى سريعة الغضب ولكنها بمنزلة والدتك، وبشيء من الحلم تعفين أعصابك من مشقة المشاحنة..

فنفخت خديجة وهى تقول:

ـ الأصوب أن يقال إنها هى التى لا تطيقنى ولا تحتمل لى ظلا، لقد أتلفت أعصابى، وما من مرة نتلاقى إلا وتسمعنى ـ تصريحًا أو تلميحًا ـ كلمة تهيج الدم وتسم البدن، ثم أطالَب أنا بالحلم! كأنى مخلوقة من ثلج، أليس يكفينى عبد المنعم وأحمد اللذان استنفدا صبرى وحلمى؟! يا هوه أين أجد منصفًا؟!

فقال إبراهيم فى تهكم وهو يبتسم:

ـ لعلك تجدين هذا المنصف فى شخص أبيك؟!

فهتفت قائلة:

ـ أنت شامت بى، أنا أفهم كل شيء، ومع ذلك فربنا موجود!

فقال إبراهيم بصوت ممطوط يدل على التسليم والتحدى فى آن:

ـ ربنا موجود!

وقال خليل بعطف:

ـ هدئى روعك حتى تلقى والدك بنفس مطمئنة!

من أين لها بالنفس المطمئنة؟ لقد انتقمت العجوز منها شر انتقام، وعما قليل تدعى إلى لقاء أبيها فى موقف يفر منه قلبها ودمها. وهنا ترامى إليهم صياح عبد المنعم وأحمد

من وراء باب حجرتهما وأعقبه صوت أحمد وهو يبكى. فقامت على عجل رغم سمانتها واتجهت نحو الحجرة، فدفعت الباب ودخلت وهى تصيح بدورها:

ـ ما معنى هذا؟! ألم أنهكما عن الشجار ألف مرة؟ خصيمى المعتدى منكما..

قال إبراهيم بعد أن توارت وراء الباب:

ـ مسكينة كأن بينها وبين الراحة عداء مستحكما، منذ الصباح الباكر تبدأ بخوض معركة طويلة تستغرق النهار كله فلا تسكن حتى تأوى إلى الفراش، يجب أن يذعن كل شىء إلى إرادتها وتفكيرها، الخادم، الأكل، الشرب، الأثاث، الدجاج، عبد المنعم، أحمد، أنا، الكل يجب أن يذعن لتنظيمها، إنى أشفق عليها، وأؤكد لكم أن بيتنا يمكن أن ينعم بأحسن حال من النظام والدقة دون حاجة إلى هذه الوسوسة..

فقال خليل باسما:

ـ ربنا يعينها..

ـ ويعيننى معها!

قال إبراهيم ذلك وهو يهز رأسه باسمًا أيضًا، ثم أخرج من جيب معطفه الأسود علبة سجائره، ونهض متجها إلى أخيه فقدمها له فتناول خليل سيجارة، ودعا عائشة لتتناول واحدة ولكنها رفضت ضاحكة، وأومأت إلى الباب الذى توارت وراءه خديجة، وهى تقول:

ـ خلِّ الساعة تمر بسلام..

فعاد إبراهيم إلى مجلسه وهو يشعل سيجارة، ويقول مشيرا إلى الباب نفسه:

ـ محكمة، فى الداخل الآن محكمة، ولكنها ستعامل هذين المتهمين بالرحمة ولو على رغمها..

عادت خديجة وهى تقول متأففة:

ـ كيف يمكن أن أذوق طعم الراحة فى هذا البيت! كيف ومتى؟!

وجلست وهى تتنهد، ثم قالت مخاطبة عائشة:

ـ نظرت من المشربية فوجدت الطين المتخلف من مطر الأمس لا يزال يغطى أرض الحارة، فخبرينى وربك كيف يشق أبى سبيله؟!.. ولمَ هذا العناد كله؟!

فسألتها عائشة:

ـ والسماء؟ كيف حالها الآن؟

ـ قطران! ستجعل الحارات بحورا قبل الليل، ولكن هل أجدى ذلك فى حمل حماتك على تأجيل ما بيتت من شر ولو إلى يوم آخر؟ كلا، ذهبت إلى الدكان رغم ما يسببه المشى لها من متاعب، وما زالت بالرجل حتى تعهد لها بالحضور، ولو سمعها سامع فى الدكان وهى تشكونى فى هذه الظروف العسيرة لحسبنى ريا أو سكنية!

وضحكوا جميعًا مغتنمين الفرصة التى أتاحتها لهم للتنفيس عن صدورهم، وتساءل إبراهيم:

ـ أتحسبين نفسك أقل شأنا من ريا وسكينة؟!

وسُمع نقر على الباب، ولما فتحت الخادم لاح وجه الجارية سويدان فنظرت إلى خديجة بخوف، وقالت:

ـ سيدى الكبير حضر . .

ثم سرعان ما توارت، وقامت خديجة شاحبة اللون وهى تقول بصوت خافت:

ـ لا تتركونا وحدنا . .

فقال خليل ضاحكًا:

ـ معك إلى النهاية يا خديجة هانم! . .

فقالت بلهجة وشت بالرجاء والتوسل:

ـ كونوا فى جانبى . .

وغادرت الشقة بعد أن ألقت عائشة نظرة متفحصة على صورتها فى المرآة لتؤكد من خلو وجهها من أى أثر للأصباغ.

كان السيد أحمد عبد الجواد يجلس على كنبة فى صدر الحجرة القديمة تحت صورة كبيرة للمرحوم شوكت، على حين جلست الأم على مقعد قريب فى معطف كثيف لم تجد كثافته فى إخفاء ضآلة جسمها الذى احدودب أعلاه، وقد نحل وجهها وعمقت تجاعيده وتكاثرت وجف جلده فلم يبق شىء منه على ما كان عليه إلا أسنانها الذهبية، ولم تكن هذه الحجرة بالغريبة على السيد أحمد، ولم يهون قدَمها من فخامتها، وإذا كانت الستائر قد بهتت وقطيفة بعض المقاعد والكنبات قد انجردَت أو تهتكت عند المقابض والمساند، فإن بساطها العجمى قد صان رونقه أو استجد نفاسته، إلى أن جوها تنسم برائحة بخور لطيفة مما تولع به العجوز، وكانت المرأة تميل على مظلتها وتقول:

ـ قلت لنفسى إذا لم يحضر السيد أحمد كما وعدنى، فلا هو ابنى ولا أنا أمه . .

فابتسم السيد قائلاً:

ـ لا سمح الله، إنى طوع أمرك، فأنا ابنك وخديجة ابنتك!

فمطت بوزها، وقالت:

ـ كلكم أبنائى! أمينة هانم ابنتى الطيبة، أنت سيد الناس، أما خديجة (ورنت إليه وعيناها تتسعان) فلم ترث سجية واحدة من سجايا والديها الطيبين.. (ثم وهى تهز رأسها) يا لطيف الطفْ..!

فقال السيد بلهجة المعتذر:

ـ إنى أعجب كيف أغضبتك لهذا الحد؟ كان الأمر كله مفاجأة شديدة علىّ، لا أقبل هذا مطلقًا، ولكن هلا حدثتنى عما فعلت؟

فقالت المرأة مقطبة:

ـ هذا شىء قديم، كنا نخفى عنك كل شىء إكرامًا لتوسلات والدتها التى أعيتها الحيل فى إصلاحها، ولكنى لن أقول كلمة واحدة إلا فى وجهها، فى وجهها يا سى السيد كما عزمت أمامك فى الدكان..

عند ذاك جاءت الجماعة، دخل إبراهيم فى المقدمة، وتبعه خليل، فعائشة، ثم خديجة، وصافحوا السيد واحدا فواحداً حتى جاء دور خديجة، فانحنت فى أدب مثالى حتى لثمت يده، فلم تتمالك العجوز من أن تقول فى عجب:

ـ رباه ما هذه البوليتيكا، أأنت خديجة حقا؟! لا تخدعنك الظواهر يا سيد أحمد..

فقال خليل معاتبًا أمه:

ـ هلا تركت والدنا حتى يستريح! ليس ثمة ما يدعو إلى محاكمة على الإطلاق!

فعلا صوت المرأة وهى تجيبه قائلة:

ـ ما الذى جاء بك؟! ما الذى جاء بكم؟ دعوها واذهبوا عنا بسلام..

فقال إبراهيم برقة:

ـ وحدى الله.

فصاحت به:

ـ أنا موحدة أحسن منك يا بغل! لو كنت رجلا حقا ما أحوجتنى إلى استدعاء هذا الرجل الطيب، ما الذى جاء بك؟ وكان يجب أن تكون غاطا فى نومك كالعادة؟!

ابتل صدر خديجة ارتياحًا إلى هذه البداية، فتمنت لو تشتد حتى تغطى على قضيتها، ولكن السيد سألها بصوت مرتفع سد الطريق فى وجه المعركة المأمولة:

ـ ما هذا الذى سمعته عنك يا خديجة؟! أحق أنك لست الابنة المؤدبة المطيعة لوالدتك، أستغفر الله، بل لوالدتنا جميعًا؟!

خاب أمل خديجة، فغضت بصرها، وتحركت شفتاها فى همس دون أن تبين وهى تهز رأسها نفيًا، ولكن الأم لوحت بيدها للجميع كى ينصتوا، ثم أنشأت تقول:

ـ هذا تاريخ قديم لن أستطيع أن أسرده عليك فى هذه الجلسة، منذ أول يوم لها فى هذا البيت وهى تخاصمنى بلا سبب، وتخاطبنى بأطول لسان عرفته فى حياتى، لا أحب أن أعيد عليك ما سمعته طوال خمس سنوات، أو يزيد، كثير كثير، وقبيح قبيح!! عابت إشرافى على البيت وتنقصت طهيى ـ هل تتصور هذا ياسى السيد؟ ـ وما زالت حتى انفصلت بشقتها عنى فانشطر البيت الواحد بيتين، حتى الجارية سويدان حرمت عليها دخول شقتها لأنها جاريتى، وجاءت بخادم خصوصية لها، السطح، السطح على سعته ياسى السيد، ضيقته علىّ حتى اضطررت إلى نقل دواجنى إلى الفناء!! ماذا أقول أيضًا يا بنى؟ هذا قليل من كثير، ولكن ما علينا، قلت لنفسى ما فات فات، واحتملته وصبرت عليه، وقد ظننت بعد الانفصال أن أسباب الشقاق ستنتهى، ولكن هل صدق ظنى؟ كلا وحياتك . .

انقطعت عن الحديث لسعال غلبها، وراحت تسعل حتى انتفخت أوداجها، وخديجة تلحظها وهى تدعو الله فى سرها أن يأخذها قبل أن تتم حديثها، ولكن السعال سكت فازدردت ريقها وتشهدت، ثم رفعت إلى السيد عينين دامعتين، وسألته بصوت لم يخلُ من بح:

ـ أتستنكف أنت يا سيد أحمد أن تقول لى يا أمى؟

فقال الرجل الذى تظاهر بالعبوس رغم ابتسام إبراهيم وخليل:

ـ معاذ الله يا أمى . .

ـ عوفيت يا سيد أحمد، لكن ابنتك تستنكف من هذا، تدعونى «تيزة»، أقول لها مرارًا ادعينى «نينة»، فتقول لى «وماذا أدعو التى فى بين القصرين؟»، أقول لها أنا نينة، وأمك نينة، فتقول لى «ليس لى إلا نينة واحدة ربنا يخليها لى». انظر يا سى السيد، أنا التى تلقيتها بيدى من عالم الغيب!

ألقى السيد أحمد على خديجة نظره غاضبة، وسألها محتدا:

ـ صحيح هذا يا خديجة؟ يجب أن تتكلمى . .

كانت خديجة كأنها فقدت القدرة على النطق، كانت من الغيظ فى نهاية، وكانت من الخوف فى نهاية، وإلى هذا كله كانت يائسة من نتيجة المناقشة فحدتها غرائز الدفاع عن النفس على التذرع بكافة ضروب الضراعة والمسكنة، قالت بصوت خافت:

ـ أنا مظلومة، كل واحد هنا يعلم بأنى مظلومة، مظلومة والله يا بابا . .

كان السيد أحمد فى دهش مما يسمع، ومع أنه فطن من أول الأمر إلى حال «الكبر»

التى تسيطر على المرأة، ومع أنه لم يغب عن ملاحظته ما يكتنف الجو من فكاهة بدت آثارها فى وجهى إبراهيم وخليل، فإنه صمم على التظاهر بالجد والصرامة إرضاء للعجوز وإرهابًا لخديجة، وكان يعجب لما يتكشف له من عناد خديجة وحدة طباعها، الأمر الذى لم يخطر له فى خيال من قبل، أكانت على هذا الخلق مذ كانت فى بيته؟ أتعلم أمينة من أمرها ما لا يعلم؟ هل يكتشف على آخر الزمن صورة جديدة لابنته مناقضة للصورة التى كونها كما سبق أن اكتشف لياسين؟!

ـ أريد أن أعرف الحقيقة؟! أريد أن أعرف حقيقتك، إن التى تتحدث عنها والدتنا امرأة أخرى غير التى عهدتها، فأيتهما تكون الصادقة؟!

ضمت المرأة أناملها وهزت يدها داعية إياه إلى الصبر حتى تتم حديثها، ثم استطردت قائلة:

ـ قلت لها: إنى تلقيتك بيدى من عالم الغيب، فقالت لى بلهجة شريرة لم أسمع بمثلها من قبل: «إذن أكون نجوت من الموت بأعجوبة!».

ضحك إبراهيم وخليل، وخفضت عائشة رأسها لتخفى ابتسامتها. . ، فقالت العجوز مخاطبة ابنيها «اضحكا، اضحكا، اضحكا من أمكما!»، ولكن السيد تجهم وإن يكن باطنه ضحك، ترى أخلقت بناته على مثاله أيضًا؟ أليس هذا مما يستحق أن يروى على إبراهيم الفار وعلى عبد الرحيم ومحمد عفت؟! قال لخديجة بغلظة:

ـ كلا. . كلا، لأعرفن كيف أحاسبك على هذا حسابًا عسيرًا. .

فواصلت العجوز حديثها بارتياح قائلة:

ـ أما سبب شجار الأمس، فهو أن إبراهيم دعا بعض أصدقائه إلى وليمة فقدمت لهم الشركسية فيما قُدم من أطعمة، وفى المساء سهر عندى إبراهيم وخليل وعائشة وخديجة، وجاء ذكر الوليمة فنوه إبراهيم بثناء المدعوين على الشركسية، فانبسطت ست خديجة، ولكنها لم تقنع بذلك، بل راحت تؤكد أن الشركسية هى الصنف المأثور عن بيتها الأول، فقلت بحسن نية: إن زينب زوجة ياسين الأولى هى التى أدخلت الشركسية فى بيتكم، وإن خديجة لا بد وأن تكون تعلمتها منها، أقسم لك أنى ما تكلمت إلا عن حسن نية وأنى ما قصدت أحدًا بسوء، ولكن أجارك الله يا حبيب، انتفضت غاضبة وصاحت فى وجهى «هل تعرفين عن بيتنا أكثر مما نعرف؟» فقلت لها: إنى أعرف بيتكم من قبل أن تعرفيه أنت بعمر مديد، فصرخت قائلة: «أنت لا تحبين لنا الخير ولا تطيقين أن ينسب لنا شىء حميد ولو كان طهى الشركسية، الشركسية تؤكل فى بيتنا قبل أن تولد زينب وعيب أن تكذب واحدة فى مثل سنك» أى والله هذا يا سى السيد ما قذفتنى به أمام الجميع، فأيتنا الكاذبة بربك وصلاتك؟!

قال السيد غاضبًا ساخطا:

ـ رمتك بالكذب فى وجهك! يا رب السماوات والأرض، ما هذه ابنتى..

غير أن خليل قال لأمه باستياء:

ـ ألهذا جئت بوالدنا؟! أيصح أن نكدر خاطره ونضيع وقته بسبب نزاع صبيانى حول الشركسية؟! هذا كثير يا أماه..

فحملقت المراة فى وجهه مقطبة وصاحت به:

ـ اخرس، اغرب عن وجهى، لست كاذبة، ولا يصح أن يرمينى مخلوق بالكذب، إنى أعرف ما أقول ولا حياء فى الحق، لم تكن الشركسية بالطعام المعروف فى بيت السيد قبل أن تدخله زينب، وليس فى ذلك ما يعيب أحدًا أو ينتقصه، ولكنها الحقيقة. هاكم السيد فليكذبنى إن كنت كاذبة، إن طواجن بيته مضرب الأمثال ويليها الأرز المحشو، أما الشركسية فلم تقدم على مائدته قبل مجىء زينب، تكلم يا سى السيد أنت وحدك الحكم..

قاوم السيد أحمد إغراء الضحك طيلة حديث المرأة، ثم قال بلهجة عنيفة:

ـ ليت ذنبها اقتصر على الكذب والادعاء الباطل من دون أن تضيف إليه سوء الأدب، هل شجعك على هذا السلوك السيئ ابتعادك عن قبضة يدى؟! إن يدى تمتد إلى حيث يجب أن تمتد بلا تردد، من المؤسف حقا أن يجد أب ابنته مستحقة للتأديب والعقاب بعد أن اكتمل نضجها واستوت بين النساء زوجة وأما..

واستطرد ملوحًا بيده:

ـ إنى غاضب عليك، ووالله إنه ليؤلمنى أن أرى وجهك أمامى..

أجهشت خديجة بالبكاء فجأة، جاء ذلك عن تأثير وتدبير معًا، ولم يكن ثمة وسيلة أخرى للدفاع، ثم قالت بصوت متهدج تخنقه العبرات:

ـ أنا مظلومة، والله أنا مظلومة، إنها لا ترى وجهى حتى ترمينى بكلمات قاسية، ولا تفتأ تقول لى «لولاى لقضيت العمر عانسا» وأنا لم أنلها بسوء أبدًا، وكلهم شهود على ذلك..

لم تعدم الحركة التمثيلية ـ الصادقة الكاذبة ـ أثرًا تركته فى النفوس: قطب خليل شوكت حانقًا، ونكس إبراهيم شوكت رأسه، والسيد نفسه ولو أن مظهره لم يعتوره تغيير إلا أن قلبه انقبض عند سماعه ما قيل عن العنوس كعهده من قديم، أما العجوز فجعلت تنظر إلى خديجة نظرات نافذة من تحت حاجبيها الأشيبين، وكأنما تقول لها «مثلى دورك يا ماكرة لن يجوز علىّ»، ولما استشعرت فى الجو عطفًا على الممثلة قالت بتحد:

ـ هاكم عائشة أختها؟ إنى أستحلفك بعينيك، أستحلفك بالقرآن الشريف إلا ما

شهدت بما سمعت ورأيت، ألم ترمنى أختك بالكذب فى وجهى؟ ألم أصف نزاع الشركسية دون مبالغة أو تجاوز، تكلمى يا بنية تكلمى، إن أختك ترمينى الآن بالظلم بعد أن رمتنى بالكذب، تكلمى ليعلم السيد من الظالم ومن المعتدى . .

روعت عائشة بجرها المباغت إلى حومة القضية التى ظنت أنها ستقف منها موقف المشاهد إلى النهاية، وشعرت بالخطر يحدق بها من كل جانب، فرددت عينيها الجميلتين بين زوجها وأخيه كالمستغيثة، فهم إبراهيم بالتدخل، ولكن السيد أحمد سبقه إلى الكلام، فخاطب عائشة قائلاً:

ـ إن والدتنا تستشهد بك يا عائشة، فيجب أن تتكلمى . .

فاضطربت عائشة حتى شحب لونها، ولكن شفتيها لم تتحركا إلا عند ازدراد ريقها، وغمضت عينيها فراراً من عينى أبيها وأصرت على الصمت. قال خليل محتجًا:

ـ لم أسمع من قبل أن أختا دعيت للشهادة على أختها . . !

فصاحت به أمه:

ـ ولم أسمع من قبل أن أبناء يتكتلون ضد أمهم كما تفعلون. (ثم ملتفتة إلى السيد) ولكن حسبى صمتها، إن صمت عائشة شهادة لى يا سى السيد . .

ظنت عائشة أن عذابها قد انتهى عند هذا الحد، ولكنها ما تدرى إلا وخديجة تقول لها برجاء وهى تجفف عينيها:

ـ تكلمى يا عائشة، هل سمعتنى أشتمها؟

لعنتها فى سرها من صميم قلبها، وراح رأسها الذهبى يهتز اهتزازة عصبية، فهتفت العجوز:

ـ جاءنا الفرج، هى التى تطالب بالشهادة، لم يبق لك عذر يا شوشو. يا ربى إذا كنت ظالمة حقًا كما تقول خديجة فلمَ لمْ أظلم عائشة؟ لمَ تسير الأمور بينى وبينها على خير حال، لمَ يا ربى لمَ؟

نهض إبراهيم شوكت من مجلسه، ثم جلس إلى جانب السيد، وقال له:

ـ يا والدى، يؤسفنى أننا أتعبناك وأضعنا وقتك الثمين هباء، فلندع الشكوى والشهادة جانبًا، لندع الماضى كله جانبًا ولننظر فيما هو أهم وأجدى، ينبغى أن يكون محضرك خيراً وبركة، فلنعقد الصلح بين أمى وزوجى، ولتتعهدا لك بأن يحافظا عليه على الدوام.

ارتاح السيد أحمد إلى هذا الاقتراح، غير أنه قال بلباقة وهو يهز رأسه معترضًا:

ـ كلا، لن أقبل أن أعقد صلحًا، فإن الصلح لا يكون إلا بين ندين، والطرفان هنا هما

والدتنا من ناحية وابنتنا من ناحية أخرى، وليست الأبنة كالأم، فيجب أولاً أن تعتذر خديجة إلى أمها عما سلف، لتعفو أمها عنها إذا شاءت، ثم نتكلم بعد ذلك فى الصلح . .

ابتسمت العجوز حتى تضامت تجاعيدها، غير أنها نظرت نحو خديجة بحذر، ثم أعادت بصرها إلى السيد ولم تنبس، فاستطرد السيد قائلاً:

ـ يبدو أن اقتراحى لم يصادف قبولاً . .

فقالت العجوز بامتنان:

ـ إنك لا تنطق إلا عن الصواب: سلم فوك، وبارك الله فى عمرك . .

وأشار السيد إلى خديجة فقامت دون تردد واقتربت منه فى انكسار لم تشعر بمثله من قبل حتى مثلت بين يديه، فقال لها بحزم:

ـ قبلى يد والدتك، وقولى لها: اصفحى عنى يا نينة . .

آه، ما كانت تتخيل ـ ولا فى الكابوس ـ أنها يمكن أن تقف هذا الموقف أبدًا، ولكن أباها ـ أباها المعبود ـ هو الذى قضى به، أجل قضى به من لا تستطيع لقضائه ردًا. فلتكن مشيئة الله. تحولت خديجة إلى العجوز، ومالت نحوها، ثم تناولت اليد التى رفعتها إليها ـ إى والله رفعتها إليها دون ممانعة ولو فى الظاهر ـ ولثمتها، وهى تشعر باشمئزاز وتقزز وقهر أليم، ثم غمغمت قائلة:

ـ اصفحى عنى يا نينة! . .

فنظرت العجوز إليها مليًا وقد شاع البشر فى وجهها، ثم قالت:

ـ صفحت عنك يا خديجة، صفحت عنك إكرامًا لأبيك، وقبولاً لتوبتك . .

وندت عنها ضحكة صبيانية، ثم استطردت تقول بتحذير:

ـ لا جدال بعد اليوم فى الشركسية، ألا يكفيكم أنكم فقتم الدنيا فى الطواجن والأرز المحشو . . ؟

قال السيد بسرور:

ـ الحمد لله على الصلح (ثم وهو يرفع رأسه إلى خديجة) . . نينة دائمًا، ليست تيزة، هذه نينة كالأخرى سواء بسواء . .

ثم بصوت خفيض أسيف:

ـ من أين جئت بهذا الخلق يا خديجة؟ ما كان ينبغى لأحد نشأ فى بيتى أن يعرفه، أنسيت أمك وما تتحلى به من أدب ودماثة؟ أنسيت أن أى شر تأتينه إنما يسود وجهى أنا؟ لقد عجبت والله وأنا أستمع إلى حديث أمك، ولسوف أعجب طويلاً . .

٢٢

رقيت الجماعة فى السلم عائدة إلى مساكنها عقب رحيل السيد أحمد عبد الجواد، كانت خديجة تتقدم القافلة بوجه مربد تعلوه صفرة الغضب والحنق، وكان الآخرون يشعرون بأن الصفاء لم يزل أبعد ما يكون عن القلوب فأشفقوا مما سيتمخض عنه صمت خديجة، لذلك صحب خليل وعائشة وخديجة وإبراهيم إلى شقتهما، رغم أن زياط نعيمة وعثمان ومحمد كان حريًا بأن يعيدهما إلى شقتهما فورًا، ولما عادوا إلى مجلسهم بالصالة قال خليل ـ وهو بسبيل جس النبض ـ مخاطبًا أخاه:

ـ كانت كلمتك الختامية حاسمة فأتت بخير النتائج. .

فتكلمت خديجة لأول مرة قائلة بانفعال:

ـ أتت بالصلح أليس كذلك؟ هى السبب فيما نزل بى من مذلة لم أتعرض لمثلها من قبل. .

فتساءل إبراهيم كالمستنكر:

ـ لا مذلة فى أن تقبلى يد أمى أو تستصفحيها. .

فقالت دون مبالاة:

ـ إنها أمك أنت، ولكنها عدوتى أنا، ما كنت لأدعوها نينة لولا أمر بابا، أجل فما هى إلا نينة بأمر بابا، وبأمر بابا وحده!

مال إبراهيم إلى مسند الكنبة وهو يتنهد يائسًا، وكانت عائشة قلقة ولا تدرى أى أثر تركه امتناعها عن الشهادة فى نفس أختها، وزاد من قلقها تجنب خديجة النظر إليها، صممت على محادثتها لتحملها على معالنتها بحقيقة مشاعرها، فقالت برقة:

ـ ليس فى الأمر مذلة وقد تصافيتما، ويجب ألا تذكرى إلا حسن الختام. .

فتصلب جذع خديجة ورمقتها بنظرة غاضبة، ثم قالت بحدة:

ـ لا تكلمينى يا عائشة، أنت آخر شخص فى الدنيا يحق له أن يكلمنى. .

فتظاهرت عائشة بالدهش، وتساءلت وهى تقلب عينيها بين إبراهيم وخليل:

ـ أنا؟! لماذا لا سمح الله؟!

فقالت بصوت كالرصاص برودة وحدة:

ـ لأنك خنتنى وشهدت بصمتك على! لأنك آثرت إرضاء الأخرى على مظاهرة أختك، هذه هى الخيانة بعينها. . !

ـ أمرك عجيب يا خديجة! . . كل واحد يعلم بأن الصمت كان فى صالحك!

فقالت بنفس اللهجة أو أشد:

ـ لو راعيت صالحى حقًا لشهدت لى بالحق أو بالباطل لا يهم، ولكن آثرت التى تطعمك على أختك، لا تكلمينى، ولا كلمة واحدة، لنا أم يكون عندها الكلام.

وفى ضحى اليوم التالى ذهبت خديجة لزيارة أمها رغم توحل الطرقات وامتلاء منخفضاتها بالمياه الراكدة، ومضت إلى حجرة الفرن، فنهضت أمها لاستقبالها فى سرور وحرارة، وأقبلت نحوها أم حنفى مهللة، ولكنها ردت السلام بكلمات مقتضبة حتى تفحصتها أمها بنظرة متسائلة، فقالت دون تمهيد:

ـ جئتك لترى رأيك فى عائشة. . فلم يعد بى طاقة لأتحمل أكثر مما تحملت. .

لاح فى وجه أمينة اهتمام مقرون بالأسى، فقالت وهى تشير إليها برأسها كى تسبقها إلى الخارج:

ـ ماذا حدث كفى الله الشر؟ حدثنى أبوك بما كان فى السكرية، فما دخل عائشة فى ذلك؟ (ثم وهما ترقيان فى السلم). . ربناه يا خديجة، طالما رجوتك أن توسعى من صدرك، حماتك عجوز ينبغى مراعاة سنها، إن ذهابها إلى الدكان وحده فى جو كجو أمس برهان على ضعف عقلها، ولكن ما الحيلة؟ كم غضب أبوك! لم يكن يصدق أنه يمكن أن تند عنك كلمة سوء، ولكن ماذا أغضبك من عائشة؟ لقد صمتت أليس كذلك؟ لم يكن فى وسعها أن تخرج عن الصمت. .

وجلستا فى الصالة ـ مجلس القهوة ـ على كنبة جنبًا إلى جنب، وخديجة تقول محذرة:

ـ نينة، أرجو ألا تنضمى إليهم، ما لى يا ربى لا أجد نصيراً فى هذه الدنيا!

فابتسمت الأم ابتسامة عتاب، وقالت:

ـ لا تقولى هذا، لا تتصورى هذا يا بنية، ولكن خبرينى ماذا وجدت من عائشة؟

وهى تدفع بيدها الهواء كأنما تلطم عدوا:

ـ كل شر، شهدت على، فأوقعت بى شر هزيمة.

ـ ماذا قالت؟

ـ لم تقل شيئا. .

ـ الحمد لله . .

ـ إن المصيبة جاءت من أنها لم تقل شيئا . .

تساءلت أمينة، وهى تبتسم فى عطف :

ـ وماذا كان فى وسعها أن تقول؟

وكأنما كبر عليها تساؤل أمها، فقالت بعبوس وحدة :

ـ كان فى وسعها بأن تشهد بأننى لم أعتد على المرأة، لمَ لا، لو فعلت ما جاوزت واجبات الأخوة، كان فى وسعها على الأقل أن تقول إنها لم تسمع شيئًا، الحق أنها آثرت المرأة علىّ، خذلتنى وتركتنى أقع تحت رحمة الماكرة الشامتة، لن أنسى هذا لعائشة ما حييت! . .

قالت أمينة، بإشفاق وألم :

ـ خديجة لا ترعبيننى، كان يجب أن يكون كل شىء قد نُسى فى الصباح . .

ـ نُسى؟! لم أنم من الليل ساعة، سهدت وبرأسى مثل النار، كل مصيبة كانت تهون لو لم تجئ من عائشة، من أختى؟! لقد ارتضت أن تنضم إلى حزب الشيطان، حسنا، ليكن ما تشاء! كان لى حماة فأصبح لى اثنتان، عائشة! . . رباه طالما سترتها، لو كنت خائنة مثلها لقصصت على أبى ما تزخر به حياتها من قلة الأدب، إنها تحب أن يعرف عنها أنها ملك كريم وأننى شيطان رجيم، كلا . أنا خير منها ألف مرة، إن لى كرامة لا يعلو إليها التراب، ولولا أبى (وهنا اشتدت نبراتها حدة) لما استطاعت قوة فى الأرض أن تحملنى على أن أقبل يد عدوتى أو أن أدعوها نينة!

ربتت أمينة كتفها برقة، وهى تقول :

ـ أنت غضبى، دائمًا غضبى، هدئى من روعك، ستبقين معى حتى نتغدى معًا ثم نتحادث فى هدوء . .

ـ إنى فى كامل عقلى وأعرف معنى ما أقول، أريد أن أسأل أبى، أيتهما خير من الأخرى : التى تلزم بيتها، أم التى تزور بيت الجيران فتغنى وترقص ابنتها؟!

تنهدت أمينة، وقالت بحزن :

ـ إن رأى أبيك فى هذا لا يحتاج إلى سؤال، ولكن عائشة سيدة متزوجة والرأى الأعلى فى سلوكها لزوجها، ومادام يسمح لها بزيارة الجيران ويعلم بأنها تغنى بين صديقاتها اللاتى يحببنها ويحببن صوتها فما شأننا نحن؟! لك الله يا خديجة! . . أتسمين هذا قلة أدب؟! هل يغضبك حقا أن ترقص نعيمة؟! إنها فى السادسة وما رقصها إلا لعبًا، لست إلا غاضبة يا خديجة، سامحك الله . .

فقالت خديجة بإصرار :

ـ إنى أعنى كل كلمة قلتها ، وإذا كان يعجبك أن تغنى ابنتك عند الجيران وترقص ابنتها ، فهل يعجبك أيضًا أن تدخن ، كالرجال؟! نعم ، ها أنت تدهشين! أكرر على مسمعك أن عائشة تدخن ، وأن التدخين صار لها كيفًا لا تملك الامتناع عنه ، وأن زوجها يعطيها العلبة ويقول لها بكل بساطة «علبتك يا شوشو» ، رأيتها بنفسى وهى تأخذ النفس وهى تخرجه من فمها وأنفها ، أنفها أتسمعين؟ لم تعد تخفى عنى ذلك كما كانت تفعل أول الأمر ، بل دعتنى إليه مرة بحجة أنه مهدئ للأعصاب الحامية . هذه هى عائشة ، فما قولك؟ وما قول أبى يا ترى؟

ساد الصمت ، وبدت أمينة فى حيرة شائكة ، غير أنها صممت على خطة التهدئة التى التزمتها ، قالت :

ـ التدخين عادة قبيحة بالقياس إلى الرجال أنفسهم ، أبوك لم يدخن قط ، فماذا أقول عليه بالنسبة إلى النساء؟! ولكن ما القول أيضًا إذا كان زوجها هو الذى أغراها به وعلمها إياه؟ ما الحيلة يا خديجة؟ إنها لزوجها لا لنا ، ولم يبق إلا النصح إن كان يجدى . .

فجعلت خديجة تنظر إليها فى صمت وشى بترددها قبل أن تقول :

ـ إن زوجها يدللها تدليلاً معيبًا حتى أفسدها وأشركها فى كافة معاصيه ، ليس التدخين بشر عاداته ، ولكنه يشرب الخمر فى بيته دون حياء ، إن بيته لا يخلو من الزجاجة كأنها ضرورة من ضرورات الحياة وسوف يوقعها فى الخمر كما أوقعها فى التدخين ، لمَ لا؟ العجوز تعلم بأن شقة ابنها حانة ولكنها لا تكترث لذلك ، سوف يسقيها الخمر ، بل إنى أقطع بأنه فعل فإنى شممت مرة فى فمها رائحة غريبة ، وسألتها عنها وضيقت عليها رغم إنكارها ، أؤكد لك أنها شربت الخمر وأنها بسبيل اعتيادها كالتدخين . .

صاحت الأم فى يأس :

ـ إلا هذا يا رب ، ارحمى نفسك وارحمينا ، اتقى الله يا خديجة . .

ـ إنى تقية وربنا عالم ، لا أدخن ولا تفوح من فىّ روائح مريبة! ولا أسمح للخمر بأن تدخل شقتى! ألم تعلمى بأن البغل الآخر حاول أن يقتنى هذه الزجاجة المحرمة؟! ولكنى وقفت له بالمرصاد ، قلت له بصريح العبارة : إنى لا أبقى مع زجاجة خمر فى شقة واحدة ، فتراجع أمام تصميمى ، وجعل يحتفظ بزجاجته عند أخيه فى شقة الهانم التى خانتنى بالأمس ، وكلما صرختُ لاعنة الخمر وشاربيها ، قال لى ـ قطع الله لسانه ـ «من أين جئت بهذه الحنبلية؟ هذا أبوك منبع الأنس كله وقلّ أن يخلو له مجلس من الكأس والعود!» أسمعت ماذا يقال عن أبى فى بيت آل شوكت؟!

لاحت فى عينى أمينة نظرة حزن وجزع، وجعلت تقبض راحتيها وتبسطهما فى اضطراب وقلق، ثم قالت بصوت نمت نبراته عن التشكى والتألم:

ـ رحماك يا ربى، لم نخلق لشىء من هذا، عندك العفو والرحمة، يا ويل النساء من الرجال، لن أسكت ولا يصح أن أسكت، سأحاسب عائشة حسابًا عسيرًا، ولكنى لا أصدق ما تقولين عنها، إن سوء ظنك بها جعلك تتخيلين ما لا أصل له، ابنتى طاهرة وستظل طاهرة ولو انقلب زوجها شيطانًا رجيمًا، سأحدثها حديثًا صريحًا، وسأحادث سى خليل نفسه إن لزم الأمر، فليشرب كما يشاء حتى يتوب الله عليه.. أما ابنتى فحدّ الله بينها وبين الشيطان..

هفت على نفس خديجة نسمة راحة لأول مرة، فتابعت جزع أمها بعين راضية واطمأنت إلى أن عائشة ستشعر قريبًا بمدى الخسران الذى منيت به جزاء خيانتها، ولم تأبه كثيراً لما أضفت على الوقائع من مبالغة فى التصوير أو حدة فى الوصف مما جعلها تسمى شقة أختها حانة، وهى تعلم بأن إبراهيم وخليل لا يقربان الخمر إلا فى أحوال نادرة وفى اعتدال لم يبلغ حد السكر أبدا، ولكنها كانت حانقة ثائرة، أما ما قيل عن أبيها من أنه منبع الأنس.. إلخ، فقول أعادته على أمها بلهجة استنكار لا تدع مجالاً للشك فى كفرها به، ولكن الحقيقة أنها اضطرت من زمن إلى التسليم بما يقال أمام إجماع إبراهيم وخليل وأمهما العجوز، خصوصًا وأنهم كاشفوها بما يعلمون عنه فى غير ما تحامل عليه أو انتقاد له، بل وهم ينوهون بأريحيته ويعقدون له زعامة الظرف فى عصره، قابلت ذلك الإجماع بادئ الأمر بعناد غليظ، ثم داخلها الشك رويدا وإن لم تعلنه، ووجدت عسراً شديداً فى مزج هذه الصفات الجديدة بالشخصية الوقور الجبارة التى آمنت بها طوال حياتها، غير أن هذا الشك لم يهون من شأنها وجلالها، بل لعلها أثرت فى نظرها بما انضاف إليها من ظروف وأريحية. لم تقنع بما أحرزت من نصر، فعادت قول بلهجة التحريض:

ـ عائشة لم تخنّى فحسب، ولكنها خانتك أنت أيضًا..

وصمتت ريثما يتغلغل قولها فى الأعماق، ثم استطردت قائلة:

ـ إنها تزور ياسين ومريم فى قصر الشوق..

هتفت أمينة وهى تحملق فيها بفزع:

ـ ماذا قلت؟

فقالت وهى تشعر بأنها تسوّرت ذروة الظفر:

ـ هذه هى الحقيقة المحزنة! زارنا ياسين ومريم أكثر من مرة، زارا عائشة وزارانى، أقول الحق إنى اضطررت لاستقبالهما وما كاد يسعنى إلا أن أفعل إكرامًا لياسين

غير أنه كان استقبالاً متحفظًا، ودعاني ياسين إلى زيارة قصر الشوق، ولست فى حاجة إلى أن أقول لك إننى لم أذهب، وتكررت الزيارة دون أن يغير ذلك من تصميمى حتى قالت لى مريم «لمَ لا تزورينا ونحن أختان من قديم الزمان؟» ولكنى اعتذرت بشتى المعاذير، وبذلت كل حيلها لاجتذابى، وجعلت تشكو لى معاملة ياسين لها واعوجاج سلوكه وانصرافه عنها، علها ترقق قلبى ولكنى لم أفتح لها صدرى.. عائشة على خلاف ذلك، تستقبلها بالترحاب والقبل، الأدهى من ذلك أنها تبادلها الزيارة، وقد صحبت معها مرة سى خليل، وفى مرة أخرى صحبت نعيمة وعثمان ومحمد، لشد ما تبدو سعيدة بتجديد صداقتها لمريم، وقد نبهتها إلى مجاوزتها الحد فى ذلك فقالت لى «لا مأخذ على مريم إلا أننا رفضنا يومًا أن نجعل منها خطيبة للمرحوم الغالى، فأى وجه للعدل فى هذا؟!»، قلت لها «أنسيت الجندى الإنجليزى؟» فقالت لى «لا ينبغى أن نذكر إلا أنها زوجة أخينا الأكبر». هل سمعت يا نينة عن شىء كهذا من قبل؟

استسلمت أمينة للحزن، فنكست رأسها ولاذت بالصمت، فجعلت خديجة تنظر إليها مليًا، ثم عادت تقول:

- هذه هى عائشة بلا زيادة ولا نقصان، عائشة التى شهدت علىّ أمس فأذلتنى أمام العجوز المخرفة..

تنهدت أمينة من الأعماق، ورمقت خديجة بعينين فاترتين، ثم قالت بصوت خافت:

- عائشة طفلة تأبى أن يكون لها عقل أو وزن، ولن تزال كذلك مهما امتد بها العمر، فهل يسعنى أن أقول غير ذلك؟! لا أود ولا أستطيع، هل هانت عليها ذكرى فهمى؟ لا أستطيع أن أصدق ذلك، ألم يكن فى وسعها أن تقتصد فى عواطفها حيال تلك المرأة ولو إكرامًا لى؟! لكن لن أسكت عن هذا، سأقول لها إنها أساءت إلىّ وإننى غاضبة حزينة لأرى ما يكون منها بعد ذلك..

فأمسكت خديجة بخصلة من سوالفها، وقالت:

- أحلق هذا لو صلح لها حال! إنها تعيش فى دنيا غير الدنيا التى نعيش فيها، لست أتحامل عليها وربنا يعلم، إننى لم أخاصمها ولا مرة مذ تزوجت، حتى أننى طالما حملت عليها لم يقع منها من إهمال لأطفالها أو تملق مزر لحماتها وغير ذلك مما حدثتك عنه فى حينه، ولكن حملتى لم تجاوز حد النصح الحازم أو النقد الصريح، هذه أول مرة يضيق بها صدرى فأعالنها الخصام..

فقالت الأم برجاء وإن ظل وجهها ممتعضًا:

ـ دعى الأمر لى يا خديجة، أما أنت فلا أحب أن يفصل بينك وبينها خصام أبدا، لا يصح أن يفترق قلباكما وأنتما تعيشان معًا فى بيت واحد، لا تنسى أنها أختك وأنك أختها، بل أختها الكبرى، إن قلبك أبيض والحمد لله، وهو مترع بالحب لأهلك جميعًا، إنى كلما اشتد أمر لم أجد عزاء إلا فى قلبك، وعائشة ومهما يكن من هفواتها هى أختك، لا تنسى هذا . . !

فهتفت فى تأثر:

ـ إنى أغفر لها كل شىء إلا شهادتها علىّ . . !

ـ لم تشهد عليك، خافت أن تغضبك كما خافت أن تغضب حماتها فلاذت بالصمت، إنها تكره أن تغضب أحدًا ـ كما تعلمين ـ وإن كانت رعونتها كثيرا ما تغضب الكثيرين، لم تقصد الإساءة إليك أبدًا، فلا تحملى تصرفها أكثر مما يحتمل، سأزوركم غدًا لأصفى حسابى معها، ولكنى سأصلح بينكما وإياك أن تمتنعى عن الصلح . .

ولأول مرة تتجلى فى عينى خديجة نظرة قلقة مشفقة حتى أنها غضت عينيها لتخفيهما عن أمها، وصمتت قليلاً، ثم قالت بصوت خافت:

ـ ستجيئين غدًا . . ؟

ـ نعم، لم يعد الحال يحتمل الصبر . .

خديجة كأنما تحدث نفسها:

ـ سوف تتهمنى بأننى أفشيت أسرارها . .

ـ ولو ! . .

ولما آنست منها مزيدا من القلق والإشفاق، عادت تقول:

ـ على أى حال أنا أعرف ما يقال وما لا يقال . .

فقالت خديجة بارتياح:

ـ هذا أفضل، فهيهات أن تعترف بحسن نيتى ورغبتى فى إصلاح أمرها . . !

٢٣

ـ آه . . !

ندت عنه بغتة مفعمة بالحرارة والانفعال عندما رأى عايدة خارجة من باب القصر.

كان يقف كعادته كل أصيل على طوار العباسية يراقب البيت من بعيد وغاية أمانيه أن يلمحها فى شرفة أو نافذة. وكان يرتدى بدلة رصاصية أنيقة كأنما أراد أن يجارى الجو الذى بعثت فيه الأيام الأخيرة من مارس أريحية ولطفًا وبشاشة، فضلاً عن أنه كان يزداد تأنقًا كلما ازداد ألما وقنوطًا. وكانت عيناه لم ترياها مذ خاصمته فى الكشك، ولكن الحياة لم تكن تتيسر له إلا أن يحج كل أصيل إلى العباسية فيطوف بالقصر من بعيد فى مثابرة لا تعرف اليأس، معللا نفسه بالأحلام، قانعًا إلى حين باجتلاء المقام واجترار الذكريات. وكان الألم فى الأيام الأولى للفراق كالمجنون فى هذيانه ووسوسته، ولو طال به الأمد على ذلك لقضى عليه، ولكنه نجا من تلك المرحلة الخطيرة بفضل اليأس الذى وطن النفس عليه من قديم، فانسرب الألم إلى مستقر له فى الأعماق يؤدى فيه وظيفته من غير أن يعطل سائر الوظائف الحيوية كأنه عضو أصيل فى الجسم أو قوة جوهرية فى الروح، أو أنه كان مرضًا حادًا هائجًا ثم أزمن فزايلته الأعراض العنيفة واستقر، غير أنه لم يتعز ـ وكيف يتعزى عن الحب، وهو أجل ما كاشفته به الحياة؟ ـ ولكنه كان يؤمن إيمانًا عميقًا بخلود الحب، فكان عليه أن يصبر كما ينبغى لإنسان مقدور عليه بأن يصاحب داء إلى آخر العمر.

ولما رآها وهى تغادر القصر فجأة ندت عنه هذه الآهة، وتابعت عيناه عن بعد مشيتها الرشيقة التى طال تشوقه إليها حتى رقصت روحه رقصة قطر هيمانها حنينا وطربًا، ومالت المعبودة إلى اليمين وسارت فى شارع السرايات، فشبت فى روحه ثورة اجتاحت الهزيمة التى راض عليها النفس قرابة ثلاثة أشهر ففزع به قلبه إلى أن يطرح همومه عند قدميها وليكن ما يكون. واتجه دون تردد إلى شارع السرايات. كان فى الماضى يحذر الكلام أن يفقدها، الآن ليس ثمة ما يخاف عليه، إلى أن العذاب الذى عاناه طيلة الأشهر الثلاثة الماضية لم يدع لها سبيلاً إلى التردد أو التراجع. ولم تلبث أن انتبهت إلى اقتراب خطاه، فالتفتت إلى الوراء فرأته على بعد خطوات منها، ولكنها أعادت رأسها إلى وضعه الأول دون مبالاة. لم يكن يتوقع استقبالاً ألطف، ولكنه قال معاتبًا:

ـ أهكذا يكون اللقاء بين الأصدقاء القدماء؟!

فكان الجواب أن حثت الخطى دون أن تعيره أدنى التفات، فأوسع خطوه مستمدا من ألمه عنادًا، ثم قال وهو يوشك أن يحاذيها:

ـ لا تتجاهلينى فهذا شىء يفوق الاحتمال ولا داعى له لو راعيت الإنصاف . .

وكان أخوف ما يخاف أن تصر على تجاهله حتى تبلغ هدفها المقصود، ولكن الصوت الرخيم خاطبه قائلاً:

ـ من فضلك ابتعد عنى، ودعنى أسير فى سلام . .

فقال بإصرار وتوسل معًا :

ـ ستسيرين بسلام، ولكن بعد أن نصفى الحساب . .

فقالت بصوت تردد عميقًا واضحا فى صمت الطريق الأرستقراطى الذى بدا خاليًا أو شبه خال :

ـ لا أدرى شيئا عن هذا الحساب، ولا أريد أن أدرى، أرجو أن تسلك سلوك الجنتلمان . . !

فقال بحرارة ووجد :

ـ أعدك بأن أسلك سلوكًا يعتبر بالقياس إلى الجنتلمان نفسه مثاليًا، وليس فى وسعى أن أفعل غير هذا، إذ إنك أنت التى توحين إلىّ بسلوكى .

قالت ولم تكن تنظر إلى ناحيته :

ـ أعنى أن تتركنى فى سلام، هذا ما عنيته . .

ـ لا أستطيع، لا أستطيع قبل أن تعلن براءتى من التهم الظالمة التى عاقبتنى عليها دون استماع إلى دفاعى . .

ـ أعاقبتك أنا؟!

تغاضى عن الحديث لحظة خاطفة كى يتملى سحر الحال، فقد رضيت أن تحاوره، وأن تتمهل فى خطوها السعيد، وسواء أكان هذا لأنها تود أن تستمع إليه أم لأنها تتعمد إطالة المسافة حتى تتخلص منه قبل بلوغ هدفها فلن يغير هذا من الحقيقة الباهرة، وهى أنهما يسيران جنبا إلى جنب فى شارع السرايات، تحف بهما أشجار الطريق الباسقة، وترنو إليهما من فوق أسوار القصور عيون النرجس الساجية وثغور الياسمين الباسمة، فى هدوء عميق يتعطش قلبه المستعر إلى نفحة منه، وقال :

ـ عاقبتنى أشد عقاب باختفائك عنى ثلاثة أشهر كاملة وأنا أتعذب عذاب المتهم البرىء . .

ـ يحسن ألا نعود إلى ذلك . .

فى انفعال وضراعة :

ـ بل يجب أن نعود إليه، إنى مصر على ذلك وأتوسل إليك باسم العذاب الذى عانيته حتى لم يعد بى قوة لتحمل المزيد منه . .

تساءلت فى هدوء :

ـ ما ذنبى أنا فى ذلك؟

ـ أريد أن أعرف : ألا تزالين تعدديننى معتديًا؟ الأمر المؤكد أننى لا أستطيع أن أسىء

إليك بحال، ولو تذكرت مودتى طوال الأعوام الماضية لاقتنعت برأيى دون عناء، دعينى أفصل لك الأمر بكل صراحة، لقد دعانى حسن سليم إلى مقابلته عقب الحديث الذى دار بيننا فى الكشك . . .

قاطعته فيما يشبه الرجاء :

ـ دعنا من هذا، إنه ماض انتهى . . .

وقعت الجملة الأخيرة من أذنه موقع النياحة من أذن الميت لو كان ميت يسمع، ثم قال بتأثر بدا فى نبراته كالنغمة إذا هبطت من الجواب إلى القرار :

ـ انتهى . . ، أعلم أنه انتهى، لكننى أطمع فى حسن الختام، لا أريد أن تذهبى وأنت تظنين بى الغدر، أو الغيبة، إننى برىء ويعز علىّ أن تسيئى الظن بشخص يكن لك كل إعزاز واحترام، فلا يجرى لك ذكر على لسانه إلا مقرونا بكل ثناء . .

ألقت عليه نظرة وهى تميل برأسها إلى الناحية الأخرى كأنما تداعبه قائلة : «من أين لك بهذه البلاغة كلها؟»، ثم قالت بشىء من الرقة :

ـ يبدو أنه وقع سوء تفاهم غير مقصود، ولكن ما فات فات . .

بحماس وأمل :

ـ بل لا يزال فى النفس شىء من الشك فيما أرى . .

فقالت بتسليم :

ـ كلا، لا أنكر أنى أسأت الظن حينًا، ولكن تبين لى الحق بعد ذلك . .

فطفا قلبه فوق موجة من السعادة ترنح فوقها كالثمل، ثم تساءل :

ـ متى عرفت ذلك؟

ـ منذ زمن غير قصير . .

ورنا إليها بامتنان، وعبرته حال من الوجد يحلو معها نوع من البكاء، ثم قال :

ـ عرفت أننى برىء؟

ـ نعم . .

هل يسترد حسن سليم احترامه عن جدارة؟

ـ وكيف عرفت الحقيقة؟

فقالت بعجلة توحى بالرغبة فى إنهاء التحقيق :

ـ عرفتها . . وهذا هو المهم . .

تجنب الإلحاح أن يضايقها، ولكن خاطرًا خطر فأظلت على قلبه سحابة من الكدر حتى قال متشكيًا :

ـ ومع ذلك أصررت على الاختفاء! لم تكلفى نفسك إعلان العفو ولو بإشارة أو كلمة مع أنك افتننت فى إعلان الغضب! ولكن عذرك الواضح وهو عندى مقبول. .

ـ أى عذر هذا؟

بصوت حزين:

ـ إنك لا تعرفين الألم، وإنى أسأل الله مخلصًا ألا تعريفه ابدًا. .

قالت كالمعتذرة:

ـ ظننت أنه لا يهمك أن تكون متهمًا. . !

ـ سامحك الله، لقد اهتممت أكثر مما تتخيلين، وساءنى جدا أن أجد الشقة بيننا واسعة، فلم يقف الأمر عند حد أنك تجهلين ما أكنه لك من. . من مودة، ولكنه جاوز ذلك إلى إلصاق التهم الظالمة بى، فانظرى أين كنت وأين كنت؟ على أنى أصارحك بأن الاتهام الجائر لم يكن أسوأ ما عانيت من ضروب الألم. .

باسمة:

ـ لم يكن ضربًا واحدا من ضروب الألم إذن؟!

فشجعته الابتسامة ـ كما تشجع الطفل ـ على الاسترسال فى عاطفته، فقال بوجد وانفعال:

ـ بلى، وكانت التهمة أخف الآلام، أما أشدها فكان اختفاؤك، كان لكل ساعة من ساعات الأشهر الثلاثة الماضية نصيبها من آلامى، عشت أشبه ما يكون بالمجانين، لهذا أدعو الله صادقًا ألا يمتحنك بالألم، دعاء مجرب، فإن لى بالألم تجربة وأى تجربة، وأقنعتنى هذه التجربة القاسية بأنه إذا كان مقدوراً علىّ أن تختفى من حياتى، فمن الحكمة أن أبحث لى عن حياة أخرى، كان كل شىء كلعنة طويلة مقيتة، لاتهزئى بى، أنا أتوجس من ناحيتك شيئًا كهذا دائمًا، ولكن الألم أجل من أن يهزأ به، لا أتصور أن يهزأ ملاك كريم مثلك من عذاب الآخرين ودعى جانبا أنك سببه، لكن ما الحيلة؟ قُضى علىّ من قديم أن أحبك بكل قوة نفسى. .

ساد صمت مقطع بأنفاسه المترددة، وكانت تنظر إلى الأمام فلم يطالع عينيها، ولكنه وجد فى صمتها راحة لأنه على أى حال أخف من كلمة سادرة وعدَّه توفيقا. تصور أن يجيئك صوتها ناعمًا عذبًا معربًا عن الشعور نفسه! يا له من مجنون! لماذا سكب ماء قلبه المكنون؟ لم يكن إلا كقافز رام الارتفاع قدما فوجد نفسه يحلق فوق هامة الجو! ولكن أى قوة تستطيع أن تشكمه بعد ذلك؟

ـ لا تذكرينى بما لا أحب سماعه فإنى فى غنى عن ذلك، لن أنسى رأسى لأنى أحمله ليل نهار، ولا أنفى فإنى أراه مرات كل يوم، ولكن عندى شىء لا نظير له عند

الآخرين، حبى لا نظير له، إنى فخور به، ويجب أن تكونى به فخوراً أيضًا ولو زهدت فيه، هكذا كان مذ رأيتك أول مرة فى الحديقة، ألم تشعرى به؟ . . لم أفكر فى الاعتراف من قبل لأنى خفت أن يقطع ما بيننا من مودة وأن يطردنى من الفردوس، لم يكن من اليسير علىّ أن أغامر بسعادتى، أما وقد طردت من الفردوس فعلام أخاف؟!

سال سره على لسانه كأنه دم تعذر منعه، ولم يكن يرى من الوجود إلا شخصها البديع، كأن الطريق والأشجار والقصور والقلة العابرة قد غابت وراء سحابة شاملة لم تنحسر إلا عن فرجة لاحت منها المعبودة الصامتة بقامتها الهيفاء وهالتها السوداء وعارضها الموسوم بالملاحة المنطوى على الأسرار، يبدو فى الظل حينا أسمر صافيًا، وحينا ـ إذا مرا بطريق جانبى ـ وضاء منيراً تحت شعاع الشمس المائلة للغروب، ولم يكن يبالى أن يسترسل فى الحديث حتى الصباح!

ـ أقلت لك إننى لم أفكر فى الاعتراف من قبل؟! فى هذا تجاوز، الواقع أننى هممت بالاعتراف يوم التقينا فى الكشك ونودى حسين للتليفون، كدت أعترف لولا أن عاجلتنى بمهاجمة رأسى وأنفى، فكنت (وهو يضحك ضحكة مقتضبة) كالخطيب الذى همّ بفتح فيه فانهال عليه الحصى من جمهور المستمعين؟

هادئة صامتة كما ينبغى لها، ملاك من عالم آخر لا يطيب له التحدث بلغة البشر أو الاهتمام بشئونهم، أما كان من الأكرم له أن يصون سره؟! . . الأكرم؟! الكبرياء حيال المعبود كفر، مواجهة القاتل بالقتيل فن من الحكمة، أتذكر الحلم السعيد الذى استيقظت منه ذات صباح فبكيت عليه؟ . . الحلم سرعان ما يبتلعه النسيان، أما الدموع أو بالحرى ذكراها فتبقى رمزاً خالداً، وإذا بها تقول:

ـ لم أقل ما قلت إلا على سبيل الدعابة، ورجوتك حينذاك ألا تغضب . .

هذا الشعور الرطيب جدير بالتذوق، كالفرحة السعيدة على أثر وجع ضرس وضرباته، وتداعت الأنغام الكامنة فى نفسه حتى برز منها لحن مليح، عند ذاك تراءت قسمات المعبودة رموزاً موسيقية للحن سماوى مرموقة على صفحة الوجه الملائكى.

ـ ستجديننى قانعًا بما دون الرجاء، لأننى كما قلت لك: أحبك . .

والتفتت صوبه فى رشاقة طبيعية، فألقت عليه نظرة باسمة ثم استردتها على عجل قبل أن يتمكن من قراءتها، أية نظرة كانت يا ترى؟ . . نظرة رضا؟ تأثر؟ عطف؟ استجابة؟ سخرية مهذبة؟ وهل أصابت الوجه جملة أم اختصت بالرأس والأنف؟ وجاءه صوتها قائلاً:

ـ لا يسعنى إلا أن أشكرك، وأعتذر لك عن إيلامك الذى لم أتعمده، أنت رقيق وكريم . .

ونزعت به النفس إلى الارتماء فى أحضان الأحلام السعيدة، ولكنها استطردت قائلة بصوت خافت:

ـ الآن دعنى أتساءل عما وراء ذلك؟

ترى أيسمع صوت معبودته أم صدى صوته هو؟ هذه الجملة بنصها محلقة فى مكان ما من سماء بين القصرين محفوفة بتنهداته، هل آن له أن يجد لها جوابًا؟ . . تساءل فى حيرة:

ـ هل وراء الحب شىء؟!

ها هى تبتسم، ترى ما معنى ابتسامتها؟ لكنك غير الابتسام تروم، عادت تقول:

ـ إن الاعتراف بداية وليس نهاية، إنى أتساءل عما تريد . . ؟

فأجاب بحيرة أيضًا:

ـ أريد. أريد أن تأذنى لى بأن أحبك . .

فما ملكت أن ضحكت، ثم تساءلت:

ـ أهذا ما تريد حقا؟! ولكن ماذا أنت فاعل إذا لم آذن لك؟

فقال وهو يتنهد:

ـ فى هذه الحال أحبك أيضًا.

فتساءلت فيما يشبه الدعابة، الأمر الذى أرعبه:

ـ فيم إذن كان الاستئذان؟

حقا ما أسخف هفوات اللسان! إن أخوف ما يخاف أن ينحط على الأرض فجأة كما سما عنها فجأة، وسمعها تقول:

ـ أنت تحيرنى، ويبدو لى أنك تحير نفسك أيضًا . .

قال بجزع:

ـ إنى . . حائر؟ ربما، ولكنى أحبك، ماذا وراء ذلك؟ يخيل إلىّ أحيانًا أنى أطمع إلى أمور تعجز الأرض عن حملها، ولكنى إذا تأملت قليلاً عجزت عن تحديد هدف لى، خبرينى أنت عن معنى هذا كله، أريد أن تتحدثى وأن أستمع، هل عندك ما ينتشلنى من حيرتى؟

قالت باسمة:

ـ ليس عندى مما تسأل شىء، كان ينبغى أن تكون أنت المتحدث وأنا المستمعة، ألست فيلسوفًا؟!

قال واجما ووجهه يتورد:

ـ أنت تسخرين منى . . !

فقالت بعجلة :

ـ كلا ، غير أنى لم أكن أتوقع هذا الحديث عندما غادرت البيت ، فاجأتنى بما لم أتوقع ، وعلى أى حال فإنى شاكره ممتنة ، ولا يسع إنسان أن ينسى عواطفك الرقيقة المهذبة ، أما أن يسخر منها فهذا ما لا يخطر على بال . .

نغمة آسرة ومناغمة عذبة ، ولكنه لا يدرى أيجد المعبود أم يلهو ، وهل تتفتح أبواب الأمل أم توصد فى خفة النسيم ، وقد سألته عما يريد فما أجاب لأنه لا يدرى ماذا يريد ، ولكن ماذا عليه لو قال إنه يطمح إلى الوصال ، وصال الروح بالروح ، وأن يطرق باب السر المغلق بعناق أو قبلة ، ألا يكون هذا هو الجواب؟! وعند مفترق الطرق الذى ينتهى عند شارع السرايات ، توقفت عايدة عن السير ، ثم قالت برقة ولكن بلهجة قاطعة :

ـ هنا . . !

فتوقف عن السير أيضًا وهو يحملق فى وجهها بدهش ، «هنا» تعنى أنه يجب أن نفترق هنا ، لم يكن لجملة «أحبك» هذا الامتداد فى المعنى الذى يغنى عن السؤال ، قال دون تدبر أو تفكير :

ـ كلا . . !

ثم هاتفًا ، كمن ظفر بكشف مضىء بغتة :

ـ ماذا وراء الحب؟ أليس هذا سؤالك؟ هاك الجواب : ألا نفترق . . !

قالت بهدوء باسم :

ـ ولكن يجب أن نفترق الآن . . !

تساءل بحرارة

ـ لا كدر ولا سوء ظن؟

ـ كلا . .

ـ أتعودين إلى زيارة الكشك؟

ـ إذا سمحت الظروف .

بقلق :

ـ كانت الظروف تسمح فى الماضى!

ـ الماضى غير الحاضر . .

آلمه الجواب إيلاما عميقًا ، فقال :

ـ يبدو أنك لن تعودى . .

فقالت كأنما تنبهه إلى وجوب الافتراق :

ـ سأزور الكشك كلما سمحت الظروف ، سعيدة . .

وغادرت موقفها متجهة نحو شارع المدرسة فوقف يرنو إليها كالمسحور ، وعند منعطف الطريق التفتت نحوه فألقت عليه نظرة باسمة ثم غابت عن ناظريه .

ماذا قال؟ وماذا سمع؟ سيخلو على هذا عما قليل ، بعد أن يفيق ، متى يفيق؟! إنه يسير الآن وحده ، وحده؟ وخفقات القلب وهيمان الروح وأصداء النغم؟ ومع ذلك شعر بالوحدة بقوة هزت صميم فؤاده ، وفغمه شذا ياسمين ساحرا آسرا ولكن ما هويته؟ ما أشبهه بالحب فى سحره وأسره وغموضه ، لعل سر هذا يفضى إلى ذاك ، ولكنه لن يحل هذا اللغز حتى يأتى على تراتيل الحيرة . .

٢٤

قال حسين شداد :

ـ هذه جلسة الوداع وا أسفاه!

امتعض كمال لدى ذكر كلمة الوداع ، ورمق حسين بنظرة سريعة ليرى إن كان وجهه ينطق بالأسف حقا كما نطق به لسانه! على أنه استشعر جو الوداع منذ أكثر من أسبوع ، إذ إن مجىء يونيو يؤذن عادة برحيل الأصدقاء إلى رأس البر والإسكندرية ، فما هى إلا أيام حتى تغيب عن أفقه الحديقة والكشك والأصدقاء ، أما المعبودة فقد ارتضت الاختفاء من قبل أن يقضى به الرحيل ، وأصرت عليه رغم الصلح الذى توج به حديث شارع السرايات ، لكن هل يمضى يوم الوداع دون زيارة؟ هل هانت المودة إلى حد الضن بنظرة عابرة قبل سفر ثلاثة أشهر؟ تساءل كمال باسمًا :

ـ لم قلت «وا أسفاه!»؟

فقال حسين شداد باهتمام :

ـ وددت لو سافرتم معى إلى رأس البر ، يا سلام! . . أى تصييف كان يكون؟!

كان يكون عجبًا بلا ريب ، حسبه أن المعبودة لا تستطيع مواصلة الاختفاء هناك! وخاطبه إسماعيل لطيف :

ـ كان الله فى عونك! كيف تحتمل حر الصيف هنا ، إن الصيف لم يكد يبدأ بعد ، ومع ذلك انظر إلى حر اليوم!

كان الجو شديد الحرارة رغم تقلص ذيل الشمس عن الحديقة والصحراء الممتدة وراءها، غير أن كمال قال بهدوء:

ـ لا شيء فى الحياة لا يمكن احتماله. .

وفى اللحظة التالية كان يسخر من إجابته ويتساءل: كيف أجاب بها؟ وإلى أى حد يمكن اعتبار أن أقوالنا تعبير صادق عما فى نفوسنا؟ ونظر فيما حوله فرأى أناسًا سعداء ما فى ذلك ريب، بدوا فى قمصانهم ذوات الأكمام القصيرة وبنطلوناتهم الرمادية كأنما يتحدون الحر، كان هو وحده الذى يرتدى بدلة كاملة ـ وإن تكن بدلة خفيفة بيضاء ـ وطربوشا وقد وضعه على المنضدة، وإذا بإسماعيل لطيف ينوه بنتيجة الامتحان قائلاً:

ـ نتيجة نجاح مائة فى المائة، حسن سليم نال الليسانس، كمال أحمد عبد الجواد منقول، حسين شداد منقول، إسماعيل لطيف منقول. .

قال كمال ضاحكًا:

ـ لو أكتفيت بذكر النتيجة الأخيرة لعرفنا الأخريات بداهة!

فقال إسماعيل وهو يرفع منكبيه استهانة:

ـ كلانا بلغ هدفًا واحدًا، أنت بعد كد وتعب تواصلا طول العام، وأنا بعد تعب شهر واحد!

ـ هذا دليل على أنك عالم بالفطرة!

فتساءل إسماعيل ساخرًا:

ـ ألم تقل مرة فى أحد أحاديثك التافهة إن برنارد شو كان أخيب تلميذ فى عصره؟

فقال كمال ضاحكًا:

ـ الآن آمنت بأن عندنا نظيرًا لشو، على الأقل فى خيبته. . !

عند ذاك قال حسين شداد:

ـ عندى خبر ينبغى إذاعته قبل أن يسرقنا الحديث. .

ولما وجد أن قوله لم يجد كثيرًا فى لفت الأنظار إليه نهض فجأة، ثم قال بلهجة لم تخلُ من تمثيل:

ـ دعونى أزف إليكم خبرا طريفا وسعيدا (ثم مستدركا وهو ينظر نحو حسن سليم) أليس كذلك؟ (ثم وهو يعود برأسه نحو كمال وإسماعيل) تمت أمس خطبة الأستاذ حسن سليم على أختى عايدة. .

وجد كمال نفسه أمام هذا الخبر بغتة كما يجد إنسان نفسه تحت الترام وكان أنعم ما يكون عينا بالسلامة والأمن، خفق قلبه خفقة عنيفة كسقطة طيارة منطلقة فى فراغ

هوائى، بل هى صرخة فزع باطنية تصدعت الضلوع دون تسربها إلى الخارج، وقد عجب ـ خصوصًا فيما بعد ـ كيف استطاع أن يضبط مشاعره ويلاقى حسين شداد بابتسامة التهنئة، فلعله شغل عن القارعة ـ ولو إلى حين ـ بالصراع الذى نشب بين نفسه وبين الذهول الذى طوقها، وكان إسماعيل لطيف أول من تكلم فردد عينيه بين حسين شداد وحسن سليم الذى بدا هادئًا رزينا كعادته وإن شابه هذه المرة شىء من الحياء أو الارتباك، ثم هتف:

ـ حقا؟! يا له من خبر سار، سار ومفاجئ، سار ومفاجئ وغادر! غير أنى سأؤجل الحديث عن الغدر إلى حين، حسبى الآن أن أقدم خالص التهانى . .

ونهض فصافح حسين وحسن، فقام كمال من فوره للتهنئة كذلك، وكان مأخوذا رغم ابتسامته الظاهرة بسرعة الحوادث وغرابة الأقوال حتى خيل إليه أنه فى حلم غريب وأن المطر ينهمر فوق رأسه وأنه يتلفت باحثًا عن مأوى، وقال وهو يصافح الشابين:

ـ خبر سار حقا، تهانىَّ القلبية . .

عاد المجلس إلى سابق هيئته، واختلس كمال من حسن سليم نظرة على رغمة فرآه هادئًا رزينا، وكان يشفق من أن يجده مختالاً أو شامتا ـ كما تصور هذا ـ فداخله شىء من الارتياح العابر، وراح يستجدى نفسه أقصى ما لديها من قوة ليستر جرحه الدامى عن العيون اليواقظ وليتفادى من موضع الهزء والزراية، تجلدى يا نفسى وأنا أعدك بأن نعود إلى هذا كله فيما بعد، بأن نتألم معًا حتى نهلك، وبأن نفكر فى كل شىء حتى نجن، ما أمتع هذا الموعد فى هدأة الليل حيث لا عين ترى ولا أذن تسمع، حيث يباح الألم والهذيان والدموع دون زراية زار أو لومة لائم. وثمة البئر القديمة أزح عن فوهتها الغطاء واصرخ فيها مخاطبا الشياطين ومناجيًا الدموع المتجمعة فى جوف الأرض من أعين المحزونين، لا تستسلم، حذار، فالدنيا تبدو لناظريك حمراء كعين الجحيم. عاد إسماعيل لطيف يقول متخذًا لهجة الاتهام:

ـ مهلاً، لنا عندكما حساب، كيف حدث هذا ودون سابق إنذار؟ أو فلندع هذا إلى حين، ولنسأل كيف تمت الخطبة دون حضورنا؟

قال حسين شداد مدافعًا عن موقفه:

ـ لم يكن هناك حفل كبير أو صغير، اقتصر الجمع على خاصة الأهل، موعدنا يوم الكتاب وعليك خير، ستكونان من الداعين لا المدعوين . .

يوم الكتاب! كأنه عنوان لحن جنائزى، حيث يشيع قلب إلى مقره الأخير محفوفا بالورد مودعا بالزغاريد، وباسم الحب تعنو ربيبة باريس لشيخ معمم يتلو فاتحة الكتاب، وباسم الكبرياء هجر إبليس الجنة. قال كمال باسما:

ـ العذر مقبول والوعد مأمول .

فصاح إسماعيل لطيف محتجًا :

ـ هذه بلاغة أزهرية إذا لاحت لها فى الأفق مائدة تناست دواعى العتاب ، وتغنت بالتسامح والثناء ، كل ذلك فى سبيل لقمة دسمة ! حقا إنك أديب أو فيلسوف أو ما شاكل ذلك من ضروب الشحاذة ، أما أنا فلست كذلك . .

ثم مواصلا حملة الاتهام على حسين شداد وحسن سليم :

ـ يا لكما من داهيتين ! صمت طويل يعقبه فجأة إعلان خطبة ، هه؟ حقا يا أستاذ حسن أنك الخليفة المنتظر لثروت باشا . .

قال حسن سليم وهو يبتسم معتذراً :

ـ إن حسين نفسه لم يعلم بالأمر إلا قبيله أيام معدودات . .

فتساءل إسماعيل :

ـ خطبة من جانب واحد كتصريح ٢٨ فبراير؟

رفضته الأمة المغلوبة على أمرها بإباء ، ولكنه فرض عليها وما كان كان ، وضحك كمال ضحكة عالية ، فقال إسماعيل وهو يغمز حسن سليم بعينه :

ـ استعينوا على قضاء . . لا أذكر ماذا بالكتمان ! قالها عمر ابن الخطاب ، أو عمر بن أبى ربيعة ، أو عمر أفندى ، والله أعلم . .

وقال كمال فجأة :

ـ جرت العادة بأن تنضج هذه الأمور فى صمت ، على أنى أقر بأن الأستاذ حسن أشار فى حديث له معى مرة إلى شىء كهذا !

فرمقه إسماعيل بارتياب ، على حين ألقى عليه حسن نظرة واسعة ، وقال مستدركًا :

ـ كان كلامًا أشبه بالعناوين . . !

تساءل كمال فى دهش كيف ند عنه ذلك القول؟ إنه كذب أو شبه كذب على أحسن تقدير ، كيف يطمع ـ بهذا الأسلوب الشاذ ـ أن يقنع حسن بأنه كان على علم بنواياه وأنه لم يفاجأ بها أو يكترث لها؟ يا للحماقة ! أما إسماعيل فقد قال لحسن وهو يحدجه بنظرة عتاب :

ـ ولكنى لم أحظ بعنوان واحد من هذه العناوين !

قال حسن بجد :

ـ أؤكد لك أنه إذا كان كمال قد وجد فى حديثى معه ما اعتبره إشارة إلى الخطبة ، فإنما يكون قد استعان على ذلك بخياله لا بكلماتى .

ضحك حسين شداد ضحكة عالية، وقال مخاطبًا حسن سليم:

ـ إسماعيل زميلك القديم، وهو يريد أن يقول لك إنه إذا كنت سبقته إلى الليسانس بثلاث سنوات فلا يعنى هذا أن تضن عليه بأسرارك أو أن تؤثر بها غيره!

فقال إسماعيل باسما، وكأنما كان يدارى مضايقته:

ـ إنى لا أرتاب فى زمالته القديمة، ولكنى أحاسبه حتى لا يعود إلى الوقوع فى الإهمال يوم القران!

فقال كمال باسما:

ـ نحن أصدقاء الطرفين، فإذا أهملنا العريس فلن تهملنا العروس . .

إنه تكلم ليثبت أنه حى، لكنه حى يتألم، شد ما يتألم، ترى هل جرى فى خاطره يومًا أن يكون لحبه نهاية غير هذه النهاية؟ كلا، غير أن الإيمان بأن الموت حتم مقدر لا يمنع من الجزع حين حضوره، وهو ألم مفترس لا يعرف المنطق أو الرحمة، لو يستطيع أن يشخصه ليعلم فى أى موضع يكمن أو عن أى ميكروب يصدر؟! وبين نوبات الألم يرشح بالملل والفتور . .

ـ ومتى يعقد القران؟

إن إسماعيل يسأل عما يدور بخاطره كأنه موكل بأفكاره، ولكنه لا ينبغى له أن يصمت. قال:

ـ نعم، هذا مهم جدا حتى لا نؤخذ على غرة، متى يعقد القران؟

فتساءل حسين شداد ضاحكا:

ـ لم تتعجلان الأمر؟! فليهنأ العريس بما بقى من عهد عزوبيته . .

وقال حسن بهدوئه المعتاد:

ـ ينبغى أن أعرف أولاً إن كنت سأبقى فى مصر أم لا . . ؟

فقال حسين شداد معقبا:

ـ إما أن يعين فى النيابة، أو فى السلك السياسى . .

هكذا يبدو حسين شداد مسرورًا بالخطبة، فأستطيع أن أزعم أننى كرهته ولو دقيقة عابرة، كأنه خاننى فيمن خانونى، أخاننى أحد؟ اختلطت الأمور علىّ، غير أن هذا المساء يعدنى بخلوة حافلة . .

ـ أيهما تفضل يا أستاذ حسن؟

فليختر ما يحلو له، النيابة . . السلك السياسى . . السودان . . سوريا إن أمكن . .

ـ النيابة بهدلة، إنى أفضل السلك السياسى . .

ـ يحسن أن تفهم والدك ذلك جيداً حتى يركز عنايته فى إلحاقك بالسلك السياسى . .

أفلتت هذه الجملة أيضًا؟ ولا شك أنها أصابت الهدف، ينبغى أن يتمالك أعصابه وإلا وجد نفسه مشتبكا مع حسن فى نزاع علنى، ثم ينبغى أن يراعى خاطر حسين شداد، فهما الآن أسرة واحدة، ما أقسى هذه الشكة من الألم! هز إسماعيل رأسه كالآسف، وقال:

ـ هذه آخر أيامك معنا يا حسن، بعد عشرة العمر كله، يا لها من نهاية محزنة!

يا للحماقة! يحسب أن الحزن يمس قلبا واحة المعبود مرتعه.

ـ الواقع أنها نهاية محزنة يا إسماعيل . .

كذب فى كذب، مثل تهنئتك له، يستوى فى هذا ابن التاجر وابن المستشار.

قال:

ـ أيعنى هذا أنك ستقضى عمرك كله خارج القطر؟

ـ هذا هو المتوقع، لن نرى مصر إلا فى القليل النادر . .

قال إسماعيل متعجبًا:

ـ حياة غريبة! هلا فكرت فيما ينتظر أولادك من متاعب؟!

واقلباه! أيليق هذا العبث بالمعانى؟! يحسب الشرير أن المعبودة تحبل وتتوحم وتنداح بطنها وتتكور ثم يجيئها المخاض فتلد! أتذكر خديجة وعائشة فى الأشهر الأخيرة؟ هو الكفر، لمَ لَمْ تشترك فى جمعية الكف السوداء؟ الاغتيال خير من الكفر وأنجع، وتجد نفسك يوما فى قفص الاتهام وعلى المنصة سليم بك صبرى والد صديقك الدبلوماسى وحمو معبودتك، كما مثل بين يديه قتلة السردار فى هذا الأسبوع، الخائن!

حسين شداد ضاحكا:

ـ أتقطع الدول علاقتها السياسية حتى يربى أولاد الدبلوماسيين فى بلادهم؟!

بل تقطع الرءوس! عبد الحميد عنايت . . الخراط . . محمود راشد . . على إبراهيم . . راغب حسن . . شفيق منصور . . محمود إسماعيل . . كمال أحمد عبد الجواد الإعدام شنقا، القاضى الوطنى سليم بك صبرى، القاضى الإنجليزى مستر كرشو، الاغتيال هو الجواب، أتريد أن تَقتل أم تُقتل؟!

وخاطب إسماعيل حسين قائلاً:

ـ رحيل أختك سيحمل والدك على الإصرار على رفض فكرة سفرك أنت!

فقال حسين شداد باطمئنان:

ـ قضيتى تقترب من الحل الموفق بخطى ثابتة . .

عايدة وحسين فى أوربا! إنسان يفقد فى ساعة حبيبه وصديقه، تفتقد روحك معبودها فلا تجده ويفتقد عقلك أليفه فلا يجده، وفى الحى العتيق تعيش وحيدا مهجوراً كأنك صدى حنين هائم منذ أجيال، تأمل الآلام التى ترصدك، آن لك أن تحصد ثمار ما زرعت من أحلام فى قلبك الغر، توسل إلى الله أن يجعل الدموع دواء للأحزان، وعلق إن استطعت جسمك بحبال المشانق أو ضعه على رأس قوة مدمرة تنقض بها على العدو، غدا تلقى روحك خلاء كما لقيت بالأمس ضريح الحسين، يا خيبة الآمال، والمخلصون قتلى أما أبناء الخونة فسفراء. قال إسماعيل لطيف وكأنما يخاطب نفسه:

ـ لن يبقى فى مصر إلا أنا وكمال، وكمال غير مأمون الجانب، لأن صديقه الأول ـ قبل أو بعد أو مع حسين ـ هو الكتاب . .

فقال حسين فى ثقة وإيمان:

ـ لن يقطع الرحيل ما بيننا من أسباب . .

فخفق قلب كمال رغم فتوره، وقال:

ـ على أن قلبى يحدثنى بأنك لن تحتمل الغربة إلى الأبد . .

ـ هذا هو الراجح، ولكنك ستفيد من رحلتى بما سأرسله لك من كتب، سنواصل أحاديثنا بالرسائل والكتب . .

هكذا يتكلم حسين كما لو كان السفر قد بات أمرا مفروغًا منه، هذا الصديق الذى يسعد بلقياه سعادة فاتنة فحتى الصمت يستمتع به فى محضره، ولكل عزاء فذهاب المعبودة سيعلمه كيف يستهين بالخطب وإن جل، هكذا هانت وفاة جدته المحبوبة على النفس التى اكتوت بنار الحزن على فهمى، غير أنه ينبغى أن يذكر دائمًا أنه فى جلسة الوداع كى يملأ عينيه من الورد والأزهار الثملة بالنضرة لا تبالى فى أى حزن يهيم، وثمة مشكلة ينبغى أن يجد لها حلا: كيف يسمو بشر إلى معاشرة المعبود أو كيف يهبط المعبود حتى يعاشره بشر؟! فإذا لم يجد لذاك حلا فسوف يسير فى طريقه بقدمين ترسفان فى الأغلال وفى حلقه شجا، والحب حمل ذو مقبضين متباعدين خلق لتحمله يدان . . فكيف يحمله وحده؟ وكان الحديث يطرد ويتفرع وهو يتابعه بعينيه وهزات رأسه وكلمات يثبت بها أن الخطب لم يقض عليه بعد، وكان الأمل معقودا بأن قاطرة الحياة تسير وأن محطة الموت فى الطريق على أى حال، وها هى ساعة الغروب . . ساعة الظلام والهدوء . .

تحبها كما تحب الفجر، وعايدة والألم لفظان لمعنى واحد فينبغى أن تحب الألم وأن تطرب للهزيمة منذ اليوم ولا تزال عجلة الحديث فى دوران غير منقطع والأصدقاء

يتضاحكون ويتناظرون كأن واحدا منهم لم يعرف الحب قلبه . . حسين ضحكة الصحة والصفاء، وإسماعيل ضحكة العربدة والعدوان، وحسن ضحكة التحفظ والاستعلاء، ويأبى حسين إلا أن يتحدث عن رأس البر، أعدك بأن أحج إليها يوما وأن أسأل عن الرمال التى وطئتها أقدام المعبودة لألثمها ساجدا، الآخران يتغنيان بسان استفانو ويتحدثان عن أمواج كالجبال، حقا؟ تصور جثة تقذف بها الأمواج إلى الشاطئ وقد امتص البحر الرهيب جمالها ونبلها؟ ولتعترف بعد هذا كله بأن الملل يطوق الكائنات وأن السعادة ربما كانت وراء أبواب الموت، وتواصل السمر حتى آن للجمع أن يتفرق، فتصافحوا بحرارة . . شد كمال على يد حسين، وشد حسين على يد كمال، ثم مضى وهو يقول:

ـ إلى اللقاء . . فى أكتوبر!

كان فى مثل هذا الموقف من العام الماضى وما قبله يتساءل فى لهفة: متى يعود الأصدقاء؟ الآن ليست أشواقه رهينة بعودة أحد، ستظل مستعرة جاء أكتوبر أو لم يجئ، عاد الأصدقاء أو لم يعودوا. لن يلوم شهور الصيف بعد الآن لأنها تباعد بينه وبين عايدة، فالهوة التى تفصل بينهما أعمق من الزمن، وقد كان يعالج الزمن بجرعات الصبر والأمل، ولكنه يخاصم اليوم عدوا مجهولاً وقوة خارقة غامضة لا يدرى من تعاويذها ورقاها حرفا واحدا . . فليس أمامه إلا الصمت والتعاسة حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولا. تراءى له حبه معلقا فوق رأسه كالقدر، يشده إليه بأسلاك من الألم المبرح، أشبه ما يكون فى جبريته وقوته بالظاهرة الكونية، فتأمله بعين ملؤها الإكبار والحزن.

افترق الأصدقاء الثلاثة أمام سراى آل شداد: فسار حسن سليم إلى شارع السرايات، واتجه كمال وإسماعيل نحو الحسينية فى طريقهما المعهود الذى يفترقان فى نهايته، فيمضى إسماعيل إلى غمرة، ويمضى كمال إلى الحى العتيق، وما إن انفردا حتى ضحك إسماعيل ضحكة عالية طويلة، فسأله كمال عما أضحكه، فقال فى خبث:

ـ ألم تفطن بعد إلى أنك كنت فى الأسباب الجوهرية التى دعت إلى الإسراع فى إعلان الخطبة؟

ـ أنا؟!

ندت عن كمال وعيناه تتسعان فى ذهول، فقال إسماعيل فى استهانة:

ـ نعم أنت، لم يكن حسن يرتاح إلى صداقتكما، هذا يبدو لى محققا رغم أنه لم ينبس لى عنه بكلمة، إنه ذو كبرياء شديد ـ كما تعلم ـ ولكنى أعرف كيف أصل إلى ما أريد، أؤكد لك أنه لم يكن يرتاح إلى صداقتكما، أتذكر ما نشب بينكما ذلك اليوم؟ الظاهر أنه طالبها بأن تحد من حريتها فى الاختلاط بالأصدقاء، والظاهر أنها

ذكرته بأنه لا حق له فى مطالبته فأقدم على هذه الخطوة الكبيرة ليكون من أصحاب الحقوق!

قال كمال وخفقان قلبه يكاد يعلو على صوته:

ـ لكننى لم أكن الصديق الوحيد! كانت عايدة صديقتنا جميعًا!

فقال إسماعيل متهكما:

ـ ولكنها أختارتك أنت لتثير قلقه! ربما لأنها آنست فى صداقتك حرارة لم تجدها عند غيرك، على أى حال، إنها لا تلقى الأمور ارتجالا، وقد صممت منذ قديم على الظفر بحسن فجنت أخيرا ثمرة صبرها!

«الظفر بحسن»؟ «ثمرة صبرها»! ما أشبه هاتين العبارتين بقول مأفون «شروق الشمس من الغرب»، قال وقلبه يتأوه:

ـ ما أسوأ ظنك بالناس! إنها ليست على شىء مما تتصور!

فقال إسماعيل دون أن يفطن إلى شعور صاحبه:

ـ لعل الأمر وقع اتفاقا أو لعل حسن كان واهما، على أى حال جاءت العواقب فى صالحها..

هتف كمال غاضبا:

ـ صالحها! ماذا تظن؟! سبحان الله، إنك تتحدث عنها كما لو كانت خطبتها لحسن تعتبر ظفرا لها لا له!!

فحدجه إسماعيل بنظرة غريبة، ثم قال:

ـ إنك فيما يبدو غير مقتنع بأن أمثال حسن قليلون؟ أسرة ومركز ومستقبل، أما مثيلات عايدة فلسن قليلات، هن أكثر مما تتصور، ترى هل تقدرها أكثر مما تستحق؟ إن أسرة حسن ارتضت زواجه منها لثروة أبيها الهائلة فيما أعتقد، إنها فتاة.. (ثم بعد تردد).. ليست بارعة الجمال على أى حال!

إما أن يكون مجنونا وإما أن تكون مجنونا أنت! حزّه ألم كهذا من قبل يوم اطلع على كلمة جارحة تهجم بها كاتبها على نظام الزواج فى الإسلام، ألا لعنة الله على الكافرين جميعًا، تساءل بهدوء يغطى به على لوعته:

ـ لم إذن كثر المعجبون من حولها؟

أبرز إسماعيل فكه الأسفل فارتفع ذقنه فى حركة استهانة، ثم قال:

ـ لعلك تعنينى فيمن تقصد! لا أنكر أنها خفيفة الروح، وطراز وحدها فى الأناقة، إلى أن أسلوبها الغربى فى اللباقة الاجتماعية يريق عليها فتنة وإغراء، لكنها بعد

ذلك سمراء نحيلة لا شىء فيها يشتهى! تعال معى إلى غمرة تر ألوانا من الجمال تزرى بجمالها جملة وتفصيلاً، هنالك ترى الملاحة الحقة فى البشرة الوضيئة والنهد الكاعب والردف المليء، هذا هو الجمال إن أردته . . لا شىء فيها يشتهى!

كأنها شىء يشتهى كقمر ومريم!، نهد كاعب وردف مليء . . كمن يصف الروح بصفات الجسد! يا لشدة الألم، كتب عليه اليوم أن يتجرع كأس الألم حتى ثمالتها، إذا توالت الضربات القاتلة فمن الخير أن ترحب بالموت . .

وعند الحسينية افترقا، فسار كل إلى سبيله . .

٢٥

تنقضى السنون ولا يفتر حبه لهذا الطريق، قال لنفسه، وهو يلقى على ما حوله نظرة ضيقة: «لو شابه حبى للمرأة التى يختارها قلبى حبى لهذا الطريق لأراحنى من متاعب جمة»، أعجب به من طريق كالتيه، لا يكاد يمتد بضعة أمتار طولا حتى ينعطف يمنة أو يسرة، وفى أى موضع منه يطالعك منحنى يطوى وراءه مجهولا، وضيق ما بين جانبيه يريق عليه تواضعا وألفة فهو كالحيوان الأليف، والجالس فى دكان على يمينه يستطيع أن يصافح الجالس فى دكان على يساره، سقوف بمظلات الخيش تمتد بين أعالى الحوانيت فتحجب أشعة الشمس المحرقة وتنفث فى الجو الرطب سمرة حالمة، وعلى الأرائك والرفوف جوالق مرصوصة مترعة بالحناء الخضراء والشطة الحمراء والفلفل الأسود وقوارير الورد والعطر والقراطيس الملونة والموازين الصغيرة، وتتدلى من عل الشموع فى أحجام وألوان شتى كأنها التهاويل، فى جو مفعم بشذا العطارة والعطر كأنها أنفاس حلم قديم تائه لا يذكر متى رآه، أما الملاءات اللف والبراقع السود والعرائس الذهبية والأعين الكحيلة والأرداف الثقيلة فمنها جميعًا أستعيذ بواهب النعم، سير الحالم فى تهاويل حلم جميل رياضة محبوبة بيد أنى أشكو ضنى القلب والعين، إن تعد النسوان هنا لا تحصيهن، مبارك المكان الذى يضمهن ولا منجى لك إلا أن تهتف من أعماق الفؤاد: يا خراب بيتك يا ياسين، هنالك يجيبك صوت أن افتح دكان فى التربيعة واستقر، أبوك تاجر . . سيد نفسه . . ينفق فى مسراته أضعاف أضعاف مرتبك، افتحها وتوكل ولو بعت لذلك ربع الغورية ودكان الحمزاوى، تجىء مع الصبح كالسلطان لا ميعاد يربطك ولا رئيس يرعبك، تجلس وراء الميزان فيجيئك النسوان من كل فج: صباح الخير يا سى ياسين، واقعد بالعافية يا سى ياسين، علىّ وعلىَّ إن تركت مصونة دون تحية أو متهتكة

دون ميعاد! ما ألذ الخيال وأقساه على من سيبقى إلى آخر العمر ضابطا بمدرسة النحاسين، والعشق داء أعراضه جوع دائم وقلب قلب فوارحمتاه لمن خلق بشهوة خليفة وسلطان ضابط مدرسة، تهدم الرجاء فلا جدوى من الكذب، ويوم حملتها إلى قصر الشوق كان الأمل يعدك بحياة هادئة مطمئنة، قاتل الله الملل كيف يمازج النفس كما تمازج مرارة المرض اللعاب! عدوت وراءها عاما ثم مللتها فى أسابيع فما التعاسة إن لم تكن هذا؟ بيتك أول بيت يضج بالشكوى فى شهر العسل، سل قلبك أين مريم؟!.. أين الملاحة التى لوعتك؟.. يجبك بضحكة كالتأوه ويقول أكلنا وشبعنا وصرنا نتقزز من رائحة الطعام، وهى ما كرة يستعذب اللعب بها ولا تفوتها شاردة، مرة بنت مرة، اذكروا حسنات موتاكم هل كانت أمك خيرا من أمها؟! المهم أنها ليست كزينب يسهل خداعها وما أثقل غضبها إذا غضبت، لا هى بالتى تغضى ولا أنت بالذى يقنع، هيهات أن تشبع جوعك المستعر امرأة أو يعرف الاستقرار قلبك، ومع ذلك توهمت أنك ستظفر بحياة زوجية سعيدة! ما أعظم أباك وما أحقرك! لم تستطع أن تكون مثله ودواؤك أن تكون مثله؟! رباه ما هذا الذى أرى؟! أهذه امرأة حقا؟! كم قنطاراً يا ترى تزن؟! اللهم إنى لم أر من قبل طولا كهذا الطول ولا عرضا كهذا العرض، كيف تملك هذه الضيعة؟! إنى أنذر إذا وقعت بين يدى امرأة فى قدرها أن أنيمها فى وسط الحجرة عارية، وأن أدور حولها سبعا وأنا أفقر..

ـ أنت..!

جاء الصوت من وراء فاهتز له قلبه، وسرعان ما تحولت عيناه عن المرأة الضخمة إليه، فرأى شابة فى معطف أبيض، فما تمالك أن هتف:

ـ زنوبة!

وتصافحا فى حرارة وهى تضحك، غير أنه حثها على السير حتى لا يلفتا إليهما الأنظار، فسارا جنبا إلى جنب يشقان الزحام. هكذا التقيا بعد طول الفراق، ولم تكن ترد على خاطره إلا فى القليل النادر بعد أن شغلته عنها الشواغل، ولكنه وجدها جميلة كيوم هجرها أو لعلها ازدادت جمالا، ثم ما هذا الزى الحديث الذى استبدلته بالملاءة اللف؟! وانبعثت فيه موجة من النشاط والسرور، وإذا بها تتساءل:

ـ كيف حالك؟

ـ عال، وأنت؟

ـ كما ترى..

ـ عال جدا والحمد لله، أنت غيرت زيك، لم أكن أعرفك عند أول نظرة، لا أزال أذكر مشيتك فى الملاءة اللف..

ـ وأنت لم تتغير، لم تكبر، ازددت سمانة، هذا كل ما فى الأمر . .

ـ أنت الآن شىء آخر! ، بنت إفرنجية! . . (وهو يبتسم فى حذر) . . إلا أن ردفها من الغورية!

ـ لسانك!

ـ أرعبتنى! كأنك تبت أو تزوجت . . !

ـ لا شىء على الله بكثير . .

ـ أما التوبة فهذا المعطف الأبيض يكذبها، وأما الزواج فلا يبعد أن تسوقك قلة العقل يوما إليه!

ـ حاسب، إنى متزوجة تقريبا . . !

ضحك ـ وكانا يميلان إلى الموسكى ـ قائلاً:

ـ مثلى تماما . .

ـ لكنك متزوج بالفعل، أليس كذلك؟

ـ كيف عرفت هذا؟ . . (ثم مستدركا) أوه . . كيف نسيت أن أسرارنا عندكم أول بأول!

وضحك مرة أخرى ضحكة ذات معنى، فابتسمت ابتسامة غامضة، وقالت:

ـ تقصد بيت السلطانة؟

ـ أو بيت أبى، أليس الود متصلا؟

ـ تقريبا!

ـ كل شىء عندك الآن بالتقريب! أنا كذلك متزوج تقريبا، أعنى أنى متزوج وأبحث عن رفيقة . .

هشت بيدها ذبابة على وجهها، فوسوست أساورها الذهبية المحيطة بساعدها وهى تقول:

ـ أنا مرافقة وأبحث عن زوج!

ـ مرافقة؟! من السعيد ابن الـ . . .

قاطعته وهى تشير إليه محذرة:

ـ إياك والسب، إنه رجل ذو مقام . .

فقال وهو يلحظها ساخرا:

ـ ذو مقام؟! هق هق، زنوبة! . . أود لو أنطحك . .

ـ أتذكر متى تقابلنا آخر مرة؟

ـ أوه، ابنى رضوان عمره الآن ستة أعوام، فنكون قد تقابلنا آخر مرة منذ سبعة أعوام . . تقريبا!

ـ عمر طويل . .

ـ ولكن لا ينبغى لحى أن ييأس فى هذه الدنيا من اللقاء . .

ـ ولا الفراق . .

ـ الظاهر أنك خلعت الوفاء مع الملاءة اللف!

فحدجته بنظرة مقطبة وهى تقول :

ـ أتتحدث عن الوفاء يا ثور!

فسره رفع الكلفة إلى هذا الحد وشجع مطامعه، فقال :

ـ الله وحده يعلم كم سررت بلقائك، كثيراً ما كنت تخطرين ببالى، ولكنها الدنيا!

ـ دنيا النسوان، هه؟

فقال متظاهراً بالتأثر :

ـ دنيا الموت، ودنيا المتاعب . .

ـ لا يبدو أنك تحمل للمتاعب هما، إن البغال لتحسدك على صحتك . .

ـ لولا أن العين الجميلة لا تحسد . .

ـ أتخاف على نفسك! كأنك عبد الحليم المصرى طولا وعرضا . .

فضحك مختالا، وصمت قليلا، ثم قال بلهجة جديدة جادة :

ـ أين كنت ذاهبة؟

ـ لم تذهب الواحدة إلى التربيعة؟ أم ظننت الناس مثلك لا همّ لهم إلا التحكك بالنسوان؟

ـ مظلوم والله . .

ـ مظلوم! لما لمحتك وجدتك تغوص بعينيك فى امرأة كالبوابة . .

ـ بل كنت شاردا أفرك لا أعى فيم أنظر . .

ـ أنت! إنى أنصح من يروم لقاءك أن ينقب فى التربيعة عن أضخم امرأة، وأنا كفيلة بأنه سيجدك وراءها لابداً كما تلبد القراضة فى الكلب . .

ـ أنت يا ولية لسانك كل يوم يطول عن يوم . .

ـ اسم الله على لسانك أنت . .

ـ ما علينا، خلينا فى الأهم، أين أنت ذاهبة الآن؟

ـ سأتسوق قليلا، ثم أعود إلى بيتى!

فصمت لحظة كالمتردد، ثم قال:

ـ ما رأيك فى أن نقضى معا بعض الوقت؟

فلحظته بعينيها السوداوين اللعوبتين، وقالت:

ـ ورائى رجل غيور!

فقال وكأنه لم يسمع اعتراضها:

ـ فى مكان لطيف لنشرب كأسين!

فعادت تقول بصوت أعلى من سابقه:

ـ قلت لك ورائى رجل غيور..

فاستطرد قائلا دون اكتراث:

ـ توفابيان، ما رأيك؟، إنه مكان لطيف وابن حلال، سأنادى هذا التاكسى..

فند عنها صوت احتجاج، ثم تساءلت فى استياء وشى وجهها بغيره قائلة: «بالقوة؟!» ثم نظرت فى ساعتها بمعصمها ـ وقد كادت هذه الحركة الجديدة تضحكه ـ وقالت بلهجة الشارط:

ـ على ألا أتأخر، الساعة الآن السادسة، وينبغى أن أكون فى البيت قبل الثامنة..

تساءل والتاكسى يطوى بهما الطريق: ترى هل لمحتهما عين ما بين التربيعة والموسكى؟ غير أنه هز كتفيه استهانة وهو يزحلق طربوشه المائل فوق حاجبه الأيمن إلى الوراء بمقبض منشته العاجية، ماذا يهمه؟! مريم وحيدة وليس وراءها وحش مثل محمد عفت الذى قوض أول بيت زوجية بناه، وأما أبوه فرجل لبق وهو يعلم أنه لم يعد الطفل الغرير الذى نكَّل به فى فناء البيت القديم. وفى حديقة توفابيان جلسا حول مائدة متقابلين، كان المشرب غاصا بالنساء والرجال، والبيانو الميكانيكى يعزف مقطوعاته الرتيبة، على حين هفت رائحة الشواء مع نسيم الأصيل من ركن قصى. وأدرك من ارتباكها أنها تجلس فى مكان عام لأول مرة فداخله سرور حريف، ثم أيقن فى اللحظة التالية أن ما به حنينا حقا لا محض رغبة عابرة، وبدت له أيامها الغابرة أسعد الأيام كلها. وطلب قارورة كونياك ثم طلب شواء، وجرى ماء الحياة فى خديه، ثم خلع طربوشه فبدا شعره الأسود مفروقًا من الوسط على جانبى الرأس كشعر أبيه، فما إن لمحته زنوبة حتى ارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة لم يفطن بطبيعة الحال إلى ما وراءها. كانت أول مرة يجالس فيها امرأة فى حانة غير حانات وجه البركة، وكانت أول مغامرة له بعد زواجه

الثانى مع استثناء إلمامة واحدة بدرب عبد الخالق. وربما كانت أول مرة كذلك يشرب فيها كونياك «راقيا» خارج البيت، إذ إنه لا يتناول الجيد منه إلا فيما يقتنى من زجاجات فى البيت للاستعمال «الشرعى» على حد تعبيره. ملأ الكأسين فى زهو وارتياح، ثم رفع كأسه وهو يقول لها:

ـ صحة زنوبة مارتل!

فقالت بكبرياء خفيف الظل:

ـ إنى أشرب الديوارس مع البك..

فقال متأففا:

ـ دعينا من سيرته، ربنا يقدرنا على جعله فى خبر كان..

ـ بعدك!

ـ سنرى، كلما شربنا كأسا تفتحت لنا أبواب وانحلت عقد..

ولإحساسهما بقصر الوقت المتاح تعجلا الشراب فامتلأ الكأسان وفرغا تباعا، وهكذا أخذ الكونياك يزغرد بلسانه النارى فى معدتيهما فيرتفع زئبق النشوة فى ترمومتر العروق، أما الأوراق الخضراء المتطلعة من الأصص وراء سور الحديقة الخشبية فافترت ثغورها عن بسمات متألقة، وأخيراً وجد البيانو آذانا متسامحة، والوجوه الحالمة المعربدة تلاقت أعينها مرارا فى أنس ومودة، وجو الأصيل سبح فى موجات موسيقية صامتة، وبدا كل شىء طيبا وجميلاً:

ـ أتعرف ماذا طفر إلى لسانى أول ما رأيتك اليوم وأنت تحملق فى المرأة كالمسعور؟

ـ أفندم؟.. ولكن أفرغى كأسك أولا حتى أملأه..

وهى تتناول ريشة شواء:

ـ كدت أصيح بك: يا بن الكلب..

وهو يضحك ضحكة ريانة:

ـ ولمَ لَمْ تفعلى يا بنت القارحة؟

ـ أصلى لا أشتم إلا الأحباء! وكنت وقتها غريبا أو كالغريب!

ـ والآن ماذا تريننى؟

ـ ابن ستين..

ـ يا سلام، الشتيمة تسكر أكثر من الخمر أحيانا، هذه الليلة المباركة ستتحدث عنها الجرائد غدا..

ـ لم كفى الله الشر؟ ناو تعمل حادثة؟!

ـ الطف يا رب بى وبها . .

وعند ذاك قالت فى شىء من الاهتمام :

ـ لم تحدثنى عن زوجك الجديدة . . ؟

فربت ياسين شاربه وهو يقول :

ـ حزينة المسكينة! ماتت أمها هذا العام . .

ـ العمر الطويل لك ، كانت غنية؟

ـ تركت بيتا ، البيت المجاور لبيتنا أعنى المجاور لبيت والدى ، ولكنها تركت فى نفس الوقت شريكا لزوجى فيه وهو لزوجها!

ـ لابد أن زوجك جميلة ، فأنت لا تقع إلا على النقاوة . .

فقال بحذر :

ـ لها جمالها ، غير أنه لا يقاس بجمالك أنت . .

ـ آه منك آه . . !

ـ هل عرفتنى كاذبا أبدا؟!

ـ أنت؟! أنا أشك أحيانا فى اسمك هو ياسين حقا . .

ـ إذن فلنشرب هذه الكأس أيضا . .

ـ تسكرنى كى أصدقك . . ؟!

ـ إذا قلت لك إننى أرغب فيك وأحن إليك فهل تشكين فى صدقى؟ انظرى فى عينى ، وجسى نبضى . .

ـ أنت خليق بأن تقول هذا الكلام لأية امرأة تصادفك . .

ـ هذا كما يقال إن الجائع يود ألوان الطعام جميعا ، ولكن الملوخية مثلاً قد تستأثر بمنزلة خاصة . .

ـ الرجل الذى يحب امرأة حقا لا يتردد عن الزواج منها . .

فنفخ ، ثم قال :

ـ أنت مخطئة ، بودى لو أقف فوق هذه المائدة وأصرخ بأعلى صوتى : من يحب منكم امرأة فلا يتزوجها ، أجل ، لا شىء يقتل الحب كالزواج . صدقينى ، إنى مجرب ، وقد تزوجت مرة وأخرى وأعرف مدى صدق ما أقول . .

ـ لعلك لم تهتد بعد إلى المرأة التى تناسبك . .

ـ تناسبنى؟ كيف تكون هذه المرأة؟ وبأى حاسة يهتدى إليها؟ وأين تكون هذه المرأة التى لا تمل؟!

فضحكت فى فتور، وقالت:

ـ كأنك تتمنى أن تكون ثورا فى حديقة أبقار، هذا هو أنت!

ففرقع بأصبعه طربا، وقال:

ـ الله.. الله، منذا الذى كان فى زمان مضى يدعونى بالثور؟.. إنه أبى ربنا يمسيه بالخير، كم أود لو أكون مثله، حظى بامرأة هى آية الطاعة والقناعة، وانطلق على هواه لا يجد فى حياته المتاعب، موفقا فى زواجه، موفقا فى عشقه.. هذا ما أريد..

ـ ما عمره؟

ـ أظنه فى الخامسة والخمسين، بيد أنه أقوى من الشباب..

ـ لا عظيم أمام السنين، ربنا يمتعه بصحته..

ـ إلا أبى، إنه معشوق المعشوقات من النساء، ألا ترينه الآن فى بيتكم؟

فقالت ضاحكة وهى ترمى بعظمة إلى قطة تموء تحت قدميها:

ـ هجرت ذلك البيت منذ أشهر، الآن لى بيتى الخاص وأنا سيدته!

ـ حقا؟! حسبتك تمزحين، وهل هجرت التخت أيضا؟

ـ هجرته، إنك تحدث سيدة بكل معنى الكلمة..

فقهقه فى انبساط، ثم قال:

ـ إذن اشربى ودعينى أشرب، وربنا يلطف بنا..

فى النفس فتنة وفى الجو فتنة، ولكن أيهما الصوت وأيهما الصدى؟ وأعجب من هذا أن الحياة تدب فى الجمادات، الأصص تترنح هامسة والأركان تتناجى، السماء ترنو إلى الأرض بأعين النجوم الناعسة وتتكلم، وبينه وبين صاحبته رسائل متبادلة تفصح عن المكنون فى جو مشحون بالأضواء المنظورة وغير المنظورة يبهر الفؤاد ويزغلل العين، وفى الدنيا شىء يدغدغ البشر فلا يتركها حتى تغرق بالضحك، الوجوه والكلمات والحركات وغيرها تغرى جميعًا بالضحك، والوقت يمر كالشهاب، وحاملو ميكروب العربدة يوزعونه بين الموائد بوجوه أثقلتها الرزانة، أما أنغام البيانو فتترامى من بعيد فيكاد يغطى عليها صليل عجلات الترام، وغلمان الطوار ولاقطو الأعقاب ينشرون حولهم لغطًا كطنين الذباب، وجحافل الليل تعسكر فوق الربوع وتستقر، كأنك تنتظر حتى يجيئك الساقى فيسألك: أليس للنشوان مقر؟ وأنت عن ذاك وما هو أجل لاه سادر، لو تسجد مريم بين يديك هامسة: حسبى غرفة أمارس فيها طاعتك وأملأ الحجرات بمن تهوى من النساء، أو يربت ناظر المدرسة كتفك كل صباح قائلاً: كيف حال والدك يا بنى؟ لو تشق

الحكومة طريقا جديدا أمام دكان الحمزاوى وربع الغورية، أو تقول لك زنوبة: سأهجر غدا بيت صاحبى وأكون طوع بنانك، لو حدث هذا لاجتمع الناس عقب صلاة الجمعة يتبادلون قبل الصفاء، أما حكمة الليلة فهى أن تجلس على الكنبة وأن ترقص زنوبة عارية بين يديك، هنالك يتاح لك أن ترعى شامة الحسن النابتة فوق سرتها:

ـ كيف حال الشامة المحبوبة؟

تساءل وهو يشير إلى بطنه باسما، فقالت ضاحكة:

ـ تبوس يدك..

فألقى نظرة زائغة على المكان، وقال:

ـ أترين هؤلاء الناس، ما منهم إلا فاسق وابن فاسق، هكذا كل السكيرين..

ـ تشرفنا، أما أنا فمخى يتطاير..

ـ أرجو أن يطير الجزء الذى يقيم فيه رفيقك..

ـ آه لو علم بما هو حاصل لنا! سوف يطعنك يوما بفردة شاربه.

ـ أهو شامى من ذوى الشوارب الجبارة و...

ـ شامى؟!.. (ثم ترنمت بصوت مسموع) برهوم يا برهوم.

ـ هس، لا تلفتى إلينا الأنظار..

ـ أى أنظار يا أعمى! لم يبق إلا نفر قليل..

وهو يسمح على بطنه نافخا:

ـ الخمر مجنونة..

ـ المجنونة أمك..

ـ صوتك يعلو أكثر مما ينبغى، قومى بنا..

ـ إلى أين؟

ـ عمرك أطول من عمرى، لندع الأمر إلى قدمينا..

ـ هل يفلح من يترك قياده إلى قدميه؟

ـ إنها آمن على كل حال من مخ مبعثر..

ـ فكر قليلا فى...

فقاطعها وهو ينهض مترنحا:

ـ علينا أن ندبر أمورنا بلا تفكير؛ لأن التفكير لن يذعن لنا قبل صباح الغد، قومى بنا..

٢٦

أسبلت المساكن جفونها، وأقفرت الطرقات إلا من نسمة شاردة أو ضوء مصباح مهوم، أما الصمت فقد خلا له الجو فتاه ونشر جناحيه، وما جدوى الفنادق إذا كان أصحابها لا يلقونك إلا بالنظرة الشزراء، كأنك مرض يترنح فهم يجتنبوه، أجل إنك تلاقى الإعراض بالازدراء ولكن ستظل بلا مأوى، وقد ضم الرقاد العاشقين فإلام تهيم على وجهك، وها هو حوذى يرفع رأسه المثقل بالنعاس ويرنو إليك بنظرة ترحاب، فوارحمتاه للذى يسحب المرأة فى أذيال الليل وهو يتساءل إلى أين . . ؟

ـ إلى أين؟

أجاب الحوذى باسما :

ـ تحت الأمر . .

فقال له ياسين :

ـ لم أقصدك بسؤالى . .

فقال الرجل :

ـ تحت الأمر على أى حال . .

عند ذاك قالت زنوبة :

ـ لا تسألنى أنا سل نفسك، لِم لَمْ تفكر فى ذلك قبل أن تسكر؟!

عاد الحوذى يقول متشجعًا بوقوفهما أمام العربة :

ـ النيل! أحسن مكان، هل أذهب بكما إلى شاطئ النيل؟

فتساءل ياسين محتدا :

ـ أحوذى أنت أم نوتى؟! ماذا نفعل عند النيل فى هذا الوقت من الليل؟! قال الحوذى بإغراء :

ـ هنالك النور ضئيل والمكان خال . .

ـ جو مناسب لقطاع الطرق!

زنوبة بخوف :

ـ يا خبر أسود، أذناى وعنقى وساعداى محملة بالذهب!

فقال الحوذى وهو يهز منكبيه :

ـ الدنيا بخير ، أنا كل ليلة أذهب إلى هناك بأناس طيبين مثلكما ، ونعود على أحسن حال . .

زنوبة بحدة :

ـ لا تذكر النيل على لسانك ، إن بدنى يقشعر لذكره !

ـ بعد الشر عن بدنك . .

صاح ياسين وكان قد اتخذ مجلسه فى العربة إلى جانب زنوبة :

ـ كلمنى أنا ، مالك أنت وبدنها !

ـ يا بك أنا خدامك . .

ـ الليلة كل شىء متعقد . .

ـ ربنا يحل عسيرها ، إن أردت فندقا ذهبنا إلى فندق . .

ـ تشاجرنا فى ثلاثة فنادق ، ثلاثة أم أربعة يا زنوبة؟ شفت غيرها . .

ـ نرجع إلى النيل . .

زنوبة بغضب :

ـ الذهب يا عمر . . !

ياسين وهو يطرح ساقيه على المقعد الخلفى :

ـ فضلاً عن أنه ليس هناك مكان . .

فقال الحوذى :

ـ أما عن المكان فلديك العربة . .

هتفت زنوبة :

ـ هل أنذرتما مضايقتى؟

فقال ياسين وهو يفتل شاربه :

ـ لك حق ، لك حق ، ثم إن العربة مكان غير صالح ، ولن أرضى بعبث الأطفال على آخر الزمن ، اسمع . .

مد الرجل أذنه ، فصاح ياسين بنفخة آمرة :

ـ إلى قصر الشوق !

طق طق طق طق ، تخوض الظلمات ولا أنيس إلا النجوم ، فى الأفق قلق يلوح ، ثم لا يلبث أن يغرق فى بحر النسيان كالذكرى المستعصية ، ذلك أن الإرادة ذائبة فى كأس من

الخمر، وإذا رفيقة الهناء تساءلت بلسان ملعثم عن: أين يقصد فى قصر الشوق؟ أجاب إلى بيتى الذى ورثته عن أمى، قضت مقادير بأن تعيش فيه للغرام وأن توقفه بعد مماتها على الغرام، استقبل بقلب شيق أم مريم ومريم، والليلة يحتضن سيدة الليالى الخوالى، وزوجك أيها السكران؟ فى النوم مغرقة، أليس لكل شىء حساب؟.. وأنت مع رجل لا يعرف الخوف قلبه، اقطفى من لآلئ النجوم ما ترصعين به جبينك، وغنى فى أذنى وحدى: هاتيلى حبى يا نينة الليلة..

ـ وأين أقضى بقية الليل..؟

ـ سأوصلك إلى حيث تريدين..

ـ لن تستطيع أن توصل قشة.

ـ باريس فى الوجه البحرى..

ـ لولا أنى أخافه!

ـ من هو؟!

بصوت منكسر وهى تلقى برأسها إلى الوراء:

ـ من يدرينى؟ نسيت..

غشى الجمالية ظلام دامس، حتى القهوة أغلقت أبوابها، وقفت العربة عند مدخل قصر الشوق فغادرها ياسين وهو يتجشأ، وتبعته زنوبة معتمدة على ذراعه، ثم مضيا معا فى حذر لم يغن عن الترنح، يتعقبهما سعال الحوذى وأطيط حذاء الخفير الذى مر بالعربة وهى تدور مستطلعا، وقالت له: إن الطريق وعر، فقال لها: لكن الدار أمان، وقال لها أيضا: لا تشغلى البال. وعبثا حاولت أن تذكره بأن زوجه فى الشقة التى إليها يسعيان، فضلا عن أنها كانت تحاول تذكيره وهى تبتسم فى الظلام ابتسامة بلهاء، وكادت قدمها تعثر مرتين وهى ترقى السلم، حتى وقفا أمام الشقة وهما يلهثان، بعثت رهبة الموقف فى شعورهما المبعثر يقظة عابرة حاولت أن تلم شتاته بقبضة وانية، فأدار المفتاح فى القفل بحذر ثم دفع الباب برفق بالغ، وبحث فى الظلام عن أذن زنوبة حتى عثر عليها، فمال نحوها وهمس أن تخلع الحذاء، وفعل مثلها، ثم تقدمها خطوة فوضع راحتها على كتفه ثم مضى إلى حجرة الاستقبال لقاء المدخل، ثم دفع بابها وانسل إلى الداخل وهى فى أثره. تنهدا معا بارتياح، ورد الباب ثم قادها إلى الكنبة وجلسا معا، قالت متضايقة:

ـ الظلام شديد، أنا لا أحب الظلام!

فقال وهو يضع الحذاءين تحت الكنبة:

ـ ستألفينه بعد قليل..

ـ بدأ مخى يدور!

ـ الآن فقط؟!

وقام فجأة دون أن يلقى إلى ما أجابت به بالا وهو يهمس فى ارتياع :

ـ لم أغلق الباب الخارجى . .

ومد يده ليخلع طربوشه فهتف :

ـ نسيت الطربوش أيضا! فى العربة يا ترى أم فى توفابيان؟

ـ الطربوش فى داهية، أغلق الباب يا عمر . .

تسلل مرة أخرى إلى الصالة، ثم إلى الباب الخارجى فأغلقه بحذر شديد، وفى طريق عودته خطرت له فكرة مغرية، فاتجه نحو الكنصول وهو يمد يده أمامه رائدة لتقيه الاصطدام بكرسى السفرة، ثم عاد إلى حجرة الاستقبال قابضا على زجاجة كونياك مملوءة حتى نصفها، وضع الزجاجة فى حجرها وهو يقول :

ـ جئتك بدواء لكل شىء . .

فتحسست يداها الزجاجة، وقالت :

ـ خمر؟! . . حسبك! أتريد أن نطفح؟!

ـ جرعة نسترد بها أنفاسنا بعد هذا الجهد!

شرب حتى ظن أنه قادر على كل شىء، وأن الجنون حال تستطاب، وهاج البحر فعلاً مع موجه وسفل ثم دار فى دوامة ما لها من قرار، وسلت فى أركان الحجرة ألسنة تنطق فى الظلماء لغوا وهذرا، وتند عنها ضحكات معربدة، فى ضجة كضوضاء السوق حتى الغناء جرى فى أثيرها، وهوت الزجاجة على الأرض فأحدثت صوتا كالنذير، ولكن كان أمامه شوط عليه أن يقطعه ولو فى بحر من العرق، طال الوقت أم قصر فليس الزمان فى حسبانه، لذلك تحرك الظلام وشاب إهابه والجفون المغلقة عنه غافلة، وكما يستيقظ الحالم السعيد وهو يمد اليد ليقطف لذة جديدة استيقظ هو على صوت وحركة، فتح عينيه فرأى نورا وظلا يتراقص على الجدران، وثنى رقبته فلمح عند الباب مريم قابضة على مصباح قد جلا من وجهها ملامح عابسة وعينين تشعان شرر الغضب. تبودل بين المنطرحين على الكنبة والواقفة عند الباب نظرات طويلة غريبة، زائغة بالذهول من ناحية مستعرة بالغضب من الناحية الأخرى، ثم لم يعد الصمت مما يستطاع. أعربت زنوبة عن قلقها بأن فتحت فاها لتتكلم ولكنها لم تقل شيئا، ثم غلبها بغتة ضحك طارئ فأغرقت فيه حتى اضطرت إلى إخفاء وجهها بكفيها، وإذا بياسين يصيح بها بلسان ثقيل :

ـ كفى عن الضحك! . . هذا بيت محترم!

وبدا أن مريم أرادت أن تتكلم فلم يسعفها لسانها أو أعجزها الغضب، فقال لها ياسين ولم يكن يدرى ماذا يقول :

ـ وجدت هذه «الست» فى حالة سكر شديد، فجئت بها إلى هنا حتى تفيق . .

ولم تسكت زنوبة، فقالت معترضة :

ـ هو السكران كما ترين، وقد جاء بى بالقوة!

ندت عن مريم حركة خطيرة كأنما همت بأن تقذفهما بالمصباح، فتصلبت قامة ياسين ونظر إليها متحفزا، ولكنها سرعان ما تراجعت متأثرة بخطورة الإقدام، فوضعت المصباح على منضدة وهى تصر على أسنانها بحنق، ثم تكلمت لأول مرة وكان صوتها جافًا متهدجا مخشوشنا بالحقد والغضب، قالت :

ـ فى بيتى! فى بيتى؟! فى بيتى يا مجرم يا بن الشياطين!

ودوى صوتها كالرعد يصب عليه اللعنات وينعته بكل خبيث، صرخت وصوتت حتى شوق صوتها الجدران، ونادت السكان والجيران وهى تحلف لتفضحنه وتشهد عليه النائمين. وكان ياسين ينذرها بشتى الوسائل ليسكتها، لوح لها بيده وحملق فيها بعينيه، وصاح بها مزمجرا، فلما خابت وسائله نهض منفعلا واتجه نحوها بخطوات واسعة ليبلغها فى أقصر وقت دون اندفاع خشية أن يختل توازنه، ثم انقض عليها مسددا راحته إلى فيها ليسده، ولكنها صرخت فى وجهه كالهرة اليائسة وركلته بقدمها فى بطنه، فتراجع مترنحا مكفهر الوجه من الحنق والألم ثم سقط على وجهه كالبنيان المتهدم، انطلقت من زنوبة صرخة مدوية فجرت مريم نحوها وارتمت عليها، وجذبت شعرها بيمناها وأنشبت أظافرها الأخرى فى عنقها وجعلت تبصق فى وجهها وهى تسب وتلعن، وما لبث ياسين أن نهض ثانيا هازا رأسه بعنف كأنما ليطرد عنه الخمار، فتحول إلى الكنبة وسدد نحو ظهر زوجه الراقدة فوق غريمتها قبضة شديدة فصرخت مريم وتراجعت زائغة عنه، فتبعها وقد أعماه الغضب موجها إليها ضربات متتابعة حتى فصلت بينهما السفرة، وعند ذاك تناولت الشبشب من قدمها وقذفته به فأصاب صدره فجرى نحوها، وراحا يدوران فى الصالة وهو يصيح بها «اغربى عن وجهى، أنت طالقة . . طالقة . . طالقة . . » . وإذا بيد تنقر الباب وصوت الجارة المقيمة فى الدور الثانى ينادى «ست مريم . . ست مريم»، فتوقف ياسين عن الجرى وهو يلهث، أما مريم ففتحت الباب وبادرت تقول بصوت ملأ السلم كله :

ـ تعالى انظرى داخل الحجرة وخبرينى هل رأيت مثل هذا من قبل؟! عاهرة فى بيتى تسكر وتعربد، ادخلى وانظرى .

فقالت الجارة باستحياء :

ـ هدئى نفسك يا ست مريم، تعالى معى حتى الصباح . .

هتف ياسين دون مبالاة :

ـ اذهبى معها، لا حق لك فى البقاء فى بيتى . .

فصرخت مريم فى وجهه :

ـ يا فاسق، يا مجرم، تجيئنى بعاهرة فى بيت الزوجية . .

فضرب الجدار بقبضته وصاح بها :

ـ أنت العاهرة، أنت وأمك . .

ـ تسب أمى وهى بين يدى الله!

ـ أنت عاهرة، أنا أعلم ذلك عن يقين، ألا تذكرين الجنود الإنجليز؟! الحق علىّ لأنى لم أستجب إلى تحذير الناس الطيبين!

ـ أنا ستك وتاج رأسك، أنا أشرف من أهلك ومن أمك، سل نفسك عن الرجل الذى يتزوج امرأة وهو يعلم أنها عاهرة كما قلت! هل يكون إلا قوادا خسيسا؟! . . (وهى تشير إلى حجرة الاستقبال) . . تزوج من هذه، إنها من النوع الذى يوافق مزاجك القذر . .

ـ كلمة أخرى، ويسيل دمك حيث تقفين . .

ولكن حنجرتها عادت تصرخ وتقذف اللهب حتى تدخلت الجارة لتحول بينهما إذا دعا داع، وجعلت تربت منكبها متوسلة إليها أن تمضى معها حتى يطلع الصبح، واشتد الضيق بياسين فصاح بها :

ـ خذى ثيابك واخرجى، أبعدى عن وجهى، لا أنت زوجى ولا أنا أعرفك، أنا داخل الحجرة الآن وإياك أن أجدك إذا عدت . .

واندفع إلى حجرة الاستقبال ودفع الباب وراءه دفعة عنيفة ارتجت لها الجدران، ثم ارتمى على الكنبة وهو يجفف عرق جبينه، همست زنوبة قائلة :

ـ إنى خائفة . .

فقال بخشونة :

ـ اسكتى، مم تخافين؟! . . (ثم بصوت مرتفع) أنا حر . . أنا حر . . فقالت وكأنها تخاطب نفسها :

ـ ماذا أصابنى فى عقلى حتى طاوعتك وجئت معك إلى هنا؟

ـ اسكتى! . . ما كان كان ولست آسفا على شىء . . أف . .

وترامت إليهما الأصوات خلال الباب المغلق، فدلت على أن أكثر من جارة قد أحاطت بالزوجة الغاضبة، ثم سمع صوت مريم وهى تقول بلهجة باكية :

ـ هل سمعتم عن هذا من قبل؟ عاهرة من عرض الطريق فى بيت الزوجية؟ استيقظت

على ضوضائهما وهما يضحكان ويغنيان! إى والله كانا يغنيان بلا حياء بعد أن أذهلهما السكر، خبرونى أهذا بيت أم ماخور؟!

وإذا بصوت امرأة تقول محتجة:

ـ أتجمعين ثيابك وتغادرين بيتك؟! هذا بيتك يا ست مريم ولا يصح أن تغادريه، فلتغادره الأخرى..

فهتفت مريم:

ـ لم يعد بيتى، لقد طلقنى المحترم!

فقالت أخرى:

ـ لم يكن فى وعيه، تعالى الآن معنا ولنؤجل الحديث إلى الصباح، ومهما يكن من أمر فياسين أفندى رجل طيب وابن ناس طيبين، لعنة الله على الشيطان، تعالى يا بنتى ولا تحزنى..

فصاحت مريم:

ـ لا كلام ولا حساب، لا طلع الصباح عليه المجرم ابن المجرمة..

ثم تتابع وقع الأقدام مبتعدا حتى لم يعد يسمع من المتحدثات إلا أصوات مبهمة، ثم دوت صفقة الباب وهو يغلق. نفخ ياسين طويلا ثم استلقى على ظهره..

٢٧

عندما فتح عينيه كان نور الضحى قد ملأ الحجرة، وجد فى رأسه ثقلا لا عهد له به رغم أنها لم تكن أول مرة يستيقظ بعد ليلة مخمورة، وبحركة من رأسه غير مقصودة وقعت عيناه على زنوبة وهى تغط فى نومها إلى جانبه هنالك استعادت ذاكرته حوادث الليلة الماضية فى لقطة واحدة: زنوبة فى فراش مريم، ومريم؟! عند الجيران، والفضيحة؟! فى كل مكان، يا لها من وثبة جبارة فى هاوية التدهور! ما جدوى الغضب أو الندم الآن؟ ما كان كان وكل شىء قد يتغير إلا أمس، أيوقظها؟ ولكن لم؟ فلتمتلئ نوما حتى تشبع، ولتبق حيث هى فما ينبغى أن تغادر البيت قبل أن يقبل الظلام، ولم يكن بد من استعادة شىء من حيويته ليلاقى به يومه العسير، فأزاح الغطاء الخفيف عن جسمه وانزلق إلى أرض الغرفة ثم مضى إلى الخارج ثقيلا منفوش الشعر منتفخ الجفون محمر العينين. تثاءب فى الصالة بصوت كالخوار ثم نفخ وهو ينظر إلى باب حجرة الاستقبال المفتوح ثم أغمض عينيه متأوها من ثقل رأسه وقصد إلى الحمام. أمامه يوم

عسير حقا، مريم عند الجيران والأخرى محتلة فراشها وقد أدركها النهار قبل أن يخفى آثار جريمته، فيا للجنون! كان يجب أن يسربها قبل أن يأوى إلى فراشه فكيف توانى عما يجب؟! أى غاشية غشيته؟! بل ومتى وكيف مضى بها من حجرة الاستقبال إلى حجرة النوم؟! إنه لا يذكر شيئا، لا يذكر حتى كيف ومتى استجاب للنوم؟ والجملة أنها فضيحة كبرى بلا ثمن، وليلة بريئة ولكنها مثقلة بالعار مثل رأسه المثقل بالهم والصداع . . ولكن لا عجب فهذه الشقة مسكونة من قديم بشياطين الفضائح، تركة أمّ غفر الله لها، مضت الأم وبقى الابن ليكون مضغة الأفواه ونادرة السكان والجيران وغدا تهرع الأنباء إلى بين القصرين . . فإلى الأمام! قرار هاوية سحيقة من العربدة والسفالة فليت هذا الماء البارد الذى تغتسل به يطهر النفس من ذكريات السوء، ومن يدرى فلعلك إذا أطللت من النافذة وجدت أمام بابك لمة ترصد خروج المرأة التى طردت الزوجة واحتلت مكانها، كلا لن تسمح لها بالخروج مهما يكن من أمر، أما مريم فقد طلقتها! طلقتها وما أردت ذلك وأمها لم يجف ماؤها فى قبرها بعد، فماذا يقول عنك الناس أيها المفترى؟! وشعر بحاجة ماسة إلى فنجان قهوة ينعش به حواسه، فغادر الحمام إلى المطبخ، وفى أثناء عبوره الدهليز الذى يفصل بينهما لمح الكنصول فى الصالة فذكر زجاجة الكونياك المهراقة فى غرفة الاستقبال، وتساءل لحظة عما أصاب السجادة، ثم ذكر فى اللحظة التالية وفى أسف ساخر أن أثاث الشقة كله لم يعد ملكه وأنه سيلحق عما قليل بصاحبته، وبعد دقائق معدودات كان يحمل كوبا مملوء حتى نصفه بالقهوة ويسير نحو حجرة النوم، وهنالك وجد زنوبة جالسة فى الفراش تتمطى وتتثاءب، فالتفتت نحوه وقالت:

ـ صباحنا خير، وإن شاء الله نغير ريقنا فى القسم!

فرشف رشفة وهو ينظر إليها من فوق الكوب، ثم قال:

ـ قولى يا فتاح يا عليم . .

فلوحت بيديها حتى وسوست الأساور الذهبية حول ساعديها، وقالت:

ـ أنت السبب فى كل ما حصل . .

فجلس على حافة السرير فيما يلى ساقيها الممدودتين، وقال بضيق:

ـ محكمة! هه؟! قلت لك قولى يا فتاح يا عليم!

فربتت سلسلة ظهره بكعب قدميها، وهى تقول متأوهة:

ـ خربت بيتى، الله وحده يعلم ما ينتظرنى هناك . .

فوضع ساقا على ركبته حتى انحسر الجلباب عن الأخرى فبدت مكتنزة مغطاة بغابة من الشعر الفاحم، وقال:

ـ رفيقك؟ خيبة الله عليه! ما يكون هذا إلى طلاق زوجى؟! أنت التى خربت بيتى، وبيتى أنا الذى خرب . .

قالت وكأنها تحدث نفسها :

ـ ليلة سوداء لم أعرف لى فيها رأسا من قدمين، لا تزال الضوضاء تدوى فى رأسى، لكن الحق علىّ، ما كان ينبغى لى أن أطاوعك من بادئ الأمر . .

خيل إليه أنها راضية رغم تشكيها، أو أنها تدعى التشكى ادعاء، ألم يعرف فى الأزبكية نساء يتباهين بكل عراك دموى ينشب من أجلهن؟! على أنه لم يغضب، كانت الأمور قد بلغت حد اليأس فأعفته من مشقة النهوض لمعالجتها، فلم يملك إلا أن يضحك وهو يقول :

ـ شر البلية ما يضحك! اضحكى، خربت بيتى واحتللته، قومى فأصلحى من شأنك واستعدى لإقامة طويلة حتى يقبل الليل، لن تغادرى البيت حتى يأتى الليل . .

ـ يا خبر أسود! سجينة! أين زوجك؟

ـ لم يعد لى زوجة . .

ـ أين هى؟

ـ فى المحكمة الشرعية إن صدق ظنى . .

ـ أخاف أن تعتدى علىّ عند خروجى . .

ـ تخافين؟! ربنا يرحمنا! إن ليلة أمس على فظاعتها لم توهن من مكرك وخبثك يا بنت أخت زبيدة!

ضحكت ضحكة طويلة فبدا أنها تقر بالتهمة الموجهة إليها، وفى مباهاة أيضا، ثم مدت يدها إلى كوب القهوة فتناولته واحتست قليلا منها، ثم ردتها إليه وهى تتساءل :

ـ والآن؟

ـ كما ترين، لا علم لى أكثر منك، ولكن يحز فى نفسى أن أنكشف أمام الناس كما انكشفت فى الليلة الماضية . .

هزت منكبيها فى استهانة قائلة :

ـ لا تهتم بذلك، ما من رجل إلا ويخفى تحت ذقنه مخازى تضيق عنها الأرض .

ـ رغم هذا فالفضيحة فضيحة، تصورى الشجار والعويل والطلاق عند الفجر! تصورى الجيران وقد فزعوا إلى شقتى مستطلعين فرأت أعينهم كل شىء .

قطبت قائلة :

ـ كانت هى البادئة!

لم يملك أن ضحك ضحكة ساخرة، فعادت تقول بإصرار:

ـ كانت تستطيع أن تعالج الأمور بحكمة لو كانت عاقلة، الغرباء فى الطريق يتسامحون مع السكارى المعربدين، هى التى جنت على نفسها بالطلاق، وماذا كنت تقول لها؟ . . يا عاهرة يا بنت العاهرة، هه؟ وكلام آخر عن الجنود الإنجليز . . ؟

تذكر هذا الآن فقط وهو يحدجها بنظرة محنقة متسائلا كيف رسخت هذه الألفاظ فى ذاكرتها، وغمغم فى ضيق:

ـ كنت غاضبًا لا أدرى ماذا أقول!

ـ إحم!

ـ إحم فى يافوخك!

ـ الجنود الإنجليز؟ . . هل جئت بها من بار فنشى؟!

ـ أستغفر الله، إنها بنت ناس وجيران العمر، ولكنه الغضب عليه ألف لعنة . .

ـ لولا الغضب ما انكشفت الأسرار!

ـ وحياة خالتك حسبنا ما نحن فيه . .

ـ خبرنى عن الجنود الإنجليز وخذ شعر رأسى . .

بصوت عال محتد:

ـ قلت إنه الغضب وكفى . .

شهقت ساخرة، ثم قالت:

ـ أتدافع عنها؟ . . اذهب فاستردها . .

ـ ملعون أبو البارد الذى لا يستحى . .

ـ ملعون أبوه . .

غادرت الفراش إلى المرآة فتناولت مشط مريم، وراحت تمشط شعرها بعجل وهى تتساءل:

ـ ما عسى أن أفعل لو قطع الرجل علاقته بى؟

ـ قولى له مع السلامة، أما بيتى فمفتوح لك على الدوام . .

فالتفتت إليه قائلة بلهجة أسيفة:

ـ أنت لا تفقه معنى ما تقول! كنا بسبيل التفكير الجدى فى الزواج.

ـ الزواج!، وهل مازلت تفكرين فيه بعد ما رأيت من أحواله فى الليلة الماضية؟!

قالت فى دهاء :

ـ أنت لا تفهمنى ! لقد ضقت ذرعا بالحياة الحرام، ليس وراءها إلا البوار، إن مثلى إذا تزوجت قدَّرت الحياة الزوجية خير قدرها !

من المغفل يا ترى؟ ! التخت لم يكن يعدها بأكثر من عوادة، وحياة الهوى ليس وراءها بعد الثلاثين ـ وستبلغها قريبا ـ إلا التلف، فالزواج هو الأمل الموعود، هل تقصدك بهذا الحديث؟ . . ما ألذ الشيطانة ! لا أنكر أننى أريدها، أريدها بكل قوة، وفضيحتى تشهد على ذلك . .

ـ أتحبينه؟

كالغضبة :

ـ لو كنت أحبه ما وجدتنى الآن سجينة هنا !

اهتز صدره حنانا رغم ارتيابه فى صدقها، أجل إذا لم يكن يعرف الإخلاص قلبها أبدت له ميلا لا شك فيه :

ـ لا غنى لى عنك يا زنوبة، فى سبيلك ارتكبت جنونا غير مبال بالعواقب، أنت لى وأنا لك من قديم الزمان .

وساد الصمت، بدت كأنها تنتظر مزيدا على لهف، ولكنه لم ينبس فقالت :

ـ هل أقطع أسبابى بذلك الرجل؟ لست من اللاتى يستطعن أن يجمعن بين رجلين . .

ـ من هو؟

ـ تاجر من ناحية القلعة يدعى محمد القللى . .

ـ متزوج؟

ـ وله أولاد، ولكنه كثير المال . .

ـ وعدك بالزواج؟

ـ يغرينى به، ولكننى مترددة، لأن ظروفه وكونه زوجا وأبا مما ينذر بالمتاعب . .

احتمل مكرها من أجل جمال عينيها .

ـ لم لا نعود كما كنا؟ . . لست فقيرا على أى حال . .

ـ لا يعنينى مالك، ولكن ضقت بحياة الحرام !

ـ والعمل؟

ـ هذا ما أسأل عنه . .

ـ أفصحى . .

ـ قلت ما فيه الكفاية . .

يا له من هجوم غير متوقع، أجل إنه يبدو أول ما يبدو مضحكا، غير أنه يريدها فلا يسعه أن يرد على الهجوم بمثله، قال بعد صمت:

ـ لا أخفى عنك أنى بت أتطير من الزواج . .

ـ كما أتطير من الحرام . . !

ـ لم تكونى كذلك أمس!

ـ كان فى قبضة يدى زوج، أما اليوم . . !!

ـ قليل من المرونة حتى نتلاقى، شىء واحد لا ينبغى أن يغيب لك عن بال، وهو أنى مهما تطل بى عشرتك فلن أتخلى عنك . .

فهتفت محتدة:

ـ سوابقك تشهد على صدقك . .

فقال بلهجة جدية يدارى بها ضعف مركزه:

ـ الإنسان لا يتعلم بلا ثمن . .

ـ لم تعد تغرر بى الأقوال، آه منكم يا رجال!

ومنكن يا نساء أليس ثمة آه؟! يا بنت أخت زبيدة رحمتك، جاءت بعد منتصف الليل سكرى وفى الصباح ضاقت بالحرام، لعلها قالت لنفسها: إذا كانت زوجه الثانية عاهرة فلم لا أكون زوجه الثالثة؟! هان ياسين، أنسيت ما ينتظرك فى الخارج من المتاعب؟ دع المتاعب تنتظرك ولكن لا تفقد زنوبة بكلمة نابية، كما فقدت مريم، مريم؟! الآن كفرت عن ذنبى يا أخى، قال بهدوء:

ـ يجب ألا ينقطع ما اتصل بيننا . .

ـ بيدك انقطاعه واتصاله . .

ـ يجب أن نلتقى كثيرا ونفكر كثيرا . .

ـ من جانبى لا حاجة بى إلى تفكير جديد!

ـ فإما أن أقنعك برأيى، وإما أن تقنعينى برأيك . .

ـ لن أقتنع برأيك . .

وغادرت الحجرة وهى تدارى عنه ابتسامة فأتبع ظهرها المتأود نظرة استغراب، أجل كل شىء يبدو غريبا، ولكن أين مريم؟ وحيدة على أى حال ولن تذوق نفسه الراحة والسلام، وسيسأل غدا فى بين القصرين وبعد غد فى المحكمة الشرعية، ولكن كانت حياتهما فى الأيام الأخيرة نضالا متواصلاً، حتى قالت له بصريح العبارة: كرهتك وكرهت عيشتك، لم أخلق كى أوفق فى الزواج، أهكذا كانت حياة جدى؟ إنى أشبه الأسرة به فيما يقال، ورغم هذا كله تريد المجنونة أن تتزوج منى . .

٢٨

كانت الشمس تؤذن بالمغيب عندما عبر السيد أحمد عبد الجواد القنطرة الخشبية المؤدية إلى العوامة، ودق الجرس ففتح الباب بعد قليل عن زنوبة فى فستان من الحرير الأبيض نمت شفافيته عن محاسن جسدها، فلما رأته هتفت:

ـ أهلا. . أهلا، قل ماذا فعلت أمس؟ تصورت حضورك ودق الجرس دون نتيجة ووقوفك حينا ثم ذهابك. . (وهى تضحك) ووساوسك، قل ماذا فعلت؟

بالرغم من أناقة مظهره والعرف الطيب الذى يتطاير منه بدا وجهه متجهمًا وعيناه جامدتين تعكس حدقتاهما استياء، سأل قائلاً:

ـ أين كنت أمس؟

فتقدمته إلى حجرة الجلوس وتبعها حتى وسط الحجرة بين نافذتين مفتوحتين على النيل ولم يجلس، أما هى فجلست على مقعد بين النافذتين وهى تتظاهر بالهدوء والثقة والابتسام، ثم قالت:

ـ خرجت ـ كما تعلم ـ أمس لأستبضع، فقابلت فى بعض الطريق ياسمينة العالمة فدعتنى إلى بيتها، وهنالك أبت علىّ أن أنصرف، وما زالت بى حتى أجبرتنى على المبيت عندها، لم أكن رأيتها منذ انتقلت إلى هذه العوامة، لو سمعتها وهى تطعن فى وفائى وتسألنى عن سر الرجل الذى أنسانى عشيرتى وجيرانى!

صادقة أم كاذبة؟، هل عانى آلام أمس واليوم بلا سبب حقا؟ إنه لا يربح مليما ولا يخسر مليما بلا سبب، فكيف عانى تلك الآلام المروعة بلا سبب؟! دنيا ماكرة. . غير أنه على استعداد لأن يلثم ترابها إذا صح عنده صدق هذه الشيطانة، فليصح له صدقها ولو يفقد ما بقى من عمره، هل آن له أن يثوب إلى رشده؟ مهلاً. .

ـ متى عدت إلى العوامة؟

فرفعت ساقها حتى مستوى المقعد، وراحت تتأمل شبشبها البمبى ذا الوردة البيضاء وأصابعها المخضبة بالحناء، ثم قالت:

ـ هلا جلست أولا وخلعت طربوشك لأرى مفرق شعر رأسك؟ عدت يا سيدى مع الضحى. .

ـ كذابة!

انطلقت من فيه كالرصاص مفعمة غضبا ويأسا، ثم استطرد قائلا فى عنف قبل أن تفتح فاها:

ـ كذابة، لم تعودى مع الضحى ولا مع العصر، لقد جئت إلى هنا أثناء النهار مرتين فلم أجدك..

وجمت قليلا ثم قالت بلهجة جمعت بين التسليم والضجر:

ـ الحق أنى عدت قبيل المغرب، منذ ساعة تقريبا، لم يكن ثمة ما يدعونى على اختلاق الكذب لولا أنى لمحت فى عينيك استياء لا أساس له فأردت أن أزيله، الحق أن ياسمينة ألحت علىّ فى الصباح كى أتسوق معها، ولما علمت بانفصالى عن خالتى عرضت علىّ أن أنضم إلى تختها على أن تنيبنى عنها فى بعض الأفراح، وطبعا لم أوافق، لسابق علمى بأنك لن ترضى عن سهرى مع التخت، المقصود إنى بقيت معها لعلمى بأنك لن تجىء إلى هنا قبل التاسعة مساء، هذه هى الحكاية فاجلس وصل على النبى..

حكاية مختلقة أم صادقة؟ لو يطلع أصحابك على موقفك هذا؟ لشد ما تهزأ بك المقادير، على أنى أعفو على أضعاف هذا فى سبيل قطرة من الراحة، تشحذ الراحة وما اعتدت الشحاذة من قبل، هكذا هانت عليك نفسك أمام العوادة، كانت موكلة يوما بخدمتك تقدم لك فى مجلس الأنس الفاكهة وتنصرف فى صمت وأدب، إما الراحة أو فلتستعر نيران الجحيم.

ـ ياسمينة العالمة ليست فى جبال الواق، سوف أسألها عن حقيقة الحكاية.. قالت وهى تلوح بيدها فى استهانة واستياء:

ـ سلها كيفما بدا لك..

وغلبته أعصابه الثائرة المنهكة فجأة، فقال بعناد:

ـ سوف أسألها هذا المساء، إنى ذاهب إليها، الآن.. حققت لك كل رغباتك فينبغى أن تحترمى حقوقى كاملة..

وانتقلت إليها عدوى هياجه، فقالت بحدة:

ـ مهلا، لا ترمينى فى وجهى بالتهم، فقد اتسع لك حلمى حتى الآن، ولكن لكل شىء حد، أنا إنسانة من لحم ودم، فتح عينك وصل على أبى فاطمة!

تساءل فى ذهول:

ـ أبهذه اللهجة تخاطبيننى؟!

ـ نعم ما دمت تخاطبنى بمثلها!

اشتدت قبضة يده على مقبض عصاه وهو يهتف :

ـ أنا أستاهل ، فأنا الذى خلقت منك سيدة وهيأت لك حياة تحسدك عليها زبيدة نفسها !

واستفزها قوله فبدت كاللبؤة الهائجة ، وصاحت :

ـ خلقنى اللّه سيدة لا أنت ، لقد ارتضيت هذه الحياة بعد توسلاتك الحارة ، فهل نسيت هذا ؟ ! لست أسيرة أو عبدة لك ، تحقيق ومحضر ، ماذا تظن بى ؟ هل اشتريتنى بمالك ؟ إذا كانت حياتى لا تعجبك فليذهب كل منا إلى حال سبيله . .

يا رب السماوات أهكذا تستحيل الأظافر المدللة إلى مخالب ؟ إن كنت فى شك من الليلة البارحة فاستخبر هذه اللهجة الوقحة ، جنس نمرود ابتليت به فتجرع الألم حتى الثمالة ، انهل من الإهانة حتى تكتفى ، والآن ما جوابك ! بأعلى صوتك اصرخ فى وجهها : اخرجى إلى الطريق الذى التقطتك منه . اصرخ ، أجل اصرخ ، ماذا يمنعك ؟ ! لعنة الله على ما يمنعك ، خيانة القلب شر من ألف خيانة ، هذا هو ذل القلوب الذى كنت تسمع عنه وتهزأ منه ، شد ما أكره نفسى إذ تحبها . .

ـ تطردينني ؟ !

بنفس النبرات المحتدة الغاضبة :

ـ إذا كان معنى هذه الحياة أن تحبسنى هنا كالرقيق وأن ترمينى بالتهم كلما حلا لك ، فمن الخير لى ولك أن تنتهى . .

وأدارت عنه وجهها فتأمل عارضها وصفحة عنقها فى هدوء غير طبيعى بالذهول أشبه . أقصى ما أسأل اللّه من سعادة أن أنبذها دون مبالاة ، هى ذلك وحنقك ولكن هل تطيق أن تعود إلى هذا المكان فلا تجد لها من أثر ؟ !

ـ لم أكن شديد الثقة فى نبلك ، ولكنى لم أتصور أن يذهب بك الجحود هذا المذهب !

ـ تريدنى حجرا لا شعور له ولا كرامة !

أنت أحقر من هذا لو تعلمين !

ـ بل أريدك شخصا يعرف للجميل حقه وللعشرة حقها . .

مغيرة لهجتها من الغضب إلى السخط والتشكى :

ـ فعلت لك أكثر مما تتصور ، ارتضيت أن أهجر أهلى وعملى لأبقى حيث تريد ، حتى الشكوى كتمتها كى لا أكدر صفوك فلم أشأ أن أصارحك بأن «بعض الناس» يود لى حياة خير من هذه فلم ألق إليهم بالا !

أثمة متاعب أخرى لم تقع لى فى حسبان ؟ . . تساءل كالجريح :

ـ ماذا تعنين؟

فعكفت على أسورة ذهبية تديرها حول ساعدها الأيسر، وهى تقول:

ـ رجل محترم يريد أن يتزوجنى ويلح فى ذلك بلا ملل . .

الحرارة والرطوبة يخنقانك خنقا أما «العكننة» فقد فغرت فاها لتبتلعك، ما أسعد هذا الملاح الذى يطوى شراعه أمام النافذة!

ـ من هو؟

ـ رجل لا تعرفه. فسمه كيف شئت!

تراجع خطوة، ثم جلس على كنبة تتوسط مقعدين كبيرين، وشبك راحتيه فوق مقبض عصاه وهو يسألها:

ـ متى رآك؟ وكيف علمت برغبته؟

ـ كان يرانى كثيرا حينما كنت أقيم مع خالتى، وفى الأيام الأخيرة كان يحاول مكالمتى كلما صادفنى فى طريقه، ولكنى تجاهلته فحرض إحدى صديقاتى على إبلاغى رغبته، هذه هى الحكاية!

ما أكثر حكاياتك، عندما افتقدتك أمس قاتلنى ألم واحد، لم أفطن وقتذاك إلى كل هذه الآلام والمتاعب، اتركها إن استطعت، اهجرها فهجرها هو سبيل السلام. أليس الناس مخطئين فى تصورهم أن الموت شر ما يبتلون؟!

ـ أحب أن أعرف صراحة، هل تودين قبول هذا العرض؟

تركت ساعدها بحركة عصبية وشخصت إليه بوجهها فيما يشبه الكبرياء، ثم قالت بتوكيد:

ـ قلت لك إنى تجاهلته، يجب أن تفهم معنى ما أقول . .

يجب ألا تعود الليلة إلى فراشك بأفكار قاتلة حتى لا تتكرر ليلة أمس، غربل نفسك من الهواجس.

ـ صارحينى هل زارك أحد فى العوامة؟

ـ أحد؟! أى أحد تعنى؟ لم يدخل هذه العوامة أحد سواك . .

ـ زنوبة، إنى أستطيع أن أعرف كل شىء، لاتخفى عنى شيئا، صارحينى بكل كبيرة وصغيرة ولك عندى بعد ذلك العفو مهما يكن من أمرك . .

قالت محتجة غاضبة:

ـ إذا أصررت على الشك فى صدقى فخير لنا أن نفترق . .

أتذكر الذبابة التى رأيتها تحتضر فى صباح اليوم فى خيط العنكبوت؟!

ـ حسبنا دعينى أسألك الآن، هل قابلك هذا الرجل أمس؟!

ـ أخبرتك أين كنت أمس . .

نافخا على رغمه :

ـ لماذا تعذبيننى، وما حرصت على شىء حرصى على سعادتك؟

ضربت كفا بكف، كأنما قد كبر عليها شكه، ثم قالت :

ـ لم لا تريد أن تفهمنى؟ . . . إنى أرفض كل غال فى سبيلك!

ما أجمل هذه النغمة، المأساة أنها يمكن أن تصدر عن قلب فارغ، كالمغنى الذى يذوب فى نغمة حزينة شاكية وقلبة ثمل بالسعادة والفوز .

ـ إنى أشهد الله على قولك، صارحينى الآن : من يكون هذا الرجل؟

ـ ماذا يهمك منه؟ قلت لك إنك لا تعرفه، تاجر من غير حينا ولكنه كان يجلس من حين لآخر فى قهوة سى على . .

ـ اسمه؟

ـ عبد التواب ياسين، هل عرفته؟

اكتريت هذه العوامة لقضاء وقت سعيد، هل تذكر أوقاتك السعيدة؟! أيتها الدنيا هل تذكرين أحمد عبد الجواد الذى لم يكن يبالى شيئا؟ زبيدة . . جليلة . . بهيجة . . سليهن عنه، إنه بلا ريب غير هذا الرجل الحائر الذى اشتعل الشيب فى فوديه . .

ـ إن شيطان النكد هو أنشط الشياطين . .

ـ بل هو شيطان الشك لأنه يخلق من لا شىء . .

جعل ينقر الأرض بطرف عصاه، ثم قال بصوت عميق :

ـ لا أريد أن أعيش أعمى، كلا ولا شىء بقادر على أن يجعلنى أتهاون فى رجولتى وكرامتى، بالاختصار لا أستطيع أن أهضم مبيتك فى الخارج ليلة أمس . .

ـ رجعنا مرة أخرى!

ـ وثالثة ورابعة، لست طفلة، أنت امرأة ناضجة عاقلة، واليوم تحدثيننى عن ذلك الرجل!، هل غرَّك حقا وعده بالزواج منه؟

أجابت بكبرياء قائلة :

ـ إنى أعلم أنه لا يخدعنى، وآى ذلك أنه وعدنى بألا يقربنى حتى يعقد زواجه منى . .

ـ أترغبين فى هذا الزواج؟

قطبت فى استياء، ثم قالت بلهجة المتعجب :

ـ ألم تسمع ما قلت؟! إنى أعجب لما تبدى اليوم من كسل، لكن على أى حال لست الساعة كالعهد بك، أفق من الكدر الذى جلبته على نفسك بلا سبب واسمع منى للمرة الأخيرة: لقد تجاهلت الرجل ورغبته إكراما لك. .

رغب أن يعرف سنه ولكنه لم يدر كيف يصوغ السؤال، الشباب والكهولة أمور لم تجر له فى حساب من قبل، قال بعد تردد. .

ـ لعله من الأغرار الذين يلقون القول بلا تردد!

ـ ليس طفلا، إنه فى الثلاثين من عمره!

أى أنه يتأخر عنه بربع قرن، والتأخر مكروه إلا فى العمر، أما الغيرة فتقتلنا بلا حياء.

وعادت هى تقول:

ـ تجاهلته رغم أنه وعدنى بالحياة التى أتمناها!

يا بنت القديمة! فات زبيدة أن تتعلم منك الكثير!

ـ حقا؟

دعنى أصارحك بأنى لم أعد أطيق هذه الحياة. .

اذكر مرة أخرى الذباب والعنكبوت. .

ـ حقا!.

ـ أجل، أريد حياة مطمئنة فى ظل الحلال، أم ترانى مخطئة؟

جئت للتحقيق معها فأين تقف الآن؟ هى التى طردتك فمن أين لك هذا الحلم كله؟ اخجل من نفسك ما بقى لك من أيام، أتفهم ما تعنى إيماءاتها؟ ما أجمل الأمواج المتلاطمة فى ساعة المغيب! ولما طال به الصمت استطردت قائلة بهدوء:

ـ لن يغضبك هذا، أنت رجل تقى رغم كل شىء، فلا يمكن أن تحول بين امرأة وبين الحلال الذى توده، لا أود أن أكون بردعة لكل راكب، لست كخالتى، لى قلب مؤمن وأخاف الله، وقد صدق عزمى على هجر الحرام. .

استمع إلى قولها الأخير بدهشة وانزعاج، وجعل يتفحصها بحنق داراه بابتسامة باهتة، ثم قال:

ـ لم تحدثينى عن هذا من قبل، كنا حتى أول أمس على خير حال!

ـ لم أكن أدرى كيف أكاشفك بما فى نفسى. .

إنها تبتعد عنك بسرعة مخيفة خبيثة، يا خيبة الأمل، إنى مستعد أن أنسى ليلة أمس المشئومة. . أنسى شكى وألمى. . على أن تقلع عن هذا المكر الخبيث. .

ـ كنا نعيش فى سعادة ووئام، فهل هانت عليك العشرة؟!

ـ لم تهن ولكنى أريد أن أجعل منها شيئا أفضل ، أليس الحلال خيرا من الحرام؟!

تقلصت شفته السفلى محدثة ابتسامة لا معنى لها ، ثم قال بصوت خافت :

ـ الأمر بالنسبة لى مختلف جدا . .

ـ كيف؟!

ـ أنا زوج ، وابنى زوج ، وبناتى أزواج ، الأمر دقيق جدا كما ترين . . (ثم بلهفة) ألم نكن نعيش فى سعادة كاملة؟!

قالت بضجر :

ـ لم أقل لك طلق زوجتك وتبرأ من ذريتك! كثيرون هم الذين يجمعون بين أكثر من زوجة!

فقال بإشفاق :

ـ ليس الزواج فى مثل . . حالى مما يهون أمره ، أو يعرض فى حياة الإنسان بلا قيل وقال!

ضحكت ساخرة ، ثم قالت :

ـ كل الناس يعلمون أنك عشيق وأنت لا تبالى بهم ، فكيف تشفق من قيلهم وقالهم على زواج مشروع إن أردت الزواج . . ؟!

قال باسما فى ارتباك وضيق :

ـ قليل من الناس من اطلع على أسرارى ، إلى أن أهل بيتى هم أبعد الناس عن الشك فى أمرى . .

رفعت حاجبيها المزججين فى إنكار ، ثم قالت :

ـ هذا ظنك ، أما الحقيقة فلا يعلمها إلا الله ، أى سر يصان ووراءه ألسنة الناس؟! ثم استدركت غاضبة قبل أن يتكلم :

ـ أم لعلك لا ترانى أهلا للتشرف بالانتساب إليك؟!

أستغفر الله ، زوج زنوبة العوادة على سن ورمح!

ـ ما قصدت هذا يا زنوبة . .

فقالت باستياء :

ـ لن تخفى عنى حقيقة مشارعك طويلا ، سأعرفها غدا إن لم أعرفها اليوم ، فإن كان زواجى يعرك فمع السلامة . .

تجىء لتطردها فتطردك ، لم تعد تسألها أين كانت ولكنها تخيرك بين الزواج أو الذهاب ، ماذا أنت صانع؟ ماذا يبقيك بلا حراك؟ إنه القلب الخائن ، إن نزع عظامك من

لحمك أهون من هجر هذه العوادة، أليس من المحزن ألا تبتلى بهذا الحب الأعمى إلا على كبر؟!

تساءل فى عتاب:

- أهذا هو قدرى عندك؟

- لا قدر عندى لمن يأنف منى كأنى بصقة معدية!

قال بهدوء حزين:

- أنت أعز علىَّ من نفسى..

- كلام سمعنا منه الكثير..

- ولكنه صدق وحق..

- آن لى أن أعرف هذا من غير اللسان!

غض بصره فى كرب ويأس، لم يكن يدرى كيف يقبل ولم يكن بوسعه أن يرفض، وكان حرصه عليها من وراء ذلك يغله ويشتت فكره، قال بصوت خفيض:

- أعطنى مهلة كى أدبر أمرى..

فقالت بهدوء وهى تخفى ابتسامة ماكرة:

- لو كنت تحبنى حقا ما ترددت..

فقال بعجلة:

- ليس هذا، أعنى أمورى الأخرى..

وحرك يده كأنما يفسر بها قوله وإن كان لا يدرى على وجه التحديد ما تعنى فابتسمت قائلة:

- إذا كان الأمر كذلك فأنا رهن انتظارك..

فشعر براحة وقتية، كالراحة التى يجدها الملاكم الموشك على السقوط إذا أدركه الجرس المؤذن بانتهاء الجولة غير الأخيرة، وانبعثت فى نفسه رغبة إلى الترويح عن همه والتنفيس عن قلقه، فقال لها وهو يمد نحوها يده:

- تعالى على جانبى..

فتراجعت فى مقعدها إلى الوراء بإصرار وهى تقول:

- عندما يأذن اللّه..

٢٩

غادر العوامة يشق سبيله فى ظلام وسار وشاطئ النيل فى طريق مقفر متجها إلى جسر الزمالك. كان الهواء يهفو لطيفا فنفخ رأسه الملتهب، وبعث فى أغصان الأشجار الهائلة المتشابكة حركة وانية ند عنها هسيس كالهمس، وكانت تبدو فى الظلام كالكثبان أو السحب الجون، كلما رفع رأسه وجدها مطبقة عليه كالهم الجاثم على صدره، وهذه الأضواء المنبعثة من نوافذ العوامات هل تنبعث من بيوت خلت من الهم؟ ولكن ليس كهمك هم، ليس من يموت كمن ينتحر، وأنت بلا جدال قد وافقت على الانتحار. واصل السير، لم يكن أحب إليه وقتذاك من المشى ليريح أعصابه ويستعيد أفكاره قبل أن يمضى إلى الإخوان، وهنالك يخلو إليهم ويكاشفهم بكل شىء، لن يقدم على هذه الخطوة حتى يشاورهم وإن خمن سلفا ما سيقولون، ولكنه سيعترف أمامهم مهما كلفه الأمر، وإنه ليجد إلى مكاشفتهم رغبة دافعة كأنها استغاثة غريق يتخطفه الموج العاتى، لم يغب عنه أنه يعد فى حكم الموافق على الزواج من زنوبة، ولم ينكر شعوره الذليل بالرغبة فيها والحرص عليها ولكنه لم يتصور كيف يمكن أن يتحقق هذا فى صورة زواج رسمى ولا كيف يزف البشرى إلى الأهل والأبناء والناس جميعا. ومع أنه كان يريد أن يطيل المشى ما وسعه ذلك إلا أنه اندفع يسير بسرعة وفى خطوات واسعة وعصاه تضرب الأرض الترية كأنما يتعجل الذهاب إلى هدف ولا هدف له. تأبت عليه وصدته، هل تغيب عن تجربته وحنكته هذه الأساليب؟ . . ولكن الضعيف يقع فى الشرك وهو يدرى. ومع أنه استجد بالمشى والهواء النقى بعض الراحة إلا أنه لم يزل مشتت الفكر مشعث الوجدان، ولم تزل الأفكار تطرق رأسه بغير انتظام حتى لم يعد يحتمل حاله فخيل إليه أنه سيجن إن لم يحسم الأمر بحل ولو يكن الضلال نفسه.

فى هذا الظلام يستطيع أن يخاطب نفسه بلاتردد أو حياء، تحجبه الأغصان المتلاحمة عن السماء، وتوارى خواطره الحقول المترامية إلى يمينه، ويبتلع مشاعره ماء النيل الجارى إلى يساره، ولكن حذار من النور، حذار أن تكتنفه هالة منه فينطلق كعربة السيرك داعيا وراءه الغلمان وهواة العجائب، أما سمته وجلاله وكرامته فسلام الله عليها، كان ولم يزل ذا شخصيتين، يعيش بواحدة بين الإخوان والأحباب، ويطالع بالأخرى الأهل وسائر الناس، وهذه الأخيرة التى تمسك عليه جلاله ووقاره وتقرر له منزلة لا يطمع إليها أحد، وهى هى التى تتآمر نزواته عليها وتهددها بالفناء الأبدى. وتراءى له الجسر بمصابيحه الوهاجة فتساءل: إلى أين؟ . . بيد أنه رغب فى مزيد من الوحدة والظلام فمر

أمام الجسر إلى طريق الجيزة. ياسين! ذكره يرعبك، جبينك يحترق خجلا، لم ؟ سيكون أول من يفهمك ويتسامح معك أم تراه يشمت بك ويتندر؟ طالما زجرته وأدبته ولكن قدمه لم تنزلق بعد إلى مثل هاويتك؟ كمال؟ يجب أن تلقاه منذ الساعة بقناع غليظ أن يطلع على الذنب فى أساريرك، خديجة وعائشة؟ سينكس منهما الجبين فى بيت آل شوكت، زنوبة امرأة أبيك، زفاف يصفق له أهل المجون. فى صدرك غوايات فاختر مسرحا غير دنياك لها، هل ثمة مملكة ظلام بعيدا عن متناول البشر كى تمارس رذائلك فى سلام؟! غدا فلتنظر إلى نسيج العنكبوت لترى ماذا تبقى من الذبابة؟ استمع إلى نقيق الضفادع وزفرات الصراير، ما أسعد هذه الحشرات! كن حشرة لتسعد بلا حساب، أما فوق سطح الأرض فلن يسعك إلا أن تكون «السيد» أحمد، مر الليلة بأهل بيتك جميعا. . زوجك. . كمال. . ياسين. . خديجة. . عائشة. ثم كاشفهم بنيتك إن استطعت، وإن استطعت فاعقد زواجك بعد ذلك.

هنية! أتذكر كيف نبذتها على حبها؟ لم تحب امرأة كما أحببتها، ولكن يبدو ـ وا أسفاه ـ أننا نخسر العقول فى كهولتنا! لتشرب هذه الليلة حتى يرفعوك على الأعناق، ما أحنّه إلى الشراب، كأنك لم تشرب منذ عام الفيل، إن الآلام التى تجرعتها فى عامك هذا خليقة بأن تمحو حسنات السعادة التى تمتعت بها العمر كله.

ضرب بعصاه الأرض، ثم توقف عن السير، ضاق بالظلام والسكون والطريق الحاشد والأشجار وفزع قلبه إلى الإخوان، ليس هو بالذى يستطيع أن يخلو إلى نفسه طويلا، فما هو إلا عضو فى جماعة وجزء من كل، وهنالك تحل المشكلات كما اعتادت أن تحل. واستدار ليرجع إلى الجسر، وعند ذاك انتفض جسمه غضبًا وتقززا، فقال بصوت غريب تمزقه الشكوى والألم والحنق: «ليلة كاملة تبيتها فى الخارج. . فى مكان مجهول. . ثم توافق على الزواج منها!» وطئه إحساس ثقيل بازدراء النفس عصر جذعه وعصر قلبه. ياسمينة؟! . . يا للسخرية! بل أمضت ليلتها فى حضن الرجل الذى لم يزايلها حتى وافاهما عصر اليوم التالى، لبثت عنده وهى عالمة بمواعيد حضوره فماذا يعنى هذا؟! ليس إلا أن الغرام أنساها الوقت. يا جحيم الآخرة! أو أنك هنت للحد الذى لا تبالى عنده بغضبك، كيف حاورتها مسترضيا بعد ذلك أيها المسحور؟ وكيف تمضى حاملا وعد الزواج بها يا عار الدنيا والآخرة، كأنك لم تشعر بالقرن الذى ارتضيته من شدة ضغط الهم على رأسك، قرن تكلل به هامة أسرة لتخزى به جيلا بعد جيل، ما عسى أن يقول الناس عن هذا القرن فوق الجبين الأغر؟! إن الغضب والمقت والدم والدموع لا تكفى للتكفير عن استسلامك وضعفك، لشد ما تضحك منك الآن وهى مستلقية على ظهرها فى العوامة، ولعلها لم تغتسل بعد من عرق رجلها الذى سيضحك منك بدوره، لا ينبغى أن يطلع الغد وفم يضحك منك، اعترف بخورك واعرضه على

مائدة الإخوان لتسمع قهقهاتهم . . اعذروه كبر وخرف . . اعذروه فقد جرَّب كل شيء إلا متعة القرون! زبيدة: أبيت أن تكون سيدا فى بيتى وارتضيت أن تكون قوادا فى بيت عوادتى، جليلة: لست أخي ولا حتى أختى! إنى أشهد هذا الطريق الرهيب وهذا الظلام الكثيف وهذه الأشجار الهرمة على هرولتى فى الظلام باكيا كالطفل الغرير، لا بت ليلتى حتى أرد الإهانة إلى الطاغية! وتمنعت عليك! لم؟ لأنها ضاقت بالحرام! الحرام الذى لم تغتسل منه، قل إنها لم تعد تطيقك وكفى، ما أفظع الألم، ولكنه حق علىَّ وعبادة، كمن ينطح الجدار حتى يهشم رأسه تكفيرا عن ذنب، الشيخ متولى عبد الصمد يظن أنه يعرف أمورا كثيرة، ألا ما أجهله! مر بجسر الزمالك مرة أخرى إلى طريق إمبابة، وجعل يحث خطاه بعزم وعناد مصمما على غسل ما لطخه من خزى، وكلما ألح عليه الألم جدَّ فى السير ضاربا بعصاه الأرض كأنما يسير على ثلاث.

وبدت له العوامة يلوح من نافذتها الضوء فاشتد هياجه بيد أنه كان قد استعاد ثقته بنفسه وشعوره برجولته وكرامته واطمأن خاطره بعد أن استقر على رأى، وانحدر على السلم فمر فوق الجسر الخشبى ثم طرق الباب بطرف عصاه، وكرر ذلك بعنف، حتى جاءه الصوت متسائلا فى انزعاج:

ـ من الطارق؟!

فأجاب بقوة:

ـ أنا . .

انفتح الباب عن وجهها المتعجب، فأفسحت له وهى تغمغم «خيرًا»، فمرق إلى حجرة الجلوس حتى توسطها ثم استدار ووقف ينظر إليها وهى تقترب منه متسائلة حتى وقفت حياله وراحت تتفحص وجهه المتجهم بقلق، قالت:

ـ خير إن شاء الله!! ما عاد بك؟!

فقال بهدوء مريب:

ـ خير والحمد لله كما ستعلمين . .

جعلت تتساءل بعينيها دون أن تتكلم، فاستطرد قائلا:

ـ جئت لأخبرك بألا تتعلقى بما قلت، فإن الأمر كله لم يكن إلا دعابة سخيفة.

هبط جذعها هبوط الخيبة ونطق وجهها بالإنكار والحنق، ثم هتفت:

ـ دعابة سخيفة! كيف لا تفرق بين دعابة سخيفة وبين كلمة شرف ارتبطت بها؟

قال ووجهه يزداد اكفهرارا:

ـ يحسن بك وأنت تخاطبيننى أن تلتزمى حد الأدب الواجب، فإن نساء من طبقتك يرتزقن فى بيتى خادمات . .

صاحت وهى تحملق فى وجهه :

ـ هل رجعت لتسمعنى هذا الكلام؟ لم لَمْ تقله من قبل؟ لمَ وعدتنى واستعطفتنى وتوددت إلىّ؟ أتحسب أن هذا الكلام يخيفنى؟ لم يعد بى متسع للدعابات السخيفة .

لوح لها بيده غاضبا فأسكتها ، ثم هتف :

ـ جئت كى أقول لك إن الزواج من واحدة مثلك خزى لا يليق بكرامتى ، وأنه لا يصلح أكثر من أن يكون دعابة يتندر بها هواة الدعابات المخجلة ، وأنه ما دامت أمثال هذه الأفكار تدور برأسك فأنت لم تعودى أهلا لمعاشرتى ، إذ لا يصح أن أعاشر المجانين . .

كانت تصغى إليه وشرر الغضب يتطاير من حدقتيها ، بيد أنها لم تستسلم لتيار الغضب كما تمنى ، ولعل منظر غضبه بث فى حناياها خوفا وتقديرا للعواقب ، فقالت بلهجة أخف من السابقة :

ـ لن أتزوجك بالقوة ، لقد كاشفتك بما يجول بخاطرى تاركة لك الخيار ، الآن تريد أن تتحلل من وعدك ، لك ما تشاء ، ولا داعى لسبى وإهانتى ، ليذهب كل منا إلى حال سبيله فى سلام . .

أهذا قصارى جهدها فى الحرص عليك؟! ألم تكن تكون أسعد حالا لو ـ فى سبيل امتلاكك ـ أنشبت فيك الأظافر؟ استمد من ألمك غضبا :

ـ سيذهب كل منا إلى حال سبيله ، غير أنى أردت أن أصارحك برأيى فيك قبل أن أذهب ، لا أنكر أنى سعيت إليك بنفسى ، ربما لأن النفس تولع أحيانا بالقاذورات ، فهجرت من كنت تسعدين بخدمتهن كى أرفعك إلى هذه الحياة ، لذلك لا أدهش لأنى لم أحظ عندك بما حظيت به عندهن من الحب والتقدير ، ذلك أن القذر لا يقدر إلا من كان على شاكلته ، وقد آن لى أن أربأ بنفسى عنك ، وأن أعود إلى حظيرتى الأولى . .

بدا فى وجهها القهر ، قهر من يحجزه الخوف عن التنفيس عن صدره المستعر ، وتمتمت بصوت مرتعش النبرات :

ـ مع السلامة ، اذهب ودعنى فى سلام . .

قال بحنق وهو يكظم آلامه :

ـ لقد نزلت فهنت . .

هنا أفلت الزمام ، فصاحت به :

ـ حسبك، كفاية، ارحم الحشرة القذرة واحذرها، اذكر كيف كنت تقبل يدها والخشوع فى عينيك، نزلت فهنت؟ . . هه؟ . . ، الحق أنك كبرت، قبلتك على كبر وها أنا أتلقى الجزاء . .

لوح بعصاه وهو يصيح بغضب:

ـ اخرسى يا بنت الكلب، اخرسى يا دون، لمى ثيابك وغادرى العوامة . .

فصاحت بدورها وهى ترفع رأسها فى تشنج:

ـ املأ أذنيك بما أقول، كلمة أخرى املأ عليك العوامة والنيل والطريق صوتا حتى تحضر الحكمدارية كلها، سامع؟ . . لست لقمة سائغة، أنا زنوبة والأجر على الله، اذهب أنت، هذه العوامة عوامتى وعقد إيجارها باسمى، فاذهب بالسلامة قبل أن تذهب فى زفة . .

لبث قليلاً كالمتردد ينظر إليها باحتقار وازدراء، ولكنه عدل عن مغامرة قاسية تفاديا من الفضيحة، ثم بصق على الأرض ومضى إلى الخارج فى خطوات واسعة ثابتة . .

٣٠

ذهب من توَّه إلى الإخوان، فوجد محمد عفت وعلى عبد الرحيم وإبراهيم الفار وآخرين. شرب حتى سكر كعادته وتعدى عادته، وضحك كثيرا وأضحك كثيرا، ثم مضى فى الهزيع الأخير من الليل إلى بيته فنام نوما عميقا. واستقبل مع الصباح يوما هادئا، خلا فى أوله من الفكر، وكان كلما نزع به الخيال إلى منظر من مناظر حياته القريبة أو الماضية صده بعزم، اللهم إلا منظرا واحدا رحب باستعادته عن طيب خاطر، ذلك هو المنظر الأخير الذى سجل انتصاره على المرأة وعلى نفسه معا، وراح يؤكد الأمر لنفسه فيقول: «انتهى كل شىء والحمد لله ولأكونن شديد الحذر فيما يقبل من أيام حياتى».

بدا اليوم هادئا فى مطلعه، فاستطاع أن يفكر فى فوزه المبين وأن يهنئ نفسه عليه، ولكن انقلب اليوم بعد ذلك خاملا بل خامدا، فلم يجد من تفسير لذلك إلا أنه رد الفعل للجهد العصبى المضنى الذى بذله فى اليومين الماضيين، بل فى الأشهر الماضية على تفاوت فى الدرجة، إذ الحق أن معاشرته لزنوبة بدت لعينيه فى تلك اللحظة مأساة خاسرة من أولها لآخرها. لم يكن من الهين عليه أن يسلم بأول هزيمة تلحقه فى حياته الغرامية الطويلة، كان لذلك رجع شديد الأثر فى قلبه وخياله، وكان يثور كلما همس له عقله بأن

الشباب قد ولَّى، معتزا بقوته وجماله وحيويته، ثم يصر على ذلك التعليل الذى جاهر به المرأة أمس وهو أنها لم تحبه لأن القذر لايقدر إلا القذر! لشد ما تشوق طوال يومه إلى مجلس الإخوان، فلما دنا موعده نفد صبره فمضى متعجلا إلى بيت محمد عفت بالجمالية، فاجتمع به قبل أن يتوافد الإخوان، وسرعان ما قال له:

ـ انتهيت منها..

فتساءل محمد عفت:

ـ زنوبة؟!

فأومأ بالإيجاب، فتساءل الآخر باسما:

ـ بهذه السرعة؟

ضحك كالساخر، ثم قال:

ـ هل تصدقنى إذا قلت إنها طالبتنى بالزواج حتى ضقت بها؟!

فضحك كالساخر، ثم قال:

ـ زبيدة نفسها لم تفكر فى ذلك! يا للعجب! لكنها معذورة، فقد وجدتك تدللها أكثر مما تحلم به فطمعت فى المزيد..

فغمغم السيد أحمد قائلا باستهانة:

ـ مجنونة..

فضحك محمد عفت مرة أخرى، وقال:

ـ لعلها تهالكت فى حبك؟!

يا لها من طعنة! اضحك بقدر ما تجد من ألم..

ـ قلت إنها مجنونة وكفى..

ـ وماذا فعلت؟

ـ صارحتها بأننى ذاهب إلى غير رجعة، وذهبت..

ـ كيف تلَّقت ذلك؟

ـ سبت مرة، وهددت أخرى، وقالت فى داهية ثالثة، ثم تركتها كالمجنونة، كانت غلطة من بادئ الأمر.

قال محمد عفت وهو يهز رأسه مقتنعا:

ـ نعم، ما منا إلا من ضاجعها، ولكن أحدا لم يفكر حتى فى مجرد معاشرتها..

تصول وتجول فى ميادين الأسود ثم تهزم أمام فأرة، أخف عارك حتى عن أقرب المقربين واحمد الله على أن كل شىء قد انتهى..

لكن شيئا فى الواقع لم ينته، لم تبرح مخيلته، وصح لديه فيما تلا ذلك من أيام أن تفكيره فيها لم يكن مجردا ولكنه اقترن بألم عميق تزايد وتفشى، وصح لديه أيضًا أن ذلك الألم لم يكن غضبا لكرامته فحسب ولكن كان ألم الحسرة والحنين، وأنه فيما بدا عاطفة طاغية لا تقتنع بأقل من تدمير من يعانيها. بيد أنه كان شديد الاعتزاز بما سجل ساعة انتصاره، فمنى نفسه بقهر مشاعره المستبدة الخائنة فى مهلة تطول أو تقصر كيفما اتفق. ومهما يكن من أمر فقد غادره السلام فأمضى وقته متفكرا مجترا أحزانه معذبًا بخيالاته وذكرياته. وكان يبلغ به الضعف أحيانا أن يفكر فى مصارحة محمد عفت بما ينوء به من آلام، بل تمادى به الخاطر مرة إلى حد الاستعانة بزبيدة نفسها، ولكنها كانت فترات ضعف كنوبات الحمى ثم يفيق إلى نفسه وهو يهز رأسه متعجبا متحيرا.

وقد صبغت أزمته سلوكه العام بلون من القسوة قاومه ما استطاع بحمله وكياسته، فلم يفلت منه الزمام إلا قليلا، وهذا القليل لم يلحظه إلا الأصدقاء والمعارف الذين ألفوا منه الدماثة والتسامح والرقة، أما أهل بيته فلم يفطنوا إلى شىء؛ لأن سلوكه حيالهم بقى هو هو لم يكد يتغير، إذ إن الذى تغير حقا هو العاطفة المستترة وراءه فاستحالت من شدة مصطنعة إلى شدة حقيقية لم يدرك مداها سواه. على أنه هو نفسه لم ينج من قسوته هذه، بل لعله كان هدفها الأول، فيما حمل به على نفسه من تقريع وما عبرها به من مهانة، وأخيرا بما أخذ يفر به رويدا رويدا من ذله وتعاسته وهجران شبابه، ثم يعزى نفسه فيقول: لن أتحرك، لن أسيم نفسى مزيدا من الذل، فلتدر بى الأفكار كل مدار، ولتنقلب بى العواطف كل منقلب، ولأبقين حيث أنا لا يعلم بألمى إلا الله الغفور الرحيم. لكنه ما يدرى إلا وهو يسائل نفسه: ترى ألا تزال فى العوامة أم تركتها؟ وإذا كانت بها، فهل ما يزال لديها بقية من ماله تغنيها عن الناس، أم يكون الرجل قد لحق بها هنالك؟ تساءل كثيرا وفى كل مرة يلقى عذابا ينفذ من روحه إلى لحمه وعظمه فيهصره هصرا، لم يكن يجد شيئا من القرار إلا عند استحضاره المنظر الأخير فى العوامة الذى أوهمها فيه ـ وتوهم ـ أنه نبذها وعلا عليها، ولكنه كان يستدعى مناظر أخرى سجلت ذله وضعفه، ومناظر غيرها سجلت ألوانا من السعادة لا تنسى! وخلق الخيال له مناظر جديدة التقيا فيها، فتشاجرا، وتحاسبا، وتعاتبا، ثم أدركهما سلام الصلح والوصال.. حلم كثيرا ما يتراءى له فى عالم الباطن الزاجر بما لا يحصى من ألوان الشقاء والسعادة، لم لا يتأكد بنفسه مما طرأ على العوامة وسكانها؟ فى الظلام يستطيع أن يسير هنالك دون أن يراه أحد..

وذهب متسترا بالظلام كاللص، فمر أمام العوامة ورأى النور يوصوص من خصاص النافذة، ولكنه لم يدر إن كانت هى التى تستضىء به أم ساكن جديد، بيد أن قلبه شعر بأن النور نورها هى دون غيرها، وخيل إليه وهو يتطلع إلى العوامة أنه يستشف روح

صاحبتها، وأنه ليس بينه وبين رؤيتها رؤية العين إلا أن يطرق الباب فيفتح عن وجهها كما كان يفتح فى الأيام الذاهبة، السعيد منها والتعيس على السواء، ولكن ما عسى أن يفعل لو طالعه وجه الرجل؟! حقا أنها قريبة ولكن ما أبعدها، وقد حرم عليه هذا المعبر إلى الأبد. آه.. هل مرت به هذه الحالة فى حلم من الأحلام؟! قالت له اذهب، قالتها من قلبها ثم مضت فى سبيلها كأنه لم يعرض لها يوما وكأنها لا تشعر له بوجود! إذا كان الإنسان بهذه القسوة فكيف يتطلع إلى طلب الرحمة أو المغفرة!

وذهب مرات ومرات حتى صار التردد أمام العوامة بعد جثوم الليل عادة يمر بها قبل ذهابه إلى مجلس الإخوان، ولم يبد عليه أنه يريد أن يفعل شيئا ذا بال، وكأنه كان يرضى بها حب استطلاع عقيم جنونى. وكان يهم بالعودة مرة إذا انفتح الباب وخرج شبح لم يتبينه فى الظلام فدق قلبه فى خوف ورجاء، ثم عبر الطريق مسرعًا ووقف فى جوار شجرة وعيناه تحملقان فى الظلام. قطع الشبح المعبر الخشبى إلى الطريق ثم سار فى اتجاه جسر الزمالك، فوضح له أنه امرأة.. وحدثه قلبه بأنها هى. وتبعها عن بعد وهو لا يدرى على أى وجه تنتهى الليلة. هى أو غيرها فماذا يقصد؟! غير أنه واصل سيره مركزا انتباهه فى شبحها، ولما بلغت الجسر ودخلت فى مرمى مصابيحه توكد إحساس قلبه وأيقن أنها زنوبة، غير أنها كانت ملتفة فى الملاءة اللف التى تخلت عن ارتدائها طوال معاشرتها له. عجب لذلك وتساءل عن معناه فظن ـ ما أكثر ظنونه ـ وراءه أمرا. رآها تتجه إلى محطة ترام الجيزة وتنتظر، فسار محاذيا للحقول حتى جاوز الموضع قبالتها، ثم عبر إلى ناحيتها ووقف بعيدا عن مرمى بصرها. وجاء الترام فاستقلته، وعند ذاك هرول إليه فركب جاعلا مجلسه فى نهاية المقعد المطلة على السلم ليراقب النازلين، وعند كل محطة راح يتطلع إلى الطريق وقد زايله الإشفاق من اكتشاف أمره لأنه حتى إذا وقع فقد فاتها أن تعلم أنه كان يرصدها أمام العوامة متجسسا. نزلت فى العتبة الخضراء فنزل وراءها ورآها تتجه إلى الموسكى مشيا على الأقدام فتبعها على بعد مرحبا بظلمة الطريق، ترى هل عاودت الاتصال بخالتها؟ أم تراها ماضية إلى السيد الجديد؟ ولكن ماذا دعاها إلى الذهاب إليه وعندها عوامة تنادى العاشقين؟! وبلغت حى الحسين فضاعف انتباهه أن تضيع منه فى زحمة الملاءات اللف. لم تستبن له غاية وراء هذه المطاردة الخفية، ولكن كان مدفوعا برغبة فى الاستطلاع أليمة وعقيمة وإن تكن فى نفس الوقت عنيفة لا تجدى معها المقاومة.. سارت أمام الجامع فاتجهت إلى حارة الوطاويط حيث يقل المارة ويلبد الشحاذون المتعبون، ثم إلى الجمالية حتى مالت إلى قصر الشوق فتبعها مشفقا من أن يلقاه ياسين فى الطريق أو يراه من نافذة، فارتأى إن صادفه أن يزعم له أنه ذاهب لزيارة صديقه غنيم حميدو صاحب معصرة الزيوت وجار ياسين بقصر الشوق، وما يدرى إلا وهى تنعطف إلى أول حارة، تلك الحارة التى لم يكن بها من بيت إلا بيت ياسين، فدق

قلبه بقوة وثقلت قدماه! كان يعرف سكان الدورين الأول والثانى، وهما أسرتان لا يمكن أن تربطهما بزنوبة رابطة! وزاغ بصره قلقا واضطرابا، غير أنه وجد نفسه يميل إلى العطفة غير مقدر للعواقب، فاتجه نحو الباب حتى ترامى إلى سمعه وقع الأقدام الصاعدة، ثم دخل بئر السلم رافعا رأسه منصتا إلى وقع الأقدام فشعر بمرورها بالباب الأول ثم الثانى، ثم وهى تطرق باب ياسين!

تسمر فى مكانه وهو يلهث، فدار رأسه وشعر بخور وتهدم، ثم تنهد من الأعماق وانتزع نفسه من موضعه راجعا من حيث أتى وقد غاب الطريق عن عينيه فى زحمة الأفكار وراتطام الخواطر . .

ياسين كان الرجل! فترى هل علمت زنوبة بعلاقته الأبوية بياسين؟! وراح يدفع الطمأنينة فى نفسه كما يدفع سدادا غليظا فى فوهة ضيقة قائلاً: إنه لم يجر على لسانه ذكر لأحد أبنائه أمامها، فضلاً عن أنه من غير المعقول أن يكون واقفا على سره، وأنه ليذكر كيف جاءه منذ أيام لينهى إليه طلاق مريم، فطالعه بوجه المذنب المرتبك ولكن فى براءة وإخلاص لا تشوبهما شائبة، وإنه ليفترض كل شىء إلا أن يقدم ياسين على خيانته وهو عالم بما يفعل، بل من أين لياسين أن يعلم بأن اباه ذو صلة أو كان ذا صلة بأى امرأة فى الوجود، فله أن يطمئن من هذه الناحية، وحتى إذا كانت زنوبة قد عرفت علاقته بياسين، أو إذا عرفتها يوما من الأيام، فلن تطلع ياسين على سر خليق بأن يقطع ما بينهما، وواصل السير مؤجلاً الذهاب إلى الإخوان ريثما يسترد أنفاسه ويملك جنانه فمضى فى اتجاه العتبة على تعبه وإعيائه.

أردت أن تعرف وها أنت قد عرفت، ألم يكن الأفضل أن تنفض يديك من الأمر كله قانعا بالصبر؟! احمد الله على أن الظروف لم تجمعك بياسين وجها لوجه فى بؤرة الفضيحة، كان ياسين هو الرجل، متى عرفته؟ وأين؟ وكم من مرة خانته معه وهو لا يدرى؟! أسئلة لن تبحث لها عن جواب، افترض إذا شئت أسوأ الفروض فلن يغير هذا من الأمر شيئا، وهل عرفها قبل أن يطلق مريم أم بعد الطلاق أم كانت الشيطانة الباعث على الطلاق؟ أسئلة أخرى لن تعرف الجواب عنها ولن تبحث عنه، فافترض أسوأ الفروض أيضا إراحة لرأسك المصدوع، ياسين كان الرجل! قال إنه طلقها لقلة أدبها! كلام كان يمكن أن يعلل به طلاق زينب لو لم يطلع هو على السبب الحقيقى حال وقوعه، سوف تعرف الحقيقة يوما، ولكن ماذا يهمك من أمرها؟ ألا زلت مشغوفا بالجرى وراء الحقيقة؟! أنت مبعثر الرأس معذب القلب، أيمكن أن تغار من ياسين؟ كلا ليست هذه بالغيرة، على العكس مما تظن أنت خليق بالتعزى، إذا لم يكن بد من أن يكون لك قاتل فليكن ابنك هو قاتلك، ياسين جزء منك، جزء منك انهزم وجزء منك انتصر، أنت المغلوب وأنت الغالب، ياسين قلب مغزى المعركة، كنت تشرب كأسا مزاجها الألم

والهزيمة فصار مزاجها الألم والهزيمة والفوز والعزاء، لن تتحسر على زنوبة بعد اليوم، غاليت فى الاعتداد بنفسك، عاهد نفسك على ألا تسقط الزمن من حسابك بعد الآن، ليتك تستطيع أن توجه هذه النصيحة إلى ياسين حتى لا يؤخذ على غرة إذا جاء دوره، أنت سعيد، لا داعى للندم، ينبغى أن تواجه الحياة بخطة جديدة وقلب جديد وعقل جديد، دع الراية فى يد ياسين، وسوف تفيق من دوارك ويمضى كل شىء وكأنه لم يكن، لن يتاح لك أن تجعل من حوادث الأيام الأخيرة حديثا يدار على مائدة الإخوان كسابق عهدك، علَّمتك هذه الأيام المخيفة أن تطوى الصدر على أمور كثيرة، آه.. ما أعظم تشوقى إلى الشراب!

أثبت السيد أحمد فى الأيام التالية أنه أقوى مما اعترضه من أحداث، فسار فى طريقه قدما، وقد ترامت إليه أنباء طلاق ياسين على حقيقتها من السيد على عبد الرحيم نقلا عن غنيم حميدو وآخرين، وإن لم يتعرف الراوون على حقيقة المرأة التى نجم عن مغامرتها طلاق الزوجة.. وابتسم السيد، وضحك طويلا من كل شىء، وكان ماضيا إلى بيت محمد عفت ـ ذات مساء ـ حين شعر بثقل قبيح فى أعلى الظهر والرأس حتى لهث. لم يكن الأمر جديدا كل الجدة، فقد جعل الصداع ينتابه كثيراً فى الأيام السابقة ولكنه لم يشتد عليه كهذه المرة، ولما شكا حاله إلى محمد عفت أمر له بقدح من شراب الليمون المثلج، وأمضى سهرته حتى نهايتها، ولكنه استيقظ فى اليوم التالى أسوأ حالا من الأمس، وبلغ به الضجر أن فكر فى استشارة الطبيب، والواقع أنه لم يكن يفكر فى استشارة الطبيب إلا حين الضرورة القصوى.

٣١

تتطور الأشياء بالمناسبات كما تتطور الألفاظ بما يستجد من معان جديدة، لم يكن قصر آل شداد فى حاجة جديدة كى يزداد فى عينى كمال جلالا، ولكنه بدا فى ذلك المساء من ديسمبر فى زى جديد من أزياء الحياة. أريقت عليه الأنوار حتى غمرته. أجل: كان كل ركن من أركانه وكل موضع من جدارنه يتقلد عقدا من اللآلئ المضيئة.. مصابيح كهربائية مختلفة الألوان تومض فوق رقعة جسده من أعلى السطح إلى أسفل الجدار، كذلك السور الكبير، والباب الضخم، كذلك أشجار الحديقة بدت كأنما استحالت أزهارها وثمارها أنوارا حمرا وخضرا وبيضا، ومن النوافذ جميعا انبعثت الأضواء، فكل شىء يهتف مؤذنا بالفرح، وعندما رأى كمال وهو مقبل ذلك المنظر آمن بأنه يحج إلى

مملكة النور لأول مرة فى حياته. وازدحم الطوار المواجه لمدخل البيت بالغلمان، وفرش المدخل برمل فاقع لونه كالذهب، وفتح الباب على مصراعيه، كذلك باب السلاملك فلاحت من داخله نجفة كبيرة فى سقف البهو المعد لاستقبال المدعوين، على حين امتلأت الشرفة العليا الكبيرة بمجموعة وضيئة من الغيد فى ثياب السهرة البهيجة. ووقف شداد بك وجماعة من رجال الأسرة فى مدخل السلاملك يستقبلون الوافدين، أما شرفة السلاملك فقد ازدانت برجال أوركسترا عجيب ترامت أنغامه إلى حدود الصحراء.

ألقى كمال على المنظر كله نظرة شاملة سريعة، ثم تساءل: ترى أعائدة فى الشرفة العليا بين المطلات؟ وهل وقعت عيناها عليه وهو يقبل مع المقبلين بقامته الفارعة وزينته الكاملة والمعطف على ساعده يتقدمه رأسه الكبير وأنفه الشهير؟ لم يخل من إحساس بالارتباك وهو يجتاز الباب، ولكنه لم يتجه إلى السلاملك كالآخرين، وإنما مال إلى «ممره» القديم المفضى إلى الحديقة كما نبه حسين شداد من قبل كى يتاح لجماعتهم البقاء معًا أطول مدة ممكنة فى الكشك المحبوب. كأنما كان يخوض بحرا من نور، وقد وجد السلاملك الخلفى ـ كالأمامى ـ مفتوح الباب، مضاء بالأنوار، يعج بالمدعوين، كذلك الشرفة العليا معمورة بأسراب الحسان، أما فى الكشك فلم يجد سوى إسماعيل لطيف فى بدلة سوداء أنيقة أضفت على منظره العدوانى هيئة لطيفة لم يره فى مثلها من قبل ألقى إسماعيل عليه نظرة سريعة، ثم قال:

ـ بديع، لكن لم أتيت بالمعطف؟ حسين لم يمكث معى إلا ربع ساعة ولكنه سيعود إلينا حين يفرغ من الاستقبالات، أما حسن فقد لبث معى دقائق ولا أظنه سيتمكن من مجالستنا كما نود، هذا يومه وله عنا أمور تغنيه، كان حسين يفكر فى دعوة بعض الزملاء إلى هنا ولكنى منعته فاكتفى بأن يدعوهم إلى مائدتنا، سيكون لنا مائدة خاصة، هذا أهم خبر أزفه إليك الليلة. .

هنالك ما هو أهم، سوف أعجب من نفسى طويلا لقبولى هذه الدعوة، لم قبلتها؟! لتبدو كأنك لا تبالى، أم لأنك غدوت مغرما بالمغامرات المخيفة؟!

ـ هذا حسن، ولكن لم لا نذهب ولو قليلا إلى البهو الكبير لنشاهد المدعوين؟

قال إسماعيل لطيف بازدراء:

ـ لن تحظى بما تريد حتى لو ذهبنا، فإن الباشوات والبكوات خصوا بالبهو الأمامى وحدهم، فإذا ذهبت فستجد نفسك بين الشباب من الأهل والأصدقاء فى البهو الخلفى وليس هذا ما تريد، وددت لو أمكن أن نندس فى الحجرات العليا التى تموج بأفخر مُثُل الجمال. .

مثال واحد يعنينى، مثال المثل، الذى لم تقع عليه عيناى منذ يوم الاعتراف، هتك سرى وذهب.

ـ لا أكتمك أنى مشوق إلى رؤية الكبراء، قال حسين لى إن والده قد دعا كثيرين ممن أقرأ عنهم فى الصحف . .

ضحك إسماعيل ضحكة عالية، وقال:

ـ أتحلم بأن ترى كبيرا وله أربع أعين أو ست أرجل؟! إنهم أناس مثلى ومثلك فضلا عن أنهم طاعنون فى السن وذوو منظر لا يسر كثيرا، إنى أفهم سر تطلعك إليهم، ما هو إلا ذيل لاهتمامك المفرط بالسياسة . .

يجدر بى ألا أهتم بشىء ما فى هذه الدنيا، لم تعد لى ولم أعد لها، غير أن اهتمامى بالكبراء مستمد فى الحقيقة من هيامى بالعظمة، أنت تود أن تكون عظيما لا تنكر، ولك مؤهلاتك الواعدة من خلقة سقراط وآلام بتهوفن، أنت مدين بهذا التطلع للتى حرمتك النور بذهابها، غدا لن تجد لها أثر فى مصر كلها، يا جنون الألم إن لك لسكرة! . . قال بتشوف:

ـ قال لى حسين إن الحفلة ستجمع بين رجال من جميع الأحزاب . . ـ صحيح، بالأمس دعا سعد الأحرار والوطنيين إلى حفلة الشاى المعروفة بالنادى السعدى، واليوم شداد بك يدعوهم إلى زفاف كريمته، رأيت من أصدقائك الوفديين، فتح الله بركات، وحمد الباسل، وجاء من الآخرين: ثروت، وإسماعيل صدقى، وعبد العزيز فهمى. شداد بك يعمل بهمة عالية، وحسنا فعل، لقد ولى عهد أفندينا، كان الشعب يهتف منشدا: «الله حى . . عباس جى»، ولكن الحقيقة أنه ذهب إلى غير رجعة فكان من الحكمة أن يعمل شداد بك للمستقبل حسابه، ويجب أن يسافر كل أعوام قلائل إلى سويسرا ليقدم إلى الخديو فروض طاعة كاذبة من باب الحيطة، ثم يعود ليواصل سيره الموفق . .

قلبك يمقت هذه الحكمة، إن محنة سعد بالأمس القريب أثبتت أن الوطن مليء بهؤلاء الحكماء، ترى أشداد بك واحد منهم؟ والد المعبودة؟! مهلا، إن المعبودة نفسها نزلت من علياء السماء لتقترن بواحد من البشر، ليتفتت قلبك حتى يعجزك لم أجزائه المتناثرة.

ـ تصور أن حفلة كهذه تمضى بلا مطرب ولا مطربة!

قال إسماعيل بلهجة ساخرة:

ـ آل شداد نصف باريسيين، ينظرون إلى تقاليد الأفراح بازدراء غير قليل، ولا يسمحون لعالمة بأن تحيى حفلة فى بيتهم ولا يعترفون بمطرب من مطربينا، ألا تذكر حديث حسين عن هذا الأوركسترا الذى أراه الليلة لأول مرة فى حياتى؟ إنه يعزف مساء الأحد من كل أسبوع فى جروبى، وسينتقل إلى البهو بعد العشاء ليطرب الكبراء، دع هذا واعلم أن زينة الليلة هى العشاء والشمبانيا!

جليلة وصابر وزفاف عائشة وخديجة؟ شتان بين الجوين، كم كنت سعيدا فى تلك الأيام! الليلة يشيع الأوركسترا حلمك إلى القبر، أتذكر الذى رأيت من ثقب الباب؟ . . أسفى على الآلهة التى تتمرغ فى التراب!

ـ هذا شيء يهون، الذى آسف عليه حقا وسآسف عليه طويلا هو أننى لم أتمكن من مشاهدة الكبراء عن كثب، كنت أتطلع إلى سماع حديثهم لأفهم أمرين هامين: أولهما الموقف السياسى على حقيقته وهل بات من المأمول حقا بعد الائتلاف أن يعود الدستور والحياة النيابية؟ والثانى كلام هؤلاء الناس العادى الذى يتبادلونه فى مناسبة سعيدة كهذه، أليس بديعا أن تصغى إلى ثروت باشا مثلاً وهو يثرثر ويمزح؟!

قال إسماعيل لطيف وهو يتظاهر بالاستهانة وإن نمت حركات الاستهانة نفسها عن مباهاة:

ـ أتيح لى أكثر من مرة أن أجلس مع أصدقاء أبى من أمثال سليم بك والد حسن وشداد بك، أؤكد لك أنك لن تجد لديهم ما يستحق هذا الاهتمام . .

من أين جاء الفارق إذن بين ابن المستشار وابن التاجر؟! كيف كان جل حظ أحدهما أن يعبد المعبود على حين يتزوج الآخر منه؟! أليس هذا الزواج آية على أن هؤلاء القوم من طينة غير طينة البشر؟ . . لكنك لا تدرى كيف يتكلم أبوك بين أصحابه وأقرانه!

ـ على أى حال سليم بك ليس من العظماء الذين أعنى . . !

ابتسم إسماعيل لهذه الملاحظة الأخيرة دون أن يعلق عليها. هذه الضحكات تجيء من الداخل مفعمة بالغبطة، وأخرى تهبط من الشرفة العليا معبقة بشذا الأنوثة الساحر، وبين هذه وتلك تجاوب كالذى بين أنغام الآلات المترامية من بعيد تستقبلها الأذن وحدة حينا وطاقة من ألحان شتى حينا آخر، ثم تكون كلها ـ الضحكات والأنغام ـ إطاراً ورديا يبدو فيه القلب الحزين المترع بالوحشة كبطاقة سوداء فى طاقة ورد . .

وما لبث حسين شداد أن جاء متهللا بقامته الفارعة ووجهه المتألق يختال فى الردنجوت، فتح ذراعيه عندما اقترب ففعل كمال مثله وتعانقا بحرارة، ثم لحق به حسن سليم فى بزته الرسمية، جميلا فى كبريائه الطبيعى الملفوف فى مظهره المؤدب المهذب وإن بدا إلى جانب حسين قصيرا صغيرا، فتصافحا أيضا بحرارة، وهنأه كمال من أعماق لسانه. وقال إسماعيل لطيف بصراحته المعهودة التى لا تكاد فى أغلب الأحيان تتميز عن المكر السيئ:

ـ كمال آسف لأنه لم تتح له مجالسة ثروت باشا وصحبه!

فقال حسن سليم بمرح غريب أطاح بتحفظه المعهود:

ـ فلينتظر حتى يسجل مؤلفاته المنتظرة، وعندها يجد نفسه واحدا منهم! . .

أما حسين شداد فقال محتجا :

ـ أهاوى تزمت أنت؟ ! إنما أريد أن تمر الليلة كلها ونحن مستمتعون بحريتنا الكاملة . .

وقبل أن يجلس حسين استأذن حسن سليم منصرفا ، إذ كان فى الواقع كالفراشة لا يستقر بموضع . ومد حسين ساقه أمامه ، وراح يقول :

ـ غدا يسافرون إلى بروكسل ، سبقانى إلى أوربا ، ولكن بقائى هنا لن يطول ، وغدا تكون ملهاتى التنقل ما بين باريس وبروكسل . .

وتنتقل أنت ما بين النحاسين والغورية ، بلا حبيب ولا صديق ، هذا جزاء من يتطلع إلى السماء ، سترددد بصرك بين أركان المدينة حائرا ولن تبرا عيناك من لوعة الشوق ، املأ رئتيك من هذا الهواء الذى تعبقه أنفاسها ، غدا سوف ترثى لنفسك .

ـ يخيل إلىّ أنى سألحق بك يوما . .

تساءل حسين وإسماعيل معا :

ـ كيف؟

لتكن كذبتك ضخمة كألمك . .

ـ ثمة اتفاق بينى وبين أبى على أن أسافر فى بعثة على حسابى الخاص بعد إتمام دراستى . .

هتف حسين بسرور :

ـ لو تحقق هذا الحلم !

أما إسماعيل فقال ضاحكًا :

ـ أخاف أن أجد نفسى وحيدًا بعد بضع سنين !

تلاقت آلات الأوركسترا جميعًا فى حركة متدفقة سريعة ، أعلنت ـ فيما أعلنت ـ عما فى كل آلة من مرونة وقوة ، كأنما تشترك كلها فى سباق عنيف بات الهدف منه فى مرمى العين ومتناول الطموح ، فسما بهما اللحن إلى ذروته العليا ، تلك الذروة التى توحى بتدانى الختام . انجذب وعيه إلى الأنغام المستعرة رغم استغراقه بالشجن ، فانخرط فى عدوها حتى تدافع دمه ولهثت منه الأنفاس ، وسرعان ما داخلته رقة وأسكرته أريحية جعلت من حزنه نشوة دامعة ، فتنهد مع النهاية من الأعماق ، وتملى أصداء اللحن المترنمة فى روحه بانفعال وتأثر ، فخيل إليه أنه يتساءل : ألا يمكن أن تنتهى عواطفه المتأججة فى ذروتها إلى ختام كذلك؟ ألا يمكن أن يكون للحب ـ كهذا اللحن وككل شىء ـ نهاية؟ ! وذكر أحوالا مرت به فى أوقات نادرة ، فتراءت من الفتور حتى بدا وكأنه لم يبق من عايدة إلا اسمها ، أتذكر هذه الفترات؟ وكان يهز رأسه حيرة ثم يتساءل : هل انتهى حقا

كل شيء؟ وإذا بخيال يطوف أو فكرة تخطر أو منظر يرى فيستيقظ من غفوته ويلقى نفسه غريقا فى بحر الهوى مكبَّلا بأصفاد الأسر. جرب إذا حلَّت بك فترة من هذه الفترات أن تقبض عليها بكل قواك وألا تدعها تفلت حتى يستقر بك الشقاء، أجل حاول أن تفنى خلود الحب. قال حسين شداد باسما:

ـ بدأت الحفلة بتلاوة سورة على سبيل البركة!

القرآن؟! ما ألطف هذا! الباريسية الحسناء نفسها لا تستطيع أن تعقد قرانها إلا بمأذون وقرآن! وهكذا سيقترن زواجها فى ذهنك بالقرآن والشمبانيا.

ـ حدثنا عن نظام الحفلة؟

قال حسين وهو يشير براحته إلى البيت:

ـ عما قليل يعقد القران، وبعد ساعة يدعى الجميع إلى الموائد، ثم ينتهى كل شيء، وتبيت عايدة هذه الليلة فى بيتنا لآخر مرة ثم تسافر مع الصباح إلى الإسكندرية لتستقل بعد غد الباخرة إلى أوروبا..

ستضيع منك مناظر ما أخلقها بالتسجيل لتكون زادا لألمك الشره، كرؤية اسمها الجميل وهو يكتب فى الوثيقة الشرعية، ومنظر وجهها المتطلع إلى إعلان النبأ السعيد، ولون الابتسامة التى يفتر عنها ثغرها عند زفاف البشرى، ثم منظر العروسين وهما يتلاقيان، حتى ألمك يعوزه الزاد..

ـ وهل يعقد القران مأذون؟!

ـ طبعا!

هكذا أجاب حسين، أما إسماعيل فضحك ضحكة عالية، وقال:

ـ بل قسيس!

أى سخافة فى سؤالك! سل أيضا هل يبيتان الليلة معا! أليس من المحزن أن يسد مجرى حياتك رجل لا شأن له كهذا المأذون؟ ولكن دودة حقيرة هى التى تأكل جدث أكبر الكبراء، فكيف ستكون جنازتك حين يحم القضاء؟ شيء هائل يملأ الطريق أم لمة تمضى؟.. وإذا بالصمت يشمل البيت حتى استحال نورا بلا تغاريد فشعر بخوف وانقباض. الآن، فى مكان ما لعلها هذه الحجرة أو تلك، ثم لعلعت زغرودة طويلة مجلجلة أحيت ذكرى قديمة، زغرودة كتلك الزغاريد التى عرفها من قبل فلا تمت إلى باريس بسبب، ثم تبعتها زغاريد مجتمعة كالصواريخ، لشد ما يبدو هذا القصر الليلة كأى بيت من بيوت القاهرة. وتابعت دقات قلبه الزغاريد حتى لهث، ثم سمع إسماعيل يهنئ فهنأ بدوره، وتمنى عند ذاك لو كان منفردا، ثم تعزى بأنه سينفرد بنفسه أياما وليالى فوعد ألمه بزاد لا يفنى. وانبعثت الأوركسترا تعزف مقطوعة يعرفها حق المعرفة هى «العفو

يا سيد الملاح» فنادى قدرته الهائلة على التحمل والتصبر وإن كانت كل قطرة من دمه تطرق جدران عروقه مؤذنة بأن كل شيء قد انتهى، إن التاريخ نفسه قد انتهى، إن الحقيقة جميعا قد انتهت، إن الأحلام التى فوق الحياة قد انتهت، وإنه يواجه الصخر المدبب الأطراف ولا شيء غيره. قال حسين متأملا:

ـ كلمة ثم زغرودة ويدخل الواحد منا فى دنيا جديدة، سوف نعرف ذلك كلنا يوما ما..

فقال إسماعيل لطيف:

ـ سوف أباعد ما استطعت بينى وبين ذلك اليوم..

كلنا؟! إما السماء وإما لا شيء!

ـ لن أذعن لذلك اليوم أبدا..

بدا عليهما أنهما لم يكترثا لقوله أو أنهما لم يحملاه على محمل الجد، بيد أن إسماعيل عاد يقول:

ـ لن أتزوج حتى أقتنع بأن الزواج ضرورة لامحيص عنها..

وجاء نوبى حاملا أكواب الشربات، ثم تبعه آخر بصينية محملة بعلب الحلوى الفاخرة. علبة من البللور على قوائم أربع مذهبة، مموه زجاجها الكحلى بزخارف فضية، وقد انعقد عليها شريط أخضر من الحرير سجل على لافتة هلالية فى عقدته الحرفان الأولان لاسمى العروسين «ع.ح». شعر وهو يتناول العلبة بارتياح لعله كان أول شعور بالارتياح يحظى به فى ذلك اليوم. فقد وعدته العلبة الفاخرة بأن معبودته ستترك وراءها أثرا خالدا كحبها، وأن هذا الأثر سيبقى ما بقى هو على الأرض رمزاً لماض غريب وحلم سعيد وفتنة سامية وخيبة رائعة. ثم لفه شعور بأنه ضحية اعتداء منكر تآمر به عليه القدر وقانون الوراثة ونظام الطبقات وعايدة وحسن سليم وقوة خفية غامضة لم يشأ أن يسميها.. وتراءى له شخصه التعيس وهو يقف وحده أمام هذه القوى مجتمعة وجرحه ينزف فلا يظفر بأسى، ولم يجد ما يرد به على هذا الاعتداء إلا ثورة مكبوتة حرمت من الإفصاح، بل أجبرته الظروف على التظاهر بالسرور كأنما يهنئ القوى الباغية على تنكيلها به ونبذه خارج حدود البشرية السعيدة، فأضمر لها جميعًا حنقا خالدا ترك للمستقبل أمر تكييفه وتوجيهه، أجل شعر بأنه لن يأخذ الحياة بعد تلك الزغرودة الفاصلة مأخذا سهلا أو يرضى فيها بالقريب أو يتسامح معها تسامح الكرم والصفاء، وأن طريقه سيكون شاقًا عسيرا ملتويا غاصا بالمضض والغضاضة والألم، ولكنه لم يفكر فى التراجع. قبل الحرب وأبى الصلح، وأنذر وتوعد، غير أنه ترك للقدر اختيار الغريم الذى سينازله والوسيلة التى سيحارب بها. قال حسين شداد وهو يزدرد ريقه المشرب بالشربات:

ـ لا تعلن الثورة على الزواج، أعتقد ـ إذا أتيح لك أن تسافر كما تقول ـ أنك ستجد زوجة تعجبك . .

كأنك لم تجد التى تعجبك هنا، ابحث عن وطن جديد لا يتأذى جنسه اللطيف بمنظر الرءوس الشاذة، والأنوف الكبيرة، إما السماء وإما الموت. قال وهو يهز رأسه كالمقتنع :

ـ هذا رأيى . .

فقال إسماعيل لطيف ساخرا :

ـ أتعرف ماذا يعنى الزواج من أوربية؟! إنه كلمة واحدة «الظفر» بامرأة من أحط طبقات الشعب، امرأة ترضى بأن تكون تحت رجل تشعر فى أعماقها بأنه عبد من العبيد .

حظيت بهذه العبودية فى وطنك الكريم لا فى أوربا التى لن تراها .

قال حسين مستنكرًا :

ـ مغالاة!

ـ أنظر إلى المدرسين الإنجليز كيف يعاملوننا!

قال حسين شداد بحماس هو بالرجاء أشبه :

ـ الأوروبيون فى بلادهم غيرهم فى بلادنا!

هل من سبيل إلى قوة قاهرة تبيد الظلم والظالمين؟! يا رب العالمين أين عدالتك السماوية؟!

دعا الداعى إلى الموائد فمضى الأصدقاء الثلاثة إلى السلاملك، ثم إلى حجرة جانبية تتفرع عن البهو الخلفى، فوجدوا مقصفًا صغيرا يتسع لعشرة على الأقل، ولحق بهم شبان بعضهم من أقرباء آل شداد والبعض من أصدقاء المدرسة، ومع أن العدد دون الحد المقرر للمقصف وهو ما شكر عليه حسين من الأعماق، إلا أنهم سرعان ما اندفعوا إلى الطعام بقوة وعنف حتى ساد الجو نشاط السابق، وكان ينبغى لهم أن يتحركوا دواما ليطوفوا بشتى ألوان الطعام التى امتدت صحافها على طول المائدة تفصل بين كل مجموعة منها وأخرى طاقة صغيرة من الورد، ولوح حسين بإشارة من يده إلى السفرجى، فجاء بقوارير الويسكى وزجاجات الصودا، فهتف إسماعيل لطيف :

ـ أقسم أنى تفاءلت خيراً بهذه الإشارة من قبل أن أعرف مغزاها .

ومال حسين على أذن كمال قائلا برجاء :

ـ كأسا واحدة من أجل خاطرى . .

وقالت له نفسه «اشرب» لا رغبة فى الشراب فإنه لم يعرفه ولكن رغبة فى الثورة، بيد أن إيمانه كان أقوى من حزنه وتمرده، قال مبتسما:

ـ أما هذه فلا، شكرا..

قال إسماعيل لطيف وهو يرفع كأسا مترعة:

ـ لا حق لك فى هذا، حتى الورع يبيح لنفسه السكر فى حفلات الزفاف..

مضى يتناول طعامه الشهى فى هدوء، وكان يراقب بين حين وآخر الآكلين والشاربين أو يشترك معهم فى الحديث والضحك. إن سعادة المرء تتناسب تناسبا طرديًا مع عدد مرات شهوده لمقاصف الأفراح، ولكن هل مقصف الباشوات مثل مقصفنا؟! نلتهم طعامهم ونحقق معهم! شمبانيا!.. هذه فرصة لتذوق الشمبانيا.. شمبانيا آل شداد ماذا قلتم؟! ما للأستاذ كمال لا يقرب الخمر؟ لعله ملأ بطنه فلم تعد تتسع لمزيد، الحق أنى آكل بشهوة لا تجارى، كأنما أعصاب معدتى لا تتأثر بالحزن أو أنها تتأثر به تأثرا عكسيا.. هكذا تغديت فى مأتم فهمى، امنعوا إسماعيل عن الأكل والشرب وإلا نفق، موت المنفلوطى وسيد درويش وضياع السودان أحداث كللت زماننا بالسواد، لكن الائتلاف وهذا المقصف من أنباء زماننا السارة، أكلنا ثلاثة من الديكة الرومية وثمة رابع لم يمسس بعد.. هو هذا! رباه إنه يشير إلى أنفى فيضجون جميعا بالضحك! إنهم سكارى فلا تغضب! اضحك معهم متظاهرا بالاستهانة والمرح، أما قلبى فينتفض غضبا، إن استطعت أن تغزو العالم فاغزه، أما آثار هذه الليلة البهيجة فهيهات أن تنجو منها أبد الدهر، وهاك اسم فؤاد الحمزاوى تتناقله الألسن، عن تفوقه ونبوغه يتحدثون فهل لذعتك الغيرة؟ سيكون حديثك عنه مدعاة لإكبارك ولو على نحو ما:

ـ كان طالبا مجدًّا منذ طفولته!

ـ أتعرفه؟

أجاب حسين شداد عنه:

ـ والده موظف فى متجر والد كمال..

فى قلبى ارتياح لعن الله القلوب..

قال كمال:

ـ كان والده ولا يزال الرجل المجد الأمين.

ـ وما تجارة والدك؟

كم أحيط «التاجر» فى خيالى بهالة الإكبار، حتى قيل لك ابن تاجر وابن مستشار:

ـ تاجر جملة للبقالة..

الكـذب أداة نجـاة حقيرة، انظر إليهم كى تستـشف ما يدور وراء أقنعة وجوههم، ولكن أى رجل فى هذا البيت يضارع أباك جمالا وقوة؟!

وعقب الانصراف عن الموائد عادت الأكثرية إلى مجالسها فى البهو، وانطلق كثيرون إلى الحديقة يتمشون، فمر وقت هادئ خامل، ثم أخذ المدعوون فى الانصراف، أما الأهل فصعدوا إلى الدور الثانى ليقدموا التهانى إلى العروسين، وما لبث الأوركسترا أن انتقل إليهم ليعزف مختاراته الرائعة فى المجلس السعيد. ارتدى كمال معطفه وحمل علبة الحلوى الفاخرة ثم تأبط ذراع إسماعيل وغادر سراى آل شداد، قال إسماعيل وهو يلقى على صاحبه نظرة مخمورة:

ـ الساعة الحادية عشرة، ما رأيك فى أن نتمشى فى شارع السرايات حتى أفيق قليلا؟ فوافق كمال عن طيب خاطر؛ لأنه وجد فى المشى وقتل الوقت فرصة مواتية بيَّتها، سارا معا فى نفس الطريق الذى سار فيه من قبل إلى جانب عايدة، يعترف لها بحبه ويبثها آلامه. لن يغيب عن رأسه منظر هذا الطريق ذى القصور الجليلة الصامتة، والأشجار الباسقة على جانبيه تطالع المساء بهدوء النفس المطمئنة وروعة الخيال السامى، ولن يفتأ قلبك كلما وطئته قدماك أو استدعاه خيالك يرعش باعثا بخفقات الحنين والوجد والألم كالشجرة المقلقلة بالرياح ترمى أوراقها وثمارها، ومهما يكن من فشل رحلتك القديمة على أديمه فلن يزال يدخر لك ذكرى حلم غابر وأمل ضائع وسعادة موهومة وحياة دافقة مترعة بالمشاعر هى على أسوأ التقديرات خير من راحة العدم ووحشة الهجر وخمود العاطفة، وهل أنت واجد فى مستقبلك زادا للقلب إلا أماكن تتطلع إليها بعين الخيال وأسماء تمد لها آذان الشوق؟! تساءل كمال:

ـ ترى ماذا يحدث الآن فى الدور الأعلى؟

فأجاب إسماعيل بصوت مرتفع أزعج الصمت الجاثم:

ـ أوركسترا يعزف مقطوعات غربية، العروسان فوق المنصة يبسمان وحولهما آل شداد وآل سليم، رأيت مثل هذا الجمع مرات عديدة. .

عايدة فى ثياب العرس! يا له من منظر! هل رأيت شيئا كهذا ولو فيما يرى النائم؟!

ـ وإلام يمتد الحفل؟

ـ ساعة على الأكثر كى يتمكن العروسان من النوم ما داما سيسافران فى الصباح إلى الإسكندرية.

كلمات كالخناجر، اغرز منها ما تشاء فى قلبك. .

غير أن إسماعيل عاد يقول متسائلا:

ـ ولكن متى عرفت ليالى الزفاف النوم؟!

وضحك ضحكة عالية معربدة، ثم تجشأ ونفخ أبخرة الخمر وهو يقطب متأففا ثم يبسط صفحة وجهه، وقال:

ـ ربنا لا يحكم عليك بنوم العشاق، لا نوم لهم يا عينى، لا يغرنك تحفظ حسن سليم، سيصول ويجول كالفحول حتى مطلع الصبح، هذا قضاء لا نجاه منه. .

تذوق هذا النوع الجديد من الأم المقطر، روح الألم أو ألم الألم، ليكن عزاؤك أنك انفردت بألم لم يشعر به إنسان قبلك، وأنه سيهون عليك الجحيم إذا قدر عليك يوما أن تحملك الزبانية وترقص بك فوق ألسنة لهيبه، ألم!! لا لفقد الحبيب فإنك ما طمحت يوما فى امتلاكه، ولكن لنزوله من علياء سمائه، لتمرغه فى الوحل بعد حياة عريضة فوق السحاب. . لأنه رضى لخده أن يقبل، ودمه أن يسفح! ولجسده أن يبتذل. ما أشد حسرتى وألمى!

ـ أحق ما يقال عن ليلة الدخلة؟

هتف إسماعيل:

ـ أتجهل بالله هذه الأمور؟

كيف يقدسون الدنس؟

ـ لا أجهلها طبعا، كنت حتى زمن قريب لا أدرى عنها شيئا، وثمة أمور أود أن تعاد على مسمعى. .

قال إسماعيل ضاحكا:

ـ إنك تبدو لى أحيانا أحمق أو أبله. .

ـ دعنى أسألك، أيهون عليك أن يفعل هذا بشخص تقدسه؟

تجشأ مرة ثانية حتى تطايرت رائحة الخمر اللعينة إلى أنف كمال، وقال:

ـ لا يوجد شخص يستحق أن يقدس. .

ـ ابنتك مثلا، لو كان لك ابنة. . ؟

ـ لا ابنتى ولا أمى، كيف جئنا نحن؟ هذا هو قانون الطبيعة. .

نحن! الحقيقة نور لألاء، فغض الطرف، ووراء ستار القداسة الذى سجدت أمامه طيلة حياتك يعبثان كالأطفال، ما لكل شىء يبدو خاويا! الأم. . الأب. . عايدة، كذلك ضريح الحسين. . مهنة التجارة. . أرستقراطية شداد بك، يا لشدة الألم!

ـ ما أقذر قانون الطبيعة!

تجشأ إسماعيل للمرة الثالثة، وقال وقد نم صوته عن الضحك وإن لم يسمع له ضحك:

ـ الحقيقة أن قلبك موجع، إنه يغنى مع المطربة الجديدة أم كلثوم «أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا». .

كمال فى انزعاج:

ـ ماذا تعنى؟

فقال إسماعيل بلهجة تعمد أن تشى بسكره أكثر من الواقع:

ـ أعنى أنك تحب عايدة!

رباه! كيف افتضح سره؟

ـ أنت سكران!

ـ هى الحقيقة والجميع يعرفونها!

هتف وهو يحملق صوبه فى الظلام:

ـ ماذا تقول؟

ـ أقول إنها الحقيقة، والجميع يعرفونها.

ـ الجميع؟! من هم؟! من افترى هذا علىّ؟

ـ عايدة!

ـ عايدة؟

ـ عايدة هى التى أذاعت سرك. .

ـ عايدة؟! لا أصدق هذا، أنت سكران.

ـ نعم أنا سكران ولكن هذه هى الحقيقة أيضا، من فضائل السكران أنه لا يكذب. . (ثم بعد ضحكة رقيقة). . هل أغضبك هذا؟ عايدة كما تعلم شابة لطيفة، حالما لفتت الأنظار سرا إلى عينيك المغرمتين وأنت لا تدرى، لا بدافع السخرية ولكن لأنها تتيه دلالا بالمغرمين، وقد كاشفت حسن أول الأمر فوجه حسن نظرى إليك مرات، ثم أفضى بالسر إلى حسين، بل علمت أن سنية هانم سمعت عن العاشق الولهان كما كانوا يدعونك! وغير مستبعد أن يكون الخدم قد استرقوا السمع إلى ما دار عنك بين سادتهم، فالكل يعرف قصة العاشق الولهان. .

شعر بخور، وخيل إليه أن الأقدام المتحركة تطأ كرامته بقسوة، فانطبقت شفتاه على حزن مرير، أهكذا يبعثر السر المصون؟ وعاد الآخر يقول:

ـ لا تتاثر، كان الأمر كله دعابة بريئة صدرت عن قلوب تكن لك الود، حتى عايدة لم تذع سرك إلا بدافع المباهاة!

ـ توهمت فانخدعت!

فقال إسماعيل ضاحكا :

ـ إنكار حبك عبث كإنكار الشمس فى رابعة النهار!

صمت كمال صمتًا مليئا بالشجن والاستسلام، وفجأة تساءل :

ـ ماذا قال حسين؟

ارتفع صوت إسماعيل وهو يقول :

ـ حسين؟! إنه صديقك الأمين، طالما أعلن عن عدم ارتياحه لأسلوب أخته البرىء، وكان يجيبها منوها بمزاياك!

تنهد فى ارتياح. إذا كان فى الحب قد خاب أمله، فقد بقيت له الصداقة، آه، كيف يسعه أن يدخل سراى آل شداد بعد الليلة؟!

وقال إسماعيل بلهجة جدية كأنما يشجع صاحبه على مواجهة الموقف :

ـ كانت عايدة فى حكم المخطوبة لحسن من قبل إعلان الخطوبة بأعوام، ثم إنها أكبر منك سنا، وهذه العواطف تنسى عقب النوم، فلا تهتم ولا تحزن.

هذه العواطف تنسى! تساءل باهتمام غير خاف :

ـ أكانت تسخر منى وهى تنوه بهذا الغرام المزعوم؟

ـ كلا، قلت لك إنها تسعد بالحديث عن عشاقها!

كانت معبودتك إلها قاسيا ساخرا ينشرح صدره للهزء بعابديه، أتذكر يوم مثلت برأسك وأنفك؟ ما أشبهها بقانون الطبيعة فى قوته وقسوته، كيف هرعت بعد ذلك متهللة إلى ليلة الدخلة كأى فتاة؟! أما أمك فشيمتها الحياء كأنما تشعر بذنبها!

وكانا قد توغلا فى الطريق فاستدارا راجعين فى صمت كأنما قد تعبا من الحديث وشجونه، وما لبث إسماعيل أن اندفع يغنى بصوت ردىء «يا ما شاء الله ع التحفجية»، ولكن الآخر لم يخرج عن صمته فضلا عن أنه لم يبد عليه أنه انتبه إلى غنائه، ما أخجله! أحدوثة كان، وكأنه بأهل البيت والأصدقاء والخدم وهم يتغامزون من وراء ظهره وهو عنهم غافل، معاملة فظة لا يستحقها، فهل يكون هذا جزاء الحب والعبادة؟! ما أقسى المعبودة وما أفظع الألم! لعل نيرون عندما غنى وروما تحترق كان ينتقم لحال كحاله هذه. كن قائدا غازيا يختال على متين جواد، أو زعيما يحمل على الأعناق، أو تمثالا من صلب فوق سارية، أو ساحرًا يتصور فى أى صورة شاء، أو ملاكا يطير فوق السحاب، أو راهبًا منزويا فى صحراء، أو مجرما خطيراً يزلزل الآمنين، أو مهرجًا يأسر الضاحكين، أو منتحرا يهز الرائين. لو علم فؤاد الحمزاوى بقصته لقال له وهو يوارى سخريته تحت طلاء أدبه المعهود: الحق عليك، فأنت الذى هجرتنا من أجل هؤلاء الناس، احتقرت قمر ونرجس فذق هجر الآلهة. السماء أو لا شىء هذا هو

جوابى. فلتتزوج كما تحب، وتذهب إلى بروكسل أو باريس، وليتقدم بها العمر حتى يذوى عودها الريان، فلن تظفر بحب كحبى. لا تنسى هذا الطريق ففوق أديمه سكرت بخلب الآمال ثم تجرعت غصص اليأس، لم أعد من سكان هذا الكوكب، غريب أنا وينبغى أن أحيا حياة الغرباء.

عندما مرا بسراى آل شداد فى طريق العودة وجدا العمال عاكفين على نزع الزينات وأسلاك المصابيح الكهربائية من فوق الجدران والأشجار، فتجرد البيت الكبير من حلية الزفاف واشتمل بالظلام، إلا حجرات ظل النور ينبعث من شرفاتها ونوافذها. انتهى الحفل وتفرق الجمع وأذن الحال بأن لكل شىء نهاية، وها هو يعود حاملا علبة الحلوى كأنه طفل يلهى عن البكاء ببضع قطع من الشيكولاتة، وواصلا السير على مهل حتى بلغا مطلع الحسينية، فتصافحا، وافترقا. .

لم يكد كمال يتقدم فى شارع الحسينية أمتارا حتى توقف، ثم انقلب عائدا إلى العباسية التى بدت مقفرة مغرقة فى النوم، وحث خطاه صوب سراى آل شداد، وعندما شارف البيت مال يمنة إلى الصحراء التى تكتنفه وأوغل فيها حتى بلغ موضعا فيما وراء السور الخلفى للحديقة يطل على السراى على بعد، وكان الظلام كثيفًا شاملا يطمئن الرقباء ستائره، ولأول مرة فى ليلته شعر بالبرودة فى ذلك الخلاء العارى، فحبك المعطف حول جسده النحيل الطويل. . تراءى له شبح البيت وراء سوره العالى كالقلعة الضخمة، فجالت عيناه باحثة عن هدف غال حتى استقرتا على نافذة مغلقة يوصوص النور من خلال خصاصها فى أقصى الجناح الأيمن من الدور الثانى، تلك غرفة العرس، الغرفة الوحيدة اليقظى فى هذا الجانب من القصر، كانت بالأمس حجرة نوم عايدة وبدور، وازينت الليلة لشهود أعجب ما جرت به المقادير. تطلع إليها طويلا، أول الأمر بلهفة كأنه طائر مقصوص الجناح يتطلع إلى عشه فوق الشجرة، ثم بحزن عميق كأنما يرى بعينيه مصرعه فيما وراء الغيب، ماذا يدور وراء هذه النافذة؟ . . لو يتاح له أن يتسلق هذه الشجرة فى الحديقة ليرى! إن البقية الباقية من عمره ثمن زهيد يؤديه عن طيب خاطر لقاء نظرة خلال هذه النافذة، وهل قليل أن ترى المعبود فى خلوة زفافه؟ كيف يقيمان؟ وكيف تلتقى العينان؟ وبأى حديث يتناجيان؟ وفى أى مكان من الدنيا ينزوى الآن كبرياء عايدة؟! إنه يتحرق شغفا إلى الرؤية وإلى تسجيل كل كلمة تند أو حركة تصدر أو أمارة تنطق بها أسارير الوجه، بل إلى خطرات النفس وتصورات الخيال ونفثات العاطفة وفورات الغرائز. . كل شىء ولو كان بشعا مرعبًا أو محزنا مؤلما، ولتذهب الحياة بعد ذلك دون أسف، ولبث بمكانه والوقت يمضى لا هو يبرح ولا النور ينطفئ ولا خياله يمل التساؤل. ماذا كان يفعل لو كان فى مكان حسن سليم؟ ودوخته الحيرة دون الجواب، إن العبادة لن تغنى عن هذه الليلة شيئا، وخلا العبادة من مطالب النفس لم يتوجه إلى

عايدة، أما حسن سليم فمن طائفة لا تتقيد بالعبادة. هكذا يتعذب فى الصحراء وهنالك تتبادل قبل مما عهده الناس وتنهدات تتصبب عرقًا وغيبوبة تنز دما وغلالة تنحسر عن جسد فان، كهذا العالم الفانى وآماله الخاوية وأحلامه الطائشة. . . فابك ما بدا لك على هوان الآلهة، وليمتلئ قلبك بالمأساة، ولكن أين يمضى الشعور الباهر الرائع الذى نور قلبه أربعة أعوام؟ لم يكن وهما ولا صدى لوهم، إنه حياة الحياة، ولئن تسيطر الظروف على الجسد فأى قوة تستطيع أن تتطاول إلى الروح، وهكذا لتبقين المعبودة معبودته، والحب عذابه وملاذه، والحيرة ملهاته، حتى يقف أمام الخالق يوما يسائله عما حيره من معضلات الأمور، آه لو يطلع على ما وراء النافذة، لو يكشف سر أسرار وجوده؟ . . وكان البرد يقرصه أحيانا فيذكره بموقفه وبالوقت الذى يمر سادرا، ولكن فيم يتعجل العودة؟ . . أيطمع حقا أن يطرق النوم جفونه هذه الليلة؟!

٣٢

وقف الحنطور أمام دكان أحمد عبد الجواد، وقد لطخ عجلاته الوحل المتراكم فى شارع النحاسين والمياه المتجمعة فى فجواته، فغادره السيد محمد عفت فى جبة صوفية، ودخل الدكان وهو يقول باسما:

ـ جئناك بحنطور، وكان الأسلم أن نجيئك بقارب. .

وكانت الأمطار قد انهملت يوما ونصف يوم حتى سالت الأرض وغرقت الحوارى والأزقة، ومع أن السماء أمسكت ـ بعد ذلك ـ إلا أن تجهمها لم ينكشف، وظل وجهها متواريا وراء سحاب جون أظل الأرض بمظلة قاتمة بعثت فى الجو عكارة كأنها نذير ليل بهيم. واستقبل أحمد عبد الجواد صاحبه بترحاب ودعاه إلى الجلوس، وما كاد محمد عفت يطمئن إلى مجلسه عند ركن المكتب حتى قال كأنما ليجلو سر مجيئه:

ـ لا تعجب لمجيئى فى هذا الجو رغم أننا سنلتقى فى مجلسنا المعتاد بعد ساعات، ولكنى اشتقت إلى الانفراد بك!

وضحك محمد عفت، كأنما ليعتذر عن غرابة قوله، فضحك السيد أيضا، ولكنها كانت ضحكة إلى التساؤل أقرب. وذهب جميل الحمزاوى وكان ملتفعا بكوفية ضمت قمة رأسه وما تحت ذقنه ـ إلى الباب، فنادى صبى قهوة قلاوون ليحضر قهوة، ثم عاد إلى كرسيه وقد أعفاه المطر والبرد من العمل، أما السيد أحمد فقد حدَّثه قلبه بأن وراء الزيارة أمرا، فقد وقعت فى وقت لا تدفع إليه إلا ضرورة، إلى أن الأزمات النفسية التى

عاناها الرجل منذ قريب وما انتابه من مرض أخيرا، كل أولئك جعله عرضة للقلق على غير عادته، غير أنه دارى قلقه بضحكة لطيفة، ثم قال:

ـ كنت قبيل حضورك أتذكر سهرة الأمس وأستعيد منظر الفار وهو يرقص! الله يقطعه.

فقال محمد عفت باسما:

ـ كلنا تلاميذك! وبهذه المناسبة دعنى أنقل إليك ما يشيعه علىّ عبد الرحيم عنك، إنه يقول إن الصداع الذى انتابك فى الأسابيع الماضية ما هو إلا عارض لخلو حياتك من النساء فى الأيام الأخيرة!

ـ لخلو حياتى من النساء! وهل للصداع من سبب غير النساء؟!

وجاء صبى القهوة بأقداح القهوة والماء على صينية صفراء، فوضعها على ركن المكتب الذى يجلس حوله الصديقان، ومضى، وشرب محمد عفت شربة ماء، ثم قال:

ـ شرب الماء البارد فى الشتاء لذيذ، ما رأيك فى هذا؟ لكن فيم سؤالى وأنت من عشاق الشتاء الذين يستحمون كل صباح بالماء البارد حتى فى هذه الأيام من فبراير.. الآن خبِّرنى، هل أعجبتك أنباء المؤتمر الوطنى الذى احتشد فى بيت محمد محمود؟ عشنا وشفنا مرة أخرى سعد وعدلى وثروت فى جبهة واحدة!

فتمتم السيد قائلا:

ـ ربنا من حكمته أنه يقبل التوبة..

ـ إنى لا اثق فى هؤلاء الكلاب..

ـ ولا أنا، ولكن ما العمل؟ الملك فؤاد طيِّنها، ومن المحزن أن المعركة لم تعد بيننا وبين الإنجليز.

ثم مضيا يحتسيان القهوة فى صمت إن دل على شىء فعلى أن الحديث العابر لم يعد له محل، وأن على محمد عفت أن يدلى بما عنده. واعتدل الرجل فى جلسته، وخاطب السيد بلهجة جدية متسائلا:

ـ أعندك أخبار عن ياسين؟

انعكس السؤال فى عينى السيد الواسعتين اهتماما مشوبا بقلق، وفى الوقت ذاته خفق قلبه خفقة مروعة، قال:

ـ خير!. إنه يزورنى من حين لآخر، وكانت زيارته الأخيرة يوم الاثنين الماضى فهل من جديد؟ أمر يتعلق بمريم؟ لقد رحلت إلى جهة مجهولة، وعلمت أخيرا أن بيومى الشربتلى اشترى نصيبها فى بيت أمها.

قال محمد عفت وهو يتكلف ابتسامة :

ـ الأمر لا يتعلق بمريم، من يدرى لعلها غابت عن ذاكرته، المسألة دون لف أو دوران زواج جديد.

فخفق قلبه مرة أخرى فيما يشبه الفزع وهو يقول :

ـ زواج جديد ؟! ولكنه لم يشر إلى ذلك بتاتا فى أحاديثه معى!

هز محمد عفت رأسه آسفا، وقال :

ـ لقد تزوج بالفعل من شهر أو أكثر، حدثنى بذلك غنيم حميدو منذ ساعة فقط، وكان يظن أنك تعلم كل شىء!

جعلت يسراه تعبث بشاربه بسرعة عصبية، ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :

ـ لهذا الحد! كيف أصدق هذا؟! كيف أخفى عن الأمر؟!

ـ الحال تقتضى الكتمان! أصغ إلىّ، لقد آثرت أن أكاشفك بالحقيقة قبل أن تفاجأ بها مفاجأة غير كريمة، ولكن لا يصح أن نعيرها أكثر مما تستحق، وينبغى قبل كل شىء ألا تستسلم للغضب، لم يعد الغضب مما تحتمله، اذكر تعبك الأخير وارحم نفسك.

قال السيد يائسا :

ـ فى الأمر فضيحة؟! هذا ما حدثنى به قلبى، هات ما عندك يا سيد محمد..

هز محمد عفت رأسه آسفا، ثم قال بصوت منخفض :

ـ كن دائما أحمد عبد الجواد الذى عهدناه، لقد تزوج من زنوبة العوادة!

ـ زنوبة!

وتبادلا نظرة ذات دلالة، وسرعان ما بدا الارتباك فى وجه أحمد والإشفاق فى وجه صاحبه، ثم لم تعد مسألة الزواج ذاتها بالأولى فى الأهمية، فتساءل السيد أحمد بلهجة لاهثة :

ـ ترى هل تعلم زنوبة بأنه ابنى؟!

ـ لا يداخلنى فى هذا شك، غير أنى أكاد أوقن بأنها لم تطلعه على سرك لتتمكن من إيقاعه فى الشرك، وقد نجحت نجاحا تستحق عليه كل تهنئة!

ولكن أحمد عبد الجواد عاد يتساءل بنفس اللهجة اللاهثة :

ـ أم تراه أخفى عنى الأمر لعلمه بما كان ؟

ـ كلا، لا أصدق هذا، لو سبق هذا إلى علمه ما أقدم على الزواج منها، إنه شاب طائش ما فى ذلك من ريب، ولكنه ليس نذلا، وإذا كان قد أخفى عنك الأمر، فما

ذلك إلا لأنه لم يجد الشجاعة ليصارحك بأنه تزوج من عوادة! يا ويل الآباء من الأبناء الطائشين، الحق أننى تألمت كثيرا، ولكنى أكرر الرجاء بألا تستسلم للغضب، ذنبه على جنبه، وأنت برىء من فعلته ولا لوم عليك.

تنهد أحمد عبد الجواد بصوت مسموع، ثم سأل صاحبه:

ـ خبرنى كيف علّق غنيم حميدو على الخبر؟

فلوَّح محمد عفت بيده مستهينا، وقال:

ـ سألنى: كيف يرضى السيد أحمد عن هذا؟ فقلت له: إن الرجل لا يعلم شيئا. فتأسف وقال لى: انظر إلى المدى البعيد بين الأب وابنه! كان الله فى عونه.

قال أحمد بلهجة راثية:

ـ أهذه عاقبة تربيتى لهم؟ إنى فى حيرة شديدة يا سيد محمد، المصيبة أننا نفتقد السيطرة الفعلية عليهم فى الوقت الذى تستوجب مصلحتهم الحقيقية سيطرتنا، إنهم بحكم العمر يتحملون مسئولية أنفسهم، ولكنهم يسيئون استعمالها دون أن نستطيع تقويم ما يعوج منهم، نحن رجال ولكننا لم نلد رجالا، من أين جاء العيب يا ترى؟ هذا الثور! امرأة فى متناول كل يد فماذا دعاه إلى الزواج منها؟! فلنبك على أنفسنا، لا حول ولا قوة إلا بالله.

وضع محمد عفت يده على منكب صاحبه بحنو، وقال:

ـ لقد أدينا ما علينا من واجب، الأمر بعد ذلك لصاحب الأمر، وهيهات أن يراك أحد مستحقا للوم.

عند ذاك جاء صوت الحمزاوى الأسيف وهو يقول:

ـ لا يستطيع منصف أن يلومك على أمر كهذا يا سى السيد، على أنه يخيل إلىّ أن الأمل فى الإصلاح لم ينعدم، انصحه يا سى السيد.

ـ إنه يبدو بين يديك طفلا مطيعا، وهو سيطلقها حتما غدا أو بعد غد فخير البر عاجله..

فتساءل السيد متشكيا:

ـ وإن كانت قد حبلت؟

فجاء صوت الحمزاوى وهو يقول جزعا:

ـ لا قدر الله ولا سمح..

وبدا أن عند محمد عفت مزيدا من القول، فنظر إلى صاحبه بإشفاق، ثم قال:

ـ ومن المؤسف حقا أنه باع دكانه بالحمزاوى ليؤثث بيته من جديد!

حملق أحمد فى وجهه، ثم قطب منفعلا، وهتف حانقا:

ـ كأنى غير موجود فى هذه الدنيا!.. حتى فى هذا لا يشاورنى!

ثم وهو يضرب كفا بكف:

ـ ضحكوا عليه بلا ريب، وجدوا فى طريقهم لقية، بغلا بلا سائس فى ثياب أفندى..

فقال محمد عفت متأثرا:

ـ تصرفات أطفال!.. نسى أباه ونسى ابنه! ولكن ما الفائدة من الغضب؟!

صاح أحمد عبد الجواد:

ـ يخيل إلىَّ أنه ينبغى أن آخذه بالحزم مهما تكن العواقب..

مد محمد عفت ذراعيه كأنما يدفع رزية، وقال بتوسل:

ـ إن كبر ابنك آخه، لا تخطئ وأنت سيد العارفين، ليس عليك إلا النصيحة وليقض الله بما هو قاض..

وخفض محمد عفت عينيه متفكرا، وبدا لحظات كالمتردد، ثم قال:

ـ ثمة أمر يهمنى كما يهمك ألا وهو رضوان!

وتبادل الرجلان نظرة طويلة، ثم استطرد محمد عفت قائلا:

ـ سيبلغ الغلام السابعة من عمره بعد أشهر، وأخاف أن يطالب به فينشأ بين أحضان زنوبة، هذا شر يجب دفعه، ولا إخالك توافق عليه، فأقنعه بأن يترك الغلام عندنا حتى يقضى الله أمرا..

لم يكن من طبع أحمد عبد الجواد أن يرحب بأن يبقى ابن ابنه عند آل أمه بعد انقضاء فترة الحضانة الشرعية، ولكنه من ناحية أخرى لم يشأ أن يقترح ضمه إلى بيته هو حتى لا يضيف إلى أعباء أمينة عبئًا جديدا لم تعد بحكم سنها أهلا لحمله، فقال فى استسلام أسيف:

ـ لا يصح أن يتربى رضوان فى بيت زنوبة هذا ما أقرك عليه..

فقال محمد عفت وهو يتنهد بارتياح:

ـ إن جدته تحبه من كل قلبها، وحتى لو دعت ظروف قهرية فى المستقبل إلى أن ينتقل إلى بيت أمه فسوف يجد هناك جوا صالحا، إذ إن زوج أمه رجل فى الأربعين أو جاوزها، وقد حرمه الله من نعمة الذرية..

فقال أحمد عبد الجواد برجاء:

ـ لكنى أفضل أن يبقى عندك..

ـ طبعا . . طبعا ، إنى تكلمت عن احتمالات بعيدة أسأل الله ألا نضطر إليها ، الآن لم يبق لى إلا أن أرجوك أن تترفق فى مخاطبته ومحاسبته حتى يتيسر إقناعه بترك رضوان لى . .

وهنا جاء صوت الحمزاوى المسالم وهو يقول :

ـ السيد أحمد سيد الحكماء ، وهل يغيب عنه أن ياسين رجل؟ وأنه مثل كافة الرجال حر التصرف فى شئونه وأملاكه؟ هذا ما لا يمكن أن يغيب عن السيد ، وما عليه إلا النصيحة ، والباقى على الله . .

استسلم أحمد عبد الجواد بقية النهار إلى التفكير والحزن . قال لنفسه : إن ياسين فى كلمة ابن مخيب للآمال ، وليس أفجع من ابن مخيب للآمال ، إن مآله بين ويا للأسف! ولن يحتاج إلى قوة بصيرة كى يتصوره ، أجل سوف ينحدر من سيئ إلى أسوأ وعند الله اللطف . وقد رجاه جميل الحمزاوى أن يؤجل مخاطبة ياسين إلى الغد ، فانصاع لرجائه يائسا أكثر منه قادرا لوجاهة النصح .

وعند عصر اليوم التالى استدعاه إلى مقابلته ، فلبَّى ياسين مبادرا كما ينبغى للابن المطيع . والحق أن ياسين لم يقطع ما بينه وبين أهله من أسباب . كان البيت القديم المكان الوحيد الذى لم يجد الشجاعة للعودة إليه على شدة حنينه إليه ، وما من مرة كان يلتقى فيها بأبيه أو خديجة أو عائشة إلا ويحملهم السلام إلى امرأة أبيه . أجل لم ينس قلبه غضبها عليه ولم تمح من صفحته آثار ما سماه تعنتها معه ، بيد أنه أبى أن ينسى كذلك العهد القديم ، عهد لم يكن يعرف أما إلاها . ولم ينقطع عن زيارة أختيه ، كما كان يقابل كمال أحيانا فى قهوة أحمد عبده أو يدعوه إلى بيته حيث عرف الشاب مريم أولا ثم زنوبة أخيرا . أما أبوه فكان يزوره فى دكانه مرة على الأقل كل أسبوع ، وهنا أتيح لياسين أن يعرف شخصية أبيه الثانية التى يأسر الناس بها ، فنشأت بين الرجلين صداقة وطيدة ومودة وثيقة ، غذتها صلة الرحم من ناحية وفرحة اكتشاف الأب على حقيقته من ناحية أخرى . غير أن ياسين وهو يتفرس فى وجه أبيه ذلك اليوم لمح فيه ما ذكره بالوجه القديم الذى طالما بعث فى أطرافه الرعب ، ولم يتساءل عما طرأ عليه ، لأنه كان واثقا من أنه سيقف على سره عاجلا أو آجلا ، فلم يشك فى أنه مُلاقٍ العاصفة التى توقع هبوبها منذ أقدم على فعلته . بادره الرجل قائلا :

ـ يحزننى أن أجد نفسى بهذا الهوان ، وماذا وراء أن أعرف أنباء ابنى من الآخرين؟

فطامن ياسين رأسه ولم ينبس ، فثار الرجل على طلاء المسكنة الكاذب الذى يطالعه به ، وصاح :

ـ اخلع هذا القناع ، دعك من النفاق وأسمعنى صوتك ، طبعا أنت تعلم ما أعنيه!

فقال ياسين بصوت لم يكد يسمع :

ـ لم أجد الشجاعة لإخبارك . .

ـ هذا شأن من يتستر على ذنب أو فضيحة !

حذرته غريزته من أن يلجأ إلى أى نوع من أنواع المعارضة ، فقال باستسلام :

ـ نعم . .

فسأله السيد ذاهلا :

ـ إذا كان هذا هو رأيك حقا ، فلمَ فعلتها؟ !

لاذ ياسين بالصمت مرة أخرى ، فخيل إلى الأب أنه يقول له بصمته «عرفت أنها فضيحة ولكنى أذعنت للحب ! » ، وذكره هذا بموقفه المخزى أمام المرأة ذاتها ، يا للعار ! غسلت خزيك بغضبة كبرى ، ولكنك عدت تسعى إليها ! أما هذا الثور فما أضيعه !

ـ فضيحة ارتضيتها أنت دون تقدير للعواقب لنتعذب بها نحن جميعا !

هتف بسذاجة قائلا :

ـ أنتم جميعا؟ ! معاذ الله . .

عاود السيد الغضب ، فصاح به :

ـ لا تتصنع الجهل ، لا تدع البراءة ، أنت تعلم أنك فى سبيل شهواتك لا تبالى ما يصيب سمعة أبيك وإخوتك ، أقحمت على الأسرة عوادة لتكون هى ومن بعدها ذريتها منًّا ، لا إخالك كنت تجهل هذا قبل أن أذكره ، ولكنك تستهين بكل شىء فى سبيل شهوتك ، هانت كرامة الأسرة على يديك ، وأنت نفسك تنهار حجراً بعد حجر ، وسوف تجد نفسك فى النهاية خرابا . .

غض البصر لائذا بالصمت حتى نطقت حاله بالذنب والتسليم ، لن تكلفك هذه الفضيحة إلا قدرا من التمثيل كما أرى ، حسبك هذا ، أما أنا فسأرزق غدا بحفيد أمه زنوبة وخالته زبيدة ، مصاهرة طريفة بين السيد أحمد التاجر المعروف وزبيدة العالمة الذائعة الصيت ، لعلنا نكفر عن ذنوب لا ندريها !

ـ إن بدنى يقشعر كلما فكرت فى مستقبلك ، قلت لك إنك تنهار وسوف تنهار أكثر وأكثر ، خبرنى ماذا فعلت بدكان الحمزاوى؟

رفع إليه عينين كئيبتين ، وتردد مرات ، ثم قال :

ـ كنت فى حاجة ماسة إلى المال . .

ثم وهو يخفض عينيه :

ـ لو كانت الظروف غير الظروف لا قترضت ما أحتاجه من حضرتك ، ولكن الأمر كان محرجا . .

السيد حانقا :

ـ يا لك من مراء! ألا تخجل من نفسك؟ أراهن على أنك لم تجد فى كل ما فعلته أى غرابة أو إنكار، أنا عارفك وفاهمك فلا تحاول أن تخدعنى، ليس عندى إلا كلمة واحدة وإن كنت أعلم مقدما ألا طائل تحتها : أنت تخرب نفسك بنفسك ونهايتك سوداء . .

عاد ياسين إلى صمته متظاهراً بالأسى . الثور! هى جذابة شيطانة ولكن ماذا اضطرك بالزواج منها؟ كنت أظن أنها طالبتنى بالزواج طمعا فى تقدم عمرى، لكنها أوقعت هذا الثور على شبابه . ووجد عند ذاك شيئا من الارتياح والعزاء . كانت خطتها المدبرة أن تتزوج بأى ثمن إلا أنها آثرت غيرى علىّ، فوقع هذا الأحمق :

ـ طلَّقها؟ طلَّقها قبل أن تصير أما وتفضحنا إلى أبد الآبدين!

تردد ياسين مليا، ثم تمتم :

ـ حرام علىَّ أن أطلقها بلا ذنب!

يا بن الكلب! . . أتحفتنى بنكتة بارعة لسهرة الليلة!

ـ سوف تطلقها عاجلا أو آجلا، ولكن قبل أن تنجب لك طفلا يكون مشكلتك ومشكلتنا . .

تنهد بصوت مسموع مستغنياً بذلك عن الكلام، على حين راح الأب يتفحصه فيما يشبه الحيرة، فهمى مات، كمال أبله أو مجنون، وهذا ياسين لا أمل فيه . المحزن أنه أعز الجميع لدى . دع الأمر لله، رباه! ماذا يكون الحال لو زلَّت قدمى إلى الزواج؟

ـ بكم بعت الدكان؟

ـ مائتى جنيه . .

ـ تستحق ثلاثمائة، موقعها ممتاز جدا يا جاهل، لمن بعتها؟

ـ على طولون، بائع الخردوات .

ـ مبارك مبارك، هل ضاع المبلغ فى الجهاز الجديد؟

ـ لدَّى منه مائة . .

بلهجة ساخرة :

ـ أحسنت، فالعريس لا يستغنى عن النقود . .

ثم بلهجة جادة حزينة :

ـ يا ياسين اسمع كلامى، أنا أبوك، احترس وغيّر سيرتك، أنت نفسك أب، ألا تفكر فى ابنك ومستقبله؟!

فقال مدافعا متحمسا :

ـ إن نفقته الشهرية تصله على آخر مليم!

ـ أهى مسألة تجارية؟ إنى أتكلم عن مستقبله، بل عن مستقبل الآخرين الذين ينتظرون فى عالم الغيب!

فقال ياسين باطمئنان :

ـ ربنا يخلق ويرزق . .

هتف الرجل باستياء :

ـ ربنا يخلق ويرزق وحضرتك تبدد! قل لى . . .

واعتدل فى جلسته، ثم تساءل وهو يركز فيه عينيه القويتين :

ـ رضوان على عتبة السابعة، فماذا أنت صانع به؟ أتأخذه لينشأ فى أحضان حرمكم؟

لاح فى الوجه الممتلئ الارتباك، ثم تساءل بدوره :

ـ ماذا أفعل إذن؟ لم أعمل فى الأمر فكرى . .

هز الرجل رأسه فى أسى ساخر، وقال :

ـ دفع الله عنك شر الفكر! وهل لديك وقت لتبذره فيه؟! دعنى أفكر عنك، دعنى أقول إن رضوان يجب أن يبقى فى حضانة جده . .

فكر قليلا، ثم خفض رأسه بالإيجاب قائلا بانصياع :

ـ الرأى رأيك يا أبى، هذا فى صالحه ولا شك . .

قال الأب متهكما :

ـ يبدو لى أنه فى صالحك أيضًا كيلا تشغل نفسك بأمور تافهة!

ابتسم دون تعليق، كأنما يقول له «إنى واثق من أنك تمزح ولا بأس من ذلك».

ـ ظننت أنه سيشق علىّ إقناعك بالتخلى عنه!

ـ إن ثقتى فى رأيك هى التى جعلتنى أبادر إلى الموافقة!

فتساءل السيد بدهشة ساخرة :

ـ أتثق حقا فى رأيى؟! لمَ لَمْ تعمل به فى الأمور الأخرى؟!

ثم وهو يتنهد آسفا :

ـ القصد! ربنا يهديك، وذنبك على جنبك، سأحدث محمد عفت الليلة فى شأن الاحتفاظ برضوان، على أن تقوم بكل نفقاته فعسى أن يوافق . .

عند ذاك نهض ياسين وسلم على أبيه واتجه نحو باب الدكان، وما إن خطا خطوتين حتى أدركه صوت أبيه وهو يسأله:

ـ ألا تحب ابنك ككل الآباء؟

فتوقف ياسين متلفتا نحوه، وهو يقول بإنكار:

ـ وهل يحتاج هذا إلى قرار يا أبى! إنه أعز شىء فى الحياة..

فرفع السيد حاجبيه، وقال وهو يهز رأسه هزة غامضة:

ـ مع السلامة..

٣٣

قبل الخروج إلى صلاة الجمعة بساعة، دعا أحمد عبد الجواد كمال إلى حجرته، لم يكن يدعو أحدا من أهل بيته إلى مقابلته إلا لأمر هام، والحق أنه كان مبلبل الفكر، متحفزاً لاستجواب ابنه عما يشغله. وكان بعض أصحابه قد وجهوا نظره مساء أمس إلى مقال ظهر فى البلاغ الأسبوعى بقلم الأديب الناشئ «كمال أحمد عبد الجواد»، ومع أن أحدا منهم لم يقرأ من المقال إلا العنوان وهو «أصل الإنسان» والإمضاء وهو الأديب الناشئ «كمال أحمد عبد الجواد» فإنهم اتخذوا منه مادة للتعليق والتهنئة وممازحة السيد، حتى فكر الرجل جادا فى أن يكلف الشيخ متولى عبد الصمد بعمل حجاب للشاب. قال له محمد عفت: «سجل اسم ابنك مع أسماء كبار الكُتّاب فى مجلة واحدة، طب نفسا وادع الله أن يكتب له مستقبلا باهرا كما كتب لهم»، وقال له على عبد الرحيم: «سمعت من شخص محترم أن المرحوم المنفلوطى ابتاع عزبة بقلمه فأبشر خيرا»، وحدثه آخرون عن القلم وكيف شق السبيل لكثيرين إلى حظوة الحكام والزعماء، ضاربين الأمثال بشوقى وحافظ والمنفلوطى، وعندما جاء دور إبراهيم الفار داعبه قائلا: «سبحان الذى خلق من ظهر الجاهل عالما»، أما السيد فقد ألقى نظرة على العنوان ونظرة على «الأديب الناشئ»، ثم وضع المجلة فوق جبته التى كان قد نزعها بسبب حرارة يونيو وحميا الويسكى مؤجلا قراءتها حتى ينفرد بنفسه فى البيت أو فى الدكان، ثم واصل سهرته بصدر منشرح وضمير تياه فخور، بل جعل يراجع نفسه لأول مرة فى سخطه المكظوم على إيثار الشاب لمدرسة المعلمين قائلا إن «الولد» فيما يبدو سيكون «شيئا» رغم اختياره غير الموفق، وبنى أحلاما على ما قيل عن «القلم» وحظوة الكبراء وعزبة المنفلوطى، أجل، من يدرى؟ لعله لا يكون معلما فحسب ولكن ويشق السبيل حقا إلى حياة لم

تخطر له هو على بال. وعند ضحى اليوم، وعند فراغه من الصلاة والإفطار، تربع على الكنبة وفتح المجلة باهتمام وراح يقرأ بصوت مرتفع ليمتلئ بمعانيها، لكن ماذا وجد فيها؟ إنه يقرأ المقالات السياسية فيفهمها دون عناء، أما هذه المقالة فإنها دارت برأسه وأفزعت قلبه، وأعاد تلاوتها بعناية فطالع كلاما عن عالم يدعى «دارون» ومجهوده فى جزر نائية، ومقارنات ثقيلة بين شتى الحيوانات حتى وقف مبهوتا عند تقرير غريب يزعم أن الإنسان سلالة حيوانية! بل أنه متطور عن نوع من القردة! وكرر تلاوة الفقرة الخطيرة منزعجا، ثم لبث ذاهلا أمام هذه الحقيقة الأسيفة وهى أن ابنا من صلبه يقرر ـ دون اعتراض أو مناقشة ـ أن الإنسان سلالة حيوانية! انزعج الرجل انزعاجا شديدا وتساءل فى حيرة: هل حقا يعلمون الأولاد هذه المعلومات الخطيرة فى مدارس الحكومة؟ ثم أرسل فى طلب كمال.

وجاء كمال وهو أبعد ما يكون عما يعتلج فى رأس أبيه، وكان قد استدعاه قبل ذلك بأيام ليهنئه على النقل إلى السنة الثالثة فظن بالدعوة الجديدة خيرا. وبدا شاحب الوجه ضامر الجسم كعهده فى الفترة الأخيرة فى حال عللتها الأسرة بالجهد الشديدالذى بذله قبيل الامتحان، ولكن غاب عنها سرها الحقيقى وهو ما عاناه طيلة الأشهر الخمسة الماضية من ألم وعذاب أسيرا لعاطفة مستبدة جهنمية كادت تودى به، وأشار السيد إليه بالجلوس، فجلس على طرف الكنبة متجها نحو أبيه بأدب، وعند ذاك لمح أمه جالسة أمام الصوان مشغولة بترتيب الثياب وخيطها، أما الرجل فقد رمى بالبلاغ الأسبوعى إلى الفراغ الذى يفصل بينهما على الكنبة وقال بهدوء مصطنع:

ـ لك مقال فى هذه المجلة، أليس كذلك؟

خطف غلاف المجلة عينى كمال فرنا إليه بعين ذاهلة دلت على أنه لم يكن يتوقع هذه المفاجأة قط.. من أين لأبيه هذا الاطلاع المستجد على المجلات الأدبية؟! لقد سبق أن نشر فى الصباح «تأملات» بين النثر والشعر المنثور ضمنها نظرات فلسفية بريئة وأنّات عاطفية، وهو آمن كل الأمن من ناحية اطلاع أبيه عليها، فلم يدر بها أحد من أسرته إلا ياسين الذى كان هو نفسه يقرأها عليه فينصت الآخر، ثم يقول له معلقا: «هذا ثمرة توجيهى الأول لك، أنا الذى علمتك الشعر والقصص، جميل يا أستاذ، ولكن هذه فلسفة عميقة جدا فمن أين جئت بها؟» أو يقول مداعبا: «من الحسناء التى ألهمتك هذه الشكوى الرقيقة؟، ستعلم يا أستاذ يوما أنهن لا يجدى معهن إلا ضرب المراكيب»، ولكن ها هو يطلع على أخطر ما كتب، تلك المقالة التى شب التفكير فيها معركة جهنمية فى صدره وعقله كاد يحترق فى أتونها، فكيف حدث هذا؟ وهل يجد له من تفسير إلا عند أصدقاء أبيه الوفديين الذين يحرصون على اقتناء كافة الجرائد والمجلات الوفدية؟

وهل يطمع فى أن يخرج سالما من هذا المأزق؟ رفع عينيه عن المجلة، ثم قال بلهجة لم يمكنها من الإفصاح عن اضطرابه:

- بلى، خطر لى أن أكتب موضوعا تثبيتا لمعلوماتى وتشجيعا لنفسى على مواصلة الدرس..

قال السيد أحمد بهدوئه المصطنع:

- لا عيب فى ذلك، الكتابة فى الصحف كانت ولم تزل الوسيلة إلى الجاه والحظوة عند الكبراء، ولكن المهم الموضوع الذى يكتب فيه الكاتب، ماذا أردت بهذه المقالة؟ اقرأها واشرحها لى، فقد غمض علىّ مرماك..

يا للتعاسة! ليس هذا المقال للجهر، وخاصة على مسمع من أبيه!

- إنه مقال طويل يا بابا، ألم تقرأه حضرتك؟ إنى أشرح فيه نظرية علمية..

حدجه الرجل بنظرة براقة متحفزة، أهذا ما يدعونه بالعلم الآن؟ ألا لعنة الله على العلم والعلماء..

- ماذا تقول فى هذه النظرية؟ لقد لفتت نظرى عبارات غريبة تقول إن الإنسان سلالة حيوانية، أو شيئا من هذا القبيل، أحق هذا؟

بالأمس ناضل نفسه وعقيدته وربه نضالا عنيفا أعيا روحه وجسده، واليوم عليه أن يناضل أباه، غير أنه كان فى الجولة الأولى معذبا محموما. أما فى هذه الجولة فهو خائف مرتعب، إن الله قد يؤجل عقابه، أما أبوه فشيمته التعجيل بالعقاب..

- هذا ما تقرره هذه النظرية!

علا صوت السيد وهو يتساءل فى انزعاج:

- وآدم أبو البشر الذى خلقه الله من طين ونفخ فيه من روحه، ماذا تقول عنه هذه النظرية العلمية؟!

طالما طرح هذا السؤال على نفسه، لم يكن دون أبيه انزعاجا، ولم يغمض له عين ليلتها حتى الصباح، وتقلب فى الفراش متسائلا عن آدم والخالق والقرآن، وقال لنفسه مرة وعشرا: القرآن إما أن يكون حقا كله أو لا يكون قرآنا، إنك تحمل علىّ لأنك لم تدر بعذابى، لو لم أكن قد اعتدت العذاب وألفته لأدركنى الموت تلك الليلة. قال بصوت خافت:

- دارون صاحب هذه النظرية لم يتكلم عن «سيدنا» آدم..

هتف الرجل غاضبا:

- لقد كفر دارون ووقع فى حبائل الشيطان، إذا كان أصل الإنسان قردا أو أى حيوان

آخر، فلم يكن آدم أبا للبشر . . هذا هو الكفر عينه، هذا هو الاجتراء الوقح على مقام الله وجلاله!! إنى أعرف أقباطا ويهودا فى الصاغة وكلهم يؤمنون بآدم، كل الأديان تؤمن بآدم فمن أى ملة دارون هذا؟! إنه كافر وكلامه كفر، ونقل كلامه استهتار، خبرنى أهو من أساتذتك فى المدرسة؟

ما أدعى هذا إلى الضحك لو كان فى القلب فراغ للضحك، لكنه قلب أفعمته الآلام، ألم الحب الخائب، وألم الشك وألم العقيدة المحتضرة، إن الموقف الرهيب بين الدين والعلم أحرقك، ولكن كيف يسع عاقل أن يتنكر للعلم؟ قال بصوت متواضع:

ـ دارون عالم إنجليزى مات منذ زمن بعيد . .

وهنا ند عن الأم صوت يقول بتهدج:

ـ لعنة الله على الإنجليز أجمعين . .

فالتفتا نحوها التفاتة قصيرة، فوجداها قد تركت الثياب والإبرة وتابعت الحديث، ولكن سرعان ما انصرفا عنها وعاد الأب يقول:

ـ خبرنى، هل تدرسون هذه النظرية فى المدرسة؟

التقف حبل النجاة الذى تدلى إليه فجأة، فقال لائذا بالكذب:

ـ نعم . .

ـ أمر غريب! وهل تدرس هذه النظرية فيما بعد لتلاميذك؟!

ـ كلا، سأكون مدرس آداب لا علاقة لها بالنظريات العلمية . .

ضرب السيد كفا بكف، ود فى تلك اللحظة لو كان له على العلم بعض ما له على الأسرة من سلطان، وهتف محنقا:

ـ إذن لماذا يدرسونها لكم؟! هل الغاية إدخال الكفر فى قلوبكم؟

فقال كمال بلهجة المحتج:

ـ معاذ الله أن يؤثر فى عقيدتنا مؤثر . .

فتفحصه بارتياب وهو يقول:

ـ ولكنك نشرت الكفر بمقالك!

فقال بارتباك:

ـ أستغفر الله، إنى أشرح النظرية ليلم بها القارئ لا ليؤمن بها، هيهات أن يؤثر فى قلب المؤمن رأى كافر . .

ـ ألم تجد موضوعا غير هذه النظرية المجرمة لتكتب فيه؟

لماذا كتب مقالته؟ لقد تردد طويلا قبل أن يرسلها إلى المجلة، ولكنه كان كأنما يود أن

ينعى إلى الناس عقيدته. لقد ثبتت عقيدته طوال العامين الماضيين أمام عواصف الشك التى أرسلها المعرى والخيام، حتى هوت عليها قبضة العلم الحديدية فكانت القاضية، على أننى لست كافرا، لا زلت أومن بالله، أما الدين..؟ أين الدين؟ ذهب! كما ذهب رأس الحسين، وكما ذهبت عايدة، وكما ذهبت ثقتى بنفسى! ثم قال بصوت حزين:

ـ لعلى أخطأت، عذرى أننى كنت أدرس هذه النظرية..

ـ ليس هذا بعذر، وعليك أن تصلح خطأك..

ـ يا له من رجل طيب! إنه يطمع فى أن يحمله على مهاجمة العلم فى سبيل الدفاع عن أسطورة. حقا لقد تعذبت كثيرا ولكنه لن يقبل أن يفتح قلبه من جديد للأساطير والخرافات التى طهره منها، كفى عذابا وخداعا، لن تعبث بى الأوهام بعد اليوم، النور النور، أبونا آدم! لا أب لى، ليكن أبى قردا إن شاءت الحقيقة، إنه خير من آدميين لا عدد لهم، لو كنت من سلالة نبى حقا ما سخرت منى سخريتها القاتلة!

ـ وكيف أصلح الخطأ؟

فقال السيد ببساطة وحدة معا:

ـ عندك حقيقة لا شك فيها، وهى أن الله خلق آدم من تراب، وأن آدم هو أبو البشر، هذا مذكور فى القرآن، فما عليك إلا أن تبين أوجه الخطأ وهو عليك هيِّن، وإلا فما فائدة ثقافتك؟

وهنا جاء صوت الأم قائلا:

ـ ما أيسر أن تبين خطأ من يعارض قول الرحمن، قل لهذا الإنجليزى الكافر: إن الله يقول فى كتابه العزيز: إن آدم هو أبو البشر، كان جدك من حملة كتاب الله فعليك أن تنتهج سبيله، لقد سرنى أنك تبغى أن تكون مثله من العلماء..

لاح الضيق فى وجه السيد، فانتهرها قائلا:

ـ ماذا تفهمين أنت من كتاب الله أو من العلم؟ دعينا من جده وانتبهى إلى ما بين يديك..

فقالت فى حياء:

ـ أريد يا سيدى أن يكون كجده من العلماء الذين يضيئون الدنيا بنور الله..

فصاح الرجل ساخطا:

ـ ها هو قد بدأ ينشر الظلام..

فقالت المرأة بإشفاق:

ـ معاذ الله يا سيدى، لعلك لم تفهم..

حدجها السيد بنظرة قاسية . لقد خفف من شدته فى معاملتهم فماذا كانت النتيجة؟ ها هو كمال يذيع أن أصل الإنسان قرد، وها هى أمه تناقشه وتقول له لم تفهم، صاح بها :

ـ دعينى أتكلم، لا تقاطعينى، لا تتدخلى فيما لا تفهمين، انتبهى إلى عملك، الله يقطعك . .

ثم ملتفتا إلى كمال بوجه متجهم :

ـ خبرنى، هل أنت فاعل ما قلت لك؟

عليك رقيب فى البيت لم يبتل الأحرار بمثله فى الدول، لكنك كما تخافه تحبه، فلن يطاوعك قلبك على الإساءة إليه . تجرع الألم فقد اخترت حياة النضال . .

ـ كيف يمكن أن أرد على هذه النظرية؟ لو انحصرت مناقشتى فى الاستشهاد بالقرآن لما جاءت بجديد، فالكل يعلم بما عندى ويؤمن به، أما مناقشتها علميا فشأن المختصين من العلماء . .

ـ ولماذا تكتب فيما لا شأن لك به؟

اعتراض وجيه فى ذاته، غير أنه من المؤسف أنه لا يجد الشجاعة للاعتراف لأبيه بأنه آمن بالنظرية بصفتها حقيقة علمية، وأنها بهذه الصفة يمكن الاعتماد عليها فى إنشاء فلسفة عامة للوجود خارج نطاق العلم، أما السيد فقد ظن صمته إقرارا بالخطأ فتضاعف أسفه وحنقه . إن الضلال فى هذا الميدان شديد الخطورة سيئ العاقبة، وهو ميدان لا سلطان له عليه، وربما وجد فيه نفسه مكتوف اليدين أمام الشاب الضال كما وجد نفسه من قبل أمام ياسين بعد انفلاته من وصايته، فهل يجرى عليه ما جرى على الآباء الآخرين فى هذه الأيام الغريبة؟! إن أنباء كالأساطير تترامى إليه عن شباب « اليوم »، منهم تلاميذ قد اعتادوا التدخين، وآخرون يعبثون بكرامات المدرسين، وغير هؤلاء وأولئك قد تمردوا على آبائهم . أجل لم تهن هيبته، ولكن عم أسفر ذلك التاريخ الطويل من الحزم والصرامة؟ ها هو ياسين يتدهور ويضمحل، وها هو كمال يناقش ويجادل ويحاول التملص من قبضته :

ـ أصغ إلىّ بكل وعيك، لا أريد أن أقسو عليك فإنك مؤدب ومطيع، أما عن موضوعنا فلا أملك لك إلا النصيحة، وينبغى أن يتذكر أنه ما من أحد قد خالف نصيحتى وسلم . .

ثم بعد صمت قصير :

ـ إليك ياسين شاهدا عما أقول، وقد نصحت قديما «المرحوم» بألا يلقى بنفسه إلى التهلكة، ولو امتد به العمر لكان رجلا نابها .

وهنا قالت الأم بصوت كالأنين :

ـ قتلوه الإنجليز ، إنهم إما يقتلون وإما يكفرون!

وواصل السيد حديثه قائلا :

ـ إذا وجدت فى دروسك ما يخالف الدين ، واضطررت إلى حفظه كى تنجح فى الامتحان ، فلا تؤمن به ، ومن باب أولى لا تنشره فى الصحف وإلا حملت وزره ، ليكن موقفك من علم الإنجليز كموقفنا من احتلالهم ، وهو عدم الإقرار بشرعيته ولو فرض علينا بالقوة الجبرية . .

تدخل الصوت الرقيق الحيى مرة أخرى قائلا :

ـ ولتكرس حياتك بعد ذلك لفضح أكاذيب هذا العلم ونشر نور الله . .

فصاح بها السيد :

ـ قلت ما فيه الكفاية دون حاجة إلى آرائك!

فعادت إلى ما بين يديها ، وجعل السيد يحدق فيها متوعدا حتى اطمأن إلى صمتها ، فالتفت إلى كمال متسائلا :

ـ مفهوم؟

فقال كمال بلهجة موحية بالثقة :

ـ بكل تأكيد :

إذا أراد أن يكتب بعد اليوم فعليه بالسياسة الأسبوعية حيث لا تمتد يد أبيه الوفدى ، أما عن أمه فقد وعدها فى سره بأن يكرس حياته لنشر نور الله ، أليس هو نور الحقيقة؟ بلى ، وسيكون فى تحرره من الدين أقرب إلى الله مما كان فى إيمانه به ، فما الدين الحقيقى إلا العلم ، هو مفتاح أسرار الكون وجلاله ، ولو بعث الأنبياء اليوم ما اختاروا سوى العلم رسالة لهم ، هكذا يستيقظ من حلم الأساطير ليواجه الحقيقة المجردة ، مخلفا وراءه تلك العاصفة ـ التى صارع فيها الجهل حتى صرعه ـ حدًّا فاصلا بين ماض خرافى وغد نورانى ، بذلك تتفتح له السبل المؤدية إلى الله ، سبل العلم والخير والجمال ، وبذلك يودع الماضى بأحلامه الخادعة وآماله الكاذبة وآلامه البالغة . .

٣٤

بعناية واهتمام جعل يتفحص ما تقع عليه عيناه وهو مقبل على سراى آل شداد ، فلما عبر مدخلها تضاعفت عنايته واهتمامه بتفحص ما حوله ، فقد آمن أخيرا بأن هذه الزيارة ستكون آخر عهده بالبيت وآله وذكرياته ، كيف لا وقد انتزع حسين فى النهاية موافقة أبيه

على سفره إلى فرنسا؟ تأمل بملء عينيه ووجدانه الممر الجانبى المفضى إلى الحديقة، والنافذة المطلة عليه وكان طيفها الرقيق الأنيق يطالعه منها بنظرة حلوة لا تعنى شيئا كنظرات النجوم أو تحية رقيقة لا يقصد بها شخصه كتغريد البلبل المشغول بفرحته عن السامعين، ثم المنظر الكلى للحديقة المبسوط بين مؤخر القصر والسور العريض المشرف على الصحراء، وما بين هذا وذاك من أعراش الياسمين وجماعات النخيل وشجيرات الورد، وأخيرا الكشك العتيد الذى تملى تحت سقفه بنشوات الحب والصداقة. وذكر المثل الإنجليزى الذى يقول «لا تضع كل بيضك فى سلة واحدة» وابتسم ابتسامة حزينة، فإنه وإن حفظه منذ عهد بعيد إلا أنه لم ينتفع به فوضع عن سهو أو حماقة أو قضاء وقدر كل قلبه فى هذا البيت، بعضه للحب وبعضه للصداقة، وقد ضاع الحب وها هو الصديق يحزم أمتعته استعدادا للرحيل، ومن الغد سيلقى نفسه بلا حبيب ولا صديق، كيف يمكن أن يتعزى عن هذا المنظر؟ قد انطبع فى صدره وعلق قلبه وبات ذا ألفة وحنين، كانطباع أسماء عايدة وحسين شداد فى القصر والحديقة والصحراء، جملة وتفصيلا، حافظته، فكيف ينقطع عنه أو يقنع برؤيته من بعيد كسائر المارة؟ هو الذى لشدة ولعه بالبيت دعا نفسه يوما مداعبا بالوثنى!

وكان حسين شداد وإسماعيل لطيف جالسين على كرسيين متقابلين أمام المنضدة التى وضع عليها الدورق التقليدى والأكواب الثلاثة، وكانا كعادتهما فى الصيف يرتديان قميصا مفتوح الطوق وبنطلونا من الفانلة البيضاء، فطالعاه بوجهيهما المتناقضين: حسين بوجهه الجميل الوضىء، وإسماعيل بوجهه الحاد القسمات ونظراته التهجمية، فأقبل عليهما ببدلته البيضاء ممسكا بطربوشه الذى تدلدل زره، وتصافحوا، ثم جلس جاعلا ظهره إلى البيت، البيت الذى ولاَّه ـ من قبل ـ ظهره! وسرعان ما قال إسماعيل مخاطبا كمال، وهو يضحك ضحكة ذات معنى:

ـ يتعين علينا من الآن أن نبحث عن مكان جديد نتقابل فيه..

ابتسم كمال ابتسامة باهتة. ما أسعد إسماعيل بسخريته التى لم تعرف الألم! وهو وفؤاد الحمزاوى اللذان بقيا له، صديقان يؤنسان القلب ولا يمازجانه، يهرع إليهما هربا من الوحشة، ولا حيلة إلا أن يرضى بما قسم له.

ـ سنلتقى فى المقاهى أو الطرقات ما دام حسين قد قرر هجرنا..

هز حسين رأسه فى أسف، أسف الفائز بأمنية عزيزة وهو يجامل بإعلان حزنه على فراق يهون، ثم قال:

ـ سأغادر مصر وفى قلبى حسرة على فراقكما، الصداقة عاطفة مقدسة، إنى أقدرها من أعماق قلبى، والصديق هو القرين الذى يعكس نفسك فيكون صدى لعواطفك

وأفكارك، لا يهم أن نختلف فى كثير ما دام الجوهر متشابها، لن أنسى هذه الصداقة أبدا، وستصل الرسائل ما بيننا حتى نعود إلى اللقاء مرة أخرى. .

كلام جميل هو العزاء للقلب المكلوم المهجور، ألم يكن ما أصابه على يد أخته كافيا؟ هكذا تتركنى وحيدا بلا صديق حقيقى، وغدا يقتل المهجور ظمأ إلى الألفة الروحية الساخرة. تساءل فى كآبة:

ـ متى نعود إلى اللقاء مرة أخرى؟ لم أنس بعد تطلعك الحار إلى السياحة الدائمة، فمن يضمن لى ألا يكون ذهابك إلى الأبد؟

فآمن إسماعيل على قوله قائلا:

ـ قلبى يحدثنى بأن العصفور لن يعود إلى القفص. .

ضحك حسين ضحكة قصيرة، غير أنها وشت بسروره، ثم قال:

ـ لم أظفر بموافقة أبى على سفرى حتى وعدته بمواصلة دراستى القانونية، ولكنى لا أدرى إلى أى مدى سيمكننى المحافظة على وعدى؟ لا استلطاف بينى وبين القانون، أكثر من هذا يخيل إلىّ أنى أصبر على الدراسة النظامية، لا أريد إلا ما أحبه، وقلبى موزع بين معارف شتى لا تجمعها كلية واحدة كما قلت مرارا وتكرارا، أريد أن أتلقى محاضرات فى فلسفة الفن، وأخرى فى الشعر والقصص، وأن أرتاد المتاحف ومعازف الموسيقى، وأن أعشق وألهو، فأى كلية تحوى هذه الألوان جميعا؟! وثمة حقيقة أخرى تعرفانها وهى أنى أفضل أن أسمع على أن أقرأ، أريد أن يشرح غيرى لأستمع أنا، ثم أنطلق بحواس مجلوة وعقل مضىء إلى سفوح الجبال وشواطئ البحور والمشارب والمقاهى والمراقص، وسوف تصلكما تباعا تقاريرى عن هذه التجارب الفذة!

كأنه يصف الجنة التى نبذ هو الإيمان بها! بيد أنها جنة سلبية تأخذ ولا تعطى، وهو يطمح إلى مثال آخر، أما حسين فهيهات أن يحن إلى مغناه القديم، إذا ضمته تلك الحياة الوردية إلى صدرها الرغيد. وكأن إسماعيل كان يردد خواطره حين قال مخاطبا حسين:

ـ لن تعود إلينا، الوداع يا حسين! حلمنا واحد على وجه التقريب، دع جانبا فلسفة الفن والمتاحف والموسيقى والشعر وسفوح الجبال. . إلخ، فنكون شخصا واحدا! أذكرك للمرة الأخيرة بأنك لن تعود إلينا. .

وحدجه كمال بنظرة متسائلة، كأنما تطالبه برأيه فيما قال إسماعيل، فقال:

ـ بل سأعود كثيرا، ستكون مصر ضمن سياحتى الطويلة لأرى الأهل والأصدقاء (ثم موجها الخطاب إلى كمال) سوف أنتظر سفرك إلى الخارج بجزع أكاد أشعر به من الآن!

من يدرى لعل كذبته تصدق فيجوب تلك الآفاق، مهما يكن من أمر فقلبه يحدثه بأن حسين سيعود يوما وأن هذه الصداقة العميقة لن تضيع هباء، إن قلبه الصدوق يؤمن بهذا كما يؤمن بأن الحب لا تقتلع جذوره من القلب واأسفاه! قال برجاء:

ـ سافر وافعل ما تحب ثم عد إلى مصر لتجعلها مقامك، على أن تخرج منها سائحا كلما طابت لك السياحة.

فأمَّن إسماعيل على رأيه:

ـ لو أنك ابن حلال حقا لقبلت هذا الحل الوجيه الذى يوفق بين رغبتك ورغبتنا..

قال حسين وهو يطامن رأسه كأنما قد اقتنع:

ـ سينتهى بى المطاف إلى هذا الحل فيما أعتقد..

كان يصغى إليه وهو يملأ من منظره ناظريه، خاصة العينين السوداوين اللتين تشبهان عينى عايدة، ولفتاته الجامعة بين السمو واللطف، وروحه الشفاف الذى يكاد يتمثل أمامه خلقا يرى ويحس، إذا غاب هذا العزيز فماذا يبقى من نعمة الصداقة وذكرى الحب؟ الصداقة التى تلقتنها على يديه ألفه روحية وسعادة مطمئنة، والحب الذى ألهمه على يد أخته فرحة سماء وعذاب جحيم؟!.. وعاد حسين يقول وهو يشير إليهما واحدا بعد الآخر:

ـ عندما أعود إلى مصر ستكون أنت محاسبا فى وزارة المالية، وأنت مدرسا، ولا يبعد أن أجدكما والدين! ما أعجب هذا!

تساءل إسماعيل ضاحكا:

ـ هل تستطيع أن تتخيلنا موظفين؟ تصور كمال مدرسا! (ثم موجها الخطاب إلى كمال) يجب أن تسمن كثيرا قبل أن تواجه التلاميذ، سوف تلقى جيلا من العفاريت نحن نعد بالقياس إليهم من الملائكة، وسوف تجد نفسك وأنت الوفدى العنيد مضطرا بحكم الوظيفة إلى معاقبة المضربين بأمر الوفد!

أخرجته ملاحظة إسماعيل عن مجرى التفكير الذى كان مسترسلا فيه، فوجد نفسه يتساءل: كيف يستطيع مواجهة التلاميذ برأسه وأنفه المشهورين؟! وجد امتعاضا ومرارة، وخيل إليه ـ قياسا على شواذ المدرسين الذين عرفهم فى حياته ـ أنه سيلتزم القسوة فى معاملة التلاميذ ليحمى شخصيته المهددة! غير أنه تساءل: ترى هل يسعه أن يكون قاسيا على غيره كما يقسو على نفسه؟.. قال ارتجالا:

ـ لا أظن أننى سأمتهن مهنة التدريس إلى النهاية..

لاحت فى عينى حسين نظرة حالمة وهو يقول:

ـ من التعليم إلى الصحافة على ما أظن، أليس كذلك؟

وجد نفسه يفكر فى المستقبل، فعاودته فكرة الكتاب الجامع الذى حلم كثيرا بتأليفه، ولكن ماذا بقى من موضوعه الأول؟ لم يعد الأنبياء أنبياء، ولا الجنة والجحيم، وليس علم الإنسان إلا فصلا من علم الحيوان، فعليه أن يبحث عن موضوع جديد، قال مرتجلا أيضا :

ـ لو أتمكن يوما من إنشاء مجلة للدعاية للفكر الجديد!

فقال إسماعيل لطيف بلهجة الوعظ والإرشاد :

ـ بل السياسة هى السلعة الرائجة، خصص للفكر إذا شئت عمودا فى الصفحة الأخيرة، وفى البلد متسع لكاتب وفدى هجَّاء جديد. .

فضحك حسين ضحكة عالية، وقال :

ـ لا يبدو أن صاحبنا سياسى إيجابى، حسب أسرته ما قدمت من فدية، أما الفكر فالمجال أمامه واسع فيه. . (ثم مخاطبا كمال). . لديك ما تقوله، لقد كانت ثورتك الإلحادية طفرة مفاجئة لم أتوقعها من قبل. .

ما أسعده بهذه الصفة الجديدة التى وجد فيها تحية لثورته وتملقا لغروره، قال وقد تورد وجهه :

ـ ما أجمل أن يكرس الإنسان حياته للحق والخير والجمال!

صفَّر إسماعيل ثلاثا، لكل قيمة صفيرا، ثم قال متهكما :

ـ اسمعوا وعوا!

أما حسين فقال جادا :

ـ إنى مثلك ولكنى قانع بالمعرفة والمتعة!

فقال كمال بحماس وإخلاص :

ـ الأمر أجلّ من هذا، إنه كفاح فى سبيل الحق يستهدف خير الإنسانية جميعا، وبغيره لا يكون للحياة معنى فى نظرى. .

ضرب إسماعيل كفا بكف ـ وقد ذكرته هذه الحركة بأبيه ـ وقال :

ـ إذن فالواجب ألا يكون للحياة معنى، كم تعبت وشقيت حتى تحررت من الدين! لم أتعب أنا تعبك، ولكن الدين لم يكن شغلى أبدا فهل تعدنى يا ترى فيلسوفا بالفطرة؟! حسبى أن أعيش الحياة التى لا تحتاج إلى تعريف، غير أن هذا الذى أتبعه بالفطرة لا تبلغه أنت إلا بالكفاح المرير، أستغفر الله، بل أنت لم تبلغه بعد فلا زلت ـ حتى بعد إلحادك ـ تؤمن بالحقيقة والخير والجمال وتريد أن تكرس لها حياتك، أليس هذا مما يدعو إليه الدين؟! فكيف تكفر بالأصل وتؤمن بالفرع؟

لا تبال رفيق المزاح، لكن لمَ يبدو ما يؤمن به من القيم مثارا للسخرية؟! هبك خيرت بين عايدة وبين الحياة السامية فأيهما تختار؟!.. لكن عايدة تتخايل لعينى دائما وراء المثل!

قال حسين يجيب عن كمال، إذ طال به الصمت:

ـ المؤمن يستمد حبه لهذه القيم من الدين، أما الحر فيحبها لذاتها.

رباه متى أراك مرة أخرى؟ أما إسماعيل فضحك ضحكة وشت بانحراف تفكيره إلى ناحية جديدة، وسأل كمال:

ـ خبرنى ألا زلت تصلى؟ وهل تنوى أن تصوم رمضان القادم؟

كان دعائى لها أمتع ما فى الصلاة، وليالى هذا القصر أسعد ما فى رمضان..

ـ لم أعد من المصلين، ولن أكون من الصائمين..

ـ وهل تعلن إفطارك؟

ضاحكا:

ـ كلا..

ـ آثرت النفاق!

فقال ممتعضا:

ـ ليس من ضرورة تدعونى إلى إيلام الذين أحبهم..

فتساءل إسماعيل ساخرا:

ـ أتظن أنك بهذا القلب تستطيع أن تواجه المجتمع يوما بما يكره؟!

كليلة ودمنة؟! بهجة الخاطرة غطت على الامتعاض، رباه هل عبرت على أساس الكتاب الذى لم يتبلور فى ذهنى بعد؟!

ـ مخاطبة القراء شىء، ومخاطبة والدين على الفطرة شىء آخر!

فخاطب إسماعيل حسين وهو يشير إلى كمال قائلا:

ـ إليك فيلسوفا من أسرة عريقة فى الجهل

لن يعوزك أن تجد أصدقاء للهو واللغو، ولكنك لن تحظى لروحك بصديق يحاور، فارض بالصمت أو حاور نفسك كالمجانين، وساد الصمت قليلا.

وكانت الحديقة صامتة أيضا فلا نسمة تهفو، أما الورد والقرنفل والبنفسج فبدت وحدها سعيدة بالحر، وحسرت الشمس ثوبها المضىء عن الحديقة فلم يبق منه إلا حاشية فى أعلى السور الشرقى. أنهى إسماعيل الصمت بأن التفت إلى حسين شداد، وسأله:

ـ ترى هل يتاح لك أن تزور حسن سليم وعايدة هانم؟

يا لله . . خفقة قلب أم القيامة قامت فى صدرى؟!

ـ عندما يستقر بى المقام فى باريس، سأفكر حتما فى القيام برحلة إلى بروكسل . .

ثم وهو يبتسم :

ـ تلقينا خطابا من عايدة فى الأسبوع الماضى، يبدو أنها تعانى متاعب الوحم!

هكذا الألم والحياة توءمان، لست الآن إلا ألما خالصا فى ثياب رجل، عايدة منداحة البطن سائلة الإفرازات؟! مأساة أم مهزلة الحياة؟! نعمة الحياة الفناء، ليتنى أستطيع أن أعرف كنه هذا الألم. قال إسماعيل لطيف :

ـ سيكون أبناؤها أجانب!

ـ من المتفق عليه أن يرسلوا إلى مصر إذا جاوزوا طور الطفولة .

هل تراهم يوما بين تلاميذك؟ تسائل نفسك أين رأيت هذه الأعين فيجيب القلب الخافق أنها مقيمة هنا منذ قديم، وإذا سخر الصغير من رأسك وأنفك فبأى قلب تعاقبه، أيها النسيان . . هل أنت خرافة أيضا؟! عاد حسين يقول :

ـ شد ما أسهبت فى الحديث عن حياتها الجديدة، لم تخف سرورها بها حتى بدا حنينها إلى الأهل مجرد مجاملة . .

لمثل هذه الحياة فى الأوطان المثالية خلقت، أما مشاركتها فى الطبائع الآدمية فعبث من الأقدار التى عبثت بشتى مقدساتك، ترى ألم يخطر ببالها أن تشير فى خطابها المسهب بكلمة إلى الأصدقاء القدامى؟! ولكن من أدراك بأنها لا زالت تذكرهم؟! وعاودهم الصمت مرة أخرى. بدا المغيب يقطر سمرة هادئة، ولاحت فى الأفق حدأة مولية، وترامى إليهم نباح كلب، وأقبل إسماعيل على الدورق يشرب، وراح حسين يصفر بفيه، أما كمال فكان يسترق إليه النظر بوجه هادئ وقلب يتحسر .

ـ الحر هذه السنة ملعون . .

قال إسماعيل ذلك، ثم جفف شفتيه بمنديله الحريرى المزركش ثم تجشأ، وأعاد المنديل إلى جيب بنطلونه .

فراق الأحباب ألعن . .

ـ متى تسافر إلى المصيف؟

ـ فى آخر يونيو .

أجاب إسماعيل بارتياح، فعاد حسين يقول :

ـ سنسافر غدا إلى رأس البر حيث أمكث أسبوعا معهم، ثم أسافر بصحبة أبى إلى الإسكندرية فأستقل الباخرة فى ٣٠ يونيو .

وينتهى تاريخ فترة من الزمن، وربما انتهى قلب. حدق حسين إلى كمال مليا، ثم ضحك قائلا:

ـ نترككم وأنتم على خير حال من الوحدة والائتلاف، فعسى أن تسبقنا أنباء الاستقلال إلى باريس..

فهتف إسماعيل مخاطبا حسين وهو يشير إلى كمال:

ـ صاحبك غير راض عن الائتلاف! عز عليه أن يضع سعد يده فى يد الخونة، وعز عليه أكثر أن يتحاشى الاصطدام بالإنجليز فينزل عن الوزارة إلى خصمه القديم عدلى، هكذا تجده أشد تطرفا من زعيمه المقدس نفسه!

مهادنة الأعداء والخونة خيبة أخرى تتجرعها، أى شىء فى هذه الدنيا لم يخب فيه أملك؟ غير أنه ضحك عاليا، ثم قال:

ـ بل يشاء هذا الائتلاف أن يفرض على دائرتنا نائبا من الأحرار!

وضج ثلاثتهم بالضحك. وعند ذاك دبت فى مرمى البصر منهم ضفدعة ما لبثت أن توارت فى العشب، وهفت نسمة مؤذنة بتدانى المساء، وتخفف العالم المحدق بهم من زياطه وضوضائه، فأذن المجلس بالختام، وملأه ذلك بالجزع فجعلت عيناه تتقلبان فى المكان لتمتلئا من منظره. هنا بدت أول مرة باعثة شعاع الحب، وهنا صدح الصوت الملائكى بـ«يا كمال» وهنا دار حوار العذاب حول الرأس والأنف، وهنا عالن المعبود بخصام التجنى، وفى تضاعيف هذا الجو ترقد ذكريات عواطف ومشاعر وانفعالات لو مستها يد العبث يوما لأحيت الصحراء ونضرت وجهها، املأ من هذا كله عينيك وأرِّخه فإن حوادث كثيرة تبدو وكأنها لم تقع لو لم يقيدها يوم وشهر وعام، إنما نستعدى الشمس والقمر على خط الزمان المستقيم لندوره لتعود إلينا الذكريات الضائعة، ولكن لا شىء يعود أبدا، فذب فى الدموع أو تسل بالابتسام.

وقف إسماعيل لطيف وهو يقول:

ـ أن لنا أن نذهب.

ترك إسماعيل يسبقه إلى عناق صاحبه، ثم جاء دوره فتعانقا طويلا، طبع على خده قبلة وتلقى مثلها، فغمت خياشيمه رائحة آل شداد ممثلة فى صاحبه، زكية لطيفة كأنها عبير غير آدمى، أو نفثات حلم دوَّم فى سماء مليئة بالمسرات والآلام، فأفعم بها حناياه حتى ثمل، ولبث صامتا مليا حتى يملك عواطفه، غير أنه عندما تكلم تهدج صوته وهو يقول:

ـ إلى اللقاء ولو بعد حين..

٣٥

ـ لا يوجد أحد إلا الخدم!

ـ ذلك لأن ضوء النهار لم يكد يختفى بعد، والزبائن يفدون عادة مع الليل، هل ضايقك خلو المكان؟

ـ أبدا خلو المكان عامل مشجع على البقاء، خاصة وأنها أول مرة.

ـ للحانات هنا ميزات لا تقدر بثمن، فهى تقوم فى طريق لا يقتحمه إلا ساع وراء لذة محرمة، فلن يكدر صفوك هنا لائم ولا زاجر. وإذا عثر بك شخص تحترمه كأبيك أو ولى أمرك، كان هو الأحق باللوم والأخلق بأن يتجاهلك أو يفر من سبيلك إن استطاع..

ـ اسم الشارع وحده فضيحة!

ـ لكنه أدعى إلى الطمأنينة من غيره، لو أننا ذهبنا إلى إحدى حانات شارع الألفى أو عماد الدين أو حتى محمد على، لما أمنا أن يرانا أب أو أخ أو عم أو ذو مال! ولكنهم لا يجيئون إلى وجه البركة فيما أرجو.

ـ منطقك سليم، غير أنى لا زلت مضطربا.

ـ صبرك، الخطوة الأولى دائما عسيرة، ولكن الخمر مفتاح الفرج، لذلك أعدك بأنك ستجد الدنيا عند ذهابنا ألطف وأعذب مما عهدتها قبل ذلك..

ـ حدثنى عن أنواع الخمور، أيها الأوفق أن أبدأ به؟

ـ الكونياك عنيف وإذا مزج بالبيرة فقل على شاربه السلام، الويسكى مقبول الطعم جيد الأثر، أما الزبيب....

ـ لعل الزبيب ألذها! ألم تسمع صالح وهو يغنى «وسقانى شراب الزبيب!».

ـ طالما قلت لك إنه لا عيب فيك إلا الإغراق فى الخيال، الزبيب أقبحهّا رغم أنف صالح، فيه طعم الأنيسون الذى تجزع منه معدتى، فلا تقاطعنى...

ـ معذرة..!

ـ وهناك البيرة، ولكنها شراب الحر ونحن والحمد لله فى سبتمبر. وهناك النبيذ، غير أن عاقبته لطسة بنت كلب..

ـ إذن.. إذن.. فهو الويسكى..

ـ برافو! . توسمت فيك النجابة من قديم، ولعلك توافقنى بعد قليل على أن استعدادك للهزل يفوق استعدادك للحقيقة والخير والجمال والوطنية والإنسانية إلى آخر هذه القائمة من الخزعبلات التى تتعب بها قلبك دون جدوى . .

ونادى النادل، فطلب كأسين من الويسكى .

ـ من الحكمة أن أقنع بكأس واحدة . .

ـ قد تكون هذه هى الحكمة، غير أننا لم نجئ هنا لطلب الحكمة، وسوف تعلم بنفسك أن الجنون ألذ من الحكمة، وأن الحياة أخطر من الكتب والفكر، اذكر هذا اليوم ولا تنس صاحب الفضل عليك . .

ـ لا أحب أن أفقد الوعى، أخاف أن . .

ـ كن حكيم نفسك . .

ـ المهم عندى أن أجد الشجاعة للسير فى الدرب إياه بلا تردد، وأن أدخل عند الحاجة . .

ـ اشرب حتى تشعر بأنك لا تبالى أن تدخل . .

حسن، أرجو ألا أندم على فعلتى فيما بعد . .

ـ تندم؟! طالما دعوتك من قبل فكنت تعتذر بالتقوى والدين، ثم جاهرت بأنك لم تعد تؤمن بالدين، فكررت عليك الدعوة، فما أعجب إلا لرفضك باسم الخلق! لكن يجب أن أعترف بأنك اتبعت المنطق أخيرا . .

أجل أخيرا . بعد فترة من القلق والحيرة بين أبى العلاء والخيام، أو بين التقشف واللذة . وقد نزع به طبعه إلى مذهب الأول، فإنه وإن بشر بحياة قاسية إلا أنها وافقت ما نشأ عليه من تقاليد، ولكنه لم يدر إلا ونفسه تهفو إلى الفناء، وكأن صوتا خفيا راح يهمس فى أذنه : لا دين ولا عايدة ولا أمل، فليكن الموت . عند ذاك ناداه الخيام بلسان هذا الصديق فلبى محتفظا بمبادئه السامية رغم هذا، وإن يكن قد وسع من معنى الخير حتى وسع مسرات الحياة جميعا، قائلا لنفسه : إن الإيمان بالحقيقة والجمال والإنسانية أسمى أنواع الخير، وإنه لذلك كان ابن سينا يختم يوم الفكر بالشراب والحسان، ومهما يكن من أمر فإنه لم يجد سوى هذه الحياة الواعدة منقذا من الموت . .

ـ إنى معك فى هذا، ولكنى لم أتخل عن مبادئى . .

ـ أعلم أنك لن تتخلى عن أوهامك، طول العشرة جعلها حقيقة أكثر من الحقيقة نفسها، لا بأس أن تقرأ بل وأن تكتب ما وجدت قراء، اجعل من الكتابة وسيلة للشهرة والثروة، ولكن لا تأخذها مأخذ الجد، كنت متدينا عنيفا، وأنت الآن ملحد عنيف، دائما عنيف، قلق كأنك مسئول عن البشرية، الحياة أبسط من هذا كله،

مركز فى الحكومة يرضى النفس ويهيئ مستوى لا بأس به من المعيشة، استمتاع بلذات الحياة بقلب متفتح خال من الهموم، استمساك بقدر من القوة والاعتداء عند اللزوم يضمن لك الكرامة والفوز، فإذا وافقت هذه الحياة الدين فبها ونعمت، وإلا فذنبه على جنبه. .

الحياة أعمق وأعرض من أن تنحصر فى شىء واحد ولو يكون السعادة نفسها، اللذة ملاذى ولكن ارتقاء الجبال الصعبة سيظل مطلبى، عايدة ذهبت فيجب أن أخلق عايدة أخرى بكل ما ترمز إليه من معان، أو فلتذهب الحياة غير مأسوف عليها.

ـ ألم تشغل فكرك أبدا بما فوق هذه الحياة من معان؟

ـ هق! شغلت عن ذلك بالحياة نفسها أو بالحرى بحياتى أنا، ليس فى بيتنا كافر وليس فيه متدين، وهكذا أنا!

صديق ضرورى مثل وقت الفراغ، شاذ المنظر مثل منظرك، موصول الذكريات بعايدة فهو فى القلب. رائد هذه الدروب الغناء، جبار إذا تحديته، يفتقد فى المسرات دون الجد والملمات، ليس فيه للروح موضع، غاب وراء البحار صديق الروح والعقل. . فؤاد الحمزاوى ذكى ولكن لا فلسفة له. نفعى حتى فى تذوق الجمال. . يبغى وراء الأدب بلاغة ينتفع بها فى تحبير المرافعات، مّن لى بوجه حسين وروحه؟! وجاء النادل فوضع على المنضدة كأسين طويلين مضلعى الكعب، وفض سدادة قارورة الصودا وصب فى الكأسين فتحول الذهب إلى بلاتين مموه باللآلئ، ورص أطبق السلطة والجبن والزيتون والمرتدلا، ثم ذهب. ردد كمال بصره بين كأسه وبين إسماعيل، فقال الأخير باسما:

ـ افعل كما أفعل، ابدأ بجرعة كبيرة، صحتك. .

غير أنه اكتفى بحسوة وراح يتذوقها، ثم لبث يترقب. . ولكن عقله لم يطر كما كان يتوقع فتجرع جرعة كبيرة، ثم تناول قطعة من الجبن ليغير الطعم الغريب الذى انتشر فى فيه.

ـ لا تتعجلنى!

ـ العجلة من الشيطان، المهم أن تترك مكانك وأنت على حال تمكنك من اقتحام ما تريد. .

ما الذى يريد؟ امرأة ممن استثرن تقززه ونفوره وهو مفيق فهل يحلى الشراب مرارة الابتذال. كان يناضل الغريزة بالدين وعايدة، أما الآن فقد خلا للغريزة الجو. غير أن حافزا آخر للمغامرة هو أن يكتشف المرأة ذلك المخلوق الغامض الذى تنطوى عايدة نفسها تحت جنسه ولو كره. لعل فى ذلك عزاء عن السهاد والدموع المطوى سرها فى جوف الليل المكتوم، وتكفيرا عن العذاب الدامى الذى لا أمل فى التداوى منه إلا باليأس

والذهول. الآن يستطيع أن يقول إنه خرج من زنزانة الاستسلام ليخطو الخطوة الأولى فى طريق الخلاص وإن يكن طريقا مخمورا محفوفا بالشهوات والمكاره. وتجرع جرعة أخرى وانتظر، ثم ابتسم. . أما باطنه فكان يحتفل بمولد إحساس جديد ينفث حرارة وصبوة، فتابعه مستسلما كما يتابع نغمة حلوة. وكان إسماعيل يراقبه بإمعان، فقال باسما:

ـ أين حسين ليشهد بنفسه هذا المنظر؟

أين حسين أين؟!

ـ سوف أكتب له عنه بنفسى، هل رددت على رسالته الأخيرة؟

ـ نعم، رددت برسالة موجزة كرسالته. .

له وحده أسهب وأفاض حتى سجل كل خاطرة، يا للسعادة التى خص بها وحده! ولكن لا ينبغى أن يبوح بسر رسالته أن يثير غيرة مدربه. .

ـ كانت رسالته إلىّ موجزة أيضا فيما عدا الحديث الذى تعرفه ولا تحبه!

ـ الفكر! (ثم وهو يضحك). . ما حاجته إلى هذا هو الذى سيرث ثروة تملأ المحيط، ما سر ولعه بهذه الخزعبلات؟ التكلف أم الغرور أم الاثنان معا؟!

جاء دور حسين ليُمد تحت المطرقة، ترى ماذا تقول عنى فى غيابى؟!

ـ لا تناقض بين الفكر والغنى كما تظن، لقد ازدهر الفكر فى اليونان القديمة بفضل بعض السادة الذين لم يشغلهم طلب الرزق عن التفرغ للعلم. .

ـ صحتك يا أرسطو. .

أفرغ بقية كأسه وترقب. ثم تساءل: هل مرت به حال كهذه من قبل؟ نافث الحرارة الوجدانية ينطلق فى الدورة الدموية، يجرف فى طريقه الفجوة التى تتجمع بها نفايات الأكدار، فمقم النفس يتفكك لحام أحزانه فتطير منه عصافير المسرات مترنمة، وهذا صدى نغمة مطربة، وهذه ذكرى أمل واعد، وذاك طيف بهجة عابرة، الخمر لعاب كله السعادة.

ـ ما رأيك فى كأسين أخريين؟

ـ عمرك أطول من عمرى. .

ضحك إسماعيل ضحكة عالية وهو يومئ إلى النادل بإصبعه، ثم قال بارتياح:

ـ أنت سريع الاعتراف بالجميل. .

ـ هذا من فضل ربى. .

وجاء النادل بالكأسين والمزة. وأخذ الزبائن يفدون مطربشين ومقبعين ومعممين، فيستقبلهم النادل بمسح وجوه المناضد بالمناشف إذ كان الليل قد أقبل وأضيئت المصابيح

فتألقت المرايا الملتصقة بالجدران مصورا على أسطحها قوارير الديوارس والجون ووكر، وترامت من الخارج ضحكات ملعلعة كالأذان غير أنها تدعو للفجور، وصوبت نحو منضدة الصديقين المراهقين نظرات إنكار متسامح باسم، ثم ورد من الطريق بائع جمبرى صعيدى فبائعة فول ذات ثنيتين ذهبيتين، وماسح أحذية، وصبى كبابجى هو فى الوقت ذاته قواد كما دل ترحيب الجلوس به، وقارئ كف هندى، ثم لا تسمع هنا وهناك إلا «صحتك» وها ها، وفى مرآة تلى راس كمال مباشرة نظر فرأى وجهه موردا وبصره لامعا باسما، وفيما وراء صورته عكست المرآة منظر رجل عجوز وهو يرفع كأسه إلى فيه ثم يتمضمض بحركة أرنبية ويزدرد الشراب، ثم يقول لجليسه بصوت مسموع «المضمضة بالويسكى سنة عن جد لى مات وهو يسكر» فحول كمال وجهه عن المرآة، وقال لإسماعيل:

ـ نحن أسرة محافظة جدا، أنا أول ذائق للخمر فيها..

فهز إسماعيل منكبه هازئا، ثم قال:

ـ كيف تحكم على ما ليس لك به علم؟ هل شاهدت شباب والدك؟ أما أبى فيتناول كأسا مع الغداء وأخرى مع العشاء، وقد أمسك عن الشراب فى الخارج، أو هذا ما يدعيه أمام والدتى..

لعاب إله السعادة يتسرب إلى مملكة الروح، وهذا الانقلاب الغريب الذى حدث فى لحظات لا تقدر البشرية على إدراكه فى أجيال وأجيال، وهو فى جملته يجود بمعنى باهر جديد لكلمة «السحر»، وأعجب شىء أنه لم يكن جديدا كل الجدة فلعله طاف بالروح مرة ولكن متى وكيف وأين؟ إنه موسيقى باطنية تعزفها الروح وما الموسيقى المعهودة بالقياس إليها إلا كقشور التفاح بالقياس إلى لبابه، ترى ما سر السائل الذهبى الذى صنع هذه المعجزة فى لحظات معدودات؟ لعله طهر مجرى الحياة من الزبد والرواسب فانطلقت وثبة الحياة المكبوتة كما انطلقت أول مرة حرية مطلقة ونشوة خالصة، فهذا هو الشعور الطبيعى بوثبة الحياة إذا تحررت من ربقة الجسد وأغلال المجتمع وذكريات التاريخ ومخاوف المستقبل، موسيقى رائقة نقية تقطر طربا وتصدر عن طرب، مثلها طاف بروحى من قبل ولكن متى وكيف وأين؟ آه.. يا للذكرى!.. إنها الحب! يوم نادت «يا كمال» أسكرتك وأنت لا تدرى ما السكر فقرّ بأنك سكير قديم، وأنك عربدت دهرا فى طريق الهوى المخمور المعبد بالأزهار والرياحين، كان ذلك قبل أن يتحول قطر الندى الشفاف إلى وحل، فالخمر روح الحب إذا انجابت عنه بطانة الآلام، فحب تسكر أو اسكر تحب..

ـ الحياة جميلة مهما قلت وأعدت..

ـ ها ها، أنت الذى تقول وتعيد. .

طبع المقاتل على خد غريمه قبلة صافية فحل السلام على الأرض، وغرد البلبل فوق غصن ريان، فطرب العاشقون فى أربعة أركان المعمورة، وطار طائر الأشواق من القاهرة إلى بروكسل مارا بباريس فاستقبل بالحنان والأناشيد، وغمس الحكيم شباة قلمه فى مداد قلبه فسجل وحيا منزلا، ثم آوى المجرب إلى شيخوخته فألمت به ذكرى دامعة بعثت فى صدره ربيعا مكتما، أما أسلاك الشعر الأسود المسدل على الجبين فكعبة يتجه إليها الثملون فى حانات الوجد.

ـ كتاب وكأس وحسناء وارمنى فى البحر!

ـ ها ها، سيفسد الكتاب الكأس والحسناء والبحر.

ـ لسنا متفقين فى فهم معنى اللذة، تراها أنت لهوا وعبثا وهى عندى الجد كل الجد، هذه النشوة الآسرة هى سر الحياة وغايتها العليا، وما الخمر إلا بشيرها والمثال المحسوس المتاح لها، وكما كانت الحدأة مقدمة لاختراع الطائرات، والسمكة تمهيدا لاختراع الغواصة، فالخمر ينبغى أن تكون رائد السعادة البشرية، والمسألة تتلخص فى هذه الكلمة: كيف نجعل من الحياة نشوة دائمة كنشوة الخمر دون الالتجاء إلى الخمر؟ لن نجد الجواب فى النضال والتعمير والقتال والسعى، فكل أولئك وسائل وليست بغايات، السعادة لن تتحقق حتى نفرغ من استغلال الوسائل كلها لنتمكن من أن نحيا حياة عقلية روحية خالصة لا يكدرها مكدر، هذه هى السعادة التى أعطتنا الخمر مثالها، كل عمل وسيلة إليها أما هى فليست وسيلة لشىء. . .

ـ الله يخرب بيتك. .

ـ لمه ؟!

ـ كان أملى أن أجدك فى نشوتك محدثا طريفا لطيفا، ولكنك كالمريض يزيد مرضه الخمر استفحالا، فيم تتحدث يا ترى إذا شربت الكأس الثالثة؟

ـ لن أشرب أكثر مما شربت، إنى الآن سعيد وفى وسعى أن أدعو أية امرأة تعجبنى. .

ـ هلا انتظرت قليلا ؟

ـ ولا دقيقة واحدة. .

سار متأبطا ذراع صاحبه غير هياب ولا متردد، ينتظمه تيار من البشر يتلاطم مع تيار آخر قادم من الوجهة المضادة، فى طريق ملتو ضيق برواده. كانت الرءوس تدور إلى اليمين تارة وإلى اليسار أخرى، وعلى الجانبين بدت مضيفات الطريق قائمات وقاعدات يقلبن فى وجوههن المقنعات بالزواق الفاقع أعين الترحيب والإغراء، ولا تمض آونة حتى يمرق أحدهم من التيار إلى إحداهن فتتبعه إلى الداخل وقد مسحت عن عينيها نظرة

الإغراء لتحل محلها نظرة الجد والعمل . وكانت المصابيح المركبة فوق أبواب البيوت والمقاهى تضىء الطريق بأنوار ساطعة انعقدت فى أعاليها سحب الدخان المتطاير من بخور المجامر وتبغ الجوز والنارجيلات ، أما الأصوات فقد تلاقت واختلطت فى دوامة صاخبة دارت بها الضحكات والهتافات وصرير الأبواب والنوافذ وعزف البيانو ومزيكة اليد وتصفيق الأيدى الراقصة وزعيق الشرطى والشخير والنخير وسعال الحشاشين وصراخ السكارى واستغاثات مجهولة وقرع عصى وغناء فردى وجماعى ، وفوق الجميع لاحت السماء قريبة من أسطح البيوت البالية ترنو إلى الأرض بأعين لا تطرف . كل حسناء هنا فى متناول اليد ، تجود بحسنها وأسرارها نظير عشرة قروش لا غير ، فمن كان يصدق هذا قبل أن يراه ؟ وخاطب إسماعيل قائلا :

ـ هارون الرشيد يخطر فى بهو الحريم . .

فتساءل إسماعيل ضاحكا :

ـ ألم تتعجبك جارية يا أمير المؤمنين؟

فأشار كمال إلى بيت ، وقال :

ـ كانت تقف عند هذا الباب الخالى ، ترى أين ذهبت؟

ـ مع زبون فى الداخل يا أمير المؤمنين ، فلينتظر مولانا حتى يقضى أحد رعاياه وطره . .

ـ وأنت ألم تجد ضالتك؟

ـ إنى قديم عهد بالطريق وأهله ، ولكنى لن أمضى إلى وجهتى حتى أسلمك إلى صاحبتك ، ماذا أعجبك فيها ؟! يوجد أجمل منها كثيرات . .

سمراء لم يطمس الزواق سمرتها ، وفى حنجرتها وتر يذكر من بعيد بتلك الموسيقى الخالدة ، وقد تجد العين نوعا من الشبه بين بشرة المختنق وأديم السماء الصافية :

ـ أتعرفها ؟!

ـ تدعى هنا وردة ، واسمها الحقيقى عيوشة .

عيوشة ـ وردة! لو يستطيع الإنسان أن يغير ماهيته كما يغير اسمه! فى عايدة نفسها شىء يشبه مركب عيوشة ـ وردة ، وفى الدين ، وفى عبد الحميد بك شداد ، وفى الآمال العريضة ، أواه! لكن الخمر ترفعك إلى عرش الآلهة فترى هذه المتناقضات غارقة فى أمواج الفكاهة المقهقهة ، مستحقة للعطف ، وشعر بكوع إسماعيل ينهزه فى جنبه وهو يقول (دورك) ، فنظر صوب الباب فرأى رجلا يغادر البيت متعجلا ، وإذا بالمرأة تعود إلى موقفها كما رآها أول مرة ، فاتجه نحوها بقدمين ثابتتين فتلقته بابتسامة ، ثم مضى إلى الداخل وهى فى أثره تغنى «ارخى الستارة اللى فى ريحنا» . . ووجد سلما ضيقا فرقى فيه

وقلبه يخفق حتى انتهى إلى دهليز يفضى إلى صالة، وصوتها يلاحقه قائلا من حين لآخر «يمينك»، «شمالك»، «هذا الباب الموارب». حجرة صغيرة مورقة الجدران، مكونة من فراش وتسريحة ومشجب وكرسى خشب وطست وإبريق. ووقف فى وسط الحجرة كالمرتبك وعيناه تراقبانها. ومضت هى تغلق الباب والنافذة التى كان يترامى منها صوت دف وصفارة وتصفيق، ولاح وجهها فى أثناء ذلك جادا بل أقرب إلى العبوس والصرامة حتى تساءل ساخرا عما تبيته له، ثم واجهته وراحت تقيسه بعينيها طولا وعرضا، ولما مرتا برأسه وأنفه داخله قلق، غير أنه أراد أن يتغلب على قلقه فاقترب منها فاتحا ذراعيه، ولكنها استنظرته بحركة جافة من يدها وهى تقول «انتظر» فتسمر فى مكانه. بيد أنه كان مصمما على تذليل العراقيل، فقال باسما فيما يشبه السذاجة:

ـ أنا اسمى كمال..

فحدجته بنظرة داهشة وهى تقول:

ـ تشرفنا!

ـ نادينى!.. قولى لى «يا كمال»!

فقالت وما تزداد إلا دهشة:

ـ لماذا أناديك وأنت أمامى كالرزية؟!

أعوذ بالله! ترى أتمازحه؟ وازداد تصميما على إنقاذ الموقف، فقال:

ـ قلت لى أنتظر، ماذا أنتظر؟

ـ فى هذا لك حق..

قالت ذاك، ثم نزعت ثوبها بحركة بهلوانية ووثبت إلى الفراش ففرقع تحت ثقلها، واستلقت على ظهرها وراحت تربت بطنها بأناملها المخضبة بالحناء. اتسعت عيناه إنكارا، لم يكن يتوقع هذه المفاجأة البهلوانية، وشعر بأن كلا منهما فى واد، وما أبعد المدى بين وادى اللذة ووادى العمل.. انهدم فى لحظة ما أقامه الخيال فى أيام، وجرت مرارة الامتعاض فى ريقه، غير أن الرغبة فى الاكتشاف لم تفتر فغالب انزعاجه ثم حرك ناظريه صوب الجسد العارى حتى استقر على هدف وبدا حينا كأنه لا يصدق عينيه، وأحدَّ بصره فى انزعاج وتقزز حتى شعر فى النهاية بما يشبه الرعب. أهذه هى الحقيقة أم أنه أساء اختيار المثال؟ ولكن مهما يكن من سوء اختياره فهل يغير هذا من الجوهر؟! ونزعم أننا نحب الحقيقة! شد ما ظلموا رأسك وأنفك! وحدَّثته نفسه بالهرب، وأوشك أن يصغى إليها، ولكنه تساءل فجأة: لماذا لم يهرب الرجل الذى سبقه؟ وماذا يقول لإسماعيل إذا عاد إليه؟ كلا لن يهرب، لن يتراجع أمام المحنة..

ـ مالك واقفا كالتمثال؟

هذه النبرة التى هزت الفؤاد، لم تكذب الأذنان ولكن الجهل كذاب، سوف تضحك كثيرا من نفسك ولكن وأنت ظافر لا هارب، هب الحياة مأساة فعليك أن تلعب دورك.

ـ أتقف هكذا حتى الفجر؟!

قال بهدوء غريب:

ـ نطفىء النور..

فهبت جالسة فى الفراش وهى تقول بجفاء وحذر:

ـ بشرط أن أراك فى النور!

تساءل فى إنكار:

ـ لم؟

ـ حتى أطمئن إلى صحتك!

وتجرد للاختبار الصحى فى منظر بدا له آية فى الهزل، ثم ساد ظلام دامس.

وعندما عاد إلى الطريق كان يحمل بين جنبيه قلبا فاترا مليئا بالحزن، وخيل إليه أنه وسائر البشر يعانون تدهورا مؤلما وأن الخلاص منه بعيد.

ورأى إسماعيل مقبلا نحوه راضيا ساخرا متعبا وهو يتساءل:

ـ كيف حال الفلسفة؟

فتأبط ذراعه وسار به يسأله بدوره جادا:

ـ هل النساء جميعا متشابهات؟

فألقى عليه الشاب نظرة متسائلة، فأفصح له كمال عن شكوكه ومخاوفه فى عبارة موجزة، فقال إسماعيل باسما:

ـ على العموم الأصل واحد وإن اختلفت الأعراض! إنك مضحك لدرجة تستحق الرثاء، هل أستنتج من حالك أنك لن تعود إلى هنا مرة أخرى؟

ـ بل سأعود أكثر مما تظن، دعنا نشرب كأسا أخرى..

ثم وكأنه يحدث نفسه:

ـ الجمال.. الجمال! ما هو الجمال؟

تاقت نفسه فى هذه اللحظة إلى التطهر والانعزال والتأمل، وحن إلى ذكرى الحياة التى عاشها معذبا فى ظل المعبودة، ثم بدا وكأنه آمن بقسوة الحقيقة إلى الأبد. أيجعل من الإعراض عن الحقيقة مذهبه؟ سار متفكرا فى طريق الحانة يكاد لا يلقى بالا إلى ثرثرة إسماعيل. إذا كانت الحقيقة قاسية فالكذب دميم، ليست الحقيقة قاسية ولكن الانفلات من الجهل مؤلم كالولادة، اجر وراء الحقيقة حتى تنقطع منك الأنفاس. ارض بالألم

حتى تخلق نفسك من جديد، هذه المعانى تحتاج إلى عمر لاستيعابها. عمر من التعب تتخلله سويعات من الخمر. .

٣٦

أما هذا المساء فقد جاء كمال الدرب وحده، جاء ثملا يترنم بصوت هامس، غير هياب وهو يشق بين تيار البشر الصاخب سبيلا، ووجد باب وردة خاليا ولكنه لم يتردد كما فعل أول عهده بالدرب، وإنما قصد البيت ودخل دون استئذان فارتقى السلم حتى انتهى إلى الدهليز، وهناك مد بصره إلى الباب المغلق الذى بدا ضوء فى ثقب مفتاحه، ثم مال إلى حجرة انتظار فألفاها لحسن الحظ خالية وجلس على مقعد خشبى ماداً ساقيه فى ارتياح. وبعد مرور دقائق سمع صرير الباب وهو يفتح فتوثب للقيام، وغادر الرجل الآخر الحجرة كما نمت عليه أقدامه متجها نحو السلم، فتريث لحظات ثم نهض وذهب إلى الدهليز، فرأى وردة خلال باب حجرتها المفتوح وهى تعيد ترتيب الفراش، فلما لمحته ابتسمت وهتفت به أن يعود إلى مجلسه دقيقة واحدة، فعاد من حيث أتى وهو يبتسم فى ثقة، ثقة الزبون الذى جاز فترة الحضانة. ولم تكد تمر دقيقة على جلوسه حتى ترامى إليه وقع أقدام صاعدة فاستقبلها بضيق، لأنه يكره البقاء مع غيره من المنتظرين غير أن القادم اتجه نحو حجرة وردة، وما لبث كمال أن سمع المرأة وهى تخاطب القادم قائلة برقة:

ـ عندى زبون فاذهب إلى الحجرة وانتظر. .

ثم رفعت صوتها منادية إياه وهى تقول «تفضل»، فقام كمال وغادر الحجرة دون تردد فالتقى بالقادم فى الدهليز، وجد نفسه وجها لوجه مع ياسين! التقت عيناهما فى نظرة ذاهلة، وسرعان ما غض كمال جفنيه وهو يذوب خجلا وارتباكا واضطرابا، وأوشك أن يندفع هاربا لولا أن عاجله ياسين بضحكة عالية رنت فى سقف الدهليز رنينا عجيبا، فرفع الشاب إليه عينيه فرآه فاتحا ذراعيه وهو يهتف فى سرور:

ـ يا ألف ليلة بيضا!. . يا ألف نهار سلطانى!

وقهقه عاليا فتعلق به نظر كمال فى ذهول، ولما طالع فيه المرح الصافى جعل يفيق إلى نفسه حتى ارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة متسائلة، ثم رجعت إليه الطمأنينة وإن لم يفارقه الحياء. وراح ياسين يقول بصوت خطابى:

ـ هذه ليلة سعيدة، الخميس ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٦، ليلة سعيدة حقا، ويجب أن

نحتفل بها كل عام، ففيها تكاشف أخوان، وفيها ثبت أن صغير الأسرة يتقدم حاملا لواء تقاليدها المجيدة فى عالم اللذات!

وعند ذاك جاء وردة وهى تسأل ياسين:

ـ صديقك؟

فقال ياسين ضاحكا:

ـ بل أخى ابن أبى وأ . . . كلا ابن أبى فقط، أرأيت أنك معشوقة الأسرة يا بنت الذين؟!

فتمتمت قائلة «عفارم»، ثم خاطبت كمال قائلة:

ـ واجب الأدب نقضى بأن تنزل لأخيك الأكبر عن دورك يا نونو . .

فضحك ياسين ضحكته الكبيرة، وقال:

ـ واجب الأدب! منذا الذى علمك آداب الوصل؟! تصورى أخا ينتظر أخاه على الباب! . . ها . . ها . .

فرمقته بنظرة تحذير وهى قول:

ـ اضحك بصوتك المخيف حتى تسمع البوليس يا سكير، ولكنك تعذر ما دام أخوك النونو لا يجيئنى إلا مترنحا!

حدج ياسين كمال بنظرة دهش وإكبار ثم قال:

ـ أعرفت هذا أيضًا! رباه حقا إننا أولاد حلال، أولاد حلال بالمعنى، قرب فاك لأشمه! ولكن لا فائدة من ذلك فالسكران لا يشم رائحة السكران، خبرنى الآن: ما رأيك فى هذه الحكمة التى تعلمتها من الحياة لا من الكتب؟ . . (ثم وهو يشير إلى وردة) . . إن زيارة واحدة لبنت الملسوعة هذه تعادل مطالعة عشرة كتب محرمة، إذن فأنت تسكر يا كمال؟! يا ألف نهار أبيض! نحن أصدقاء من قديم الزمان، أنا أول من عد . .

ـ الله الله! . . هل أنتظر حتى مطلع الفجر؟!

دفع ياسين كمال وهو يقول:

ـ ادخل معها وسوف أنتظر أنا . .

ولكن كمال تقهقر وهو يهز رأسه بالرفض القاطع، ثم تكلم لأول مرة قائلاً:

ـ كلا . . ليس . . ليس الليلة.

ودس يده فى جيبه فأخرج نصف ريال ثم أعطاه المرأة. فهتف ياسين بإعجاب:

ـ تحيا الشهامة! لكننى لن أتركك وحدك . .

وربت كتف وردة مودعا، ثم تأبط ذراع كمال وذهبا معا حتى غادرا البيت، قال ياسين:

ـ يجب أن نحتفل بهذه الليلة، فلنمض بعض الوقت فى بار، إنى عادة أشرب فى شارع محمد على مع نفر من الموظفين وغيرهم، ولكن المكان غير مناسب لك فضلا عن بعده، فلنختر مكانا قريبا حتى نتمكن من العودة مبكرين، بت حريصا مثلك على العودة المبكرة منذ زواجى الأخير، أين سكرت يا بطل؟

غمغم كمال فى حياء:

ـ فنش.

ـ عال! هلم بنا إليه، تمتع بوقتك دون تهاون، فغدا حين تصبح معلما سيتعذر عليك زيارة هذا الحى ببيوته وحاناته (ثم وهو يضحك): تصور أن يلقاك هنا أحد تلاميذك! على أن ميدان اللهو واسع وسوف تتدرج فيه من حسن إلى أحسن..

ومضيا إلى فنش صامتين ـ كان من حسن الحظ أن العلاقة بين ياسين وكمال لم تفتر بعد هجرة ياسين للبيت القديم، ولم يكن بينهما كلفة، إذ كان من طبع ياسين ألا يعنى بحقوقه التى تكفلها له مكانته فى الأسرة، إلى أن مخالطة كمال له واطلاعه على سيرته عن كثب واستماعه إلى ما يقال عنه جعلته يؤمن بولع أخيه بالنساء وميله مع الأهواء، ولكنه رغم هذا كله قد بوغت بلقائه فى بيت وردة مباغتة عنيفة، إذ لم يذهب به الخيال إلى حد تصور ياسين سكيرا أو متسكعا فى هذا الدرب! وبمرور الوقت أخذ يتخفف رويدا رويدا من وقع المفاجأة، كما مضى الشعور بالانزعاج يزايله، ثم حل محله إحساس بالطمأنينة بل بالارتياح. ولما بلغا فنش وجداه مكتظا بالجلوس، فاقترح ياسين أن يجلسا فى الخارج، واختار مائدة عند طرف الطوار على ناصية الطريق ليبتعدا ما أمكن عن الناس، ثم جلسا متقابلين وهما يبتسمان:

ـ أشربت كثيرا؟

أجاب كمال بعد تردد:

ـ كأسين..

ـ لا شك أن لقاءنا غير المتوقع طير أثرهما، فلنعد الكرة، أما أنا فلا أشرب إلا قليلا، سبعة أو ثمانية..

ـ يا خبر!. أيعد هذا قليلا؟!

ـ لا تدهش كالسذج فإنك لم تعد ساذجا..

ـ على فكرة، قبل شهرين لم أكن أدرى شيئا عن طعمها..

فقال ياسين كالمستنكر:

ـ شهرين!! يبدو أنى احترمتك أكثر مما تستحق!

وضحكا معا. ثم طلب ياسين كأسين، وعاد يتساءل:

ـ ومتى عرفت وردة؟

ـ عرفت وردة والويسكى فى ليلة واحدة..

ـ وما خبرتك بالنساء عدا ذلك؟

ـ لا شىء..

فحنى ياسين رأسه وهو ينظر إليه من تحت حاجبيه مقطبا فى ابتسام، كأنما يقول له «اطلع من دول»، ثم قال:

ـ إياك وادعاء البلاهة، لم يفتنى أن أطلع فى زمن مضى على مناورات كانت تدور بينك وبين بنت أبو سريع صاحب المقلى، تارة بالعين وتارة بالإشارة، هه؟ هذه الأمور لا تخفى على الخبير يا عكروت، ولكن لا شك أنك قنعت بالعبث السطحى حتى لا تجد نفسك مضطرا إلى مصاهرة عم أبو سريع، كما صاهرت حماتى السابقة بيومى الشربتلى، هه؟، وها هو قد أصبح من ذوى الأملاك وجاركم الملاصق! ترى أين اختفت مريم؟ لا أحد يعلم عنها شيئا، كان أبوها رجلا طيبا، ألا تذكر السيد محمد رضوان؟ فانظر ما آل إليه بيته؟! لكنها الأخلاق لا تستهين بها امرأة إلا هانت!

فما تمالك كمال أن ضحك متسائلا:

ـ والرجل ألا يلحقه من استهانته شىء؟

فضحك ياسين ضحكته الكبيرة، وقال:

ـ الرجل غير المرأة يا طويل اللسان، خبرنى كيف حال والدتك؟ الست الطيبة، ألا زالت حانقة علىّ حتى بعد طلاق مريم؟

ـ لا أظنها تذكر شيئا من الأمر كله، قلب أبيض كما تعلم..

فأمن على قوله، ثم هز رأسه كالآسف. وجاء النادل بالشراب والمزة، وسرعان ما رفع ياسين كأسه وهو يقول: «صحة آل أحمد»، فرفع كمال كأسه ثم شرب نصفها على أمل أن يسترد ما ذهب من مرحه، وقال ياسين بفم مملوء بالخبز الأسود والجبن:

ـ كان يخيل إلىّ أنك ستكون أقرب إلى خلق والدتك، كما كان المرحوم، فتنبأت لك بالاستقامة، ولكنك، ولكننا..

وحدجه كمال بنظرة متسائلة، فعاد يقول باسما:

ـ لكننا خلقنا على مثال أبينا..

ـ أبينا! إنه الجد الذى لا تطاق معه الحياة!

فقهقه ياسين عاليا، وتريث قليلا، ثم قال:

ـ إنك لا تعرف أباك، وقد كنت أجهله مثلك، ثم تكشف لى عن رجل آخر قلَّ أن يجود الزمان بمثله.

وتوقف عن الكلام، فقال كمال بحب استطلاع واهتمام:

ـ ماذا عرفت مما لم أعرف..؟

ـ عرفت أنه قطب اللطافة والطرب، لا تحملق فىّ كالمعتوه، ولا تظننى سكران، والدك عمدة الفكاهة والطرب والعشق!

ـ أبى؟

ـ أول ما عرفته فى بيت زبيدة العالمة..

ـ زبيدة ماذا؟.. ها.. ها..

ولكن وجه ياسين بدا أبعد ما يكون عن الهزل، فكف كمال عن الضحك قبل أن تزايل أساريره هيئة الضحك، ثم أخذ فمه يضيق رويدا رويدا حتى انطبقت شفتاه فحملق فى وجه أخيه صامتا وهذا يحدثه عما رأى أو سمع عن أبيهما فى تبسط وإسهاب. هل يفترى ياسين على أبيه كذابا؟ كيف يمكن أن يقع هذا وأى بواعث تبرره؟! كلا إنه لا ينطق إلا بما علم، وهذا إذن هو أبوه، رباه! والجد والجلال والوقار ما أمرها؟! إذا سمعت غدا أن الأرض مسطحة أو أن أصل الإنسان هو آدم فلا تدهش ولا تنزعج، وأخيرا تساءل:

ـ أتدرى والدتى بذلك؟

ياسين وهو يضحك:

ـ لا شك أنها تدرى بسكره على الأقل..

ترى كيف كان أثر ذلك فى نفسها هى التى تفزع من لا شىء؟! أتكون أمى ـ مثلى ـ ظاهرا من السعادة وباطنا من الشقاء؟! قال وكأنه ينتحل أسباب للدفاع لا يؤمن بها:

ـ الناس هواة مبالغة فلا تصدق جميع ما يزعمون، ثم إن صحته تدل على أنه رجل معتدل فى حياته.

فقال ياسين بإعجاب، وهو يشير إلى النادل أن يعيد الكرَّة:

ـ إنه أعجوبة! جسمه معجزة، وروحه معجزة، كل شىء فيه معجزة، حتى طول لسانه (ضحك منهما معا).. تصور أنه بعد هذا كله يحكم آله كما تعلم ويحافظ على جلاله واحترامه كما ترى!.. ما أضيعنى!

تأمل هذه العجائب : أنت وياسين تتشاربان! أبوك شيخ ماجن! هل ثمة حقيقى وغير حقيقى؟! ما علاقة الواقع بما فى رءوسنا؟ ما قيمة التاريخ؟ ما العلاقة بين عايدة المعبودة وعايدة الحبلى؟ أنا نفسى ما أنا؟! لماذا تألمت ذلك الألم الوحشى الذى لم أبرأ منه بعد؟ اضحك حتى تنفق .

ـ ما عسى أن يقع لو رآنا بمجلسنا هذا؟

فرقع ياسين بأصبعه ، ثم قال :

ـ أعوذ بالله!

ـ وهل زبيدة جميلة حقا؟

فصفر ياسين وهو يرعش حاجبيه :

ـ أليس من الظلم أن يتمتع أبونا بالدسم ، على حين لا نجد نحن إلا الفتات؟

ـ انتظر حظك ، ما زلت فى أول الطريق .

ـ ألم يتغير سلوكك معه بعد وقوفك على سره؟

ـ إلا هذا!

لاحت نظرة حالمة فى عينى كمال وهو يقول :

ـ ليته أعطانا من لطفه نصيبا!

ـ ليته . .

ـ ما كان أمرنا ليفسد أكثر مما فسد!

ـ حب النساء والخمر ليس من الفساد فى شىء . .

ـ وكيف تفسر سلوكه على ضوء إيمانه العميق؟

ـ وهل أنا كافر؟! وهل أنت كافر؟! وهل كان الخلفاء كفرة؟ الله غفور رحيم!

ما عسى أن يكون جواب أبى؟ شد ما أتوق إلى مناقشته ، كل شىء محتمل إلا أن يكون منافقا ، كلا ليس هو بالمنافق ، وما أزداد له إلا حبا! وغمرته الجرعة الأخيرة رغبة فى الدعابة ، فقال :

ـ من المؤسف أنه لم يتعلم فن التمثيل!

فضحك ياسين ضحكة عالية ، وقال :

ـ لو علم بما يتهيأ للممثل من حياة حافلة بالنساء والخمر لكرس حياته للفن!

أهذا الكلام الهازئ عن السيد أحمد عبد الجواد حقا! ولكن هل يكون هو أجلّ من آدم؟ ومع ذلك فالمصادفة وحدها هى التى عرفتك بحقيقة الرجل ، والمصادفة هى التى لعبت فى حياتك أخطر الأدوار ، لو لم أصادف ياسين فى الدرب لما انقشعت عن عينى

غشاوة الجهل، لو لم يجذبنى ياسين على جهله إلى القراءة لكنت اليوم فى مدرسة الطب كما تمنى أبى، ولو التحقت بالسعيدية ما عرفت عايدة، ولو لم أعرف عايدة لكنت إنسانا غير الإنسان ولكان الكون غير الكون، ثم يحلو للبعض أن يعيب على دارون اعتماده على المصادفة فى تفسير آلية مذهبه. قال ياسين مستعيرا لهجة الحكيم:

ـ سوف تعلمك الأيام ما لم تعلم..

ثم وهو يسخر من نفسه:

ـ ها هى تعلمنى أن أقضى لذاتى مبكرا حتى لا أثير شكوك زوجتى..

وهز رأسه وهو ينظر إلى عينى كمال المتسائلتين الباسمتين، ثم استطرد:

ـ إنها أقوى زوجاتى الثلاث، ويخيل إلىّ أننى لن أتخلص منها!

فسأله كمال باهتمام وهو يشير ناحية الدرب:

ـ ما الذى جاء بك إلى هذا وأنت متزوج للمرة الثالثة؟

فردد ياسين الجملة المشهورة من الأغنية التى سمعها كمال أول ما سمعها فى دخلة عائشة:

ـ علشان كده.. علشان كده.. علشان كده..

ثم قال مبتسما فى شىء من الارتباك:

ـ قالت لى زنوبة مرة «أنت لم تتزوج قط، كنت تعتبر الزواج نوعا من العشق، وقد آن لك أن تنظر إليه بعين الجد»، أليس غريبا أن يصدر هذا القول عن عوادة؟! ولكنها فيما يبدو أحرص على الحياة الزوجية من سابقتيها، وهى مصممة على أن تبقى زوجة لى حتى تغمض عينى، لكننى لا أستطيع أن أقاوم النسوان، سرعان ما أحبهن وسرعان ما أملّهن، لذلك عمدت إلى هذه الدروب لأقضى اللبانة مبكرا دون التورط فى عشق طويل، ولولا الملل ما سعيت إلى امرأة فى درب طياب!

فسأله كمال باهتمام متزايد:

ـ أليست هى امرأة ككل النساء؟

ـ كلا، إنها امرأة بلا قلب، الهوى عندها سلعة!

فعاد كمال يسأل وعيناه تلمعان بالأمل:

ـ ماذا ترى من اختلاف بين امرأة وأخرى؟

هز ياسين رأسه فى زهو إدلالا بالمكانة التى وضعته فيها أسئلة كمال، ثم أجاب بلهجة خبير:

ـ درجة المرأة تتقرر فى كادر النساء تبعا لمزاياها الأخلاقية والعاطفية بصرف النظر عن أسرتها ومركزها، فزنوبة مثلا أفضل عندى من زينب؛ لأنها أعمق عاطفة وأشد إخلاصا وحرصا على الحياة الزوجية، ولكنك فى النهاية تجدهن شيئا واحدا، عاشر الملكة بلقيس نفسها فلا محيص من أن تجدها آخر الأمر منظر معادا ونغمة مكررة.

خبا اللمعان فى عينى كمال، ترى هل أمست عايدة منظرا معادا ونغمة مكررة؟! ما أبعد هذا التصور عن التصديق! ولكن ما أنت إلا صريع الواقع، وحتى الشماتة بها تكبر عليك وتعز، وإنه لمما يبعث على الجنون أن يعلم المعبود الذى تذهب النفس حسرة عليه أنه كان فى وسع الأيام أن تجعل منه منظرا معادا ونغمة مكررة، بل أى الحالين أحب إليك إن استطعت جوابا؟ غير أنى أتحسر أحيانا على الملل من شدة الشوق كما يتحسر ياسين على الشوق من شدة الملل، وارفع رأسك أخيرا إلى رب السماوات وسله عن حل سعيد:

ـ ألم تحب أبدا؟

ـ إذن ما هذا الذى أنا غارق فيه؟!

ـ أعنى حبا حقيقيا لا هذه الشهوة العابرة..؟

أفرغ كأسه الثالثة، ومسح على فمه بظاهر كفه، ثم فتل شاربه وقال:

ـ لا تؤاخذنى، الحب يتركز عندى فى بعض مواضع كالفم واليد إلخ إلخ.

ياسين جميل، ما كانت لتسخر من رأسه أو أنفه، ولكنه بما قال يبدو حقيقا بالرثاء، كأن الإنسان لا يكون إنسانا إلا أن يحب، ولكن ما جدوى ذلك وما جنيت من الحب إلا الألم؟! واستطرد ياسين قائلا، وهو يحثه بالإشارة على الفراغ من كأسه:

ـ لا تصدق ما يقال عن الحب فى الروايات، الحب عاطفة أيام أو أسابيع مع حسن الظن!

كفرت بالخلود ولكن هل نسيان الحب ممكن؟ لم أعد كما كنت، إنى أتسلل من جحيم العذاب فتشغلنى الحياة حينا حتى أرجع إليه، وكان الموت قبلتى واليوم ثمة حياة ولو بلا أمل، العجب أنك تثور على فكرة النسيان كلما خطرت، كأنما تعانى تبكيت الضمير، أو لعلك تخاف أن ينكشف أجلّ ما قدست عن وهم، أو أنك تأبى على يد العدم أن تعبث بالحياة الرائعة التى بدونها تغدو ومن لم يولد سواء، لكن ألا تذكر لمَ بسطت الراحتين داعيا الله أن ينتشلك من العذاب وأن يلهمك النسيان؟!

ـ ولكن الحب الحقيقى موجود، نقرأ حوادثه فى الصحف لا فى الروايات..

ابتسم ياسين ابتسامة ساخرة، ثم قال:

ـ بالرغم من أننى مبتلى بحب النسوان فإننى لا أعترف بهذا الحب، إن المآسى التى

تقرأ أخبارها تتحدث فى الواقع عن شبان غير مجربين، أسمعت عن مجنون ليلى؟ لعل له نظائر فى هذه الحكايات، ولكن المجنون لم يتزوج من ليلى؟ دلنى على شخص واحد جن بحب زوجته! وا أسفاه! إن الأزواج عقلاء جدا، عقلاء ولو كرهوا، أما الزوجة فيبدأ بالزواج جنونها، لأنها لا تقتنع بأقل من أن تزدرد زوجها، ويخيل إلىَّ أن المجانين يصيرون عشاقا لأنهم مجانين لا أن العشاق يصيرون مجانين لأنهم عشاق، تراهم يتحدثون عن المرأة كأنما يتحدثون عن ملاك، والمرأة ليست إلا امرأة، طعام لذيذ سرعان ما تشبع منه، دعهم يشاركونها الفراش ليطلعوا على منظرها عند الاستيقاظ وليشموا رائحة عرقها وسائر الروائح التى قد تصدر عنها وليحدثونى بعد ذلك عن الملاك. فتنة المرأة ما هى إلا طلاء أو أداة إغراء حتى تقع فى الشرك وعند ذاك يبدو لك المخلوق الآدمى على حقيقته: لذلك فالأبناء ومؤخر الصداق والنفقة الشرعية هى سر قوة الزواج لا الجمال أو الفتنة..

ما كان أجدره أن يغير رأيه لو رأى عايدة، غير أنه ينبغى أن تفكر من جديد فى أمر الحب. كنت تراه وحيا ملائكيا ولكن لم يعد للملائكة وجود فابحث فى ذات الإنسان واسلكه ضمن الحقائق الفلسفية والعلمية التى تتشوق إلى اقتحامها، بذلك تقف على سر مأساتك وتكشف النقاب عن سر عايدة المكنون، لن تجدها ملاكا ولكن باب السحر سيفتح لك مصراعيه، أما الوحم والحبل والمنظر المعاد وسائر الروائح فما أتعسنى!

قال كمال بأسى لم يفطن إليه أخوه:

ـ الإنسان مخلوق قذر، ألم يكن من الممكن أن يخلق خيرا وأنظف مما كان؟!

رفع ياسين رأسه دون أن ينظر إلى شىء بالذات، وقال بسرور عجيب:

ـ الله. الله، النفس شعشعت واستحالت أغنية، وانقلبت الأعضاء آلات طرب، والدنيا حلوة، والكائنات حبيبة للقلب، والجو عذب والحقيقة خيال، والخيال حقيقة، أما المنغصات فأسطورة، الله.. الله، ما أجمل الخمر يا كمال! الله يطول عمرها ويديمها علينا ويعطينا الصحة والعافية لنشربها حتى آخر العمر، ويخرب بيت الذى يمسها بسوء أو يتقول عليها بغير الحق، تأمل هذه النشوة الحلوة، تأمل، أغمض عينيك، هل وجدت لذة كهذه؟.. الله.. الله.. الله، (ثم وهو يخفض رأسه ناظرا إلى كمال).. ماذا قلت يا ولدى؟.. الإنسان مخلوق قذر؟ أساءك ما قلت عن المرأة؟ لم أتكلم لأثير اشمئزازك منها، الواقع أنى أحبها، أحبها بكل ما فيها، ولكنى أردت أن أبرهن لك على أن المرأة الملاك لا وجود لها بل لا أدرى إن كنت أحبها إن وجدت! فإنى مثلا ـ كأبيك ـ أحب الأرداف الثقيلة، ولو كان الملاك ذا أرداف ثقيلة لتعذر عليه الطيران، افهمنى جيدا لا تسىء فهما وحياة أبينا السيد أحمد..

وما لبث كمال أن شاركه نشوته، فقال:

ـ لشد ما تبدو الدنيا محبوبة إذا سرت الخمر فى الروح!

ـ يسلم فمك، حتى النغمة المألوفة يترنم بها شحاذ الطريق تقع من الأذن موقع السحر..

ـ حتى أحزاننا تبدو كأنها أحزان شخص آخر..

ـ بخلاف نساء الشخص الآخر، فإنها تبدو وكأنها نساؤنا..

ـ هما شيء واحد يا بن أبى..

ـ الله.. الله، لا أريد أن أفيق..

ـ من رذالة الحياة أنها لا تمكننا من الاستمرار فى السكر كما نهوى..

ـ ليكن فى معلومك أننى لا أرى فى السكر لهوا، ولكن غاية سامية كالمعرفة والمثل الأعلى..

ـ إذن فأنا فيلسوف كبير!

ـ عندما تؤمن بما قلت وليس قبل ذلك..

ـ الله يطول عمرك يا أبى، فقد أنجبت فلاسفة مثلك!

ـ لم يبدو الإنسان تعيسا مع أنه لا يطلب أحسن من كأس وما أكثر القوارير، وامرأة وما أكثر النساء؟!

ـ لمه؟.. لمه؟..

ـ سأجيبك عندما أشرب كأسا أخرى.

ـ كلا..

قال ياسين ذلك بصوت وشى بصحوة طارئة، ثم استطرد محذرا:

ـ لا تفرط، إنى شريكك الليلة فأنا مسئول عنك، كم الساعة الآن؟

وأخرج ساعته فنظر فيها، ثم هتف:

ـ منتصف الواحدة، وقع المحذور يا بطل، كلانا قد تأخر، ووراءك أبونا وورائى زنوبة، قم بنا..

ولم تمض دقائق حتى غادرا البار، فاستقلا عربة انطلقت بهما صوب العتبة، دارت العربة حول سور الأزبكية فى طريق يسوده الظلام، وبين آونة وأخرى يرى عابر مهرولا أو مترنحا، وكلما مرت العربة بشارع مقاطع ترامى إليهما صوت غناء تحمله نسمة رطيبة، أما فوق المبانى وأشجار الحديقة الباسقة فقد تألقت النجوم اليواقظ.

قال ياسين ضاحكا:

ـ أستطيع الليلة أن أحلف غير متحرج بأننى لم آت منكرا . .

فقال كمال فى شىء من القلق :

ـ أرجو أن أصل إلى البيت قبل أبى . .

ـ الخوف شر أنواع التعاسة ، لتحيا الثورة!

ـ أجل لتحيا الثورة!

ـ لتسقط الزوجة المستبدة!

ـ ليسقط الأب المستبد!

٣٧

طرق كمال الباب فى خفة حتى فُتح عن شبح أم حنفى ، ولما عرفته قالت بصوت هامس :

ـ سيدى الكبير على السلم . .

فانتظر وراء الباب حتى يطمئن إلى وصول أبيه إلى الدور الأعلى ، غير أن صوته جاء من داخل السلم وهو يسأل بشدة :

ـ من الطارق؟

فخفق قلبه ولم ير بدا من التقدم وهو يجيبه :

ـ أنا يا بابا . .

تراءى له شبح أبيه على بسطة الدور الأول على حين لاح ضوء المصباح الذى تمسك به الأم فى أعلى السلم ، ونظر السيد إليه من فوق الدرابزين ، وهو يتساءل فى دهش :

ـ كمال؟! . . ما الذى أخَّرك خارج البيت حتى هذه الساعة؟

أخَّرنى الذى أخَّرك . .

قال بإشفاق :

ـ ذهبت إلى المسرح لأشهد التمثيلية المقررة علينا هذا العام . .

فصاح ساخطا :

ـ هل أصبحت المذاكرة فى المسارح؟! ألا يكفى أن تقرأ وتحفظ؟ كلام فارغ سمج ، ولمَ لَمْ تستأذنّى؟

توقف كمال على بعد درجات من موقف أبيه ، وقال معتذرا :

ـ لم أتوقع أن تمتد السهرة إلى هذه الساعة المتأخرة.

فقال الرجل بغضب:

ـ شف لك طريقة أخرى للمذاكرة ودعك من الأعذار السخيفة. .

ومضى يرقى فى السلم وهو يدمدم، فترامت إليه كلمات من دمدمته مثل «مذاكرة المسارح على آخر الزمن»، «الساعة واحدة بعد منتصف الليل»، «حتى الأطفال»، «ملعون أبوك وأبو التمثيلية المقررة». ارتقى السلم حتى الدور الأخير ومضى إلى الصالة، فتناول مصباحا مضاء من فوق منضدة ودخل حجرته مكفهر الوجه، ووضع المصباح على المكتب ووقف مستندا بكلتا يديه يتساءل: عن تاريخ آخر شتيمة قذفه بها أبوه فلم يتذكره على وجه التحديد، ولكنه كان واثقا من أن سنوات دراسته العالية مرت فى سلام وكرامة، ولذلك وقعت اللعنة من نفسه ـ رغم أنه لم يواجه بها ـ موقعا أليما. وتحول عن مكتبه فخلع طربوشه وشرع فى نزع ملابسه، وعلى حين فجأة شعر بدوار فى رأسه وجزع فى معدته، فغادر الحجرة مسرعا إلى الحمام حيث قذف جوفه بما فيه فى عنف ومرارة، وعاد إلى الحجرة مرة أخرى منهوك القوى، متقزز النفس يجد فى صدره ألما أشد وأعمق، وخلع ملابسه وأطفأ المصباح ثم استلقى على الفراش وهو ينفخ فى ضيق وضجر، ولكن لم تمض دقائق حتى سمع الباب وهو يفتح برفق، ثم جاءه صوت أمه متسائلا فى إشفاق:

ـ نمت. . ؟

فقال بلهجة طبيعية راضية ليصرفها عنه ويخلو إلى ما هو فيه:

ـ نعم. .

فتدانى شبحها من الفراش حتى وقفت فوق رأسه، ثم قالت كالمعتذرة:

ـ لا تتكدر، أنت أعلم الناس بأبيك. .

ـ مفهوم. . مفهوم!

فقالت وكأنما أرادت أن تفصح عما ساورها هى:

ـ إنه مطلع على جدّك واستقامتك، ومن هنا جاء إنكاره لتأخرك غير المألوف حتى هذه الساعة. .

فركبه الغيظ حتى لم يتمالك من أن يقول:

ـ إذا كان السهر يستوجب كل هذا الإنكار، فلماذا يواظب هو عليه؟!

حال الظلام دون رؤية ما ارتسم على وجهها من دهش وإنكار، لكنه سمعها تضحك من أنفها لتوهمه بأنها لم تحمل قوله على محمل الجد، وقالت:

ـ كل الرجال يسهرون، وسوف تصير رجلا عما قريب، أما الآن! وأنت طالب. . .

فقاطعها قائلا بلهجة من يود الفراغ من الحديث :

ـ مفهوم . . مفهوم، لم أقصد بقولى شيئا، لماذا تعبت نفسك بالمجيء إلىّ؟ عودى مصحوبة بالسلامة . .

قالت برقة :

ـ خفت أن تكون متكدرا، سأتركك الآن ولكن عدنى بأن تنام صافى النفس، اقرأ الصمدية حتى يأتيك النوم . .

وشعر بابتعادها، ثم سمع الباب وهو يغلق وصوتها يقول «مساء الخير». نفخ مرة أخرى، وراح يمسح صدره وبطنه وهو يحملق فى الظلام . . أما مذاق الحياة كلها فكان مرا، أين ذهبت نشوة الخمر الساحرة؟ وما هذا الكرب الخانق الذى حل محلها؟ ما أشبهه بخيبة الحب التى ورثت أحلامه السماوية! ومع ذلك فلولا الأب ما انقلب حاله . هذه القوة الجبارة التى يخافها كل الخوف، يخافها ويحبها معا، ما كنهها؟ ليس إلا رجلا لولا مرحه الذى خص به الغرباء لم يكن شيئا، فكيف يخافه؟ وحتى متى يذعن لقوة هذا الخوف؟ إنه وهم كسائر الأوهام التى امتحن بها، ولكن ما جدوى المنطق فى مقاومة العواطف الثابتة؟ وقد قرعت يداه يوما أبواب عابدين فى المظاهرة الكبرى التى تحدت الملك هاتفة «سعد أو الثورة»، فتراجع الملك واستقال سعد من الوزارة . . أما حيال أبيه فإنه يصير لا شيء . كل شيء . تغير مدلوله ومعناه، الله . . آدم . . الحسين . . الحب . . عايدة نفسها . . الخلود . قلت الخلود؟ نعم، فيما يجرى على الحب وفيما جرى على فهمى، ذلك الأخ الشهيد الذى استضافه الفناء إلى الأبد، أتذكر التجربة التى قمت بها وأنت فى الثانية عشرة من عمرك لتعرف مصيره المجهول؟ . . يا للذكرى المحزنة! . . اقتنصت عصفورة من عشها ثم خنقتها، وكفنتها وحفرت لها قبرا صغيرا فى فناء البيت على كثب من البئر القديمة ثم دفنتها فيها، وبعد أيام أو أسابيع نبشت القبر وأخرجت الجثة، فماذا رأيت؟ وماذا شممت؟ ذهبت إلى أمك باكيا تسألها عن مصير الميت، كل ميت، ومصير فهمى خاصة فلم يصدك عنها إلا إفحامها فى البكاء، فماذا بقى من فهمى بعد سبع سنوات؟ وماذا سيبقى من الحب؟ وعم تمخض الأب الجليل؟

ألفت عيناه ظلام الحجرة فتراءى المكتب والمشجب والكرسى والصوان أشباحا قائمة، وندت عن الصمت نفسه أصوات مبهمة، وامتلأ رأسها بالأرق المحموم، أما مذاق الحياة فازداد مرارة، وتساءل : هل غط ياسين فى نومه؟ وعلى أى حال كان لقاء زنوبة له؟ وهل آوى حسين إلى فراشه الباريسى؟ وعلى أى جانب تنام عايدة الآن؟ وهل تكور بطنها وانداح؟ وماذا يفعلون فى نصف الكرة الآخر الذى تتربع الشمس فى كبد سمائه؟ . . والكواكب المنيرة، أليس ثمة حياة تعمرها خالية من التعاسة؟ وهل يمكن أن يسمع أنينه الخافت فى ذلك الأوركسترا الكونى اللانهائى؟!

أبى! دعنى أكاشفك بما فى نفسى، لست ساخطا على ما تكشف لى من شخصك، فإن ما كنت أجهله منك أحب إلىَّ مما كنت أعرف، إنى معجب بلطفك وظرفك ومجونك وعربدتك ومغامراتك، ذلك الجانب الدميث منك الذى يعشقه جميع عارفيه، وهو إن دل على شىء فعلى حيويتك وهيامك بالحياة والناس، ولكنى أسائلك لم ارتضيت أن تطالعنا بهذا القناع الفظ المخيف؟ لا تعتل بأصول التربية فأنت أجهل الناس بها، وآى ذلك ما ترى وما لا ترى من سلوك ياسين وسلوكى، فما فعلت إلا أن آذيتنا كثيرا وعذبتنا كثيرا بجهل لا يشفع لك فيه حسن نيتك، لا تجزع فإنى ما زلت أحبك وأعجب بك، وسأبقى على الدوام مخلصا لحبك والإعجاب بك، غير أن نفسى تضمر لك لوما شديدا يعادل ما جرعتنى من ألم، لم نعرفك صديقا كما عرفك الغرباء، ولكن عرفناك حاكما مستبدا شرسا طاغية، كأنما كنت أول مقصود بالمثل القائل «عدو عاقل خير من صديق جاهل»، لذا سأكره الجهل أكثر من أى شىء فى الحياة، فهو المفسد لكل شىء حتى الأبوة المقدسة. خير منك أب له نصف جهلك ونصف حبك لأبنائك، وإنى أعاهد نفسى - إذا صرت يوما أبا - أن أكون لأبنائى الصديق قبل أن أكون المربى، غير أنى ما زلت أحبك وأعجب بك حتى بعد أن زايلتك صفات الألوهية التى توهمتها فيما مضى عيناى المسحورتان. أجل لم تعد قوتك إلا أسطورة، فلست مستشارا كسليم بك، ولا غنيا كشداد بك، ولا زعيما كسعد زغلول، ولا داهية كثروت، ولا نبيلا كعدلى، ولكنك صديق محبوب وحسبك هذا، وما هو بالقليل، فليتك لم تضن علينا بصداقتك، ولكن لست وحدك الذى تغيرت فكرته، الله نفسه لم يعد الله الذى عبدته قديما، إنى أغربل صفات ذاته لأنقيها من الجبروت والاستبداد والقهر والدكتاتورية وسائر الغرائز البشرية، ولست أدرى أين ينبغ أن أشكم الفكر ولا إن كان من الفضيلة أن أشكمه، بل إن نفسى تحدثنى بأنى لن أقف عند حد وبأن النضال على عذابه خير من الاستكانة والنوم - قد لا يهمك هذا بقدر ما يهمك أن تعلم أنى قررت أن أضع حدا لاستبدادك، استبدادك الذى يغشانى كما يغشانى هذا الظلام المحيط، والذى يؤلمنى كما يؤلمنى هذا الأرق اللعين، أما الخمر فلن أذوقها جزاء خيانتها لى، واأسفاه! إذا كانت الخمر أيضًا وهما خادعا فما بقى للإنسان؟ أقول لك إنى قررت أن أضع حدا لاستبدادك، لا بالتحدى والعصيان فأنت أكرم على نفسى من أن أفعل بك هذا، ولكن بالهجرة! أجل لأهاجرن من بيتك حال أقف على قدمى، وفى أحياء القاهرة متسع لكل مضطهد، أتدرى ماذا كانت عواقب حبى لك رغم استبدادك بى؟ إنى عبدت مستبدا آخر طالما ظلمنى بظاهره وباطنه معا، استبد بى دون أن يحبنى، ورغم ذلك كله عبدته من أعماقى ولا زلت أعبده، فأنت أول مسئول عن حبى وعذابى. ترى ما نصيب هذه الفكرة من الحقيقة؟! لست مرتاحا إليها ولا متحمسا لها، ومهما يكن من واقعية الحب فلا شك

أنه يرجع إلى أسباب أعمق أصالة فى النفس، فلنتركها الآن معلقة حتى نعود إليها بالدرس فيما بعد، وعلى أى حال فأنت يا أبى الذى هوَّنت علىَّ الإحساس بالظلم بمداومتك على الاستبداد بى، وأنت يا أمى لا تحملقى فى وجهى بإنكار أو تتساءلى ما ذنبى وما جنيت على أحد، إنه الجهل. هو جنايتك. الجهل. . الجهل. . الجهل. أبى هو الفظاظة الجاهلة، وأنت الرقة الجاهلة، وسوف أظل ما حييت ضحية هذين الضدين، وجهلك أيضًا هو الذى ملأ روحى بالأساطير، فأنت همزة الوصل بينى وبين عالم الكهوف. وكم أشقى اليوم فى سبيل التحرر من آثارك كما سأشقى غدا فى سبيل التحرر من أبى، وما كان أحراكما أن توفرا علىَّ هذا الجهد المضنى، لذلك أقترح ـ وظلام هذه الحجرة شهيد ـ أن تلغى الأسرة ـ هذه الحفرة التى يتجمع فيها الماء الآسن ـ وأن تزول الأبوة والأمومة، بل هبنى وطنا بلا تاريخ وحياة بلا ماض، ولننظر الآن فى المرآة فماذا نرى؟ هذا الأنف الضخم وهذا الرأس الكبير. أعطيتنى أنفك يا أبى دون مشورة أو رحمة فأنت تستبد بى حتى قبل أن أولد، ومع أنه يبدو فى وجهك مهيبا جليلا فإنه ـ بذاته وشكله ـ يلوح مضحكا فى صفحة وجهى الضيقة كأنه جندى إنجليزى فى حلقة ذكر، وأعجب منه رأسى لأنه لا إلى فصيلة رأسك ينتمى ولا إلى فصيلة رأس أمى فعن أى جد بعيد انحدر إلىّ؟ فليظل ذنبه معلقا فوق رأسيكما حتى يتضح لى الحق، قبيل النوم يجب أن تقول «الوداع» فقد لا يطلع الصبح علينا. إنى أحب الحياة رغم ما فعلته بى على طريقة حبى إياك يا أبى. وفى الحياة أشياء جديرة بالحب وصفحة وجهها مليئة بعلامات الاستفهام مثيرة للشغف، غير أن النافع فيها لا نفع فيه وما لا نفع فيه عظيم الشأن، والراجح أنى لن أعود إلى تقبيل الكأس فقل وداعا أيتها الخمر، ولكن مهلا. أذكر ليلة غادرت بيت عيوشة عاقدا العزم على ألا أقرب النساء ما حييت وكيف انقلبت بعد ذلك زبونها الأثير، ويخيل إلىَّ أن الإنسانية تئن مثلى من الخمار والغثيان فادع لها بالشفاء العاجل. .

٣٨

فتر حماس ياسين حال انفراده بنفسه فى العربة بعد ذهاب كمال، وبدا كالمتفكر رغم سكره، إذ جاوزت الساعة الواحدة ودخل الوقت منذ كثير فى الهزيع المريب من الليل، وسوف يجد زنوبة إما يقظى تنتظر وتغلى وإما أنها ستستيقظ حين دخوله، وعلى أى حال فلن تمر الليلة بسلام، بسلام كامل على الأقل.

غادر العربة عند منعطف قصر الشوق ومضى يخوض الظلام الدامس وهو يهز كتفيه

العريضين فى استهانة ويقول لنفسه بصوت هامس: «ليس ياسين الذى يعمل حسابا لامرأة»، وكرر هذا القول وهو يرقى فى الدرج مسترشدا فى الظلام بالدرابزين، غير أن تكراره إياه لم ينم عن طمأنينة قاطعة. وفتح الباب ودخل، ثم مضى إلى حجرة النوم على ضوء مصباح الصالة، وألقى على الفراش نظرة فرآها نائمة، فردَّ الباب ليحول دون تسرب الضوء الخافت الآتى من الصالة، وراح يخلع ملابسه فى هدوء وحذر وهو يزداد اطمئنانا إلى استغراقها فى النوم، ويرسم فى ذهنه خطة للتسلل إلى موضعه فى الفراش دون أن يحدث صوتا.

ـ أشعل المصباح لأكحل عينى برؤيتك!

التفت رأسه نحو الفراش ثم ابتسم فى تسليم، وأخيرا تساءل كالداهش:

ـ أأنت يقظى؟! ظننتك نائمة فلم أشأ أن أزعجك!

ـ قلبك طيب، كم الساعة الآن؟

ـ الثانية عشرة على الأكثر، فإنى غادرت المجلس حوالى الحادية عشر، وجئت ماشيا واحدة واحدة..

ـ لازم كان مجلسك فى بنها!

ـ لماذا؟.. هل تأخرت؟

ـ انتظر حتى يجيبك ديك الفجر بنفسه.

ـ لعله لم ينم بعد!

وجلس على الكنبة ليخلع حذاءه وجوربه ولم يكن عليه إلا القميص والسروال، وعند ذاك ندت عن السرير طقطقة ورأى شبحها يستوى جالسا، ثم سمعها تقول فى حدة:

ـ أشعل المصباح.

ـ لا داعى لذلك، فقد فرغت من خلع ملابسى.

ـ أريد أن نصفى حسابنا فى النور..

ـ تصفية الحساب فى الظلام ألطف!

وصدرت عنها نفخة غيظ ثم غادرت الفراش، ولكنه مد ذراعيه من مجلسه القريب فأصاب منكبها فجذبها إلى الكنبة وأجلسها إلى جانبه وهو يقول:

ـ لا تشعلى الفتنة.

تخلصت من يده، وقالت:

ـ أين ما تعاهدنا عليه؟ لقد قبلت أن تسكر فى الحانات كما تحب على شرط أن تعود

إلى بيتك فى وقت مبكر، قبلت هذا على رغمى لأنك لو سكرت فى بيتك لوفرت على نفسك مالا كثيرا يضيع هباء، ومع ذلك فها أنت تعود قبيل الفجر غير مبال بما تعاهدنا عليه!

من يستطيع أن يخادع ربيبة التخت والعود؟ وإذا ثبتت لها خيانتك يوما فهل تقف عند حد الشجار أم . . ؟ فكر مرتين، ولا تنس كذلك أن فقدها لا يهون، إنها أحب زوجاتى إلىَّ، خبيرة بما يسعدنى، متمسكة بحياتنا، لولا الملل . . !

ـ كنت فى مجلس كل ليلة لم أغادره إلا إلى بيتى، وعندى شاهد تعرفينه، أتدرين من هو؟ (وضحك بصوت عال) . .

ولكنها قالت ببرود:

ـ تكلم فى الموضوع!

فقال وهو لا يزال يضحك:

ـ كان جليسى الليلة أخى كمال!

فلم تدهش كما توقع، وقالت فى نفاد صبر:

ـ من يشهد للعروس؟!

ـ لا تكابرى! . . براءتى كالشمس! . . (ثم متأففا) . . يحزننى والله أن ترتابى فى سلوكى، شبعت من الدوران حتى المرض، ولا رغبة لى الآن إلا الحياة الهادئة، أما الحانة فتسلية بريئة لا غبار عليها، ولا بد للإنسان من مخالطة الناس . .

فقالت بصوت دلت نبرته على الانفعال:

ـ آه منك. أنت تعلم أنى لست طفلة، وأن الضحك علىَّ مطلب عسير، وأنه من الخير لكلينا ألا تدخل بيننا الريبة!

موعظة أم وعيد؟! أين منى حياة أبى المثالية، الرجل الذى يفعل ما يشاء فإذا رجع إلى بيته وجد الاستقرار والحب والطاعة، لم يتحقق لى هذا الحلم على يد زينب ولا مريم وأخلق به ألا يتحقق على يد زنوبة، لا ينبغى لهذه العوادة الجميلة أن تيأس طالما هى على ذمتى! قال بحزم:

ـ لو كان بى رغبة إلى مزيد من الحرام ما تزوجتك!

فهتفت بحدة:

ـ ولكنك تزوجت من قبل مرتين، فلم يمنعك الزواج من الحرام!

نفخ ناشرا أنفاسا مخمورة، ثم قال:

ـ حالتك غير الحالتين السابقتين يا غبية، الزوجة الأولى اختارها أبى وفرضها علىَّ،

والزوجة الثانية لم تجعل لى من سبيل إليها إلا بالزواج فتزوجتها، أما أنت فلم يفرضك أحد علىَّ، ولم يغلق بابك دونى قبل الزواج، ولم يكن الزواج منك ليعدنى بشىء جديد لم أعرفه، فلم تزوجتك يا غبية إن لم يكن الزواج نفسه ـ أى الحياة المستقيمة المستقرة ـ مطلبى؟! والله لو كان بك ذرة من عقل ما سمحت لنفسك بالشك فىّ أبدا . .

ـ حتى إن جئتنى عند الفجر؟!

ـ حتى إن جئتك عند الصبح!

فهتفت بحدة:

ـ نه، قل كلاما آخر أو فعلى الأمن السلام!

فقال بحدة وهو يقطب فى نرفزة:

ـ ألف سلام!

ـ أرحل، أرض الله واسعة والرزق على الله . .

فقال فى استهانة متعمدا:

ـ أنت وشأنك . .

فقالت بصوت واش بالوعيد:

ـ أرحل غير أنى كالشوكة لا تنتزع بيسر.

فتمادى فى الاستهانة بها قائلا:

ـ خزعبلات! تذهبين بأيسر مما يخلع الحذاء . .

ولكنها غيرت النغمة من التحدى والتهديد إلى التشكى، فهتفت:

ـ أأرمى بنفسى من النافذة فأريح وأستريح . .؟!

فهز كتفيه استهانة، ثم نهض وهو يقول بلهجة أخف:

ـ ثمة طريق أفضل هو أن تقومى إلى الفراش، هلمى لننام واخزى الشيطان . .

اتجه نحو الفراش فاستلقى عليه وهو يتأوه كأنما طال به التشوق للرقاد، أما هى فعادت تقول وكأنها تحدث نفسها:

ـ مكتوب على من يعاشرك التعب . .

التعب مكتوب علىَّ أنا أيضًا، جنسك هو المسئول، لا واحدة تغنى عن الأخريات وقهر الملل فوق طاقتهن، ولكن لن أعود إلى العزوبة مختارا، لا أستطيع أن أبيع كل عام دكانا فى سبيل زواج جديد، فلتبق زنوبة على شرط ألا تركبنى، الرجل المجنون يحتاج إلى امرأة عاقلة، زنوبة وعاقلة؟!

ـ أتبقى على الكنبة حتى الصبح؟

ـ لن يغمض لى جفن، دعنى لما بى وتمتع أنت بالنوم.

لابد مما ليس منه بد، مد ذراعيه حتى قبض على منكبها، ثم جذبها إليه وهو يغمغم:

ـ فراشك!

فقاومت مقاومة غير عسيرة، ثم استسلمت ليده فمضت إلى الفراش وهى تقول متأوهة:

ـ متى تتاح لى راحة البال كسائر النساء؟

ـ اطمئنى، ينبغى أن تضعى فىّ كل ثقتك، إنى أهل للثقة، مثلى لا يكون سعيدا إلا إذا سهر، ولن تسعدى أنت إذا أتعبتنى بوجع الدماغ، حسبك أن تؤمنى ببراءة سهرى، صدقينى ولن تندمى، لست جبانا ولا كذابا، ألم أجئ بك ليلة إلى هذا البيت وفيه زوجتى؟ فهل يفعل هذا جبان أو كذاب؟ شبعت من الدوران ولم يبق لى فى حياتى إلا أنت!

تنهدت بصوت مسموع، وكأنما أرادت أن تقول له «أود أن تكون صادقا فيما تقول»، فمد يده لاعبا وهو يقول:

ـ يا سلام، هذه التنهيدة حرقت قلبى، الله يقطعنى..

قالت برجاء وهى تستجيب ليده رويدا رويدا:

ـ لو ربنا يهديك!

من يصدق أن هذه الأمنية صادرة عن عوادة!

ـ لا تقابلينى بالشجار أبدا، إن الشجار يثبط النشاط!

علاج ناجع ولكنه لا ينفع فى جميع الأحوال، لو نلت عيوشة الليلة ما تيسر..

أرأيت أن ارتيابك لم يكن فى محله؟!

٣٩

كان السيد أحمد عبد الجواد منهمكا فى عمله وإذا بياسين يدخل الدكان مقبلا على مكتبه، فما إن تصفح وجهه حتى أدرك أنه جاء مستنجدا: كانت فى عينيه نظرة حائرة شاردة، ومع أنه تبسم له فى أدب ومال على يده ليقبّلها إلا أنه شعر بأنه يقوم بهذه الحركات التقليدية بلا وعى، وأن وجدانه كله غائب فى مكان لا يعلمه إلا الله، أشار إليه

بالجلوس فقرب الكرسى من مجلس أبيه ثم جلس، وجعل ينظر إليه حينا ثم يخفض بصره أو يبتسم ابتسامة باهتة، تساءل السيد عما دعا إلى هذه الزيارة، وكأنما أشفق من أن يترك ابنه الصامت إلى صمته، فقال كالمتسائل:

ـ خير؟ . . ماذا بك؟ لست كعادتك . .

فنظر ياسين إليه طويلا كأنما يستثير عطفه، ثم قال وهو يخفض عينيه:

ـ سينقلوننى إلى أقاصى الصعيد!

ـ الوزارة؟

ـ نعم . .

ـ لمه؟

هز رأسه كالمعترض، وقال:

ـ سألت الناظر فحدثنى عن أمور لا علاقة لها بالعمل، ظلم . .

سأله الرجل بارتياب:

ـ أى أمور؟ أوضح.

ـ وشايات وضيعة . . (ثم بعد تردد) عن زوجتى . .

تضاعف اهتمام السيد، فسأله فيما يشبه الإشفاق:

ـ ماذا قالوا؟

لاح الضيق فى وجه ياسين حينا، ثم قال:

ـ قال السفهاء إنى متزوج من . . عوادة!

ألقى السيد نظرة جزعة على الدكان، فرأى جميل الحمزاوى يعمل بين رجل قائم وامرأة جالسة لا يفصلهم عنه إلا أذرع، فكظم غيظه وقال بصوت منخفض وإن لم يخل انخفاضه تهدج الغضب:

ـ لعلهم سفهاء حقا، ولكن هذا ما حذرتك من عواقبه، إنك ترتكب كل كبيرة دون مبالاة، ولكن العواقب لن تغفل عنك إلى الأبد، ماذا أقول؟ إنك ضابط مدرسة ويجب أن تكون سمعتك بمنأى عن الشبهات، طالما قلت لك هذا مرارا وتكرارا، فلا حول ولا قوة إلا بالله، كأنى يجب أن أخلص من هموم الدنيا جميعا لأتفرغ لهمومك أنت وحدها!

فقال ياسين فى ارتباك وحيرة:

ـ ولكنها زوجتى الشرعية، ولا لوم على الإنسان فى حدود الشرع، فما شأن الوزارة فى ذلك؟

قال السيد بغيظ مكتوم :

ـ يجب أن تحرص الوزارة على سمعة موظفيها .

هلا تركت الكلام عن السمعة لغيرك!

ـ ولكن هذا تجن وظلم بالنسبة لرجل متزوج!

وهو يلوح بيده ساخطا :

ـ أتريدنى أن أرسم لوزارة المعارف سياستها؟

فقال بانكسار ورجاء :

ـ كلا ، ولكنى أرجو أن توقف النقل بنفوذك .

وجعلت يسراه تعبث بشاربه وهو يحدج ياسين بنظرة لم تره لأنها بدت مشغولة بالتفكير ، وراح ياسين يستعطفه ويعتذر له عن إزعاجه ويؤكد له أن كل اعتماده بعد الله عليه ، ولم يغادر الدكان حتى وعده الرجل بالسعى فى وقف نقله .

وعند مساء اليوم نفسه ذهب السيد أحمد إلى قهوة الجندى بميدان الأوبرا بمقابلة ناظر المدرسة ، فما إن رآه الرجل حتى دعاه إلى الجلوس وهو يقول له :

ـ كنت منتظرا مجيئك ، فياسين جاوز كل حد ، إنى آسف لما يسببه لك من متاعب . .

فقال السيد وهو يجلس قبالته فى الشرفة المطلة على الميدان :

ـ على أى حال فياسين ابنك أيضا . .

ـ طبعا ، ولكن لا شأن لى بالمسألة كلها ، إنها محصورة بينه وبين الوزارة . .

فقال السيد كالمحتج وإن بدا وجهه مبتسما :

ـ أليس عجيبا أن يعاقبوا موظفا لأنه تزوج من عوادة! أليس هذا شأنا يعنيه وحده؟ ثم إن الزواج علاقة شرعية لا يصح ان يتعرض لها أحد بسوء!

قطب الناظر متفكرا متسائلا ، كأنه لم يفهم ما قال صاحبه ، ثم قال :

ـ لم يجئ ذكر الزواج إلا عرضا وأخيرا! أما علمت بالخبر كله؟ يخيل إلىّ أنك لم تعلم بكل شىء!

انقبض صدر الرجل ، فتساءل فى إشفاق وقلق :

ـ أيوجد مطعن آخر؟

فمال الناظر نحوه قليلا ، وقال بأسف :

ـ المسألة يا سيد أحمد أن ياسين تعارك فى درب طياب مع ساقطة ، فحرر له محضر بلغت صورته إلى الوزارة . .

بهت الرجل فاتسعت حدقتاه واصفر وجهه ، حتى لم يتمالك الناظر من أن يهز رأسه آسفا وهو يقول :

ـ هذه هى الحقيقة، وقد بذلت قصارى جهدى لأخفف العقوبة، حتى وفقت إلى إلغاء فكرة إحالته إلى مجلس تأديب فاكتفى بنقله إلى الصعيد . .

تنهد السيد مغمغما :

ـ الكلب . . !

فقال الناظر وهو يرمقه بعطف :

ـ إنى آسف جدا يا سيد أحمد، غير أن هذا السلوك لا يليق بموظف، لا أنكر أنه شاب طيب ومثابر على عمله، بل أصارحك بأنى أحبه، لا لأنه ابنك فحسب ولكن لشخصه أيضا، ولكن ما أعجب ما يقال عنه! ينبغى أن يصلح من شأنه ويقوِّم سلوكه وإلا خسر مستقبله!

صمت السيد طويلا والغضب مرتسم على وجهه، ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :

ـ معركة مع ساقطة! فليذهب إذن فى داهية!

ولكنه لم يتركه للداهية وإنما بادر إلى مقابلة معارفه من النواب وعلية القوم مستشفعا بهم فى وقف النقل، وكان محمد عفت على رأس الساعين معه، فتوالت الشفاعات على كبار رجال المعارف حتى أثمرت فألغى النقل، ولكن الوزارة أصرت على ندبه للعمل بديوانها، ثم أعلن رئيس المحفوظات ـ صهر محمد عفت أوزوج زوجة ياسين الأولى ـ عن استعداده لقبوله فى إدارته ـ بإيعاز من محمد عفت ـ فتمت الموافقة على ذلك، ونقل ياسين فى أول شتاء سنة ١٩٢٦ إلى إدارة المحفوظات . ولم تمر المسألة فى سلام تام فقد سجل عليه عدم صلاحيته للعمل فى المدارس، كما صرف النظر عن بحث ترقيته إلى الدرجة السابعة رغم أقدميته فى الثامنة التى جاوزت عشرة أعوام، ومع أن محمد عفت قصد من إلحاقه بإدارة صهره ألا تساء معاملته فإن ياسين لم يرتح إلى وضعه الجديد تحت رياسة زوج زينب، وقد عبر عن مشاعره حين قال يوما لكمال :

ـ لعلها سرت بما وقع لى، ووجدت فيه تأييدا لموقف أبيها حين رفض إرجاعها إلىّ، إنى خبير بعقول النساء ولا شك فى أنها شمتت بى وإنه لمن سوء الحظ ألا أجد مكانا كريما إلا تحت رياسة هذا التيس! ما هو إلا كهل لا خير فيه للنساء، وما أعجزه عن أن يسد الفراغ الذى تركه ياسين، فلتشمت الحمقاء فإنى شامت . .

ولم تقف زنوبة على سر النقل، وقصارى ما علمت أن زوجها ندب للعمل بمركز أفضل فى الوزارة، كذلك تحاشى السيد أن يطرق فى حديثه مع ياسين موضوع الفضيحة الحقيقى، واكتفى بأن قال له حين وفق إلى إلغاء النقل :

ـ ما كل مرة تسلم الجرة! لقد أتعبتنى وأخجلتنى، ولن أتدخل فى أمورك بعد اليوم، فافعل ما بدا لك، وربنا بينى وبينك!

ولكنه لم يستطع أن يسقط أمره من حسابه، فدعاه يوما إلى الدكان، وقال له:

- آن لك أن تفكر فى حياتك تفكيرا جديدا يعود بك إلى طريق الكرامة وينتشلك من الحياة المنبوذة التى تحياها، لا يزال فى الوقت متسع كى تبدأ عهد جديدا، وإنى أستطيع أن أهيئ لك الحياة التى تليق بك فأصغ إلىَّ وأطعنى..

ثم عرض عليه مقترحاته قائلا:

- طلق زوجك وعد إلى بيتك، وإنى، أتعهد بان أزوجك زواجا لائقا فتبدأ حياة كريمة!

فتورد وجه ياسين، وقال بصوت خافت:

- إنى أقدر رغبتك الصادقة فى إصلاح شأنى، وسوف أعمل من ناحيتى على تحقيق هذه الرغبة دون إيذاء أحد..

فهتف الرجل ساخطا:

- وعد جديد كوعود الإنجليز! الظاهر أن نفسك تراودك على زيارة السجن، أجل سيجيئنى صراخك المرة القادمة من وراء القضبان، لا زلت أكرر عليك أن تطلِّق هذه المرأة وتعود إلى بيتك..

فقال ياسين وهو يتنهد، متعمدا أن يسمع أباه تنهده:

- إنها حبلى يا أبى، ولا أريد أن أضيف ذنبا جديدا إلى ذنوبى!

اللهم احفظنا! فى بطن زنوبة حفيد لك يتكون! أكان فى وسعك أن تتصور ما يدخر لك هذا الشاب من متاعب ساعة تلقيته وليدا فى يوم عُدّ من أسعد أيام حياتك؟!

- حبلى؟!

- نعم..

- وتخاف أن تضيف ذنبا جديدا إلى ذنوبك؟!

ثم منفجرا قبل أن يفتح الآخر فاه:

- لِمَ لَمْ نؤنبك ضميرك وأنت تعتدى على الطيبات من بنات الطيبين! أنت لعنة وحق كتاب الله!

وعند انصرافه من الدكان أتبعه عينين مليئتين بالرثاء والازدراء. لم يكن بوسعه إلا أن يعجب بمظهره الذى ورثه عنه، أما مخبره الذى ورثه عن أمه! وذكر بغتة كيف أوشك هو يوما أن يتردى فى الهاوية على يد زنوبة نفسها! ولكنه ذكر فى الوقت نفسه كيف شكم نفسه فى اللحظة المناسبة. شكم نفسه؟! وشعر بامتعاض وقلق، فلعن ياسين، ثم لعن.. ياسين!

٤٠

جاء يوم ٢٠ ديسمبر فشعر بأنه يوم لا كبقية الأيام، على الأقل بالقياس إليه هو، ففى ساعة منه وجد نفسه فى هذه الدنيا، وسجل ذلك فى شهادة حتى لا يمكث أكثر أو أقل مما تم الاتفاق عليه! . . وكان يرتدى معطفه ويقطع حجرته ذهابا وجيئة، ثم يلقى نظرة على مكتبه فيرى كشكول الذكريات مفتوحا على صفحة بيضاء رقم أعلاها بتاريخ الميلاد، فيفكر فيما يريد أن يكتبه لمناسبة الذكرى، ويواصل حركته مستمدا منها شيئا من الدفء يستعين به على مقاومة البرودة القارسة. وكانت السماء كما تبدو من زجاج النافذة - متوارية وراء سحاب متجهم والمطر ينزل قليلا ويسكت قليلا محركا فى نفسه بواعث التأمل والحلم. لابد من الاحتفال بالميلاد ولو اقتصر الحفل على صاحب الميلاد وحده، ذلك أن البيت القديم لم يعرف تقاليد الاحتفال بأعياد الميلاد، وأمه نفسها لم تدر أن اليوم من الأيام التى لا ينبغى أن تنساها، فلم يبق من تواريخ الميلاد نفسها إلا ذكريات غامضة عن الفصول التى وقعت فيها والآلام التى صاحبتها فهى لا تعرف عن ميلاده إلا أنه «كان فى الشتاء وكانت الولادة عسيرة فجعلت أتوجع وأصرخ يومين متتابعين» قديما كان يذكر أنباء ميلاده فيملأ الرثاء لأمه قلبه، ثم تضاعف شعوره بالرثاء عندما شاهد ميلاد نعيمة فخفق قلبه ألما لعائشة، أما اليوم فإنه يفكر فى ميلاده بعقل جديد، عقل قد عل من منهل الفلسفة المادية حتى ألَّم فى شهرين بما تمخض عنه بتفكير الإنسانية فى قرن من الزمان. تساءل عن عسر ولادته وهل يرجع بعضه أو كله إلى الإهمال أو الجهل، وكان يتساءل وكأنما يستجوب متهما قائما بين يديه. فكر فى عسر الولادة وما عسى أن ينجم عنه من آثار تلحق بالمخ أو الجهاز العصبى فتلعب دورا خطيرا فى حياة الوليد ومصيره وما قد يساق إليه من خير أو شر. ألا يمكن أن يكون تهالكه فى الحب نتيجة لصدمات أصابت يافوخه أو جدار رأسه الكبير فى غيابات الرحم منذ تسعة عشر عاما؟ أو أن تكون تلك المثالية التى أضلته طويلا فى مجاهل الخيال وأسالت منه الدمع مدرارا فوق مذبح العذاب ما هى إلا عاقبة محزنة لعبث داية جاهلة؟! وفكر فيما قبل الولادة، بل فيما قبل الحبل. فى المجهول الذى تنبثق منه الحياة، فى تلك المعادلة الكيميائية الآلية التى تستوى كائنا حيا فيثور أول ما يثور على أصله مزدريا، ويتطلع إلى النجوم مدعيا له نسبا فى مداراتها. بيد أنه قد عرف له بداية قريبة دعاها بالنطفة، فهو على ذلك لم يكن قبل تسعة عشر عاما وتسعة أشهر إلا نطفة، نطفة قذفت بها رغبة بريئة فى اللذة أو حاجة ملحة إلى العزاء أو صولة هياج بعثتها سكرة غاب فيها الرشاد أو حتى مجرد إحساس بالواجب نحو الزوجة

القابعة فى البيت. فابن أى حال من تلك الأحوال كان! لعله جاء إلى هذه الدنيا نتيجة الواجب، فإن الشعور بالواجب لا يزايله، وحتى اللذات لم يقبل على ممارستها إلا بعد أن تمثلت له فلسفة تتبع ورأيا يعتنق، إلى أنه لم يخل من الصراع والألم ولم يأخذ الحياة أخذا سهلا، ومن النطفة مرق حيوان فالتقى ببويضة فى البوق وثقبها، ثم انزلقا إلى الرحم معا، فتحولا إلى علقة، فكسيت العلقة لحما وعظما، ثم خرجت إلى النور والألم بين يديها يسير، ثم بكت قبل أن تستبين معالمها، ومضت الغرائز المودعة بها تنمو وتتبلور مستجدة على مر الأيام عقائد وآراء حتى اتخمت، وعشقت عشقا زعمت لنفسها به نوعا من الألوهية، ثم زلزلت فتهاوت عقائدها وانقلبت أفكارها وخاب قلبها فردت إلى مكانة أذل من التى جاءت منها أول مرة! إذن فقد مضى من العمر تسعة عشر عاما يا له من عهد طويل! ويا للشباب الذى ينطوى بسرعة البرق، هل من عزاء إلا أن تتملى الحياة ساعة فساعة بل دقيقة فدقيقة قبل أن ينعق غراب الغروب؟ مضى عهد البراءة، ولحق به العهد الذى كانت تؤرخ فيه الحياة بالحب ق. ح، ب. ح - اليوم الأشواق كثيرة إلا أن المحبوب مجهول الكنه، فلم يجد على محبه إلا ببعض أسمائه الحسنى، فهو الحقيقة ومسرة الحياة ونور العلم، والسفر فيما يبدو طويل، وكأن المحب قد استقل قطار أوجست كونت فمر بمحطة اللاهوتية التى كان شعارها «نعم يا أماه»، وها هو يطوى الأرض فى إقليم الميتافيزيقية التى شعارها «كلا يا أماه» وعن بعد تتراءى خلال المنظار المكبر «الواقعية» وعلى قمتها سجل شعارها «فتح عينيك وكن شجاعا».

وتوقف عن السير أمام المكتب فثبتت عيناه على كشكول الذكريات، وتساءل: أيجلس ليسود صفحة الميلاد كيفما يوحى القلم، أم يؤجل ذلك حتى تتبلور الأفكار فى رأسه؟ وعند ذاك طرق أذنيه وقع المطر على الجدران كالدندنة، فاتجه بصره إلى زجاج النافذة المطلة على بين القصرين فرأى لآلئ عالقة برقعته المموهة برطوبة الجو، وما لبثت لؤلؤة أن انسابت إلى حافة الإطار السفلى راسمة على الرقعة المموهة خطا ناصعا منعطفا كالشهاب فمضى إلى النافذة ورفع عينيه يتابع الأمطار المنهلة من السحب المترعة وقد وصلت السماء بالأرض بأسلاك لؤلؤية، على حين لاحت المآذن والقباب غير عابئة بالمطر وقد بدا الأفق وراءها إطارا من فضة، واكتنف المنظر كله لون أبيض مشرب بسمرة ساجية يقطر جلالا وأحلاما. وترامت من الطريق صيحات أطفال، فألقى نظرة إلى تحت ليرى الأرض تسيل بالمياه والأركان تعج بالوحل وقد تعثرت العربات وتطاير الرشاش من عجلاتها وخلت معارض الدكاكين من السلع ولاذ المارة بالحوانيت والمقاهى وما تحت الشرفات.

هذا منظر السماء يخاطب الوجدان بلسان الوجد فما أجدره أن يستلهمه طويلا ليتأمل موقفه من الحياة فى مطلع عامه الجديد. لم يعد يجد رفيقا يحاوره بمكنون روحه مذ غادر

حسين شداد أرض الوطن، فلم تبق له إلا نفسه ليحاورها إذا استشعر حاجة إلى الحوار، فاتخذ من روحه صديقا بعد أن فارقه صديق الروح، وسأل روحه: هل تؤمن بوجود الله؟ فسألته بدورها: لماذا لا تحاول أن تثب من نجم إلى نجم ومن كوكب إلى كوكب كما تثب من درجة إلى درجة فوق السلم؟ وعن الصفوة المختارة من أبناء السماء فقد رفعوا الأرض إلى مركز الكون وجعلوا الملائكة تسجد للطين حتى جاء أخوهم كوبر نيكوس فأنزل الأرض بحيث أنزلها الكون جارية صغيرة للشمس، ثم تلاه أخوه داروين فهتك سر الأمير الزائف وأعلن على الملأ أن أباه الحقيقى هوحبيس قفصه الذى يدعو الأصدقاء للتفرج عليه فى الأعياد والمواسم، وفى الأصل كان السديم فتناثرت منه النجوم كالرشاش المتطاير من عجلة الدراجة، وتجاذبت النجوم فى لهوها الأزلى فأنجبت الكواكب، وانطلقت الأرض كرة سائلة والقمر فى أثرها يعابثها وهى تقطب له بجانب من وجهها وتبسم له بجانب آخر حتى فتر حماسها فاستقرت سماتها جبالا ونجودا وقيعانا وصخورا ثم حياة تدب، وجاء ابن الأرض يزحف على أربع ويسائل من يصادفه عن المثل الأعلى. لا أخفى عنك أنى ضقت بالأساطير ذرعا، غير أنى فى خضم الموج العاتى عثرت على صخرة مثلثة الأضلاع سأدعوها من الآن فصاعدا صخرة العلم والفلسفة والمثل الأعلى. ولا تقل إن الفلسفة كالدين أسطورية المزاج، فالحق أنها تقوم على دعائم ثابتة من العلوم وتتجه بها إلى غايتها، أما الفن فمتعة سامية وامتداد للحياة غير أن مطمعى أبعد من الفن مثالا، لأنه لا يرتوى إلا بالحقيقة، والفن بالقياس إلى الحقيقة يبدو فنا أنثويا، وفى سبيل هذه الغاية ترانى مستعدا للتضحية بكل شىء إلا ما يمسك على الحياة، أما عن مؤهلاتى للدور الخطير فرأس كبير وأنف ضخم وحب خائب وأمل فى المرض. واحذر أن تسخر من أحلام الشباب فما السخرية منها إلا عارض من أعراض مرض الشيخوخة يدعوه المرضى بالحكمة، وليس من تناقض فى أن تعجب بسعد زغلول كما تعجب بكوبر نيكوس واستولد وماخ، فالجهاد فى سبيل ربط مصر المتأخرة بركب الإنسانية عمل نبيل وإنسانى كذلك. الوطنية فضيلة ما لم تتلوث بالكراهية العدوانية، غير أن كره إنجلترا نوع من الدفاع عن النفس، وليست الوطنية على ذاك إلا إنسانية محلية، وتسألنى هل أومن بالحب؟ فأجيب: بأن الحب لم يبرح فؤادى بعد، فلا يسعنى إلا أن أقر بحقيقة الإنسانية، ومع أن جذوره كانت مشتبكة بجذور الدين والأساطير فإن تقوض المعابد المقدسة لم يزعزع أركانه أو يقلل من خطورة شأنه اقتحام محرابه بالدراسة والتحليل، وفرز عناصره البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية، فكل أولئك لم يوهن من خفقة القلب إذا هفت ذكرى أو تخايلت صورة، ألا زلت تؤمن بخلود الحب؟ ليس الخلود أسطورة. فلعل الحب ينسى ككل شىء فى هذه الدنيا، وقد انقضى على زواج . . عايدة ـ لم تتردد قبل التفوه باسمها؟ ـ عام فقطعت شوطًا فى طريق النسيان، مررت بطور

الجنون فطور الذهول فطور الألم الحاد ثم طور الألم المتقطع، الآن قد يمضى يوم بأكمله فلا تخطر لى على بال إلا حين الاستيقاظ وحين النوم ومرة أو مرتين فى أثناء النهار، ويتفاوت تأثرى بالتذكر ما بين حنين ينبعث معتدلاً أو حزن يمر مرور السحاب أو حسرة تلسع ولا تحرق إلا أن تثور النفس بغتة كالبركان فتدور بى الأرض، وعلى أى حال غدوت أومن بأننى سأواصل الحياة بلا عايدة. علام تعول فى طلب النسيان؟ . . على دراسة الحب وتعليله كما سلف، والتهوين من الآلام الفردية بالتأملات الكونية التى يبدو عالم الإنسان فى مداراتها هباءة تافهة، والترويح عن النفس بالشراب والجنس، والتماس العزاء عند فلاسفة العزاء كإسبينوزا الذى يرى الزمن شيئا غير حقيقى وبالتالى فالانفعالات المرتبطة بحادث فى الماضى أو المستقبل مضادة للعقل، ونحن خليقون بالتغلب عليها إذا كونّا عنها فكرة واضحة متميزة. أسرَّك أن وجدت الحب ينسى؟ . . سرَّنى لأنه يعدنى بالنجاة من الأسر، وأحزننى بما كان تجربة خبرت بها الموت قبل حضوره، ومهما يكن من أمر فسأمقت ما حييت الأسر وأعشق الحرية المطلقة.

سعيد من لا يفكر فى الانتحار أو يتمنى الموت، سعيد من تتوهج فى قلبه شعلة الحماس، وخالد من يعمل أو يتهيأ صادقًا للعمل، حى من يتأثر الخيام بكتاب وكأس ومعشوق، والقلب اللهج بالآمال ينسى أو يتناسى الزواج كالكأس المترعة بالويسكى لا تتسع للصودا، وحسبك أن غرامك بالشراب يسير سيراً حسنًا وأن إقبالك على المرأة لا تعترضه عقبات من تقزز أو نفور، أما حنينك من حين لآخر إلى الطهر والتقشف فلعله بقية من تدينك القديم.

ولم ينقطع المطر عن الانهلال لحظة، وقعقع الرعد، ولمع البرق، وأقفر الطريق، وسكت الصياح، وخطر له أن يلقى نظرة على فناء الدار فغادر الحجرة إلى الصالة ثم إلى النافذة، ونظر من خلال خصاصها فرأى المياه تجرف سطح الأرض اللين فتخدده ثم تتدفق صوب البئر القديمة، وفاض عنها جانب فتجمع فى نقرة بين حجرة الفرن والمخزن، هذه النقرة التى ينجم فيها غب الجفاف ـ مما يتساقط عفوا من حنطة أو شعير أو حلبة من يدى أم حنفى ـ نبت يكسوها حلة سندسية فيترعرع أيامًا حتى تدوسه الأقدام، وقد كانت على عهد دولة الطفولة حقل تجاربه ومراح أحلامه، ومن ينبوع ذكرياتها يمتلئ قلبه الآن شوقًا وحنينًا، ومسرة يغشاها حزن وان كسحابة شفافة تغشى وجه القمر. وتحول عن النافذة ليعود إلى حجرته فانتبه إلى وجودٍ من كان بالصالة، إلى الذكرى الباقية من مجلس القهوة القديم، إلى أمه متربعة على الكنبة باسطة ذراعيها فوق المجمرة ولا جليس لها إلا أم حنفى وقد تربعت على فروة قبالتها. فذكر المجلس القديم فى أيامه الزاهرة وما أودعه من جميل الذكريات، وكانت المجمرة هى الأثر الوحيد فيه الذى لم يكد يطرأ عليه تغير ينكره الرائى.

٤١

كان أحمد عبد الجواد يسير الهوينى على شاطئ النيل فى طريقه إلى عوامة محمد عفت، وكان الليل ساجيًا والسماء صافية متألقة النجوم، والهواء مائلاً للبرودة، فلما انتهى إلى هدفه وهمّ بالميل إليه لم ينس - بحكم العادة وحدها - أن يرمى ببصره بعيداً إلى حيث تقوم العوامة التى دعاها يومًا «عوامة زنوبة» . كان قد انتهى على الذكريات الأليمة عام فلم يعد يبقى فى قلبه إلا الامتعاض والخجل، وكان من آثارها المتخلفة أن هجر مجالس النساء كما فعل عقب مصرع فهمى، فثابر على ذلك عامًا حتى ضجر، فرجع عن عزمه وعاد ساعيًا على قديمة إلى المجلس المحرم، وما هى إلا دقيقة حتى أقبل على المجلس فطالع المجموعة المحبوبة المؤلفة من أصدقائه الثلاثة والمرأتين، أما الأصدقاء فكان آخر لقاء بينه وبينهم ليلة أمس، وأما المرأتان فلم تقع عليهما عيناه منذ نحو عام ونصف أو - على وجه التحديد - منذ تلك الليلة التى أقحم فيها زنوبة فى حياته. ولم يكن شىء قد بدأ بعد، فالقوارير لم تفض والنظام لم يمس، وكانت جليلة محتلة كنبة الصدارة، تعبث بأساورها الذهبية وكأنما تنصت إلى وسوستها، على حين قامت زبيدة تحت المصباح المتدلى من السقف، تنظر فى مرآة صغيرة بيدها، متفحصة زينتها، جاعلة ظهرها إلى المائدة الحافلة بقوارير الويسكى وصحاف المزة. وتفرق الأصدقاء حاسرى الرءوس وقد خلعوا جبابهم فصافحهم أحمد عبد الجواد ثم صافح المرأتين بحرارة، فرحبت به جليلة قائلة «أهلا بأخى الحبيب». أما زبيدة فقالت له باسمة فى عتاب«أهلا بالذى لولا الأدب ما استحق منا السلام». ونزع الرجل جبته وطربوشه، ثم ألقى نظرة على الأماكن الخالية - وكانت زبيدة قد جلست إلى جانب جليلة - وتردد قليلا قبل أن يمضى إلى كنبة المرأتين ويتخذ مجلسه عليها، ولم يغب تردده عن عين على عبد الرحيم، فقال:

- هكذا تبدو كأنك تلميذ مبتدئ!

فقات جليلة كأنما تشجعه:

- لا شان لك به فلا حجاب بيننا وبينه . .

وسرعان ما ضحكت زبيدة قائلة بتهكم:

- أنا أحق الناس بأن أقول ذلك، أليس هو بنسيبى؟!

ففطن السيد إلى ما تعرض به، وتساءل فى قلق عن مدى ما اتصل بعلمها فى هذا الشأن كله، ولكنه قال برقة:

ـ لى الشرف يا سلطانة!

فتساءلت زبيدة وهى ترمقه بنظرة ارتياب:

ـ أأنت مسرور حقا بما كان؟

فقال بلباقة:

ـ ما دمت خالتها!

فقالت وهى تلوح بيدها فى استياء:

ـ أما أنا فلن يرضى عنها قلبى أبدا!

وقبل أن يسألها السيد عن السبب، هتف على عبد الرحيم وهو يفرك يديه:

ـ أجِّلوا الحديث حتى نعمِّر روءسنا..

ونهض إلى المائدة ففض زجاجة وملأ الكئوس ثم قدمها إليهم واحدا واحدا بعناية نمَّت عن ارتياحه المعهود إلى القيام بمهمة الساقى، ثم انتظر حتى تهيأ كلٌّ للشرب، وقال «صحة الأحباب والإخوان والطرب دامت جميعا لنا»، فرفعوا الكئوس إلى شفاههم باسمين، ونظر أحمد عبد الجواد من فوق حافة كأسه إلى وجوه أصحابه.. هؤلاء الأصحاب الذين شاطروه حمل المودة والوفاء قرابة الأربعين عاما، فكان كأنه يرى فلذات من صميم نفسه، ما ملك أن جاش صدره بعواطف الأخوة الصادقة. ومالت عيناه إلى زبيدة، فعاد إلى حديثها متسائلا:

ـ ولماذا لا يرضى عنها قلبك؟

فاتجهت إليه بنظرة أشعرته بترحيبها بالحديث معه، وأجابته:

ـ لأنها خائنة لا ترعى العهود، خانتنى منذ أكثر من عام فغادرت بيتى دون استئذان وذهبت إلى حيث لم أعلم..

ترى ألم تعلم حقا أين ذهبت فى ذلك الوقت؟ ولم يشأ أن يعلق على قولها بحرف، فعادت تسأله:

ـ ألم يبلغك ذلك؟

فقال بهدوء:

ـ بلغنى فى حينه!

ـ أنا التى كفلتها من الصغر ورعيتها بقلب الأم، فانظر كيف كان الجزاء! سفخص على الدم النجس! فقال على عبد الرحيم مازحا، وهو يتظاهر بالاحتجاج:

ـ لا تسبى دمها فإن دمها هو دمك!

ولكن زبيدة قالت جادة:

ـ دمى برىء منها!

وهنا سألها السيد أحمد:

ـ من كان أباها يا ترى؟

ـ أباها؟!

ندت هذه الكلمة عن إبراهيم الفار بصوت أنذر بسيل من السخريات، ولكن محمد عفت بادره قائلا:

ـ تذكر أن الحديث عن حرم ياسين!

فزايلت وجه الفار هيئة المزاح ولاذ بالصمت فى شىء من الارتباك، على حين عادت زبيدة تقول:

ـ أما أنا فلا أهزل فيما أقول عنها، وطالما رمقتنى بعين الحسد وطمعت فى منافستى وهى فى رعايتى، فكنت أداريها وأغض عن مساوئها (ثم وهى تضحك) كانت تحلم بأن تكون عالمة!

ورددت عينيها فى الحاضرين، ثم قالت بلهجة ساخرة:

ـ لكنها أفلست فتزوجت!

تساءل على عبد الرحيم فى إنكار:

ـ هل الزواج فى عرفك إفلاس؟!

فضيقت له عينا، ورفعت حاجب الأخرى، وهى تقول:

ـ نعم يا عمر! .. العالمة لا تهجر التخت حتى تفلس..

وهنا غنت جليلة هذا المقطع «أنت المدام يا روحى أنت آنستنا»، فابتسم السيد ابتسامة عريضة وحياها بآهة لطيفة وشت بانبساطه، غير أن على عبد الرحيم نهض مرة أخرى وهو يقول:

ـ لحظة سكوت حتى نستوعب هذه الكأس..

وملأ الكئوس ووزعها بينهم، ثم عاد بكأسه إلى مجلسه. وقبض أحمد عبد الجواد على كأسه ولحظ زبيدة، فالتفتت نحوه باسمة ورفعت يدها بكأسها كأنما تقول له «صحتك»، ففعل مثلها وتشاربا، وجعلت فى أثناء ذلك ترنو إليه بنظرة باسمة. مضى عام دون أن تثب به رغبة إلى طلاب امرأة، كأن التجربة القاسية التى امتحن بها قد أخمدت حماسه، أو لعله الكبرياء أو لعله المرض، غير أن نشوة الخمر ونظرة التودد حركتا فؤاده فاستشعر عذوبة الإقبال بعد مرارة الصد، واعتدها تحية طيبة من الجنس الذى هام به حياته، لعلها تضمد جرح كرامته التى قست عليها الخيانة وتقدم العمر، وكأن

ابتسامة زبيدة الناطقة كانت تقول له : «لم يول عهدك بعد!» فلم يحول عن نظرتها عينيه ولم يلغ ابتسامته .

وجاء محمد عفت بعود ووضعه بين المرأتين، فتناولته جليلة وراحت تلعب بأوتاره، ولما آنست من السامعين انتباها غنَّت «وعدى عليك ياللى بحبك»، وتظاهر أحمد عبد الجواد بالانسجام كعادته كلما سمع جليلة أو زبيدة، وذهب مع النغمة برأسه وجاء، كأنما يريد أن يخلق الطرب بتمثيل حركاته. والحق أنه لم يعد يبقى له من عالم الغناء إلا ذكريات، فقد ذهب الحامولى وعثمان والمنيلاوى وعبد الحى، كما ذهب شبابه وكما ولَّت أيام النصر، ولكن ينبغى أن يوطن النفس على الرضا بالموجود وأن يبتعث عاطفة الطرب ولو بتمثيل حركاته، وقد دعاه حبه للغناء وغرامه بالطرب إلى ارتياد مسرح منيرة المهدية غير أنه لم يهو الغناء التمثيلى، فضلا عن أنه ضاق بجلسة المسرح الذى شبهه بالمدرسة، كما استمع فى بيت محمد عفت إلى أسطوانات المطربة الجديدة أم كلثوم، ولكنه أعارها أذنا حذرة مضمرة سوء الظن، فلم يتذوقها رغم ما قيل من أن سعد زغلول أثنى على جمال صوتها. بيد أن مظهره لم يش بحقيقة موقفه من الغناء، فما زال يتطلع إلى جليلة راضيا سعيدا ويردد مع الجميع لازمة«وعدى عليك» بصوته الرخيم، حتى هتف الفار بحسرة :

ـ أين؟ أين الدف؟! أين الدف لنسمع ابن عبد الجواد؟

سل أين أحمد عبد الجواد الذى كان ينقر على الدف؟! آه، لم يغيرنا الزمان؟ وختمت جليلة غناءها فى هالة من الاستحسان، ولكنها قالت فى لهجة اعتذار وهى تبتسم شاكرة :

ـ إنى متعبة . .

ولكن زبيدة كيلت لها الثناء كما يدور بينهما كثيرا على سبيل المجاملة أو حرصا على السلام العام، ولم يكن يخفى على أحد أن نجم جليلة كعالمة آخذ فى الأفول السريع الذى كان آخر آياته هجر الدفافة فينو لتختها والتحاقها بتخت آخر، وهو أفول طبيعى إذ كان الذبول قد أدرك كافة المزايا التى قام عليها مجدها القديم من الفتنة وجمال الصوت، ولذلك لم تعد زبيدة تجد نحوها غيرة تذكر فوسعها أن تجاملها دون مضض، خاصة وأنها كانت بلغت ذروة حياتها، تلك الذروة التى لا خطوة بعدها إلا نحو الانحدار. وكان الأصدقاء كثيرا ما يتساءلون عما إذا كانت جليلة قد أعدت العدة لهذه المرحلة الخطيرة من الحياة، وكان رأى أحمد عبد الجواد أنها لم تفعل، واتهم بعض من عشقتهم بتبديد الكثرة من ثروتها، ولكنه جاهر فى الوقت ذاته بأنها امرأة تعرف كيف تحصل على المال بأى سبيل، وأيده على ذلك على عبد الرحيم قائلا : إنها تتاجر بجمال نساء تختها وإن بيتها

يتحول رويدا رويدا إلى شيء آخر . أما زبيدة فقد انعقد إجماعهم على أنها رغم مهاتراتها فى ابتزاز الأموال ـ جوادة مفتونة بالمظاهر التى تحرق المال حرقا ، إلى ولعها بالشراب والمخدرات وخاصة الكوكايين . قال محمد عفت مخاطبا زبيدة :

ـ اسمحى لى بأن أبدى إعجابى بنظراتك الحلوة التى تخصين بها بعضنا؟

فضحكت جليلة ، وقالت بصوت خافت :

ـ الصب تفضحه عيونه . .

وتساءل إبراهيم الفار منكرا :

ـ أم تحسبين نفسك فى زاوية العميان؟

فقال أحمد عبد الجواد متظاهرا بالأسف :

ـ بهذه الصراحة لن تكونوا قوادين كما تحبون!

أما زبيدة فقد أجابت محمد عفت :

ـ أنا لا أنظر إليه لغرض لا سمح الله ولكنى أحسده على شبابه؟ انظروا إلى رأسه الأسود بين رءوسكم البيض وأجيبونى هل تعطونه يوما واحدا فوق الأربعين؟

ـ أنا أعطيه قرنا . .

فقال أحمد عبد الجواد :

ـ من بعض ما عندكم!

وعند ذاك ترنمت جليلة بمطلع الأغنية «عين الحسود فيها عود يا حليلة» ، فقالت زبيدة :

ـ لا خوف عليه من الحسد ، فإن عينى لا تؤذيه؟!

فقال محمد عفت وهو يهز رأسه هزة ذات معنى :

ـ أصل الأذى كله من عيونك!

وهنا قال أحمد عبد الجواد موجها الخطاب إلى زبيدة :

ـ أتتحدثين عن شبابى؟ أما سمعت بما قال الطبيب؟

فقالت كالمستنكرة :

ـ أخبرنى محمد عفت ، ولكن ما هذا الضغط الذى يتهمك به؟

ـ لف حول ذراعى قربة غريبة ، وراح ينفخ بمنفاخ جلدى ، ثم قال لى «عندك ضغط»!

ـ ومن أين جاء الضغط؟

فأجاب السيد ضاحكا :

ـ لا أظنه جاء إلا من ذات النفخ!

قال إبراهيم الفار وهو يضرب كفا بكف:

ـ لعله مرض معد، فإنه لم يكد يمضى شهر على إصابة المحروس به حتى ذهبنا جميعا تباعا إلى الطبيب وكانت نتيجة الكشف فى جميع الحالات واحدة: الضغط!

فقال على عبد الرحيم:

ـ أنا أقول لكم سره، إنه عرض من أعراض الثورة، وآى ذلك أنه لم يسمع به أحد قبل اشتعالها!

وسألت جليلة السيد أحمد:

ـ وما أعراض الضغط؟

ـ صداع ابن كلب، وتعب فى التنفس عند المشى..

فتمتمت زبيدة وهى تبتسم ابتسامة دارت بها شيئًا من القلق:

ـ ومن يخلو ولو مرة من هذه الأعراض؟ ما رأيكم أنا عندى ضغط أيضًا!.. فسألها أحمد عبد الجواد:

ـ من فوق أم من تحت؟

وضحكوا بلا استثناء زبيدة نفسها، حتى قالت جليلة:

ـ ما دمت قد خبرت الضغط، فاكشف عليها لعلك تعرف علتها!

فقال أحمد عبد الجواد:

ـ عليها أن تحضر القربة وعلىّ أن أحضر المنفاخ!

فضحكوا مرة أخرى، ثم قال محمد عفت كالمحتج:

ـ ضغط.. ضغط.. ضغط.. لا نسمع الآن إلا الطبيب وهو يقول كأنما يأمر عبيده: لا تشرب الخمر، لا تأكل اللحوم الحمراء، احذر البيض..

فتساءل أحمد عبد الجواد ساخراً:

ـ وماذا يصنع إنسان مثلى لا يأكل إلا اللحوم الحمراء والبيض ولا يشرب إلى الخمر؟!

فقالت زبيدة من فورها:

ـ كل واشرب بالهنا والشفا، الإنسان طبيب نفسه، وربنا هو الطبيب..

ومع ذلك فقد اتبع تعاليم الطبيب فى الفترة التى اضطر فيها إلى الرقاد، فلما نهض تناسى نصح الطبيب جملة وتفصيلاً. عادت جليلة تقول:

ـ أنا لا أومن بالأطباء، ولكنى أقيم لهم العذر فيما يقولون ويفعلون، فإنهم يتعيشون

من الأمراض كما نتعيش نحن العوالم من الأفراح، ولا غناء لهم عن القربة والمنفاخ والأوامر والنواهى كما لا غناء لنا عن الدف والعود والأغانى . .

فقال السيد بارتياح وحماس :

ـ صدقت، فالمرض والصحة والحياة والموت بأمر الله وحده، ومن توكل على الله فلا يحزن . .

إبراهيم الفار ضاحكًا :

ـ اشهدوا يا ناس على هذا الرجل، إنه يشرب بفيه ويفسق بعينه ويعظ بلسانه !

أحمد عبد الجواد مقهقهًا :

ـ لا علىَّ من ذلك ما دمت أعظ فى ماخور !

محمد عفت وهو يتفحص أحمد عبد الجواد، ويهز رأسه متعجبًا :

ـ وددت لو كان كمال بيننا لينتفع معنا بوعظك !

فتساءل على عبد الرحيم :

ـ على فكرة، ألا يزال على رأيه من أن أصل الإنسان هو القرد؟ !

فضربت جليلة صدرها بيدها هاتفة :

ـ يا ندامتى !

زبيدة فى دهش :

ـ قرد؟ ! . . (ثم كالمستدركة) لعله يقصد أصله هو !

قال لها السيد محذرًا :

ـ وأثبت أيضًا أن المرأة أصلها لبؤة !

فقالت وهى تهأهئ :

ـ ليتنى أرى سليل القرد واللبؤة !

فقال إبراهيم الفار :

ـ سيكبر يومًا فيخرج عن محيط أسرته، ويقتنع بأن البشر من آدم وحواء . .

فبادره أحمد عبد الجواد :

ـ أو أحضره معى يومًا إلى هنا ليقتنع بأن الإنسان أصله كلب !

وقام على عبد الرحيم إلى المائدة ليملأ الكئوس، وهو يسأل زبيدة :

ـ أنت أعرف منا بالسيد فإلى أى حيوان ترجعينه؟

فتفكرت قليلاً وهى تتابع يدى على عبد الرحيم وهما تصبان الويسكى فى الكئوس، ثم قالت باسمة :

ـ الحمار!

فتساءلت جليلة:

ـ ذم هذا أم مدح؟

فقال أحمد عبد الجواد:

ـ المعنى فى بطن القائل!

وعاودوا الشراب على أصفى حال، وتناولت زبيدة العود وغنت «ارخى الستارة اللى فى رحينا».

وفى نشوة غامرة راح جسد أحمد عبد الجواد يرقص مع النغمة، رافعًا الكأس التى لم يبق فيها إلا الثمالة أمام عينيه، ناظرًا خلالها إلى المرأة كأنما يروم أن يراها بمنظار خمرى. وبرح الخفاء إن كان ثمة خفاء ووضح أن كل شىء ـ بين أحمد وزبيدة ـ قد عاد إلى قديمه، ورددوا الغناء وراء زبيدة، فعلا صوت أحمد فى طرب وسرور حتى ختمت الأغنية بالتهليل والتصفيق. وما لبث محمد عفت أن قال لجليلة:

ـ لمناسبة «الصب تفضحه عيونه» ما رأيك فى أم كلثوم؟

فقالت جليلة:

ـ صوتها ـ والشهادة لله ـ جميل، غير أنها كثيرًا ما تصرصع كالأطفال!

ـ البعض يقولون إنها ستكون خليفة منيرة المهدية، ومنهم من يقول بأن صوتها أعجب من صوت منيرة نفسها!

فهتفت جليلة:

ـ كلام فارغ! أين هذه الصرصعة من بحة منيرة؟

وقالت زبيدة بازدراء:

ـ فى صوتها شىء يذكر بالمقرئين، كأنما مطربة بعمامة!

فقال أحمد عبد الجواد:

ـ لم أستطعمها، ولكن ما أكثر الذين يهيمون بها، والحق أن دولة الصوت زالت بموت سى عبده..

فقال محمد عفت مداعبا:

ـ أنت رجل رجعى، تتعلق دائمًا بالماضى.. (ثم وهو يغمز بعينه).. ألست تصر على حكم بيتك بالحديد والنار حتى فى عهد الديمقراطية والبرلمان؟!

السيد ساخرًا:

ـ الديمقراطية للشعب لا للأسرة..

على عبد الرحيم جادا :

ـ أتظن أنه يمكن التحكم بالطريقة القديمة فى شبان اليوم؟! هؤلاء الشبان الذين اعتادوا القيام بالمظاهرات والوقوف فى وجه الجنود؟!

فقال إبراهيم الفار :

ـ لا أدرى عما تتكلم، ولكننى متفق فى الرأى مع أحمد، كلانا أب لذكور، والله المستعان . .

محمد عفت مداعبًا :

ـ كلاكما متحمس للحكم الديمقراطى باللسان، ولكنكما مستبدان فى بيتكما . . !

فقال أحمد عبد الجواد كالمحتج :

ـ أتريدنى على ألا أبت فى مسألة حتى أجمع كمال وياسين وأم كمال، ثم نأخذ الأصوات؟!

فهأهأت زبيدة قائلة :

ـ لا تنس زنوبة من فضلك . .

وقال إبراهيم الفار :

ـ إذا كانت الثورة هى سبب ما نعانى من أولادنا، فالله يسامح سعد باشا . .

وتواصل الشرب والسمر والغناء والمزاح، وتعالت الضجة واختلطت الأصوات، وتقدم الليل غير عابئ بشىء، وكان ينظر إليها فيجدها تنظر إليه أو تنظر إليه فتجده ينظر إليها، وقال لنفسه : إنه ليس فى هذا الوجود إلا لذة واحدة، وأراد أن يفصح عن فكرته ولكنه لم يفصح، إما لأن حماسه للإفصاح فتر أو لأنه لم يستطع، ولكن كيف جاء هذا . . الفتور؟!، وتساءل مرة أخرى : أتكون لذة ساعة أم معاشرة طويلة؟ ونزعت نفسه إلى التماس التسلية والعزاء، ولكن ثمة وش كأن أمواج النيل تهمس فى أذنيه، ومع ذلك فمنتصف الحلقة السادسة فى متناول اليد، سل الحكماء كيف ينطوى العمر ونحن ندرى دون أن ندرى . .

ـ ماذا أسكتك كفى الله الشر؟

ـ أنا؟! . . شوية راحة . .

أجل ما ألذ الراحة! ضجعة طويلة تقوم بعدها صحيحًا، ما ألذ الصحة! ولكنهم يطاردونك ولا يدعون لك لحظة واحدة تنعم فيها بالسلام، وهذه النظرة أليست فاتنة ولكن همسات الأمواج تعلو فكيف تسمع الغناء؟

ـ كلا، لن نتركه حتى يزف، ما رأيكم؟ . الزفة . . الزفة!

ـ قم يا جملى . .

ـ أنا؟ . . شوية راحة . .

ـ الزفة . . الزفة، كما حدث أول مرة فى بيت الغورية . .

ـ ذلك عهد قديم . .

ـ نجدده، الزفة . . الزفة . .

لا يرحمون، وذلك زمن خلا تحجبه عن عينيك ظلمات، ألا ما أكثف الظلام! وما أشد الوش! وما أغلظ النسيان . . !

ـ انظروا . . !

ـ ما له؟!

ـ قليلاً من الماء . . افتحوا النافذة . . !

ـ يا لطيف يا رب . .

ـ خير . . خير، بلّ هذا المنديل بالماء البارد . .

٤٢

مضى أسبوع على «حادث» الأب، وكان الطبيب يزوره يوميًا، وكانت الحال من الشدة بحيث لم يسمح لأحد بمقابلته، حتى الأبناء كانوا يتسللون إلى الحجرة على أطراف أصابعهم فيلقون بنظرة على الراقد متفحصين ما يكسو وجهه من ذبول واستسلام، ثم ينسحبون وفى الوجوه اكفهرار وفى الصدور انقباض، يتبادلون النظرات ويتهربون منها فى ذات الوقت. قال الطبيب إنها أزمة ضغط، وحجم المريض فملأ طستًا من دمه، دم أسود كما قالت خديجة فى وصفه وجوارحها ترتعش، وكانت أمينة تعود من الحجرة بين الحين والحين كشبح يهيم على وجهه، على حين بدا كمال ذاهلاً كأنما يتساءل كيف تقع هذه الأمور الخطيرة فى أقل من غمضة عين، وكيف استسلم الرجل الجبار واستكان، ثم يسترق نظرة إلى شبح أمه، أو عينى خديجة الدامعتين أو وجه عائشة الشاحب ويتساءل مرة أخرى: ماذا يعنى هذا كله؟ ووجد نفسه تنساق وهو لا يدرى إلى تصور النهاية التى يخافها قلبه، تصور عالم لا يوجد فيه الأب، فضاق صدره وجزع قلبه، وتساءل فى إشفاق: كيف يمكن أن تتحمل هذه النهاية أمه؟. إنها تبدو الآن كالمنتهية ولما يقع شىء، ثم وردت ذهنه ذكرى فهمى، فتساءل: أيمكن أن ينسى هذا كما نسى ذاك؟ وتراءت له الدنيا ظلمات فوق ظلمات.

وعلم ياسين بالحادث فى اليوم التالى لوقوعه، فجاء إلى البيت لأول مرة مذ غادره عند زواجه من مريم، وقصد حجرة أبيه رأسا فألقى عليه نظرة طويلة صامتة ثم انسحب إلى الصالة مذهولاً، فالتقى بأمينة فتصافحا بعد طول فراق، واشتد تأثره وهو يصافحها فامتلأت عيناه بالدموع. ولبث السيد راقداً، ولم يكن أول الأمر يتكلم أو يتحرك، فلما حجم دب فيه شيء من الحياة فاستطاع أن ينطق بكلمة أو عبارة مقتضبة يفصح بها عما يريد، ولكنه فى الوقت ذاته شعر بالألم فصدر عنه الأنين والتأوهات. ولما خفت حدة الآلام المرضية أخذ يضيق برقاده الإجبارى الذى حرمه نعمة الحركة والنظافة، وقضى عليه بأن يأكل ويشرب ويفعل ما تعافه نفسه فى مكان واحد هو فراشه. وكان نومه متقطعًا، وكان ضجره متصلاً، غير أن أول ما سأل عنه كان خاصًا بكيفية إحضاره إلى البيت مغشيًا عليه، وأجابته أمينة بأنه جيء به فى حنطور مع صحبه محمد عفت وعلى عبد الرحيم وإبراهيم الفار، وأنهم حملوه برفق إلى فراشه، ثم أحضروا له الطبيب رغم تأخر الوقت. وسأل بعد ذلك باهتمام عن عواده فقالت له المرأة: إنهم لا ينقطعون، ولكن الطبيب منع المقابلة إلى حين. وكان يردد بصوت خافت «الأمر لله من قبل ومن بعد» و«نسأل الله حسن الختام»، ولكن الحق أنه لم يستشعر اليأس، ولم يحس بدنو النهاية، ولم تضعف ثقته بالحياة التى يحبها رغم آلامه وخوفه، عاوده الأمل بمجرد عودة الوعى إليه، فلم يحدث أحدا بحديث الراحلين كأن يوصى أو يودع أو يعهد لمن يهمه الأمر بأسرار عمله وثروته، وعلى العكس من ذلك استدعى جميل الحمزاوى وكلفه ببعض أعمال المبادلة التى لم يكن يعلم عنها شيئًا، كما أرسل كمال إلى خياطه البلدى بخان جعفر ليحضر ملابس جديدة كان عهد بها إليه وليدفع ثمن خيطها، ولم يكن يذكر الموت إلا بتلك العبارات يرددها كأنما يدارى بها قسوة الأقدار. وعند ختام الأسبوع الأول صرح الطبيب بأن مريضه اجتاز المرحلة الدقيقة بسلام، وأنه لم يعد يلزمه إلا بعض الصبر كى يسترد صحته كاملة ويستأنف نشاطه. وأعاد الطبيب على مسمعه ما سبق أن حذره منه عند ارتفاع ضغطه أول مرة فوعده بالطاعة وعاهد نفسه صادقًا على الإقلاع عن الاستهتار بعد ما تبين له من عواقبه الوخيمة التى أقنعته بأن الأمر جد لا هزل، وجعل يتعزى قائلاً: إن الحياة السليمة مع شيء من الحرمان خير على أى حال من المرض.

هكذا مرت الأزمة بسلام، فاستردت الأسرة أنفاسها ولهجت قلوبها بالشكر، وعند نهاية الأسبوع الثانى سمح للسيد بمقابلة عواده فكان يوم سعيد، وكانت أسرته أول من احتفل بهذا اليوم فزاره أبناؤه وأصهاره وتحدثوا إليه لأول مرة منذ الرقاد، وقلب الرجل عينيه فى وجوههم - ياسين وخديجة وعائشة وإبراهيم شوكت وخليل شوكت - وراح بلباقته - التى لم تخنه فى موقفه هذا - يسأل عن الأطفال رضوان وعبد المنعم وأحمد ونعيمة وعثمان ومحمد، فقالوا له: إنهم لم يجيئوا بهم حرصًا على راحته، ودعوا له

بطول العمر وتمام الصحة والعافية، ثم حدثوه عن حزنهم لما ألم به وسرورهم بسلامته، تكلمت خديجة بصوت متهدج، وتركت عائشة على يده وهى تقبلها دمعة تغنى عن كل بيان، أما ياسين فقال بزلاقة لسان: إنه مرض معه حين مرض وبرئ معه حين منّ الله عليه بالشفاء. فتطلق وجه الرجل الشاحب بالبشر وحدثهم طويلاً عن قضاء الله ورحمته ولطفه وأن على المؤمن أن يواجه مصيره بصبر وإيمان متوكلاً على الله وحده، وغادروا الحجرة إلى حجرة كمال ـ مخلين الصالة لمرور العواد المنتظر توافدهم ـ وهناك أقبل ياسين على أمينة، فشد على يدها وهو يقول:

ـ لم أحدثك بما فى نفسى طيلة الأسبوعين الماضيين؛ لأن مرض بابا لم يترك لى عقلاً أفكر به، أما الآن وقد أمر الله بالسلامة فأود أن أعتذر عن رجوعى إلى البيت دون استئذانك، الحق أنك استقبلتنى بالعطف الذى عهدته منك فى الأيام السعيدة الخالية، ولكن علىّ الآن أن أقدم فروض الاعتذار . .

فتورد وجه أمينة وهى تقول بتأثر:

ـ ما فات فات يا ياسين، هذا بيتك تحل فيه أهلا وسهلاً حين تشاء . .

فقال ياسين ممتنا:

ـ لا أحب أن أعود إلى الماضى، ولكن أحلف برأس أبى وحياة رضوان أبنى أن قلبى لم يحمل قط سوءًا لأحد من أهل هذا البيت، وأنى أحببتهم جميعًا كما أحب نفسى، ربما يكون الشيطان قد دفعنى إلى خطأ، وكل إنسان عرضة لهذا، ولكن قلبى لم تشبه شائبة أبدًا . .

فوضعت أمينة يدها على منكبه العريض، وقالت بإخلاص:

ـ كنت دائمًا واحدًا من أبنائى، ولا أنكر أنى غضبت مرة، ولكن زال الغضب والحمد لله، فلم يبق إلا الحب القديم، هذا بيتك يا ياسين، أهلا بك أهلا . .

وجلس ياسين ممتنا، فلما غادرت أمينة الحجرة، قال للحاضرين بلهجة خطابية:

ـ ما أطيب هذه المرأة! إن الله لا يغفر لمن يسىء إليها، لعن الله الشيطان الذى أورطنى يومًا فيما جرح مشاعرها . .

فقالت له خديجة وهى تحدجه بنظرة ذات معنى:

ـ لا يكاد يمضى عام حتى يورطك الشيطان فى مصيبة، كأنك لعبة فى يديه . .

فنظر إليها بعين كأنما يتوسل إليها أن تعفيه من لسانها، وإذا بعائشة تقول مدافعة عنه:

ـ ذاك تاريخ مضى وانتهى . .

فتساءلت خديجة فى تهكم:

ـ لم لم تأت معك بالمدام «لتحيى» لنا هذا اليوم المبارك؟

فقال ياسين فى كبرياء مصطنع .

ـ لم تعد زوجتى تحيى أفراحًا بعد ، إنها الآن سيدة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى . .

فقالت خديجة بلهجة جدية لا أثر للتهكم فيها :

ـ يا خسارتك يا ياسين ، ربنا يتوب عليك ويهديك . .

قال إبراهيم شوكت ، كأنما يعتذر عن صراحة زوجته :

ـ لا تؤاخذنى يا سى ياسين ، ولكن ما حيلتى إنها أختك !

فقال ياسين باسما :

ـ كان الله فى عونك يا سى إبراهيم !

وهنا قالت عائشة وهى تتنهد :

ـ الآن وقد أخذ الله بيد بابا ، فإنى أصارحكم بأننى لن أنسى ما حييت منظره أول يوم رأيته ، ربنا لا يحكم على أحد بالمرض . .

خديجة بصدق وحماس :

ـ هذه الحياة لا تساوى بدونه قلامة ظفر . .

فقال ياسين بتأثر :

ـ إنه ملاذنا عند كل شدة ، رجل ولا كل الرجال !

وأنا؟ أتذكر موقفك بركن الحجرة وقد أطبق عليك اليأس؟ وكيف تقطع قلبى وأنا أرى تهافت أمى ، نعرف الموت معنى من المعانى أما إذا هلّ ظله من بعيد فتدور بنا الأرض ، ومع ذلك فستتوالى طعنات الألم بعدد من نفقد من الأحباء ، وستموت أنت أيضًا مخلفًا وراءك الآمال ، والحياة رغيبة ولو ابتليت بالحب . وتعالى من الطريق رنين جرس حنطور ، فوثبت عائشة إلى النافذة ثم نظرت من خصاصها ، التفتت قائلة فى مباهاة :

ـ زوار من الأكابر !

وتتابع وصول العواد من الأصدقاء الكثيرين الذين امتلأت بهم حياة الأب ، موظفين ومحامين وأعيان وتجار ، وكانت منهم قلة لم تجئ البيت من قبل ، وآخرون لم يأتوا إلا مدعوين لبعض الولائم التى يولمها السيد فى المناسبات ، وغير هؤلاء وأولئك رجال ترى وجوههم كثيراً فى الصاغة والسكة الجديدة ، والجميع أصدقاء ولكنهم ليسوا من طبقة محمد عفت وصاحبيه . وقد مكثوا قليلاً مراعاة لظروف الزيارة ، ولكن الأبناء وجدوا فى مظاهرهم الفاخرة وعرباتهم ذوات الجياد المطهمة ما أشبع خيلاءهم وزهوهم ، وقالت عائشة وهى لا تزال بموقف المراقبة :

ـ ها هم الأحباب قد وصلوا . .

وترامت أصوات محمد عفت وعلى عبد الرحيم وإبراهيم الفار وهم يتضاحكون ويرفعون أصواتهم بالشكر والحمد، فقال ياسين:

ـ لم يعد فى الدنيا أصدقاء مثل هؤلاء..

فآمن على قوله إبراهيم شوكت وخليل، على حين قال كمال بحزن لم يفطن إليه أحد:

ـ قل أن تتيح الحياة لأصدقاء أن يجتمع شملهم طويلاً كما أتاحت لهؤلاء! وعاد ياسين يقول كالمتعجب:

ـ لم يمر يوم دون أن يزوروا البيت، وما غادروه فى أيام الشدة إلا والدموع فى أعينهم..

فقال إبراهيم شوكت:

ـ لا تعجب، فقد عاشروه أكثر منكم أنتم!

وهنا ذهبت خديجة إلى المطبخ لتقدم مساعداتها. أما تيار العواد فلم ينقطع، وقد جاء جميل الحمزاوى بعد أن أغلق الدكان، وتبعه غنيم حميدو صاحب معصرة الجمالية، ثم محمد العجمى بائع الكسكسى بالصالحية. وإذا بعائشة تهتف وهى تشير إلى الطريق من وراء النافذة:

ـ الشيخ متولى عبد الصمد! ترى أيستطيع أن يصعد إلى الدور الفوقانى؟!

وراح الشيخ يقطع الفناء متوكئًا على عصاه، متنحنحا ـ من حين لآخر ـ لينبه من فى طريقه إلى حضوره. وأجاب ياسين:

ـ إنه يستطيع أن يصعد إلى قمة مئذنة.. (ثم مجيبًا خليل شوكت الذى تساءل عن عمر الرجل بعينيه وأصابعه).. بين الثمانين والتسعين!. ولكن لا تسل عن صحته!

وتساءل كمال:

ـ ألم يتزوج فى حياته الطويلة؟

فقال ياسين:

ـ يقال إنه كان زوجًا وأبا، ولكن زوجه وأبناءه انتقلوا إلى رحمة الله.

وهتفت عائشة مرة أخرى، ولم تكن برحت موقفها من النافذة:

ـ انظروا! هذا خواجا! من يكون يا ترى؟

كان يقطع الفناء ملقيًا على ما حوله نظرة مترددة متسائلة، واضعًا على رأسه قبعة مستديرة من الخوص لاح تحت حافتها أنف مجدور مقوس وشارب منفوش، فقال إبراهيم:

ـ لعله صائغ من تجار الصاغة!

فتمتم ياسين فى حيرة:

ـ ولكنه يونانى السحنة، أين يا ترى رأيت هذا الوجه؟!

وجاء شاب ضرير ذونظارة سوداء، يجره من يده رجل من أهل البلد ملثما بكوفية رافلا فى معطف أسود طويل يبرز من تحت طرفه جلباب مقلم، فعرفهما ياسين ـ من أول نظرة ـ وهو من الدهش فى نهاية: أما الشاب الضرير فكان عبده عازف القانون بتخت زبيدة، وأما الآخر صاحب قهوة مشهورة بوجه البركة يدعى الهمايونى، فتوة وبلطجى وبرمجى إلخ. . ، وسمع خليل وهو يقول:

ـ الضرير قانونجى العالمة زبيدة!

فتساءل ياسين متصنعًا الدهش:

ـ وكيف عرف بابا؟

فابتسم إبراهيم شوكت وهو يقول:

ـ والدك من السميعة القدامى، ولا غرابة فى أن يعرفه جميع أهل الفن! . .

وابتسمت عائشة دون أن تدير رأسها المتجه إلى الطريق لتدارى ابتسامتها، ياسين وكمال رأيا ابتسامة إبراهيم وفطنا إلى ما وراءها. وأخيرًا جاءت سويدان جارية آل شوكت تتعثر فى خطوات الكبر، فتمتم خليل وهو يشير إليها «رسول للسؤال عن السيد» . وكانت حرم المرحوم شوكت قد زارت السيد مرة، ولكنها لم تستطع أن تعيد الكرة لما اعتراها فى الأيام الأخيرة من آلام روماتيزمية تحالفت مع الكبر عليها. وما لبثت خديجة أن عادت من المطبخ وهى تقول مبدية التشكى مضمرة المباهاة:

ـ يلزمنا قهوجى ليقدم القهوة بنفسه!

كان السيد جالسًا فى فراشه، مسند الظهر إلى وسادة منكسرة، ساحبًا الغطاء حتى عنقه، على حين جلس العواد على الكنبة والكراسى التى أحدقت بالفراش، وبدا سعيدا رغم ضعفه، فلم يكن يسعده شىء كالتفاف الأصدقاء حوله وتسابقهم إلى مجاملته ورعاية عهده، وإذا كان قد بلاه المرض بالشر فإنه لم ينكر حسنته فيما وجد من جزع إخوانه لما أصابه وتحسرهم على غيابه ومدى إحساسهم بالوحشة فى مجالسهم أثناء اعتكافه، وكأنما أراد أن يستزيد من العطف، فجعل يقص عليهم ما لاقى من آلام وسأم، واستباح فى سبيل ذلك أن يهول ويبالغ، فقال متنهدا:

ـ فى الأيام الأولى من المرض اقتنعت فيما بينى وبين نفسى بأنى انتهيت، فجعلت أتشهد وأقرأ الصمدية، وفيما بين هذا وذاك أذكركم كثيرًا فتقسو على فكرة فراقكم . .

فعلا أكثر من صوت قائلاً :

ـ لا كانت الدنيا بدونك يا سيد أحمد . .

وقال على عبد الرحيم بتأثر :

ـ سيترك مرضك هذا فى نفسى أثرًا لن يزول مع الأيام . .

وقال محمد عفت بصوت خافت :

ـ أتذكر تلك الليلة؟ رباه لقد شيبتنا !

فمال غنيم حميدو نحو الفراش قليلاً ، وقال :

ـ نجاك الذى نجانا من الإنجليز ليلة بوابة الفتوح !

تلك الأيام السعيدة ، أيام الصحة والعشق ، وفهمى كان النجابة والأمل الموعود .

ـ الحمد لله يا سيد حميدو !

وقال الشيخ متولى عبد الصمد :

ـ إنى أسألك كم أعطيت الطبيب بدون وجه حق؟ ! ولا داعى للجواب ، ولكنى أدعوك إلى إطعام أولياء الحسين . . .

فقاطعه محمد عفت متسائلاً :

ـ وأنت يا شيخ متولى ، ألست من أولياء الحسين؟ ! وضح هذه النقطة . .

فاستطرد الشيخ ـ دون مبالاة ـ وهو يضرب الأرض بعصاه عقب كل عبارة :

ـ أطعم أولياء الحسين وأنا على رأسهم ، أراد محمد عفت أم لم يرد ، وعليه هو أيضًا أن يطعمهم إكرامًا لك ، وأنا على رأسهم ، وعليك أن تؤدى فريضة الحج هذا العام ، ويا حبذا لو أخذتنى معك ليضاعف الله لك الجزاء . .

ما أطيبك وأقربك إلى قلبى يا شيخ متولى ، أنت من معالم الزمن .

ـ أعدك يا شيخ متولى بأن آخذك معى إلى الحجاز ، إذا أذن الرحمن . .

عند ذاك قال الخواجا ، وكان قد خلع قبعته عن شعر خفيف ناصع البياض :

ـ شوية زعل ، الزعل سبب كل شىء ، اترك الزعل ترجع مثل البمب .

مانولى الذى باعك الخمر طيلة خمسة وثلاثين عامًا ، بائع السعادة وسمسار القرافة .

ـ هذه عاقبة بضاعتك يا مانولى !

فنظر الخواجا فى بقية وجوه الزبائن ، وقال :

ـ لم يقل أحد إن الخمر تأتى بالمرض ، كلام فارغ ، الانبساط والضحك والفرفشة تسبب المرض؟ !

هتف الشيخ متولى عبد الصمد ، وهو يلتفت نحو الخواجا مسددًا نحوه بصرا لا يكاد يرى :

ـ الآن عرفتك يا وجه المصائب، عندما سمعت صوتك فى المرة الأولى تساءلت: أين سمعت هذا الشيطان؟!

وسأل محمد العجمى بائع الكسكسى الخواجا مانولى، وهو يغمز بعينيه ناحية الشيخ متولى:

ـ الم يكن الشيخ متولى من زبائنك يا مانولى؟

فقال الخواجا باسما:

ـ فمه ملآن بالطعام، فأين يضع الخمر يا حبيبى؟

وصاح عبد الصمد وهو يشد على مقبض عصاه:

ـ تأدب يا مانولى!

فصاح به العجمى:

ـ أتنكر يا شيخ متولى أنك كنت أكبر حشاش قبل أن يقطع الكبر أنفاسك؟

فلوح الشيخ بيده محتجًا، وهو يقول:

ـ ليس الحشيش حرامًا، أجربت صلاة الفجر وأنت مسطول؟ الله أكبر.. الله أكبر!

ووجد أحمد عبد الجواد الهمايونى صامتًا، فالتفت إليه باسما وهو يقول على سبيل المجاملة:

ـ كيف حالك يا معلم؟ والله زمان!

فقال الهمايونى بصوت كالنعير:

ـ والله زمان زمان والله! أنت السبب يا سيد أحمد وأنت الهاجر، ولكن لما قال لى السيد على عبد الرحيم إن عدوك راقد ذكرت أيام الصبوات كأنها لم تنقطع، وقلت لنفسى: لا كان الوفاء إن لم أزر بنفسى الرجل الحبيب، رجل المروءة والفرفشة والأنس، ولولا الملامة لجئت معى بفطومة وتملى ودولت ونهاوند، كلهن مشتاقات إلى رؤيتك، يا سلام يا سى أحمد، أنت أنت سواء شرفتنا كل ليلة أم هجرتنا سنين!

ثم وهو يجيل عينيه الحديديتين:

هجرتمونا كلكم، البركة فى السيد على، ربنا يخلى لنا سنية القللى التى تجذبه إلينا، من فات قديمه تاه، عندنا أصل الأنس، ماذا غيبكم عنا؟ لو كانت التوبة لعذرناكم، ولكن التوبة لم يئن أوانها، ربنا يبعدها بطول العمر والأفراح!

أحمد عبد الجواد وهو يشير إلى نفسه:

ـ ها أنت ترى أننا قد انتهينا!

فقال المعلم بحماس :

ـ لا تقل هذا يا سيد الرجال ، وعكة وتمضى إلى غير رجعة ، لن أتركك حتى تنذر أن تعود إلى وجه البركة ـ ولو مرة ـ إذا أخذ الله بيدك وقمت بالسلامة !

فقال محمد عفت :

ـ الزمن تغير يا معلم همايونى ، أين وجه البركة الذى عرفناه قديمًا؟ ابحث عنه فى التاريخ ، أما ما بقى منه فمراح الشبان من أهل اليوم ، كيف نسير بينهم وفيهم أبناؤنا؟

وقال إبراهيم الفار :

ـ ولا تنس أننا لا نستطيع أن نغالط ربنا فى العمر والصحة ، انتهينا كما قال سى أحمد ، ما منًّا إلا من اضطر إلى زيارة الطبيب ليقول له عندك وعندك ، لا تشرب . . لا تأكل . . لا تتنفس ، وغير ذلك من الوصايا المقرفة ، ألم تسمع عن مرض الضغط يا معلم همايونى؟

فقال المعلم وهو يحدجه بنظرة :

ـ داو أى مرض بسكرة وضحكة ولعبة ، وإن وجدت له أثرا بعد ذلك الزقه فى كبدى

فصاح مانولى :

ـ قلت له هذا وحياتك أنت .

وقال محمد العجمى ، كأنما يتم ما بدأ صاحبه :

ـ ولا تنس المنزول الأصيل يا معلم . .

فهز الشيخ متولى عبد الصمد رأسه متعجبا ، وتساءل فى حيرة :

ـ دلونى يا أهل الخير أين أنا ، أفى بيت ابن عبد الجواد أم فى غرزة أم فى حانة؟ دلونى يا هوه . .

تساءل الهمايونى وهو يرمق الشيخ متولى شزرا :

ـ من صاحبكم؟

ـ ولى كله خير . .

فقال له متهكما :

ـ اقرأ لى الطالع إن كنت وليا !

فهتف متولى عبد الصمد :

ـ إما السجن وإما المشنقة !

فلم يتمالك الهمايونى من أن يضحك عاليا، ثم قال:

ـ حقا إنه ولى، فهذه هى النهاية المتوقعة (ثم مخاطبا الشيخ) لكن اضبط لسانك، وإلا حققت بك نبوءتك!

على عبد الرحيم، وهو يقرب رأسه من وجه السيد:

ـ قم يا حبيبى، الدنيا لا تساوى قشرة بصلة من غيرك، ماذا جرى لنا يا أحمد؟ أترى أنه يحسن بنا ألا نستهين بالمرض بعد ذلك؟ كان آباؤنا يتزوجون وهم فوق السبعين، فماذا جرى؟!

متولى عبد الصمد بعنف تطاير معه الرذاذ من فيه:

ـ كان آباؤكم مؤمنين طاهرين، لم يسكروا ولم يفسقوا، فى هذا الجواب الذى تريد..

وأجاب أحمد عبد الجواد صديقه قائلا:

ـ قال لى الطبيب إن التمادى فى الاستهانة مع الضغط عاقبته الشلل والعياذ بالله. هذا ما وقع لصاحبنا الودينى أكرمه الله بحسن الختام، إنى أسأل الله إذا حم القضاء أن يكرمنى بالموت، أما الرقاد أعواما بلا حراك.. اللهم رحمتك!

وهنا استأذن العجمى وحميدو ومانولى فى الانصراف، وذهبوا وهم يدعون للسيد بالصحة والعمر المديد. ومال محمد عفت على السيد، ثم همس بصوت هامس:

ـ جليلة تقرئك السلام، وكم ودَّت لو تراك بنفسها..

فالتقطت أذن عبده القانونجى مقالته، ففرقع بأصابعه، وقال:

ـ وأنا مبعوث السلطانة إليك، وقد كادت أن تتزيى بزى الرجال لتحضر إليك بنفسها لولا أن أشفقت عليك من العواقب غير المتوقعة، فأرسلتنى وقالت لى قل له:

وتنحنح مرة ثم مرة، وغنى بصوت خافت:

أمانـــة يا رايـــح يمـــه تبوس لى الحلو من فمه

وقل له عبدك المغرم ذليل

فابتسم الهمايونى كاشفا عن طاقم ذهبى، وقال:

ـ نعم الدواء، جرب هذا ولا تلق بالا إلى ولى الله المتنبئ بالمشانق.

زبيدة؟! لا شوق بى إلى شىء. دنيا المرض شىء كريه، ولو وقع المحذور لمت سكران، ألا يعنى هذا أنه لا بد من صفحة جديدة؟!

وقال له إبراهيم الفار بصوت خافت:

ـ تعاهدنا على ألا نذوق الخمر وأنت راقد..

ـ إنى أعفيتكم من تعهدكم، وسامحونى عما فات!

على عبد الرحيم مبتسما فى إغراء:

ـ لو كان فى الإمكان أن نحتفل هنا الليلة بشفائك

متولى عبد الصمد موجها خطابه للجميع:

ـ أدعوكم إلى التوبة والحج. .

الهمايونى محنقا:

ـ كأنك عسكرى فى غرزة. . .

وبإشارة متفق عليها من الفار، تقاربت رءوس محمد عفت وعلى عبد الرحيم وإبراهيم الفار فوق رأس السيد، وراحوا يغنون بصوت خافت:

أما أنت مش قد الخمرة بس تسكر ليه

على نغمة **أما انت مش قد الهوى بس تعشق ليه**

على حين جعل الشيخ متولى عبد الصمد يتلو آيات من سورة التوبة، أما أحمد عبد الجواد فقد أغرق فى الضحك حتى دمعت عيناه، ومر الوقت بلا حساب حتى بدا فى وجه الشيخ متولى عبد الصمد الجزع، فقال:

ـ ليكن فى معلومكم أنى آخر من سيغادر هذه الحجرة؛ لأنى أريد أن أخلو إلى ابن عبد الجواد. .

٤٣

غادر أحمد عبد الجواد البيت بعد أسبوعين آخرين، فكان أول ما فعله أن صحب ياسين وكمال إلى زيارة الحسين والصلاة فى مسجده شكرا لله. وكان نبأ وفاة على فهمى كامل قد نشر فى الصحف، فتأمله السيد أحمد طويلا وخاطب ابنيه ـ وهم يغادرون البيت ـ قائلا: ـ سقط ميتا وهو يخطب فى جمع حافل، وها أنا أسعى على قدمى بعد رقاد كدت أرى فيه الموت رؤية العين، فمنذا يستطيع أن يعلم الغيب؟! حقا إن الأعمار بيد الله، وإنه لكل أجل كتاب. .

كان عليه أن يصبر أياما وأسابيع حتى يسترد وزنه، غير أنه بدا رغم ذلك مستوفيا آى وقاره وجماله. وقد سار فى المقدمة وتبعه ياسين وكمال. وهو منظر لم بهيئته الكاملة منذ وفاة فهمى. وفى الطريق ما بين القصرين والجامع لمس الشابان المكانة التى يحظى بها

أبوهما فى الحى كله، فما من تاجر من أصحاب الدكاكين القائمة على جانبى الطريق إلا وقد صافحه وتلقاه بين ذراعيه وهو يهنئه بالسلامة. واستجابت نفسا ياسين وكمال لهذه المودة الحارة المتبادلة، فملكهما السرور والزهو وارتسمت على ثغريهما ابتسامة لم تفارقهما طوال الطريق، غير أن ياسين تساءل فى براءة: لم لَمْ يحظ بمثل مكانة أبيه وكلاهما فى الجلال والجمال والعيوب سواء؟أما كمال فبالرغم من تأثره الوقتى استدعى أفكاره الغابرة عن هذه المكانة المرموقة ليسبرها بعين جديدة. كانت فى الماضى تتمثل لعينيه الصغيرتين آية للجلال والعظمة، أما الآن فإنه يراها لا شىء أو أولا شىء بالقياس إلى مثله العليا، ما هى إلا المكانة التى يحظى بها رجل طيب القلب، لطيف المعشر، جم المروءة، والعظمة شىء قد يناقض ذلك كل المناقضة، فهى دوى يزلزل قلوب الخاملين ويطير النوم عن أعين الراقدين، وهى عسية بأن تستثير الكراهية لا الحب، والسخط لا الرضا، والعداوة لا المودة، إنها الكشف والهدم والبناء، ولكن أليس من السعادة أن ينعم الإنسان بمثل هذا الحب والإجلال؟ بلى وآى ذلك أن عظمة العظماء تقاس أحيانا بمقدار تضحيتهم بالحب والطمأنينة فى سبيل أهداف أسمى، على أى حال هو رجل سعيد فليهنأ بسعادته. انظر إليه ما أجمله! كذلك ياسين ما ألطفه! وما أعجب منظرى بينهما كأنى صورة تنكرية فى كرنفال، ازعم ما شاء لك الزعم أن الجمال حلية النساء لا الرجال فلن يمحو هذا من ذاكرتك موقف الكشك الرهيب. وقد برئ أبى من الضغط فمتى أبرأ من الحب؟ والحب مرض غير أنه كالسرطان لم تكتشف جرثومته بعد. إن حسين شداد يقول فى رسالته الأخيرة: «إن باريس عاصمة الجمال والحب» فهل هى أيضا عاصمة العذاب. وقد بدأ العزيز يبخل برسائله كأنما يقطرها من دمه الغالى، أريد عالما لا تخدع فيه القلوب ولا تخدع.

عند منعطف خان جعفر لاح لهم الجامع الكبير، فسمع أباه وهو يقول من الأعماق بصوت جمع بين رقة التحية وحرارة الاستغاثة «يا حسين» ثم حث خطاه فتبعه ياسين وهو ينظر إلى الجامع وعلى شفتيه ابتسامة غامضة. أيدور بخلد أبيه أنه لم يتبعه إلى هذه الزيارة المباركة إلا استجابة لرغبته هو دون أدنى مشاركة فى عقيدته؟! أما هذا الجامع فلم يعد فى نظره إلا رمزا من رموز الخيبة التى ابتلى بها قلبه. كان فى الماضى يقف تحت مئذنته وقلبه خفاق ودمعة متحفز وصدره مرتعش لجيشات الوجد والإيمان والأمل، واليوم يقترب منه وهو لا يراه إلا مجموعة ضخمة من الأحجار والحديد والخشب والطلاء تحتل مساحة واسعة من الأرض بغير وجه حق!

بيد أنه لا مناص من تمثيل دور المؤمن حتى تنتهى الزيارة رعاية لحقوق الأبوة واحتراما للناس أو اتقاء لشرهم، وهو سلوك ينافى الكرامة والصدق، أريد عالما يعيش فيه الإنسان حرًا بلا خوف ولا إكراه!

وخلعوا أحذيتهم ودخلوا تباعا، فاتجه الأب إلى المحراب ودعا ابنيه إلى الصلاة تحية للمسجد، ثم رفع يديه إلى رأسه مقيما الصلاة فائتما به. استغرق الأب فى الصلاة كعادته فأرخى جفونه وامتثل، ونسى ياسين كل شىء إلا أنه بين يدى الله الغفور الرحيم. وجعل هو يحرك شفتيه دون أن يقول شيئا، وانحنى واستوى ثم ركع وسجد وكأنه يؤدى بعض الحركات الرياضية الفاترة، وقال لنفسه: إن أقدم الآثار المتخلفة على وجه الأرض أو فى باطنها معابد وحتى اليوم لا يخلو منها مكان فمتى يشب الإنسان عن طوقه ويعتمد على نفسه؟ وهذا الصوت الجهير الذى يترامى من أقصى الجامع يذكر الناس بالآخرة فمتى كان للزمن آخر؟ وما أجمل أن ترى إنسانا يغالب الأوهام ليغلبها! ولكن متى ينتهى القتال ويعلن المقاتل أنه سعيد؟ وإن الدنيا لتبدو لعينى غريبة فهل تراها خلقت أمس؟ وهذان الرجلان هما أبى وأخى فلم لا يكون جميع الناس آبائى وإخوتى؟ وهذا القلب الذى أحمله بين حنبى كيف أرتضى أن يسومنى العذاب ألوانا؟ وما أكثر أن أرتطم كل ساعة بشخص لا أوده! فلماذا نزح الذى أهواه من دونهم إلى أقصى الأرض؟

ولما فرغوا من صلاتهم، قال الأب:

- لنمكث قليلا قبل أن نقوم للطواف.

وظلوا متربعين صامتين، حتى عاد الأب يقول بصوت رقيق:

- لم نجتمع هنا منذ ذلك اليوم!

فقال ياسين بتأثر:

- الفاتحة على روح فهمى..

وتليت الفاتحة، ثم سأل الأب ياسين فيما يشبه الارتياب:

- ترى هل شغلتك أمور الدنيا عن زيارة الحسين؟

فقال ياسين الذى لم يزر الجامع طوال هذه الأعوام إلا مرات معدودات:

- لا يمكن أن يمر أسبوع دون أن أزور سيدى!

فالتفت الأب نحو كمال، ورمقه بنظرة كأنما تسائله «وأنت؟»، فقال كمال وهو يجد استحياء:

- وأنا كذلك!

فقال الأب بخشوع:

- إنه حبيبنا وشفيعنا إلى جده يوم لا ترجى فيه أم ولا أب..

قام من المرض هذه المرة - بعد أن ألقى عليه درسا لا يُنسى - وهو يؤمن ببطشه ويخاف عواقبه فصدقت نيته على التوبة، وقد كان يؤمن دائما بأن التوبة آتية مهما طال بها

الانتظار، فاقتنع بأن تأجيلها بعد ذلك ضرب من السفه والكفر بنعمة الله الرحيم. وكان كلما طافت به ذكريات اللهو تعزى بما ينتظره فى حياته من مسرات بريئة، كالصداقة والطرب والفكاهة، لذلك دعا الله أن يحفظه من وساوس الشيطان وأن يثبت قدميه فيما اعتزم من توبة وراح يتلو ما تيسر من السور القصار التى يحفظها.

ونهض فنهضا وراءه، ثم مضوا إلى الضريح، وهناك استقبلهم عرف طيب يذكو فى المكان وغمغمة تلاوات تهمس فى الأركان، فطافوا بالضريح بين جموع الطائفين، وارتفعت عينا كمال إلى العمامة الكبيرة الخضراء، ثم استقرتا مليا فوق الباب الخشبى الذى طالما لثمته شفتاه. فقارن بين عهد وعهد، وحال وحال، وذكر كيف انجلى سر هذا القبر عن أول مأساة فى حياته، ثم كيف تتابعت المآسى بعد ذلك غير مبقية على حب أو عقيدة أو صداقة، وكيف أنه رغم ذلك كله لا يزال واقفا على قدميه، يرنو إلى الحقيقة رنو العابد، غير آبه لطعنات الألم، حتى المرارة انداحت على شفتيه فارتسمت ابتسامة، أما السعادة العمياء التى تضىء وجوه الطائفين من حوله فقد نبذها غير آسف، وكيف يشترى السعادة بالنور وقد عاهد نفسه على أن يعيش مفتح العينين، مؤثرا القلق الحى على الطمأنينة الخاملة، ويقظة السهاد على راحة النوم.

ولما فرغوا من طوافهم دعاهما الأب إلى الجلوس مليا فى مثوى الضريح، فاتجهوا إلى ركن وجلسوا متقاربين، ولمح السيد بعض معارفه، فأقبلوا عليه مصافحين مهنئين، وجالسه نفر منهم، وكان أكثرهم يعرفون ياسين ـ إما عن طريق دكان والده، وإما عن طريق مدرسة النحاسين ـ أما كمال فلم يكد يعرفه أحد منهم، وقد لفتت نحافته أنظار بعضهم فداعب السيد قائلا:

ـ ما لابنك هذا كالبرص؟

فبادره السيد قائلا، وكأنه يرد تحية بأحسن منها:

ـ أنت الأبرص!

وابتسم ياسين، وابتسم كمال، وكان أول مرة يطلع فيها على شخصية أبيه «السرية» التى سمع عنها الكثير. هكذا بدا الأب رجلا لا تفوته النكتة حتى وهو فى مقام الحمد والتوبة أمام ضريح الحسين. وقد بعث ذلك ياسين على التفكير فى مستقبل أبيه، فتساءل: ترى هل يعود إلى مسراته المعروفة بعد ما كان من أمر المرض معه..؟ وقال لنفسه: «إن معرفة ذلك عندى من الدرجة الأولى من الأهمية».

٤٤

كانت أم حنفى متربعة على الحصيرة بالصالة، بينما جلست نعيمة ابنة عائشة وعبد المنعم وأحمد ابنا خديجة على الكنبة قبالتها. وكانت النافذتان المطلتان على فناء البيت مفتوحتين ليلطفا من جو أغسطس المفعم بالحرارة والرطوبة، غير أنه لم تكد تهفو نسمة واحدة فظل المصباح الكبير المتدلى من السقف يرسل نوره على الصالة وهو ثابت، أما الحجرات فبدت مظلمة صامتة. وكانت أم حنفى خافضة الرأس، شابكة ذراعيها فوق صدرها، ترفع عينيها إلى الصغار الجالسين على الكنبة لحظة ثم تغمضها، ولم تكن تتكلم ولكن شفتيها لم تتوقفا عن الحركة، وتساءل عبد المنعم:

- إلى متى يبقى خالى كمال فوق السطح؟

فتمتمت أم حنفى:

- الجو حار هنا، لم لَمْ تبقوا معه؟

- الدنيا ظلام، ونعيمة تخاف الحشرات.

وهنا قال أحمد فى ضجر:

- إلى متى نبقى هنا؟ هذا هو الأسبوع الثانى، إنى أعد الأيام يوما يوما، وأريد أن أعود إلى بابا وماما..

أم حنفى برجاء:

- إن شاء الله تعودون جميعا وأنتم على أسعد حال، ادعوا الله فإنه يستجيب للصغار الأطهار..

فقال عبد المنعم:

- إننا ندعوه قبل النوم وعقب الاستيقاظ كما توصيننا..

فقالت المرأة:

- ادعوا فى كل وقت، ادعوه الآن، هو وحده القادر على كشف غمتنا..

وبسط عبد المنعم راحتيه، ثم نظر إلى أحمد داعيا إياه إلى مشاركته، ففعل الآخر مثله دون أن يزايل الضجر وجهه، ثم قالا معا كما تعودا أن يقولا فى الأيام الأخيرة:

- يا رب اشف عمنا خليل، وعثمان ومحمد ابنى عمنا، حتى نعود إلى بيتنا مجبورى الخاطر..

وبدا التأثر فى وجه نعيمة فأرخت أساريرها فى حزن واغرورقت عيناها الزرقاوان بالدموع، وهتفت:

- بابا وعثمان ومحمد كيف حالهم؟ وماما أريد أن أراها، أريد أن أراهم جميعا..

فتحول عبد المنعم إليها قائلا بصوت المواسى:

- لا تبكى يا نعيمة. قلت لك كثيرا لا تبكى، عمى بخير، عثمان بخير، محمد بخير، وسنعود قريبا إلى بيتنا، جدتى تؤكد هذا، وخالى كمال أكده أيضا منذ قليل..

فقالت نعيمة وهى تجهش فى البكاء:

- كل يوم أسمع هذا، ولكنهم لا يسمحون لنا بالعودة إليهم، أريد أن أرى بابا وعثمان ومحمد، أريد ماما..

قال أحمد بتذمر:

- أنا أريد بابا وماما أيضا..

عبد المنعم:

- سنعود عندما يشفون..

هتفت نعيمة بجزع:

- لنعد الآن، أريد أن أرجع، لم يبعدوننا عنهم؟

فأجابها عبد المنعم:

- إنهم يخافون أن نشم المرض!

قالت نعيمة بعناد:

- ماما هناك، وخالتى خديجة هناك، وعمى إبراهيم هناك، وجدتى هناك، فلماذا لا يشمون المرض؟

- لأنهم كبار!

- إذا كان الكبار لا يشمون المرض، فلماذا مرض بابا؟

تنهدت أم حنفى، وقالت برقة:

- هل ضايقك شىء؟.. هذا بيتك أيضا، وها هو سى عبد المنعم وسى أحمد ليلعبا معك، وخالك كمال يحبك قد عينيه، وستعودين قريبا إلى ماما وبابا وعثمان ومحمد.. لا تبكى يا ستى الصغيرة وادعى لبابا وأخويك بالشفاء..

أحمد متأففا:

ـ أسبوعان عددتهما على أصابعى، ثم إن شقتنا فى الدور الثالث والمرض فى الدور الثانى، لم لا نعود إلى شقتنا ونأخذ معنا نعيمة؟

أم حنفى كالمحذرة وهى تضع أصبعها على شفتيها:

ـ سيغضب خالك كمال إذا سمع بما قلت، إنه يشترى لكم الشكولاطة واللب، فكيف تقول إنك لا ترغب فى البقاء معه؟ لم تعودوا صغارا، وأنت يا سى عبد المنعم ستدخل المدرسة الابتدائية بعد شهر، وكذلك أنت يا نعومة!

فقال أحمد متراجعا بعض الشىء:

ـ دعونا على الأقل نخرج لنلعب فى الطريق!

فأمَّن عبد المنعم على الاقتراح قائلا:

ـ كلام معقول يا أم حنفى، لمَ لا نخرج إلى الطريق لنلعب؟

فقالت أم حنفى بحزم:

ـ عندكم الفناء وهو يسع الدنيا والآخرة، وعندكم السطح أيضا، ماذا تريدون أكثر من ذلك؟ كان سى كمال وهو صغير لا يلعب إلا فى البيت، وعندما أفرغ من شغلى أقص عليكم الحكايات.. ألا تحبون ذلك؟

أحمد محتجا:

ـ أمس قلت لنا إن حكاياتك انتهت!

نعيمة وهى تجفف عينيها:

ـ خالتى خديجة عندها حكايات أكثر، وأين ماما لنغنى معا؟

أم حنفى باستعطاف:

ـ طالما رجوتك أن تغنى لنا وأنت ترفضين!

ـ لا أغنى هنا. لا أغنى وعثمان ومحمد مرضى..

المرأة وهى تنهض:

ـ سأجهز لكم العشاء ثم ننام، جبن وبطيخ وشمام، هه؟!

كان كمال جالسا على الكرسى فى جانب السطح المكشوف فيما يلى سقيفة الياسمين واللبلاب، لا يكاد يرى فى الظلام لولا جلبابه الأبيض الفضفاض، وكان مادا ساقيه فى استرخاء، مصعدا رأسه إلى الأفق المرصع بالنجوم، مستغرقا فى التفكير، يكتنفه صمت لا يكدره شىء إلا أن يرتفع صوت من الطريق أو تنبعث قوقأة عن حجرة الدجاج، وكان فى وجهه أثر مما طرأ على الأسرة فى الأسبوعين الأخيرين، فقد اختل نظام البيت المعهود واختفت منه أمه إلا فى أوقات نادرة، وتشبع جوه بتذمر المساجين الصغار الثلاثة الذين

يهيمون فى رحباته متسائلين عن «بابا» و«ماما» حتى أعيته الحيل فى ملاطفتهم وملاعبتهم.

أما فى السكرية فإن عائشة لم تعد تغنى وتضحك كما قيل كثيرا عنها، ولكنها تقضى الليل ساهرة بين أسرة المرضى الأعزاء، زوجها وطفليها، وكم تمنى صغيرا لو تعود عائشة إلى بيتها القديم، وكم يشفق اليوم من أن تضطر إلى العودة مهيضة الجناح كسيرة القلب، وأما أمه فتهمس فى أذنه «لا تزر السكرية، وإذا زرتها فلا تمكث طويلا» وإنه ليزورها من حين لآخر، ثم يغادرها تفوح من راحتيه رائحة المطهرات الغريبة ويستحوذ القلق على فؤاده، وأعجب شىء أن جراثيم التيفود ـ كسائر الجراثيم ـ آية فى الضآلة، لا تراها العين، ولكنها تستطيع أن توقف تيار الحياة، وأن تتحكم فى مصير العباد، وأن تشتت إذا أرادت الأسرة. محمد المسكين كان أول المرضى، ثم تبعه عثمان، وأخيرا ـ وعلى غير توقع ـ وقع الأب، والليلة جاءت الجارية سويدان لتخبره بأن أمه ستبيت فى السكرية، ثم قالت ـ عن أمه وعن نفسها ـ إنه ليس ثمة ما يدعو إلى القلق! إذن لمَ تبيت الأم فى السكرية؟ ولمَ ينقبض صدره؟ على أنه ـ رغم هذا كله ـ من الممكن أن يصفو الجو فى غمضة عين، فيشفى خليل شوكت وطفلاه العزيزان، ويتألق وجه عائشة ويضىء، وهل نسى كيف ابتلى بيته بمثل هذه المحنة منذ ثمانية أشهر؟ وها هو أبوه يسعى فى كامل صحته وعافيته، وقد استردت عضلاته قوتها، وعيناه بريقهما الجذاب، ثم رجع إلى أصحابه وأحبابه كما يرجع الطير إلى الشجرة الغنَّاء، فمنذا يعترض على أنه يمكن أن يتغير كل شىء فى غمضة عين؟!

ـ أنت هنا وحدك؟

عرف كمال الصوت، فقام متلفتا صوب باب السطح، ومد يده للقادم وهو يقول:

ـ كيف حالك يا أخى؟ تفضل..

وقدم له مقعدا، فتنفس ياسين تنفسا عميقا ليعيد إلى رئتيه توازنهما الذى اضطرب بصعود السلم، فامتلأ صدره بشذا الياسمين، ثم جلس وهو يقول:

ـ الأولاد ناموا، وأم حنفى نامت كذلك..

فسأله كمال وهو يتخذ مجلسه مرة أخرى:

ـ مساكين، لا يستريحون ولا يريحون، كم الساعة الآن؟

ـ فى الحادية عشرة، الجو هنا ألطف من الطريق بكثير..

ـ وأين كنت؟!

ـ مترددا ما بين قصر الشوق والسكرية، وعلى فكرة والدتك لن تعود الليلة..

ـ سويدان أبلغتنى ذلك، ماذا جد؟ كنت من القلق فى نهاية..

ياسين وهو يتنهد :

ـ كلنا فى القلق سواء، وربنا عنده اللطف، والدك هناك أيضا . .

ـ فى هذه الساعة؟!

ـ تركته فى البيت . . (ثم مستطردا بعد قليل) . . كنت فى السكرية حتى الثامنة مساء، وإذا برسول يحضر من قصر الشوق ليخبرنى بأن زوجى قد جاءها الطلق، فذهبت من فورى إلى أم على الداية ومضيت بها إلى البيت حيث وجدت زوجى فى رعاية بعض الجارات، ومكثت هناك ساعة غير أنى لم أطق سماع الأنين والصراخ طويلا، فعدت إلى السكرية مرة أخرى فوجدت والدك جالسا مع إبراهيم شوكت . .

ـ ماذا يعنى هذا؟ خبرنى بما عندك . .

ياسين بصوت منخفض :

ـ الحال خطيرة جدا . .

ـ خطيرة؟!

ـ نعم جئت إلى هنا لأريح أعصابى قليلا، ألم تجد زنوبة ليلة تلد فيها إلا هذه الليلة؟ لشد ما تعبت بين قصر الشوق والسكرية، وبين الداية والدكتور، والحال خطيرة، وقد نظرت حرم المرحوم شوكت فى وجه ابنها وهتفت : «أمان يا رب . . كان يجب أن تأخذنى قبله!» فانزعجت أمك انزعاجا شديدا، ولكنها لم تحفل بها، وقالت بصوت مبحوح : «هذه صورة آل شوكت إذا حضرهم الموت، رأيت أباه وعمه وجده من قبل!»، لم يبق من خليل إلا خيال، وكذا الطفلان، لا حول ولا قوة إلا بالله . .

ازدرد كمال ريقه، ثم قال :

ـ عسى أن تخيب الظنون!

ـ عسى! كمال . . لست صغيرا، ينبغى أن تعلم بما أعلم أنا على الأقل، الطبيب يقول إن الأمر جد خطير!

ـ عن الكل؟!

ـ الكل! . . خليل وعثمان ومحمد، رباه! ما أتعس حظك يا عائشة!

تمثلت لعينيه فى الظلام أسرة عائشة الضاحكة كما كانت تبدو له فى الماضى. السعداء الضاحكون الذين مارسوا الحياة كأنها لهو خالص، متى تضحك عائشة من قلبها مرة أخرى؟ كما اختطف فهمى، الإنجليز أو التيفود سيان، أو غير ذلك من الأسباب، الإيمان بالله هو الذى جعل من الموت قضاء وحكمة يبعثان على الحيرة، وهو ليس فى الحقيقة إلا نوعا من العبث.

ـ أفظع ما سمعت فى حياتى!

ـ هو ذلك، ولكن ما الحيلة؟ وماذا جنت عائشة حتى تستحق هذا كله؟! اللهم عفوك ورحمتك..

هل ثمة حكمة رفيعة يمكن أن تبرر القتل بالجملة؟ إن الموت يتبع قوانين «النكتة» بدقة، ولكن كيف لنا أن نضحك ونحن هدف النكتة؟ ولعلك تستطيع أن تلاقيه بالابتسام إذا تصديت له دواما بالتأمل الصادق والفهم الصحيح والتجرد الأصيل، ذلك هو الانتصار على الحياة والموت معا، ولكن أين من عائشة ذلك كله؟!

ـ رأسى يدور يا أخى!

فقال ياسين بلهجة الحكيم، ولأول مرة فيما سمع كمال:

ـ هذه هى الدنيا، ويجب أن تعرفها على حقيقتها..

ثم قام فجأة وهو يقول:

ـ يجب أن أذهب الآن..

فقال كمال كالمستغيث:

ـ ابق معى بعض الوقت..

ولكنه قال كالمعتذر:

ـ الساعة الحادية عشرة، ويجب أن أذهب إلى قصر الشوق لأطمئن على زنوبة، ثم أعود إلى السكرية لأكون إلى جانبهم، لن أنام من الليل فيما يبدو ساعة واحدة، والله أعلم بما ينتظرنا غدا..

فقام كمال وهو يقول فى جزع:

ـ إنك تتكلم كما لو كان كل شىء قد انتهى، سأذهب من فورى إلى السكرية..

ـ بل يجب أن تبقى مع الأطفال حتى مطلع النهار، وحاول أن تنام وإلا ندمت على مصارحتى إياك بالحقيقة!

وغادر ياسين السطح فتبعه كمال ليوصله إلى باب البيت، وعندما مرا بالدور الأعلى حيث ينام الأطفال، قال كمال بأسف:

ـ يا لهم من مساكين هؤلاء الأطفال! وشد ما بكت نعيمة فى الأيام الأخيرة كأن قلبها حدس ما هنالك..

فقال ياسين باستهانة:

ـ الأطفال سرعان ما ينسون، ادع بالرحمة للكبار..

ولما خرج إلى الفناء، ترامى إليهما من الطريق صوت يصيح بقوة «ملحق المقطم»، فتمتم كمال متسائلا:

ـ ملحق المقطم؟!

فقال ياسين بلهجة أسيفة:

ـ أوه إنى أعرف عما ينادى فقد سمعت الناس يتناقلونه وأنا قادم إليك.. سعد زغلول مات!

هتف كمال من الأعماق:

ـ سعد؟!

فتوقف ياسين عن السير، والتفت نحوه قائلا:

ـ هوِّن عليك وحسبنا ما نحن فيه!

فحملق كمال فى الظلام دون أن ينطق أو يأتى حراكا، كأنما قد ذهل عن خليل وعثمان ومحمد وعائشة، عن كل شىء إلا أن سعد زغلول قد مات، وواصل ياسين السير وهو يقول:

ـ مات مستوفيا حظه من العمر والعظمة فماذا تريد له أكثر من ذلك! ليرحمه الله..

فتبعه صامتا ولما يفق من ذهوله، لو فى غير هذا الظرف الحزين ما درى كيف يتحمل النبأ، ولكن المصائب إذا تلاقت تحدى بعضها بعضا، هكذا ماتت جدته فى أعقاب مصرع فهمى فلم تجد لها باكيا ـ إذن مات سعد. النفى والثورة والحرية والدستور مات صاحبها، كيف لا يحزن وخير ما فى روحه من وحيه وتربيته!

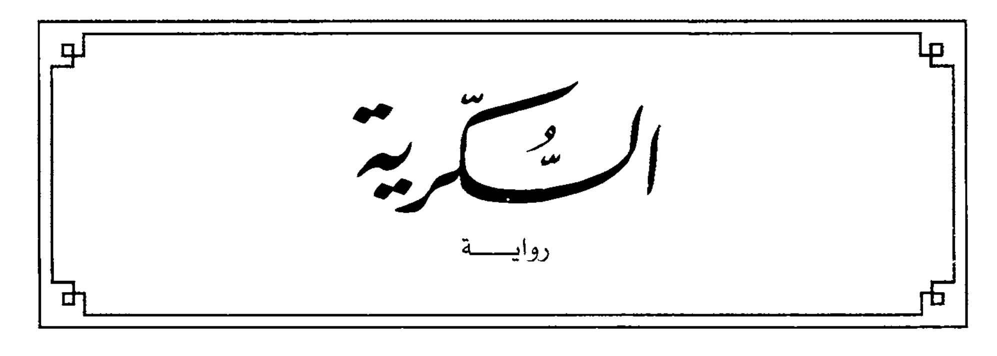
ووقف ياسين مرة أخرى ليفتح الباب، ثم مد يده له فتصافحا، وعند ذاك تذكر كمال أمرا طال نسيانه له، فقال لأخيه وهو يجد من نسيانه حياء:

ـ أدعو الله أن تجد زوجك قد ولدت بالسلامة..

فقال ياسين وهو يهم بالذهاب:

ـ إن شاء الله، وأرجو أن تنام نوما هادئا..

(تمت)



١

تقاربت الرءوس حول المجمرة وانبسطت فوق وهجها الأيدى، يدا أمينة النحيلتان المعروقتان، ويدا عائشة المتحجرتان، ويدا أم حنفى اللتان بدتا كغطاء السلحفاة، وأما هاتان اليدان الناصعتا البياض الجميلتان فكانتا يدى نعيمة. وكان برد يناير يكاد يتجمد ثلجا فى أركان الصالة، تلك الصالة التى بقيت على حالها القديم بحُصرها الملونة وكنباتها الموزعة على الأركان، إلا أن الفانوس القديم بمصباحه الغازى قد اختفى وتدلى مكانه من السقف مصباح كهربائى، كذلك تغير المكان فقد رجع مجلس القهوة إلى الدور الأول. بل انتقل الدور الأعلى جميعه إلى هذا الدور تيسيرا للأب الذى لم يعد قلبه يسعفه على ارتقاء السلم العالى. ثمة تغير أدرك أهل البيت أنفسهم، فقد جف عود أمينة واشتعل رأسها شيبا، ومع أنها لم تكد تبلغ الستين إلا أنها بدت أكبر من ذلك بعشر، ولكن تغير أمينة كان لا شىء بالقياس إلى ما جرى لعائشة من تدهور وانحلال، كان مما يدعو إلى السخرية أو الرثاء أن شعرها لم يزل مذهبا وعينيها زرقاوان، ولكن هذه النظرة الخامدة لا توحى بحياة وهذه البشرة الشاحبة بأى مرض تنضح؟، وهذا الوجه الذى نتأت عظامه وغارت فيه العينان والوجنتان أهو وجه امرأة فى الرابعة والثلاثين؟، وأما أم حنفى فبدا أن الأعوام تتراكم عليها ولا تنال من جوهرها، لم تكد تمس لحمها وشحمها فتكاثفت كالغبار أو كالقشور فوق جلدها وحول رقبتها وثغرها. غير أن عينيها الساهمتين لاحتا مشاركتين لأهل البيت فى حزنهم الصامت. نعيمة وحدها بدت فى هذه المجموعة كالوردة المغروسة فى حوش مقبرة، استوت شابة جميلة فى السادسة عشرة من عمرها، مجللة الشعر بهالة ذهبية، مزينة الوجه بعينين زرقاوين، كعائشة فى شبابها أو أفتن ملاحة، ولكنها كانت نحيفة رقيقة كالخيال، تعكس عيناها نظرة وديعة حالمة تقطر طهارة وسذاجة وغرابة عن هذا العالم، وكانت ملتصقة بمنكب أمها كأنها لا تود أن تفارقها لحظة. وقالت أم حنفى وهى تفرك يديها فوق المجمرة:

ـ سينزل البناءون عن العمارة فى هذا الأسبوع بعد عام ونصف من العمل. . . .

فقالت نعيمة فى نغمة ساخرة :

ـ عمارة عم بيومى الشرباتلى . . .

ارتفعت عينا عائشة عن المجمرة إلى وجه أم حنفى لحظة ولكنها لم تعلق بكلمة ، قد علموا فى حينه بهدم البيت الذى كان يوما بيت السيد محمد رضوان ثم إعادة بنائه عمارة مكونة من أربعة أدوار باسم عم بيومى الشرباتلى ، تلك الذكريات القديمة ، مريم وياسين ولكن ترى أين مريم ، وأم مريم وبيومى الشرباتلى الذى استولى على البيت بالوراثة والشراء ، أيام كانت الحياة حياة والقلب ناعم البال! وعادت أم حنفى تقول :

ـ أجمل ما فيها ياستى دكان عم بيومى الجديدة ، ثريات ودندرمة وحلوى ، كلها مرايا وكهرباء ، والراديو ليل نهار ، يا عينى على حسنين الحلاق ودرويش بائع الفول والفولى اللبان وأبو سريع صاحب المقلى وهم ينظرون من دكاكينهم البالية إلى دكان زميلهم القديم وعمارته . .

فقالت أمينة وهى تشبك الشال حول منكبيها :

ـ سبحان ربك الوهاب . .

فعادت نعيمة تقول وهى تحيط عنق أمها بذراعيها :

ـ سد جدار العمارة سطحنا من هذه الناحية ، وإذا عمرت بالسكان فكيف نستطيع أن نمضى الوقت فوق السطح؟

لم يكن فى وسع أمينة أن تتجاهل سؤالا توجهه حفيدتها الجميلة مراعاة لخاطر عائشة قبل كل شىء فقالت :

ـ لا يهمك السكان ، امرحى كيف شئت . .

واسترقت النظر إلى عائشة لترى وقع إجابتها اللطيفة ، إذ أنها باتت من شدة الخوف عليها وكأنما تخافها ، ولكن عائشة كانت مشغولة فى تلك اللحظة بالتطلع إلى مرآة فوق نضد بين حجرة السيد وحجرتها ، لم تزايلها عادة التطلع إلى المرآة وإن لم يعد لها معنى ، وبمرور الزمن لم يعد يروعها منظر وجهها الضحل ، وكلما سألها صوت باطنى «أين عائشة زمان؟» أجابت دون اكتراث «وأين محمد وعثمان وخليل؟» ، وكانت أمينة تلاحظ ذلك فينقبض قلبها ، وسرعان ما يسرى الانقباض إلى أم حنفى التى اندمجت فى الأسرة حتى ورثت عنها همومها .

ونهضت نعيمة إلى الراديو القائم ما بين حجرة الاستقبال وحجرة السفرة وأدارت مفتاحه وهى تقول :

ـ ميعاد إذاعة الاسطوانات يا ماما . . . .

وأشعلت عائشة سيجارة وأخذت نفسا عميقا ، وجعلت أمينة ترنو إلى الدخان وهو

ينبسط سحابة خفيفة فوق المجمرة، وانبعث من الراديو صوت يغنى «يا عشرة الماضى الجميل يا ريت تعودى». وعادت نعيمة إلى مجلسها وهى تحبك الروب حول جسمها. كانت - كأمها فى الزمان الخالى - تهوى الغناء. وُهبت كيف تسمعه وكيف تحفظه وكيف تعيده بصوت حسن. لم ينل من هذا الهوى شعورها الدينى الذى غلب على كافة مشاعرها، فهى تواظب على الصلاة، وتصوم رمضان مذ بلغت العاشرة، وتحلم كثيرا بعالم الغيب، وترحب بغبطة لا حد لها بزيارة الحسين إذا دعتها جدتها إليها، ولكنها فى الوقت نفسه لم تقلع عن حب الغناء، فهى تغنى كلما خلت إلى نفسها فى حجرتها أو فى الحمام. وكانت عائشة ترضى عن كل ما يصدر عن وحيدتها، الأمل المضىء فى أفقها المظلم، تعجب بتدينها كما تعجب بصوتها، وحتى عن التصاق الفتاة بها - ذلك الالتصاق الذى بدا خارقا للحد - فهى تشجعه وتحبه ولا تطيق أن تسمع عنه أية ملاحظة، بل هى تضيق بالنقد عامة وإن هان وحسن القصد فيه. من ذلك أنه لم يكن لها من عمل فى البيت غير القعود وحسو القهوة والتدخين، فإذا دعتها أمها إلى المشاركة فى عمل - لا لحاجتها إلى مساعدتها ولكن لتخلق لها ما تتسلى به عن أفكارها - امتعضت وقالت جملتها المشهورة «أف.. دعينى وشأنى». ولم تكن تسمح لنعيمة بأن تمد للعمل يدا، كأنما كانت تخاف عليها أقل حركة، ولو أمكن أن تصلى نيابة عنها لفعلت وكفتها جهد الصلاة. وكم من مرة حدثتها أمها فى هذا الشأن قائلة إن نعيمة أصبحت «عروسا» وينبغى لها أن تلم بواجبات «ست البيت» فكانت تقول لها بصوت ينم عن الضجر «ألا ترينها كالخيال؟». إن ابنتى لن تتحمل أى جهد فدعيها وشأنها، لم يعد لى من أمل فى الدنيا سواها، ولم تكن أمينة لتعيد القول. كان قلبها يتقطع حزنا عليها، وتنظر إليها فتجدها مثالا مجسما لخيبة الأمل، وترى وجهها التعيس الذى فقد كل معنى للحياة فتذهب نفسها حسرات، لذلك أشفقت من مضايقتها، ولذلك اعتادت أن تتحمل ما قد ينم عنها من جفاء فى الرد أو قسوة فى الملاحظة بصدر رحيب وعطف سمح. لم يزل الصوت يغنى «يا عشرة الماضى الجميل». وجعلت عائشة تدخن سيجارتها وتصغى إليه. هذا الغناء الذى كانت تحبه، ولا زالت تحبه، فالحزن واليأس لم يقتلا الإحساس به، بل لعلهما قوياه فى نفسها بما يردده عادة من معانى الشجن والحسرات، ولو أن شيئا فى الوجود ليس بمستطيع أن يعيد عشرة الماضى الجميل، بل إنها لتتساءل أحيانا أكان هذا الماضى حقيقة لا حلما ولا خيالا؟ إذن أين البيت العامر؟ وأين الزواج الكريم؟ وأين عثمان وأين محمد؟! وهل لا يفصلها عن ذلك الماضى إلا ثمانية أعوام؟. ولم تكن أمينة ترتاح إلى هذه الأغانى إلا فى النادر. إن فضيلة الراديو الأولى فى نظرها أنه أتاح لها سماع القرآن الكريم والأخبار، أما الأغانى فكانت تجزع عند تلقى معانيها الحزينة وتشفق على ابنتها من سماعها حتى قالت مرة لأم حنفى «أليس هذا هو النواح؟». كانت لا تنى

عن التفكير فى عائشة حتى كادت تنسى ما أخذ ينتابها هى من أعراض الضغط ومتاعبه، ولم تكن تجد فرجة إلا فى زيارة الحسين وغيره من الأولياء، وشكرا للسيد الذى لم يعد يحجر عليها فتركها تنطلق إلى بيوت الله كما تحب. لم تعد ـ هى أيضا ـ أمينة العهد الماضى. غيرها كثيرا الحزن والتوعك. وقد فقدت مع الزمان مثابرتها العجيبة على العمل وطاقتها الخارقة فى التنسيق والتنظيف والتدبير، ففيما عدا شئون السيد كمال لم تكن تعنى بشىء. عهدت بحجرة الفرن والمخزن لأم حنفى، قانعة بالإشراف وحده، وحتى الإشراف كانت تتهاون فيه. وكانت ثقتها فى أم حنفى لا حد لها، فليست هى بالغريبة عن الدار وأهلها، ثم أنها شريكة العمر ورفيقة السراء والضراء، وقد اندمجت فى الأسرة حتى صارت قطعة منها، وتمثلت بكل قلبها مسراتها وأحزانها. وساد الصمت حينا كأنما استأثر الغناء بوعيهم، حتى قالت نعيمة:

ـ لمحت فى الطريق اليوم صديقتى سلمى، كانت معى فى الابتدائية، وستتقدم العام المقبل فى امتحان البكالوريا. .

فقالت عائشة بامتعاض:

ـ لو سمح جدك لك بالاستمرار فى الدراسة لتفوقت عليها، ولكنه لم يسمح!

وفطنت أمينة لما أوحت به جملة «ولكنه لم يسمح» من الاحتجاج فقالت:

ـ جدها له آراؤه التى لا ينزل عنها، ترى أكنت ترحبين باستمرارها فى التعليم رغم ما فى ذلك من تعب وهى العزيزة الرقيقة التى لا تتحمل التعب؟ . .

فهزت عائشة رأسها دون أن تنبس، أما نعيمة فقالت بحسرة:

ـ وددت لو أتممت تعليمى، كل البنات يتعلمن اليوم كالصبيان. . فقالت أم حنفى باحتقار:

ـ يتعلمن لأنهن لا يجدن العريس، أما الجميلة مثلك. .

فهزت أمينة رأسها موافقة ثم قالت:

ـ وأنت متعلمة يا ست البنات. حائزة على الابتدائية، ماذا تريدين أكثر من ذلك؟ ولست فى حاجة إلى الوظيفة، فلندع الله أن يقويك وأن يكسو جمالك الفتان بالعافية واللحم والدهن.

فقالت عائشة بحدة:

ـ أريد لها العافية لا السمانة، السمانة من العيوب خاصة فى البنات، أمها كانت زين أيامها ولم تكن سمينة.

فابتسمت أمينة وقالت برقة:

ـ حقا أمك يا نعيمة كانت زين أيامها . .

فقالت عائشة وهى تتنهد :

ـ ثم صارت عبرة الأيام!

فغمغمت أم حنفى :

ـ ربنا يفرحك بنعيمة . .

فقالت أمينة وهى تربت على ظهر نعيمة بحنان :

ـ آمين يارب العالمين . .

وعدن إلى الصمت، وإلى سماع الصوت الجديد الذى كان يغنى «أحب اشوفك كل يوم»، وإذا بباب البيت يفتح ثم يغلق فقالت أم حنفى «سيدى الكبير» وقامت مسرعة إلى الخارج لتضىء مصباح السلم. وما لبثن أن سمعن دقات عصاه المعهودة، ثم تراءى عند مدخل الصالة فوقفن جميعا فى أدب. ووقف قليلا ينظر إليهن خلال أنفاسه المبهورة ثم قال : «مساء الخير» فرددن فى صوت واحد : «يسعد مساك»، وسبقت أمينة إلى حجرته فأضاءتها، ومضى الرجل على أثرها فى هالة من وقار الشيخوخة البيضاء. وجلس كى يسترد أنفاسه. ولم تكن الساعة قد جاوزت التاسعة مساء. ظلت أناقته كما كانت فى الماضى، فالجبة الجوخ والقفطان الشاهى والكوفية الحرير كالعهد القديم، أما هذا الرأس المرصع بالبياض، والشارب الفضى، والجسم النحيل الذى خلا من سكانه، فكانت جميعا ـ كعودته المبكرة ـ من طوارىء الزمن الجديد. ومن طوارىء هذا الزمن أيضا سلطانية اللبن الزبادى والبرتقالة اللتان أعدتا لعشائه، فلا خمر ولا مزة ولا لحوم ولا بيض، وإن بقى بريق عينيه الزرقاوين الواسعتين آية على أن رغبته فى الحياة لم تفتر ولم تهن. ومضى يخلع ملابسه بمعاونة أمينة كالمعتاد، ثم ارتدى جلبابه الصوفى وتلفع بالعباءة ولبس طاقيته ثم تربع على الكنبة. وقدمت له صينية العشاء فتناوله دون حماس، ثم قدمت له أمينة قدحا مملوءا حتى نصفه بالماء فأخذ زجاجة الدواء وسكب فى القدح ست نقط، ثم تجرعه بوجه مقطب متقزز، ثم تمتم «الحمد لله رب العالمين». طالما قال له الطبيب أن الدواء مؤقت أما «الرجيم» فدائم، وطالما حذره من الاستهتار أو الإهمال، فالضغط قد استفحل، والقلب قد تأثر به. وأجبرته التجربة على الإيمان بتعليمات الطبيب بعد أن عانى من الاستهانة بها ما عانى، فما من مرة خرج عن حده حتى تداركه الجزاء، وأخيرا أذعن لحكمه، لا يأكل ولا يشرب إلا ما يسمح به، ولا يسهر إلى ما بعد التاسعة، ولكن قلبه لم يتخل عن الأمل فى أن يسترد يوما ـ بقدرة قادر ـ صحته وأن ينعم بحياة طيبة هادئة، وإن تكن حياة الماضى قد ولت إلى الأبد. وامتدت أذنه إلى الغناء المترامى من الراديو فى ارتياح، وكانت أمينة تحدثه من مجلسها فوق الشلتة عن برد اليوم والمطر الذى انهمر فى الضحى فلم يلق إليها بالا وقال فى سرور :

ـ قيل لى أنه ستذاع الليلة بعض الأغانى القديمة . .

فابتسمت المرأة فى ترحيب إذ كانت تحب هذا اللون من الغناء ، ربما متابعة لحب السيد له أكثر من أى شيء آخر ، ولبث السرور متألقا فى عينى الرجل لحظات حتى أدركه فتور . لم يعد بمستطيع أن ينعم بشعور سار دون تحفظ ، أو دون أن ينقلب عليه فجأة فيستيقظ من حلمه مرتطما بالواقع ، الواقع يحدق به من جميع النواحى ، أما الماضى فحلم ، فيم السرور وقد ولت إلى الأبد أيام الأنس والطرب والعافية؟ وانطوى اللذيذ من المأكل والمشرب والهناء؟ وأين مسيره فى الأرض كالجمل وضحكته المجلجلة من الأعماق؟ وطلوع الفجر عليه وهو ثمل بشتى المسرات؟ اليوم يقضى عليه بأن يعود من سهرته فى التاسعة كى ينام فى العاشرة والأكل والشرب والمشى بحساب دقيق مسجل فى دفتر الطبيب ، وهكذا البيت الذى غشاه الزمن بالكآبة هو قلبه ومقامه ، وعائشة التعيسة شوكة فى جنبه لا يستطيع أن يصلح ما فسد من حياتها وهيهات أن يطمئن على حالها ، أليس قد ينكشف عنها الغد وحيدة بائسة بلا أب ولا أم؟ وما يعانيه من قلق على صحته هو المهددة بالمضاعفات وأخوف ما يخاف أن تخونه قواه فيلزم الفراش كالميت وليس بميت مثل الكثيرين من أصدقائه وأحبائه ، وهذه الأفكار التى تحوم حوله كالذباب فيستعيذ بالله من شرها ، أجل ينبغى أن يسمع الأغانى القديمة ولو لينام على الأنغام . .

ـ اتركى الراديو مفتوحا حتى لو نمت . .

فهزت رأسها بالإيجاب باسمة ,فعاد يقول متنهدا .

ـ ما أشق السلم على!

ـ استرح يا سيدى عند كل بسطة . .

ـ لكن جو السلم شديد الرطوبة ، ما ألعن هذا الشتاء . . «ثم متسائلا» . . أراهن على أنك زرت الحسين كالعادة رغم هذا البرد . .

فقالت فى حياء وارتباك :

ـ فى سبيل زيارته يهون كل صعب يا سيدى . .

ـ الحق على وحدى!

فقالت فى استرضاء :

ـ إنى أطوف بالضريح الطاهر وأدعو لك بالصحة والعافية .

ما أمس حاجته إلى صادق الدعاء ، فكل طيب يدبر عنه ، حتى الدش البارد الذى اعتاد أن ينعش به جسده كل صباح حرم عليه لخطورته ـ فيما قيل ـ على شرايينه ، وإذا صار كل طيب ضارا فليرحمنا الله . ومضى وقت قصير ثم ترامت إلى الحجرة صفقة باب البيت وهو يغلق فرفعت أمينة عينيها متمتمة «كمال» . ولم تكد تمر دقائق حتى دخل كمال

الحجرة فى معطفه الأسود الذى نم على نحافته وطوله، يتطلع إلى أبيه خلال نظارته الذهبية، وقد أضفى عليه شاربه المربع الغزير الأسود وقارا ورجولة. انحنى على يد والده مسلما فدعاه إلى الجلوس وهو يسأله كالعادة باسما:

ـ أين كنت يا أستاذ؟

وكان كمال يحب هذه اللهجة الودية اللطيفة التى لم يحظ بها إلا بعد عمر طويل، فأجاب وهو يجلس على الكنبة:

ـ كنت فى القهوة مع الأصحاب.

ترى أى نوع من الأصحاب؟ بيد أنه يبدو جادا رزينا وقورا أكثر من سنه، ثم إن أكثر لياليه تقضى فى مكتبته، شتان ما بينه وبين ياسين، وإن كان لكل آفته، وعاد يسأله باسما:

ـ أشهدت اليوم المؤتمر الوفدى؟

ـ نعم، وسمعنا خطبة مصطفى النحاس، كان يوما مشهودا.

ـ قيل لنا أنه كان حدثا عظيما ولكنى لم استطع حضوره فنزلت عن بطاقة الدعوة لأحد الأصدقاء، لم تعد الصحة تحتمل التعب..

فداخل كمال العطف وتمتم:

ـ ربنا يقويك..

ـ ألم تقع حوادث؟

ـ كلا مر اليوم بسلام، واكتفى البوليس بخلاف عادته بالمراقبة..

فهز الرجل رأسه فى ارتياح، ثم قال فى لهجة ذات معنى:

ـ نعود لموضعنا القديم، ألا زلت عند رأيك الخاطىء عن الدروس الخصوصية؟!

لم يزل يشعر بالارتباك والحرج كلما وجد نفسه مضطرا إلى إعلان مخالفته لرأى والده، فقال برقة:

ـ لقد انتهينا من هذا الموضوع!

ـ فى كل يوم يطلب إلىَّ أصدقاء أن تعطى دروسا خصوصية لأبنائهم، لا ترفض الرزق الحلال، إن الدروس الخصوصية مصدر رزق واسع للمدرسين، والذين يطلبونك من أعيان الحى..

فلم ينبس كمال بكلمة وإن نطق وجهه بالرفض المؤدب، فعاد الرجل يقول متأسفا:

ـ تأبى هذا كى تضيع وقتك فى قراءة لا نهاية لها وكتابة بلا أجر، أيصح هذا من عاقل مثلك؟

وهنا خاطبت أمينة كمال قائلة :

ـ ينبغى أن تحب المال كما تحب العلم (ثم موجهة الخطاب إلى السيد وهى تبتسم فى خيلاء) إنه كجده لا يعدل بحب العلم شيئا . .

فقال السيد متأففا :

ـ رجعنا إلى جده! يعنى كان الإمام محمد عبده؟!

ومع أنها لم تعرف شيئا عن الإمام إلا أنها قالت بحماس :

ـ لم لا يا سيدى؟! كان كل الجيران يقصدونه فى شئون دينهم ودنياهم!

فغلبت روح الفكاهة على السيد فقال ضاحكا :

ـ مثله الآن كل عشرة بقرش!

واحتج وجه المرأة دون لسانها . وابتسم كمال بعطف وارتباك ، واستأذن فى الانصراف ثم غادر الحجرة . وفى الصالة اعترضت نعيمة طريقه لتريه فستانها الجديد ، وذهبت لتجىء به ، فجلس إلى جانب عائشة ينتظر ، كان ـ كبقية أهل البيت ـ يجامل عائشة فى شخص نعيمة ولكنه إلى هذا كان معجبًا بالفتاة الحسناء اعجابه بأمها قديما وجاءت نعيمة بالفستان فبسطه على يديه وراح يتفحصه وهو يبدى الإعجاب ، وكان يتأمل صاحبة الفستان بعطف وحب . مأخوذا بجمالها البديع الهادىء الذى اكتسى من صفائها ورقتها نورانية ذات بهاء . ومضى عن المكان بقلب لا يخلو من شجن ، إن مصاحبة أسرة حتى شيخوختها لمما يحزن . ليس مما يهون أن يرى أباه فى وهنه بعد سطوة وجبروت أو يرى ذبول أمه وتواريها وراء الكبر ، أو يرى انحلال عائشة وتدهورها ، هذا الجو المشحون بنذر التعاسة والنهاية . ورقى فى السلم إلى الدور الأعلى ـ شقته كما يسميه ـ حيث يعيش منفردا بين حجرة نومه ومكتبته المطلتين على بين القصرين . وخلع ملابسه ومضى مرتديا جلبابه متلفعا بالروب إلى المكتبة ، وكانت مكونة من مكتب كبير فيما يلى المشربية وصفين من خزانات الكتب على جانبيها . وكان يريد أن يقرأ فصلا على الأقل فى كتاب «منبعا الدين والأخلاق» لبرجسون ، وأن يراجع مراجعة أخيرة مقاله الشهرى لمجلة «الفكر» الذى اتفق أن كان عن البراجمتزم . هذه السويعات الموهوبة للفلسفة . التى تمتد حتى منتصف الليل هى أسعد أوقات يومه ، وهى التى يشعر فيها ـ على حد تعبيره ـ بأنه إنسان ، أما بقية اليوم الذى ينقضى فى عمله كمدرس بمدرسة السلحدار الابتدائية أو فى إشباع شتى مطالب الحياة الضرورية ، فمداره الحيوان الكامن فيه ، المستهدف أبدا تأمين ذاته وتحقيق شهواته ، ولم يكن يحب عمله الرسمى ولا يحترمه ، ولكنه لم يعلن سخطه ، خاصة فى بيته ، أن يشمت به الشامتون . ومع ذلك فقد كان مدرسا ممتازا حائزا للتقدير ، وكان الناظر يعهد إليه ببعض النشاط المدرسى ، حتى رمى نفسه متفكها

بالعبودية، أليس هو العبد الذى يتقن العمل الذى لا يحبه. والحق أن ولعه بالتفوق الذى اعتاده منذ الصغر هو الذى دفعه إلى الاجتهاد والامتياز دفعا لا هوادة فيه. وقد صمم من بادىء الأمر على أن يكون شخصية محترمة بين التلاميذ والمدرسين فكان له ما أراد، بل كان شخصية محترمة ومحبوبة معا، رغم رأسه وأنفه العظيمين ولا شك أنه كان لهما - رأسه وأنفه - أو كان لإحساسه الأليم بهما الفضل الأول فى هذا التصميم القوى الذى خلق منه هذه الشخصية المهابة. كان يعلم بأن رأسه وأنفه سيثيران من حوله الفتن فاستل عزمه ليرد عنهما وعنه كيد العابثين. أجل لم ينج أحيانا من غمز وتعريض فى أثناء الدرس أو فى ملعب المدرسة، فكان يلقى الهجوم بحزم شديد، ثم يلطفه بعطفه المطبوع، إلى ما أثره عنه من مقدرة فى الشرح والتفهيم، وما يأخذ فيه بين آونة وأخرى من موضوعات طريفة حماسية تمس القومية أو ذكريات الثورة، كل أولئك جعله يستميل إليه «الرأى العام» بين التلاميذ، كان ذلك إلى حزمه المتوثب عند الضرورة - كفيلا بالقضاء - على الفتن فى مهدها. ولشد ما آلمه أول الأمر الغمز الجارح، ولشد ما استثار المنسى من أحزانه، بيد أنه سر آخر الأمر بالمنزلة الرفيعة التى بات يحتلها فى نفوس الصغار الذين كانوا يتطلعون إليه بإعجاب وحب وإجلال. وواجهته مشكلة أخرى تتعلق بمقالاته الشهرية فى مجلة «الفكر»، وكان يخاف هذه المرة الناظر والمدرسين أن يسألوه عما يعرض فيها من فلسفات قديمة وحديثة تنقد أحيانا العقائد والأخلاق بما لا يتفق ومسئولية «المدرس» ولكن من حسن الحظ أن أحدا من المسئولين لم يكن بين قراء «الفكر»، ثم تبين له بعد ذلك أن المجلة لا تطبع أكثر من ألف نسخة يصدر نصفها إلى البلاد العربية، فشجعه ذلك على الكتابة إليها وهو آمن على نفسه ووظيفته. وفى هذه السويعات القلائل ينقلب «مدرس اللغة الإنجليزية بالسلحدار الابتدائية» سائحا حرا يجوب أجواء لا تحد من الفكر، فيقرأ ويدون الملاحظات التى يجمعها بعد ذلك فى مقالاته الشهرية، تحثه على جهاده الرغبة فى المعرفة وحب الحقيقة وروح المغامرة النظرية والحنين إلى العزاء والتخفيف من جو الكآبة الذى يغشاه والشعور بالوحدة الذى يستكن فى أعماقه. قد يلوذ من الوحشة بوحدة الوجود عند سبينوزا، أو يتعزى عن هوان شأنه بالمشاركة فى الانتصار على الرغبة مع شوبنهور، أو يهون من إحساسه بتعاسة عائشة بجرعة من فلسفة ليبنتز فى تفسير الشر، أو يروى قلبه المتعطش إلى الحب من شاعرية برجسون، بيد أن جهاده المتواصل لم يجد فى تقليم مخالب الحيرة التى تبلغ حد العذاب، فالحقيقة معشوق ليس دون المعشوق الآدمى دلالا وتمنعا ولعبا بالعقول وإثارة للشك والغيرة مع إغراء عنيف بالتملك والوصال، وهى كالمعشوق الآدمى عرضة لأن تكون ذات وجوه وأهواء وتقلبات، ولا تخلو فى كثير من الأحايين من مكر وخداع وقسوة وكبرياء، وكان إذا ركبته الحيرة وأعياه الجهد يقول متعزيا «قد أكون معذبا حقا ولكننى حى، إنسان حى، ولن تكون حياة الإنسان الخليقة بهذا الاسم بلا ثمن!».

٢

مراجعة الدفاتر وضبط الحسابات وتسوية ميزانية اليوم السابق، كل ذلك كان أحمد عبد الجواد يؤديه على خير الوجوه وبالدقة المعهودة فيه من قديم غير أنه يؤديه اليوم بمشقة لم يكن يجدها من قبل أن يركبه العمر والمرض. وكان منظره وهو منكب على دفاتره تحت لافتة البسملة، وشاربه الفضى يكاد يختفى تحت أنفه الكبير الذى زاده ضمور الوجه ضخامة، كان ذلك المنظر مما يستحق العطف، غير أن منظر وكيله ومساعده جميل الحمزاوى الذى كان يهدف إلى السبعين كان مما يستحق الرثاء، ولم يكن يفرغ من زبون حتى يتهالك على مقعده وهو يلهث فكان أحمد يقول لنفسه فى شىء من الامتعاض «لو كنا موظفين لأغنانا المعاش فى مثل سننا من الكد والعمل!». ورفع السيد رأسه عن الدفتر وهو يقول:

ـ لا زالت الحالة متأثرة بعض الشىء بالأزمة الاقتصادية..

فارتسم الامتعاض على شفتى الحمزاوى الباهتتين وقال:

ـ بدون شك، غير أن هذا العام خير من العام السابق، والعام السابق خير من الذى قبله، الحمد لله على أى حال..

عام ١٩٣٠ وما تلاه من أعوام، تلك الفترة التى كان التجار من أصحابها يسمونها أيام الرعب. حين استبد إسماعيل صدقى بالحياة السياسية وسيطر القحط على الحياة الاقتصادية، ويقبلون الأكف وهم يتساءلون عما يخبىء لهم الغد، وقد كان من المحظوظين بغير شك لأن ضيقته لم تبلغ به الإفلاس الذى تهدده عاما بعد عام.

ـ أجل الحمد لله على أى حال..

ووجد جميل الحمزاوى يرنو إليه بنظرة غريبة، فيها تردد وحرج، ماذا عنده ياترى؟ وقام الرجل فقرب مقعده من المكتب ثم جلس وهو يبتسم فى ارتباك. وكان البرد قاسيا رغم سطوع الشمس، وكان للهواء حملات قوية ارتجت لها الأبواب والنوافذ وتعالى الصفير. قال السيد وهو يعتدل فى جلسته:

هات ما عندك، إنى موقن بأنك ستقول شيئا هاما.

فخفض الحمزاوى عينيه وقال:

ـ موقفى لا أحسد عليه، ولا أدرى كيف أتكلم..

فقال السيد مشجعا:

ـ ولكنى عاشرتك أكثر مما عاشرت أهلى فتستطيع أن تفضى إلى بكل ما فى نفسك . . .

ـ العشرة هى التى تصعب على ياسى السيد . .

العشرة؟! لم يخطر له هذا على بال . .

ـ أتريد؟ . . حقا!

قال الحمزاوى بحزن :

آن لى أن أعتزل ، الله لا يكلف نفسا إلا وسعها . .

وانقبض قلب السيد ، فاعتزال الحمزاوى للعمل ليس إلا نذيرا له بالاعتزال ، كيف ينهض بأعباء العمل فى دكانه وهو على ما هو عليه من مرض وكبر؟ ونظر إلى وكيله فى حيرة فعاد الرجل يقول متأثرا :

ـ إنى أسف جدا ، ولكنى لم أعد أطيق العمل ، ولى ذلك الزمان غير أنى دبرت الأمر فلن أتركك وحدك ، سيملأ مكانى من هو أقدر منى . . .

إن ثقته فى أمانة الحمزاوى قد رفعت عن كاهله نصف متاعبه ، فكيف يعود ابن الثالثة والستين إلى ملازمة الدكان من طلعة الشمس إلى مغيبها؟ قال :

ـ ولكن اعتزال العمل والقبوع فى البيت يسرعان بالإنسان إلى التدهور ، ألا ترى هذا فى أصحاب المعاش من الموظفين؟

فقال الحمزاوى باسما :

ـ التدهور موجود قبل الاعتزال .

وضحك السيد فجأة كأنما ليدارى الحرج الذى يشعر به مقدما قبل أن يقول له :

ـ يا عجوز يا مكار ، أنت تهجرنى تلبية لإلحاح ابنك فؤاد .

فهتف الحمزاوى متأثرا :

ـ معاذ الله ، إن حالتى الصحية لا تخفى على أحد ، وهى السبب الأول والأخير . .

من يدرى؟ فؤاد وكيل نيابة ومثله لا يرتاح لبقاء أبيه عاملا بسيطا فى دكان ولو كان صاحب الدكان هو الذى مهد له السبيل ليتبوأ مركزه فى النيابة ، ولكنه شعر بأن تصريحه قد آلم وكيله الطيب فتراجع متسائلا فى لطف :

ـ متى ينقل فؤاد إلى القاهرة؟

ـ فى صيف هذا العام أو فى صيف العام القادم على الأكثر . .

ـ ومضت فترة سكون مشحونة بالحرج حتى قال الحمزاوى مجاريا السيد فى لطفه :

ـ وإذا أقام معى فى القاهرة وجب التفكير فى تزويجه ، أليس كذلك ياسى السيد؟ إنه

ابنى الوحيد على سبع بنات، ولا بد من تزويجه، وكلما فكرت فى ذلك جرت فى خاطرى الآنسة المهذبة حفيدتك . . . .

واسترق إلى وجه السيد نظرة استطلاع ثم تمتم:

ـ لسنا قد المقام طبعا . .

فلم يسع السيد إلا أن يقول:

ـ استغفر الله يا عم جميل، نحن أخوان من قديم الزمن . .

ترى أحرضه فؤاد على جس النبض؟ وكيل نيابة شىء عظيم والعبرة فى الأصل بالطيبة، ولكن أهذا وقت التحدث فى الزواج؟

ـ حدثنى أولا أأنت مصمم على اعتزال العمل؟

وجاءه صوت من باب الدكان يقول:

ـ يا ألف صباح الخير . . .

ـ أهلا وسهلا . . (ثم وهو يشير إلى المقعد الذى أخلاه الحمزاوى) تفضلى . .

جلست زبيدة بجسم قد ترهل، ووجه قد تقنع بالأصباغ، أما الحلى فلم يعد لها أثر فى عنقها أو أذنيها أو ساعديها، ولا للجمال القديم مكان، وجعل السيد يرحب بها كعادته مع كل زائر لا أكثر، أما قلبه فلم يرتح للزيارة، فما من مرة تجيئه إلا وترهقه بالمطالب. سألها عن الصحة فأجابت وهى لا تعنى شيئا «الحمد لله» وقال لها بعد هنيهة صمت . . أهلا . . أهلا، فابتسمت شاكرة ولكن بدا أنها استشعرت الفتور الكامن فى مجاملاته. وضحكت متجاهلة الجو الذى يكتنفها. وكانت الأيام قد علمتها البرود، ثم قالت:

ـ لا أحب أن أضيع وقتك وأنت مشغول، ولكنك أنبل من عرفت فى حياتى، فإما أن تمدنى بسلفة أخرى ،وإما أن تجد لبيتى شاريا، ويا حبذا لو تكون أنت الشارى!

فقال أحمد عبد الجواد متنهدا:

ـ أنا؟! ياليت، الزمن غير الزمن يا سلطانة، طالما صارحتك بالحقيقة ولكن يبدو أنك لا تصدقين يا سلطانة . .

فضحكت ضحكة دارت بها خيبة أملها وقالت:

ـ السلطانة مفلسة، فما العمل؟

ـ فى المرة السابقة أعطيتك ما قدرت عليه، ولكن الحال لا يسمح بتكرار ذلك . .

فتساءلت فى قلق:

ـ ألا يمكن أن تجد لبيتى شاريا؟

ـ سأبحث لك عن شار . أعدك بذلك .

فقالت ممتنة :

ـ هذا ما ينتظر منك يا سيد الكرماء (ثم بلهجة حزينة) ليست الدنيا وحدها التى تغيرت ولكن الناس تغيروا أكثر ، سامح الله الناس ، فى أيام العز كانوا يستبقون إلى تقبيل حذائى ، والآن إذا لمحونى على جانب الطريق مالوا إلى الجانب الآخر .

لابد أن يتنكر للإنسان شىء ، بل أشياء ، الصحة أو الشباب أو الناس ، أما أيام العز ، أيام الأنغام والحب فأين هى ؟ !

ـ ومن ناحية أخرى فأنت يا سلطانة لم تعملى للأيام حسابها . .

فتنهدت آسفة وهى تقول :

ـ نعم ، لست كأختك جليلة التى تتاجر بالأعراض وتقتنى المال والبيوت ، وفضلا عن ذلك فقد ابتلانى الله بأولاد الحرام حتى بلغ الفجر بحسن عنبر أنه كان يبيعنى شمة الكوكايين ـ عندما ندر فى الأسواق ـ بجنيه !

ـ لعنه الله .

ـ حسن عنبر ؟ . . ألف لعنة

ـ بل الكوكايين .

ـ والله الكوكايين أرحم من الإنسان .

ـ لا . . لا ، من المحزن حقا أنك وقعت فى شره .

فقالت بتسليم وقنوط :

ـ هد حيلى وضيع مالى ، ما علينا ، متى تجد لى شاريا ؟

ـ إن شاء الله عند أول فرصة .

فقالت فى عتاب وهى تنهض :

ـ اسمع ، إذا زرتك فى المرة القادمة فابتسم من قلبك ، كل إساءة تهون إلا التى تجيئنى من ناحيتك ، أنا عارفة أنى أضايقك بمطالبى ولكنى فى ضيق لا يعلم به إلا الله ، وأنت أنبل الناس فى نظرى .

فقال لها معتذرا :

ـ لا تتوهمى ما ليس فى ، الأمر أنى كنت مشغولا بمسألة هامة عند قدومك ، وهموم التجار لا تنتهى كما تعلمين .

ـ رفع الله عنك الهموم .

فحنى رأسه شاكرا وهو يوصلها ، ثم ودعها قائلا :

ـ أهلا بك من القلب فى كل حين . .

ولمح فى عينيها نظرة خابية تفيض غما فرق لها ، وعاد إلى مجلسه منقبض الصدر فالتفت إلى جميل الحمزاوى وقال :

ـ دنيا . .

ـ كفاك شرها وأطعمك خيرها .

غير أن نبرات الحمزاوى قست وهو يستدرك قائلا :

ـ ولكنها عاقبة عادلة لامرأة مستهترة

فهز أحمد عبد الجواد رأسه هزة مقتضبة سريعة كأنما يعلن بها احتجاجا صامتا على قسوة هذه الموعظة ، ثم سأله بصوت رجع به إلى النغمة التى قطعها مجىء زبيدة :

ـ ألا تزال مصمما على رأيك فى هجرنا؟

فقال الرجل فى حرج :

ـ ليس هجرا ولكنه تقاعد وأنا آسف من كل قلبى .

ـ كلام كالذى داريت به زبيدة منذ دقيقة

ـ استغفر الله ، إنى أتكلم من قلبى ، ألا ترى يا سيدى أن الكبر يكاد يعجزنى؟

ثم دخل الدكان زبون فمضى الحمزاوى إليه ، وإذا بصوت عتيق يتعالى من الباب قائلا فى لهجة الغزل :

ـ من هذا الذى يجلس وراء المكتب كالقمر؟

بدا الشيخ متولى عبد الصمد فى جلباب خشن رث لا لون له ، ومركوب متفزز ، معصوب الرأس بتلفيعة من وبر ، مستند القامة على عكاز ، وكان يرمش بعينيه الحمراوين مسددا بصره نحو الجدار الملاصق لمكتب السيد وهو يظن أنه يسدده نحوه . . فابتسم السيد رغم همه قائلا :

ـ تعال يا شيخ متولى ، كيف حالك؟

فكشف الرجل عن فم لم يبق فيه ناب واحد وهو يهتف :

ـ يا ضغط زل ، يا صحة عودى إلى سيد الناس . .

وقام السيد فاتجه نحوه فاعتدل بصر الشيخ إليه ولكنه تراجع فى الوقت نفسه كالهارب ، ثم جعل يدور حول نفسه ، مشيرا إلى الجهات الأربع وهو يصيح «من هنا تفرج . . ومن هنا تفرج» . ثم تحول إلى الطريق قائلا :

ليس اليوم ، غدا ، أو بعد غد قل الله أعلم . .

ومشى فى خطوات واسعة لا يناسب نشاطها مظهره البالى . .

٣

يوم الجمعة رجعت الفروع إلى الأصل وعمر البيت القديم بالأبناء والأحفاد، ذلك تقليد سعيد لم ينقطعوا عنه. ولم تعد أمينة «بطلة» يوم الجمعة كما كانت قديما، فأم حنفى تبوأت المركز الأول فى المطبخ، ولم تكن أمينة تنى عن تذكير القوم بأن أم حنفى تلميذتها فإن غرامها بالثناء كان يتشجع على الإفصاح عن ذاته كلما شعرت بقلة استحقاقها له، إلى أن خديجة ـ رغم أنها فى حكم الضيفة ـ لم تقصر فى إهداء معونتها. وقبيل ذهاب السيد إلى الدكان التف به الضيوف، إبراهيم شوكت وابناه عبد المنعم وأحمد، وياسين وابناه رضوان وكريمة، يكتنفهم ذلك الخشوع الذى يجعل من ضحكهم ابتساما ومن حديثهم همسا. وكان السيد يجد فى حضورهم سرورا يزداد تعلقا به كلما تقدم به العمر، فعتب على ياسين انقطاعه عن زيارته فى الدكان اكتفاء بزيارة يوم الجمعة، ألا يريد هذا البغل ان يفهم أنه يتوق إلى رؤيته كل حين؟ وابنه رضوان جميل المحيا ذو العينين المكحولتين والبشرة الوردية الذى يعكس جماله ألوانا متنوعة تذكره مرة بياسين ومرة بهنية أم ياسين وثالثة بصديقه الحبيب محمد عفت فهذا أحب الأحفاد إلى قلبه، وكريمة أخته مصغر شابة فى الثامنة من عمرها سوف تنضج نضجا عجيبا كما تشهد عيناها السوداوان ـ عينا زنوبة أمها ـ اللتان يبسم لهما خاطره ابتسامة ندية بالحياء والذكريات. أما عبد المنعم وأحمد فحسبه أن يرى فى وجهيهما قدرا لا يستهان به من أنفه العظيم كما يرى عينى خديجة الصغيرتين، غير أنهما أجرأ من الآخرين فى مخاطبته، وكلهم ـ هؤلاء الأحفاد ـ يشقون طريق دراستهم بنجاح يدعو إلى الفخار، لكنهم يبدون مشغولين بأنفسهم عن جدهم، فمن ناحية يعزونه بأن حياته لم ولن تنقطع ومن ناحية أخرى يذكرونه بأن شخصه يتراجع رويدا عن مركز الاهتمام الذى كان يستأثر به، ولم يكن ذلك ليحزنه، فإن الإيغال بالعمر يجيء بالحكمة كما يجيء بالوهن والمرض. ولكن هيهات أن يمنع ذلك الذكريات من أن تتدفق، عندما كان مثل هؤلاء فى مطلع العمر، وعندما كان العام ١٨٩٠، وكان يتعلم قليلا ويلهو كثيرا ما بين مغانى الجمالية ومرتاد الأزبكية، وفى ركابه يجرى محمد عفت وعلى عبدالرحيم وإبراهيم الفار، وكان أبوه يملأ الدكان نفسها يزجر وحيده قليلا، ويرق له كثيرا، كان العمر صفحة مطوية مكتظة بالآمال، ثم كانت هنية.. ولكن مهلا لا ينبغى أن تستخفه الذكريات.

وقام ليصلى العصر فكان ذلك إيذانا بالانصراف، ثم ارتدى ملابسه ومضى إلى الدكان، وتجمعوا هم فى مجلس القهوة حول مجمرة الجدة، فى جو التلاقى والسمر.

احتلت الكنبة الرئيسية أمينة وعائشة ونعيمة، أما الكنبة اليمنى فجلس عليها ياسين وزنوبة وكريمة، وعلى الكنبة اليسرى قعد إبراهيم شوكت وخديجة وكمال، على حين اتخذ رضوان وعبد المنعم وأحمد مجالسهم على كراسى توسطت الصالة تحت المصباح الكهربائى. وكان ابراهيم شوكت كعادته التى لم يغيرها الزمن ينوه بألوان الطعام التى أعجبته، غير أن تنويهه اقتصر فى الفترة الأخيرة على فضل الأستاذة على تلميذتها النجيبة، وكانت زنوبة تعيد ثناءه كالصدى فإنها لم تكن تهمل فرصة يمكن أن تتودد بها إلى أحد من أهل زوجها. والحق أنها مذ فتحت لها أبواب آل زوجها وأتيحت لها مخالطتهم وهى تعمل بلباقة على توثيق علاقتها بهم، لأنها عدت ذلك اعترافا بمكانتها بعد أن انقضت أعوام وهى تعيش فى عزلة كالمنبوذة. . وكان موت وليد لياسين السبب الحقيقى فى زيارة أهله لبيته للتعزية، فصافحت يدها أيديهم لأول مرة منذ زواجها، وتشجعت بذلك فزارت السكرية ثم زارت بين القصرين عند اشتداد المرض على السيد، بل أقدمت على زيارته فى حجرته فتقابلا كشخصين جديدين لا تاريخ مشتركا بينهما. هكذا اندمجت زنوبة فى آل أحمد حتى غدت تخاطب أمينة فتقول لها يا تيزة وتنادى خديجة فتقول لها يا أختى، وبدت دائما مثالا للاحتشام، وعلى خلاف نساء الأسرة أنفسهن تجنبت التبرج خارج بيتها، حتى بدت أكبر من سنها، إذ بادر الذبول إلى جمالها قبل الأوان، فلم تصدق خديجة أبدا أنها فى السادسة والثلاثين، ولكنها استطاعت أن تفوز من الجميع بشهادة طيبة لها حتى قالت عنها أمينة يوما «لا شك أن أصلها طيب، ربما أصلها البعيد، فليكن، ولكنها بنت حلال، هى الوحيدة التى عمرت مع ياسين!».
وبدت خديجة فى شحمها ولحمها أضخم من ياسين نفسه، ولم تكن تنكر أنها سعيدة بذلك، كما كانت سعيدة بعبد المنعم وأحمد وحياتها الزوجية الموفقة عامة، بيد أنها لم تكف يوما عن التشكى اتقاء العين. وقد تغيرت معاملتها لعائشة تغيرا كليا فلم تند عنها طوال ثمانية أعوام كلمة واحدة تنم عن سخرية أو خشونة ولو على سبيل الممازحة، بل حرصت الحرص كله على الترفق بها والتودد إليها وملاطفتها، خشوعا حيال تعاستها وخوفا من الأقدار التى قضت عليها بما قضت، وإشفاقا من أن تضع المرأة المحزونة حظيهما موضع المقارنة، وقد وقفت موقفا كريما يوم حتمت على ابراهيم شوكت أن ينزل عن حقه المشروع فى ميراث أخيه المتوفى لنعيمة فآل الميراث كله لعائشة وكريمتها دون شريك. وأملت خديجة أن يذكر صنيعها فى حينه ولكن عائشة استغرقها ذهول غيب عنها كرم أختها فلم يقعد ذلك بخديجة عن غمرها بالعطف والرحمة والتسامح كأنما انقلبت أما أخرى لها، ولم تكن تطمع فى أكثر من رضائها ومودتها كى تطمئن على أسباب التوفيق التى هيأها لها الله. وأخرج إبراهيم شوكت علبة سجائره وقدمها لعائشة فتناولت سيجارة شاكرة، وتناول أخرى وراحا يدخنان كثيرا ما يكون إفراط عائشة فى

التدخين وتعاطى القهوة ملتقى ملاحظات وإن تكن تقابل منها عادة بهز الكتفين. أما أمها فتقنع بأن تقول فى لهجة الدعاء «ربنا يصبرها» وأما ياسين فكان أجرأ الأهل فى نصحها كأنما قد أهله لذلك فقد وليده، غير أن عائشة لم تكن تعده مصابا مثلها وتضن عليه بمكانة مرموقة فى دولة المبتلين إذ أن ابنه مات وهو دون العام لا كعثمان أو محمد، والواقع أن حديث المصائب كان يبدو كثيرا هوايتها المفضلة، كأنما كانت تعتز بدرجتها الممتازة فى دنيا الشقاء واستمع كمال إلى ما يدور من حديث عن المستقبل بين رضوان وعبد المنعم وأحمد فأرهف السمع باسما، وكان رضوان ياسين يقول:

ـ كلنا من القسم الأدبى، فليس أمامنا كلية جديرة بالاختيار إلا الحقوق.

فأجابه عبد المنعم إبراهيم شوكت بصوته القوى المفعم بنبرات التوكيد، وكان يهز رأسه الضخم الذى جعله أقرب الشبان شبها إلى كمال:

ـ مفهوم. . مفهوم، ولكنه لا يريد أن يفهم!.

وأومأ عند عبارته الأخيرة إلى أخيه أحمد الذى ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، فانتهز إبراهيم شوكت الفرصة وقال مشيرا إلى أحمد أيضا:

ـ ليدخل الآداب إذا شاء ولكن عليه أن يقنعنى بقيمتها، أنا أفهم الحقوق ولكننى لا أفهم الآداب!

وغض كمال بصره فيما يشبه الأسى، إذ عاودته أصداء نقاش قديم عن الحقوق والمعلمين. إنه لايزال يتنفس فى جو الآمال القديمة، بيد أن الحياة تجبهه بصدمات قاسية كل يوم، فوكيل النيابة مثلا لا يحتاج إلى تعريف أما كاتب مقالات مجلة «الفكر» فربما احتاج إلى تعريف أكثر من مقالاته الغامضة نفسها! ولم يدعه أحمد ابراهيم شوكت لحيرته فنظر إليه بعينيه الصغيرتين البارزتين وهو يقول:

ـ إنى أترك الجواب لخالى كمال. .

وابتسم ابراهيم شوكت ابتسامة يدارى بها حرجه، أما كمال فقال دون حماس:

ـ ادرس ما تشعر بأنه يوافق موهبتك.

وبدا الظفر فى وجه أحمد فردد رأسه الرشيق بين أخيه وأبيه غير أن كمال عاد يقول:

ـ ولكن ينبغى أن تعلم أن الحقوق تفتح لك مجالا من الحياة العملية الممتازة لا تستطيعه الآداب. سيكون مستقبلك إذا اخترت الآداب فى التعليم وهو مهنة شاقة ولا جاه لها. .

ـ بل سأتجه إلى العمل فى الصحافة.

ـ الصحافة! . . «صاح إبراهيم شوكت» . . إنه لا يدرى ماذا يقول.

فقال أحمد مخاطبا كمال :

ـ إن قيادة الفكر وقيادة عربة كارو شيء واحد فى أسرتنا !

فقال رضوان ياسين باسما :

ـ إن أكبر قادة الفكر فى وطننا من الحقوق . .

فقال أحمد فى كبرياء :

ـ إن الفكر الذى أعنيه شيء آخر !

فقال عبد المنعم شوكت عابسا :

ـ وهو شيء مخيف هدام ، إنى أعلم واأسفاه بما تعنى . .

وعاد ابراهيم شوكت يقول لأحمد وهو ينظر إلى الآخرين كأنما يشهدهم على ما يقول :

ـ فكر قبل أن تقدم ، إنك لازلت فى السنة الرابعة ، لن يعدو ميراثك المائة جنيه فى العام ، وإن بعض أصحابى يشكون مر الشكوى من أن ابناءهم الجامعيين لا يجدون عملا ، أو يعملون كتبة بمرتبات تافهة ، وانت حر بعد ذلك فيما تختار . .

وتدخل ياسين فى المناقشة بأن اقترح قائلا :

ـ لنسمع رأى خديجة ، إنها المدرسة الأولى لأحمد ، وهى أقدرنا على الاختيار بين الحقوق والآداب . .

وامتلأت الثغور بالابتسام ، حتى أمينة ابتسمت وهى عاكفة على كنجة القهوة ، بل حتى عائشة ابتسمت ، فتشجعت خديجة بابتسامة عائشة فقالت :

ـ سأقص عليكم قصة طريفة ، أمس بعد العصر بقليل ـ والدنيا تظلم بسرعة فى الشتاء كما تعرفون ـ كنت راجعة من الدرب الأحمر إلى السكرية ، فشعرت كأن رجلا يتبعنى ، وإذا به يمر بى تحت قبة المتولى وهو يقول «على فين يا جميل» ، فالتفت نحوه قائلة : «على البيت ياسى ياسين !» .

وضجت الصالة بالضحك . ونظرت إليه زنوبة نظرة ذات معنى تجلى فيها الانتقاد واليأس ، أما ياسين فجعل يشير للضاحكين بيده حتى عاد السكون ، ثم تساءل :

ـ أمن المعقول أن يصيبنى العمى إلى هذا الحد؟

فحذره إبراهيم شوكت قائلا :

ـ حاسب !

أما كريمة فأمسكت بيد أبيها وضحكت كأنها رغم كونها بنت ثمانية قد فهمت المقصود من قصة عمتها ، وقالت زنوبة تعليقا على الحال :

ـ شر الأمور ما يضحك .

وحدج ياسين خديجة بنظرة مغيظة وهو يقول «حفرت لى حفرة يا بنت الإيه» فقالت خديجة :

ـ إذا كان أحد فى الموجدين فى حاجة إلى الآداب فهو أنت لا أحمد ابنى المجنون!

وصدقت زنوبة على قولها ، أما رضوان فدافع عن أبيه ودعاه بالبرىء المظلوم ، وظل أحمد ينظر إلى كمال متعلقا به كالأمل ، أما عبد المنعم فكان يسترق النظر إلى نعيمة التى تبدت لصق أمها كالوردة البيضاء ، وكانت كلما شعرت بعينيه الصغيرتين تورد وجهها الشاحب الرقيق ، حتى عاد إبراهيم شوكت يقول مغيرا مجرى الحديث مخاطبا أحمد :

ـ انظر إلى الحقوق وكيف جعلت من ابن الحمزاوى وكيل نيابة قد الدنيا . . شعر كمال كأن هذا القول انتقاد مر موجه إلى شخصه ، أما عائشة فقالت لأول مرة :

ـ إنه يريد أن يخطب نعيمة .

وفى فترة الصمت التى استقبل بها الخبر قالت أمينة :

ـ أبوه فاتح جدها أمس . .

وتساءل ياسين جادا :

ـ وهل وافق أبى؟

ـ هذا سابق لأوانه .

فتساءل إبراهيم شوكت بحذر وهو ينظر إلى عائشة :

ـ وما رأى عائشة هانم؟

فقالت عائشة دون أن تنظر إلى أحد :

ـ لا أدرى . .

فقالت خديجة وهى تتفحصها بعمق :

ـ ولكنك أنت الكل فى الكل . .

وأراد كمال أن يشهد بشهادة طيبة لصديقه فقال :

ـ فؤاد شاب ممتاز حقا . .

فقال إبراهيم شوكت بحذر كالمتسائل :

أظن أهله من السوقة؟!

فقال عبد المنعم شوكت بصوته القوى :

ـ نعم ، خاله مكارى ، وخاله الآخر فران ، وعمه كاتب محامى «ثم بلهجة استدراكية ضعيفة» ولكن هذا لا ينقص من قدر الإنسان فالإنسان بنفسه لا بأهله!

وأدرك كمال أن ابن أخته يريد أن يقرر حقيقتين يؤمن بهما على تنافرهما، أولا وضاعة أصل فؤاد، وثانيا أن وضاعة الأصل لا تنقص من قدر الشخص. بل أدرك أكثر من هذا أنه يحمل فى الأولى على فؤاد وأنه يكفر فى الثانية عن حملته الظالمة مرضاة لعقيدته الدينية القوية. ومن عجب أن تقرير هاتين الحقيقتين أراحه وكفاه شر الإفصاح عنهما بنفسه، فإنه كابن أخته لم يكن يؤمن بفوارق الطبقات، وكان مثله أيضا يميل للحملة على فؤاد والحط من شأنه الذى يدرك خطورته وتفاهته هو بالقياس إليه.
والظاهر أن أمينة لم ترتح لهذه الحملة فقالت:

ـ أبوه رجل طيب، خدمنا العمر كله بأمانة وإخلاص.

فجمعت خديجة شجاعتها وقالت:

ـ ولكن ربما عاشرت نعيمة ـ لو تم هذا الزواج ـ أناسا ليسوا أهلا للمعاشرة، الأصل كل شىء..

وجاءها تأييد من حيث لم ينتظر أحد، فقالت زنوبة:

ـ صدقت، الأصل كل شىء!

واضطرب ياسين، واسترق إلى خديجة نظرة سريعة وهو يتساءل عن رجع قول زوجته فى نفسها، وتعليقها الباطنى عليه وما يستدعيه ذلك إلى خواطرها عن عالم العوالم والتخت. حتى لعن زنوبة فى سره على «قنزحتها» الفارغة واضطر أن يتكلم ليغطى على كلام زوجته، فقال:

ـ تذكروا أنكم تتحدثون عن وكيل نيابة..

فقالت خديجة متشجعة بسكوت عائشة:

ـ أبى الذى جعل منه وكيل نيابة، أموالنا نحن التى صنعته!

فقال أحمد شوكت فى سخرية نطقت بها عيناه البارزتان اللتان تذكران بالمرحوم خليل شوكت:

ـ نحن مدينون لأبيه أكثر مما هو مدين لنا!

فأشارت إليه خديجة بسبابتها وهى تقول بلهجة ملؤها الانتقاد:

ـ أنت دائما ترمينا بكلام غير مفهوم.

فقال ياسين بلهجة من يأمل فى إنهاء الموضوع:

ـ أريحوا أنفسكم فالكلمة الأخيرة لبابا..

وزعت أمينة فناجيل القهوة، واتجهت أعين الشباب إلى حيث جلست نعيمة لصق أمها. قال رضوان لنفسه: بنت لطيفة وجميلة، ليته كان فى الإمكان أن أصادقها

وأزاملها، لو مشينا فى الطريق معا لاحتار الرجال أينا الأجمل! وقال أحمد لنفسه أيضا: جميلة جدا، ولكنها كأنما هى ملزوقة فى خالتى بالغرا، ولا حظ لها من الثقافة. أما عبد المنعم فقال: جميلة وست بيت وشديدة التقوى، لا يعيبها إلا ضعفها، وحتى ضعفها جميل، خسارة فى عين فؤاد، ثم جاوز الحديث الباطنى فسألها:

ـ أنت يا نعيمة خبرينا عن رأيك؟

فتورد الوجه الشاحب، وقطبت ثم ابتسمت، وتوتر حالها وهى تمزج الابتسام بالتقطيب لتخلص منهما معا، ثم قالت فى حياء واستياء:

ـ لا رأى لى، دعنى وشأنى!..

فقال أحمد ساخرا:

ـ الحياء الكاذب...

ولكن عائشة قاطعته متسائلة:

ـ الكاذب؟!

فاستدرك قائلا:

ـ الحياء موضة قديمة، ينبغى أن تتكلمى وإلا ضاعت منك الحياة..

فقالت عائشة بمرارة:

إننا لا نعرف هذا الكلام.

فقال أحمد متشكيا دون أن يعبأ بنظرة أمه المنذرة:

ـ أراهن على أن أسرتنا متأخرة عن العصر الحديث بأربعة قرون!

فسأله عبد المنعم ساخرا:

ـ لم حددتها بأربعة؟

فقال دون اكتراث:

ـ على سبيل الرأفة!

وإذا بخديجة توجه الخطاب إلى كمال متسائلة:

ـ وأنت!.. متى تتزوج أنت؟!

بوغت كمال بالسؤال فتهرب قائلا:

ـ حديث قديم!

ـ وجديد فى الوقت نفسه، ولن نتركه حتى يجمع الله شملك على بنت الحلال..

تابعت أمينة الحديث الأخير باهتمام مضاعف، فزواج كمال أعز أمانيها، وكم رجته أن يحقق أمنيتها حتى تقر عينها بحفيد من صلب ابنها الوحيد، قالت:

ـ عرض عليه أبوه عرائس من أحسن الأسر، ولكنه يتعلل دائما بعذر أو بآخر . .

ـ أعذار واهية، كم عمرك الآن ياسى كمال؟ . .

تساءل إبراهيم شوكت ضاحكا . .

ـ ثمانية وعشرون عاما! . . فات الوقت . .

أنصتت أمينة إلى رقم العمر بدهش كأنما لا تريد أن تصدق، أما خديجة فاحتدت وهى تقول:

ـ أنت مغرم بتكبير عمرك!

أجل فهو الأخ الأصغر، فالكشف عن عمره كشف غير مباشر عن عمرها. مع أن زوجها بلغ الستين إلا أنها كانت تكره أن تذكر بأنها فى الثامنة والثلاثين، أما كمال فلم يكن يدرى ماذا يقول، ولم يكن الموضوع فى نظره مما يحسم بكلمة ,ولكنه كان يشعر دائما أنه مطالب بإيضاح موقفه فقال بلهجة المعتذر:

ـ إنى مشغول نهارى بالمدرسة وليلى بمكتبى!

فقال أحمد بحماس:

ـ حياة عظيمة يا خالى، ولكن الإنسان ينبغى مع ذلك أن يتزوج.

وقال ياسين الذى كان أعرف الجميع بكمال:

ـ أنت تتجنب الشواغل حتى لا تشغلك عن طلب «الحقيقى» ولكن الحقيقة فى هذه الشواغل، لن تعرف الحياة فى المكتبة، ولكن الحقيقة فى البيت والشارع . .

فقال كمال ممعنا فى الهرب:

ـ تعودت أن أنفق مرتبى لآخر مليم، ليس عندى مدخر، كيف أتزوج؟!

فقالت خديجة تحاصره:

ـ انو الزواج مرة وستعرف كيف تستعد له.

وقال ياسين ضاحكا:

ـ إنك تنفق مرتبك لآخر مليم حتى لا تتزوج . .

وكأنهما شىء واحد. ولكن لمَ لم يتزوج رغم استجابة الظروف ورغبة الوالدين؟ أجل مضت فترة فى ظل الحب فكان الزواج ضربا من العبث، وتبعتها فترة حل محل الحب فيها بديل هو الفكر فاستغرق الحياة بنهم، وكانت فرحة الأفراح أن يعثر على كتاب جميل أو يظفر بنشر مقالة. وقال لنفسه إن المفكر لا يتزوج وما ينبغى له. كان ينظر إلى فوق ويظن أن الزواج سيحمله على النظر إلى تحت. وكان ـ وما زال ـ يلذ له موقف المشاهد المتأمل بقدر ما ينفر من الاندماج فى ميكانيكية الحياة. وإنه ليضن بحريته كما

يضن البخيل بماله، ثم إنه لم يبق عنده من المرأة إلا شهوة تقضى، وإلى هذا كله فالشباب لم يضع هباء ما دام لا ينقضى أسبوع دون مسرات فكرية ولذات جسدية، ثم إنه حائر يداخله الشك فى كل شىء، والزواج نوع من الإيمان، قال:

ـ أريحوا أنفسكم، سأتزوج عندما أرغب فى الزواج.

فابتسمت زنوبة ابتسامة أرجعتها إلى الوراء عشرة أعوام وتساءلت:

ـ ولم لا ترغب فى الزواج؟

فقال كمال فيما يشبه الضجر:

ـ الزواج حبة وأنتم تجعلون منه قبة..

ولكنه كان يؤمن فى أعماقه بأن الزواج قبة لا حبة، وكان يساوره شعور غريب بأنه يوم يذعن للزواج فسيقضى عليه قضاء مبرما. وأنقذه من موقفه صوت أحمد وهو يقول له:

ـ آن لنا أن نصعد إلى المكتبة.

فنهض مرحبا بدعوته، ومضى خارجا وعبد المنعم وأحمد ورضوان فى أثره، وصعدوا إلى حجرة المكتب لاستعارة بعض الكتب كعادتهم كلما جاءوا إلى البيت القديم زائرين. وكان مكتب كمال يتوسط الحجرة تحت المصباح الكهربائى بين صفين من خزائن الكتب، فجلس إلى مكتبه على حين رأى الشبان يطالعون عناوين الكتب المصفوفة على الأرفف، ثم اختار عبد المنعم كتاب «محاضرات فى تاريخ الإسلام»، وجاء أحمد بكتاب «مبادىء الفلسفة»، ثم وقفوا حول مكتبه وهو يردد بصره بينهم صامتا، حتى قال أحمد متضايقا:

ـ لن أقرأ كما أحب حتى أتقن لغة أجنبية واحدة على الأقل.

وتمتم عبد المنعم وهو يقرأ صفحات كتابه:

ـ لا أحد يعرف الإسلام على حقيقته.

فقال أحمد ساخطا:

ـ أخى يتلقى حقيقة الإسلام على يد رجل شبه عامى فى خان الخليلى..

فصاح به عبد المنعم:

ـ صه يا زنديق!

ونظر كمال إلى رضوان متسائلا:

ـ وأنت ألا تريد كتابا؟

فأجاب عنه عبد المنعم:

ـ وقته مشغول بقراءة الجرائد الوفدية!

فقال رضوان وهو يومئ إلى كمال:

- فى هذا يتفق معى عمى!

عمه لا يؤمن بشىء ورغم ذلك فهو وفدى! .كما أنه يشك فى الحقيقة عامة، ورغم ذلك فهو يتعامل مع الناس والواقع. تساءل وهو يردد عينيه بين عبد المنعم وأحمد:

- وأنتما وفديان كذلك فما وجه الغرابة؟ وكل وطنى فهو وفدى، أليس كذلك؟

فقال عبد المنعم بصوته اليقينى:

- الوفد أفضل الأحزاب بلا ريب، ولكنه فى ذاته لم يعد مقنعا كل الإقناع..

فقال أحمد ضاحكا:

- إنى أوافق أخى على رأيه هذا، أو بالأحرى لا أوافقه على رأى إلا هذا، وربما اختلفنا فى درجة الإقناع الخاصة بالوفد، أكثر من ذلك فإن الوطنية نفسها يجب أن تكون موضع استفهام، أجل إن الاستقلال فوق كل نزاع، أما معنى الوطنية بعد ذلك فينبغى أن يتطور حتى يفنى فى معنى أشمل وأسمى، وليس ببعيد أن ننظر فى المستقبل إلى شهداء الوطنية كما ننظر الآن إلى ضحايا المعارك الحمقاء التى تنشب بين القبائل والأسر!

معارك حمقاء يا أحمق! فهمى لم يستشهد فى معركة حمقاء، ولكن أين وجه اليقين؟ ورغم خواطره قال بحدة:

- أى قتيل فى سبيل شىء فوق نفسه فهو شهيد، وقد تتغير قيم الأشياء أما موقف الإنسان منها فهو قيمة لا تتغير..

وغادروا حجرة المكتب ورضوان يقول مخاطبا عبد المنعم ردا على ملاحظة له:

- السياسة أخطر وظيفة فى المجتمع..

ولما عادوا إلى مجلس القهوة كان إبراهيم شوكت يقول لياسين:

- وهكذا فنحن نربى ونوجه وننصح ولكن كل ولد يندمج فى مكتبة، وهى عالم مستقل عنا، يزحمنا فيه أناس غرباء، لا ندرى عنهم شيئا فما عسى أن نصنع؟!

٤

كان الترام مكتظا حتى لم يعد به موضع لواقف، وقد انحشر كمال بين الواقفين وكأنه يطل عليهم بقامته الطويلة النحيلة. كانوا مثله - فيما بدا له - يقصدون مكان الاحتفال بالعيد الوطنى - عيد ١٣ نوفمبر - فردد عينيه فى الوجوه مستطلعا ومرحبا.

والحق أنه يشارك فى هذه الأعياد كأشد المؤمنين بها وإن آمن فى الوقت نفسه بألا إيمان له. وكان الناس يتحادثون معلقين على الموقف دون سابق تعارف مكتفين بوحدة الهدف وبرابطة «الوفدية» التى ألفت بين قلوبهم، قال أحدهم:

ـ عيد الجهاد هذا العام عيد جهاد بكل معنى الكلمة، أو هذا ما يجب أن يكون..

فقال آخر:

ـ يجب أن يرد فيه على هور وتصريحه المشئوم.

وثار ثالث لذكر هور فصاح:

ـ ابن الكلب قال: نصحنا بأن لا يعاد دستور ١٩٢٣، ولا دستور ١٩٣٠، ما شأنه هو ودستورنا؟

فأجابه رابع:

ـ لا تنس أنه قال أنه قال قبل ذلك: «على أننا عندما استشارونا نصحنا» الخ..

ـ أجل، من الذين استشاروه؟

ـ سل عن ذلك حكومة القوادين!.

ـ توفيق نسيم.. كفى! أنسيتموه؟ ولكن لماذا هادنه الوفد؟!

ـ لكل شىء نهاية، انتظروا خطبة اليوم.

أصغى كمال إليهم، بل اشترك فى حديثهم، وأعجب من هذا! أنه لم يكن من دونهم حماسا، وكان هذا ثامن عيد جهاد يشهده .وكان كالآخرين قد امتلأ بمرارة التجارب السياسية التى خلفتها الأعوام السابقة. أجل «لقد عاصرت عهد محمد محمود الذى عطل الدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد واغتصب حرية الشعب فى نظير وعده له بتجفيف البرك والمستنقعات! كما عشت سنين الإرهاب التى فرضها إسماعيل صدقى على البلاد، كان الشعب يثق فى قوم ويريدهم حكاما له ولكنه يجد فوق رأسه دائما أولئك الجلادين البغضاء، تحميهم هراوات الكونستبلات الإنجليز ورصاصهم، وسرعان ما يقولون له بلغة أو بأخرى أنت شعب قاصر ونحن الأوصياء، والشعب يخوض المعارك دون توقف فيخرج من كل وهو يلهث، حتى اتخذ فى النهاية موقفا، سلبيا شعاره الصبر والسخرية، فخلا الميدان إلا من الوفديين من ناحية والطغاة من ناحية أخرى، وقنع الشعب بمجلس المتفرج وراح يشجع رجاله فى همس دون أن يمد لهم يدا». إن قلبه لا يستطيع أن يتجاهل حياة الشعب، إنه يخفق معه دائما، رغم عقله التائه فى ضباب الشك. غادر الترام عند شارع سعد زغلول، وسار فى طابور غير منتظم نحو سرادق الاحتفال المقام فى جوار بيت الأمة، تقابلهم بين كل عشرة أمتار مجموعة من الجنود تحت رياسة كونستابل إنجليزى تنطق وجوههم بالصرامة والبلادة. والتقى قبيل السرادق بعبد

المنعم وأحمد ورضوان وشاب لا يعرفه وقد وقفوا معا يتحادثون ، فأقبلوا نحوه مسلمين ولبثوا معه بعض الوقت . منذ شهر تقريبا ورضوان وعبد المنعم بين طلبة الحقوق أما أحمد فقد انتقل إلى السنة النهائية بالثانوى ، وإنه ليراهم فى الطريق «رجالا» بخلاف ما يراهم فى البيت فليسوا إلا أبناء أخته وأخيه . وما أجمل رضوان! كذلك جميل صاحبه الذى قدمه إليه باسم حلمى عزت وقد صدق من قال إن الطيور على أشكالها تقع . وكان أحمد يسره ، وينتظر منه دائما قولا غريبا ممتعا أو سلوكا لا يقل عنه غرابة ، إنه أقرب الجميع إلى روحه ، أما عبد المنعم فما أشبهه به لولا ميله إلى القصر والامتلاء ، لذلك فحسب يحبه ، أما يقينه وتعصبه فما أرذلهما! وأقبل على السرادق الضخم ، وألقى نظرة شاملة على الجموع الحاشدة ، مسرورا بكثرتها الهائلة ، وتطلع مليا إلى المنصة التى سيعلو عندها عما قليل صوت الشعب ، ثم اتخذ مجلسه . إن وجوده فى مثل هذا الجمع الحاشد يطلق من أعماق ذاته الغارقة فى الوحدة شخصا جديدا ينتفض حياة وحماسا . هنا ينحبس العقل فى قمقم إلى حين وتنطلق قوى النفس المكبوتة طامحة إلى حياة مفعمة بالعواطف والأحاسيس دافعة إلى الكفاح والأمل ، وعند ذاك تتجدد حياته وتنبعث غرائزه وتتبدد وحشته ويتصل ما بينه وبين الناس فيشارك فى حياتهم ويعتنق آمالهم وآلامهم . إنه بطبعه لا يطيق أن يتخذ من هذه الحياة حياة ثابتة له ولكن لا بد منها بين حين وآخر حتى لا ينقطع ما بينه وبين الحياة اليومية ، حياة الناس ، فلتؤجل مشكلات المادة والروح والطبيعة وما وراء الطبيعة ، وليمتلىء اهتماما بما يحب هؤلاء الناس وما يكرهون ، بالدستور . . بالأزمة الاقتصادية . . بالموقف السياسى . . بالقضية الوطنية . لذلك لم يكن عجيبا أن يهتف «الوفد عقيدة الأمة» غداة ليل قضاه فى تأمل عبث الوجود وقبض الريح ، والعقل يحرم صاحبه نعمة الراحة ، فهو يعشق الحقيقة ويهوى النزاهة ويتطلع إلى التسامح ويرتطم بالشك ويشقى فى نزاعه الدائم مع الغرائز والانفعالات ، فلا بد من ساعة يأوى فيها المتعب إلى حضن الجماعة ليجدد دماءه ويستمد حرارة وشبابا . فى المكتبة أصدقاء قليلون ممتازون ، مثل دارون وبرجسون ورسل فى هذا السرادق آلاف من الأصدقاء ، يبدون بلا عقول ، ولكن يتمثل فى مجتمعهم شرف الغرائز الواعية ، وليسوا فى النهاية دون الأول خلقا للحوادث وصنعا للتاريخ . فى هذه الحياة السياسية يحب ويكره ويرضى ويغضب ويبدو كل شىء ولا قيمة له . وكلما واجه هذا التناقض فى حياته زعزعه القلق . ولكن ليس ثمة موضع فى حياته يخلو من تناقض وبالتالى من قلق . لذلك شد ما يحن قلبه إلى تحقيق وحده منسجمة تتسم بالكمال والسعادة ، ولكن أين هذه الوحدة؟! ويشعر بأن الحياة العقلية لا مفر منها ما دام به عقل ، يفكر فلا يقعده ذلك عن التطلع إلى الحياة الأخرى تدفعه كافة القوى المعطلة المكبوتة ، فهى صخرة النجاة . فلعله لذلك بدا هذا الجمع رائعا ، وكلما ازداد كثرة ازداد روعة . وها هو القلب ينتظر ظهور الزعماء

بنفس الحرارة واللهفة كالآخرين. وقد جلس عبد المنعم وأحمد على مقعدين متجاورين، أما رضوان وصاحبه حلمى عزت فيسيران فى الممر الذى يشق السرادق ذهابا وجيئة أو يقفان عند المدخل يتبادلان الحديث مع بعض المشرفين على الاحتفال فيالهما من شابين ذوى نفوذ!. وكانت همسات القوم تتجمع فتحدث لغطا عاما أما الأركان التى احتلها الشباب فعلا ضجيجها وتخللته الهتافات، ثم ترامى هتاف قوى ذو دلالة من الخارج فتطلعت الرءوس إلى مدخل السرادق الخلفى، ثم هبوا واقفين، وتعالى هتاف يصم الآذان، ثم لاح مصطفى النحاس فوق المنصة وهو يحيى الألوف بابتسامة وضيئة ويدين قويتين. وتطلع إليه بعينين اختفت منهما نظرة الشك إلى حين، وكان يتساءل كيف أومن بهذا الرجل بعد أن فقدت الإيمان بكل شىء؟ ألأنه رمز الاستقلال والديموقراطية؟! مهما يكن من أمر فإن التجاوب الحار المتبادل بين الرجل والشعب ظاهرة جديرة بالنظر، وهى بلا شك قوة خطيرة تلعب دورها التاريخى فى بناء القومية المصرية. وتشبع الجو بالحماس والحرارة، وتعب المشرفون عل الحفل حتى نشروا السكون فى الأركان، كى يسمع الناس المقرىء وهو يتلو ما تيسر من القرآن مرددا فيما يتلو «يا أيها النبى حرِّض المؤمنين على القتال»، وكان الناس ينتظرون هذا النداء فتعالى الهتاف والتصفيق حتى احتج بعض المتزمتين وطالبوا بالصمت احتراما لكتاب الله. وأثار قولهم فى نفسه ذكريات قديمة يوم كان يعد واحدا من هؤلاء المتزمتين فارتسمت على شفتيه ابتسامة ما واستشعر من توه عالمه الخاص الحافل بالمتناقضات الذى يبدو من تعارض متناقضاته وكأنه فراغ. ووقف الزعيم وراح يلقى خطابه. ألقاه بصوت رنان وبيان نافذ فاستغرق إلقاؤه ساعتين، ثم ختمه جاهرا فى عنف سافر بالدعوة إلى الثورة، وبلغ الحماس من القوم مداه فوقفوا على المقاعد، وجعلوا يهتفون بحماس جنونى. ولم يكن دونهم حماسا وهتافا، نسى أنه مدرس مطالب بالوقار وخيل إليه أنه رجع إلى الأيام المجيدة التى سمع عنها وحال عمره دون الاشتراك فيها. أكانت الخطب تلقى بهذه القوة؟ أكان الناس يتلقونها بمثل هذا الحماس؟

أكان الموت لذلك يهون؟ من مثل هذا الموقف بدأ فهمى دون ريب، ثم اندفع إلى الموت، إلى الخلود أم إلى الفناء؟! أمن الممكن أن يستشهد رجل فى مثل حاله من الشك؟ لعل الوطنية ـ كالحب ـ من القوى التى نذعن لها وإن لم نؤمن بها!..

إن فورة الحماس عالية، الهتافات حارة متوعدة، المقاعد ترتج بمن فوقها، فما الخطوة التالية؟ ما يدرى إلا والجموع تتجه نحو الخارج. وغادر موضعه وهو يلقى نظرة عامة باحثا عن شباب أسرته ولكنه لم يعثر لهم على أثر. وغادر السرادق من الباب الجانبى، ثم سار مستهدفا شارع قصر العينى فى خطوات سريعة حتى يسبق الجموع. ومر فى طريقه ببيت الأمة وكان كلما مر به يعلق به بصره وردد عينيه بين الشرفة التاريخية والفناء

الذى شهد أجلّ الذكريات الوطنية، اجل لهذا البيت مثل السحر فى نفسه، فها هنا كان يقف سعد، وها هنا كان يقف فهمى وأقرانه، وفى هذا الطريق الذى يسير فيه الآن كان ينطلق الرصاص ليستقر فى صدور الشهداء، إن قومه فى حاجة إلى الثورة ليقاوموا موجات الطغيان التى تترصد سبيل نهضتهم، فى حاجة إلى ثورات دورية تكون بمثابة التطعيم ضد الأمراض الخبيثة، والحق أن الاستبداد هو مرضهم المتوطن. هكذا نجح اشتراكه فى العيد الوطنى فى تجديد نفسه فلم يكن يهمه فى تلك اللحظة إلا أن تجيب مصر على تصريح هور إجابة حاسمة كاللكمة القاضية. وانتصبت قامته النحيلة الطويلة، وارتفع رأسه الكبير، واشتد وقع خطاه وهو يتقدم أمام الجامعة الأمريكية متخيلا أمورا جليلة وفعالا خطيرة. حتى المدرس ينبغى أن يثور أحيانا مع تلاميذه. وابتسم فيما يشبه الكآبة. . مدرس كبير الرأس مقضى عليه بأن يعلم مبادئ الإنجليزية ـ المبادئ فحسب ـ رغم أنه يطَّلع بها على أسرار وأسرار، يحتل جسمه من مزدحم الأرض موضعا ضئيلا أما خياله فيضطرب فى الدوامة التى تحيط بمغالق الطبيعة. يسأل فى الصباح عن معنى كلمة وهجاء أخرى ويتساءل بالليل عن معنى وجوده ذلك اللغز القائم بين لغزين، وفى الصباح أيضا يضطرم فؤاده بالثورة على الإنجليز وفى الليل تدعوه الأخوة العامة المعذبة ـ أخوته لبنى الإنسان ـ للتعاون أمام لغز القضاء. وهز رأسه فى شىء من العنف كأنما ليطرد عنه هذه الخيالات، وقد ترامت إلى مسامعه أصوات الهتاف وهو يقترب من ميدان الإسماعيلية فأدرك أن المتظاهرين قد وصلوا إلى شارع قصر العينى، ودعاه الشعور بالنضال الذى يعمر صدره إلى التوقف لعله يشترك على نحو ما فى مظاهرة ١٣ نوفمبر. شد ما طال بالوطن موقف الصابر الذى يتلقى الضربات. اليوم توفيق نسيم وأمس إسماعيل صدقى وأول أمس محمد محمود، تلك السلسلة المشئومة من الطغاة الى تمتد إلى ما قبل التاريخ، كل ابن كلب غرَّته قوته يزعم لنا أنه الوصىّ المختار وأن الشعب قاصر.

مهلا! . . إن المظاهرة تغلى وتفور، ولكن ما هذا؟! التفت كمال إلى الوراء فى اضطراب. سمع صوتا اهتز له قلبه، وأنصت فى انتباه فصك الصوت مسامعه مرة أخرى. إنه الرصاص. ورأى المتظاهرين عن بعد يضطربون فى دوامة خطيرة لا يتضح له أمرها، ولكن جماعات كانوا يهرعون نحو الميدان، وآخرين إلى الشوارع الجانبية، وكثير من الكونستبلات الإنجليز فوق الجياد ينهبون الأرض. وعلا الهتاف واختلط بأصوات الغضب والصراخ واشتد انطلاق الرصاص. وخفق قلبه وتساءلت دقاته عن عبد المنعم وأحمد ورضوان، وامتلأ اضطرابا وغضبا، وتلفت يمنة ويسرة فرأى قهوة غير بعيد على الناصية فاتجه إليها ـ وقد أغلق بابها نصف إغلاق ـ وما إن مرق منها حتى تذكر دكان البسبوسة بالحسين حيث سمع طلقات الرصاص لأول مرة، وشاع الاضطراب فى كل

مكان. وانطلق الرصاص فى غزارة مخيفة ثم متقطعا. وتراكمت أصوات كسر زجاج وصهيل خيل، وعلت أصوات مزمجرة دلت على أن تجمعات ثائرة تنتقل من مكان إلى مكان بسرعة خاطفة. ودخل المشرب شيخ وقال قبل أن يسأله أحد عما وراءه: إن رصاص الكونستبلات ينهال على الطلبة والله أعلم بعدد الضحايا، ثم جلس وهو يلهث وعاد يقول بصوت متهدج: «غدروا بالأبرياء غدرا، لو كان تفريق المظاهرة غايتهم لأطلقوا الرصاص فى الهواء من مواقعهم البعيدة، ولكنهم سايروا المظاهرة فى هدوء مصطنع، وجعلوا يوزعون أنفسهم على مخارج الطريق، وفجأة أشهروا المسدسات وأطلقوا الرصاص، على المقاتل أطلقوا بلا رحمة، وسقط الصغار يتخبطون فى دمهم، الإنجليز وحوش ولكن الجنود المصريين ليسوا دونهم وحشية، إنها مذبحة مدبرة يا إلهى!» وجاء صوت من آخر المقهى يقول «كان قلبى يحدثنى بأن اليوم لن يمضى على خير»، فأجاب آخر: «أيام تنذر بالشر، فمنذ أعلن هور تصريحه والناس تتوقع أحداثا خطيرة، هذه معركة وستتلوها معارك، وأؤكد لكم هذا!».

ـ الضحايا الطلبة دائما، أعز أبناء الأمة، وا أسفاه!..

ـ ولكن الضرب سكت أليس كذلك؟! وأنصتوا..

ـ المظاهرة الأصلية عند بيت الأمة، وسيستمر الضرب هنالك ساعات طويلة!..

ولكن الصمت ساد الميدان، ومضى الوقت ثقيلا مشحونا بالتوتر، وأخذت الظلمة تدنو حتى أضيئت انوار المقهى ثم لم يعد يسمع صوت كأنما حل بالميدان والشوارع المحيطة به الموت، وفتح باب المقهى على مصراعيه فتراءى الميدان خاليا من المارة والمركبات. ثم جاء طابور من فرسان البوليس ذوى الخوذات الفولاذية فطاف بالميدان يتقدمه الرؤساء الإنجليز. وكان باطن كمال لا يكف عن التساؤل عن مصير الأبناء. ولما دبت الحركة فى الميدان غادر المقهى متعجلا، ولم يعد إلى بيته حتى مر بالسكرية وقصر الشوق واطمأن على عبد المنعم أحمد ورضوان.

وخلا إلى نفسه فى مكتبته بقلب مليء بالحزن والأسى والغضب، لم يقرأ كلمة ولم يكتب كلمة وظل عقله غائبا فى منطقة بيت الأمة، فى هور والخطبة الثائرة والهتاف الوطنى وأزيز الرصاص وصرخات الضحايا، ووجد نفسه يحاول أن يتذكر اسم صاحب دكان البسبوسة التى اختبأ بها قديما ولكن الذاكرة لم تسعفه!

٥

كان منظر بيت محمد عفت بالجمالية من المناظر المألوفة المحبوبة لدى أحمد عبد الجواد. هذه البوابة الخشبية التى تبدو من الخارج كأنها مدخل وكالة قديمة، وذلك السور العالى الذى يخفى ما وراءه خلا رءوس الأشجار العالية، أما هذه الحديقة المظللة بأشجار التوت والجميز والمهندسة بأشجار الحناء والليمون والفل والياسمين فشأنها عجيب، وعجيب أيضا بركة المياه التى تتوسطها، ثم الفراندا الخشبية التى تمتد بعرض الحديقة. وكان محمد عفت واقفا على سلم الفراندا ينتظر القادم وهو يحبك عباءته المنزلية، أما على عبد الرحيم وإبراهيم الفار فقد جلسا على كرسيين متجاورين. وسلَّم أحمد على الإخوان ثم تبع محمد عفت إلى الكنبة التى تتوسط الفراندا وجلسا معا. وكانت بدانتهم قد زايلتهم جميعا فيما عدا محمد عفت الذى بدا مترهلا كما بدا وجهه شديد الاحمرار، وقد صلع على عبد الرحيم واشتعلت رءوس الآخرين شيبا، وانتشرت فى صفحات الوجوه التجاعيد، وبدا على عبد الرحيم وإبراهيم الفار أشد إذعانا للكبر، غير أن حمرة وجه محمد عفت كانت بالاحتقان أشبه، وبقى أحمد رغم ضموره وشيبه جميلا صافيا. وكان أحمد يحب هذا المجلس حبا جما، كما يحب منظر الحديقة التى تترامى حتى السور العالى المشرف على الجمالية، وقد مال برأسه إلى الوراء قليلا كأنما ليمكن أنفه العظيم من الارتواء بعبير الفل والياسمين والحناء، وربما أغمض عينيه أحيانا ليخلص لسماع زقزقة العصافير اللاهية فوق أغصان التوت والجميز. غير أن أنبل ما خالط قلبه فى تلك اللحظة كان شعور الأخوة والصداقة الذى كان يكنه لهؤلاء الرجال. كان يرنو بعينيه الزرقاوين الواسعتين إلى وجوههم الحبيبة التى نكرها الكبر فيفيض قلبه بالأسى والحنان عليهم وعلى نفسه، وكان أشدهم تعلقا بالماضى وذكرياته، يفتنه كل ما يذكر بجمال الشباب وصبوة العواطف ومغامرات الفتوة. وقام إبراهيم الفار إلى خوان قريب وضع عليه صندوق النرد فجاء به وهو يتساءل:

ـ من يلاعبنى؟

فقال أحمد مستنكرا وكان قليلا ما يشترك فى ألعابهم:

ـ أجل اللعب إلى حين، لا يجوز أن نشغل به عن أنفسنا من أول الجلسة.

فأعاد الفار الصندوق إلى مكانه، ثم جاء نوبى بصينية عليها ثلاثة أقداح شاى وكأس ويسكى بالصودا فتناول محمد عفت الكأس باسما وتناول الثلاثة الآخرون أقداح الشاى

وكان هذا التوزيع الذى يتكرر كل مساء كثيراً ما يضحكهم، فقال محمد عفت وهو يلوح بالكأس فى يده ويشير إلى أقداح الشاى فى أيديهم:

ـ عفا الله عن الأيام التى أدبتكم!

فقال أحمد عبد الجواد متنهدا:

ـ إنها أدبتنا جميعا، وأنت أولنا، غير أنك قليل الأدب..

وكان صدر إليهم أمر طبى واحد فى أوقات متقاربة من عام واحد بالامتناع عن تناول الخمر، غير أن طبيب محمد عفت سمح له بكأس واحدة فى اليوم، وظن أحمد عبد الجواد يومذاك أن طبيب صديقه يتسامح فيما يتشدد فيه طبيبه هو، فما كان منه إلا أن عرض نفسه عليه ولكت الطبيب حذره فى جد وحزم قائلا:

«إن حالتك غير حالة صديقك»، وقد افتضح أمر سعيه إلى طبيب محمد عفت فكان موضع نقاش وتندر طويلين. وعاد أحمد يقول ضاحكا:

ـ لا شك أنك نفحت طبيبك برشوة كبيرة حتى سمح لك بهذه الكأس!

فقال الفار متأوها وهو يرنو إلى الكأس بيد محمد عفت:

ـ كدت والله أنسى نشوتها!

فقال له على عبد الرحيم ممازحا:

ـ فسدت توبتك بهذا القول يا عربيد.

فاستغفر الفار ربه ثم تمتم فى استسلام:

ـ الحمد لله..

ـ بتنا نحسد على كأس واحدة!.. أين.. أين النشوات؟!

فقال أحمد عبد الجواد ضاحكا:

ـ إذا ندمتم فاندموا على الشر لا على الخير يا أولاد الكلب!

ـ إنك كسائر الوعاظ، ألسنتهم فى دنيا وقلوبهم فى دنيا أخرى..

وإذا بعلى عبد الرحيم يقول رافعا صوته إلى درجة جديدة منذرة بتغيير مجرى الحديث:

ـ يا رجال! ما رأيكم فى مصطفى النحاس؟! الرجل الذى لم تؤثر فيه دموع الملك الشيخ المريض فأبى أن ينسى ثانية واحدة مطلبه الأسمى «دستور سنة ١٩٢٣»..

ففرقع محمد عفت بأصابعه وقال فى سرور:

ـ برافو.. برافو!.. إنه أصلب من سعد زغلول نفسه، من كان يرى الملك الجبار مريضا باكيا ثم يصمد أمامه بهذه الشجاعة النادرة ويردد فى ثبات صوت الأمة التى

أولته زعامتها قائلا : «دستور سنة ١٩٢٣ أولا» وهكذا عاد الدستور ، فمن كان يتصور ذلك؟

فقال إبراهيم الفار وهو يهز رأسه فى عجب :

ـ تصوروا هذا المنظر ، الملك فؤاد وقد حطمه المرض والشيخوخة ، يضع يده على كتف مصطفى النحاس فى مودة بالغة! ثم يدعوه إلى تأليف وزارة ائتلافية فلا يتأثر النحاس لذلك كله ، ولا ينسى واجبه كزعيم أمين ، يغفل لحظة واحدة عن الدستور الذى توشك الدموع الملكية أن تغطى عليه ، لا يتأثر لشىء من هذا ويقول بشجاعة وصلابة : دستور سنة ١٩٢٣ أولا يا مولاى .

على عبد الرحيم محاكيا نفس اللهجة :

ـ أو الخازوق أولا يا مولاى .

أحمد عبد الجواد ضاحكا :

ـ قسما بمن جرت مقاديره بأن نرى الويسكى بيننا ونتجنبه إنه لموقف عظيم .

وشرب محمد عفت بقية كأسه ثم قال :

ـ نحن فى عام ١٩٣٥ ، ثمانى سنوات مرت على موت سعد ، وخمسة عشر عاما على الثورة ، ولا يزال الإنجليز فى كل مكان ، فى الثكنات والبوليس والجيش وشتى الوزارات ، الامتيازات الأجنبية التى تجعل من كل ابن لبؤة سيداً مهابا ما زالت قائمة ، ينبغى أن تنتهى هذه الحال المؤسفة . .

ـ ولا تنس الجلادين أمثال إسماعيل صدقى ومحمد محمود والإبراشى .

ـ إذا ذهب الإنجليز فلن يبقى لأحد من هؤلاء شأن ، ستصبح الانقلابات فى خبر كان . .

ـ نعم ، وإذا فكر الملك أن يلعب بذيله فلن يجد من يسانده!

وعاد محمد عفت يقول :

ـ سيجد الملك نفسه بين اثنتين فإما احترام الدستور وإما السلام عليكم!

وتساءل إبراهيم الفار فيما يشبه الشك :

ـ وهل يتخلى عنه الإنجليز إذا طلب حمايتهم؟

ـ إذا سلَّم الإنجليز بالجلاء فلماذا يحمون الملك؟

فتساءل الفار مرة أخرى :

ـ وهل يسلم الإنجليز بالجلاء حقا؟

قال محمد عفت فى ثقة من يعتز بثقافته السياسية :

ـ لقد دهمونا بتصريح هور فكانت المظاهرات، وكان الشهداء رحمة الله عليهم، ثم كانت الدعوة إلى الائتلاف، ثم عاد دستور سنة ١٩٢٣، أؤكد لكم أن الإنجليز راغبون الآن فى المفاوضة، حقا إن الإنسان لا يدرى كيف تنكشف هذه الغمة، كيف يمكن أن يذهب الإنجليز أو ينتهى نفوذ الخواجات، ولكن ثقتنا فى مصطفى النحاس لا نهاية لها . .

ـ ثلاثة وخمسون عاما من الاحتلال تنتهى بشوية كلام حول مائدة؟

ـ كلام قد سبق بدم زكى مسفوح . .

ـ ولو . .

فقال محمد عفت وهو يغمز بعينه :

ـ سيجدون أنفسهم فى مركز حرج وسط حالة دولية خطيرة .

ـ يستطيعون أن يجدوا دائما من يؤمن ظهرهم، وإسماعيل صدقى حى لم يمت! . .

فعاد محمد عفت يقول بلهجة العارف :

ـ حادثت كثيرين من المطلعين فوجدتهم متفائلين، يقولون إن العالم مهدد بحرب طاحنة، وإن مصر فى فوهة المدفع، وإن من صالح الطرفين الاتفاق المشرف . .

ثم واصل حديثه بعد أن مسح على كرشه فى ثقة واطمئنان :

ـ إليكم خبراً هامًا، وعدت بأن أرشح فى دائرة الجمالية فى الانتخابات القادمة، وعدنى النقراشى نفسه .

وتهللت وجوه الأصدقاء سروراً، ثم لما جاء دور التعليق قال على عبد الرحيم متصنعًا الجد :

ـ لا يعيب الوفد إلا أنه يرشح حيوانات أحيانًا باسم نواب!

فقال أحمد عبد الجواد كأنما يدافع عن عيب الوفد :

ـ وماذا يفعل الوفد! إنه يريد أن يمثل الأمة كلها، أبناء حلال وأبناء سفلة، فمن يمثل أولاد السفلة إلا الحيوانات؟!

فلكزه محمد عفت فى جنبه وهو يقول :

ـ عجوز وقارح، أنت وجليلة شخص واحد، كلاكما عجوز وقارح! . .

ـ إنى أرضى لو رشحوا جليلة، فهى عند اللزوم قد تفرش الملاية للملك نفسه!

وهنا قال على عبد الرحيم باسمًا :

ـ قابلتها أول أمس أمام عطفتها، مازالت كالمحمل ولكن الكبر أكل عليها وبال!

فقال الفار :

ـ صارت معلمة قد الدنيا ، بيتها شغال ليل نهار ، ويموت الزمار وصباعه بيلعب .

فضحك على عبد الرحيم طويلاً ثم قال :

ـ كنت ماراً أمام باب بيتها فرأيت رجلا يتسلل إليه وهو يظن أنه بمأمن من الرقباء ، فمن تظنونه كان؟ . . (ثم أجاب وهو يغمز بعينه صوب أحمد عبد الجواد) . . المحروس كمال أفندى أحمد خوجة مدرسة السلحدار ! . .

ضحك محمد عفت والفار ضحكة عالية ، أما أحمد عبد الجواد فقد اتسعت عيناه دهشًا وانزعاجًا ، ثم تساءل فى ذهول :

ـ كمال ابنى؟ ! . .

ـ أى نعم ، كان ملتفًا فى معطفه ، وعلى عينه نظارته الذهبية ، وشاربه الغليظ يختال وقارًا ، كان يسير فى رزانة ومهابة كأنما ليس هو ابن «ضحكجى أغا» ، وبنفس الوقار انعطف إلى البيت كأنما ينعطف إلى الجامع الحرام ، فقلت فى نفس خفف الوطء يا بن المركوب !

وعلا الضحك ، أما أحمد عبد الجواد فلم يكن أفاق من ذهوله ولكنه رأى أن يتخفف منه بالمشاركة فى الضحك . وتساءل محمد عفت بلهجة ذات مغزى وهو يحدق فى وجه أحمد :

ـ ما وجه العجب فى ذلك أليس هو ابن حضرتك !

فقال أحمد عبد الجواد وهو يهز رأسه عجبًا :

ـ عرفته دائمًا مؤدبًا مهذبًا هادئ الطبع ، لا يرى إلا فى مكتبته وهو يقرأ أو يكتب حتى أشفقت عليه من الإغراق فى الانزواء والإفراط فى عمل لا جدوى منه . .

فقال إبراهيم الفار مداعبًا :

ـ من يدرى فلعل فى بيت جليلة فرعًا من دار الكتب !

وقال على عبد الرحيم :

ـ أو لعله يعتزل فى مكتبته لمطالعة كتاب رجوع الشيخ ، ماذا تنتظر من رجل بدأ حياته بتقرير أن الإنسان أصله قرد؟ !

وضحكوا فضحك معهم أحمد عبد الجواد الذى كان يعلم بخبرته أن الاستسلام للجد فى أمثال هذه الأحوال يجعل منه هدفًا سهلاً للمزاح والقفش ، ثم قال :

ـ لهذا لا يفكر الملعون فى الزواج حتى ظننت به الظنون ! . .

ـ ما عمر المحروس الآن؟

فى التاسعة والعشرين ! . .

ـ يا سلام! . . يجب أن تزوجه، لماذا يرغب عن الزواج؟

تجشأ محمد عفت ثم مسح على كرشه وهو يقول:

ـ هذه موضة فحسب ولكن بنات اليوم يزحمن الشوارع فضعفت الثقة بهن، ألم تسمعوا الشيخ حسنين وهو يغنى «يا ما نشوف حاجات تجنن، البيه والهانم عند مزين؟».

ـ ولا تنس الأزمة الاقتصادية وضيق المستقبل أمام الشباب. إن خريجى الجامعة يتوظفون بعشرة جنيهات إن وجدوا وظيفة بطلوع الروح!

وتساءل أحمد عبد الجواد فى قلق بين:

ـ أخاف أن يعرف أن جليلة كانت يومًا صاحبتى أو تعرف هى أنه ابنى!

فتساءل على عبد الرحيم ضاحكًا:

ـ أحسبتها تستجوب الزبائن؟!

فقال محمد عفت وهو يغمز بعينه:

ـ لو عرفته الفاجرة لقصت عليه قصة أبيه من الألف إلى الياء!

فهتف أحمد عبد الجواد وهو ينفخ:

ـ لا قدر الله ولا كان . .

فتساءل إبراهيم الفار:

ـ أتحسب أن الذى يستطيع أن يعرف أن جده الأول قرد يعجز عن معرفة أن أباه فاسق فاجر؟!

فضحك محمد عفت عاليًا حتى سعل، وصمت لحظات ثم قال:

ـ الحق أن مظهر كمال خداع، رزين هادئ متزمت، خوجة بكل معنى الكلمة . .

فقال على عبد الرحيم بلهجة الترضية:

ـ يا سيدى ربنا يخليه ويطول عمره، ومن شابه أباه فما ظلم . . فعاد محمد عفت يتساءل:

ـ المهم أهو «حلنج» كأبيه؟ . . أعنى هل يجيد معاملة النساء والاستحواذ عليهن؟

فقال على عبد الرحيم:

ـ أما هذا فلا أظن! يخيل إلى أنه يظل متقدمًا برزانته ووقاره حتى يغلق الباب عليه وعلى صاحبة النصيب، ثم يأخذ فى نزع ثيابه بنفس الرزانة والوقار، ثم يرتمى عليها، وهو فى الغاية من الجد والرزانة كأنما يلقى درسًا خطيرًا!

ـ يخلق من ظهر الحلنج دهل!

وساءل أحمد عبد الجواد نفسه فيما يشبه السخط : لماذا يبدو لى الأمر غريبًا؟! . وصمم على أن يتناسى الخبر . ولما رأى الفار يذهب إلى صندوق النرد ويعود به ، قال دون تردد أنه آن لهم أن يلعبوا . بيد أن أفكاره ظلت تدور حول الخبر الجديد . وقال لنفسه متعزيًا أنه رباه فأحسن تربيته حتى حصل على الشهادة العليا وصار مدرسًا محترمًا فله أن يفعل ما يشاء . ولعله من حسن التوفيق أن يعرف كيف يلهو رغم عوده الرفيع ورأسه وأنفه العظيمين! ولو أنصف الحظ لتزوج كمال منذ سنوات ، ولما تزوج ياسين أبدا ، ولكن من يدعى القدرة على حل هذه الرموز؟ وإذا بالفار يسأله :

ـ متى رأيت زبيدة آخر مرة؟

فأجاب أحمد بعد تذكر :

ـ فى يناير الماضى ، أى منذ عام تقريبًا ، يوم جاءتنى فى الدكان لأبيع لها البيت . .

فقال إبراهيم الفأر :

ـ اشترته جليلة ، ثم وقعت المجنونة فى حب عربجى كارو فتركها على الحديدة ، وهى الآن تقيم بحجرة على سطح بيت سوسن العالمة فى حال من الاضمحلال يرثى لها!

فهز أحمد عبد الجواد رأسه فى أسف ، وتمتم :

ـ السلطانة فى حجرة فوق السطح! . . سبحان من له الدوام . فقال على عبد الرحيم :

ـ نهاية محزنة ، بيد أنها كانت متوقعة . .

فندت عن محمد عفت ضحكة رثاء وقال :

ـ فليرحم الله من يأمن إلى هذه الدنيا!

ثم دعا الفار إلى اللعب فتحداه محمد عفت ، وسرعان ما التفوا جميعًا حول النرد ، وأحمد عبد الجواد يقول :

ـ ترى من يكون حظه كجليلة ، ومن يكون كزبيدة!

٦

فى إحدى حجرات قهوة أحمد عبده ، جلس كمال وإسماعيل لطيف . وهى نفس الحجرة التى كان كمال يجالس فيها فؤاد الحمزاوى فى مطلع شبابه . وبالرغم من برودة ديسمبر كان جو القهوة دافئا ، إذ أنه بإغلاق مدخلها يسد المنفذ الوحيد لها إلى سطح

الأرض، فكان من الطبيعي أن تدفأ وإن انتشرت الرطوبة في جنباتها بدرجة محسوسة. ولم يكن إسماعيل لطيف ليرضى بالجلوس في قهوة أحمد عبده، لولا رغبته في مجاراة كمال. إنه الصديق القديم الذي لم تنقطع بكمال أسبابه، رغم أن مطالب الرزق دفعت به إلى طنطا خبيراً محاسباً مذ تخرج في مدرسة التجارة. فكان إذا عاد إلى القاهرة في إجازة اتصل به تليفونيا بمدرسة السلحدار، ونال منه موعداً للقاء في هذا الركن الأثري. وجعل كمال ينظر إلى صديقه القديم، كما بدا له بمنظره المدمج وملامحه المدببة الحادة. ويعجب لما آل إليه حاله من رزانة وأدب واستقامة، جعلته مثالاً طيباً للزوج والأب، الذي كان يوماً مثالاً فذا للقحة والاستهتار والفظاظة. وصب كمال الشاي الأخضر في قدح صاحبه ثم في قدحه وهو يقول باسما:

ـ يبدو أن قهوة أحمد عبده لا تعجبك!

فارتفع رأس إسماعيل في تطاوله المعهود، وقال:

ـ إنها غريبة حقاً، ولكن لماذا لا نختار مكاناً فوق سطح الأرض؟!

ـ على أي حال هي أنسب مكان للناس المستقيمين أمثالك.

فضحك إسماعيل وهو يهز رأسه في تسليم، كأنما يقر بأنه أصبح جديراً حقاً بفضيلة الاستقامة، هو الذي كان وكان، وعند ذلك سأله كمال مجاملاً:

ـ كيف الحال في طنطا؟

ـ عال، أما النهار فعمل متواصل في المصلحة، وأما الليل فأقضيه مع زوجي وأولادي.

ـ وكيف حال الأنجال؟

ـ نحمده، إن راحتهم دائماً على حساب تعبنا، ولكن نحمده في جميع الأحوال..

فسأله كمال مدفوعا بحب الاستطلاع الذي يثيره في نفسه حديث الأسرة بصفة عامة:

ـ وهل وجدتهم حقاً السعادة الحقيقية، كما يقول العارفون؟

ـ نعم، إنهم لكذلك.

رغم متاعبهم؟

ـ رغم كل شيء!

وجعل كمال ينظر إلى صاحبه بفضول أشد. هذا شخص جديد لا يكاد يمت بصلة إلى إسماعيل لطيف الذي زامله فيمابين عامي ١٩٢١ و١٩٢٧، تلك الفترة الفذة في حياته التي عاشها بكل جوارحه، فلم تمض دقيقة من زمانها دون سرور عميق أو ألم شديد،

فكانت عهد الصداقة الحقة متمثلة فى حسين شداد، وعهد الحب الصادق متبلوراً فى عايدة، وعهد الحماسة العارمة مستمدة من شعلة الثورة المصرية الرائعة، ثم عهد التجارب العنيفة التى قذف بها الشك والمجون والأهواء، وقد كان إسماعيل لطيف هذا رمز العهد الأخير، ودليله الخطير، فأين هو اليوم من ذاك؟! وعاد إسماعيل لطيف يقول فى شيء من التذمر:

ـ بيد أن هناك أموراً تشغل بالنا باستمرار، كالكادر الجديد ووقف الترقيات والعلاوات، وأنت تعلم أننى تعودت على الحياة الرغيدة فى كنف أبى، ولكن أبى لم يترك ميراثًا، ووالدتى بدورها تستهلك كل معاشها، لذلك رضيت فى سبيل الرزق أن أعمل فى طنطا، وهل كان مثلى يرضى بذلك؟!

فضحك كمال قائلاً:

ـ مثلك ما كان يرضى بشيء!

فابتسم إسماعيل فيما يشبه الزهو أعتزازاً بماضيه الحافل الذى هجره بمحض اختياره. وسأله كمال:

ـ ألا تنازعك نفسك إلى معاودة شيء من الماضى؟

ـ كلا شبعت من كل شيء، وأستطيع أن أقول بأنى لم أضجر من حياتى الجديدة بعد، كل المطلوب منى أن أبدى شيئا من المهارة بين حين وآخر، حتى أفوز ببعض النقود من والدتى، كذلك على زوجى أن تلعب نفس الدور مع أبيها، إذ أنى لا زلت مغرمًا بالحياة الرغيدة. .

فلم يملك كمال أن يقول ضاحكًا:

ـ علمتنا وتركتنا وحدنا على الطريق. .

فضحك إسماعيل ضحكة عالية أعادت إلى وجهه الرزين كثيراً من ملامح الماضى الماكرة، وقال:

ـ أآسف أنت على ذلك؟ كلا، أنت تحب هذه الحياة بإخلاص عجيب، غير أنك رجل معتدل، إنى فعلت فى سنوات لعبى القلائل ما لن تفعل مثله مدى عمرك «ثم بلهجة جدية». . تزوج وغير حياتك!

فقال كمال بلهجة عابثة:

ـ هذا أمر جدير بالتفكير!

ما بين ١٩٢٤ و ١٩٣٥ خُلق إسماعيل لطيف جديد جدير بأن يزوره غواة الأعاجيب. على أى حال إنه الصديق القديم الباقى، أما حسين شداد فقد اختطفته فرنسا من وطنه، وكذلك حسن سليم أمسى الخارج مقامه ومعاشه، لم يعد لهما من سبب فى القلب

واأسفاه، لم يكن إسماعيل لطيف يومًا صديق الروح. ولكنه ذكرى حية من الماضى العجيب، لذلك فهو خليق بأن يعتز به، وأعتز به أيضًا لوفائه، لا مسرة روحية فى مصاحبته، ولكنه آية حية على أن الماضى لم يكن خيالاً، ذلك الماضى الذى أحرص على إثبات حقيقته حرصى على الحياة نفسها، ترى ماذا تصنع عايدة فى هذه اللحظة من الزمان؟ وأين هى فى عالم المكان؟ وكيف استطاع القلب أن يبرأ من مرض حبها؟!.. كل أولئك أعاجيب.

- إنى معجب يا سيد إسماعيل، أنت شخص جدير بكل توفيق.

وألقى إسماعيل نظرة على ما حوله، استعرض بها السقف والفوانيس والحجرات والوجوه الحالمة والعاكفين على السمر واللعب، ثم تساءل:

- ماذا يعجبك فى هذه القهوة؟

فلم يجبه كمال على سؤاله، ولكنه قال بلهجة آسفة:

- أما علمت؟! سوف تهدم فى القريب ليقام على أنقاضها عمارة جديدة، سيختفى هذا الأثر إلى الأبد!

- مع ألف سلامة، فلتختف هذه المقبرة ليقوم فوقها عمران جديد.

أنطق بالحق؟ ربما، ولكن للقلب لواعجه، يا قهوتى العزيزة أنت قطعة من نفسى، فيك حلمت كثيراً وفكرت كثيراً، وفيك سكن ياسين أعوامًا، واجتمع فهمى بالثوار ليفكروا ويعملوا من أجل عالم أفضل، ثم إنى أحبك لأنك مصنوعة من مادة الحلم، ولكنما جدوى هذا كله؟. وما قيمة الحنين إلى الماضى؟. ربما ظل الماضى أفيونة أصحاب القلوب، وأشقى ما تصاب به أن تكون ذا قلب حنون وعقل شاك: فلنقل أى كلام ما دمنا لا نؤمن بشىء.

- فى هذا صدقت، إنى أقترح أن يهدموا الهرم إذا وجدوا لأحجاره فائدة ما للمستقبل!

- الهرم!. ما دخل الهرم فى قهوة أحمد عبده؟!

- أعنى الآثار، أعنى أن نهدم كل شئ فى سبيل اليوم والغد.

فضحك إسماعيل لطيف، وتطاول بعنقه - كما كان يفعل قديمًا كلما تحدى - ثم قال:

- أحيانا تكتب كلامًا يناقض هذا القول، إنى كما تعلم أقرأ بين حين وآخر مجلة الفكر إكراما لك، وسبق أن صارحتك برأيى، أى نعم، مقالاتك عسيرة، المجلة كلها جافة والعياذ بالله، لم أستطع المثابرة على اقتنائها لأن زوجتى لا تجد فيها شيئًا يقرأ، ولا تؤاخذنى فهذا قولها! أقول إنى وجدت أحيانًا فيما تكتب نقيض ما تقول الآن، ولكنى لا أزعم أنى أفهم كثيراً - وبينى وبينك ولا قليلاً - مما تكتب، وبهذه المناسبة

أليس من الأفضل أن تكتب كما يكتب الكتاب المحبوبون؟ لو فعلت لوجدت جمهوراً كثيراً، ولربحت ما لا وفيراً . .

وفي زمن مضى كان يحتقر هذا الرأى فى عناد وثورة، الآن لا يزال يحتقره ولكن دون ثورة، لكنه يشك فى هذا الاحتقار، لا لشبهة فى أنه فى غير موضعه، ولكن لأنه يرتاب أحيانًا فى قيمة ما يكتب، وربما ارتاب فى ارتيابه نفسه، وسرعان ما اعترف فيما بينه وبين نفسه بأنه قد ضاق بكل شىء ذرعًا، وأن الدنيا تبدو أحيانًا كلفظة قديمة أندثر معناها.

ـ إنك لم ترض يومًا عن عقلى!

إسماعيل وهو يقهقه:

ـ أتذكر؟ . يا لها من أيام!

ايام مضت، لم تعد نيرانها تحرق، لكنها مصونة فى موضعها كالجثة العزيزة، أو كعلبة الملبس المستكنة فى مكانها منذ ليلة عائدة . .

ـ ألم يبلغك شىء عن حسين شداد أو حسن سليم؟!

رفع إسماعيل حاجبيه الكثيفين، وقال:

ـ ذكرتنى! حدثت أمور فى العام الماضى الذى قضيته بعيداً عن القاهرة . . ثم استطرد فى اهتمام متزايد:

ـ علمت حال عودتى من طنطا أن أسرة شداد انتهت.

تفجرت فى قلب كمال ثورة اهتمام طاغية، وعانى كثيراً وهو يغالب آثارها الظاهرة، ثم تساءل:

ـ ماذا تعنى؟

أخبرتنى والدتى أن شداد بك أفلس، التهمت البورصة آخر مليم فى حوزته، انتهى شداد، ثم أنه لم يتحمل الصدمة فانتحر!

ـ يا له من خبر! متى حدث ذلك؟

ـ منذ أشهر، وضاع القصر الكبير فيما ضاع من متاع، ذلك القصر الذى عشنا فى حديقته زمنا لا ينسى . .

أى زمن وأى قصر، وأى حديقة، أى ذكريات، أى ألم نسى، أى نسيان مؤلم، الأسرة الرفيعة، الرجل العظيم، الحلم الكبير، أليس هذا الجيشان أضخم مما ينبغى أن يستدعيه الحال؟! وهذه الحقيقة التى تمخض عنها القلب أشد مما تستحق ذكريات عفى عليها النسيان؟

قال كمال بصوت حزين :

ـ انتحر البيك، وضاع القصر، ولكن ما مصير أهله؟

قال إسماعيل فى امتعاض :

ـ لم تعد لأم صديقنا إلا خمسة عشر جنيهًا شهريًا من ريع وقف، وقد انتقلت إلى شقة متواضعة بالعباسية، وقد زارتها والدتى فعادت تصف حالها وهى تبكى، تلك السيدة التى تقلبت فى نعيم لا يتصوره الخيال، ألا تذكر؟

يذكر ولا شك، أم يظنه نسى؟ يذكر الحديقة والكشك والنعيم الذى كان يترنم به الهواء، ويذكر السرور والحزن، بل إنه الساعة حزين حقًا، إن الدموع تطرق أبواب عينيه الخلفية، ولن يحق له أن يحزن بعد الساعة على قهوة أحمد عبده التى يتهددها الزوال، فكل شيء ينبغى أن ينقلب رأسًا على عقب.

ـ إنه لشيء محزن، ومما يضاعف الحزن أننا لم نقم بواجب العزاء، ترى ألم يعد حسين من فرنسا؟

ـ لا شك أنه عاد عقب الحادث، كذلك حسن سليم وعايدة، ولكن لا أحد منهم فى مصر الآن.

ـ وكيف عاد حسين تاركًا أسرته على حالها؟ ومن أين له أن ينفق بعد إفلاس والده؟

ـ سمعت أنه تزوج هناك، ولا يبعد أن يكون قد وجد عملاً فى أثناء إقامته الطويلة فى فرنسا، لا أدرى شيئا عن هذا، فأنا لم أره منذ ودعناه معًا، كم مضى على ذلك؟ عشرة أعوام على وجه التقريب. أليس كذلك؟ إنه تاريخ قديم، كم أثار شجونى!

كم وكم، أما هو فالدموع لا تزال تطرق أبواب عينيه الخلفية، إنها لم تفتح منذ ذلك العهد وعلاها الصدأ، وقلبه يقطر حزنًا، فيذكر بذلك القلب الذى اتخذ من الحزن شعاراً، إن هذا الخبر قد رجه رجًا عنيفًا حتى كاد ينفض عنه الحاضر كله، ويكشف عن الإنسان القديم الذى كان حبًا خالصًا وحزنًا خالصًا، أهذه هى نهاية الحلم القديم؟ الإفلاس والانتحار! كأنما قضى بأن تؤدبه هذه الأسرة بأدب الآلهة الساقطين! الإفلاس والانتحار، وإذا كانت عايدة لا تزال فى بحبوحة من العيش بفضل مكانة زوجها، فماذا طرأ على كبريائها الملائكى؟ وهل هبطت الأحداث بشقيقتها الصغيرة إلى . .

ـ كان لحسين أخت صغيرة. ما أسمها؟ إنى أذكره حينا وأنساه أحيانًا كثيرة!

ـ بدور، إنها تعيش مع والدتها وتقاسمها متاعب الحياة الجديدة . .

تصور آل عايدة فى حياة متواضعة! كحياة هؤلاء الناس حولنا، فهل تمضى بدور يومًا بجورب مرفو؟ وهل تتخذ من الترام مركبًا؟ آه . . لا تغالط نفسك فأنت اليوم حزين ومهما يكن لعقلك من رأى فى الطبقات وفوارقها، فإنك تشعر من جراء هذا الانقلاب

بانهيار مخيف ويعز عليك أن تسمع بأن مُثُلك العليا تتمرغ فى التراب فلتهنأ على أى حال بأنه لم يبق من الحب شىء، أجل . . ماذا بقى من الحب القديم؟ إذا قال لا شىء فإن قلبه يخفق فى حنان عجيب عند تردد أى أغنية من أغانى ذلك العهد، رغم ابتذال ألفاظها ومعانيها وأنغامها، فما معنى ذلك؟ لكن مهلاً، إنها ذكرى الحب لا الحب نفسه، ونحن نحب الحب فى جميع الأحوال خاصة الأحوال التى لا حب فيها، أما فى هذه اللحظة فإننى أشعر كأنى غريق فى بحر الهوى، ذلك أن المرض الكامن ينفث سمومه حين الضعف الطارئ، وما الحيلة ما دام الشك زلزل الحقائق جميعًا يقف عند الحب فى حذر، لا لأنه شىء فوق الشك، ولكن احترامًا للحزن، وحرصًا على حقيقة الماضى.

وعاد إسماعيل إلى المأساة سائقًا كثيراً من التفاصيل، حتى ضاق بها فيما بدا، فقال بلهجة من يود الفراغ من السيرة كلها:

ـ الدوام لله إنه شىء مؤسف حقًا، ولكن حسبنا نكد . .

ولم يحاول كمال أن يدعوه إلى مزيد. كان فيما قال الكفاية، إلى أن وجد رغبة إلى الصمت والتأمل. وكان يبكى بكاء صامتًا بدموع غير منظورة يذرفها قلبه. وأدهشه ذلك بصفته مريضًا قديمًا قد برئ من مرضه، وقال لنفسه متعجبًا: تسعة أعوام أو عشرة! ما أطولها وما أقصرها، ترى ما صورة عايدة الآن؟ كم يود أن يديم إليها النظر ليطلع على سر ذلك الماضى الساحر. بل ليقف على سر نفسه. إنه الآن لا يراها إلا لمحًا خاطفًا فى نغمة قديمة معادة، أو صورة فى إعلان صابون. أو من سباته كالفزع وهو يهمس: هذه هى! ولكن ما هى على الحقيقة قسمة من قسمات نجمة سينمائية، أو ذكرى متسللة، فيستيقظ والواقع؟! ونبا به مجلسه، فتاقت نفسه إلى رحلة مغامرة فى دنيا الغيب، فقال لإسماعيل:

ـ أتقبل دعوتى إلى كأسين فى مكان لطيف مأمون؟

فقهقه إسماعيل قائلاً:

ـ إن زوجتى تنتظرنى لنذهب معًا إلى زيارة خالتها . .

ولم يكترث لرفض دعوته. طالما كانت نفسه نديمه. وغادرا المكان وهما يتبادلان الحديث. أى حديث. وفيما بين ذلك قال كمال لنفسه: قد نضيق بالحب إذا وجد، ولكن شد ما نفتقده إذا ذهب.

٧

مليح هذا المجلس . . غير أن اليد قصيرة، من هذا الموضع الدافئ ترى الغادى والرائح . . من شارع فاروق وإليه . . ومن الموسكى وإليه . . ومن العتبة وإليها، ولولا برودة يناير القاسية لما توارى المشتاق وراء زجاج القهوة، تاركًا رغم أنفه الركن البديع التابع للقهوة على الطوار المقابل، ولكن سيأتى الربيع يومًا . . أجل سيأتى غير أن اليد قصيرة، ستة عشر عامًا أو يزيد وأنت حبيس الدرجة السابعة، دكان الحمزاوى بيع بأبخس الأثمان . . وربع الغورية على ضخامته لا يدر إلا جنيهات . . أما بيت قصر الشوق فمسكنى ومأواى، وإذا كان لرضوان جد غنى فكريمة لا عائل لها غيرى، رب أسرة وعشيق، ولكن للأسف اليد قصيرة .

وفجأة وقعت عيناه الحائرتان على شاب طويل نحيل ذى شارب مربع ونظارة ذهبية، يخطر فى معطفه الأسود قادمًا من الموسكى متجها نحو العتبة، فابتسم ونهض بنصفه الأعلى كأنما يهم بالقيام، ولكنه لم يفارق مجلسه . ولولا أن الشاب كان مسرعًا لمضى إليه ودعاه إلى مجالسته . كمال خير سمير حين الضجر، لم يخطر الزواج له على بال رغم اقترابه من الثلاثين، لمَ تعجلت الزواج قبل الأوان؟ ولمَ وقعت فيه مرة أخرى قبل أن أفيق من لطمته الأَولى؟ ولكن من ذا الذى لا يشكوَ : أعزب كان أم متزوجًا؟ وكانت الأزبكية ملاذا ومتعة، ثم حل بها البوار فهى اليوم بؤرة الحثالة والسفلة، لم يبق لك من عالم المسرات إلا لذة المشاهدة فى هذا المفرق من الطريق ثم، الصيد الرخيص، وخير الصيد الرخيص خادمة مصرية من العاملات فى الأسرة الإفرنجية . . فهى فى الغالب مهذبة المظهر نظيفة، أما سيد مزاياها دون منازع فضعف الخلق، وتوجد أكثر ما توجد بسوق الخضار بميدان الأزهار .

كان قد فرغ من حسو قهوته، وجلس وراء زجاج النافذة المغلقة يرسل طرفه إلى ملتقى الطرق، يتابع كل ذات حسن، فتنطبع على عدسة عينه صور النساء من ذوات المعاطف والملاءات اللف، يراهن كلا وأجزاء فى مثابرة لا تعرف الكلال . كان يجلس أحيانًا فيطول به الجلوس حتى العاشرة، وفى أحيان أخرى ربما لم يطل به الجلوس إلا ريثما يشرب قهوته، ثم ينهض مسرعًا فى أثر صيد قد آنس منه استجابة ورخصًا، كأنه تاجر روبابيكيا . ولكنه كان يقنع فى الغالب بالمشاهدة، وربما تبع الحسناء دون مقصد جدى، أما الإقدام الحق، كأن يصطاد خادمًا خليعة أو أرملة فوق الأربعين، فكان يقع

على فترات وفى حرص شديد. إذ أنه لم يعد الرجل الذى كان، لا لأن الموارد ناءت بالأعباء فحسب، ولكن لسن الأربعين التى نزلت به ضيفًا دون دعوة أو استئذان. يا لها من حقيقة مرعبة! «وشعرة بيضاء فى عارضى طالما أوصيت الحلاق بمعالجتها، وقال الحلاق إن أمر الشعرة هين، ولكن الشيب لا يلبث أن ينفجر. تبًا لهما، للحلاق وللشيب، ووصف الرجل صبغة مفيدة ولكنى لن ألجأ إليها. بيد أن أبى بلغ الخمسين دون أن تحترق له شعرة، أين أنا من أبى؟! لا فى الشيب وحده، كان شابًا فى الأربعين، وكان شابًا فى الخمسين، أما أنا! رباه لم أفرط أكثر مما أفرط أبى. أرح رأسك وأتعب قلبك، ترى أكانت حياة هارون الرشيد حقًا كما يرويها الرواة؟ أين زنوبة من هذا كله؟! جانب من الزواج خدعة بنت كلب، ولكن قوته فى أنك تحتضن الخدعة ما حييت، وسوف تدول دول وتنقلب أزمان، ولم يزل الدهر يتمخض عن امرأة سارحة ورجل جاد فى أثرها، الشباب لعنة، والكهولة لعنات، فأين راحة القلب أين؟ وأتعس ما فى الدنيا أن تتساءل يومًا ذاهلاً أين أنا؟!

وغادر القهوة فى منتصف العاشرة، فقطع العتبة متمهلاً إلى شارع محمد على، ثم مال إلى حانة «النجمة»، وحيا «خالو» المائل وراء البار فى وقفته التقليدية، فرد الرجل تحيته بابتسامة عريضة كشفت عن أنياب صفر مثرمة، ثم أشار بذقنه إلى الحجرة الداخلية كأنما ليخبره بأن أصحابه فى الانتظار. وكان يمتد أمام البار دهليز ينتهى إلى ثلاث حجرات متداخلة يضج جوها بالعربدة، فمضى إلى الأخيرة منها، ولم يكن بها إلا نافذة واحدة ذات قضبان حديدية تطل على عطفة الماوردى، قد صفت بها ثلاث موائد متفرقة فى الأركان، خلت اثنتان وأحدق بالثالثة أصحابه الذين استقبلوه مهللين، شأنهم كل مساء. كان ياسين ـ رغم شكواه ـ أصغرهم سنًا، أما أكبرهم فكان أعزب من أصحاب المعاشات، يليه فى مجلسه باشكاتب بالأوقاف، فرئيس المستخدمين بإدارة الجامعة، ثم محام من ذوى الأملاك غير مشتغل. كان الإدمان يلوح فى سحناتهم نظرة ذابلة وبشرة محتقنة أو بالغة الشحوب، وكانوا يتوافدون إلى الحانة فيما بين الثامنة والتاسعة فلا يفارقونها إلا فى الهزيع الأخير من الليل، يتجرعون أردأ أنواع الخمر وأشدها مفعولاً وأرخصها ثمنًا، غير أن ياسين لم يكن يلازمهم من البداية إلى النهاية، أو لم يكن يفعل ذلك إلا فى القليل النادر، وفيما عدا ذلك فكان يمضى معهم ساعتين أو ثلاثا كيفما اتفق، وكالعادة استقبله الأعزب العجوز قائلاً:

ـ أهلا بالحاج ياسين. .

وكان يصر على وصفه بالحاج إكرامًا لإسمه المبارك، أما المحامى وكان أشدهم إدمانًا فقال:

ـ تأخرت يا بطل، حتى قلنا لقد عثر فى امرأة ستحرمنا من أنسه الليلة كلها . .

فعلق الأعزب العجوز على كلام المحامى متفلسفًا :

ـ لا يفرق بين الرجل والرجل إلا امرأة!

فقال له ياسين مداعبًا، وكان قد جلس فيما بينه وبين باشكاتب الأوقاف :

ـ لا خوف عليك من هذه الناحية . .

فقال العجوز وهو يرفع الكأس إلى فيه :

ـ إلا لحظات شيطانية، فقد تستثيرنى بنت فى الرابعة عشرة . .

فقال الباشكاتب :

ـ الاسم لطوبة والفعل لأمشير!

ـ لا أفهم ما تقصد بهذا الكلام البارد .

ـ ولا أنا فاهم!

وجاء خالو بالكأس والترمس، فتناول ياسين الكأس وهو يقول :

ـ يناير هذا العام شايف كيفه .

فقال رئيس المستخدمين :

ـ لله فى خلقه شئون، جاء يناير بالبرودة ولكنه ذهب بتوفيق نسيم إلى غير رجعة!

فصاح المحامى :

ـ انقذونا من السياسة، مازلنا نسكر ونمز بالسياسة حتى أخمدت أنفاسنا، شوفوا حكاية ثانية . .

فقال رئيس المستخدمين :

ـ حياتنا فى الواقع سياسية ولا شىء غير هذا .

ـ أنت رئيس مستخدمين درجة سادسة، مالك أنت والسياسة؟

فقال الرئيس محتدًا :

ـ درجة سادسة قديم من فضلك، من أيام سعد!

فقال الأعزب العجوز :

ـ أنا درجتى السادسة من أيام مصطفى كامل، لذلك أحلت بها على المعاش إكرامًا لذكراه . . اسمعوا، أليس من الأفضل أن نسكر ونغنى؟

فقال ياسين وهو يهم بإفراغ كأسه :

ـ لنسكر أولاً يا والدى . .

لم يتمتع ياسين فى حياته بنعمة الصداقة العميقة، ولكنه كان له فى كل مجلس ـ قهوة أو حانة ـ أصحاب، وكان يألف بسرعة ويؤلف بأسرع من ذلك. ومنذ اتخذ هذه الحانة ـ تبعًا لتطور حالته المادية ـ مجلسًا ليليًا مختاراً عرف هذه الجماعة، وتوثقت أسباب السمر بينهم، غير أنه لم يقابل أحداً منهم فى الخارج، ولم يسع إلى ذلك، جمع بينهم الإدمان والاسترخاص، وكان رئيس المستخدمين أرقاهم مركزًا، ولكنه كان كثير العيال، أما المحامى فقد جاء هذه الحانة جريًا وراء سمعة خمرها القوية، بعد أن لم تعد تؤثر فيه الخمور النظيفة إلا فى النادر، ثم ألفها واعتادها. وجعل ياسين يشرب ويثرثر، قاذفًا بنفسه فى دوامة العربدة التى تجتاح المكان وترتطم بأركانه. وكان العجوز الأعزب أحب أفراد الجماعة إليه. ولم يكن يشبع من مداعبته خاصة فيما يتعلق بالرموز الجنسية، فكان الرجل يحذره من الإفراط. ويذكره بمسئولياته العائلية، فيقول له ياسين فى استهانة ومباهاة، نحن قوم خلقنا لهذا، هكذا أبى، وهكذا كان جدى من قبل، وأعاد هذا القول فى هذه السهرة، فتساءل المحامى مازحًا.

ـ وأمك؟ . . أكانت كذلك أيضًا؟

وضحكوا كثيراً وضحك ياسين، غير أن قلبه غاص فى صدره متوجعًا وأفرط فى الشراب. وخيل إليه رغم نشوته أنه يتدهور، فلا المكان مكانه، ولا الخمر خمره، ولا اليوم يومه «وفى كل مكان يتغامزون علىَّ، فأين أنا من أبى؟ ليس أتعس من أن يزيد عمرك وتنقص نقودك، بيد أن رحمة الشراب واسعة، تفيض عليك أنسا، أنسًا رقيقا وعزاء جميلاً يهون عنده كل خطب، فقل ما أعظم مسرتى، لن يعود العقار الذى ضاع، ولا الشباب الذى انقضى، ولكن الخمر تصلح أن تكون خير رفيق على مدى العمر، رضعتها شابًا يافعا، وهاهى تؤنس رجولتى، وسوف يهتز لها طربًا رأسى المجلل بالمشيب، بذلك يفرح منى القلب رغم العناء، وغدا عندما يستوى رضوان رجلاً وتتهادى كريمة عروسًا، أشرب أنخاب السعادة فى العتبة الخضراء، فما أعظم مسرتى».

وإذا بالجماعة تغنى «أسير العشق يا ما يشوف هوان» ثم غنت «يا جارة الوادى» فى جو صاخب وأصوات معربدة، فردد الغناء أقوام من سائر الحجرات والدهليز، ثم ساد صمت مرهق فعاد رئيس المستخدمين يتحدث عن استقالة توفيق نسيم، ويتساءل عن المعاهدة التى تهدف إلى حماية مصر من خطر إيطاليا، ذلك الجار الثقيل القائم فى ليبيا، فما كان من الجماعة إلا أن رددت فى صوت واحد «إرخى الستارة اللى فى ريحنا . . أحسن جيرانا تجرحنا». ورغم إفراط العجوز فى الشراب والعربدة، فقد احتج على هذه الإجابة الماجنة، ورماهم بالهذر فيما يليق به الجد. فأجابوه فى صوت واحد مرددين «صحيح خصامك والا هزار» فلم يسع الشيخ إلا أن يضحك، وأن يعود إلى مشاركتهم بلا تحفظ.

وغادر ياسين الحانة عند منتصف الليل، فبلغ بيته فى قصر الشوق حوالى الواحدة صباحًا. وكعادته كل ليلة جعل يمر بحجرات شقته كأنما يقوم بجولة تفتيشية، فوجد رضوان فى حجرته يذاكر، وقد رفع الشاب رأسه عن كتاب القانون ليتبادل مع والده ابتسامة. وكان الحب بينهما عميقًا، كذلك الاحترام رغم أن رضوان كان يعلم أن والده لا يعود هذه الساعة إلا ثملاً. أما ياسين فكان يعجب بجمال ابنه أيما إعجاب، كما يعجب بذكائه واجتهاده، ويرى فيه وكيل نيابة المستقبل الذى سيرفع من شأنه، ويعز من كبريائه، ويعزيه عن أمور كثيرة، سأله:

ـ كيف تجد دروسك؟

وإشار إلى نفسه كأنما يقول له «نحن هنا». فابتسم رضوان، وابتسمت فيه عينا هنية المكحولتان، فعاد أبوه يسأل:

ـ أيزعجك إذا أدرت الفونوغراف؟

ـ أما عنى فلا. ولكن الجيران نائمون فى هذه الساعة المتأخرة.

فابتعد عن الحجرة وهو يقول هازئًا:

ـ نوم العافية!

ومر بحجرة نوم «الأولاد» فوجد كريمة تغط فى نومها على فراش صغير، على حين بقى فراش رضوان فى الجانب الآخر من الحجرة خاليًا ينتظر فراغه من مذاكرته. وخطر له لحظة أن يوقظها ليداعبها، ولكنه ذكر ما يصحب إيقاظها فى تلك الساعة من تذمر فعدل عن خاطرته. واتجه صوب حجرته. أجمل الليالى فى هذا البيت حقًا هى ليلة الجمعة، تلك العطلة المقدسة، فإذا عاد إلى بيته ليلة الجمعة ـ بصرف النظر عن الساعة التى يعود فيها ـ فإنه لا يتردد فى أن يدعو رضوان إلى مجلسه بالصالة، ثم يوقظ كريمة وزنوبة، ويدير الفونوغراف، ويمضى فى محادثتهم ـ وممازحتهم حتى الهزيع الأخير من الليل. وكان مغرمًا بأسرته ـ خاصة رضوان ـ أجل لم يكن يشغل نفسه ـ أو لم يكن لديه من الوقت ـ ليتابعهم برعايته وتوجيهه، تاركًا أمرهم لعناية زنوبة وحكمتهم الفطرية! ومهما يكن الأمر فإنه لم يطق لحظة واحدة أن يمثل حيالهم الدور القاسى الذى مثله أبوه حياله، وكره من صميم قلبه أن يخلق فى قلب رضوان شعور الرهبة والخوف الذى كان يجده نحو أبيه! والحق أنه لم يكن يستطيع ذلك حتى لو أراده. وعندما كان يجمعهم حوله بعد منتصف الليل كان يفصح عن ولعه بهم دون تحفظ، وهو فى نشوة من الخمر والحب، كان يمازحهم ويسامرهم، وربما قص عليهم نوادر السكارى الذين صادفهم فى الحانة، غير عابئ بأثر ذلك فى الأنفس البريئة، مستهينًا باحتجاجات زنوبة التى تومئ بها إليه من وراء وراء، فيبدو وكأنما نسى نفسه وجرى على سجيته دون حذر أو مبالاة.

وفى حجرته وجد زنوبة ـ كالعادة ـ نائمة وليست بنائمة . هكذا كانت أبدا ، فقبل أن يلج الحجرة يترامى إليه شخيرها ، حتى إذا توسطها تحركت وفتحت عينيها وقالت بلهجتها الساخرة «حمداً لله على السلامة» . ثم تنهض لمعاونته على خلع ثيابه وترتيبها . وقد بدت فى صورتها الطبيعية أكبر من سنها ، وكثيراً ما ظنها تماثله سنًا . ولكنها باتت أليفته واشتبكت جذورها بجذوره ، تلك الغانية القديمة التى نجحت فى معاشرته فيما لم تنجح فيه سيدة من قبل ، فأرست حياته الزوجية على أساس متين ، نعم لقد انتابت حياتهما فى أول الأمر معارك وعلا بها زئير ولكنها بدت دائمًا حريصة على حياتهما الزوجية كل الحرص . ومع الأيام صارت أما ، ومنيت بالثكل ، فلم يبق لها غير كريمة ، غير أن ذلك دعاها إلى مضاعفة الاستمساك بحياتها الزوجية ، خاصة بعد أن تهددها الذبول وناوأها الكبر المبكر ، ثم علمتها الأيام أن تتحلى بالصبر والمهادنة ، وأن تتمرس بدور «السيدة» بكل معنى الكلمة ، وغالت فى ذلك إلى حد أنها لم تكن تتبرج خارج بيتها حتى فازت أخيراً باحترام بين القصرين والسكرية إلى حد ما! ، وكان من حسن سياستها أن تحمل نفسها على معاملة رضوان معاملة كريمة بالغة الرقة والمودة ، على الرغم من أنها لم تكن تجد نحوه حبًا ، خاصة بعد أن ثكلت فى الذكر الوحيد الذى أنجبته لياسين ، وكانت رغم تغيرها شديدة العناية بحسن هندامها وأناقتها ونظافتها ، وقد لاحظها ياسين باسما وهى تعيد ترتيب شعرها أمام المرآة ، ومع أنه كان يضيق بها أحيانًا إلى حد الضجر ، إلا أنه كان يشعر بحق بأنها أصبحت شيئًا ثمينًا فى حياته لا يمكنه الاستغناء عنه بحال . وجاءت بشال فتلفعت به وهى تقفقف من البرد ، وقالت متشكية :

ـ ما أشد البرد! هلا رحمت نفسك من السهر فى الشتاء؟!

فقال ساخراً :

ـ الخمر تغير الفصول كما تعلمين ، لم تتعبين نفسك بالاستيقاظ؟

ـ فنفخت قائلة :

ـ فعلك متعب وكلامك متعب!

بدا فى لبابه كالمنطاد ، ومسح بيده على كرشه وهو يرنو إلى المرآة فى ارتياح ، وكانت عيناه السوداوان تشتعلان ، ثم ضحك فجأة قائلاً :

ـ لو رأيتنى وأنا أتبادل التحية مع العساكر! أمسى عساكر آخر الليل أصدقائى الأعزاء!

فغمغمت وهى تتنهد :

ـ يا فرحتى!

٨

كان منظر رضوان ياسين وهو يسير فى الغورية بخطواته المتئدة مما يلفت الأنظار حقًا. كان فى السابعة عشرة من عمره، مكحول العينين، متوسط القامة مع ميل خفيف إلى الامتلاء، أنيق الملبس إلى حد التبرج، ينتسب ببشرته الوردية إلى آل عفت، فهو يشع بهاء ونوراً، وتنم حركاته عن دلال من لا يخفى عليه جماله، وعندما مر بالسكرية أتجه رأسه إليها فيما يشبه الابتسام، وذكر لتوه عمته خديجة وابنيها عبد المنعم وأحمد، فوجد لذكرهما شعوراً لا يخلو من فتور، والحق أنه لم يجد من نفسه مشجعًا ـ ولو مرة ـ على أن يتخذ أحداً من أقربائه صديقًا بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة. وسرعان ما اجتاز بوابة المتولى، ثم مال إلى الدرب الأحمر، حتى بلغ به المسير باب بيت قديم فطرقه وانتظر، وفتح الباب عن وجه حلمى عزت، صديق صباه، وزميله اليوم بكلية الحقوق، ومنافسه ـ فيما بدا ـ فى الجمال. وتهلل وجه حلمى لرؤياه، ثم تعانقًا وتبادلاً قبلة كعادتهما عند اللقاء. ومضيا معا يصعدان السلم، وفى اثناء ذلك جعل حلمى ينوه بربطة رقبة صديقه وتجاوب لونها مع قميصه وجوربه، وكان يضرب بهما المثل فى الأناقة وحسن الذوق، فضلاً عن أن اهتمامهما بالملابس والموضة لم يكن دون اهتمامهما بالسياسة أو دراسة القانون. وانتهيا إلى حجرة كبيرة عالية السقف، دل وجود الفراش والمكتب بها على انها معدة للنوم والمذاكرة معًا. والحق أنهما طالما سهراً بها يذاكران، ثم ناما جنبا إلى جنب على الفراش الكبير ذى الأعمدة السوداء والناموسية. ولم يكن بيات رضوان خارج البيت بالشىء الجديد، فقد اعتاد منذ صباه أن يدعى إلى أكثر من بيت لقضاء عدة أيام، كبيت جده محمد عفت بالجمالية، أو بيت أمه بالمنيرة التى لم تنجب غيره رغم زواجها من محمد حسن، ولذلك ولميل أبيه الطبيعى على اللامبالاة، وترحيب زنوبة الخفى بكل ما يبعده عن بيتها ولو إلى حين، لم يجد معارضة فى البيات عند صديقه فى مواسم المذاكرة، ثم صار الأمر بعد ذلك مألوفًا فلم يكن أحد ليعيره أى اهتمام، وفى مثل هذا الجو من اللامبالاة نشأ حلمى عزت. توفى أبوه ـ وكان مأمور قسم ـ منذ عشرة أعوام. وفى ذلك الوقت كانت أخواته الست قد تزوجن، فعاش وحده مع أمه العجوز، ووجدت المرأة صعوبة فى بادئ الأمر فى السيطرة عليه، ثم ما لبث أن صار هو المسيطر على البيت كله. وكانت المرأة تعيش على معاش زوجها الصغير، وإيجار الدور الأول من بيتها القديم، فلم تعرف الأسرة الحياة الرهيفة منذ وفاة الأب، ولكن حلمى لم يعجز عن مواصلة حياته المدرسية حتى التحق بكلية الحقوق، محافظًا فى أثناء ذلك كله على ما

تتطلبه حياته من مظاهر الاحترام. وكان سرور حلمى بلقاء صديقه لا يعادله سرور، ولم تكن تطيب له أوقات العمل أو الراحة إلا به، لذلك بعث وجوده فى نفسه نشاطًا وحماسة، فأجلسه على الكنبة الملاصقة لباب المشربية وجلس إلى جانبه، وراح يفكر فى اختيار موضوع ـ وما أكثر المواضيع لمحادثته، غير أن نظرة واجمة لاحت فى عينى رضوان اعترضت تيار حماسه، فرنا إليه متسائلاً، ثم خمن ما هنالك فتمتم:

ـ زرت والدتك؟. أراهن أنك قادم من هناك..

أدرك رضوان أن صدق تخمين صاحبه يرجع إلى وجهه هو، فلاح الضجر فى عينيه، وهز رأسه بالإيجاب دون أن يتكلم، فسأله حلمى:

ـ وكيف حالها؟

ـ عال...

ثم وهو يتنهد:

ـ ولكن هذا المدعو محمد حسن!! أنت لم تعرف معنى أن يكون لأمك زوج غير أبيك!

فقال حلمى مواسيًا:

ـ كثيراً ما يقع هذا، لا عيب فيه، ثم إنه شىء قديم!

فهتف رضوان حانقًا:

ـ لا لا لا، إنه دائمًا فى البيت، لا يبرحه إلا إلى عمله فى الوزارة، نفسى مرة أزورها فأجدها وحدها، ويطيب له أن يمثل دور الوالد والمرشد، سحقًا له، وعند كل مناسبة يذكرنى بأنه رئيس أبى فى إدارة المحفوظات. ولا يتردد عن انتقاد مسلكه فى عمله، ولكنى من ناحيتى لا أسكت له..

وصمت دقيقة حتى يهدأ انفعاله، ثم واصل حديثه:

ـ أمى حمقاء إذ رضيت أن تتزوج من هذا الرجل، ألم يكن من الأفضل أن تعود إلى أبى؟

وكان حلمى يعرف الكثير عن سيرة ياسين المشهورة، فقال باسما:

ـ فى العشق ياما كنت أنوح!

فلوح رضوان بيده معانداً، وهو يقول:

ـ ولو! إن ذوق النساء سر مخيف والأدهى من ذلك أنها فيما يبدو راضية!

ـ لا تسع وراء ما ينغص صفوك..

فقال رضوان فى نبرات حزينة:

ـ يا للعجب، إن جانبًا عريضًا من حياتى ينضح بالتعاسة، إنى أمقت زوج أمى ولا أحب امرأة أبى، جو مشحون بالبغضاء، إن أبى ـ كأمى ـ لم يحسن الاختيار، ولكن ماذا فى وسعى أن أفعل؟! وامرأة أبى تحسن معاملتى ولكن لا أتصور أنها تحبنى، هذه الحياة ما أرذلها!

وجاءت خادم عجوز بالشاى، فتحلب ريق رضوان الذى عانى فى الطريق من رياح فبراير القاسية. وساد الصمت وهما يذيبان السكر. وتغير تعبير وجه رضوان فأذن ذلك بإنهاء السيرة المحزنة، ورحب حلمى بذلك فقال فى ارتياح:

ـ تعودت المذاكرة معك، فلا أدرى كيف أذاكر وحدى..

فابتسم رضوان متجاوبًا مع هذا الشعور الرقيق، ولكنه سأله فجأة:

ـ هل اطلعت على المرسوم الصادر بتأليف وفد المفاوضة؟

ـ نعم. ولكن كثيرين يلغطون متشائمين بالجو الذى يحيط بالمفاوضة.

ـ ويبدو أن إيطاليا ـ التى تهدد حدودنا ـ هى محور المفاوضة الحقيقى، والإنجليز من جانبهم يهددون فى حال فشل الاتفاق!

ـ إن دماء الشهداء لم تبرد بعد، وعندنا دماء جديدة!

فهز حلمى رأسه قائلاً:

ـ هذا كلام يقال، لقد سكت القتال وبدأ الكلام، ما رأيك؟

ـ على أى حال فإن للوفد أغلبية ساحقة فى هيئة المفاوضة، تصور أنى سألت محمد حسن زوج أمى عن رأيه فى الموقف، فقال لى ساخرًا: «أتتوهم حقًا أن الإنجليز يمكن أن يخرجوا من مصر؟!»، هذا هو الرجل الذى ارتضته أمى زوجًا!

فضحك حلمى عزت عاليًا وسأله:

ـ وهل يختلف رأى أبيك عن ذلك؟

ـ إن أبى يكره الإنجليز، وحسبه ذلك.

ـ أيكرههم من صميم قلبه؟

ـ إن أبى لا يكره ولا يحب شيئاً من صميم قلبه!

ـ إنى أسألك عن رأيك أنت، هل أنت مطمئن؟

ـ لم لا، حتى متى تبقى القضية معلقة؟ أربعة وخمسون عامًا من الاحتلال، أف، لست أنا التعيس وحدى!

فتناول حلمى عزت آخر رشفة من قدحه وقال باسمًا:

ـ يبدو لى أنك كنت تحادثنى بهذه الحماسة عندما وقعت عيناه عليك!

ـ مــــن؟

فابتسم حلمى عزت ابتسامة غريبة، وقال:

ـ كلما تحمست تورد وجهك وبرز جمالك فى أحسن أحواله، وفى لحظة من تلك اللحظات السعيدة رآك ولا شك وأنت تحادثنى، كان ذلك يوم ذهب وفد الطلبة إلى بيت الأمة داعين إلى الاتحاد، ألا تذكر ذلك اليوم؟

فتساءل رضوان باهتمام لم يحاول إخفاءه:

ـ نعم، ولكن من هو؟

ـ عبد الرحيم باشا عيسى!

فتفكر رضوان قليلاً ثم تمتم:

ـ رأيته مرة عن بعد..

ـ أما هو فقد رآك اليوم لأول مرة.

وارتسمت على وجه رضوان علامة استفهام، فعاد حلمى يقول:

ـ وعندما قابلنى عقب انصرافك سألنى عنك، وطلب إلى أن أقدمك إليه فى أول فرصة!

وتبسم رضوان ثم قال:

ـ هات كل ما عندك.

فقال حلمى وهو يربت منكب صاحبه:

ـ دعانى وسألنى بخفته ـ على فكرة هو خفيف جداً:ـ «من المليح الذى كان يحدثك؟» فأجبته أنه زميل فى الحقوق وصديق قديم واسمه كذا الخ. فسألنى باهتمام: «ومتى تقدمه إلى؟» فسألته بدورى متجاهلا غرضه: «ولمه يا باشا؟» فانفجر قائلاً كالغاضب ـ هكذا تبلغ به خفة الروح أحيانا ـ: «لأعطيه درسًا فى الديانه يابن الكلب». فضحكت بدورى حتى كتم فمى بيده..

وساد الصمت لحظة دوت فيها الريح فى الخارج، وترامى صوت ارتطام ضلفة شباك بجدار، ثم علا صوت رضوان وهو يتساءل:

ـ سمعت عنه كثيراً، أهو كما يقال؟

ـ وأكثر...

ـ لكنه عجوز!

فقال حلمى عزت وأساريره تنطق بالضحك دون صوت:

ـ هذا فى المرتبة الأخيرة من الأهمية، إنه رجل كبير المقام، ظريف، ذو نفوذ ولعل شيخوخته أجل فائدة من الشباب . .

فعاود رضوان الابتسام، ثم تساءل:

ـ أين منزله؟

ـ فيللا هادئة فى حلوان.

ـ آه تكتظ بالقاصدين من كافة الطبقات!

ـ سنكون ضمن مريديه، لم لا؟! إنه من شيوخ الساسة ونحن من شبابهم!

فتساءل رضوان فى شىء من الحذر:

ـ وزوجه وأولاده؟

ـ يالك من جاهل، إنه أعزب، لم يتزوج قط ولا يحب هذه السيرة، كان وحيد أبويه، وهو يعيش وحده مع خدمه كأنه مقطوع من شجرة، وإذا عرفته فلن تسلو عنه أبدًا . .

وتبادلا نظرة باسمة طويلة تفيض بالمؤامرات، حتى قال حلمى عزت فى شىء من الجزع:

ـ سلنى متى نذهب لزيارته من فضلك؟

فقال رضوان وهو ينظر إلى ثمالة الشاى فى قدحه:

ـ متى نذهب لزيارته؟

٩

لاح بيت عبد الرحيم باشا عيسى على ناصية شارع النجاة بحلوان آية فى البساطة والأناقة. فيللا سمراء مكونة من دور واحد يعلو عن الأرض بمقدار ثلاثة أمتار تكتنفه حديقة أزهار، ويستهل بسلاملك. وكان البيت والطريق والمنطقة المحيطة به غارقة فى صمت مريح. وكان يجلس على أريكة عند الباب البواب وسائق السيارة، بواب نوبى بارع القسمات ممشوق القوام، وسائق فى ريق الشباب مورد الخدين. وهمس حلمى عزت فى أذن رضوان وهو يمد بصره نحو السلاملك:

ـ صدق الباشا فيما وعد، فلا زائر اليوم غيرنا!

وكان حلمى عزت معروفًا لدى البواب والسائق، فوقفا لاستقباله فى أدب، ولما

داعبهما ممازحًا انطلقا يضحكان دون كلفة. وكان الجو قارص البرودة رغم جفافه، فدخلا بهو استقبال آية فى الفخامة، تتصدره صورة كبيرة لسعد زغلول فى بذلة التشريفة، ومال حلمى عزت إلى مرآة ممتدة طولاً حتى السقف تتوسط الجدار الأيمن، فألقى على صورته نظرة متفحصة طويلة، فلم يتردد رضوان أن يلحق به. وأن يمتحن منظره بنظرة مثلها، حتى قال حلمى باسما:

ـ قمران يرتديان بذلة وطربوشا، واللى يعشق جمال النبى يصلى عليه!

وجلسا متجاورين على كنبة مذهبة ذات غطاء أزرق وثير. ومرت دقائق ثم سمعت حركة آتية من وراء الستار المسدل على باب كبير تحت صورة سعد، فاتجه ناحيتها رأس رضوان وقلبه يخفق باهتمام. وما لبث أن تراءى الرجل فى بذلة سوداء أنيقة، تنتشر بين يديه رائحة زكية، وقد بدا داكن السمرة، حليق الوجه، نحيل الجسم، مائلاً إلى الطول نوعًا، ذا قسمات دقيقة براها الكبر، وعينين صغيرتين ذابلتين، أما طربوشه فقد مال إلى الأمام حتى كاد يمسى حاجبيه، وكان يتقدم هادئًا وقورًا فى خطوات متقاربة وبطيئة معًا، فانعكس منه إلى قلب الشاب إجلالا وطمأنينة. ولازم الصمت حتى وقف أمام الشابين اللذين وقفًا لاستبقاله، ثم تفحصهما بنظرة ثاقبة ثبتت على رضوان طويلاً حتى اختلج جفناه، ثم ابتسم فجأة، فشاع فى الوجه القديم إيناس وجاذبية قربت المسافة التى تفصل بينه وبينهما حتى لم تعد شيئًا. ومد حلمى يده فتناولها الآخر واستبقاها فى يده، ثم مد بوزه وانتظر، فأدرك حلمى غرضه، وسرعان ما عرض له خده فقبله، ثم نظر صوب رضوان قائلاً بصوت رقيق:

ـ لا تؤاخذنى يابنى، فهذه هى طريقة السلام عندى . .

ومد رضوان يده فى حياء، فتناولها الرجل وهو يتساءل ضاحكًا:

ـ وخدك؟

فتورد وجه رضوان، وهتف حلمى مشيراً إلى نفسه:

ـ المخابرة يا سعادة الباشا مع ولى الأمر!

فضحك عبد الرحيم باشا واكتفى بمصافحة رضوان، ثم دعاهما إلى الجلوس وهو يجلس على مقعد كبير على كثب منهما، وقال باسما:

ـ ولى أمرك هذا ملعون يا رضوان، أليس هذا هو أسمك؟ أهلا وسهلاً، لقد رأيتك فى صحبة هذا الولد الشقى، فراقنى أدبك وتمنيت لقاءك، وها أنت لم تضن على به . .

ـ إنى سعيد بالتشرف بمعرفتك يا سعادة الباشا.

فقال الرجل وهو يدير خاتمًا ذهبيًا كبيراً فى بنصر يسراه:

ـ أستغفر الله يا بنى، لا تستعمل عبارات التعظيم وألقاب التفخيم، إننى لا أحب شيئًا

من هذا كله، الذى يهمنى حقًا هو الروح اللطيف والنفس الصافية والإخلاص، أما سعادة الباشا وسعادة البك فكلنا أبناء آدم وحواء، الواقع لقد راقنى أدبك فوددت لو أدعوك على بيتى، فأهلاً بك وسهلاً، أنت زميل حلمى فى كلية الحقوق، أليس كذلك؟

ـ نعم يا فندم، إننا زملاء من عهد خليل أغا الابتدائية . .

فرفع الرجل حاجبيه الأشيبين فى إعجاب قائلاً:

ـ زمالة صبا! . . (ثم وهو يهز رأسه) . . جميل، جميل، لعلك مثله من حى الحسين؟

ـ نعم يا سيدى، ولدت فى بيت جدى السيد محمد عفت بالجمالية، وأقيم الآن بمنزل والدى بقصر الشوق . .

ـ أحياء مصر الأصيلة، البقاع الطيبة، ما رأيك لقد عشت فيها دهرًا مع المرحوم أبى فى بيرجوان، كنت وحيد أبوى، وكنت عفريتًا، وطالما جمعت الصبيان فى شبه زفة ومضينا من حارة إلى حارة نعاكس طوب الأرض، ويا ويل الدنف لو رماه القدر إلى طريقنا، وكان أبى يثور غضبه فيجرى ورائى بالعصا . . قلت يا بنى إن جدك هو محمد عفت؟

فقال رضوان بفخار:

ـ نعم يا سيدى . .

فتفكر الباشا قليلاً ثم قال:

ـ أذكر أنى رأيته مرة فى بيت نائب الجمالية، رجل وجيه ووطنى صادق، كاد يرشح نائبًا فى الانتخابات القادمة لولا تنحيه فى آخر لحظة لصديقه النائب القديم، إن الاتحاد الأخير أوجب الصداقة فى الانتخابات حتى يظفر إخواننا الأحرار الدستوريون ببعض المقاعد، إذن أنت زميل حلمى فى الحقوق! جميل، القانون سيد الدراسات، وهو يتطلب لدراسته ذكاء لماحا، أما عن المستقبل فما عليك إلا الاجتهاد!

وجد فى نبراته الأخيرة ما يوحى بالوعد والتشجيع، فدب فى قلبه الطموح والحماسة فقال:

ـ نحن لم نفشل ولا مرة واحدة فى حياتنا الدراسية!

ـ برافو، هذا هو الأساس، بعد ذلك تجىء النيابة ثم القضاء وسيوجد دائمًا من يفتح الأبواب المغلقة أمام المجتهدين، حياة القضاء شىء عظيم، عمادها الذكاء اليقظ والضمير الحى، لقد كنت بفضل الله من أبنائها الصادقين، وقد تركت القضاء للاشتغال بالسياسة، فالوطنية تحتم علينا أحيانًا أن نهجر أعمالنا المحبوبة ولكن إلى

اليوم تجد من يضرب بنا المثل فى العدالة والنزاهة، فضع نصب عينيك فى الاجتهاد والنزاهة وأنت حر بعد ذلك فى حياتك الخاصة، قم بواجبك وافعل ماتشاء، أما إذا قصرت في الواجب فلن يرى الناس فيك إلا النقائص، ألا ترى أنه لا يحلو لكثير من الفضوليين إلا أن يقولوا فلان الوزير به الداء الفلانى. وفلان الشاعر به الداء العلانى. حسن، ولكن ليس كل المصابين وزراء وشعراء، فكن وزيرًا وشاعرًا أولاً وافعل بعد ذلك ما تشاء، لا يغيبن عن ذكائك هذا الدرس يا أستاذ رضوان. .

وهنا قال حلمى عزت بخبث:

ـ كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه، أليس كذلك يا سعادة الباشا؟

فثنى الرجل رأسه إلى منكبه الأيمن، وقال:

ـ طبعًا، سبحان من له الكمال وحده، الإنسان ضعيف جدًا يا رضوان، ولكن عليه أن يكون قويًا فى الجوانب الأخرى. مفهوم؟ لو تشاء أحدثك عن كبار الرجال فى الدولة ولن تجد واحدًا خاليًا من داء، وسوف نتحادث طويلاً ونتدارس العبر كيما تكون لنا حياة موفورة الكمال والسعادة. .

فنظر حلمى إلى رضوان قائلاً:

ـ ألم أقل لك إن صداقة الباشا كنز لا يفنى؟

فقال عبد الرحيم عيسى موجهًا الخطاب إلى رضوان الذى لم تكد تتحول عنه عيناه:

ـ إنى أحب العلم وأحب الحياة وأحب الناس، وديدنى أن آخذ بيد الصغير حتى يكبر، وأى شىء فى الدنيا خير من الحب؟ يجب إذا واجهتنا مشكلة قانونية أن نحلها معًا، وإذا فكرنا فى المستقبل أن نفكر معًا، وإذا نازعتنا أنفسنا إلى الراحة أن نرتاح معًا، ما وجدت رجلاً حكيمًا مثل حسن بك عماد، اليوم هو من رجال السلك السياسى المعدودين، ودعك أنه من أعدائى السياسيين. ولكنه كان إذا تفرغ لبحث قتله، وإذا طرب رقص عاريًا، الدنيا حلوة على شرط أن تكون حكيمًا واسع. . . الإدراك! ألست واسع الإدراك يا رضوان؟

فأجاب عنه حلمى عزت من فوره:

ـ إذا لم يكن فنحن على استعداد لتوسيعه!. .

فأشرق وجه الباشا بابتسامة طفلية نمت عن رغبته التى لا حد لها فى المسرة، وقال:

ـ هذا الولد عفريت يا رضوان، ولكن ما حيلتى؟ إنه زميل صباك يا بخته، ولست أنا القائل إن الطيور على أشكالها تقع. لازم أنت أيضًا عفريت، خبرنى يا رضوان من أنت؟ هه. إنك تركتنى أتكلم بلا وعى وأنت صامت كدهاة السياسة، هه؟ قل يا رضوان ماذا تحب وماذا تكره؟

عند ذاك دخل الخادم حاملاً صينية القهوة، وكان فتى أمرد شبيها بالبواب والسائق، فشربوا أكواب الماء الممزوجة بالزهر، وجعل الباشا يقول :

ـ الماء بالزهر شراب أهل الحسين، أليس كذلك؟

فغمغم رضوان باسما :

ـ نعم يا سيدى.

فقال الباشا وهو يهز رأسه طربًا :

ـ يا أهل الحسين مدد!

وضحكوا جميعًا، حتى الخادم ابتسم وهو يغادر البهو، واستطرد الباشا متسائلاً :

ـ ما تحب؟ وماذا تكره؟ تكلم بصراحة يا رضوان، دعنى أيسر لك الجواب، أأنت مهتم بالسياسة؟

فقال حلمى عزت :

ـ كلانا فى لجنة الطلبة.

ـ هذا أول سبب للمقاربة بيننا، وهل لك فى الأدب؟

فأجاب حلمى عزت :

ـ إنه مغرم بشوقى وحافظ والمنفلوطى . .

فنره الباشا قائلاً :

ـ اسكت أنت، أريد يا أخى أن أسمع صوته . .

فضحكوا، وقال رضوان باسمًا :

ـ إنى أموت فى شوقى وحافظ والمنفلوطى . .

فقال الباشا بإعجاب :

ـ «أموت فى» ياله من تعبير، لا تسمعه إلا فى الجمالية، أهى نسبة إلى الجمال يا رضوان؟ إذن أنت من هواة «فضة ذهب» و«فى الليل لما خلى» و«من يكن» و«فتن يشيله وفتن يحطه»، الله . . الله، هذا سبب آخر للمقاربة بيننا يا جمالية، وهل تحب الغناء؟

ـ إنه من غواة . .

ـ اسكت أنت.

فضحكوا مرة أخرى، وقال رضوان :

ـ أم كلثوم.

ـ جميل، لعلى من عشاق القديم، ولكن الغناء كله جميل، فأنا أحبه ثقيله وخفيفه كما يقول المعرى، وأموت فيه كما تقول حضرتك. جميل جداً، الليلة عجب.

ودق جرس التليفون، فنهض الباشا إليه، ووضع السماعة على أذنه وهو يقول: آلو!

ـ أهلاً أهلاً معالى الباشا.

ـ . . . .

ـ أنا قلت رأيى للزعيم صراحة، وهو رأى ماهر والنقراشى أيضًا.

ـ . . . .

ـ آسف يا باشا، لا أستطيع. أنا لا أنسى أن الملك فؤاد هو الذى عارض فى ترقيتى يومًا، والملك فؤاد أخر من يتكلم فى الأخلاق، وعلى أى حال سأقابلك غداً فى النادى، سلام عليكم يا باشا. .

وعاد الرجل متجهم الوجه، ولكنه ما كاد يرى وجه رضوان حتى عاوده الانشراح فواصل حديثه قائلاً:

ـ نعم يا سيد رضوان، تعارفنا وما أجمل التعارف، أنصحك بالاجتهاد، أنصحك بألاتتخلى عن الواجب والمثل الأعلى، بعد ذلك أحدثك عن الطرب والهناء. .

وهنا نظر رضوان فى ساعته، فلاح الجزع فى وجه الباشا وقال:

ـ إلا هذا!، الساعة عدو مجالس الأنس.

فتمتم رضوان فى شىء من الارتباك:

ـ ولكنا تأخرنا يا سعادة الباشا.

تأخرنا!. أتعنى أنه تأخر بى العمر!! أخطأت يا بنى، مازلت أحب السهر والجمال والغناء بعد الساعة الواحدة، السهرة لم تبدأ بعد، لم نقل إلا بسم الله الرحمن الرحيم، لا تعترض. السيارة تحت أمركما حتى الصباح، وبلغنى أنك تبيت خارج البيت للمذاكرة، فلنذاكر، لم لا؟. ما أحلى أن أعود إلى المدخل فى القانون العام أو شىء من الشريعة، بهذه المناسبة من يدرس لكم الشريعة؟ الشيخ إبراهيم نديم، مساه الله بالخير، إنه كابتن عظيم، لا تدهش، سنؤرخ يومًا لكل رجال العصر، يجب أن تفهم كل شىء، ليلتنا ليلة محبة وصداقة، خبرنى يا حلمى ما أنسب شراب لمثل هذه الليلة؟

فقال حلمى باطمئنان:

ـ ويسكى وصودا وشواء.

فقال الباشا ضاحكًا:

ـ وهل الشواء شراب يا شقى؟

١٠

عقب الغداء من يوم الخميس يلتئم شمل أسرة خديجة على نحو لا يكاد يتغير. وهكذا جمعت الصالة بين الأب إبراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد، ولما كان من النادر أن تبقى خديجة بدون عمل فقد جلست بينهم وهى تطرز غطاء مائدة، وقد بدأ الكبر أخيراً على إبراهيم شوكت بعد مقاومة طويلة جبارة، فشاب شعره وترهل بعض الشيء، وإن حافظ فيما عدا ذلك على صحة يحسد عليها، وكان يدخن سيجارة، ويأخذ مكانه بين ابنيه فى هدوء وطمأنينة. تعكس عيناه البارزتان نظرة الخمول واللامبالاة التقليدية، على حين لم ينقطع الشابان عن الحديث، فيما بينهما حينا، أو مع الأب أو الأم التى شاركت فى الحديث دون أن ترفع رأسها عن عملها، وقد بدت كتلة عظيمة من الشحم واللحم. لم يعد فى الجو ما ينغص على خديجة صفوها، إذ لم يبق من ينازعها السيادة فى بيتها مذ توفيت حماتها. كانت تقوم بواجباتها بهمة لا تخذلها أبدا، وترعى سمانتها بعناية فائقة وهى جوهر جمالها كله، وتحاول فرض رعايتها على الجميع، الأب والابنين، فيطاوع الرجل، وأما عبد المنعم وأحمد فيشق كل سبيله كما يرى مستعيذين بحبها من سطوتها. وقد نجحت منذ سنوات فى حمل زوجها على احترام تقاليد الدين، فمارس الرجل الصلاة والصوم واعتادهما، وكان عبد المنعم وأحمد قد شبا على ذلك من قبل، غير أن أحمد توقف عن أداء الفريضة منذ عامين، وجعل يتهرب من استجواب أمه كلما استجوبته أو يتعلل بعذر أو بآخر. وكان إبراهيم شوكت يحب أبنيه حبا جما، ويعجب بهما أشد الإعجاب، وينوه فى كل فرصة بنجاحهما المتواصل الذى بلغ بعبد المنعم كلية الحقوق وبأحمد نهاية المرحلة الثانوية، وفى ذلك كانت خديجة تقول فى مباهاة:

ـ كل هذا ثمرة اهتمامى أنا، لو ترك الأمر لك ما فلح أحدهما ولا كان له شأن..

وقد ثبت أخيراً أنها نسيت مبادئ القراءة والكتابة لعدم الاستعمال مما جعلها هدفًا لسخرية إبراهيم، حتى اقترح ابناها أن يذكراها بما نسيت رداً لجميلها الذى تباهى به، فغضبت قليلاً وضحكت كثيراً، ثم لخصت الحال فى كلمة قائلة:

ـ لا حاجة بامرأة إلى الكتابة والقراءة ما دامت لا تكتب رسائل غرام!

بدت فى أسرتها سعيدة راضية، ولعل شهية عبد المنعم وأحمد لم تكن تعجبها كثيراً، كما أن نحافتهما كانت تغيظها فقالت باستياء:

ـ قلت ألف مرة إنه يجب أن تغيرا ريقكما على البابونج ليفتح شهيتكما، يجب أن تأكلاً جيداً، ألا تريان أباكما كيف يأكل؟

وابتسم الشابان وهما ينظران نحو أبيهما، فقال الرجل:

ـ ولماذا لا تضربين المثل بنفسك، وأنت تأكلين كالطاحونة؟

فقالت باسمة:

ـ إنى أترك لهما الحكم والخيار.

فقال إبراهيم محتجًا:

ـ عينك يا شيخة! أصابتنى، لذلك نصحنى الدكتور بأن أخلع أسنانى . .

فلاحت فى عينيها نظرة رقيقة، وقالت:

ـ لا تجزع، ستذهب بشرها، ولن تشكو ألما بعد ذلك إن شاء الله . . وهنا خاطبها أحمد قائلاً:

ـ جارنا ساكن الدور الثانى يرجو أن يؤجل دفع الأجرة حتى الشهر القادم، قابلنى على السلم فرجانى فى ذلك!

فسألته وهى تنظر إليه مقطبة:

ـ وماذا قلت له؟

ـ وعدته بأن أحدث أبى . .

ـ وهل حدثت أباك؟

ـ ها أنا أحدثك أنت!

ـ إننا لا نشاركه فى شقته فلا يجوز له أن يشاركنا فى رزقنا، ولو تساهلنا معه لتبعه ساكن الدور الأول، أنت لا تعرف الناس فلا تتدخل فيما لا يعنيك . .

فنظر أحمد إلى أبيه متسائلاً:

ـ ما رأيك يا بابا؟

فابتسم إبراهيم شوكت قائلاً:

ـ فى عرضك لا تصدع دماغى، عندك أمك . .

فعاد أحمد على أمه قائلاً:

ـ إذا تساهلنا مع رجل مزنوق فلن نجوع . .

فقالت خديجة بامتعاض:

ـ لقد حدثتنى زوجه وأجلت لها الدفع فليترح بالك، ولكنى أفهمتها أن أجرة المسكن واجبة كمصروفات الأكل والشرب، أفى ذلك خطأ؟ إنى ألام أحيانًا لأنى لم أتخذ من جاراتى صديقات، ولكن من يعرف الناس يحمد الله على الوحدة . .

فعاد أحمد يتساءل وهو يغمز بعينه :

ـ وهل نحن خير الناس؟

فعبست خديجة قائلة :

ـ نعم ، إلا إذا كان لك فى نفسك رأى آخر!

فقال عبد المنعم :

ـ رأيه فى نفسه أنه خير الناس جميعًا ، لا رأى إلا رأيه ، والحكمة موقوفة على رأسه!

فقالت خديجة متهكمة :

ـ ومن رأيه أيضًا أن يستأجر الناس البيوت دون دفع أجرتها!

فقال عبد المنعم ضاحكًا :

ـ إنه غير مقتنع بأنه من حق بعض الناس أن يملكوا بيوتًا على الإطلاق . .

فقالت خديجة وهى تهز رأسها :

ـ يا عينى على الرأى الفقرى . .

وحدج أحمد أخاه بنظرة غاضبة ، فهز عبد المنعم منكبيه باستهانة وهو يقول :

ـ راجع نفسك قبل أن تغضب . .

فقال أحمد محتجًا :

ـ يحسن بنا ألا نتناقش معا!

ـ بل انتظر حتى تكبر . .

ـ إنك أكبر منى بعام لا أكثر . .

ـ أكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة . .

ـ هذا المثل لا أومن به!

ـ اسمع ، لا يهمنى إلا شىء واحد ، هو أن تعود إلى الصلاة معى . .

فهزت خديجة رأسها بأسف وهى تقول :

ـ صدق أخوك ، الناس تكبر تعقل أما أنت فأعوذ بالله منك ، حتى أبوك صلى وصام ، فكيف فعلت بنفسك ما فعلت؟ إنى أتساءل ليل نهارًا!

فقال عبد المنعم بصوت قوى شديد الثقة بنفسه :

ـ بالصراحة إن رأسه يحتاج إلى تطهير من الداخل . .

ـ إنه . .

ـ اسمعى ، هذا الشاب لا دين له ، هذا ما بت أعتقده . .

فلوح أحمد بيده كالغاضب ، وهتف متسائلاً :

ـ من أين لك الحق فى الحكم على القلوب؟

ـ الأفعال تنم عن السرائر (ثم وهو يدارى ابتسامة) يا عدو الله!

فقال إبراهيم شوكت دون أن يخرج من هدوئه وطمأنينته:

ـ لاتتهم أخاك ظلمًا.

وقالت خديجة مخاطبة عبد المنعم وهى تلحظ أحمد:

ـ لا تسلب أخاك أعز ما يملك الإنسان، كيف لايكون مؤمنا؟! إن آل أمه لا تنقصهم إلا العمائم ليكونوا من رجال الدين، وكان جده من صميم رجال الدين، لقد نشأنا فوجدنا من حولنا يصلون ويتعبدون كأننا فى جامع!

فقال أحمد متهكما:

ـ مثل خالى ياسين..!

وندت عن إبراهيم شوكت ضحكة، فقالت خديجة متظاهرة بالغضب:

ـ تكلم عن خالك بأدب، ماله؟ قلبه عامر بالإيمان وربنا يهديه، انظر إلى جدك وجدتك.

ـ وخالى كمال؟

ـ خالك كمال من محاسيب الحسين، أنت لا تدرى شيئًا.

ـ بعض الناس لا يدرون شيئًا..

فسأل عبد المنعم محتدا:

ـ لو كان الناس جميعًا مهملين فى دينهم، فهل يشفع لك ذلك؟

فقال أحمد فى هدوء:

ـ على أى حال اطمئن، فلن تؤخذ يومًا بذنبى!

وهنا قال إبراهيم شوكت:

ـ كفاكما خصاما، نفسى أراكما كرضوان ابن خالكما..

فحدجته خديجة بنظرة استياء، كأنما عز عليها أن يعد رضوان خيراً من ابنيها، فقال إبراهيم موضحًا رأيه:

ـ هذا الشاب على صلة بكبار الساسة، شاب ذكى، وقد ضمن بذلك مستقبلاً باهراً..

فقالت خديجة غاضبة:

ـ لست من رأيك، رضوان شاب سيئ الحظ، ككل شاب يحرمه سوء الحظ من رعاية أمه، وزنوبة «هانم» لا تهتم فى الواقع بأمره، أنا لا أنخدع بحسن معاملتها له فهذه

سياسة كسياسة الإنجليز، لذلك لا يقر للمسكين قرار، وأكثر أيامه يبيتها خارج بيته، أما صلته بالكبراء فلا معنى لها، إنه طالب مع عبد المنعم فى سنة واحدة، فما معنى هذا التداخل الخطير؟ أنت لا تعرف كيف تضرب الأمثال..

فرمقها إبراهيم بنظرة كأنما يقول لها: «لا يمكن أن تقرينى على رأى»، ثم قال مواصلاً إيضاح رأيه:

ـ ليس الشبان اليوم كما كانوا فى الزمن الماضى، السياسة غيرت كل شىء، فكل كبير له مريدوه منهم، والطموح الذى يريد أن يشق سبيله فى الحياة لابد له من كبير يرجع إليه، إن مكانة والدك الكبيرة تقوم على اتصالاته الوثيقة بالكبراء!

فقالت خديجة بكبرياء:

ـ أبى يسعى الناس إلى التعرف به ولا يسعى هو إلى أحد، أما عن السياسة فأبنائى لا شأن لهم بها، لو أتيح لهما أن يريا خالهما الشهيد لأدركا من نفسيهما معنى كلامى، بين يحيا فلان ويسقط فلان يهلك أبناء الناس، ولو عاش المرحوم فهمى لكان من أكبر القضاة اليوم..

فقالت عبد المنعم:

ـ لكل طريقته، نحن لا نقلد أحداً، ولو أردنا أن نكون كرضوان لكنا:..

فقال خديجة:

ـ أحسنت!

وقال له أبوه باسمًا:

ـ أنت كأمك، وكلاكما لا تساويان شيئًا..

ودق الباب، فجاءت الخادم تؤذن بقدوم الجارة الساكنة فى الدور الأول، فقالت خديجة وهى تهم بالقيام:

ـ ماذا تريد يا ترى؟.. إن كان فى الأمر تأجيل دفع أجرة فلن يفصل بيننا إلا قسم الجمالية!

١١

كان الموسكى شديد الزحام، اكتظ بأهله وما أكثرهم فضلاً عما استجد عليه ذلك اليوم من تيارات بشرية تدفقت من ناحية العتبة. وكانت شمس إبريل الصافية تقذف لهبا، فشق

عبد المنعم وأحمد سبيلهما فى جهد غير يسير وهما يتصببان عرقًا. وقال أحمد وهو يتأبط ذراع أخيه:

ـ حدثنى عن شعورك . .

فتفكر عبد المنعم قليلاً، ثم راح يقول:

ـ لا أدرى، الموت رهيب، فما بالك بموت ملك، وكان طريق الجنازة مكتظًا بالناس بصورة لم أشهدها من قبل، أنا لم أشهد جنازة سعد زغلول حتى أستطيع المقارنة بين الجنازتين، ولكن يبدو لى أن أكثر الناس كان متأثرًا على نحو ما، وبعض النساء يبكين، نحن المصريين قوم عاطفيون . .

ـ لكنى أسألك عن شعورك أنت؟

فعاد عبد المنعم يفكر وهو يتفادى من الارتطام بالناس، ثم قال:

ـ لم أكن أحبه، وهذا اعتنقناه جميعًا فأنا لم أحزن، ولكننى لم أسر كذلك، تابعت النعش بعين من لا قلب له، لا له ولا عليه، غير أن فكرة الجبار فى النعش أثرت فى، لا يمكن أن يمر منظر كهذا دون أن يؤثر فى، لله الملك جميعًا، هو الحى الباقى فليت الناس يعلمون، غير أنه لو مات الملك قبل أن تتغير الحالة السياسية التى كانت قائمة لزغرد كثيرون وكثيرون جدًا، وأنت ما شعورك؟

ـ أنا لا أحب الطغاة أيا كانت الحالة السياسية!

ـ هذا حسن، ولكن منظر الموت؟!

ـ ولا أحب الرومانتيكية المريضة!

فتساءل عبد المنعم فى ضجر:

ـ أسررت إذن؟

ـ تمنيت أن يمتد بى العمر حتى أرى العالم وقد خلص من كافة الطغاة على اختلاف أسمائهم وأوصافهم . .

وسكتا قليلاً وكان التعب قد نال منهما كل منال، ثم عاد أحمد يتساءل:

ـ وماذا عما بعد ذلك؟

فقال عبد المنعم بلهجة اليقين التى اشتهر بها:

ـ فاروق غلام، ليس له دهاء أبيه ولا نابه الأزرق، فإذا سارت الأمور سيرًا حسنا، فنجحت المفاوضات، وعاد الوفد إلى الحكم، فسوف تستقر الأمور وينقضى عهد المؤامرات، . . المستقبل حسن فيما يبدو . .

ـ والإنجليز؟

ـ إذا نجحت المفاوضات انقلب الإنجليز أصدقاء، وبالتالى ينقطع التحالف القائم بين السراى والإنجليز ضد الشعب، فلا يجد الملك بدا من احترام الدستور.

ـ الوفد خير من غيره..

ـ بلا شك، إنه لم يحكم طويلا حتى يعرف مدى قدرته، وقريبا تكشف التجربة عن إمكانياته الحقيقية، إنى أوافقك على أنه خير من غيره، ولكن طموحنا لن يقف عنده!

ـ طبعا، إنى أومن بان حكم الوفد نقطة ابتداء حسنة لتطور أعظم، وهذا كل ما هنالك، ولكن هل نتفق مع الإنجليز حقا؟

ـ إما الاتفاق وإما العودة إلى حكم صدقى، فى أمتنا احتياطى من الخونة لا ينفد، كل مهمته دائما تأديب الوفد إذا قال للإنجليز «لا»، وإنهم لفى الانتظار، هذه هى المأساة..

وعندما بلغا السكة الجديدة وجدا نفسيهما فجأة أمام جدهما أحمد عبد الجواد الذى كان متجها صوب الصاغة، فتقدما إليه وسلما عليه بإجلال، فسألهما باسما:

ـ من أين وإلى أين؟

فقال عبد المنعم:

ـ كنا نتفرج على جنازة الملك فؤاد..

فقال الرجل دون أن تفارق الابتسامة شفتيه:

ثم صافحهما ومضى كل إلى حال سبيله، وأتبعه أحمد نظره قليلا، ثم قال:

ـ جدنا ظريف وأنيق، لقد ملأ أنفى شذا طيبا..

ـ نينة تروى عن جبروته الأعاجيب..

ـ لا أظنه جبارا، هذا شىء لا يصدق.

فضحك عبد المنعم قائلاً:

ـ إن الملك فؤاد نفسه بدا فى أواخر عهده لطيفًا طيبًا.

وضحكا معًا. مضيا إلى قهوة أحمد عبده. وفى الحجرة المواجهة للنافورة رأى أحمد شيخًا مرسل اللحية حاد البصر يتوسط جمعًا من الشبان يتطلعون إليه فى اهتمام، فتوقف وهو يقول لأخيه:

ـ الشيخ على المنوفى صديقك، أخرجت الأرض أثقالها، ينبغى أن أتركك هنا..

فقال عبد المنعم:

ـ تعالى اجلس معنا، أحب أن تجالسه وتسمع له، ناقشه كيفما شئت، كثير ممن حوله من طلبة الجامعة..

فقال أحمد وهو يخلص ذراعه من ذراع أخيه:

- لا ياعم، كدت مرة أشتبك معه فى عراك، أنا لا أحب المتعصبين، مع السلامة..

فحدجه عبد المنعم بنظرة انتقاد، ثم قال بحدة:

- مع السلامة، ربنا يهديك..

وأقبل عبد المنعم على مجلس الشيخ على المنوفى ناظر مدرسة الحسين الأولية، فنهض الرجل لاستقباله - وقد نهض معه جميع الجلوس حوله - وتعانقا، ثم جلس الشيخ وجلسوا وهو يتساءل متفحصًا عبد المنعم بعينيه الحادتين:

- لم نرك أمس؟..

- المذاكرة..

- الاجتهاد عذر مقبول، ومال أخيك قد تركك وذهب؟

فابتسم عبد المنعم ولم يجب، فقال الشيخ على المنوفى:

- ربنا الهادى، لا تعجبوا له، لقد صادف مرشدنا كثيرين من أمثاله هم اليوم من أشد المخلصين لدعوته، ذلك أن الله إذا أراد لقوم هداية فلن يكون للشيطان عليهم من سلطان، ونحن جنود الله، ننشر نوره، ونحارب عدوه، وهبنا أرواحنا له من دون الناس، فما أسعدكم جنود الله..

وقال أحد الجالسين:

- ولكن مملكة الشيطان كبيرة!

فقال الشيخ على المنوفى معاتبًا:

- انظروا إلى من يخاف دنيا الشيطان والله معه! ماذا نقول له؟ نحن مع الله والله معنا فماذا نخاف؟ منْ من جنود الأرض يتمتع بقوتكم؟ وأى سلاح أحد من سلاحكم؟ الإنجليز والفرنسيون والألمان والطليان جل اعتمادهم على الحضارة المادية، أما أنتم فاعتمادكم على الإيمان الصادق، إن الإيمان يفل الحديد، الإيمان أقوى قوة فى العالم، املأوا قلوبكم الطاهرة بالإيمان تخلص الدنيا لكم..

فقال آخر:

- نحن مؤمنون، ولكننا أمة ضعيفة.

فكور الشيخ قبضته وشد عليها وهو يهتف:

- إذا كنت تستشعر ضعفًا فإيمانك يعتوره نقص وأنت لا تدرى، الإيمان خالق القوة وباعثها، إن القنابل تصنعها أيد كأيدينا وهى ثمرة القوة قبل أن تكون من مسبباتها، كيف انتصر النبى على أهل الجزيرة؟ وكيف قهر العرب العالم كله؟

فقال عبد المنعم بحماسة :

ـ الإيمان . . الإيمان . .

غير أن صوتًا رابعًا تساءل :

ـ ولكن كيف كان للإنجليز هذه القوة وهم قوم غير مؤمنين؟

فابتسم الشيخ متخللا لحيته بأصابعه وهو يقول :

ـ لكل قوى إيمانه ، إنهم يؤمنون بالوطن وبالمصلحة ، أما الإيمان بالله فهو فوق كل شيء ، وأحرى بالمؤمنين بالله أن يكونوا أقوى من المؤمنين بالحياة الدنيا ، فتحت أيدينا نحن المسلمين ذخيرة مدفونة يجب أن نستخرجها . يجب أن يبعث الإسلام كما بعث أول مرة ، نحن مسلمون إسما فيجب أن نكون مسلمين فعلاً ، لقد من الله علينا بكتابه فتجاهلناه فحقت الذلة علينا ، فلنعد إلى الكتاب ، هذا هو شعارنا ، العودة إلى القرآن ، بذلك نادى المرشد فى الإسماعيلية ، ومن ساعتها ودعوته تسرى فى الأرواح ، غازية القرى والدساكر حتى تملأ القلوب جميعًا . .

ـ ولكن أليس من الحكمة أن نتجنب السياسة؟

ـ الدين هو العقيدة والشريعة والسياسة ، إن الله أرحم من أن يترك أخطر الأمور الإنسانية دون تشريع وتوجيه ، وهذا فى الواقع هو درسنا الليلة . . .

كان الشيخ شديد الحماسة ، وكانت طريقته أن يقرر حقيقة ما ، ثم تدور حولها المناقشات ما بين أسئلة من مريديه وأجوبة عليها منه ، يقوم أكثرها على الاستشهاد بالقرآن والحديث . وكان يتحدث وكأنه يخطب ، أو كأنه يخطب الجالسين فى القهوة جميعًا . فسمعه أحمد وهو جالس فى أقصى المكان ، يحتسى الشاى الأخضر ، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة . وكان يقيس الشقة بينه وبين هذه المجموعة المتحمسة فى عجب ، ويجد نحوها ازدراء وغضبًا ، وثار به التحدى مرة فهم بأن يطلب من الشيخ أن يخفض من صوته حتى لا يعكر على رواد القهوة صفاء راحتهم ، ولكنه عدل عما هم به فى اللحظة التى تذكر وجود أخيه بينهم . وأخيراً لم يجد بدا من مغادرة القهوة ، فقام ساخطًا وغادرها . .

١٢

عاد عبد المنعم إلى السكرية حوالى الثامنة مساء . وكان الجو سكت حنقه فمال إلى اللطافة وشاعت فيه رقة الربيع . كان الدرس ما يزال يكبر فى رأسه ويتردد فى قلبه ،

ولكن أعياه الجهد والفكر. وعبر حوش البيت فى ظلام دامس ثم اتجه إلى السلم، وفى تلك اللحظة فتح باب الدور الأول، وعلى الضوء المنبعث من داخل الشقة رأى شبحًا يتسلل إلى الخارج ثم أغلق الباب وراءه وسبقه إلى السلم. وخفق قلبه وجرى دمه حارًا كحشرة هيجها القيظ. رآها فى الظلام تنتظر عند أول بسطة وتتطلع نحوه فتطلع نحوها، ولم يتحول عنها رأسه. وعجب كيف يستغفل الصغار الكبار، فهذه الصغيرة غادرت بيتها بحجة زيارة الجيران، وسوف تزور الجيران، ولكن بعد خوض مغامرة خطيرة فوق بسطة السلم المستكنة فى الظلام. ولتوه وجد رأسه فارغًا، تبخر ما كان يصطرع فيه من أفكار وتطاير، وتركز هو فى رغبة واحدة هى أن يشبع النهم الذى بات يؤرق أعصابه وأعضاءه. أما ذلك الإيمان الصادق فيبدو أنه ولى غاضبًا، أو غاص فى الأعماق يدمدم حانقًا ولكن صوته ضاع فى أزيز النار المستعرة. أليست هى فتاته؟. بلى، تشهد بذلك حنايا الحوش وبئر السلم وركن السطح المطل على السكرية. وكانت بلا ريب ترقب عودته لتلتقى به فى اللحظة المناسبة. كل هذا العناء من أجله هو! ومضى متعجلاً حذرًا حتى وقف إزاءها على البسطة، لا يكاد يفصل بينهما شىء، وقد سطع أنفه شذا شعرها، ودغدغ عنقه تردد أنفاسها. وربت منكبها برقة هامسًا:

ـ نصعد إلى البسطة الثانية فنكون فى موضع آمن من هذا.

تقدمته دون أن تنبس فتبعها محاذرًا. وبلغا البسطة الثانية فيما بين الدورين فوقفت مستندة إلى الجدار ووقف بين يديها، ثم أحاطها بذراعيه فقاومته بحكم العادة مقدار ثانية ثم سكنت فى حضنه..

ـ حبيبتى..

ـ انتظرتك فى النافذة، نينة مشغولة باستعدادات شم النسيم.

ـ كل سنة وانت طيبة، دعينى أشم النسيم بين شفتيك..

والتقت شفتاهما فى قبلة طويلة جائعة. ثم تساءلت:

ـ أين كنت؟

ذكر فى سرعة خاطفة درس السياسة فى الإسلام، ولكنه أجاب:

ـ مع بعض الأصدقاء فى القهوة..

قالت بلهجة تشى بالاحتجاج:

ـ القهوة ولم يبق على الامتحان إلا شهر؟

ـ ولكن أعرف واجبى، سأقبلك قبلة ثانية جزاء سوء ظنك بى..

ـ صوتك عال، أنسيت أين نحن؟

ـ نحن فى بيتنا، فى غرفتنا، هذه البسطة هى غرفتنا!

ـ العصر وأنا ذاهبة إلى خالتى نظرت إلى فوق لعلى أراك فى النافذة، فإذا بوالدتك تطل على الحارة فالتقت عينى بعينها فارتعدت من الخوف.

ـ ماذا خفت؟

ـ خيل إلى أنها عرفت عمن أبحث وأنها كشفت سرى . .

ـ تعنين سرنا، إنه شىء واحد يربطنا، ألسنا الآن شيئًا واحدًا؟

وضمها إلى صدره بعنف فى رغبة جامحة، وفى الوقت نفسه كأنما كان يجد هاربًا من أصوات المعارضة الخافتة فى أعماقه باستسلام يائس، فلفحته نيران متأججة، واحتوته قوة قادرة على إذابة اثنين فى دوامة واحدة . .

وند عن الصمت تنهيدة ثم تردد أنفاس، وشعر أخيرا بأنه هو وأنها هى وأن الظلام يضم شبحين. ثم جاءه همسها الرقيق يقول فى استحياء:

ـ نتقابل غدًا؟

فرد فى امتعاض حاول ما أستطاع التستر عليه:

ـ نعم . . ، نعم، ستعلمين فى حينه . .

ـ أخبرنى الآن . .

فقال والامتعاض يزداد ثقلاً على قلبه:

ـ لا أدرى كيف يكون وقتى غدًا!

ـ لمه؟ . .

ـ اذهبى بالسلامة، سمعت صوتًا!

ـ كلا لا صوت هناك . .

ـ لا ينبغى أن يجدنا أحد هكذا . .

وربت كتفها كأنما يربت خرقة ملوثة، وتخلص من ذراعيها فى رقة مفتعلة ثم رقى فى السلم على عجل. كان والداه جالسين فى الصالة يستمعان إلى الراديو، وكانت حجرة المكتب مغلقة الباب مضاءة الشراعة مما دل على أن أحمد يذاكر، فحياهما تحية المساء وقصد حجرة النوم ليخلع ملابسه. واستحم، توضأ، وعاد إلى حجرته فصلى، ثم تربع على سجادة الصلاة وراح فى تأمل عميق. كانت عيناه ترنوان بنظرة حزينة، وكان صدره يضطرم شجنا، وهفت نفسه إلى البكاء، ودعا ربه أن يطرد الشيطان عن سبيله وأن يشد أزره فى مقاومة الغواية. ذلك الشيطان الذى يعترضه فى صورة فتاة ويندفع فى دمه رغبة جامحة. ودائمًا أبدا يقول عقله لا فيقول قلبه نعم، ثم يتلقفه ذلك الصراع المخيف الذى

ينتهى بالهزيمة والندم. كل يوم تجربة وكل تجربة جحيم فمتى ينقضى هذا العذاب؟! إن نضاله الروحى كله مهدد بالخراب وكأنما يبنى قصوراً فى الهواء ولن يقر قرار لغارق فى الطين، فليت الندم يستطيع أن يرجع ساعة مضت.

١٣

أخيراً اهتدى أحمد إبراهيم شوكت إلى مبنى مجلة «الإنسان الجديد» بغمرة. كان المبنى يقع فى مكان وسط بين محطتى الترام، وكان مكوناً من دورين وبدروم، فأدرك لأول وهلة أن الدور الأعلى مسكن كما استدل من الغسيل المعلق فى شرفته، أما الدور الأول فقد ثبتت لافتة باسم المجلة على بابه، وأما البدروم فقد خصص للمطبعة التى رأى آلاتها خلل قضبان النوافذ. وصعد درجات أربعاً إلى الدور الأول، ثم سأل أول من التقى به ـ وكان عاملاً يحمل بروفات ـ عن الأستاذ عدلى كريم صاحب المجلة، فأشار الرجل إلى باب مغلق فى نهاية صالة خالية من الأثاث حيث تراءت لافتة رئيس التحرير، فمضى وهو يتلفت فيما حواليه عله يجد حاجبا ولكنه ألفى نفسه منفرداً بالباب فتردد لحظة ثم طرق برقة حتى جاءه صوت من الداخل يقول «أدخل» ففتح الباب ودخل، فالتقت عيناه فى نهاية الصالة بعينين واسعتين تحدقان به متسائلتين من تحت حاجبين كثيفين أشيبين، فرد الباب وراءه وقال بصوت المعتذر:

ـ لا مؤاخذة، دقيقة واحدة. .

فقال الرجل بصوت رقيق:

ـ تفضل. .

وتقدم أحمد من مكتب كدست فوقه الكتب والأوراق، ثم سلم على الأستاذ الذى قام لاستقباله، ثم جلس بعد أن جلس الرجل وأذن له فى الجلوس. شعر بالارتياح والزهو وهو يرنو إلى الأستاذ الكبير الذى تلقى عنه النور والعرفان فى الأعوام الثلاثة الماضية، سواء عن مؤلفاته أم مجلته، فراح يملأ عينيه من الوجه الشاحب الذى خط الشيب شعره وعلاه الكبر فلم يبق له من أمارات الفتوة إلا عينان عميقتان تشعان بريقا نفاذا. هذا أستاذه، أو أبوه الروحى كما يدعوه، وإنه الآن فى حجرة الوحى التى لا جدران لها ولكن رفوف الكتب تمتد عاليا حتى السقف.

وقال الأستاذ بلهجة المتسائل:

ـ أهلاً وسهلاً؟

فقال أحمد بلباقة :

ـ جئت لأسدد الاشتراك .

ولما اطمأن إلى الأثر الطيب الذى أحدثه قوله استدرك قائلاً :

ـ وأسأل عن مصير مقالة أرسلتها إلى المجلة من أسبوعين .

فابتسم الأستاذ عدلى كريم وهو يتساءل :

ـ اسم حضرتك؟

ـ أحمد إبراهيم شوكت .

فارتسمت على جبين الأستاذ تقطيبة التذكر ثم قال :

ـ إنى أذكرك ، أنت أول مشترك فى مجلتى . نعم ، وجئتنى بثلاثة مشتركين ، هه؟ إنى أذكر اسم شوكت ، وأظننى أرسلت لك خطاب شكر باسم المجلة؟

فقال أحمد بارتياح ممتنا لهذا التذكر الجميل :

ـ جاءنى كتاب حضرتك اعتبرتنى فيه «صديق المجلة الأول»!

ـ هذا حق ، إن مجلة الإنسان الجديد مجلة مبدأ ولا بد لها من أصدقاء مؤمنين لتشق طريقها فى زحمة مجلات الصور والاحتكار ، فأنت صديق المجلة ، أهلاً وسهلاً ، ولكنك لم تشرفنا بالزيارة من قبل؟

ـ كلا ، إنى لم آخذ البكالوريا إلا فى هذا الشهر .

فضحك الأستاذ عدلى كريم قائلاً :

ـ أنت فاهم أن المجلة لا يزورها إلا الحاصل على البكالوريا؟!

فابتسم أحمد فى ارتباك وقال :

ـ كلا طبعًا ، أعنى أنى كنت صغيراً .

فقال الأستاذ جاداً :

ـ لا يليق بقارئ الإنسان الجديد أن يحسب العمر بالسنين ، فى بلادنا شيوخ جاوزوا الستين ولكنهم ما زالوا شبانا بعقولهم ، وفيها شبان فى ربيع العمر ولكنهم معمرون ـ منذ ألف سنة أو أكثر ـ بعقولهم ، وهذا هو داء الشرق . . (ثم بلهجة أرق) وهل أرسلت إلينا مقالات من قبل؟

ـ ثلاث مقالات كان مصيرها الإهمال ، ثم مقالة أخيرة كنت أطمع فى نشرها!

ـ عن ماذا؟ لا تؤاخذنى فإنى أتلقى عشرات المقالات يوميًا؟

ـ عن رأى لوبون فى التعليم وتعليقى عليه!

ـ على أى حال ستبحث عنها فى السكرتارية ـ الحجرة المجاورة لحجرتى ـ وتعلم بمصيرها . .

وهم أحمد بالقيام ولكن الأستاذ عدلى أشار إليه بالاستمرار فى الجلوس وهو يقول :

ـ المجلة اليوم فى شبه إجازة ، أرجو أن تمكث معى قليلاً لنتحدث .

فتمتم أحمد بارتياح عميق :

ـ بكل سرور يا فندم .

ـ قلت إنك أخذت البكالوريا هذا العام ، كم سنك؟

ـ ستة عشر عامًا .

ـ سن مبكرة ، حسن ، هل المجلة منتشرة فى المدارس الثانوية؟

ـ كلا للأسف . .

ـ أعلم هذا ، أكثرية قرائنا فى الجامعة ، القراءة فى مصر ملهاة رخيصة ، ولن تتطور حتى نؤمن بأن القراءة ضرورة حيوية .

ثم بعد قليل من الصمت :

ـ وما حال التلاميذ؟

فنظر إليه أحمد متسائلاً كأنما يستزيده تفسيراً لقوله ، فقال الرجل :

ـ إنى أسأل عن الناحية السياسية باعتبارها أوضح من غيرها . .

ـ الأغلبية الساحقة من التلاميذ وفديون . .

ـ ولكن ثمة كلام عن حركات جديدة؟

ـ مصر الفتاة؟ . . لا وزن لها ، فرقة تعد على الأصابع ، الأحزاب الأخرى لا أنصار لها إلا أقارب زعمائها ، وهناك قلة لا تهتم بشئون الأحزاب كافة ، وآخرون ـ وأنا منهم ـ نفضل الوفد على غيره ولكننا نطمع فيما هو أكمل . .

فقال الرجل بارتياح :

ـ هذا ما أسأل عنه ، الوفد حزب الشعب ، وهو خطوة تطورية خطيرة وطبيعية فى آن واحد ، كان الحزب الوطنى حزبًا تركيًا دينيًا رجعيًا ، أما الوفد فهو مبلور القومية المصرية ومطهرها من الشوائب والخبائث ، إلى أنه مدرسة الوطنية والديمقراطية ، ولكن المسألة أن الوطن لا يقنع وما ينبغى له أن يقنع بهذه المدرسة ، نريد مرحلة جديدة من التطور ، نريد مدرسة اجتماعية ، لأن الاستقلال ليس بالغاية الأخيرة ، ولكنه الوسيلة لنيل حقوق الشعب الدستورية والاقتصادية والإنسانية .

فهتف أحمد بحماس :

ـ ما أجمل هذا الكلام!

ـ ولكن ينبغى أن يكون الوفد نقطة البدء، أما مصر الفتاة فحركة فاشستية رجعية مجرمة، ليست دون الرجعية الدينية خطراً وهى ليست إلا صدى للعسكرية الألمانية والإيطالية التى تعبد القوة وتقوم على الاستبداد وتزرى بالقيم الإنسانية والكرامة البشرية، إن الرجعية داء مستوطن فى الشرق كالكوليرا والتيفود فينبغى استئصاله . .

فعاد أحمد يقول متحمساً :

ـ إن جماعة «الإنسان الجديد» تؤمن بهذا كل الإيمان . .

فهز الرجل رأسه الكبير فى أسف وهو يقول :

ـ ولذلك فالمجلة هدف للرجعيين من كافة النحل، إنهم يرموننى بإفساد الشباب!

ـ كما اتهموا سقراط من قبل . .

فابتسم الأستاذ عدلى كريم فى ارتياح وقال :

ـ وما وجهتك؟ أعنى أى كلية تقصد؟

ـ الآداب . .

فاعتدل الأستاذ فى جلسته، وقال :

ـ الأدب وسيلة من وسائل التحرير الكبرى، ولكنه قد يكون وسيلة للرجعية، فاعرف سبيلك، فمن الأزهر ودار العلوم خرجت آداب مرضية عملت أجيالاً على تجميد العقل وقتل الروح، ومهما يكن من أمر ـ ولا تدهش أن يصارحك بهذا الرأى رجل معدود فى الأدباء ـ فالعلم أساس الحياة الحديثة، ينبغى أن ندرس العلوم وأن نشبع بالعقلية العملية، الجاهل بالعلم ليس من سكان القرن العشرين ولو كان عبقرياً، وعلى الأدباء أن ينالوا حظهم منه. لم يعد العلم وقفاً على العلماء، أجل لهؤلاء التضلع والتعمق والبحث والكشف، ولكن على كل مثقف أن يضىء نفسه بنوره وأن يعتنق مبادئه ومناهجه ويتحلى بأسلوبه، ينبغى أن يحل العلم محل الكهانة والدين فى العالم القديم.

فقال أحمد مؤمنا على قول أستاذه :

ـ ولذلك كانت رسالة «الإنسان الجديد» هى تطوير المجتمع على أساس علمى . .

فقال عدلى كريم باهتمام :

ـ أجل على كل منا أن يقوم بواجبه، ولو وجد وحيداً فى الميدان . .

فهز أحمد رأسه موافقاً فعاد الآخر يقول :

ـ ادرس الآداب كما تشاء، واعن بعقلك أكثر ما تعنى بالمحفوظات، ولا تنس العلم

الحديث، ولا يجب أن تخلو مكتبتك ـ إلى جانب شكسبير وشوبنهور ـ من كونت وداروين وفرويد وماركس وإنجلز، لتكون لك حماسة أهل الدين ولكن ينبغى أن تذكر أن لكل عصر أنبياءه، وأن أنبياء هذا العصر هم العلماء.

وابتسم الأستاذ ابتسامة أوحت بأنها تحية الختام فنهض أحمد مادا يده، وسلم ثم غادر الحجرة ممتلئا حياة وسعادة. وفى الصالة الخارجية ذكر الاشتراك والمقالة فمال إلى الحجرة المجاورة، وطرق الباب مستأذنا ثم دخل. رأى حجرة بها ثلاثة مكاتب، اثنان خاليان، والثالث جلست عليه فتاة. لم يكن يتوقع هذا فوقف ينظر إليها فى حيرة وتساؤل. كانت فى العشرين، عميقة السمرة، سوداء العينين والشعر، وكان فى أنفها الدقيق وذقنها المدبب وفمها الرقيق ما يوحى بالقوة، دون أن يفسد ملاحتها. ساءلت وهى تتفحصه:

ـ أفندم؟

فقال يعزز مركزه:

ـ الاشتراك..

ودفع المبلغ وأخذ الإيصال، وفى أثناء ذلك كان قد تغلب على ارتباكه فقال:

ـ كنت قد أرسلت مقالة إلى المجلة، وأخبرنى الأستاذ عدلى كريم بأنها فى السكرتارية.

وهنا دعته للجلوس على كرسى أمام المكتب فجلس ثم سألت:

ـ عنوان المقالة من فضلك؟

قال دون أن يشعر بارتياح لموقفه هذا أمام فتاة:

ـ التعليم عند لوبون.

ففتحت دوسيها، وفرت أوراقًا حتى استخرجت المقال، ولمح أحمد خطه فخفق قلبه، وحاول أن يقرأ التوقيع الأحمر عليه من مجلسه غير أنهاوفرت عليه عناء المحاولة إذ قالت:

ـ موقع عليه بما يأتى «يلخص وينشر فى باب رسائل القراء».

فشعر أحمد بخيبة أمل، ولبث لحظات ينظر إليها دون أن ينبس، ثم تساءل:

ـ فى أى عدد؟

ـ فى العدد القادم.

فسأل بعد تردد:

ـ ومن الذى يلخصه؟

ـ أنا.

وداخله شعور بالامتعاض، ولكنه سأل:

ـ ويوقع عليه باسمى؟

فقالت ضاحكة:

ـ طبعًا، ينشر عادة ما يفيد بأنه جاءتنا رسالة من الأديب (ثم وهى تنظر إلى الإمضاء) أحمد إبراهيم شوكت ثم نورد تلخيصًا وافيًا لفكرتك!

فتردد قليلاً ثم قال:

ـ كنت أفضل لو نشرت بأكملها..

فقالت باسمة:

ـ المرة القادمة إن شاء الله..

فجعل ينظر إليها صامتًا ثم سألها:

ـ حضرتك موظفة هنا؟

ـ كما ترانى!

نازعته نفسه أن يسألها عن مؤهلاتها ولكن شجاعته خذلته فى اللحظة الأخيرة فسألها:

ـ اسم حضرتك من فضلك لأطلبك فى التليفون إذا لزم الأمر!

ـ سوسن حماد.

ـ متشكر جدًا.

ونهض محييًا إياها بيده، وقبل أن يغادر الحجرة التفت نحوها قائلاً:

ـ أرجو أن تلخصيها بعناية..

فقالت دون أن تنظر إليه:

ـ إنى أعرف واجبى!

فغادر الغرفة نادمًا على قوله..

١٤

كان كمال فى حجرة مكتبه عندما جاءت أم حنفى لتقول له:

ـ سى فؤاد الحمزاوى عند سيدى الكبير..

ونهض كمال بجلبابه الفضفاض وغادر الحجرة مسرعًا إلى تحت. إذن عاد فؤاد إلى القاهرة بعد غيبة عام، عاد وكيل نيابة قنا العتيد! وكان تجيش بصدره مشاعر صداقة ومودة بيد أن شوائب عدم الارتياح شابتها، فصداقته لفؤاد كانت ولا تزال تنطوى على نوع من الصراع، صراع من الحب والنفور، بين المودة والغيرة، ومهما يحاول أن يتسامى بعقله فالغرائز تشده على رغمه إلى الإسفاف الدنيوى. فلم يكن يشك وهو يهبط السلم فى أن هذه الزيارة ستثير عنده ذكريات سعيدة ولكنها فى الوقت نفسه ستنكأ جروحًا كادت أن تندمل. وعندما مر فى الصالة بمجلس القهوة المكون من الأم وعائشة ونعيمة سمع أمه وهى تهمس قائلة:

ـ سوف يطلب يد نعيمة. .

ولما شعرت بوجوده التفتت إليه قائلة:

ـ صديقك بالداخل، ما ألطفه، أراد أن يقبل يدى فمنعته!

ورأى والده متربعًا على الكنبة وفؤاد جالسًا على مقعد قبالته، فتصافح الصديقان القديمان وكمال يقول:

ـ حمدًا لله على السلامة، أهلاً وسهلاً، . . أنت فى إجازة

فأجاب عنه السيد أحمد باسمًا:

ـ بل نقل إلى نيابة القاهرة، نقل أخيرًا بعد غربة طويلة فى الصعيد. . فجلس كمال على الكنبة وهو يقول:

ـ مبارك، من الآن فصاعدًا نرجو أن نراك من آن لآخر.

فقال فؤاد:

ـ طبعًا، وسنقيم من أول الشهر القادم بالعباسية، استأجرنا شقة بجوار قسم الوايلى. .

لم تتغير هيئة فؤاد كثيرًا، ولكن صحته تقدمت بدرجة محسوسة فامتلأ عوده وتورد وجهه، أما عيناه فلا زالتا تشعان ذلك الوميض الذكى. وسأل السيد أحمد الشاب قائلاً:

ـ وكيف حال والدك؟ . . لم أره منذ أسبوع.

ـ ليست صحته على ما يرام، إنه لا يزال آسفًا على ترك المحل، لكن المأمول أن يكون خليفته قائمًا بالواجب.

ـ الأمر يقتضينى اليوم يقظة متواصلة، كان والدك يقوم بكل شىء شفاه الله وعافاه. .

واعتدل فؤاد فى جلسته ووضع رجلاً على رجل فلفتت هذه الحركة انتباه كمال فيما يشبه الانزعاج، أما السيد فلم يبد عليه حتى أنه لاحظها. أهكذا تتطور الأمور؟ أجل إنه وكيل نيابة قد الدنيا، ولكن أنسى من يكون الشخص المتربع أمامه؟ رباه ليس هذا فحسب، لقد أخرج علبة سجائر وقدمها للسيد فاعتذر شاكراً! حقًا إن النيابة تنسى، ولكن من المؤسف أن يمتد نسيانها إلى ولى النعمة الذى يبدو أن فضله تبدد فى الهواء كدخان هذه السيجارة الفاخرة. ولم يكن فى حركات فؤاد تكلف من أى نوع كان، كان سيداً قد تعود السيادة، وقال السيد مخاطبًا كمال:

ـ وهنئه أيضًا فقد رقى من مساعد إلى وكيل نيابة.

فقال كمال باسمًا:

ـ مبارك.. مبارك، أرجو أن أهنئك قريبًا بكرسى القضاء.

فقال فؤاد:

ـ الخطوة التالية إن شاء الله.

ربما استباح لنفسه ـ عندما يصير قاضيًا ـ أن يبول أمام الرجل المتربع أمامه! أما مدرس ابتدائى فيظل مدرسًا ابتدائيًا، وحسبه شاربه الغليظ وأطنان الثقافة التى عوجت رأسه.

ونظر السيد أحمد إلى فؤاد باهتمام وهو يسأل:

ـ وكيف حال السياسة؟

فقال فؤاد بارتياح:

ـ وقعت المعجزة! وقعت المعاهدة فى لندن، أصغيت إلى الراديو وهو يعلن استقلال مصر وانقضاء عهد التحفظات الأربعة فلم أصدق أذنى، من كان يصدق هذا؟

ـ إذن أنت من الراضين على المعاهدة؟

فقال وهو يهز رأسه هزة أصحاب الشأن:

ـ فى الجملة نعم، للمعاهدة أعداء مخلصون وآخرون غير مخلصين، فإذا تأملنا الظروف التى تحيط بنا، وذكرنا أن شعبنا صبر على عهد صدقى رغم مرارته دون أن يثور عليه. فينبغى أن نعد المعاهدة خطوة موفقة، أزالت التحفظات ومهدت الطريق لإلغاء الامتيازات الأجنبية، وحددت مدة الاحتلال بعد قصره على منطقة معينة، إنها خطوة عظيمة بلا شك.

كان حماس السيد أحمد للمعاهدة أقوى وإحاطته بظروفها أقل، وكان يود أن يتجاوب الآخر معه تجاوبًا أشد، فلما خاب ظنه قال بعناد:

ـ على أى حال ينبغى أن نذكر أن الوفد قد أعاد إلى الأمة دستورها وحقق لها الاستقلال ولو بعد حين..

وفكر كمال: كان فؤاد دائمًا «باردًا» فى الناحية السياسية، ولعله لم يتغير، ولكنه يبدو مائلاً إلى الوفد، أما أنا فطالما كنت مندفعًا مع العاطفة، ثم انقلبت لا أومن بشىء، والسياسة نفسها لم تسلم من شكى النهم، ولكن قلبى لا يزال ينبض بالوطنية رغم عقلى.

وعاد فؤاد يقول ضاحكًا:

- إن النيابة فى عهود الانقلاب تنكمش إلى الوراء على حين يحتل البوليس المقدمة، إذ أن عهود الانقلاب عهود بوليسية، فإذا عاد الوفد إلى الحكم ردت للنيابة مكانتها ولزم البوليس حدوده، ففى عهد الحكم الطبيعى يكون القانون هو الكلمة العليا.

فعلق السيد على ذلك قائلاً:

- وهل يمكن أن ننسى عهد صدقى؟! لقد كان الجنود يجمعون الأهالى بالعصى أيام الانتخابات، وكثير من الأعيان من أصدقائنا خربت بيوتهم وأشهر إفلاسهم ثمنا لثباتهم على مبدأ الوفد، ثم إذا بنا نرى «الشيطان» ضمن هيئة المفاوضات فى لباس الوطنيين الأحرار!

فقال فؤاد:

- كانت الظروف توجب الاتحاد، ولم يكن هذا الاتحاد ليكمل دون أن ينضم إليه الشيطان وأعوانه، والعبرة بالخواتيم.

ولبث فؤاد فى حضرة السيد فترة غير يسيرة، احتسى فى أثنائها القهوة، وجعل كمال يتفحصه بعناية فانتبه إلى بذلته الحريرية البيضاء الأنيقة، والوردة الحمراء التى تزين عروتها، وإلى الشخصية القوية التى أضفتها عليه الوظيفة، فشعر فى أعماقه بأنه سيسر - رغم كل شئ - إذا طلب هذا الشاب يد بنت أخته، غير أن فؤاد لم يطرق هذا الموضوع، وبدا عليه أنه يرغب فى الذهاب وما لبث أن قال للسيد.

- آن وقت ذهابك إلى الدكان، سأمكث بقية الوقت مع كمال، وسوف أزور حضرتك قبل سفرى إلى الإسكندرية، حيث أننى قررت أن أقضى بقية أغسطس وبعض سبتمبر فى المصيف.

ونهض قائمًا فصافح السيد مودعًا ثم غادر الحجرة يتقدمه كمال، وصعدا معا إلى الدور الأعلى حيث استقرا فى حجرة المكتب، وجعل فؤاد يتصفح الكتب المصفوفة على الأرفف باسمًا ثم تساءل:

- ألا أستطيع أن أستعير منك كتابًا؟

فقال كمال وهو يدارى عدم ارتياحه:

- بكل سرور، ماذا تقرأ عادة فى أوقات فارغك؟

ـ عندى دواوين شوقى وحافظ ومطران، وبعض كتب الجاحظ والمعرى، وأحب بصفة خاصة «أدب الدنيا والدين»، إلى مؤلفات كتابنا المعاصرين، هذا إلى بعض مؤلفات ديكنز وكونان دويل، ولكن انكبابى على القانون يلتهم أكثر وقتى . .

ثم نهض فجال جولة استعراضية بين الكتب قارئًا عناوينها ثم عاد وهو ينفخ قائلاً :

ـ مكتبة فلسفية قحة، لا ناقة لى فيها ولا جمل، إنى أقرأ مجلة الفكر التى تكتب فيها، وأتابع مقالاتك التى تظهر تباعًا منذ سنوات، لا أزعم أنى قرأتها جميعًا، أو أنى أذكر منها شيئًا، إن المقالة الفلسفية أثقل ما يقرأ، ووكيل النيابة رجل مرهق بالعمل، لماذا لا تكتب فى الموضوعات الجذابة؟

طالما سمع بأذنه نعى مجهوده، ولكنه لم يحزن لذلك كثيرًا كأنما أعتاده، إن الشك يلتهم فيما يلتهم الحزن نفسه، والشهرة ما هى؟ والجاذبية ما هى؟ ولكن مما يسره حقًا ألا يجد فيه فؤاد تزجية لأوقات فراغه. وسأله :

ـ ماذا تعنى بالموضوعات الجذابة؟

ـ الأدب مثلاً .

ـ قرأت لطائف منه مذ كنا معا ولكننى لست أديبًا . .

فضحك فؤاد قائلاً :

ـ إذن أبق فى الفلسفة وحدك، ألست فيلسوفًا؟

ألست فيلسوفا؟! عبارة مطبوعة فى أعماقه، ارتجف من هول وقعها قلبه، هكذا هى مذ ألقيت عليه فى شارع السرايات من ثغر عايدة! ولكى يدارى جيشة صدره ضحك ضحكة عالية، ثم ذكر الأيام التى كان فؤاد يتودده ويتبعه كظله، ها هو الآن يطالعه رجلاً خطيرًا جديرًا بالتودد والولاء! ماذا جنيت من حياتى؟ وكان فؤاد يتفحص شارب صاحبه ثم ضحك فجأة قائلاً :

ـ ولو! . .

فتساءل كمال بعينه عن معنى هذا فعاد الآخر يقول :

ـ كلانا يجرى نحو الثلاثين دون أن يتزوج، جيلنا مكتظ بالعزاب، جيل الأزمة، ألا زلت عند رأيك؟

ـ لا أتزحزح . .

ـ لا أدرى لم أعتقد بأنك لن تتزوج أبدا .

ـ أنت بعيد النظر طول عمرك . .

فقال وهو يبتسم ابتسامة رقيقة كأنما ليعتذر بها سلفًا عما سيقول :

ـ أنت رجل أنانى، تأبى إلا أن تستأثر بكل حياتك لنفسك، يا أخى لقد تزوج النبى ولم يمنعه ذلك من ممارسة حياته الروحية العظيمة . .

ثم مستدركًا وهو يضحك :

ـ تؤاخذنى على ضرب المثل بالنبى، كدت أنسى أنك . . . ولكن مهلاً، إنك لم تعد الملحد القديم، أنت الآن تشك حتى فى الإلحاد، وهذه خطوة كسب للإيمان . .

فقال كمال بهدوء :

ـ دعنا من التفلسف فإنك لا تحبه وخبرنى لِمَ لم تتزوج أنت ما دام هذا هو رأيك فى العزوبية؟

وشعر لتوه بأنه ما كان ينبغى له أن يطرح هذا السؤال خشية أن يفسره الآخر بأنه استدراج إلى الكلام فى خطبة نعيمة! ولكن فؤاد لم يبد عليه أنه فكر فى هذا، بل ضحك ضحكة عالية وإن لم تخرج به عن حد الوقار، وقال :

ـ أنت تعلم أنى لم أفسد إلا متأخرًا، لم أفسد مثلك فى زمن مبكر، فأنا لم أشبع بعد!

ـ أتتزوج إذا شبعت؟

فضرب فؤاد الهواء بظاهر يده كأنما يطرد الكذب وقال بلهجة المعترف :

ـ ما دمت قد صبرت حتى اليوم فلأصبر فترة أخرى، أصبر حتى ارقى قاضيا مثلاً فيسعنى أن أصاهر وزيرًا إذا شئت . .

يا بن جميل الحمزاوى! عروس من صلب وزير وحماتها من المبيضة! أتحدى ليبنتز أن يبرر هذا ولو كان يبرر وجود الشر فى الخليقة!

ـ أنت تنظر إلى الزواج نظرة . .

فقاطعه قبل أن يكمل كلامه ضاحكًا :

ـ خير من الذى لا يعيره نظرة على الإطلاق! . .

ـ ولكن السعادة . .

ـ لا تتفلسف! السعادة فن ذاتى، قد تجدها عند كريمة وزير بينا لا تجد إلا التعاسة فى وسطك، الزواج معاهدة كالتى وقعها النحاس بالأمس، مساومة وتقدير ودهاء وبعد نظر وفوائد وخسائر، وفى بلدنا لا تأتى الرفعة إلا عن هذا السبيل، فى الأسبوع الماضى عين مستشارًا رجل لم يبلغ الأربعين من عمره، وقد أخدم القضاء عمرى مجتهدًا ناصبًا دون أن أظفر بهذا المركز السامى!

ومعلم ابتدائى ما قوله؟ فى الدرجة السادسة ينقضى عمره، ولو طفح بالفلسفة رأسه . .

ـ إن مركزك يغنيك عن أمثال هذه المغامرات . .

ـ لولا هذه المغامرات ما استطاع رئيس أن يألف وزارته!

فضحك كمال ضحكة لا طعم لها وقال :

ـ أنت فى حاجة إلى شىء من الفلسفة ، تحتاج إلى جرعة من سبينوزا . .

ـ اشبع منه أنت ، لكن دعنا من هذا ، وخبرنى عن أماكن اللهو والشراب ، فى قنا كنت أختلس اللذة فى حذر ، إن مركزنا يحتم علينا الانزواء ومجانبة البشر ، والصراع الأبدى بيننا وبين البوليس يوجب الحذر أكثر ، وكيل النيابة مركز خطير متعب . .

عودة إلى الحديث الذى هدد مرارتى بالانفجار ، حياتى فى ضوئك تأديب وتهذيب وأشد امتحان لفلسفتى الحائرة فى هذه الحياة .

ـ تصور أن الظروف تجمعنى بكثير من الأعيان ، ثم يدعوننى إلى سراياتهم ، فأجد أن الواجب يقضى بأن أرفض دعوتهم كيلا يؤثر مؤثر فى قيامى بواجبى ، ولكن عقليتهم لا تفهم هذا ، فأعيان الإقليم جميعًا يرموننى بالكبر وأنا منه براء .

«بل أنت غرور وكبر وغيرة على الواجب معًا» . وقال موافقًا :

ـ نعم .

ـ ولنفس الأسباب خسرت رجال البوليس ، أنا لا ارضى عن طرقهم الملتوية ، لذلك أقف لهم بالمرصاد ، ورائى القانون ، ووراءهم همجية القرون الوسطى ، إن الجميع يكرهوننى ولكن الحق معى . .

الحق معك ، هذا ما أعرفه فيك من قديم ، الذكاء والنزاهة ، ولكنك لا تحب ولا يمكن أن تحب ، أنت لا تتمسك بالحق لوجه الحق وحده ولكن لوجه الحق والغرور والكبرياء والشعور بالنقص ، هكذا الإنسان ، إنى أصطدم بأمثالك حتى فى الوظائف الحقيرة ، الإنسان العذب القوى أسطورة ، ولكن ما قيمة الحب؟ وما المثالية؟ وما أى شىء؟!

وهكذا طال بهما الحديث ، وعندما هم فؤاد بالذهاب مال على أذن كمال متسائلاً :

ـ أنا جديد فى القاهرة ، طبعًا أنت تعرف بيتًا بل بيوتًا ، مستورة طبعًا؟

فقال كمال باسما :

ـ إن المدرس كوكيل النيابة يتحرى الستر دائمًا . .

ـ عال . سنلتقى قريبًا ، إننى مشغول الآن بترتيب الشقة الجديدة ولابد أن نسهر كم مرة معا!

ـ اتفقنا . .

وغادرا الحجرة معًا فلم يتركه حتى أوصله إلى باب السكة ، وعندما مر بالدور الأول فى أثناء عودته التقى بأمه واقفة تنتظره عند المدخل ، فسألته بلهفة :

ـ ألم يكلمك؟

فأدرك ما تسأل عنه، وشعر لذلك بألم لم يشعر بمثله، ولكنه تجاهل الأمر وتساءل بدوره:

ـ عن ماذا؟

ـ نعيمة!

فأجاب ممتعضًا:

ـ كلا . .

ـ عجيبة! . .

وتبادلا نظرة طويلة، ثم عادت أمينة تقول:

ـ ولكن الحمزاوى كلم أباك!

فقال كمال وهو يدارى ما استطاع من ثورة حنقه:

ـ لعله لم يكن فيما قال نائبًا عن ابنه . .

فقالت أمينة غاضبة:

ـ هذا عبث لا يليق . . ألا يدرى من يكون هو ومن تكون هى؟ كان ينبغى أن يفهمه جدك حقيقة مركزه.

ـ إن فؤاد برىء، لعل والده أسرع دون تدبر بحسن نية . .

ـ ولكن حدث ابنه دون شك فهل رفض الآخر؟ ذلك الذى جعلناه موظفًا محترمًا بنقودنا! . .

ـ لا داعى للكلام فى هذا الموضوع . .

ـ إن هذا يا بنى أمر لا يتصوره العقل، ألا يدرى أن مصاهرته لا تشرفنا! . .

ـ إذن لا تأسفى عليها . .

ـ لست آسفة ولكنى غاضبة للإهانة . .

ـ لا إهانة هنالك، ليس إلا سوء تفاهم . .

وعاد إلى حجرته حزينًا خجلاً، وجعل يحدث نفسه: نعيمة وردة جميلة، بيد أنى رجل لم يبق لى من الفضائل إلا حب الحقيقة فينبغى أن أسأل نفسى أهى حقًا كفء لوكيل نيابة؟ يستطيع رغم وضاعة أصله أن يشرك فى حياته من هى أجل ثقافة وأعز محتدًا وأكثر مالاً وجمالاً ايضًا، لقد تسرع أبوه الطيب وليس هذا خطأه، ولكنه كان وقحًا فى حديثه معى، وهو وقح بلا شك، إنه رجل ذكى نزيه كفء وقح مغرور، وما هذا بذنبه ولكن الذنب ذنب هذه الفوارق التى تخلق فينا شتى الأمراض.

١٥

كانت مجلة «الفكر» تشغل الدور الأرضى بالعمارة رقم ٢١ بشارع عبد العزيز، وكانت حجرة صاحبها الأستاذ عبد العزيز الأسيوطى تطل بنافذة ذات قضبان على عطفة بركات المظلمة فكانت تضاء ليل نهار، والحق أنه كلما أقبل كمال على إدارة المجلة ذكره موضعها الأرضى ورثاثة أثاثها بمكانة «الفكر» فى بلده، وبمكانته هو فى مجتمعه. واستقبله الأستاذ عبد العزيز بابتسامة ترحيب وود، ولا عجب فقد اتصلت بينهما أسباب المعرفة منذ عام ١٩٣٠ أى منذ بدأ كمال يبعث إليه بمقالاته الفلسفية، ثم مضت ستة أعوام وهما على تعاون صادق غير مأجور، والواقع أن جميع كتاب المجلة كانوا من المتعاونين فى سبيل الفلسفة والثقافة لوجه الله وحده! . .

وكان عبد العزيز يرحب بكافة الكتاب المتطوعين حتى المختصين ـ مثله ـ فى الفلسفة الإسلامية، ومع أنه كان أزهرى النشأة إلا أنه سافر إلى فرنسا حيث قضى هنالك أربعة أعوام محصلاً ومستمعًا دون أن يحصل على درجة علمية، وكان فى غنى عن السعى للرزق بعقار يملكه يدر عليه شهريًا خمسين جنيهًا ولكنه أنشأ مجلة «الفكر» فى عام ١٩٢٣، وثابر على إصدارها بالرغم من أنها لم تكن تزيد دخله شيئًا يضاهى بعض ما يبذله فيها من جهد. وما كاد يستقر المجلس بكمال حتى دخل الحجرة رجل فى مثل سنه، يرتدى بذلة من التيل الرمادى، طويل القامة، وإن كان دون كمال طولاً، نحيفًا، ولكنه أكثر امتلاء منه، مستطيل الوجه، متوسط الجبين، ممتلئ الشفتين، ذو أنف دقيق وذقن مدبب أضفى على سمنته طابعًا خاصًا. تقدم خفيفًا باسم الثغر فمد يده إلى الأستاذ عبد العزيز فصافحه هذا ثم قدمه إلى كمال قائلاً:

ـ الأستاذ رياض قلدس مترجم بوزارة المعارف، انضم حديثًا إلى جماعة كتاب «الفكر»، وقد أمد مجلتنا العلمية بدم جديد بتلخيصه الشهرى للمسرحيات العالمية وكتابة القصة القصيرة.

ثم قدم كمال قائلاً:

ـ الأستاذ كمال أحمد عبد الجواد، لعلك من قراء مقالاته!

فتصافح الرجلان ورياض يقول بإعجاب:

ـ إنى أقرأ مقالاته منذ سنوات، مقالات قيمة بكل معنى الكلمة. .

فشكر كمال متلقيًا ثناياه بحذر، ثم جلسا على كرسيين متقابلين أمام مكتب الأستاذ عبد العزيز الذى مضى يقول:

ـ لا تنتظر يا أستاذ رياض أن يرد عليك بالمثل قائلاً إنه قرأ قصصك القيمة، إنه لا يقرأ قصصا ألبتة..

فضحك رياض ضحكة جذابة كشفت عن أسنان نضيدة لامعة فلجاء الثنيتين ثم قال:

ـ ألا تحب الأدب إذن؟ ما من فيلسوف إلا وله فلسفة خاصة عن الجمال، وهى لا تتأتى له إلا بعد اطلاع واسع على شتى الفنون ومنها الأدب طبعا..

فقال كمال فى شىء من الارتباك:

ـ لست أكره الأدب، طالما ارتحت فى جنات شعره ونثره، ولكن أوقات الراحة قليلة!

ـ معنى ذلك أنك قرأت ما استطعت من القصص إذ أن الأدب الحديث يكاد يقتصر على القصة والتمثيلية..

فعاد كمال يقول:

ـ قرأت عدداً وفيراً منها على مدى العمر، بيد أننى..

وهنا قاطعه عبد العزيز الأسيوطى قائلاً وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى:

ـ عليك يا أستاذ رياض من الآن فصاعدا أن تقنعه بأفكارك الجديدة، وحسبك أن تعلم الآن أنه فيلسوف، وأن ولعه مركز فى الفكر.

ثم التفت إلى كمال متسائلاً:

ـ جئت بمقال الشهر؟

فأخرج كمال ظرفًا متوسطًا ووضعه فى سكون أمام الأستاذ الذى تناوله بدوره فاستخرج منه أوراق المقالة ثم تصفح العنوان وهو يقول:

ـ عن برجسون؟.. حسن!

فقال كمال:

ـ فكرة تقديم عامة تبين الدور الذى لعبته فلسفته فى تاريخ الفكر الحديث، وربما ألحقتها بمقالات أخرى تفصيلية..

وكان رياض قلدس يتابع الحديث باهتمام فتساءل وهو يحدج كمال بنظرة لطيفة:

ـ تتبعت مقالاتك منذ سنوات، منذ بدأت تكتب عن فلاسفة الإغريق، وهى مقالات متنوعة وأحيانًا تكون متناقضة بالقياس إلى ما تعرض من فلسفات، فأدركت أنك مؤرخ، بيد أننى حاولت عبثًا أن أهتدى إلى موقفك أنت مما تكتب، وأى فلسفة تنتمى إليها..؟

فقال عبد العزيز الأسيوطى :

ـ نحن حديثو عهد بالدراسات الفلسفية فيجب أن نبدأ بالعرض العام ، ولعل الأستاذ كمال يتمخض فيما بعد عن فلسفة جديدة ، ولعلك تكون يا أستاذ رياض من دعاة الكماليزم!

فضحكوا جميعًا ، وخلع كمال نظارته وراح يجلو ناظريها ، وكان سرعان ما يندمج فى الحديث خاصة إذا آنس إلى محدثه ، وبدا الجو صافيًا عذبًا ، وقال كمال :

ـ إنى سائح فى متحف لا أملك فيه شيئًا ، مؤرخ فحسب ، لا أدرى أين أقف . .

فقال رياض قلدس فى اهتمام يتزايد :

ـ أى فى مفترق الطريق ، وقفت فى ميدانك عهدًا قبل أن أعرف وجهتى ، ولكنى أرجح أنه موقف ذو قصة ، لأنه عادة يكون نهاية مرحلة وبدء مرحلة جديدة ، ألم تعرف ألوانًا من الإيمان قبل موقفك هذا؟

نغمة هذا الحديث تعيد إليه ذكرى أغنية قديمة عالقة جذورها بالقلب ، هذا الشاب وهذا الحديث ، خلت سنين ناضبة من الصداقة الروحية حتى اعتاد أن يحدث نفسه كلما افتقد من يحدثه ، ومنذ عهد بعيد لم يستطع أن يبعث هذا النشاط الروحى فى صدره ، لا إسماعيل لطيف ولا فؤاد الحمزاوى ولا عشرات المدرسين ، هل آن للمكان الذى خلا بذهاب حسين شداد أن يشغل؟! وأعاد وضع النظارة على عينيه وابتسم قائلاً :

ـ لذلك قصة طبعًا ، وكالعادة كان لى إيمانى الدينى ، ثم إيمانى بالحقيقة .

ـ أذكر أنك عرضت الفلسفة المادية بحماس يدعو للريبة . .

ـ كان حماسًا صادقًا ثم لم ألبث أن حركت رأسى مرتابًا . .

ـ لعلها الفلسفة العقلية؟

ـ ثم لم ألبث أن حركت رأسى مرتابًا ، الفلسفات قصور جميلة ولكنها لا تصلح للسكنى . .

فقال عبد العزيز باسمًا :

ـ و شهد شاهد من أهلها!

فهز كمال كتفيه استهانة ، أما رياض فواصل تحقيقه قائلاً :

ـ هنالك العلم فلعله نجا من شكك؟

ـ إنه دنيا مغلقة حيالنا لا نعرف إلا بعض نتائجها القريبة ، ثم اطلعت على آراء نخبة من العلماء يرتابون فى مطابقة الحقيقة العلمية للحقيقة الواقعية ، وآخرين ينوهون بقانون

الاحتمال، وغيرهم ممن تراجعوا عن ادعاء الحقيقة المطلقة، فلم ألبث أن حركت رأسى مرتابًا!

فابتسم رياض قلدس دون أن ينبس فعاد الآخر يقول:

- حتى مغامرات الروحية الحديثة وتحضير الأرواح غرقت فيها حتى أذنى، ودار رأسى، وما زال يدور فى فضاء مخيف، ما الحقيقة؟! ما القيم؟ ما أى شىء؟ إنى أحيانًا أشعر بتأنيب ضمير لفعل الخير كالذى أشعر به عند الوقوع فى الشر!..

فضحك عبد العزيز ضحكة عالية، وقال:

- لقد انتقم الدين منك، هجرته جريًا وراء الحقائق العليا فعدت صفر اليدين!

وقال رياض قلدس، وكان يبدو فى قوله مجاملاً لا أكثر:

- موقف الشك هذا لذيذ! مشاهدة وتأمل وحرية مطلقة، وأخذ من كل شىء أخذ السائح!

فقال عبد العزيز مخاطبًا كمال:

- أنت أعزب فى فكرك، كما أنت أعزب فى حياتك!

وانتبه كمال إلى هذه الملاحظة العابرة باهتمام، ترى أعزوبته نتيجة لفكره أم العكس هو الصحيح؟ أم أن الاثنين نتيجة لشىء ثالث؟ وقال رياض قلدس:

- العزوبة حال مؤقتة، وربما كان الشك كذلك!

فقال عبد العزيز:

- ولكنه فيما يبدو لن يميل إلى الزواج أبدًا..

فقال رياض متعجبًا:

- ما الذى يحول بين الشك والحب؟ وما الذى يمنع محبًا من الزواج؟، أما الإصرار على العزوبة فليس من الشك فى شىء، الشك لا يعرف الإصرار!

فتساءل كمال، وهو غير جاد فى باطنه:

- ألا يحتاج الحب إلى شىء من الإيمان:

فقال رياض قلدس ضاحكًا:

- كلا، إن الحب كالزلزال الذى يرج الجامع والكنيسة والماخور على السواء..

زلزال؟ ما أصدقه من تشبيه، زلزال يهدم كل شىء يغرقه فى صمت الموت.

- وأنت يا أستاذ قلدس، لقد أطريت الشك، فهل أنت من أهله؟

فقال عبد العزيز ضاحكًا:

- إنه ذلك نفسه!

وضجوا بالضحك، ثم قال رياض وكأنما كان يقدم نفسه:

ـ لبثت فيه فترة ثم مرقت منه، لم أعد اشك فى الدين لأنى كفرت به، ولكنى أومن بالعلم والفن، إلى الأبد إن شاء الله!

عبد العزيز متسائلا فى تهكم:

ـ إن شاء الله الذى لا تؤمن به؟

فقال رياض قلدس باسما:

ـ الدين ملك الناس، أما الله فلا علم لنا به، من ذا الذى يستطيع أن يقول لا أومن بالله، أو يقول أومن بالله؟ الأنبياء هم المؤمنون الحقيقيون، وذلك أنهم رأوه أو سمعوه أو خاطبوا رسل وحيه!

فقال كمال:

ـ ولكنك تؤمن بالعلم والفن؟

ـ نعم..

ـ الإيمان بالعلم له وجاهته، ولكن الفن..؟! أنا أفضل أن أومن بالأرواح على أن أومن بالقصة مثلا!

فحدجه رياض بنظرة عاتبة، وقال بهدوء:

ـ العلم لغة العقول، والفن لغة الشخصية الإنسانية جميعًا!

ـ ما أشبه هذا الكلام بالشعر!

فتقبل رياض تهكم كمال بابتسامة متسامحة، وقال:

ـ العلم يجمع البشر فى نور أفكاره، والفن يجمعهم فى عاطفة سامية إنسانية، وكلاهما يطور البشرية ويدفعها إلى مستقبل أفضل..

يا للغرور! يكتب قصة من صفحتين كل شهر، ويظن أنه يطور البشرية، وأنا لست دونه سماجة، فلأننى ألخص فصلاً من كتاب تاريخ الفلسفة لفدنج، أطالب فى أعماقى بالمساواة على الأقل بفؤاد جميل الحمزاوى وكيل نيابة الدرب الأحمر، ولكن كيف تطاق الحياة دون ذلك؟ مجانين نحن أم عقلاء أو مجرد أحياء؟ أف من كل شىء!

ـ وما قولك فى العلماء الذين لا يشاركونك فى حماستك للعلم؟

ـ لا ينبغى أن نفسر تواضع العلم بالعجز أو اليأس، العلم سحر البشرية ونورها ومرشدها ومعجزاتها، وهو دين المستقبل..

ـ والقصة؟

بدا رياض لأول مرة وهو يدارى استياءه، فاستدرك الآخر كالمعتذر:

ـ أعنى الفن عمومًا؟

فقال رياض قلدس متسائلا فى حماسة :

ـ أتستطيع أن تعيش فى وحدة مطلقة؟ لابد من النجوى ، من العزاء ، من المسرة ، من الهداية ، من النور ، من الرحلة فى أنحاء المعمورة والنفس هذا هو الفن . .

وهنا قال الأستاذ عبد العزيز :

ـ خطر لى خاطر . . أن نجتمع نحن وبعض الزملاء مرة كل شهر للحديث فى شتى الفكر ، على أن ينشر حديثنا بعنوان «محاورة شهر كذا» . .

فقال رياض قلدس وهو يرمق كمال بنظرة ودية :

ـ إن حديثنا لن ينقطع ، أو هذا ما أوده ، أنعد أنفسنا أصدقاء؟

فقال كمال بحماسة صادقة :

ـ بكل تأكيد ، يجب أن نتقابل فى كل فرصة . .

شمل كمال إحساس بالسعادة لهذه «الصداقة الجديدة» ، كان يشعر بأن جانبًا ساميًا من قلبه استيقظ بعد سبات عميق ، فاقتنع أكثر من قبل بخطورة الدور الذى تلعبه الصداقة فى حياته ، وبأنها عنصر حيوى لا غنى له عنه ، أو يظل كالظامئ المحترق فى صحراء . .

١٦

افترق الصديقان الجديدان عند العتبة ، فعاد كمال من الموسكى والساعة تدور فى الثامنة مساء ، يتنفس جوا خانقًا شديد الحرارة ، وتمهل عند عطفة الجوهرى ثم مال إليها ، ومرق من ثالث باب على يسار الداخل ، ورقى فى الدرج حتى الدور الثانى ، ثم دق الجرس ، ففتحت الشراعة عن وجه امرأة قد جاوزت الستين ، حيته بابتسامة كشفت عن أسنان ذهبية ، وفتحت الباب فدخل صامتًا ، أما المرأة فقالت ترحب به :

ـ أهلا بابن الحبيب ، أهلا بابن أخى . .

وتبعها إلى صالة تتوسط حجرات ، فيها كنبتان متقابلتان بينهما سجادة قصيرة مزركشة وخوان ونارجيلة ، وشذا بخور فى الأركان ، كانت المرأة بدينة ، هشة من كبر ، عاصبة الرأس بمنديل منمنم بترتر ، مكحولة العينين تلوح فيهما نظرة ثقيلة تشى بوطأة الكيف ، وفى تضاعيف وجهها آثار جمال دابر واستهتار مقيم ، تربعت على الكنبة أمام النارجيلة ، وأومأت إليه ليجلس إلى جانبها ، فجلس وهو يسأل باسما :

- كيف حال الست جليلة؟

فهتفت محتجة:

- قل عمتى.. !

- كيف حالك يا عمتى؟

- الحال معدن يا بن عبد الجواد،.. (ثم بصوت مرتفع أجش).. بنت يا نظلة..

وبعد دقائق جاءت الخادم بكأسين مترعتين ووضعتهما على الخوان، فقالت جليلة:

- اشرب، طالما قلتها لأبيك فى الأيام الحلوة الماضية..

فتناول كمال الكأس، وهو يقول ضاحكًا:

- من المؤسف حقًا أنى جئت بعد فوات الأوان!

وهى تلكمه لكمة وسوست لها الأساور الذهبية التى تغطى ساعديها:

- يا عيب الشوم، أكنت تريد أن تعيث فسادًا حيث سجد أبوك؟!

ثم مستدركة:

- ولكن أين أنت من أبيك؟، كان متزوجًا للمرة الثانية حين عرفته، تزوج مبكرًا على عادة أهل زمان، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يرافقنى زمنا كان أحلى الحياة، ثم رافق زبيدة ربنا يأخذ بيدها، ثم عشرات غيرنا سامحه الله، أما أنت فلا تزال أعزب، ولا تزور بيتى مع ذلك إلا كل ليلة جمعة، يا عيب الشوم، أين الرجولة أين؟!

أبوه الذى عرفه عن لسانها غير أبيه الذى عرفه بنفسه، بل غير أبيه الذى حدثه عنه ياسين، رجل الغريزة، والحياة العارمة، لم تشغل هموم الفكر قلبه فأين هو منه؟ حتى ليلة الجمعة التى يزور فيها هذا البيت لا يصفو له «الحب» فيها إلا بالخمر، فلولا السكر لبدا له الجو متجهما باعثا على الانهزام، وأول ليلة رمت به المقادير إلى هذا البيت ليلة لاتنسى، رأى المرأة لأول مرة فدعته إلى مجالستها ريثما تفرغ له فتاة، ولما جره الحديث إلى ذكر اسمه بالكامل هتفت المرأة: أأنت ابن السيد أحمد عبد الجواد التاجر بالنحاسين؟ نعم أتعرفين أبى؟ يا ألف أهلا وسهلاً. أتعرفين أبى!.. أعرفه أكثر مما تعرفه أنت.. مازج عرقه عرقى.. وزففت له أختك.. كنت فى أيامى كأم كلثوم فى أيامك الكالحة.. سل عنى طوب الأرض، تشرفنا يا ستى، اختر من بناتى من تعجبك وليس بين الخيرين حساب، هكذا فسق أول مرة فى هذا البيت على حساب والده. وجعلت تنظر إلى وجهه طويلاً حتى انقبض قلبه، ولولا الأدب لأعلنت دهشتها، إذ أين هذا الرأس الغريب وذلك الأنف العجيب من الوجه البدرى المورد؟ ثم طال الحديث كل مطال، فعرف عنها تاريخ أبيه السرى، ميزاته وجلائل أعماله ومغامراته وخفى صفاته، «وأنا من شدة الحيرة متردد أبدًا بين وهج الغريزة ونسمة التصوف!».

فقال كمال يحييها :

ـ لا تبالغى يا عمتى، أنا مدرس والمدرس يحب الستر، ولا تنسى أنى فى العطلة أزورك كل أسبوع مرات لا مرة، ألم أكن عندك أول أمس؟ إنى أزورك كلما . .

«كلما لجت بى الحيرة، إن الحيرة تدفعنى إليك قبل الشهوة» .

ـ كلما ماذا يا سيد نينة؟

ـ كلما فرغت من العمل . .

ـ قل غير هذا الكلام . أف من زمانكم أف، كانت فلوسنا من الذهب وفلوسكم من الحديد والنحاس، وطربنا كان من لحم ودم وطربكم راديو، وكان رجالنا من صلب آدم ورجالكم من صلب حواء، عندك كلام يا خوجة البنات؟

وأخذت من النارجيلة نفسًا ثم غنت :

يا خوجة البنات علمهم ضرب الآلات ونغمهم

فضحك كمال، ومال نحوها فقبل خدها قبلة جمعت بين المودة والمداعبة، فهتفت :

ـ شاربك كالشوك، كان الله فى عون عطية!

ـ إنها تحب الأشواك .

ـ بهذه المناسبة كان عندى بالأمس ضابط النقطة على سن ورمح، ولا فخر، كافة زبائنى من سادة القوم، أم تظن أنك تتصدق على بزيارتك؟!

ـ يا ست جليلة، إنك لجليلة . .

ـ أحبك إذا سكرت، فإن السكر يذهب عنك وقار الخوجة ويردك إلى شىء من أبيك، لكن خبرنى ألا تحب عطية؟ . . إنها تحبك!

هذه القلوب التى حجرتها فظاظة الحياة كيف تحب؟ ولكن ماذا كان نصيبه من القلوب التى تجود بالحب وتستطيبه؟، فإما أن تحبه بنت صاحب المقلى فيعرض عن حبها، وإما أن يحب عايدة فتعرض عن حبه، فقاموس حياته لم يعرف للحب من معنى سوى الألم، ذلك الألم العجيب الذى يحرق النفس حتى تبصر على ضوء نيرانه المتقدة عجائب من أسرار الحياة، ثم لا تخلف وراءها إلا حطامًا، قال يعلق على قولها متهكمًا :

ـ أحبتك العافية . .

ـ لم تعمل فى المقدر إلا منذ طلاقها!

ـ الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه! . .

ـ الحمد لله فى جميع الأحوال .

وابتسم ابتسامة ذات معنى، فأدركت معناها وقالت كالمحتجة :

ـ أتستكثر على أن أنوه بحمد الله؟ آه منك يا بن عبد الجواد، اسمع لا ابن لى ولا بنت، وقد شبعت من الدنيا، وعند الله العفو.

من عجب أن حديث المرأة تتردد فيه كثيراً هذه النغمة الموحية بالزهد! وجعل يختلس إليها النظر وهو يتجرع بقية كأسه. وكانت الخمر تأخذ فى نفث سحرها معه من أول كأس. ووجد نفسه يتذكر عهداً مضى أيام كان للكأس فرحة سماوية، ما أكثر الأفراح التى ولت، فى البدء كانت الشهوة ثورة وانتصار، ثم انقلبت مع الزمن فلسفة حمراء، ثم أخمد نشواتها الزمن والعادة، ولم تخل فى أحايين كثيرة من عذاب التردد بين السماء والأرض، ذلك قبل أن يسرى الشك بين الأرض والسماء.

ودق الجرس. ودخلت عطية، بيضاء لدنة ممتلئة، لحذائها أطيط ولضحكتها رنين، فقبلت يد المعلمة، ثم ألقت نظرة باسمة على الكأسين الفارغتين وهى تقول مداعبة كمال:

ـ خنتنى!

ومالت على أذن المعلمة فهمست قليلاً، ثم رمقت كمال بنظرة ضاحكة، وسارت إلى الحجرة إلى يمين مجلس المعلمة، فلكزته جليلة قائلة:

ـ قم يا نور العين. .

تناول طربوشه ومضى إلى الحجرة، ولم تلبث نظلة أن لحقت به حاملة صينية عليها زجاجة وكأسان ومزة خفيفة، فقالت لها عطية:

ـ هاتى لنا رطلين من العجاتى، أنا جوعانة!

خلع الجاكتة ومد ساقيه فى ارتياح، ثم جلس يراقبها وهى تخلع حذاءها وفستانها، ثم وهى تسوى قميصها أمام المرآة وتسرح شعرها. الجسم الذى يحبه، الأبيض اللدن الممتلئ، ترى كيف كان جسم عايدة؟، كثيراً ما تبدو لذاكرته وكأنما لم يكن لها جسم، وحتى ما يذكره من نحافتها وسمرتها ورشاقتها فإنما تستقر فى روحه كالمعانى المجردة، أما ما يلتصق عادة بالذاكرة من محاسن الأجساد كالصدور والسيقان والأرداف فلا يذكر ألبتة أن حواسه اتجهت إلى شىء منها، واليوم لو عرضت له حسناء كل ميزاتها الرشاقة والسمرة والنحافة ما ارتضى أن يبتاعها بريال، فكيف كان هذا الحب؟، وكيف ظلت ذكراه مصونة بالإجلال والتقديس رغم ازدرائه لكل شىء؟!

ـ الدنيا حر، أف. .

ـ إذا لطشتنا الخمر استوى لدينا الحر والبرد. .

ـ لا تأكلنى بعينيك، وارفع نظارتك!

مطلقة ذات بنين، تغطى كآبتها المعتمة بالعربدة، وتمتص الليالى النهمة أنوثتها

وإنسانيتها دون مبالاة، يختلط فى أنفاسها الوجد الكاذب بالمقت، وهى للاستعباد شر صورة، لذلك كانت الخمر نجاة من العذاب كما هى نجاة من الفكر!

وارتمت إلى جانبه ومدت يدها البضة إلى الزجاجة وأخذت تملأ الكأسين، هذه الزجاجة تباع فى هذا البيت بضعف ثمنها، كل شىء هنا غال إلا المرأة، إلا الإنسان، ولولا الخمر ما أمكن ذلك المجلس، كى يغيب عن عين البشرية المحملقة فى اشمئزاز، غير أن حياتنا لا تخلو من مومسات من نوع آخر، منهم وزراء وكتاب!

وبحلول الكأس الثانية فى جوفه لاحت بشائر النسيان والمسرة. «هذه المرأة أشتهيها منذ زمن وحتى متى لا أدرى، الشهوة سلطان مستبد أما الحب فشئ آخر، وكم يبدو فى لباس عجيب إذا برئ من الشهوة، وإذا أتيح لى يومًا أن أجدهما فى كائن بشرى عرفت الاستقرار المنشود، ولذلك فلن تزال الحياة تبدو لى عناصر يعوزها الانسجام، أنا أنشد «الزواج» فى الحياتين العامة والخاصة، لا أدرى أيهما أصل الأخرى، ولكنى متأكد أنى تعس رغم سلوكى فى الحياة الذى ضمن لى حظى من مسرات الفكر ولذات الجسد، كالقطار الذى ينطلق فى قوة ولكنه لا يدرى من أين ولا إلى أين. والشهوة حسناء طاغية سرعان ما يصرعها القرف، ويهتف القلب ناشدا فى يأس أليم السعادة السرمدية، عبثًا، لذلك فالشكوى لا تنقطع، والحياة خدعة كبرى، وينبغى أن نتجاوب مع حكمتها الخفية كى نتقبل هذه الخدع راضين، فنكون كالممثل الذى يعى دوره الكاذب على المسرح، ولكنه رغم ذلك يعبد فنه».

وتجرع كأسه الثالثة دفعة واحدة حتى أغرقت عطية فى الضحك، وهى تحب السكر من صميم قلبها ولكنه يفعل بها الأفاعيل، فإذا لم يوقفها عند حدها علا صوتها فتشنجت ثم بكت وتقيأت. ولعبت الخمر برأسه فاهتز طربًا، ومد إليها بصره فانبسطت أساريره. هى الآن امرأة فحسب لا مشكلة، وكأنه لم تعد ثمة مشكلة فى الوجود، الوجود نفسه ـ أثقل مشكلة فى الحياة ـ لم يعد مشكلة، ولكن اشرب واغرق فى القبل..

ـ ما ألطفك إذا ضحكت بلا سبب!

ـ إذا ضحكت بلا سبب فاعلمى أن الأسباب أجل من أن تذكر..

١٧

عاد عبد المنعم إلى السكرية ملتفا فى معطفه، يحبك من آن لآخر طاقيته ليتقى بها برد الشتاء القارص، وكان الظلام شاملاً رغم أن الساعة لم تجاوز السادسة مساء، وما كاد

يبلغ مدخل السلم حتى فتح باب الدور الأول وتسلل الشبح اللطيف الذى كان ينتظر. وخفق قلبه وجعل يحملق فى الظلام بعينين متقدتين، وتابع شبحها وهو يرقى فى السلم فى خفة وحذر أن يحدث صوتًا، فوجد نفسه موزعًا بين رغبة تغريه بالاستسلام وإرادة تحثه على السيطرة على أعصابه التى تلوح بالخيانة والإنهيار. وذكر - الآن فقط! - أنها واعدته الليلة من قبل، وقد كان بوسعه أن يقدم موعد عودته أو يؤخره فيتجنب هذا اللقاء، ولكنه نسى ذلك كله، لشد ما ينسى! ولم يكن ثمة وقت للتدبر والتذكر، فليترك هذا إلى حينه، عندما يخلو إلى نفسه فى حجرته، إلى تلك اللحظة التى ستشهده. منتصرًا ظافرًا أو منهزمًا مغلوبًا على أمره، وارتقى السلم فى أعقابها دون أن يعزم على أمر، ملقيًا بنفسه فى خضم الامتحان، ولم يكن شىء لينسيه آلام صراعه الأبدى. وفوق البسطة خيل إليه أن شبحها يضخم حتى ملأ عليه المكان والزمان. وقال وهو يخفى قلقه ويضمر الصمود مهما كلفه الأمر:

- مساء الخير..

فجاء الصوت الرقيق يقول:

- مساء الخير، أشكرك لأنك سمعت نصيحتى ولبست معطفك..

فغلبه التأثر لرقتها، ذابت فى حلقه كلمة أوشك أن يجبها بها، ثم قال مداريًا ارتباكه:

- خشيت أن تمطر السماء..

فرفعت رأسها إلى أعلى كأنما تنظر على السماء، وقالت:

- ستمطر عاجلاً أو آجلاً، ليس فى السماء نجم، وقد ميزتك بصعوبة عندما دخلت الحارة.

فاستجمع قواه المتلاطمة، وقال فيما يشبه التحذير:

- الجو بارد، وجو السلم خاصة شديد الرطوبة!

فقالت الصغيرة بصراحة تعلمتها على يديه:

- لا أشعر بالبرد فى قربك!..

فلفحت وجهه حرارة منبعثة من الداخل، ونم حاله على أنه سيعاود الخطأ على رغمه، وجعل يستعدى إرادته ليتغلب على الرجفة السارية فى بدنه، فسألته:

- مالك لا تتكلم؟

وأحس بيدها على منكبه تضغطه برقة، فما تمالك أن طوقها بذارعه، وقبلها قبلة طويلة، ثم أمطرها قبلات حتى سمع صوتها الرقيق يقول لاهثا:

ـ لا أطيق البعد عنك . .

فواصل عناقه متذاوبًا فى حضنها، وهى تهمس فى أذنه :

ـ أتمنى لو أبقى هكذا إلى الأبد . .

فشد عليها الوثاق قائلاً بصوت متهدج :

ـ يا للأسف ! .

فتباعد رأسها فى الظلام قليلاً ، وهى تتساءل :

ـ علام تأسف يا حبيبى؟

فقال بعد تردد :

ـ على الخطأ الذى نتردى فيه . .

ـ أى خطأ بالله؟

تخلص منها برقة ، وراح يخلع معطفه ، فطواه ، ثم هم بأن يضعه على الدرابزين ، ولكنه عدل عن فكرته فى اللحظة الأخيرة ـ لحظة هائلة ـ فثناه على ذراعه ـ ثم تراجع إلى الوراء خطوة . كانت أنفاسه تضطرب ولكن عزمة اعترضت تيار استسلامه فقلبت كل شىء . وعادت يدها تتلمس السبيل إلى عنقه فأمسك بها ، وانتظر حتى هدأت أنفاسه ، ثم قال بهدوء :

ـ هذا خطأ كبير . .

ـ أى خطأ؟ ! لست أفهم شيئًا . .

صغيرة لم تبلغ الرابعة عشرة من عمرها ، أنت تعبث بها إشباعًا لرغبة لا ترحم ، ولن يكون لهذا العبث من غاية ، ليس إلا عبثًا تجلب به غضب الله ومقته .

ـ يجب أن تفهمى ، أنستطيع أن نعلن ما نفعل؟

ـ نعلنه؟

ـ انظرى كيف تستنكرين ! ولكن لماذا لا نعلنه إن لم يكن عيبًا مزريًا؟

وشعر بيدها تتصيده ، فارتقى إلى أولى درجات السلم التالية ، وكان مطمئنا إلى أنه جاز منطقة الخطر بسلام :

ـ اعترفى بأننا مخطئان ، فلا ينبغى أن نصر على الخطأ . .

ـ عجيب أن أسمع منك هذا الكلام . .

ـ لا عجب ، إن ضميرى لم يعد يحتمل الخطيئة ، إنها تعذبنى وتفسد على صلاتى .

«صامتة ! آذيتها فليسامحنى الله ، يا للألم ، ولكنى لن أتراجع ، أحمد الله على أن الخطأ لم يدفعك إلى ما هو شر منه . . » .

ـ يجب أن يكون ما حصل درسًا لنا فلا نعود إلى مثله، أنت صغيرة، وقد أخطأت، فلا تجرى مرة أخرى وراء الخطأ.

وقالت فى نبرات باكية:

ـ لم أخطىء.. أتنوى هجرى؟ ماذا تقصد؟

وكان قد تمالك قوته فقال:

ـ عودى إلى بيتك، لا تفعلى شيئا ترين وجوب التستر عليه، لا تقابلى أحدا فى الظلام..

فقال الصوت متهدجا:

ـ أتهجرنى؟ أنسيت كلامك عن حبنا؟

ـ كلام من لا عقل له، أنت مخطئة، ليكن هذا درسا لك، احذرى الظلام قد تكون فيه نهايتك، أنت صغيرة، فمن أين لك هذه الجرأة؟!

تردد فى الظلام انتحابها، ولكنه لم يرق قلبه، كان منتشيا بلذة نصر قاسية:

ـ عى كل كلمة، ولا تغضبى، واذكرى أننى لو كنت نذلاً ما ارتضيت أن أتركك قبل أن أقضى عليك، أستودعك الله...

ورقى فى السلم وثبا، انتهى من العذاب، ولن يكون طعمة لأنياب الندم، ولكن ليذكر قول أستاذه الشيخ على المنوفى: إن مغالبة الشيطان لن تكون بتجاهل سنن الطبيعة. أجل ليذكر هذا. وخلع ملابسه على عجل وارتدى الجلباب، ثم قال لأخيه أحمد وهو يغادر الحجرة:

ـ أريد أن أخلو قليلا إلى والدى فى حجرة المكتب، فانتظر قليلا من فضلك..

وفى طريقه إلى الحجرة رجا والده أن يتبعه، فرفعت خديجة رأسها إليه متسائلة:

ـ خير؟..

ـ سأحدث أبى أولا، ثم يأتى دورك.

وتبعه إبراهيم شوكت صامتا، كان الرجل قد ركب طاقم أسنانه الجديد، وعاودته طمأنينته الخاملة بعد أن واجه الحياة بلا أسنان ستة أشهر كاملة. وجلسا جنبا إلى جنب والأب يقول:

ـ خير إن شاء الله!

فقال عبد المنعم دون تردد أو تمهيد:

ـ أريد يا أبى أن أتزوج!

فحملق الرجل فى وجهه، ثم قطب باسما كأنه لم يفهم شيئا، وهز رأسه فى حيرة ثم قال:

ـ الزواج؟ كل شىء رهن بوقته، لماذا تحدثنى عن ذلك الآن؟

ـ أريد أن أتزوج الآن..

ـ الآن؟! ما زلت فى الثامنة عشرة من عمرك، ألا تنتظر حتى تأخذ شهادتك؟

ـ لا أستطيع..

وهنا فتح الباب ودخلت خديجة، وهى تتساءل:

ـ ماذا يدور وراء ذلك الباب؟ هل توجد أسرار تحل لأبيك وتحرم علىّ؟

فقطب عبد المنعم متنرفزا، على حين راح إبراهيم يقول وهو لا يكاد يفقه معنى ما يقول:

ـ عبد المنعم يريد أن يتزوج..

فتفحصته خديجة كأنما تخاف عليه الجنون، وهتفت:

ـ يتزوج؟ ماذا أسمع؟ هل قررت أن تترك الجامعة؟

فقال عبد المنعم بصوت قوى غاضب:

ـ قلت إنى أريد أن أتزوج لا أن أهرب من المدرسة، سأواصل الدراسة متزوجا، هذا كل ما هنالك..

فقالت خديجة وهى تردد عينيها بينه وبين أبيه:

ـ عبد المنعم أأنت جاد حقا؟

ـ فصاح:

ـ كل الجد...

فضربت المرأة كفا على كف وقالت:

ـ أصابتك عين، ماذا حصل لعقلك يا ابنى؟

فنهض عبد المنعم غاضبا وهو يقول:

ـ ما الذى جاء بك؟ كنت أريد أن أختلى بأبى أولا ولكنك لا صبر لك، أصغيا إلى، أريد أن أتزوج، أمامى عامان حتى أنتهى من دراستى، وأنت يا أبى تستطيع أن تعولنى هذين العامين، لولا تأكدى من هذا، ما عرضت طلبى.. فجعلت خديجة تقول:

ـ يا لطف الله! أكلوا عقله!

ـ من هم الذين أكلوا عقلى؟

ـ الله بهم أعلم . . منهم لله ، أنت أدرى بهم ، وسنعرفهم عما قليل . .

فخاطب الشاب أباه قائلا :

ـ لا تصغ إليها ، إنى لا أدرى حتى الساعة من التى ستكون من نصيبى ، اختاروها بأنفسكم ، أريد زوجة لائقة ، أى زوجة!

فسألته داهشة :

ـ أتعنى أنه لا توجد واحدة بالذات هى السبب فى هذه البلوى؟

ـ أبدا ، صدقينى ، اختارى لى بنفسك . .

ـ وما الداعى إلى السرعة إذن؟ دعنى أختار لك ، أعطنى مهلة ، إنها مسألة عام أو عامين!

فعلا صوته وهو يقول :

ـ أنا لا أهزل ، دعينى فهو يفهمنى خيرا منك!

فسأله أبوه بهدوء :

ـ ما وجه السرعة؟

فقال عبد المنعم وهو يغض بصره :

ـ لا أستطيع البقاء دون زواج .

فتساءلت خديجة :

ـ وآلاف الشبان أمثالك كيف يستطيعون؟

فقال الشاب مخاطبا أباه :

ـ لا أقبل أن أفعل ما يفعله الآخرون!

فتفكر إبراهيم قليلا ، ثم قال حسما للموقف :

ـ يكفى هذا الآن ، وسنعود إلى الموضوع فى فرصة أخرى . .

وهمت خديجة بالكلام ولكن زوجها منعها ، وأخذها من يدها فغادر الحجرة إلى مجلسها فى الصالة . وتحادث الزوجان مقلبين الأمر على جميع وجوهه ، وبعد أخذ ورد طويلين مال إبراهيم إلى تأييد طلب ابنه ، وتولى بنفسه إقناع زوجه ، حتى سلمت بالمبدأ ، وعند ذاك قال إبراهيم :

عندنا نعيمة بنت أخى ، فلن نتعب فى البحث عن عروس . .

فقالت خديجة باستسلام :

ـ أنا التى أقنعتك بالنزول عن نصيبك من ميراث المرحوم إكراما لعائشة ، فلا اعتراض لى على اختيار نعيمة زوجة لابنى ، إن سعادة عائشة تهمنى جدا كما تعلم ، ولكنى

أخاف تفكيرها، وأحسب ألف حساب للشذوذ الذى طرأ عليها، ألم نلمح أمامها مرات عن رغبتنا فى تزويج نعيمة من عبد المنعم؟ ومع ذلك خيل إلى أنها كانت ترحب بابن جميل الحمزاوى عندما قيل إن والده طلب له يدها . .

ـ هذا تاريخ قديم، مضى عليه عام أو أكثر، والحمد لله أنه لم يتم، فما كان يشرفنى أن يأخذ بنت أخى شاب مثله مهما تكن وظيفته، الأصل عندى كل شىء، نعيمة عندنا على العين والرأس . .

فقالت خديجة وهى تتنهد:

ـ على العين والرأس، ترى ماذا يقول أبى عن هذا اللعب إذا علم به؟!

فقال إبراهيم:

ـ سيرحب به دون شك، كل شىء يبدو كالحلم، ولكن لن أندم، فإنى موقن بأن تجاهل رغبة عبد المنعم خطأ لا يغتفر، ما دام فى الإمكان تحقيقها! . .

١٨

لم يطرأ على البيت القديم فى بين القصرين أى تغيير يذكر، إلا أن الجيران بما فيهم حسنين الحلاق ودرويش الفوَّال والفولى اللبان وأبو سريع صاحب المقلى وبيومى الشرباتلى، كل أولئك قد علموا بطريقة أو بأخرى أن اليوم تزوج حفيدة السيد أحمد من ابن عمها ـ وخالتها ـ عبد المنعم. حافظ السيد أحمد على تقاليده القديمة فمضى اليوم كغيره من الأيام، فاقتصر على دعوة الأهل، وغاية الأمر أن أعدت الغدة لوليمة عشاء. وكان الوقت فى مطلع الصيف، وقد اجتمعوا جميعا فى حجرة الاستقبال، السيد أحمد عبد الجواد وأمينة وخديجة وإبراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد وياسين وزنوبة ورضوان وكريمة، ما عدا نعيمة التى كانت تأخذ زينتها فى الدور الأعلى بمعاونة عائشة.

ولعل السيد قد شعر بأن وجوده بينهم يلقى على الاجتماع العائلى ظلا من الوقار الذى لا تستسيغه المناسبة السعيدة، فانتقل عقب الاستقبال بقليل إلى حجرته، حيث لبث ينتظر حضور المأذون. وكان السيد قد صفَّى تجارته وباع الدكان مؤثرا الراحة لشيخوخته، لا لأنه بلغ الخامسة والستين فحسب، ولكن لأن استعفاء جميل الحمزاوى اضطره إلى بذل نشاط مضاعف لم يعد يحتمله، فقرر إنهاء حياته العملية، قانعا بما تخلف له من تصفية دكانه وما ادخر من مال من قبل قدَّر أن يكفيه بقية العمر. وكان حدثا هاما فى حياة الأسرة، جعل كمال يتساءل عن حقيقة الدور الذى كان يلعبه جميل الحمزاوى فى حياته

عامة وحياة أبيه خاصة، ولبث السيد فى حجرته منفردا، يتأمل أحداث اليوم فى صمت، كأنما لا يصدق حقا أن العريس هو عبد المنعم حفيده. ويوم فاتحه إبراهيم شوكت فى الأمر عجب، واستنكر، كيف تسمح لابنك بأن يحدثك بهذه الصراحة وأن يملى إرادته عليك، إنكم آباء خلقتم لإفساد الأجيال، ولو فى غير الظرف الذى يدرك دقته لقال لا، ولكن كانت هناك عائشة، فحيال تعاستها تخلى عن عناده التقليدى كله، ولم يطق ـ خاصة بعد ما ثار حول صمت فؤاد الحمزاوى من تعليقات ـ أن يخيب لها رجاء ـ وإذا كان زواج نعيمة يخفف من لوعة قلبها فأهلا به وسهلا. هكذا دفعه الحرج إلى أن يقول نعم، وأن يسمح للصبيان أن يملوا إرادتهم على الكبار وأن يتزوجوا قبل أن يتجاوزوا مرحلة التلمذة. ودعا عبد المنعم إلى مقابلته، وطلب إليه أن يتعهد بإتمام دراسته، فتكلم عبد المنعم كلاما جميلا مريحا مستشهدا فى أثناء ذلك بالقرآن والحديث، فترك فى نفس جده آثارا متباينة من الإعجاب والسخرية، هكذا يتزوج التلميذ اليوم على حين أن كمال لم يفكر فى الزواج بعد، وعلى حين رفض هو يوما أن تعلن خطبة المرحوم فهمى ـ مجرد إعلان خطبة ـ الذى مات قبل أن يجنى ثمرة شبابه الغض، وهكذا يبدو أن العالم قد انقلب على رأسه، وأن دنيا عجيبة أخرى تشب، وأننا غرباء بين أهلينا، اليوم يتزوج التلاميذ ولا ندرى ماذا يصنعون غدا. وفى حجرة الاستقبال كانت خديجة تقول من ضمن حديث طويل:

ـ لذلك أخلينا الدور الثانى من سكانه، وسيستقبل الليلة العروسين وهو على أحسن حال.

فقال لها ياسين بلهجة غادرة:

ـ عندك كافة المواهب التى تجعل منك «حماة» لا نظير لها، ولكنك لن تستطيعى استغلال مواهبك الفذة مع هذه العروس!

فأدركت ما يرمى إليه، ولكنها تجاهلته قائلة:

ـ العروس ابنتى وابنة أختى..

وقالت زنوبة تلطف من تعريض ياسين:

ـ خديجة هانم سيدة كاملة!

فشكرتها خديجة، وكانت تقابل توددها بالشكر والاحترام إكراما لياسين.

على الرغم من احتقارها الباطنى لها، وكانت كريمة تتألق فى سنها العاشرة مما جعل ياسين ينوه بأنوثتها المنتظرة! أما عبد المنعم فراح يحادث جدته أمينة المعجبة بتدينه، وكانت تقطع حديثه بالدعاء له. وسأل كمال أحمد ممازحا:

ـ وأنت تتزوج فى العام المقبل؟

فقال أحمد ضاحكا:

ـ إلا إذا اتبعت سنتك يا خالى!

وكانت زنوبة تتابع حديثهما، فقالت موجهة الخطاب إلى كمال:

ـ لو سمح لى سى كمال فإنى أعد بأن أزوجه فى أيام!

فقال لها ياسين وهو يشير إلى نفسه:

ـ إنى مستعد لأن أسمح لك عن نفسى!

فقالت وهى تهز رأسها تهكما:

ـ لقد تزوجت بما فيه الكفاية، وأخذت نصيبك ونصيب أخيك..

وانتبهت أمينة إلى موضوع الحديث فقالت زنوبة:

ـ إذا زوجت كمال، فسأحاول أن أزغرد لأول مرة فى حياتى!

وتخيل كمال أمه وهى تزغرد فضحك، ثم تخيل نفسه فى مجلس عبد المنعم ينتظر المأذون فوجم. الزواج يهيج دوامة فى أعماقه كما يهيج الشتاء الربو عند المريض، وهو يرفضه عند كل مناسبة، لكنه لا يستطيع أن يتجاهله، وهو خالى القلب ولكنه يضيق بخلوه كما كان يضيق قديما بامتلائه، واليوم إذا أراد الزواج فليس أمامه إلا الطريق التقليدى الذى يبدأ بالخاطبة، وينتهى بالأسرة والأطفال والاندماج فى ميكانيزم الحياة، فلا يكاد يجد المولع بالتأمل موضعا للتأمل، وسوف يرى الزواج دائما أبدا فى مركز عجيب بين الحنين من ناحية والاشمئزاز من ناحية أخرى، أما فى نهاية العمر فلن تجد إلا الوحدة والكآبة..

السعيدة حقا فى ذلك اليوم كانت عائشة، لأول مرة منذ تسع سنوات تحلت بثوب جميل وعقصت شعرها. وكانت ترقب ابنتها التى تبدت كقبضة من نور بعينين حالمتين، فإذا غلبها الدمع أخفت عنها وجهها الشاحب الذابل، وقد لمحتها أمها مرة وهى تبكى، فنظرت إليها معاتبة وهى تقول:

ـ لا يصح أن تترك نعيمة البيت وفى قلبها حزن!

فانتحبت عائشة قائلة:

ـ ألا ترينها وحيدة فى هذا اليوم لا أب ولا أخ؟

فقالت أمينة:

ـ البركة فى أمها، ربنا يخليها لها، وهى ذاهبة إلى خالتها وعمها، ولها بعد ذلك الله خالق الملك كله..

فجففت عائشة عينيها وهى تقول:

ـ ذكريات الأموات الأعزاء تغمرنى من طلعة الصبح، ووجوههم تلوح لى، ثم أننى بعد ذهابها سأبقى وحيدة. .

فقالت أمينة فى عتاب:

ـ لست وحيدة. .

وكانت نعيمة تربت خد أمها وتقول:

ـ كيف أستطيع أن أغيب عنك يا ماما؟

فتجيبها عائشة بحنان وهى تبتسم:

ـ سيعلمك بيت زوجك كيف تستطيعين!

فقالت نعيمة بقلق:

ـ ستزورينني كل يوم، كنت تتحاشين الاقتراب من السكرية، ولكن يجب أن تتخلى عن هذه العادة منذ اليوم.

ـ طبعا، هل تشكين فى ذلك؟

وإذا بكمال يقبل عليهما قائلا:

ـ استعدا جاء المأذون!. .

وعلقت عيناه بنعيمة فى إعجاب. يا للجمال، والرقة، والشفافية، كيف يكون للحيوانية دور فى هذا الكائن اللطيف؟!

ولما عرف أن الكتاب قد كتب، تبودلت التهانى، وإذا بزغرودة تقتحم على البيت وقاره وتلعلع فى جوه الصامت، فاتجهت الرءوس فى دهش إلى حيث وقفت أم حنفى فى نهاية الصالة. ولما جاء وقت الوليمة وتوارد المدعوون إلى المائدة، انقبض صدر عائشة وتركز تفكيرها فى الفراق الوشيك، فلم تنفتح نفسها للطعام، ثم جاءت أم حنفى فأبلغت أن الشيخ متولى عبد الصمد جالس على الأرض فى الحوش ,وأنه طلب عشاءه خاصة من اللحوم، فضحك السيد وأمر بأن تهيأ له صينية وتحمل إليه. وما لبث أن ترامى إليهم صوته صاعدا من الحوش وهو يدعو بطول العمر لحبيبه «ابن عبد الجواد» ويتساءل فى الوقت نفسه عن أسماء أبنائه وأحفاده ليدعو لهم، فقال السيد باسما:

ـ يا للخسارة!. . نسى الشيخ متولى أسماءكم، سامح الله الشيخوخة. .

فقال إبراهيم شوكت:

ـ إنه فى المائة من عمره، أليس كذلك؟

فأجاب أحمد عبد الجواد بالإيجاب، وعند ذلك تعالى صوت الشيخ مرة أخرى وهو يصيح:

ـ باسم الحسين الشهيد أكثروا من اللحم!

فضحك السيد قائلاً:

ـ سر ولايته قاصر اليوم على اللحوم!

وحين ساعة الوداع سبق كمال إلى الحوش ليتجنب ذلك المنظر، ومع أنه لم يزد على انتقال يسير إلى السكرية إلى أنه كان ذا وقع شديد كالصداع فى قلبى الأم وابنتها. والواقع أن كمال كان ينظر إلى هذا الزواج بعين ملؤها الشك، بالنظر إلى جدارة نعيمة للحياة الزوجية. وفى الحوش رأى الشيخ متولى عبد الصمد جالسا على الأرض تحت المصباح الكهربائى المثبت فى جدار البيت ليضىء المكان، مادا ساقيه، مرتديا جلبابا أبيض باهتا وطاقية بيضاء، خالعا نعليه مستندا إلى الجدار كالنائم ليريح جوفه مما امتلأ به من طعام، ورأى بين ساقيه ماء يسيل، فأدرك من النظرة الأولى أن الشيخ متولى يبول وهو لا يشعر، وكانت أنفاسه تتردد فتسمع كالفحيح. حدجه كمال بنظرة جمعت بين التقزز والرثاء، ثم خطر له خاطر فابتسم على رغمه، وقال لنفسه:

ـ لعله كان طفلا مدللا عام ١٨٣٠م.

١٩

فى اليوم التالى مباشرة ذهبت عائشة لزيارة السكرية، طوال الأعوام التسعة المنقضية لم تغادر البيت القديم إلا لزيارة القرافة، فيما عدا زيارات معدودات لقصر الشوق حين وفاة ابنى ياسين الصغيرين. وقفت قليلا عند مدخل السكرية تلقى على المكان نظرة شاملة، حتى غطى الدمع ناظريها. على الأرض أمام مدخل البيت التى أشبعتها أقدام عثمان ومحمد جريا ولعبا، والحوش الذى ازدان يوما بحفل عرسها البهيج، والمنظرة التى كان يجلس فيها خليل يدخن غليونه ويلعب الطاولة والدومينو، ذلك شذا الماضى العطر المشبع بالحنان والحب المفقودين، وهى سعيدة، سعادة سارت مسير الأمثال، حتى قيل عنها الضاحكة المترنمة التى لا شغل لها إلا مضاحكة المرآة ومصاحبة الزينة، والزوج يناجى والأطفال يثبون، تلك الأيام الماضية. وجففت عينيها حتى لا تلقى العروس باكية. جففت عينين ما تزالان زرقاوين وإن تساقطت أهدابهما وذبلت جفونها. ووجدت الشقة قد جددت مرافقها وطليت جدرانها فبدت ثغرا باسما فى جهاز العروس الذى أنفق عليه بسخاء. واستقبلتها نعيمة فى فستان أبيض هفهاف، وقد أرسلت شعرها الذهبى حتى مست أهدابه باطن الساقين، رائقة عذبة وضيئة ينبعث من أردانها عرف

ساحر، فتعانقتا عناقا طويلا حارا، حتى قال عبد المنعم، وكان ينتظر دوره فى السلام فى روب جنزارى شمل به جلبابه الحريرى:

ـ كفاية، أقل سلام يكفى هذا الفراق الوهمى

ثم عانق خالته، ومضى بها إلى مقعد وثير فأجلسها وهو يقول:

ـ كنا فى سيرتك يا خالتى، فقد قررأينا على أن ندعوك للإقامة معنا. . ؟

فابتسمت عائشة قائلة:

ـ أما هذا فلا، سأزوركم كل يوم فتكون فرصة للفسحة، ما أحوجنى إلى الحركة.

فقال عبد المنعم بصراحته المعهودة:

ـ نعُّومة قالت لى إنك لا تحتملين المكوث هنا خشية أن تطاردك الذكريات، إن الذكريات الحزينة لا تطارد المؤمن، وذلك أمر الله وقد مضى منذ عهد بعيد، ونحن أولادك فقد عوضك الله.

هذا الشاب طيب صريح ولكنه لا يبالى أين يقع كلامه من القلوب الجريحة.

ـ طبعا يا عبد المنعم، ولكنى مرتاحة فى بيتى، هذا أفضل. .

ـ وإذا بخديجة وإبراهيم وأحمد يدخلون، فيصافحونها، ثم تقول خديجة لعائشة:

ـ لو عرفت أن هذا الذى يعيدك إلى زيارتنا لزوجتهما قبل البلوغ!

فضحكت عائشة، وقالت تذكر خديجة بالماضى البعيد:

ـ المطبخ واحد؟ أم تطالب العروس بالاستقلال من حماتها؟

فضحكت خديجة وإبراهيم معا، وقالت خديجة بلهجة لم تخل من معنى:

ـ العروس كأمها لا تعنى بالسفاسف.

وقال إبراهيم ليفسر لابنيه ما غمض من تلميح عائشة:

ـ بدأت المعارك بين أمكما وأمى بسبب مشكلة المطبخ الذى كانت أمى تستقل به، ومطالبة أمكما بالاستقلال المطبخى. .

فقال العريس متعجبا:

ـ كنت تتعاركين يانينة بسبب المطبخ!

فقال أحمد ضاحكا:

ـ وهل من سبب للمعارك التى تدور بين الأم إلا هذا المطبخ؟

فقال إبراهيم فى تهكم:

ـ أمكما قوية كإنجلترا، أما أمى فرحمة الله عليها. .

وجاء كمال، كان يرتدى بذلة بيضاء أنيقة، أما وجهه فيتكون من الطاقم المألوف المركب من جبينه البارز وأنفه العظيم ونظارته الذهبية وشاربه المربع الغليظ، وكان بيده لفة كبيرة بشرت بهدية ممتازة، فقالت خديجة باسمة وهى تتفحص الهدية:

ـ حذار يا أخى، إذا لم تتدارك نفسك بالزواج فستظل تجىء بالهدايا دون أن يرد لك الجميل، الأسرة كلها اليوم موشكة على الزواج، هذا أحمد، وهناك رضوان وكريمة، تدارك نفسك بالتى هى أحسن. .

وسأله أحمد:

ـ بدأت العطلة المدرسية يا خالى؟

فأجاب كمال وهو ينزع طربوشه ويرنو إلى العروس الجميلة:

ـ لم تبق إلا فترة يسيرة للمراقبة والتصحيح فى الابتدائية!

وغابت نعيمة لتعود مرة أخرى بصينية فضية حافلة بشتى أنواع الحلوى، مختلفة الألوان والطعوم، فمضت فترة لم يسمع خلالها إلا التمطق والمصمصة، ثم راح إبراهيم يحكى ذكريات فرحه، الحفل، والمغنى، والعالمة. وتابعته عائشة بوجه باسم وقلب محزون، وتابعه كمال بشغف إذ كان يعيد عليه صورا ما زال يذكر بعضها ويود لو يعرف ما فاته منها.

قال إبراهيم ضاحكا:

ـ السيد أحمد كان كما هو اليوم أو أشد، ولكن أمى رحمها الله قالت بحزم: ليفعل السيد ما يشاء فى بيته، أما عندنا فنحن نفرح كما نشاء، وقد كان. وجاء السيد يوم الفرح ومعه أصحابه مسَّاهم الله بالخير جميعا، أذكر منهم السيد محمد عفت جد رضوان، فجلسوا جميعا فى المنظرة بعيدا عن الزياط.

وقالت خديجة:

ـ أحيت الليلة جليلة أشهر عالمة فى عصرها. .

وابتسم قلب كمال، وذكر البدرونة العجوز التى ما تزال تنوه بعهد أبيه! . .

وقال إبراهيم مسترقا النظر إلى عائشة:

ـ وكان لنا عالمة خصوصية لبيتنا، ولكن صوتها كان أجمل من العالمة المحترفة، كان يذكرنا بصوت منيرة المهدية فى عزها!

فتورد وجه عائشة، وقالت بهدوء:

ـ سكت صوتها منذ عهد بعيد، حتى نسيت الغناء. .

فقال كمال:

ـ نعيمة تغنى كذلك، ألم تسمعها؟

فقال إبراهيم:

ـ سمعت عنها ولكنى لم أسمعها بعد، الحق أنَّا عرفناها شيخة لا عالمة!

وبالأمس قلت لها: زوجك شيخ المؤمنين، ولكن ينبغى أن تؤجلى الصلاة والعبادة إلى حين!

وضحكوا جميعا، وقال أحمد مخاطبا أخاه:

ـ لا ينقص عروسك إلا أن تضمها إلى شعبة الشيخ على المنوفى معك.

فقال العريس:

ـ إن شيخنا أول من نصحنى بالزواج..

فقال أحمد مخاطبا أخاه:

ـ لعل الإخوان يعتبرون الزواج مادة من دستورهم السياسى!

والتفت إبراهيم إلى كمال قائلا:

ـ أما أنت فكنت ـ أقصد أيام دخلتى ـ صغيرا، وكان شعرك غزيرا لا كما هو اليوم، وكنت تتهمنا بسرقة أختيك فلم تغفر لنا ذلك أبدا..

«كنت ميدانا خاليا لم تبدأ به المعارك بعد، يتحدثون عن سعادة الزواج، لو يعرفون ما يحدث به الأزواج الشاكون؟! نعيمة أعز علىّ من أن يملَّها مخلوق؟ أى شىء لا ينكشف عن خدعة فى هذه الحياة؟!».

فقالت خديجة معلقة على قول زوجها:

ـ كنا نظن ذلك حبا لنا، ولكن اتضح مع الأيام أنه ليس إلا عداوة للزواج نشأت معه منذ الصغر!

وضحك كمال كما ضحكوا جميعا. إنه يحب خديجة، ويزيد من حبه علمه بحبها الشديد له، أما تعصب العريس فشد ما يزعجه، ولكنه من ناحية أخرى يحب أحمد ويعجب به، وهو نافر من الزواج ولكن يطيب له أن تذكره خديجة به فى كل مناسبة، وكان قلبه شديد التأثر بجو الزواج المحيط به فانتشى قلبه وحواسه، ووجد حنينا وإن يكن بلا هدف، ثم تساءل كأنما يتساءل لأول مرة: ماذا يمنعنى من الزواج؟.. حياة الفكر كما كان يزعم قديما؟! إننى أشك اليوم فى الفكر والمفكر معا، أهو الخوف، أم الانتقام، أم الرغبة فى الألم، أم رد الفعل الصادر من الحب القديم؟ فى حياتى مسوغ لأى من هذه الأسباب!

وسأل إبراهيم شوكت كمال:

ـ أتدرى لماذا آسف على عزوبتك؟

ـ نعم؟ . .

ـ إنى أعتقد أنك زوج مثالى إذا تزوجت، فأنت رجل بيت بطبعك، منظم، مستقيم، موظف محترم، ولا شك أنه توجد فتاة فى مكان ما من الأرض تستحقك، وأنت مضيع عليها حظها!

حتى البغال أحيانا تنطق بالحكم، فتاة فى مكان ما من الأرض ولكن أين؟أما عن اتهامه بالاستقامة فما هو إلا كافر فاسق سكير منافق! فتاة فى مكان ما من الأرض، فلعله غير بيت جليلة بعطفة الجوهرى، وهذه الآلام التى تتطاحن فى قلبه ما علّتها؟ والحيرة التى لا مهرب منها إلا بالخمر والشهوات!، ويقولون تزوج حتى تنجب فتخلد، وشد ما طمح إلى الخلود فى شتى أشكاله وألوانه، فهل يركن يائسا فى النهاية إلى هذه الوسيلة الفطرية المبتذلة؟ وثمة أمل أن يجىء بلا ألم يشوه راحته الأبدية، كم بدا الموت مخيفا لا معنى له، ولكنه ـ بعد أن فقدت الحياة كل معانيها ـ يبدو اللذة الحقيقية فى الحياة، ما أعجب العاكفين على العلم فى معاملهم، ما أعجب الزعماء الذين يلقون بأنفسهم بالمهالك فى سبيل الدستور، أما الذين يدورون حول أنفسهم فى حيرة وعذاب فالرحمة لهم! وردد بصره بين أحمد وعبد المنعم، فى إعجاب مقرون بالغبطة، إن الجيل الجديد يشق سبيله العسير إلى هدف بيِّن دون شك أو حيرة، ترى ما سر دائى الوبيل؟!

قال أحمد:

ـ سأدعو العروسين ووالدى وخالتى إلى لوج فى الريحانى الخميس القادم فتساءلت خديجة:

ـ الريحانى؟ . .

فقال لها إبراهيم مفسرا:

ـ كشكش بك!

فضحكت خديجة وقالت:

ـ كاد يا سين يطرد من بيتنا وهو عريس بسبب أخذه أم رضوان ليلة إلى كشكش!

فقال أحمد باستهانة:

ـ كان زمان وجبر، جدِّى الآن لا يمانع فى ذهاب جدتى إلى كشكش بك!

فقالت خديجة:

ـ خذ العروسين وأباك، أما أنا فكفاية علىَّ الراديو . .

وقالت عائشة:

ـ وكفاية علىَّ أنا بيتكم . .

وراحت خديجة تقص قصة يا سين وكشكش بك حتى حانت من كمال نظرة إلى ساعته فتذكر موعد رياض قلدس، فنهض مستأذنا فى الانصراف.

٢٠

ـ أتستطيع أن تستمتع بجمال الطبيعة حقا بالرغم من أن الامتحان لم يبق عليه إلا أيام؟

ـ كان السائل طالبا، والمسئول طالبا كذلك، فى جماعة من الطلاب افترشت العشب على هيئة نصف دائرة فوق هضبة خضراء فى أعلاها كشك خشبى احتله طلاب آخرون، وعلى مرمى البصر تراءت جماعات النخيل وحيضان الأزهار تتخللها مماشى الفسيفساء، قال الطالب المسئول:

ـ كما يستمتع عبد المنعم شوكت بالحياة الزوجية، رغم اقتراب الامتحان. كان عبد المنعم شوكت جالسا فى محيط نصف الدائرة، وكذلك أحمد شوكت، فقال عبد المنعم:

ـ الزواج بخلاف ما تظنون، يهيىء الطالب أحسن فرصة للنجاح.

فقال حلمى عزت، وكان يجلس لصق رضوان ياسين فى الطرف الآخر من نصف الدائرة:

ـ هذا إذا كان الزوج من الإخوان المسلمين!

وضحك رضوان عن ثغره اللؤلؤى، رغم ما أثاره الحديث فى نفسه من غم، أجل إن سيرة الزواج تثير قلقه، فلا يدرى إن كان يقدم يوما على هذه المغامرة أم لا، مغامرة مخيفة بقدر ما هى ضرورية، ولكن ما أبعدها عن روحه وجسده! وتساءل طالب:

ـ وما الإخوان المسلمون!

فأجابه حلمى عزت:

ـ جمعية دينية تهدف إلى إحياء الإسلام علما وعملا، ألم تسمع بشعبها التى بدأت تتكون فى الأحياء؟

ـ غير الشبان المسلمين؟

ـ نعم..

ـ وما الفرق؟

فأجاب وهو يشير إلى عبد المنعم شوكت :

ـ سل الأخ . .

فقال عبد المنعم بصوته القوى :

ـ لسنا جمعية للتعليم والتهذيب فحسب ، ولكننا نحاول فهم الإسلام كما خلقه الله ، دينا ودنيا وشريعة ونظام حكم . .

ـ أهذا كلام يقال فى القرن العشرين؟ . .

فقال الصوت القوى :

ـ وفى القرن العشرين بعد المائة . .

ـ احترنا يا هوه بين الديموقراطية والفاشستية والشيوعية ، هذا خازوق جديد!

فقال أحمد ضاحكا :

ـ لكنه خازوق ربانى!

ـ فعلت ضجة ضحك ، إلا أن عبد المنعم حدجه بنظرة غاضبة ، وكأن رضوان ياسين ساءه التعبير ، فقال :

ـ خازوق تعبير غير موفق . .

وعاد الطالب يسأل عبد المنعم :

ـ وهل ترجمون الناس إذا خالفوكم؟

ـ إن الشبان يتهددهم زيغ فى العقيدة ، وانحلال فى الخلق ، وليس الرجم بأشد ما يستحقونه ، ولكننا لا نرجم ، وإنما بالموعظة الحسنة والمثال الطيب نهدى ونرشد ، وآية ذلك أن بيتنا يضم ، أخا مما يستحقون الرجم ، وها هو يمرح أمامكم ، ويتطاول على خالقه سبحانه!

فضحك أحمد وقال حلمى عزت مخاطبا إياه :

ـ إذا آنست من أخيك خطرا ، فإننى أدعوك للإقامة معى فى الدرب الأحمر . .

ـ أأنت مثله؟

ـ كلا ، ولكننا معشر الوفديين قوم متسامحون ، المستشار الأول لزعيمنا قبطى ، هكذا نحن . .

وعاد الطالب الأول يقول :

ـ كيف تدعون إلى هذا الهراء فى نفس الشهر الذى ألغيت فيه الامتيازات الأجنبية؟

فقال عبد المنعم متسائلا :

ـ أنبطل ديننا إكراما للأجانب؟

وإذا برضوان ياسين يقول وكأنما كان فى واد آخر :

ـ ألغيت الامتيازات، فدع الذين انتقدوا المعاهدة يتكلمون . .

فقال حلمى عزت :

ـ هؤلاء النقاد غير مخلصين، إنها الكراهية والحسد، إن الاستقلال الحقيقى الكامل لا يؤخذ إلا بالحرب، فكيف يطمعون فى أن ننال بالكلام أكثر مما نلنا؟

فجاء صوت يقول فى ضجر :

ـ دعونا نتساءل عن المستقبل . .

ـ المستقبل لا يبحث فى شهر مايو والامتحان على الأبواب، أريحونا . . لن أعود إلى الكلية بعد اليوم حتى يتسع لى الوقت للمذاكرة . .

ـ مهلا، إن الوظائف لا تنتظرنا، ما مستقبل الحقوق أو الآداب؟ التسكع أو الوظائف الكتابية، تساءلوا عن المستقبل إذا شئتم . .

ـ أما وقد ألغيت الامتيازات فستفتح الأبواب!

ـ الأبواب؟! السكان أكثر من الأبواب!

ـ اسمعوا . . النحاس أدخل الطلبة الجامعة وكانت أبوابها مغلقة، وأتاح لهم النجاح بعد أن أعجزهم المجموع المتعسف فهل يعجز عن توظيفنا؟

ولاح فى أقصى الحديقة سرب، فانعقدت الألسنة واتجهت نحوه الرءوس، كان مكونا من أربع فتيات قادمات من الجامعة متجهات صوب مديرية الجيزة، لم تكد تميزهن الأبصار بعد، ولكنهن تقدمن متمهلات يسقن الأمل فى رؤيتهن عن قرب، إذ كان الممر الذى يسرن فيه ينعطف أمام مجلس الصحاب فى مسيره نحو الشمال. وصرن فى مجال البصر، ورددت الألسن أسماءهن وأسماء كلياتهن، واحدة من الحقوق وثلاث من الآداب، وقال أحمد لنفسه وهو ينظر إلى إحداهن : «علوية صبرى»، وجذب الاسم شوارد نفسه، فتاة ذات جمال تركى ممصر، معتدلة الطول نحيلة، بيضاء ذات شعر أسود، فاحم، وعينين سوداوين واسعتين، عاليتى الجفون، مقرونة الحاجبين، ذات سمت أرستقراطى ولفتات رفيعة، وإلى ذلك كله فهى زميلة فى القسم الإعدادى، وقد علم ـ والباحث يظفر بمعلومات شتى ـ أنها سجلت اسمها مثله فى قسم الاجتماع، ولم تكن تهيأت فرصة ليبادلها كلمة واحدة، ولكنها أثارت اهتمامه من أول نظرة، طالما رمق ملامح نعيمة بإعجاب ولكنها لم تهز أعماقه، هذه الفتاة لها شأن فيبشر قريبًا بصداقة العقل، والقلب . . ؟!

قالت حلمى عزت عقب توارى السرب عن الأنظار :

ـ عما قريب تصبح كلية الآداب وكأنها كلية بنات!

فقال رضوان ياسين وهو يردد بصره بين طلاب الآداب فى نصف الدائرة :

ـ لا تثقوا بصداقة طلاب الحقوق الذين يكثرون من زياراتكم فى كليتكم بين الحصص ، فالغرض مفضوح !

ـ ثم ضحك ضحكة عالية ، ولكنه لم يكن سعيدا فى تلك اللحظة ، فإن حديث الفتيات يثير فى نفسه اضطرابًا وحزنًا .

ـ لمَ تقبل الفتيات على كلية الآداب؟

ـ لَأن وظيفة التدريس هى أوسع الوظائف صدرًا لهن . .

فقال حلمى عزت :

ـ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فدراسة الآداب دراسة نسائية ، الروج والمانيكور والكحل والشعر والقصص ، كلها باب واحد !

فضحكوا جميعًا حتى أحمد ، وبقية طلاب الآداب ضحكوا رغم توثبهم للاحتجاج ، ثم قال أحمد :

ـ يصدق هذا الحكم الجائر على الطب ، فطالما كان التمريض نسائيًا ، أما الحق الذى لم يستقر بعد فى نفوسكم فهو الإيمان بالمساواة بين الرجل والمرأة .

فقال عبد المنعم باسما :

ـ لا أدرى إن كان مدحًا أم ذمًا أن نقول للنساء إنهن مثلنا؟

ـ إذا تعلق الأمر بالحقوق والواجبات فهو مدح لا ذم . .

فقال عبد المنعم :

ـ لقد سوى الإسلام بين الرجل والمرأة فيما عدا الميراث .

فقال أحمد متهكمًا :

ـ حتى فى الرق ساوى بينهما !

فاحتد عبد المنعم قائلاً :

ـ أنتم لا تعرفون دينكم ، هذه هى المأساة ! . .

والتفت حلمى عزت إلى رضوان ياسين ، وسأله باسمًا :

ـ ماذا تعرف عن الإسلام؟

فسأله الآخر بنفس لهجته :

ـ وماذا تعرف أنت عنه؟

فسأل عبد المنعم أخاه أحمد :

ـ وأنت ماذا تعرف عنه حتى لا تهرف بما لا تعرف؟

فقال أحمد بهدوء:

ـ أعرف أنه دين، وحسبى ذلك، لا أومن بالأديان! . .

فتساءل عبد المنعم مستنكرًا:

ـ ألديك برهان على بطلان الأديان؟

ـ ألديك أنت برهان على حقيقتها؟

فقال عبد المنعم وقد ارتفع صوته حتى جعل الشاب الذى يجلس بينه وبين أخيه يردد رأسه بينهما كالمنزعج:

ـ عندى، وعند كل مؤمن، ولكن دعنى أسألك أولاً كيف تعيش؟

ـ بإيمانى الخاص، إيمانى بالعلم والإنسانية وبالغد، وبما ألتزمه من واجبات ترمى فى النهاية إلى تمهيد الأرض لبناء جديد.

ـ هدمت كل ما الإنسان إنسان به . .

ـ بل قل بقاء عقيدة أكثر من ألف سنة آية لا على قوتها، ولكن على خطة بعض بنى الإنسان، ذلك ضد معنى الحياة المتجددة، ما يصلح لى وأنا طفل يجب أن أغيره وأنا رجل، طالما كان الإنسان عبداً للطبيعة والإنسان، وهو يقاوم عبودية الطبيعة بالعلم والاختراع، كما يقاوم عبودية الإنسان بالمذاهب التقدمية، ما عدا ذلك فهو نوع من الفرامل الضاغطة على عجلة الإنسانية الحرة!

فقال عبد المنعم، وكان فى تلك اللحظة يكره فكرة أخوة أحمد له:

ـ الإلحاد سهل، حل سهل هروبى، هروبى من الواجبات التى يلتزمها المؤمن حيال ربه ونفسه والناس، وليس من برهان على الإلحاد يمكن أن يعد أقوى من البرهان على الإيمان، فنحن لا نختار هذا أو ذاك بعقولنا بقدر ما نختاره بأخلاقنا . .

وتدخل رضوان قائلاً:

ـ لا تستسلما لعنف المناقشة، كان من الأفضل لكما كأخوين أن تكونا من حزب واحد . .

وإذا حلمى عزت يندفع قائلاً، وكان أحيانًا تعتريه نوبات ثائرة غامضة:

ـ إيمان . . إنسانية . . الغد! كلام فارغ، النظام القائم على العلم وحده ينبغى أن يكون كل شىء، يجب أن نؤمن بشىء واحد هو استئصال الضعف البشرى بكافة أنواعه، ومهما بدا علمنا قاسيًا، وذلك للوصول بالبشرية إلى مثال قول نظيف!

ـ أهذه مبادئ الوفد الجديدة بعد المعاهدة!

فضحك حلمى عزت ضحكة عادت به إلى حالته الطبيعية، وقال عنه رضوان:

ـ إنه حقًا وفدى، ولكن تطوف به أحيانًا مذاهب طارئة غريبة فيدعو على القتل بالجملة، وربما دل ذلك على أنه لم ينم أمس نومًا مريحًا!

وكان لشدة الخصام رد فعل فساد الصمت، فسر بذلك رضوان، وسرح بصره فيما حوله فراح يتابع بعض الحدأ المدومة فى السماء، أو يرنو إلى أسراب النخيل، الكل يعلن رأيه حتى ما يتهجم به على الخالق، ولكنه لا يسعه إلا أن يكتم ما يضطرم فى أعماق نفسه، وسيظل سرًا مرعبًا يتهدده، فهو كالمطارد، أو كالغريب، من الذى قسم البشر إلى طبيعى وشاذ؟ وكيف تكون الخصم والحكم فى آن؟ ولم نهزأ كثيرًا بالتعساء؟ قال رضوان مخاطبًا عبد المنعم:

ـ لا تزعل، إن للدين ربا يحميه، أما أنت فبعد تسعة أشهر على الأكثر ستكون أبا!

حقًا..؟!

فقال أحمد مداعبا أخاه ليمسح عنه آثار الحدة:

ـ أهون على أن أتعرض لغضب الله من أن أتعرض لغضبك!

ثم مضى أحمد يحدث نفسه: غضب أم لم يغضب فسيجد عند عودته إلى السكرية صدرًا حانيًا، أمن المستحيل أن أعود يومًا فأجد علوية صبرى فى الدور الأول بالسكرية؟ وندت عنه ضحكة، ولكن أحدًا لم يخمن السبب الحقيقى لضحكته..

٢١

بدا بيت عبد الرحيم باشا عيسى فى حركة غير مألوفة، ففى الحديقة وقف أناس كثيرون، وفى الفراندا جلس آخرون، وكثر الداخل والخارج، فلكز حلمى عزت ذراع رضوان ياسين وهما يقتربان من البيت، وقال له بارتياح:

ـ لسنا بلا أنصار كما تزعم جرائدهم..

وعندما أخذا يشقان سبيلهما إلى الداخل، هتف بعض الشبان «يحيا التضامن» فتورد وجه رضوان تأثرًا. كان متحمسًا ثائرًا مثلهم، بيد أنه ساءل نفسه فى قلق: ترى ألا يشك أحد فى الجانب غير السياسى من زياراته؟ وقد أفضى مرة بمخاوفه إلى حلمى عزت، فقال له: «إن الريبة لا تلحق إلا بالخواف! سر مرفوع الرأس ثابت الأقدام، يجدر بالذين يعدون أنفسهم للحياة العامة ألا يكترثوا لآراء الناس أكثر مما يجب». وكان بهو الاستقبال مكتظا بالجالسين، منهم طلبة وعمال وبعض أعضاء الهيئة الوفدية، وفى صدر المكان

جلس عبد الرحيم باشا عيسى، متجهما على غير عادته، جاداً صارمًا، تكتنفه هالة الرجل السياسى الخطير، وتقدما إليه فنهض لاستقبالهما فى رزانة، وصافحهما ثم أشار لهما بالجلوس. وقال أحد الجالسين، وكان قد توقف عن الحديث أثناء استقبال الشابين:

ـ شد ما فوجئ الرأى العام وهو يطلع على أسماء الوزراء الجدد، فلا يجد بينهم النقراشى!

فقال عبد الرحيم باشا عيسى:

ـ توقعنا عند الاستقالة أمراً، خاصة وأن الاختلاف كان قد ذاع حتى تحدثت به المقاهى، ولكن النقراشى ليس كغيره من أعضاء الوفد لقد فصل الوفد من قبله كثيرين فلم تقم لهم قائمة، أما النقراشى فله شأن آخر، ولا تنسوا أن النقراشى معناه أحمد ماهر أيضًا، هما الوفد، الوفد المجاهد المناضل المحارب، سلوا المشانق والسجون والقنابل، وليس الخلاف هذه المرة بالذى يشين الخارج. هى نزاهة الحكم، قضية القنابل، وإذا وقع المحذور وانشق الوفد، فالوفد هو الذى سيخرج لا النقراشى ولا ماهر! . .

ـ لقد كشف مكرم عبيد عن وجهه أخيراً . .

ووقع هذا القول من أذنى رضوان موقعًا غريبًا، فلم يكن مما يسهل تصديقه أن يهاجم قطب الوفد بهذا الأسلوب فى بيئة وفدية صميمة، وإذا بآخر يقول:

ـ مكرم عبيد هو رأس هذا الشر كله يا سعادة الباشا . .

فقال عبد الرحيم باشا:

ـ ليس الآخرون أصفاراً . .

ـ لكنه هو الذى لا يطيق منافسيه، إنه يريد أن يستحوذ على النحاس وحده دون شريك، وإذا خلا له الجو من ماهر والنقراشى فلن يقف فى سبيله شىء . .

ـ لو أمكنه إزالة النحاس نفسه لأزاله.

فقال شيخ من الجلوس:

ـ أرجوكم، لا تسرفوا فى القول، قد تعود المياه إلى مجاريها.

ـ بعد أن تألفت الوزارة دون النقراشى؟

ـ كل شىء ممكن . .

ـ كان من الممكن هذا على عهد سعد، أما النحاس فرجل عنيد، وهو إذا ركب رأسه . .

وهنا دخل البهو رجل مهرولاً، فاستقبله الباشا وسط المكان وتعانقا بحرارة والباشا يتساءل:

ـ متى عدت؟ كيف الحال فى الإسكندرية؟

ـ عال.. عال، استقبل النقراشى فى محطة سيدى جابر استقبالاً شعبيًا منقطع النظير، هتفت له الجماهير المثقفة من الأعماق، الجميع غاضبون، الكل ثائر لنزاهة الحكم، هتفوا: يحيا النقراشى النزيه.. يحيا النقراشى ابن سعد.. وهتف كثيرون يحيا النقراشى زعيم الأمة..

وكان الرجل يتكلم بصوت مرتفع، فردد هتافه كثيرون حتى اضطر عبد الرحيم باشا أن يلوح لهم داعيا إلى التزام الهدوء. وعاد الرجل يقول:

ـ الرأى العام ساخط على الوزارة، غاضب لإخراج النقراشى منها، لقد خسر النحاس خسارة لا تعوض، وارتضى أن يؤيد الشيطان ضد الملاك الطاهر..

وهنا قال عبد الرحيم باشا:

ـ نحن الان فى أغسطس، وفى أكتوبر تفتح الجامعة، فليكن افتتاح الجامعة موقعة فاصلة، يجب أن نستعد منذ الآن للمظاهرات فإما أن يثوب النحاس إلى رشده، وإما فليذهب إلى الهاوية..

فقال حلمى عزت:

ـ أستطيع أن أؤكد أن مظاهرات الجامعيين ستتدفق على بيت النقراشى..

فقال عبد الرحيم باشا:

ـ كل شىء يحتاج إلى التنظيم، اجتمعوا بأنصارنا من الطلبة وأعدوا العدة، وفضلاً عن هذا فإن الأخبار التى عندى تؤكد أن كثرة لا تصدق من النواب والشيوخ سينضمون إلينا..

ـ النقراشى هو خالق لجان الوفد، لا تنسوا ذلك، إن تلغرافات الولاء تتسابق إلى مكتبه صباح مساء..

وتساءل رضوان ماذا يحدث فى الدنيا؟ ترى أينقسم الوفد مرة أخرى؟ وهل يتحمل مسئولية ذلك حقًا مكرم عبيد؟، وهل تتفق مصلحة الوطن وانقسام الحزب الذى نهض برسالته ثمانية عشر عامًا؟ وطال الأخذ والرد، وبحث المجتمعون اقتراحات شتى خاصة بالدعاية وتدبير المظاهرات، ثم أخذوا فى الانصراف حتى لم يبق فى البهو إلا الباشا ورضوان وحلمى عزت، وعند ذاك دعاهما للجلوس فى الفراندا، فمضيا وراءه، وجلس ثلاثتهم حول منضدة، وسرعان ما حملت إليهم أقداح الليمون، وما لبث أن تراءى عند الباب رجل فى الأربعين، عرفه رضوان فى بعض زياراته السابقة، يدعى على

مهران، يعمل وكيلا للباشا، وكان منظره يوحى بما طبع عليه من ميل للمزاح والمجون، وكان يصحب معه شابًا فى العشرين من عمره، جميل المحيا، يبدو من منظر شعره الهائج وسوالفه الطويلة وربطة عنقه العريضة أنه من أهل الفن وقد أقبل على مهران باسم الثغر فقبل يد الباشا، وصافح الشابين، ثم قدم الشاب قائلاً:

ـ الأستاذ عطية جودت، مغنى ناشئ لكنه موهوب، وقد سبق أن حدثتك عنه يا معالى الباشا!

فلبس الباشا نظارته التى كان وضعها على المنضدة، وتفحص الشاب بعناية، ثم قال باسمًا:

ـ أهلاً وسهلاً ياسى عطية، سمعت عنك كثيراً، فلعلنا نسمعك هذه المرة..

فدعا للباشا باسما، ثم جلس، على حين مال على مهران على الباشا وهو يقول:

ـ كيف حال عمى؟

هكذا كان يخاطب الباشا إذا زالت دواعى الكلفة، وأجابه الرجل باسمًا:

ـ أحسن منك ألف مرة!.

فقال على مهران جادا على خلاف عادته:

ـ يتهامسون فى بار الأنجلو عن وزارة قومية قريبة برياسة النقراشى!..

فابتسم الباشا ابتسامة سياسية وتمتم:

ـ لسنا من المستوزرين!..

وتساءل رضوان باهتمام وقلق:

ـ على أى أساس؟ طبعًا لا أستطيع أن أتصور أن يقوم النقراشى بانقلاب سياسى كمحمد محمود أو إسماعيل صدقى؟!

فقال على مهران:

ـ انقلاب! كلا، المسألة تنحصر الآن فى إقناع أكثرية الشيوخ والنواب بالانضمام إلينا، ولا تنس أن الملك معنا، فعلى ما هو يعمل بحكمة وأناة!

وعاد رضوان يتساءل فى كآبة:

ـ أنكون فى النهاية من رجال السراى؟

فقال عبد الرحيم باشا:

ـ العبارة واحدة، ولكن المعنى تغير، فاروق غير فؤاد، والظروف غير الظروف، الملك شاب وطنى متحمس، وهو مجنى عليه أمام هجمات النحاس الجائرة!

ففرك على مهران يديه فى حبور وهو يقول:

ـ ترى متى نهنىء الباشا بالوزارة؟ وهل تختارنى وكيلاً لوزارتك كما اخترتنى وكيلاً لأعمالك؟

فقال الباشا ضاحكًا:

ـ بل أعينك مديرًا عامًا للسجون، إن مكانك الطبيعى هو السجن.

ـ السجن؟ لكنهم يقولون إن السجن للجدعان؟!

ـ ولغيرهم، فليطمئن بالك!

ثم ركبه الضجر فجأة فهتف:

ـ حسبنا سياسة، غيروا الجو من فضلكم!

والتفت نحو الأستاذ عطية متسائلاً:

ـ ماذا تسمعنا؟

فأجاب عنه على مهران:

ـ الباشا سميع وابن حظ، وإذا رقت فى نظره تفتحت لك أبواب الإذاعة..

فقال عطية جودت برقة:

ـ لحنت أخيرًا أغنية «شبكونى وشبكوه» وهى من تأليف الأستاذ مهران! فرمق الباشا وكيله، وسأله:

ـ منذ متى تؤلف أغانى؟

ـ ألم أجاور فى الأزهر سبع سنوات، غرقت فيها فى مفاعيل وفعلاتن؟

ـ وما للأزهر وأغانيك الخليعة؟ شبكونى وشبكوه! من هو يا حضرة المجاور؟

ـ المعنى يا معالى الباشا فى ذقن الباشا!..

ـ يا ابن الهرمة!..

ونادى على مهران السفرجى، فسأله الباشا:

ـ لماذا تناديه؟

ـ ليهيئ لنامجلس الطرب!..

فقال الرجل وهو ينهض:

ـ انتظر حتى أصلى العشاء!..

فتساءل مهران باسمًا فى خبث:

ـ ألم ينقض سلامنا وضوءك؟!

٢٢

غادر أحمد عبد الجواد بيته، ناقلاً خطاه على مهل، متوكئا على عصاه، لم يعد اليوم كالأمس، فمنذ أن صفى دكانه لم يكن ليغادر بيته إلا مرة واحدة فى اليوم، كى يعفى نفسه ما استطاع من الجهد الذى يتحمله قلبه عند ارتقاء السلم. ومع أن الوقت لم يعد سبتمبر إلا أنه رأى أن يرتدى الملابس الصوفية، إذ أن الجسم النحيل لم يعد يطيق الجو اللطيف الذي كان يمرح فيه الجسم البدين القوى الذى كان. والعصا التى صاحبته منذ الصغر رمزًا للرجولة وآية على الأناقة باتت متوكأة فى مشيته المتمهلة، التى لا يطيقها قلبه إلا بجهد ومشقة، ولكن بقى له رونقه وأناقته، فما زال يحرص على انتقاء الأزياء الفاخرة، ويتطيب بالعطر الفواح متمتعًا بجمال الشيخوخة ووقارها، وعندما اقترب من الدكان مالت نحوه عيناه بحركة لا إرادية. رفعت اللافتة التى حملت اسمه واسم أبيه أعوامًا وأعوامًا، وتغير مظهر الدكان ومخبره، فانقلب دكان طرابيش للبيع والكى، وتقدمه الوابور والقوالب النحاسية، وتخايلت لعينيه لافتة وهمية، لم ترها عين سواه، عالنته بأن زمانه قد ولى، زمان الجد والكفاح والمسرات، وها هو فى ركن المعاش ينزوى، يستدبر دنيا الآمال ويستقبل دنيا الشيخوخة والمرض والانتظار، وتقبض القلب الذى طالما ـ وما زال ـ يهيم بحب الدنيا وأفراحها، حتى إن الإيمان نفسه لم يكن فى نظره إلا مسرة من مسراتها ودافعًا إلى أحضانها، فلم يعرف ـ حتى اليوم ـ العبادة الزاهدة التى تدير الظهر للدنيا وتتطلع إلى الآخرة وحدها. لم يعد الدكان دكانه ولكن كيف تمحى ذكراه من ذهنه وهو الذى كان مركز النشاط، ومحط الأنظار، وملتقى الأصحاب والأحباب، ومبعث العزة والجاه؟ «ولك أن تعزى نفسك فتقول: زوجنا البنات، وربينا الصبيان، ورأينا الأحفاد، ولنا مال موفور يسترنا حتى الموت، وذقنا حلو الدنيا سنين ـ سنين حقًا؟ ـ وآن لنا أن نشكر، والشكر لله واجب، دائمًا أبدا، ولكن آه من الحنين، وسامح الله الزمن، الزمن الذى مجرد حياته ـ حياته التى لا تتوقف لحظة ـ خيانة وأى خيانة للإنسان. لو أن الأحجار تنطق لسألت هذه الأماكن أن تحدثنى عن الماضى، لتخبرنى أحقًا كان هذا الجسم يهد الجبال؟ وهذا القلب المريض لا يكف عن الخفقان؟ وهذا الثغر لا يمسك عن الضحك؟ وهذا الشعور لا يعرف الألم؟ وهذه الصورة معلقة فى كل قلب؟ ومرة أخرى سامح الله الزمن!».

وعندما انتهى به المسير الوئيد إلى جامع الحسين، خلع حذاءه ودخل وهو يتلو

الفاتحة، ومضى إلى المنبر حيث وجد فى انتظاره محمد عفت وإبراهيم الفار فصلوا المغرب جميعًا، ثم غادروا المسجد متجهين نحو الطمبكشية لزيارة على عبد الرحيم، كان ثلاثتهم قد اعتزلوا العمل ليتفرغوا لمقاومة الأمراض، غير انهم كانوا أحسن حالاً من على عبد الرحيم الذى لم يعد بوسعه أن يفارق الفراش، وقال السيد أحمد متنهدًا:

ـ يخيل إلى أنى عما قريب لن أستطيع الذهاب إلى الجامع إلا راكبًا..

ـ الحال من بعضه..

فعاد الرجل يقول فى قلق:

ـ شد ما أخاف أن أضطر إلى ملازمة الفراش كالسيد على، وإنى أدعو الله أن يكرمنى بالموت قبل أن يدركنى العجز..

ـ ربنا يكفيك ويكفينا كل سوء..

فبدا كالخائف وهو يقول:

ـ غنيم حميدو لبث مشلولا فى الفراش زهاء العام، وصادق الماوردى عانى العذاب شهوراً، فاللهم أكرمنا بالنهاية السريعة إذا حم القضاء.

فضحك محمد عفت قائلاً:

ـ إذا غلبتك الأفكار السوداء انقلبت امرأة، وحد الله يا أخى!..

ولما بلغوا بيت على عبد الرحيم أدخلوا إلى حجرته، فبادرهم يقول فى جزع:

ـ تأخرتم عن ميعادكم، سامحكم الله..

بان ضجر الرقاد فى عينيه، فلم يعد يعرف الابتسام إلا ساعة اجتماعه بهم، وجعل يقول:

ـ لا عمل لى طول اليوم إلا الاستماع إلى الراديو، ماذا كنت أصنع لو تأخر استعماله فى مصر حتى اليوم! كل ما يذيعه يطيب لى حتى المحاضرات التى لا أكاد أفهمها، ومع ذلك فلم نكبر إلى الحد الذى يستوجب هذا العذاب، أجدادنا كانوا يتزوجون فى مثل أعمارنا!..

فغلبت روح الفكاهة أحمد عبد الجواد، فقال:

ـ فكرة!. ما رأيكم فى أن نتزوج من جديد، لعل ذلك يجدد شبابنا وينفض عنا الأمراض؟!

فابتسم على عبد الرحيم ـ كان يتجنب الضحك أن تدركه نوبة السعال فتؤذى قلبه ـ وقال:

ـ معكم!، اختاروا لى عروسًا، ولكن صارحوها بأن العريس لا يستطيع الحركة، وعليها الباقى..

وهنا خاطبه الفار وكأنما تذكر أمرًا فجأة:

ـ أحمد عبد الجواد سيسبقك إلى رؤية وليد حفيدته، ربنا يمد فى عمره!

ـ مبارك مقدمًا يا بن عبد الجواد!..

ولكن السيد أحمد تجهم قائلاً:

ـ نعيمة حبلى حقًا ولكنى غير مطمئن، ما زلت أذكر ما قيل عن قلبها يوم مولدها، طالما حاولت أن أنسى ذلك عبثًا..

ـ يا لك من رجل جاحد! منذ متى تؤمن بنبوءات الأطباء؟..

فضحك السيد أحمد قائلاً:

ـ منذ باتت اللقمة التى أتناولها على غير مشورتهم تؤرقنى حتى مطلع الفجر..

فتساءل على عبد الرحيم:

ـ ورحمة ربنا؟!..

الحمد لله رب العالمين.

ثم مستدركًا:

ـ لست بالغافل عن رحمة الله، ولكن الخوف يبعث على الخوف، والحق فإن نعيمة لا تهمنى بقدر ما تهمنى عائشة يا على، عائشة هى مركز القلق فى حياتى، التعيسة المسكينة، سأتركها إذا تركتها وحيدة فى هذه الدنيا..

فقال إبراهيم الفار:

ـ ربنا موجود، وهو الراعى الأكبر..

وساد الصمت مليًا، حتى قطعه صوت على عبد الرحيم قائلاً:

ـ وسيأتى دورى بعدك فى رؤية وليد حفيدتى..

فضحك السيد أحمد قائلاً:

ـ سامح الله البنات، فإنهن يكبرن أهلهن قبل الأوان.

فهتف محمد عفت:

ـ يا عجوز! اعترف بالكبر وكفاك مكابرة..

ـ لا ترفع صوتك خشية أن يسمعك قلبى فيسوق العوج، أصبح قلبى كالطفل المدلل..

فقال إبراهيم الفار وهو يهز رأسه أسفًا:

ـ يا له من عام ذلك العام الماضى، كان علينا شديدًا، فما ترك واحدا منا سليما كأننا كنا على ميعاد!

ـ على رأى عبد الوهاب: لنعيش سوا لنموت سوا..

فضحكوا معًا، وإذا بعلى عبد الرحيم يغير لهجته ويتساءل جادًا:

ـ أهذا يصح؟ أعنى ما فعله النقراشى؟

فتجهم وجه أحمد عبد الجواد وقال:

ـ كم أملنا أن تعود المياه إلى مجاريها، أستغفر الله العظيم..

ـ أخوة الجهاد والعمر ضاعت هباء!

ـ فى هذا الزمن كل جميل يضيع هباء..

وعاد أحمد عبد الجواد يقول:

ـ لم أحزن لشىء كما حزنت لخروج النقراشى، ما كان ينبغى أن يذهب به الخصام إلى هذا الحد..

ـ ترى ما هى النهاية التى تنتظره؟.

ـ النهاية المحتومة، أين الباسل والشمسى؟ لقد قضى الرجل المجاهد على نفسه وأخذ فى رجليه أحمد ماهر.

وهنا قال محمد عفت متنرفزا:

ـ دعونا من هذه السيرة! أنا أكاد أطلق السياسة!

وخطر للفار خاطر، فتساءل باسمًا:

ـ لو اضطررنا ـ لا سمح الله ـ على ملازمة الفراش كالسيد على، فكيف نتقابل ونتحادث؟

فتمتم محمد عفت:

ـ فال الله ولا فالك..

فضحك أحمد عبد الجواد وقال:

ـ لو وقع المحذور نتخاطب بالراديو، كما يخاطب باب «سخام» الأطفال!..

وضحكوا جميعًا، وأخرج محمد عفت ساعته ونظر فيها، ولكن على عبد الرحيم جزع وقال:

ـ ستبقون معى حتى يحضر الطبيب لتسمعوا ماذا يقول، ملعون أبوه، وأبو أيامه..

٢٣

كانت الغورية تغلق أبوابها، فقلت السابلة واشتدت البرودة، وكان الزمن فى أواسط ديسمبر، ولكن الشتاء جاء متعجلاً هذا العام. ولم يكن كمال قد وجد صعوبة فى جذب رياض قلدس إلى حى الحسين، أجل كان الشاب غريبًا عن الحى، ولكنه وجد من نفسه شوقًا للتقلب فى أنحائه، والجلوس فى مقاهيه. وكان قد مضى على تعارفهما فى مجلة الفكر أكثر من عام ونصف عام، لم يمر أسبوع خلاله دون أن يتقابلا مرة أو مرتين، بخلاف العطلة التى تجمع بينهما كل مساء على وجه التقريب فى مجلة الفكر، أو بيت بين القصرين، أو بيت رياض بمنشية البكرى، أو مقاهى عماد الدين، أو قهوة الحسين الكبرى التى لجأ إليها كمال بعد أن أتت المعاول على قهوة أحمد عبده التاريخية فمحتها من الوجود إلى الأبد. كانا سعيدين بصداقتهما، وقد قال كمال نفسه مرة «جعلت أفتقد حسين شداد أعوامًا، وظل مكانه شاغراً، حتى ملأه رياض قلدس» ففى محضره تستيقظ روحه وتستشعر ذلك الإنبثاق الذى يبلغ نشوته فى عناق الفكر المتبادل، هذا على الرغم من أنهما لم يكونا شيئًا واحداً، وإن كانا متكاملين فيما بدا وظلت صداقتهما شعوراً متبادلاً فى صمت، لم ينوها به، فلم يقل أحدهما للآخر «أنت الصديق» ولا قال له «لا أتصور الحياة بدونك» ولكن كان ذلك كذلك، وعلى برودة الجو لم تفتر رغبتهما فى السير، فقررا أن يسيرا على الأقدام حتى قهوة عماد الدين. ولم يكن رياض قلدس سعيداً ذلك المساء، كان يقول بانفعال شديد:

ـ انتهت الأزمة الدستورية بهزيمة الشعب، فليست إقالة النحاس إلا هزيمة للشعب فى نضاله التاريخى مع السراى. .

فقال كمال فى أسف:

ـ ثبت الآن أن فاروق كأبيه.

ـ فاروق ليس المسئول وحده، ولكن دبرها أعداء الشعب التقليديون، فهذه يد على ماهر ومحمد محمود، ومن المبكى أن ينضم إلى أعداء الشعب اثنان من أبنائه، ماهر والنقراشى، ولو تطهر الوطن من الخونة لما وجد الملك من يمكنه من هضم حقوق الشعب. .

ثم استطرد بعد صمت قليل:

ـ ليس الإنجليز اليوم فى الميدان، ولكن الشعب والملك وجها لوجه، والاستقلال ليس

كل شيء، هنالك حق الشعب المقدس فى أن يتمتع بسيادته وحقوقه، ليحيا حياة الإنسان لا حياة العبيد. .

لم يكن كمال غارقًا فى السياسة كرياض، أجل لم يستطع الشك أن يدمرها فيما دمر فلبثت حية فى عواطفه، كان يؤمن بحقوق الشعب بقلبه، وإن كان عقله لا يدرى أين المفر. عقله يقول حينا «حقوق الإنسان» وحينا آخر يقول «بل البقاء للأصلح وما الجماهير إلا قطيع» وربما قال «والشيوعية أليست تجربة جديرة بالاختبار؟». أما قلبه فلم يتخلص من عواطفه الشعبية التى صاحبته منذ صباه ممتزجة بذكرى فهمى، أما رياض فكانت السياسة جوهرًا أصيلاً فى نشاطه الذهنى. وعاد رياض يقول:

ـ أيمكن أن ننسى الإهانة التى تلقاها مكرم فى ميدان عابدين؟ وهذه الإقالة المجرمة، سب وقذف وبصقة فى وجه الأمة؟ والحقد الأعمى يجعل البعض يهللون، واحسرتاه. .

فقال كمال مداعبًا:

ـ أنت غاضب لمكرم!

فقال رياض دون تردد:

ـ إن الأقباط جميعًا وفديون، ذلك أن الوفد حزب القومية الخالصة، ليس حزبا دينيا تركيا كالحزب الوطنى، ولكنه حزب القومية التى تجعل مصر وطنًا حرًا للمصريين على اختلاف عناصرهم وأديانهم، أعداء الشعب يعلمون ذلك، ولذلك كان الأقباط هدفًا للاضطهاد السافر طوال عهد صدقى، وسيعانون ذلك منذ اليوم. .

ورحب كمال بهذه الصراحة التى تشهد لصداقتهما بالكمال، غير أنه راق له أن يتساءل فى دعابة:

ـ ها أنت تتحدث عن الأقباط! أنت الذى لا يؤمن إلا بالعلم والفن! . .

فلاذ رياض بالصمت. وكانا قد بلغا شارع الأزهر حيث يتدافع الهواء البارد فى شيء من العنف. ثم مرا فى طريقهما بدكان بسبوسة فدعاه كمال إلى تناول شيء منها، وما لبث أن أخذ كل منهما طبقًا صغيرًا وانتحيا ناحية يأكلان، وعند ذلك قال رياض:

ـ إنى حر وقبطى فى آن، بل إنى لا دينى وقبطى معًا، أشعر فى أحايين كثيرة بأن المسيحية وطنى لادينى، وربما إذا عرضت هذا الشعور على عقلى اضطربت. ولكن مهلاً، أليس من الجبن أن أنسى قومى؟ شيء واحد خليق بأن ينسينى هذا التنازع، ألا وهو الفناء فى القومية المصرية الخالصة كما أرادها سعد زغلول، إن النحاس مسلم دينا، ولكنه قومى بكل معنى الكلمة أيضًا، فلا نشعر حياله إلا بأننا مصريون لا مسلم ولا قبطى، بوسعى أن أعيش سعيدًا دون أن أكدر صفوى بهذه الأفكار، ولكن الحياة الحقة مسئولية فى الوقت نفسه.

كان كمال يتمطق ويفكر وصدره يجيش بالعواطف، كانت سحنة رياض المصرية الصميمة التى تذكره بالصور الفرعونية تثير تأملات شتى فى نفسه. «إن موقف رياض له وجاهته التى لا تجحد، وأنا نفسى ـ بين عقلى وقلبى ـ شخص يعانى انقسام الشخصية، فكذلك هو، كيف يتأتى لأقلية أن تعيش وسط أغلبية تضطهدها؟ وجدارة الرسالات السامية تقاس عادة بما تحققه من سعادة للبشر تتمثل أول ما تتمثل فى الأخذ بيد المضطهدين» قال:

ـ لا تؤاخذنى، فقد عشت حتى الآن دون أن أصطدم بمشكلة العنصرية، فمنذ البدء لقنتنى أمى أن أحب الجميع، ثم شببت فى جو الثورة المطهر من شوائب التعصب، فلم أعرف هذه المشكلة.

فقال رياض وهما يستأنفان المسير:

ـ المرجو ألا تكون ثمة مشكلة على الإطلاق، يؤسفنى أن أصارحك بأننا نشأنا فى بيوت لا تخلو من ذكريات سود محزنة، لست متعصبًا، ولكن من يستهين بحق إنسان فى أقصى الأرض ـ لا فى بيته ـ فقد استهان بحقوق الإنسانية جميعًا. .

ـ جميل هذا القول، لا عجب أن رسالات الإنسانية الحقة كثيراً ما تنبعث من أوساط الأقلية، أو من رجال مشغولى الضمائر بالأقليات البشرية، ولكن ثمة متعصبين دائمًا. .

ـ دائمًا وفى كل مكان، الإنسان حديث والحيوان قديم، وهم عندكم يعتبروننا كفارا ملاعين، وهم عندنا يعتبرونكم كفارا مغتصبين، ويقولون عن أنفسهم أنهم سلالة من ملوك مصر الذين استطاعوا أن يحافظوا على دينهم بدفع الجزية. .

فضحك كمال ضحكة عالية، وقال:

ـ هذا قولنا وذاك قولكم، ترى الأصل فى هذا الخلاف الدين أم الطبيعة البشرية المتطلعة أبدًا إلى الخصام؟! لا المسلمون على وفاق، ولا المسيحيون على وفاق، وستجد نزاعًا مستمراً بين الشيعى والسنى، وبين الحجازى والعراقى، كالذى بين الوفدى والدستورى، وطالب الآداب وطالب العلوم، والنادى الأهلى والترسانة، ولكن رغم ذلك كله فشد ما نحزن إذا ما طالعنا فى الصحف خبر زلزال باليابان! اسمع، لماذا لا تعالج ذلك فى قصصك؟

ـ مشكلة الأقباط والمسلمين. .

فصمت رياض قلدس مليا، ثم قال:

ـ أخاف سوء الفهم. .

ثم مستطردا بعد فترة صمت أخرى:

- ثم لا تنسى أننا رغم كل شيء فى عصرنا الذهبى، كان الشيخ عبد العزيز جاويش يقترح فى الماضى أن يصنع المسلمون من جلودنا أحذيتهم . .

- وكيف نستأصل هذه المشكلة من جذورها؟

- من حسن الحظ أنها ذابت فى مشكلة الشعب كله، مشكلة الأقباط اليوم هى مشكلة الشعب، إذا اضطهد اضطهدنا وإذا تحرر تحررنا . .

«السعادة والسلام . . ذلك الحلم المنشود، قلبك يحيا بالحب وحده، فمتى يعرف عقلى سبيله؟ متى أقول بلهجة ابن أختى عبد المنعم «نعم. نعم»، إن صداقتى لرياض علمتنى كيف أقرأ قصصه، ولكن كيف أومن بالفن، فى الوقت الذى وجدت الفلسفة نفسها قصوراً غير صالحة للسكنى؟» .

وسأله رياض فجأة، وهو يسترق إليه النظر :

- فيم تفكر الآن؟ . . أصدقنى !

وفطن إلى ما وراء سؤاله، فأجابه بصراحة :

- كنت أفكر فى قصصك .

- ألم تتألم لصراحتى؟

- أنا، سامحك الله . .

فضحك كالمعتذر، ثم سأل :

- أقرأت قصتى الأخيرة؟

- نعم، وهى لطيفة، ولكن يخيل إلى أن الفن نشاط غير جدى، مع ملاحظة أيهما أخطر فى حياة الإنسانية : الجد أم اللهو؟ ! أنت مثقف ثقافة علمية عالية، ولعلك أدرى «غير العلماء» بالعلم، ولكن نشاطك كله يضيع فى كتابة القصص وإنى لأتساءل أحيانًا : ماذا أفدت من العلم؟

فقال رياض قلدس فى حماسة :

- أخذت من العلم للفن عبادة الحقيقة، والإخلاص لها، ومواجهتها بشجاعة مهما تكن مرة، والنزاهة فى الحكم والتسامح الشامل مع المخلوقات . .

كلمات ضخمة، ولكن ما علاقتها بملهاة القصص؟ ونظر رياض قلدس إليه، فقرأ الشك فى وجهه. فضحك عاليًا ثم قال :

- أنت تسيء الظن بالفن، ولكن عزائى أن شيئًا فى الدنيا لا يمكن أن يسلم من شكك، نحن نرى بعقولنا ولكننا نعيش بقلوبنا، أنت مثلاً ـ رغم موقفك الشكى ـ تحب وتتعامل وتشارك مشاركة ما فى حياة بلدك السياسية، ووراء كل ناحية من هذه

النواحى مبدأ شعورى أو لا شعورى لا يقل عن الإيمان قوة، الفن هو المعبر عن عالم الإنسان، وإلى هذا فمن الأدباء من أسهم بفنه فى معركة الآراء العالمية، فانقلب الفن على يديه عدة من عدد الكفاح فى ميدان الجهاد العالمى، لا يمكن أن يكون الفن نشاطا غير جدى..

دفاع عن الفن أم عن قيمة الفنان؟ لو أن لبائع اللب قدرة على الجدل لدلل أنه يلعب دوراً خطيراً فى حياة البشر، ولا يبعد أن يكون لكل شىء قيمة ذاتية، ولا يبعد كذلك ألا يكون لشىء قيمة ألبتة، كم مليونا من البشر يلفظون أنفاسهم فى هذه اللحظة؟! فى الوقت نفسه يرتفع صوت طفل بالبكاء على فقد لعبة، أو صوت عاشق يبث الليل والكون متاعب قلبه، أأضحك أم أبكى؟ قال:

ـ لمناسبة ما قلت عن معركة الآراء العالمية، دعنى أخبرك بأنها تنعكس على صورة مصغرة فى أسرتنا، لى ابن أخت من الإخوان، والآخر من الشيوعيين!

ـ ينبغى أن يكون لها صورة فى كل بيت، عاجلاً أو آجلاً، لم نعد نعيش فى قمقم، وأنت ألم تفكر فى هذه الأمور؟

ـ قرأت عن الشيوعية ضمن دراستى للفلسفة المادية، كما قرأت كتبًا عن الفاشستية والنازية..

ـ تقرأ وتفهم، مؤرخ بلا تاريخ، أرجو أن تعد يوم خروجك من هذا الموقف يوم عيد ميلادك السعيد.

فاستاء كمال لهذه الملاحظة، لأنها نقد لاذع من ناحية، ولأنها لا تخلو من حق من ناحية أخرى، ثم قال متهربًا من التعقيب عليها:

ـ كل من الشيوعى والإخوانى فى أسرتنا على غير علم مكين بما يؤمن به!

ـ الإيمان إرادة لا علم، إن أتفه مسيحى اليوم يعرف عن المسيحية أضعاف ما عرف الشهداء، كذلك عندكم فى الإسلام..

ـ وهل تؤمن بمذهب من هذه المذاهب؟

ـ لا شك فى احتقارى للفاشية والنازية وكافة النظم الديكتاتورية، أما الشيوعية فخليقة بأن تخلق عالمًا خالياً من مآسى الخلافات العنصرية الدينية والمنازعات الطبقية، بيد أن الاهتمام الأول مركز فى فنى..

فقال كمال وكان فى صوته دعابة:

ـ ولكن الإسلام قد خلق هذا العالم الذى تتحدث عنه منذ أكثر من ألف عام..

ـ لكنه دين، الشيوعية علم أم الدين فأسطورة..

ثم مستدركًا وهو يبتسم :

ـ ونحن نتعامل مع المسلمين لا الإسلام . .

وجدا شارع فؤاد كثير الزحام رغم شدة البرودة ، فتوقف رياض فجأة وهو يتساءل :

ـ ما رأيك فى عشاء من المكرونة والنبيذ الجيد؟

ـ لا أشرب فى الأماكن المأهولة ، فلنذهب إلى قهوة عكاشة إذا شئت . . فضحك رياض قلدس قائلاً :

ـ كيف تطيق هذا الوقار كله؟ نظارة وشارب وتقاليد! حررت عقلك من كل قيد ، أما جسمك فكله قيود ، أنت خلقت ـ بجسمك على الأقل ـ لتكون مدرسًا . .

وذكره تنويه رياض بجسمه بحادثة أليمة ، فقد اشترك فى حفل ميلاد أحد زملائه ، وشربوا جميعًا حتى سكروا ، وهناك حمل أحدهم عليه معرضًا برأسه وأنفه حتى أضحك الجميع . وإذ ذكر أنفه أو رأسه فقد ذكر عايدة ، وتلك الأيام ، عايدة خالقة أنفه ورأسه ، ومن عجب أن يغيض الحب فيمسى لا شىء ، ثم تبقى هذه الرواسب المؤلمة . .

وجذب رياض من ذراعه وهو يقول :

ـ هلم نشرب نبيذا ونتحدث عن فن القصة ، ثم نذهب بعد ذلك إلى بيت الست جليلة بعطفة الجوهرى ، وإذا كنت تقول لها يا عمتى ، فسأقول لها يا خالتى . .

٢٤

كانت السكرية فى شأن ، أو بمعنى أصح هكذا كانت شقة عبد المنعم شوكت ، ففى حجرة النوم اجتمعت حول فراش نعيمة أمينة وخديجة وعائشة وزنوبة والحكيمة والمولدة ، أما فى حجرة الاستقبال فقد جلس مع عبد المنعم والده إبراهيم وأخوه أحمد وياسين وكمال ، وكان ياسين يداعب عبد المنعم قائلاً :

ـ اعمل حسابك أن تكون الولادة القادمة فى غير هذا الوقت الذى تستعد فيه للامتحان . .

كانوا فى أواخر إبريل ، وكان عبد المنعم متعبًا بقدر ما كان مبتهجًا ، بقدر ما كان قلقا . وكان صوت الطلق يترامى من وراء الباب المغلق حادًا يحمل كل معانى الألم ، فقال عبد المنعم :

ـ إن الحمل أتعبها جداً، وبلغ بها درجة من الضعف لا يتصورها عقل، وكأن وجهها لم تعد به نقطة دم واحدة . .

فتجشأ ياسين فى ارتياح، ثم قال :

ـ هذه أمور عادية، وكلهن سواء . .

وقال كمال باسما :

ـ ما زلت أذكر ولادة نعيمة، كانت ولادة عسيرة عانت منها عائشة ما عانت، وكنت متألمًا، وكنت واقفًا فى هذا المكان مع المرحوم خليل .

فتساءل عبد المنعم :

ـ هل أفهم من هذا أن عسر الولادة وراثى؟

فقال ياسين وهو يشير بأصبعه إلى فوق :

ـ عنده اليسر . .

فقال عبد المنعم :

ـ جئنا بحكيمة معروفة فى الحى كله، كانت أمى تفضل إحضار الداية التى ولدتها، ولكنى أصررت على الحكيمة، فهى أنظف وأمهر بلا ريب .

فقال ياسين :

ـ طبعًا، ولو أن الولادة بجملتها بأمر الله وعنياته .

فقال إبراهيم شوكت وهو يشعل سيجارة :

ـ جاءها الطلق فى الصباح الباكر، والساعة تدور الآن فى الخامسة مساء، مسكينة، إنها رقيقة كالخيال، ربنا يأخذ بيدها .

ثم وهو يردد عينيه الخاملتين فى الجالسين عامة، وابنيه عبد المنعم وأحمد خاصة :

ـ آه لو تذكر الآلام التى تتحملها الأم!

فقال أحمد ضاحكًا :

ـ كيف تطالب الجنين بأن يتذكر يا بابا؟

فقال الرجل موبخًا :

ـ إذا أردت أن تعترف بالجميل فلا تعتمد على الذاكرة وحدها . .

وانقطع الطلق، وخيم على الحجرة المغلقة السكون فاتجهت الرءوس إليها، ومرت فترة فنفد صبر عبد المنعم فقام ماضيا إلى الباب ونقره، ففتح ربع فتحة عن وجه خديجة

المكتنز، فطالعها بعينين متسائلتين، وهم بإدخال رأسه، ولكنها صدته براحتيها وهى تقول:

- لم يأذن الله بالفرج بعد..

- طال الوقت، ألا يكون طلقًا كاذبًا؟

- الحكيمة أدرى بذلك منا، اطمئن وادع لنا بالفرج.

وأغلقت الباب، فعاد الشاب إلى مجلسه بجوار أبيه الذى علق على قلقه بقوله:

- اعذروه فإنه محدث ولادة.

وأراد كمال أن يتسلى، فأخرج من جيبه جريدة البلاغ حيث كانت مطوية فيه وراح يتفحصها، فقال أحمد:

- أعلنت فى الراديو النتائج الأخيرة للمعركة الانتخابية.. (ثم وهو يبتسم فى سخرية).. ويا لها من نتائج مضحكة!..

فتساءل والده دون اكتراث:

- ما مجموع الناجحين من الوفديين؟

- ثلاثة عشر على ما أذكر!

ثم قال أحمد موجها خطابه إلى خاله ياسين:

- لعلك مسرور يا خالى إكرامًا لسرور رضوان؟!

فقال ياسين وهو يهز منكبيه باستهانة:

- لا هو وزير ولا هو نائب، فماذا يهمنى من الأمر كله؟

وقال إبراهيم شوكت ضاحكًا:

- كان الوفديون يظنون أن عهد الانتخابات المزورة قد انتهى، ولكن شهاب الدين اظرط من أخيه!..

فقال أحمد فى امتعاض:

- الظاهر أن الاستثناء هو القاعدة فى مصر!

- حتى النحاس ومكرم قد سقطا فى الانتخابات، أليس هذا هزلاً؟

وهنا قال إبراهيم شوكت فى شىء من الحدة:

- لكن لا ينكر أحد أنهما أساءا الأدب حيال الملك، إن للملوك مقامهم، وليس على ذلك النحو تساس الأمور..

فقال أحمد:

ـ إن بلادنا فى حاجة إلى جرعات قوية من قلة الأدب حيال الملوك، حتى تفيق من إغمائها الطويل . .

فقال كمال :

ـ ولكن الكلاب يعيدونها إلى الحكم المطلق، تحت ستار برلمان مزيف، وفى نهاية التجربة ستجد فاروق فى قوة فؤاد واستبداده أو أشد، كل هذا يرتكب بأيدى بعض أبناء الوطن . .

فضحك ياسين، وقال وكأنه يفسر ويوضح :

ـ كمال ولو أنه كان على صباه من محبى الإنجليز كشاهين وعدلى وثروت وحيدر، إلا أنه انقلب وفديا بعد ذلك . .

فقال كمال جاداً، وهو ينظر إلى أحمد خاصة :

ـ انتخابات مزورة، كل شخص فى البلد يعلم بأنها مزورة، ومع ذلك يعترف بها رسميًا وتحكم بها البلاد، ويعنى هذا أن يستقر فى ضمير الشعب أن نوابه لصوص سرقوا كراسيهم، وأن وزراءه لصوص سرقوا بالتالى مناصبهم، وأن سلطاته وحكومته مزيفة مزورة، وأن السرقة والتزييف والتضليل مشروعة رسميًا، أفلا يعذر الرجل العادى إذا كفر بالمبادئ والخلق وآمن بالزيف والانتهازية؟

فقال أحمد متحمسًا :

ـ دعهم يحكمون، فى كل شر جانب خير، ومن الأفضل لشعبنا أن يسام الخسف من أن يخدر بحكم يحبه ويثق به دون أن يحقق له ـ هذا الحكم ـ آماله الحقيقية، طالما فكرت فى هذا حتى انقلبت أرحب بحكم الطغاة من أمثال محمد محمود وإسماعيل صدقى . .

ولاحظ كمال أن عبد المنعم لا يشترك فى الحديث كعادته، فأراد أن يجره إليه فقال :

ـ لماذا لا تحدثنا عن رأيك؟

فابتسم عبد المنعم ابتسامة لا معنى لها، وقال :

ـ دعنى اليوم أستمع . .

فضحك ياسين قائلاً :

ـ فرفش حتى لا يجدك المولود واجما، فيفكر فى العودة من حيث أتى . .

وندت عن ياسين حركة أدرك كمال منها أنه يهم بانتحال عذر للذهاب، أجل جاء وقت القهوة، ونظام «السهر» عنده لا يمكن أن يغيره شىء، وفكر كمال فى الخروج معه حيث لا ضرورة لوجوده، وجعل يراقبه متوثبًا، وإذا بصرخة تنطلق من حجرة نعيمة

عنيفة قاسية تحمل فى طياتها أنغام الأعماق البشرية، وتتابعت الصرخات فى عنف، وتطلعت الأعين نحو باب الحجرة، وساد بينهم صمت، حتى همس إبراهيم فى رجاء:

ـ لعله الطلق الأخير إن شاء الله..

حقًا؟ بيد أنه تواصل حتى وجموا، وامتقع لون عبد المنعم، ثم عاد الصمت مرة أخرى ولكن إلى حين، ورجع الطلق ولكنه كان خواء، تقذف به حنجرة بحت وصدر تصدع فكأنه النزع. ودلت حال عبد المنعم على أنه فى حاجة إلى تشجيع، فقال له ياسين:

ـ كل ما تسمع أحوال مألوفة فى الولادة العسيرة..

فقال عبد المنعم بصوت متهدج:

ـ العسيرة! العسيرة! ولكن لماذا كانت عسيرة؟..

وفتح الباب فخرجت زنوبة ثم أغلقته، فتطلعوا إليها، فاقتربت حتى وقفت أمام ياسين وقالت:

ـ كل شيء على ما يرام، غير أن الحكيمة زيادة فى الحيطة ترجو أن تحضروا الدكتور سيد محمد..

فوقف عبد المنعم قائلاً:

ـ لا شك أن الحال استوجبت إحضاره، خبرينى عما بها؟

فقالت زنوبة بصوت هادئ مؤكد:

ـ كل شيء على ما يرام، وإذا أردت أن تزيدنا اطمئنانا فأسرع فى إحضار الطبيب..

ولم يضيع عبد المنعم وقته فمضى إلى حجرته ليستكمل ملابسه، ومضى فى أثره أحمد، ثم خرجا معًا ليأتيا بالدكتور، وعند ذاك قال ياسين:

ـ ماذا هناك؟

فقالت زنوبة، وقد نم وجهها لأول مرة عن قلق:

ـ تعبانة المسكينة كان الله فى عونها.

ـ والحكيمة ألم تقل شيئًا؟

فقالت زنوبة بتسليم:

ـ قالت إنها تريد الدكتور..

وعادت زنوبة إلى الحجرة تاركة وراءها ظلا ثقيلاً من القلق..

تساءل ياسين:

ـ أهذا الطبيب بعيد؟

فأجابه إبراهيم شوكت:

ـ فى العمارة التى فوق قهوتك بالعتبة.

ودوت صرخة فانعقدت الألسن، هل عاد الطلق الأليم؟ ومتى يحضر الطبيب، ودوت الصرخة مرة أخرى، فازداد التوتر، وإذا بياسين يهتف مرتاعًا: ـ هذا صوت عائشة!

فأرهفوا السمع، وعرفوا صوت عائشة، فقام إبراهيم فى الحجرة ونقر الباب، ففتحت زنوبة بوجه باهت، سألها بلهفة:

ـ ما لكم؟ مال عائشة هانم؟ أليس من المستحسن أن تغادر الحجرة؟..

فقالت زنوبة وهى تزدرد ريقها:

ـ كلا.. الحال شديدة يا سى إبراهيم..

ـ ماذاحدث؟!

ـ فجأة، إنها..، انظر..

فى أقل من ثانية كان الرجال الثلاثة على باب الحجرة ينظرون. كانت نعيمة مغطاة حتى الصدر، خالتها وجدتها والحكيمة حولها فى الفراش، أمهاواقفة وسط الحجرة تحملق فى بنتها من بعيد بعينين زائغتين وكأنها فقدت الوعى، وكانت نعيمة مغمضة العينين، صدرها يعلو وينخفض كأنما قد أفلت زمامه من بقية الجسد الساكن، أما الوجه فأبيض باهت كالموت. هتفت الحكيمة:

«الدكتور!». وجعلت أمينة تهتف: «يارب!» وخديجة تنادى بصوت مذعور «نعيمة ردى على» أما عائشة فلم تنطق كأن الأمر لا يعنيها فى شىء. تساءل كمال «ماذا هنالك؟» وسأل أخاه فى ذهول: «ماذا هنالك؟» ولكنه لم يجبه، أى ولادة عسيرة؟! ودار بصره بعائشة وإبراهيم وياسين فتقهقر قلبه فى صدره، ليس هنالك إلا معنى واحد..

ودخلوا الحجرة جميعًا، لم تعد حجرة ولادة وإلا ما دخلوا، وكانت عائشة فى حال بالغ الشدة ولكن أحدًا لم يوجه إليها كلمة، وفتحت نعيمة عينيها فبدتا مظلمتين، وأتت حركة كأنما تريد أن تجلس فأجلستها جدتها وحوتها فى حضنها، شهقت الفتاة، وندت عنها آهة عميقة، ثم بغتة هتفت كأنما تستغيث:

ـ ماما.. أنا ذاهبة.. أنا ذاهبة..

ثم سقط رأسها على صدر جدتها، وضجت الحجرة بالصوات، ولطمت خديجة خديها، وتشهدت أمينة فى وجه الفتاة، أما عائشة فرمت بناظريها من النافذة المطلة على السكرية، وثبتت عينيها على ماذا؟ ثم تردد صوتها كالحشرجة:

ـ ما هذا يا ربى؟ ما هذا الذى تفعله؟ لماذا؟ لماذا؟ أريد أن أفهم واقترب منها إبراهيم شوكت ومد لها يده، فأبعدتها بحركة عصبية وهى تقول:

ـ لا يلمسنى منكم أحد، دعونى، دعونى . .

ثم ردت بصرها بينهم قائلة:

ـ اخرجوا من فضلكم، لا تكلمونى، هل عندكم كلام يجدى؟ لن ينفعنى الكلام، ماتت نعيمة كما ترون، كانت كل ما تبقى لى فلم يبق لى شىء فى الدنيا، اذهبوا من فضلكم . .

كان الظلام حالكا عندما مضى ياسين وكمال فى طريقهما إلى بين القصرين، وكان ياسين يقول:

ـ ما أثقل أن أبلغ والدك الخبر!

فأجاب كمال وهو يجفف عينيه:

ـ نعم . .

ـ لا تبك، أعصابى لم تعد تتحمل . .

فقال كمال متنهدًا:

ـ كانت عزيزة جدًا على، أنا حزين جدًا يا أخى، وعائشة المسكينة! . .

ـ هذه هى الكارثة! عائشة! سننسى جميعًا إلا عائشة! . .

«سننسى جميعًا؟! لا أدرى. إن وجهها لا يغيب عنى مدى العمر، ولو أن لى مع النسيان تجربة فذة، هو نعمة كبرى، ولكن متى يجود ببلسمه؟». وعاد ياسين يقول:

ـ كنت متشائما عند زواجها، ألا تدرى؟ لقد تنبأ لها الدكتور يوم مولدها بأن قلبها لن يسعفها على الحياة بعد العشرين! والدك يذكر هذا فى الغالب . .

ـ لا أدرى شيئًا، أكانت عائشة تدرى؟

ـ كلا، إنه تاريخ قديم، وقضاء الله لا بد منه . .

ـ ما أتعسك يا عائشة! . .

ـ أجل ما أتعسها المسكينة! . .

٢٥

كان أحمد إبراهيم شوكت جالسًا فى قاعة المطالعة بمكتبة الجامعة، مكبًا على متابعة كتاب بين يديه. لم يكن بقى على الامتحان إلا أسبوع، وكان الجهد قد نال منه كل منال،

وشعر بأن شخصًا قد دخل القاعة وجلس خلفه فالتفت إلى الوراء مستطلعًا فرأى علوية صبرى! نعم هى، ولعلها جلست تنتظر كتابًا استعارته، وعند تلك الالتفاتة التقت عيناه بالعينين السوداوين، ثم أعاد رأسه إلى وضعه الأول منتشى القلب والحواس. ما من شك فى أنها باتت تعرف شكله، كما تعرف أنه مغرم بها، فمثل هذه الأمور لا تخفى، إلى أنها كلما التفتت هنا أو هناك ـ سواء فى فصول المحاضرات أم حديقة الأورمان ـ وجدته مسترقًا إليها النظر. وقد حال حضورها بينه وبين متابعة ما يقرأ ولكن فرحته فاقت حتى ما كان يقدر. وكان ـ منذ أن علم بأنها ستتخصص فى الاجتماع مثله ـ يؤمل أن يتم التعارف بينهما فى غضون العام الدراسى المقبل، الأمر الذى لم يتح له هذا العام فى زحمة طلبة القسم الإعدادى. على أنه لم يسبق له أن وجدها هكذا قريبة منه دون كثرة من الرقباء، فحدثته نفسه بأن يمضى إلى رفوف المراجع كأنما ليطلع على أحدها، ثم يحييها فى طريقه! وألقى نظرة على ما حوله فرأى عددًا من الطلاب منتشرين هنا وهناك لا يتجاوز عددهم أصابع اليد، فقام دون تردد وسار فى الممر بين المقاعد، وعندما مر بها التقت عيناهما فحنى رأسه تحية مؤدبة، فبدا فى ملامحها وقع المفاجأة، ولكنها ردت تحيته برأسها ونظرت فيما أمامها. وتساءل ترى هل أخطأ؟ كلا إنها زميلة منذ عام طويل، ومن واجبه أن يحييها إذا التقيا هكذا وجها لوجه فى مكان يكاد يكون خاليًا. وواصل مسيره إلى خزانة الكتب الحاوية لدائرة المعارف، ثم اختار مجلدا وراح يقلب صفحاته دون أن يقرأ كلمة. كان سروره برد التحية عظيما فزايله التعب واهتز صدره نشاطًا. يالها من حسناء ملأت عليه جوانب نفسه إعجابًا وانجذابًا حتى صارت شغله الشاغل. إن كافة أحوالها تدل على أنها من «أسرة» كما يقولون، وأخشى ما يخشاه أن يكون لها من كبرياء الطبقة نصيب يخفيه أدبها الجم، وإنه يستطيع أن يعترف لها ـ صادقًا ـ بأنه من أسرة كذلك إذا دعا الأمر، أليس آل شوكت «أسرة»؟ بلى. . وذات ملك، فسيكون له يومًا ريع ومرتب معا! وافتر ثغره عن ابتسامة ساخرة، ريع. . مرتب. . أسرة! إذن فأين مبادؤه؟ وشعر بشىء من الخجل. إن القلب فى أهوائه لا يعرف المبادئ، فالناس يحبون ويتزوجون خارج دائرة مبادئهم ودون مراعاة لها، وعليهم أن يخلقوا أنصافهم الجميلة خلقًا جديدًا، كمن يدخل بلدا غريبًا فعليه أن يتكلم بلغته حتى يبلغ ما يريد. ثم إن الطبقية والملكية حقيقتان واقعيتان لم يخلقهما هو ولا أبوه ولا جده، فليس هو بالمسئول عنهما، والعلم والجهاد هما الكفيلان بمحو هذه السخافات التى تفرق بين البشر. من الممكن ربما أن يغير نظام الطبقات، ولكن كيف يستطيع أن يغير الماضى وهو أنه من أسرة موفورة الدخل؟ وهيهات أن تتعارض المبادئ الشعبية مع الحب الأرستقراطى، وكارل ماركس نفسه تزوج من جينى فون وستفال حفيدة الدوق برونشويك، وكانوا يسمونها «الأميرة الساحرة» و«ملكة الرقص»، وها هى أميرة ساحرة أخرى ولو رقصت لكانت

ملكة الرقص. وأعاد المجلد إلى موضعه ثم رجع، وجعل يملأ ناظريه مما بدا من قامتها، جانب من أعلى الظهر، وصفحة العنق الرقيق، والقذال المزدان بالشعر المعقوص، ما أجمل المنظر، ومر بها خفيفًا إلى مقعده وجلس. ولم تمض دقائق حتى سمع وقع أقدامها الخفيفة، فنظر إلى الوراء آسفًا وهو يظنها منصرفة ولكنه رآها قادمة، فلما حاذته وقفت بشيء من الارتباك، وهو لا يصدق عينيه، وقالت:

ـ لا مؤاخذة، هل أجد عندك محاضرات التاريخ؟

نهض كالجندى، وبادر يقول:

ـ بكل تأكيد. .

فقالت كالمعتذرة:

ـ لم أستطع متابعة الأستاذ الإنجليزى كما يجب، ففاتنى تقييد كثير من النقط الهامة، وأنا لا أرجع إلى المراجع إلا فى المواد التى سأتخصص فيها فيما بعد، ولا يتسع الوقت للمراجعة فى سائر المواد. .

ـ مفهوم. . مفهوم. .

ـ وقد علمت أن مذكراتك مستوفاة، وأنك أعرتها لكثيرين لينقلوا منها ما فاتهم.

ـ نعم، ستكون تحت أمرك غدًا. .

ـ متشكرة جدًا (ثم وهى تبتسم) لا تظن بى الكسل، ولكن إنجليزيتى متوسطة!. .

ـ لا بأس، أنا بدورى دون المتوسط فى الفرنسية، ولعله تتاح لنا الفرص للتعاون، ولكن معذرة تفضلى بالجلوس، قد يهمك الاطلاع على هذا الكتاب، مدخل الاجتماع لها كنز. .

ولكنها قالت:

ـ متشكرة، لقد رجعت إليه مرات، قلت إنك دون المتوسط فى الفرنسية، فلعلك فى حاجة إلى مذكرات السيكولوجى؟

فأجاب دون تردد:

ـ أكون شاكرًا لو تفضلت. .

ـ غدا نتبادل المذكرات؟

ـ بكل سرور، ولكن معذرة، ستجدين أكثر الدراسات بقسم الاجتماع بالإنجليزية. .

فتساءلت وهى تدارى مولد ابتسامة:

ـ أتعرف أننى اخترت قسم الاجتماع؟

ابتسم كأنما ليدارى حياءه، ولم يكن ثمة حياء ولكنه شعر بأنه «وقع» ولكنه قال ببساطة:

ـ نعم!

ـ لمناسبة أية مصادفة!

فقال بجرأة:

ـ بل سألت فعلمت. .

وضغطت شفتيها القرمزيتين، ثم قالت وكأنها لم تسمع جوابه:

ـ غدا نتبادل المذكرات. .

ـ صباحًا. .

ـ إلى اللقاء وشكرًا. .

فبادرها:

ـ إنى سعيد بالتعرف إليك، إلى اللقاء.

لبث واقفًا حتى واراها الباب ثم جلس. ولحظ أن البعض كان ينظر مستطلعًا نحوه، ولكنه كان ثملاً بالسعادة. ترى أكان حديثه استجابة لما بدا من إعجابه بها، أم لحاجتها الملحة إلى مذكراته؟ لم تسنح قبل الساعة فرصة للتعارف. كان يجدها دائمًا بصحبة الأتراب. هذه أول فرصة، وقد فاز بما تمنى طويلاً فيما يشبه المعجزة. إن كلمة من ثغر نحبه خليقة بأن تجعل من كل شىء كلا شىء. . .

٢٦

بدا ياسين قلقًا رغم إرادته. وكان قد تظاهر طويلاً بأنه لا يهمه شىء، لا الدرجة ولا الماهية ولا الحكومة نفسها، لا أمام زملائه الموظفين فحسب ولكن حيال نفسه أيضًا. إن الدرجة السادسة ـ إذا رقى إليها ـ ستزيد مرتبه جنيهين لا غير! ويا ما ضيع ياسين! ويقولون إنها ستجعل منه رئيس قلم بعد مراجع، ولكن متى كان يكترث ياسين للرياسات؟ بيد أنه كان قلقًا، خاصة بعد أن استدعى مدير الإدارة محمد أفندى حسن ـ زوج زينب أم رضوان ـ لمقابلة وكيل الوزارة، وذاع بين موظفى المحفوظات أن الوكيل استدعاه ليسمع رأيه فى موظفيه للمرة الأخيرة قبل توقع الكشف الخاص بالترقيات. محمد حسن؟! خليفته اللدود الذى لولا السيد محمد عفت لبطش به من زمن بعيد! أيمكن أن يشهد له هذا الرجل شهادة طيبة؟ وانتهز فرصة خلو حجرة المدير فهرع إلى

التليفون، وطلب كلية الحقوق، وكان يتصل بها ذلك اليوم للمرة الثالثة، مستدعيًا رضوان ياسين. . .

ـ آلو، رضوان؟ أنا والدك.

ـ أهلاً وسهلاً، كل شىء عال.

كان صوته ينم عن ثقة، الابن واسطة للأب. .

ـ الحركة رهن التوقيع الآن؟

ـ اطمئن، الوزير نفسه هو الذى أوصى بك، كلمه نواب وشيوخ ووعدهم بكل خير.

ـ ألا تحتاج المسألة لتوصية أخيرة؟

ـ أبدا، الباشا هنأنى هذا الصباح كما أخبرتك، اطمئن جدًا.

ـ أشكرك يا ابنى، سلام عليكم.

ـ وعليكم السلام يا بابا، مبارك مقدمًا. .

ووضع السماعة وغادر الحجرة، فالتقى بإبراهيم أفندى فتح الله ـ زميله ومنافسه فى الدرجة ـ قادمًا يحمل بعض الملفات، فتبادلا التحية فى تحفظ، وعند ذلك قال ياسين:

ـ ليكن بيننا مباراة رياضية يا إبراهيم أفندى، ولتقبل النتيجة أيًا كانت بشهامة. .

فقال الرجل فى امتعاض:

ـ على شرط أن تكون مباراة شريفة!

ـ ماذا تعنى؟

ـ أن يكون الاختيار لوجه الله لا لوساطة!. .

ـ غريب رأيك!، وهل يوجد رزق بدون وساطة فى هذه الدنيا؟. اسع كما تشاء وأسعى كما أشاء، وسيأخذ الدرجة صاحب القسمة والنصيب!. .

ـ أنا أقدم منك. .

ـ كلانا موظف قديم، سنة لا تقدم ولا تؤخر!. .

ـ فى سنة تولد نفوس وتزهق نفوس!

ـ تولد تزهق، كل واحد وقسمته. .

ـ والكفاءة؟. .

فقال ياسين منفعلاً:

ـ الكفاءة؟ هل نقيم جسورًا أو ننشىء محطات كهربائية؟ كفاءة! ماذا يتطلب عملنا الكتابى من كفاءة؟ كلانا بالابتدائية، وفضلاً عن ذلك فأنا رجل مثقف. .

فضحك إبراهيم أفندى ضحكة ساخرة، وقال:

- مثقف؟ أهلا ياسى مثقف! . . أتظن نفسك مثقفًا بالشعر الذى تحفظه؟ . أو بالإنشاء الذى تكتب به خطابات الإدارة كأنك تؤدى امتحان الابتدائية من جديد؟ . . أنا تارك أمرى لله . .

وافترق الرجلان على أسوأ حال، وعاد ياسين إلى مكتبه، كانت الحجرة كبيرة، صفت بها المكاتب متقابلة على الجانبين، وغطت الجدران بالرفوف المكتظة بالملفات. وكان البعض مكبًا على الأوراق والآخرون يتحادثون ويدخنون؛ على حين ذهب وجاء عدد من السعاة بالملفات، قال جار ياسين له:

- ستأخذ ابنتى البكالوريا هذا العام، وسألحقها بمعهد التربية فأرتاح من ناحيتها، لا مصروفات ولاتعب قلب فى البحث عن وظيفة بعد التخرج.

فقال ياسين:

- خير ما تفعل . .

فسأله الرجل مجادلاً:

- وماذا أعددت لكريمة؟ كم بلغت من العمر على فكرة؟

فابتسمت أسارير ياسين رغم انفعاله، وقال:

- فى الحادية عشرة، وسوف تأخذ الابتدائية فى الصيف القادم إن شاء الله (وهو يعد على أصابعه): نحن فى نوفمبر فيبقى سبعة أشهر بالتمام والكمال . .

- ما دامت تنجح فى ابتدائى فستنجح فى ثانوى، البنات أضمن اليوم من الصبيان . . .

ثانوى؟ هذا ما تريده زنوبة. كلا إنه لا يطيق أن يرى ابنته تسير فى الطريق ونهداها يهتزان. ثم المصروفات؟ . . .

- نحن لا نلحق بناتنا بالثانوى، ولماذا؟ . . إنها لن تتوظف! . .

فسأل ثالث:

أهذا يقال فى عام ١٩٣٨؟

- يقال فى أسرتنا ولو فى عام ٢٠٣٨!

فضحك رابع وهو يقول:

- قل إنك لا تستطيع أن تنفق عليها وعلى نفسك معا! قهوة العتبة وخمارة محمد على، وحب البنات البكارى هد منى الحيل. هذه هى الحكاية . .

فضحك ياسين ثم قال:

ـ ربنا ساترها . . ولكن كما قلت لك نحن لا نعلم البنت أكثر من الابتدائية . .

وتعالت سعلة من الركن القصى فيما يلى مدخل الحجرة، فالتفت ياسين إلى صاحبها، ثم وقف وكأنه تذكر أمرًا هامًا، فمضى إلى مكتبه حتى شعر الرجل به فرفع نحوه رأسه، فمال ياسين فوقه قائلاً :

ـ وعدتنى بالوصفة . .

فمد الرجل أذنه متسائلاً :

ـ نعم؟ . .

فتضايق ياسين من أذن الرجل الثقيلة، واستحيا أن يرفع من صوته وإذا بصوت يجىء من وسط الحجرة عاليا وهو يقول :

ـ أراهن على أنه يسألك عن الوصفة، وصفتك التى ستذهب بنا جميعًا إلى القبر . .

وتراجع ياسين متبرما إلى مكتبه، فقال له الرجل دون مبالاة بإحراجه، وبصوت سمعته الحجرة كلها :

ـ أنا أقول لك عنها : هات قشر مانجو، اغله غليا شديداً، وداوم على ذلك حتى يصير سائلاً لزجا كالعسل، وخذ منه ملعقة على غيار الريق . .

وضحكوا جميعًا، غير أن إبراهيم فتح الله قال متهكمًا :

ـ فايق ورايق، انتظر حتى تأخذ الدرجة السادسة وهى تشد حيلك؟ . .

فتساءل ياسين ضاحكًا :

ـ هل تنفع الدرجة فى هذه المسألة؟ . .

فقال جار ياسين ضاحكًا أيضًا :

ـ لو صحت هذه النظرية، لا ستحق عم حسنين فراش مكتبنا أن يكون وزير المعارف! . .

وضرب إبراهيم فتح الله كفا بكف، وقال مسائلا زملاءه جميعًا :

ـ يا إخوان، هذا الرجل (مشيرا إلى ياسين) طيب وظريف وابن حلال، ولكن هل يشتغل بمليم؟ . . أنا راض بذمتكم! . .

فقال ياسين هازئًا :

ـ دقيقة عمل منى تساوى شغل يوم منك! . .

ـ الحكاية أن المدير يترفق بك، وأنك تتوكل على ابنك فى هذا العهد الأغبر! . .

فقال ياسين ملحا فى إغاظته :

ـ وفى كل عهد وحياتك، ابنى فى هذا العهد، فإذا جاء الوفد عندك ابن أختى وأبى، قل من عندك أنت؟ . .

فقال الرجل وهو يرفع رأسه إلى السقف:

ـ عندى ربنا! . .

ـ وهو سبحانه عندى أيضًا، أليس برب الجميع؟ . .

ـ ولكنه لن يرضى عن زباين محمد على! . .

ـ وهل يرضى عن مدمنى الأفيون والمنزول؟

ـ ليس أبشع فى الوجود من السكير! . .

ـ الخمر شراب الوزراء والسفراء، ألا تراهم فى الصحف وهم يشربون الأنخاب؟ ولكن هل رأيت سياسيا يقدم قطعة أفيون فى حفل سياسى فى صحة عقد معاهدة مثلاً؟!

فقال جار ياسين وهو يغالب الضحك:

ـ هس يا جماعة، وإلا قضيتم مدة خدمتكم فى السجن!

فبادر ياسين مشيرًا إلى غريمه:

ـ كان يقرفنى فى السجن وحياتك، ويقول لى أنا أقدم منك! . .

وإذا بمحمد حسن يعود من مقابلة وكيل الوزارة، فساد الصمت وتطلعت نحوه الرءوس.

واتجه الرجل نحو حجرته لا يلوى على شىء، فتبادلوا النظرات متسائلين. لا يبعد أن يكون أحد المتخاصمين الآن رئيس قلم، ولكن من صاحب الحظ السعيد؟! وفتح باب المدير، وظهر رأسه الأصلع وهو ينادى بصوت جاف «ياسين أفندى». فنهض ياسين بجسمه الضخم، ومضى نحو الحجرة وقلبه يخفق، وتفحصه المدير بنظرة غريبة ثم قال:

ـ رقيت إلى الدرجة السادسة! . .

فقال ياسين وقد انشرح صدره:

ـ شكرًا يا أفندم! . .

فقال الرجل بلهجة لا تخلو من جفاف:

ـ من الإنصاف أن أصارحك بأنه يوجد من هو أحق بها منك. . ولكنها الوساطة!

فغضب ياسين، وكان كثيرًا ما يغضب حيال هذا الرجل، وقال:

ـ الوساطة! ما لها؟ هل تتم حركة كبيرة أو صغيرة دون وساطة؟ هل ترقى مخلوق فى هذه الإدارة، فى هذه الوزارة، بما فيهم حضرتك، دون وساطة؟

فكظم الرجل غيظه، ثم قال:

ـ لا يأتينى من ناحيتك إلا وجع الدماغ، تترقى بدون وجه حق، ثم تثور لأقل ملاحظة عادلة، ما علينا، مبارك، مبارك يا سيدى، فقط أرجو أن تشد حيلك، أنت الآن رئيس قلم!..

فتشجع ياسين بتراجع المدير، وقال دون أن يخفف من حدته:

ـ أنا موظف منذ أكثر من عشرين عامًا، وعمرى اثنان واربعون عامًا، فهل تستكثر على الدرجة السادسة؟ إن الغلمان يعينون فيها بمجرد تخرجهم من الجامعة!..

ـ المهم أن تشد حيلك، أرجو أن أعتمد عليك كبقية زملائك، فقد كنت وأنت ضابط مدرسة النحاسين مثال الموظف المجد، ولولا تلك الحادثة القديمة..

ـ شيء قديم فلا داعى لذكره الآن، وكل واحد له أخطاؤه..

ـ أنت الآن فى سن الرجولة الناضجة، فإذا لم يستقم سلوكك تعذر عليك أن تقوم بواجبك، كل ليلة سهر، فبأى مخ تعمل فى الصباح؟ أريد أن تنهض بالإدارة، هذا كل ما هنالك..

فاستاء ياسين بالتعريض بسيرته، وقال:

ـ لا أقبل أن يمس إنسان سلوكى الخاص بكلمة، أنا حر خارج الوزارة!..

ـ وداخلها؟

ـ سأعمل ما يعمله رؤساء الأقلام، أنا اشتغلت فى ماضى ما يكفينى طوال العمر..

عاد ياسين إلى مكتبه متكلفًا الابتسام رغم جيشان صدره بالغضب، وذاع النبأ فتلقى التهانى.

وكان إبراهيم فتح الله يميل على أذن جاره هامسا فى حقد:

ـ ابنه!.. هذه هى الحكاية! عبد الرحيم باشا عيسى.. فهمت؟!.. اسفخص!..

٢٧

كان السيد أحمد عبد الجواد جالسًا على كرسى كبير فى المشربية ينظر إلى الطريق حينا، وحينا فى جريدة الأهرام المبسوطة على حجره، وكانت ثقوب المشربية تعكس على جلبابه الفضفاض وطاقيته نقطا من الضياء، وقد ترك باب حجرته مفتوحًا ليتمكن من

سماع الراديو القائم فى الصالة، غير أنه بدا ناحلاً ضامراً، كما لاحت فى عينيه نظرة ثقيلة تنم عن استسلام حزين. وكان كأنما يكتشف الطريق ـ من مجلسه بالمشربية ـ لأول مرة فى حياته، فلم يسبق له أن رآه من هذه الزاوية فى أيام حياته الماضية، إذ أنه لم يمكث فى البيت إلا ساعات النوم على وجه التقريب، أما اليوم فلم تعد له من تسلية ـ بعد الراديو ـ إلا هذه الجلسة فى المشربية، ينظر من ثقوبها شمالاً وجنوبًا، وإنه لطريق حى، مسل لطيف، وله إلى هذا طابعه الذى يميزه عن طريق النحاسين الذى ألف رؤيته من دكانه ـ السابق ـ زهاء نصف قرن من الزمان، وهذه دكاكين حسنين الحلاق ودرويش الفوال والفولى اللبان وبيومى الشرباتلى وأبو سريع صاحب المقلى، تقوم فى الطريق كالقسمات فى الوجه حتى عرف بها وعرفت به، أى عشرة وأى جوار، ترى ما أعمار هؤلاء الناس؟ حسنين الحلاق مدمج الخلق، من نوع قل أن يبدو عليه أثر الزمن، لم يكد يتغير منه شىء إلا شعره، ولكنه جاوز الخمسين بلا ريب، من لطف الله بهؤلاء الناس أنه يحفظ عليهم صحتهم! ودرويش؟ أصلع، هكذا كان دائمًا، ولكنه فى الستين، ما أقوى جسمه! كذلك كنت أنا فى الستين، ولكننى أمسيت فى السابعة والستين فيا له من عمر! وأعدت تفصيل ثيابى لتناسب ما تبقى من جسدى، وإذا نظرت إلى هذه الصورة المعلقة فى حجرتى أنكرت نفسى. الفولى أصغر من درويش، ذلك الأعمش المسكين، ولولا غلامه ما عرف كيف يهتدى إلى سبيله، أبو سريع رجل عجوز، عجوز؟! ولكنه ما زال يعمل، لم يفارق واحد منهم دكانه، ألا إن فراق الدكان لشديد! ثم لا يبقى لك إلا هذا المجلس، والقبوع فى البيت ليل نهار، لو أستطيع أن أخرج ساعة واحدة كل يوم! ولكن على أن أنتظر يوم الجمعة، ثم لابد من العصا، ولا بد من كمال ليصحبنى، الحمد لله رب العالمين، بيومى أصغرهم وأسعدهم حظًا، من أم مريم بدأ، أما أنا فعندها انتهيت، وهو اليوم مالك أحدث عمارة فى الحى، هكذا كان مصير بيت السيد رضوان، أنشأ هذا المشرب المضاء بالكهرباء، حظ رجل يبدأ بخداع امرأة، سبحان العاطى وجلت حكمته! كل شىء يتجدد، الطريق ممهد بالأسفلت، وأضىء بالمصابيح، أتذكر ليالى عودتك آخر الليل فى الظلام الدامس؟ لكن أين منى هاتيك الليالى؟ وفى كل دكان كهرباء وراديو، كل شىء جديد، إلا أنا، عجوز فى السابعة والستين، لا يستطيع مغادرة داره إلا يومًا واحدا فى الأسبوع وهو يلهث. القلب! كله من القلب، القلب الذى طالما عشق وطالما ضحك وطالما انبسط وغنى، يقضى اليوم بالقعود ولا راد لقضائه. قال الطبيب «خذ الدواء والزم البيت واتبع نظامى الغذائى» حسن، ولكن هل يعيد ذلك إلى قوتى؟ . . أعنى بعض قوتى؟ فأجاب الطبيب «حسبنا أن نمنع المضاعفات، ولكن الجهد أو الحركة شىء خطير . . (ثم ضاحكا) . . لماذا تريد أن تسترد قوتك»؟ أجل لماذا؟ إنه لشىء محزن مضحك معًا، ومع ذلك قال «أريد أن أذهب وأجىء» فقال الطبيب «لكل حال مسراتها،

جلسة هادئة، اقرأ المصحف، واسمع الراديو وانعم بأسرتك، ويوم الجمعة زر الحسين راكبا، حسبك هذا!»، الأمر لصاحب الأمر، متولى عبد الصمد لا يزال يتخبط فى الطرقات! ويقول وانعم بأسرتك! لم تعد أمينة تمكث فى البيت، انقلبت الآية، أنا فى المشربية وأمينة تجول فى القاهرة من مسجد إلى مسجد، كمال يجالسنى خفيفًا كالضيف، عائشة؟ آه يا عائشة، أمن الأحياء أنت أم من الأموات؟ ثم يريدون من قلبى أن يبرأ ويستريح! . .

ـ سيدى . .

والتفت إلى الوراء صوب الصوت، فرأى أم حنفى حاملة صينية صغيرة عليها قارورة الدواء وفنجان قهوة فارغ وكوب ماء مملوء لنصفه.

ـ الدواء يا سيدى . .

رائحة المطبخ تتطاير من ثوبها الأسود، هذه المرأة التى صارت مع الزمن واحدة من أسرتنا. وتناول الكوب وملأ الفنجان، حتى نصفه، وفض سداد القارورة ونقط منها أربع نقط فى الفنجان، وقلص وجهه قبل أن يتقلص من طعم الدواء، ثم تجرعه.

ـ بالشفا يا سيدى . .

ـ متشكر، أين عائشة؟

ـ فى حجرتها، الله يصبر قلبها!

ـ ناديها يا أم حنفى . .

فى حجرتها، أو على السطح، ثم ماذا؟ وكان الراديو ما زال يذيع أغانيه ساخراً من حزن البيت الصامت ولم يكن السيد اضطر إلى ملازمة البيت إلا منذ شهرين، وكان قد مضى على وفاة نعيمة عام وأربعة أشهر، فاستأذن الرجل فى سماع الراديو لحاجته الملحة إلى التسلية، فقالت له عائشة: «طبعًا يا بابا، ربنا يكفيك شر قعدة البيت». وسمع حفيف ثوب فالتفت فرآها قادمة فى ثوب أسود، متشحة بخمار أسود رغم حرارة الجو، تشوب بشرتها البيضاء زرقة غريبة، عنوان التعاسة يا ابنتى، قال برقة:

ـ هاتى الكرسى واجلسى معى قليلاً.

ولكنها لم تتزحزح عن موقفها قائلة:

ـ مرتاحة هكذا يا بابا.

علمته الأيام الأخيرة ألا يحاول أن يعدل بها عن رأى.

ـ ماذا كنت تفعلين؟

فقالت دون أن ينم وجهها عن أى معنى:

ـ لا شيء أفعله يا بابا .

ـ لماذا لا تخرجين مع نينتك لتزورى الأضرحة المباركة ، أليس هذا أفضل من بقائك هنا وحدك؟

ـ ولماذا أزور الأضرحة؟

وكأنما فوجئ بقولها ، بيد أنه قال بهدوء :

ـ تتوسلين إلى الله أن يصبر قلبك .

ـ الله هنا معنا فى البيت!

ـ طبعًا ، أقصد أن تتركى هذه العزلة يا عائشة ، زورى أختك ، زورى الجيران ، روحى عن نفسك . .

ـ لا أستطيع أن أرى السكرية ، ولا معارف لى ، لم يعد لى معارف ، لا أطيق زيارة أحد . .

قال الرجل وهو يولى عنها رأسه :

ـ أحب أن تتصبرى ، وأن تهتمى بصحتك . .

ـ صحتى! . .

قالتها فيما يشبه العجب ، فقال بتوكيد :

ـ نعم ، ما فائدة الحزن يا عائشة؟ . .

فقالت وكانت رغم حالها تحافظ على الأدب الذى تعودت أن تلتزمه حياله .

ـ وما فائدة الحياة يا بابا؟ . .

ـ لا تقولى هذا ، إن أجرك عند الله عظيم! . .

فحنت رأسها لتخفى عينيها الدامعتين ، وقالت :

ـ أود أن أذهب عنده لأنال هذا الأجر ، ليس هنا يا بابا! . .

ثم انسحبت برقة ، وقبل أن تغادر الحجرة توقفت قليلاً كأنما تذكرت أمرًا ، فسألته :

ـ كيف صحتك اليوم؟

فابتسم قائلاً

ـ الحمد لله ، المهم صحتك أنت يا عائشة . .

وغادرت الحجرة ، من أين تأتيه الراحة فى هذا البيت؟ وراح يردد بصره فى الطريق حتى ثبت على أمينة وهى راجعة من جولتها اليومية ، كانت ترتدى معطفًا ، وعلى وجهها بيشة ، وتنقل خطاها فى بطء . شد ما ركبها الكبر! كان يحسن الظن

بحصتها متذكرًا أمها المعمرة، ولكن هاهى تبدو أكبر من سنها ـ اثنين وستين عامًا ـ بعشرة أعوام على الأقل، ومر وقت غير قصير قبل أن تدخل عليه وهى تتساءل:

ـ كيف حال سيدى؟

فقال بصوت مرتفع نفخ فيه نبرات الحدة المطلوبة:

ـ كيف حالك أنت! ما شاء الله! من طلعة الصبح يا ولية؟!

فابتسمت قائلة:

ـ زرت سيدتك، وزرت سيدك، ودعوت لك وللجميع . .

عاودته بعودتها طمأنينة وسلام، وشعر بأنه يستطيع الآن أن يطلب ما يشاء دون حرج:

ـ أيصح أن تتركينى وحدى كل هذا الوقت؟!.

ـ أنت أذنت لى يا سيدى، لم أغب طويلاً، ولكنها الضرورة يا سيدى، ما أحوجنا إلى الدعاء، توسلت إلى سيدى أن يرد إليك صحتك حتى تروح وتغدو كما تشاء، كما دعوت لعائشة وللجميع . .

وجاءت بكرسى وجلست، ثم سألته:

ـ هل تناولت الدواء يا سيدى؟ أنا نبهت على أم حنفى . .

ـ ليتك نبهتها على شيء أحسن! . .

ـ بالشفا يا سيدى، سمعت فى المسجد درسًا جميلاً من الشيخ عبد الرحمن، تحدث يا سيدى عن الكفارة عن الذنب وكيف تمسح السيئات، كلام جميل جدًا يا سيدى، ليتنى أستطيع أن أحفظ كأيام زمان! . .

ـ وجهك شاحب من المشى، كلها كم يوم وتصبحين من زبائن الدكتور! . .

ـ ربنا الحافظ، أنا لا أخرج إلا لزيارة آل البيت، فكيف يقع لى سوء؟! ثم متداركة:

ـ آه يا سيدى، كدت أنسى، يتحدثون فى كل مكان عن الحرب، يقولون إن هتلر هجم . . !

تساءل الرجل باهتمام:

ـ متأكدة؟ . .

ـ سمعتها بدل المرة مائة مرة، هتلر هجم . . هتلر هجم . .

فقال الرجل ليفهمها أنها لم تسبقه بالأخبار:

ـ كان هذا متوقعًا من لحظة لأخرى . .

ـ بعيد عنا إن شاء الله يا سيدى؟ . .

ـ قالوا هتلر فقط؟ وموسولينى؟ ألم تسمعى هذا الاسم؟ . .

ـ اسم هتلر فقط . .

ـ ربنا يلطف بنا، إذا سمعتم نداء عن ملحق البلاغ أو المقطم فاشتروه . .

فقالت المرأة :

ـ كأيام غليوم وزبلن، أتذكر يا سيدى؟ سبحان من له الدوام! . .

٢٨

كانت زيارة جامعة وذات معنى كما قالت خديجة فيما بعد، فعندما فتح باب الشقة ملأ فراغه ياسين فى بذلة بيضاء من تيل المحلة، تتقدمه الوردة الحمراء والمنشة العاجية، يكاد جسمه الضخم يدفع الهواء بين يديه، وتبعه ابنه رضوان فى بذلته الحريرية آية فى الأناقة والجمال، ثم زنوبة فى ثوب سنجابى تعلوها الحشمة التى صارت جزءاً لا يتجزأ منها، وأخيراً كريمة فى فستان أزرق بديع كشف عن أعلى النحر والذراعين، وقد تبلورت أنوثتها المبكرة ـ لم تكن تزيد عن الثالثة عشرة ـ فبدت جاذبيتها صارخة. وضمتهم حجرة الاستقبال مع خديجة وإبراهيم وعبد المنعم وأحمد، وسرعان ما قال ياسين :

ـ اسمعتم عن شىء كهذا من قبل؟ ابنى سكرتير الوزير الذى أنا فى وزارته مجرد رئيس قلم فى المحفوظات، تنهد له الأرض إذا سار، وأنا لا يكاد يشعر بى إنسان!

كان مدلول كلامه الاحتجاج، ولكن لم يخف على أحد ما انطوت عليه نفسه من تيه وفخار بابنه. وفى الحق قد حصل رضوان على الليسانس فى مايو من هذا العام، وما لبث أن تعين فى يونيه سكرتيرا للوزير، فى الدرجة السادسة، على حين يتعين خريجو الجامعات فى الدرجة الثامنة الكتابية، وقد حصل عبد المنعم على الليسانس فى نفس التاريخ، ولكنه لم يكن يدرى ما المصير، قالت خديجة باسمة، وكانت تشعر بشىء من الغيرة :

ـ رضوان صديق الحكام، ولكن العين لا تعلو على الحاجب . .

فقال ياسين فى سرور لم يفلح فى مداراته :

ـ ألم تروا صورته مع الوزير فى أهرام أمس؟ . . بتنا لا ندرى كيف نكلمه! . .

فأشار إبراهيم شوكت إلى عبد المنعم وأحمد قائلاً :

ـ هذان الولدان خائبان، ضيعا عمرهما فى مناقشات حادة لا معنى لها، وكان خير من عرفا من رجالات البلد الشيخ على المنوفى ناظر مدرسة الحسين الأولية، وسخام البرك عدلى كريم صاحب مجلة الضوء أو الهباب لا أدرى!..

وكان أحمد ساخطًا وإن بدا طبيعيا. أثاره زهو خاله ياسين كما أثاره تعليق والده، أما عبد المنعم فقد غطى ما كان ينتظره من وراء هذه الزيارة الجامعة على الغضب الذى كان خليقًا أن يشتعل فى صدره فى ظروف أخرى. وكان يسترق النظر فى وجه رضوان متسائلاً عما وراءه، غير أن قلبه استبشر خيراً بالزيارة، فلعلها لم تكن تقع لولا أنها تحمل البشرى. وعاد ياسين يقول معلقًا على كلام إبراهيم.

ـ لو سألتنى عن رأيى لقلت لك نعم الولدان! ألم يقولوا فى الأمثال: السلطان من ابتعد عن باب السلطان؟..

كلا لم يفلح ياسين فى مداراة سروره، كما لم يفلح فى إقناع أحد بإيمانه بما قال، غير أن خديجة قالت مشيرة إلى رضوان:

ـ ربنا يطعمه خيرهم ويكفيه شرهم..

وأخيرا التفت رضوان إلى عبد المنعم قائلاً:

ـ أرجو أن أهنئك عما قريب..

فتطلع إليه عبد المنعم متسائلاً وقد تورد وجهه، فعاد رضوان يقول:

ـ وعدنى الوزير بأن يعينك فى إدارة التحقيقات..

كانت أسرة خديجة تترقب على لهف هذا التقرير، فركزت أبصارهم فى رضوان، طالبة المزيد من التأكيد، فمضى الشاب يقول:

ـ أول الشهر القادم على أكثر تقدير..

وقال ياسين معقبًا على قول ابنه:

ـ إنها وظيفة قضائية، لقد عين عندنا فى إدارة المحفوظات شابان من حملة الليسانس فى الدرجة الثامنة بثمانية جنيهات!

وكانت خديجة هى التى طلبت من ياسين أن يكلم ابنه بشأن عبد المنعم، فقالت فى امتنان:

ـ الشكر لله ولك يا أخى (ثم وهى تلتفت إلى رضوان) وطبعًا جميل رضوان فوق رءوسنا)..

وآمن إبراهيم على قولها قائلاً:

ـ طبعًا، إنه أخوه، ونعم الأخ.

وقالت زنوبة باسمة، لكى تخرج من هامش الجلسة :

ـ رضوان أخو عبد المنعم وعبد المنعم أخو رضوان، ما فى ذلك كلام.

وتساءل عبد المنعم الذى كان يشعر بحياء لم يشعر به من قبل حيال رضوان :

ـ أعطاك كلمة جدية؟

فقال ياسين باهتمام :

ـ كلمة وزير! . . إنى متتبع المسألة!

وقال رضوان :

ـ وأنا من ناحيتى سأذلل لك الصعاب فى إدارة المستخدمين، ولى فيهم أصدقاء كثيرون، ولو أن موظفى المستخدمين لا صديق لهم!

فقال إبراهيم شوكت وهو يتنهد :

ـ الحمد لله. لقد أراحنا الله من الوظيفة والموظفين! . .

فقال ياسين :

ـ عشت ملكا يا أبا خليل . .

ولكن خديجة قالت متهكمة :

ـ ربنا لا يحكم على أحد بقعدة البيت! . .

وتدخلت زنوبة مجاملة كعادتها، فقالت :

ـ قعدة البيت لعنة، إلا من كان صاحب ملك فهو سلطان! . .

فقال أحمد وفى عينيه بسمة خبيثة :

ـ خالى ياسين صاحب ملك، ولكنه صاحب وظيفة أيضًا! . .

فضحك ياسين ضحكة عالية، وقال :

ـ صاحب وظيفة وبس من فضلك، أما الملك! كان يا ما كان، كيف يحتفظ بملكه من كان له أسرة كأسرتى؟!

فهتفت زنوبة فى ارتياع :

ـ أسرتك؟!

والتفت رضوان ـ قاطعا الحديث الذى لا يحبه ـ إلى أحمد قائلاً :

ـ إن شاء الله تجدنا فى خدمتك فى العام المقبل عندما تأخذ الليسانس! . .

فقال أحمد :

ـ أشكرك جداً، لكننى لن أتوظف! . .

ـ كيف؟ . .

ـ الوظيفة خليقة بقتل أمثالى، مستقبلى فى الميدان الحر! . .

وهمت خديجة بالاحتجاج، ولكنها آثرت تأجيل العراك إلى حينه، أما رضوان فقال باسما:

ـ إذا غيرت رأيك فستجدنى فى خدمتك!

فرفع أحمد يده إلى رأسه شاكراً. وجاءت الخادم بأكواب الليمون المثلجة، وفى فترة الصمت التى جعلوا فيها يحتسون، حانت التفاتة من خديجة نحو كريمة فكأنما كانت تراها لأول مرة منذ إفاقتها من مسألة عبد المنعم، فقالت برقة:

ـ كيف حالك يا كريمة؟

فأجابتها الفتاة بصوت فيه رخامة:

ـ بخير يا عمتى، متشكرة . .

وكادت خديجة تأخذ فى إطراء جمالها، ولكن شيئا ـ كالحذر ـ أوقفها. الواقع أنها لم تكن أول مرة تجىء بها زنوبة معها مذ حجزت فى البيت بعد أخذها الابتدائية. وقالت خديجة لنفسها إن هذه الأمور تشم فى الهواء شما! وإن كريمة إذا كانت ابنة زنوبة فهى فى الوقت نفسه ابنة ياسين، ومن هنا تجىء دقة المسألة! ولم يكن عبد المنعم يوفى كريمة حقها من النظر لانشغاله بموضوعه، ولكن كان يعرفها حق المعرفة، على أنه لم يكن قد برأ كل البرء من أثر وفاة زوجه، أما أحمد فلم يكن فى فؤاده متسع! وقال ياسين:

ـ كريمة مازالت آسفة على عدم التحاقها بالمدرسة الثانوية.

فقالت زنوبة مقطبة:

ـ وأنا آسفة أكثر . .

فقال إبراهيم شوكت:

ـ إنى أشفق على البنات من جهد الدراسة، ثم أن البنت فى النهاية لبيتها، فلن يمض عام أو آخر حتى تزف كريمة على صاحب القسمة السعيد . .

يا مقطوع اللسان، هكذا قالت خديجة لنفسها، يفتح المواضيع الخطيرة وهو فى غفلة عن نتائجها، يا له من موقف! كريمة ابنة ياسين وأخت رضوان صاحب الفضل، لعله لا يكون لهذا القلق من سبب إلا الوهم! ولكن لماذا تكثر زنوبة من زيارتنا جارة فى يدها كريمة؟ ياسين لا يسمح له وقته بالتفكير والتدبير، أما ربيبة التخت! . .

وقالت زنوبة:

ـ هذا الكلام كان يقال فى الزمن الماضى، أما اليوم فالبنات كلهن يذهبن إلى المدارس . .

فقالت خديجة :

ـ فى حارتنا بنتان فى المدارس العالية ، ولكن شكلهما والعياذ بالله! . .

فسأل ياسين أحمد :

ـ أليس فى بنات كليتك جمال؟

وخفق قلب أحمد ، وتمثلت لعينيه الصورة المعششة فى قلبه ، ثم أجاب :

ـ حب العلم ليس قاصرا على الدميمات . .

فقالت كريمة باسمة ، وهى تنظر صوب أبيها :

ـ المسألة تتوقف على الآباء .

فضحك ياسين قائلاً :

ـ عفارم يا ابنتى! هكذا تتحدث البنت الطيبة عن أبيها ، وهكذا كانت تخاطب عمتك جدك!

فقالت خديجة متهكمة :

ـ المسألة تتوقف على الآباء حقًا! . .

فبادرتها زنوبة قائلة :

ـ البنت معذورة ، آه لو سمعت حديثه بين أولاده!

فقالت خديجة :

ـ أنا عارفة وفاهمة! . .

فقال ياسين :

ـ أنا رجل له آراؤه فى التربية ، أنا الأب الصديق ، لا أحب أن يرتعد أبنائى خوفًا فى محضرى ، أنا حتى اليوم ينتابنى الارتباك أمام أبى! . .

فقال إبراهيم شوكت :

ـ الله يقويه ويصبره على قعدة البيت! السيد أحمد جيل وحده ، وليس مثله أحد فى الرجال . .

فقالت خديجة منتقدة :

ـ قل له!

فقال ياسين كالمعتذر :

ـ أبى جيل وحده ، وا أسفاه أصبح هو وأصحابه قعيدى بيوتهم ، ولم تكن الدنيا لتسعهم على رحابتها! . .

وكان رضوان يقول لأحمد فى حديث جانبى مستقل :

ـ بدخول إيطاليا الحرب أصبح الموقف بالنسبة لمصر شديد الخطورة . .

ـ ربما تحولت هذه الغارات الإسمية إلى غارات فعلية . .

ـ ولكن هل لدى الإنجليز قوة كافية لصد الزحف الإيطالى المتوقع؟ لا شك أن هتلر سيترك مهمة الاستيلاء على قناة السويس لموسولينى . .

فتساءل عبد المنعم :

ـ هل تقف أمريكا متفرجة؟

فقال أحمد :

ـ مفتاح الموقف الحقيقى فى يد روسيا!

ـ لكنها حليفة هتلر؟ . .

ـ الشيوعية عدوة النازية ، ثم إن الشر الذى يتهدد العالم بانتصار الألمان أضعاف ما يتهدده بانتصار الديموقراطيات . .

فقالت خديجة :

ـ أظلموا لنا الدنيا يظلم عيشتهم ، وما هذه الأشياء التى لم نعرفها من قبل . . صفارات إنذار! . . مدافع مضادة . . كشافات ، مصائب تشيب الإنسان قبل الأوان!

فقال إبراهيم فى سخرية هادئة :

ـ على أى حال الشيب فى بيتنا ليس قبل الأوان . .

ـ هذا عندك أنت وحدك!

كان إبراهيم فى الخامسة والستين ، ولكنه يبدو بالقياس إلى السيد أحمد ـ الذى لم يكن يكبره إلا بثلاث سنوات ، كأنما يصغره بعشرات السنين .

وعند انتهاء الزيارة ، قال رضوان لعبد المنعم :

ـ زرنى فى الوزارة .

ولما أغلق الباب وراء الذاهبين ، قال أحمد لعبد المنعم :

ـ خذ بالك أن تدخل عليه دون استئذان ، ادرس كيف تزور سكرتير وزير!

فلم يجبه ولم ينظر ناحيته . .

٢٩

لم يجد أحمد مشقة تذكر فى الاهتداء إلى فيللا مستر فورستر ـ أستاذ علم الاجتماع ـ بالمعادى . وقد أدرك حال دخوله أنه جاء متأخراً بعض الوقت ، وأن كثيراً من الطلبة الذين

دعوا مثله إلى الحفل الذى أقامه الأستاذ لمناسبة سفره إلى إنجلترا قد سبقوه إليه، واستقبله الأستاذ وحرمه، وقد قدمه إليها باعتباره طالبًا من خير طلبة القسم، ثم مضى الشاب إلى حيث جلس الطلبة فى الفراندا، كان المجلس يتكون من طلبة قسم الاجتماع كافة، وكان أحمد ضمن القلة المنقولة للسنة النهائية، يشاركهم ذلك الشعور بالامتياز والتفوق. ولم تكن واحدة من الطالبات قد حضرت، ولكنه كان مطمئنا إلى مجيئهن، أو إلى مجىء «صديقته» التى كانت من سكان المعادى. ألقى نظرة على الحديقة فرأى مائدة طويلة ممتدة فى أرض فضاء معشوشبة، تكتنفها من الجانبين أشجار الصفصاف والنخيل، وقد صفت فوقها أباريق الشاى وأوعية اللبن وأطباق الحلوى. ثم سمع طالبًا يتساءل:

ـ نلتزم بالآداب الإنجليزية أم ننقض على المائدة كالنسور؟

فأجابه آخر فيما يشبه الأسف:

ـ آه لو لم توجد لادى فورستر!

كان الوقت أصيلاً، ولكن الجو كان لطيفًا رغم شخصية يونية الثقيلة، ثم ما لبث أن لاح السرب المنتظر عند مدخل الفيللا. جئن معا كأنهن على ميعاد، وكن أربعا هن جملة الطالبات بالقسم وبدت علوية صبرى وهى تخطر فى فستان ناصع البياض مهفهف، جعل من كائنها اللطيف لونًا واحداً بديعا فيما عدا الشعر الأسود الفاحم، وعند ذاك شعر أحمد بقدم هازئة تحتك بقدمه كأنما تنبهه إن كان فى حاجة إلى من ينبهه، وكان سره قد ذاع من زمن.. وتابعهن حتى استقر بهن المجلس فى ركن أخلى لهن بالفراندا، ثم جاء مستر فورستر وزوجه، وقالت الزوجة موجهة الخطاب إلى الطلبة، وهى تشير إلى الفتيات:

ـ هل تحتاجون إلى تعارف؟

فارتفع الضحك، وقال الأستاذ وكان ذا شخصية فائقة رغم مشارفته الخمسين:

ـ الأجدر أن تعرفيهم بى أنا!

وضجوا بالضحك مرة أخرى، حتى عاد مستر فورستر يقول:

ـ فى مثل هذا الوقت من كل عام كنا نغادر مصر إلى إنجلترا لقضاء العطلة، هذه المرة لا ندرى إن كنا سنرى مصر مرة أخرى أم لا!..

فقاطعته زوجه قائلة:

ـ ولا حتى إن كنا سنرى إنجلترا!..

وأدركوا أنها تلمح إلى خطر الغواصات، فقال لها أكثر من صوت:

ـ حظ سعيد يا سيدتى..

وعاد الرجل يقول :

ـ سأحمل معى ذكريات جميلة من حياتنا المشتركة فى كلية الآداب، وعن مقاطعة المعادى الهادئة الجميلة، وعنكم أنتم الذين سأعتز حتى بهذركم!

فقال أحمد مجاملاً :

ـ أما ذكراك فستبقى فى نفوسنا دواما، وتنمو بنمو عقولنا . .

ـ شكرًا . . (ثم مخاطبا زوجه وهو يبتسم) . . أحمد شاب جامعى كما ينبغى، وإن تكن له آراء مما تسبب المتاعب عادة فى بلده!

فقال زميل موضحًا :

ـ يعنى أنه شيوعى!

فرفعت السيدة حاجبيها باسمة، أما مستر فورستر فقال بلهجة ذات معنى :

ـ لم أقل أنا ذلك، ولكن زميله الذى قال!

ثم نهض الأستاذ وهو يقول :

ـ آن وقت الشاى، يجب ألا يسرقنا الوقت، وسوف نجد بعد ذلك متسعًا للسمر واللهو . .

وكان عمال جروبى قد أعدوا المائدة ووقفوا متأهبين للخدمة . . وتوسطت لادى فورستر جانب المائدة الذى جلس إليه الفتيات، على حين توسط الأستاذ الجانب الآخر، وهو يقول معلقًا على نظام الجلوس :

ـ كنا نود أن تكون الجلسة أكثر اختلاطًا، ولكننا راعينا الآداب الشرقية، أليس كذلك؟

فأجابه طالب بلا تردد :

ـ للأسف هذا ما لاحظناه يا سيدى!

وصب الخادم الشاى واللبن وبدأت المأدبة. لاحظ أحمد اختلاسا أن علوية صبرى كانت أبرع زميلاتها ممارسة لآداب المائدة وأقلهن ارتباكًا، بدت آلفة للحياة الاجتماعية، كأنها فى بيتها، وشعر بأن ملاحظة تناولها للحلوى ألذ من الحلوى نفسها، هذه صديقته العزيزة التى تبادله الصداقة والمودة دون أن تشجعه على عبور حدودهما، وقال لنفسه : إن لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام على! وعلا صوت لادى فورستر وهى تقول :

ـ أرى ألا تؤثر قيود الحرب فى تناولكم للحلوى!

فعلق طالب على قولها قائلاً :

ـ من المصادفات السعيدة أن الرقابة لم تفرض على الشاى بعد!

ومال مستر فورستر على أذن أحمد ـ وكان يجلس إلى يساره ـ وسأله :

ـ كيف تمضى العطلة؟ أعنى ماذا تقرأ؟

ـ كثيرا فى الاقتصاد وقليلاً فى السياسة، وأكتب بعض المقالات فى المجلات.

ـ أنصحك بأن تقدم فى الماجستير بعد الليسانس.

فقال أحمد بعد الانتهاء مما فى فيه:

ـ ربما فيما بعد، سأبدأ بالعمل فى الصحافة، هذه خطتى من قديم.

ـ حسن!

الصديقة العزيزة تحادث لادى فورستر بطلاقة، ما أسرع ما أتقنت الإنجليزية، والورود والأزهار تنضح بالحمرة والألوان كما ينضح القلب بالحب، فى عالم الحرية يزدهر الحب كالأزهار، الحب لا يكون عاطفة صحيحة طبيعية إلا فى بلد شيوعى. وقال مستر فورستر:

ـ من المؤسف أننى لم أستكمل دراستى للغة العربية، كنت أود أن أقرأ مجنون ليلى دون مساعدة أحد منكم!

ـ المؤسف أنك ستنقطع عن دراستها!..

ـ إلا إذا سمحت الظروف فيما بعد..

وربما وجدت نفسك مضطراً إلى تعلم الألمانية، ألا يكون مضحكًا لو شهدت لندن مظاهرات تطالب بالجلاء وتهتف له؟ فى أخلاق الإنجليز الشخصية فتنة، أما فتنة الصديقة العزيزة فمن نوع لا مثيل له، عما قليل تغيب الشمس فيجمعنا الليل فى مكان واحد لأول مرة، وإذا لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام على!». وسأل أستاذه:

ـ وماذا أنت فاعل عقب وصولك إلى لندن؟

ـ دعيت للعمل فى الإذاعة.

ـ إذن لن ينقطع عنا صوتك.

«مجاملة تغتفر فى هذا المجلس الذى تزينه صديقتى، إننا لا نسمع هنا إلا الإذاعة الألمانية، شعبنا يحب الألمان ولو على سبيل الكراهية للإنجليز، والاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية، اجتماعنا بأستاذنا يخلق موقفًا جديراً بالتأمل، نبرره بالروح العلمية ولكن ثمة ارتطام بين حبنا لأستاذنا وبغضنا لجنسه، والمأمول أن تقضى الحرب على النازية والاستعمار معا، هنالك أخلص للحب وحده».

ثم عادوا إلى مجالسهم بالفراندا التى أضيئت مصابيحها، ولم تلبث لادى فورستر أن قالت:

ـ إليكم البيانو فليتفضل أحدكم بإسماعنا لحنا.

فرجاها طالب قائلاً :

ـ تفضلى أنت بإسماعنا . .

فنهضت فى رشاقة الشباب الذى جاوزته بأعوام، ثم جلست إلى البيانو وفتحت النوطة وراحت تعزف لحنا، لم يكن أحد منهم ذا إلمام بالموسيقى الغربية أو تذوق لها، ولكنهم أنصتوا فى اهتمام بدافع الأدب والمجاملة . وحاول أن يستمد من حبه قوة سحرية يفتح بها مغاليق اللحن، ولكنه نسى اللحن فى استراق النظر إلى وجه فتاته، والتقت عيناهما مرة، فتبادلا ابتسامة لم تغب عن كثيرين، وفى نشوة الفرحة قال لنفسه : «أجل، إذا لم أنتهز فرصة اليوم المتاحة فسلام على» وعلى أثر فراغ لادى فورستر من عزفها، عزف طالب لحنا شرقيًا، ثم خلصوا للسمر وقتا غير قصير، وحوالى الساعة الثامنة مساء ودعوا أستاذهم وأخذوا فى الانصراف . ولبد أحمد عند منعرج طريق فى ليل بالغ فى جماله وحنانه، تحت مظلة من الأشجار الباسقة، حتى رآها قادمة وحيدة فى طريقها إلى مسكنها، فبرز لها من المنعطف قاطعا عليها الطريق، فتوقفت فى دهش وقالت :

ـ ألم تذهب معهم؟

فنفخ فيمايشبه التنهد ليخفف صدره من جيشانه، وقال بهدوء :

ـ تخلفت عن القافلة لأقابلك!

ـ ترى ماذا يظنون بتخلفك؟

فقال باستهانة :

ـ هذا شأنهم!

وسارت فى بطء وسار إلى جانبها، ثم تمخض صبر الأيام الطويلة عنه وهو يقول :

ـ أريد أن أسألك قبل عودتى : هل تسمحين لى بالتقدم لخطبتك؟

فارتفع رأسها الجميل كرد فعل لوقع المفاجأة، ولكن لم يند عنها صوت كأنها لم تجد ما تقوله، وكان الطريق خاليًا وأضواء المصابيح متوارية خلف الطلاء الأزرق، فعاد يسائلها :

ـ أتسمحين لى؟

فقالت بصوت خافت لم يخل من عتاب :

ـ هذه طريقتك فى الكلام ويا لها من طريقة، الواقع أنك أذهلتنى!

فضحك ضحكة خفيفة، وقال :

ـ أعتذر عن ذلك، وإن كنت أظن أن تاريخ صداقتنا الطويل لا يجعل من قولى مفاجأة تذهل .

ـ تعنى صداقتنا وتعاوننا الثقافى؟

فلم يرتح لقولها، ولكنه قال:

ـ أعنى عاطفتى غير الخفية التى اتخذت شكل الصداقة والتعاون الثقافى كما قلت! . .

فتساءلت فى صوت باسم غير خال من اضطراب:

ـ عاطفتك الخفية؟!

فقال بعناد وإخلاص:

ـ أعنى حبى! الحب لا يخفى، إننا عادة لا نتكلم لنعلنه، وإنما لنسعد بسماع إعلاننا له . .

فقالت مماطلة حتى تسترد هدوءها:

ـ الأمر كله مفاجأة لى . .

ـ يؤسفنى أن أسمع هذا . .

ـ لماذا تأسف؟ الواقع أننى لا أدرى ماذا أقول . .

ضاحكا:

ـ قولى «أسمح لك» ودعى الباقى لى . .

ـ ولكن، ولكن . . أنا لا أعرف شيئًا، معذرة، كنا أصدقاء حقًا ولكنك لم تحدثنى عن . . ، أعنى لم تسمح الظروف بأن تحدثنى عن شخصك! . .

ـ ألم تعرفينى؟

ـ عرفتك طبعًا، ولكن ثمة أمور أخرى ينبغى أن تعرف . .

أتعنى هذه الأمور التقليدية؟، يا لها من أسئلة خليقة بقلب لم يأسره الحب! وشعر بامتعاض، بيد أنه ازداد عنادًا فقال:

ـ سيجىء كل شىء فى حينه . .

فتساءلت، وكانت قد ملكت زمام نفسها:

ـ أليس الآن حينه؟

فابتسم ابتسامة فاترة، وقال:

ـ لك حق، تعنين المستقبل؟

ـ طبعا!

وأحنقته «طبعًا». أمل أن يسمع أغنية فسمع محاضرة معادة! ولكن يجب ألا تخونه ثقته فى نفسه مهما يكن الأمر. العزيزة الباردة لا تدرى كم يسعده إسعادها!

ـ سأجد بعد تخرجى عملاً . .

ثم بعد لحظات من الصمت :

ـ وسيكون لى يومًا دخل لا بأس به !

فتمتمت فى حياء :

ـ كلام عام . .

فقال وهو يدارى ألمه بالهدوء :

ـ سيكون المرتب فى الحدود المعروفة ، أما الدخل فحوالى عشرة جنيهات . .

وساد الصمت . لعلها تزن الأمور وتفكر . هذا هو التفسير المادى للحب !

كان يحلم بالجنون العذب ولكن أين منه هذا؟ هذا البلد عجيب يندفع فى السياسة وراء العاطفة ، ويتبع فى الحب دقة المحاسبين . وأخيراً جاء الصوت الرقيق قائلاً :

ـ لندع الدخل جانبًا ، فلا يجمل أن ترتب حياتك على أساس تقدير اختفاء الأعزاء من حياتك . .

ـ أردت أن أقول لك إن والدى من ذوى الأملاك . .

فقالت بجهد برر فترة التردد التى سبقته :

ـ فلنكن واقعيين . . .

ـ قلت إنى سأجد عملاً ، وستجدين من ناحيتك عملاً أيضًا . .

فضحكت ضحكة غريبة :

ـ كلا لن أشتغل ، لم أذهب إلى الجامعة لأتوظف كسائر الزميلات . .

ـ ليس العمل عيبًا . .

ـ طبعًا ، ولكن والدى . . ، الواقع أننا جميعًا متفقون على هذا ، لن أشتغل .

وكان قد بردت عواطفه واستغرقه البحث ، فقال :

ـ ليكن ، أشتغل أنا . .

فقالت بصوت كأنما تعمدت أن يكون رقيقًا فوق العادة :

ـ أستاذ أحمد ، فلنؤجل الحديث ، أعطنى مهلة للتفكير . .

فضحك ضحكة فاترة ، وقال :

ـ قلبنا الأمر على كافة وجوهه ، ولكنك فى حاجة إلى مهلة لتدبرى الرفض !

فقالت بصوت حيى :

ـ ينبغى أن أحادث والدى .

ـ هذا بدهى، ولكن كان من الممكن أن ننتهى إلى رأى قبل ذلك!

ـ مهلة ولو قصيرة!..

ـ نحن فى يونيه، وستسافرين إلى المصيف، ولن نلتقى إلا فى أكتوبر القادم فى الكلية!

قالت بإصرار:

ـ لابد من مهلة للتفكير والتشاور!

ـ إنك لا تريدين أن تتكلمى..

وإذا بها تتوقف عن المسير فجأة، وتقول فى دأب وعزم معًا:

ـ أستاذ أحمد، إنك تأبى إلا أن تحملنى على الكلام، أرجو أن تتقبل كلامى بصدر سمح، لقد فكرت فى موضوع الزواج من قبل كثيراً، لا بالقياس إليك ولكن بصفة عامة، وانتهيت منه ـ ووافقنى على ذلك والدى ـ بأن حياتى لن تستقيم، وإننى لن أحافظ على مستواى، إلا إذا تهيأ لى ما لا يقل عن خمسين جنيها شهريًا..

وتجرع خيبة مريرة لم يتوقع ـ على أسوأ الفروض ـ أن تبلغ مرارتها هذه الدرجة، وتساءل:

ـ وهل يملك موظف ـ أعنى فى سن الزواج ـ هذا المرتب الضخم؟

ولكنها لم تنبس، فعاد يقول:

ـ إنك تريدين زوجا ثريا!

ـ آسفة جداً، ولكنك أجبرتنى على مصارحتك برأيى..

فقال بصوت غليظ:

ـ هذا أفضل على أى حال..

فعادت تغمغم:

ـ آسفة!..

وثار غضبه، ولكنه بذل جهداً صادقًا كيلاً يخرج عن حدود الأدب، ثم وجد رغبة لا تقاوم فى أن يصارحها برأيه فتساءل:

ـ أتسمحين لى أن أصارحك برأيى؟

فبادرته قائلة:

ـ كلا، إنى أعرف الكثير عن آرائك، وأرجو أن نبقى صديقين كما كنا!..

ورثى رغم غضبه لحالها، هذه هى الحقيقة العارية قبل أن يلطفها الحب. التى تهرب مع خادمها امرأة طبيعية وإن عدت ـ بعين التقاليد ـ شاذة. فى المجتمع المختل يبدو

الصحيح مريضا والمريض صحيحًا، إنه غاضب ولكن تعاسته أكبر من غضبه، إنها على أى حال تحدس رأيه وفى هذا عزاء، ومدت يدها للمصافحة فتلقاها بيده، ثم أبقاها فيها حتى وسعه أن يقول:

ـ قلت إنك لم تدخلى الجامعة للتوظفى، قول جميل فى ذاته، ولكن إلى مدى انتفعت بالجامعة؟

وارتفع ذقنها كالمتسائلة، لكنه قال بلهجة لم تخل من سخرية:

ـ معذرة عن سخافتى، لعل المسألة أنك لم تحبى بعد، مع السلامة . .

ودار على عقبيه، ثم ولى مسرعًا.

٣٠

قال إسماعيل لطيف:

ـ لعلى أخطأت بحمل زوجى إلى القاهرة كى تلد فيها، كل ليلة تنطلق صفارة الإنذار، أما طنطا فلم نكن نعرف شيئا عن أهوال هذه الحرب.

فقال كمال:

ـ إنها غارات رمزية لو أرادوا بنا شرا ما منعتهم قوة!

فضحك رياض قلدس، وقال مخاطبًا إسماعيل لطيف، وكانت هذه ثانى مقابلة بينهما فى مدى تعارف عام:

ـ أنت تخاطب رجلا لا يشعر بمسئولية الزوج!

فسأله إسماعيل متهكمًا:

ـ هل تشعر بها أنت؟

ـ حقًا أنا أعزب مثله، غير أنى لست عدوا للزواج . .

كانوا يسيرون فى شارع فؤاد الأول، فى مطلع الليل، فى ظلام لم تخففه الأضواء الضئيلة التى تتسرب من أبواب المحال العامة، وكان الشارع رغم ذلك مكتظا بالنساء والرجال والجنود البريطانيين على اختلاف أنواعهم. وكان الخريف يبعث أنفاسا رطيبة، ولكن أكثر الناس مضوا فى الملابس الصيفية. ونظر رياض قلدس إلى جماعة من الجنود الهنود وقال:

ـ من المحزن أن يبتعد الإنسان عن وطنه هذه المسافة المديدة، ليقتل فى سبيل غيره!

فقال إسماعيل لطيف :

ـ ترى كيف يتأتى لهؤلاء التعساء أن يضحكوا؟!

فقال كمال ممتعضًا :

ـ كما نضحك نحن فى هذه الدنيا الغريبة ، الخمر والمخدرات واليأس .

فضحك رياض قلدس قائلاً :

ـ إنك تعانى أزمة فريدة ، كل ما عندك مزعزع الأركان ، عبث وقبض الريح ، نضال أليم مع أسرار الحياة والنفس ، وملل وسقم ، إنى أرثى لك .

فقال إسماعيل لطيف ببساطة :

ـ تزوج ، إنى مررت بهذا الملل قبل زواجى . .

فقال رياض قلدس :

ـ قل له! . .

فقال كمال ، وكأنما يخاطب نفسه :

ـ الزواج هو التسليم الأخير فى هذه المعركة الفاشلة . .

«أخطأ إسماعيل فى المقارنة ، إنه حيوان مهذب ، ولكن مهلاً لعله الغرور ، فيم الغرور وأنت ترقد فوق تل من الخيبة والفشل ، إسماعيل لا يدرى شيئا عن دنيا الفكر ، ولكن السعادة المستمدة من العمل والزوجة والأولاد ، أليست سعادة جديرة بأن تسخر من احتقارك لها؟» قال رياض :

ـ إذا قررت يومًا أن أؤلف رواية ، فستكون أحد أبطالها!

فاتجه كمال نحوه فى اهتمام صبيانى ، وسأله :

ـ ماذا ستصنع منى؟

ـ لا أدرى ، ولكن ينبغى أن توطن نفسك على ألا تزعل ، فإن كثيرين ممن قرأوا أنفسهم فى أقاصيصى قد زعلوا . .

ـ لماذا؟ . .

ـ لعله لأن لكل إنسان فكرة عن شخصه من خلقه هو ، فإذا جرده الروائى منها أبى وغضب! . .

فتساءل كمال فى قلق :

ـ ألديك فكرة عنى غير ما تعلن؟

فبادره فى توكيد قائلاً :

ـ كلا ، ولكن الروائى قد يبدأ من شخص ثم ينساه كلية وهو بصدد خلق نموذج بشرى

جديد، لا صلة بينه وبين الأصل إلا الإيحاء، وإنك توحى إلى بشخصية الرجل الشرقى الحائر بين الشرق والغرب، الذى دار حول نفسه كثيراً حتى أصابه الدوار.

«يتكلم عن الشرق والغرب، ولكن من أين له أن يعرف عايدة؟ قد تكون التعاسة متعددة الجوانب».

وقال إسماعيل لطيف فى بساطة مرة أخرى:

- طول عمرك تخلق لنفسك المتاعب، الكتب فى نظرى أساس بلواك، لماذا لا تجرب الحياة الطبيعية؟

وبلغوا فى مسيرهم منعطف عماد الدين فمالوا إليه، وقد اعترضهم جماعة كبيرة من الإنجليز فتفادوا منها، وقال إسماعيل لطيف:

- إلى جهنم، من أين لهم بهذا الأمل؟! ترى هل يصدقون أنفسهم؟

فقال كمال:

- يخيل إلى أن نتيجة الحرب قد تقررت، غايتها الربيع القادم..

فقال رياض قلدس ممتعضا:

- النازية حركة رجعية غير إنسانية، وسوف يتضاعف شقاء العالم تحت أقدامها الحديدية..

فقال إسماعيل:

- ليكن ما يكون، المهم أن نرى الإنجليز فى نفس الموضع الذى فرضوه على العالم الضعيف!..

وقال كمال:

- ليس الألمان بخير من الإنجليز..

فقال رياض قلدس:

- ولكننا انتهينا مع الإنجليز إلى بر، والاستعمار البريطانى يوغل فى الشيخوخة، ولعله قد تلطف ببعض المبادئ الإنسانية، ولكننا سنتعامل غداً مع استعمار فتى مغرور شره غنى حرب، فما العمل؟

فضحك كمال ضحكة تحمل نغمة جديدة، وقال:

- نشرب كأسين ونحلم بعالم واحد تسيطر عليه حكومة واحدة عادلة!..

- سنحتاج حتماً إلى أكثر من كأسين..

ووجدوا أنفسهم أمام حانة جديدة لم يروها من قبل، لعلها من الحانات «الشيطانى» التى تخلقها ظروف الحرب بين يوم وليلة، وحانت من كمال نظرة إلى داخلها فرأى امرأة

بيضاء ذات جسم شرقى تقوم على إدارة الحانة، ثم جمدت قدماه فلم يتحرك من موقفه، أو بالأحرى لم يستطع أن يتحرك حتى اضطر صاحباه أن يتوقفا عن المسير وينظروا إلى حيث ينظر. . مريم! لم تكن إلا مريم دون غيرها، مريم الزوجة الثانية لياسين، مريم جارة العمر، فى هذه الحانة بعد اختفاء طويل، مريم التى ظن بها أنها لحقت بأمها! . .

ـ أتريد أن نجلس هاهنا؟ هلم فليس بالداخل إلا أربعة جنود. .

وتردد مليا، ولكن شجاعته لم تواته فقال ولما يفق من ذهوله:

ـ كلا. .

وألقى نظرة على المرأة التى ذكرته بأمها فى أيامها الأخيرة، ثم انطلقوا فى طريقهم، متى رآها آخر مرة؟ منذ ثلاثة أو أربعة عشر عامًا على الأقل، إنها معلم من معالم الماضى الذى لا ينسى، ماضيه. . تاريخه. . ما هيته. . كل أولئك شىء واحد، وقد استقبلته فى قصر الشوق فى آخر زيارة لهذا البيت قبل طلاقها، وما زال يذكر كيف شكت إليه اعوجاج أخيه وارتداده إلى حياة العربدة والمجون، شكوى لم يكن يقدر عواقبها وقد انتهت بها إلى ذلك الدور الذى تلعبه فى هذه الحانة الشيطانى، ومن قبل ذلك كانت كريمة السيد محمد رضوان، وكانت صديقته وملهمة أحلامه فى الصبا الأول، فى ذلك الزمان الذى شهد البيت القديم عامرًا بالأفراح والسلام، كانت مريم وردة وكانت عائشة وردة ولكن الزمن عدو لدود للورود، وربما كان من المحتمل أن يعثر عليها فى بيت من هذه البيوت كما عثر بالست جليلة، ولو وقع هذا لكان وجد نفسه فى مأزق وأى مأزق، هكذا بدأت مريم بالإنجليز وانتهت بالإنجليز. .

ـ أتعرف هذه المرأة؟

ـ نعم. . .

ـ كيف؟

ـ امرأة من هاتيك النسوة، ولعلها نسيتنى! . .

ـ أوه، الحانات ملأى بهن، مومسات قديمات، وخادمات متمردات، ومن كل لون. .

ـ نعم. .

ـ ولمَ لم تدخل فلعلها كانت ترحب بنا إكرامًا لك. . ؟

ـ لم نعد فى طور الشباب ولدينا أماكن أفضل. .

تقدم به العمر وهو لا يدرى، منتصف الحلقة الرابعة، وكأنما قد استهلك نصيبه من السعادة، وإذا قارن بين تعاسته الراهنة وتعاسته الماضية لم يدر أيهما أشد، ولكن ماذا يهم العمر وقد ضاق بالحياة؟ حقًا إن الموت لذة الحياة، ولكن ما هذا الصوت؟

ـ غارة! . .

ـ أين نذهب؟ . .

ـ على مخبأ قهوة ركس . .

ـ لم يجدوا فى المخبأ مكانًا خاليا للجلوس فوقفوا، وكان ثمة أفندية وخواجات وسيدات وأطفال، وكان الكلام يدور بشتى اللغات واللهجات. وأصوات رجال المقاومة المدنية فى الخارج تهتف «أطفئ النور»، وبدا وجه رياض شاحبًا، وكان يمقت دوى المدافع، قال له كمال مداعبًا:

ـ قد لا تتمكن من العبث بشخصى فى روايتك . .

فضحك ضحكة عصبية وقال وهو يومئ إلى الناس:

ـ البشرية ممثلة بنسبة عادلة فى هذا المخبأ . .

فقال كمال متهكمًا:

ـ لو اجتمعوا على خير كما يجتمعون على الخوف! . .

وهتف إسماعيل متنرفزا:

ـ زمان زوجى نازلة على السلم تتلمس طريقها فى الظلام، إنى أفكر جديًا فى العودة إلى طنطا غدًا . .

ـ إن عشنا! . .

ـ مساكين حقًا أهل لندن! .

ـ لكنهم أصل البلاء كله . .

وكان وجه رياض قلدس يزداد شحوبًا، ولكنه دارى اضطرابه بالكلام فسأل كمال:

ـ سمعتك تتساءل مرة أين محطة الموت لأغادر مركبة الحياة المملة، فهل يهون عليك أن تنسفنا قنبلة الآن؟

فابتسم كمال، وكان يرهف السمع فى قلق متزايد متوقعًا بين لحظة وأخرى أن ينطلق مدفع فيصك الآذان، وأجاب:

ـ كلا . . (ثم كالمتسائل) . . لعله الخوف من الألم؟

ـ أم ثمة أمل غامض فى الحياة مازال يضطرب فى أعماقك؟

لماذا لم ينتحر؟ ولم يبدو ظاهر حياته كأنما يمتلئ حماسا وإيمانًا؟ طالما نازعته النفس إلى النقيضين: وكر الشهوات والتصوف، ولكنه لم يكن ليطيق حياة خالصة للدعة والشهوات، ومن ناحية أخرى كان ثمة شىء فى أعماقه ينفر من فكرة السلبية والهروب، ولعله ـ هذا الشىء ـ الذى حال بينه وبين الانتحار، وفى ذات الوقت فإن استمساكه بحبل

الحياة المضطرب فى يديه مناقض لصميم شكه القاتل، والخلاصة فى كلمتين: حيرة وعذاب!

وفجأة انطلقت المدافع كالمطر، لا تتيح للصدر متنفسًا، وزاغت الأبصار، وضلت الألسن، ولكن الضرب لم يستمر أكثر من دقيقتين بالحساب الزمنى، وتوقع الناس عودة بغيضة إلى الدوى المرعب، واستبد الفزع بالنفوس، غير أن الصمت ساد وعمق، وتساءل إسماعيل لطيف:

ـ إنى أتخيل حال زوجى الآن، ترى متى تنتهى الغارة؟

فتساءل رياض قلدس:

ـ متى تنتهى الحرب؟

وما لبث أن انطلقت صفارة الأمان فند عن المخبأ تنهد عميق، وقال كمال:

ـ ليست إلا مداعبة إيطالية! . .

وغادروا المخبأ فى الظلام كالخفافيش، ولفظت الأبواب أشباحًا وراء أشباح، ثم تساقط الضوء الباهت متتابعًا من النوافذ، وملأت الضجة الأركان. .

ـ يبدو أن الحياة ـ فى هذه اللحظة السريعة المعتمة ـ ذكرت كل غافل بمدى قيمتها الذى لا يقاس به شىء فى الوجود. .

٣١

اتخذ البيت القديم مع الزمن صورة جديدة تنذر بالانحلال والتدهور. انفرط نظامه وتقوض مجلسه، وكان النظام والمجلس روحه الأصيل. ففى نصف النهار الأول يغيب كمال فى المدرسة، وتمضى أمينة إلى جولتها الروحية ما بين الحسين والسيدة، وتنزل أم حنفى إلى حجرة الفرن، ويتمدد السيد على الكنبة فى حجرته أو يجلس على كرسى فى المشربية، وتهيم عائشة على وجهها ما بين السطح وحجرتها، ويظل الراديو فى الصالة يهتف وحده، وعند الأصيل تجتمع أمينة وأم حنفى فى الصالة، وتلبث عائشة فى حجرتها، أو تمكث معهما بعض الوقت ثم تذهب، أما السيد فلا يغادر حجرته، وكمال إن عاد من الخارج مبكراً فلكى يقبع فى الدور الأعلى فى مكتبه. وكان اعتكاف السيد أول الأمر محزنًا، ثم صار عادة عنده وعند الآخرين، وكان حزن عائشة مفجعًا ثم صار عادة عندها وعند الآخرين، وما زالت أمينة أول من يستيقظ، فتوقظ بدورها أم حنفى، ثم تتوضأ وتصلى، وتنهض أم حنفى ـ وكانت نسبيًا خير الجميع صحة ـ فتقصد حجرة

الفرن، وتفتح عائشة عينين ثقيلتين فتقوم لتحسو أقداح القهوة تباعًا وتحرق السجائر الواحدة تلو الأخرى حتى إذا دعيت للفطور تناولت لقمات. وقد اضمحلت أيما اضمحلال، وانقلبت هيكلا عظيما كسى جلدا باهتا، وأخذ شعرها فى السقوط حتى اضطرت إلى اللجوء إلى الطبيب قبل أن يدركها الصلع، وتكالبت عليها العلل حتى أشار عليها الطبيب بالتخلص من أسنانها، فلم يبق من شخصها القديم إلا الاسم. ولم تكن أقلعت عن عادة النظر فى المرآة، لا لتأخذ زينة، ولكن بحكم العادة من ناحية، وللإمعان فى الحزن من ناحية أخرى، وربما بدت أحيانًا وكأنها أذعنت للمقادير فى استسلام لطيف، فتطيل من جلستها مع أمها، وتشارك فى الحديث الدائر، وربما افترت شفتاها الذابلتان عن ابتسامة، أو تزور والدها لتسأل عن صحته، أو تتمشى فى حديقة السطح وترمى بالحب إلى الدجاج، هناك تقول أمها برجاء:

ـ كم أسعدت قلبى يا عائشة، ليتنى أراك دائمًا على هذه الحال! . .

على حين تجفف أم حنفى عينيها قائلة:

ـ فلنذهب إلى حجرة الفرن لنصنع شيئًا جميلاً!

ولكن عند منتصف الليل استيقظت أمها على صوت بكاء آت من حجرتها، فهرعت إليها محاذرة أن توقظ الرجل النائم، فوجدتها جالسة فى الظلام تنتحب، ولما شعرت بدنو أمها تعلقت بها هاتفة:

ـ لو تركت لى ما كان فى بطنها! ظلا منها! يداى فارغتان، والدنيا لا شىء فيها.

فاحتضنتها أمها وهى تقول:

ـ إنى أعلم الناس بحزنك، حزن يجل عن العزاء، ليتنى كنت فداهم، ولكن لله جل وعلا حكمته، وما جدوى الحزن يا مسكينة؟! . .

ـ كلما نمت حلمت بهم، أو حلمت بالحياة الأولى. .

ـ وحدى الله، ذقت ما تعانين طويلا، أنسيت فهمى؟ ولكن المؤمن المصاب مطالب بالصبر، أين إيمانك؟

فهتفت فى امتعاض:

ـ إيمانى! . .

ـ نعم أذكرى إيمانك، وتوسلى إلى ربك تنزل عليك الرحمة من حيث لا تدرين. .

ـ الرحمة! . . أين الرحمة أين؟!

ـ رحمته وسعت كل شىء، طاوعينى وتعالى معى إلى الحسين، ضعى يدك على الضريح واتلى الفاتحة تتحول نارك إلى برد وسلام كنار سيدنا إبراهيم. .

ولم يكن موقفها حيال صحتها دون ذلك اضطرابا، فحينا تتردد على الأطباء في مثابرة وانتظام حتى يظن بها العودة إلى الاستمساك بأهداب الحياة، وحينا تهمل نفسها وتزدرى كافة النصائح لدرجة الانتحار. أمازيارة القرافة فهى التقليد الوحيد الذى لم تشذ عنه مرة واحدة، وكانت تنفق فيها بسخاء وتهبها عن طيب خاطر كل ما ملكت يمينها من ميراث زوجها وابنتها حتى استحال حول المقبرة حديقة غناء موشاة بالأزهار والرياحين. ويوم جاءها إبراهيم شوكت لإتمام إجراءات الميراث ضحكت ضحكة مجنونة وقالت لأمها:

ـ هنئينى على ميراثى من نعيمة..

وكان كمال يمر بها كلما آنس منها استقرارًا، فيجالسها مليا ملاطفًا متوددا. كان يتأملها طويلاً صامتًا، ويتخيل محزونًا الصورة الذاهبة التى أبدع الله صنعها، ثم يتفحص ما آلت إليه. لم تكن هزيلة فحسب، ولا مريضة فحسب، ولكن محزنة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، ولم يغب عنه ما بينهما من أوجه الشبه فى الحظ، فهى قد فقدت ذريتها وهو قد فقد آماله، وانتهت إلى لا شىء كما انتهى إلى لا شىء، بل كان أبناؤها لحمًا ودمًا أما آماله فكانت كذبًا وأوهاما! وقال لهم يومًا:

ـ أليس من الأفضل أن تذهبوا إلى المخبأ إذا أطلقت صفارة الانذار؟

فقالت عائشة:

ـ لن أغادر حجرتى..

وقالت الأم:

ـ إنها غارات آمنة ومدافع كالصواريخ..

أما أبوه فجاء صوته من الداخل وهو يقول:

ـ لو أن بى قدرة على الذهاب إلى المخبأ لذهبت إلى الجامع أو إلى بيت محمد عفت..

ويوما جاءت عائشة من السطح مهرولة وهى تلهث وقالت لأمها:

ـ حدث شىء عجيب!..

فنظرت إليها أمها فى استطلاع مشوب بالرجاء، فعادت تقول وهى ما تزال تلهث:

ـ كنت فى السطح أراقب غروب الشمس، وكنت على حال من اليأس لم أشعر بمثلها من قبل، وفجأة فتحت فى السماء نافذة من نور بهيج فصحت بأعلى صوتى «يا رب».

اتسعت عينا الأم فى تساؤل، أهى الرحمة المنشودة أم هاوية جديدة من الأحزان؟ وتمتمت:

ـ لعلها رحمة ربنا يا ابنتى! . .

فقال ووجهها يتهلل بشرا:

ـ نعم، صحت يا رب، وكان النور يملأ الدنيا . .

وراحوا جميعا يفكرون فى الأمر ويراقبون الحال فى قلق بالغ. أما عائشة فكانت تقف الساعات بموقفها من السطح مترقبة النور أن يومض مرة أخرى، حتى قال كمال لنفسه «ترى أهى النهاية التى يهون إلى جانبها الموت؟» ولكن من حسن الحظ ـ حظ الجميع ـ أنها تناست الأمر مع الأيام ولم تعد تذكره، ثم لم تزل توغل فى دنيا خاصة خلقتها لنفسها، وعاشت فيها وحدها، وحدها سواء أكانت منفردة فى حجرتها أو جالسة بينهم، إلا ساعات متباعدة تثوب فيها إليهم كالعائدة من سفر، ثم لاتلبث أن تواصل الرحيل. والتصقت بها عادة جديدة هى محادثة نفسها، خاصة حين انفرادها، وشد ما أثارت بذلك القلق، غير أنها كانت تخاطب أمواتًا وهى مدركة لحال موتهم، ولم تتخيل أمواتًا أو أشباحًا، وفى ذلك كان عزاء المحيطين بها . .

٣٢

ما أقسى البرد هذا الشتاء! يذكر بشتاء قديم ظل الناس يؤرخون به جيلاً، شتاء أى عام يا ترى؟ رباه أين الذاكرة التى تعى ذلك أين؟ غير أن القلب العجوز يحن إليه فى مجهوله، فهو جزء من الماضى الذى تهيج ذكراه الدموع فى مكامنها، الماضى الذى كان يستيقظ فيه مبكراً فيستحم تحت الدش غير مبال برد الشتاء ثم يملأ بطنه وينطلق إلى دنيا الناس، دنيا الحركة والحرية التى لا يعرف اليوم عنها شيئًا اللهم إلا ما يجود به الرواة، وكأنهم يحدثون عن عالم فى أقصى الأرض. كانت له الحرية والقدرة على أن يجلس على الكنبة فى الحجرة أو على الكرسى فى المشربية وكان مع ذلك يضيق بسجن البيت، وكان يذهب حين الحاجة إلى الحمام أو يغير ملابسه بنفسه ومع ذلك لعن قعدة البيت، وكان له يوم فى الأسبوع يستطيع أن يغادر البيت متوكئا على عصاه أو راكبًا عربة فيزور الحسين أو بيت أحد الأصدقاء ومع ذلك فطالما دعا الله أن ينقذه من محبس البيت. أما اليوم فلم يسعه أن يغادر الفراش، ولم تعد حدود عالمه تجاوز أطراف هذه الحشية، حتى الحمام يجىء إليه ولا يذهب هو إليه، قذارة لم تكن فى الحسبان، حتى استقر الامتعاض على شفتيه، وأسكنت المرارة فى لعابه، على هذه الحشية يرقد نهاراً وينام ليلاً ويتناول طعامه ويقضى حاجته. وهو من كان يضرب بأناقته المثل ويسير الشذا الطيب بين يديه،

وفى هذا البيت الذى استكان عمره لإرادته المطلقة غدا ينظر فلا يلقى إلا نظرات الرثاء أو يرجو فيعاتب كالأطفال، وذهب الأحباب فى فترات متقاربة من الزمن كأنهم كانوا على ميعاد، ذهبوا وتركوه وحيداً، عليك رحمة الله يا محمد يا عفت، كان آخر العهد به سهرة من ليالى رمضان فى السلاملك المطل على الحديقة، ثم ودعه ومضى وضحكته العالية توصله إلى الباب، وما كاد يأوى إلى حجرته حتى طرق الباب طارق وهرع إليه رضوان وهو يقول «جدى مات يا جدى» يا سبحان الله متى؟.. وكيف؟.. ألم يضاحكنا منذ دقائق؟ ولكنه سقط على وجهه وهو فى طريقه إلى مخدعه، هكذا انطوى حبيب العمر. وعلى عبد الرحيم الذى احتضر ثلاثة أيام كاملة، سعال حاد متقطع حتى فزعنا إلى الله أن يحسن خاتمته ويريحه من الألم، واختفى من دنياى أليف الروح على عبد الرحيم، وقد ودع هذين الحبيبين أما إبراهيم الفار فلم يودعه، كان اشتداد المرض قد أقعده فى فراشه ومنعه عن عيادته فنعاه إليه خادمه، وحتى الجنازة لم يشيعها فشيعها عنه ياسين وكمال. فإلى رحمة الله يا ألطف الناس طرا، ومن قبل هؤلاء مات حميدو والحمزاوى وعشرات من المعارف والأصحاب، تركوه وحيداً كأنه لم يعرف من الناس أحداً، لا زائر له ولا عائد، وجنازته لن يشيعها صديق، حتى الصلاة حيل بينه وبينها، وهل يتمتع بالطهر إلا ساعات عقب استحمام لا يجود به أولياء الأمر إلا مرة كل أشهر؟ فحرم من الصلاة وهو أشد ما يكون حاجة إلى مناجاة الرحمن فى هذه الوحدة الموحشة. هكذا تمضى الأيام، الراديو يتكلم وهو يسمع، وأمينة تذهب وتجىء، وشد ما ركبها الوهن، غير أنها لم تعتد الشكوى، إنها ممرضته وأخوف ما يخاف أن تحتاج غداً إلى من يمرضها، وهى كل ما بقى له، أما ياسين وكمال فيمكثان عنده ساعة ثم يذهبان، ود لو لم فارقاه، ولكنها أمنية لا يستطيع أن يعلنها ولن يستطيعا أن يحققاها، أمينة وحدها التى لا تمله، وإذا ذهبت لزيارة الحسين فلكى تدعو له، والعالم بعد ذلك فراغ. وإن يوم زيارة خديجة له ليوم يستحق الانتظار، تجىء وفى صحبتها إبراهيم شوكت وعبد المنعم وأحمد، فتمتلئ الحجرة بالأحياء وتتبدد وحشتها، وقليلاً ما يتكلم هو أما هم فيتكلمون كثيراً، ومرة خاطبهم إبراهيم قائلاً: «أريحوا السيد من ثرثرتكم»، فقال له معاتبًا: «دعهم يتكلموا.. أريد أن أسمعهم!». ودعا لابنته بالصحة وطول العمر ودعا لزوجها وابنيها، وكان يعلم بأنها تود لو تسهر على راحته بنفسها، وكان يطالع فى عينيها حنانًا ما وراءه حنان، ويومًا سأل ياسين فى شوق واستطلاع باسمًا:

ـ أين تمضى سهراتك؟

فقال فى حياء:

ـ اليوم الإنجليز فى كل مكان كأيام زمان..

أيام زمان! أيام القوة والبأس، والضحك الذى تهتز له الجدران، وسهر الغورية والجمالية، والناس الذين لم يبق منهم إلا أسماء، زبيدة وجليلة وهنية ترى ألا تذكر أمك يا ياسين؟ وها هى زنوبة وكريمة تجلسان إلى جانب والدها، ودواما ستطلب الرحمة والغفران . .

ـ من بقى من معارفنا القدامى فى وزارتك يا ياسين؟

ـ أحيلوا جميعًا إلى المعاش، ولم أعد أدرى عنهم شيئًا!

ولا هم يدرون عنا شيئًا، أصدقاء القلب ماتوا فما لنا نسأل عن المعارف، ولكن ما أجمل كريمة! فاقت أمها فى زمانها، ومع ذلك لم تعد الرابعة عشرة، ونعيمة ألم تكن آية فى الجمال؟!

ـ ياسين إن استطعت أن تقنع عائشة بزيارتك فافعل، انتشلوها من وحدتها فإنى أخاف عليها منها . .

فقالت زنوبة :

ـ طالما دعوتها لزيارة قصر الشوق ولكنها . . . ، كان الله فى عونها! . .

ولاحت فى عينى الرجل نظرة قاتمة، ثم إذا به يسأل ياسين :

ـ ألا تصادف فى طريقك الشيخ متولى عبد الصمد؟

فقال ياسين باسما :

ـ أحيانا، إنه لا يكاد يعرف أحدًا، ولكنه ما زال يسير على قدمين قويتين! . .

يا للرجل!، ألم تنازعه نفسه مرة إلى زيارتى؟ أم نسينى كما نسى أبنائى من قبل؟!

ولما ذهب الأصدقاء اتخذ الرجل من كمال صديقًا، ولعله فاجأه بصداقته، لم يعد الأب الذى عهده، وغدا صديقًا يناجيه ويتشوق إلى مناجاته، وكان يقول عنه آسفا : «أعزب فى الرابعة والثلاثين من عمره، يعيش أكثر حياته فى حجرة مكتبه، كان الله فى عونه»، ولم يكن يعد نفسه مسئولا عما صار إليه أمره، فقد أبى من أول الأمر أن يصنع نفسه بنفسه، وانتهى به الحال إلى أن يكون مدرسًا أعزب «قعيدًا مقطوعًا» فى حجرته. وكان يتجنب أن يثقل عليه بسيرة الزواج أو دروس الخصوصية، كما كان يدعو الله أن يكفيه مدخره من النقود حتى الرمق الأخير كيلا يكون يومًا عالة عليه، ويومًا سأله :

ـ هل تعجبك هذه الأيام؟

فابتسم كمال ابتسامة حائرة، وتردد فى الجواب، فاستطرد الرجل قائلاً :

ـ الأيام الحقيقية كانت أيامنا! كانت يسرا ورغدًا، وصحة وعافية، شهدنا سعد زغلول، وسمعنا سى عبده، ماذا فى أيامكم؟!

فأجاب كمال مأخوذا بتداعى معانى الحديث فحسب :

ـ لكل زمان محاسنه ومعايبه . .

فهز الرجل رأسه المسند إلى مخدة مكسورة وراء ظهره وقال :

ـ كلام يقال ليس إلا . .

ثم بعد فترة صمت ودون تمهيد :

ـ عجزى عن الصلاة يحز فى نفسى حزا ، فالعبادة عزاء الوحدة ، ومع ذلك تمر بى أوقات غريبة أنسى فيها كافة وجوه الحرمان التى أعانيها من مأكل ومشرب وحرية وعافية ، تصفو نفسى صفاء عجيبًا حتى يخيل إلى أنى متصل بالسماوات ، وأن ثمة سعادة مجهولة تزرى بالحياة وما فيها .

فتمتم كمال :

ـ ربنا يمد فى عمرك ويرد إليك العافية . .

فهز رأسه مرة أخرى فى استسلام ، وقال :

ـ هذه ساعة طيبة ، لا ألم فى الصدر ، ولا ضيق فى التنفس ، وورم ساقى آخذ فى الزوال ، وموعدنا فى الراديو مع ما يطلبه المستمعون! . .

وإذا بصوت أمينة يقول :

ـ سيدى بخير؟

ـ الحمد لله .

ـ هل آتى بالعشاء؟

ـ العشاء؟! أما زلت تسمينه العشاء؟! هاتى سلطانية اللبن! . .

٣٣

بلغ كمال بيت أخته بالسكرية حوالى العصر فوجد الأسرة مجتمعة فى الصالة بكامل هيئتها ، فصافحهم وهو يقول مخاطبًا أحمد :

ـ مبارك الليسانس . . .

فأجابته خديجة بلهجة خالية من معانى الابتهاج :

ـ مبارك عليك ، ولكن تعال اسمع آخر خبر ، البك لا يريد أن يتوظف . .

وقال إبراهيم شوكت :

ـ ابن خاله رضوان مستعد لتوظيفه إذا وافق ولكنه يصر على الرفض، كلمه يا أستاذ كمال لعله يقتنع برأيك أنت . .

خلع كمال طربوشه، ونزع ـ من شدة الحر ـ الجاكتة البيضاء فألبسها مسند كرسى، ومع أنه كان يتوقع معركة إلا إنه قال باسمًا:

ـ حسبت أن اليوم سيكون خالصًا للتهنئة، ولكن هذا البيت لا يسلو النزاع أبدًا!

فقالت خديجة بلهجة أسيفة:

ـ قسمتى، الناس كلهم حال ونحن وحدنا حال.

وخاطب أحمد خاله قائلاً:

ـ الأمر بسيط، ليس أمامى الآن إلا وظيفة كتابية، فقد أخبرنى رضوان أنه يمكن تعيينى الآن فى وظيفة كتابية خالية بإدارة المحفوظات عند خالى ياسين، واقترح على أن أنتظر ثلاثة أشهر حتى بدء العام الدراسى الجديد لعلى أعين مدرس لغة فرنسية فى إحدى المدارس، ولكنى لا أريد الوظيفة أيًا كان نوعها!

فهتفت خديجة:

ـ قل له ماذا تريد؟

فأجاب الشاب ببساطة وحزم:

ـ سأعمل فى الصحافة.

فنفخ إبراهيم شوكت قائلاً:

ـ جورنالجى! كنا نسمع هذا الكلام فنظنه ضحكًا وعبثًا، يأبى أن يكون مدرسًا مثلك ويسعى إلى أن يكون جورنالجيا . .

فقال كمال فى لهجة ساخرة:

ـ كفاه الله شر مهنة التدريس!

فقالت خديجة فى انزعاج:

ـ وهل يسرك أن يشتغل جورنالجيا؟

وهنا قال عبد المنعم ملطفًا الجو:

ـ لم تعد الوظيفة بالمطلب السعيد!

فقالت أمه بحدة:

ـ لكنك موظف ياسى عبد المنعم . .

ـ فى كادر ممتاز، ولكنى لا أرضى له وظيفة كتابية، وهاهو خالى كمال يستعيد من مهنته . .

ـ فى أى نوع من الصحافة تريد أن تعمل؟

ـ الأستاذ عدلى كريم موافق على قبولى فى مجلته تحت التمرين لأقوم بالترجمة أولا ثم بالتحرير فيما بعد . .

ـ ولكن «الإنسان الجديد» مجلة ثقافية محدودة الموارد والمجال؟ . .

ـ هى خطوة أولى للتمرين حتى يتيسر لى عمل أهم، وعلى أى حال ففى وسعى أن أنتظر دون أن أجوع . .

فنظر كمال إلى خديجة قائلاً :

ـ دعى الأمور تجرى كما يشاء، إنه راشد مثقف وأدرى بما يفعل .

ولكن خديجة لم تسلم بالهزيمة بسهولة، وعادت تحاول إقناع ابنها بقبول الوظيفة حتى علا صوتهما واحتد فتدخل كمال ليخلص بينهما، ثم تكدر جو المجلس وساد صمت ثقيل حتى قال كمال ضاحكًا :

ـ جئت طامعًا فى شرب الشربات فكانت هذه العكننة نصيبى .

وفى أثناء ذلك ارتدى أحمد ملابسه ليغادر البيت، فاستأذن كمال وخرجا معا، وسارا فى شارع الأزهر، وقد صارح أحمد خاله بأنه ماض إلى مجلة «الإنسان الجديد» ليتسلم عمله كما وعده الأستاذ عدلى كريم، فقال له كمال :

ـ افعل ما تشاء ولكن تجنب إيذاء والديك . .

فقال أحمد ضاحكًا :

ـ إنى أحبهما وأجلهما ولكن . .

ـ ولكن . . ؟

ـ من الخطأ أن يكون للإنسان والدان ! .

كمال ضاحكًا :

ـ كيف هان عليك أن تقول ذلك؟

ـ لا أعنى حرفيته، ولكن ما يرمز إليه الوالدان من تقاليد الماضى، فالأبوة على وجه العموم فرملة، وما حاجتنا فى مصر إلى الفرامل ونحن نسير بأرجل مكبلة بالأغلال؟ !

ثم مواصلا الحديث بعد تفكير :

ـ إن مثلى لن يعرف الكفاح بمعناه المر ما دم لى بيت ولأبى دخل، ولا أنكر أنى مطمئن بذلك ولكن فى الوقت نفسه خجل منه !

ـ متى ينتظر منك أن تؤجر على عملك؟

ـ لم يحدد الأستاذ وقتًا . .

وعند العتبة الخضراء افترقا، فمضى أحمد إلى مجلة «الإنسان الجديد»، وقد استقبله الأستاذ عدلى كريم مشجعًا، وذهب معه إلى حجرة السكرتارية حيث خاطب من فيها قائلاً:

ـ زميلكم الجديد الأستاذ أحمد إبراهيم شوكت . .

ثم قدم إليه زملاءه قائلاً:

ـ آنسة سوسن حماد، الأستاذ إبراهيم رزق، الأستاذ يوسف الجميل . . وصافحوه مرحبين، ثم قال إبراهيم رزق مجاملاً:

ـ اسمه معروف فى مجلتنا . .

وقال الأستاذ عدلى كريم باسمًا:

ـ إنه الابن البكر للإنسان الجديد . . (ثم وهو يشير إلى مكتب يوسف الجميل) . . ستعمل على هذا المكتب فإن عمل صاحبه فى الخارج إلا فيما ندر . .

وغادر عدلى كريم الحجرة فدعا يوسف الجميل أحمد إلى الجلوس على كرسى قريب من مكتبه، وانتظر حتى جلس ثم قال:

ـ ستوجهك الآنسة سوسن إلى العمل الذى سيناط بك، ولا بأس الآن أن تشرب فنجان قهوة . . وضغط على زر الجرس على حين راح أحمد يتصفح الوجوه والمكان، كان إبراهيم رزق كهلا مهدمًا يبدو أكبر من سنه بعشرة أعوام، أما يوسف الجميل فكان فى العقد الأخير من الشباب، وكان مظهره ينم على الحذق والذكاء. ورمى ببصره إلى سوسن حماد وهو يسائل نفسه ترى هل تذكره؟ ولم يكن رآها منذ أول مقابلة عام ١٩٣٦ والتقت عيناهما فسألها باسما مدفوعًا برغبة فى الخروج عن صمته:

ـ قابلت حضرتك هنا منذ خمس سنوات . .

فلاح التذكر فى عينيها اللامعتين فاستدرك قائلاً:

ـ كنت أسأل عن مصير مقالة تأخر نشرها!

فقالت باسمة:

ـ أكاد أذكرك، وعلى كل فقد نشرنا منذ ذلك التاريخ مقالات كثيرة! . .

فقال يوسف الجميل معلقًا:

ـ مقالات تنم عن روح تقدمية طيبة . .

وقال إبراهيم رزق:

ـ إن الوعى اليوم غيره بالأمس، كلما نظرت فى الطريق قرأت على الجدران عبارة «الخبز والحرية» هذا شعار الشعب الجديد.

فقالت سوسن حماد باهتمام:

ـ ما أجمله من شعار، خاصة فى هذا الوقت الذى أطبق فيه الظلام على العالم!..

وأدرك أحمد ما يعنيه قولها فاستجابت نفسه سريعًا ـ وفى حماس وسرور ـ للجو المحيط به وقال:

ـ الظلام يطبق على العالم حقًا، ولكن ما دام هتلر لم يهجم على بريطانيا فثمة أمل فى النجاة.

فقالت سوسن حماد:

ـ إنى أنظر إلى الموقف من زاوية أخرى، ألا ترى أن هتلر لو هاجم بريطانيا فمن المحتمل أن يهلكا معا أو فى الأقل أن ينتقل مركز القوة إلى روسيا؟..

ـ وإذا حدث العكس؟ أعنى أن يجتاح هتلر الجزيرة ويبلغ ذروة القوة؟!..

فقال يوسف الجميل:

ـ كان نابليون كهتلر غازى أوروبا ولكن روسيا كانت مقبرته.

ووجد أحمد نشاطًا وحماسًا لم يشعر بمثلهما من قبل. هذا الهواء النقى، وهؤلاء الزملاء الأحرار، وهذه الزميلة المستنيرة الحسناء. ولداع أو لآخر ذكر علوية صبرى، وعام العذاب الذى صارع فيه الحب الخائب حتى صرعه، حين كان يصبح ويمسى وهو يلعن الحب من صميم قلبه حين تطاير فى الهواء تاركًا فى أعماق النفس آثارًا من الامتعاض والتمرد لا تزول. إنها الآن فى بيتها فى المعادى تنتظر زوجًا ذا خمسين جنيها شهريًا على الأقل، أما هذه الفتاة التى تدعو بالنصر لروسيا فماذا تنتظر يا ترى؟..

وإذا بسوسن تلوح برزمة أوراق فى وجهه وهى تقول برقة:

ـ تسمح!..

فنهض، ثم مضى إلى مكتبها باسما ليبدأ عمله الجديد..

٣٤

لم يكن يوسف الجميل يمر بالمجلة إلا يومًا فى الأسبوع أو يومين إذ كان جل نشاطه موجها للإعلانات والاشتراكات، كذلك إبراهيم رزق لم يمكث فى السكرتارية أكثر من

ساعة ثم يدور على بقية المجالات التى يعمل بها، فكان أكثر الوقت يمضى وهما منفردان. أحمد وسوسن. ومرة جاء رئيس عمال المطبعة ليأخذ بعض الأصول فما راعه إلا أن يسمعها وهى تدعوه «أبى»! وعلم بعد ذلك أن ثمة صلة قربى تربط الأستاذ عدلى كريم نفسه برئيس عمال المطبعة. كان ذلك مفاجئا ومثيرا، وراعه أكثر من سوسن مثابرتها على العمل، كانت محور التحرير ومركز نشاطه، بيد أنها كانت تعمل أكثر مما يستوجبه تحرير المجلة، فما تزال تقرأ أو تكتب. وبدت جادة حادة شديدة الذكاء، وشعر من أول الأمر بقوة شخصيتها، حتى كان يخيل إليه بعض الأحيان ـ رغم عينيها السوداوين الجذابتين وجسمها الأنثوى اللطيف ـ أنه حيال رجل قوى الإرادة حسن التنظيم، ثم تأثر بنشاطها فثابر على عمله بهمة لاتعرف الكلل أو الملل، وقد أخذ على عاتقه ترجمة المختارات من مجلات العالم الثقافية، إلى ترجمة بعض المقالات ذات الشأن. وقد قال لها يومًا:

ـ إن الرقابة تقف لنا بالمرصاد..

فقالت بصوت يدل على الحنق والازدراء:

ـ أنت لم تر شيئا بعد، مجلتنا «مشبوهة» فى الدوائر العليا! ولها الشرف!..

فقال أحمد باسمًا:

ـ تذكرين طبعًا افتتاحيات الأستاذ عدلى كريم قبل الحرب؟

ـ لقد عطلت مجلتنا مرة فى عهد على ماهر بسبب مقال عن ذكرى الثورة العرابية اتهم فيه الأستاذ الخديو توفيق بالخيانة.

ويومًا سألته ضمن حديث عابر:

ـ لماذا اخترت الصحافة؟..

فتفكر قليلاً، إلى أى درجة يجوز له أن يكشف عن ذات نفسه لهذه الفتاة التى تبدو طرازا وحدها بين من عرف من بنات جنسها:

ـ لم أدخل الجامعة لأتوظف، ولكن عندى أفكار أريد التعبير عنها ونشرها وما من سبيل إلى ذلك خير من الصحافة..

فقالت باهتمام سر له من أعماقه:

ـ أما أنا فلم أدرس فى الجامعة، أو بالحرى لم تتح لى فرصة (سرته صراحتها كذلك وإن أكدت فى نفسه مخالفتها لبنات جنسها).. إنى متخرجة من مدرسة الأستاذ عدلى كريم، وهى ليست دون الجامعة منزلة، درست عليه منذ حصولى على البكالوريا، وأصارحك بأنك أحسنت تعريف الصحافة، أو الصحافة التى نعمل فيها، بيد أنك تنفس عن أفكارك ـ حتى الآن ـ عن طريق غيرك، أعنى بالترجمة، ألم تفكر فى اختيار الشكل الذى يناسبك من أشكال الكتابة؟

فصمت مفكرًا كأنما أغلق عليه المعنى المقصود ثم تساءل :

ـ ماذا تعنين؟

ـ المقال، الشعر، القصة، المسرحية؟

ـ لا أدرى، المقالة أول ما يتبادر إلى الخاطر . .

قالت بلهجة ذات معنى :

ـ نعم، ولكنها لظروفنا السياسية، لم تعد مطلبا يسيرا، لذلك يضطر الأحرار إلى إذاعة آرائهم بالمنشورات السرية، المقالة صريحة ومباشرة ولذلك فهى خطيرة، خاصة وأن الأعين محملقة فينا، أما القصة فذات حيل لا حصر لها، إنها فن ماكر، وقد غدت شكلاً أدبيًا شائعًا سوف ينتزع الإمامة فى عالم الأدب فى وقت قصير، ألا ترى أنه ما من كبير من شيوخ الأدب إلا وهو يثبت وجوده فى مجال نشاطها ولو بمؤلف واحد؟

ـ نعم، قرأت أكثر هذه المؤلفات، ألم تقرئى للأستاذ رياض قلدس الكاتب بمجلة الفكر؟

ـ هذا واحد من كثيرين، وليس خيرهم!

ربما، لقد لفتنى إليه خالى الأستاذ كمال أحمد عبد الجواد الكاتب بنفس المجلة .

فقالت باسمة :

ـ هو خالك؟ قرأت له مرات، ولكن . .

ـ ؟ . . .

ـ معذرة إنه من الكتاب الذين يهيمون فى تيه الميتافيزيقا!

فتساءل فيما يشبه القلق :

ـ ألم يعجبك؟

ـ الإعجاب شيء آخر، إنه يكتب كثيراً عن الحقائق القديمة : الروح . . المطلق . . نظرية المعرفة، هذا جميل، ولكنه ـ فيما عدا المتعة الذهنية والترف الفكرى ـ لا يفضى إلى غاية، ينبغى أن تكون الكتابة وسيلة محددة الهدف، وأن يكون هدفها الأخير تطوير هذا العالم والصعود بالإنسان فى سلم الرقى والتحرر، الإنسانية فى معركة متواصلة والكاتب الخليق بهذا الاسم حقًا يجب أن يكون على رأس المجاهدين، أما وثبة الحياة فلندعها لبرجسون وحده . .

ـ ولكن كارل ماركس نفسه بدأ فيلسوفًا ناشئا يهيم فى تيه الميتافيزيقا .

ـ وانتهى بعلم الاجتماع العلمى، فمن هنا نبدأ لا من حيث بدأ .

لم يرتح أحمد إلى نقد خاله على هذا النحو، فقال بغية الدفاع عنه قبل كل شيء:

ـ الحقيقة جديرة دائمًا بأن تعرف، مهما تكن، ومهما يكن الرأى فى آثارها..

فقالت سوسن فى حماس:

ـ هذا مناقض لما تكتب، فأراهن على أنك متأثر بالوفاء لخالك!

عندما يكون الإنسان متألمًا يركز اهتمامه فى إزالة أسباب الألم، مجتمعنا متألم جدًا فيجب ان نزيل الألم قبل كل شيء، ولنا بعد ذلك أن نلهو ونتفلسف! ولكن تصور إنسانًا يتفلسف لاهيا وبه جرح ينزف لا يعيره أدنى التفات، ماذا تقول عن مثل هذا الإنسان؟!

أهذا خاله حقًا؟ لكن فليقر بأن كلامها يلقى تجاوبًا كاملا فى نفسه، وبأن عينيها جميلتان، وبأنها رغم غرابتها و«جديتها» جذابة.. جذابة..

ـ الواقع أن خالى لا يعير هذه الأمور التفاتا جديًا، لقد حدثته كثيرًا عنها فوجدته إنسانًا يدرس النازية كما يدرس الديموقراطية أو الشيوعية، ولكنه لا هو بارد ولا هو حار، ولم أستطع أن أتبين موقفه..

قالت باسمة:

ـ لا موقف له، إن موقف الكاتب لا يمكن أن يخفى، إنه مثل من المثقفين البورجوازيين يقرأ ويستمتع ويتساءل، وقد تجده فى حيرة أمام «المطلق»، وربما بلغت به الحيرة حد الألم، ولكنه يمر سادرًا بالمتألمين الحقيقيين فى طريقه..

فقال ضاحكًا:

ـ ليس خالى كذلك..

ـ أنت أدرى، كذلك قصص رياض قلدس ليست بالقصص المنشودة، إنها واقعية وصفية تحليلية، ولا تتقدم عن ذلك خطوة، لا توجيه بها ولا تبشير!

ففكر أحمد قليلاً ثم قال:

ـ ولكنه كثيرًا ما يصف حال الكادحين من العمال والفلاحين، ومعنى هذا أنه يهب مسرح البطولة فى أقاصيصه للطبقة الكادحة!

ـ ولكنه يقتصر على الوصف والتحليل، إنه لعمل سلبى بالنسبة للمعركة الحقيقية!..

يا لها من فتاة تروم العراك! شديدة الجد فيما يبدو، ولكن أين المرأة؟!

ـ وكيف تريدينه أن يكتب؟

ـ أقرأت شيئا عن الأدب السوفيتى الحديث، بل أقرأت مكسيم جوركى؟

فصمت باسما، لا داعى للخجل، كان طالب اجتماع لا طالب أدب، ثم أنها تكبره بسنوات، ترى ما عمرها؟ ربما كانت فى الرابعة والعشرين أو أكثر! وعادت تقول:

ـ هذا ما ينبغى أن تقرأ من ألوان الأدب، سأعيرك بعضه إذا شئت . .

ـ بكل سرور . .

فابتسمت قائلة:

ـ ولكن الإنسان «الحر» لا يكفى أن يكون قارئا أو كاتبًا! إن المبادئ تتعلق بالإرادة قبل كل شىء، الإرادة أولاً وقبل كل شىء.

مع ذلك رآها أنيقة، أجل ليس فى وجهها زواق، ولكن عنايتها بمظهرها وأناقتها ليست دون غيرها من بنات جنسها، هذا الصدر الحى مؤثر كغيره من الصدور الفاتنة، ولكن مهلاً هل يختلف هو عن غيره من الرجال بما يعتنق من مبدأ؟ طبقتنا غريبة تأبى أن تنظر إلى المرأة إلا من زاوية خاصة! . .

ـ إنى مسرور بمعرفتك، وأرى أنه أمامنا أكثر من مجال للعمل معًا كيد واحدة . .

فقالت باسمة ـ وكانت عند الابتسام تبدو أنثى قبل كل شىء:

ـ هذا إطراء! . .

ـ إنى مسرور بمعرفتك حقًا . .

أجل إنه كذلك، ولكن ينبغى ألا يسىء فهم ما ينفعل به صدره فلعله الاستجابة الطبيعية لمراهق مثله، واصطنع الحذر حتى لا ترمى بنفسك إلى مثل موقفك بالمعادى، فإن الحزن لم يمح بعد من صفحة قلبى . .

٣٥

ـ مساء الخير يا عمتى.

وتبع جليلة إلى مجلسها المختار فى الصالة، وما استقر بهما المجلس فوق الكنبة حتى نادت المرأة خادمتها فجاءت حاملة الشراب وجعلت ترقيها وهى تعد الخوان حتى فرغت من مهمتها وذهبت، وعند ذاك التفتت جليلة إلى كمال قائلة:

ـ يا ابن أخى، أقسم لك أننى لم أعد أشرب إلا معك، كل ليلة جمعة، كما كان يحلو لى أن أشارب أباك فى الزمن القديم، ولكن فى ذلك الزمن أشارب الكثيرين أيضًا . .

وقال كمال فى نفسه: «ما أحوجنى إلى الشراب، لا أدرى ماذا كانت تكون الحياة بدونه!» ثم قال يحاورها:

- ولكن الويسكى اختفى يا عمتى، وكذلك كافة المشروبات النظيفة، ويقال إن الغارة الألمانية الأخيرة على اسكتلندا أصابت مخزن خمور عالمى حتى سالت الوديان بالويسكى الأصيل..

- يا روحى على غارة من هذا النوع! ولكن خبرنى قبل أن تسكر كيف حال السيد أحمد؟

- لا تقدم ولا تأخر، يعز على يا ست جليلة مرقده، ربنا يلطف به..

- يا ما نفسى أزوره، ألا تجد الشجاعة فتبلغه عنى السلام؟

- يا خبر!. لم يبق إلا هذا حتى تقوم الساعة!

فضحكت العجوز ثم قالت:

- أتحسب أن رجلاً مثل السيد أحمد يمكن أن يتصور البراءة فى إنسان خاصة إذا كان من صلبه؟

- ولو يا زين الستات!.. صحتك..

- صحتك..، ربما تأخرت عطية إذ أن ابنها مريض..

فقال كمال فى شىء من الاهتمام:

- فى آخر مرة لم يكن بها شىء!..

- نعم ولكن ابنها مرض يوم السبت الماضى، روحها المسكينة فى ابنها، وإذا مسه سوء طارت أبراج عقلها..

- يا لها من امرأة طيبة عاثرة الحظ، طالما أقنعتنى أحوالها بأنها لا تمارس هذه الحياة إلا مضطرة..

فقالت جليلة باسمة أو ساخرة:

- إذا كان مثلك يضيق بمهنته الشريفة فكيف ترضى هى بمهنتها؟

ومرت الخادم بمجمرة تنفث بخورا لطيفا، وكان جو الخريف يهفو رطيبًا من نافذة فى نهاية الصالة، وكانت الخمر شديدة المرارة ولكنها قوية الأثر، غير أن كلام جليلة عن المهنة ذكره بأمور كاد ينساها فقال:

- كدت أنقل من مصر يا عمتى، ولو وقع المحظور لكنت الآن أعد الحقائب للسفر إلى أسيوط!..

فضربت جليلة صدرها بكفها وقالت:

ـ أسيوط يا بلح!، أسيوط فى عين عدوك، وماذا حصل؟

ـ سليمة والحمد لله!

ـ معارف والدك يملأون الدواوين كالنمل . .

فهز رأسه كالموافق دون تعليق. إنها ما زالت ترى أباه فى هالة المجد القديم، لا تدرى أنه ـ حين أخبره عما تقرر عن نقله ـ قال محزونا آسفًا «لم يعد يعرفنا أحد، أين أصدقاؤنا أين؟»، وقبل ذلك مضى إلى صديقه القديم فؤاد جميل الحمزاوى لعله يعرف أحدًا من كبار رجال المعارف ولكن القاضى الخطير قال له» إنى آسف جدًا يا كمال فأنا بصفتى قاضيًا لا أستطيع أن أرجو أحدًا». وأخيرًا لجأ إلى رضوان ابن أخيه وهو يتعثر بخجله، وفى نفس اليوم عدل عن نقله! «يا له من شاب خطير! كلالهما موظف فى وزارة واحدة وفى درجة واحدة رغم أنه فى الخامسة والثلاثين والشاب فى الثانية والعشرين، ولكن كيف ينتظر من خوجة ابتدائى أفضل من هذا؟ ولم يعد من الممكن أن يتعزى بالفلسفة أو يدعيها، فليس الفيلسوف من ردد قول الفلاسفة، كالببغاء، واليوم كل متخرج فى كلية الآداب يستطيع أن يكتب كما يكتب هو أو أحسن، وقد كان هناك ثمة أمل فى أن يجمع ناشر مقالاته فى كتاب، ولكن لم يعد لمثل هذه المقالات التعليمية من قيمة تذكر، وما أكثر الكتب هذه الأيام، وهو فى هذا الخضم لا شىء، وقد مل حتى طفح بالملل. فمتى يدرك قطاره محطة الموت؟ ونظر إلى الكأس فى يد عمته، ثم إلى وجهها الناطق بعمرها المديد فلم يسعه إلا الإعجاب بها، ثم تساءل:

ـ ماذا تجدين فى الشراب يا عمتى؟ . .

فافتر فوها عن أسنان ذهبية وهى تقول:

ـ وهل تحسبنى أشرب الآن؟، مضى ذلك الزمان، لا طعم لها اليوم ولا أثر، كالقهوة لا أكثر ولا أقل، فى الزمان الأول سكرت مرة فى فرح ببيرجوان حتى اضطر التخت أن يحملنى إلى عربتى آخر الليل، ربنا يكفيك شرها! . .

«ولكنها خير من لا خير له» . .

ـ وذروة النشوة هل عرفتها؟ كنت أبلغها بكأسين، اليوم يلزمنى ثمانية كئوس كى أبلغها، ولا أدرى كم غدا، ولكنها ضرورية يا عمتى، فعندها يرقص القلب المكلوم طربًا . .

ـ قلبك طروب يا بن أخى دون الحاجة إلى الخمر . .

قلبه طروب! وهذا الحزن الصديق؟ والرماد المتخلف من محترق الآمال؟، لم يبق للملول إلا الامتلاء بالخمر، فى هذه الصالة أو فى تلك الحجرة إذا جاءت التى تداوى ابنها، هو وهى فى موضع واحد من الحياة، حياة من لا حياة لهم.

ـ أخشى ألا تجىء عطية! . .

ـ ستجئ حتمًا، أليس المرض فى حاجة إلى النقود؟

يا له من جواب! بيد أنها لم تمكنه من التفكير إذ مالت نحوه فى اهتمام، ونظرت إليه مليا، ثم قالت بصوت منخفض:

ـ لم يبق إلا أيام! . .

فقال دون أن يدرك حقيقة مرادها:

ـ ربنا يطول عمرك ولا يحرمنى منك!

فقالت باسمة:

ـ سأهجر هذه الحياة!

فانتصب نصفه الأعلى فى دهشة وهتف:

ـ ماذا قلت؟!

فضحكت ثم قالت بلهجة لم تخل من سخرية:

ـ لا تخف، ستذهب بك عطية على بيت آمن كهذا البيت . .

ـ . . . !؟

ـ ولكن ماذا حدث؟

ـ كبرت يا ابن أخى، وأغنانى الله فوق حاجتى، وبالأمس ضبط بيت قريب وسيقت صاحبته إلى القسم، حسبى، إنى أفكر فى التوبة، ينبغى أن أقابل ربى على غير ما أنا عليه!

أتى على بقية كأسه، وملأه كأنما لم يصدق ما سمعه:

ـ لم يبق إلا أن تستقلى السفينة إلى مكة!!

ـ ربنا يقدرنى على فعل الخير . .

وتساءل ولما يفق من دهشته:

ـ أجاء هذا كله فجأة؟!

ـ كلا، إنى لا أبوح بسر إلا عند العمل، طالما فكرت فى هذا من زمن . . .

ـ جد؟!

ـ كل الجد، ربنا معنا!

ـ لا أدرى ماذا أقول، ولكن ربنا يقدرك على فعل الخير.

ـ آمين . .

ثم ضاحكة:

ـ ولكن اطمئن فلن أغلق هذا البيت حتى أطمئن على مستقبلك! . .

فضحك ضحكة عالية وقال:

ـ هيهات أن أجد بيتا أرتاح فيه كهذا البيت!

ـ لك عـلى أن أوصى بك البدرونة الجديدة ولو كنت فى مكة!

كل شيء يبدو مضحكًا ولكن الخمر ستظل قبلة المحزون، وتتغير الأوضاع فيعلو فؤاد جميل الحمزاوى ويسفل كمال أحمد عبد الجواد، ولكن الخمر ستظل بشاشة المكروب، ويومًا يحمل كمال رضوان على كتفه ليدلله ثم يجيء يوم فيحمل رضوان كمال ليقيله من عثرته ولكن الخمر ستظل نجدة الملهوف، وحتى الست جليلة تفكر فى التوبة فى الوقت الذى يبحث هو عن ماخور جديد ولكن الخمر ستظل المأوى الأخير، ويمل السقيم كل شيء حتى يمل الملل ولكن الخمر ستظل مفتاح الفرج.

ـ يسعدنى أن أسمع عنك دائمًا ما يسر.

ـ الله يهديك ويسعدك . .

ـ إذا كان وجودى يضايقك؟ . .

وسدت فاه بأصبعها، وقالت:

ـ سامحك الله، هذا بيتك ما دام بيتى، وكل بيت أحل فيه فهو بيتك يا ابن أخى . .

أثمة لعنة قديمة مجهولة قضى عليه بأن يكفر عنها؟! كيف المخرج من هذه الحيرة التى تغشى حياته؟ حتى جليلة تفكر جادة فى تغيير حياتها فلم لا يتخذ منها أسوة؟ لا بد للغريق من صخرة يلوذ بها أو فليغرق، وإذا لم يكن للحياة معنى فلم لا نخلق لها معنى؟! . .

ـ ربما كان من الخطأ أن نبحث فى هذه الدنيا عن معنى بينا أن مهمتنا الأولى أن نخلق هذا المعنى . .

وحدجته جليلة بنظرة غريبة فانتبه بعد فوات الوقت إلى ما بدر منه دون شعور. وضحكت جليلة متسائلة:

ـ سكرت بهذه السرعة؟.

فدارى ارتباكه بضحكة عالية، وقال:

ـ خمر الحرب كالسم، لا تؤاخذينى، ترى متى تأتى عطية؟!

٣٦

غادر كمال بيت جليلة عند منتصف الساعة الثانية صباحًا، كان كل شيء غارقًا في الظلام، وكان الظلام غارقًا في الصمت، وسار على مهل نحو السكة الجديدة ثم مال إلى الحسين. حتى متى يعيش في هذا الحي المقدس الذي لم يمت إليه بصلة؟ وابتسم ابتسامة فاترة، لم يكن بقي من الخمر إلا خمارها، أما الجسد فقد خمدت لواعجه، فنقل خطاه في إعياء وكسل. عادة في مثل هذه اللحظة الخامدة يصرخ شيء في أعماقه - لا هو التوبة ولا الندم - ناشدا التطهر، ملتمسا الخلاص من قبضة الشهوات إلى الأبد، كأن موجة شهواته تنحصر عن صخور تقشف كاملة. ورفع رأسه إلى السماء، كأنما ليستأنس بالنجوم فانطلقت في السكون صفارة الإنذار! ودق قلبه دقة عنيفة ثم حملقت عيناه النائمتان، ثم بدافع غريزي مال إلى أقرب جدار وسار بحذائه، ونظر إلى السماء مرة أخرى فرأى أضواء الكشافات الكهربائية تمسح صفحاتها في سرعة شديدة، تلتقي أحيانًا ثم تتفرق في جنون. وحث خطاه دون أن يفارق الجدران وقد شعر شعورًا موحشًا بوحدته كأن وجه الأرض قد خلا إلا منه! وإذا بصفير مبحوح يتهاوى لم يطرق أذنه من قبل، يعقبه انفجار شديد ارتجت له الأرض تحت قدميه، قريب أم بعيد؟ ولم يتسع له الوقت لمراجعة معلوماته عن الغارات، إذ تتابعت الانفجارات بسرعة تكتم الأنفاس، وانطلقت المدافع المضادة جماعات جماعات، والتمع الجو بأضواء كالبرق لم يعرف مصدرها ولا كنهها فخيل إليه أن الأرض تتطاير. وانطلق يعدو بسرعة لا يلوى على شيء صوب درب قرمز ملتمسًا في قبوها التاريخي مخبأ. وكانت المدافع تنطلق في غضب جنوني، والقنابل تدك مراميها دكا، والأرض تميد. وفي ثوان من الفزع بلغ القبو، وكان يكتظ بخلق كثيرين تكاثفت بهم ظلمته، فاندس بينهم وهو يلهث. وكان جوه يسوده الرعب ويمتلئ بهمهمات الفزع في ظلام دامس، أما مدخل القبو ومخرجه فيضيئان من آن لآخر بانعكاسات الإشعاعات المنطلقة في الفضاء، وقد توقف سقوط القنابل أو هذا ما خيل إليهم، أما المدافع فلم يخف جنونها ولم يكن رجعها في النفوس دون رجع القنابل، واختلطت أصوات صراخ وبكاء وزجر وانتهار صادرة عن نسوة وأطفال ورجال.

- هذه غارة جديدة وليست كالسابقات. .

- وهذا الحي القديم هل يتحمل الغارات الجديدة؟!

ـ اعفونا من هذه الثرثرة وقولوا يارب!

ـ كلنا يقول يا رب!..

ـ اسكتوا.. اسكتوا يرحمكم الله!

وكان كمال يلاحظ الضوء الذى ينير مخرج القبو حين رأى جماعة جديدة قادمة فخيل إليه أنه لمح هيئة أبيه بينها، وخفق قلبه، أيكون حقًا أباه؟ وكيف استطاع أن يقطع الطريق إلى القبو؟ بل كيف استطاع أن يغادر فراشه؟ وشق طريقًا إلى نهاية القبو مخترقًا الكتل البشرية المضطربة، فتبين على التماع الضوء أسرته جميعًا، أباه وأمه وعائشة وأم حنفى! واتجه نحوهم حتى وقف بينهم وهو يهمس:

ـ أنا كمال!. كلكم بخير؟

لم يجب أبوه، وكان ملقيًا بظهره فى إعياء إلى جدار القبو بين الأم وعائشة، أما الأم فقالت:

ـ كمال؟ الحمد لله، شىء فظيع يا بنى، ليست ككل مرة، خيل إلينا أن البيت سينقض فوق رءوسنا، وربنا شد حيل أبيك فنهض وجاء بيننا، لا أدرى كيف جاء ولا كيف جئنا..

وغمغمت أم حنفى:

ـ عنده الرحمة، ما هذا الهول؟! ربنا يلطف بنا..

وفجأة هتفت عائشة:

ـ متى تسكت هذه المدافع؟!

وخيل إلى كمال أن صوتها ينذر بانهيار عصبى فاقترب منها وأمسك بكفها بين يديه وكأنه قد استرد بعض وعيه المفقود عندما وجد نفسه حيال من هم فى حاجة إلى تشجيعه. وكانت المدافع ما تزال تنطلق فى غضبها الجنونى، غير أن وطأتها أخذت تخف بدرجة غير محسوسة، ومال كمال نحو أبيه وسأله:

ـ كيف حالك يا أبى؟

فجاءه صوته وهو يهمس فى خور:

ـ أين كنت يا كمال؟ أين كنت حين وقعت الغارة؟..

فقال يطمئنه:

ـ كنت على مقربة من القبو، كيف حالك؟

فأجاب بصوت متقطع:

ـ الله أعلم. . كيف غادرت فراشي وهرولت في الطريق؟ الله أعلم. . لم أشعر بشيء. . متى تعود الحال إلى الهدوء؟

أأخلع لك جاكتتي لتجلس عليها؟

ـ كلا، أنا قادر على الوقوف، ولكن متى تعود الحال إلى الهدوء؟. .

ـ الغارة انتهت فيما يبدو، أما قيامك المفاجئ فلا تخفه. إن المفاجآت كثيرا ما تصنع المعجزات مع المرض!. .

وما كاد ينتهى من قوله حتى زلزلت الأرض بثلاثة انفجارات متتابعة فثار جنون المدافع المضادة مرة أخرى وضج القبو بالصراخ:

ـ إنها فوق رءوسنا!

ـ وحد الله. .

ـ أسكتوا هذا الشؤم!. .

وترك كمال يد عائشة ليأخذ يدى أبيه بين يديه، وكان يفعل ذلك لأول مرة فى حياته، وكانت يدا الرجل ترتجفان، وكانت يدا كمال ترتجفان كذلك، أما أم حنفى فقد أنبطحت على الأرض وهى تولول. وعاد الصوت العصبى يصيح فى هياج:

أياكم والصراخ، سأقتل الصارخ!. .

وعلا الصراخ، وتلاحقت طلقات المدافع، واشتد توتر الأعصاب، فى توقع زلازل جديدة، ولكن المدافع استمرت تنطلق وحدها، وظل توقع انفجارات جديدة يخنق الأرواح.

ـ انتهت القنابل!

ـ إنها تغيب ثم تنفجر. .

ـ إنها بعيدة، لو كانت قريبة ما سلمت البيوت من حولنا!

ـ بل سقطت فى النحاسين!

ـ هكذا يخيل إليك ولعلها فى الأورنس!

أنصتوا يا هوه، ألم تخف المدافع؟

بلى خفت طلقاتها، ثم لم تعد تسمع إلا من بعيد، ثم متطقعة ثم متباعدة، ثم بين الطلقة والأخرى دقيقة كاملة، ثم أناخ الصمت، وامتد، وطال وعمق، ثم انعقدت الألسن، حتى مضت تتعالى همسات الأمل الباكى، وأخذ كثيرون يتذكرون أشياء وأشياء، ويحيون من جديد، ويتنهدون فى ارتياح حذر مشوب بالإشفاق، وعبثًا حاول كمال أن يرى وجه أبيه بعد أن عادت التماعات الضوء الخاطف وخيم الظلام. .

ـ أبى، ستعود الحال إلى الهدوء . .

فلم يجب الرجل ولكنه حرك يديه بين يدى ابنه كأنما ليقنعه بأنه ما زال حيا . .

ـ هل أنت بخير؟ . .

فحرك يديه مرة أخرى . وشعر كمال بحزن أوشك أن يهيج دموعه .

وانطلقت صفارة الأمان . .

وأعقبها صياح تهليل من جميع الأركان كصياح الأطفال عقب مدافع الأعياد، وضج المكان وما حوله بحركة ما لها من آخر . صفقات أبواب ونوافذ، هدير كلام عصبى، ثم تتابع أنصراف المنحشرين فى القبو، وقال كمال وهو يتنهد :

ـ فلنعد . .

وضع الأب ذراعًا على كتف كمال والأخرى على كتف الأم وسار بينهما خطوة خطوة . وبدءوا يتساءلون عن الرجل، كيف هو، وماذا أصابه أثر مغامرته الخطيرة . غير أن الأب توقف عن المشى وهو يقول بصوت ضعيف :

ـ أشعر بأننى يجب أن أجلس . .

فقال له كمال :

ـ دعنى أحملك . .

فقال فى إعياء :

ـ لن تستطيع . .

ولكن كمال أحاطه بذراع من وراء ظهره ووضع الأخرى تحت ساقيه، ورفعه . لم يكن حملاً خفيفًا ولكن ما بقى من أبيه كان على أى حال هينا . وسار فى بطء شديد، والآخرون يتبعونه مشفقين . وانتحبت عائشة فجأة فقال الأب بصوت متعب :

ـ لا داعى للفضيحة!

فكتمت فاها بيدها، ولما بلغوا البيت عاونت أم حنفى فى حمل السيد، فصعدا به السلم على مهل وحذر، وكان مستسلمًا ولكن همهمته الاستغفارية المتوصلة نمت عن حزنه وضيقه، حتى طرحاه بعناية على فراشه، ولما أضىء نور الحجرة بدا وجه الأب شديد الشحوب كأن الجهد قد استصفى دمه، وكان صدره يعلو وينخفض بعنف، فأغمض عينيه إعياء، ثم راح يتأوه، ولكنه غالب ألمه حتى استطاع أخيرًا أن يلوذ بالصمت . وكان الجميع يقفون صفا بإزاء فراشه ويتطلعون إليه فى وجل وإشفاق، وأخيرًا تساءلت أمينة بصوت متهدج :

ـ سيدى بخير؟

ففتح عينيه، وجعل ينظر فى الوجوه مليًا، وبدا لحظات كأنه لا يعرفها، ثم تنهد وقال بصوت لا يكاد يسمع:

ـ الحمد لله . .

ـ نم يا سيدى . . نم كى تستريح . .

وترامى إليهم رنين الجرس الخارجى فمضت أم حنفى لتفتح الباب، وتبادلوا نظرات متسائلة فقال كمال:

ـ لعل أحدًا من السكرية أو قصر الشوق قد جاء ليطمئن علينا .

وصدق حدسه فما لبث أن دخل الحجرة عبد المنعم وأحمد ثم تبعهما ياسين ورضوان فأقبلوا على فراش الأب وهم يحيون الموجودين فوجه إليهم الرجل نظرات فاترة، وكأن الكلام لم يسعفه فاكتفى برفع يده النحيلة تحية، وقص عليهم كمال فى اقتضاب ما عاناه والده فى ليلته المزعجة، ثم قالت أمينة همسًا:

ـ ليلة فظيعة ربنا لا يعيدها . .

وقالت أم حنفى:

ـ الحركة أتعبته قليلاً ولكنه سيسترد بالراحة عافيته . .

ومال ياسين فوق أبيه وهو يقول:

ـ ينبغى أن تنام، كيف حالك الآن؟

فرنا الرجل إليه ببصر خاب وغمغم:

ـ الحمد لله . . أشعر بتعب فى جنبى الأيسر . .

فسأله ياسين:

ـ أأحضر لك الطبيب؟

فأشار بيده فى ضجر ثم همس:

ـ كلا خير لى أن أنام . .

فأشار ياسين إلى الموجودين بالخروج، وتراجع إلى الوراء قليلاً فرفع الرجل يده النحيلة مرة أخرى. وغادروا الحجرة واحدًا فى إثر واحد فلم يبق فيها مع الرجل إلا أمينة، ولما جمعتهم الصالة سأل عبد المنعم خاله كمال:

ـ ماذا فعلتم؟ أما نحن فقد هرعنا إلى المنظرة فى الحوش.

وقال ياسين:

ـ ونحن نزلنا إلى شقة الدور الأرضى عند جيراننا . .

فقال كمال فى قلق:

ـ ولكن التعب قد أنهك قوى بابا . .

فقال ياسين :

ـ ولكنه سيسترد صحته بالنوم . .

ـ وما عسى أن نفعل به إذا وقعت غارة أخرى؟! . .

ولم يحر أحد جوابًا فساد صمت ثقيل حتى قال أحمد :

ـ بيوتنا قديمة ولن تتحمل الغارات . .

وعند ذاك أراد كمال أن يبدد سحب الكآبة المخيمة التى أرهقت أعصابه فقال منتزعًا من شفتيه ابتسامة :

ـ إذا هدمت بيوتنا فحسبها شرفًا أن هدمها سيكون بأحدث أساليب العلم الحديث . .

٣٧

أوصل كمال زوار آخر الليل حتى الباب الخارجى ، ولم يكد يعود إلى باب السلم حتى ترامت إليه من فوق ضجة مريبة ، وكانت أعصابه ما تزال متوترة فداخلته كآبة ورقى السلم وثبا . وجد الصالة خالية ، وحجرة الأب مغلقة ، وخليطًا من الأصوات يعلو خلف بابها المغلق ، فهرع إلى الحجرة ودفع الباب ثم دخل ، وكان يتوقع شرا أبى أن يفكر فى كنهه . كان صوت الأم المبحوح يهتف «سيدى» ، وكانت عائشة تنادى بصوت غليظ «بابا» على حين تسمرت أم حنفى عند رأس الفراش فدهمه شعور بالفزع واليأس والاستسلام الحزين ؛ رأى نصف أبيه الأسفل مطروحا على الفراش ، ونصفه الأعلى ملقى على صدر الأم التى تربعت وراء ظهره ، وصدره يعلو وينخفض فى حركة آلية تند عنها حشرجة غريبة ليست من أصوات هذا العالم ، وعينيه مفتوحتين عن نظرة مظلمة جديدة لا ترى ولا تعى ولا تملك أن تخبر عما يعتلج وراءها ، فتسمرت قدماه وراء شباك السرير ، وانعقد لسانه ، وتحجرت عيناه ، لم يجد شيئا يقوله أو شيئا يفعله ، وعانى شعوراً قاهراً بالعجز المطلق ، واليأس المطلق والتفاهة المطلقة وكأنه فقد الوعى لولا إدراكه أن أباه يودع الحياة . ورددت عائشة بصرا زائغًا بين وجه أبيها ووجه كمال ثم هتفت :

ـ أبى ، هذا كمال يريد أن يحدثك!

وخرجت أم حنفى عن غمغمتها المتصلة قائلة فى نبرات ممزقة :

ـ أحضروا الطبيب! . .

فأنَّت الأم فى حزن غاضب :

ـ أى طبيب يا حمقاء؟!

ثم ندت عن الأب حركة كأنما يحاول الجلوس، وإزداد صدره تشنجا واضطرابًا، ومد سبابة يمناه ثم سبابة يسراه، فلما رأت الأم ذلك تقلص وجهها من الألم ثم مالت على أذنه وتشهدت بصوت مسموع وكررت ذلك حتى سكنت يداه. وأدرك كمال أن أباه لم يعد يستطيع النطق وأنه دعا الأم لتتشهد نيابة عنه، وأن كنه هذه الساعة الأخيرة سيبقى سرا إلى الأبد، وإن وصفه بالألم أو الفزع أو الغيبوبة رجم بالغيب، ولكنه على كل حال لا ينبغى أن تطول، إنها أجل وأخطر من أن تبتذل، أما أعصابه فقد انهارت حيالها، وخجل من نفسه إذا نزعت لحظات إلى تحليل الموقف ودراسته، كأن احتضار أبيه يجوز أن يكون زادًا لتأمله ومادة لمعرفته، وضاعف ذلك من حزنه ومن ألمه، وقد اشتدت حركة الصدر وعلت حشرجته، ثم ما هذا؟ أيهم بالقيام؟ أم يحاول الكلام؟ أم يخاطب شيئًا مجهولاً؟ أيتألم؟ أم يفزع؟ . . آه . . .

وشهق الأب شهقة عميقة ثم ارتمى رأسه على صدره.

صرخت عائشة من الأعماق: «يا أبى . . يا نعيمة . . يا عثمان . . يا محمد» فهرعت إليها أم حنفى ودفعتها أمامها برقة إلى الخارج، ورفعت الأم وجهها الشاحب إلى كمال وأشارت إلى الخارج، ولكنه لم يتحرك، فهمست فى يأس :

ـ دعنى أقم بواجبى الأخير نحو أبيك . .

فتحول عن موقفه ومضى خارجًا، وكانت عائشة مرتمية على الكنبة وهى تعول، فمضى إلى الكنبة المقابلة لها وجلس، أما أم حنفى فذهبت إلى الحجرة لتساعد سيدتها وأغلقت الباب وراءها. ولم يعد بكاء عائشة مما يحتمل فقام واقفا وراح يقطع الصالة ذهابًا وإيابًا دون أن يوجه إليها خطابًا، وكان من حين لآخر يرنو إلى باب الحجرة المغلق ثم يضغط على شفتيه بشدة، وتساءل لم يبدو لنا الموت بهذه الغرابة؟ وكان كلما جمع أفكاره ليتأمل تشتت وغلبه الانفعال. كان الأب ـ حتى بعد انزوائه ـ يملأ هذه الحياة، فلن يكون غريبًا إذا وجد غدًا البيت غير البيت الذى عهده، والحياة غير الحياة التى ألفها، بل عليه منذ اللحظة أن يعد نفسه لدور جديد. واشتد ضيقه بنحيب عائشة وهم مرة بأن يسكتها ولكنه لم يفعل، وعجب من أين لها بهذا الشعور وقد كانت تبدو جامدة غريبة عن كل شىء. وعاد يفكر فى اختفاء أبيه من هذه الحياة فكبر عليه تصور هذا، ثم ذكر حاله الأخير فأكل الحزن شغاف قلبه. وذكر صورته القديمة الماثلة فى خاطره، وهو فى تمام أبهته وقوته، فشعر برثاء عميق للكائنات جميعًا، ولكن متى يسكت نحيب عائشة؟! . . ألا تستطيع أن تبكى ـ مثله ـ بغير دموع؟! . .

وفتح باب الحجرة وخرجت منه أم حنفى، وترامى إليه من خلال الباب قبل أن يغلق نحيب الأم، فأدرك أنها فرغت من أداء واجبها وخلصت للبكاء، وتقدمت أم حنفى من عائشة وقالت لها بصوت غليظ :

ـ كفاية بكاء يا سيدتى . .

ثم تحولت إليه قائلة :

ـ الفجر لاح يا سيدى، نم ولو قليلا فأمامك غد عصيب . .

ثم أفحمت فى البكاء، ثم غادرت المكان وهى تقول فى صوت باك :

ـ سأذهب إلى السكرية وقصر الشوق لإبلاغ الخبر الأسود! . .

* * *

وجاء ياسين مهرولاً تتبعه زنوبة ورضوان، ثم ترامى إليهم من الطريق الصامت صوات خديجة. وبوصول خديجة استعرت النار فى البيت جميعًا فاختلط الصوات بالصراخ والبكاء. وتعذر على الرجال البقاء فى الدور الأول فصعدوا إلى المكتبة فى الدور الأعلى وجلسوا واجمين، وغشيهم الصمت والوجوم حتى قال إبراهيم شوكت :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، قضت عليه الغارة، رحمه الله رحمة واسعة كان رجلا ولا كل الرجال . .

ولم يتمالك ياسين نفسه فبكى، وعند ذاك انفجر كمال باكيًا، فعاد إبراهيم شوكت يقول :

ـ وحدوا الله، لقد ترككم رجالاً . .

وكان رضوان وعبد المنعم وأحمد يتطلعون إلى الرجلين الباكيين فى حزن ووجوم وشيء من الدهش. وسرعان ما جفف الرجلان دمعهما ولاذا بالصمت، فقال إبراهيم شوكت :

ـ الصباح قريب، فلنفكر فيما يجب عمله . .

فقال ياسين فى اقتضاب حزين :

ـ لا جديد فى الأمر فقد جربناه مرات . .

فقال إبراهيم شوكت :

ـ يجب أن تكون الجنازة جديرة بمقامه . .

فقال ياسين بتوكيد :

ـ هذا أقل ما يجب!

وهنا قال رضوان :

ـ الشارع أمام البيت ضيق لا يتسع للسرادق المناسب فلنقم سرادق العزاء فى ميدان بيت القاضى . .

فقال إبراهيم شوكت :

ـ ولكن العادة جرت بأن يقام سرادق العزاء أمام بيت المتوفى ! . .

فقال رضوان :

ـ ليس هذا بالمكان الأول من الأهمية خاصة وأنه سيؤم السرادق وزراء وشيوخ ونواب !

وأدرك المستمعون أنه يشير إلى معارفه هو فقال ياسين دون مبالاة :

ـ نقيمه هناك . .

وكان أحمد يفكر فى الدور المنوط به فقال :

ـ لن نتمكن من نشر النعى فى جرائد الصباح . .

فقال كمال :

ـ جرائد المساء تصدر حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر فلنجعل ميعاد الجنازة فى الساعة الخامسة . .

ـ ليكن ، القرافة قريبة على أى حال . .

وتأمل كمال مجرى الحديث فى شىء من العجب . كان الأب فى الساعة الخامسة اليوم فى فراشه يتابع الراديو أما فى نفس الساعة غداً . . ! إلى جانب فهمى وابنى ياسين الصغيرين ، ترى ماذا تبقى من فهمى؟ لم يخفف العمر من رغبته القديمة فى التطلع إلى جوف القبر ، ترى هل كان الأب حقًا يرغب فى قول شىء كما تهيأ له؟ ماذا كان يريد أن يقول؟ والتفت ياسين إليه متسائلاً :

ـ هل شهدت احتضاره؟

ـ نعم ، عقب انصرافك مباشرة .

ـ تألم؟

ـ لا أدرى ، من يدرى يا أخى؟ ولكنه لم يستغرق أكثر من خمس دقائق . . تنهد ياسين ثم تساءل :

ـ ألم يقل شيئًا؟

ـ كلا ، والغالب أنه فقد النطق . .

ـ ألم يتشهد؟

فقال كمال وهو يغض بصره ليدرى تأثره :

ـ قامت أمى بذلك نيابة عنه . .

ـ ليرحمه الله . .

ـ آمين . .

وساد الصمت مليا حتى خرقه رضوان قائلاً :

ـ يجب أن يكون السرادق كبيراً ليتسع للمعزين . .

فقال ياسين :

ـ طبعًا ، أصدقاؤنا كثيرون . . (ثم وهو ينظر نحو عبد المنعم) . . وهناك شعبة الأخوان المسلمين ! . .

ثم متنهداً :

ـ لو كان أصحابه أحياء لحملوا النعش على أكتافهم ! . .

* * *

ثم كانت الجنازة كما رسموا ، وكان أصدقاء عبد المنعم أكثر عدداً ، أما أصدقاء رضوان فكانوا أعلى مقاماً ، ولفت نفر منهم الأنظار بشخصياتهم المعروفة لقراء الجرائد المجلات ، وكان رضوان بهم مزهوا حتى كاد يغطى زهوه على حزنه . وشيع أهل الحى «جار العمر» حتى الذين لم يصلهم به سبب من أسباب التعارف الشخصى ، فلم تكد الجنازة تخلو إلا من أصدقاء المرحوم نفسه الذين سبقوه إلى الدار الآخرة . وعند باب النصر ظهر الشيخ متولى عبد الصمد فى الطريق ، وكان يترنح من الكبر فرفع رأسه نحو النعش وهو يضيق عينيه ثم سأل :

ـ من هذا؟

فأجابه رجل من أهل الحى :

ـ المرحوم السيد أحمد عبد الجواد ! .

فجعل وجه الرجل يهتز يمنة ويسرة فى ارتعاش ، وملامحه تتساءل فى حيرة ، ثم إذا به يسأل :

ـ من أين؟ . .

فإجابه الرجل وهو يهز رأسه فى شىء من الحزن :

ـ من هذا الحى ، كيف لا تعرفه ! ألا تذكر السيد أحمد عبد الجواد؟ ! . .

ولكن لم يبد عليه أنه تذكر شيئًا ، والقى نظرة أخيرة على النعش ثم سار فى سبيله . .

٣٨

خلا البيت من سيدى فليس هو البيت الذى عاشرته أكثر من خمسين عامًا، والجميع يبكون حولى، وخديجة لا تفارقنى فهى قلبى العامر بالحزن والذكريات وهى قلب كل قلب بل هى ابنتى وأختى وأمى أحيانًا، وأكثر بكائى خلسة حين أخلو إلى نفسى إذ ينبغى أن أشجعهم على النسيان فما يهون على أن يحزنوا أو ـ لا قدر الله ـ أن ينال منهم الحزن أى منال. أما إذا خلوت إلى نفسى فلا أجد عزاء إلا فى البكاء فأبكى حتى تجف دموعى، وأقول لأم حنفى إذا تسللت إلى وحدتى الباكية دعينى وشأنى يرحمك الله. فتقول لى كيف أتركك وأنت على هذه الحال؟ أنا عارفة بحالك. . ولكنك ست مؤمنة بل أنت ست المؤمنات فعندك نتعلم العزاء والتسليم لقضاء الله. . قول جميل يا أم حنفى ولكن أنى للقلب المحزون أن يفقه معناه، ولم يعد لى شأن فى هذه الدنيا ولم يعد لى عمل وكل ساعة من ساعات يومى مرتبطة بذكرى من ذكريات سيدى. . لم أعرف الحياة إلا وهو محورها الذى تدور حوله فكيف أطيقها ولم يعد له فيها ظل؟ وأنا أول من اقترح تغيير معالم الحجرة العزيزة. . ما حيلتى ما داموا لا يدخلونها حتى تتعلق أبصارهم بمكانه الخالى ويجهشون بالبكاء. . وسيدى يستحق الدموع التى تسيل من أجله، ولكنى لا أطيق بكاءهم وأخاف على قلوبهم الغضة فأعزيهم بما تعزينى به أم حنفى وأطالبهم بالتسليم لله وقضائه، ولذلك أخليت الحجرة من أثاثها القديم وانتقلت إلى حجرة عائشة، ولكيلا تهجر الحجرة وتستوحش نقلت إليها أثاث الصالة فانتقل إليها مجلس القهوة حيث نجتمع حول المجمرة نتحدث كثيراً وتقطع أحاديثنا الدموع، ولا يشغلنا شىء كما يشغلنا الإعداد للقرافة وأشرف بنفسى على تجهيز الرحمة فلعله الواجب الأوحد الذى لم أتخل عنه لأم حنفى كما تخليت لها عن كل شىء، تلك المرأة العزيزة الوفية التى دخلت بجدارة فى صميم أسرتنا، فنحن نعد الرحمة معا ونبكى معا ونتذكر الأيام الجميلة معًا فهى دائمًا معى بروحها وذاكرتها، وأمس جر الحديث إلى ذكر ليالى رمضان فبادرت تحدث عن سيرة سيدى فى رمضان منذ ساعة استيقاظه فى الضحى حتى حين عودته إلينا عند السحور، فذكرت بدورى كيف كنت أهرع إلى المشربية لأرى الحنطور الذى يعيده وأستمع إلى ضحكات راكبيه أولئك الذين ذهبوا تباعًا إلى رحمة الله كما ذهبت الأيام الحلوة وكما ذهب الشباب والصحة والعافية فاللهم متع الأبناء بطول العمر وقر أعينهم بأفراح الحياة، وهذا الصباح رأيت قطتنا تشمم الأرض تحت الفراش حيث كانت ترضع فلذات كبدها التى أهديناها إلى الجيران فقطع قلبى منظرها الحائر الحزين وهتفت من

أعماق قلبى الله يصبرك يا عائشة . . عائشة المسكينة التى هاج موت أبيها حزنها فهى تبكى أباها وابنتها وابنيها وزوجها فما أحر الدموع وأنا التى تجرعت مرارة الثكل قديمًا حتى سال قلبى دما واليوم أفجع بوفاة سيدى وتخلو حياتى منه وكان ملء حياتى جميعًا ولا يبقى لى من الواجبات إلا أن أعد له الرحمة أو أتلقاها من السكرية وقصر الشوق فهذا كل ما بقى لى، كلا يا بنى، أختر لنفسك هذه الأيام مجلسًا غير مجلسنا الحزين حتى لا تسرى إليك عدواه . . لماذا أنت واجم؟ الحزن لم يخلق للرجال فالرجل لا يستطيع أن يحمل الأعباء والأحزان معًا . . اصعد إلى حجرتك وتسل بالقراءة والكتابة كما تفعل أو انطلق إلى أصحابك فاسهر، ومن بدء الخليقة فالأعزاء يفارقون ذويهم، فلو كان الاستسلام إلى الحزن هو المتبع لما بقى على ظهر الأرض حى . . لست حزينة كما تتوهم وما ينبغى لمؤمن أن يحزن، وسوف نعيش إذا أراد الله وسوف ننسى ولا سبيل إلى العزيز الذى سبق إلا حين يشاء الله، هكذا أقول له ولا آلو أن أتكلف ما ليس بى من التصبر والتجلد إلا إذا هلت خديجة قلب بيتنا الحى وذرفت الدموع بلا حساب هنالك لا أملك أن أجهش فى البكاء، وقالت لى عائشة إنها رأت أباها فى المنام قابضًا على ساعد نعيمة بيد وعلى ساعد محمد بيد حاملاً عثمان على كتفه وقال لها إنه بخير وإنهم بخير فسألته عن سر النافذة التى نورت لها فى السماء ثم توارت إلى الأبد فتجلت فى عينيه نظرة عتاب ولم ينبس. ثم سألتنى عن معنى الحلم. يا حيرة أمك يا عائشة . . غير أنى قلت لها إن العزيز مات وهو مشغول القلب بها ولذلك زارها فى الحلم وجاءها بأولادها من الجنة لتقر برؤيتهم عينا فلا تنغصى عليهم صفوهم باستسلامك للحزن، ليت عائشة الزمان الأول تعود ولو ساعة، ليت الذين حولى يبرءون من حزنهم حتى لا يشغلنى شاغل عن واجب الحزن العميق، وجمعت ياسين وكمال وقلت لهما : هذه المخلفات العزيزة ماذا نفعل بها؟ فقال ياسين : آخذ الخاتم فإنه على قد أصبعى، ولك الساعة يا كمال أما السبحة فلك أنت يا نينة . . والجبب والقفاطين؟ . . وذكرت من توى الشيخ متولى عبد الصمد الذكرى الباقية من عهد العزيز فقال ياسين : لقد انتهى الرجل فهو فى غيبوبة ولا يعرف له مقر، وقال كمال مقطبًا : لم يعرف أبى ! . . نسى اسمه وتولى عن الجنازة دون أكتراث . فانزعجت وأنا أقول : يا للعجب متى حدث هذا؟ كان سيدى يسأل عنه حتى أيامه الأخيرة وكان دائمًا يحبه ولم يره إلا مرة أو مرتين مذ زار بيتنا ليلة دخلة نعيمة، ولكن رباه أين نعيمة وأين ذلك التاريخ كله؟ ثم اقترح ياسين أن تهدى الملابس إلى سعاة ديوانه وفراشى مدرسة كمال فليس أحق بها من الفقراء أمثالهم الذين سيدعون له بالرحمة فى مقره الأخير، أما المسبحة العزيزة فلن تفارق يدى حتى أفارق الحياة، والقبر كم يبدو حلو المزار على ما يثير من شجن ولم أكن انقطعت عنه منذ انتقل إليه الشهيد الغالى، ومنذ ذلك الوقت وأنا أعتبره حجرة من بيتنا لكنها فى أطراف حينا، ويجمعنا القبر جميعًا كما

كان يجمعنا مجلس القهوة فى الزمن الخالى، وتنوح خديجة حتى ينال منها الإعياء ثم نؤمر بالسكوت تأدبًا لاستماع القرآن، ثم يشغلهم الحديث حينا فأسر بما يصرف أعزائى عن الحزن، ويشتبك رضوان وعبد المنعم وأحمد فى نقاش طويل وتنضم إليهم كريمة أحيانًا فذاك ما يغرى كمال بمشاركتهم الحديث ويلطف من كآبة المقام، ويسأل عبد المنعم عن خاله الشهيد فيقص ياسين القصص فتنبعث الحياة فى الأيام القديمة ويعود غائب الذكريات ويخفق قلبى فلا أدرى كيف أدارى دموعى، وكثيرًا ما أرى كمال واجمًا فأسأله عما به فيقول لى إن صورته لا تفارقنى خاصة منظر الاحتضار فلو كانت نهايته أخف! فقلت له برقة عليك أن تنسى هذا كله. فتساءل كيف يكون النسيان؟ فقلت له بالإيمان فابتسم ابتسامة حزينة وقال: كم كنت أخافه فى مطلع حياتى ولكنه تكشف لى فى عهده الأخير عن إنسان جديد بل صديق حبيب. ألا ما كان أظرفه وأرقه وألطفه، لم يكن فى الرجال مثله. وياسين يبكى كلما أهاجته الذكرى.. كمال حزنه فى صمته الواجم أما ياسين الضخم فيبكى كالأطفال ويقول لى إنه الرجل الوحيد الذى أحببته فى حياتى، أجل كان أباه وكان أمه ولم ينعم بالعطف والحنان والرعاية إلا فى كنفه حتى شدته كانت رحمة ولن أنسى يوم عفا عنى وردنى إلى بيته فصدق فراسة أمى رحمها الله التى ما انفكت تقول لى إن السيد ليس بالرجل الذى يقطع أم أولاده، وكان يجمعنا حبه فاليوم تجمعنا ذكراه، أما بيتنا فلا يخلو من الزوار غير أن قلبى لا يسكن حتى أجد خديجة وياسين وآلهما حولى.. حتى زنوبة فما أصدق حزنها، وقالت لى كريمة الصغيرة الجميلة: يا جدتى تعالى عندنا فهذه أيام مولد الحسين وتحت بيتنا تقام الأذكار وأنت تحبين ذلك، فقبلتها شاكرة وقلت لها: يا بنيتى جدتك لم تعتد البيات خارج بيتها.. إنها لا تدرى شيئًا عن آداب بيت جدها فى تلك الأيام التى خلت. ما أجمل ذكراها والمشربية آخر حدود دنياى حيث أنتظر عودة سيدى آخر الليل وهو من قوته يكاد يهد الأرض عند مغادرته للحنطور ثم يملأ الحجرة بطوله وعرضه والعافية تكاد تثب من وجهه أما اليوم فلا يعود ولن يعود وقبل ذلك ذبل وانزوى ولزم الفراش ورق جسمه وخف وزنه حتى حمل بيد واحدة. يا حزنى الذى لن يذهب! وقالت عائشة فى غضب إن هؤلاء الأحفاد لم يحزنوا على جدهم، إنهم لا يحزنون، فقلت لها بل حزنوا ولكنهم صغار ومن رحمة الله بهم ألا يغرقوا فى الحزن، فقالت: انظرى إلى عبد المنعم لا ينتهى نقاشه، وهو لم يحزن على ابنتى وسرعان ما نسيها كأنها شىء لم يكن. فقالت لها: بل حزن عليها طويلا وبكى كثيرا وحزن الرجال غير حزن النساء وقلب الأم غير القلوب جميعًا، ومنذا الذى لا ينسى يا عائشة ونحن ألا نتسلى بالحديث أو يدركنا الابتسام أحيانا وسوف يأتى يوم لا يكون فيه دموع، ثم أين فهمى أين؟ وقالت لى أم حنفى: لماذا امتنعت عن زيارة الحسين؟ فقلت: نفسى فاترة عن كل شىء أحببته وسأزور سيدى عندما يبرأ الجرح. فقالت لى:

وهل يبرأ الجرح إلا بزيارة سيدك؟ هكذا ترعانى أم حنفى وهى ربة بيتنا ولولاها ما كان لنا بيت، إنك يا ربى رب الجميع أنت القاضى ولا راد لقضائك ولك أصلى، وددت لو أبقيت على سيدى قوته حتى النهاية فما آلمنى شىء كما آلمنى رقاده، هو الذى كانت الدنيا تضيق عن مراحه.. حتى الصلاة عجز عنها وما عاناه قلبه الضعيف وعودته محمولاً على الأيدى كالطفل لذلك تسيل دموعى ويتكاثف حزنى..

٣٩

ـ سأتوكل على الله وأخطب كريمة بنت خالى..

رفع إبراهيم شوكت عينيه إلى ابنه فى شىء من الدهش، أما أحمد فأحنى رأسه وهو يبتسم ابتسامة دلت على أنه لم يفاجأ بالخبر، على حين تركت خديجة الشال الذى تطرزه وحدجته بنظرة غريبة غير مصدقة ثم نظرت إلى زوجها وهى تتساءل:

ـ ماذا قال:

فعاد عبد المنعم يقول:

ـ سأتوكل على الله وأخطب كريمة بنت أخيك..

فبسطت خديجة يديها فى حيرة وقالت:

ـ هل أفلست الدنيا من الذوق؟ أهذا الوقت مناسب لحديث الخطبة حتى مع صرف النظر عن المخطوبة؟!

فقال عبد المنعم باسماً:

ـ كل الأوقات مناسبة للخطبة..

فهزت رأسها فى حيرة وهى تتساءل:

ـ وجدك؟!.. (ثم وهى تردد عينيها بين أحمد وإبراهيم). هل سمعتم عن شىء كهذا من قبل؟

فقال عبد المنعم فى شىء من الحدة:

ـ خطبة لا زواج ولا فرح، وقد انقضى على وفاة جدى أربعة اشهر كاملة.. وقال إبراهيم شوكت وهو يشعل سيجارة:

ـ كريمة ما زالت صغيرة، مظهرها أكبر من سنها فيما أعتقد..

فقال عبد المنعم:

ـ هى فى الخامسة عشرة ولن يكتب الكتاب قبل عام . .

فقالت خديجة فى تهكم ومرارة :

ـ هل أطلعتك زنوبة هانم على شهادة الميلاد؟

فضحك إبراهيم شوكت، وضحك أحمد، أما عبد المنعم فقال جادًا :

ـ لن يتم شىء قبل عام، وبعد عام سيكون قد مضى على وفاة جدى حوالى العام والنصف وتكون كريمة قد بلغت سن الزواج . .

ـ ولماذا توجع دماغنا الآن؟

ـ لأنه لا بأس من إعلان الخطبة فى الوقت الحاضر .

فتساءلت خديجة فى سخرية :

ـ وهل تحمض الخطبة إذا أجلت عامًا؟

ـ أرجوك . . أرجوك أن تكفى عن المزاح . .

فصاحت خديجة :

ـ لو وقع هذا لكان فضيحة .

فقال عبد المنعم فى هدوء ما استطاع :

ـ دعى جدتى لى، ستفهمنى خيراً منك، إنها جدتى وجدة كريمة على السواء .

فقالت بخشونة :

ـ ليست جدة لكريمة . .

فسكت عبد المنعم وقد تجهم وجهه فبادره أبوه قائلاً :

ـ المسألة مسألة ذوق فيحسن أن ننتظر قليلاً . .

فهتفت خديجة حانقة :

ـ يعنى أنه لا اعتراض لك إلا على الوقت!

فتساءل عبد المنعم متغابيًا :

ـ هل ثمة اعتراض آخر؟

فلم تجب خديجة وعادت تتشاغل بتطريز الشال فاستطرد عبد المنعم قائلاً :

ـ كريمة ابنة ياسين أخيك أليس كذلك؟

فتركت خديجة الشال وقالت بمرارة :

ـ هى ابنة أخى حقًا ولكن كان ينبغى أن تذكر أمها أيضًا!

وتبادلوا النظرات فى إشفاق، ثم اندفع عبد المنعم قائلاً فى حدة :

ـ أمها زوجة أخيك كذلك!

فارتفع صوتها وهى تقول:

ـ أعلم هذا، وهو مما يؤسف له!

ـ ذلك الماضى المنسى! من يذكره الآن؟! لم تعد إلا سيدة محترمة مثلك!

فقالت بصوت غليظ:

ـ ليست مثلى ولن تكون مثلى أبدا!

ـ ماذا يعيبها؟! عرفناها منذ صغرنا سيدة محترمة بكل معنى الكلمة، والإنسان إذا تاب واستقام محيت صفحة سوابقه فلا يذكره بها بعد ذلك إلا . . وأمسك، فقالت وهى تهز رأسها فى أسف:

ـ نعم؟ صفنى! سب أمك إكرامًا لهذه المرأة التى عرفت كيف تأكل مخك، طالما تساءلت عما وراء الدعوات المتتابعة إلى ولائم قصر الشوق، وإذا بك تقع كالجردل!

فردد عبد المنعم عينيه غاضبًا بين أبيه وأخيه ثم تساءل:

ـ أهذا الكلام يليق بنا؟ أسمعانى رأيكما! . .

فقال إبراهيم شوكت متثائبًا:

ـ لا داعى لكثرة الكلام، عبد المنعم سيتزوج إن اليوم أو غدًا، وأنت تودين هذا، وكريمة ابنتنا، وهى بنت جميلة ولطيفة، لا داعى للشوشرة . .

وقال أحمد:

ـ أنت يا نينة أول من يود إرضاء خالى ياسين!

فقالت خديجة محتدة:

ـ كلكم ضدى كالعادة، ولا حجة لكم إلا خالى ياسين، ياسين أخى، وكان خطؤه الأول أنه لم يعرف كيف يتزوج، وعنه ورث ابن أخته هذا المزاج الغريب! . .

فتساءل عبد المنعم فى عجب:

ـ أليست امرأة خالى صديقتك؟! من يراكما وأنتما تتناجيان يظنكما شقيقتين! . .

ـ ما حيلتى فى امرأة سياسية مثل اللنبى؟ لكن لو ترك لى الأمر أو لو لم أرع خاطر ياسين ما سمحت لها بدخول بيتى، وماذا كانت النتيجة؟ . . أكلت مخك بالولائم المغرضة، وعليه العوض؟

عند ذاك قال أحمد مخاطبًا أخاه:

ـ اخطبها وقتما تشاء، نينة لسانها كثير الكلام ولكن قلبها طيب . .

فضحكت ضحكة عصبية وقالت:

ـ عفارم يا ولد! تختلفان فى كل شىء.. فى الدين والملة والسياسة، أما على فتتحدان!..

فقال أحمد فى مرح:

ـ خالى ياسين أغلى الناس عندك، وسوف ترحبين بكريمته كأحسن ما يكون الترحيب، الحكاية أنك تودين عروسًا غريبة حتى تتمكنى ـ كحماة ـ من اضطهادها، حسن، على أنا أن أحقق لك هذا الأمل، سوف أجيئك بالعروس الغريبة لتشفى غليلك!

ـ لا عجب إن جئتنى غداً براقصة! علام تضحكون؟! هذا شيخ الإسلام سيصاهر عالمة فماذا أتوقع منك أنت المتهم فى دينه والعياذ بالله؟!

ـ نحن فى حاجة إلى راقصة بالفعل!

وإذا بخديجة تقول وكأنما تذكرت أمرًا خطيرًا:

ـ وعائشة يا ربى ترى ماذا تقول عنا؟!

فقال عبد المنعم محتجًا:

ـ ماذا تقول؟ لقد توفيت زوجتى منذ أربع سنوات كاملة فهل تود أن أبقى أرمل مدى العمر؟

فقال إبراهيم شوكت فى ضجر:

ـ لا تخلقوا من الحبة قبة، المسألة أبسط من هذا كله، كريمة ابنة ياسين، ياسين أخو خديجة وعائشة، حسبنا هذا. أف. كل شىء عندكم نقار حتى الأفراح؟!..

واختلس أحمد من أمه نظرة باسمة، وجعل يراقبها حتى قامت كالغاضبة وغادرت الصالة، وراح يقول لنفسه: هذه الطبقة البورجوازية كلها عقد، تحتاج إلى محلل نفسانى، بارع ليشفيها من كافة عللها، محلل له قوة التاريخ نفسه! لو هادننى الحظ لسبقت أخى إلى الزواج ولكن البورجوازية الأخرى اشترطت مرتبًا لا يقل عن خمسين جنيهًا، هكذا تجرح قلوب لأمور لا شأن لها بالقلوب، ترى ماذا يكون رأى سوسن حماد لو علمت بمغامرتى الفاشلة؟!

٤٠

كان الجو شديد البرودة، ولم يكن خان الخليلى الرطب مما يؤثر شتاء، ولكن رياض قلدس نفسه الذى أشار ذلك المساء بالذهاب إلى قهوة خان الخليلى التى شيدت مكان

قهوة أحمد عبده فوق سطح الأرض، أو كما قال: «علمنى كمال على آخر الزمن أن أكون من غواة الغرائب». كانت قهوة صغيرة، بابها يفتح على حى الحسين، ثم تمتد طولاً فى شبه ممر تصف على جانبيه الموائد وينتهى بشرفة خشبية تطل على خان الخليلى الجديد. جلس الأصدقاء فى جناح الشرفة الأيمن يحتسون الشاى ويدخنون نارجيلة بالمناوبة. وكان إسماعيل لطيف يقول:

ـ أنا فى إجازة للاستعداد ومن ثم أسافر. .

فتساءل كمال فى أسف:

ـ ستغيب عنا ثلاثة أعوام؟

ـ نعم، لابد من المغامرة، مرتب ضخم لا أتخيل أن أناله يومًا هنا، ثم إن العراق بلد عربى لا يختلف عن مصر كثيراً. .

سيخلف وحشة، لم يكن صديق الروح ولكنه صديق العمر، وتساءل رياض قلدس ضاحكًا:

ـ ألا يحتاج العراق إلى مترجمين؟

فسأله كمال:

ـ أتسافر إذا سنحت لك فرصة كفرصة إسماعيل؟

ـ لو حدثت فى الماضى ما ترددت أما اليوم فلا. .

ـ وما الفرق بين الماضى والحاضر؟

فقال رياض قلدس ضاحكا:

ـ بالنسبة لك لا شىء، أما بالنسبة لى فهو كل شىء، الظاهر أننى سأنضم قريبًا إلى جماعة المتزوجين!.

دهش كمال للخبر الذى وقع عليه دون تمهيد وقد ساوره قلق لم يدرك كنهه:

ـ حقًا؟! لم تشر إلى ذلك من قبل!

ـ بلى، جاء بغتة، فى آخر مقابلة بيننا لم يكن فى البال شىء!

ضحك إسماعيل لطيف فى ظفر، أما كمال فتساءل وهو يحاول أن يبتسم:

ـ كيف؟

ـ كيف؟! كما يحدث كل يوم، مدرسة جاءت لزيارة أخيها فى إدارة الترجمة فأعجبتنى، فجسست النبض فوجدت من يقول: «تفضل». .

تساءل إسماعيل ضاحكًا وهو يتناول خرطوم النارجيلة من كمال:

ـ ترى متى يجس هذا ـ (مشيراً إلى كمال) النبض؟

هكذا إسماعيل لا يفوت فرصة أبدا لإثارة هذا الموضوع المعاد، ولكن ثمة أمر أخطر من هذا، فجميع الأصدقاء المتزوجين يقولون إن الزواج «زنزانة»، فمن المحتمل جدا ألا يرى رياض ـ إذا تزوج ـ إلا فى القليل النادر، وربما تغير وتبدل فيصبح صديقا بالمراسلة، وهو وديع رقيق فما أسهل هضمه، ولكن كيف تمضى الحياة بدونه ؟ وإذا جعل الزواج منه شخصا جديدا كإسماعيل فسلام على كافة مسرات الحياة ! وسأله :

ـ متى تتزوج ؟

ـ فى الشتاء القادم على أبعد الفروض .

كأنما قضى عليه أن يفتقد دواما صديقا لروحه المعذبة :

ـ عند ذاك ستكون رياض قلدس أخر !

ـ لم ؟! . . أنت واهم جدا . .

فقال وهو يدارى قلقه بابتسامة :

ـ واهم ؟! رياض اليوم شخص لا يشبع روحه شىء ويقنع جيبه بلا شىء، أما الزوج فلن يشبع جيبه أبدا ولن يجد فرصة لمتاع الروح . .

ـ ياله من تعريف جارح للزوج ! ولكنى لا أوافقك عليه . .

ـ كإسماعيل الذى اضطر إلى الهجرة إلى العراق، لست أسخر من هذا فهو طبيعى فوق أنه بطولة، ولكنه فى الوقت نفسه بشع، تصور أن تغرق حتى قمة رأسك فى هموم الحياة اليومية، ألا تفكر إلا فى مشكلات الرزق، أن يحسب وقتك بالقروش أو الملاليم، أن تمسى شاعرية الحياة ضياع وقت !

فقال رياض فى استهانة :

ـ أوهام مبعثها الخوف !

وقال إسماعيل لطيف :

ـ آه لو تعرف الزواج والأبوة ! لقد فاتك حتى اليوم أن تعرف حقيقة الحياة . .

لا يبعد أن يكون الصواب رأيه، ولو صح هذا فحياته مأساة سخيفة، ولكن ما السعادة وماذا يروم على وجه التحقيق ؟ غير أن الذى يكربه الآن أنه بات مهددا بالوحدة المرعبة مرة أخرى، كما عانى عقب اختفاء حسين شداد من حياته، لو كان من الممكن أن يجد زوجة لها جسم عطية وروح رياض ؟! ,هذا ما يروم حقا، جسم عطية وروح رياض فى شخص واحد يتزوجه فلا يتهدده الشعور بالوحدة حتى الموت، هذه هى المشكلة، وإذا برياض يقول فى ضجر :

ـ دعونا من حديث الزواج، لقد انتهيت منه وعقبى لك، على أن ثمة أحداثا سياسية هامة هى التى ينبغى أن تستأثر اليوم باهتمامنا .

وكان كمال يشاركه مشاعره هذه غير أنه لم يستطع أن يفيق من المفاجأة فتلقى دعوة الآخر بفتور ظاهر ولم ينبس، أما إسماعيل لطيف فقال ضاحكا:

ـ عرف النحاس كيف ينتقم لإقالة ديسمبر سنة ١٩٣٧ فاقتحم عابدين على رأس الدبابات البريطانية!

وتريث رياض قليلا ليعطى كمال فرصة للرد غير أن هذا لم ينشط للكلام، فقال رياض فى لهجة متجهمة:

ـ انتقام؟! إن خيالك يصور لك المسألة على وجه هو أبعد ما يكون عن الحقيقة..

ـ فما الحقيقة؟

وألقى رياض نظرة على كمال كأنما يحثه على الكلام فلما لم يستجب استطرد قائلا:

ـ ليس النحاس بالرجل الذى يتآمر مع الإنجليز فى سبيل العودة إلى الحكم، إن أحمد ماهر مجنون، هو الذى خان الشعب وانضم إلى الملك، ثم أراد أن يغطى مركزه المضعضع بتصريحه الأحمق الذى أعلنه أمام الصحفيين!

ثم نظر إلى كمال مستطلعا رأيه، وكان حديث السياسة قد جذب أخيرا بعض اهتمامه غير أنه شعر برغبة فى معارضة رياض ولو بعض الشىء فقال:

ـ لا شك أن النحاس قد أنقذ الموقف، ولست أشك فى وطنيته مطلقا، إن الإنسان لا ينقلب فى هذه السن إلى خائن ليتولى وظيفة تولاها خمس مرات أو ستا من قبل، ولكن هل كان تصرفه هو التصرف المثالى؟..

ـ أنت شكاك لا نهاية لشكك، ما الموقف المثالى؟

ـ أن يصر على رفض الوزارة حتى لا يخضع للإنذار البريطانى وليكن ما يكون.

ـ ولو عزل الملك وتولى أمر البلاد حاكم عسكرى بريطانى؟

ـ ولو!..

تنهد رياض فى غيظ وقال:

ـ نحن نلهو بالحديث أمام النارجيلة، أما السياسى فأمامه مسئولية خطيرة، فى هذه الظروف الحربية الدقيقة كيف يقبل النحاس أن يعزل الملك ويحكم البلاد حاكم عسكرى إنجليزى؟ وإذا انتصر الحلفاء ـ ويجب أن نفترض هذا أيضًا ـ فنكون فى صفوف الأعداء المنهزمين، السياسة ليست مثالية شعرية ولكنها واقعية حكيمة..

ـ لا زلت أومن بالنحاس، ولكن لعله أخطأ، لا أقول تآمر أو خان..

ـ المسئولية تقع على العابثين الذين ملأوا الفاشست من وراء ظهور الإنجليز كأن الفاشست سيحترمون استقلالنا، أليس بيننا وبين الإنجليز معاهدة؟ وأليس الشرف

يقضى علينا باحترام كلمتنا؟ ثم ألسنا ديموقراطيين يهمنا أن تنتصر الديموقراطية على النازية التى تضعنا فى جدول الأمم والأجناس فى أحط طبقة وتثير شحناء الجنسية والعنصرية والطائفية؟! . .

ـ معك فى هذا كله، ولكن الخضوع للإنذار البريطانى جعل من استقلالنا وهما! . .

ـ احتج الرجل على الإنذار ونزل الإنجليز عند رأيه . .

فضحك إسماعيل عاليا ثم قال :

ـ يا عينى على الاحتجاج الأنجلو إجبشيان! . .

غير إنه سرعان ما قال جادا :

ـ إنى أقره على ما فعل، ولو كنت مكانه لفعلته، رجل أبعد رغم أغلبيته وأهين فعرف كيف ينتقم لنفسه، والواقع أنه ليس هنالك استقلال ولا كلام فارغ، ففى سبيل أى شىء يعزل الملك ويحكمنا حاكم عسكرى إنجليزى؟!

وازداد وجه رياض تجهما، أما كمال فابتسم قائلاً فى هدوء بدا غريبًا :

ـ أخطأ الآخرون وتحمل النحاس نتيجة الخطأ، لا شك أنه أنقذ الموقف، أنقذ العرش والبلاد، ثم إن العبرة بالخاتمة، فإذا ذكر له الإنجليز صنيعه بعد الحرب فلن يذكر أحد ٤ فبراير! . .

إسماعيل هازئا وهو يصفق طالبًا جمرات للنارجيلة :

ـ إذا ذكر الإنجليز صنيعه! وأنا أقول لك من الآن بأنهم سيقيلونه قبل ذلك!

فقال رياض بإيمان :

ـ الرجل تقدم لحمل أكبر مسئولية فى أحرج الظروف . .

فقال كمال باسما :

ـ كما ستتقدم لحمل أكبر مسئولية فى حياتك! . .

فضحك رياض، ثم نهض قائلاً «عن إذنكم» ومضى فى اتجاه دورة المياه، وعند ذاك مال إسماعيل نحو كمال وقال وهو يبتسم :

ـ فى الأسبوع الماضى زار والدتى «جماعة» لا شك أنك تذكرهم!

فنظر كمال إليه مستطلعًا وهو يتساءل :

ـ من؟ . .

فقال الآخر وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى :

ـ عايدة!

وقع الاسم من أذنيه موقعًا غريبًا، فغطت غرابة موقعه على كافة الانفعالات التى كان

حريًا بأن يثيرها، وبدا حينا كأنما هو صادر من أعماقه هو لا من لسان صاحبه، وكل شيء كان متوقعًا إلا هذا، ومضت لحظات وكأن الاسم ليس له معنى، من عايدة؟ أى عايدة؟ يا للتاريخ! كم عامًا مضى دون أن يطرق هذا الاسم مسامعه منذ ١٩٢٦، أو ١٩٢٧؟ ستة عشر عامًا أو عمر شاب يافع بالكمال لعله أحب ومنى بالإخفاق! لقد طعن فى السن حقًا، عايدة؟! ترى ماذا أصابه بهذه الذكرى؟ لا شىء! ليس إلا اهتمامًا عاطفيًا مشوبًا بشىء من الانفعال كمن تمس يده موضع عملية جراحية ملتئم من قديم فيذكر ما اكتنفها من ظرف خطير مضى وانقضى، وتمتم تسائلاً:

ـ عايدة؟!

ـ نعم، عايدة شداد ألا تذكرها؟ أخت حسين شداد! . .

وشعر بمضايقة تحت عينى إسماعيل فقال متهربًا:

ـ حسين! ترى ما أخبار حسين؟

ـ من يدرى؟

وشعر بسخف تهربه، ولكن ما حيلته وقد أحس بوجهه يسخن رغم برودة فبراير الشديدة؟ وبدا له الحب على مثال غريب بعض الشىء. . كالطعام! تشعر به بقوة وهو على المائدة، ثم وهو فى المعدة، ثم وهو فى الأمعاء على نحو ما، ثم وهو فى الدم على نحو آخر، حتى يستحيل خلايا ثم تتجدد الخلايا بمرور الزمن فلا يبقى منه أثر، لكن ربما بقى منه صدى فى الأعماق هو ما نسميه بالنسيان، وقد يعرض للإنسان «صوت» قديم فيدفع بهذا النسيان إلى قريب من منطقة الوعى فيسمع الصدى على وجه ما، وإلا فما هذا الاضطراب؟ أم لعله الحنين إلى عايدة لا باعتبارها المحبوبة التى كانت ـ فقد انتهى هذا إلى غير رجعة ـ ولكن باعتبارها رمزاً للحب الذى كان كثيراً ما يستوحش غيبته الطويلة، مجرد رمز كالخربة المهجورة التى تثير ذكريات تاريخية جليلة:

وعاد إسماعيل يقول:

ـ وتحادثنا طويلاً ـ أنا وعايدة وأمى وزوجى ـ فروت لنا كيف هربت هى وزوجها بل وجميع ممثلى الدول السياسيين أمام الجيوش الألمانية حتى لاذا بأسبانيا، وأنهما نقلا أخيراً إلى إيران؛ ثم رجعنا إلى أيام زمان وضحكنا كثيراً . .

مهما يكن من أمر الحب الذى مات فقلبه يبعث حنينا مسكراً، وأوتار الأعماق التى تهتكت أخذت تصعد أنغامًا بالغة فى الخفوت والحزن، وتساءل:

ـ ما شكلها الآن؟

ـ لعلها فى الأربعين، كلا أنا أكبر منها بعامين، عايدة فى السابعة والثلاثين، وامتلأت قليلاً عما كانت، لكنها ما زالت محتفظة برشاقتها، ووجهها هو هو تقريبًا فيما عدا

نظرة عينيها التى أصبحت توحى بالجد والرزانة، وقالت إنها أنجبت ابنا فى الرابعة عشرة وبنتا فى العاشرة.

هذه هى عايدة إذن، لم تكن حلما ولم يكن تاريخها وهما، فقد تمر لحظات فيبدو ذلك الماضى كأنه لم يكن، وهى زوجة وأم وتذكر الماضى وتضحك كثيراً، ولكن ما حقيقة صورتها؟ ماذا بقى من هذه الحقيقة فى الذاكرة؟ فلشد ما تتغير المناظر فى أثناء حفظها بالذاكرة، وهو يود أن يلقى نظرة ثابتة على هذا الكائن البشرى لعله يقف على السر الذى مكنه قديمًا من أن يفعل به الأفاعيل.

وعاد رياض إلى مجلسه فخاف كمال أن يقطع إسماعيل حديثه ولكنه واصله قائلاً:

ـ وسألوا عنك!

ردد رياض نظره بينهما فأدرك أن حديثًا خاصًا يدور بينهما فعدل عنهما إلى النارجيلة، أما كمال فقد شعر بأن جملة «سألوا عنك» توشك أن تودى بقوة مناعته كأشد الميكروبات فتكا، وتساءل وهو يبذل أقصى ما يملك من قوة ليبدو طبيعيًا:

ـ لماذا؟

ـ سألوا عن فلان وعلان من أصحاب زمان ثم سألوا عنك فقلت مدرسًا بمدرسة السلحدار وفيلسوفًا كبيراً ينشر مقالات لا أفهمها فى مجلة الفكر التى لا أفتحها فضحكوا ثم سألوا «هل تزوج؟» فقلت كلا..

فوجد نفسه يسأل:

ـ ماذا قالوا؟

ـ لا أذكر ماذا حوّلنا عن هذا الحديث؟

إن المرض الكامن يهدد بالانفجار، والذى مرض قديمًا بالسل يجب أن يحذر البرد، أما جملة سألوا عنك فما أشبهها بأنغام الصبا فى بساطة معناها وشديد نفاذها فى النفس، وقد يطرأ ظرف فتعبر النفس حال عاطفية مندثرة بكامل قوتها الماضية ثم تنقطع.. كالمطر فى غير أوانه، على ذلك شعر فى هذه اللحظة العابرة بأنه انقلب ذلك العاشق القديم، وأنه يعانى الحب حيا بكافة أنفاسه السارة والحزينة، ولكن الخطر لم يكن يتهدده بصفة جدية فهو كالحالم المكروب الذى يداخله شعور ملطف بأن ما يراه حلمًا لا حقيقة، لكنه تمنى فى تلك اللحظة لو تقع معجزة من السماء فيلقاها ولو لبضع دقائق فتعترف له بأنها بادلته عاطفته يومًا أو بعض يوم وأن فارق السن أو غيره هو الذى فرق بينهما! لو وقعت هذه المعجزة لعزته عن كافة آلامه قديمها وحديثها ولعد نفسه سعيداً فى الخلق وأن الحياة لم تمض عبثًا، بيد أنها صحوة كاذبة كصحوة الموت، والأحرى به أن يقنع بالنسيان، وهو نصر ولو انطوى على هزيمة، وليكن عزاؤه أنه ليس الوحيد فى البر الذى منى بخيبة الحياة، وتساءل:

ـ متى يسافرون إلى إيران؟

ـ سافروا أمس أو هذا ما أخبرتنى به فى زيارتها . .

ـ وكيف تلقت كارثة أسرتها؟

ـ تجنبت هذا الحديث بطبيعة الحال ولم تشر هى إليه!

وإذا برياض قلدس يهتف مشيراً أمامه «انظروا» فنظروا إلى الجناح الأيسر من الشرفة فرأوا امرأة غريبة الشكل، كانت فى الحلقة السابعة، نحيلة الجسد، حافية القدمين، ترتدى جلبابا مما يرتدى الرجال، وتضع على رأسها طاقية لا يبدو تحت حافتها أى أثر للشعر فهى صلعاء أو قرعاء، أما وجهها فبدا غارقًا فى أصباغ الزواق على هيئة مزرية مضحكة معا، ولم يكن فيها ناب واحد على حين راحت عيناها ترسلان فى جميع الجهات نظرات تودد واستعطاف باسم. تساءل رياض باهتمام:

ـ شحاذة؟

فقال إسماعيل:

ـ مجذوبة على الأرجح!

وقفت تنظر إلى المقاعد الخالية فى الجناح الأيسر ثم اختارت مقعداً وجلست، عند ذاك انتبهت إلى أعين المحدقين فيها فابتسمت ابتسامة عريضة وقالت:

ـ مساء الخير يا رجال!

فرحب رياض بتحيتهاوقال بحرارة:

ـ مساء الخير يا حاجة!

فندت عنها ضحكة ذكرت إسماعيل ـ على حد قوله ـ بالأزبكية فى عزها! . . وقالت:

ـ حاجة! نعم أنا كذلك إن كنت تقصد المسجد «الحرام»!

وضحكوا ثلاثتهم فتشجعت وقالت بإغراء:

ـ اطلبوا لى الشاى والنارجيلة ولكم الأجر عند الله . .

فصفق رياض بحماس ليطلب لها ما أرادت ومال على أذن كمال هامسًا هكذا تبدأ بعض القصص» أما العجوز فقد ضحكت فى سرور وقالت:

ـ هذا كرم أيام زمان! . . أغنياء حرب يا أولادى؟ . .

فقال كمال ضاحكًا:

ـ نحن فقراء حرب، أى موظفين ياحاجة . .

وسألها رياض:

ـ ما الاسم الكريم؟

فارتفع رأسها فى كبرياء مضحك وقالت :

ـ السلطانة زبيدة على سن ورمح!

ـ السلطانة؟!

ـ نعم . . (ثم وهى تضحك) . . ولكن رعيتى ماتوا!

ـ الله يرحمهم!

ـ الله يرحم الأحياء أما الأموات فحسبهم أنهم بين يدى الله . . ، خبرونى من أنتم؟

وجاء النادل بالنارجيلة والشاى وهو يبتسم ، ثم اقترب من مجلس الأصحاب وسألهم :

ـ تعرفونها؟

ـ من هى؟

ـ زبيدة العالمة ، أشهر عالمة فى زمانها ، ثم انتهى بها العمر والكوكايين إلى ما ترون!

خيل إلى كمال أنه لا يسمع هذا الاسم للمرة الأولى أما رياض قلدس فقد ارتفع اهتمامه إلى الذروة فجعل يحث أصحابه على أن يعرفوها بأنفهسم كما طلبت حتى تنفتح نفسها للكلام فقال إسماعيل مقدما نفسه :

ـ إسماعيل لطيف .

فقالت ضاحكة وهى ترشف الشاى قبل أن يبرد :

ـ عاشت الأسماء ولو أنه اسم لا معنى له . .

فضحكوا ، وفى ذات الوقت سبها إسماعيل بصوت لم تسمعه ، أما رياض قلدس فقال :

ـ رياض قلدس .

ـ كافر؟! عشقنى واحد منكم كان تاجراً فى الموسكى اسمه يوسف غطاس ، كان قد الدنيا ، وكنت أصلبه على السرير حتى يطلع الصبح! . .

وشاركتهم ضحكهم وقد لاحت الغبطة فى وجهها ثم اتجه بصرها إلى كمال فقال :

ـ كمال أحمد عبد الجواد .

وكانت تقرب قدح الشاى من فيها فتوقفت يدها فى يقظة طارئة ثم حملقت فى وجهه متسائلة :

ـ قلت ماذا؟

فأجاب عنه رياض قلدس :

ـ كمال أحمد عبد الجواد .

فأخذت نفسا من النارجيلة وقالت وكأنما تخاطب نفسها :

ـ أحمد عبد الجواد! ولكن ما أكثر الأسماء! كالقروش أيام زمان . . (ثم مخاطبة كمال) . . والدك تاجر النحاسين؟

فدهش كمال وقال :

ـ نعم .

فقامت من مجلسها واقتربت منهم حتى وقفت أمامه ثم ضحكت ضحكة عالية أقوى من هيكلها بأجيال وهتفت :

ـ إنت ابن عبد الجواد! يا ابن الرفيق الغالى! ولكنك لا تشبهه! هذا أنفه حقًا ، ولكنه كان كالبدر فى ليلته ، ما عليك إلا أن تذكره بالسلطانه زبيدة وهو يحدثك عنى بما فيه الكفاية!

أغرق رياض وإسماعيل فى الضحك ، على حين ابتسم كمال وهو يغالب ما ركبه من ارتباك ، وهنا فقط تذكر حديث ياسين فى الزمن الخالى ، بل أحاديثه عن أبيه وزبيدة العالمة! وعادت تسأله :

ـ كيف حال السيد؟ انقطعت من زمن طويل عن حيكم الذى نبذنى ، أنا الآن من أهل الإمام ، ولكنى أحن إلى الحسين فأزوره كل حين ومين ، وكنت مريضة وطال بى المرض حتى ضاق بى الجيران فلولا الملام لرمونى فى القبر حية ، كيف حال السيد؟

فقال كمال فى شىء من الوجوم :

ـ توفى منذ أربعة أشهر . .

فقطبت قليلاً وقالت :

ـ إلى رحمة الله ، يا خسارة ، كان رجلا ولا كل الرجال . .

ثم عادت إلى مجلسها ، وبغتة ضحكت ضحكة عالية ، وما لبث أن ظهر صاحب القهوة عند مدخل الشرفة وهو يقول لها منذرًا :

ـ كفاية ضحك ، سكتنا له دخل بحماره ، كتر خير البكوات على إكرامهم لك ، ولكن إن عدت إلى الزياط فالباب من هنا . . فلاذت بالصمت حتى ذهب الرجل ، ثم نظرت إليهم باسمة ، ثم سألت كمال :

ـ وأنت كأبيك أم لا . . ؟

وأتت بيدها حركة شاذة فضحك الأصدقاء وقال إسماعيل :

ـ إنه لم يتزوج بعد! . .

فقالت فى لهجة ارتياب عابث :

ـ الظاهر أنك ابن أونطة ! . .

فضحكوا ، ثم نهض رياض ، ومضى إليها فجلس إلى جانبها وهو يقول :

ـ حصل لنا الشرف يا سلطانة ، ولكنى أود أن أسمع لك وأنت تحدثينا عن أيام السلطنة ! . .

٤١

لم يبق إلا ثلث ساعة ثم تلقى المحاضرة ، أما قاعة إيوارت فقد قاربت الامتلاء ، إن مستر روجر ـ كما قال رياض قلدس ـ أستاذ خطير ، وهو كأخطر ما يكون حين يتكلم عن شكسبير . أجل قيل إن المحاضرة لن تخلو فى النهاية من نوع من الدعاية السياسية ولكن ماذا يهم فى ذلك مادام المحاضر هو مستر روجر والموضوع هو وليم شكسبير . غير أن رياض كان مغتمًا واجمًا ، ولولا أنه هو الذى دعا كمال إلى سماع المحاضرة لتخلف عن شهودها ، وكان حزينا كما ينبغى لرجل مثله تستأثر السياسة باهتمامه كل هذا الاستئثار . وكان يهمس فى أذن كمال بانفعال غير خاف :

ـ يفصل مكرم من الوفد ! كيف تقع هذه الخوارق؟ !

ولم يكن كمال قد أفاق من الخبر كذلك فهز رأسه فى وجوم دون أن ينبس :

ـ إنها كارثة قومية ياكمال ، ما كان ينبغى أن تتهاوى الأمور حتى هذا الحضيض . .

ـ نعم ، ولكن من المسئول؟

ـ النحاس ! . قد يكون مكرم عصبيًا ، ولكن الفساد الذى تسرب إلى الحكومة أمر واقع ولا يصح السكوت عليه .

فقال كمال باسمًا :

ـ دعنا من الفساد الحكومى ، ثورة مكرم ليست على الفساد بقدر ما هى لضياع النفوذ . .

فتساءل رياض فى شىء من التسليم :

ـ أيباع مكرم المجاهد بعاطفة زائلة؟ . .

فلم يتمالك كمال أن ضحك قائلاً :

ـ لقد بعت نفسك أنت بهذه العاطفة الزائلة ! . .

ولكن رياض قال دون أن يبتسم :

ـ أجبنى ! . .

ـ مكرم عصبى ، شاعر ومغن ! عنده أن يكون كل شىء أو لا يكون شيئًا على الإطلاق ، وجد نفوذه المأثور يتقلص فثار ، ثم وقف لهم وقفته فى مجلس الوزراء منددًا علانية بالاستثناءات فاستحال التفاهم أو التعاون ، حدث يؤسف له !

ـ والنتيجة ؟

ـ هناك السراى تبارك ولا شك هذا الانشقاق الجديد فى الوفد ، وستحتضن مكرم فى الوقت المناسب كما احتضنت غيره من قبل ، سنرى من الآن فصاعدا مكرم وهو يلعب دوره الجديد مع الأقليات السياسية ورجال السراى ، إما هذا وإما العزلة ، لعلهم يكرهونه كما يكرهون النحاس أو أكثر ، ومنهم أناس لم يكرهوا الوفد إلا كراهة فى مكرم ولكنهم سيحتضنونه ليهدموا به الوفد ، أما عن المصير بعد ذلك فلا يمكن التنبؤ به . .

فعبس رياض وقال :

ـ صورة بشعة ، أخطأ الاثنان ، النحاس ومكرم ، إن قلبى متشائم من هذه الحركة . .

ثم بصوت أشد انخفاضًا :

ـ سيجد الأقباط أنفسهم بلا مأوى ، أو يأوون إلى حصن عدوهم اللدود «الملك» وهو مأوى لن يدوم لهم طويلاً ، وإذا اضطهدنا الوفد كما تضطهدنا الأقليات فكيف يكون الحال ؟

فتساءل كمال متغابيًا :

ـ لماذا تدفع بالأمر خارج حدود الطبيعة ؟ مكرم ليس الأقباط والأقباط ليسوا مكرم ، إنه شخص ذهب أما مبدأ الوفد القومى فلن يذهب . .

فهز رياض رأسه فى أسف ساخر وقال :

ـ هذا ما قد يكتب فى الجرائد ، أما الحقيقة فهى ما أعنى ، لقد شعر الأقباط بأنهم طردوا من الوفد ، وهم يتلمسون الأمان وأخشى ألا يظفروا به أبدا ، لقد جاءتنى السياسة أخيرًا بعقدة جديدة كعقدة الدين ، فكما كنت أنبذ الدين بعقلى وأميل إليه بقلبى بصفته رابطة قومية فكذلك سأنبذ الوفد بقلبى وأميل إليه بعقلى ، إذا قلت إنى وفدى فقد كذبت قلبى وإذا قلت إنى عدو للوفد خنت عقلى ، إنها كارثة لم تخطر لى على بال ، والظاهر أنه مقضى علينا نحن الأقباط بأن نعيش فى شخصيات منقسمة أبدا ، لو كانت مجموعتنا فردًا واحدًا لجن ! . .

شعر كمال بامتعاض وألم، وبدت له لحظتذاك جماعات البشر وكأنها تمثل مهزلة ساخرة ذات نهاية مفجعة، ثم قال في صوت لا ينم عن إيمان:

- عسى أن تكون مشكلة وهمية، إذا نظرتم إلى مكرم كرجل سياسى لا الأمة القبطية جميعًا!..

- هل ينظر إليه المسلمون أنفسهم على هذا النحو؟!

- هكذا أنظر إليه أنا!

فابتسمت شفتا رياض رغم كآبته وقال:

- إنى أتساءل عن المسلمين فما دخلك أنت؟

- أليس موقفنا واحدا أعنى أنا وأنت؟

- بلى مع فارق بسيط، وهو أنك لست من الأقلية.. (ثم وهو يبتسم) لو عشت فى عصر الفتح الإسلامى وتكشف لى الغيب لدعوت الأقباط جميعًا إلى الدخول فى دين الله!..

ثم فى شىء من الاحتجاج:

- إنك لا تصغى إلى..!

أجل!. كانت عيناه مصوبتين نحو مدخل القاعة، ونظر رياض إلى حيث ينظر فرأى فتاة فى مقتبل العمر، ترتدى فستانا رماديا بسيطا، فى هيئة الطالبات، وقد جلست فى المقاعد الأمامية المخصصة للسيدات.

- تعرفها؟..

- لا أدرى!..

وانقطعت فرصة الكلام إذ ظهر الأستاذ المحاضر على المنصة ودوت القاعة بالتصفيق الحاد، ثم ساد الصمت الذى تبدو فيه السعلة كالذنب الفاضح، ثم قدمه مدير الجامعة الأمريكية بكلمة مناسبة، ثم بدأ الرجل فى إلقاء محاضرته. وظل كمال أكثر الوقت متجه العينين نحو رأس الفتاة فى تساؤل واهتمام. وكان قد رآها مصادفة عند دخولها، فدهمه منظرها، وانتزعته بقوة من تيار أفكاره، ثم قذفت به فى الماضى عشرين عامًا ثم استردته إلى الحاضر وهو يلهث. خيل إليه أول الأمر أنه يرى عايدة، غير أنها لم تكن عايدة دون ريب.. هذه الفتاة التى لا يمكن أن تجاوز العشرين، ولم يتح له وقت كاف كى يتفحص قسماتها ولكن جملة منظرها كان فيه الكفاية، هيئة الوجه والقامة والروح ومجتلى العينين، أجل لم ير هاتين العينين فى غير وجه عايدة من قبل. أتكون شقيقتها؟. خطر له هذا الرأى أول ما خطر، بدور، ولم يغب عنه الاسم هذه المرة، وسرعان ما ذكر صداقتها له فى الماضى البعيد، ولكن هيهات - أن تكون حقًا هى - أن

تتذكره، المهم أن صورتها أيقظت قلبه، ردته ولو إلى حين إلى شىء من تلك الحياة الغامرة التى اكتظ بها زمنا، فهو فى اضطراب، يسمع إلى الأستاذ المحاضرة دقائق ثم ينظر إلى رأس الفتاة أكثر الوقت، ثم يغرق فى موجة الذكريات، مستشعراً فى أناة جملة المشاعر التى تتلاحم وتصطرع فى وجدانه. فلأتبعها لأعرف حقيقتها، لا غاية لى ولكن الملول مشاء، إنى أتوق لأى شىء قد يمسح عن روحى الصدأ المتكاثف فوقها. وتربص مبيتا هذه النية، ترى أطالت المحاضرة أم قصرت؟. لا يدرى. ولكنه عند انتهائها أفضى بغرضه إلى رياض ثم ودعه وسار فى أثر الفتاة. تابع بعناية مشيتها، مشية رشيقة، قامة هيفاء، لا يستطيع أن يقارن بين المشيتين لأن الأخرى لم يعد متوكدا منها، أما القامة فأغلب الظن أنها هى هى، وكان شعر الأخرى «ألا جرسون» اما هذا الشعر فغزير معقوص، ولكن اللون الأسود واحد فى الحالين ما فى ذلك شك، ولم يستطع أيضًا أن يتفحص وجهها على محطة الترام لازدحامها بجمهور المستمعين، ولكنها استقلت الترام رقم ١٥ الذاهب إلى العتبة وانحشرت فى الحريم فاستقله وراءها وهو يتساءل ترى أهى فى طريقها إلى العباسية أم أن ما يفترضه ليس إلا أضغاث أحلام؟ عايدة لم تستقل تراما فى حياتها قط، كان رهن أمرها سيارتان، أما هذه المسكينة..! وداخله حزن كحزنه يوم استمع إلى قصة إفلاس شداد بك وانتحاره. وأفرغ الترام أكثر حمولته فى العتبة فاختار موقفًا غير بعيد منها فوق طوار المحطة، وجعلت تنظر صوب الناحية التى تترقب مجىء الترام منها فرأى جيدها الطويل النحيل، ذلك العهد القديم، ثم لاحظ أن بشرتها قمحية اللون مع ميل إلى البياض، ليست خمرية كالصورة الذاهبة، فشعر لذلك بأول أسف منذ تبعها، كأنما تبعها ليرى الأخرى. ثم جاء ترام العباسية فتأهبت للركوب. ولما وجدت الحريم مزدحمة استقلت عربة الدرجة الثانية، ولم يتردد فكان فى أعقابها، وجلست فجلس إلى جانبها، ثم امتلأت المقاعد على الصفين، ثم امتلأ ما بينهما بالواقفين. ووجد لتوفيقه فى الجلوس إلى جانبها ارتياحًا لا مزيد عليه، غير أن جلوسها بين جمهور الدرجة الثانية أحزنه مرة أخرى، ربما لما يحدثه ذلك من تباين عند مطابقة الصورتين، القديمة الخالدة والماثلة إلى جانبه. وكان منكبه يلامس منكبها ملامسة خفيفة كلما ند عن الترام حركة مفاجئة خاصة عند القيام والوقوف، وجعل يلاحظها كلما أمكن ويتفحصها ما استطاع. هاتان العينان السوداوان الساجيتان، والحاجبان المقرونان، والأنف السوى اللطيف، والوجه البدرى، كأنه ينظر إلى عايدة. حقًا؟ كلا، ثمة تباين فى لون البشرة، ولمسة اختلاف هنا أو هناك، لا يذكر إن كانت إلى الزيادة هى أم إلى النقصان، ومع أن تباينهما كان يسيرا إلا أن إحساسه به كان خطيراً فهو كدرجة الحرارة الواحدة التى قد تكون فاصلاً بين الصحة والمرض، ولكنه كان فى الوقت نفسه حيال أقرب مثال إلى عايدة التى خيل إليه أنه بات يذكرها أوضح من أى وقت مضى على ضوء هذا الوجه

الجميل. والجسم لعله هو هو، ما أكثر ما تساءل عنه، فلعله الآن يراه، وهو رشيق نحيل، صدره آية فى الحياء، كذلك هو فى جملته، لا يمت بسبب إلى جسم عطية البض المدملج الذى يتعشقه! فهل فسد ذوقه على مر الأيام؟ أو أن حبه القديم كان ثائرًا على غريزته الكامنة؟ بيد أنه كان حبًا سعيدًا حالمًا ثمل القلب بنشوات الذكريات، وكانت ملامساته المتقطعة لها تزيده نشوة وإغراقًا فى التأملات، إنه لم يمس عايدة، كان يراها أبدا مستحيلة المنال، أما هذه الصغيرة فهى تسير فى الأسواق وتجلس فى تواضع بين جمهور الدرجة الثانية، فما أشد حزنه! وذلك التباين الطفيف الذى أحنقه وخيب أمله، وقضى على حبه القديم بأن يبقى لغزا إلى الأبد. وجاء الكمسارى مناديًا «التذاكر والأبونيهات» ففتحت حقيبتها وأخرجت تذكرة الاشتراك وانتظرت حتى يصل الرجل إليها. فاسترق على التذكرة النظر حتى عثر على اسمها «بدور عبد الحميد شداد.. طالبة بكلية الآداب» لم يعد ثمة شك، إن قلبى يخفق أكثر مما ينبغى، لو أستطيع أن أنشل هذا الاشتراك! كى احتفظ بأقرب صورة لعايدة، آه لو كان فى الإماكن هذا، مدرس فى السادسة والثلاثين ينشل طالبة بكلية الآداب! يا له من عنوان مثير تتمناه الجرائد، فيلسوف فاشل فى حدود الأربعين! ترى ما سن بدور؟ لم تكن تجاوز الخامسة عام ١٩٢٦ فهى فى الواحدة والعشرين من عمرها السعيد، السعيد؟! لا قصر ولا سيارة ولا خدم ولا حشم، ولم تكن دون الرابعة عشرة حين حلت الكارثة بأسرتها، وهو عمر حرى بأن يدرك معنى الكارثة ويذوق الألم، تألمت المسكينة وذعرت ابتليت بهذا الشعورى القاسى الذى أصبحت به جد خبير جمعنا الألم على تفاوت فى الزمن كما جمعتنا الصداقة القديمة المنسية، وجاءها الكمسارى فسمعها وهى تقول له «تفضل» ثم ناولته التذكرة، وطرق الصوت مسمعه كنغمة قديمة محبوبة طواها النسيان دهرا طويلا ثم انبعثت فى السمع بكل حلاوتها وجميع ذكرياتها فأحيت فترة سماوية من الزمن دومت أذنه فى مملكة الطرب الإلهية مستهدفة أحلام الزمان الغابر، هذه النغمة الدافئة الرخيمة المفعمة بسحر الطرب. أسمعينى صوتك وما هو بصوتك، يا صديقتى القديمة السيئة الحظ، من حسن الحظ أن صاحبة هذ الصوت الأصلية ما زالت تنعم بمثل حياتها الأولى، لم ترتق إليها الأحزان التى أغرقت أسرتها، أما أنت فقد انحدرت إلينا نحن جمهور الدرجة الثانية، ألا تذكرين صديقك الذى كنت تتعلقين بعنقه وتبادلينه القبل؟ كيف تعيشين اليوم يا صغيرتى؟ وهل تعملين مثلى فى النهاية مدرسة فى إحدى المدارس الابتدائية؟ ومر الترام بمكان القصر القديم الذى قام فى موضعه بناء ضخم جديد، وقد رآه قبل ذلك فى المرات القلائل التى زار فيها العباسية منذ انقطاعه التاريخى عنها خاصة فى العهد الأخير وهو يتردد على بيت فؤاد جميل الحمزاوى. العباسية نفسها تغيرت كبيتكم يا صغيرتى، اختفت قصورها وحدائقها التى عاصرت حبى وحزنى، وقامت مكانها العمارات

الضخمة المكتظة بالسكان والحوانيت والمقاهى والسينمات، فليسر بذلك أحمد المفتون بمتابعة صراع الطبقات أما أنا فكيف أشمت بالقصر وآله على حين أن قلبى مطمور فى أنقاضه؟ أو كيف أحتقر المخلوق البديع الذى لم يذق نكد العيش ولا زحمة الشعب إذ كان يخطر كالمعنى الجميل وقلبى له ساجد؟

وعندما توقف الترام فى المحطة التالية لقسم الوايلى غادرته فتبعها ووقف على طوار المحطة يراقبها، فرآها وهى تعبر الطريق إلى شارع «ابن زيدون» الذى يواجه المحطة مباشرة. كان شارعا ضيقا تقوم على جانبيه بيوت قديمة من بيوت الطبقة الوسطى وتغطى وجهه المهد بالأسفلت والأتربة والحصى والأوراق المبعثرة وقد دخلت ثالث بيت إلى اليسار من باب ضيق تلاصقه دكان كواء. ووقف ينظر إلى الطريق والبيت فى صمت واجم، ذلك المكان الذى تقيم فيه اليوم سنية هانم حرم شداد بك! وهذه الشقة لا يزيد إيجارها على ثلاثة جنيهات، وليت سنية هانم تخرج إلى الشرفة ليلقى عليها نظرة ويقيس ما حاق بها من تغير لا شك أنه خطير، ولعله لم ينس بعد منظرها النفيس حين كانت تغادر السلاملك متأبطة ذراع زوجها إلى حيث تنتظر السيارة، كانت تختال عجبا فى معطفها الوثير وتلقى على ما حولها نظرات مليئة بالسؤدد والطمأنية، ولن يمنى الإنسان بعدو أشد فتكا من الزمن. فى هذه الشقة نزلت عايدة فى أثناء إقامتها بالقاهرة، ولعلها جلست بعد العصارى فى هذه الشرفة البالية، ولعلها قاسمت أمها وأختها فراشهما الواحد ما فى ذلك ريب، فليتنى علمت بوجودها فى الوقت المناسب، وليتنى رأيتها بعد ذلك التاريخ الطويل، كان ينبغى أن أراها وأنا متحرر من استبدادها. كى أعرفها على حقيقتها، وبالتالى كى أعرف نفسى أنا ولكن ضاعت هذه الفرصة النادرة..

٤٢

جلس كمال بين طلبة وطالبات قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب يصغى إلى الدرس الذى يلقيه الأستاذ الإنجليزى، لم تكن أول مرة يحضر فيها هذا الدرس ولا آخر مرة فيما بدا له، ولم يكن قد وجد صعوبة تذكر عند الاستئذان فى الحضور ـ كمستمع ـ لمتابعة الدروس المسائية التى تلقى ثلاث مرات فى الأسبوع، وأكثر من هذا فإن الأستاذ قد رحب به عندما علم بأنه مدرس لغة إنجليزية. أجل كان غريبًا بعض الشىء أن يعنى بمتابعة هذه الدروس فى أواخر العام الدراسى ولكنه علل ذلك أمام الأستاذ بأنه يقوم ببحث استدعى متابعة هذه المحاضرات رغم ما فاته منها، وكان قد علم بوجود بدور فى هذا القسم عن طريق رياض قلدس الذى عرفه بدوره عن طريق صديقه سكرتير الكلية. وبدا

منظره، ببذلته الأنيقة ونظرته الذهبية وطوله ونحوله وشاربه الغليظ وشعيراته البيض التى تلتمع فى سوالفه إلى رأسه الضخم وأنفه الكبير، بدا كل أولئك ملفتًا للأنظار خاصة وهو يجلس بين عدد محدود من الشباب الغض، فكم بدوا كالمتسائلين وكم حدجوه بنظرات لم يرتح لها، حتى خيل إليه أنه يسمع ما يدور فى نفوسهم من ملاحظات وتعليقات هو أدرى بها وأخبر! وهو نفسه كان يعجب لهذه الخطوة الخارقة التى أقدم عليها دون مبالاة على ما جشمته من جهد وحرج، ما بواعثها الحقيقية وما هدفها؟ لا يدرى شيئًا على وجه التحقيق ولكنه ما إن رأى بارقة نور فى ظلمة حياته الداكنة حتى انذلق يتسمته وهو لا يلوى على شىء مدفوعًا بقوى هائلة من اليأس والأشواق والأمل، غير مبال بما قد يعثر به فى طريق محفوف بالتزمت والتقاليد من ناحية، وبالسباب المتوثب للسخرية من ناحية أخرى. كان غارقًا فى اليأس والملل فجرى ملهوفًا وراء هذا الشىء الذى لا يشك فى أنه تسلية وأى تسلية، وحياة وأى حياة، وبحسبه أنه انقلب يهتم بالزمن وينشد الأمل ويأمل فى المسرة، بل وها هو قلبه يخفق وكان قبل ذلك ميتًا، وكان يشعر بضيق الوقت، فالعام الدراسى يشارف نهايته المحتومة، بيد أن نهايته لم تضع هباء، فبدور قد رأته كما رآه الجميع، ولعلها شاركت فيما يدور من همس حوله، إلى أن عينيهما قد تلاقتا أكثر من مرة، ولعلها طالعت فى عينيه ما يضطرم فى ذاته من الاهتمام والإعجاب، من يدرى؟ وفضلاً عن هذا كله فعند العودة يستقلان ترام الجيزة معًا ثم ترام العباسية، وكثيرًا ما يجلسان فى مكان واحد، فباتت تعرفه جيدًا، وهو نجاح لا بأس به لشخص بعيد عن حيها كله، خاصة إذا كان مدرسًا حريصًا على مظاهر مهنته وما تقتضيه من استقامة ووقار. أما عن غايته من هذا كله فلم يشق على نفسه فى تحقيقها، لقد دبت فيه الحياة بعد موات فتهالك عليها، وهو تواق بكل قوة نفسه المعذبة إلى أن يعود ذلك الإنسان الذى تعتلج فى وجدانه المشاعر وتهيم فى عقله الخواطر وتنجلى فى حواسه المناظر، وأن ينسى بهذا السحر ضجره وسقمه وحيرته أمام ألغاز لاتحل، كأنها الخمر ولكنها أعمق متاعًا وألطف عاقبة. وفى الأسبوع الماضى حدث شىء تأثر له قلبه أيما تأثر، فقد عاقه إشرافه على النشاط الرياضى بمدرسة السلحدار عن الوصول إلى الكلية فى الوقت المناسب، فدخل حجرة الدرس متأخرًا، والتقت عيناهما عند دخوله وهو يسير على أطراف أصابعه أن يحدث صوتًا، التقت عيناهما التقاء خاطفا سحريا وسرعان ما أرخت جفونها فيما يشبه الحياء. لم تكن إذن مجرد نظرة تلتقى فيها عينان محايدتان، وبات مرجحًا أنها استشعرت شيئًا من الحياء، فهل كان يقع هذا لو كان نشاط عينيه قد ضاع عبثًا؟! الصغيرة باتت تستحى من نظراته فلعلها أخذت تدرك أنها ليست بالنظرات البريئة التى توجهها المصادفة، وأثار ذلك فى نفسه جملة من الذكريات واستدعى كثيرًا من الصور، حتى وجد نفسه يتذكر عايدة ويتخيلها، ولكنه لم يدر لماذا، فإن عايدة لم تغض طرف حياء

حياله قط، فلعل شيئا آخر الذى ذكره بها، لفتة أو رنوة أو ذلك السر الساحر الذى ندعوه بالروح. وأول أمس حدث شيء آخر له خطورته كذلك، انظر كيف ردت الحياة إليك! قبل ذلك لم يكن لشيء خطورة قط، أو لم تكن تضفى الخطورة إلا على هذه الألغاز العقيمة كالإرادة عند شوبنهور أو المطلق عند هيجل أو وثبة الحياة عند برجسون، كانت الحياة كلها صماء لا خطر لها، انظر اليوم كيف أن رنوة أو لفتة أو ابتسامة قد تزلزل لها الأرض جميعًا! حدث ذلك وهو ماض إلى الكلية قبل الخامسة مساء مخترقًا حديقة الأورمان، فما يدرى إلا وبدور وثلاث فتيات يطالعنه على أريكة ينتظرن عليها ميعاد الدرس، والتقت عيناهما التقاء عميقًا كما وقع فى حجرة الدرس، وكان يود أن يحييهن عند الاقتراب ولكن الممشى الذى يسير فيه عرج به بعيدًا عنهن كأنه أبى أن يشترك فى هذه المؤامرة العاطفية المرتجلة، ولما ابتعد قليلاً التفت وراءه فرآهن يهمسن فى أذنها باسمات وهى مسندة رأسها إلى راحتها كأنما تخفى وجهها! ما هذا المنظر البديع؟! لو كان رياض معه لأحسن تحليله وتفسيره، ولكنه لا يحتاج إلى براعة رياض، لا شك أنهن يهمسن لها عنه حتى أخفت وجهها حياء! هل ثمة معنى غير هذا؟. فلعل الصب فضحته عيونه، ولعله جاوز المدى وهو لا يدرى حتى صار أحدوثة، وماذا يكون من أمره لو انقلب الهمس تعريضا يتمازح به الطلبة الشياطين؟! وفكر جادًا فى الانقطاع عن الكلية، ولكنه وجدها تجلس إلى جانبه فى ترام العباسية ذلك المساء كما حدث أول يوم تبعها فيه! وترصد التفاتها ناحيته ليحييها وليكن ما يكون، فلما طال انتظاره بعض الشيء التفت هو ثم تظاهر بأنه فوجئ بجلوسها لصقه فهمس فى أدب:

- مساء الخير..

فنظرت نحوه كالداهشة - لم تترك له عايدة ذكرى تصنع أنثوى من أى نوع كان - ثم همست:

- مساء الخير..

زميلان يتبادلان التحية ولا غبار على ذلك، لم يكن مع أختها بهذه الجرأة، ولكنها كانت الكبرى وكان الصغير الساذج.

- حضرتك من العباسية فيما أعتقد؟

- نعم...

- لا تريد أن تدفع الحديث من ناحيتها!

- من المؤسف أننى لم أتابع المحاضرات إلا أخيرًا..

- نعم..

- أرجو أن أعوض ما فاتنى فى المستقبل..

فابتسمت دون أن تنبس، «زيدينى من سماع صوتك فإنك النغمة الوحيدة من الماضى التى لم يغيرها الزمن» . .

ـ ماذا تنوين بعد الليسانس؟ معهد التربية؟

فقالت باهتمام لأول مرة:

ـ لا حاجة بى إلى ذلك لأن الوزارة محتاجة إلى مدرسات ومدرسين بسبب ظروف الحرب والتوسع الجديد فى التعليم . .

طمع فى نغمة واحدة فوهب لحنا كاملاً!

ـ إذن ستعملين مدرسة!

ـ نعم، لم لا؟

ـ إنها مهنة شاقة، سلينى عنها.

ـ حضرتك مدرس فيما سمعت؟

ـ نعم، أوه، نسيت أن أقدم نفسى، كمال أحمد عبد الجواد.

ـ تشرفنا.

فقال باسما:

ـ ولكنك لم تشرفينى بعد؟

ـ بدور عبد الحميد شداد!

ـ تشرفنا يا افندم . .

ثم مستدركا كمن فوجئ بشىء فريد:

ـ عبد الحميد شداد! ومن العباسية؟ حضرتك أخت حسين شداد؟

فلمعت عيناها فى اهتمام وقالت:

ـ نعم.

فضحك كمال كأنما يضحك عجبًا من غرابة المصادفات وقال:

ـ يا سلام! كان أعز أصدقائى، وقضينا معًا أيامًا سعيدة جدًا، رباه! أنت أخته الصغيرة التى كانت تلعب فى الحديقة؟

فحدجته بنظرة استطلاع. هيهات أن تتذكره! . . «فى ذلك العهد كنت مغرمة بى كما كنت مغرما بأختك».

ـ لا أذكر شيئًا طبعًا . .

ـ طبعًا، هذا تاريخ يرجع إلى عام ١٩٢٣ وما بعده حتى عام ١٩٢٦، تاريخ سفر حسين إلى أوربا، ماذا يفعل الآن؟

ـ فى فرنسا فى القسم الجنوبى الذى انتقلت إليه الحكومة الفرنسية عقب الاحتلال الألمانى . .

ـ وكيف حاله؟ من زمن طويل انقطعت عنى أخباره ورسائله . .

ـ بخير . .

نطقت بها فى لهجة نمت عن رغبة فى الخوض فى الموضوع أكثر من ذلك ، وتساءل كمال والترام يمر بمكان القصر القديم : ترى ألم يخطئ بمكاشفتها بصداقته القديمة لأخيها؟ أليس فى ذلك حدا من حريته فيما هو بسبيله؟ ولما جاءت المحطة التالية لقسم الوايلى حيته وغادرت الترام ، فلبث فى مكانه كأنما نسى نفسه . كان طوال الطريق يتفحصها كلما سنحت فرصة لعله يهتدى إلى السر الذى سحره قديما ، ولكنه لم يجده وإن شعر مراراً بأنه منه قريب . وكانت تبدو لطيفة وديعة ، وكانت تبدو قريبة المنال ، وهو الآن يشعر كأنما يعانى خيبة أمل غامضة وحزنا غير بين الأسباب ، لو أراد الزواج من هذه الفتاة ما اعترضه عائق جدى . أجل إنها تبدو مستجيبة ملبية ، رغم فارق السن المحسوس أو بسبب فارق السن؟ ! ثم إن التجارب قد علمته أن شكله لن يعوقه عن الزواج إذا أراده . وهو إذا تزوجها انتقل بقدرة قادر إلى عضوية أسرة عايدة ، ولكن ما كنه هذا الخيال السخيف؟ وما عايدة الآن بالنسبة إليه؟ الحق أنه لا يريد عايدة ، ولكنه لا يكف عن التطلع إلى معرفة سرها ، لعله يقتنع فى الأقل بأن أزهى عصور العمر ـ لم يضع هباء . ووجد رغبة طالما ألحت عليه على فترات من العمر ـ فى مراجعة كراسة الذكريات وعلبة الملبس التى أهديت إليه ليلة الزفاف . ثم جاش صدره بالحنين حتى تساءل ترى أيمكن أن يقع الإنسان فى الحب وهو يحسن فهمه ويلم بعناصر تركيبه البيولوجية والاجتماعية والنفسية؟ ولكن هل يقى الكيميائى علمه بالسموم من أن يموت بها كضحاياها الآخرين؟ أو فلماذا يجيش صدره هذا الجيشان؟ رغم ما منى به من خيبة الأمل ، رغم الفارق الكبير بين الماضى والحاضر ، رغم أنه لا يدرى إن كان من أهل الماضى أم من أهل الحاضر ، رغم هذا كله فصدره جياش وقلبه يخفق . .

٤٣

هنا حديقة الشاى ، سماؤها أفرع وغصون ريانة ، ومرتاد النظر البط السابح فى البحيرة الزمردية ، والجبلاية فيما وراء ذلك ، واليوم عطلة مجلة الإنسان الجديد ، وهاهى سوسن حماد تبدو رائعة فى فستان أزرق خفيف كشف عن ذراعيها السمراوين ، وهى

آخذة زينتها ولكن فى لباقة وحذر، وكان قد مضى على زمالتهما عام فجلسا متقابلين يضىء وجهيهما ابتسام التفاهم، بينهما مائدة عليها دورق ماء وكأسا دندورمة لم يبق فيهما إلا ذوب ثمالة الحليب المورد بالفراولا، «إنها أعز شىء لدى فى هذه الدنيا، أدين لها بمسراتى جميعًا وهى قبلة آمالى أيضًا، ونحن زميلان مخلصان، لم ينطق الحب بيننا ولكننى لا أشك فى أننا متحابان، ومتعاونان كأحسن ما يكون التعاون، بدأنا رفيقين فى ميدان الحرية، وعملنا يدا واحدة، وكلانا مرشح للسجن، وكنت كلما نوهت بجمالها حملقت فى وجهى محتجة وزجرتنى مقطبة كأن الحب شىء لا يليق بنا فأبتسم وأعود إلى ما كنا فيه من عمل، ويومًا قلت لها: «إنى أحبك.. إنى أحبك.. فافعلى ما بدا لك»، فقالت لى: «هذه الحياة هى الجد كل الجد وأنت تعبث»، فقلت لها: «إنى مثلك أرى أن الرأسمالية فى طور الاحتضار وأنها استنفدت كافة أغراضها، وأن على الطبقة العاملة أن تطلق إرادتها لتدور آلة التطور إذ أن الثمرة لن تسقط وحدها، وأن علينا أن نخلق الوعى ولكن بعد ذلك أو قبل ذلك أحبك» فقطبت تقطيبة متكلفة بعض الشىء وقالت: «إنك تصر على إسماعى ما لا أحب»، وشجعنى خلو حجرة السكرتارية فهويت إلى وجهها فجأة ولثمت خدها فحدجتنى بنظرة قاسية وأكبت على ترجمة ما تبقى من الفصل الثامن من كتاب نظام الأسرة فى الاتحاد السوفيتى الذى كنا نترجمه معًا.

- هذا الحر كله فى يونيه فكيف إذا جاء يوليو وأغسطس يا عزيزتى؟

- يبدو أن الإسكندرية لم تخلق لأمثالنا!

فضحك قائلاً:

- ولكن الإسكندرية لم تعد مصيفًا، كانت كذلك قبل الحرب أما اليوم فالإشعات قد جعلتها خرابًا..

- الأستاذ عدلى كريم يؤكد أن أغلبية سكانها قد هجروها وأن طرقاتها ملأى بالقطط الهائمة على وجهها!

- هى كذلك، وعما قليل يدخلها رومل بجيوشه..

ثم بعد صمت قصير:

- وسوف يلتقى فى السويس بالجيوش اليابانية الزاحفة على آسيا ويعود العهد الفاشستى كما كان فى العصر الحجرى!

فقالت سوسن فى شىء من الانفعال:

- روسيا لن تنهزم، وإن آمال البشرية مصونة خلف جبال الأورال...

- نعم لكن الألمان على أبواب الإسكندرية!

تساءلت وهى تنفخ:

ـ لماذا يحب المصريون الألمان؟

ـ كراهة فى الإنجليز، وسوف يمقتونهم فى الغد القريب، إن الملك يبدو اليوم كالسجين ولكنه سينطلق من سجنه ليستقبل رومل ثم يشربان معا نخب وأد الديموقراطية الناشئة فى بلادنا، ومن المضحك أن الفلاحين يظنون أن رومل سيوزع الأرض عليهم!

ـ أعداؤنا كثيرون، الألمان فى الخارج، والإخوان والرجعية فى الداخل وكلاهما شىء واحد. .

ـ لو سمعك أخى عبد المنعم لثار على رأيك، يعتبر الإخوانية فكرة تقدمية تزرى بالاشتراكية المادية. .

ـ قد يكون فى الإسلام اشتراكية، ولكنها اشتراكية خيالية كالتى بشر بها توماس مور ولويس بلان وسان سيمو، إنه يبحث عن حل للظلم الاجتماعى فى ضمير الإنسان بينا أن الحل موجود فى تطور المجتمع نفسه، إنه لا ينظر إلى طبقات المجتمع ولكن إلى أفراده، وليس فيه بطبيعة الحال أية فكرة عن الاشتراكية العلمية، وفضلاً عن هذا كله فتعاليم الإسلام تستند إلى ميتافيزيقا أسطورية تلعب فيها الملائكة دوراً خطيراً، لا ينبغى أن نبحث عن حلول لمشكلات حاضرنا فى الماضى البعيد، قل هذا لأخيك. .

فضحك أحمد فى سرور غير خاف وقال:

ـ أخى شاب مثقف وقانونى ذكى، إنى أعجب كيف يتحمس أمثاله للإخوان!

فقالت بازدراء:

ـ الإخوان يصطنعون عملية تزييف هائلة، فهم حيال المثقفين يقدمون الإسلام فى ثوب عصرى، وهم حيال البسطاء يتحدثون عن الجنة والنار، فينتشرون باسم الاشتراكية والوطنية والديموقراطية.

حبيبتى لا تمل الحديث عن مبادئها، قلت حبيبتى؟ نعم فمنذ القبلة التى اختلستها دأبت على أن أدعوها بحبيبتى وكانت تحتج بالكلام تارة وبالإشارة تارة أخرى ثم جعلت تتجاهله كأنما قد يئست من إصلاحى، وعندما قلت لها إنى تواق إلى سماع كلمات الحب من ثغرها المشغول بالاشتراكية وبختنى قائلة باحتقار: «هذه النظرة البورجوازية العتيقة إلى المرأة. . هه؟!» فقلت لها جزعًا: إن احترامى لك فوق كل كلام وإنى لأعترف بأنى تلميذك فى أنبل ما صنعت فى حياتى ولكننى أحبك كذلك وما فى ذلك من بأس. فذهب غضبها فيما شعرت ولكنها استبقت مظاهره فيما رأيت، واقتربت منها مضمرا تقبيلها فلا أدرى كيف حزرت غرضى فدفعتنى فى صدرى ولكننى رغم ذلك لثمت

خدها وما دام المحذور قد وقع ـ وقد كان بوسعها منعه جديًا ـ فقد اعتبرتها راضية، وإنها لكائن بديع جميل العقل والجسم معًا رغم إغراقها فى السياسة، وعندما دعوتها للنزهة فى الحديقة قالت: «على شرط أن نأخذ معنا الكتاب لنواصل الترجمة» قلت لها: بل للفرجة والمناجاة وإلا كفرت بالاشتراكية جميعًا! ولعله مما يزعجنى كثيرًا حيال نفسى المتشبعة بالسكرية إننى مازلت أنظر أحيانا إلى المرأة بالعين التقليدية البورجوازية فيخيل إلى فى بعض ساعات التقهقر والخور أن الاشتراكية عند المرأة التقدمية ليست إلا نوعًا من الفتنة كضرب البيانو والتبرج ولكن من المسلم به كذلك أن العام الذى زاملت فيه سوسن قد غيرنى كثيرا وطهرنى لدرجة محمودة من البورجوازية المستوطنة فى أعماقى! . .

ـ من المؤسف أن زملاءنا يعتقلون بلا حساب! . .

ـ نعم يا حبيبتى، الاعتقال موضة تشيع أيام الحروب وأيام الإرهاب على السواء، غير أن القانون لا يرى بأسا فى اعتناق المبدأ إذا لم يقترن بالدعوة إلى العنف. .

فضحك أحمد وقال:

ـ سيلقى القبض علينا إن آجلا وإن عاجلاً إلا . .

فحدجته بنظرة متسائلة فعاد يقول:

ـ إلا إذا أدبنا الزواج!

فهزت منكبيها فى ازدراء وقالت:

ـ من أدراك بأننى أوافق على الزواج من رجل مزيف مثلك؟

ـ مزيف؟!

ففكرت قليلاً ثم قالت باهتمام جدى:

ـ لست من طبقة العمال مثلى! كلانا يحارب عدوا واحدا ولكنك لم تخبره كما خبرته، لقد ذقت الفقر طويلاً، ولمست آثاره الكريهة فى أسرتى، وغالبته أخت لى حتى غلبها فماتت، أما أنت فلست . . لست من طبقة العمال!

فقال بهدوء:

ـ ولا كان إنجلز من هذه الطبقة . .

فضحكت ضحكة قصيرة بعثت أنوثتها وقالت:

ـ كيف أدعوك؟ البرنس أحمدوف؟! هه لا أنكر عليك مبدأك، ولكن بك بقايا بورجوازية عتيدة، يخيل إلى أنك تسر أحيانًا لكونك من آل شوكت!

فقال بلهجة لم تخل من حدة:

ـ أنت مخطئة يا ظالمة! لا يعيبنى ما ورثته، فكما أن الفقر لا يعيبك فالغنى لا يعيبنى،

أعنى الدخل القليل الذى عاشت به أسرتنا عيشة التنابلة، لا يعيب أحدا أن يجد نفسه بورجوازيا، ولا عيب إلا فى الجمود والتخلف عن روح العصر . .

فقالت وهى تبتسم :

ـ لا تغضب، كلانا ظاهرة طبيعية علمية، لا نسأل عما وجدنا أنفسنا عليه ولكننا مسئولون عما نعتنق ونفعل، إنى أعتذر إليك يا إنجلز، ولكن خبرنى هل أنت على استعداد لمواصلة إلقاء المحاضرات على العمال مهما تكن العواقب؟

فقال بإدلال :

ـ لقد حاضرت حتى أمس خمس مرات، وحررت منشورين خطيرين، ووزعت عشرات المنشورات، وللحكومة دين فى عنقى جاوز العامين سجنا! . .

ـ ولها فى عنقى أضعاف ذلك! . .

مد يده فى خفة فوضعها على يدها السمراء البضة فى حنان وإعجاب. نعم إنه يحبها، ولكنه لا يندفع فى جهاده باسم الحب، ترى ألم تبدو أحيانًا وكأنها تشك فيه؟ أهى مداعبة من المداعبات أو توجس خيفة من البورجوازية التى تحسبها كامنة فيه؟ إنه مؤمن بالمبدأ كما أنه مغرم بها، لا غنى له عن هذا ولا ذاك، «أليس من السعادة أن تحظى بشخص يفهمك حق الفهم وتفهمه حق الفهم؟ وألا يحول بينك وبينه أى نوع من المكر؟ إنى أعبدها إذ قالت «لقد ذقت الفقر طويلاً»، هذا القول الصريح الذى سما بها عن بنات جنسها جميعًا ومزجها بنفسى، لكننا محبون غافلون والسجن يتربص بنا، وبوسعنا أن نتزوج وأن نتجنب المتاعب ونقنع برغد العيش، ولكنها تكون حياة بلا روح، لشد ما يبدو لى المبدأ أحيانًا كأنه لعنة مصوبة علينا من القضاء والقدر، إنه دمى وروحى، كأننى المسئول الأول عن الإنسانية جميعًا . .

ـ أحبك . .

ـ ما المناسبة لهذا؟

ـ فى كل مناسبة وبلا مناسبة . .

ـ إنك تتحدث عن الجهاد ولكن قلبك يتغنى بالهناء! . .

ـ التفريق بين هذين سخف كالتفريق بينى وبينك! . .

ـ ألا يعنى الحب الهناء والاستقرار وكراهة السجن؟

ـ ألم تسمعى عن النبى الذى كان يجاهد ليل نهار دون أن يمنعه من أن يتزوج تسعا؟! . .

ففرقعت بأصابعها هاتفة :

ـ ها هو أخوك قد أعارك فاه، أى نبى يا هذا؟

فقال ضاحكًا:

ـ نبى المسلمين!.

ـ دعنى أحدثك عن كارل ماركس الذى عكف على تأليف «رأس المال» تاركًا زوجه وأولاده للجوع والبهدلة!

ـ كان متزوجًا على أى حال!..

كأن ماء البركة عصير زمرد، وهذه النسمة اللطيفة تهفو فى خلسة من يونية، والبط يسبح مسددًا منقاره لالتقاط فتات الخبز، وأنت سعيد جدًا، والحبيبة المتعبة ألذ من الطبيعة، يخيل إلى أن وجهها تورد، فلعلها تناست السياسة قليلاً وأخذت تفكر فى..

ـ كان المأمول يا زميلتى العزيزة أن نحظى فى هذه الحديقة بحديث عذب!

ـ أعذب مما كنا نتحدث به؟

ـ أعنى حبنا!..

ـ حبنا؟..

ـ نعم وأنت تعلمين!

وساد الصمت مليًا حتى غضت عينيها متسائلة:

ـ ماذا تريد؟

ـ قولى إننا نريد شيئا واحدًا!

فقالت كأنما لتطيعه فحسب:

ـ نعم، ولكن ما هو؟..

ـ حسبنا لف ودروان!

كأنها تفكر، فما أمر الانتظار على قصره، وإذا بها تقول:

ـ ما دام كل شىء واضحًا فلم تعذبنى؟

فتنهد فى ارتياح عميق وقال:

ـ ما أبهج حبى!

وساد الصمت مرة أخرى كاللازمة بين النغمة والنغمة، ثم قالت:

ـ يهمنى شىء واحد:

ـ أفندم!..

ـ كرامتى!

فقال كالمنزعج:

ـ هى وكرامتى شىء واحد!

فقالت بامتعاض:

ـ أنت أدرى بتقاليد أناسك!، ستسمع كثيراً عن الأصل والفصل..

ـ كلام فارغ، تظنيننى طفلا؟

وترددت قليلاً ثم قالت:

ـ لا يهددنا إلا شىء واحد هو «العقلية البورجوازية»!..

فقال بقوة جعلته فى تلك اللحظة أشبه ما يكون بأخيه عبد المنعم:

ـ لست منها فى شىء!

ـ هل تدرك مدى خطورة قولك؟.. لقد عنيت أشياء تخص علاقة الرجل بالمرأة فى صميمها الشخصى والاجتماعى!

ـ مفهوم جداً..

ـ سوف تطالب بقاموس جديد عند الكشف عن الكلمات المأثورة مثل:

حب، زواج، غيرة، الوفاء، الماضى..

ـ نعم!..

قد يعنى هذا لا شىء، وقد يعنى كل شىء، وكم من مرة خطرت له أفكار، ولكن الموقف يتطلب شجاعة فائقة، ما هو إلا امتحان لعقليته الموروثة والمكتسبة جميعًا، امتحان رهيب، خيل إليه أنه أدرك ما تعنى، ولعل الأمر لا يعدو أنها تمتحنه، ولكن حتى لو كان الذى أدركه فلن يتراجع، لقد اعتراه ألم ودبت فى أعماقه الغيرة ولكنه لن يتراجع..

ـ إنى مسلم بما تعنين، ولكن دعينى أصارحك بأننى كنت آمل أن أحظى بفتاة عاطفية لا بفكر محاسب مدقق!

فتساءلت وعيناها تتابعان البط السابح:

ـ لتقول لك أحبك وأوافق على الزواج منك؟!

ـ نعم!..

ضاحكة:

ـ وهل ترانى كنت أدخل فى التفاصيل ما لم أكن موافقة على المبدأ؟! فضغط على راحتها فى رقة، فعادت تقول:

ـ وأنت تعرف كل شىء، ولكنك تود سماعه!

ـ ولا أمل سماعه!..

٤٤

ـ إنها سمعة أسرتنا جميعًا، وهو على أى حال ابنكم، وأنتم بعد ذلك أحرار فيما ترون! . .

كانت خديجة تخطب وعيناها تنتقلان بسرعة وقلق من وجه إلى وجه، من زوجها إبراهيم الذى جلس إلى يمينها إلى ابنها أحمد فى الناحية المقابلة من الصالة، مارتين بياسين وكمال وعبد المنعم . .

وقال أحمد مداعبًا وهو يقلد لهجتها:

ـ انتبهوا جميعا، إنها سمعة أسرة، وأنا على أى حال ابنكم! .

فقالت له بصوت متشك ملىء بالمرارة:

ـ ما هذا البلاء يا ابنى؟ أنت لا ترضى أن يحكمك أحد ولو كان أباك، وتأبى المشورة ولو كانت فى صالحك، دائمًا أنت على صواب والناس جميعًا على خطأ، تركت الصلاة قلنا ربنا يهديه، رفضت أن تدخل الحقوق كأخيك قلنا المستقبل بيد الله، قلت أشتغل جورنالجى قلنا اشتغل عربجى! . .

فقال باسما:

ـ والآن أريد أن أتزوج! . .

ـ تزوج، كلنا يسر لهذا، ولكن الزواج له شروط . .

ـ ومن يضع شروطه؟

ـ العقل السليم.

ـ عقلى اختار لى . .

ـ ألـم تثبت لك الأيام بعد أنه لا يصح الاعتماد على عقلك وحده؟!

ـ أبدا، والمشورة جائزة فى كل شئ إلا الزواج فهو كالطعام سواء بسواء! . .

ـ الطعام . . إنك لا تتزوج من فتاة فحسب ولكن من أسرتها كلها ـ ونحن ـ أهلك ـ نتزوج بالتبعية معك . .

فضحك أحمد ضحكة عالية وقال:

ـ كلكم! . هذا أكثر مما يحتمل، خالى كمال لا يريد أن يتزوج، وخالى ياسين يود لو يتزوجها وحده . .

وضحكوا جميعًا إلا خديجة، ثم قال ياسين قبل أن تزايل وجهه هيئة الضحك:

ـ إذا كان فى هذا فض المشكلة فأنا على أتم استعداد للتضحية.

فهتفت خديجة:

ـ اضحكوا، إنه يتشجع بضحككم، خير من ذلك أن تصارحوه بآرائكم، فما رأيكم فيمن يرغب فى الزواج من «كريمة» عامل المطبعة التى يعمل بمجلتها؟ إنه يعز علينا أن تعمل بالمجلة «جورنالجى» فكيف وأنت تريد أن تصاهر عمالها! أليس لك رأى ياسى إبراهيم؟.

فرفع إبراهيم شوكت حاجبيه كأنما يريد أن يقول شيئًا، ولكنه سكت، فعادت تقول:

ـ لو وقعت هذه المصيبة فسيمتلئ بيتك ليلة الزفاف بعمال المطبعة والعنابر والحوذية، والله أعلم بما خفى!..

فقال أحمد بتأثر:

ـ لا تتكلمى هكذا عن أهلى!

ـ يارب السماوات، أتنكر أن هؤلاء هم أهلها؟.

ـ سأتزوجها هى وحدها، إنى لا أتزوج بالجملة..

فقال إبراهيم شوكت فى ضجر:

ـ لن تتزوجها وحدها، الله يتعبك كما تتعبنا!

فقالت خديجة متشجعة بمعارضة زوجها:

ـ ذهبت لزيارة بيتها كما تقضى العادة، قلت أرى عروس ابنى، فوجدتهم يقيمون فى بدروم فى شارع كله يهود على الصفين، وأمها لا تفترق فى هيئتها عن الخادمات المحترفات، والعروس نفسها لا يقل عمرها عن ثلاثين عامًا، أى والله، ولو كان بها ذرة من جمال لعذرته، ولماذا يريد أن يتزوجها؟ إنه مسحور، سحرته بحيلة، إنها تعمل معه فى المجلة المشئومة، لعلها غافلته فوضعت له شيئًا فى القهوة أو الماء، اذهبوا وشوفوا واحكموا، أنا غلبت، لقد عدت من الزيارة لا أكاد أرى الطريق من حزنى وأسفى..

ـ إنك تغضبيننى، لن أغفر لك كلامك هذا..

ـ العفو، العفو يا سيد الملاح! الحق على، أنا طول عمرى عيابة فرمانى ربنا فى أولادى بكل العيوب، أستغفر الله العظيم.

ـ مهما تقولت عنهم فليس فيهم من يرمى الناس بالباطل.. مثلك!

ـ بكره يا ما تسمع، ويا ما تعرف، سامحك الله على إهانتى.

ـ أنت التى أهنتنى بما فيه الكفاية! . .

ـ إنها تطمع فى مالك، ولولا خيبتك ما طمعت فى أحسن من بياع جرائد . .

ـ إنها محررة فى المجلة بمرتب ضعف مرتبى . .

ـ جورنالجية هى الأخرى! . . ما شاء الله، وهل تتوظف إلا الفتاة البائرة أو القبيحة أو المسترجلة! . .

ـ سامحك الله . .

ـ فليسامحك أنت على ما تصب علينا من عذاب!

وهنا قال ياسين الذى كان يتابع الحديث ويده لا تمسك عن فتل شاربه :

ـ اسمعى يا أختى، لا داعى للنقار، سنصارح أحمد بما ينبغى قوله ولكن لا جدوى من الشجار . .

ونهض أحمد كالغاضب وهو يقول :

ـ عن إذنكم سأرتدى ملابسى لأذهب إلى عملى . .

ولما ذهب انتقل ياسين إلى جانب أخته ومال عليها قائلاً :

ـ لن يفيدك الشجار شيئًا، نحن لا نحكم أبناءنا، إنهم يرون أنفسهم خيرًا منا وأذكى، إذا كان لابد من الزواج فليتزوج، فإن سعد كان بها وإلا فهو المسئول علىن نفسه، أنا لم يستقر بى بيت إلا بزنوبة كما تعلمين! فعسى أن يكون الخير فيما اختار، ثم إننا لا نعقل بالكلام ولكن بالتجارب .

ثم مستدركا وهو يضحك :

ـ ولو أنه لا الكلام ولا التجارب عقلتنى!

وعلق كمال على قول ياسين قائلاً :

ـ الحق فيما قال أخى . .

فحدجته بنظرة عتاب قائلة :

ـ أهـذا كل ما عندك ياكمال؟ إنه يحبك فلو أنك حدثته على انفراد . .

فقال كمال :

ـ إنى خارج معه وسأحدثه، ولكن كفى عن الشجار، إنه رجل حر، ومن حقه أن يتزوج ممن يشاء، أتستطيعين منعه أم تنوين مقاطعته؟

وقال ياسين باسما :

ـ الأمر بسيط يا أختى، يتزوج اليوم ويطلق غداً، نحن مسلمون لا كاثوليك . .

فضيقت عينيها الصغيرتين وقالت بفم شبه مغلق :

ـ طبعًا، من محام غيرك يدافع عنه؟ صدق من قال إن الولد لخاله!

فضحك ياسين ضحكته العظيمة وقال:

ـ الله يسامحك، لو ترك النساء تحت رحمة النساء لما تزوجت امرأة قط!..

فأشارت إلى زوجها وقالت:

ـ أمه الله يرحمها هى التى اختارتنى بنفسها!

فقال إبراهيم وهو يتنهد باسما:

ـ ودفعت الثمن، الله يرحمها ويعفو عنها!

ولكنها لم تأبه لتعليقه وعادت تقول متحسرة:

ـ لو كانت جميلة!.. إنه أعمى!

فقال إبراهيم ضاحكًا:

ـ مثل أبيه!

فالتفتت نحوه غاضبة وقالت:

ـ أنت جاحد كجنس الرجال!

فقال الرجل بهدوء:

ـ بل نحن صابرون ولنا الجنة..

فصاحت به:

ـ إذا كنت ستدخلها فبفضلى.. أنا التى علمتك دينك!..

* * *

غادر كمال وأحمد السكرية معا، وكان يقف من مشروع هذا الزواج موقف الشك والتردد، إنه لا يمكن أن يتهم نفسه بالمحافظة على التقاليد السخيفة، أو بالفتور حيال مبادئ المساواة والإنسانية، ومع ذلك فالواقع الاجتماعى الذى لا يد له فى بشاعته حقيقة واقعة لا يجوز أن يتجاهلها إنسان، وقديمًا ولع عهدًا بقمر بنت أبى سريع صاحب المقلى، فكادت ـ رغم جاذبيتها ـ تحدث له عقدة برائحة جسدها المحزنة. غير أنه كان رغم هذا معجبًا بالشاب، غابطا له شجاعته وقوة إرادته وغيرهما من المزايا التى حرم هو منها وعلى رأسها الإيمان والعمل والزواج، كأنما قد بعث فى الأسرة كفارة عن جموده وسلبيته. ما الذى يجعل للزواج هذه الخطورة فى نظرة بينا هو فى نظر الآخرين لا يزيد عن السلام عليكم.. وعليكم السلام؟!

ـ إلى أين يا فتى؟

ـ المجلة يا خالى، وأنت؟

ـ مجلة الفكر لأقابل رياض قلدس، ألا تفكر قليلاً قبل أن تخطو هذه الخطوة؟

ـ أى خطوة يا خالى! لقد تزوجت بالفعل! . .

ـ حقًا؟!

ـ حقًا، وسوف أقيم فى الدور الأول من بيتنا نظرًا لأزمة المساكن . .

ـ يا له من تحد سافر! . .

ـ نعم، ولكنها لن توجد فى البيت إلا حين تكون أمى قد نامت . .

وبعد أن أفاق من وقع الخبر سأله باسمًا:

ـ وهل تزوجت على سنة الله ورسوله؟

فضحك أحمد أيضا وقال:

ـ طبعًا، الزواج والدفن على سنن ديننا القديم، أما الحياة فعلى دين ماركس!

ثم وهو يودعه:

ـ خالى، سنعجبك جدًا، سترى وتحكم بنفسك، إنها شخصية ممتازة بكل معنى الكلمة . .

٤٥

يا لها من حيرة! كأنها مرض مزمن، فكل أمر يبدو ذا وجوه متعددة متساوية يتعذر فيها الاختيار، تستوى فى ذلك المسألة الميتافيزيقية والتجربة البسيطة من الحياة اليومية، فإزاء كل تعترض الحيرة والتردد، أيتزوج أم لا؟! كان ينبغى أن يقطع برأى لكنه يدور حول نفسه حتى يصيبه الدوار ويختل منه ميزان الروح والعقل والحواس ثم تنجلى الدوامة عن موقف لم يتغير وسؤال لم يظفر بالجواب بعد وهو: أيتزوج أم لا؟ قد يضيق أحيانا بحريته فيثقل عليه الشعور بالوحدة أو يضجر من معاشرة الأشباح الفكرية الخاوية فيحن إلى الأليف وتئن فى محبسه غرائز الأسرة والحب تروم متنفسًا، ثم يتخيل نفسه زوجًا قد برأ من التركيز فى ذاته وتبددت أوهامه لكنه فنى فى الوقت نفسه فى الأبناء واستغرقه الرزق ومطالبه فتراكمت عليه مشاغل الحياة اليومية فينزعج أيما انزعاج ويقرر الاستمساك بانطلاقه مهما تجشم من وحشة وعذاب، بيد أنه لا ينعم بالاستقرار طويلاً فلا يلبث أن يعود إلى التساؤل كرة أخرى، وهكذا وهكذا، فأين المفر؟ وبدور فتاة ممتازة حقًا، لا يعيبها اليوم أن تركب الترام ما دامت قد ولدت وشبت فى جنة الملائكة التى شغفت قلبه قديمًا، فهى كالشهاب الساقط، وهى فتاة ممتازة حقًا فى حسنها وخلقها

وثقافتها، ثم إنها ليست عسيرة المنال فهى الزوجة الواعدة بكل معنى الكلمة إذا أراد أن يتقدم، وما عليه إلا أن يتقدم، وإلى هذا كله فهو لا يسعه إلا أن يسلم باحتلالها مركز الاهتمام من وعيه، فهى آخر ما يودع من أطياف الحياة قبل النوم وهى أول من يستقبل من أطيافها عند الاستيقاظ، ثم لا تكاد تغادر خياله طوال يومه، وما أن يحظى برؤيتها البصر حتى يخفق الفؤاد مردداً أنغامًا شجية من أوتار علاها الصدأ، ثم إن دنياه لم تبق كما كانت، دنيا حيرة وعذاب ووحشة، داخلتها نسائم وجرى فيها ماء الحياة، فإن لم يكن هذا هو الحب فما عسى أن يكون؟! وطوال الشهرين الماضيين جعل من شارع ابن زيدون مقصده كل أصيل، يقطعه على مهل، مسدداً عينيه إلى الشرفة حتى تلتقى بعينيها ثم يتبادلان الابتسام كما يجدر بزميلين، وقد بدا ذلك كما تقع المصادفات، ثم تكرر وقوعه كأنما عن عمد، فما يجد ميعاده حتى يجدها بمجلسها من الشرفة تقرأ فى كتاب أو تسرح الطرف، فأيقن أنها تنتظره، إذ لو شاءت أن تمحو هذا المعنى من ذهنه ما كلفها ذلك إلا تجنب الشرفة دقائق كل أصيل. ولكن ماذا تظن بمروره وابتسامته وتحيته؟! لكن مهلاً، إن الغرائز لا تخطئ، كلاهما يود أن يلقى صاحبه، وقد استخفه لذلك الطرب وأسكره السرور، وملأه إحساس بجدوى الحياة لم يشعر به من قبل، غير أن هذا الهناء كله لم يمض دون قلق يشوبه، كيف لا وهو لم يجمع بعد على عزم، ولم يتضح له سبيل، ولكن تيارا جرفه فاستسلم له وهو لا يدرى كيف مجراه ولا أين مرساه! قليل من العقل يوجب عليه أن يتدبر أمره ولكن فرحة الحياة صدته فى إشفاق. فثمل مسروراً دون أن يخلو من قلق. وقال له رياض: أقدم فهذه فرصتك، ورياض منذ أن لبس خاتم الخطوبة وهو يتحدث عن الزواج كأنه غاية الإنسان الأولى والأخيرة فى هذه الحياة، فيقول مزهوا إنه سيقتحم هذه التجربة الفريدة غير هياب فيتاح له أن يفهم الحياة فهما جديداً صادقًا ومن ثم يفتح أبواب قصصه للحياة الزوجية والأطفال.. أليست هذه هى الحياة أيها الفيلسوف السابح فوق الحياة؟ فأجابه متهربًا: أنت اليوم خصم فأنت آخر من يصلح حكمًا وسوف أفتقد فيك المشير الصادق؟ وبدا له الحب من ناحية أخرى «دكتاتورا» وقد علمته الحياة السياسية فى مصر أن يمقت الدكتاتور من صميم قلبه. ففى بيت عمته جليلة كان يهب عطية جسده ثم سرعان ما يسترده وكأن ما كان لم يكن، أما هذه الفتاة المستكنة فى حيائها فلن تقنع بما دون روحه وجسده جميعًا إلى الأبد، ولن يجد من شعار يأتم به بعد ذلك إلا الكفاح المرير فى سبيل الرزق ليؤمن حياة الأسرة والأبناء، مصير غريب يجعل من الحياة الحافلة بالجلائل مجرد وسيلة «لتحصيل» الرزق، وقد يكون الفقير الهندى سخيفا أو مجنونًا ولكنه أحكم ألف مرة من الغارق حتى أذنيه فى سبيل الرزق، فأنعم بالحب الذى كنت تفتقده وتتحسر عليه.. هاهو يبعث حيا فى فؤادك جارا وراءه المتاعب! وقال له رياض: «أمن المعقول أن تحبها وأن يكون فى وسعك أن تتزوجها..

ثم تمتنع عن زواجها؟»، فأجابه بأنه يحبها ولكنه لا يحب الزواج! فقال محتجًا: «إن الحب هو الذى يسلمنا للزواج فما دمت لا تحب الزواج كما تقول فأنت لا تحب الفتاة!» فأجابه بإصرار: «بل أحبها وأكره الزواج»، فقال: «لعلك تخاف المسئولية»، فأجابه محتدا: «إننى أحمل من أعباء المسئولية فى بيتى وفى عملى ما لا تحمل بعضه»، فقال: «لعلك أنانى أكثر مما أتصور»، فقال ساخراً: «وهل يتزوج الفرد إلا مدفوعًا بأنانيته الظاهرة أو الخفية؟» فقال باسما: «لعلك مريض فاذهب إلى دكتور نفسانى لعله يحللك»، فقال له، «من الطريف أن مقالتى القادمة فى مجلة الفكر عن: «كيف تحلل نفسك»، فقال له: «أشهد لقد حيرتنى»، فقال له: «أنا الحائر إلى الأبد».

ومرة وهو يقطع كعادته شارع ابن زيدون صادف فى طريقة أم حبيبته متجهة نحو البيت، عرفها من أول نظرة رغم أنه لم يرها منذ سبعة عشر عامًا على الأقل. ولم تكن «الهانم» التى عرفها قديمًا. ذبلت ذبولاً محزنا وركبها الهم قبل الكبر ولم يكن فى وسع إنسان أن يتصور أن هذه المرأة الساعية فى هزالها هى نفس الهانم التى كانت تخطر فى حديقة القصر فى نهاية من الجمال والكمال! ورغم هذا كله فد ذكرته هيئة رأسها بعايدة فقطع قلبه منظرها، وكان حسن الحظ أنه تبادل مع بدور الابتسام قبل رؤيتها وإلا ما استطاع أن يبتسم، ثم ما يدرى إلا وهو يتذكر عائشة! ثم يذكر كيف أثارت عاصفة من النكد هذا الصباح فى البيت وهى تبحث عن طاقم أسنانها التى نسيت أين أودعته قبل نومها. وأول أمس رأى بدور واقفة فى الشرفة على غير عادتها ثم تبين أنها متهيأة للخروج. وتساءل أتخرج وحدها؟! وما لبثت أن غابت من الشرفة فمضى فى سبيله متمهلاً متفكرًا. حقا لو جاءت وحدها فإنما تجىء له، هذا الظفر المسكر لعله يغسل إهانة حلت منذ سنين! ولكن هل كانت عايدة تفعل هذا ولو انشق القمر؟! وعندما بلغ منتصف الطريق التفت إلى الوراء فرآها قادمة.. وحدها! وخيل إليه أن خفقان قلبه سيطرق مسامع الجيران. وسرعان ما شعر بخطورة الموقف الوشيك الحدوث حتى نازعته بعض جوانب نفسه إلى الهروب! كان تبادل الإبتسام قبل ذلك لهوا عاطفيًا بريئا أما اللقاء فسيكون له شأن وأى شأن. هو مسئولية وخطورة ومطالبة بالحسم فى الاختيار. ولو هرب الآن لمنح نفسه مزيدا من التروى! ولكنه لم يهرب، وتقدم فى خطاه المتمهلة كالمخدر حتى أدركته عند منعطف الطريق إلى شارع الجلال، وفى التفاتة منه التقت عيناهما فى ابتسامة، فقال:

ـ مساء الخير..

ـ مساء الخير..

وتساءل وشعوره بالخطورة يتزايد:

ـ إلى أين؟

ـ عند واحدة صاحبتى، هناك فى هذا الاتجاه . .

وأشارت صوب شارع الملكة نازلى، فقال فى استهتار:

ـ إنه طريقى فهل تسمحين بأن نسير معا . . ؟

فقالت وهى تدارى ابتسامة:

ـ تفضل . .

وسارا جنبًا إلى جنب، إنها لم تتحل بهذا الفستان الجميل لتقابل واحدة صاحبتها ولكن لتقابله هو، وهاهو قلبه يستقبلها بالوجد والحنان، ولكن كيف يكون مسلكه؟ لعلها ضاقت بجموده فجاءت بنفسها لتهيىء له فرصة مواتية فإما ينتهزها إكرامًا لها وإما يتجاهلها فيفتقدها إلى الأبد، هى كلمة قد تقال فيتورط قائلها مدى العمر أو تحبس فيندم حابسها مدى العمر، هكذا دفع إلى مأزق وهو لا يدرى، وهاهو الطريق يطوى ولعلها تترقب، وهى تبدو مستجيبة ملبية كأنها ليست من آل شداد، أجل ليست من آل شداد فى شىء، لقد انتهى آل شداد، وولى زمانهم، وليست التى تسايرك إلا فتاة سيئة الحظ، والتفتت نحوه كالباسمة فقال برقة:

ـ فرصة سعيدة! . .

ـ شكرًا!

ثم ماذا؟! يبدو أنها تنتظر خطوة جديدة من ناحيته، وهاهى نهاية الطريق تقترب، يجب أن يقطع برأى فإما التورط وإما الوداع، لعلها لا تتصور أبدًا أن يفترقا ببساطة، ولو كلمة واعدة، وها المفترق على بعد خطوات، إنه يشعر شعورًا مؤلمًا بمدى الخيبة التى ستمنى بها ويأبى لسانه أن ينطق، أم يتكلم وليكن مايكون؟! وتوقفت عن المسير وابتسمت ابتسامة مرتبكة كأنما تقول آن لنا أن نفترق فبلغ به الاضطراب نهايته، ثم مدت يدها، فتلقاها بيده وصمت فترة رهيبة، ثم غمغم:

ـ مع السلامة! . .

واستردت يدها ثم مالت إلى عطفة جانبة. أوشك أن يناديها، إن ذهابها متعثرة بالخيبة والخجل كابوس لا يحتمل، وأنت أدرى بهذه المواقف التعيسة، غير أن لسانه انعقد. فيم كانت متابعته لها طوال الشهرين الماضيين؟ أمن الذوق أن ترفضها وقد جاءتك بنفسها؟ أمن الرحمة أن تعاملها نفس المعاملة التاريخية التى عاملتك بها أختها؟، وأنت تحبها؟! وهل تلقى من ليلها ما لقيت من ليلتك التى خلفتها وراءك كالمجمرة المتقدة تضىء فى غياهب الماضى بالألم المنصهر؟!

وواصل سيره وهو يتساءل ترى أيريد حقًا أن يبقى أعزب لكى يكون فيلسوفا أم أنه

يدعى الفلسفة ليبقى أعزب؟ وقال له رياض: هذا شىء لا يصدق ولسوف تندم! وهو شىء لا يصدق حقًا ولكن هل يندم أيضًا؟ وقال له: كيف هان عليك أن تقطعها وقد كنت تتحدث عنها وكأنها فتاة أحلامك؟ ليست فتاة أحلامه.. إن فتاة أحلامه لم تكن لتسعى إليه أبدا. وأخيراً قال له: إنك فى نهاية السادسة والثلاثين من عمرك ولن تكون بعد ذلك صالحًا للزواج. فامتعض لقوله وداخلته كآبة..

٤٦

جاءت كريمة إلى السكرية فى حلة العروس فى عربة مع والديها وأخيها. وكان فى استقبالهم إبراهيم شوكت وخديجة وأحمد وزوجه سوسن حماد وكمال. ولم يكن ثمة ما يدل على زفاف إلا طاقات الورد التى طوقت الصالة، أما المنظرة فقد امتلأت بذوى اللحى من الشبان يتوسطهم الشيخ على المنوفى. ومع ذلك كان قد مر عام ونصف على وفاة السيد إلا أن أمينة لم تشهد الزفاف ووعدت بالحضور للتهنئة فيما بعد، أما عائشة فإنها عندما دعتها خديجة إلى شهود الدخلة الصامتة هزت رأسها عجبًا وقالت بلهجة عصبية:

ـ أنا لا أشهد إلا المآتم!

وقد تأملت خديجة لقولها ولكنها كانت قد اعتادت أن تتحلى بالحلم المثالى حيال عائشة. وقد جهز الدور الثانى بالكسرية للمرة الثانية بأثاث العرس. وجهز ياسين ابنته كما ينبغى وباع فى سبيل ذلك آخر أملاكه فلم يعد يبقى له إلا بيت قصر الشوق. وبدت كريمة آية فى الجمال، وقد شابهت أمها فى عهدها الزاهر خاصة فى عينيها الدافئتين، ولم تكن بلغت سن الزواج إلا فى الأسبوع الماضى من أكتوبر. ولاحت خديجة سعيدة كما ينبغى لأم العريس، وقد انتهزت فرصة انفرادها بكمال مرة فمالت على أذنه قائلة:

ـ على أى حال فهى ابنة ياسين، ومهما يكن من أمر فهى خير ألف مرة من عروس العنابر!

وقد مد بوفيه صغير فى حجرة السفرة للأسرة، ومد آخر فى الفناء لمدعوى عبد المنعم من ذوى اللحى، ولم يكن يتميز عنهم إذ أرسل بدوره لحيته حتى قالت له خديجة يومذاك:

ـ الدين جميل ولكن ما ضرورة هذه اللحية التى تبدو فيها مثل محمد العجمى بياع الكسكسى؟!

وجلس أفراد الأسرة فى حجرة الاستقبال ما عدا عبد المنعم الذى جالس أصحابه، واحمد الذى شاركه فى الترحيب بهم بعض الوقت، ثم انتقل إلى حجرة الاستقبال حيث انضم إلى أهله وهو يقول باسمًا :

ـ تراجعت المنظرة فى الزمان ألف عام!

فسأله كمال :

ـ فيم يتحادثون؟

ـ عن معركة العلمين، وقد ارتجت جدران المنظرة بأصواتهم.

ـ وكيف شعورهم حيال انتصار الإنجليز؟

ـ الغضب طبعًا، إنهم أعداء الإنجليز والألمان والروس جميعًا، وهكذا لم يرحموا العريس حتى فى ليلة زفافه . .

وكان ياسين جالسًا إلى جانب زنوبة، يبدو فى زينته كأنما يصغرها بعشرة أعوام، فقال :

ـ فليأكلوا بعضهم البعض بعيداً عنا ومن رحمة ربنا أنه لم يجعل من مصر ميدان حرب . .

فقالت خديجة باسمة :

ـ لعلك تريد السلام حتى تفرغ لمزاجك!

ورمقت زنوبة بنظرة ماكرة حتى ضحك الجميع، وكان قد ذاع فى الأيام القريبة الماضية أن ياسين غازل ساكنة جديدة فى بيته، وأن زنوبة ضبطته متلبسًا أو كالمتلبس فما زالت بالساكنة حتى اضطرتها إلى إخلاء الشقة. فقال ياسين يدارى ارتباكه :

ـ كيف أفرغ لمزاجى وبيتى محكوم بالأحكام العرفية!

فقالت زنوبة فى امتعاض :

ـ هلا استحييت أمام أبنتك؟

فقال ياسين فى توسل :

ـ إنى برىء والجارة المسكينة مظلومة!

ـ أنا الظالمة! أنا التى ضبطت وأنا أطرق شقتها بليل ثم اعتذرت بأننى ضللت سبيلى فى الظلام! هه؟ أربعون عامًا فى البيت ثم لا تعرف أين تقع شقتك؟!

فتعالى الضحك حتى قالت خديجة فى تهكم :

ـ إنه كثير الخطأ فى الظلام!

ـ وفى النور على السواء . .

وإذا بإبراهيم شوكت يخاطب رضوان قائلاً:

ـ وأنت يا رضوان كيف حالك مع محمد أفندى حسن؟

فقال ياسين مصححًا:

ـ محمد أفندى زفت!

وأجاب رضوان حانقًا:

ـ إنه ينعم الآن بثروة جدى التى آلت إلى أمى!

وقال ياسين محتجًا:

ـ ميراث لا يستهان به، وكلما قصدها رضوان فى معونة للترفيه أو خلافه تصدى له الصفيق وناقشه الحساب!

فقالت خديجة مخاطبة رضوان:

ـ إنها لم تنجب غيرك، وخير لها أن تمتعك بمالها فى حياتها.. ثم مستدركة:

ـ وقد آن لك أن تتزوج، أليس كذلك؟

فضحك رضوان ضحكة فاترة ثم قال:

ـ عندما يتزوج عمى كمال!

ـ لقد يئست من عمك كمال ولكن لا ينبغى أن تقلده..

واصغى كمال لمايدور حوله بامتعاض وإن لم يبد أثره فى وجهه. لقد يئست منه ويئس هو من نفسه. وكان قد انقطع عن المرور بشارع ابن زيدون معلنًا بذلك عن شعوره بذنبه، غير أنه كان يقف عند طرف المحطة ليراها فى شرفتها من حيث لا تراه، لم يستطع أن يقاوم رغبته فى رؤيتها، ولا أن ينكر حبه لها، أو يتجاهل نفوره وجفوله من فكرة التزوج منها! حتى قال له رياض إنك مريض وتأبى أن تبرأ!

وسأل أحمد شوكت رضوان بلهجة ذات معنى:

ـ أكان محمد حسن يناقشك الحساب لو كان السعديون فى الحكم؟

فضحك رضوان ضحكة حانقة وقال:

ـ إنه ليس الوحيد الذى يناقشنى الحساب اليوم، ولكن صبرًا، إن هى إلا أيام أو أسابيع.

فسألته سوسن حماد:

ـ أتظن أيام الوفد معدودة كما يشيع خصومه؟

ـ أيامه رهن بمشيئة الإنجليز، وعلى أى حال فلن تطول الحرب إلى الأبد..، ثم يجىء وقت الحساب!

فقالت سوسن فى جد ظاهر :

ـ المسئول الأول عن المأساة هم الذين ظاهروا الفاشيست لطعن الإنجليز من الخلف . .

وكانت خديجة ترمق سوسن بنظرة ساخرة منتقدة، متعجبة من «استرجالها» فى الحديث، فما تمالكت أن قالت :

ـ المفروض أننا فى فرح، تكلموا فى أمور مناسبة!

ولاذت سوسن بالصمت دون اصطدام، على حين تبادل أحمد وكمال نظرة باسمة، أما إبراهيم شوكت فقال ضاحكًا :

ـ عذرهم أن أفراحنا لم تعد أفراحًا، الله يرحم السيد أحمد ويسكنه فسيح جناته . .

فقال ياسين متحسرًا :

ـ تزوجت ثلاث مرات ولكننى لم أزف مرة واحدة!

فقالت زنوبة فى انتقاد مر :

ـ أتذكر نفسك وتنسى ابنتك؟

فقال ياسين ضاحكًا :

ـ نزف فى الرابعة إن شاء الله . .

فقالت زنوبة فى تهكم :

ـ أجلها حتى تزف رضوان!

فغضب رضوان دون أن ينبس. لعنة الله عليكم جميعًا وعلى الزواج أيضًا، ألا تدركون أننى لن أتزوج أبدا! وأننى أود أن أقتل من يفاتحنى بهذه السيرة اللعينة وعقب صمت قصير قال ياسين :

ـ ليتنى أبقى فى بوفيه السيدات حتى لا أقف بين أصحاب اللحى الذين يخيفوننى!

أدركته زنوبة قائلة :

ـ لو عرفوا سيرتك لرجموك!

فقال أحمد ساخرًا :

ـ ستخوض لحاهم فى الصحاف، وتكون معركة، وخالى كمال هل يحب الإخوان؟

فقال كمال باسما :

ـ أحب منهم واحدا على الأقل!

والتفتت سوسن إلى العروس وسألتها بمودة :

ـ وما رأى كريمة فى لحية زوجها؟

فدارت كريمة ضحكة خفيفة بحنى رأسها المتوج ولم تتكلم، فأجابت عنها زنوبة قائلة:

ـ قليل من الشبان من هم فى تدين عبد المنعم . .

فقالت خديجة:

ـ يعجبنى تدينه، هذا خلق فى دم أسرتنا، ولكن لا تعجبنى لحيته . . فقال إبراهيم شوكت ضاحكًا:

ـ أعترف بأن ابنى ـ المؤمن والمارق على السواء ـ مجنونان!

فضحك ياسين ضحكته العظيمة وقال:

ـ الجنون خلق فى دم أسرتنا أيضًا!

فحدجته خديجة بنظرة احتجاج فعالجها قائلاً قبل أن تنبس:

ـ أعنى أننى مجنون، وأظن كمال أيضًا مجنون، وإن شئت فأنا المجنون وحدى!

ـ هذا هو الحق دون زيادة.

ـ وهل من العقل أن يقضى إنسان على نفسه بالعزوبة ليتفرغ للقراءة والكتابة؟

ـ سيتزوج عاجلاً أو آجلاً ويكون سيد العقلاء.

فسأل رضوان عمه كمال قائلاً:

ـ لم لا تتزوج يا عمى؟ أريد أن أقف على الأقل على وجه اعتراضك لأدافع به عن نفسى حين الضرورة!

فقال ياسين:

ـ أتنوى الإضراب عن الزواج؟ لن أسمح بهذا ما حييت، ولكن انتظر حتى تعودوا للحكم ثم تزوج زواجًا سياسيًا رائعًا!

أما كمال فقال له:

ـ إذا لم يكن عندك مانع فتزوج فى الحال . .

هذا الشاب ما أجمله! وهو مرشح للجاه والمال! لو رأته عايدة فى زمانها لعشقته، ولو ألقى نظرة عابرة على بدور لشغفها حبا، أما هو فيدور على نفسه والدنيا كلها تتقدم، ولا يزال يتساءل: أتزوج أم لا أتزوج؟! والحياة تبدو حيرة مظلمة، فلا هى فرصة سانحة ولا هى فرصة ضائعة، والحب عسير طبعه الخصام والعذاب، فليتها تتزوج حتى يخلص من حيرته وعذابه!

وإذا بعبد المنعم يدخل عليهم تتقدمه لحيته وهو يقول:

ـ تفضلوا إلى البوفيه، احتفالنا اليوم قاصر على المعدة . .

٤٧

كان كمال يسير متسكعًا فى شارع فؤاد الأول، وكانت الساعة تدور فى العاشرة من صباح الجمعة فلقى طريقا غاصا بالمارة والواقفين، نساء ورجالاً، وكان الجو لطيفًا كأكثر ايام نوفمبر، يغرى بالمشى، وقد ألف أن يتخفف من عزلته القلبية بالاندساس بين الناس فى يوم عطلته، فيمضى على وجهه بلا غاية، متسليًا بمشاهدة الناس والأشياء، وصادفه فى طريقه أكثر من واحد من تلاميذه الصغار فحيوه برفع أيديهم إلى رءوسهم فرد تحيتهم بأحسن منها باسما. ما أكثر تلاميذه! منهم من توظف، ومنهم من لا يزال بالجامعة، وغالبيتهم بين الابتدائى والثانوى فليس بالعمر القصير أن تخدم العلم والتعليم أربعة عشر عاما. وكان منظره التقليدى لا يكاد يتغير، البذلة الأنيقة والحذاء اللامع والطربوش المستقيم والنظارة الذهبية والشارب الغليظ، حتى درجته السادسة لم تتغير أربعة عشر عامًا رغم ما يشاع عن تفكير الوفد فى إنصاف الهيئات المظلومة، شىء واحد تغير هو رأسه الذى انتشر المشيب فى سوالفه. وبدا سعيدًا بتحيات تلاميذه الذين يحبونه ويحترمونه، وتلك منزلة لم يظفر بمثلها أحد من المدرسين، ظفر بها هو رغم رأسه وأنفه، وبالرغم مما اعترى تلاميذ هذه الأيام من شيطنة وجموح!

وعندما بلغ تسكعه تقاطع عماد الدين مع فؤاد الأول ما يدرى إلا وبدور تطالعه وجها لوجه، وخفقت جوانحه كأنما انطلقت بها صفارة الإنذار، وجمد بصره لحظات، ثم هم بالابتسام ليتفادى من الموقف الحرج، غير أنها حولت عنه عينيها فى تجاهل بين ودون أن تلين أساريرها ثم مرقت من جانبه، وعند ذلك فحسب رأى أنها تتأبط ذراع شاب تسير فى صحبته! وتوقف عن المسير، ثم أتبعها ناظريه، أجل هى بدور، فى معطف أسود أنيق، وهذا صاحبها فى مثل أناقتها، ولعله لم يبلغ الثلاثين بعد. وبذل جهدا صادقًا ليتمالك نفسه التى هزتها المفاجأة ثم تساءل فى اهتمام من يكون هذا الشاب؟ ليس أخًا لها، ولا هو بالعاشق إذ أن العشاق لا يجاهرون بجبهم فى شارع فؤاد الأول خاصة صباح الجمعة، فهل يكون. . ؟! وتتابعت دقات قلبه فى إشفاق، ثم تبعها دون تردد، وعيناه لا تفارقانهما، ووعيه مركز فيهما حتى شعر بأن حرارته ترتفع وأن ضغطه يصعد وأن دقات قلبه تنعاه، ورآهما يتوقفان أمام معرض محل لبيع الحقائب فدنا منهما متباطئا مصوبًا عينيه نحو يد الفتاة اليمنى حتى استقر بصره على الخاتم الذهبى! ولفحه إحساس حار كأنه مزيج من الألم العميق، وكان قد مضى على موقف شارع بن زيدون أربعة أشهر، فهل كان هذا الشاب يرصده فى نهاية الطريق ليحل محله؟ وما ينبغى أن يدهش

فإن أربعة شهور زمن طويل قد تنقلب فيه الدنيا رأسا على عقب، ووقف أمام محل اللعب على بعد يسير من موقفهما، يلحظهما وكأنه يتفرج على اللعب. إنها اليوم تبدو أجمل مما كانت فى أى يوم مضى، كالعروس بكل معنى الكلمة! ولكن ما هذا السواد الذى يشيع فى كافة ملابسها؟ إن سواد المعطف أمر مألوف بل فاخر ولكن ما بال فستانها أسود كذلك؟ موضة أم حداد؟ أتكون أمها قد توفيت؟ ليس من عادته تصفح الوفيات فى الصحف ولكن ماذا يهمه من ذلك؟ الذى يهمه حقًا أن صفحة بدور قد انطوت فى كتاب حياته، انتهت بدور، وعرف السؤال الحائر «أتزوج أم لا أتزوج» جوابه المحتوم! فليهنأ بالطمأنينة بعد الحيرة والعذاب! وكم تمنى لو تتزوج ليخلص من عذابه فها هى قد تزوجت فليهنأ بالخلاص من العذاب! وخيل إليه أن إنسانا لو ذبح لعانى مثل الإحساس الذى يعانيه فى موقفه. إن أبواب الحياة تغلق فى وجهه وقد نبذ خارج أسوارها. ثم رآهما يتحولان عن موقفهما، ويتجهان نحوه، ومرا به فى سلام وأتبعهما عينيه وهم بالمسير فى أثرهما ولكنه عدل عن ذلك فيما يشبه الضجر، ولبث أمام معرض اللعب، ينظر ولا يرى شيئًا، ونظر صوبهما مرة أخرى كأنما ليلقى عليها نظرة الوداع، وكانت تبتعد دون توقف تختفى تارة وراء المارة وتبدو تارة، ويرى منها جانبًا مرة ثم يرى جانبًا آخر. وكان كل وتر من أوتار قلبه يغمغم: «وداعا». ونفذ إلى أعماقه شعور العذاب مصحوبًا بأنغام حزينة ليست بالجديدة. فذكر بها حالا مماثلة ماضية، دبت فى أعماقه جارة وراءها شتى ذكرياتها المدغمة، كأنها لحن غامض مثير لأجل الألم وهو فى الوقت نفسه لا يخلو من لذة خفيفة مبهمة! شعور واحد يلتقى فيه الألم باللذة كالفجر تلتقى عنده حاشية الليل بأهداب النهار. ثم اختفت عن ناظريه، وربما اختفت إلى الأبد، كما اختفت أخت لها من قبل! ووجد نفسه يتساءل من عسى أن يكون خطيبها؟ لم يستطع أن يتفحصه وكم يود أن يفعل، وود ـ أن يكون موظفًا ـ أن يكون من طبقة أدنى من طبقة المعلمين! ولكن ما هذه الأفكار الصبيانية؟ إنه لأمر مخجل، أما عن الألم فجدير بالخبير به أن يطمئن إذ أنه عرف بالتجربة أن مصيره ـ ككل شىء ـ إلى الموت. وانتبه أول مرة إلى معرض اللعب الذى ينبسط تحت عينيه، كان آية فى التنسيق والجمال، حاويا لشتى فنون اللعب التى يهيم بها الأطفال من قطارات وسيارات وأراجيح وأدوات موسيقية وبيوت وحدائق، فانجذب إلى المنظر أمامه بقوة غريبة تفجرت عنها نفسه المعذبة حتى تشبثت بها عيناه، لم يتح له فى طفولته أن ينعم بهذه الجنة فكبر طاويا نفسه على غريزة لم تشبع وفات أوان إشباعها. وهؤلاء الذين يتحدثون عن سعادة الطفولة من أدارهم بها؟ ومنذا يستطيع أن يجزم بأنه كان طفلاً سعيدًا؟ لذلك فما أسخف هذه الرغبة الطارئة البائسة التى تحلم بأن ترده طفلاً مثل هذا الطفل الخشبى الذى يلعب فى هذه الحديقة الوهمية الجميلة! إنها رغبة سخيفة ومحزنة فى آن. ولعل الأطفال فى الأصل كائنات لا تحتمل، ولعلها المهنة وحدها التى

علمته كيف يمكن التفاهم معهم وتوجيههم. ولكن كيف كانت تكون الحياة لو رد إلى الطفولة محتفظًا فى ذات الوقت بعقله النامى وذاكرته؟ فيعود إلى اللعب فى بستان السطح بقلب عامر بذكريات عايدة، أو يمضى إلى العباسية عام ١٩١٤ فيرى عايدة وهى تلعب فى الحديقة ويعرف فى الوقت نفسه ما لقيه منها عام ١٩٢٤ وما بعده! أو يخاطب أباه وهو يلثغ فيقول له إن الحرب ستقع عام ١٩٣٩ وأنه سيقضى عليه عقب إحدى غارتها! يا لها من أفكار سخيفة ولكنها خير على أى حال من التركيز فى هذه الخيبة الجديدة التى ارتطم بها الآن فى شارع فؤاد، خير من التفكير فى بدور وخطيبها وموقفه منها، ولعل ثمة خطأ فى الماضى يكفر عنه وهو لا يدرى، كيف ومتى وقع هذا الخطأ؟ لعله حادث عرضى أو كلمة قيلت أو موقف كابده، هذا أو ذاك هو المسئول عن هذا العذاب الذى يعانى. يجب أن يعرف نفسه حتى يتيسر له أن يخلصها من آلامها، فالمعركة لم تنته بعد، والتسليم لم يقع، وما ينبغى له أن يقع، ولعله المسئول عن ذلك التردد الجهنمى الذى انتهى به إلى قضم الأظافر على حين مضت بدور متأبطة ذراع خطيبها! وينبغى التفكير مرتين فى هذا العذاب المبطن بلذة غامضة، أليس هو الذى ذاقه قديمًا فى صحراء العباسية وهو يتطلع إلى الضوء المنبعث من نافذة حجرة الزفاف؟ فهل كان تردده حيال بدور حيلة لدفع نفسه إلى موقف مماثل ليستعيد مشاعر قديمة فيثمل بعذابها ولذتها معا؟! يحسن به قبل أن يحرك يده للكتابة عن الله والروح والمادة أن يعرف نفسه، بل شخصه المفرد، كمال أفندى أحمد، بل كمال أحمد، بل كمال فقط، حتى يتسنى له أن يخلقه من جديد، وليبدأ الليلة بمعاودة كراسة الذكريات ليتفحص الماضى جيداً، وستكون ليلة بلا نوم، ولكنها ليست الأولى من نوعها، فعنده منها ذخيرة يصح جمعها فى مؤلف واحد تحت عنوان «ليالى بلا نوم»، ولن يقول إن حياته عبث، ففى النهاية سيخلف عظامًا قد تصنع منها الأجيال القادمة أداة للهو! أما بدور فقد ولت من حياته إلى الأبد، يا لها من حقيقة مليئة بالشجن، كاللحن الجنائزى، ولم تترك ذكرى حنان واحدة، لا عناق ولا قبل، حتى ولا لمسة أو كلمة طيبة، ولكنه لم يعد يخشى السهاد. فقديما كان يلقاه وحيدا، أما اليوم فدون ذلك أفانين تغيب فيها العقول والقلوب، ثم يذهب إلى عطية فى البيت الجديد بشارع محمد على، ثم يواصلان أحاديثهما التى لا تنقضى. وفى آخر مرة قال لها بلسان أثقله السكر:

ـ كم يوافق أحدنا الآخر!

فقالت له بسخرية مستسلمة:

ـ ما ألطفك فى سكرك!..

فاستطرد:

ـ ما أسعدنا من زوجين لو تزوجنا! . .

فقالت مقطبة:

ـ لا تهزأ بى فقد كنت «سيدة» بكل معنى الكلمة . .

ـ نعم، نعم، إنك ألذ من الفاكهة فى إبانها! . .

فقرصته هازئة وقالت:

ـ هذا قولك ولكننى إذا سألتك ريالا فوق ما تعطينى هربت!

ـ إن ما بيننا ليسمو فوق النقود!

فحدجته بنظرة احتجاج وقالت:

ـ ولكن لى طفلان يفضلان النقود على ما بيننا!

فبلغ به السكر والحزن غايتهما وقال ساخراً:

ـ أنا أفكر فى التوبة أسوة بالست جليلة، ويوم يختارنى التصوف فسأنزل لك عن ثروتى!

فقالت ضاحكة:

ـ إذا وصلت التوبة إليك فقل علينا السلام . .

فضحك ضحكة عالية وقال:

ـ لا كانت التوبة المضرة بمثيلاتك!

إلى هذا يفزع من السهاد! ثم شعر بأن وقفته أمام معرض اللعب قد طالبت فتحول عنه وذهب . .

٤٨

تساءل خالو صاحب حانة النجمة:

ـ حقيقى يا حبيبى أنهم سيغلقون الخمارات؟

فأجاب ياسين بثقة واطمئنان:

ـ لا سمح الله يا خالو! من عادة النواب أن يثرثروا عند نظر الميزانية، ومن عادة الحكومة أن تعد بالنظر فى تحقيق رغبات النواب فى أقرب فرصة، ومن عادة هذه الفرصة ألا تقترب أبدا . .

واستبقت جماعة ياسين بحانة محمد على المشاركة فى التحقيق، فقال رئيس المستخدمين:

ـ طول عمرهم يعدون بإخراج الإنجليز، وبفتح جامعة جديدة، وبتوسيع شارع الخليج، فهل تم شىء من هذا يا خالو؟

وقال عميد ذوى المعاشات:

ـ لعل النائب مقدم الاقتراح قد شرب خمرا زعافًا من خمور الحرب فانتقم بتقديم اقتراحه..

وقال المحامى:

ـ ومهما يكن من أمر، فإن حانات الشوارع الإفرنجية لن تمس بسوء، فما عليك يا خالو إذا وقع المحذور، إلا أن تسهم فى تافرنا أوغيرها.. الخمار للخمار كالبنيان يشد بعضه بعضا..

وقال باشكاتب الأوقاف:

ـ إذا كان الإنجليز قد دفعوا بدباباتهم إلى عابدين لمسألة تافهة هى إعادة النحاس إلى الحكم، فهل تظنهم يسكتون عن إغلاق الخمارات؟!

وكان بالحجرة ـ إلى جماعة ياسين ـ نفر من أهل البلد من التجار، ولكن على الرغم من ذلك اقترح الباشكاتب أن يمزجوا سكرهم بشىء من الغناء قائلاً:

ـ هلموا نغنى «أسير العشق».

فبادر خالو بالعودة على موقفه وراء الطاولة، وراح الأصدقاء يغنون: «أسير العشق يا ما يشوف هوان»، وبدت نغمة السكر أوضح الأنغام فى أصواتهم حتى لاحت فى وجوه أهل البلد بسمات ساخرة، غير أن الغناء لم يستمر طويلاً، وكان ياسين أول المنسحبين، ثم تبعه الآخرون فلم يتم الدور إلا لباشكاتب، ثم ساد سكوت تقطعه من حين إلى حين مصمصة أو تمطق أو يد تصفق فى طلب كأس أو مزة، وإذا بياسين يقول:

ـ أما من وسيلة ناجعة للحبل!

فقال الموظف العجوز كالمحتج:

ـ لا تفتأ تسأل هذا السؤال وتعيده!.. صبرك بالله يا أخى!..

وقال باشكاتب الأوقاف:

ـ لا داعى للجزع يا ياسين أفندى، ومسير بنتك تحبل!

فقال ياسين وهو يبتسم ابتسامة بلهاء:

ـ إنها عروس كالوردة، زينة السكرية، ولكنها أول فتاة فى أسرتنا يمر عليها عام على زواجها دون أن تحمل، لهذا جزعت أمها!

ـ وأبوها فيما يبدو!

فقال ياسين وهو يبتسم ابتسامة بلهاء:

ـ إذا جزعت الزوجة جزع زوجها..

ـ لو يتذكر الإنسان قرف الأولاد لكره الحبل!..

ـ ولو! الناس يتزوجون عادة لإنجاب الذرية..

ـ لهم حق!، لولا الأطفال ما طاق الحياة الزوجية أحد..

فشرب ياسين كأسه وهو يقول:

ـ أخشى أن يكون ابن أختى من أتباع هذا الرأى..

ـ بعض الرجال ينجبون الأطفال ليشغلوا زوجاتهم بهم فيستردوا شيئًا من حريتهم المفقودة!

فقال ياسين:

ـ هيهات! المرأة ترضع طفلاً وتهدهد آخر ولكنها فى نفس الوقت تحملق فى زوجها «أين كنت؟ لماذا غبت إلى هذه الساعة؟» ومع ذلك فالحكماء لم يستطيعوا أن يغيروا هذا النظام الكونى.

ـ ماذا منعهم؟

ـ أزواجهم! لم يدعن لهم فرصة للتفكير فى ذلك..

ـ اطمئن يا ياسين أفندى، فإن زوج ابنتك لا يمكن أن ينسى فضل ابنك فى توظيفه..

ـ كل شىء ينسى..

ثم ـ وهو يضحك ـ وقد دغدغت الخمر رأسه:

ـ ثم إن «المحروس» نفسه خارج الحكم الآن!

ـ آه! والوفد سيعمر هذه المرة فيما يبدو..

وإذا بالمحامى يقول بلهجة خاطبية:

ـ لو سارت الأمور سيرا طبيعيا فى مصر لحكم الوفد إلى الأبد!..

فقال ياسين ضاحكا:

ـ هذا القول له وجاهته لولا خروج ابنى على الوفد!

ـ ولا تنسوا حادث القصاصين! إذا مات الملك فقل على أعداء الوفد السلام!

ـ الملك بسلام!..

ـ الأمير محمد على يعد بذلة التشريفة! وهو منسجم مع الوفد طول عمره . .

ـ الجالس على العرش ـ أيًا كان اسمه ـ هو عدو للوفد بحكم مركزه كالويسكى والحلوى لا يتفقان!

فقال ياسين وهو يضحك نشوة :

ـ لعل الحق معكم ، فأكبر منك بيوم يعرف أكثر منك بسنة ، وأنتم منكم من بلغ أرذل العمر ومنكم من يوشك أن يدركه!

ـ اسم الله عليك يا بن السبعة والأربعين!

ـ على أى حال فأنا أصغركم سنًا . .

ثم فرقع بأصابعه وهو يتمايل نشوة خيلاء ، واستطرد :

ـ ولكن العمر الحقيقى لا يقاس بالسنين ، ولكن بالنشوة ينبغى أن يقاس ، والخمر قد انحطت نوعًا ومذاقًا فى أيام الحرب ولكن نشوتها هى هى ، وعند الاستيقاظ صباحًا يدق رأسك الصداع فتفتح عينيك بكماشة ثم تتجشأ كحولا ، غير أنى أقول لكم إنه فى سبيل النشوة يهون أى شىء ، ورب أخ يتساءل والصحة؟ أجل لم تعد الصحة كما كانت ، وابن السبعة والأربعين غير مثيله فى الزمن الأول مما يدل على أن كل شىء قد غلا ثمنه فى الحرب إلا العمر فلا ثمن له ، فى الزمن الأول كان الرجل يتزوج فى الستين من عمره أما فى زماننا الغادر فابن الأربعين يسأل أهل العلم عن الوصفات المقوية ، والعريس فى شهر العسل قد يوحل فى شبر ماء!

ـ الزمن الأول! أهل الدنيا جميعًا يسألون عنه!

فعاد ياسين يقول وقد أخذت أنغام السكر ترن فى أوتار صوته :

ـ الزمن الأول ، اللهم ارحم أبى ، شد ما ضربنى ليمنعنى من الاشتراك الدموى فى الثورة! ولكن الذى لا ترهبه قنابل الإنجليز لا يرهبه الزجر! وفى قهوة أحمد عبده كنا نجتمع لتدبر المظاهرات وقذف القنابل . .

ـ هذه الأسطوانة من جديد! خبرنى يا ياسين أفندى أكان وزنك ايام الجهاد كوزنك اليوم؟

ـ وأثقل ، غير أنى كنت حين الجد كالنحلة ، وفى يوم المعركة الكبرى سرت على رأس المظاهرة أنا وأخى أول شهداء الحركة الوطنية ، فسمعت أزيز الرصاص وهو يمرق لصق أذنى ويستقر فى أخى ، يا للذكرى! لو امتد به العمر للحق بركب الوزراء المجاهدين!

ـ ولكن العمر امتد بك أنت!

ـ نعم ، ولكن ما كان بوسعى أن أكون وزيرًا بالابتدائية ، ثم إننا فى جهادنا توقعنا

الموت لا المناصب، غير أنه لا بد أن يموت أناس ويتبوأ المناصب آخرون، وفى جنازة أخى مشى سعد زغلول فقدمنى إليه زعيم الطلبة، هذه ذكرى عظيمة أخرى!

ـ ولكن كيف وجدت ـ رغم جهادك ـ متعا للعربدة والعشق؟!

ـ اسمعوا يا هوه! وهؤلاء الجنود الذين يضاجعون النساء فى الطرق أليسوا هم الذين ردوا رومل على أعقابه؟! فالجهاد لا يكره الفرفشة، والخمر لو علمتم روح الفروسية، والمجاهد والسكران أخوان يا أولى الألباب!

ـ وسعد زغلول ألم يقل لك شيئا فى جنازة أخيك..؟

فأجاب عنه المحامى قائلاً:

ـ قال له ليتك كنت الشهيد أنت!..

وضحكوا، وكانوا فى هذه الحال يضحكون أولاً ثم يتساءلون عن السبب، وضحك معهم ياسين فى أريحية صافية ثم واصل حديثه قائلاً:

ـ لم يقل هذا، كان رحمه الله مؤدبا لا كحضرتك، وكان ابن حظ أيضًا، ولذلك كان واسع الآفاق، فكان سياسيًا ومجاهدًا وأديبًا وفيلسوفًا وقانونيًا، وكانت كلمة منه تحيى وتميت!

ـ الله يرحمه.

ـ ويرحم الجميع، كل ميت يستحق الرحمة، بحسبه أنه فقد الحياة، حتى المومس وحتى القواد، وحتى الأم التى كانت تبعث بابنها إلى رفيقها ليعود إليها به..

ـ وهل يمكن أن توجد هذه الأم؟!

ـ كل ما تتصور وما لا تتصور يوجد فى الحياة!

ـ ألم تجد إلا ابنها؟

ـ ومن أرعى للأم من الابن؟! ثم إنكم جميع أبناء المضاجعة!

ـ الشرعية!..

ـ هذه شكليات أما الحقيقة فواحدة، وقد عرفت مومسات بائسات كان فراشهن يخلو من ضجيع أسبوعًا أو أكثر، دلونى على أم من أمهاتكم قضت مثل هذه الفترة بعيدا عن قرينها!

ـ لا أعرف شعبًا كالشعب المصرى ولعا بالخوض فى أعراض الأمهات!

ـ نحن شعب قليل الأدب!..

فقال ياسين ضاحكًا:

ـ إن الزمن أدبنا أكثر مما ينبغى، والشىء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده،

ولذلك فنحن غير مؤدبين! ولكن تغلب علينا الطيبة رغم ذلك، فالتوبة عادة ختامنا! . .

ـ هاأنا من ذوى المعاشات ولكننى لم أتب بعد!

ـ التوبة لا تخضع لكادر الموظفين، ثم إنك لا تفعل شيئا ضارا، أنت تسكر ساعات كل ليلة وليس فى ذلك من بأس، وسوف يمنعك عن السكر يومًا المرض أو الطبيب وكلاهما شيء واحد، ونحن بطبعنا ضعفاء، ولولا ذلك ما ألفنا الخمر ولا صبرنا على الحياة الزوجية، ونزداد بمرور الأيام ضعفا ولكن رغائبنا لا تقف عند حد، هيهات، فنتعذب ثم نسكر مرة أخرى، ويشيب شعرنا فيفضح منا المستور وإذا بصفيق يعترض سبيلك فى الطريق وهو يقول: «عيب أن تطارد امرأة وشعرك شايب!» يا سبحان الله ما لك أنت إذا كنت شابًا أو شيخًا، أتبع امرأة أم أتبع حمارة! حتى تخال حينا أن الناس متآمرون مع زوجك عليك، وهنالك إلى ذلك كله الدلال بثقله والعسكرى بهراوته، حتى الخادمة تتيه دلالا فى سوق الخضار، وهكذا تجد نفسك فى عالم مشاكس لا صديق لك فيه إلا الكأس، ثم يجيء دور المرتزقة من الأطباء فيقولون لك بكل بساطة: «لا تشرب!».

ـ ومع ذلك أتنكر أننا نحب الدنيا بكل قلوبنا؟

ـ بكل قلوبنا! والشر نفسه لا يخلو من خير، حتى الإنجليز لا يخلون من خير، لقد عرفتهم يومًا عن كثب، وكان لى منهم أصدقاء على عهد الثورة!

فهتف المحامى:

ـ ولكنك كنت تجاهدهم. . أنسيت؟!

ـ نعم. . نعم، لكل حال ما يناسبها، وفى مرة ظنونى جاسوسا لولا أن سارع إلى زعيم الطلبة فى اللحظة المناسبة فدل القوم على حقيقتى فهتفوا لى، وكان ذلك فى جامع الحسين!

ـ يعيش ياسين. . يعيش ياسين! ولكن ماذا كنت تفعل فى جامع الحسين؟

ـ أجب، هذه نقطة هامة جدًا!

فضحك ياسين ثم قال:

ـ كنا نصلى الجمعة، وكان من عادة أبى أن يأخذنا معه لصلاة الجمعة، ألا تصدقون؟ سلوا أهل الحسين! . .

ـ كنت تصلى زلفى لأبيك؟

ـ ولله، لا تسيئوا الظن بنا، نحن أسرة دينية، أجل كلنا سكيرون فاسقون، ولكن فى النهاية تنتظرنا التوبة!

وهنا تأوه المحامى قائلا :

ـ ألا نعاود الغناء قليلاً؟

فبادره ياسين قائلاً :

ـ أمس غادرت الحانة وأنا أغنى فاعترضنى شرطى وهتف بى محذرا : «يا أفندى!» فسألته : «ألا يحق لى أن أغنى؟» ، فقال : «ممنوع الزعيق بعد الساعة ١٢» فقلت محتجًا : «ولكننى أغنى!» فقال بحدة : «كله زعق أمام القانون» ، فسألته : «والقنابل التى تنفجر بعد الساعة ١٢ ألا تعد زعقًا؟» فقال مهددًا : «الظاهر أنك ترغب فى البيات فى القسم» فابتعدت عنه وأنا أقول : «بل الأفضل أن أبيت فى البيت!» ، كيف نكون أمة متحضرة والعساكر تحكمنا؟! وفى البيت تلقى زوجك بالمرصاد وهنالك فى الوزارة رئيسك ، حتى فى التربة يستقبلك ملكان بالهراوات . .

وعاد المحامى يقول :

ـ فلنمز بشىء من الغناء . .

فتنحنح عميد ذوى المعاشات ثم راح يترنم :

جوزى اتجوز عليه ولسه الحنة فى إيديه .

يوم ما جه وجبها عليه دى نار يا ناس وآدت فيه

وسرعان ما رددوا المطلع فى حماس همجى ، وكان ياسين يغرق فى الضحك حتى دمعت عيناه . .

٤٩

كثيرًا ما كانت تشعر خديجة بأنها وحيدة . ومع أن إبراهيم شوكت ـ خاصة منذ أن قارب السبعين ـ كان يعتكف فى بيته طوال أيام الشتاء ، إلا أنه لم يستطع أن يبدد وحشتها ، ولم تهن فى القيام بواجبات بيتها ، غير أنها ـ الواجبات ـ باتت أهون من أن تستغرق حيويتها ونشاطها ، فعلى تجاوزها السادسة والأربعين لم تزل قوية نشيطة وازدادت جسامة . وأسوأ من هذا أن وظيفتها كأم قد انقطعت على حين أن دورها كحماة لم ولن يبدأ أبدا فيما بدا . فإحدى الزوجتين ابنة أخيها ، والأخرى موظفة لاتكاد تلتقى بها إلا فيما ندر من الأوقات والمناسبات . فكانت تروح عن صدرها المكبوت فيما يدور بينها وبين زوجها المتلفع بعباءته .

ـ مضى أكثر من عام على زواجهما ولم نوقد شموعًا!

فهز الرجل منكبيه استهانة دون تعليق فعادت تقول:

ـ لعل عبد المنعم وأحمد يعدان الذرية موضة قديمة كطاعة الوالدين!

فقال الرجل فى ضجر:

ـ أريحى نفسك فهما سعيدان وحسبنا هذا.

فتساءلت فى حدة:

ـ إذا كانت العروس لا تحبل ولا تلد فما فائدتها؟

ـ لعل إبنيك يخالفانك فى هذا الرأى!

ـ لقد خالفانى فى كل شىء، ما أضيع تعبى وأملى. .

ـ أيحزنك ألا تكونى جدة؟

فقالت فى حدة تعالت درجتها:

ـ إن حزنى عليهما لا على نفسى!

ـ لقد عرض عبد المنعم كريمة على الطبيب فبشره خيراً.

ـ أنفق المسكين كثيراً وسينفق غداً أكثر، إن عرائس اليوم غالية الثمن كالطماطم واللحوم!

فضحك الرجل دون تعليق فاستطردت تقول:

ـ أما الأخرى فأستعين عليها بسيدى المتولى.

ـ إعترفى بأن لسانها كالشهد!

ـ مكر ودهاء، ماذا تتوقع من إبنة العنابر؟

ـ إتقى الله يا شيخة!

ـ ترى متى يذهب بها «الأستاذ» إلى الطبيب؟

ـ إنهما زاهدان فى هذا!

ـ طبعًا، إنها موظفة، فمن أين تجد الوقت للحبل والولادة؟

ـ إنهما سعيدان ما فى ذلك شك.

ـ الموظفة لا يمكن أن تكون زوجة صالحة، وسيعرف ذلك بعد فوات الأوان. .

ـ إنه رجل ولن يضيره ذلك. .

ـ ليس فى هذا الحى كله شابان كولدى فيا خسارة!

* * *

وكان عبد المنعم قد تبلور طابعه واتجاهه، فأثبت أنه موظف كفء و«أخ» نشيط، وقد انتهى الإشراف على شعبة الجمالية إليه فعين مستشاراً قانونيًا لها، وأسهم فى تحرير المجلة، وكان يلقى المواعظ أحيانًا فى المساجد الأهلية. وجعل من شقته ناديًا لإخوانه يسهرون عنده كل ليلة وعلى رأسهم الشيخ على المنوفى. وكان الشاب شديد التحمس موفور الاستعداد كى يضع جميع ما يملك من جهد ومال وعقل فى خدمة الدعوة التى آمن بكل قلبه ـ على حد تعبير المرشد ـ بأنها دعوة سلفية وطريقة سنية وحقيقة صوفية وهيئة سياسية وجماعة رياضية ورابطة علمية ثقافية وشركة اقتصادية وفكرة اجتماعية، وكان الشيخ على المنوفى يقول:

ـ تعاليم الإسلام وأحكامه شاملة تنظيم شئون الناس فى الدنيا والآخرة، وأن الذين يظنون أن هذه التعاليم إنما تتناول الناحية الروحية أو العبادة دون غيرها من النواحى مخطئون فى هذا الظن، فالإسلام عقيدة وعبادة ووطن وجنسية ودين ودولة وروحانية ومصحف وسيف. .

فيقول شاب من المجتمعين:

ـ هذا هو ديننا، ولكننا جامدون لا نفعل شيئا والكفر يحكمنا بقوانينه وتقاليده ورجاله. .

فيقول الشيخ على:

ـ لا بد من الدعاية والتبشير، وتكوين الأنصار المجاهدين، ثم تجىء مرحلة التنفيذ. .

ـ وإلام ننتظر؟

ـ لننتظر حتى تنتهى الحرب. إن الحقل مهيأ لدعوتنا، وقد نزع الناس ثقتهم من الأحزاب، وعندما يهتف الداعى فى الوقت المناسب يهب الإخوان وكل مدرع بقرآنه وسلاحه. .

عبد المنعم بصوته القوى العميق:

ـ فلنوطن النفس على جهاد طويل، إن دعوتنا ليست موجهة إلى مصر وحدها. ولكن إلى كافة المسلمين فى الأرض، ولن يتحقق لها النجاح حتى تجمع مصر والأمم الإسلامية على هذه المبادئ القرآنية، فلن نغمد السلاح حتى نرى القرآن دستوراً للمسلمين أجمعين. .

الشيخ على المنوفى:

ـ أبشركم بأن دعوتنا تنتشر بفضل الله فى كل بيئة، لها اليوم مركز فى كل قرية، إنها دعوة الله، والله لا يخذل قومًا ينصرونه. .

وفى نفس الوقت، كان يستعر نشاط آخر فى الدور التحتانى وإن اختلف الهدف،

ولم يكن وفير العدد كهذا، فإن أحمد وسوسن كانا يجتمعان فى كثير من الليالى بعدد محدود من الأصدقاء مختلفى النحل والملل، أكثرهم من البيئة الصحفية. وقد زارهم الأستاذ عدلى كريم ذات مساء، وكان على علم بما يدور بينهم من مناقشات نظرية. فقال لهم:

- حسن أن تدرسوا الماركسية، ولكن تذكروا أنها وإن تكن ضرورة تاريخية إلا أن حتميتها ليست من حتمية الظاهرات الفلكية. إنها لن توجد إلا بإرادة البشر وجهادهم، فواجبنا الأول ليس فى أن نتفلسف كثيراً ولكن فى أن نملأ وعى الطبقة الكادحة بمعنى الدور التاريخى الذى عليها أن تلعبه لإنقاذ نفسها والعالم جميعًا..

أحمد..

- إننا نترجم الكتب القيمة عن هذه الفلسفة للخاصة من المثقفين، ونلقى المحاضرات الحماسية على العمال المجاهدين، وكلا العملين واجب لا غنى عنه..

فقال الأستاذ:

- ولكن المجتمع الفاسد لن يتطور إلا باليد العاملة، وحين يمتلئ وعيها بالإيمان الجديد، ويمسى الشعب كله كتلة واحدة من الإرادة، فهنالك لن تقف فى سبيلنا القوانين الهمجية ولا المدافع..

- كلنا مؤمنون بذلك، غير أن كسب العقول المثقفة بمعنى السيطرة على الفئة المرشحة للتوجيه والحكم..

وإذا بأحمد يقول:

- سيدى الأستاذ، ثمة ملاحظة أود إبداءها، عرفت بالتجربة أنه ليس من العسير إقناع المثقفين بأن الدين خرافة وأن الغيبيات تخدير وتضليل، ولكن من الخطورة بمكان مخاطبة الشعب بهذه الآراء، وإن أكبر تهمة يستغلها أعداؤنا هى رمى حركتنا بالإلحاد أو الكفر؟

- إن مهمتنا الأولى أن نحارب روح القناعة والخمول والاستسلام، أما الدين فلن يتأتى القضاء عليه إلا فى ظل الحكم الحر، ولن يتحقق هذا الحكم إلا بالانقلاب، وعلى العموم فالفقر أقوى من الإيمان، ومن الحكمة دائمًا أن تخاطب الناس على قدر عقولهم..

ونظر الأستاذ إلى سوسن باسما وهو يقول:

- كنت تؤمنين بالعمل فهل بت تقنعين بالنقاش فى ظل الزواج؟..

وكانت تدرك أنه يداعبها وأنه لا يعنى ما يقول: ومع ذلك فقد قالت جادة:

ـ إن زوجى يحاضر العمال فى الخرابات النائية، وأنا لا أنى أوزع المنشورات بنفسى . .

ثم قال أحمد مغتمًا :

ـ إن عيب حركتنا أنها تجذب إليها كثيرين من النفعيين غير المخلصين، من هؤلاء من يعمل بغية الأجر أو من يعمل للمصلحة الحزبية!

فقال الأستاذ عدلى كريم وهو يهز رأسه الكبير فى استهانة واضحة :

ـ أعلم هذا حق العلم، ولكنى أعلم أيضًا أن الأمويين قد ورثوا الإسلام وهم لا يؤمنون به ومع ذلك فهم الذين نشروه فى بقاع العالم القديم حتى أسبانيا!! فمن حقنا أن نستفيد من هؤلاء، علينا أن نحذرهم فى الوقت نفسه، ولا تنسوا أن الزمن معنا على شرط أن نبذل ما فى وسعنامن جهد وتضحية . .

ـ والإخوان يا أستاذ! لقد بتنا نشعر بأنهم عقبة خطيرة فى سبيلنا!

ـ لا أنكر هذا، ولكنهم ليسوا بالخطورة التى تتخيلها، ألاترى أنهم يخاطبون العقول بلغتنا فيقولون اشتراكية الإسلام؟ فحتى الرجعيون لم يجدوا بدا من استعارة اصطلاحاتنا، وهم لو سبقونا إلى الانقلاب فسوف يحققون بعض مبادئنا ولو تحقيقا جزئيًا، ولكنهم لن يوقفوا حركة الزمن المتقدمة إلى هدفها المحتوم، ثم إن نشر العلم كفيل بطردهم كما يطرد النور الخفافيش!

* * *

ومضت خديجة تراقب مظاهر هذا النشاط الغريب فى دهشة مقرونة بالامتعاض والسخط، حتى قالت يوما لزوجها :

ـ لم أر بيتا كبيتى عبد المنعم وأحمد، لعلهما قهوتان وأنا لا أدرى، فلا يجىء المساء حتى يمتلئ الطريق بالزوار من أصحاب الحى والخواجات، لم أسمع عن شىء كهذا من قبل . .

فهز الرجل رأسه قائلاً :

ـ آن لك أن تسمعى . .

فقالت بحدة :

ـ إن مرتبيهما لن يكفيا ثمن القهوة التى تقدم للضيوف!

ـ هل اشتكيا إليك الفقر؟

ـ والناس؟ماذا يقولون وهم يرون أفواجًا تدخل وأفواجًا تخرج؟

ـ كل واحد حر فى بيته . .

فنفخت قائلة :

ـ إن أصوات أحاديثهم التى لا تنتهى تعلو أحيانًا حتى تخرج إلى الحارة . .

ـ فلتخرج إلى الحارة أو فلتصعد إلى السماء ! . .

وتنهدت خديجة من الأعماق وهى تضرب كفا بكف . .

٥٠

كانت فيللا عبد الرحيم باشا عيسى بحلوان تودع الفوج الأخير من الزوار الذين جاءوا يودعونه قبيل سفره إلى الأراضى الحجازية لأداء فريضة الحج . .

ـ إن الحج أمنية قديمة ، لعن الله السياسة فهى التى شغلتنى عنه عامًا بعد عام ، ولكن فى مثل عمرى يجب أن يفكر المرء فى أداء اللقاء القريب بربه .

فقال على مهران وكيل الباشا :

ـ لعن الله السياسة !

فردد الباشا عينيه الذابلتين بين رضوان وبين حلمى متفكراً ثم قال :

ـ قل فيها ما شئت ، غير ان لها جميلا فى عنقى لا أنساه وهو أنها سلتنى عن وحشتى ، إن الأعزب العجوز مثلى يلتمس الأنس ولو فى الجحيم !

فلعب على مهران حاجبيه وقال :

ـ ونحن يا باشا ألم نقم بواجبنا فى تسليتك ؟

ـ دون شك ، ولكن يوم الأعزب طويل كليل الشتاء ، ولابد للإنسان من رفيق ، وإنى لأعترف بأن المرأة ضرورة خطيرة ، وكم أذكر أمى هذه الأيام ! إن المرأة ضرورة حتى لمن لا يتعشقها !

وكان رضوان يفكر فى أمور بعيدة فإذا به يسأل الباشا :

ـ هب النحاس باشا يسقط أفلا تعدل عن السفر ؟ !

فلوح الباشا بيده ساخطًا وقال :

ـ فليبق بنحسه حتى أعود على الأقل من الحج ! . .

ثم وهو يهز رأسه :

ـ كلنا مذنب ، والحج يغسل الذنوب . .

فضحك حلمى عزت قائلاً :

ـ إنك يا باشا مؤمن، وإن إيمانك لمايحير الكثيرين!

ـ لم؟ إن الإيمان واسع الصدر، المنافق وحده الذى يدعى البراءة المطلقة، ومن الغباء أن تظن أن الإنسان لا يقترف الذنوب إلا على جثة الإيمان، ثم إن ذنوبنا أشبه بالعبث الصبيانى البرىء!

فقال على مهران متنهداً فى ارتياح:

ـ يا له من قول جميل! والآن دعنى أصارحك بأنى تشاءمت كثيراً حين حدثتنى عن أعتزامك الحج، وساءلت نفسى ترى أهى التوبة؟! وهل تنتهى بالنسبة لنا مسرات الحياة؟!

فضحك الباشا حتى اهتز جذعه وقال:

ـ أنت شيطان من صلب شيطان، أتحزنون حقًا إذا علمتم أنها التوبة؟

فقال حلمى متأوها:

ـ كمن ذبح وليدها فى حجرها!..

فضحك عبد الرحيم باشا مرة أخرى وقال:

ـ آم منكم يا أولاد الإيه، على مثلى إذا أراد التوبة حقًا أن ينأى بنفسه عن العيون النجل والخدود الوردية، وأن يعكف على مجاورة قبر النبى عليه الصلاة والسلام..

فهتف مهران فى شماتة:

ـ الحجاز وما أدراك ما الحجاز، لقد حدثنى عنها العارفون، ستكون كالمستجير من الرمضاء بالنار!

فقال حلمى عزت كالمحتج:

ـ لعلها دعاية كاذبة كالدعايات الإنجليزية، وهل يوجد فى الحجاز كله وجه كوجه رضوان؟!

فهتف عبد الرحيم عيسى:

ـ ولا فى الجنة!.. (ثم متراجعًا).. لكننا يا أولاد الحرام بصدد حديث التوبة!

فقال على مهران:

ـ مهلاً يا باشا، لقد أخبرتنى يومًا عن الصوفى الذى تاب سبعين مرة، أليس معنى هذا أنه أذنب سبعين مرة؟

فقال رضوان:

ـ أو مائة مرة!

فقال على مهران :

ـ أنا راض بسبعين !

فتساءل الباشا ووجهه يتهلل بشرا :

ـ وهل فى العمر بقية؟

ـ ربنا يطول عمرك يا باشا ، طمئنا وقل إنها التوبة الأولى !

ـ والأخيرة !

ـ فشر ! إذا تحديتنى فسوف أستقبلك حين العودة من الحج بقمر ولا كل الأقمار ثم ننظر ماذا يكون من أمرك !

فقال الباشا باسما :

ـ ستكون النتيجة مثل وجهك يا بوز الأخص ، أنت شيطان يا مهران ، شيطان لا غنى للإنسان عنه . .

ـ أحمد الله على ذلك . .

رضوان وحلمى فى وقت واحد تقريبًا :

ـ ونحمده عليه . .

فقال الباشا فى خيلاء وسرور :

ـ أنتم أنسى ، ما الحياة بدون المودة والصداقة؟ الحياة جميلة ، الجمال جميل ، الطرب جميل ، العفو جميل ، أنتم شباب وتنظرون إلى الدنيا من زاوية خاصة ، وسوف يعلمكم العمر الكثير ، إنى أحبكم وأحب الدنيا ، وأن زيارتى لبيت الله للشكر والاعتذار وطلب الهداية . .

فقال رضوان باسمًا :

ـ ما أجمل منظرك ! إنك تقطر صفاء . .

فقال على مهران بمكر :

ـ ولكن حركة صغيرة تجعله يقطر أشياء أخرى ، حقا يا باشا إنك معلم الجيل !

ـ وأنت إبليس نفسه يا ابن الهرمة ! اللهم إنى إذا قدمت يوما للحساب فسأشير إليك وكفى !

ـ أنا ! مظلوم والله ، لست إلا عبدا مأمورا ! . .

ـ بل أنت شيطان . .

ـ ولكن لا غنى لإنسان عنه ؟

فضحك الباشا قائلا :

ـ نعم يا عكروت . .

ـ كنت وما أزال فى حياتك العامرة نغما مطربا ووجها مليحا وهناء متجددا، وأخيرا لا تنس أيام شبابى يا سعادة الغادر . .

فتأوه الباشا قائلا :

ـ أيـام زمـان . . آه مـن الزمـان، يا أولاد لم نكبر ؟ جلت حكمتك يا ربى وعَلَتْ . .

كانت قناتى لا تميل لغامز فألانها الإصباح والإمساء

فقال مهران ملعبا حاجبيه :

ـ لغامز ؟ بل قل لا تميل لمهران . .

ـ يا ابن الكلب لا تفسد الجو بهذرك، لا يجوز أن نعبث عند ذكر الأيام الجميلة، الدموع أحيانا أجمل من الابتسام وأضخم إنسانية وأشد عرفانا بالجميل، اسمعوا هذا أيضا :

واستنكرتنى وما كان الذى نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا

ـ ما رأيكم فى قوله «من الحوادث» ؟

وإذا بمهران ينادى على طريقة باعة الصحف :

ـ الحوادث والأهرام والمصرى . .

الباشا يائسا :

ـ الحق ليس عليك ولكن عـ . . . .

ـ عليك أنت .

ـ أنا . برىء منك، عندما عرفتك كنت على حال يحسدك عليها إبليس، ولكنى لن أسمح لك أن تنتزعنى من جو الذكريات، نعم اسمعوا إلى هذا أيضا :

عريت من الشباب وكان غضا كما يعرى من الورق القضيب

فتساءل مهران كالمنزعج :

ـ القضيب يا باشا :

الباشا وهو يردد ناظريه بين رضوان وحلمى المغرقين فى الضحك :

ـ صاحبكم جثة لا يؤثر فيها الشعر، ولكنه سيبلغ قريبا فترة الحسرات، حين يصير كل جميل خبرا لكان أو إحدى أخواتها، (ثم ملتفتا إلى مهـران) وأصحاب زمان يا ابن الهرمة هل نسيتهم؟

ـ أوه، الله يمسيهم بالخير . . كانوا الجمال كله والدلال كله . .

ـ ماذا تعرف عن شاكر سليمان ؟

ـ كان وكيل الداخلية وفرخة بكشك عند الإنجليز حتى أحيل على المعاش قبل الأوان فى وزارة النحاس الثانية أو الثالثة لا أذكر، وأظنه الآن معتكفا فى عزبته بكوم حمادة . .

ـ يا عينى على أيامه، وحامد النجدى ؟

ـ هذا أسوأ أحبابنا حظا، خسر الجلد والسقط، وإنه ليطوف الآن ليلا بالمراحيض العمومية . .

ـ كان خفيفا ظريفا ولكنه كان كذلك مقامرا وعربيدا . وعلى رأفت؟

ـ لقد بلغ «باجتهاده» أن صار عضوا فى مجلس إدارة عدة شركات، ولكن سمعته ضيعت عليه الوزارة فيما يقال . .

ـ لا تصدق ما يقال، ولى الوزارة أناس جاوزت شهرتهم حدود المملكة، غير أن هذا الرأى الذى طالما نوَّهت لكم عنه وهو أن التحلى بالفضائل العامة واجب علينا أكثر من بقية الناس، فإذا تحقق لأحدكم هذا فلا تثريب عليه بعد ذلك، لقد حكم المماليك مصر أجيالا، وما زالت ذراريهم تنعم بالجاه والمال، وما المملوك؟ هو ذلك نفسه، سأقص عليكم قصة عظيمة المغزى . .

وصمت الباشا قليلا كأنما ليجمع شتات فكره ثم قال :

ـ كنت فى ذلك الوقت رئيس محكمة، وحدث أن عرضت على قضية مدنية عن ميراث مختلف عليه، وقبل نظر القضية عرَّفنى بعضهم بشاب جميل له وجه رضوان وقوام حلمى . . (ثم مشيرا إلى مهران) ورشاقة هذا الكلب فى عز أيامه . فتصادقنا عهدا وأنا لا أدرى عن سره شيئا، حتى إذا كان يوم نظر القضية ما أدرى إلا وهو يقف أمامى ممثلا لأحد طرفى النزاع، ماذا تظنون فعلت ؟ فتمتم رضوان :

ـ يا له من موقف . .

ـ تنحيت عن نظر القضية دون تردد .

وأبدى رضوان وحلمى عن إعجابهما أما مهران فقال كالمحتج :

ـ وضيعت عليه كفاحه ؟

فقال الباشا دون اكتراث لهذر مهران :

ـ ليس هذا فحسب، ولكنى قطعته احتقارا لسوء خلقه، أجل، لا قيمة للإنسان بلا خلق، ليس الإنجليز بأذكى الناس، الفرنسيون والإيطاليون أذكى منهم ولكنهم سادة الخلق فهم سادة العالم . لذلك أنبذ الجمال التافه المنحط .

فتساءل على مهران ضاحكا :

ـ هل أفهم من إبقائك علىَّ أنى ذو خلق ؟ . .

فأشار الباشا نحوه جادا وهو يقول :

ـ الأخلاق متنوعة ، فالقاضى مطالب بالنزاهة والعدل ، والوزير بالواجب والشعور بالمسئولية العامة ، والصديق بالصفاء والوفاء ، وأنت عربيد بلا شك ووغد فى أحايين كثيرة ، ولكنك أمين وفى . .

ـ أرجو أن يكون وجهى قد تورد .

ـ الله لا يكلف نفسا إلا وسعها . والحق أنى قانع بما فيك من خير ، ثم إنك زوج وأب وهذه فضيلة أخرى ، وهى سعادة لا يقدرها إلا من عانى صمت البيوت ، إلا أن صمت المقام عذاب الشيخوخة ! فقال رضوان كالمنكر :

ـ حسبت الشيخوخة محبة للهدوء :

ـ تخيلات الشباب عن الشيخوخة ضلال ، تخيلات الشيخوخة عن الشباب حسرات ، خبرنى يا رضوان عن رأيك فى الزواج .

وانقبضت أسارير رضوان وهو يقول :

ـ هو الرأى الذى حدثتك عنه من قبل يا باشا .

ـ لا أمل فى العدول عنه؟

ـ لا أظن .

ـ لمه؟

تردد رضوان قليلا ثم قال :

ـ شيء عجيب ، لا أدرى كنهه ، لكن المرأة تبدو لى مخلوقا مثيرا للاشمئزاز . .

فتجلت فى العينين الذابلتين نظرة حزينة وقال :

ـ يا للأسف ، ألا ترى أن على مهران زوج وأب ؟ وأن صديقك حلمى من أنصار الزواج ؟ إنى أرثى لك رثاء مضاعفا إذ أنه رثاء لنفسى أيضا ، طالما حيرنى ما قرأت وما سمعت عن جمال المرأة ، غير أنى طويت نفسى على رأيى الخاص إكراما لذكرى أمى ، كنت أحبها حبا جما ، وقد أسلمت الروح بين ذراعى ودموعى تتساقط فوق جبينها وخديها ، وكم أود لو تتغلب على متاعبك يا رضوان . .

فقال رضوان وكان يبدو شاردا ساهما :

ـ يستطيع الإنسان أن يعيش بلا امرأة . . ليس الأمر مشكلة !

ـ يستطيع الإنسان أن يعيش بلا امرأة ، ولكن الأمر مشكلة وقد لا تبالى تساؤل الناس ولكن ماذا عن تساؤلك أنت؟ ، من الممكن أن تقول إن المرأة مثيرة للاشمئزاز

ولكن لماذا هى لا تثير اشمئزاز الآخرين؟ هنالك يركبك إحساس كالمرض، مرض لا تعرف له دواء، فتعتزل العالم به، وهو شر رفيق فى الوحدة، وربما أخجلك بعد ذلك أن تحتقر المرأة وإن تكن مضطرا إلى مواصلة احتقارها .

وهنا نفخ على مهران فيما يشبه اليأس ثم قال :

ـ منيت النفس بليلة مرحة جديرة بالوداع .

فضحك عبد الرحيم باشا ثم قال :

ـ ولكنه وداع حاج ، ماذا تعرف أنت عن توديع الحجاج؟

ـ سأودعك بالدعاء ثم أستقبلك بالورود والخدود، ويومئذ نرى ماذا أنت فاعل .

فضرب الباشا كفا بكف وهو يقول ضاحكا :

ـ إنى مفوض أمرى إلى الله ذى الجلال! . .

٥١

عند تقاطع شارعى شريف وقصر النيل، أمام مقهى رتز، وفجأة، وجد كمال نفسه أمام حسين شداد ، وتوقفا عن السير وكلاهما يحملق فى وجه صاحبه حتى هتف كمال :

ـ حسين . .

فهتف الآخر بدوره :

ـ كمال!

ـ ثم تصافحا فى حرارة وهما يضحكان ضحكة الغبطة والسرور .

ـ أية مفاجأة سعيدة بعد ذلك التاريخ الطويل .

ـ أية مفاجأة سعيدة! تغيرت كثيرا يا كمال، ولكن مهلا لعلى أبالغ، عودك هو هو، جملة منظرك، ولكن ما هذا الشارب المحترم ؟ وهذه النظارة الكلاسيكية وهذه العصا . وهذا الطربوش الذى لم يعد أحد يلبسه غيرك .

ـ وأنت شد ما تغيرت! سمنت أكثر مما كنت أتصور، أهذا يتفق وتقاليد باريس؟ أين حسين زمان؟!

ـ وأين باريس زمان؟ أين هتلر وموسولينى؟ ما علينا، كنت ذاهبا إلى ريتز لأشرب قدح شاى فهل عندك مانع من الجلوس معى قليلا ؟

ـ بكل سرور . .

فمالا إلى ريتز ثم جلسا حول مائدة وراء النافذة الزجاجية المطلة على الطريق، وطلب حسين شداد الشاى وطلب كمال قهوة ثم عاد يتفحصان بعضهما البعض فى ابتسام. لقد ضخم حسين فامتد طولا وعرضا. ولكن ماذا فعل بحياته يا ترى؟ هل ساح فى الأرض والسماء كما كان يود قديما؟ لكن عينيه تعكسان رغم ابتسامهما نظرة غليظة كأنما بدلت من طفولة الحياة جدا. وكان قد مضى عام على التقائه ببدور فى شارع فؤاد الأول فبرئ فى أثنائه من نكسة الحب وانزوى آل شداد جميعا فى ركن النسيان، غير أن ظهور حسين قد أيقظ النفس من سباتها، فبدا الماضى وكأنه يتمطى ناشرا أفراحه وآلامه.

ـ متى عدت من الخارج؟

ـ منذ عام تقريبا.

ولم يحاول مقابلته على الإطلاق؟. ولكن علام يلومه وهو نفسه قد نسيه وفرغ من صداقته منذ دهر؟

ـ لو علمت أنك عدت إلى مصر لسعيت إلى لقائك.

ولم يبد على حسين أنه أحرج أو ارتبك ولكنه قال ببساطة:

ـ عدت فوجدت الهموم فى انتظارى، ألم تبلغك أشياء عنا؟

فتجهم وجه كمال وقال باقتضاب وأسف:

ـ بلى، عن طريق صديقنا إسماعيل لطيف.

ـ لقد سافر إلى العراق منذ عامين كما أخبرتنى والدتى.. وجدت الهموم فى انتظارى كما قلت، ثم كان علىّ أن أعمل، وأن أعمل ليل نهار.

هذا حسين شداد طبعة ١٩٤٤، ذلك الذى يعد العمل جريمة إنسانية، أحق وجد ذلك الماضى؟ لعله لا دليل عليه إلا خفقان هذا القلب.

ـ أتذكر آخر مرة تلاقينا؟

ـ أوه..

وجاء النادل بالشاى والقهوة قبل أن يتم كلامه غير أنه لم يبد متحمسا للذكريات..

ـ دعنى أذكرك، كان ذلك عام ١٩٢٦.

ـ عفارم على ذاكرتك.. (ثم شاردا).. سبعة عشر عاما فى أوروبا.

ـ حدثنى عن حياتك هنالك.

فهز رأسه الذى لم يشب منه إلا سوالفه وقال:

ـ دع ذلك إلى حينه، واقنع الآن بهذه العناوين: أعوام سياحية وفرحة كالحلم، حب فزواج من باريسية من أسرة محترمة، الحرب والهجرة إلى الجنوب إفلاس أبى،

العمل فى متجر حماى، عودتى إلى مصر دون زوجى حتى أهيىء لها حياة مستقرة، ماذا تريد أكثر من ذلك؟

ـ أنجبت أطفالا!

ـ كلا.

كأنما لا يود أن يتكلم، ولكن ماذا بقى من الصداقة القديمة حتى يأسف على ذلك؟ ورغم هذا وجد رغبة قوية فى طرق أبواب الماضى فتساءل:

ـ وماذا عن فلسفتك القديمة؟

وتفكر حسين مليا، ثم ضحك ضحكة ساخرة وقال:

ـ إنى غارق فى العمل منذ أعوام وأعوام، لست إلا رجل أعمال!

أين روح حسين شداد الذى كان يأوى منها إلى ظل ظليل من الغبطة الروحية؟ ليست فى هذا الرجل الضخم، لعلها استقرت فى رياض قلدس، أما هذا الرجل فإنه لا يعرفه، ولا يربطه به إلا ماض مجهول، ماض ود فى تلك اللحظة لو كان يحتفظ له بصورة حية لا صورة فوتوغرافية باردة.

ـ وماذا تعمل الآن؟

ـ ألحقنى أحد الأصدقاء أبى بوظيفة فى الرقابة حيث أعمل ابتداء من منتصف الليل حتى الفجر، وإلى هذا فإنى أقوم بالترجمة فى بعض الصحف الإفرنجية . .

ـ ومتى تخلو من العمل؟.

ـ فيما ندر، والذى يهون على المشقة أننى لن أدعو زوجى إلى مصر حتى أهيىء لها حياة تناسبها، فهى، من أسرة محترمة، وكنت حين تزوجت منها معدودا من الأغنياء . .

قال ذلك وضحك ضحكة كأنما يسخر بها من نفسه فابتسم كمال ابتسامة كأنما يشجعه بها، وراح يقول لنفسه: من حسن حظى أنى سلوتك من زمن طويل، ولولا ذلك لبكيت عليك من أعماق قلبى.

ـ وأنت يا كمال ماذا تعمل؟

ثم مستدركا:

ـ أذكر أنك كنت مغرما بالثقافة؟

ما أجدره بالشكر على هذا التذكر، فهو ميت بالنسبة إليه كما أن الآخر ميت بالنسبة إليه هو، وإنا لنموت ونحيا كل يوم مرات، وأجابه:

ـ إنى مدرس لغة إنجليزية . .

ـ مدرس ، نعم . . نعم . تذكرت الآن أشياء ، وكنت ترغب فى أن تكون مؤلفا .

يا للرغبات الخائبة! . .

ـ إنى أنشر مقالاتى فى مجلة الفكر ، ولعلى أجمع بعضها فى كتاب عما قريب!

فابتسم حسين ابتسامة كئيبة وقال :

ـ أنت سعيد لأنك حققت أحلام صباك ، أما أنا . . . !

وضحك مرة أخرى ، أما كمال فقد وقعت جملة «أنت سعيد» من أذنيه موقعا غريبا ، ولم يكن أغرب منها إلا اللهجة التى قيلت بها الدالة على الحسد ، فوجد نفسه مرة واحدة سعيدا ومحسودا ، وممن ؟ من عميد آل شداد . غير أنه قال على سبيل المجاملة :

ـ حياتك العملية أجل حياة

فقال الآخر باسما :

ـ لا اختيار لى ، ومرجوى الوحيد أن أستعيد شيئا من مستوى الماضى . .

وساد الصمت مليا ، وكان كمال يتفحص حسين باهتمام ، وكانت صورة من الماضى تنبعث خلال تفحصه ، حتى وجد نفسه يسأله قائلا :

ـ وكيف حال الأسرة؟

فقال دون اكتراث :

ـ بخير . .

فتردد كمال قليلا ثم قال :

ـ كانت لك أخت صغيرة نسيت اسمها فكيف صارت اليوم؟

ـ بدور ، تزوجت فى العام الماضى . .

ـ ما شاء الله ، أولادنا يتزوجون .

ـ وأنت ألم تتزوج؟

ترى ألم تعاوده الذكريات؟

ـ كلا . .

ـ أسرع وإلا فاتك القطار . .

فقال ضاحكا :

ـ فاتنى بأميال . .

ـ ربما تزوجت من حيث لا تدرى ، صدقنى ، لم يكن الزواج ضمن خطتى ولكنى متزوج منذ أكثر من عشر سنوات . .

ـ فهز كمال كتفيه دون اكتراث وقال :

ـ خبرنى كيف تجد الحياة هنا بعد إقامتك الطويلة فى فرنسا؟

ـ لم تكن الحياة فى فرنسا عقب الغزو مما يسر ، أما هنا فالحياة يسيرة بالقياس إلى هناك . (ثم بحنان) ولكن باريس ، أين أين باريس؟

ـ لِمَ لَمْ تبق فى فرنسا؟

فقال باستنكار :

ـ أعيش كلاًّ على حمىّ؟ كلا ، كان ثمة عذر عندما حالت ظروف الحرب دون السفر ، أما بعد ذلك فلم يكن من السفر بد .

ترى أهو شذا من الكبرياء القديم؟ ثم وجد نفسه مدفوعا إلى مغامرة خطيرة عذبة معا ، فتساءل بمكر :

ـ وما أخبار صاحبنا حسن سليم؟

فحدجه بنظرة ارتياب لحظة ثم قال ببرود :

ـ لا أدرى عنه شيئا .

ـ كيف؟

فقال وهو يمد بصره إلى الطريق خلل الزجاج :

ـ انتهى ما بيننا وبينه منذ حوالى العامين .

فقال كمال فى دهشة لم يستطع إخفاءها :

ـ أتعنى . . ؟

ولم يتم كلامه . غلبته المفاجأة . هل عادت عايدة إلى العباسية مرة أخرى؟ امرأة مطلقة؟ فليؤجل التفكير فى هذا كله إلى حين ، وقال بهدوء :

ـ كان سفره إلى إيران آخر ما حدثنى به إسماعيل لطيف عنه

فقال حسين بكآبة :

ـ لم تمكث أختى معه فى هذه الرحلة إلا شهرا واحدا ، ثم عادت بمفردها . .

(ثم بصوت منخفض) يرحمها الله!

ـ هه؟! . .

ندت عن كمال فى صوت ترامى إلى الموائد القريبة من حولهم . فنظر إليه حسين كالداهش وقال :

ـ لم تكن تدرى! لقد ماتت منذ عام!

ـ عايدة؟!

فهز الآخر رأسه بالإيجاب، وفى نفس الوقت خجل كمال من نطقه الاسم ومجردًا بصوت مسموع، ولكنه لم يقف عند هذا إلا أقل من لحظة. وبدت الألفاظ جميعا وكأن لا معنى لها. وشعر بدوامة الفناء تدور برأسه. وكان ما به دهشة وارتياع، لا حزن ولا ألم وتكلم أخيرا فقال:

ـ يا له من خبر محزن! البقية فى حياتك!

فقال حسين:

ـ عادت من إيران وحيدة، ومكثت مع أمى شهرا، ثم تزوجت من أنور بك زكى كبير مفتشى اللغة الإنجليزية ولكنها لم تعاشره إلا شهرين، ثم مرضت، ثم توفيت فى المستشفى القبطى.

كيف لرأسه أن يتابع هذه الأحداث فى سرعتها الجنونية! ولكنه يقول أنور بك زكى، وهو المراقب الأعلى لهيئته التعليمية، ولعله تشرف بمقابلته مرات وهو زوج لعايدة. رباه.. إنه ليذكر الآن أنه شيع جنازة حرم المراقب منذ عام أفكانت هى عايدة؟! ولكن كيف لم يلتق بحسين؟!

ـ هل حضرت وفاتها؟

ـ كلا، توفيت قبل عودتى إلى مصر..

فقال وهو يهز رأسه تعجبا:

ـ لقد سرت فى جنازتها وأنا لا أدرى أنها أختك!

ـ كيف؟

ـ علمت فى المدرسة ذلك اليوم بأن حرم كبير المفتشين قد توفيت وأن الجنازة ستشيع من ميدان الإسماعيلية، فذهبت مع زملائى المدرسين دون أن أطلع على النعى فى الصحف، وسرنا بين المشيعين حتى جامع جركس، كان ذلك منذ عام..

فابتسم حسين ابتسامة حزينة وهو يقول:

ـ سعيكم مشكور..

لو وقعت هذه الوفاة عام ١٩٢٦ لجن أو انتحر، اليوم تمر به كخبر من الأخبار، ومن عجب أن يشيع جنازتها وهو لا يدرى، وكان وقتذاك ما يزال أسيرا لمرارة التجربة التى تخلفت عن زواج بدور فلعل صاحبة النعش طافت برأسه فيما طاف به من خواطر بدور وأسرتها وما زال يذكر يوم الجنازة حين تقدم من أنور بك زكى معزيا ثم جلس بين المشيعين، قالوا قياما لقد حضر النعش فمد عينيه فرأى نعشا جميلا مكللا بالحرير الأبيض

حتى تهامس بعض زملائه إنها عروس. . الزوجة الثانية للمفتش. . وقد ذهبت ضحية للالتهاب الرئوى، وودع النعش وهو لا يدرى أنه يودع ماضيه، ومن كان زوجها؟ رجل فوق الخمسين ذو زوجة وأبناء فكيف رضى به ملاك الزمان الخالى؟ وكنت تظنها فوق الزواج فإذا هى تعنو للطلاق ثم تقنع بنصيب الزوجة الثانية! وسوف يمضى وقت طويل قبل أن يسكن جيشان هذا الصدر لا من الحزن أو الألم ولكن من الذهول والدهشة، ومن خلو العالم من مباهج الأحلام، ومن ضياع سر الماضى الساحر إلى الأبد، وإن كان ثمة حزن فعلى أنك لم تحزن كما كان يجدر بك!

ـ لكن ماذا غير حسن سليم؟

فهز حسين رأسه بازدراء وقال:

ـ عشق الوغد موظفة بمفوضية بلجيكا بإيران فغضبت المرحومة لكرامتها وطالبت بالانفصال. .

«مما يعزى المرء فى مثل هذا الموقف أن بديهيات إقليدس لم تعد بالبديهيات المطلقة!».

ـ وأولادها؟

ـ عند جدتهم لأبيهم.

وهى أين هى؟ وماذا جد عليها فى هذا العام؟ وهل يمكن أن يعرفها فهمى أو السيد أحمد عبد الجواد أو نعيمة؟

وإذا بحسين شداد ينهض وهو يقول:

ـ آن لى أن أذهب، دعنى أراك، إنى أتناول عشائى عادة فى ريتز.

فنهض بدوره، وتصافحا وهو يتمتم:

ـ إن شاء الله. .

وافترقا عند ذاك وهو يشعر بأنه لن يراه مرة أخرى، وبأنه ليس به حاجة إلى معاودة رؤيته، كما ليس بالآخر حاجة إلى ذلك، وغادر المشرب وهو يقول لنفسه: «إنى حزين يا عايدة لأنى لم أحزن عليك كما كان يجدر بى. .».

٥٢

فى سكون الهزيع الأخير من الليل طرق طارق باب بيت آل شوكت بالسكرية، ثم تتابع الطرق حتى استيقظ النائمون، وما أن فتحت خادم الباب حتى تدافعت إلى الداخل

أقدام ثقيلة شديدة الوقع، انتشرت فى الفناء والسلم وأطبقت على الشقق الثلاث. وخرج إبراهيم شوكت إلى الصالة مثقل الرأس بالنوم متعبًا بالكبر فرأى ضابطًا كبيرًا يتوسط مجموعة من الجنود والمخبرين، فدهش الرجل وتساءل منزعجًا:

ـ ماذا هنالك كفى الله الشر؟!

فسأله الضابط الكبير بخشونة:

ـ ألست والد أحمد إبراهيم شوكت وعبد المنعم إبراهيم المقيمين فى هذا البيت؟

فأجاب الرجل وقد امتقع وجهه:

ـ بلى:

ـ عندنا أوامر بتفتيش البيت جميعه..

ـ لماذا يا حضرة المأمور؟

فلم يأبه له والتفت نحو معاونيه آمرًا:

ـ فتشوا..

واندفع الرجال إلى الحجرات صادعين بالأمر على حين تساءل إبراهيم شوكت:

لماذا تفتشون شقتى؟

ولكن المأمور تجاهله، وعند ذاك اضطرت خديجة إلى مغادرة حجرة النوم ـ التى اقحمها المخبرون ـ متلفعة بشال أسود وهى تهتف غاضبة:

ـ أليس للنساء حرمة؟! هل نحن لصوص يا حضرة المأمور؟!

كانت تحدق فى وجهه غاضبة، وإذا بها تشعر بغتة بأنها رأت هذا الوجه من قبل، أو بمعنى أصح أنها رأت صورته الأولى قبل أن يعتورها تقدم السن، متى وأين؟ رباه إنه هو دون ريب، لم يكد يتغير كثيرًا، واسمه؟ وقالت دون تردد:

ـ حضرتك كنت ضابطًا بقسم الجمالية، منذ عشرين عامًا، بل منذ ثلاثين عامًا لا أذكر الزمن بالضبط..

فرفع المأمور إليها عينين متسائلتين، وردد إبراهيم شوكت ناظريه بينهما متسائلاً كذلك، وإذا بها تقول:

ـ اسمك حسن إبراهيم، أليس كذلك!

ـ حضرتك تعرفيننى؟

فقالت برجاء:

ـ أنا بنت السيد أحمد عبد الجواد وأخت فهمى أحمد الذى قتله الإنجليز أيام الثورة، ألا تذكره؟

فلاحت الدهشة فى عينى المأمور وتمتم بصوت مهذب لأول مرة :

ـ رحمه الله رحمة واسعة . .

فقالت برجاء أشد :

ـ أنا أخته فهل ترضى لبيتى هذه البهدلة؟

فأشاح المأمور عنها بوجهه وهو يقول كالمعتذر :

ـ إننا ننفذ الأوامر يا هانم .

ـ ولكن لماذا يا حضرة المأمور ، نحن أناس طيبون!

فقال المأمور برقة :

ـ نعم ، ولكن ليس كذلك نجلاك . .

فهتفت خديجة باضطراب :

ـ إنهما ابنا أخت صديقك القديم!

فقال المأمور دون أن ينظر نحوهما :

ـ إننا ننفذ أوامر الداخلية .

ـ لم يفعلاً شيئًا ضاراً ، إنهما ولدان طيبان وأقسم لك على ذلك . .

وعاد الجنود والمخبرون إلى الصالة دون أن يعثروا على شىء فأمرهم المأمور بمغادرة الشقة ، ثم التفت إلى الزوجين الماثلين أمامه وقال :

ـ أبلغنا عن اجتماعات مريبة تعقد فى شقتيهما . .

ـ هذا كذب يا حضرة المأمور!

ـ أرجو أن يكون الأمر كذلك ، لكننى مضطر الآن إلى القبض عليهما وسوف يبقيان حتى يتم التحقيق معهما ، ولعل العاقبة أن تكون سليمة!

هتفت خديجة بصوت متهدج وشى بدموعها :

ـ أتسوقهما حقًا إلى القسم؟ هذا . . ، لا أتصور . . ، اعف عنهما وحياة أولادك!

ـ ليس بوسعى ذلك ، لدى أوامر صريحة بالقبض عليهما ، طاب مساؤكما!

وغادر الرجل الشقة ، وما لبثت أن غادرتها خديجة وفى أعقابها الرجل العجوز نزلا السلم لا يلويان على شىء ، ورأتهما كريمة وكانت واقفة أمام شقتها فى حال شديدة من الفزع فهتفت :

ـ أخذوه يا عمتى ، أخذوه إلى السجن . .

فألقت خديجة على الشقة نظرة متحجرة ، ونزلت مسرعة إلى الشقة الأولى حيث

وجدت سوسن على باب شقتها كذلك تتطلع إلى الفناء بوجه كالح، فنظرت حيث تنظر فرأت القوة تحيط بعبد المنعم وأحمد، متجهة بهما إلى الخارج، فلم تتمالك أن تصرخ من أعماق قلبها وهمت بالانطلاق فى أثرهما لولا أن أمسكت بها يد سوسن، فالتفتت نحوها هائجة، غير أن سوسن قالت لها بصوت هادئ حزين:

ـ هدئى روعك، لم يعثروا على شىء مريب، ولن يثبت ضدهما شىء، لا تجرى وراءهم حفظًا لكرامة عبد المنعم وأحمد . .

فصاحت بها:

ـ هذا الهدوء تحسدين عليه!

فقالت سوسن برقة وصبر:

ـ سيعودان إلى بيتهما بخير، اطمئنى . .

فتساءلت بحدة:

ـ من أدراك؟

ـ إنى واثقة مما أقول . .

فلم تكترث لقولها والتفتت نحو زوجها ثم ضربت كفا بكف وهى تقول:

ـ انعدم الوفاء، أقول لهما إنهما ابنا أخت فهمى فيقول لى عندى أوامر، لماذا يأخذ ربنا الناس الطيبين ويترك الأرذال؟!

واتجهت سوسن نحو إبراهيم وقالت:

ـ سيفتشون بيت الجماعة فى بين القصرين! سمعت مخبرا يقول للمأمور إنه يعرف بيت جدهما فى بين القصرين فاقترح عليه الضابط المساعد تفتيشه تنفيذ للأوامر على سبيل الحيطة أن يكونا قد أخفيا فيه منشورات!

فصاحت خديجة:

ـ إنى ذاهبة إلى أمى، لعل كمال يستطيع شيئًا، آه يا ربى إنى أحترق . .

وجاءت بمعطفها وغادرت السكرية فى خطوات متلاحقة مضطربة، كان الجو باردا والظلام ما يزال كثيفًا، وكانت الديكة تصيح فى تجاوب متواصل، انطلقت من الغورية مخترقة الصاغة إلى النحاسين. ووجدت عند باب البيت مخبراً، ووجدت فى الفناء مخبراً آخر، ثم صعدت السلم وهى تلهث . .

وكانت الأسرة قد استيقظت مضطربة على رنين الجرس، ثم جاءتهم أم حنفى وهى تقول فى ذعر: «بوليس»، وهرع كمال إلى الحوش حيث التقى بالمأمور فتساءل منزعجًا:

ـ أفندم؟

فسأله المأمور:

ـ أتعرف عبد المنعم إبراهيم وأحمد إبراهيم؟

ـ أنا خالهما!

ـ صناعتك؟

ـ مدرس بمدرسة السلحدار..

ـ عندنا أوامر بتفتيش البيت!

ـ ولكن لماذا؟ أى تهمة توجهها إلى؟

ـ إننا نفتش عن منشورات تخص الشابين لعلهما أخفياها هنا!

ـ أؤكد لحضرتك أنه ليس فى بيتنا منشورات، تفضل فتش كما تشاء..

ولاحظ كمال أنه أمر القوة باحتلال السلم والسطح وأنه مضى معه بمفرده، وما كان تفتيشًا يقلب البيت رأسًا على عقب ولكن المأمور اكتفى بتفقد الحجرات وإلقاء نظرة سطحية على المكتب وخزانات الكتب فاسترد أنفاسه، واستطاع أن يسأله وقد أنس إليه:

ـ فتشتم بيتهما؟

ـ طبعًا..

ثم بعد لحظة قصيرة:

ـ إنهما الآن فى سجن القسم!

فسأله كمال فى انزعاج:

ـ هل ثبت عليهما شىء؟

فأجاب الرجل برقة غير معهودة فى أمثاله:

ـ أرجو ألا يصل الأمر إلى هذا الحد، غير أن التحقيق متروك للنيابة.

ـ أشكر لك جميل عواطفك!

فقال المأمور بهدوء وهو يبتسم:

ـ ولا تنس أننى لم أبهدل البيت!

ـ نعم يا سيدى، إنى لا أدرى كيف أشكرك!

وإذا به يلتفت نحوه متسائلاً:

ـ حضرتك أخو المرحوم فهمى؟

فاتسعت عينا كمال دهشة وقال:

ـ نعم، أكنت تعرفه؟

ـ كنا أصدقاء، رحمه الله . .

فقال كمال برجاء :

ـ مصادفة سعيدة . . (وهو يمد له يده) . . كمال أحمد عبد الجواد . .

فصافحه الرجل قائلاً :

ـ حسن إبراهيم مأمور قسم الجمالية! بدأت فيه ملازمًا وعدت إليه فى آخر المطاف مأمورًا . .

ثم وهو يهز رأسه :

ـ كانت الأوامر صريحة، أرجو ألا يثبت عليهما ما يدينهما .

وهنا ترامى إليهما صوت خديجة وهى تحدث أمها وعائشة بما كان وتبكى فقال :

ـ هذه أمهما، عرفتنى بذاكرتها العجيبة ثم ذكرتنى بالمرحوم ولكن بعد أن كان التفتيش الدقيق قد وقع، طمئنها ما أمكنك .

ثم نزلا معًا جنبًا إلى جنب، وعند مرورهما بالدور الثانى مرقت عائشة من الباب فى حدة بادية وحدجت المأمور بنظرة قاسية وصاحت به :

ـ لماذا تقبضون على أولاد الناس بلا سبب؟ ألا تسمع بكاء أمهما؟

فانحرف بصر المأمور إليها كرد فعل للمفاجأة ثم غض بصره تأدبًا وهو يقول :

ـ سيطلق سراحهما عما قريب إن شاء الله . .

ثم سأل كمال بعد أن ابتعدا عن مدخل الدور الثانى :

ـ والدتك؟

ـ بل شقيقتى! لم تجاوز الرابعة والأربعين ولكنها عانت من سوء الحظ ما حطمها . .

والتفت المأمور إليه كالداهش، وخيل إليه بأنه هم أن يطرح سؤالاً، ولكنه تردد لحظة ثم عدل عما كان هم به، وتصافحا فى الفناء، وقبل أن يمضى الرجل إلى سبيله سأله كمال :

ـ أمن المستطاع أن أزورهما فى السجن؟

ـ نعم . .

ـ شكرًا . .

وعاد كمال إلى الصالة فانضم إلى أمه وشقيقتيه وهو يقول :

ـ سأزورهما غدًا، لا داعى للخوف، وسوف يطلق سراحهما عقب التحقيق معهما . .

وكانت خديجة لا تمسك عن البكاء فصاحت عائشة فى نرفزة :

ـ لا تبك، كفانا بكاء، سيعودان إليك ألا تسمعين؟

فولولت خديجة قائلة:

ـ لا أدرى.. لا أدرى. فى السجن يا ولداه!

وكانت أمينة صامتة كأن الحزن أخرسها، فقال كمال فى لهجة توحى بالطمأنينة:

ـ المأمور يعرفنا، كان صديق المرحوم فهمى، وقد تلطف بنافى التفتيش لدرجة لا تصدق، ولا شك أنه سيرعاهما بعطفه!

فرفعت الأم رأسها كالمتسائلة فقالت خديجة فى حنق:

ـ حسن إبراهيم، ألا تذكرينه يا أمى؟ وقد أخبرته بأننى أخت فهمى فما كان منه إلا أن قال: إننا ننفذ الأوامر يا هانم! أوامر فى عينه..!

واتجهت عينا الأم نحو عائشة ولكنها لم يبد عليها أنها ذكرت شيئًا..

ثم انتحت أمينة بكمال جانبًا وراحت تقول له فى قلق بالغ:

ـ لم أفهم شيئًا يا بنى، لماذا قبض عليهما؟

فتفكر كمال فيما ينبغى قوله، ثم قال:

ـ الحكومة تظن خطأ أنهما يعملان ضدها!

فهزت رأسها فى حيرة وقالت:

ـ أختك تقول إنهم قد قبضوا على عبد المنعم لأنه من الإخوان المسلمين، لماذا يقبضون على المسلمين؟

ـ الحكومة تظنهم يعملون ضدها..

ـ وأحمد؟! قالت إنه..، نسيت الكلمة يا بنى؟!

ـ شيوعى؟ الشيوعيون كالإخوان فى ظن الحكومة!

ـ الشيوعيون؟! أشياع سيدنا على؟

فدارى كمال ابتسامة وقال:

ـ الشيوعيون لا الشيعة، هم حزب ضد الحكومة والإنجليز!..

فتنهدت المرأة فى حيرة وقالت:

ـ متى يفرج عنهما؟ انظر إلى أختك المسكينة! الحكومة والإنجليز. ألم يجدوا إلا بيتنا المصاب؟!

٥٣

كان أذان الفجر يسرى فى الصمت الشامل حين استدعى مأمور قسم الجمالية عبد المنعم وأحمد إلى حجرته، ومثلا أمام مكتبه يسوقهما جندى مسلح، فأمره المأمور بالانصراف، ومضى يتفحصهما باهتمام، ثم نظر إلى عبد المنعم وسأله:

ـ اسمك وسنك وصناعتك؟

فأجاب عبد المنعم بهدوء وثبات:

ـ عبد المنعم إبراهيم شوكت، خمسة وعشرون عامًا، محقق بإدارة التحقيقات بوزارة المعارف.

ـ كيف تخرق قوانين الدولة وأنت من رجال القانون؟!

ـ لم أخرق قانونًا، ونحن نعمل جهاراً فنكتب فى الصحف ونخطب فى المساجد، إن الذين يدعون إلى الله لا يجدون ما يخفونه.

ـ ألم تحدث فى بيتك اجتماعات مريبة؟

ـ كلا، كانت اجتماعات عادية مما تجمع بين الأصدقاء لتبادل الرأى والمشورة والتفقه فى الدين..

ـ وهل يدخل ضمن هذه الأغراض التحريض على معاداة دول حليفة؟

ـ أتعنى بريطانيا يا سيدى؟ إنها عدو غادر، الدولة التى تدوس كرامتنا بالدبابات لا يمكن أن تكون دولة حليفة..

إنك رجل مثقف، وكان ينبغى أن تدرك أن للحرب ظروفًا تبيح المحظورات!

ـ إنى أدرك أن بريطانيا هى عدونا الأول فى هذا الوجود!.

والتفت المأمور إلى أحمد متسائلاً:

ـ وأنت؟

فأجاب أحمد وعلى شفتيه شبه ابتسامة:

ـ أحمد إبراهيم شوكت، أربعة وعشرون عامًا، محرر بمجلة الإنسان الجديد..

ـ هنالك تقارير خطيرة عن مقالاتك المتطرفة، فضلاً عن أنه من المسلم به أن مجلتك سيئة السمعة..

ـ مقالاتى لا تعدو الدفاع عن مبادئ العدالة الاجتماعية..

ـ شيوعى حضرتك؟

ـ إنى اشتراكى، وكثير من النواب يدعون إلى الاشتراكية، والقانون نفسه لا يؤاخذ الشيوعى على رأيه ما دام لا يلجأ إلى أساليب العنف . .

ـ أكان ينبغى أن ننتظر حتى تتمخض الاجتماعات التى تعقد كل مساء فى شقتك عن العنف؟

وتساءل فى نفسه ترى هل وقفوا على سر المنشورات والمحاضرات الليلية؟!

وأجاب :

ـ إنى لا أجتمع فى بيتى إلا بالأصدقاء المقربين، ولم يزد عدد زوارى يومًا عن أربعة أو خمسة، وكان تفكيرنا أبعد ما يكون عن العنف . .

وردد المأمور نظره بينهما ثم قال بعد تردد :

ـ إنكما مثقفان و . . مهذبان، ومتزوجان أليس كذلك؟ حسن، أليس من الأفضل لكما أن تهتما بشئونكما الخاصة وأن تجنبا نفسيكما الهلاك؟ . .

فقال عبد المنعم بصوته القوى :

ـ إنى أشكر لك نصيحتك التى لن أعمل بها . .

فندت عن المأمور ضحكة مقتضبة كأنما على رغمه، ثم قال :

ـ علمت فى أثناء التفتيش أنكما حفيدا المرحوم أحمد عبدالجواد، وقد كان خالكما المرحوم فهمى صديقًا حميمًا لى، وأظنكما تعلمان أنه فقد حياته فى ربيع العمر على حين أن زملاءه ظلوا على قيد الحياة حتى تبوأوا أكبر المناصب . .

فقال أحمد وقد أدرك السر فى لطف المأمور الذى حيره :

ـ دعنى أسألك يا سيدى عما كانت تكون عليه مصر لولا تضحية خالى وأمثاله؟!

فهز الرجل رأسه وقال :

ـ فكرا فى نصيحتى بعقل وروية ودعكما من هذه الفلسفة المهلكة!

ثم وهو يقف :

ـ ستبقيان ضيفين فى سجننا حتى تدعوا إلى التحقيق، أرجو لكما حظًا سعيدًا . .

وغادرا الحجرة حيث تسلمهما أونباشى وجنديان مسلحان، ومضوا جميعًا إلى الدور الأرضى، ثم عرجوا إلى بهو مظلم شديد الرطوبة فساروا فيه قليلاً حتى استقبلهم السجان بكشافه الكهربائى كأنما ليدلهم على باب السجن، وفتح الرجل الباب وأدخلهما، ثم صوب ضوءه إلى الداخل ليهتديا به إلى برشيهما، وأضاء الكشاف المكان فبدأ متوسط المساحة عالى السقف، ذا نافذة صغيرة فى أعلى جداره تعترضها القضبان الحديدية. وكان عامرًا

بالضيوف، فيهم شابان على هيئة الطلبة، وثلاثة رجال حفاة مجفوى المنظر شائهى الخلقة. وما لبث أن أغلق الباب وساد الظلام، غير أن الضوء وحركة القادمين كانت قد أيقظت النائمين، وقال أحمد لأخيه همسًا:

ـ لن أجلس وإلا قتلتنى الرطوبة، فلننتظر الصبح واقفين!

ـ سنضطر إلى الجلوس عاجلاً أو آجلاً، أعلمت متى نبرح هذا السجن؟

وإذا بصوت ـ أدركا بالبداهة أنه لأحد الشابين ـ يقول:

ـ لابد من الجلوس، ليس هو بالشىء السار ولكنه أخف من الوقوف أيامًا..

ـ هل مكثتما طويلاً؟

ـ منذ ثلاثة أيام!

وساد الصمت حتى عاد الصوت يسأل:

ـ لماذا قبض عليكما؟

فأجاب عبد المنعم باقتضاب قائلاً:

ـ أسباب سياسية فيما يبدو..

فقال الصوت ضاحكا:

ـ صارت الأغلبية أخيراً للسياسيين فى هذا السجن، كنا قبل تشريفكما أقلية..

فسأله أحمد:

ـ وما تهمتكما؟

ـ تكلما أنتما أولاً، فأنتما أحدث مقامًا! وإن يكن لا داعى لسؤال بعد أن رأينا لحية أحدكما الإخوانية؟!

فسأله أحمد وهو يبتسم فى الظلام:

ـ وأنتما؟

ـ كلانا طالب فى الحقوق متهم بتوزيع منشورات هدامة كما يقولون..

فثار أحمد وسأله:

ـ أضبطتما متلبسين.

ـ نعم..

ـ وماذا كان فى المنشورات؟

ـ بيان بتوزيع الثروة الزراعية فى مصر.

ـ هذا مما تنشره الصحف فى ظل الأحكام العرفية نفسها!

ـ يضاف إليه شوية توجيهات حماسية!

فابتسم أحمد مرة أخرى فى الظلام وقد تخفف من وحشته لأول مرة، وعاد صاحب الصوت يقول:

ـ إننا لا نخاف القانون بقدر ما نخاف الاعتقال..

ـ إن الأمور تبشر بتغير شامل..

ـ لكننا سنظل الهدف فى جميع العهود..

وإذا بصوت غليظ يعلو فى خشونة قائلاً:

ـ كفاكما كلاما ودعونا ننام..

ولكن صوته أيقظ زميلا من زميليه فتثاءب متسائلاً:

ـ طلع الصبح؟

فأجابه الأول هازئًا:

ـ كلا، ولكن أصحابنا يحسبون أنفسهم فى غرزة..

تنهد عبد المنعم وهمس بصوت لم يسمعه إلا أحمد:

ـ أيزج بى إلى هذا المكان لا لسبب إلا أننى أعبد الله؟!

فهمس أحمد فى أذنه باسمًا:

ـ وما ذنبى أنا الذى لا أعبده؟!

لم يشأ أحد بعد ذلك أن يرفع صوته، وراح أحمد يسأل نفسه عما دعا إلى القبض على الآخرين، سرقة أم مشاجرة أم سكر وعربدة؟ طالما كتب عن الشعب وهو مدثر بمعطف فى حجرة مكتبه الجميلة، هاهو الشعب يلعن أو يغط فى نومه، وهذه الوجوه الكالحة البائسة التى رآها على ضوء الكشافات لحظات، وذلك الرجل الذى كان يحك رأسه وما تحت إبطيه فلعل قمله يزحف نحوهما دائبا، هذا هو الشعب الذى تعيش من أجله فكيف تجزع عن فكر ملامسته؟! هذا الرجل المناط به خلاص الإنسانية ينبغى أن يمسك عن شخيره وأن يعى موقفه التاريخى حتى ينهض لإنقاذ العالم جميعًا! وقال لنفسه: «إن موقفا إنسانيًا واحداً هو الذى جمعنا على اختلاف مشاربنا فى هذا المكان المظلم الرطب. الأخ والشيوعى والسكير والسارق على السواء، كلنا واحد على تفاوت فى قوة المناعة أو الحظ». وحدث نفسه مرة أخرى فقال: لماذا لا تعنى بشئونك الخاصة، هكذا يقول المأمور، ولى زوجة محبوبة ورزق موفور، والحق أن الإنسان قد يسعد بما هو زوج أو موظف أو أب أو ابن ولكنه مقضى عليه بالمتاعب أو بالموت نفسه بما هو إنسان. وسواء أقضى عليه بالسجن هذه المرة أم أطلق سراحه فباب السجن الغليظ المتجهم هو ما

يتراءى لعينيه فى أفق حياته، وعاد يتساءل: ماذا يدفعنى فى هذا السبيل الخطير الباهر؟ ألا أنه الإنسان الكامن فى أعماقى، الإنسان الواعى لذاته المدرك لموقفه الإنسانى التاريخى العام، وإن ميزة الإنسان على سائر المخلوقات هى أنه يستطيع أن يقضى على نفسه بالموت بمحض اختياره ورضاه..

وشعر بالرطوبة تسرى فى ساقيه والإعياء يتخلل مفاصله، وكان الشخير يتردد فى الأركان بإيقاع موصول، ثم لاحت خلال قضبان النافذة الصغيرة طلائع من النور وانية رقيقة..

٥٤

غادر الطبيب الحجرة وكمال يتبعه واجما، ثم لحق به فى الصالة وحدجه بعينين متسائلتين، قال الطبيب بهدوء:

ـ يؤسفنى أن أخبرك بأنها حالة شلل كلى..

فانقبض صدر كمال انقباضًا شديدًا وسأله:

ـ حالة خطرة؟

ـ طبعًا! وقد أصيبت فى الوقت نفسه بالتهاب رئوى، ولذلك فالحقن ضرورية لإراحتها..

ـ أليس هناك أمل فى الشفاء؟

فصمت الطبيب قليلاً ثم قال:

ـ الأعمار بيد الله، أما الطبيب فيقرر فى حدوده أن هذه الحال لا يمكن أن تستمر أكثر من ثلاث أيام..

وتلقى كمال نذير الموت بتجلد، وأوصل الطبيب إلى الباب الخارجى ثم عاد إلى الحجرة. وكانت الأم نائمة، أو كالنائمة، لا يبدو من الغطاء الكثيف إلا وجهها الشاحب وفوها المطبق فى شىء من الاعوجاج. وكانت عائشة واقفة حيال السرير فأقبلت نحوه متسائلة:

ـ ما لها يا أخى؟ ماذا قال الطبيب؟

وقالت أم حنفى من موقفها عند مقدم الفراش:

ـ إنها لا تتكلم يا سيدى، لم تتكلم كلمة واحدة..

وقال لنفسه : ولن يسمع لها صوت بعد الآن ، ثم قال مجيبًا أخته :

ـ حالة ضغط مصحوبة بإصابة برد خفيفة ، سوف تريحها الحقن !

فقالت عائشة ، ولعلها كانت تخاطب نفسها :

ـ إنى خائفة ، وإذا كانت سترقد هكذا طويلاً فكيف تحتمل الحياة فى هذا البيت؟

فتحول عنها إلى أم حنفى وسألها :

ـ هل أخبرت الجماعة؟

ـ نعم يا سيدى ، وستحضر ست خديجة وسى ياسين فى الحال ، ما لها يا سيدى؟ كانت فى الصباح فى تمام الصحة والعافية . .

كانت ! . . وهو يشهد بذلك ! وقد مر بالصالة كعادته كل صباح قبل انطلاقه إلى مدرسة السلحدار ، فتناول فنجان القهوة الذى قدمته له وهو يقول :

ـ لا تغادرى البيت اليوم فالجو بارد جدًا .

فابتسمت ابتسامتها الرقيقة وقالت :

ـ وكيف يطيب لى اليوم دون زيارة سيدك؟

فقال محتجًا :

ـ افعلى ما يحلو لك ، إنك عنيدة يا أماه !

فتمتمت :

ـ ربك الحافظ . .

ثم وهو يغادر المكان :

ـ ربنا يسعد أيامك . .

وكان هذا آخر عهده بيقظتها ، وقد جاءه نبأ مرضها ظهرًا فى المدرسة فعاد مصطحبًا الطبيب الذى نعاها إليه سلفًا منذ دقائق . أجل لم يبق إلا ثلاثة أيام !

ترى كم يومًا تبقى له هو؟ واقترب من عائشة وسألها :

ـ متى وكيف وقع لها ما وقع؟

فأجابت عنها أم حنفى قائلة :

ـ كنا جالستين فى الصالة ، ثم قامت متجهة نحو حجرتها لترتدى معطفها وتخرج وهى تقول لى «عندما أفرغ من زيارة الحسين سأزور خديجة» ، وذهبت إلى الحجرة ، وبعد دخولها مباشرة ترامى إلى أذنى صوت وقوع شىء فهرعت إلى الداخل فوجدتها ملقاة على الأرض بين السرير والدولاب ، فجريت نحوها وأنا أنادى ست عائشة . .

وقالت عائشة :

ـ جئت مسرعة فوجدتها فى هذا المكان ، فحملناها إلى السرير ، وجعلت أسألها عما بها ولكنها لم تجبنى ، ولم تتكلم ، متى تتكلم يا أخى؟

فأجاب فى ضيق :

ـ عندما يشاء الله! . .

وتراجع إلى الكنبة ثم جلس ، ومضى ينظر فى حزن إلى الوجه الشاحب الصامت ، أجل لينظر إليه طويلاً فعما قريب لن يكون له إلى رؤيته سبيل . هذه الحجرة نفسها ستتغير معالمها وستتغير بالتالى معالم البيت فى مجموعه ، ولن ينادى به أحد «أمى» ، لم يكن يتصور أن موتها سيحمل قلبه هذا الألم كله ، ألم يألف الموت بعد؟ . . بلى ، ولديه من العمر والتجربة ما يقيه الجزع ، ولكن لذعة الفراق الأبدى موجعة ، ولعله مما يلام عليه قلبه أنه رغم ما كابد من ألم يتألم كالقلب الغض . وكم أحبته ، وكم أحبت الجميع ، وكم أحبت كل شىء فى الوجود ، ولكن هذه السجايا الطيبة لا تعيها النفس إلا عند الفراق ، ففى هذه اللحظة الخطيرة تزدحم ذاكرتك بصور أماكن وأزمنة وحوادث يهتز لها من أعماقه ، وهاهى يخالط نورها الظلام ، وتمتزج فيها زرقة الفجر بحديقة السطح ، ومجمرة مجلس القهوة بالأساطير ، وهديل الحمام بأغنيات حلوة ، وكان حبا رائعًا أيها القلب الجاحد ، ولعلك تقول غداً بحق إن الموت استأثر بأحب الناس إليك ، ولعل عينيك أن تدمعا حتى يزجرك المشيب . والنظر إلى الحياة كمأساة لا يخلو من رومانتيكية طفلية والأجدر بك أن تنظر إليها فى شجاعة كدراما ذات نهاية سعيدة هى الموت . ثم سائل نفسك إلام تضيع حياتك هباء؟ إن الأم تموت وقد صنعت بناء كاملاً فماذا صنعت أنت؟

* * *

واستيقظ على صوت أقدام ، وإذا بخديجة تدخل الحجرة مرتاعة وتتجه نحو الفراش وهى تنادى أمها وتسألهم عما حل بها . وتضاعف ألمه حتى خاف أن يخونه تجلده فغادر الحجرة إلى الصالة ، وما لبث أن جاء ياسين وزنوبة ورضوان ، فصافحوه ، وأخبرهم عن مرضها دون التفاصيل ، فذهبوا إلى الحجرة ولبث وحيداً حتى عاد إليه ياسين وهو يسأله :

ـ ماذا قال لك الطبيب؟

فقال فى وجوم :

ـ شلل والتهاب رئوى ، سينتهى كل شىء فى خلال ثلاثة أيام . .

فعض ياسين على شفته وقال بحزن :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله . .

ثم جلس وهو يتمتم :

ـ مسكينة ، كان كل شيء مفاجئا ! ألم تشك تعبًا فى الأيام الأخيرة؟

ـ كلا ، إنها لم تعتد الشكوى كما تعلم ، ولكنها كانت تبدو أحيانًا كالمتعبة . .

ـ ليتك عرضتها على الطبيب من قبل !

ـ لم يكن أبغض إلى نفسها من سيرة الطبيب ! . .

وانضم إليهما رضوان بعد حين فقال لكمال :

ـ أرى أن تنقل إلى المستشفى يا عمى !

فقال كمال وهو يهز رأسه فى حزن :

ـ لا داعى إلى ذلك ، وسيرسل الصيدلى ممرضة يعرفها لتحقنها . .

ولاذوا بالصمت والوجوم يعلو وجوههم ، وعند ذاك ذكر كمال أمرا تقتضى المجاملة ألا يهمله فسأل ياسين :

ـ كيف حال كريمة؟ . .

ـ ستلد فى بحر هذا الأسبوع ، أو هذا ما تؤكده الحكيمة .

فتمتم كمال :

ـ ربنا يأخذ بيدها . .

فقال ياسين :

ـ سيخرج الوليد إلى الدنيا وأبوه فى المعتقل . .

ودق الجرس ، فكان القادم رياض قلدس ، وقد استقبله كمال ومضى به إلى حجرة مكتبه ، وفى الطريق إلى الحجرة قال رياض :

ـ سألت عنك فى المدرسة فأخبرنى السكرتير بالخبر ، كيف حالها :

ـ أصيبت بشلل وأخبرنى الطبيب بأنها ستنتهى فى ظرف ثلاثة أيام . .

فوجم رياض وتساءل :

ـ أليس هنالك حيلة ما؟

فهز كمال رأسه يائسًا ، وقال :

ـ لعله من حسن الحظ أنها فى غيبوبة لا تدرى عما ينتظرها شيئًا . .

ثم فى لهجة ساخرة وهما يجلسان :

ـ ولكن هل ندرى نحن عما ينتظرنا شيئًا؟

وابتسم رياض دون أن ينبس، فعاد الآخر يقول:

ـ كثيرون يرون أن من الحكمة أن نتخذ من الموت ذريعة للتفكير فى الموت، والحق أنه يجب أن نتخذ من الموت ذريعة للتفكير فى الحياة . .

فقال رياض باسما:

ـ هذا أفضل فيما أرى، كذلك فلنسأل أنفسنا عند الموت ـ أى موت ـ ماذا صنعنا بحياتنا؟

ـ أما أنا فلم أصنع بحياتى شيئًا، هذا ما كنت أفكر فيه . .

ـ بيد أنك مازلت فى منتصف الطريق! . .

ربما نعم، وربما لا، غير أنه من المستحسن دائمًا أن يتأمل الإنسان ما يراود نفسه من أحلام، على ذلك فالتصوف هروب، كما أن الإيمان السلبى بالعلم هروب، وإذن فلا بد من عمل، ولا بد للعمل من إيمان، والمسألة هى كيف نخلق لأنفسنا إيمانًا جديرًا بالحياة. قال:

ـ حسبتنى قد أديت للحياة واجبها بالإخلاص لمهنتى كمعلم وبكتابة المقالات الفلسفية . .

قال رياض بعطف:

ـ وقد أديت واجبًا بلا شك!

ـ ولكننى عشت معذب الضمير كما ينبغى لكل خائن!

ـ خائن؟!

فتنهد كمال وقال:

ـ دعنى أخبرك بما قال لى أحمد ابن أختى عندما زرته فى سجن القسم قبل نقله إلى المعتقل . .

ـ على فكرة، أما من جديد عنهما؟

ـ لقد رحلا مع كثيرين إلى معتقل الطور . .

فتساءل رياض باسمًا:

ـ الذى يعبد الله والذى لا يعبده؟

ـ يجب أن تعبد الحكومة أولاً كى تعيش مطمئنا . .

ـ على أى حال الاعتقال أخف فى نظرى من المحاكمة!

ـ هذا رأى، ولكن متى تنكشف هذه الغمة؟ متى ترفع الأحكام العرفية؟ متى يعود السلطان إلى القانون الطبيعى والدستور متى يعامل المصريون كالآدميين؟!

فجعل رياض يعبث بخاتم الزواج فى يسراه، ثم قال بحزن:

ـ نعم متى؟ ما علينا، ماذا قال أحمد فى سجن القسم؟

ـ نعم، قال لى إن الحياة عمل وزواج وواجب إنسانى عام، وليست هذه المناسبة للحديث عن واجب الفرد نحو مهنته أو زوجه أما الواجب الإنسانى العام فهو الثورة الأبدية، وما ذلك إلا العمل الدائب على تحقيق إرادة الحياة ممثلة فى تطورها نحو المثل الأعلى . .

فتفكر رياض قليلاً ثم قال:

ـ رأى جميل، ولكنه يتسع لكافة المتناقضات . .

ـ نعم، ولذلك وافقه عليه أخوه ونقيضه عبد المنعم، ولذلك فهمته على أنه دعوة إلى الإيمان أيًا كان مشربه وأيًا كانت غايته، ولذلك فإنى أعلل تعاستى بعذاب الضمير الخليق بكل خائن، قد يبدو يسيرا أن تعيش فى قمقم أنانيتك ولكن من العسير أن تسعد بذلك إذا كنت إنسانًا حقًا . .

فأشرق وجه رياض على رغم كآبة المناسبة وقال:

ـ هذا بشير بانقلاب خطير يوشك أن يقع!

فقال كمال فى حذر:

ـ لا تسخر منى، إن مشكلة الإيمان مازالت قائمة بدون حل، وغاية ما أستطيع أن أعزى به نفسى هو أن المعركة لم تنته، ولن تنتهى ولو لم يبق من عمرى إلا ثلاثة أيام كأمى . .

ثم وهو يتنهد:

ـ أتعلم ماذا قال أيضًا؟ قال: إنى أومن بالحياة وبالناس، وأرى نفسى ملزمًا باتباع مثلهم العليا مادمت أعتقد أنها الحق إذ النكوص عن ذلك جبن وهروب، كما أرى نفسى ملزمًا بالثورة على مثلهم ما أعتقدت أنها باطل إذ النكوص عن ذلك خيانة، وهذا هو معنى الثورة الأبدية!

وجعل رياض ينصت وهو يهز رأسه موافقًا، ثم بدا على كمال الإعياء والضيق فقال رياض:

ـ أنا مضطر إلى الذهاب فما رأيك فى أن تصحبنى إلى محطة الترام لعل المشى يريح أعصابك!

ونهضا معا وغادر الحجرة، وقابلا ياسين عند مدخل الدور الأول ـ وكان على معرفة سطحية برياض ـ فدعاه كمال إلى مصاحبته. غير أنه استأذن منهما دقائق ريثما يلقى نظرة

على أمه، ومضى إلى حجرتها فوجدها كما تركها فى غيبوبة. وكانت خديجة جالسة فى الفراش عند قدميها وقد احمرت عيناها من البكاء، وعلت وجهها الكآبة التى لم تفارقه منذ امتدت يد الحكومة إلى ابنيها، أما زنوبة وعائشة وأم حنفى فقد جلسن على الكنبة صامتات، وكانت عائشة تدخن سيجارة فى سرعة وقلق، على حين راحت عيناها تجولان فى المكان فى اضطراب عصبى، وسألهن:

ـ كيف حالها؟

فأجابت عائشة بصوت مرتفع ينم عن الضيق والاحتجاج:

ـ لا تريد أن تصحو!

وحانت منه التفاتة إلى خديجة فتبادلا نظرة طويلة دلت على تفاهم حزين ويأس مشترك فلم يتمالك إلا أن يغادر الحجرة ويلحق بصاحبيه..

وساروا فى الطريق متمهلين، فقطعوا الصاغة إلى الغورية فى شبه صمت، وعندما بلغوا الصنادقية صادفوا الشيخ متولى عبد الصمد ينحدر منها إلى الغورية متوكئا على عصاه، فى خطوات مخلخلة، وقد كف بصره وارتعشت أطرافه، وكان يتلفت فيما حوله متسائلاً فى صوت مرتفع:

ـ من أين طريق الجنة؟

فأجابه مار وهو يضحك:

ـ أول عطفة على يمينك..

وقال ياسين لرياض قلدس:

ـ أتصدق أن هذا الرجل قد جاوز المائة بما يقرب من عشرة أعوام؟..

فقال رياض باسمًا:

ـ إنه لم يعد رجلا على أى حال..

وكان كمال ينظر نحو الشيخ متولى بعطف، كان يذكر به أباه، وكان يعده معلمًا من معالم الحى كالسبيل القديم وجامع قلاوون وقبو قرمز، ووجد كثيرين وهم يعطفون عليه، غير أن العجوز لم يسلم من شقاوة بعض الغلمان الذين راحوا يصفرون فى وجهه أو يتبعونه محاكين حركاته.

وأوصلا رياض حتى محطة الترام، وانتظر معه حتى ركب، ثم عادا معًا إلى الغورية، وتوقف كمال عن السير فجأة وقال لأخيه:

ـ آن لك أن تذهب إلى القهوة..

فقال ياسين بحدة:

ـ كلا ، سأبقى معك . .

وكان كمال من أعرف الناس بمزاج أخيه ، فقال :

ـ لا داعى إلى ذلك ألبتة . .

فدفعه ياسين أمامه وهو يقول :

ـ إنها أمى كما أنها أمك !

وداخل كمال بغتة شعور بالخوف على ياسين ! حقًا إنه يسير مكتظا بالحياة فى ضخامة الجمل ولكن إلام يحتمل حياته المفعمة بالأهواء ؟ . وطفح فؤاده بالكآبة ، غير أن فكره طار فجأة إلى الطور ، إلى المعتقل . إنى أومن بالحياة والناس ، هكذا قال ، وأرى نفسى ملزمًا باتباع مثلهم العليا ما دمت أعتقد أنها الحق إذا النكوص عن ذلك جبن وهروب ، كما أرى نفسى ملزمًا بالثورة على مثلهم ما أعتقدت أنها باطل إذا النكوص عن ذلك خيانة ! وقد تسأل ما الحق وما الباطل ، ولكن لعل الشك نوع من الهروب كالتصوف والإيمان السلبى بالعلم فهل تستطيع أن تكون مدرسًا مثاليًا وزوجًا مثاليًا وثائرًا أبديًا ؟ !

وعندما مرا بدكان الشرقاوى توقف ياسين وهو يقول :

ـ كلفتنى كريمة بأن أستبضع لها بعض اللوازم للمولود المنتظر . . عن إذنك . .

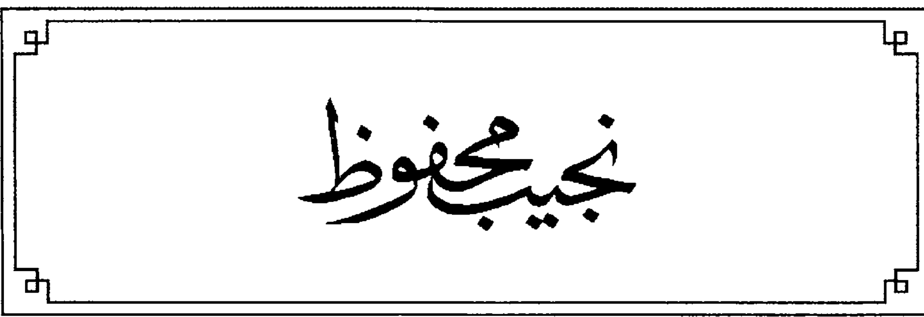
ودخلا الدكان الصغير ، وراح ياسين ينتقى ما يريد من لوازم المولود المنتظر : قماطا وطاقية ومنامة ، وعند ذلك تذكر كمال أن رباط عنقه الأسود الذى استعمله عامًا حدادًا على والده قد استهلك ، وأنه يلزمه آخر جديد ليواجه به اليوم الحزين ، فقال للرجل حين فرغ من ياسين :

ـ رباط عنق أسود من فضلك . .

وتناول كل لفافته ، وغادرا الدكان .

وكان المغيب يقطر سمرة هادئة فمضيا جنبًا إلى جنب نحو البيت . .

(تمـــت)



١ ـ مصر القديمة	ترجمة	١٩٣٢
٢ ـ همس الجنون	مجموعة قصصية	١٩٣٨
٣ ـ عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
٤ ـ رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣
٥ ـ كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤
٦ ـ القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥
٧ ـ خان الخليلى	رواية	١٩٤٦
٨ ـ زقاق المدق	رواية	١٩٤٧
٩ ـ السراب	رواية	١٩٤٨
١٠ ـ بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩
١١ ـ بين القصرين	رواية	١٩٥٦
١٢ ـ قصر الشوق	رواية	١٩٥٧
١٣ ـ السكرية	رواية	١٩٥٧
١٤ ـ اللص والكلاب	رواية	١٩٦١
١٥ ـ السمان والخريف	رواية	١٩٦٢
١٦ ـ دنيا الله	مجموعة قصصية	١٩٦٢
١٧ ـ الطريق	رواية	١٩٦٤
١٨ ـ بيت سيئ السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ ـ الشحاذ	رواية	١٩٦٥
٢٠ ـ ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦
٢١ ـ ميرامار	رواية	١٩٦٧
٢٢ ـ أولاد حارتنا	رواية	١٩٦٧
٢٣ ـ خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ ـ تحت المظلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ ـ حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١

٢٦ ـ شهر العسل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ ـ المرايا	رواية	١٩٧٢
٢٨ ـ الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣
٢٩ ـ الجريمة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ ـ الكرنك	رواية	١٩٧٤
٣١ ـ حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
٣٢ ـ قلب الليل	رواية	١٩٧٥
٣٣ ـ حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
٣٤ ـ الحرافيش	رواية	١٩٧٧
٣٥ ـ الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ ـ الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ ـ عصر الحب	رواية	١٩٨٠
٣٨ ـ أفراح القبة	رواية	١٩٨١
٣٩ ـ ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢
٤٠ ـ رأيت فيما يرى النائم	مجموعة قصصية	١٩٨٢
٤١ ـ الباقى من الزمن ساعة	رواية	١٩٨٢
٤٢ ـ أمام العرش (حوار بين الحكام)	رواية	١٩٨٣
٤٣ ـ رحلة ابن فطومة	رواية	١٩٨٣
٤٤ ـ التنظيم السرى	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٤٥ ـ العائش فى الحقيقة	رواية	١٩٨٥
٤٦ ـ يوم قتل الزعيم	رواية	١٩٨٥
٤٧ ـ حديث الصباح والمساء	رواية	١٩٨٧
٤٨ ـ صباح الورد	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤٩ ـ قشتمر	رواية	١٩٨٨
٥٠ ـ الفجر الكاذب	مجموعة قصصية	١٩٨٨
٥١ ـ أصداء السيرة الذاتية	مجموعة قصصية	١٩٩٥
٥٢ ـ القرار الأخير	مجموعة قصصية	١٩٩٦
٥٣ ـ صدى النسيان	مجموعة قصصية	١٩٩٩
٥٤ ـ فتوة العطوف	مجموعة قصصية	٢٠٠١
٥٥ ـ أحلام فترة النقاهة	مجموعة قصصية	٢٠٠٤
٥٦ ـ المسرحيات	مسرحيات	٢٠٠٦

رقم الإيداع ١٧٥٠٧/ ٢٠٠٦
الترقيم الدولى 8 - 1781 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥(٠١)


6 221102 018227